

32101 072235219



عبد الله جاك منو

وخرج الفرنسيين من مصر

تأليف

دكتور محمد فؤاد شكري

B. A. (Hons), M. A, Ph D.

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب

بجامعة فؤاد الأول

١٩٥٢ - ١٣٧٢ م

يطلب من : مكتبة الخانجي بمصر والمثني ببغداد

مطابع

دار الكتاب العربي بمصر

محمد علي الشاذلي

Abul A'la Mawdudi

عَبْدُ اللَّهِ جَاكُ مِنْهُ
وَمُفْرَجُ الْفَرَنْسِيِّينَ مِنْ مِصْرَ

تأليف

دكتور محمد فؤاد شكري

B. A. (Hons), M. A., Ph. D.

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب

بجامعة فؤاد الأول

١٣٧١هـ - ١٩٥٢م

مطابع
دار الكتاب العربي بصر
محمد علي الشناوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه تسعين . وبعد فقد كتب كثيرون في موضوع الحملة العربية ، وحدثوا عن حاله حاله في سائر جهتهم عن الحملة . ولكن ما نشر عن الحملة العربية أو عن مدو ، سواء بالعربية أو بالعامية ، وحدها لا يروي ظمأ ولا يشفي عطشا لأسباب منها أن هتاف الكتب كان مقتصرا على ما ليس له علاقة بل معنى الفرنسيين ، إلى هذه البلاد ثم حذرهم منها ، وبينهم من وقف الساسي في أوروبا ، وبينهم من أثار باحيه المقاومة الأهلية للحكم الأجنبي ، على أساس أن ظهور حركة قوميه كثيرة في مصر أشد كان مع هذه المقاومة لخدمه ؟ وإما المندوبين وقائع الحملة وسرد قصتها حسب .

وقد كان جمهور الكتب أنه وإن أقصى أوقف الساسي في أوروبا ، بل معنى الحملة ، فإن معاصرة حسيبه كنهه ، ما كان معنى حدوثها ، لولا أنه كان قد رجع في أذهن الفرنسيين وكره . سواء مستعمرات جديدة ، في ميادين جديدة . ووفق مبادئ جديدة ، كي نعوض عنهم ما فقدوه من مستعمراتهم القديمة . وكانت الحملة العربية أول غزوة استعمارية من نوعها قامت على أسس معاصرة تلك التي شادت عليها لدور الاستعمارية في مائة سنة لساعة مستعمراتها . وفصلا عن ذلك فقد كانت أول غزوة للحكم الأجنبي صادفها مصر في القرن التاسع عشر .

وترتب على إلقاء هذه الأعداء ، أن تحدثا من الكتب من المنقص . الحقائق دالة بأصوب هذه المعاصرة الاستعمارية الجديدة ؟ أو التعمق في بحث الانطباع لدى محمد علي في ذهن الشعب المصري هذه ؟ أو استجلاء شطوطه الذي آتت به مقالة الأمور في المستعمر . وضع حرمه على أقصى في هذه التجربة الاستعمارية إلى غايتها ، بعد أن وضع يدها في أصولها .

وبذلك فقد عينا إررار شخصيه مو . الذي اكتشفت في عهده للتاريخ وانظر الاستعمارية الجديدة . وإن كانت لم تنجح الفرصة لتشيدها لأسس داخلية وعملية ، كان هو نفسه وسائر قواد الحملة مسئولين عنها ؟ ولأخرى خارجة ودولية عجلت بخروج الفرنسيين ، وأنقذت الموضع من براثن الأجنبي القاصد

ولقد ائرد فيما علم أحد الكتاب المصريين ، جورج ربحو ، بالكلام عن حكومة سو ومشاريعه في مصر واسكن ربحو م تعرض ، قابل ، و كثير اوقف المصريين من جهود امريسيين لإنشاء معمرهم الجديدة . حرص على إظهار هذه الناحية ، ووضح مدى رد الفعل لدى حدث بين مصر في نتيجة لأصاليب الحياة الجديدة التي شهدوها

ثم إنه لما كان اسحت العلمى ، امره طعة لنلاد ، وموارد ثروتها ، وعادات أهلها ، واريحها ، وكل ما يصل عنه المجتمع مصرى ، من مقصيات هذه التجربة الاستعمارية الجديدة ، فقد استأثرت جهود العلماء الذين يحدوا الحملة بصيب وافر من هذه الدراسة

ولقد يكون قد وهماها اسماء فإذا بدأنا بمصر ، فإني ان لاشك في صيغ لهجة ، وورجين ، وعلام اناسرى ، ليعملوا ما يكون نحن قد نجرنا عن عمله .
وحياتنا لا يدعى إلا أن ذكر الشكر ولقد مر معاونة الأصناف الكرام الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى والأستاذ الدكتور عبد الحليم الجار جامعة فؤاد الأول ، والأستاذ عبد الحميد حسى بمكة سراى عابدين ، والأستاذ محمد اهتمام سيد بمكة جامعة فؤاد الأول ، والأستاذ عبد الحليم محمد عبد الهوى بالدرس ورارة المعارف على معاونة حصرهم الصادقة رجع الفصل في ظهور هذا الكتاب ، والله ولى التوفيق

المؤلف

الطبعة : ١٣٧١ هـ
٢٧ يوليو ١٩٥٢ م

الفصل الأول . فاعحة القول — سيرة متو

الفصل الثاني : فرنسا والشرق

٢١ عهد الإمبراطورية الاستعمارية القديمة ٢٢ الاستعمار بين لقاء والزوال

٢٨ مصر والصالح بركة ٣١ الإغناء نحو مصر ٤٢ الاهتمام من اعتراف

٥٢ الحملة الكبرى ٦٣ تقرير حالة على مصر ٦٧

الفصل الثالث : عزو مصر .

إستيلاء على ملطية ٨٤ الوصول إلى مصر ٨٥ إخماد الثورة ٨٧ حرب

الشمسة ١١٥ رجل نوارث إلى فرنسا ١٣١ كاتر ووي — دة الحملة ١٣٦

تقرير كبير ١٤٥ مفاوضات الصالح وبنعاق أم رش ١٥٧ مو وبنعاق أم رش

١٨٧ استئناف اتصال ومعرفة سوليس ١٩٧ كبير بعد هبوط بواس ٢١١

الفصل الرابع : التجربة الاستعمارية .

٢٢٥ رماح مو وسياسة ٢٢٦ التجربة الاستعمارية (١) الإدارة

والد ٢٣٧ شروع لمعلم ٢٤٦ (٢) اراءه وصناعة والتجارة ٢٤٨

(٣) الحكومة الوطنية ٢٥٨ الدوا ٢٦٠ مو ومراد ٢٧٣ حريه

التنبيه ٢٧٨ المعارضة ضد مو ٢٨٠ خطوة برير ٢٩٧ تثبيت متو في

اتحاد العامة ٣٠٥ حاريت دي فرانس (حريه فرنسا) ٣٢٣ الأمر اليومى

في ٢٣ بليفور ٣٢٦ .

الفصل الخامس : حروب الفرنسيين

تمهيد ٣٣٤ نوارث وحياء البحرية العربيه ٣٣٥ سياسة حكومة الإدارة

٣٤١ حروب روى من حرب ٣٤٧ حكومة الإدارة وتركيا ٣٥٢ وصول

نوارث إلى باريس ٣٥٨ سياسة الفصل الأول ٣٦٠ الإنصال بحش الشرق

٣٦٤ أسطول غانوم ٣٧١ الفصل الأول وتركيا ٣٧٥ مفاوضات لندن

ومهمة أوبو ٣٧٩ سياسة اعتمد ٣٨٩ حملة البحر الأحمر ٣٩٣ حملة البحر

الأبيض ٣٩٩ رول أركرمو في أي قر ٤٠٢ متو في القاهرة ٤١١ معركة

كتاب ٢٨: رحب الاحمد بن احمد ٤٢٣ هـ دار في القاهرة ٤٦ هـ
ارواح ٦٥: احمد بن احمد ٤٧١ هـ دار في القاهرة ٤٦ هـ
البحر ٥٠٧: صوفي في البحر ٥١١ هـ دار في القاهرة ٤٦ هـ

الفصل السادس . في تحريم الاستغناء

عهد (البحرۃ الامم) ۵۴۶ (۱) لأثر الاوصدی ۵۴۸ (ب) لأثر
 الاحمسی ۵۵۲ اوله والذ ۵۵۶ برس لبحرۃ ۵۷۱ مع اخبرته ۵۸۱
 (ج) لأثر لکای ۵۹۲ اوله والذ فی البحرۃ والأثام ۵۹۷ (د) لأثر
 من ۶۱۲ بحرۃ الامم والقصص ۶۱۵ مجموع المعنی ۶۲۴ شاهد الامم ۶۲۸
 خمس روح لویس ۶۳۳ بحرۃ الامم (بحرۃ رشید) ۶۳۴ بحرۃ الامم
 (رحله دن) ۶۳۶ بحرۃ الامم حاکومان ۶۳۹ کتاب وصف مصر ۶۴۳
 نظمۃ الامم ۶۵۲ بحرۃ الامم نوکیر ۶۵۸ بحرۃ الامم لادکاد
 احب من ۶۶۱ منو ورحیل الامم ۶۶۵

الفصل السابع : خاتمة القول نهاية منو

مصادر الكتاب

الحرايط :

١ — خريطة مصر

لہذا حج مذکور ابی اُملاء، نابینوں کی صفہ عن الخرب کی مقرر و اشام
مأخوۃ من ک۔ ب (دتران) طبع ۱۸۴۷ء۔

٢ - خريطة القاهرة ومناحيها .

رسمہ عامہ - اولاد : صاحبزادی ، سجاد علی ، لالہ ابرار ، عمر ، امین ،
وہاب شریفہ صاحبزادی

٣ . حرطه معركة الأهرام في ٢١ يوليو ١٧٩٨ :

ما جوده من كذا الكوويل شارل لاغلو عن هذه العركة طبع مارس ١٨٥٣
الرقم (١) لسان موقع أقسام حتى انقرب من الخفة راحة لاحتراق قلب جيش
البريت ، وقت هجوم هؤلاء على جيش الفرنسيين . رقم (٢) لسان موقع هذه
الأقسام عنها وقت إحاطة امريك عصى الخرب من دبريه ورميه . الرقم (٣)
لسان مواقعهم ، وقت هجوم قسم الخربال من على دبره . الرقم (٤) لسان مواقع
أقسام جيش الفرنسيين وقت انتهاء العركة .

٤ خريطة الاسكندرية (١٨٠١)

مأخوذة من مخطوطة تاريخ مصر في القرن التاسع عشر في مخطوطة ١٨٣٠ - ١٨٣٩

المجلد الثاني لوحة رقم ٢٦٥

مع ملاحظة أن مكان اسم كورسوم (Koursoum) مكتوب بحرف (K) (Kav)

٥ - نسخة من كتاب تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ١٧٩٨

مأخوذة من مخطوطة تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ١٥١

مخطوطة - ونسخ هذه الخريطة كذلك في القرن التاسع عشر في ٢٥ و ١٧٩٩

حرف (A) رمز لموقع الجيش التركي (B) من الرماة (C) رجب الجيش

الفرنسي (D) زوارق مدافع (E) حشيش التركي (F) القنطرة شوية

و ر في المخطط

تصويب

Jeanne de Pèan	صفحة ٢	سطر ١٨	اقرأ
La Vendee	» ٩	» ٢١	»
Tal ien	» ١١	» ٢٥	»
Saint-Pierre de Chemille	» ١٢	» ١٦	»
راس (وكذلك في المصنوعات التالية)	» ١٣	» ٢٥	»
١٧٨٩	» ١٧	» ٩	»
Toussaint	» ١٩	» ٥	»
« حيرال الخنادق » بالسكسر	» ٢٠	» ١	»
Carnet	» ٢٠	هامش (١)	»
تاليدس	» ٢١	س ٥	»
توفيرير	» ٣١	» ٢	»
دراسة الجمع	» ٣٤	» ١٤	»
op ecc — ecci	» ٣٧	هامش (٢)	»
320 . 3	» ٣٩	هامش (٢)	»
Saint — Priest	» ٣٢	س ٢٢	»
و. صاحب - لاطن - مسود	» ٦٣	» ١٨	»
و-هود	» ٦٩	» ٢٥	»
دو حا	» ٧٨	» ٢٢	»
صعب	» ٩١	» ٦	»
أعدائه	» ٩٥	» ٢٥	»
أدام	» ٩٦	» ٩	»
للحكومة	» ٢٢٠	» ١٣	»
و، حا	» ٢٨٢	» ٢١	»
Oakes أو كس	» ٤٠٦	» ٢٢	»
لوروي	» ٦١٦	» ٤	»
ديون	» ٦٢٤	» ٨	»
إيمير	» ٦٢٩	السطر الأخير	اقرأ
في حرة	» ٦٤٩	» ٢٣	اقرأ

الفصل الأول

سيرة منو

ملحة القول :

مد حوالي قرن ونصف من الزمان جاء الفرنسيون إلى هذه البلاد وهم يتوون
شيد صرح مستعمرة « حميلة » تعوضهم عن خسائر الحروب الاستعمارية الطويلة التي
اشتب في القرن الثامن عشر ، فأعدتهم كندا ولورينا وغيرها في أمريكا الشمالية
كما انتهت صياح معظم ممتلكاتهم في الهند ، ولم يبق في حوزهم إلا قليل من حرر
الأثيل في الهند الغربية ، وبعض المراكز التجارية على ساحل الدار ، وعدد ضئيل
من الحرر في المحيط الهندي أمهما : بوربون وموريشوس (أوين دي فرانس) .
وقد عرا الفرنسيون اغلال امراطوريتهم الاستعمارية القديعة إلى أسباب عدة مالت
الغلاسة والمفكرون الذي أقصى ديوخ آرائهم إلى قيام الثورة العربية الكبرى ، أن
كشفوا النقاب عن حقيقتها ، وشرعوا يبحثون الوسائل التي تمكن مواطنهم من
الاحتفاظ بما بقي في حوزهم من الممتلكات القديعة من جهة ، ونعيمهم من جهة أخرى
على اختيار ميدان جديد لإنشاء إمبراطورية استعمارية جديدة ، تقوم على أسس غير تلك
الأسس التي اعتمد عليها نظام الحكم في أملاكهم السابقة ؟ وقد انفتحت كفة أكثر
هؤلاء الغلاسة والمفكرين على أن يكون « الشرق » ذلك الميدان الجديد ، وأن تكون
مصر المستعمرة الناشئة الجديدة . وفي سنة ١٧٩٨ أحدث حكومة بلادهم هذه الآراء ،
وتصارفت عوامل سياسية عدة — أمهما لاقتصاد من الإمبراطور الذي طلبوا ناصر
فرسا العداء في أوروبا — على دفاع هذه الحكومة بإرسال نوبارت على رأس جيش
الشرق إلى مصر لوضع نوا الإمبراطورية الاستعمارية الجديدة . ومن ثم كاس الخلة
الفرنسية على مصر .

بدأت تحركة الاسعمار الفرنسي الحدث على يد نوبارت ، فوضع هذا قواعد الحكم
التي اعتقد أنها حليقة بأن ضمن النجاح لهذه البحرية ؟ وعندما ساء الموقف في أوروبا ؟
وحالت الهزيمة بالجيوش العربية ، واضطر نوبارت إلى مغادرة هذه البلاد في صيف
(١)

عام ١٧٩٩ ، عهد بمواده الحملة العامة إلى الجبال الكبير ، وكان بومارت يرحو أن
يستطيع لقاؤه العام الجديد إتمام ما بدأه هو ، وأن يحفظ السامرة من الصياح ، وأن
يتيح لحكومة الجمهورية في باريس الفرصة حتى يعقد مع أعدائها صلحاً مشرفاً
تستطيع بمضاهي الحصول على مستعمرات أخرى غير مصر ، إذا وجدت لزماً عليها أن
تعيد هذه البلاد إلى السلطان العثماني صاحب السيادة الشرعية عنها من قديم الزمان .
ولكن كبير كان يتعطل الرحيل وإحلاء هذه السامرة الخليفة ، ومع أن مساعدته الأولى
في سبيل إحلالها ما لبثت أن فشل ، فقد ظل يعتقد حتى وقت اعتياله أن اتفاقاً في
مصر أمراً لا حدود له ولا طائل غته . ولا بدري أحد ماذا كانت تؤدي إليه سياسة
كبير لو طالت حياته وحدث ما يترتب استئناف المفاوضات مع العثمانيين والإبحار
وسدحت له مرة أخرى لإيمان انعطفت التي ركها بومارت له عند دهبه إلى
فرسا . وقد كانت هذه التعليقات تنص على الملوك هذه البلاد حتى يغيث موعده عقد
الصلح العام في أوروبا إلا إذا حالت دون ذلك ظروف القاهرة — فصلها بومارت
في تعليقاته —

على أن احتفاء كبير من مسرح السياسة ما لبث أن أسلم مقاليد الإدارة والحكم
في مصر إلى رجل كان يؤمن عراب الحرية الاستعمارية الجديدة ، ويعتقد اعتقاداً
راسخاً أن الملوك هذه البلاد هي النهاية يعود على الوطن بأعظم العوائد ، فما يدعي
أن رغبته على الإحلاء عنها سوى هزيمة ساحقة ساحقة ، أو ظروف سياسية تنتهي بحروب
الفرنسيين من مصر ، لقاء إرام صاحب مشرف يعرض على فرنسا حصاره مستعمراتها
الجديدة في جهات أخرى ، وبشر أنوية السلام العام في أوروبا . ولم يكن هذا الرجل
سوى حاكم فرانسوا دي مو Jacques - François de Menou الذي أخذ على
عاقبه مدح حصوره إلى مصر بدل فصارى جهده لتأييد سياسة بومارت ، فكان رعيم
« الاستعماريين » الذي أقص مصاحبتهم فول كبير و « الكليبيين » المفاوضات بسدد
الحلاء ؛ ولهذا حرص مو ، بعد أن دانت له السلطة وتولى قيادته الحملة العامة بعد
اعتقال كبير ، على تقييد سياسة بومارت ، فنافع عن « استعمرة » ما شاء له جهده
أن ينافع عنها ، بأساليب ، وإن لم يكن أكثرها مطبوعاً لطابع الحكمة أو دلتها بأصالة
الرأي ، فقد كانت كافية لأن تنهض دلتها على أن صاحبها قد وطد الحرم على سعيد
سياسة بومارت ، وعدم التعرض في المستعمره ؛ حتى إن بومارت الذي اضطرت إلى
التحجيل لإرام لصالح مع المختلرا ، عندما تبين له حرج الموقف في مصر ، لم تسعه

سوى إعداؤ الشيء على ذلك الرجل الذى أرغم إرغاماً على تسليم « تلك البلاد المصرية الخليفة » ، وحرمان الجمهورية مستعمرتها الناشئة (١) .

ولم يكن إيمان مو العميق بحاج بحرية الاستعمار العربى فى مصر صادراً عن هوى ، أو نتيجة ميول ورغبات طارئة ، بل تضارعت عوامل عدة على إشعال هذه الجذوة فى نفسه وقامها موفدة ، فقد شب مو وزرع فى أحضان أسرة عريقة عرفت بالنس والإخلاص لعرش ملك ، وكانت تملك أرضاً واسعة لاقى فرنسا وحدها ، بل فى « المستعمرات » البعيدة كذلك . ومالئ مو أن انغمس فى نيل الحياة العامة فى وقت كانت فيه آراء فلاسفة الثورة ومفكرها تتجاوب أصدائها فى أنحاء فرنسا ، فأنس هذه الآراء الحرة الجديدة واعتنق مبادئ « الثورة » من سياسية واقتصادية ، ونعقب فى عدة مناصب أيام الجمعية الأهلية التأسيسية والوزير الوطنى . وقد ترك هذا كله تركاً لا يعنى فى مراعاة الخاص وحلقة الشخصى .

ينتمى حاكم فرسوا دى مو إلى أسرة سلة شأ مؤسسا : جان دى مو فى إقليم Perche بين مقاطعتى مين Maine فى الشمال ونجو Angou فى الجنوب ، ثم ودد إلى بورجن Touraine فاستقر بها ، وم يمضى زمن طويل حتى أصبح فى عام ١٠٥٥ فارساً ، وامتدت أملاك الأسرة على حاشى أحد فروع نهر اللوار فى بلاد بوش Luches اعلى . وفى القرن الثالث عشر استطاعت أسرة مو النبيلة أن تنصير إلى أسرى رتاني Bretagne وأنعو المنسبين إلى البيت الملكى فى فرنسا . وفى عام ١٣٣٨ تزوج بيفولا دى مو من جين دى بيان Jeanne de Pean ، فأنساب هذا برواح إلى أملاك أسرة مو أراضي وقصر بوساى Boussay ، فطلت (بوساى) من ذلك الحين فى حوزة فرع أسرة مو الأكر إلى أواسط القرن الثامن عشر . حتى إذا تزوجت شارلوت دى مو — أمة ريميه شارل الوحيدة — من ابن عمها ريميه فرسوا دى منو فى بدء عام ١٧٤٦ اختلت هذه الأراضي بى فرع الأسرة الأصغر . وفى قصر بوساى ولد اسمها حاكم فرسوا دى مو فى ٣ سبتمبر ١٧٥٠ ، وكان أصغر أسائها الأربعة . وشب حاكم فرسوا فى قصر بوساى وفى السنوات الخمس عشرة الأولى من عمره فى أرض بورجن الخليفة ، مسقط رأس آتائه وأجداده الذين جمعوا ملوك كايه ، وفالوا ، والبربون ، بإخلاص وأمانة ، حتى لقد سمط من أساء الأسرة فى معركة (ملاكية) وحدها فى عام ١٧٠٩ واحد وعشرون من بيت مو بى قبيل

وخرج ، في أثناء حروب الوراثة الأسبانية المعروفة في عهد ملك فرنسا لويس الرابع عشر .

وكان في نوفمبر من هذا العام نفسه أن التحق برئيسه فرسوا دي مو (واهد حاك فرسوا) في خدمة جيش الملك ، وقد أسمر في خدمة لويس الرابع عشر ، وجميده لويس الخامس عشر ، حتى اعتزل الخدمة في عام ١٧٤٨ ، بعد أن ارتقى أعلى المناصب ، ثم توفي في عام ١٧٦٥ تاركاً لأرمته المائة بأولادها

لما رأت السيدة حتى النعق أساؤها الثلاثة اكدار عهدة الملك ؛ أما الآن الرابع . — حاك فرسوا — فقد تطوع في جيش الكونت دي بروفنس Provence ، حميد الملك ، في يناير ١٧٦٦ ؛ وندرج في سلك الحدية حتى رقى ملازماً ثانياً بعد عامين ، ثم ارتقل إلى سلاح الفرسان في عام ١٧٧٣ ، وبقى في العام التالي يورباشا لآلبي اللورين . وفي عام ١٧٧٥ سمحت الفرصة لفرسا لتدغم من عزمها المحترمة ، التي كانت قد أرغمتها في صلح باريس ١٧٦٣ على التحلي سهايا عن مستعمراتها في أمريكا الشمالية . ذلك أن الولايات الثلاث عشرة مالتت "حقى عامت" الثورة على المحترمة ، وشنت حرب الاستقلال في إبريل ١٧٧٥ ، وكان من المظر أن نجد فرسا حيوشها وتعد أساطيلها لتأييد "الأمريكيين" في نضالهم .

وواقع الأمر أن فرسا أبدت أهل الولايات مد إعلاهم اثورة على الإغخير ، وبدقت الأموال على التآمرين ، وتطوع كثيرون من الفرنسيين للخدمة في الجيوش الأمريكية ، وراقت الحكومة الفرنسية تطور الصان بين الحذر والقلق ، حتى إذا أصدر الأمريكيون (إعلان الاستقلال) المنهور في ٤ يولية ١٧٧٦ ثم "حرروا أول أنصارهم الماهرة في سارايوجا في العام التالي (١٧ أكتوبر ١٧٧٧) ، ووصلت أحدر هرة الإغخير إلى باريس في بدء ديسمبر من العام نفسه ، بأدر فرحرت Vergen, es بإبلاغ سدويين الأمريكيين الذين كانوا قد حصروا بطلون محبته فرنسا الرسمية ، أن حكومة الملك على استعداد لعقد هذه المحالفة ، وأبرمت معاهده التحالف الفرنسي الأمريكي فعلا في بداية فبراير عام ١٧٧٨ ، على أساس تبارن فرنسا سهايا عن كندا ، لتضم الولايات الأمريكية إليها كل ما يمكن الاستيلاء عليه في أثناء اتصال من أرض هذه المستعمرة الفرنسية القديمة ؛ وذلك لقاء أن تحصل فرنسا على كل ما تستطيع نواها الاستحواد عليه من حرر الهند الغربية .

وجهرت فرنسا أسطولين أحدهما للعمل في المياه الأمريكية بقيادة داستات D Estaing ، والآخر لإرغام الأسطول الإنجليزي على الغناء محصوراً في الماء الإنجليزية بقيادة دورفيليه D'Orville إلى أمريكا والمهد العربية ، واشتاك (دورفيليه) مع الأسطول الإنجليزي في موقعة (أوشانت) Ushant البحرية ، وكانت معركة عبر حاسمة . وعظمت صعوبات الإبحار عند ما أغلقت أسيايا لربونية وحيدة فرنسا الحرب على انجلترا في عام ١٧٨٠ ، رغبة منها في اسراع حل طارق من قسمة الإبحار . ووصل (جيتس) Guichen أمير البحر الفرنسي إلى حرر المهد العربية يخدم (داسان) في المدة . ثم أغلقت هولادة الحرب على انجلترا في عام ١٧٨٠ ؛ وأرسلت الحكومة الفرنسية مخدمات جديدة إلى المياه الأمريكية بقيادة (دي حراس) De Grasse . واستطاع الأمريكيون بقيادة واشنطن هزيمة الإبحار في (يورك تاون) York town في ١٩ أكتوبر ١٧٨١ ، وكانت من المعارك العاصلة التي أرغمت الإبحار على الاعتراف باستقلال الولايات الأمريكية بعد فترة قصيرة من الزمن . ومع ذلك فقد لازم التوفيق الإبحار في عمليتهم اسخرة ضد الفرنسيين فانصر رودني Rodney أمير أسطولهم على (دي حراس) في مياه المهد العربية في معركة حاسمة في ١٢ إبريل ١٧٨٢ . ووقع (دي حراس) في أسرهم . ومع أن الفرنسيين كانوا يحاولون عرو الشواطئ الإنجليزية بعد أن طمأنوا إلى تفوقهم البحري مؤازرة حلفائهم ضد أساطيل العدو في المياه الإنجليزية ، بعد تمح أسطولهم دائماً الاشتراك مع لإبحار في معارك كبيرة حاسمة ، ولم تسفر هذه المحاولات عن شيء . وما إن عقد الإبحار مع الأمريكيين مخدمات الصلح في ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ ، حتى أرمت فرنسا وأسيايا مخدمات الصلح مع الإبحار كذلك في فبراير ١٧٨٣ ، فوصفت الحرب أوارها ، وتم عقد الصلح نهائياً بين الدول الثلاث في معاهدة فرساي في سبتمبر من العام نفسه .

ذلك كان مدى اشتراك فرنسا في حرب الاستقلال الأمريكية ، ويقول مؤيديه ، ككثيرين غيره من مواطنيه ، قد أسهم في هذه الحرب ؛ ويؤكد اشتراكه في ست حملات عسكرية قبل انهجار بركان الثورة الفرنسية (في عام ١٧٨٩) ، ومن الثابت قطعاً كما جاء في سجل خدمته العسكرية — أنه كان منتقياً بالجيش الراسين شاطئه فرنسا العربي في مقاطعات (أوني) Aunis ، و (بوانو) Poitou ، و (سانتونج) Saintonge ، بين أول مايو ١٧٧٨ و ١٣ يولية ١٧٨٣ ؛ وعلى ذلك

فن المحتمل على ما يظهر أن مو كان بين هيئة أركان الحرب في الجيش للعدامرو
اعطرتا ، ولم تنجح له فرصة الذهاب إلى أمريكا أو إلى حرر الهند الغربية (١)

على أن عدم اشتراك مو في أية عمليات عسكرية رية أو بحرية في العالم الجديد
لم يكن معناه أنه ما كان يُعنى رعاية فائقة تنتج كل ما بحرى من حوادث في أمريكا ،
ثم في حرر الأنبل على وجه الخصوص ، ذلك أن العاطفة الجياحة التي دفعت الفرنسيين
دفعاً إلى مؤامرة الأمريكيين في صلحهم ضد الإغتيال الذي هدموا إمبراطورية فرنسا
الاستعمارية الأولى (أو القديمة) ؟ ثم حملت الفرنسيين يُلقبون بشعب عظيم
على اعتناق تلك المبادئ السياسية والاقتصادية الجديدة التي نُحجّت عنها حركة
الاستقلال الأمريكية ؟ ما كان يمكن أن يسحق مو من قُرّها ، شأنه في ذلك شأن
سائر مواطنيه . بل إن مو كان فصلاً عن ذلك صاحب مصلحة طاهرة في تنجح حوادث
هذا الصلح باهتمام وعناية ، وخصوصاً في حرر الهند الغربية . ذلك أن أسره مو
كانت تمكّك إلى جانب أراضي العبية في إقليم توربي مراوغ واسعة في حررة
سان دومينغو ، وثلاثة مصانع كبيرة لتكرير السكر وعلاوة على ذلك
فقد رُوح أخ له في عام ١٧٨٢ من سيده ذات ثراء . تلك في هذه الجزيرة مصانع
عدة للثمن وحب الفطن وعمل البية ، ولعب ثروتها المقاربة ثلاثة ملايين من
الفرنكات تقريباً (٢) .

وبعد انتهاء حرب الاستقلال الأمريكية ، وجد البارون حاك فرنسا دى مو ،
متسماً من الوقت للإمهاس في تلك الحياة الاجتماعية الترافة ، التي مكّكه مركز أسرته
النبيلة من المشاركة فيها بقط وافر ، فصحت له (الصالونات) أنوارها ، وتعرف إلى
كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه ؛ وناقش مع غيره آراء الفلاسفة والمفكرين ، وكلفته
هذه الحياة نفقات طائلة لم يكن في وسعه أن يقوم بسدادها ، لانتقام كل أملاك الأسرة
في مقاطعة تورين إلى أخيه الأكبر : للاركيه ربيه لويس شارل منذ عام ١٧٧٧
قبضاً مو إلى الاستدانة ، وظل من ذلك الحين يقتصر الأموال دون حساب . كما ظل
يشقى دون حساب .

وكان من السهل على (البارون مو) وقد أُلِفَ عيشة البذخ والترف ، وقضاء

أوقات فراغه مترددا على الصلوات والأدعية ، التي انتشرت في أنحاء العاصمة وأكثر المدن في السنوات التي سبقت اندلاع حرب الثورة ، أن يجتمع بعض كبار القوم من أصحاب التحارب السياسية الواسعة ، فيكتب من محالطهم معرفة وحرية ، كما كان من السهل عليه أن يفتش في حرية وتسامح عظيمين تلك الآراء التي نادى بها فلاسفة الثورة ومعكروها الاقتصاديون خاصة ، ومن ثم انعقدت أوامر الصداقة بين مو شواريل حوفيه Choiseul - Gouffier ، الذي خلف سانت ريبست Saint - Priest في سفارة القسطنطينية منذ ديسمبر ١٧٨٤ ، وكاتب له آراء معروفة عن الوسائل التي يجب اتخاذها إذا أرادت فرنسا المحافظة على سلامة تركيا ، بدلا من مشاركة النمسا وروسيا ورائة إمبراطوريتها .

وقد أشرف على المفاوضات التي قام بها الوكلاء والسدوبون الفرنسيون في مصر ، امدها بالقوات بحرية مع السكواب الهالك ، مع الأذى عن التحارب الفرنسيين ، وبعد على دعم العلاقات التجارية بين فرنسا ومصر وتوسط الليجات وشواطئ البحر الأحمر ^(١) ، تلك المهام التي أسفرت عنها نجاح شارل محالون أحد انصار الفرنسيين انقادى في مصر ، ثم رحوبه Truguet مدوب شواريل حوفيه ، في عقد معاهدة تجارية مع مراد بك في عام ١٧٨٥ على نحو ما سيأتي ذكره في موضعه

وليس من شك في أن مو استطاع أن يفتح من صدقه شواريل حوفيه على حقيقة ذلك الصعب الذي حدد بوال الإمبراطورية العثمانية ، كما عرفه من أشياء كثير عما كان يجري داخل أملاك هذه الإمبراطورية ، وخاصة في اليونان — وكان شواريل حوفيه قد رار هذه البلاد وشركتها عن رحلته فيها — ثم عن رحلته في مصر ، وقد استطاع شواريل حوفيه بحكم منصبه في سفارة القسطنطينية أن يقدم لصدقه مو صورة واضحة عن اضطراب الأحوال في الدار المصرية والفوضى المنتشرة في أعينها وما تلاقه التجارة الفرنسية من عت وهرق على أيدي بكواتها ولم يكن عتاداء مو فيما بعد في خطاب له إلى روبل Rewbelle ، عضو حكومة الإدارة في ٥ أكتوبر ١٧٩٨ ، أنه قد بدأ من زمن طويل يحى بشئون السياسة ويهتم بدراسة مسائلها ^(٢) .

وفصلا عن ذلك فقد راقب مو عن كثب تطور الحوادث في داخل فرنسا ذاتها ، بعد مساعد اشتراك حكومتها في حرب الاستقلال الأمريكي على إقصاء حرائتها من المال ،

Charles - Roux. Les Origines 111 - 112 147 et Sqq (١)

Rigault. 33, et Note 7 (٢)

وأقصى هذا الأبحاث إلى زيادة سوء الأحوال الاقتصادية بالبلاد ، وداق الشعب الفرنسي حراره الصلث وبؤس العيش ، وأقصى ذلك كله إلى ديوغ آراء الفلاسفة والمصلحين الاقتصاديين الأحرار الذين عرفوا باسم (الفيرتوكرات) Phystocrats ، وهم الذين ادوا بالد ، انصرائ الكثرة والإناباب للرهقة ، والاستعاعة عنها نصرية واحدة هي صربة الأرض ، على اعتبار أن الأرض مصدر الثروة الطبيعة .

آمن مو هذه الآراء الاقتصادية ، كما آمن بآراء المصلحين السياسيين الذين رعوها في تبييد سلطة الملكية المطلقة ، وسهل عليه بعد ذلك ، عندما اشتد ارتباك الملكية ، واضطرت إلى دعوة مجلس طغاف الأمة للاعتماد في فرساي في ٥ مايو ١٧٨٩ ، أن يظهر سميل « سلاء » تورج ، موطن أسرة دي مو بوصفه عضواً من أعضاء صفة الأشراف في هذا المجلس . ثم مال إلى أن انضم إلى جانب من انضم من الأشراف ورجال الدين إلى « طبعة العامة » ممثلي الشعب الذين قرروا الانعقاد عن الطمقتين الآخرين ، وتأسس « الجمعية الأهلية » في ١٧ يوسه ، ثم شرعوا على الفور بطرون في وضع نظام للحكومة وإصلاح المساويء التي صحت انسلاد منها . ولم يمع مو في حياته « الثورة » الجديدة بالوقوف موقف التفرح ، بل أرمع أن يسهم بنصيب وافر في هذه الحركة « الإصلاحية » العظيمة ، وأحار إلى المطربين من الجعافة الذين تأقت موسهم إلى إقامة الجمهورية ، لانضم إلى علاة المتطربين من أعضاء نادي ريتون Breton الثوري وكان على رأس هؤلاء ثلاثة من الرجال الذين عرفوا بالعب واشدة هم بارناف Barnave ، وديورت Duport ، ولانيت Lameth . ووجد مو فرصة موانية لإظهار « مواهه » وعرض آرائه الإصلاحية التي استعدها من حرته السابقة أيام حرب الاستقلال الأمريكي وإحلاطه رجال السياسة والقلم ، عند ما شرعت الجمعية الأهلية (التأسيسية) تحت حقوق الإنسان وتضع دستوراً للحكم الجديد . وفي ٢٧ أغسطس صدر (إعلان حقوق الإنسان) وصحب مو انوفد الذي ذهب بعد ذلك لقابلة الملك لويس السادس عشر في ٥ أكتوبر ١٧٨٩ ، بطلب منه الموافقة على إعلان هذه الحقوق . وظهر كأنما استطاع مو أن يكسب نفسه الجمعية الأهلية التأسيسية ، فانتخبه الأعضاء سكرتيراً لها في ٥ ديسمبر من العام نفسه .

وعند ما قررت الجمعية بيع أملاك الكنيسة بعد أسبوعين من ذلك التاريخ انتخب مو مندوباً للإشراف على هذه العملية في ٢٧ مارس ١٧٩٠ . وفي اليوم التالي انتخب رئيساً للجمعية الأهلية ، واتمت دائرة نشاطه قصار في ٢٧ إبريل من العام نفسه

معتشاً لحسابات اللجن المختلفة التي شكلتها الجمعية . وصلا عن ذلك فقد كات له اقتراحات معينة بشأن التوحيد العام ، بوصفه أحد أعضاء اللجنة الخيرية ؛ ثم عهد إليه « استأروه عضوا في اللجنة السياسية بأن يبحث مع زميله ميرابو Mirabeau عضو هذه اللجنة كذلك ، مسألة (أفيدون) Avignon . وقد كات هذه المدينة لمصم مع أراضي فيسيان Venaissan المجاورة لها لسلطان البابا منذ القرن الرابع عشر . وحكمها النوات من رومة العيدة حكما صالحا طياً ، ولكن الاضطرابات التي حدثت في فرنسا قبل انعقاد مجلس طقات الأمة ما لشت حتى تحملت أفيدون كذلك في مارس ١٧٨٩ م . ومن ثم بدأ (الحرب الفرنسي) بأفيدون وهو الحرب الذي كان يسمى الاتحاد مع فرنسا عمل لحريك الثورة الجائعة . وفي ١٢ يونيو ١٧٩٠ أعلن أهل أفيدون رغبتهم في الاندماج مع فرنسا وألغوا الجمعية (الأهلية) التأسيسية هذه الرعة واصطرت الجمعية التأسيسية بعد حوادث دامية إلى إرسال لجنة إلى أفيدون لدراسة هذه المسألة ، وكان ساء على تمرر مو وميرابو أن قررت الجمعية التأسيسية في ١٣ سبتمبر ١٧٩١ ضم أفيدون وبيسان إلى فرنسا . وهكذا كان مو أيام هذه الجمعية تأسيسية من أعظم أعصاتها نشاطا ، يلج اسمه بين جماعة « الدستوريين » في الجمعية الذين وإن تمسكوا بظهر الملكية وصورتها ، فقد أرادوا تأسيس الدولة الجديدة على قواعد تكفل سيادة الشعب والمساواة بين أفرادها .

ولم تكد الجمعية الأهلية التأسيسية تحل وتقوم على نقاصها الجمعية التشريعية مدون أكتوبر ١٧٩١ حتى استأنف مو حياته العسكرية فتولى قيادة أحد آلات مرسا في ٢١ أكتوبر ، ثم رقى في ٨ ما ومن العام التالي أمير بواء ، وفي أثناء ذلك كات حكومة الجمعية التشريعية قد أعدت الحرب على النمسا منذ ابريل ١٧٩٢ ، واشتد الهياج ضد الملك ، وبدأت الاضطرابات في لاندیه La Vendée وغيرها من المقاطعات التي عرف أهلها بشدة ولائهم للملكية والكيسة ، وانحارت روسيا إلى جانب النمسا ، فأصدر الدوق ترزوبك قائد حيوشا بلاعه المعروف مهدد باريس بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا لحق أي أدى بالملك (٢٧ يولي ١٧٩٢) . وهاجم الشعب الهائخ تحريش من العاقبة المنتظرين صمر التويري ، ثم كرروا الهجوم على القصر مره ثانية في ١٠ أغسطس المشهور في تاريخ الثورة الفرنسية ؛ واعتمد المنتظرون على مو وقواته ، وكان مكلفاً مع حده « بالدفاع » عن هذا القسم من نارس الذي حرب فيه حوادث ١٠ أغسطس ، ولكن مو على ما يبدو لم يظهر

نشاطاً كافياً في هذا اليوم فاتهم بالولاء للملكية ومع أنه استطاع أن يدفع عن نفسه هذه التهمة ، فقد ظل موضع شك لدى المنتظرين وعلى ذلك فقد عهد هؤلاء عند اجتماع فاؤمر انطوى الذي شكل عند اعلان الجمعية التشريعية في ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ إلى تعطيل مساعي مو ، الذي رغب في ملء منصب وزير الحرية ، بل وبقي مو بعد ذلك مدة متعطلاً حتى اضطر إلى كتابة خطاب إلى اللواتن باش Pache وزير الحرية الجديد ، يذكر فيه ما يدل من تفضيلات أمام الطغيان والاستبداد السابق ويعدد خدماته اعنى في عهد الجمعية الأهلية المناسبة إذ كان دائماً يؤيد مصالح الشعب ، ويعمل على تحويل دعائم الارستقراطية ، كما قصت جهوده إلى ضم أفيديون إلى أرض الوطن ، ثم اختتم هذه الرسالة قائلا : « إن حاك مو اسى قصى سبعا وعشرين سنة في الخدمة العسكرية والذي بدأ حياته حدياً صبراً » ثم ترقى في ذلك العسكري حتى بلغ رتبة أمير لواء بحكم الأقدمية ، يطلب الآن استعداده في أحد جيوش الدولة ، وهو يقدم بهذا الطلب إنما يحرص على انطوى حياته ، أى كل ما بقي له وصار يملكه بعد أن حوى في سبيل الحرية بكل شيء . الأسره والثروة والأصدقاء . . وكان مو يطلب إعادته عيش من الجيوش التي كان أحد شعائنه لارال محارب في صفوفها لصلال العدو الراحف على الحدود الفرنسية (١) .

وبما كانت أسرة مو قد بقيت في (بوساي) دون أن يخرج أحد من أفرادها مع أولئك « المهاجرين » الذين عذبوا انبلاد عند ثوب اشورة ، وصاروا يؤاؤون الدول ضد الوطن ، فقد استحب وزير الحرية لدمائه . ولكن بدلاً من إرساله إلى ميدان القتال على الحدود العربية ألحق بال جيش العامل في شواطئ لاروشيل ، أى في تلك الأقاليم العربية التي سبق لشو الخدمة في الجيش المرابط بها قبل اشتعال الثورة . وفي هذه المرة أرسل مو لإحجاد الاضطرابات العيفة التي آثارها (المنكيون) في قسم لافنديه بجوع خاص . وكان في هذا اللدان « المهاجرين » أن رقى مو إلى رتبة (فريق) (General de Division) في ١٥ مايو ١٧٩٣ .

غير أن مو الذي لم يصر عنه أنه اشترك في أية معركة من المعارك العسكرية وكان قد رقى إلى رتبة أمير اللواء (بحكم الأقدمية) على حد قوله هو نفسه ، سرعان ما ظهر بغيره ، ووصف بـ « ذرائع بصون الحرب والقتال عندما فشل في إحجاد ثورة لافنديه » وألحق الثوار (المنكيون) بحيشه هزائم فادحة .

ذلك أن الاضطرابات التي كانت قد انتشرت في « العرب » من شهر ساعة ما لبثت أن اشتدت وطأتها منذ استيلاء ثوار لافدييه على مدينة طوار Thours المحصنة ، وافتح الطريق إلى بلدة سومير Salimur الواقعة على نهر اللوار وعلى حدود إقليم تورن مسقط رأس أسره مو .

ثم أحرر الثوار بصراً آخر في الحبوب عندما هزموا جيش « الجمهوريين » في فونتناي Fontenay ثم مدن لافدييه « وعاصمتها » وسقطت المدينة بأيديهم واستطاعوا بعد ذلك أن يحولوا كل شخصهم لاستئناف العمليات العسكرية في الشمال ، زحف صوب اللوار ، وشن الهجوم على سومير .

وفي ١٠ نويه سنة ١٧٩٣ — أي بعد أقل من شهر من رقية مو الأخيرة — هوجمت سومير هجوماً دلي على المهارة في فنون الحرب ولقتال ، وفتحت المدسة أبوابها للثوار . وكان هذا الجناح الذي يمكن الثوار من الانتشار على صعيد نهر اللوار ذا آثار خطيرة ، ذلك أن هؤلاء سرعان ما قرروا بحربك الثورة في أقاصم رمانى وورماندى ومين Maine ، وهي أقاصم كانت قد بدت تظهر فيها العائلق والاضطرابات ، حتى إذا شنت الثورة اغامحة مها زحف ثوار لافدييه على باريس ذاتها ، واستطاعوا القضاء على الجمهورية . . وكان هذا مشروعا خطيراً ، وكاد الثوار يبحسون في تحقيق أغراضهم .

على أن أحوار هزيمة سومير لم يمكن فصل إلى باريس حتى يادر المؤتمر الوطنى باستدعاء مو ، وطلب إليه الحضور إلى باريس في التو والساعة ، وما كان يشك إسان في أن هذا القرار كان بمثابة إصدار حكم الإعدام على قائد سومير المتجادل ولكن التوفيق لازم مو في هذه المرة . وهب لحدثه فريق من أولئك الأصدقاء والزلاء القدماء ، الذين ولد مو معهم أو أواخر الصداقة أيام الحمية (الأهلية) التأسيبية وبعدها ، عندما كان من أهم صفات مو أنه رحل (الصالوات) في العهد القديم ، ورحل الأديبة (والتهادوى) في عهد الثورة . عرف كيف يدبر الحدث صداقة تستميل إليه قلوب سامعيه وعذب انتباههم . فابرى الآن كثيرون من هؤلاء الأصدقاء يدافعون عنه ، فأكد له (تاليان) Tallian في ٣١ يونيه أنه لن يدخر وسعاً في الدفاع عنه وتبرئة ساحته ، وكان (تاليان) من رجال القانون ، وأحد أولئك الذين عملوا على التخلص من رواسير وتقدمه إلى للقصة والعصاة على عهد الإرهاب في فرنسا . وفصلا عن ذلك فقد جاء تاليان مع الحملة الفرنسية إلى مصر فيما بعد ، ثم ما لبث أن أصبح من

أخطر انطراضين لموضع ، عندما تولى قيادة الحملة العامة ضد مقتل كبير وامرى -
 عدا دايان - آخرون مدافعون عن مو عندما دعى لتفسير أسباب هزيمته ، ودفع
 تهمة تواطئه مع العدو ، وبخاصة عندما كان المؤتمر الوطنى مدارال يذكر تلك الشبهات
 التى حامت حول مو بسبب تفكيره فى تأييد نوار مارس ، أثناء حوادث يوم ١٠
 أغسطس . فمقر بودين Bodin وبوربورت Bourbott ورويل Ruelle مع تاليان
 فى الدفاع عن مو ؛ وشهد فى ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٣ محنة من أعضاء المؤتمر الوطنى
 الآخرين ، هم شودنو Choudieu ، ريشارد Richard ، حويللو دى فونسيى
 Goupi leau de Fontenay ، داندنيه Dandenai (الصمبر) ، بأن مو وإن كان
 قد اهتم فى موقعة سومير ؛ فقد كفر عن أخطائه بصل مادته من نشاط عظيم قبل
 ذلك فى خدمة الوطن ؛ ولا شك فى أن تلك الحجج التى أضافته فى ميدان الشرف
 والفجار ، من شأنها أن تحوكل وسعة قد يلحقها ، انتسابه إلى أسيرة عن الأسر
 النبيلة القديمة . وأما إذا ردت الجيش فإنه سوف يشيع بالاحترام العميق وهو حائر
 لثقتهم وأخيراً شهد (تلو) Talot نائب إقليم (ماس ووار) فى المجلس بأن مو
 كان يظهر فى كل المناسبات صرواً من الهزء العسكرية التى بدل على القدرة العظيمة ،
 وشجاعة تموق كل وصف ، بل إن مو قد دافع بسالة ماعدها سالة فى معارك
 (سانت بى دى شيل) Saint - Pierre de Chamille (سومير) ، وإن كان قد حانه
 الحظ وأدركته الهزيمة فى المعركة الأخيرة .

وأمام هذا الدفاع الحار الذى تخرج به أصدقاؤه لم يجد المؤتمر الوطنى ماصا من
 تبرئه مو ؛ ثم طلب مو أن يؤذن له بالاسمحاح إلى (بوساي) حتى يعيش كما قال إلى
 صاحب أحيه « يحرق الأرض ويملأها ويبارك ما امتد به الأحول تلك (الثورة) الحيدة
 التى بشرت لواء الحرية على أرض الوطن » ولكنه لم يجب إلى طلبه ، ذلك أن (بوساي)
 كانت قرية من مبدى العمليات العسكرية ضد ثورة لافيتيه ؛ وانتهى الأمر بإحراق مو
 من خدمة الجيش العامل فى ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٤ ومع ذلك فإنه ما أقصت شهور
 قليلة حتى كان قد خرج من عرته وأعيد إلى الخدمة فى الجيش مرة أخرى . ذلك أن
 التحلص من روبيسير ، والقضاء على عهد الإرهاب ، سرعان ما أفسح الطريق أمام
 أصدقاء مو ، وعلى رأسهم تاليان ، لتولى زمام السلطة فى المؤتمر الوطنى بفضل ما حدث
 من رد فعل شديد بعد انتهاء عهد الإرهاب ، وقور دعاء الأمن والنظام على الثوريين
 المتطرفين من أمثال روبيسير وسياسه . ووجد مو فى تاليان وأصدقائه القدماء حيز
 من يسامونه على استئناف نشاطه فى خدمة للصحة العامة ، فألحق فى بادى الأمر

محيش الألب ثم أرسل للخدمة في أميان ، بعدها في لون ؟ وحرص منو في أثناء ذلك كله على إظهار إخلاصه لأصحاب السيطرة في المؤتمر الوطني ، ثم أتيت لنو الفرصة للدفاع عن الذين لم ترهم « رحمة » المؤتمر أو إخراجهم التي أعدها في سبيل المحافظة على الأمن والطمأنينة ولقضاء على أعداء الجمهورية في داخل فرنسا ذاتها ، حركوا الثورة في باريس ضد المؤتمر الوطني ؛ وتدفع الجماهير تقسم داره نارة ، وتصرب عليها بطلاقا من الحصار نارة أخرى ، يطلون الحمر والملك ، أو الحمر ودستور ١٧٩٣ ؛ كما حطب الثوار طرد الحكومة ، ولم يجد المؤتمر الوطني ماسا من الالتجاء إلى الثورة لإخماد الثورة . ولكن ألكسيس دىوا Alex: Dubois ، ومن بعده الجبرال كيلين Kilmaire للذين عهد إليهما المؤتمر بتعميق الثوار ، سرعان ما فشل في مهمتهما . وعندئذ عهد المؤتمر إلى الجبرال منو بالاطاع عنه . وفي ٢١ مايو سنة ١٧٩٥ عجم منو في تشتيت الثوار وإنقاذ المؤتمر ، فكوفي على ما أظهره من شجاعة تميمه فأنشأ على للجيش الداخلي^(١) . واتفق المؤتمر أنه في وسعه الاعتماد على جيش منو لمح كل اضطراب قد يحدث بعد ذلك . ولكن الخط الذي خالف منو في حوادث ٢١ مايو لم يلبث أن نهي عنه عندما استؤممت الثورة وعقد هجوم الجماهير على المؤتمر .

وكان السبب في هذه الثورة الجديدة ذلك الدستور ، الذي فرع المؤتمر من وصيه لتأسيس نظام الحكم على نحو يكفل حينئذ لأعضاء المؤتمر في هيئات الحكومة الجديدة التي عرفت باسم حكومة الإدارة . فأنار هذا العمل حقيقة المعارضين . سواء أ كانوا من الملكيين أم من الإبراهيميين ، واشتعلت الثورة في باريس يوم ٤ أكتوبر ١٧٩٥ ، احتشد جموع الجماهير الصاحبة نعى المحكوم على المؤتمر ، ولقيت تأييدا ومؤازرة من جانب (الحرس الوطني) ، الذي انضم منه ثلاثون ألفا تقريبا إلى صفوف الثوار ، فعهد المؤتمر بمهمة الدفاع عنه إلى الجبرال منو ، غير أنها كانت دون ريب مهمة حسنة ، لم يجد منو في وسعه الشجاعة الكافية لمواجهتها . وعلى ذلك فإنه بدلا من مقابلة الثوار بالرصاصة وبالدفع ، فصل رُ بنجد حصة الإجماع والجدل معهم . وحرص منو على إظهار شديده ، فأسرع جبرال منو في مساء اليوم نفسه ، وعين بدلا منه لجره من حمه أعضاء ، كان (تر) Barras واحداً منهم ، للمحافظة على الأمن واستطام . ووجد ماراس أن خبر من يوم هذه المهمة صاغط شاب ، كانت قد حامت هوله انطبون والشبهات بسبب صلابه رغم الإرهاب روسبيير ، وحرصته وزارة الحرب

وطريقته ، ولكنه ظل متعباً إلى جماعة باريس في العاصمة ، وحائراً ثقته ؛ ذلك الصابط الشاب هو نابليون بونابرت الذي طلب منه برآ الآن أن يقدر المؤتمر . وكان بونابرت قد أبدى اهتماماً عظيماً بمرافعة ما حدث من وقائع في اليوم السابق ، صد أن خرج من على رأس جيشه لإخماد الثورة ، فتح قواته من الاشتباك مع حشود الغدير الصغيرة ، وقوت الحرس الوطني ، ثم اضطراه إلى الانسحاب بعد أن فشل في « مفاوضاته » مع رعيه الثورة ، ثم سمع بونابرت صيحات النصر التي تجاوزت أسوارها في كل شوارع باريس عندما اعتقد الثوار والحرس الوطني أن القضاء على المؤتمر قد بات أمراً مؤكداً ، فخرج بونابرت إلى قصر التويلري وشهد جلسة المؤتمر التي تعقد فيها عزل مو ، وتأليف لجنة براتني سبق ذكرها ، وكان بونابرت لا يزال في شرفة المجلس يشهد ما يدور من مناقشات عندما وقف بارا . وقد تذكر الآن أن في وسعه أن يحدد هذه المهمة إلى بونابرت الذي عرفه في طولون عندما قصى على أعداء اليمانية — وحصل المدينة من قسطنطين (ديسمبر ١٧٩٣) فصرى على المؤتمر تكليف بونابرت بإخماد الثورة فوافق المؤتمر

وقضى بونابرت ليل ٤ — ٥ أكتوبر بيطم الدفاع عن انويلري ، وكان أول مدافعه إليه إحصار تلك المدافع التي تركها (الحرس الأهلى) في محاربه ودون أن يعطى إلى ضرورة استخدامها إذا شاء أن يكون النصر فى حايه ، فأحصر (مورا) Murat هذه المدافع إلى باريس من محاربا فى (سانلون) sabons التي كانت بعد عن باريس مسافة خمسة أميال تقريباً ، فى صبيحة اليوم التالى (٥ أكتوبر) ، ويطم بونابرت خطة الدفاع عن المؤتمر بصورة مكنته من رد هجوم الثوار على قصر التويلري مقر اجتماع المؤتمر عندما بدأ هؤلاء عازتهم بعد ظهر اليوم نفسه ، فأطلق بونابرت مدافعه عليهم فلم يمض ساعة واحدة حتى كان قد تشتت شملهم ، ثم صت محمده إلى الشوارع والأكره يجمعون السلاح من الأهالى ويعرقون أية جموع قد تحتشد من جديد فى أنحاء العاصمة ، وهكذا أهد بونابرت المؤتمر

وكان من الطبيعى أن يحق المؤتمر على مو ، ويقدمه لمحاكمة لتقصيره «وحياته» فانهم (بولته) Poë tier فى قاعة المجلس بعد يومين بأنه أظهر صعباً وحسباً ، ولحاً إلى المنة «وإدال الرأى» بدلا من أن يسلط يراى مدافعه على الثوار ، واستمرت الاتهامات توجه إلى مو فى الأيام التالية ، ووصف (بر١) فى المجلس (فى ٢٢ أكتوبر) يهراً بمو ويوسط للأعضاء ما حدث قبل أن يحجج بونابرت فى إخماد الثورة فقال :

« لقد اسدعت اللجنة الخامية قائد الجيش الداخلي الأعلى ، فحضر معه عدد من هيئة أركان حربه ، وأحاط على سؤال اللجنة بالهجة سم عن الصلف الذي غير الصراط الذي حرموا الملكية ، ولقد عدت أن أسلحة تعطي لكل قطاع انطرق لتسليحهم ، هكذا أيها السادة بصف هؤلاء اطعاه جماهير الجمهوريين ونصار الجمهورية ، بل إن مو عالث حتى أعني أنه لا يريد أن يرى تحت إمرته أو في صفوف جيشه شرادم من الأتقياء المعهرة ، والأشرار القليلة ، الذين اسظمهم انفرق الوطنية في عام ١٧٨٩ » .

وقد أسمرت هذه الاتهامات عن تقديم مو للمحاكمة ، وتوقع كثيرون أن تطيح بمفصلة رأسه .

ولكن حدث في هذا الوقت الصعب أن تقدم بونابرت رجل ه أكتور يطلب الصمخ عن مو ، وكان من أقوال بونابرت أنه مادام قد قصي على الثورة فلا داعي الآن لإزال العقوبة بأحد ، وأن من الحكمة إسداء ستار من السيان على كل هذه الحوادث . وما كان في استطاعة المؤتمر الوطني أن يرفض رجاء تقدم به الرجل الذي أنفذه ، وعلى ذلك فقد برئت ساحة مو ؛ وحفظ مو هذا الجلب لبونابرت طيلة حياته .

وكان هذا الحادث سببا في عقد واصر الصداقة بين الرجلين ، فقد استطاع مو بحصل لياقته وما انصف به من حسن المعاشرة أن يسجل بونابرت إليه ويكسب وده ، غير أنه كان من أثر هذه الحوادث كذلك أن حل مو منعطلا مدة طويلة من وقت تربيته في ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٥ إلى وقت اسدعته بونابرت له ليضم إلى الجيش المحتشد على شواطئ اسحر الأبيض في ٦ مايو سنة ١٧٩٨ . وقد قصي مو كل هذه المدة يبحث عن عمل دون جدوى .

صحيح أن مو كان قد وفق إلى استصدار أمر من حكومة الإدارة التي قامت على أنفاس المؤتمر الوطني منذ ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، بأن يعهد إليه بقيادة القسم الثالث عشر من جيش الجمهورية في شهر يوليو سنة ١٧٩٧ ، ولكن هذا الأمر سرعان ما ألغى بعد أسابيع قليلة وكان سبب الإلغاء أن مو أحقق في هذه المرة كذلك ، في المهمة التي كلف بالقيام بها يوم انقلاب ١٨ فركثيدور المشهور ، فقط رعب ثلاثة من أعضاء حكومة الإدارة هم روميل ، وبارا ، لاريفيلير ليو La Réverniere Lepeau أن يحدوا انقلاباً يمكنهم من الاستئثار بكل سلطة دون رئيسهم الآخرين بارتلمي Barthélemy وكار و Carnot ، ويكمل لهم التحصن من معارضهم في مجلس الشيوخ والخمسة ، وطلبوا إلى بونابرت تعيد هذه الخطة التي حددوا لها يوم ٤ سبتمبر ١٧٩٧

(١٨) فركتيدور من السنة الخامسة الجمهورية) ، غير أن نوبارت ، الذي رفض أن يشترك في حوادث هذا اليوم ، حاولت أن ترسل الجيران أوجيرو Augereau ليتولى القيادة في باريس ، واعتمد (أوجيرو) على معاونة سائر القواد لمج حيش كبير محاصر به قصر التويلري .

وكان مو أحد الذين عهد إليهم بضم قواته إلى هذا القائد ، ولكن مو - حريا على عادته - لم يشأ الاشتراك في هذه الحوادث العنيفة ، فلم يظهر في ذلك اليوم إلا حوالي الساعة الحادية عشرة ، وكانت دعواه التي رر بها هذا التلكؤ أنه لم يعرف شيئاً عن حوادث ذلك اليوم إلا في الساعة صباحاً ، ولما كان يقطن في مكان بعيد فإنه لم يستطع الوصول إلى المكان الذي كان به الجيران أوجيرو إلا بعد ساعة ونصف وكان من أثر ذلك أنه لم يكذب بتب الأمر لرول وصاحبه حتى نادرت حكومة الإدارة ببعاده تعيين مو السابق في الحيش في ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٧^(١) فعاد إلى التعلل مرة أخرى .

وفي اشهور التالية لقي مو كل عت وإرهاق ، فإنه ما كان قد اعتاد الإسراف والتدبر ، ولم يعير تطله شيئاً من أسلوب حياته « الصححة » ، بل ظل يتردد على المجتمعات والأندية ، ويقعد أواخر الصداقة مع الشابات الجميلات ، فقد اضطر إلى الاستدانة تارة ، وإلى سعي ما سبق له من بعض المملكات أو التفتيت التي ورثها تارة أخرى ، وفصل عن ذلك فقد كان كما أرغمه ولا شك في عمر أوقات « نشاطه الاجتماعي » « ومخونه » أن أعداء صاروا يوجهون إليه اتهامات كثيرة ، بسبب مواقفه « في أيام الثورة » المعروفة ، سواء في يوم ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ ، أو في يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، أو في يوم ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧ . . وريادة على ذلك فقد أعداؤه سبوا آخر لإثارة الشكوك حول إخلاصه للجمهورية ، والظن في كعادته العسكرية . إذ كان معروفاً أن مو لم يشترك في تلك المعارك العنيفة التي حاصرت جيوش الثورة عمارها لدهم العدو عن حدود الوطن ، وأنه قضى الوقت بدلاً من ذلك في إخماد ثورة « الفلاحين » في لافندي ، ولم ينس الناس هزيمته في (سومير) بل ظلوا يعيروه بها . على أن مو سرعان ما وُجد ما يشغله ، عندما اضطر إلى التفكير في شئون الأسره ، ذلك بأن الاخطرابات كانت قد بدأت في حريره سان دومينو حيث كان

الاستمررة - على نحو ما تقدم القول - بممتلكات كثيرة ، أصبحت الآن مهددة بالدمار ، بسبب قيام العيد أو الرقيق الأسود بالثورة ضد « البيض » أصحاب الأراضي الواسعة والذين تألف منهم فئة الحكام في هذه الحرية ؛ فقد كان سوء الأحوال في هذه للمستعمرة يندب قيام الثورة بها من مدة طويلة ، ذلك بأن الحكام في جزر الهند الغربية الغربية عموماً كانوا يحقدون على مراقبي أو لندرين للكعبين بالإشراف على أشئون المادية - وعاش التجار وأصحاب الأراضي الواسعة عيشة الترف والدخ ، شأنهم في ذلك شأن السلا والطقة المتوسطة (النورجوارى) في فرنسا داهيا ، بينما كان العيد يؤلفون الطبقة المدمرة ؛ وكان عدو العيد ربو كثيراً على عدد « ابيض » الأحرار في حرره سان دوسجو ، وقد حدث عند انعقاد الجمعية الأهلية في عام ١٧٩٨ أن حصر إلى فرنسا ممثلون لأصحاب المزارع ، واحتلوا أنما كلهم بوصفهم أعضاء في الجمعية الأهلية ، وحده « المستعمرون » حدود مواضعهم في فرنسا ، فأشأوا « للدييات » في سان دوسجو ، كما ألقوا (حرماً وطبياً) ، بل لقد ذهبوا إلى أحد من ذلك ، ودعوا أن من حق الحرية أن تصدر قانوناً جامعاً بها ، مما قضى حاكم الحرية على هذه الحركة ، فرر عنها إلى فرنسا في أغسطس ١٧٩٠ ، وعددت سرح الحرس الوطني وألقى أعضاء (الامة الاستعمارية) في نور أوبريس Port Au-Prince عاصمة الحرية في السجن ، وشجبه هذه الحوادث العيد فقاموا بالثورة يطالبون بالحصول على حقوق المواطن التي تمنحها « أسياهم » البيض ، ولكن البيض سرعان ما قصروا على هذه الثورة وأعدم رعيهم ، وقام البيض حكماً استنادياً في الحرية عندما وصلت إليها قوات جديدة من فرنسا في الثمور لأولى من عام ١٧٩١ ، ولكن هذه الحوادث سرعان ما أثارت غضب الجمعية الأهلية في باريس ، فصدرت إليها إصدار قرار بإلغاء الرق ومنح الحقوق المدنية لكل سكان المستعمرات في مايو ١٧٩١ ، وذلك دون أن يسكر أحد من أعضاء الجمعية في اتحاد ما كان يقضي به الموقف من إجراءات لاغى عنها لمحافظة على الأمن والنظام في الحرية ، وعلى ذلك فقد قام العيد بحركة عصيان واسعة عندما حيل إليهم أن في استوائهم وقد أصبحوا أحراراً طليعين وعلى قدم المساواة مع « البيض » أن يسرعوا من هؤلاء كل سلطة وأن يسولوا على أملاكهم فرنسا ، فاضطرت الجمعية الأهلية إلى إصدار قرار آخر في سبتمبر من العام نفسه يحدد إلغاء (قرار التحرير) إذا استمرت الاضطرابات في حرر الهند الغربية ، فكان هذا القرار سبباً في زيادة الاضطرابات شدة على شدة ، حتى إن الثورة ما لبثت أن امتدت

لا إلى تحرير مارتنيك وحوادلوب في الهند الغربية بحسب، بل وإلى تحرير برين
وإيل دي فرانس (أمورتينوس) في المحيط الهندي كذلك وكان واضحاً أن الواجب
يفتضى من جمعية الأهلية إرسال معدات إلى الحرر وإلى سان دومينغو وإلى وجه الخصوص
لإخماد الثورة ولكن المعارضين في داخل الجمعية ، الذين شجعوا الثورة ورعوا في
استمرارها لا يحدوها هذه لفظة أنعمال الحكومة ، سرعان ما تبدلوا لمع إرسال
الجنود إلى سان دومينغو^(١) فكان من أثر اشتعال الثورة في الجزيرة أن أحرق
العبيد مصانع بن ولطفن وأنيلة لقي بمسكنها أسيرة مو في سبتمبر ١٧٩١ ، ثم عمدوا
إلى أراضي الأسيرة الواسعة فصادروها واسولوا سبباً بدعوى غياب أصحابها ،
وأصبحت الأسيرة محذرة حسنة ، وصار كل ما يشع أعضائها هو التفكير في الوسائل
التي تمكنهم من استرداد ممتلكاتهم ونصوصهم شيئاً عن حداثهم

ولم كانت الاضطرابات قد استمرت طوال العام التالي ، وأحرق الثوار مصانع
السكر في أماكن عدة ، وأحر بولفير Pulverel قوميسير الحكومة في الغرب في
أغسطس ١٧٩٣ على مصادرة أراضي ثلاث العبيد من انهاجرس ، وألغىين سواء
أكان الأولون قد هاجروا إلى بلد مجاورة أو حديق (أفريسا) ، وتبع ذلك تحرير
سائر العبد في جهات الجزيرة الشمالية ، فقد وجد كثيرون من المستعمرين « اليس »
في عامي ١٧٩٢ ، ١٧٩٣ أن السبيل إلى إعادتهم من هذه التروير واسترداد ممتلكاتهم
إلى يكون الانسحاب إلى أعينهم والتمسك معها ؛ وكان فريق من هؤلاء قد بدأ بمباع
الحكومة الإنجليزية في هذا الأمر منذ أن اشتد الاضطرابات في عام ١٧٩١ ؛ ولم
تثنأ حكومة لندن وقصد أن محب متمسكهم لأهم كانوا ما يرالون « أقلية » ، فطلت
ممنعة عن إرسال أية قوات إلى سان دومينغو ، حتى إذا تكوئت المندعة الدولية الأولى
صد فرنسا وأعلنت الحرب في فبراير ١٧٩٣ ، استمع Pitt إلى رغائب جماعة
« انهاجرس » من التعار وأنصحت أراوع الذين حصروا إلى لندن ، يدفعون شكواهم
إلى الحكومة الإنجليزية ويطلبون شديداً ، فأرسل أسطولاً برل في الجزيرة في سبتمبر
من عام نفسه ، واحتل الإقليم مياء بور أو برانس Port au Prince في بوية
١٧٩٤ ، وتمكنوا من إقامة عهد من الهدوء والسكينة في سان دومينغو واستمر عاما
وصف عام . وكان اثنان من أعضاء أسرة دو من بين هذه الجماعة التي طلبت مساعدة

Montague (C. M. H Vol VIII 193 - 4) Macdonald Ibid (١)

الإبحار^(١)؛ بيد أن هؤلاء سرعان ما دخلوا عن الحرية في أكتوبر ١٧٩٤ عندما هاجمهم العيد في ريجو Rigaud وانصروا عليهم. وما إن أحلى الإبحار الحرية حتى نقص الثوار على «المسحوقين» المرشيين يقتلهم ويحرقون ما بقي من مصانع أو مزارع في أيديهم. واستمر الاضطراب خلال الأعوام التالية^(٢)؛ وحمل لواء الثورة توسيان لوفريير Toussian Louverture أحد الأهلالي السود وساءت الأحوال في سان دومنجو حتى خرجت هذه الحرية بين عامي ١٧٩٤ و ١٨٠٢ من سيطرة فرنسا الفعلية تماماً.

وعند ما رادب الحال سوءاً في سان دومنجو، كان موزي باريس متعطلاً تقص مضجعه من الإهانات التي استمر أعداؤه يوجهونها إليه دون شعرة أو رحمة، وفصلاً عن ذلك فقد سب سباع مملكات الأسرة في سان دومنجو، وما ترتب على ذلك من آثار كان أهمها نحر موزي عن الاستعانة بأسماء الأسرى في معاونته، أن أمن موزي عقد القروض كي يتمكن من العيش، حتى عرق في الدين لأبيه. وكان سبب هذه الديون - ولا شك - تلك الأحياء التي فصل موزي عنها لاني أيام البطالة وحدها، بل في جميع الأوقات سواء أكان شاملاً أم رحلاً أم كهلاً. ذلك أن موزي كان يحب الحياة الصالحة وإياها اللبنة بمعمرات الحب والحرى، ولا يأبى من محاولة الرافضات والمغيبات ومن يلهن، يمتنى القهاوى والمستديبات مع صواحيه وهن كثيرات، وقد يستبد به انطيش أو العلاء في المحون فيعزم الزواج من إحداهن، حتى إذا «ثاب إلى رشده» احتسب غيرها صاقلته المشوية وهكذا دواليك، دون أن يفتوره سأم أو ملل. ومن ذلك في باريس، كما فعل ذلك في مصر حين أتاح له الزواج من سيدة شرقية الاسمانع بعدد من الحوارى الحركيات والمحورحيات الحسنات في «قصره» في رشيد. بل وكما فعل أيضاً في إيطاليا عند ما سمع الامراتور نابليون عقائد الحكم في بورني وفلورنس ثم اسدقية، وقد نصي موزي في باريس سواب دون عمل بعد خروجه من الجيش، وظلت بهال عليه اهتمام أعدائه له بالحق وجور العريضة وحياة حكومة الجمهورية، وتطاردته أشباح تلك «الأيام المشثومة» - يوم ١٠ أغسطس، ويوم هزيمة سومير، ويوم ٥ أكتوبر - كما كثر الفقر عن أسبابه لافراس أسرة دي موزي، بعد أن خربت أملاكها في سان دومنجو، وثقت ديون موزي

(١) Lokke et Debien 347. Note 1

(٢) Debien 118-121 Lokke et Debien, loc. Cit. Une Plantation.

بعنه حتى جاءها كاهله ، ولكن « الجربا المحذع » استطاع على الرغم من هذا كله أن يجد متعاً من الوقت ليرتاد أمكن الأهر والتسوية مع « لايوحوون » الخيلة La Beaujon ابني اختارها قبه من بني سيدات اسارح ، وقد شغب مو هذه السيدة شعاً عظم حتى إنه صار يخطبها ويقدمها إلى أصدقائه في كل مكان يذهب إليه وصارت تحتل مكان الصدارة في بيته ، بل لقد اعزم مو أن يروح بها ، واشهرت في محضات باريس وأندبها باسم « للمواطه مو » ويبدو أن « المواطه مو » أصبحت الود لصاحبها حتى آخر أيامه في باريس ، حتى إذا وقع عليه اختيار بوبرت بعد ذلك للذهاب معه إلى مصر ، غشمت مناعت السر من باريس إلى ليون ، لتتحقق رجوعه فتتمكن من بومعه قبل معادرة الشواطئ الفرنسية (١) .

ولا حدال في أن هذه العشرة الطويلة قد كلفت مو ما لا يطق من ماب ، فكاتب إلى صاحب ما عرف عنه من تندر وإسراف ، السب الذي دعاه إلى الاستراة من عقد المروص ، ثم اشهور في أوقات محنوه القسلة شغل وطأة ذلك الصبث الذي عكر عليه صوره ، نتيجة لانتشار الثورات في سان دومنجو ، وصيبغ محتسكات الأسرة في هذه المستعمرة البعيدة

ومع ذلك فلم يكن مو وحده الرجل الذي شعر بالصيق من جراء قيام الثورات بهذه المستعمرة ، فقد عم عن محرب المزارع وإحراق المصانع في سان دومنجو وغيرها أن امتنع ورود السكر وابتاع من حرر الأنبل إلى فرنسا ، فشمرت فرنسا بالصيق ، ودفعت باريس على وجه الخصوص ألم الحرمان ، واشتدت البطالة في قاعة الحوجة الأهلية والمؤمر ابوصي أن تادر الحكومة باعجاد الإحراءات الخاصة لنظيم شئون الاسهلاك الداخلي ، تتعب هذه السلع تسعيراً رسمياً من جهة ، والعمل على إعادة الأمن إلى نصابه في الجزر من جهة أخرى ؛ ثم كان لهذه الثورات أثر آخر ، ذلك أن رول القوات الأنجليزية سان دومنجو بعد شوب الحرب بين فرنسا وأعدائها لم يلبث أن حرك بحروف الفرنسيين من أن تؤدي انقلاب والاضطرابات في حرر الأنبل إلى صاع هذه المستعمرات التي بقت لفرنسا بعد حروب الاسمحار الطويلة الماضية

وواقع الأمر أن التمكر في ساء امراطورية استعمارية جديدة كان على عموما تقدم — وهذا يستأثر ماههم القادة والعكس في السنوات التي سقت اعجاز ركان (اشورة الكبرى) ؛ فبحث المفكرون « والفلاسفة » في الأسس التي يجب أن يقوم عليها ساء هذه الإمبراطورية الجديدة ، كما دفع الخوف من صاع حرر الأنبل سهايا هؤلاء

الفكرين إلى البحث عن مبادئ أخرى تنفع لذلك النشاط الاستعماري .
 صحيح أن الفرنسيين قابلوا أخبار رول الإغلي في سان دومينغو بشيء كثير من
 القنوط والسأم ، ولكن أساء عدة . سوف تأتي ذكرها في حقه . ماشرت أن
 أحيت رعيهم في الاستعمار عموماً . ومنذ عام ١٧٩٧ استأثرت (مسألة الاستعمار)
 بقطر كبير من اهتمام حكومة الإدارة ، حتى أن تظلمان وزير خارجيتها مالت أن يقي
 بحثاً أمام هيئة (المجمع العلمي الفرنسي) في يوليو من السنة نفسها ، عن انعواؤد التي
 يمكن أن يجسها فرنسا من امتلاك مستعمرات جديدة .

ومررت من ملاحظة هذا النشاط الجديد ، وكان من السطر ، وهو الذي سئم
 حياة البطالة وكثر دائئوه ، ورغم ذلك انصيق الذي رل به . وتلك الإهانات التي
 ألحقها به أعداؤه ، أن يعكر في وسيلة للحلاص من ذلك كله ؛ بمحاولة إقناع الحكومة
 حتى ترسله مدوناً عنها إلى سان دومينغو ، مسرح لعن والاضطرابات التي حرمت
 ممتلكات الأسرى ، والتي باتت من المتوقع أن تعصى إلى مبيع هذه « المستعمرة » من
 حوزة الجمهورية ، وعلى ذلك عمدت منو إلى روبل Rewbel عضو حكومة الإدارة
 برسالة في ٦ أكتوبر ١٧٩٧ يشكو من عيب أعدائه معه ، وما يوجهونه إليه من اتهامات
 وتطلب أن تنهى له الحكومة « ملحقاً » بفيه شر هؤلاء الأعداء ، وقال منو في مذكرة
 سابقة إن في استطاعته أن يؤدي لأحكامه خدمات تعود عليها بمائدة محففة ، لو أنه
 أرسل إلى المستعمرات ، يعمل كمفتش لجيش الجمهورية ، أو عهدت إليه حكومة الإدارة
 مهمة « سياسية » (١) . وكان هذا آخر سهم في حصة منو ولم يكن بدرى ماذا يعمل
 به إذا طاش ذلك السهم ولم يصب هدفه .

غير أن الظروف السياسية المثلث أن هيأت الفرصة لمنو حتى « عدم » الجمهورية
 وقيم المبادئ على كفاءته « السياسية » أو مهارته الإدارية بوصفه مفتشاً للجيش .
 أو حاكم مستعمرة ، عندما صدر قرار حكومة الإدارة في ١٢ إبريل ١٧٩٨ ، بإرساله
 (جيش الشرق) إلى مصر بقيادة بونا رت صدق منو التقديم من أيام حادث « أكتوبر »
 فقد طلب إليه قائد الحملة ساء على رعته في ٦ مايو ١٧٩٨ أن يلمحق بذلك الجيش
 المختشد على شواطئ فرنسا الجنوبية . لقد طلبه منو العمل في المستعمرات ، وكان
 يرحو الذهاب إلى سان دومينغو ، فواته الفرصة للعمل ، ولكن في مستعمرة جديدة
 وفي ميدان آخر غير حرر الأقبيل والهدد العربية ' ميدان « الشرق » الجديد الذي
 انفق معكرو « الثورة » وفلاستها من أمد طويل على أنه خير مكان تستطيع فرنسا
 أن تبدأ فيه تجربتها الاستعمارية .

الفصل الثاني

فرنسا والشرق

عهد

مذكر كترون أساما عده لإرساء «خطة» الفرنسية على مصر ، وهناك من يقول إن حكومة الإدارة ، وقد صدرت تخفى يعود بومبارت بعد انتصاره نهضة في إيطاليا ، أرادت أن تنحصر منه بمساعدة على باريس ، وهناك من يقول إن بومبارت نفسه قد مات لإرضى ، بعد ما أحرره من عهد وطار في حملة إيطالية ، بأن يرضى أداء لعمه من أعضاء حكومة الإدارة مستخدمها (رّا) Barras ، أو (كارنو) Carnot أو سواها من رجال هذه الحكومة ، الذين كان أكثرهم من « فئة الخامين » لمثة من الحد وعضة لأعظم ؟ فصار بومبارت يهدف الآن إلى إحرار السيطرة في فرنسا وما كان دستور السنة الثالثة (١٧٩٥) مع الرجال دون الأرامل من أن يصحوا أعضاء في تلك الحكومة ، بعد نعم الانتظار على بومبارت حتى سلح هذه السن . وفصلا عن ذلك فقد رأى بومبارت شاق فكره أن احتلال الأمور بفرنسا لم ينع من سوء هذا يسوع حرق الدستور وتسلمه مقاليد الحكم ، فقرر التريث حتى « أصبح أكثرى » فيطلبه الشعب نفسه لنولى قيادته ، بل ولا يحجم عن تأييده إذا هو تقدم على إحداث ذلك « الانقلاب » الذي تمكنه من الوصول إلى الحكم ، والتمتع بالسيطرة التي يشدها . ومع ذلك فقد أدرك بومبارت أن الشعوب سريعة النسيان ، وأن مد الزمن لا تلبث أن تسد ستار أكثيها على أعمال بطولته السابقة إذا هو رضى بالجلول ، ولم يحدد دكرات انتصاراته الإيطالية في ميدان آخر يصل ميدان إيطاليا ، ويفتح نشاطه فيها جديدة أمام الشعب الفرنسي ، في وقت كانت قد أنهكت قوى الشعب تلك الحروب التي طلت مستمرة طوال القرن تقريبا ، وحسر الفرنسيون من حرائها إمبراطوريتهم الاستعمارية القديمة ، بل وكاب — بسب ما كدته الشعب من حسائر فادحة — من عوامل ذلك المسك والاضطراب الاقتصادي والاجتماعي ، الذي أفضى إلى اشتعال « الثورة الكبرى » وإنشاء الجمهورية .

ولا شك في أن هذا كله أو بعضه صحيح ، ولكنه لا حدال كذلك في أن اسطوار
«صوح الكثرى» كان يوتا من أنواع «العدسة» التي اعتمد عليها كثرون في تفسير
عاشهده من وقائع بعد حدودها . ولكن رغبة المتخلص من بوارت ، أو التريث حتى
يم بصوح الكثرى ، أو معنى بوارت لكسب أكابيل جديدة من المجد والمجد
تعيد إلى لأدهن مجد الإسكندر المقدوني ، أو قد يتصل مجد الإسكندر بحاسب ،
مما كانت كلها مجمعة تنكفي لإفصاح حكومة الجمهوريه بأن من الخير المحاربة بأجر ح جيش
كبير إلى الشرق ، يصم صفوه قواد فرنسا وشحة علمائها ، فتتفرص هذه «العارة»
العظيمة لأخطار تصور في البحر الأبيض المتوسط ، عندما كانت الأساطيل لا تخبره
مراطة على مساند هذا البحر ومتحولة في «مخاض» ولم يكن في استطاعة الفرنسيين ، على
الرغم مما أحرزوه من انتصارات حاسمة في أرض القارة الأوربية حتى أزعجوا أعداءهم
على السلام ودول دأموه عنهم من شروط قاسية أن ساءوا شيئاً من قوة إنجلترا ،
أو أن يكسوا بصرأ بحربا . ولذلك فقد كانت هناك أسباب أهد عوراً مما اعتاد
لكتاب والمؤرخون أن يمسروا به معنى الحملة الفرنسية في هذه البلاد

أما هذه الأسباب فكانت رتبط ارتباطاً وثيقاً بارج الاستعمار الفرنسي معه ،
وأنه لربعة قبل حروب الخلية زمن طويل نحو إحياء المستعمرات الفرنسية القديمة ،
أو ساء إمبراطورية استعمارية جديدة ، إذا كان ذلك الإحياء مستهدراً ، حتى إذا عجز
الفرنسيون عن عقد صلح مع أعداءهم التي ناصبهم العداء منذ إعدام الملك لويس
السادس عشر ، وأثلت عليهم الدول ، ونجحت Pitt وور بها في تكوين التحالف الدولي
الأولى ضد فرنسا (١٧٩٣) . صمم الفرنسيون على الانقسام من اعتدة ، سواء بعمرو
الإعجاز في بلادهم ، أو بعمروهم في الهند أمهم مستعمراتهم ، فكان فتح ميدان الاستعمار
الجديد في « لشرق » من الوسائل التي عأ إليها الفرنسيون للاقتصاد من خصوصهم .
الإمبراطورية الاستعمارية القديمة .

لقد أهدرت حروب فرنسا الطويلة في أوروبا والمستعمرات في القرنين السابع عشر
والثامن عشر ، وبعد صلحي أوترخت في عام ١٧١٣ ، وباريس في عام ١٧٦٣ ، عن
لقد أكثر مستعمراتها في الصين القديم والحديد ؛ فلم يبد لها في الهند سوى مراكر
تجارية قبيلة في شندرابور ، وبندي شيري ، وكاريكان ، وياون Yanson ،
وماهي ، بينما ضاع منها في أمريكا أعاليم كثيرة . يوقوبدلاند ما عدا جزءاً من
شواطئها الشمالية الشرقية للهند ، وحريرتين صغيرتين حولها ؛ ثم جهات خليج

المدسون ، وأكاديا ، وكندا ، ولورينا ، ولذلك فقد اعتر المؤرخون أن عهد الإمبراطورية الفرنسية الأولى قد انتهى بحرب الصين السبع (وصح باريس ١٧٦٣) ؛ واعتقد كثيرون أن « الإمبراطورية الاستعمارية » لن تقوم لها قاعة بعد ذلك . وقال هؤلاء « للتانيين » أن فرنسا على الرغم من حازمها الجسمة في المستعمرات ، كانت ما تزال عظيمة تعدد من الجزر ذات الملائم الهامة في الهند الغربية ، أهمها سان دومينغو ، والارتيفيك ، وسان لوس ، وهي حرر الأنثيل ، التي عرفت باسم « حرر السكر » ، وذلك ما عدا حررى ريون ، ومورييتوس أو إيل دي فرانس في المحيط الهندي . وليس من شك في أن فرنسا ما كانت تعيد من كندا ، فمر ما كانت تحبه من حرر الهند الغربية خاصة ، ذلك أن هذه الجزر أمدت فرنسا بالسكر والنفط وغير ذلك من السلع ، التي حلت حاجة الفرنسيين إليها عظيمة . أضف إلى ذلك أن لقاء ريون ومورييتوس في حوزة فرنسا جعل هاتين الجزيرتين مراكر تستطيع منها فرنسا بدء محاولة أخرى لبناء إمبراطورية استعمارية جديدة في « الشرق » التي وهكذا ظهر جماعة من « للتانيين » الذين اعتقدوا أن في استطاعة بلادهم إحياء الإمبراطورية القديمة ، ثم إعادة النوارس الدولي إلى الحالة التي كان عليها قبل معاهدة باريس ، لو أنهم عملوا على إصلاح شؤون الحرر . أو تلك المستعمرات التي فقدت في حوزهم ، وذلك باستثمار موارد حرر الأنثيل استثماراً مفضلاً والاسدلاء على ممتلكات جديدة . وكان في طبيعة هؤلاء المتفائلين الدوق دي شواريل Cho seu . وزير خارجية فرنسا منذ عام ١٧٥٧ . والرجل الذي تم على يديه عقد صلح باريس في ١٠ فبراير ١٧٦٣ .

فقد طفق شواريل يعمل على إزاله ما ترتب على هذا الصلح من آثار أساءت إلى مصلحة بلاده ، ووجد أن خير ما يحقق هذه الغاية مدخله في « المسألة الشرقية » ، إلى جانب حلفاء فرنسا القدماء كالسويد وبولندا وروسيا ، يعني من ذلك أن يعيد إلى فرنسا شيئاً من تفوقها السابق في ميدان السياسة الدولية ؛ وأدرك أن وجود الحرية القوة ، وساء الإمبراطورية الاستعمارية ، عاملان لاغى عنهما الحاجة في انحصار الدولي . فبدأ جهوداً كبيرة لإحياء الحرية ، وكان صاحب الفصل في إثارة عدد من مشروعات الاسعمار الفرنسي الجديد ، كالتوطين في حوايا الهند الغربية والاستقرار بها ، وخصوصاً في منطقة مور (كورو) ، وتأسيس مركز فرنسي جديد في جزيرة مدغشقر ، على يد موداف Maudave ، وتشجيع (بوجفيل) Bougainville

على الملاحة حول الكرة الأرضية بين عامي ١٧٦٦ - ١٧٦٩ ، ثم كان من أهم مشروعات شواربل الاستعمارية تأييد مصالح الفرنسيين في مصر ، واستخدام كل مهارته السياسية في محاولة الاستيلاء على مصر ذاتها ، حتى يخدم مواطنوه في مستحات هذه البلاد وعلاها بما يوصفهم عن تلك الخسارة التي رلت بهم بسبب صراع مستعمراتهم الأمريكية .

غير أن شواربل لم يكن موفيا في مشروعاته الاستعمارية ، فحقق مشروع لوطس في حوض مهر (كورو) ، وفشلت الأمور والحيث بأولئك الفرنسيين الذين عامروا بالهجرة إلى هذه المقام الموبوءة (١٧٦٣ - ١٧٦٧) ، ثم أحقت محاولة أخرى من أجل إنشاء مستعمرة جديدة على صفاق مهر (ارواح) في حواياها كذلك في العام التالي (١٧٦٨) . ومع أن جمهوريه حوة ما لبثت أن ناعت لفرنسا حرية حكورسكا في العام نفسه على أمل إعادته التوارس في البحر الأبيض المتوسط بعد أن استولى الإبحر على حرية ميورقة الأسبانية (منذ عام ١٧١٣) ، فقد أحقت جهود الفرنسيين في مدعشمر ، وطلب موداف المحدثات من فرنسا ، ثم أسس الأمر باستدعائه في ديسمبر ١٧٧٠ ، وفي نفس هذا الشهر خرج شواربل من الوزارة بعد أن دافع الأعضاء عن الفرنسيين تعورهم بعدرة على الاستمرار .

على أن خروج شواربل من الوزارة ، وفشل مشروعاته الاستعمارية ، لم يكن معه أنه قد قضى على « الفكرة الاستعمارية » في فرنسا قضاء مبرما لا إقامة لها بعد . ذلك أن مشروع استعمار مدعشمر ما لبث أن عرس على لسط البحث ، نية على يد بنوسكي Benyowski العامر البولندي بين عامي ١٧٧٢ - ١٧٧٤ . صحيح أن الحكومة الفرنسية رفضت في آخر الأمر معاهدة بنوسكي ، حين اضطر هذا العامر إلى معادته باريس والارتحال إلى أمريكا ، غير أن ولاية ماريلاند أمدته بالمساعدات المطلوبة ، واستطاع البول في مدعشمر ثم قتل في مايو ١٧٨٦ ، عند اشتراكه مع القوات الفرنسية انق أرسلت من حرية إيل دي فرانس لقمض عليه .

إلا أنه كان من أثر هذا الحادث من جهة ، ولسبب استياء الفرنسيين من عدم امبراطوريتهم الاستعمارية القديمة من جهة أخرى ، أن طلت الفكرة الاستعمارية نافية بل لغيت تأييدا كبيرا من وقت لآخر ، من جانب أولئك الفرنسيين الذين ظلوا متشدين بضرورة إحياء مذهب الاستعماري القديم ، سواء أكان ذلك عن طريق إصلاح شئون تلك مستعمرات التي بقيت في حوزهم ، أم بالاستيلاء على أرض جديدة وآت

ذلك أن المرشحين في السنوات التي سبقت انتصار ركان الثورة الكبرى (١٧٨٩) صاروا يحتلون الأسباب التي استلزمها الحاضرون مشولة عن صياح مستعمراتهم في حرر الهد الميري بوع خاص ، وتوفر فلاحية الثورة ومفكراتها ، إلى جانب الوزراء وغيرهم من رجال الدولة والحكومة ، على دراسة هذه الأسباب ، التي تناولت بحث القواعد التي قامت عليها الإمبراطورية الاستعمارية القديمة ، وبين حوامل الضعف فيها ، والسادى التي يجب أن تهتدى بها ساسة الامبراطورية الاستعمارية الجديدة ، والأسس التي يجب أن يتبنيوا عليها صرح بنائهم

وكانت الإمبراطورية الاستعمارية القديمة قد قامت على أساس «الحق الاحتكاري» و «استخدام ارفيق» ، فقد بحث فلاحه الثورة والامبيكو بنديون هابيس لقاعدتين ، فأحمد ديرو D derot (١٧١٣ - ١٧٨٤) على وجه الخصوص ، يفسر الاحتكار التجاري ويعده ، فقال إنه لا كانت المستعمرات قد أنشئت في وراء البحار لحماية مصالح الوطن أو الدولة المستعمرة ، فقد وقعت هذه المستعمرات تحت حماية الدولة المستعمرة ؛ كما أنها كانت تتمتع في عائلها على ما عدها به هذه من معدات ، وتسد به إليها من خدمات ، لخدمة مواردها ، واستثمارها ، حتى بات مؤسسو هذه المستعمرات أصحاب الحق وحدهم في الأعمال معها ، ونقل مآثرها ومستخدميها على ظهور سفهم ، وهذا ما يعرف باسم (الاحتكار التجاري) Exclusif ، وهو نظام مصوب به من أيام كولبير Colbert وزير الملك لويس الرابع عشر . وقد عاد هذا النظام ماثمة محققه على الشركات التجارية الفرنسية التي نقلت أنماط من (حرر السكر) إليها ، واحتلت حرره سان دومينغو خاصة في هذا النظام مكانا ملحوظا ، حتى عدت محور ذلك النشاط الاستعماري بأفحمه . ومع ذلك فإن الاحتكار التجاري ما كان يخلو من مساوئ عدة ، لعل أهمها تحريم دخول موانئ المستعمرات على السفن الأجنبية ، فقد تعدد على البحرية الفرنسية مرور الزمن وإزدياد النشاط الاقتصادي في المستعمرات ، أن تسدد حاجة هذه المستعمرات الفرنسية ، مما دعا إلى ازدياد الأحوال في الحرر ، ولم يكن ثم مباح من تدبير الوسائل التي تكفل إعادة الاستقرار إلى الحياة الاقتصادية في حرر الهد الميري.

وواقع الأمر أن الأحوال الاقتصادية في الحرر ما لبثت أن ازدادت سوءا على سوتها أيام الصال الاستعماري المعروف بين الحنرة وفرنسا خلال حرب اسيين السبع حتى إن الأهالي في الهند الميرية سرعان ما علا صياحهم يطالبون بتخفيف قيود الاحتكار في عام ١٧٩١ ، وأدركت الحكومة حرج الموقف في الحرر في اسوات

التالية ، فاضطرت بعد ثلاث سنوات حسب من عقد صلح باريس ، إلى فتح موانئ سان توميا وسان دومنجو في وجه السفن لأحبية في عام ١٧٦٧ ؛ كما أنها ما لبثت أن اضطرت في عام ١٧٦٩ إلى إلغاء حق شركة الهند الغربية في احتكار التجارة ، وكانت هذه الشركة قد تأسست من أيام كولومبوس ؛ ثم وافقت على دخول السفن الأحبية إلى عدة موانئ أخرى في حرر الهند الغربية في أغسطس ١٧٨٤ ، بل وفتحت بعد عامين اثنين حرية التجارة مع كاين Cayenne « عاصمة » حوايتا ، بل ومع سائر بلدان هذه المستعمرة مدة استمرت حتى عام ١٧٩٣

أما مسألة جلب الرقيق الأسود إلى المستعمرات الغربية فقد كانت ترد في أصولها إلى (قانون) صدر في عام ١٦٨٥ بتأثير (مدام دي مانيون) Mme de Maintenon ذات السيطرة المعروفة على لويس الرابع عشر . وكانت هذه السيدة تهدف إلى تحسين أحوال اسود المستعمرين في المستعمرات ، وذلك لتهيئة السبل لهم لاعتناق الكاثوليكية ثم الإشراف على تدبير ما يبرمهم من أغذية ولباس ، وإمدادهم بالأدوية والعناية بمرصمهم . على أن هذا القانون الذي عرف باسم (قانون السود) Code Noir ، كان يمس كذلك على توقيع العقوبات الشديدة على الأرقاء الذين ينتهوا إيمانهم ، أو يسرقون « أسيادهم » ؟ أو يسلكون مسلكا شائئا .

فما كثر « الطلب » من أوروبا على منحات حرر الهند الغربية ، أغضت بواحي الخير في هذا القانون . إذ اضطروا أسياد إزاء أريد الطلب إلى معارضة الإنساح ، فأثأوا المزارع الواسعة التي اعتمدوا على الرقيق في فلاحيتها واستثمارها ، وعظروا عدد ما جلبوه من الرقيق حتى بلغ في جزيرة سان دومنجو وحدها في عام ١٧٨٩ نصف مليون تقريبا ، في حين أنه لم يكن يريد قبل ذلك سائر سنوات على ربع مليون ، ولم يكن عدد البيض في هذه الجزيرة يربو على بضعة آلاف قليلة . وإزاء هذه الزيادة المطردة في عدد الرقيق رأى البيض اصحاب سيطرتهم في اجبر أن يصلوا لتعديل (القانون الأسود) على نحو يمكنهم من تحقيق أغراضهم ، فأهملت العناية بأمر إطعام السود أو السهر على راحتهم ، واشتد الأسياد في معاملة أرقائهم . فصر وهم بالسيطرة والاعتماد على أيديهم ، حتى أعادوا بقسوتهم هذه إلى الأدهان ذكرى قدماء الفاتحين الأسبان في العصور السابقة ، وكما ظهر في تلك الأيام الحوالي من دافع عن السود ، فبعد امري الآن للدفاع عنهم (غليوم رينال) Raynal (١٧١٣ - ١٧٩٦) من رجال الدين وأعلام الفكر في فرنسا في القرن الثامن عشر

الاستعمار بين الغاء والزوال :

وكان لكتابات ريسان ، كما كان لكتابات غيره من فلاسفة الثورة ومفكرها ، أكبر الأثر في إصعاف تلك اربعة التي ظهرت أيام (شوارزل) في إحياء الإمبراطورية الاستعمارية القديمة ، كما كان من شأن حملتهم على الاحكار النحاري واسخدام الرقيق أن انصرف الفرنسيون عامة عن الاستعمار في السنوات التي سقت اشتعال ثورتهم الكبرى . فقد نجم عن إحقاق بحرية شوارزل في حواناما أن صار الفرنسيون يعرفون من أية محاولة استعمارية جديدة ؛ ثم زاد نفوذهم عندما تصدى الفلاسفة وأنصارهم الحرس لإظهار مساوي القواعد التي قام عليها صرح الإمبراطورية الاستعمارية القديمة . وكان المسئولون عن ذلك روسو ، وما بلي Mably ، ومنسكيو ، وفولتير ، إلى جانب ريسان ، ثم ريدران دي سانت بيير . Bernardin de st Pierre ، وأخيراً بيير بواغر Pierre Boivre . فقد حمل كل هؤلاء على الرق حملة شديدة ، وصوروا مساوي الاستعمار الفرنسي بصورة شحة مريرة ، وأظهروا أن من خطئ أراى أن تحصل فرنسا من أحل املاك المستعمرات ، بياهي ما تزال في حاجة إلى استصلاح أراضها في داخل بلادها ذاتها ، والعمل على استثمارها استثماراً طيباً ما فاعا عى أنه مما يحذر ملاحظته أن هؤلاء الفلاسفة لم يكونوا جميعاً ضد الاستعمار ، ولم يطلبوا إلى فرنسا أن تتحل عن منعمراتها ، بل إن فريقاً منهم كان لا يرى عاصمة في بقاء (الاحكار النحاري) أحد أسس الاستعمار الفرنسي القديم ، كما فعل منسكيو الذي وافق كذلك على امتلاك الحرر في الحر الكاريبي ؛ أو بقاء ذلك النظام الاجتماعي القائم في المستعمرات ، بما في ذلك استخدام الرقيق ، كما فعل فولتير الذي فقد ابرق باعتباره عملاً شائن في نظر الإنسانية . بل إن فولتير - وكان من أصدقاء شوارزل - وافق الورير على ضرورة الاستيلاء على كورسيكا وخذ اسماير لويرانا أما بيير بواغر فقد طلب إلى مواطنيه أن يبحثوا عن مياذن جديدة ، لينشئوا بها مستعمرات ، غير تلك التي صاغت منهم ، أو كانت مهددة بالزوال بسبب مساوي الأنظمة القائمة بها ، وكان « الشرق » ذلك الميدان الجديد الذي دعا (بواغر) مواطنيه إلى محاولة استعمار وفق قواعد وأساليب جديدة .

غير أن تلك الصورة القاعة التي رسمها (بواغر) ورملاؤه عن الاستعمار الفرنسي بقواعد القديمة المعروفة ، ما لبثت أن طمت على عرشها من صور أو آراء ، وفصلا عن ذلك فقد حالت ظروف عده وقتئذ دون أن يعكر الفرنسيون في ابتكار أنظمة

أخرى . أو يقوموا ببحر اسعيرية حديده في « الشرق » أو في غيره من الميادين
 فقد اشتعلت في عام ١٧٧٤ حرب الاستقلال الأمريكي ، ولما كاث فرنسا يريد الانتقام
 من الإمبراطور الذي سلّوها أكثر مستعمراتها القديمة ، وتسمى إعادة التوازن الدولي
 إلى نصابه هدم سيطرة الإمبراطور ، فقد تحالف مع الأمريكيين في عام ١٧٧٨ ،
 وحاصرت إلى جانبهم عمدة هذه الحرب التي استمرت حتى عام ١٧٨٣ ، وذلك دون
 تفكير في العواقب ودون أن يحسب حسابا لما قد يترتب على استقلال الولايات المتحدة
 الأمريكية من آثار سوف تزل من مركز فرنسا دأها في حرر الهند الغربية . ذلك أن
 فرنسا تكلفت نسب اشتراكها في هذه الحرب أموالا طائلة رادت صانعها المالية شدة
 حتى أصبحت عاجزة عن الإبقاء (بالنظام القديم) في المستعمرات ، ناهيك بمحاولة
 التوسع الاستعماري في ميادين أخرى جديدة ، وبمضلا عن ذلك فقد لجأ الأمريكيون
 استقفلون إلى الهرب . لإنشاء اصلات التجارية بواسطة مع الحرر . وذلك عندما
 كانت تمنعهم القوانين الفرنسية - وقانون السود خاصة - من التحول إلى موانئ
 هذه الحرر ، فكان ذلك من أكر الأسباب التي أرغمت فرنسا على إلغاء إحدى
 قاعدتي « الاحكام البحرية » وفتحت هذه الموانئ للفرنسيين الأحياء في أغسطس ١٧٨٤
 على ماضي ذكره ، كما اضطرت في ديسمبر من انعام نفسه إلى تعديل (قانون السود) ،
 وكان اتحاد هذين القرارين إشارة واضحة إلى أن فرنسا لم تعد ترغب في التمسك بالنظام
 الاستعماري القديم ، بل إن هذا النظام قد انحل نهائياً في حرر الهند الغربية

وكان من أسباب انهيار النظام الاستعماري انهدم تلك الخطوة التي تمسكتها اسبانيون
 ورجال الحكم من وزراء لويس السادس عشر . عندما قصر فرجنس Vergennes جهوده
 على المحافظة على ما تبقى في حوزة الفرنسيين من ممتلكات ، دون محاولة ضم مستعمرات
 حديده كان الوزير يعتقد أنه من الأفضل على فرنسا الدفاع عنها ، أو المحافظة عليها
 إطلاقاً . وعارض رجو Turgot (الحق الاحكاري) ، وضم على عدم إرساء أية
 عهد إلى حرر الأندلس ، بما استكماله إرسال هذه الحملات من أموال طائلة ، وبعد الحرر عن
 فرنسا ، ولم يبعده توقع الحرب مع المحلقة بأن من حسن السياسة وأصلالة الرأى تعبير
 الدفاع عن هذه الحرر ، بل إن (رجو) كان يدعو إلى اعتناء المستعمرات بمثابة دول
 مستقلة ، لا ربطها بأرض الوطن سوى ثقافتها تحت حماية الدول التي يستعمرها . .
 ثم اسرى (نكر) Necker ببدد عساويء الرق ، ولو أنه أحجم عن تشجيع تحرير
 الرقيق إلا إذا أتممت الدول الأخرى على إلغاء الرق إلغاء تاما . ومع ذلك فإنه لم يكن

في وسع هؤلاء السياسيين أن يسدوا فكرة الاسعجار ظهريا ، في وصف كانت ما تزال الرعة في الانتقام من المخترع ميطرة على الأدهان في فرنسا . . . فقد أيد (ترخو) املاك حرر ربون وإيل دي فرانس ، لإمكان استخدام هذه الحور على حد قوله — قواعد تستطيع فرنسا أن ترسل منها الجلاب إلى الهند ، عندما يحين الوقت اللائم للافصاح من الإعليل ، وطردتم من أهم مستعمراتهم في الشرق ودفع (سكر) عن شركة الهند الشرقية لفرنسية ، وأقر الحق الاحكاري ، وأثنى على كوبر ونظام حماية التجارة .

وقد ترتب على هذا التناقض الظاهر في أقوال العالسة والعكرين ورجال الحكم والسياسة ، أن ورث فكران هاتين كانتا تطعان على صوابهما من الآراء والأفكار : هما ضرورة الاسعجار بالمستعمرات ، بل والعمل على توسيع رقعتها إذا أمكن ؛ ثم إزالة المساوي التي أوجدها النظام الاستعماري القديم . وما كان من للتندر على كل حال أن يطلب إلى الفرنسيين أن يتخلوا عن محرمهم الاستعماري العدر ، فقد تم عن محاولة التوفيق بين هاتين الفكرتين أن اعتمدت الرعة في فرنسا إلى البحث عن مبدئ جديد ، يستطيع الفرنسيون أن ينشئوا بها مستعمرات جديدة ، على أسس جديدة ، غير تلك الأسس التي أقست إلى ظهور كل هذه المساوي التي جعلهم يعرفون من الاستعمار بوضعه القديم ؛ وسهل على أنصار الاستعمار الجديد أن يخذلوا في حركات ومحاولات العالسة والعكرين خالفهم المتودة

ولما كان (بير بواور) قد بسط في كتاب « أسفاره » المزايا التي تعود على فرنسا من اختيار (الشرق) ميدان لنشاطها الاستعماري الجديد ، فقد أصبح (لشرق) قبلة أنظار مؤيدي الاسعجار في فرنسا . وكان (بواور) يشير على مواطنيه باستعمار حررة مدعشق لأسباب عدة ، لعل أهمها أن هذه المستعمرات الجديدة سوف تستطيع عند نجاحها أن عد بالمساعدة مستعمرات الفرنسيين في (ييل دي فرانس) فلا تظن هذه مساعدة في حياتها على الإمدادات التي يأتيها بها الهولنديون عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولما كان (ترخو) قد تمسك بحور إيل دي فرانس وربون ، لاستخدامها في حد مراكر لإرسال الجلاب منها إلى الهند لطرد الإنجليز ، فقد اعتمدت الرعة نحو اتحاد (الشرق) ميداناً للتحررة الاستعمارية الجديدة ؛ وفصلا عن ذلك فقد قويت هذه لرعة بعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية للأسباب التي ذكرناها ، ولأن الاضطرابات التي سرعان ما انتشرت في حرر الهند الغربية نتيجة لاندلاع لخب

الثورة الفرنسية الكبرى ، وفيام الخلايين والسود يطالبون بالحقوقي التي نادت بها الجمعية الأندية (الأساسية) في فرنسا ، ثم انتشار الاضطرابات على يد بومبيان لوفيرير على نحو ما سبق ذكره . ما لبثت أن أفضت الفرنسيين أن مستعمراتهم في حرر الهند العربية ، كما أسرى في طريق الهند ، وألغى حثثة . وأن من آخر أن محاولوا « بحرية استعمارية » جديدة في ميادين أخرى ، قد عوصهم شتبا عن حياثرهم في حرر الأتيل .

وعلى ذلك فإنه لم نكد نصح عزم دماء الاسبحار الجديد على إنشاء لمستعمرات التي تمكن أن تنهم غش لمستحباب والعلات التي كانت تأتيهم من حرر الهند الغربية ، حتى شرعوا يمحرون في احتار أصبح الميادين للأمة لإحراء محرمهم لاستعمارية الجديدة ؛ وهدمهم المنسكير إلى أن مصر أحد أقلم الامراطورية العثمانية هي أصلح ميادين « الشرق » قاطبة لإنشاء المستعمرة الجديدة . وكان لهذا الأعماء صوب مصر أساليب عدة ، منها دوع الاعتقاد وفش ما بالامراطورية العثمانية على وشك الاسبحار ، ووقع تقسم أملاكها بين الدول ، والخوف من اسدلاء إحدى هذه الدول على مصر من جهة ، ولأن الفرنسيين — وقد طالت تربطهم بأصر صلات بحارية قديمة ؛ كما أنهم يحدون فيما بعد إلى شرق لتمرر مستعمراتهم الباقية في المحيط الهندي والانتقام من إنجلترا خصمهم القديم — ما لبثوا أن وحدوا كذلك أن الخطرات تهدد البقية الباقية من مصالحهم في هذه البلاد ، على الرغم من كل محاولاتهم التي بدلوها لإنقاذ بومهم استعمارية في مصر ، وذلك بسبب القوصي التي انتشرت في البلاد على أيدي المنسكوات الألائك ، الذين استبدوا بكل سلطة فيها ، وقضوا على كل معود للسلطان العثماني صاحب السيادة الشرعية عليها . وكانت الرغبة في إحراء هذه المستعمرة الاستعمارية ، ثم إنقاذ مصالحهم السياسية واستعمارية في وقت هددت به الدول بالتلاع على ملكات الامراطورية العثمانية ، من العوامل التي تصافرت مع غيرها على جعل الفرنسيين يحولون اهتمامهم إلى مصر ، حتى إذا دبت ساعة الانتقام من إنجلترا ، وتصفية حسابات الفرنسيين القديم مع هذا الخصم العبد ، الذي قوص أركان إمبراطوريتهم الاستعمارية القديمة ، كان إرسال الحملة الفرنسية على مصر قد بات أمرا معروعا منه ، ولا سبيل إلى التراجع عنه .

مصر والمصالح الفرنسية :

بعد خصمت مصر لسلطان العثمانيين مد أن فتحها السلطان سليم الأول في عام ١٥١٧ ، ووضع لحكومتها ملك الأنظمة ، التي أعما سبيل انفاقوني من بعده ، وأسعرت

بعد مضي زمن قليل عن استئثار البكوات للمالك بكل عود وسطية في البلاد ، ذلك أن النمانيين أقاموا إلى جانب النشأ الحاكم العثماني — دواوين يصبون رؤساء الفرق العسكرية أو الأوقاف ، وكبار الموظفين والعلماء ورجال الإدارة ، وجعلوا رؤساء الفرق العسكرية أصحاب الكلمة المسموعة في الحكومة المركزية ، ثم ركزوا شئون الحكم في الأمور المالية والأقاليم في أيدي المصالحق — أو حكام المدرجات . وكان أكثر هؤلاء ، ووكلائهم ، الذين عرفوا باسم الكشاف ، من البكوات المليك الذين كانوا يؤثرون صلة هذه البلاد من غيرهم . وقد قوى شأن البكوات رويدا رويدا بعد ذلك ، بسبب اشتغال الدولة العثمانية بحروبها في القريش السابع عشر والثامن عشر ، حتى إن محمود مرغان ، سار طغرى على كل سلطة للنشأ ، وأصبح نزعهم الذي عرف باسم « شيخ البلد » من السلطان ما جعله عزل النشأ ، ويقدم على حدة في القلعة ، من إن البكوات انبأيت ما لبثوا أن طمعوا في الأفراد ، أساس الحكم بكل سلطة ، وحاولوا طرد النمانيين من البلاد وقطع صلاتهم تركيا .

على أن روال عود النشأ العثماني ، تم تشاحن الهيئات الحكومية المختلفة من أهل المدينة على شئون البلاد . ما لبث أن أتى هذه البلاد في أحسن القوصى ؛ وقد راد من شروق هذه القوصى أن البكوات صاروا يساقون مع بيهم ، لأن على مصيب شيخ البلد زمر الزعامة والسلطة . مطلقه ، فاستمر الصراع بين الزعامة ودي المغاربة وكانا من بيوت المالك صاحبة الطوط والنمود وقنند ، محكم البكواتهما مصيب الشيخه ، ويشرون في البلاد حروبا أهلية ، رعة في الحصون على هذا النمط أو بولي إمارة الحج ، وكان النشأ العثماني في أثناء ذلك كله قبل أخيلة محمود انعود ، وكان من أسباب ضعف هؤلاء النشأت ، الذين شئون السلطان العثماني في البلاد ، تلك الحطة التي حثت عليها تركيا وعادت بالوال عمم ، عندما أكثر من تعيين النشأت وعزلهم ، دون أن تسمح باستمرار أحد منهم في الحكم مدة طويلة ، خوفا من طمعه في الأمر بالسلطة في مصر ، واستمر فرصة ضعف الامبراطورية العثمانية لمحاولة الانفصال عنها بإعلان الاستقلال .

عبر أن السياسة التي أملت على سلم وسهول حطة . ورجع القوي في مصر من هيئات حكومة مسموعة ، لا ربط بينها رابط عبر اشراكها جميعا في التبعية للسلطان العثماني ، أدت إلى إمراد البكوات بالسلطة في البلاد ، وكانت من عوامل اشتداد القوصى والاضطراب في مصر ، وما لبثت أن أسعرت في نهاية الأمر عن قيام أحد هؤلاء البكوات المليك بالثورة الحاصلة على السلطان العثماني ، والاستقلال بشئون الحكم ، والانفصال عن تركيا ؟

تقد عرف على بك الكبير صاحب هذه الثورة كيف يبعد من ذلك الصنف الذى ألم بدولة العثمانيين نتيجة لخروجه الطويلة مع روسيا البصرية فى القرن الثامن عشر ، حتى منول شأن حكامها وعمالها فى العراق والشام ، واستعمل أمر الشيخ ظاهر العمر الزيداني فى عكا وفلسطين ، وازوى انشا العثماني فى الحجاز ، بما صار الشريفيون يتسارعون على الإمارة فى مكة ، واستطاع على بك نفسه أن يعلن استقلاله فى مصر

تقد استطاع على بك الوصول إلى المشيخة فى عام ١٧٦٣ ، ولم يكده يستمتع بهذا المنصب قليلا حتى اضطره أعداؤه ومساموه إلى الفرار مرتين من مصر خلال ثلاث سنوات ، فأقام فى الحجاز مرة ، وفى فلسطين فى صياحه الشيخ ظاهر العمر تارة أخرى ، حتى أنجب له فرسة العودة إلى القاهرة فى عام ١٧٦٦ . فانتقم من أعدائه ، وأرسل العقاب الصارم لمحركي امس والاضطراب ، واستخدم فى ذلك أحد عماليه الذى اشتهر فيما بعد باسم أحمد (الحجاز) ، نسب ما أظهره من قسوة ونقض عند إخماده ثورة عرابان الشهيرة ، وهو أحمد باشا الحجاز الذى دانت له قمم حد باشوة عكا . وحكم على بك البلاد ، وسكن احلف فى وصيه المعاصرون ، فقال سافارى Savary الرحالة لفرسى الذى زار مصر بعد وفاته زمن صيربانه أنشا نوعا من الحكومة عادلة سمده المصريين حتى إن عهد على بك ليتمتع عرق « مصر الذهبى » فى تاريخ هذه البلاد انى عرف أهلها النؤس والضلك أحيالا طويلة (١)

أما جيمس روس James Bruce ، وهو رحالة انجليزى زار مصر فى عام ١٧٦٨ و ١٧٧٣ ، فكان من أشد اساقبين على تلك الحكومة انى أقامها على بك وعلى انكوات ، وعلى لدايك عامة ، ولم يكن يحقد أن على ظهر بسطة حكومة أشد قسوة وطه انا من « حكومة أولئك الأشرار » ، الذى يسأثرون بالسلطة فى القاهرة (٢) قد يكون (سافارى) معاليا فى عجاه ، وروس متطرفا فى كراهيه . ولكنه يبدو على كل حال أن على بك استطاع أن يعم نوعا من اعدالة انى فهمها أهل بلاد وقتئذ ، وكانت رضى ها معايرهم الى درجوا على أن يقيسوا بها عجاج الحكومة وعدانها (٣) وانهز على بك فرصة شوب الحرب بين تركيا وروسيا فى عام ١٧٦٨ ، وانحياز ساب اعلى إلى حاسب أعدائه ونصديق وشايهم ، فطرد لانشا العثماني ، وامسح عن دفع الجريه ، وصرب القود باسمه ، ووطد عوده فى صعيد ثم طمع فى نشر سلطانه

(١) Savary II. 221

(٢) Bruce I. 202

(٣) اجري ، ١ - ٣٨١ - ٣٨٥

على بلاد العرب أملا في أن تتحد من حدة مقراً لتجاره الهند ، حتى تتحول تجارة الشرق إلى البحر الأحمر ودرج السويس ، بدلاً من دهاها إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح (١) ، من أجل أن ذلك ولا شك بأراء صديقه كارلو روسيتي Carlo Rossetti التاجر النشيط (٢) ، ولو أن كثيرين في ذلك الوقت ما كانوا يرون في محاولة على ملك إلى بلاد العرب والاستيلاء على الحرمين الشريفين إلا وسيلة لإشباع طمعه في الاستيلاء على الممالك المحسبة (٣) .

وقد ظهر على ملك بعد نجاح حملته في الجزائر في عام ١٨٧٠ ، بعد «سلطان مصر وحاول بحرين» (١) ، وشجع هذا الانتصار على إرسال حملة أخرى إلى الشام ، وكان على ملك قد وعد بعده حبيبه الشيخ صهر ، فاعتقد الآن أن وسعته أن يجمع الشام لسلطته ، حتى يدايم به ذلك غرا كما دأبها وحملها ، وعقد على ملك أنه لا سيطرة على إمكان التعاون مع روسيا خصم القيايين العبيد لجميع مآربه ، واتخذ من تدمير أهل الشام من «عنه ملك من العظم» ، الوالي الذي أساء الحكم في سوريا ، كما اتخذ من إقدان هذا الوالي على تشجيع أعداء على ملك وأرجح بهم عند خروجهم إلى دمشق ، درمة «النداء» لثأره ، فاستطاع محمد بك أبو الذهب أحد عمال ملك على ملك إحرار انتصارات عدة ، وعاد به الشيخ طاهر معاوية صادقة ، فسقط في مده وبعد حبيبه عزة و«من وماها وأرملة والده وصيدا» غيرها ، وسقطت دمشق دها في أبريل ١٨٧١ .

وكان على ملك في أثناء هذه الغزوة يمدد له عدد من القوات مع روسيا والسديقية ، ومع أنه أحنق في هذا المعنى بعد لقي تأييد من ألكسيس أرتلوف Alexs Orlov قائد الأسطول الروسي في البحر الأبيض ، وقد وعد (أرتلوف) بحمل مقترحات الملك ، أصدر الحكومة مع دولته ، إلى كاريين قبصرة روسيا ، على أن حياة محمد بك أبي الذهب سرعان ما قصت على كل آماله ، ولم تعد معاوية الشيخ طاهر أو النكوت ألكسيس أرتلوف في الخلق من مفاهه ، واستطاع أبو الذهب أن يؤلف صده النكوت ، فكان ياره يصفه بالكفر والإلحاد ، وتارة أخرى يسميه بالعمل على إحصاع هذه بلاد حتى «نقص على دين الرسول الكريم ، ويرغم أهلها على اعتناق

Volney I. 98 (١)

Bruce I. 105 (٢)

٢٥٣ - ١ (٣)

Savary II 231 (٤)

السيجية » ، (١) والعرب من الصالحية دارت رحى تلك المعركة الحاسمة التي حرق على بك في أنفاسها . ووقع في أسر تى الذهب ، ثم ما لبث أن مات بعد ذلك أيام معدودة ، في ٨ مايو ١٧٧٣ (٢) ، فعصى عوته على أول محاولة حدثت في تاريخ مصر الحديثة لتتحرر من سلطان الدولة العثمانية . ويرى المحضرون أن للمثول الأكر عن إجماع على بك كان أو تلك الروس الذين قوبلوا على أنفسهم بسبب ترددهم وإحجامهم عن وصح تفتحهم في هذا « الملوذ المصري » ، فرصة الاسفاده من حركة على بك ، التي كان يهدف صاحبها إلى الاستئثار بالحكم في مصر والشام ؛ ذلك أن نجاح هذا الملوذ كان من شأنه ، على حد قول هؤلاء المعاصرين ، « نقل عارة العرب والمهد إلى أيدي حلفائه الروس » (٣) .

ومع أن محمد بك أبو الذهب كان يرغب في الاستئثار بكل سلطة ومهوى في مصر ، بل يطمع في املاك الشام كذلك ، فقد احتلقت أنفاسه عن أساليب « أساده » على بك ، ذلك أن أبو الذهب وجد شق عباطة على سيده ، كان يرى خلاصه واستقامة الأمور له في مصر في إرجاع سيادة العثمانيين على البلاد . وفصلا عن ذلك فقد اعتمد أبو الذهب على تأييد العثمانيين له في الاتهام من الشيخ صدر العنبر ، عربيه القديم وصديق على بك ، وبال أبو الذهب معاضدة الباب العالي ، لانتقيل مع الشيخ صدر في معارك حاسمة انتصر فيها ، ولكنه ما لبث أن توفي فجأة في ٨ يونيو ١٧٧٥ ، بعد أن دأبت له عكا .

وم بعد اللار شيت من أطماع على بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب ، بل عمت بها الاضطرابات بسبب مدراءهما وحروبهما . ثم ما لبثت الحال أن اردادت سوءاً بعد وفاة أبى الذهب ، عندما اعسم بمالك على بك ومحمد بك أبى الذهب شيئا وطوائف تتنازع فيما بينها ، للحصون على المشيخة ، والاستعداد بحكومة البلاد (٤) . وفي مايو ١٧٨٦ أرسل الباب العالي حملة عثمانية ، بقيادة القبطان حسن باشا ، لردع الميكنوات وإجساع ادلاء الليطره العثمانية ، وتخصيصها من شرور إرهم بك ومراد بك ، اللذين أفتتا السلطة فيما بينهما منذ عام ١٧٧٩ ، وامتنعا بعد ذلك بأربع سنوات عن إرسال الخربة إلى تركيا (٥) . وكاد انصر يم لركيا عندما اهرم مراد ودخل

(١) Savary II. 248 — 9

(٢) Lusignan 145 — 153

(٣) Bruce I. 104 — 5; Savary II. 248 — 9

(٤) Delaporte 355 — 63; Savary II. 258 — 76

(٥) ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦

العثمانيون القاهرة في أوائل أغسطس ١٧٨٦ ، وفر المليك إلى الصعيد ؛ ولكن
السلطان حسن باشا لم يستطع إحضار الصعيد ، وفصلا عن ذلك فقد دبرت تركيا
باستدعائه عندما شنت الحرب بينها وبين روسيا في سبتمبر من العام التالي فاستعاد
السلطات سلطتهم في القاهرة ، وحاول المنشوات العثمانيون أن يصلوا إلى اتفاق مع
إبراهيم ومراد ضد ذلك قصد إرسال الحرية وصره الحرمين ، ورفع انطام عن أهل
البلاد ، « وأن يسروا في الناس سيرة حسنة » ، ولكن دون نتيجة ، بل ضمت
الأحوال تسير من سوء إلى أسوأ ، وقد كتب الشيخ الحرني ^(١) عن سنة تسع
ومائتين وألف محربة (١٧٩٤ - ١٧٩٥ م) أنه « لم يقع شيء من الحوادث
الخارجية سوى حور الأمراء وتنازع مطالبهم » ، ثم عن سنة ١٢١٠ محربة (١٧٩٥ -
١٧٩٦ م) أنه « لم يقع شيء من الحوادث التي يعنى سقيدها سوى مثل ما تقدم
من حور الأمراء وانطام » ؛ وعن سنة ١٢١١ ، ١٢١٢ محربة (١٧٩٧ - ١٧٩٨)
أنه « لم يقع فيها من الحوادث التي تشوق إلى النفوس أو تشتاق إلى الخواطر
تتميد في بطون انطروس سوى ما تقدمت إليه الإشارة من أسباب رول البوارى
وموجبات ترادف البلاء للتراسل » ^(٢) .

وعنى عن أسباب أن هؤلاء السلوات لمليك ما كانت تعهم شؤون مصر إلا بعدد
ما يترويه من أموال أهلها بشق الأساليب والطرق ، فلم يعوا تدبير أمور هذه
الاشوية التي سيطروا على حكومتها ، فاحتلب الأمور ، وارتبك اقتصاد البلاد ،
وانتشرت بها المفاعات والأوثى والأمراض ، وساعد على انتشار لفسك انحطاس الليل
مرات عدة ، وانصراف العلاج عن العامة بأرضه ورعايته ، عند ما ظلت علات هذه
الأرض هباء للسلوات ؛ ولما كان السلوات لا يعقون شيئاً من شؤون الرى ، ولم يكن
يعيهم مصير هذه البلاد التي تسلموا زمامها ، فقد أهملوا الترع والقنوات ، وطلعت زمام
الصحراء عليها ، فهدمت أكثرها ، كما أنهت قسماً كبيراً من الأرض الصالحة
للزراعة ، وأصبحت الصناعة ، وركدت لتجارة ، وأصيب بحار الإخيلير
وامرسيون وغيرهم بحادث فادحة ، من جراء تهديد الأمن وانتشار انعموى في بلاد
وكان الإخيلير وامرسيون في طلعة النجار الأحباب الذين أنشأوا بيوتاً تجارية
هامة في مصر ، وبدلوا ما وسعهم من جهد وحيلة ، لصون مصالحهم لتجارة في هذه

(١) الحرني ٢ - ٢٢٤ - ٢٧٥

(٢) الحرني ٢ : ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣

بلاد ، يعون بأمن محارهم في «ماهره والاسكندرية» ، ولويس بصعة خاصة ، ومع اعتمادات عربان وغيرهم على اموال التي تحمل محارهم ، التي كانوا يخلوونها من أورد عبر ررح لوسيس ، في طريقها إلى الأسواق الشرقية ، أو التي كانوا يخلوونها من الهدى وشرق عامة إلى الأسواق الأوربية . وكان الإبحر أسق من فكر في إحياء طريق مصر لرى القديم ، عندما بوطدت أقدامهم في مستعمراتهم الجديدة في الهدى على وجه الخصوص ، وحبل إلى (وارن هيسنجر) Warren Hastings حاكم اسعال أن في استطاعته أن يعتمد على ما أبداه على لك كبير من رعة في إحياء بحارة حدة وفتح طريق البحارة بين المواى الهدية ومينا ، سوس ، فقرر (هيسنجر) أن يفقد معه معاهدته بحارة ، فبعد طريق رى إلى سابق عهده ، وبؤس لبحارة الإنجليزية من الاعتماد عليها في أثناء نقلها عبر لبرح من لوسيس إلى الإسكندرية .

ولكنه لم يكنده محصر مدونو حاكم اسعال إلى ماهره ، حتى كان محمد بك أبو الذهب قد تخلص من على لك في ظروف التي سبق ذكرها ، ففقد معه المدونون معاهدة بحارة في ٧ مارس ١٧٧٥ (٤ محرم ١١٨٩) ، حصلت بمقتضاها بصرائب المحصلة على الصانع الآلية من المواى الهدية ، كما أشرت للاعده تصدر المنتجات المصرية دون محصيل بصرائب عليها ، وفتحت الأسواق الهدية والمصرية لمواطني لطرفين اسعاقس على السواء ، وبعده أبو الذهب عن رعه وعن حلفائه في الحكومة بالمحافظة على المتاجر المصدرة إلى الخارج حين نقلها من بطور أو لوسيس إلى القاهرة (١) . وكان محمد بك أبو الذهب قد ذلك بعامين قد أظهر رعته في فتح هذا الطريق لرى عند ما نجح (جيمس روس) في استصدار فرمان منه إلى شركة الهدى الشرقية البحارة في ينصص هذه المرايا التي اشتملت عليها معاهدة هيسنجر - أي الذهب التجارية (٢) .

ومع أن جورج بلدون Baldwin التاجر الإبحري الذي كلف الإشراف على مصالح شركتي البعاط والهدى الشرقية التجارية الإبحريتين في هذه البلاد ، كان من أكر مؤيدي فتح هذا الطريق لرى ، فقد تصافت عوامل عدة لإبطال مفعول هذه المعاهدة ؛ لبب معارضة ركبيا اشديدة لملاحة السفن الإنجليزية في البحر الأحمر شمالي حدة ودحوها مينا السوسيس . حوفا من أن يؤدي النشاط البحاري للنظر إلى احتناع

(١) Testa II. 17 — 73

(٢) Bruce I. Appen. XXVII No. 17. Translation of firman... PP

الثروة في أيدي المكوات الماليك ، وزيادة قوتهم تمساً لذلك ؛ أصف إلى هذا أن الحكومة الإنكليزية دأبت كانت تعتقد أن فتح هذا الطريق من شأنه أن يحقق الأذى بتجارة شركة الهند الشرقية ؛ وفصلاً عن ذلك فقد تولى أبو الذهب بعد عقد معاهدة شهور قلعة ، وكان من أثر الموصى في اشتدت وطئها في بلاد عقب وفاته أن تعطل كل نشاط بحاري^(١) .

على أن هذا التحالف الذي أدركه بروس ثم هينجر وأسمر عن عقد معاهدة الإنكليزية المصرية في عام ١٧٧٥ ، ثم رغبة عرييين في تدمير متاجرهم وصناعاتهم في هذه البلاد ، سرعان ما أقصى ذلك كله إلى محاولة هؤلاء أن يهدوا مع المكوات الماليك معاهدة بحارته على غرار معاهدة هينجر . فيذهب ؛ فقد شكوا البحار الفرنسيون كثيراً من المعارض والإتاوات التي فرضها المكوات عليهم ، وتعرض بحارهم للتهب والمصادرة في الأعوام التالية ، حتى اضطروا إلى نقل مركز تجارتهم وقصصهم من مغازله إلى الإسكندرية ، بعدد عن مبرح الاضطرابات والفتن ، كما عيّنوا نائباً في دمياط ، إحدى موانئ التجارة الهامة وقتئذ . ثم ما لبث مصالحهم أن تعرضت لخطر مصادرة أحبية جديدة عندما رعت الإمبراطورية النموية حوالي عام ١٧٨٢ في لسيطرة على بحاره لشرق ، وتحويل هذه التجارة إلى الطريق بصرى عبر مصر ، واعتمدت في ذلك على تاجر سيني بدم (كاربوروسى) الذي عينته قنصلاً لحكومتها في هذه البلاد .

وما كان فرجنس Vergenne الوزير الفرنسي قد عول على التمسك بمصالح دولته لتجارة ، سواء أكان ذلك في مختلف أسواق الهند أم في ممتلكات فرنسا باقية في حوزها ، وحصل هذه الخطة على محاولة الاستحواذ على مستعمرات جديدة ، فقد باذر الآن طلب من شواربل - حوضيه Choiseul-Gouffier ، صهره بالقسطنطينية أن يسمي لدى الباب العالي من أجل فتح الطريق البحرى للتجارة الفرنسية عبر برزخ السويس ، وأوفد شواربل حوضيه بدوره إلى مصر في عام ١٧٨٤ لاضطاط بروحويه Truguet لكي يصل إلى اتفاق مع مراد بك في مصدحة لتجارة الفرنسية . واستعان بروحويه لدى وصوله إلى القاهرة في بدء العام التالي بوساطة شارل مغلون Magallon على تحقيق أغراضه . وكان مغلون تاجراً فرنسياً أقام في البلاد من مدة طويلة ، وعهدت إليه حكومته بعد انتقال قصليتها من القاهرة إلى الإسكندرية في عام ١٧٧٧

بالإشراف على مصانع العريبيين في القاهرة ، واستطاع محالون أن يكسب ثقة مراد ، كما نشأت صداقة وثيقة العري بين روجي الرحلين . فاقبل محالون في وصاؤه ، وعهد تروحيه مع مراد بك ومع يوسف كساب ، منهم اجتماع العام ، ومع الحاج ناصر شدة أحد شيوخ بمران ، ثلاث معاهدات في يناير ١٧٨٥ ، لتجديد قمة نصيرية انحصلة على النشاع الفرنسية المصدرة من الهد إلى قرب في بناء عليها عبر برح اسويس ، ولتأمين هذه النشاع من اعداءات العربان علم في انطرق في اسويس والقاهرة (١٨) .

غير أن العريبيين لم يبعدوا شبة من نفد هذه المعاهدة لاستمرار الاضطرابات واقف في بلاد ، بل سرعان ما رفعوا عنهم ، بالشكوى من عداوة المعارم والإنابات التي ألزهم مراد وإبراهيم ، كما ترموا سائر التجار لأحاط بدورها ، ومع أن جورج لدوس كان ما يراى عظم الثقة في مكان فتح الطريق التي أصلحه التجارة التجارية ، فقد أدركت حكومته أن من المثل الاحتفاظ قسطنطين في هذه البلاد ، فأنقضا في فبراير سنة ١٧٩٣ ، وثقات لدوس معه من مصبه .

ثم ما لبثت أن قامت ثورة ظهر أبناء تلك المعاهدة التي عقدها بلدون بعد ذلك في ٢٨ فبراير ١٧٩٤ ، وكانت على عرار معاهدة (روحويه - مراد) السابعة (١) ؛ وهكذا ساءت الأحوال في مصر وظن السكوات المليك لا رعوون عن عهم على ارفع من جهود جورج لدوس ومباي شارل محالون الذي عينته حكومة المؤتمر الوطني الفرنسية قسلا عاماً لها في مصر منذ أوائل العام السابق . فقد أرفع إبراهيم بك التجار على دفع أربعة عشر ألف ريال أسماي (أو مائة) في أبريل ١٧٩٤ ، واستولى مراد بك على قدر كبير من النشاع ، وتعرضت بحارن التجار من ذلك الذين للهب والسلب . حتى اضطرت لبحارن العريبيين في يوليو من العام نفسه إلى إغلاق سوتهم التجارية في القاهرة ، والاستحاب إلى الاسكندرية ، واستطاع حملة منهم حرم أمتهم والخروج إلى رشيد ، ولكن « مراداً » . البت أن حص عليهم وأرفعهم على العودة إلى القاهرة ، فصل البحار بالقاهرة تحت رفاة مراد وإبراهيم الصارمة مدة ثلاثة أشهر حتى أدن لهم لسكوات بالذهاب في آخر الأمر إلى الاسكندرية . فدموها في أبريل ١٧٩٥ ، وكان على رأس هؤلاء المنسحبين شارل محالون معه .

Testa II. 76 — 82, Charles-Roux Autour 172, Charles-Roux- (١)

L'Isthme I. An. 6,7

Charles-Roux-Autour 390 — 23 (٢)

واضطرت حكومة الجمهورية إلى إرسال بعثة إلى مصر لتسوية مشكلات البحار الفرنسيين مع البكوات المماليك ، فوقع الاختيار على (ديبوا - ثاميل) Dubois - Thaminville في يولي من العام نفسه للذهاب إلى القاهرة . وكانت (لجنة الخلاص) قد أوعدت ثاميل إلى القسطنطينية لمراعاة مددوى الحكومة الفرنسية في العاصمة الثمانية .

على أن السبب في إرسال ثاميل لم يكن تكرار شكاوى محالون وحدها ، فقد كانت فرنسا تريد إبطال مشروعات الإنحصر ، وخاصة بعد أن خرج بديوس في عهد معاهدته الأخير مع البكوات المماليك . فقد وطد الإنحصر أقدامهم في حررتي رودس وكريت ، وطلقوا يمحون تعطيل لنجارة الفرنسية في البحر الأبيض ، ثم تطارت انشاعات قوية عن رعتهم كذلك في ربط تجارة البحر الأبيض . تجارة الهند عبر طريق مصر البري لخدمة المصالح الإنحصرية . ولكن ثاميل الذي وصل إلى الإسكندرية في أكتوبر ١٧٩٥ ، مالت أن فشل في مهمته ، فلم يزل اسعار الفرنسيون أية تمويزات عن حصارهم ، ولم يطمع ثاميل من إراهم ومراعاة أية ضمانات لتأمين التجارة الفرنسية في المستقبل (١) .

وعنى ذلك فقد طل شارل محبون يرسل شكاواه إلى حكومة الجمهورية ، وكان محالون قبل وصول ديبوا - ثاميل إلى مصر ، قد بدأ يدعو في رسائله إلى فكرة الاستيلاء على هذه البلاد ، إذ أن في ذلك وحده خير ضمان للمصالح التجارية ، فصلا عن صيانة المصالح السياسية الفرنسية . فقد كتب محالون في ١٧ يونيو ١٧٩٥ إلى فرسناك Verninac ، المددوب الفرنسي في القسطنطينية لإبانه من العث أن يعتمد إسان على العرمانات أو ما يصدره الباب العالي من أوامر إلى القاهرة ، في إدخال تغيير من شأنه إصلاح مركز الفرنسيين في مصر ، ولا يصد إصدار هذه العرمانات في ذلك شيئاً مهما بلغت قوة لاحتها ، بل إن استصدار هذه العرمانات سوف يسوئ إلى الفرنسيين ويريد من حرج مركزهم في هذه البلاد .

ولذلك فإما أن يعمل الباب العالي بصورة حدية للائتمام عما لحق بالفرنسيين من أذى على أيدي البكوات المماليك . وإما أن يعلن قريباً إلى الباب العالي أن الحكومة الجمهورية لها من القوة ما يحكمها من تأديب جماعة من الأفراد لا يعرفون سوى الصغرة والكبرياء ، ولا يقدر على شيء في واقع الأمر . ثم استمر محالون

يقول « وأما إذا اشاءت حكومة الجمهورية أن تولى شئون التجارة اهتماماً جدياً ، وأرادت أن تحي من هذه التجارة كل فائدة يمكنه . فلا ممان في هذه الحالة من أن تمت مصر ، ومصر كلها ، فلا تنكث بالاستيلاء على مياه الإسكندرية ، بل يجب الاستحواذ كذلك على رشيد ودمياط والقاهرة والسويس ، كما يجب أن يكون لها عندما يحين الوقت مراكر بحرية تمتد في طول البلاد وعرضها حتى الشلال الأول »
 وفصلاً عن ذلك فإن من شأن الاستيلاء على السويس والسطرة على البحر الأحمر التمهيد لطرد الإغطار من الهند ، وإبطال استخدام طريق رأس الرجاء الصالح للتجارة الشرقية في النهاية

وقد بحث محالون بصورة من رسالته هذه إلى (لجنة العلاقات الخارجية) باريس . وفي أول أكتوبر من العام نفسه كتب محالون إلى كولش Colchen ، قومسيير هذه اللجنة ، أن الحكومة الملكية السابقة في فرنسا كانت تفكر في الاستيلاء على مصر ، لما كانت تسيطر هذه الحكومة من فوائد تجارية عدة إذا هي تمت على فتح هذه البلاد وأمنلاكها ، وعالج محالون في رسالته هذه كذلك مراد الاستيلاء على مياه السويس وسط سيطرة الفرنسيين على البحر الأحمر . وقد كتب محالون في هذا المسمى إلى (لجنة الخلاص) في باريس بعد يومين فقط من رسالته الأخيرة (١) . ثم إن محالون مالت أن طلب في ديسمبر ١٧٩٥ أن تدن له حكومته بالحضور إلى باريس حتى يسطر أممها مبلغ الأضرار التي لحقت بالتجارة الفرنسية في مصر ، وما كان يتوقعه من إهدار كل مصلحة سياسية وتجارية للبلاد في هذه الأقطار ، ما دامت حكومته تمتنع عن اتخاذ إجراء حاسم لصيانة مصالحها . بحجة نسب ردها عن التفكير جدّاً في فتح مصر والاستيلاء عليها .

غير أنه لم يكبد يصبح عزم محالون على المضي إلى باريس حتى كانت قد انتهت حوادث الثورة الدامية ، وانقضى رحابها ، وبدأ عهد من الاستقرار والنظم الجديد ، واستطاع رجال حكومة الإدارة التي تشكلت منذ أكتوبر ١٧٩٥ أن يتصرفوا بالبحث المشكلات وللموضوعات التي ما كانت تحتل تأجيلاً أو تأخيراً ، كضرورة اللجوء عن أرض الوطن ، وبمقتضى المسألة الاستعمارية ؟ وقد تصاعدت وقشدة عوامل عدة لتعريض رعية الفرنسيين في إحياء إمبراطوريتهم الاستعمارية ، وإجراء بحرية الاستعمار الجديدة في مصر وهي أحد ميادين ذلك (الشرق) الذي احتاره كنههم وفلاسفهم وسياسوم

بوصفه حرم مكان يصلح لنشيد صرح الإمبراطورية الاستعمارية الجديدة . فقد عظم
عن شكاياب محانون والتحرر الفرنسيين في مصر أن أعيد مرة أخرى بحث العلاقات
بين فرنسا وبركة صديقيها الحديثة . وكان السياسيون قد دعوا بدراسة هذه المسألة
في اسوان التي سقت اندلاع لخبث الثورة الفرنسية . وانقسم الباحثون في مصر
الإمبراطورية العثمانية وقتذاك فريسي . أحدهما شوق أسرار هذه الإمبراطورية سرعاً ،
سأ يستعد الفريق الآخر رواها ؛ فاستؤنف البحث الآن في هذا الموضوع ، على ضوء
ما وقع من حوادث أصهت بوصوح وحلاء أن للدولة العثمانية ، وإن كان ما يراى
مقدراً لها الفناء ، فقد انتشرت الفوضى على لأول في مصر ، إحدى ولاياتها التي كانت
رابط فرنسا بها صلاب وثقة ، وحدث ذلك بصورة تدريجية في آخر الأمر بالقضاء
على مصاح فرنسا التجارية والسياسية في البحر الأبيض وفي الشرق عامة ، حتى إن
الرحالين الذي راروا مصر في ذلك الحين حرصوا جميعاً على رسم صورة صادقة
لهذه الفوضى التي صرنا أطمعنا في اسداد ، فقصب على جانبها الاقتصادية ، وعرضت
للدم والوارث صرب الحصة المدة ذات العملات الوفيرة ، ثم أنهكت قوى البلاد
حتى حصصها عاخره عن رد عرات العدى عنها إذا شئت الدولة اقتسام ممتلكات
دولة آل عثمان .

الانحياز نحو مصر:

وكان لقرار وكتابات رجال السياسة الفرنسيين ، الذين خدموا في القسطنطينية
أو القاهرة ، ثم أولئك الرحالين الذين راروا مصر ، ذكر الأثر في كشف القناع
عن حالة الإمبراطورية العثمانية من جهة ، وتوجيه أنظار مواطنهم إلى مصر إحدى
ولايات هذه الامبراطورية من جهة أخرى ، وقد أقبل انقوم على دراسة هذه التقارير
وقراءة هذه الكتب شعف عظم عدد ما عذرت الرعة في الاستعمار

وكانت تقارير (سانت بريست) saint Priest سفير فرنسا في القسطنطينية
(١٧٦٨ — ١٧٨٤) ، و (جان باتيست مور) Jean Baptiste Mure قصلاًها
في مصر وقتئذ ، ثم مكتابات الرحالين الثلاثة السارون دي بوت Tott ،
وسفاري Savary . وقولي Volney ، الذين ظهرت كتبهم « وأسماهم » بين
عامي (١٧٨٤ — ١٧٨٨) أهم ما عني الفرنسيون بدراسة في اسوان القليلة التي سقت
مباشرة بحجاء الحملة الفرنسية إلى مصر .

وقد شهد سانت بريست الحرب الروسية التركية في ابريل سنة ١٨٧٤م في عام ١٨٧٤ ، واعتقد أن اغتيال روكا ب أمر لا مفر من الاعتراف به ، ومع أنه كان يسعى أن تمد فرنسا نصارى جهدها لمحافظة روكا ، وهي الدولة التي توطدت وأصر الصداقة بينها وبين فرنسا من رومان طويلة ، فقد كان من رأيه أنه إذا تمدد إقناع كل من روسيا والنمسا بالعدول عن مباحة الدولة العداء طمعاً في ممتلكاتها ، فإن الواجب يقتضي فرنسا معاهدة على مصالحها أن تشارك مع هاتين الدولتين في اقتسام ممتلكات روكا . حتى إذا تقرر ذلك كانت مصر حبيب فرنسا من اتركة العثمانية . وقد بنى سانت بريست احساره هذه البلاد على اعتبارات عدة ، أهمها أن مصر « أحصى قناع الأرمس كلها » سموها المحصولات التي تسود المستعمرات العربية في أمريكا (حرر الهند العربية) ، وذلك دون مشقة أو تعب ، كما أنه من الممكن أن يخلع السيد املاحة أرضها ورعيها سمعت تدن كثيراً عما يحدث في تلك المستعمرات الأمريكية . وعلاوة على ذلك فمصر لديها المصالح ، لا يبعد عن شواطئها فرنسا احسوة بلا سمو ثلاثة آلاف فرسخ ، ولا يستطيع دولة أوربية أن تسارع فرنسا في امتلاكها ، ولما كان من السهل أن يصح مصر مركزاً لجحاره العلم أجمع ، فإن ذلك سوف يؤدي إذا سم إلى إصعاف شوكة الحضارة وهدم سيطرتها على الهند .

واعتقد سانت بريست أن فرنسا لن تاتي صعوة ما إذا هي حاولت الاستيلاء على هذه البلاد ، لأن الاسكندرية مدينة « مفتوحة » ، ولا وسائل للدفاع عنها ، كما أن حكومة مصر لا قدره لها على الدفاع بسبب ضعفها وانعوصى المباشرة بها ، وعلى أن ذلك فإن اسكوات المالك الذي يؤلفون هذه الحكومة من الرقيق « الأتارب » الذين بكرهم المصريون كراهية شديدة . وعلى ذلك فإن الاستيلاء على مصر أمر لا مفر منه لخدمة المصالح الفرنسية إذا بات مقررراً امير الامبراطورية العثمانية (١) .

وكان (مور) الفصل الفرنسي في مصر يتناظر (سانت بريست) الاعتقاد القرب انهيار الامبراطورية العثمانية ، ويوقع أن تقسم روسيا والنمسا ممتلكاتها فيما بينهما ، ولا يريد أن يدع فرنسا الفرصة عر دون أن تأخذ مصر نصيباً لها من هذه اتركة العثمانية . بل إن مور كان يحشى أن تادر النمسا إلى امتلاك مصر ذاتها ، حتى إذا سم لها ما أرادت استطاعت أن تسد حاجتها من تلك المنتجات التي كانت تستوردها من الأسواق الأمريكية ، بل وصار في وسعها كذلك أن تصدر ما يعين عن حاجتها من هذه المنتجات معها إلى أوروبا . أصب إلى هذا أن وجود النمسا في مصر سوف يحكمها

من المشاركة في بحارة الهند وبجعلها قادرة ، إذا هي أُنشئت أسطولا صغيراً في مياه السويس ، على الاستمرار بكل سيطرة في البحر الأحمر ، ولا شك في أن ذلك كله سوف يصنع لهذه الدولة الاستعلاء على غيرها من الدول ، والنهوق في حلبة السياسة الأوروبية ولن يسهل إحراجها وقتئذ من مصر . ولذلك فإن خير صهيح لمصلحة فرنسا أن تأخذ للامر عدته من الآن ، حتى إذا انتهت الثورة العباسية سهل على فرنسا احتلال مصر (١)

وأوضح (مور) مقدار مانحيه فرنسا من فوائد محفظة إذا هي أقدمت على ضم مصر إليها فقال ، ان استغلال موارد البلاد سوف يعيد التجارة والصناعة المصرية قائمة كبيرة . وكان أهم ماوجه (مور) إليه أنظار سانت ريمست نفس السفير الفرنسي في القسطنطينية الذي بعث إليه (مور) بامدكرة التي لسط فيها هذه الآراء (في عام ١٧٨٣ — أن الاستيلاء على مصر سوف يكون من نتائجها إحياء طريق التجارة التي أقدمت على تركها السويس واستخدامه في نقل بحارة الهند خاصة . وسوف يوفر فتح هذا الطريق القصير بالاربع ساعات طائلة ومتعب عظمية ، وذلك إلى جانب الإقتصاد في الوقت الذي يصبح سدى عند نقل التجارة وما إليها بطريق رأس الرجاء الصالح حول إفريقيا . ولم يحل دون استخدام طريق السويس الذي سوى سوء الحكم العشوائي ، ولا ريب في أن محبي الفرنسيين إلى هذه البلاد سوف يربل كل عقبة عظمت في الماضي على بحارة الهند عبر هذا الطريق .

على أنه بما نحدد ملاحظته كذلك أن (مور) كان يعنى احتلال القطر المصري بأجمعه من شواطئه الدلتا شمالاً إلى الشلالات جنوباً ، كما كان يرى الاحتفاظ بهذه البلاد سهلاً ميسوراً إذا أُنشئت قلعتان قويتان عند الشلال الأول لمنع اعتداءات شعوب انوية على الحدود الجنوبية ، ووصفت حاميات قليلة العدد في أعماق القطر بين أسوان والقاهرة على أن تظل بالقاهرة حامية كبيرة ، وتحتل قوة من الحشد إقليم انبيوم ، وتستقر حامية كبيرة في دمهور ، للدفاع عن إقليم البحيرة ضد عربان الصحراء العربية ، ثم بحري تأسيس عسند من الراكر في الشواطئ الشمالية بين الإسكندرية وطرابلس ، وقد اشتملت خطة الدفاع عن مصر على إنشاء نظام من التحصينات القوية للدفاع عن الإسكندرية ذاتها ، وتحرير الدفاع عن أنى قبر ورشيد ودمياط ومدخل بحيرة البرلس ، وإقامة خط من التحصينات على طول المسافة بين السويس وبحيرة المرة إلى المظفة التي استمرت تأتي منها حملات الغزو من « أرضة قدعة » ؛ بل إن (مور) مال إلى أن أشار بضرورة إنشاء علاقات الود والصداقة مع أحمد باشا الحارث صاحب عكا ،

الذي كان يصبح مستغلا عن تركيا ، وعظمت أطماعه في الاحتلاء على الشام بأجمعها ؛ وكان عرس (مور) من ذلك تأمين حدود مصر الشرقية من أية اعتداءات عليها من هذه الناحية^(١) .

وعند (مور) في أحراء التقرير الدلية إلى سان الخطة التي يجب على فرنسا اتباعها في حكومة هذه البلاد بصورة تسهل استغلال مواردها على خير وجه ، من ذلك أن تسوى الحكومة المصرية على النظم الأكبر من الأراضي المصرية ، فتعد توزيعها وتسعى إلى برغون فيها ، حتى يسهل لها مواجهة نفقات الفتح ، وواحد فرنسا كذلك أن تحل إلى مصر المصريون الفرنسيين الذين سوف يستعملهم حسب الأرض إلى الوفود بكثرة عظيمة إلى هذه البلاد ، فتعبر الحكومة أربع والقوات ، وتبقى بوسائل التي اتفق عليها في العهد الماضي ، ولكن فرنسا لعظمة نفقات الإدارة أن تعرض نوعين حسب من الصرائف : « صرية الفشر » ، وهي صرية الأرض التي على عينا من المصون عند حمله ، وفي وسع الحكومة أن تلجأ إلى طريقة الالتزام ، إذا شاءت التخلص من متاعب حيازة هذه الصرية ، فيلزم بها القادرون على دفع الصرية في أوقافها إلى الحكومة ، على أن يقوموا بحصيلها ؛ ثم « صرية التكاليف » وهذه بحسب الحكومة من الأعشاء ، ولكن على شريطة ألا يؤثر ذلك في كمية ما يستهلك من المصوغات والسلع المصرية . وما كانت الصرائف المحركة هي مورد إيرادات الحكومة الثالث . فقد تناول (مور) في تقريره هذه المسألة شيء من الإسهاب ، بعد أن يرى أن تصبح عمارة الصادر من أهم وسائل اتساع نطاق التجارة المصرية في مصر ، وزيادته ما يستهلك من المصوغات والسلع المصرية في الأسواق المحدة ، ولذلك فقد أشار إلى ضرورة اعتدال الرسوم المحركة ، كما طلب منع دخول الأقمشة الخيرية والفضية والصوفية إلى مصر ، مادامت لا تصنع في فرنسا ، أو لا عملها صنع فرنسية من مواني الهند . غير أنه كانت هناك ولائذ موارد أخرى تعود بالنفع على الحكومة ، كاحتكار عمارة التسع والذبح والنظرون والسا . وقدّر (مور) ما تستطيع الحكومة أن تحب من صرية الأرض ومن التجارة والاحتكارات بحوالي مائة وعشرين مليوناً من الحسب مونا^(٢)

ومع أنه كان في وسع فرنسا أن تستولي على حررتي قبرص وكريت من العثمانيين عند انحلال إمبراطوريتهم ، فقد رفض (مور) أن تسعين فرنسا بهذين الخريتين

(١) Mure-Memoire 650 — 58

(٢) Ibid 715 — 18; 721 — 32

عن مصر ، لا تافى ذلك من حصاره بحففة إذا أطاع فرسا فرصة الاستيلاء على مصر للأسباب التي سبق ذكرها ، بل ولأن املاك قرض وكريت سوف يحسم عه لاجالة فترة صاعب ومشكلات عدة بين فرسا واسطول الأوربية الأخرى الطامعة في املاك الدولة العثمانية

ووسا حرم (مور) هذا القرار لتمام قوله إنه إذا كان من المتعذر أن مسح القصور السياسية في مع الاعتداء على تركيا وغيرها ، فالواجب يقتضي فرسا أن تبادر في هذه الحالة بالاستيلاء على مصر ، إذ بفضل ذلك وحده تستطيع فرسا أن تحرر مكانه عالية ، تضمن لها السيطرة وتنفق بين الدول النصارية والبحرية ، بل وإيصع في مقصودها أن تؤكد هذه السيطرة وتعمل على تعزيزها^(١) .

وواضح في تقدم إذن أن السبب لفرسي في القسطنطينية والقصد الفرسي في القاهرة كما يصدق أن انحلال الامبراطورية العثمانية بات فرسا ، كما أشارا على حكومتها بضرورة امتلاك مصر . غير أن الحكومة الفرنسية لم تأخذ بهذه الآراء لأن وزير خارجيتها وقتئذ كان الكونت فرجنس Vergennes ، ولم يشاطر الوزير صغيره وقبضه رأبها في تركيا ، بل اعتقد أن الامبراطورية العثمانية مارات لعدة من الأنهار ، ورأى في قدرة تركيا على النقاء — على الرغم من تلك الحروب الطويلة التي حاصرت عمارها — حيز دليل على حيويتها وعدم انحلالها ، وعملك في سياسته الشرقية عندما ثارت ، هو المحافظة على كيان تركيا ، إذ كان يرى أنه يكفي مع الدول من الإقدام على تدمير مملكات الامبراطورية العثمانية أن تطل فرسا جهة إصرارها على عدم الاشتراك في أية مشروعات تهدف إلى ذلك . وعلى ذلك فقد استدعى سانت ريسر من القسطنطينية .

والطمان فرجنس إلى صواب سياسته عندما سوس الحملات القاعية وقتئذ بين كل من روسيا والنمسا من جانب وبين تركيا من جانب آخر^(٢) . وفي أبريل ١٧٨٤ وصل شوارز الحوييه السفير لفرسي الجديد إلى القسطنطينية ، ومعه عدد من الصايط والمهندسين والصناع المهرة ، لتنظيم الجيش والأسطول العثمانيين ، وإصلاح المواي والقلاع ، وتقوية الدفعة

على أن عملك الحكومة الفرنسية سياسة المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية ، لم يكن معه أن الفرنسيين قد غلوا نهائيا عن فكرة الاستعاضة عما فقدوه

(١) Ibid 732 — 35

(٢) Noradounghian I. 351 - 73, 377 - 86

من أملاكهم في « العرب » بإنشاء مستعمرات جديدة في « الشرق » عامة ومصر خاصة . فعد من الكتب وتفكرون والرحالة الذين درسوا المسألة الاستعمارية ، أورروا مصر في السنوات التي سبقت اعجاز ركان الثورة الفرنسية ، يوصحون الأخطار العظيمة ، التي طالت تهدد روان الدقية النقية من استعمرات الغربية القليلة في حرر الهند الغربية من جهة ، ويشيرون إلى مصر ، على أنها امتداد الذي تستطيع فرنسا أن تحميه بحاجاتها التي كانت تسدها من حرر الأنفل ، كالقطن وقصب السكر والذيلة ، فصل حصوة الأرض في مصر . وذلك إلى جانب ما يعود على فرنسا من فوائد أخرى إذ هي أحدث هذه البلاد ، إذ من شأن ذلك الاحتلال أن — يجعل التجارة بين فرنسا وبين الهند وبلاد العرب وپارس وإفريقية سهلة ميسرة . وعلاوة على ذلك فقد كان لكتابات الرحالين الذين زاروا مصر ، وشرب « أسفارهم » وقتئذ ، أكر الأثر في توجيه أقطار مواطنهم نحو الشرق عامة ، ومصر خاصة باعتبارها خير ميدان يصلح لتسند إمبراطورية فرنسا الاستعمارية الحديثة .

وكان دارود دي توت Tott من بين أولئك الرحالين ، الذي زاروا في مهمات رسمية ركنا ومالطة وكريت ومصر ، إلى غير ذلك من الأقطار والبدان ، وفهم تقارير عدة إلى حكومته ، وقد شرب في عام ١٧٨٤ « مذكراته » التي دوسها في أثناء رحلاته . واعتقد دي توت — كما اعتقدت رست والفصل مور — أن الدولة العثمانية آتية إلى الحقول لاحتلة وفي وقت قريب . كما كان يرى أن ابواب مغمي فرنسا أن تحتل مصر ، إذ هي شامت الاستتار سحارة القنات أو حوص البحر الأسس الشرقى ، بل إن في استطاعة فرنسا أن تسطر على عماره الهند كذلك إذا هي أثبتت ناة فصل بين البحر الأحمر والبلد مد فرع دسائط ، أو عمت لإحياء الطريق البري بين السويس والقاهرة ، وسوف يسهل على فرنسا إذا تقرر فتح مصر أن تتدفع بما كان يلحقه البكوات الماليك من أذى بالتجارة الفرنسية بلامداع على عرو هذه البلاد ، وسواء أرعت فرنسا في العدل منفردة أم امتعات بالتمس لقاء أشيد أطاعها في القسطنطينية ، فإن العرو سوف يكون سهلا ميسرا لسبب فوضى حكومة الماليك في مصر ، وضعف التحصينات المقدمة على الشواطئ المصرية ، والتهابة في الأسكندرية وأنى قبر ورشيد ودمياط خاصة . واعتقد دي توت أن احتلال مصر يكتفى لتعويض فرنسا عن كل خساره قد تصاب بها إذا قدر لها أن يمدد جميع مراكر عمارها في القنات . وعقد (دي توت) موارنة بين مراه امتلاك كريت والاستيلاء على مصر ، فخص من هذه الموارنة إلى أن مصر « مستعمرة مثالية » لحصوة أرضها وصلاح مساحتها لإقامة المستعمرين الفرنسيين ،

وقررها من فرنسا ، وقلة العقبات اللازمة لإنشاء الصلات الوثيقة بينها وبين أرض الوطن ، وسهولة الدفاع عنها ، وحسن ما يهيئ لها موقعها الجغرافي من إمكان تركيب النشاط التجاري بها ، فلا تروع فرنسا قواتها في أماكن سيئة متفرقة بل يصح في استطاعتها آتئذ أن تشرف من مصر داتها على سوت محاربتها في الليقات والمدائن وحافات الغرب المعروفة (طرابلس وتونس والجزائر) .

وفصلا عن ذلك فإن فرنسا إن تبقى معارضة من جانب تركيا أو الدول الأخرى ، ذلك أن تركيا مشغولة بضالها للتمتع مع روسيا ، وهو حال آتئذ قواها ، حتى باتت عاجزة عن التدخل في حروب أخرى جديدة ؛ ولئن يقدم الإنجليز على مساواة فرنسا بسبب ما تنكده من حصار في أثناء راعهم الطويل مع الولايات الأمريكية ، ولما كان الإنجليز يعملون دائما اسرع المستعمرات الفرنسية من أمثالها ، فإن اسلاك مصر سوف يعوض فرنسا كذلك عن أنه حصار قد تلحق بها على أيدي الإنجليز في مستعمراتها اساقية ، أصب إلى هذا أن الاستيلاء على مصر سوف يعوق على روسيا من جهة أخرى فرصة الاستئثار بتجارة الجنوب ، ويحد من أطمعها ، إذ أن استقرار الفرنسيين بهذه البلاد من شأنه أن يصرف روسيا عن محاولة التوسع ، ومد نفوذها إلى البحر الأبيض ، بعد محاولة الاستيلاء على القسطنطينية وعر الأرحيل (١)

وفي عام ١٧٨٦ نشر (سافاري) Savary « رسائله » المشهورة عن مصر . وقد ذكر صاحبها الشيء الكثير عن تاريخ البلاد في عهد سيطرة سكوات المماليك ، أنام على ملك الكبير ، ومحمد بك أبي الذهب ، ووصف ملك الفوضى التي انتشرت في البلاد بعد وفاة أبي الذهب . على أن أهم ما يسترعى نظر في هذه « الرسائل » أنها كانت تصف وصفا شائفاً لخصوبة أرض مصر ، وكرم الدنيا والديوم بوجه خاص ؛ ووفرة علائها الزراعية ، من القصب وقصب السكر وغير ذلك ، كما أنه وصف أهل البلاد وعاداتهم وأخلاقهم وأصاليب معيشتهم ، ودون كثير من أخبار حملة (القديس لوس) على مصر ، وواقعة المنصورة . ووصف آتئذ لبلاد لقدعه

وبعد عام واحد من نشر هذه (الرسائل) ظهرت رحلة فولني Volney في مصر وسوريا . ويختلف فولني عن سافاري في أن هذا الأخير ينظر حين المتماثل إلى حالة مصر على الرغم من الفوضى التي أصرت بالبلاد ، على حين كان (فولني) « منشغلاً » بإد عمد — في ذلك الجزء ايسير القدي حصصه من حصول كتابه اطويلة لدراسة جغرافية هذه البلاد وشئون حكومتها وتجاريتها ووصف سكانها ، والأمراض المنتشرة

مها ، وما إلى ذلك - إلى إظهار ما كان عليه القلاح من يؤس وشقاء بسبب حدوث
الطاعات ، وفك الأوثان به ، وخرج (فولى) من مشاهداته « بأنه ليس من السهل
أن يذى كل إنسان رأيه في حال أهل هذه البلاد ، إذا عرف أنهم أحاس محظرة
وشع متعددة ، وأدرك ما عليه حكومتهم ، التي لم تكن تدرى شيئاً عن تلك المبادئ ،
لتي تفر حقوق الملكية ، وتخرجه ، أو تبادى ضرورة تأمين الأفراد على حياتهم
وأموالهم وحريةهم ، ووجد جماعة من الخوادم الذين عرفوا بالطغيان ، واشتهروا
بالشد ، يستأثرون بكل سلطة مطلقة ؛ كما أنه من اليسور أن يعرف المرء مدى
ما يستمتع به حكومة اسلا من قوة وأس ، إذا وقف على مقدار استعدادها الحربي .
وحر حال حدودها ذلك أنه لا توجد بالبلاد حميتها ، وعلى حدودها بوجه خاص ،
أية قلاع أو حصون أو مدافع أو مهندسين ، هذا يعني بأن أسطولها في مياه
سويس من حوائى غمان وعشر من سفينة ذات سلاح ضعيف النفعون ، تعمل ملاحين
لا يعرفون كيف يستخدمون هذا السلاح » .

والواقع أن مصر في نظر (فولى) لم تكن من الناحية العسكرية بالبلد الذي
يؤبه له ، لخلوه من التجهيزات الميعة عامة ، وانصب حامية الإسكندرية خاصة .
وكانت هذه الخدمة تتألف من الخوادم الإسكندرية الذين بعض عددهم إلى نصف
تقريباً ، وكانوا يصبون الوقت في الدخيل ، ولا دراية لهم بمسول الحرب والقتال (١) .
وكان من رأى (فولى) أنه لابد إصلاح هذه الأحوال ، وإزالة المساوىء التي رزح
الملاحون تحت كل شكلها ، أن تخرج مصر من سادة العنانيين ، حتى تتولى تدبير
شؤونها دولة أخرى تشعر بالعطف على المصريين ، وتحمل لهم وداً وصداقة ،
على شريطة أن تكون كذلك دولة منحصرة ذات مهمة أدبية علمية فنية ، حتى يتمكنوا
أن تهتم تراث المصريين القديم ، وتعمل بالبحث عن آثارهم المدفونة في الدلتا والصعيد ،
وتكشف عن رموز الكتابة الهيروغليفية (٢) .

وقد دأب الاعتقاد بعد نشر هذه الرحلة أن صاحبها إنما كان يقصد فرنسا عندما
تحدث عن تلك « الدولة المنحصرة والممددة » التي يجب أن تحمل مصر .
حتى تشمل العلاحين والمصريين من حياة النؤس وانتقاء التي دأقوا مرها في ظل
سادة العنانية . وقد صادف دأبوع هذا الاعتقاد ولا شك هوى في نفوس أولئك

Volney I. 7 — 8; 235 (١)

Ibid 256 — 7 (٢)

الفرنسيين الذين كانوا يتوقعون إغلال الإمبراطورية العثمانية القريبة ، ويريدون الاستحواذ على مصر باعتبارها نصيبهم من تركه هذه الإمبراطورية المحطلة .

وبما كان معنى ذلك أن سند فرنسا ظهيراً سياسياً التفيدية نحو تركيا ، وتقدم على الاشتراك مع غيرها من الدول في تقسيم ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ، فقد نادر فولى في عامي ١٧٨٨ - ١٧٨٩ نشر « آرائه عن حرب الروس والأتراك »^(١) ليُدحض تراجم ويقم الحجة على أن روسيا وحدها هي الدولة التي يجب أن تترك لها فرصة التصرف كما يريد مع السلطان العثماني ، وذلك لاعتقده أن كاريي الثانية قيصره اروسيا هي التي كان في وسعها أن تنقذ تركيا من العوصى المنتشرة بها ، حتى إذا فعلت ذلك حلت التجارة الفرنسية في الليبانت فوائد كثيرة .

وقال (فولى) يهدم دعاوى الراغبين في امتلاك مصر : « لا حدان في أن مصر تنتج المحصولات التي تحتاج إليها فرنسا كالشعير والأرز والقمح والحب واللبنة وقصب السكر وغير ذلك ، ومجموع أهمها فرصة من فرنسا ، والدفاع عنها صعب سيء ، وفي وسع الفرنسيين أن يهروا روح السويس فبصنوا بطريق مصر إلى تجارة الهند ، ويعطوا طريق التجارة حول رأس الرجاء الصالح ، ولا شك في أن احتلال مصر سوف يعكس الفرنسيين من الحصول على السلع المطلوبة من إفريقيا كالذهب والتمر والمطاط والريفيق ؟ وفي إمكانهم كذلك أن يجمعوا بها الذهب الذين استخدمهم فرنسا الآن في حرق اسكر كسان دوسحو وغيرها من حرق الهند العربية ، وذلك إذا استطاعت فرنسا الاعتماد هذه الطرق في النهاية ؟ وعلى الرغم من كل هذه الآراء فإن صعوبات عدة سوف تواجه الفرنسيين ، ولا مخلص من أن تنصوا عليها أولاً قبل احتلال مصر واستعمارها . ذلك أن فرنسا سوف نجد نفسها مرعومة على حوص عمارة حروب ثلاثة : مع الأتراك والإنجليز وأهل البلاد أنفسهم ، ومن للتوقع أن يعظم إقبال الوطنيين على محاربة الفرنسيين دون أي تردد ، لاختلاف الفرنسيين عنهم في الدين والمذهب وفصلان ذلك فإن انتصار الفرنسيين في هذه الحروب كلها ليس معناه — بد قدر لهم النصر . أن في وسعهم أن يبححوا كذلك في اسعر مصر ، لاختلاف الدين وإمادات والأخلاق » ثم سأل : وكيف يرحو الفرنسيون النجاح وهم الذين أحفقوا في الهند ومد عشقر وحوايانا وحوص السيبي . ثم فشلوا كذلك في سان دومينجو . لأن انصر في استعمار هذه الجزيرة إنما يرجع إلى التعارض الأوتان ، دون أي تدخل

من جانب الحكومة العربية ، وكان من رأى فولى أن تقصر فرنسا جهودها على تحسين الإيجار في داخل بلادها عندما كان حوالى سدس أرضها الصالحة للزراعة بوراً ولا يلقى عنه ، وذلك بدلاً من التفكير في التوسع الخارجى .

على أن اصراف الفرنسيين عن استثمار مصر — كما طلب فولى — كان معاه أن يرعى الفرنسيون عن طيب خاطر بالثروة عن ذلك للركر الذى أرادوا أن يشعلوه ببلادهم بوصفها دولة كبرى لا عى لها عن امتلاك إمبراطورية استعمارية كبيرة . وقد رعى الفرنسيون أن يفعلوا ذلك ، في وقت كان العداء فيه مستحكماً بينهم وبين الإمبراطور الذى استولوا في الحروب الماضية على أكثر مستعمراتهم القديمة ، وفتح استعمارهم محاصراً مدحرجاً ، على الرغم من فقد الولايات الأمريكية . وعلاوة على ذلك فقد كان من المتعذر على الفرنسيين أن ينفذوا ظهوراً فكرة الإمبراطورية الاستعمارية عندما كانت ممتلكاتهم الساقية في حرر الهند العربية مهددة بالصيغ ، لانهيار نظام استعمارهم القديم بهذه الجور ، ولم يصرف الفرنسيين عن الاستعمار في السنوات التالية إلا اشتعال الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ ، وما رتب على ذلك من حوادث كان أهمها تأب الدول ضد الثورة ضد عام ١٧٩١ ، ثم نكوى التحالف الدولى الأول ضد فرنسا عقب إعدام الملك (١٧٩٣) ؛ وقيام الاضطرابات والثورات القى سبق وصفها في حررة سان دومنجو ، واحلال الإغلب لأهم مواطنيها في العام السالى ، فترغم الفرنسيين ، وشعروا عن التفكير في إحياء إمبراطوريتهم القديمة ، أو إنشاء أخرى جديدة ، حتى وقع من الحوادث بعد ذلك ما جعلهم يتحررون من ذلك القصور الذى يبط عزائمهم .

ذلك أنه حدث في الهند الصينية حوالى هذا الوقت أن قامت الثورة في (كوشين صينى) ، وأرغم (نغون أنه) Nguyen-Anh ممتلكها على الهرب إلى بوند شيرى يطلب مساعدة الفرنسيين ومعاونهم له في استرجاع عرشه ، فأجاب النجار الفرنسيون في بوند شيرى رغبته ، واستطاع الملك العودة إلى بلاده طامراً مصوراً في عام ١٧٩٠ ، وعرف بالفرنسيين صديقهم فأخلص لهم الود ، وحكم أواصر صداقته مع فرنسا من ذلك الوقت حتى وفاته بعد ثلاثين سنة ، مهدت هذه الحوادث لبدء الاستثمار الفرنسي في الهند الصينية ، كما دلت على أن الفرنسيين لا يزالون على الرغم من كل ما ألم بهم بطردون إلى امتلاك إمبراطورية استعمارية كبيرة ، بل ويودون من صمم قلوبهم أن تشبع رغبة هذه الإمبراطورية كلها وحتدوا إلى ذلك سيلاً .

وقد أتت الفرصة لتوجيه أنظار الفرنسيين إلى الاستعمار بصورة حدية في أثناء المعاولات التي بدأت بين بونابرت وحكومة الإدارة من جانب ، وبين النمسا من جانب آخر بعد استيلاوات بونابرت الباهرة في أثناء حملته الإيطالية ، وقد أسفر الاهتمام بالمسألة الاستعمارية وقتئذ ، كما أسفرت الرغبة في الانتقام من المحللة التي سمعت على النصال عمردها ضد الجمهورية بعد انحلال الجمعية الدولية وإرغام النمسا على طلب الصلح ، عن تقرير إرسال بونابرت على رأس جيش كبير لغزو مصر ، ووضع أسس ملك الإمبراطورية الاستعمارية العظيمة ، التي شاء الفرنسيون الآن أن يشيئوها في ميدان (الشرق الجديد) .

الانتقام من المحللة

كان أهم ما عييت به حكومة الإدارة ، بعد أن جلس لها الأمر في أكتوبر ١٧٩٥ ، الاقتصاص من النمسا والمحللة التي سمعت بالاشتراك مع بدمست على الاستمرار في النصال ضد الجمهورية ، على الرغم من عظم المهامة الدولية الأولى ، وحروب هولندية وبروسيا وأسبانيا وتلكيا وهس كسل من الحرب ، وأعد كارنو Carnot ، عضو حكومة الإدارة خطة عسكرية لندبر هجوم واسع النطاق على النمسا عن طريق أسبانيا والداوب ، ثم عن طريق إيطاليا الشبسة . وفي مارس ١٧٩٦ أرسل بونابرت قيادة الحملة لغزو إيطاليا ، فوصل إلى بيس في اليوم السادس والعشرين من الشهر نفسه . ولم يمر شهر واحد حتى كان النمسا الشاب قد هزم جيوش بدمست في (مونت بوت) Montenotte و (ديجو) Dego ، وأزعم ملكها أندوس ثالث Amadeus عن عقد الهدنة في تورين ، وقد استطاع بونابرت بعد ذلك مطاردة النمساويين ، فمرحس لودي Lodi ، وأرسل بهم حسانر فادحة (٩ مايو) ، ودخل ميلان ، ثم انصر على جيوشهم في مواقع عدة . أهمها أركولا Arcola ، ثم ريمولي Rivoli (١٥ يناير ١٧٩٧) ، وسقطت مسوا Mantua في ٣ فبراير ، وسقطت النمسا ، فاستمرها تحت رحمة بونابرت ، واستمر النمسا إلى عقد الصلح ، ورحب بونابرت عن النمسا ، وانصر على جيوشها ، وفي ٧ أبريل وصل إلى لوبن Leoben إلى مافة ثمانية ميلاً من فيا نمسا ، وعمدت طلب النمساويين الصلح ، فعقد بونابرت معهم هدنة لوبن في ١٨ أبريل ١٧٩٧ ، تمهداً لعقد الصلح النهائي

وقد نصى هذا الانتصار السريع على المصلحة الدولية ، ووقع عنه ارسال الآن صد فرنسا على كامل المحللة وحدها ، ولذلك فقد رعت حكومتها في عقد الصلح

مع الجمهورية وأرسل (Pitt) رئيس وراثتها ، اللورد مالمسبرى Malmesbury ، إلى (ليل) لمفاوضة في شروط ائتماع مع إنجلترا ، ولكن هذه المفاوضات التي استمرت أربعة شهور تقريباً ، من يونيو إلى سبتمبر ١٧٩٧ ، سرعان ما أخفقت ، لإصرار فرنسا على ضرورة رول الإنجليز عن مستعمرة الكاب الهولندية في جنوب إفريقيا ، وكان الإنجليز قد استولوا عليها مدائن خربت هولنده من المعركة (١٧٩٥) ، وحتى هؤلاء اسلوا ، الفرنسيين على هذه المستعمرة الأفريقية ، وفصلا عن ذلك فقد احتل الإنجليز جزيرة سيلان الهولندية ، كما أخذوا مدفا وغيرها . وقد وفق الإنجليز في إنهاء هذه المفاوضات على السازل عن المستعمرات التي أخذوها من هولنده ، وبكسبهم تمكنوا من استعمار الكاب فاشروا بسكسهم هذا خريطة الفرنسيين ، الذين أعظمهم أن يروا هولنده تعدد مستعمراتها ، وكان الفرنسيون مدائن صارم على هولنده قبل ذلك ثلاثة أعوام . وقد طالوها إلى جمهورية (جمهورية تنافيا) وأدخوها تحت سيطرتهم ، وبهذا الآن يملكون أهمية كبيرة على اهتمام هذه الجمهورية مستعمراتها ، في الوقت الذي يجري فيه الفرنسيون أنفسهم عن اسلوا مستعمرات جديدة . وكانت مستعمراتهم في جزر الهند الغربية مهددة بالانهيار التام بل إن أحد اسكنات الفرنسيين (بواسيرو) Boiser Ile مالت أن يادر فشر عثا في أثناء هذه المفاوضات ، بخبره حكومة الإدارة معه لتعريف في ممتلكات « خليفتها » هولنده وطلب إليها أن تبدل ما وسعها من جهد وجهته ، حتى تستفي هولنده كل مستعمراتها في الهند الشرقية ، على عسار أن « المعاهدة » المأتممة بين هولنده وفرنسا تعمل من حق هذه الدولة الأخيرة أن تعد ممتلكات هولنده من المستعمرات الفرنسية . وعلى ذلك فقد عادر (مالمسبرى) أرض فرنسا ونات من واجب حكومة الإدارة أن تعقد ائتماع سرهما مع فرنسا ، حتى يفسر لها الفرع لمصلحة إنجلترا والافئصاص منها . ومدائن شعل (تاليران) Talleyrand نصب وزير الخارجية في حكومة الإدارة ، في ١٦ يولية ١٧٩٧ ، تعاون مع بونابرت في وضع القواعد التي قام عليها الصلح النهائي مع فرنسا

وكان شارل موريس دي تاليران — ربحور De Talleyrand Périgord (١٧٥٤ — ١٨٣٨) من بين أوائل الفرنسيين الذين اضطروا إلى الهجرة من فرنسا في أثناء ثورتها الكبرى ؛ فاقم في إنجلترا مدة ، شاهد في أثناءها كبار المزارعين والتجار من سان دومينغو يقصدون لندن (سبتمبر ١٧٩٢) لطلب مساعدة الإنجليز ، فأثار نشاطهم اهتمامه (بالمسألة الاستعمارية) ؛ وكان من رأيه أن

فرنسا في وسعها أن تجد ما تستعص به عن تلك المستعمرات التي حشرت في حروبها الماسية ، إذا هي أقدمت مع المحلثة على اقتسام إمبراطورية أسابيا الاستعمارية ، ولكن هذه الآمال سرعان ما تبدت عندما دخلت المحلثة في حربها الطويلة مع فرنسا في العام التالي ، وطلبت إلى تاليران معاداة بلادها . وعدتد فضل تاليران الإهامة في الولايات الأمريكية وقد أتاح له وجوده بالولايات فرصة الوقوف على حقيقة الاستعمار الفرنسي بأسسه القدعة التي قام عليها : الحق الاحتكاري ، واستخدام الرقيق ، فقد شهد « اللاحثين » من سان دومنجو عدون إلى المدن الأمريكية للسكنى بها ، فراروا من تلك الثورات التي شنت في حرر الهند الغربية (منذ عام ١٧٩٠ تقريباً) ، وقتل عدد عظيم من المستعمر « البيض » في أنشائها : وعى تاليران مجمع طائفة من المعلومات الوثيقة عن تاريخ الاستعمار لفرنسى في أمريكا . حتى إذا غادر الولايات إلى فرنسا أخيراً في يونيو ١٧٩٦ ، كان قد أصبح يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الواجب يقتضى فرنسا أن تبدل كل جهد في سبيل إعادة الرضاء إلى حزر الهند الغربية ، بل وعليها أن تعمل للاستيلاء من جديد على (لوزيانا) ذاتها ، حتى يشفى عودة هذا الرضاء إلى الهند الغربية بفصل ما سوف يشأ من تعاون بين لوزيانا والحرر . وأما إذا رفضت فرنسا العودة إلى نظامها الاستعماري القديم في أمريكا ، فإنه لا عى لها عن أن تبحث عن مستعمرات أخرى جديدة ، وفي ميادين غير تلك التي شهدت اختفائها .

وفي الفترة التي سقت اختياره لوزارة الخارجية ، كرس تاليران وقته بحث المسألة الاستعمارية ، ووجد الفرصة سانحة لسط آرائه عند انضمامه إلى هيئة المجمع العلمى الفرنسى ، فأعد بحثاً تلاء على أعضاء هذه الهيئة في ٤ أبريل ١٧٩٧ ، تحدث فيه عن العلاقات التجارية التي نشأت بين المحلثة والولايات المتحدة الأمريكية ؛ على الرغم من الحرب الاستقلالية الأمريكية ، وأشار إلى أنه باب واحد على فرنسا أن تقطع هذه العلاقات ، كما أقام الحجة على أن ذلك سهل ميسور إذا أنشأت فرنسا « مركزاً هاماً » أو مستعمرة جديدة لها في أمريكا ، وكان عرض تاليران أن تكون (لوزيانا) هذه المستعمرة الجديدة .

غير أن الظروف وتشد لم تكن مواتية لاستمالة الزمى العام الفرنسى إلى الاستعمار في أمريكا ، لوصول أخبار الاضطرابات التي حدثت في سان دومنجو إلى باريس ، في هذه الآونة ، ولأن فرنسا لم تكن لديها بحرية قوية تساعد على تعيد هذا المشروع

الاستعماري الجديد . ولذلك فقد قرر نابليون أن يصحح حايبا مسألة استعمار بورتوريكا العبيدة ، وأحد يدعو بدلا من ذلك إلى الاستيلاء على مستعمرة تكون سبب موقعها الجغرافي قرية من فرنسا . وفي ٣ يوليو ١٧٩٧ ألقى نابليون بحث آخر في المجمع العلمي ، كان له أثر حاسم في انتقال الفرنسيين انتحالا من ذلك الجول الذي صرفهم عن التفكير في المستعمرات ، وحصلهم يجمعون عطلة الإنجليز بأن يهدوا إلى هولندية مستعمراتها ؟ وصاروا الآن يشعرون شعورا عميقاً بأنه بات من الواجب عليهم أن يعملوا هم أيضا جاهدتين من أجل الاستيلاء على مستعمرات جديدة^(١) .

وكان عنوان البحث الذي ألقاه نابليون : « رسالة في الموائد التي تعود (على فرنسا) من أملاك مستعمرات جديدة في انطروف الحاضرة » . وقد بدأ نابليون نقاشه في الاستعمار القديم ، حتى الاحتمار ، واستخدام الرقيق الأسود . ثم تحدث عن اضطراب الأحوال في حرر الهند الغربية ، حتى بات من الموضع إهيار الاستعمار الفرنسي عما في هذه الحرر ، أو انفصالها في آخر الأمر عن فرنسا ؟ وكان أهم ما دعا إليه أن تعي بلاده بالبحث في ميادين أخرى عن مستعمرات تمنح المحصولات التي تحتاجها فرنسا ، وكانت تأتيها من حرر الهند الغربية . وذكر نابليون أن هناك ميادين غنية . لإنشاء هذه المستعمرات الجديدة ، هما أفريقيا الغربية ومصر . ولما كان الإنجليز ، الذين توقعوا أن تزداد الحال سوءاً في حرر الهند الغربية ، قد سبقوا الفرنسيين في استعمار أفريقيا الغربية ، وأسسوا مراكر في (سيرايلون) ثم اعزموا إنشاء غيرها في (بولما) ، فقد بات أمام الفرنسيين ميدان واحد هو مصر ، يستطيعون أن يشيدوا فيه صرح إمبراطوريتهم الاستعمارية الجديدة ، وفصلا عن ذلك فقد رغب (شواربل) معه - في عام ١٧٩٩ - في الاستيلاء على مصر حتى يحوصل بذلك على فرنسا ما فقدته من ممتلكات في أثناء حروبها الاستعمارية السابقة

ولم يكن نابليون الرجل الذي فكر وحده وقتئذ في إمكان استعمار أفريقيا الغربية ذلك أن الاستعمار في أفريقيا كان من الموضوعات التي شغلت أذهان الفرنسيين وكل أولئك الذين أشاروا على فرنسا بامتلاك المستعمرات الجديدة في هذه القارة ، عند ما وجمعت أهمية هذه المسألة ، عند تمسك الإنجليز بمستعمرة الكاب الهولندية ، في أثناء معارصات (لل) التي سبق ذكرها ، فقد بحث كارل رنار ودستروم Wadström - وهو رحالة سويدي اهتم اهتماما كبيرا بموضوع الاستعمار في أفريقيا

العربية رسالة إلى تاليران ، بعد ثغته الأخير بصعته شهور ، يدعو فيها الورير
الفرنسي إلى التكبير حدا في ضرورة إقدام فرنسا على امتلاك مستعمرات جديدة ،
ويقترح عليها أن تحتل الرأس الأخضر ، على أساس أن هذه المنطقة خير مكان يصلح
للاستعمار الفرنسي في أفريقيا العربية . بل إن (ودستروم) ما لبث أن نشر في بداية
العام الأسى كتابا عن الاستعمار في سيراليون وبولاما اشتعل كذلك على خطاه
السابق إلى تاليران ، وأهدى منه سحا كثيرة إلى مجلس الخمسة ، وشكل هذا
المجلس لجنة لبحث مقترحات (ودستروم) وعلى ذلك فقد بات أمام حكومة الإدارة
أن تختار بين الاستعمار في أفريقيا العربية ، والاستعمار في مصر ، ما دام قد رشح
الاعتماد في دوائر الحكومة بضرورة الاستيلاء على مستعمرات جديدة ، وأيد لرأى
العام الفرنسي هذه الرغبة وكان في أثناء المفاوضات التي استمرت بعد توقيع الصلح
في بون في أبريل ١٧٩٧ ، وأضمت إلى إبرام معاهدة كامبو - فورميو
Campu-Formio مع النمسا في أكتوبر من العام نفسه ، أن اجتمعت الأسباب التي
أقمت حكومة الإدارة ، ووزير خارجيتها ، ووالدها انتظر في إيطاليا ، بأن الاستعمار
في (الشرق) خير من الاستعمار في أفريقيا العربية ، وأن مصر أفضل أقطار (الشرق)
التي تصلح ميدانا للتجربة الاستعمارية الجديدة

وكان عرض بوناپرت وحكومة الجمهورية أن يحقق الصلح النهائي مع النمسا ،
بمصادف أعداء الأمل القريب ، بصورة تتهمهم من استئصال مصالح هذه الجمهورية
الفرنسية ، فلا تعرض لأية أخطار من جانبهم ، كما أراد بوناپرت وحكومة الإدارة
أن يهيئ ، هذا الصلح ، بفصل ما يتصله من قواعد واشتراطات سياسية أو عسكرية ،
الوسائل التي تمكن فرنسا من الانقصاص من أعدائها ، وهرعها هزيمة ساحقة ،
برغمها إرغما على طلب الصلح ، وقبول كل شرط مهما كان قاسيا ، قد يتراءى
لحكومة الجمهورية أن تعرضه عنها . وعلى ذلك فقد كتب بوناپرت من ميلان إلى
حكومة الإدارة ، ثم إلى تاليران ووزير خارجيتها ، في ١٦ أغسطس ١٧٩٧^(١) ،
يعرض ما حان بخاطرهم من آراء تصد شروط الصلح النهائي مع النمسا ، وحتى يهد
كذلك لبقول هذا الصلح من جانب حكومة الإدارة دون معارضة . فقال إنه لما
كان معنى أن تصحح النمسا دولة بحرية تهدد مصالح فرنسا في البحر الأبيض المتوسط ،
فقد قرر الاستيلاء على أسطول جمهورية المدقة ، وعلى حرر الأيوبيان ، وأعمالها
كورفو ، وسيفالوتيا ، وزيق

وقد أرسل بومارت فعلا خطابه عدين عقب احتلال هذه الجبل . وكان السبب في ذلك أن الصلح الهائي سوف يقوم على أساس تبادل النخس عن ممتلكاتها في بلجيكا ودرديا ، وعلى حدود هر الرن ، فقاء أن يسل المساويون تعويضا عن هذه الممتلكات في استريا وولاشيا على شاطئ الأديريتيك الشرقى ، وكانت هذه من أملاك البندقية . وفصلا عن ذلك فقد كان من المظهر أن تأخذ النمسا معاينات البندقية لواءة بين هري أجليو Oglio و بو Po وشاطئ الأديريتيك النجى ، وبذلك يصبح للمساواة عمرة هامة . فكها إذا هي استطاعت أن تضم أسطولها إلى أسطول نمكة نابي من إحرار السيطرة في البحر الأبيض . ولذلك فإن حرر النمسا من الاستيلاء على أسطول البندقية من جهة ، ثم إقدام بومارت على احتلال حرر الأويوين من جهة أخرى ، كان ضروريا مع هذا الخطر ووضع بومارت في رسالته إلى الحكومة وتايران أهمية حرر الأويوين على وجه الخصوص ، فقال إن احتلالها يصعب الاحتفاظ للفرنسيين بمساعدة في غر الأديريتيك وفي حوض البحر الأبيض الشرقى (اللبغات) ويساعد على إبعاض التجارة الفرنسية في هذه الجهات . وفصلا عن ذلك فإنه ما كانت هذه الحرر قريبة من ممتلكات الإمبراطورية النمبية ، وخاصة في ألبيا ، التي كان يعمل ناشواها وعلى رأسهم (على شا صاحب بيتا) على شق عصا الطاعة والامصال عن تركيا ، فقد بات في استطاعة حكومة الجمهورية أن تشق صلاب وثيمة مع هؤلاء الناشوات ومع الألبانيين ، الذين عرف عنهم أنهم يعملون كثيرا إلى فرنسا كما أن قرب الحرر من تركيا سوف يمكن فرنسا دون شك من أن تعمل سحاح ، إما من أجل المحافظة على كيان الإمبراطورية النمبية ما دام ذلك ممكنا ، وإما من أجل الاستحواذ على بعضها من ممتلكات النمانيين عند انهيار إمبراطوريتهم . وما كان بومارت يعتقد أن انهيار هذه الإمبراطورية قد صار قريبا ، فقد أصبح لزاما على فرنسا في نظره أن تفكر حديا ودون أى إبطاء في حيز ابوسائل اق فكها من المحافظة على تجارتها في اللبغات . وقال بومارت إن فرنسا سوف تحدد وقت قصير أنه لا مدوحة عن الاستيلاء على مصر دافا — من أملاك النمبيين — إذا هي شادت أن تحقق باعتبارها مربعة فادحة وقد وافقت حكومة الإدارة — على لسان تاليران وربر حارحيتها — في ٢٣ أغسطس ^(١) على احتلال حرر الأويوين ، كما وافقت على جميع الاعتبارات التي ذكرها بومارت عند كلامه عن تركيا . فقال

تاليران إن إنشاء العلاقات الوثيقة مع ألمانيا واليونان ومقدونيا ، بل ومع جميع
أقطار الامبراطورية العثمانية المطلة على البحر الأبيض ، مسألة ذات أهمية كبيرة ، ولا
على وجه الخصوص عن إنشاء هذه الصلات الحية بين فرنسا ومصر ، وذلك
لك يسيطر أن تسديه مصر يوماً من خدمات جليلة الشأن لفرنسا .

غير أنه لم يكن من السهل إقناع كل أعضاء حكومة الإدارة أو غيرهم ، من العناصر
« المعتدلة » في هيئات الحكومة الأخرى . بأن من الحكمة وأصلية الرأي إعطاء فرنسا
بعض امتيازات السدقية على الصورة التي أرستها بومبارت ، ووافق عليها تاليران ، لقاء
ما أحدثته فرنسا من أملاك لها دأها ، وذلك حتى يتسنى عقد الصلح سريعاً مع هذه
الدولة ، لمربع دائرة المحلثة . وحمل هؤلاء المعارضون شدة على ممالك بومبارت مع
السدقية وحده . ولكن هذه الصعوبات سرعان ما اختفت عندما أرسل بومبارت الطهران
(أو حرو) للاشتراك في حوادث انقلاب ١٨ فركتيدور المشهور (٤ سبتمبر ١٧٩٧) ،
وهو الانقلاب الذي سبق ذكره عند الحديث عن مو . واتهم تاليران بومبارت
ورغائير لئلا يسيروا على العناصر المعتدلة ، في الحكومة ، فاستطاع بومبارت أن يسيطر على
سير المعايضة مع النمسا وفق رعايته ، وحسب القواعد التي وضعها لها والنابدي . التي
استرشد بها . وفي ١٣ سبتمبر ١٧٩٧ كتب بومبارت إلى تاليران من سديانو^(١)
يسلط هذه القواعد والنابدي . في رسالة طويلة ، لها في تاريخ الحوادث التالية
أهمية كبيرة

ذلك أن بومبارت سطر في هذه الرسالة ، للمرة الأولى ، تلك المشروعات التي كان
هدفها الاستيلاء على مالطة وهي مصر ، وقد ارتبطت هذه المشروعات بالموضوعات التي
أثارتها معاومات الصلح ، وكانت ذات صلة وثيقة بالموقف السياسي في أوروبا . فقد
كان إحراز السيطرة الكاملة في البحر الأبيض أمراً لا مفر منه ، إذا شاءت فرنسا
الاطمئنان على سلامتها من ناحية النمسا ، الأمر الذي دعا بومبارت إلى الاستيلاء على
أسطول السدقية . واحتلال حرر الأتوبيان على نحو ما سبق ذكره . وكان لصيان هذه
السيطرة البحرية أن طوع بومبارت يسكن حدياً في ضرورة الاستيلاء على جزيرة
مالطة ، وصلاً عن ذلك فإنه لما كان قد تبين أن المحلثة مارانت مصممة على التمسك
بمستعمرة الكاب المولدية ، وأقصى تمسكها بهذه المستعمرة إلى فشل معاومات الصلح
معه في (ليل) ، وبات أعاد الصلة للاقتصاص من المحلثة أمراً لا مفر منه ، فقد دعا

نوبارت إلى احتلال مصر بظفر استيلاء اعملة على مستعمرة الكاب . وكان مما دعاه إلى التفكير في ذلك اعتقاده ثم اعتقاد نايران أيضا أن انهيار الامبراطورية العثمانية بات وشيكا .

وود يحدث نوبارت في هذا الكتاب ، الذي بعث به إلى نايران ، عن أهمية املاك حرر الأتوبيان من الناحية التجارية ، وما سوف يجني عن امتلاكها من آثار في بحريات الحوادث في أوروبا ذاتها ، ومن المنتظر أن تتم امساك احرار السيطرة التامة في حوض البحر الأبيض ، إذا أقدمت على احتلال مالطة ، بعد أن احتلت حرر الأتوبيان ، وبعد أن رل ملك سرديبا عن حررة سنت بير *Saint - Pierre* ، وعماحه عندما كان معروفا عن تحصينات فالبا *Valetta* ، عاصمة مالطة أنها من الصعب بحيث يستطيع أسطول الأميرال (رويس) *Brueys* . مع قوات قليلة ، احتلال الحررة . ثم استمر نوبارت يقول « أما إذا حدث أن وحدها أمسا . من أحد الوصون إلى الصلح مع اعملة ، مرعبين على التسليم باستيلائها على رأس الرعاء الصاح — مستعمرة الكاب المولدية — ، فإن الواجب يقتضيا حينئذ أن تستولى على مصر . ولم يسبق قط أن امتلكت إحدى الدول الأوروبية هذه البلاد . حقا لقد استطاع السادقة أن يتمتعوا في مصر نوع من السيطرة ، ولكن ذلك حدث من عدة قرون مضت ، كما كانت سيطرتهم غير تامة الدائم . وفصلا عن ذلك فإنه يكفي لفتح مصر إرسال حوالي خمسة وعشرين ألف جندي ، تحملهم ثمانى أو عشر مئة حرية ، وذلك لأن السلطان لا يملك هذه البلاد حقيقة » ، ولبيت له فيها سلطة صعبة كما أنه لا يستطيع الدفاع عنها وقد طلب نوبارت في آخر رسالته أن بعث إليه (نايران) بكل ما تقع عليه يده من معلومات توصلح مدى الأثر الذي يحدثه إرسال حملة فرنسية على مصر في دوائر الحكومة العثمانية .

وقد أحاط نايران على رسالة نوبارت في ٢٣ ، ٢٧ سبتمبر ١٧٩٧ (١) بصورة لاتدع محلا للشك في أن الحكومة الفرنسية ، وإن كانت لا تزال ترى أن الوقت لم يحين بعد لغزو مصر ، فإنها توافق موافقة تامة على عرو مالطة . ومع ذلك فقد كان معنى تأييد الاستيلاء على مالطة أن حكومة الإدارة قد صارت تسرع حينئذ نحو الاهمهم بأمر (الشرق) عامة ، و نحو الاستيلاء على مصر واستمرارها في النهاية .

ووافقت حكومة الإدارة على احتلال مالطة لأسباب عدة . فقد كان فرسان القديس

وحداء ، أصحاب هذه الحرية ، يؤيدون النظم الملكية ، وأمدوا الملك لويس السادس عشر بمساعدات كثيرة ، لإغاثة على اختيار أرمائه المالية ولماوتته على تدبير قراره المعروف بى (تارن) كما أقاموا عند إعدامه الصلوات على روحه ، واقتضت منهم حكومة الثورة بمصادرة أملاكهم ، وحل جماعتهم فى فرنسا ، وإلقاء كثير من الفرسان المقيمين بها فى عياهب اسجون ، و إعدام عدد منهم وأرسلت الجمهورية الجواسيس يندرون بدور المتفرقة واشتاق فى الجزيرة ، عندما كثر وفود المهاجرين إليها أيام (الإرهاب) العنيفة (١) وساعد ذلك على انتشار الاضطراب فى مالطة ، وزيادة ضعف الفرسان الذين كان الاحتلال قد بدأ يذب فى صفوفهم من مدة طويلة ، وفقدوا كل قدرة عسكرية وحدون اميرسى دى روهان Roha : رئيس هذه الجماعة ، ثم بدأ عهدا من الإصلاح يعيد إلى الفرسان قوسهم السابقة ، فاستطاع بمثلوه أن يقدوا فى تطرير معاهدة مع بون الأول بقصر الروسا ، فى ١٥ يار ١٧٩٧ . أعيدت بمقتضاها أملاك الفرسان اى ستوب عليها الروسية فى بولندة قبل ذلك بعامين ، كما أعطى الفرسان حق إنشاء دير كبير فى بولندة ، بأنهم بإيرادات وقبرة (٢) .

غير أن رسول اسى كلف بحمل هذه الأسماء إلى مالطة مالت أن وقع فى أسرى بوارت فى (أسكون) فى فبراير من العام نفسه وهو لا يزال فى طريقه إلى الحرية (٣) . فثار هذا الحادث اتهام بوارت بأمر مالطة ، ذلك أن بقاءها بأيدي أعداء الجمهورية من شأنه أن يعطل بين القواعد البحرية الجديدة التى طعرت بها فى بحر الأدرياتيك ، وفواعدها فى إقليم رومس ، ويصبح خطرا مهدد تلك البطرية ، التى كانت تبقيها فرنسا فى حوص البحر الأبيض . وأوحس بوارت خيفة من علاقات الفرسان بقصر اروسيا ، وعظم الخوف من وقوع مالطة فى يد دولة معادية لفرنسا عند وفاة (روهان) واختيار اسارون فردند هومبش Hompesch رئيسا لفرسان ، وكان (هومبش) حرماسا ، عند اختياره انتصارا للسياسة المتساوية (٤) ، ودليلا على تلك المؤامرات التى كانت المتساوية تحيك حولها للاستيلاء على مالطة ، بوصفها جزءا من مشروع واسع تهدف من ورائه إلى حرثة أملاك الإمبراطورية النمساوية بالانتمى مع الروسية ، فتال هذه الدولة الأخيرة ما تنبىه من ممتلكات النمانيين ، لقاء رضائها عن استيلاء المتساوية

Grenfell 11 — 12 (١)

Reybaud III 78 — 79 (Traité Définitif, 28 Nov. 1798) (٢)

Corresp. No. 2676 (٣)

Reybaud III. 77, Corresp. No 2676 (٤)

على مالطة ، إلى جانب ما قد تاله من التركة الضخمة ومع أن (هومش) نادر بإظهار ميوته الودية نحو حكومة الإدارة ، في رسالة بعث بها إلى باريس في يوليو ١٧٩٧ ، فإن هذه الجهود لم تعد شيئاً في إزالة مخاوف الجمهورية من مساعي النمسا خاصة لإحراز السيطرة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وعلى ذلك فقد رحبت حكومة الإدارة كما رحب نابليون باقتراح بوناپرت فقال نابليون في خطابه إلى بوناپرت في ٢٣ سبتمبر (١) : « إن من مقتضيات صون مصالحنا أن نحول بكل وسيلة دون استيلاء النمسا على مالطة » ؛ ثم عاد نابليون في رسالته الثانية إلى بوناپرت ، في ٢٧ سبتمبر (٢) ، موافقة حكومة الإدارة على اقتراح بوناپرت الاستيلاء على مالطة ، لأن هذه الجزيرة على حد قول نابليون « قد أصبحت وكرّاً للفرنسيين والمؤامرات التي يديرها النمساويون والروس والإغريق ، ومن المتوقع سقوطها قريباً في قبضة النمسا ، وذلك بناء على المعلومات التي استعملت حكومة الإدارة كذلك من مصدر آخرى » وكتب نابليون : « إن استيلاء النمسا على هذه الجزيرة ، إلى جانب حصولها على اسبريا ، ودلانيا ، من شأنه أن يفتح لها الفرصة حتى تصبغ دولة بحرية ، في وجهها أن تسبب تفتتاً كبيراً لفرنسا في جمهورية (مدورا الألب) الإيطالية الشمالية (Gisa pin) . وفصلاً عن ذلك فإن استيلاء النمسا على مالطة يحكمها من إلقاء الفرنسيين في طريق الملاحة (العربية) في البحر الأبيض المتوسط » ثم ، وذلك بمصل مالحده الجزيرة من موقع حرماني ممتاز ، في حالة ما إذا وقعت مالطة في قبضة الجمهورية أو روسيا ، فإن هذه الأخطار سوف يزداد شدة على شدتها . وعلى ذلك فقد أعطت حكومة الإدارة بوناپرت كل سلطة لتعيد مشروع الاستيلاء على مالطة ، عندما يحين الوقت المناسب لإحراز هذه الخطوة ، كما أنها أصدرت أوامرها في هذا الشأن كذلك إلى (روبيس) ، أمير البحر الفرنسي ، وإلى غيره من المختصين ، في ٣ أكتوبر ثم في ٢١ أكتوبر ١٧٩٧ (٣) . وهكذا سارت الأمور وفق رعايت بوناپرت فيما يتصل بمصير مالطة .

واقترح نابليون كذلك بأن احتلال مصر سوف يعود على فرنسا فوائد سياسية وبحرية عظيمة ، أمل أهمها إحباط دسائس الإنجليز والروس في تركيا ، ثم اتفق فرنسا بذلك التركيز البحري الكبير الذي تمتده ، وخاصة « لأن مصر بوصفها مستعمرة ،

(١) Jonquière I. 35 — 7

(٢) Ibid I. 37 — 38

(٣) Ibid I. 39 — 41

سوف تعوض على فرنسا ما حصره من متحات حرر الأتيل كما أنها ، بوصفها طريقاً
للمواصلات ، سوف تنهى لها السيل للاستحواد على بحاره المهد ^(١) . ومع ذلك
فيه كان واضحاً أن الوقت لم يحسن بعد لإجراح مشروع الحلة على مصر إلى حين
الوجود ، لعدة أسباب ، منها أن بونابرت الذي عهد مع النمسا معاهدة كاسو —
فورميو ، في ١٧ أكتوبر ١٧٩٧ ، ما لبث أن شغل بعد ذلك بإرسال هذه المعاهدة
إلى باريس ، ومحاولة إقناع الرئي العام انغرسى بقبول شروط الصلح ، التي تقدمها
أولئك الذين لمساوئها سحاء عطفاً لا يبرره ظروف الموقف ، ولا يتفق ومصحة
فرنسا . وكان على بونابرت أن يبال تصديق حكومة الإدارة على المعاهدة

وعلى ذلك فقد كتب إلى بالران في ١٨ أكتوبر ^(٢) ، يسط من جديد لسادى
الى استرشد ، عند عقد الصلح مع النمسا ، ويدلى «الحجج التي سوعت في نظره عقد
الصلح وفي الشروط التي صار يرحو الآن إقناع الجميع بمولها ، وتصديق حكومة
الإدارة عنها ، وكان أهم ما حاء في هذه الرسالة فوب بونابرت إنه وقد انهمد عقد
المهنة الدولية ضد فرنسا ، مخروج النمسا نهائياً من هذه التحالف ، فإن الواجب يقضى
على الفرنسيين جميعاً أن يوحدوا جهودهم ، حتى يستطيعوا لتفرع بذلة المحتلة ،
عره فرنسا وعدوها الكرى ، وأما إذا ظهر تباؤ في هذه المسألة الخطيرة من
حاسب الحكومة الفرنسية ، فإن اغلته سوف تحد الفرصة سانحة للمضى في نشاطها
المعروف ، فتعمل على ابراع المستعمرات العربية ، ومستعمرات هولند وأساميا ،
وتعطل بخارة الجمهورية ، وتحول دون اقيام نهى عمل لإصلاح اسحرية الفرنسية
وتقويتها رماً طويلا . وفصلا عن ذلك فعد مات من الواجب على الحكومة أن تبدل
قصارى جهدها للقضاء على الملكية الإغلبية قضاء مبرما ، وذلك حتى تحول دون
تدمير الجمهورية على أبدى هؤلاء الانخير ، الذين دأبوا على تدبير المكائد ، وإشاعة
الفساد في فرنسا . نية الوصول إلى تعيد مآرهم . ولما كان بونابرت يعتقد أن «الوقت
الحاضر هو أكثر الأوقات ماسبة للقضاء على هذه الملكية ، فقد طلب أن تبدل
حكومته كل موصهها من جهود وحيلة لإحياء اسحرية لفرنسية ، وتعمل ناشطة في سبيل
القضاء على المحتلة ، «حتى إذا استطاعت ذلك وقعت أوروبا بأسرها تحت أقدام
فرنسا» .

الجنة العسكرية :

وكان هذه الآراء والحجج التي سطها بوارت في رسائله أثر حاسم ، ولا شك ، في إقناع حكومة الإدارة بقبول المعاهدة ، وإصداره بالتصديق عليها . فقد وصل إلى باريس ، في ليل ٢٥ - ٢٦ أكتوبر ١٧٩٧ ، كل من ريبه Berthier ومونغ Monge يحملان معاهدة كورمورسيو ^(١) وقابلاً أعضاء حكومة الإدارة في حله عبر عادية ، في الساعة السادسة من صباح يوم ٢٦ أكتوبر . فما انقضى ذلك اليوم حتى كانت الحكومة قد صدقت على المعاهدة ^(٢) كما اتخذت حكومة الإدارة في اليوم نفسه عدة قرارات ، لتجديد قوى الجمهورية من أجل النضال ضد المحتلة . ومن أحد هذه القرارات على حشد جيش عظيم ، دون أي إبطاء ، على شواطئ المحيط ، بقيادة نابليون بوارت ، لهذه الغاية ، فبدأ على أمور تنظيم « جيش المحتلة » ^(٣) وأما بوارت فقد غادر ميلان إلى رشاد ، في ١٧ نوفمبر ، كي يتبادل مع النمسا التصديق على المعاهدة ، ثم عاد ورشاد إلى باريس في ٣ ديسمبر . وما أنه وصل إلى العاصمة الفرنسية حتى اجتمع برلمان الحكومة لبحث موضوع اللجنة المرمعة على عمدتها .

ولم يكن لتصميم على إرسال هذه اللجنة أول محاولة قامت بها حكومة الإدارة لغزو المحتلة في عقر دارها ، ذلك أن هذه الحكومة كانت قد أدت في يوبه من اعام السابق (١٧٩٦) مشروعاً واسعاً لغزو المحتلة ، يقضى بإرسال جيش كبير في (كوروت) Connaught ، إحدى مقاطعات إيرلندا الغربية ، وإثارة حرب العصابات في ويلز ، وكورنوال Cornwall . ولم يفسد هذا المشروع سوى إصرار حكومة الإدارة في الوقت نفسه على إرسال حملة إلى الهند ، لمساعدة توم صاحب وسلطان ميسور (Mysore) ، في قتاله ضد الانجليز ، فنشأ بسبب ذلك الخلاف بين (لارار هوش) Lazare Hoch قائد الحملة ، والأميرال فيلاري جويبور Villaret Joyeuse قائد الأسطول المند بقدر الجيش إلى شواطئ إيرلندا والمحمدة ، حتى اضطر هوش إلى اختيار قائد محرم آخر هو مورار دي جاب Morar de Gajles ، وكان كبير لسن تمهقه قوة الإرادة والعزيمة . وفصلاً عن ذلك فقد كان الأسطول الفرنسي قد بع من الصعب درجة جعلت الأمل ضعفاً في نجاح عملياته ، وعجز القائد الجديد عن تجهيزه وإعداده . ولذلك فإن الأسطول لم يكد يخرج في آخر الأمر من ميناء برست في

(١) Corresp. No. 2306

(٢) Corresp. Inéd te VII 283 295, Corresp. Nos. 2303 2305

(٣) Jonquière I. 41

ديسمبر ، حتى كاسه الموصى ، على حد قول الجرال هوش ، مستشره في الأسطول ،
الذى لم يرد قطعه عن سبع عشره بارحة وثلاث عشرة قرواطة وخمس عشرة سمية
أخرى . وفي ثناء العميات التالية عظم إرساء الأسطول الفرنسى ، فاصطلت بارحة
لقبادة عن سائر قطع الأسطول ، واستطاعت سبع قذيفة دحول خليج بايرى
(Bantry Bay) في طرف إيرلندة الجنوبي الغربى ومع أن هوش ، ودى جان طلا
متجيبين ، فقد حاول الجنود الدخول إلى البئر ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك بسبب هدوب
العواصف الشديدة . وأما هوش ودى جان فإنهما لم يسكنا من الوصول إلى خليج
بايرى ، وعلى ذلك فقد انسحبت الحملة من ميناء إيرلندة إلى برست في يناير من لعام
سالى^(١)

على أن هذا فشل لم يمت في عهد امريسيين ، الذين طلت مخدوم الرعة في عرو
الإبحار في بلادهم ، وقد دون آتلا عظيمة على إمكان مدد دور العرقه بين شعب
وحكومته ، حتى إذا فُرض لهم الانصر على المحلثة ، أُرغمت هذه على إخلاء ذلك المكان
الذى طلب محلته من مدة طويلة ، فاعنارها أمة أوروية عظيمة ، فعدو دولة ذات أهمية
ناوية ، لا يسعها عندئذ إلا أن تعصح الطريق أمام فرنسا البصرة ، حتى تشيد صرح
الإمبراطورية لكبيرة . لى أرادوا إنشاءها ، فى (الشرق) ، دون أن تعرف مفاصة
الإبحار بشاطها ؟ وكان توبارت أحد أولئك الذين أخذوا بهذه الآراء ، واعتقدوا
أنه من اليسور عرو الإبحار في بلادهم . ومع أن البحيرة الفرنسية كانت قد تسكنت
حسائر فادحة في ثناء اتصال مع الإبحار بين يناير ١٧٩٣ وديسمبر ١٧٩٧ حتى بلغ
ما فقدته فرنسا في أثناء هذه المدة ثيفا ومائتى سفينة حربية ، بينما كانت خسارة الإبحار
لا تعدو سبعا وسعين سفينة ، فقد اعتمد توبارت واعتقدت معه حكومة الإدارة أن
فى وسع فرنسا تدبير أمر حملة أخرى ككرة ضد المحلثة ومدد أن وصل توبارت إلى
باريس جرى الاستعداد لصعة جديدة لنجهر حملة المحلثة ، التى عرفت من ذلك الحين

باسم (الحملة الكبيرة) La Grande Expedition

و لم يكن لمرس من عهده هذه (الحملة الكبيرة) ، كما يتوهم كثيرون ، در الرماد
فى العيون ، وسجل الإبحار على ترك اهتمامهم عندا (الشرق) ، وإهمال الدرافة فى
سحر الأبيض ، حتى يتنى للامارة الفرنسية الخروح من الموانى الحوية ، ودور البحر
الأبيض ، والوصول لسلام إلى الشواضى البصرية . بل إن مشروع هذه الحملة انكبيده
كان مشروع حداد ، ولم يصرى توبارت وحكومة الإدارة عن سعيه سوى اعتبارات

قوية ، سوف تأتي ذكرها في حبه ، وآية ذلك ما جرى من مراسلات عدة بين المسؤولين عن إعداد الحملة ، وفواد الجيوش والأطباء ، وصدور طائفة من الأوامر في هذا الشأن ، كما أن بونابرت لم يلبث أن قام برحلة تفتيشية هامة في شواطئ فرنسا وهولندة السكالي ، بدأت في أوائل فبراير ١٧٩٨ ، واستمرت إحق اليوم الحادى والعشرين من شهر نفسه ، فقد رار بونابرت ايتال Etapes ، وأملبور Ambetense ، وبونوى وكاليه ، ودسكرك ، وفريس Furnes ، وبونور Nieaport ، وأوستند ، وحريرة فالشرون Watcheren ؛ كما أنه رار في أثناء عودته من هذه الرحلة التفتيشية أفرس ، وروكسل ، ويل ، وسان كستان ، وفصلا عن ذلك فقد كلف عددا من صباطه بالتفتيش على بعض المواقع الأخرى ، فرار (دره) Desax رست . وكليبر Kléber المدهر . وبقيّة شاطئ ، الفريس ، وكافريس Calfarel دسكرك .^(١)

وعما يهين دلا على أن مشروع هذه (الحملة الكبيرة) كان مشروعا حديا أن جميع ما أصدرته حكومة الإدارة من أوامر ، أو أمحده من قرارات بشأن الاستعدادات لهذه الحملة ، كان حالا من أية إشارة إلى ملطة ، وذلك على الرغم من أن حكومة الإدارة كانت قد وافقت على عرو هذه الحرية واحتلافها منذ ستمبر ١٧٩٧ ، وعلى الرغم من أن بونابرت نفسه كان قد أحد يستعد لهذا العرو ، فأرسل إلى كورفو (يوحين بوهارنيه) Eugène de Beauharnais ياره (وامى روحه حورفين) ، لإخبار الأميرال (روبس) بمرمه ، ولجعل إليه التبعات اللازمة ؛ كما قرر أن يبعد إلى ملطة داتها في نوفمبر ١٧٩٧^(٢) بوسلج Poussielgue ، سكرتير السفارة الفرنسية في حيو ، وكان له أفرء بمالطة تحت ستار التفتيش على مراكز التجارة العربية . فلما وأما كل اللباعات ، وذلك حتى يعهد الطريق لعرو الحرية واحتلافها . فمدر بونابرت بعد أن تقرر عرو اختلقه عقب عودته من رومة ، منع بوسلج من الذهاب إلى ملطة ، وثمره بالعودة إلى باريس فوراً . وواقع الأمر أن الاستعدادات لتجهز (الحملة الكبيرة) على امحتره استمرت قائمة على قدم وساق طوال الشهور الأولى من عام ١٧٩٨ ، لتدبير الأموال اللازمة لها ووضع الخطط الحربية

غير أنه سرعان ما نبين لحكومة الإدارة ولبونابرت أنه كان يحول دون تعيد هذا المشروع الكبير صعوبات عدة ، أهمها : حامة انعقاب التي عثرت حكومة الإدارة

Corresp. Nos. 2414, 2415 (١)

Charles-Roux-Origines 307 (٢)

عن تديرها ، وتعذر الحصول على العدد الكافي من السفن لنقل جيش الحملة وإمداده بالمؤن والعتاد الحربي ، ناهيك بضرورة اشتراك الأسطول في عمليات البحرية والمعارك المتتصلة في أثناء الأمور إلى تواطؤ العدو ، وبعد محاولة الرون بأرضه . كما أظهر التفتيش على الثغور انتهية أنه لا عيب عن القيام باستعدادات عاجلة ملحة في هذه الثغور ، قبل الإقدام على إرسال الحملة ضد البحر . وعلى ذلك فإنه لم يبق يومان على عودة بومبارت من رحلته التفتيشية حتى قدم تقريرا إلى حكومة الإدارة في ٢٣ فبراير ١٧٩٨ عن نتائجها ، أسهله بقوله : إنه من التندر (على فرنسا) من الآن إلى سنوات عدة تالية ، أن يحرر أي تفوق بحري مهما (بدلت) كثيرا من اليهود في سبيل هذه العيبة : فضلا عن ذلك فإن الاستعدادات البحرية لم تقطع سوى شوط يسير ضد صدور الأمر بتحجير الحملة على إنجلترا . وكانت اسعة الضرورة في هذا التقرير أنه لا معنى عن سكند أموال طائلة بإنحار الاستعدادات للارمة ، ولا مسدوحة عن تنظيم البحرية الفرنسية ، ونحصر عدد كبير من السفن وإعداد المؤن انتهية ، وإعداد غير ذلك من التديرات اسعة قبل لإرسال على العدو المتطرق ، كجمع سفن المدفعية في ميناءي دسكرك وأوسند قبل نهاية شهر مارس . وإعداد خمس وخمسين أجرة من البوارح الثلاثين إرسية في ميناء رست ، ونحصر مثل هذا بعدد من المرفطات وذلك في جلال شهر واحد لحسب ، فضلا عن تدمير انعمات الاستعدادية للارمة جيش العدو . حتى إذا لم ذلك كله كان من الميسور عرو اختفئة .

ثم احتتم بومبارت هذا التقرير بقوله : « فإذا تندر تدير الأموال للارمة اتق حاد ذكرها في هذه المذكرة » وصعب تنظيم البحرية الفرنسية بالسرعة المشودة ، نظرا لصعب هذه البحرية الدلع في الظروف القائمة ، فإن الواجب يقتضى حكومة الإدارة أن تتجلى عن مشروع عرو انعمته ، وتكتفى بدلا من ذلك بالظاهر بالمضى في استعداداتها ، بينما توجه كل انتباهها ، ويحد كل ماله منها من وسائل ، سعيد مشروعات أخرى ، إما بالرجوع صوت الراوق حتى تستوى من اختفئة على هادوق وسرع هدمرح كذلك ، وإما بإرسال حملة إلى الليمان حتى تطل بخاره الهدد ! فإذا أصبح أنه من التندر تعبئة هذه المشروعات ، فالأفضل لفرنسا حينئذ أن تعقد الصبح مع انعمته . ^(١) وكان من الواضح أن بومبارت إنما يقصد من مشروع الليمان إرسال الحملة إلى مصر لعلوها . كما كان من الواضح كذلك أن بومبارت بعد عودته

من رحلته التعيشية مات يعتقد أنه من العت محاولة عرو المحتلة في عقد دارها ، وأن الواحد يقتضى فرسا أن يوجه أنظارها صوب (الشرق) ، ونسعى لعرو المحتلة بطريق غير مباشر ، هو تهديد مستعمراتها في الهند ، وذلك بإرسال جيش كبير لتفتح مصر والاستيلاء عليها^(١) .

ومع ذلك فقد ظن كثيرون أن بوناپورت إذا كان يسعى من تقديم تقريره السابق إلى حكومة الإدارة أن يستحث هذه الحكومة على إعمار استعدادات (الحملة الكبيرة) بكل سرعة ، لأن بوناپورت حتى ذلك الوقت ما كان يمسك في لحي عن مشروع عرو المحتلة^(٢) . وعنى ذلك فإن تقرير كليبر ، عن ريارته ليهاء الهامر والشاطيء العرسى ، لم يكن رد حتى أصدرت حكومة الإدارة قرارها في جلستى ٢٤ و ٢٥ فبراير ١٧٩٨ بالعمل على اقتراح بوناپورت من أجل إعمار الاستعدادات اللازمة لعرو المحتلة^(٣) ، غير أنه لم يمض أسبوع واحد على اعتماد هذه الخطوة حتى كانت حكومة الإدارة قد بدأت تعديل مدورها عن مشروع الحملة الكبيرة ، ونعكس حدياً في عرو مصر^(٤) .

تقرير الحملة على مصر :

وقد صافرت عوامل عدة لإقناع حكومة الإدارة بالعدول م ثأ عن الاقتصاد من الحملات امروها في الادها ، وتوجيه جهودها نحو الشرق باعتباره خير ميدان ترمى إليه حملتها ، لا للاعتماد من الحار حليب ، بل لإتشاء مستعمره فية في مصر ، تصبح بوابة لإمبراطورية استعمارية جديدة ، نعوم على فرنسا حصارها الناصية في الهند وأمريكا وحرر الهند العربية . ذلك أن الرعة في عرو الإغلب في عقد دارهم ما كانت تطفى على اهتمام حكومة الإدارة مسألة الاستعمار ، بل إن التفكير في الاقتصاد من المحتلة كان يسير حينئذ إلى جانب التفكير في إحياء عهد الإمبراطورية الاستعمارية ولم يكن القضاء على قوة الإغلب وإرغامهم على قبول الصلح مع فرنسا ، وفق الشروط التي ترتبها حكومة الإدارة ، ثم إحرار النعوق السياسى في أوروبا ، سوى وسيلة لتحقيق أهداف فرنسا الاستعمارية^(٥) ؛ وعلى ذلك فإنه يكافى بوناپورت يقوم رحلته استيشية في انشواطىء لشماله ؛ كانت حكومة الإدارة قد شرعت تدرس حدياً

Marmont-Memotre I. 347 (١)

Jonquière I. 176 (٢)

Jonquière I. 186; Corresp. No. 2421 (٣)

Jonquière I. 184 — 5 (٤)

Corresp. No. 2307 (٥)

موضوع الاستعمار في الشرق ، عندما صارت تقدم إليها لتعابير من كل جانب مدعوها إلى تقليب وجوه الرأي ، عليها وصل سرياً إلى فرار حاسم في هذه المسألة الهامة .

وكان أول التعابير التي تلقتها حكومة الإدارة ذلك التقرير الذي قدمه شارل محان ، قصصها القديم في مصر . فقد تقدم كيف أن شارل محان كان قد طلب منذ ديسمبر ١٧٩٥ ، أن تأذن له حكومته بالحضور إلى باريس ، حتى يستطيع مسح الأضرار التي لحقت بالتجارة الفرنسية على أيدي البسكوات الهولندي . فوافقت حكومة الإدارة على عيته إلى باريس في ١٦ أغسطس ١٧٩٦ ، وعاد محان من مصر في منتصف العام التالي ، فبلغ باريس في شهر أكتوبر ، أي في الوقت الذي استمر فيه عقد الصلح مع النمسا في كوفنبرغ ، أن تعرض حكومة الإدارة لبحث موضوع الامتياز من المخترا عنناً حديثاً . وفي ٩ فبراير ١٧٩٨ قدم محان تقريره المشهور إلى حكومة الإدارة^(١) . وكان تقريره طويلاً يحدث فيه صاحبه بإسهاب عن نظام تلك الحكومة التي "نشأها السلطان سليم الأول في مصر ، كما أهدى بعدد المساوي التي شككتها لفرنسون في عهد سيطر البسكوات الهولندي من أيام علي بك الكبير معه ، وبين أهمية استيلاء بلاده على مساحات مصر وحررها ، ثم انتقل إلى إظهار اموارده التي ينتظر أن يحسن فرنسا من فتح مصر وإسلاكها ، وهي فوائد يمكن إيجازها في الجليلين فيما أن يعمل الفرنسيون مباشرة من مصر على طرد الإنجليز من الهند عوة وفرنسا ، وما أن تقوموا بتعطيل بحره الانجليز مع الهند ، وسأثروا بهذه التجارة من دونهم . فإذا صبح عزم الفرنسيين على طرد أعدائهم من الهند ، فالسبيل إلى ذلك سهل ميسور ، إذا أنشأ الفرنسيون عهد احتلالهم هذه البلاد أطولاً من غير في السويس بطبع نقل الحدد والإمدادات إلى شعوب انهر ، التأثير على الانجليز ، وإلى تيو - صاحب سلطان ميسور ، فيشترك الفرنسيون في أفضل المنافع في الهند ضد الإنجليز ، ويرتلون باعدائهم هرثم نالقة حتى يعمسوا على قوهم بهتاً ، ويطردوهم من اسكان شرطودة . أما إذا قر رأي الفرنسيين على الاستئثار بحجرة الهند حسب ، فاسهل إلى ذلك أن تنشئ فرنسا ، عند استئثار الأمر لها في مصر ، مرا كثر تجارة عدة في القاهرة والاسكندرية ومرسى ، كمثل حرمان الانجليز بعد وقت قصير من بحارة الهند ، لأن الانجليز سوف يعجزون ولا شك عن معاومة هذا النشاط التجاري الجديد زعامة فرنسا .

وبعد أيام قليلة من تقديم تقرير محالون ، بلقت حكومة الإدارة تقريراً آخر من إيران وزير خارجيتها عن مسألة « فتح مصر » ، أعده تاليران في ١٣ فبراير ١٧٩٨ ، ثم طلب إلى حكومته عند ما عرّضه عليها في اليوم التالي أن تقطع برأى حاسم في شأنه (١) . ويحتل هذا التقرير مكانة كبيرة في تاريخ الحملة المصرية على مصر ، نظراً لما يثقل صاحبه من جهد ، عندما نجد على ناعمة أن يحرص العلاقات التي قامت من قديم الزمن بين فرنسا ومصر ، وأن يسطر الآراء التي نادى بها كثيرون من سفوف في السكينة في وفات محفلة لإظهار مراداً امتلاك هذه البلاد واسمها ؛ وذلك إلى جانب معنى « إيران » في إقامة الحق على أن الفرصة قد جاءت سانحة لإرسال الحملة على مصر وفتحها . وفصلاً عن ذلك فقد تضمن هذا التقرير ذكر كل تدبّر المبادئ التي استرشدت بها فرنسا في سياساتها الخارجية ، باب العالي في أثباته ، لعمرو بفرنسي ، ثم عمل بونابرت نفسه ، ثم حماؤه من بعده ، على تنفيذها عند احتلال هذه البلاد ، وببدء البحرية الاستعمارية الجديدة ، أما تاليران ، فقد أعمد عند إعداد هذا التقرير من كل ما وقع عليه يده من كثافة الرغبات الرئيسية التي راورا مصر ، وخاصة (فولان) كما أعمد على تقارير شارل محالون (٢) ، وليس من شك في أن تاليران وحده كان صاحب هذا التقرير ، ولستول عن كتابته ، على الرغم من ديدوع الاعتقاد بأنه كان لبونابرت يد في إعدادها (٣) .

وتحدث تاليران في تقريره من نظام الحكم الذي أنشأه العثمانيون في مصر منذ عام ١٥١٧ ، وكان سبباً في صياح سلطتهم الفعلية واستئساد الكوآت بشؤون البلاد ؛ ومعنى لب العالي دون طائفت لا استرداد سلطته المفقودة . وسط تاليران لقول في شكايات الفرنسيين الذين أرهقهم الكوآت الباليك ، وفي طبيعتهم إبراهيم ومراد ، عطالهم المالية ، وفرص المعارم عليهم ، ومصادرة متاحرهم وسها ، وقد اشتط مراد وإبراهيم في قتال كواهل الفرنسيين ، والتصف في معاملتهم ، منذ شوب الثورة الفرنسية الكبرى . على حد قول تاليران — لعمور هذين الرجلين من (الثورة) ، ونسب تحريض هؤلاء الاخبر والامراطورية (المساوية) وسدقة ؛ وم تمنح جهود الحكومة الفرنسية وجهو فريباك Verpinac ، سدوها في انقسطبية ، في إزالة شيء من هذه الظالم . وحلص تاليران من ذلك كله إلى أنه قد فات من واجب

Jonquière I. 154 — 168 (١)

Ibid I. 154 (٢)

Rose-Cam. Mod. His. Vol. VIII. 596 (٣)

حكومة الإدارة أن يأخذ على عاتقها تأديب البكوات المالك بكل شدة (١).

وقد ارتأى تاليران ، قبل أن يشر إلى الوسائل التي يجب اتخاذها لتأديب هؤلاء البكوات ، أن يسلم عن « منتجات مصر ون تجارتها » ، فذكر علل البلاد الزراعية ، ووصف موقع مصر الجغرافي ، وبين أهمية هذا الموقع من ناحية تجارية ، إذ أنه أتاح مصر أن تنشئ علاقات تجارية واسعة مع وسط إفريقيا وشمالها وركبا واشام وأرجل بونان ، وكذلك مع أوروبا . تلك القارة التي لا تعد موانئها الهامة في فرنسا وأسيايا وإيطاليا عن مصر إلا سحوا ستة فرسج . كما أنه كان باستطاعة مصر أن تنشئ بسهولة علاقات تجارية نافعة مع حدة الصين والهند عن طريق البحر الأحمر وما من شك في أن انتقال الحكم من أيدي المالك الطاعة إلى يد حكومة فرنسا الرشيدة ، سوف يعود بنفع عظيم على هذه البلاد ، إذ تنقرر حقوق الملكية ، ويضمن الأفراد على أموالهم وأمنلاكهم ، والتجارة على تجارتهم ويسود الأمن والسلام ، ويعود استخدام الطريق البري في نقل تجارة الهند إلى سابق عهده ، ويهمل شأن طريق رأس الرجاء الصالح حول إفريقيا ، وهو طريق طويل يكلف استخدامه نفقات كثيرة ، فتحتى حكومة الجمهورية الفرنسية أرباحاً طائلة بفضل ما تحمعه من الضرائب البحرية ، وما يحصله من بيع الأراضي ، لأن الحكومة هي وحدها صاحبة الأرض في مصر

وهللا عن ذلك فإن احتلال مصر وإحياء طريق السويس البري من شأنه أن يحدث انقلاباً في تجارة أوروبا يلحق نصراً عظيماً بالفرنسة ، لأن هذه الدولة إنما تعتمد في تأييد تفوقها السياسي في أوروبا على تجارة الهند . وهي تجارة سوف تفقدتها لاحتالة عند إحياء الطريق البري ، في حين أن إحياء طريق السويس سوف يعيد حكومة الجمهورية دون سواها من الحكومات فائدة عظيمة ، بفضل احتلالها هذه البلاد وفرنسا بها ، ونشاط الفرنسيين وكفاءتهم المعروفة ، كما أن فرنسا حينذاك لن تهتم مطلقاً بصير طريق رأس الرجاء الصالح ، ولا بعصا نفاة هذا الطريق ، وقد فقد أهميته في حورة الإبحار أو حورة عيرهم ، بل إن فرنسا سوف يجد من أسهل عليها أن تصحى بطريق الرأس في سبيل الوصول إلى عقد معاهدة صلح مع الهند ، أصب إلى هذا أن الاستيلاء على مصر سوف يوض على الجمهورية حصارها في أمريكا وفي حرة الهند الغربية (٢)

وتحت عنوان « شكوى (الفرنسيين) ومطلب الدب العلى والدول المسيحية »
حدث تايران عن الاعتراضات التى قد شيرها البارصون لمشروع عرو مصر وفتحها ،
وأنهم ما سوف يلحق الفرنسي أنفسهم من أذى فى تركيا إذا هم أقدموا على عرو
أملاك الدب العالى ، كما أن احتلال مصر سوف يهدد تصايح بحارتهم فى بلاد الشرق
(أو الليمانات) ، وقد لاندع تركيا والدول الأوروبية الفرصة عر دون إعلان الحرب
على فرنسا ، وأبرى تايران مدح هذه الحجج والدعوى ، فقال إن تركيا وحدها
المسئولة عن عرو مصر ، لأنها تركت الفرنسيين يتحملون أنواعاً من الضام والضرر
المادحة ، دون أن يحرك ساكناً ، ودون أن يعوصهم شيئاً عن تلك المنحازات التى
هبت ، والأموال التى سلت فى مصر خلال السواب الحلى الخاصة ؛ وفى هذا حرق
صهر للقانون ، ومخالفة واضحة « لانه امتيازات » ودلل باصع على أن الفرنسيين
سوا لا يبالون بتلك الحقوى التى فرضت الامتيازات عليهم احترامها فى أعين الامبراطورة
العثمانية ؛ ولا معنى أن عشى فرنسا صاع تحارة الليمانات ، لأن هذه التجارة كانت
قد أولت من يد فرنسا إلى يدي الدول الأوروبية الأخرى . منذ اشغال الثورة
السكرية ، وانصراف الفرنسيين عن ميادين النشاط الخارجية . وعصلاً عن ذلك فإن
إقامة الحكومة الرشيدة المصلحة فى مصر سوف ضمن الثروة والرخاء للمصريين تحت
احكم العرسى ، فربما الاستهلاك المحلى تبعاً لذلك ، ويشهد الطلب على السلع الفرنسية
على نحو يعوص على فرنسا تصايح تجارتها مع تركيا

ولا شك فى أن تركيا سوف تزداد طويلاً قبل إعلان الحرب على فرنسا ، أقرب
تمسكات الجمهورية من الولايات العثمانية فى المورة والنايا ومقدونيا ، وهذه كلها جهات
لا يستمتع العثمانيون بها سلطان قوى ، بل تولى فيها مراحل العصب من الحكم التركي ،
ويسود بين أهلها الاضطراب بسبب انتشار الآراء الجديدة ، ولا شك تايران فى أن
تركيا سوف تغد هذه الأنظار ، إذا هى أعدت الحرب على فرنسا ، لرعة اليونانيين
الشديدة فى التحرر من يد العثمانيين والنصارى فى سبيل الحرية . وعلاوة على ذلك فإن
فرنسا دائماً لا تريد تصويره من الصور أن تقطع علاقتها مع تركيا ، بل على العكس من
ذلك ، فإن الواجب يقتضى حكومة الجمهورية حين إرسال حذنها على مصر أن ترسل
إلى القسطنطينية معانصاً ليقاً ماهراً يحيط بعلاقات الود والصداقة مع تركيا ، واستنعد
تايران أن يؤلب العثمانيون الدول صـ فرنسا ، كما استند أنه لا يحق لفرنسا أن عشى
شيئاً من جانب المحتلة لأن الحرب القائمة بين الدولتين سوف تعيد فرنسا عند تقرير
إرسال حملتها إلى مصر ، لأن المحتلة التى يقض مصحها الخوف من رول الفرنسيين

بأرضها ، إذا عروها في عمر دارها ، لن يحسر على إخلاء شواطئها من الحيد ،
والخارقه يبرسان قواتها لتعقب « حملة » لا يعرف أحد مكان القدي تعصده ، أو الوقت
المحدد لقيامها من الشواطئ المصرية ، ذلك أن تاليران يصح أن يظل مشروع هذه
الحملة إذا استقر الرأي على إرسالها إلى مصر سرّاً مكسوفاً

ولم يكن تاليران أيضاً يتوقع أن تظهر روسيا وبروسيا والنمسا اهتماماً كبيراً بمسألة
عرو مصر ، ولم تكن طویل وقت على اشتراك هذه الدول الثلاث في اقتسام توليده
في بينها ما أتيا ، كما أنه لا يحق لفرنسا أن تحشى شيئاً من جانب روسيا العديدة ، أو من
جانب روسيا ، وهي دولة لامصلحة لها في معارضة العرو المصرية ، هذا إلى أن الأشغال
لحم العلاقات مع النمسا في ألمانيا ، وبيدارة شئون مملكتها الجديدة على شواطئ
الأدرياتيك ، سوف بصرفها عن التفكير في امتشاق الحسام من حديد بعد حررها
الأخيرة مع الجمهورية ، أصعب إلى ذلك أن هذه الدول جميعها من تقدم على إعلان
الحرب ضد فرنسا ، خوفاً من إرداء الارتباك في مملكتها ، بسبب انتشار « روح
الحرية » الجديدة بين لشعوب الخاضعة لها ، تنحط لاشمال الثورة المصرية العسكرية^(١) .
وعلى ذلك فإنه لم يكن هناك ما يدعو إلى خوف حكومة الإدارة من ظهور أية
صعوبات ، أو حدوث مقاومة من جانب الدول ، قد يحول دون تنفيذ مشروع العرو .
وواجب هذه الحكومة الآن أن تتساءل عما إذا كان محق لها أن تتوقع مقاومة جديدة
في داخل مصر دنيا . وبالإضافة على ذلك أفرد تاليران حراً من تفرره لبحث « قوة
الملك العسكرية » ، وحلص من محته إلى أن « فتح هذه البلاد لن تكلف الفرنسيين
نقطة دم واحدة » ، لأسباب عدة ، منها عدا للفرين الظاهر للسكوات المالك ،
حتى إنهم إذا أعطوا سلاحاً لقتال الفرنسيين انصرفوا استخدموا هذا السلاح في قتال
أولئك الذين طعوا في حكمهم ومروا عنهم . أما السكوات المالك أنفسهم فكانوا صغافاً
لا يريد عدد جيوشهم على سعة أو نمابة آلاف فارس لا يدرون شيئاً من أساليب
الحرب وصون القتال الحديثة ، وإن كانوا أصحاب مروية وحساسة . فهم لا يعرفون
السطام ، ومجهلون استخدام المدفعية ، وسلاحهم قليل^(٢) .

وقد تحدث تاليران بعد ذلك عن « وسائل تنفيذ مشروع العرو من حيث إعداد
الرجال ، وتجهيز السفن اللازمة لجلهم إلى مصر ، وبيان الموانئ التي مخرج هذه السفن
منها ، ثم الجهات التي يرسل بها الحيد في الشواطئ المصرية . بل مالت تاليران حتى

(١) Jonquière I. 160 — 162

(٢) Jonquière I. 162 — 163

وصل كذلك حطة العرو العسكرية ، وأشار بضرورة الاستيلاء على رشيد بعد الإسكندرية
 اتمان السيطرة على مصب النيل ، ولإمكان نقل الحند والعتاد إليها بسهولة ، حتى إذا
 اجتمعت قوات الحملة في رشيد انقسمت إلى فرقتين : إحداهما في النيل بين رحف
 بعريق الآخر برت معجدة النيل صوب القاهرة ؛ ثم أصبح تاليران عطاردة المليك عبد
 الحاتم إلى الصعيد ، بعد هزيمتهم المظفرة بالقرب من القاهرة ، وأشار علاقتهم حق
 أسوان ، كي يمكن العراء من فرس سيطرتهم على البلاد من اشواطى ، الشجالة إلى
 أقصى الصعيد ، فيبقى (للحملة) عدد من رسل الضلال وسائر محصولات من الأقاليم
 المصرية إلى جنوب فرنسا وإلى حرر الأتوبيد عموماً ، وما كان الاستعداد على الدوام
 ضرورياً للدفاع عن البلاد ، فقد طلب تاليران أن يشي الفرنسيون سدنة من
 استحييات على الحدود في بني قمر والصالحية وأسوان (١)

وفصلاً عن ذلك فإن من مراد احتلال مصر وتوطيد أقدام الفرنسيين فيها
 يستطاع هؤلاء تعيد رعيهم القديمة بإرسال حملة من القاهرة ولويس تطرد لاغير
 من الهند . واعد تاليران أن من السهل تحقيق ذلك لأن الاخير لا يملك قوا
 كافية للدفاع عن أعطارهم انشاعة في هذه البلاد اسعدت ، حتى أنهم لم يعزروا عن وصف
 هجوم الفرنسيين عليهم إذا أرسل هؤلاء حوالى خمسة عشر ألف حدى حارب للاصنام
 إلى قوات تيو صاحب سلطان ميسور . وأشار تاليران على حكومة الإدارة لصان عجاج
 هذا المشروع بأن يسرع في إرسال أسطول من السفن والذخالات إلى أسويس ، عليها
 من الزوايا الأوروبية ، أو من مستعمراتها في جزيرة (إلى دي فرانس)
 و (رويدون) كما أنه في وسعها إذا احتيت صانع الفرمة أن تستخدم السفن الآتية إلى
 أسويس عملة مالى من اليمن وحدة . وقد أصبح تاليران كذلك أن سبق مشروع هذه
 الحملة سرا مكتوما ، حتى لا يعتمد الاخير إلى عطيله ، ومع ذلك فإنه مما يحذر ذكره
 أن تاليران لم يكن يهدف إلى استعمار الهند نفسها ، بل كان كل ما يبغيه أن يتمكن
 مواطنوه من طرد أعدائهم منها . ذلك أنه إنما كان يطمح باحتلال مصر واستعمارها
 دون غيرها ، على اعتنا أن احتلال هذه البلاد يكفي وحده للسيطرة على تجارة الهند
 وشرق مادام قد تم إخلاء الهند من مستعمراتها الاخير . وقد اعتمد تاليران كذلك
 أن طرد الاخيرة من الهند أمر لا يفرمه في النهاية إذا شاء الفرنسيون أن يظلوا
 مستعمرين سيطرتهم على مصر ذاتها ، بل وبكفى حيث للاحتفاظ بهذه السيطرة أن يظل

الزعماء الوطنيين من أهل مصر في مناصبهم تحت رقابة الفرنسيين وسد طرد حكومة الجمهورية (١)

واحتّم نديران هذا التقرير المسام تندوس بعض « الملاحظات العامة » ، ولعل أهمها اقتراحه أن توسع لجنة مؤلفة من شخصين أو ثلاثة على رأس اللجنة للرسلة نحو مصر ، على شريطة أن يتمر أعضاء هذه اللجنة بالحكمة والحد والارادة القوية ، وأن يكونوا أصحاب معرفة — إن أمكن — بحال البلاد التي يدخلون لفتحها ومع أن نديران وضع في إحدى أعضاء هذه اللجنة كل سطة وسيطرة على الجيش ، فيه لم يشأ أن يكونوا من القواد المسام ، لأن انفتح المتظر لا تطلب وجود امسكربين لأكداء ، بل يجب أن يعود اللجنة رجال أبرر صفتهم بالحكمة وأمانة الرأي ، وفي وسعهم أن يحكموا الفرنسيين فائسة في هذه البلاد على احترام هليل أهاليها وتدابيرهم وشمايرهم الدينية ، وكذلك موقعهم من أمراء ، فلا يصح أن يسلط انعامون مساكنة يحمل المصريون اعتمادون أنهم إنما استبدلوا ظمًا بظلم ، واستعاضوا عن شر عاهو شرمة ؟ أما الذين السوى إلى استقالة المصريين وكذب مودتهم فهو تحيل علمتهم وشيوخهم واحترام أهل اراي مهم لأن هؤلاء انماء أصحاب سطرة كبيرة على الشعب ، وتسلط عظم على تمسكهم ، فضلا عن ذلك فإن الواحد يقضي رحا اللجنة أن يبدلوا نصارى جهنم في حذب الرؤساء القسط في البلاد إليهم حتى يجرعوا منهم عدد القرى وتعداد السكان ومساحة الأراضي المروعة ، وغير ذلك من الموضوعات المتصلة بالإدارة المالية ، وهي موضوعات لا تشك في أن القسط يحلون معرفتها بسبب اصطلاحهم بتحصيل الإيرادات وحماية الضرائب وما إلى ذلك (٢)

وقد جلس ناليران من ذلك كله إلى تقرير حقائق أربع : أولها أن الإقضاء على عرو مصر وفتحها وسيلة طاهرة من وسائل الاندصاص من الباطل العالي الذي عشت حكومته في مصر محقوق لفرنسيين ، وألحق بهم أدى حيا وإهانات بالغة ، وثانيها أن الفصح إذا تقرر سوف يكون سهلا ميسورا لا يعوقه خطأ ، ولا عشى عليه أي عطل أو إحقاق ، وثالثها أن الفصح لن يتطلب نفقات باهظة ، ومن للمتظر أن تعد حكومة الجمهورية في استئلال موارد البلاد ما يعوضها حيرا دون أي إهمال ، عن تلك استغاث التي تحملها ، ورابعها أن فتح مصر سوف يعود عوائد محقة لا حصر لها على جمهورية فرنسا (٣)

Ibid 165 — 166 (١)

Ibid 166 — 168 (٢)

Ibid 168 (٣)

هذا موخر تقرير تايران الشهور . ولا حداد في أن اتقرر إلى حاسب ذلك
العرض التاريخي البارح ، الذي مكن صاحبه من سطر أحوال انحداد منذ امتح العتافي
إلى عتاء الحلة العرنية تقرتاً . قد رسم في خطوط عرجة حطة السميت العسكرية
إلى وحد وبارت وفواده عند حضورهم إلى هذه البلاد أنه لا مانع من اتاعها ،
إذا شءوا دعم سيطرتهم في مصر من شواطئها الشمالية إلى أقصى حدودها الجنوبية .
كما أنه وضع فواعد تلك السياسة التي حاولت حكومته اتاعها في علاقتهم مع تركيا
في أثناء العرو وعنده . وصحيح أن تايران أخطأ عندما اعتقد أن عواطفه لن ياتقوا
مقاومة من جانب المصريين ، إذ قد ظل المصريون ياتصون الحلة العتاء من وقت قدومها
إلى وقت خروجها ، ولكنه استطاع من جهة أخرى أن يوضع معالم سياسة التي سار
عليها بوبارت وروضاء الحلة من بعده في حكمهم البلاد ؛ تلك السياسة التي عرفت باسم
السياسة الوطنية الإسلامية . ومع أن هذه السياسة الوطنية الإسلامية قد تدش في
استئالة المصريين إلى تأييد تجربة الفرنسيين الاستعمارية في مصر ، فقد نصرت عوامل
عدة لتقبول أن كان هذه السياسة . ولا يمكن بطبعة الحال أن يعد تايران نفسه
مستولاً عن إحداثها .

وفصلاً عن ذلك فقد دل هذا التقرير على أن صاحبه كان مازال يعتقد كبيره وهم كبيرون
أن فتح مصر لا يتطلب جهداً كبيراً ، وأنه سوف يفتى في النهاية إلى هدم مركز الإتحاد
في الهند وطرده منها ، وقد سبق أن قدم تايران نفسه ثلاث « مدكرات »
هذا المعنى إلى حكومة الإدارة في يوليو ١٧٩٧ ، أشار فيها إلى ضرورة التعاون مع
أمراء الهند وسلطانها ضد سيطرة الإتحاد في بلادهم ^(١) . كما تقدم غيره إلى حكومة
الإدارة « مدكرات » أخرى يشيرون على هذه الحكومة أن نجد من استطاع
بإعداد حملة لغزو واحتظه ستاراً لإرسال أسطول بحري قوياً إلى الهند ، لطرده
الإتحاد منها أو لضمها ^(٢) على أن أهمية تقرير تايران الأخير (١٣ فبراير ١٧٩٨) إنما
تتضمن في أن صاحبه استطاع أن يجمع في بحث واحد بين الفكرتين معاً : فكرة
فتح مصر ، وفكرة التدخل في الهند ، فصلاً عن أنه قد أبرر من حاجة أخرى تلك
الفكرة التي ظل شارل محلون يرددها في تقاريره ، وهي اعتبار فتح مصر خطوة
ممهدة للتدخل في الهند وطرده الإتحاد منها ، والتحكم بمصل ذلك من القضاء على
تجاتهم في الشرق .

Ibid 169 (١)

Charles-Roux. Origines 320 — 22 (٢)

وكان من أثر انفاق شارل محائول وناليران في ايراني ، ومضالتهما الحكومة بمحاولة فتح مصر باعساره وسيلة باحجه للاقتصاد من الاعلى بطردهم من الهند ، أن احد موضوع عرو مصر مكانا من تمكيد حكومة الإدارة ، على اعتبار أن إرسال حملة إلى هذه البلاد بات أمراً من المحتمل وقوعه ، إذ دلت الحوادث على أنه من اسعد تعيد مشروعات حكومة الإدارة الأخرى ، التي سبق أن قطعت فيها هذه الحكومة رأي حاسم ، كاثوافة على إرسال حملة إلى مالطة (منذ أواخر سبتمبر من اعام نابص) ، وهي الحملة التي عرفت باسم (الحملة الصغيرة) *La Petite Expedition* ^(١) ، وكنديد الانقسام من اختلفه . وإرسال (الحملة الكبيرة) لرو بلادها ، على أن تم تكديد يعود بويرب من رحلته لنفسية في التواطؤ النهائية ، وم تكديد بوافي حكومة الإدارة على معرطه في جلسي ٢٤ ، ٢٥ فبراير ١٧٩٨ . حتى تبين لها بعد أيام قليلة أن الحمدين السامرة والكبيرة كليهما لا يمكن تعيدهما . وكان مما قصي على مشروع حملة انصيره وصول تقرير (بوسيلج) عن مالطة ، كما قصي تقرير (دبريه) عن رحله المبشيرة في برست والتواطؤ الشمالي على مشروع الحملة الكبيرة .

أما بوسيلج بعد استطاع الذهاب إلى مالطة على الرغم من تلك الأوامر التي بثت بها بويرب ، رت إلى أخيه يوسف ، السفر العرسي في رومه وقتئذ ، لمع بوسيلج من اعيد هذه الرحلة ^(٢) ولكن هذه الأوامر وصلت متأخرة ، فمع بوسيلج (ثالثاً) في ٢٤ ديسمبر ١٧٩٧ ، وأحد عهد لاحتلال الجزيرة . ثم بثت عن نتائج مهمته تقررا صادقا إلى حكومة الإدارة من ميلان في ٨ فبراير ١٧٩٨ ، فوصل التقرير بعد عودة بويرب ، رت معه من رحله التميشية إلى باريس يومين أو ثلاثة أيام حسب ، ومع أنه كان من رأي بوسيلج أن تسرع فرنسا باحتلال مالطة ، فقد وجد لزاما عليه أن يحذر حكومة الإدارة من الاعتماد على ثمة مساعدة داحضة من جانب الفرنسيان ، إذ هي قررت الاستلاء على الجزيرة ، كما أن المالطيين أنفسهم سوف يلزمون خطة الجهاد تام في أثناء الفتح . ذلك أن الفرنسيان المرسيين ، وبلغ عددهم نصف فرسان القديس يوحنا بالجزيرة ، ما كان في وسعهم ، على الرغم من عطفهم انطهر على فرنسا ، أن سحاروا إلى جانب الجمهورية في مشروع سوف يقصى عند الحاجة على جماعة الفرنسيان بأسرها ، ويسلمهم موارد رزقهم ، واقترح بوسيلج حلا

Corresp. No. 2364 (١)

Jonquière I. 73 (٢)

لهذه المشكلة أن تعتمد الجمهورية على استخدام الأساليب الدبلوماسية ، كعمل اللاط
الأساسي في ممر د على مصادره أملاك الفرس في ساسا ، وإثارة الصعوبات في وجه
(هوميش) رئيسهم ، أو إقناع لاما محل جماعة عرسا ، والاتفاق مع (هوميش)
نفسه حتى يتدخل عن ماطة لواء إعطائه حرية مصرعة أخرى في البحر الأبيض مدى
الحياة . وفي خطاب مثله إلى بونارت على تقريره وصف بوسيلج حال الأسطول
الفرسي الراس في ميناء كروو بعباده الأمراء (بروس) ، وصفه لاسع
محالا للشك في أنه لا يمكن الاعتماد على هذا الأسطول في بعد مشروع
(الحملة المصرية) (١) .

وبعد أيام قليلة من وصول بروس بوسيلج إلى مارس ، اجمع بونارت بقواده
الذين أرسلهم إلى الشواطئ الشمالية ، وكان من أثر اجتماعهم بالبحرال دريه على وجه
الخصوص (في ٢٧ فبراير) أن راد قساع بونارت بأنه كان على حق عندما استعد
نه من التمدد إرسال الحملة إلى إنجلترا ، من غير أن يفي ذلك إصلاحات واستعدادات
واسعة في لثومور المصرية . وهكذا أضحى مشروع الحملة المصرية والحملة الكبيرة معا
وفي وقت واحد ، وعدم على حكومة الإدارة أن تحار بين العمل ضد هانوفر
وهامبورج ، أو إرسال حملة إلى الليخت ، أو عقد السلام مع إنجلترا على نحو ما اقترح
عليها بونارت في تقريره . وفي جلستي ٢١ و ٢٢ مارس ١٧٩٨ ، ناقشت حكومة الإدارة
هذه المشروعات الثلاثة .

ومع أن معرفة مدار هابين الحلبيين والحلمبات الدلية من مفاوضات ما يزال
متعددا ، فالظاهر أن حكومة الإدارة ما لبثت أن انتهت ضد يوم ٥ مارس إلى تقرير
إرسال الحملة على مصر ، إذ من الثابت قطعا أن بونارت قدم في هذا اليوم نفسه
إلى حكومة الإدارة مذكرة تحدث فيها بإسهاب عن وسائل تنفيذ مشروع « الاستيلاء
على مابطة ومصر » وذكر أنه كفي للاستيلاء عليهما إرسال حملة من خمسة وعشرين
ألف حدى من المشاة ، وحوالى ألفين أو ثلاثة آلاف من الفرسان ، يسعون
إلى الشواطئ المصرية من موانئ إيطاليا وفرنسا (٢) . وكان في هذا اليوم نفسه
أن صدر قرار حكومة الإدارة بإعطاء الاستعدادات العسكرية اللازمة وفق ما جاء
في مذكرة بونارت عن « الاستيلاء على مابطة وعلى مصر (٣) » . وقد كان بوصول

(١) Ibid 126 — 136

(٢) Jonquière I, 197 - 201, Corresp. No. 2426

(٣) Reybaud III 30 — 31; Ader 5 — 6

الأحبار إلى باريس وقتئذٍ سحاح القوات العربية (في رن) (ورومة) أثر حاسم في إقدام حكومة الإدارة على اتخاذ هذه الخطوة^(١).

ذلك أنه ما كان يتيسر لمجهر الحملة المزمع إرسالها إلى مصر دون إيفاق الأموال الطائلة، وكانت حكومة الإدارة قد بدأت تشعر بالصائفة المالية خلال الحرب السابقة، على الرغم من أن البلدان المتهورة طلب سحاح وقتذاك بمقات حيوش الجمهورية، ولكن لم يسكن الحرب تصع أوارها وتتعظم المخالفة القول حتى رادب حدة الصائفة الدلية وظهرت هذه الصعوبات بصورة واضحة عند التفكير في عرو اعترية، حتى إن الكثيرين من العربيين، الذين عقدوا العزم على الانتقام من اعترية، مالشوا أن صاروا يجمعون للبراع للحكومة، وأصدرت الحكومة كذلك قرصاً أهلباً، كما أصدرت قرارات عدة بمصادره ابحاره الاغترية^(٢) عبر أن ذلك كله لم يهد شيئاً في انصراف الأثرة فلم يجمع من البراعات مال كثير، كما اكتف القيلون فقط في لقرص الاهي، ولم تحصل لحكومة منه إلا ربع ما كانت تقدره، كما صدر سعيه بعض فراراب بمصادره البحارة الابحرية وكان إذن في هذه الظروف أن أثار بوارب متدخل في شئون حكومتى رن السويسرية ورومة الدابوة. ووافقت حكومة الإدارة، على أن تحصل على أموال طائلة من الباحتين مدحة لهذا التدخل، وقوب برعة في التدخل خصوصاً بعد انقلاب ١٨ فركيدور (٤ سبتمبر) فاستطاع يوسف بوارب، السفير الفرنسي في رومة، أن يحرك فيها الاضطرابات، ويستثير «الديمقراطيين» لمعارضة اناياوس السادس معارضة شديدة. وفي ٢٧ ديسمبر ١٧٩٧ غلاصباح الثوار مطالبين بالجمهورية، وعاد السفير الفرنسي الفاتيكان، وصدرت الأوامر إلى الحارال برتييه Berthier بالرحب على رومه وفي منتصف فبراير ١٧٩٨ أعلنت (الجمهورية الروماسة)، واستولى الفرنسيون على هائس الفاتيكان، كما حردوا قصور السلاء من هائسها، ولم يبع من هذا الحريد عبر تلك القصور التي دفع أصحابها أموالاً طائلة لإفاد ما يملكون. وسيطر الفرنسيون على مالية الحكومة الدابوة، وكان العرب من ذلك كله - على نحو ما موصحه قول (برتييه) منه إلى بوارب عند بدء الزحف على رومه بإعداد مال للارم «لجيش المحترية»^(٣).

وكما كان العرب من الزحف على رومه الاستلاء على البائس وجمع لأموال،

Rose. Loc. Cit. (١)

Jonquière I. 83 - 6 (٢)

Rose-Ibid, 638 (٣)

فقد كان العرس من التدخل في سويسرة الحصول على ائمال كذلك . فقد استطاع بوارث مد نوفمبر ١٧٩٧ أن يعمل على عريك الثورة والاضطراب في المقاطعات السويسرية ، بالاعاق مع ارفعاء « الدوقراطيين » . وفي ٢٨ ديسمبر من العام نفسه قررت حكومة الإدارة التدخل في سويسرة بصورة حاسمة . تدخل الفرنسيون البلاد في أوائل العام التالي ، واحتل الجرال برون Brune عاصمتها (برن) في ٥ مارس عام ١٧٩٨ ، فاعل اتحاد سويسرة الكونغراني ، وأعلنت الجمهورية . وحصل امريسيون أموالا طائلة من المقاطعات الخليفة ورحاب الدين وفراد الشعب السويسري ، حتى بلغ ما جمعه أكثر من ثلاثة وعشرين مليوناً من الفرسكات ، عدا القدر العظيم من المؤن والذخائر وعتاد الحرب ^(١) . وعلى ذلك فقد أمكن بعض هذه الأموال اني حصبب حكومة الإدارة من رومة وسويسرة أن تقدم مطمئنة على مجهر « جيش الشرق » فاعد للروم في مصر . فقد أرسل الفرنسيون كل ما عثروا عليه وخاصة في سويسرة من مؤن وذخائر وعتاد إلى طولون مباشرة ، وذلك لاستخدامه في تونس (الحملة المصرية) .

وقد حدث في أثناء ذلك كله أن آخر مشروعات الاستعمار ، التي كانت ما ران تشمل أدهان أعضاء الإدارة وهبات حكومتها الأخرى ، قد ظهر قصورها عن تحقيق آماني الفرنسيين ورعايتهم . ذلك أنه بعد على الحاجة التي كلفها مجلس الخمسة تحت مشروع ودستروم أن توافق على الاستعمار في إفريقية العربية ، بل إنها ما لبثت أن رفضت نهائياً هذا المشروع في ١٢ ابريل ١٧٩٨ . وفي اليوم الذي وصلت فيه اللجنة إلى هذا القرار الحاسم كانت حكومة الإدارة من حاسها قد وصلت هي الأخرى إلى رأى قاطع بصدد الاستعمار في مصر ؛ فأصدرت في ١٢ ابريل ١٧٩٨ قرارها اساريحي بوضع « جيش الشرق » تحت قيادة بوارث .

وكان هذا القرار يتألف من مقدمة وست مواد ^(٢) اشتملت المقدمة على الأساب اني أوعت حكومة الإدارة « رسالة الحملة على مصر » . لعقاب البكوات المليك أصحاب السيطرة على الحكومة في مصر ولدين أشاوا صلاب وده وثيقه مع الانجليز . فأساءوا معاملته الفرنسيين ، وهبوا أموالهم ، واعتدوا على أرواحهم ؛ كما أنه لما كان الانجليز قد اسولوا بطرق القدر والحاجة على رأس ارجاء الصالح ، وحصلوا استخدام هذا الطريق متعدياً على لسان الفرنسية ، فقد تاب من واجب حكومة الجمهورية أن تحت عن

(١) J. nquière I 87, Rose-Ibid 639 40

(٢) J. nquière I 343 — 44. Corresp. Ncs. 2491, 2495

طريق بحري آخر . ونصب المادة الأولى على إعطاء بومبارت قيادة القوات البحرية والبحرية اللازمة للاستيلاء على مصر ، ثم طلب إليه - في (المادة الثالثة) - أن يطرده الأخير من ممتلكاتهم في الشرق أو في الجبهات التي يستطيع الوصول إليها ، وأن يقص على مراكزهم البحرية في البحر الأحمر خاصة . كما طلب إلى بومبارت - في (المادة الثالثة) أن - يشق قنص في روح السويس ، وأن يبدل تضاريس جهده حتى يسيطر على حكومة الجمهورية على البحر الأحمر . ونصت (المادة الرابعة) على أن يعمل قائد الحملة على تحسين أحوال أهل البلاد من المصريين وطبب إليه الحكومة في (المادة الخامسة) - أن يعمل على الاحتفاظ بعلاقات لود والصدافة مع السلطان العثماني ورجائه . ولم كانت حكومة الإدارة يريد أن يظل أمر هذه الحملة سرّاً مكتوماً ، فقد نصت (المادة السادسة) والأخيرة من أوامرها على أن تظل هذه الأوامر غير مطبوعة .

وقد صدر قرار آخر في نفس اليوم (١٣ إبريل) يتألف من مقدمة ومادتين (١) ؛ سبقت مقدمته الأسباب التي أثبتت حكومة الإدارة كذلك بالاستيلاء على مالطة ؛ وهي أسباب سمعت الإشارة إليها عند الكلام عن مسألة مالطة . ونصت مادتها هذا القرار على تكليف بومبارت بالقيام بمهمة احتلال الجزيرة ، ونفاذ هذه الأوامر غير مطبوعة بحفظه على سرية الحملة . على أنه لما يحد ذكره أن حكومة الإدارة ما يثبت أن أصدرت في اليوم نفسه كذلك قراراً آخر (في ١٢ إبريل (٢)) ، ركزت فيه للعائد لعدم أسر الفصل هيثيا في مسألة احتلال مالطة ، وذلك لحولتها من أن يؤدي لأهمام باحتلال مالطة الذي اعتبرته هذه الحكومة خطأ من مشروع الحملة الرئيسي إلى تعطيل حركة الجيش ، ومنه من تحقيق الغرض من إرساله ، وهو فتح مصر داتها والاستيلاء عليها .

غير أن صدور هذه القرارات لم يكن معاه وند أن و رب قد سدها طهرها فكمرو عروالا تحريق الادهم ، بل أنه كان ما زال يصعد ضروره اصى في الاستعدادات اللازمة لتجهيز حملة ضد ، مختاره دنه . (أى الحملة الكبيره) حتى إذا جاء الوقت اللازم استطاعت فرنسا أن تسير هذه الحملة عليها . بل إن هناك ما ثبت قطعاً أن بومبارت حين خروجه على رأس جيش اشرق إلى مصر كان يعتقد آمالاً عظيمة على استطاعته العودة سريعاً من هذه البلاد ، حتى يتولى قيادة الحملة ضد ، مختره ؛

Jonquière I 344 - 5. Corresp. No. 2496 (١)

Jonquière I 355 (Not 1) Corresp. No. 2497 (٢)

وآية ذلك تلك (الدكرات) التي بدأ يقدمها لحكومة الإدارة ، عقب صدور قرارها الأخير عن الحرب الزمعة ضد إنجلترا^(١) .

وكانت الاستعدادات قد بدأت لجهز الحملة المزمع إرسالها إلى مصر ، منذ أن وقعت حكومة الإدارة على مشروع بومبارت عن « الاستيلاء على مالطة وعلى مصر » في ٥ مارس ؛ وقد سبق بيان كيف أرسلت الدخائر والمؤن وما إليها من عتاد الحرب الذي جمعه الفرنسيون في سويسرة إلى طولون ، كما حصصت الأموال التي استولت عليها جنودهم في (رن) للامتنع عن (الحملة المصرية) . وفصلا عن ذلك فقد عهد إلى بومبارت نفسه باحتار القواد والعصاة والعطاء والمهندسين والخمرايين ومن إليهم للذهاب معه في هذه الحملة ، كما وصفت حكومة الإدارة الأيرال (روس) ونسطولة تحت أوامره . وبذل بومبارت تضاريا جهده لإعجاز استعداداته بسرعة . فألف حلة كلها بالتمش في الموانئ الإيطالية والعربية عن اسفن الصالحة لعل اخذود ، وبدأ الجيش يجمع في اثواطئة اخوينة تحت اسم « الجناح الأمير لجيش المحترمة » ، بصلا لاهمو وطلب كثيرون من قواد جيش ارس الانصواء تحت بواء بومبارت في هذه المعامرة الجديدة . وإن كانوا قد ظلوا المكان الذي تقصده الحملة . فكان من بين الذين عزموا خدمتهم بيار ومورا ، وكمارسي وغيرهم . ومع أن (رتييه) اعترض في أول الأمر عن قبول منصب رئيس هيئة أركان الحرب . فقد نادر هو الآخر بالذهاب إلى طولون وطلب من أن يصمم إلى الجيش ، وخدمه بومبارت إلى رغبته عن نحو ماسي ذكره . وظل الجنرال كليم وحده لا يبدى اهتماما بما يحدث ، ويشهد انفرله جيدا عن هذا النشاط كله ، لعدم اطمئنانه من ناحية « المحامين » أعضاء حكومة إدارته وخدمه عليهم^(٢) حتى إذا حصر يوما لزيارة بومبارت . ووثق من استطاعة بومبارت أن ينع هوؤلاء « المحامين » من تعطيل الحملة التي اعتقد كليم أن انفرص منها لم يكن سوى البرول في إنجلترا العروها ، نادر بالموقفه على الذهاب معه .

واجمعت اسفن المعدة لقتل الجيش والمؤن والعتاد في موانئ طولون وحموه وأناكسيو . وسفنا فكنا تحت إشراف دريه Desaix ودوريلو Donzelot في سفنا فيكيا وبرجوى دسيه Baraguey d'Hilliers في حموه ، وفوبوا Vaubois

(١) Jonquière I 350 2 Corresp No. 2502

(٢) Reybaud III. 33

في أحاكيو . واستطاع هؤلاء أن يحموا مدعبة كبيرة ونحو ألفين وحمائة فارس ، وإن كان عدد الخول لى جهرب للأخار مع الحملة لم يرد على ثلثائة على أمل أن يجد سائر الفرسان خيولا عربية فيما بعد في مصر ذاتها .

أما بونارت فقد ظل يشرف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة من معمره في باريس ، وكان أهم ما عني به تنظيم الخدمة الطبية ، فعين (دجنس) Desgenettes رئيساً لأطباء الحملة ، و (لارى) (Larrey) رئيساً لجراحها . وعهد إليهما بتنظيم الخدمة الطبية ، وإجبار الأطباء الألمان لمرافقة (جيش الشرق) ومجهز الأدوات الطبية والعقاقير والآلات الجراحية وما إليها ، وإعداد سفن المستشفيات . وفصلاً عن ذلك فقد أشرف بونارت بنفسه على تأليف لجنة من العلماء عرفت باسم لجنة العلوم والفنون ، سوف يأتي الكلام عنها في حية . فكلما بونارت كلا من مويج وكماريني ورتنيه والخراب أندروسي Andréossy جمع العلماء والجراحين والفنيين والرسامين كما كلم مارسيل Jean Joseph Marcel جمع كل ما يمكنه انفقور عليه من حروف الطباعة العربية واليونانية في باريس . بل طلب إليه أيضاً أن يذهب إلى رومة حتى يأتي بحروف مطبعة (الروماني) اكنوسكية - مع الرسائل التبشيرية الأحذية - وكان اسماوا قد أسسوا (الروماني) في القرن السابع عشر . غير أن بونارت توفير للوقت ما دلت أن كسب في ٧ إبريل ١٧٩٨ إلى (مويج) في رومة أن يقوم بهذه المهمة ^(١) . وشط العمل في باريس لصع كل ما يحتاج إليه ارباصيون وعلماء انطبيات والكيمياء من أجهزة وأدوات .

وفي ٢٣ إبريل كان بونارت على وشك مغادرة باريس إلى طولون ، عندما حدث لحاة أن وصلت الأخبار إلى باريس عن إهانة برنادوت Bernadotte السفير الفرنسي على يد بعض الجماهير الصالحة في فيا ، واضطراره إلى مغادرة العاصمة النمساوية ، فغثبت حكومة الإدارة أن يؤدي هذا الحادث إلى قطع علاقاتها مع النمسا ، فطلت إلى بونارت البقاء في باريس ، كما أصدرت أوامرها بوقف إرسال الخوذ إلى السفن في طولون ، بل ووعت في أن يذهب بونارت نفسه إلى (رشتاد) ليطلب من النمسا ترصية عن هذه الإهانة . ولكن بونارت رفض الذهاب إلى (رشتاد) ونصح بالترتيب والثبات ، ثم نادرت النمسا بالاعتذار عن الحادث ، وهدت الزوومة وعاد بونارت باريس إلى طولون في ٣ مايو ١٧٩٨ ، فوصلها بعد ستة أيام ، تصحه

جوزفين روجه ، وفي معيته بورين Bourienne سكرتيره (١) .
 وسد أواخر إبريل كان سائر كاد فواد الحملة قد حصروا إلى مراكرهم ، فكان
 رنيه Reynier في مرسيليا ، ودوغا Dugua في طولون ، وكليبر Kléber في (سين)
 Se ne ، وهي بلدة صغيرة قريبة من طولون . ثم كتب بونابرت إلى ديريه ، ورحوى
 ديليه ، وقوبوا ، لكي ينضموا بوجهاتهم ، في سيجينا فيكيا وحسوه وأحاكسيو
 إلى أسطول الحملة الذي تسم الكونتر أميرال برويس قيادته . وفي ١٩ مايو ١٧٩٨
 خرجت الحملة من طولون ، وفي الأيام التالية اصطبأ بها سائر السفن التي حملت القوات
 المجهزة في حسوة وأحاكسيو ، ثم انتظرت الحملة عند كورسيكا قوات (ديره) الخارجة
 من سيجينا فيكيا ، ولكن ديريه حرج فاعلمه رأسا إلى شواطيء صقبة ، ومها إلى
 ماطة ، وانتظر في مياها وصول الحملة .

الفصل الثالث

غزو مصر

الاستيلاء على مالطة :

وصلت لبحره الفرنسية إلى شواطئ مالطة في ٩ يونه ١٧٩٨ ، فساد الرعب والارتباك أنحاء الجزيرة ، وصلت بونابرت إلى (هومبش) رئيس الفرسان أن يذن بدخول السفن إلى الميناء ، ولكن (هومبش) رفض أن يسمح لأكثر من أربع سفن بالدخول ، اعمد على أن مالطة كانت في سلام مع فرنسا ، وأن قوانين الجياد ما كانت تسمح له أن يفعل غير ذلك ، ثم عمد هومبش في الوقت نفسه إلى هيئة مسلحة للدفاع عن الجزيرة ، فاعمد بونابرت حيث مضى رئيس الفرسان دراسة لغزو مالطة وإحصائها ، فاعمد امدارهم فيه جماعة فرنسا لعديس يوحنا لأورشليمي منهم يالثون الانجير أعداء الجمهورية ، وعدوهم ياثون ، ويعمل ملاحوهم في سفهم ، بينما هم لا يقسمون ور ، لأوامر حكومة الجمهورية (١) . وسدد بونابرت بإزالة الجسد إلى ابر ، وكلف الحراب (رنيه) Reynier بالاستيلاء على جريزتي جورو Oozo وكومينو Cumino ، كما كلف فونوا ولان Lannes ودبريه ومارمون Marmon لغزو مالطة ، فتجهزت جموع اللطيين دون نظام إلى هالنا ، ومعد هومبش أي اهتمام بالدفاع عن الجزيرة ، بل ظل معتزلا في سريره ، حتى صلب إليه أهل الجزيرة في منتصف ليل ١٠ يونه أن يلم مالطة إلى الفرنسيين ، وفي صبيحة اليوم التالي كان قد انقطع إطلاق المدافع من الحصون (٢) . وفي ١٢ يونه سلم الفرسان مالطة إلى بونابرت وتسلموا لفرنسا عن سباتهم على الجزيرة ، كما تدرلوا عن جميع أملاكهم في مالطة وجورو وكومينو لقاء أن يعهد افرسيون من حاسهم باستخدام معدومهم في مؤعر رشتاد Rastadi الذي ظل معقدا منذ مؤتمر من العام بلاصى ، انقرر اسلام انبأى بن قرب الامراطورية ، وذلك حتى يبال هومبش إمارة في المايا

هو يصاله عن قصد مألوفة ، كما وعد الفرنسيون معويته عن الأصرار التي لحقت بتملكاته في الحرية ، وأن يدفعوا له مئذنة سوا كبرى ، وصحوا ، هودة الفرسان الفرنسيين إلى الوطن أو أن يظلوا بالحرية إذا شاءوا انقاء بها على أن يتمتعوا بحقوق المواطنين الفرنسيين ^(١) وفي نفس اليوم الذي أكرم فيه هذا الاتفاق نزل بونابرت في مألوفة ثم دخل عاصمتها في اليوم التالي ^(٢) .

وأقام بونابرت بهذه الحرية حملة أمام ، استطاع في أنشائها أن يصع لها دستوراً جديداً ، وينظم حكومتها ، ويحرر تربيته إدارية ومالية عدة على أقاص (النظام القديم) ، ووقع المساواة وانعالم التي مدت بها (لثورة الكبرى) . قامت امتنارات السكينة ، وحول أملاك امريان إلى أملاك أهلية ، وألغى الرق كما ألغيت محكمة الامميش ، وألغيت ألعاب الاس واشرف . وأعيد تنظيم التعليم ، وأنشئت المستشفيات ، ونعس لك وإنه من الأهالي أمام امماون ^(٣) . وتمر بونابرت هوميش بمعدرة الحرية ، فبحر إلى ريبه ، كما سبب في فووا أن يرسل إلى السبي في رومة كلاً من قصلي المخلعة وروسا وهكذا لم نعس ثم قلائ على بول بونابرت في مألوفة حتى كات قد اغتت جماعة الفرسان بالحرية ، وانعجت مألوفة داما في فرنسا اندماجاً كلياً ^(٤) .

الوصول إلى مصر :

وفي صبيحة يوم ١٩ يومه عذرت الجبهة مألوفة في خرجتها إلى الشواطئ المصرية بعد أن ترك بونابرت (سانت جان د'انجوي) Saint Jean d'Angely فوميسيراً فرساناً بالحرية ، وركب الخيال (فووا) مع أربعة آلاف رجل بحرية (جالب) عاصمها ^(٥) . وقد كان بونابرت نعتي أن عاجي الأسطول الاندري العاهة الفرنسية في أثناء سيرها ، فقد عمد إلى غير اعده . وأبحر صوب كريت بدلاً من الاعان مباشرة صوب الاسكندرية ؛ وفي مياه كريت علم بونابرت أن نلس Nelson ، أمير

Grenfell 28 29 (Convention of 17 Jun) Corresp Nos (١)
2636, 2637

Desvernois 100 (٢)

Jonquière I 621 — 50, Corresp Nos 2643 — 44 — 68 70 (٣)
95 — 96 — 97 — 98

Corresp. Nos 2651 67 — 68 2700 Corresp Inedite I 173 (٤)

Desvernois 101; Reybaud III 104 (٥)

البحر الأحمر ، كان لا يزال يحد في أثره ، فاستمرت العبارة في سيرها بكل سرعة إلى الإسكندرية . وما إن قرئت من الشواطئ المصرية حتى أرسل يوناث الفرقاطة (جيون) Juon في ٢٧ يوبه لتنفذ إلى العربيين بالإسكندرية أساء وصول الحملة وحتى تأتي بالتفصيل الفرس من الثمر ، فحجب (جيون) في محبسها ، وأحصرت السد محالون الذي بولي أعمال القنصلية في الثمر بدلا من شارل محالون عمه . وأحمر محالون يوناث أن أسطولاً محلياً بقيادة بلس رازر بالإسكندرية قبل ذلك ثلاثة أيام فقط ، ثم عادرها فلتحت عن العبارة لمربية في مياه أرمر ، كما وصف الأخطار التي يتعرض لها (الإفريج) بالمدينة بسبب تعصب الأهالي ضد لمسيحيين (١) وترغبت هذه الأخبار يوناث ، إذ حتى عوده بلس إلى المياه المصرية ، فمرر الروول إلى الشاطئ ، ونداع بين حدوده لأول مرة السكان الذي كانت تعصده الحملة ، قطعت مطبعة مارسيل على طهر مارقة القردة (ثورين) L' Orient منشور من القائد العام إلى جيشه في يوم ٣٠ يوبه عرف الجند منه غنى وجهه استخفي أن مصر هي هدفهم (٢) .

وفي أول يوبه أمر يوناث بأرأب الجند إلى الر . وكانت أعباءه قد رانطت بأقرب من مرابط ورج العرب . وانتقل يوناث من لدرجة أورين إلى سفينة صغيرة ، حتى يشرف بنفسه على عملية رول الجند . ولم يعب إطلاقاً حاله وهبوب العواصف القوارب من نقل الجند إلى مرابط ، وكانت حماسة الجند عظيمة . وكان الجند مو أوب من لمست قدماء أرض مرابط . يبعه لقائدان بون Bon ، وكثير ، وبعد جهاد عفيف استمرحت ساعات تمكن حدود مو وون وكثير ورسمه ودرية - وهم رؤساء أقسام الجيش الخمة - من الروول إلى الر ، وما إن علم يوناث في الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي أن الجيش العد للرحف على الإسكندرية قد تم نقله إلى الشاطئ حتى رر هو الآخر إلى الر ، ولما كان قد أمكنه التبع فقد بدئر تعصده ، وبام على الرعد مدة ساعتين ، وفي الساعة الثالثة صباحاً أسعصر الجيش ، وكان عدد الجنود الذين استطاعوا الروول حتى ذلك الوقت خمسة آلاف ، منهم ألف من جند (كبير) وألف وحمائه من جند (بون) وأنصار وحمائه من جند مو . تنفصم اندفعية والخيول ومع ذلك فقد أصدر يوناث أوامره بالرحف على الإسكندرية . فرحف الجيش بمعداء الشاطئ . ، وكان مو يتولى قيادة الحجاج الأيسر ، وون الحجاج الأيمن ، بينما بولي كبير قيادة القلب ، وفاحاً البدو وحماعة من المالك مقدمة الجيش الزاحف ، ولكمهم

ما لبثوا أن ارتدوا سريعاً ، وسد بروع الشمس كان الجيش قد سد الإسكندرية .
وصمم حاكمها سيد محمد كريم على مقاومة الفرنسيين والدفاع عنها .
ورتب بومارت جيشه استعداداً للهجوم على الإسكندرية ، فكلف الخلدال مو
المهجوم عليها من الجهة الغربية ، بينما منح الخلدال كلير دس رشيد ويرحف الخلدال
نون صوب عمود اسوارى . وتبدى مو في ثناء المهجوم شحنة فائقة ، فكان
في طمعة حده الذين حاولوا اصحاب اسوارها ، وأرغم ثلاث مرات على الارتداد عنها ،
وأصيب بجراح عديدة ، ولكنه كان لا يكاد يسقط من أعلى الأسوار حتى يعود اسكورة
مرة أخرى وأخيراً نجح في اصحابها ، وأصيب الخلدال كلير كذلك بجرح في حبهته ،
ولكن حده سرعان ما اكسحوا جموع الأهليين ولاكساربه وامرئان الذين
حصروا للدفاع عن المدينة ، واستطاع نون ومارمون افتتاح باب رشيد (١) ومع ذلك
ففيه ما إن اصبح الفرنسيون الأسوار حتى « رجع أهل الثغر إلى اختس في اسوب
والخططان » (٢) وصاروا يعنفون البر على الفر - بين من اسواقه ، وكاد بومارت
عنه مصاب نطلق باري في أحد شوارع المدينة الصعبة سيد دخوله الإسكندرية غير
أن هذه المقاومة لم تستمر سوى ساعات قليلة (٣) .

احتلال القاهرة

ولما كان كلير ومرو لا يزالان شكوان من جراحهما ، فقد ترك بومارت كلير
حاكماً على الإسكندرية ، كما قرر أن يهبط إلى الخلدال مو بالحكم في رشيد عند
الاستيلاء عنها ، وانقلت قيادة جيشه إلى الخلدال Val ، وفي مساء ٣ يوليو بدأ
الرحيل على القاهرة . فأرسل بومارت دوحاً للاستيلاء على رشيد ، وإعداد حملة
بيلة سير في اسل حتى تلتقي عند الرحمانية بأسر الجيش الزاحف را . كما أرسل
(برى) Perrée ، مع أسطول صغير من المراكب الخفيفة ، إلى مصب النهر للدخول
في النيل عند استيلاء دوحاً على رشيد . وبدأ الجيش رحله في طريق الصحراء الشاق
إلى القاهرة . فاجتمعت مختلف امرق في دمنهور يوم ٧ يوليو ، وفي هذا اليوم معه
عذر بومارت مع هيئة أركان حربه الإسكندرية ، ثم استأنف الجيش رحله من
دمنهور إلى الرحمانية ، ثم إلى شبراخيت والقارب من شراخيت اشك الفرنسيون
مع فرسان مراد بك في معركة حامية (١٣ يوليو) لم يلبث أن اهرم فيها مراد

(١) Reybaud III 122 - 8

(٢) المطرق ٣ : ٣

(٣) Ader 25 - 30

واصطر إلى التمهيز صوب القاهرة . وكان في هذه الحركة أن شكل بومارت حيشه في « ثمة رفاب حمسة » ، حتى يدفعه عنه عائلة فرسان المالك (١) . ثم واصل الجيش وجهه على القاهرة .

وم يكن هذا الزحف « رجة عسكرية » ، بل لقي الخلد في أنثائه شداً ومضوعات كثيرة ، حتى سرت بهم روح استياء خطيره ، وكان أشد لما قيل أولئك الذين رمخ اعتمادهم من ذلك الحين أن قولي ، وسفاري وعرفي . من الرحالين الفرنسيين الذين داروا هذه البلاد ، ووصفوا حصوة أرضها ، ووفره خيرتها ، واعتدوا بها ، وما كان بها من مدن جميلة ، قد عبروا مواطنهم الذين سددوا هذه لأكاديب وآموا بها . فكان هذا الأسبب منشأ ذلك الأعدام ، الذي استعمل مرة في بعض أنصار الأسفار في مصر ، وقرأه في إخلاء عنها فأفصح كثيرون من صراط الخلة عن هذا الأسبب . خصوصاً في تلك الخصاصات التي نفاهاها إلى دوسم في فرنسا ، ووجه في « ندى أمراء بحر الأحمر بعد ذلك » فكنت (نوايه) B. yet في ٢٨ يوليو: « لا تكاد إلا أن يخرج من الاسكندرية لاعتلاء الهرم حتى يلتقي بهراء فاحلة تسقط رحابها ، فمامه ، كما عسقت كعبه . لا يترقب المرء إلا أن يثرملعة ، مد أن تقطع كل مرة ثوبه فرائح أو حمسة ، ومن السهل إدراك ما يكون منه حال جيش برعم على حية . لسحاب الواسعة من الأرض المعفرة ، دون أن يجد الجنود مأوى يلجئون إليه فراراً من لسط أشد الذي لا يحمله أحد . أم الجنود فكان كل فرد منهم محبس من مؤس ما كفيه حمسة ثم يهيم ، إلى جانب حرابه وكأنته ، وكان الكساء رداء من الصوف الثقيل .

« ولقد امكنكم بواصل الجنود سيرهم ساعة واحدة فقط حتى أنهم لم يبقوا ، وشروعوا تحنصون من أحلم عيلة ، بلقاء مؤسهم ، لا يهكرون إلا في يومهم غيب ، ولا يأنسون لما قد يصيبهم في عدمهم . ثم استند بهم ظمأ ، وبال منهم جوع ، فم تحذوا من شروبه ، أو صمأ يأكلوه ، وهكذا غير هذا الزحف بوضع السكوارث الكثيرة ، فقط الجنود من الإعياء بسبب الحر والمطش ، وأطلق آخرون الرصاص على أدمعهم . منهم من ذلك تأثرهم ما كانوا يشاهدونه من حال رملاتهم ، وألقي فريق ثالث بأنفسهم ، وكل ما يحملون من عداد وأسلحة في النيل ، ثابوا عرقاً ، وكررت هذه مأساة كل يوم من ثم هذا الزحف .

« وما يدعو للأسف حقاً أن الخلد خلال زحف استمر سبعة عشر يوماً ما كانوا

يحدون حراً يأكلونه . بل اعتمدوا في غذائهم على الشحم والبطيخ ، وما كانوا يعثرون عليه من اللحاح ونقص المحصولات ، وشارك القواد الخلود هذا النوع من الطعام ، حتى إن بونابرت نفسه ما كان يستطيع في أكثر الأوقات أن يحصل على غير وحدة واحدة كل ثمانى عشرة أو أربع وعشرين ساعة ، لأن الخلود كانوا يسقونه في الدحول إلى القرى ، يسهون كل ما فصل إليه أيدهم ، فلا يجد القائد العام عند حصوله شيئاً ، ويضطر إلى الرضا بالفضل الذى تمكنه العثور عليه في هذه القرى (١) »

وشكا عبر نوايه كثيرون . وكان ثم ما أزعج هؤلاء على ما يبدو حرمانهم البعيد ، إذ منعهم بونابرت من شربه تبعاً لتلك السياسة الإسلامية التي صمم غزوه على انشاءها من اللحظة الأولى كما سيأتي ذكره . فاستبد بهم العطش ، وحدثهم سراب الصحراء ، فرادى إلامهم ، وسعد كثيرون صرعى بفعل الشمس في رؤسهم ، وجعل المنيان فرقة من الخلد يشدون لتجنب من الحناء بإطلاق الرصاص على أنفسهم ، وبذل الأمداء والخراجون ، وعلى رأس هؤلاء ، الأخيرين لارى Larrey وصبرى جهنم لإمداد هؤلاء بالنسي . وسئم أس القواد حتى بلغ من عظم عيظهم أن أتى دوماس Damas ولان Lannes ومورا Murat فقصهم على الرماة ، وصاروا يعدون سحقهم على حكومة لإدارة دون حرج أو إكتراف ، ويسمون جميعاً هذه الحكومة بأسماءهم . بعد ثلثتهم إلى مقبر للجنس منهم ، ويعبرون على بونابرت أنه قبل أن تقع في حاشم كما فعل أى صبي صغير (٢)

واستوفى بونابرت نفسه بملح ما تمكنه الخلود من مشفات عظيمة في أثناء هذا الرحل الدسى ، حتى بات لا يدرى وعد قائدهم بوصول إلى القاهرة بعد قتل إلا حراً وكثرة . وكان مما أراد في صعوبات الحد اراحته أن امرأه طوا بمحبوبهم ، يتلون الخلود لتحدث ، وما حثون الجيش بهجوم خاطف ، الأمر الذى جعل بونابرت بعد إلى تقسيم جيشه إلى خمسة مربعات ، بألف كل صنع من صلواتها من ستة صهوف ، فأخذ انشاء والخروجي ومن إليهم مكاهم وسط هذه التبعات ، بينما وصفت المدفعية فيها . وقد أحفظ الجيش هذا النظام حتى في أوقات راحته . وأهد نظام إدارته في كسب موقعة شراحيث

وفي ١٩ يوليو وصل الفرنسيون إلى ثم دار ، على مسافة خمسة عشر ميلاً من

(١) Simon 152 — 181; Larchey 39 — 43

(٢) Reybaud III. 165

بلدة الجيزة ، وفي ٢١ يوليو اشبكوا ، مع قوات المماليك بقيادة مراد بك ، في معركة اماسة أو الأهرام المعاصرة^(١) . وحسب المهرجة مراد ، فانسحب مملوك جيشه إلى الصعيد . أما ابراهيم ، الذي وقف بجيشه على صفة اسل التي عند مولاك ، ولم يحرك ساكناً ، للاشتراك في المعركة ، فقد حمل أمواله وعائلته ، وقصد مع جماعته إلى ميس في طريقه إلى الشام ، وقد صحبه أو بكر باشا نائب لسلطان في حكم مصر ، ولما كان انسكوات قد تركوا القاهرة دون اعداد في حراء للدفاع بها ، فقد ساد الدعر وعم الاضطراب القاهرة ، وقرر باشا واصفاء تسلم المدينة ، فترسبوا ارسلا إلى بونارت ، وكان لا راي باخيره ، سفسرون عن مقاصد الفرنسيين ، وعقلون «امانة» منهم لعث الظمأية في دعوس لعاهريين ، واثجاب وبارت رعيتهم ، فذهب باشا مع ماسفته^(٢) ، وفي ٢٤ يوليو دخل بونارت القاهرة ، بعد أن احل حرمه من اخيش مصر القعدة وولاق والقاهرة داهيا . ووقف دريه على صفة فرسجين من الحرم في طريق الصعيد ، وأرسلت لقوات حراسه صرق الشام^(٣) ، وفي ٢ أغسطس بدأت مطردة فرانسيس بقوات ابراهيم بك ، وأرسل بونارت الحبران ريبه لتعزير طلائع الجيش اراحم في الشرقية . بقيادة الحبران لكبيرك Lee pere ، فاحتلوا الخاسكة ، ثم قصد بونارت مصر ، في نفس ، فمعه في يوم ٩ أغسطس ، وبسكه لم يحد بها ابراهيم بك الذي عد ها إلى اصاخره . وفي ١١ أغسطس اشتبك الفرنسيون مع ابراهيم بك في معركة بالهرب من الصاخره ، فقتلهم فرسان المماليك راعه وحساره فائمه . حتى كاد النصر يلبس من بونارت ، لولأن وصفت به الحداث سربها ، وقد ساعده اشعان ابراهيم برد اعداء فرما على قتله في احرار نصر كله جهداً بالقاء . فانسحب ابراهيم إلى سد ، وعاد بونارت إلى القاهرة . وفي أثناء عودته إلى القاهرة طعه في ١٣ أغسطس ، ما يحطم الأسطول الفرنسي في واقعه أي قبر امهجرة

وكان (رويس) قد انخر بأسطوله من مياه الإسكندرية إلى أبي قير في ٧ يوليو ، وذلك بعد أن أصبر بونارت على استنقاء الأسطول في اشواط مصر ، ووجد رويس أنه من السعدر على توارحه دخول مياه الإسكندرية القدام . وفي حليح

(١) Corresp No 2834. Lang des 17 25 Reybaud III 195 205
ثم اضطر فعاصل عدة حرمه من تسجحه لسكه في كرك ، «الحلة الفرنسية» ويهور بعد على «
صفحات ٩٣٨ — ١٤٠

(٢) المرقى ٣ : ١٠ : 14 — 211 Reybaud III.

(٣) اسرون ٣ : ١١ : 7 — 216 Reybaud III. 2834, 2835. Corresp. Nos.

أنى فير فاحه ندى ، أمير البحر الاخيرى ، الذى ظل يبحث عن العمارة الفرنسية في البحر الأبيض ، بعد أن سبها في الدحول إلى الاسكندرية ، في انطروف اتى وضعها محالون لوانارت عند وصوله الأسطول الفرنسى إلى الشواطىء المصرية ، فآثره بالفرنسيين هزيمة ناعمة يوم أول أغسطس ١٧٩٨^(١) وكان لهذه المعركة نتائج خطيرة

ذلك أن تحطم أسطول (رويس) في أنى فير كند الحرية الفرنسية حسارة جسيمة ، وقضى على كل أمل في إسكان إحياء هذه الحرية ، اتى كانت قد صمعت ضعفاً كبيراً في أثناء الحروب الأخيرة ، في لياه الأوروبية ، وفي لياه الأمريكية ، وفي مياه الهند الغربية خاصة . فظل الإخمير تمحبات السيطرة في البحار ، وكان من أثر تأيد سيطرتهم في البحر الأبيض المتوسط . بعد أن حطموا أسطول رويس ، أن فرصوا حصاراً شديداً على الشواطىء المصرية ، حتى بات من المتعذر تماماً على فرنسا أن يرسل انتداب — العدد الحرى أو أية إمدادات أخرى — إلى جيش الشرق في مصر وم يسع الفرنسيين حينئذ إلا أن يصعدوا اعمداً كلاً في تدمير شئونهم ، وسد حاجات حملتهم في هذه اسلاد ، على موارد الفطر الداخلية وحدها . وكان لذلك أكبر الأثر في تدهور السياسة الإسلامية الوصية ، التي أرشد إليها تاليران في تقريره إلى حكومه الإدارة (في ١٣ فبراير ١٧٨٩) ووطد بؤرت العزم على اسائها . وكان عزمها اسالة المصريين إلى تأيد الحكم الفرنسى . ووجههم بأن الفرنسيين ما حصروا إلى بلادهم إلا ليعزلوا بهم ، ويهزوا لهم سد العيش السعيد . فلا يشعر المصريون أنهم إنما استمدلوا عظم لسكواب ملك حكماً لا فضل عنه طعاماً وعدواناً ، أو قد عودوه في شروعه وآثمه . فأصبح عزم هذه السياسة الإسلامية الوطنية الآن ، توفير أسباب الحياة للمصريين أنفسهم ، وترويض المصريين على الأساليب على قبول حكم حتى عنهم ، لم يكن هناك مدوحة عن أن يجب لهم إزهاق سطها ، فثاروا صده ، وذهب الفرنسيون معهم نعمة شديداً ، وساءت العلاقات بين المصريين والفرنسيين ، حتى انعدم كل أمل في حدوث أى « تفاهم » بين الفريقين ، أو إمكان تعاون أهل البلاد مع حكاهم الخدد على الرغم من كل تلك الأساليب التي اسكرها بؤرت عند « تطبيق » سياسته الإسلامية الوطنية في مصر .

واستندت سياسة بوانارت الإسلامية الوطنية إلى قواعد ثلاث . احترام ندى الإسلامى ، والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم الدينية ، وإبراع للمصريين من

(١) شكرى ١٤٢ - ١٦٢ * تفصيلات عن هذه المعركة *

أخصان الخلافة العثمانية ، يمد يدور لمعرفة بين المصريين والعثمانيين ، ولتصام بدعاية
واحدة بين الشعوب الإسلامية في الأقطار المتناورة ، لإظهار مبلغ احترام المصريين
للدن الإسلامي والمسلمين ، ولإدخال كبر حكومتهم بأن إنشاء صلات الود والصداقة مع
العربيين في مصر . واستأنف نشاطه شعري بين بلاده وبين مصر ، سوف يعود
بعوائد كبيرة على هؤلاء الحكام ، وأخيراً إنشاء حكومته وطنية لتكون أدائه تمكنه
من معرفة رغبات لمصريين ، وتوقوف على حقيقة مطالبهم وآرائهم ، وتبعد منها وسيلة
لإدانة وأمره وتحقيق مآربه بصورة حسن استغلال الحكم الجديد ، وعدم انقراض
لمصريين منه . وقد كانت هذه ولاشت وسائل تدعى إلى الحكمة وأصله الرأي ،
ولم يكن ثم مناس من نجاحه في دعم أركان استعماره الجديد ، لو أن بومبارت نفسه ،
وقاده حملة من بعده ، وسائر مصريين ، عرفوا كيف يسكنون طريق السوى
في الاتفاق مع مصريين أو أن هؤلاء المصريون قد بلغوا من قصر النظر وفقدان الرؤية
حتى يسجل متتاراً كثيفاً على أنفسهم ، حتى يبدتوا دعاوى المصريين العريضة
ويؤمروا بها

وكان بومبارت عبد محبته إلى هذه البلاد آراء غاطمة في « الإسلام » بوصفه ديناً
وعقيدة ، وقوله لها أثره في سحر الحضارة وعموها . فقد اهتم قبل حضوره إلى مصر
بدراسة كتاب الله الحكيم ، وسيرة نبيه الكريم وتاريخ العرب ، ومع أنه قد تحدث
كثيراً عن احترامه للدين الإسلامي ، ثم حاول بطرق شتى أن يلقى في روع المصريين
أنه ورأى أحمد الإسلام ديناً ، فمن أثبات قطعاً أن بومبارت لم يشر بإسلامه على نحو ما فعل
موسى ميلا ، بل إنه ، وهو ابن الثورة الفرنسية الكبرى ، ما كان يؤمن بدن من
الأديان ، ولم يبع في يوم من الأيام بعمل العقيدة الدينية في نفسه — فهذا كان نوع
هذه البعده — درجة قد تحدث تأثيراً طاهره في سامعه ، أو عكس لإسائه أن يعرفوا
إلها تلك السياسة الإسلامية الوطنية التي قرر اتبعها في مصر ، بل إن بومبارت كان
يستشهد في سياسته الإسلامية هذه بعنايات سياسة عملياً خصه^(١) ، وآية ذلك أنه
عندما اهتم كل أمل لديه في مكان الاتفاق مع العثمانيين ، و تحار هؤلاء إلى جانب
أعدائه في الحرب صده ، واضطر إلى تسير حملته على الشام حتى يشن المعركة عليهم في
أقرب أقطارهم إلى مصر ، قبل أن يدأوا هم يعرفوا هذه البلاد ، فكبر بومبارت في أن
يتحد من (إحياء الاسلام) وسيلة لانتزاع مصر وبلاد العرب من أخصان الخلافة

الغاية ، حتى يعتمد في ذلك على مركزين هامين من مراكز الاسلام ، هما القاهرة ومكة ، القاهرة حيث يوجد بها الجامع الأزهر أو جامعة السرون الأثرية شعبها جامعة السرون في باريس - فالقاهرة لذلك مركز عظيم وديني معا ، ومكة مقر العلوم الاسلامية الدينية السنية . وعند بونايرت مالا كبيره على استطاعة الاسلام أن يستمد من هذين المركزين قوة جديدة ، سكمل له الإصلاح على ضوء تلك العلوم الحديثة ، التي انتظر بونايرت أن يعطي نشاط علماء الحملة لدراسة إلى دواعيها . نتيجة لاستئثار أولوية الحصار في هذه البلاد من جهة ، ثم الصوء الأقطار الحدودية عبر ثلوه هذه الحصار من جهة أخرى (١) .

وقد بدأ بونايرت يتخذ العدة لتنفيذ سياسته الوطنية الاسلامية ، وهو لا يزال على ظهر (أوربان) بارحة انقياده ، فصدر منشور إلى حده في ٢٢ يونيو ١٧٨٩ (٢) يوضح لهم عقائد الشعوب التي سوف يستولون بها ، فعلى أن نصريين شعب اسلامي ، يطق بالشهادتين ، ويجب ألا يحظى انصرسون به تدم ، بل عنهم أن يسلكوا معهم نفس الطريق التي سلكوها مع شعوب اليهود وانطوائ من قبل . فيحرموا آفة المسلمين وكبار علماءهم ، كما يحرموا صهي اسود وساقفة المسيحيين . وأن يظهر واهم حاسه التسامح في تسديهم التي يذكرها كتابهم . وأن يحرموا حوامهم كما يحرموا دور عبادة اليهود والمسيحيين .

وأظهر بونايرت لحوده أن انصريين يسكنون مع أرأه مسكاً مختلف عما يحمله الفرنسيون ، وذكرهم أن من عدم على انصاف أمره ، بما هو سفيح رسم ، لاق نظر انصريين حسب ل في نظر أهل البلاد العالم فاطه . ثم ساء من اسباب وانساب ، ذلك أن قبليين قد يثرون بعمه ، بيم فقد ساء انصريين شرقيهم وسوء مصهم ، فيجدهم انصريون أعداء لهم ، ويرون كل أمل في انصافهم ، فيجدوا الذي تصبحة انصريين دأها ، فصلا عما سوف يحدث بديعه لليهب والسب من القاء على موارد البلاد ، وحرمان الفرنسيين الانصاع بها .

وكما رسم بونايرت خطوط تلك السياسة الالامية الوطنية ، التي وطد العزم على انصافها في مصر ، فقد شرع يمد الحطة لتوضيح معمم تلك السياسة لفرنسيين أنفسهم ، رجاء انصافهم إلى جانب حكومته . فصدر منشوراً طبعه (مارسيل) على ظهر البارحة

(١) Cherfiis 52

(٢) Corresp. No. 2710

أوربان ، واداعه بومارت عند دخوله الإسكندرية في ٢ يوليو ١٧٩٨^(١) ، تحدث
 عنه بومارت عن سبب قدومه لغزو بلادهم : وذلك حتى « يحلص أهالي مصر جميعهم »
 من طغيان النكوات المباش « الذين يسيطرون في البلاد المصرية ، يتعاملون بالقتل
 والاحتصار في حق الأمة الفرساوية ويظلمون نحرها بأنواع الإبداء والتعدي » وما كان
 يريد أن يحصل بين المصريين والنكوات ، فقد أشار بومارت في مشوره إلى أن
 « رمره المليك (كانوا) محلولين من بلاد الأتار وأخراكة » ومع ذلك فقد طلبوا
 « من رمان مديد . يمدون في الأفيم حسن الأحسن ، الذي لا يوجد في كرة
 الأرض كلها » مثيله حتى يباد الفساد ، وأنصرف بلاد من تلك « المدن لعطية » ، التي
 ريمها في الأرمال المعارة ، واستدت الترع ، وانطمرب الخللان الواسعة ، وكسدت
 النحره ، وران « لنحر النكار وما أرب ذلك كله إلا انطم ولطمع من المليك »
 الذي سدد طاعة السلطان العتي ، بل إن هؤلاء لم يطبعوا اسلطان « أصلا
 إلا لطمع أنفسهم » .

وقد كشف هذا المنشور عن مبلغ ما بدله بومارت من عناية وجهه في نههم معية
 تلك الشعوب التي جاء لغزو بلادها وعقيبتها ، كما أشار علاء ووصوح إلى القواعد
 العامة ، التي عزم بومارت أن يسي عليها صرح سانه الإسلامية الوحشية . وعلى ذلك
 فقد حرص على اظهار إسلامه وإسلام حده ، فبدأ مشوره بالتهادنين ، وأكد اعتناقه
 الدين الإسلامي ، ودفع عن نفسه ما قد يصفه به أعدؤه من جهة القدوم إلى هذه البلاد
 حتى يريل دين أهلها بأنه « أكثر من المليك (يمد) الله سبحانه وتعالى (ويحترم)
 بييه والقرآن العظيم » ؛ وشرع يسوق الأدلة وانراهين على صحة دعواه ، وعلى أن
 « الفرساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون » فعاب : « إنهم قد رلوا في روية الكرمي ،
 وحرروا فيها كرسى البابا الذي كان دائماً تحت النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا
 جيرة مالطة ، وطردوا منها النكوات المبرية (فرسان القديس يوحنا الأورشليمي) الذين
 كانوا يرعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » .

وقد وجد بومارت مرراً لزوال ملك النكوات في اعتقاد المسلمين أن الأمور
 مرهونة بأوقافها ، وأن المولى سبحانه وتعالى قد قدر ما يصيب الإنسان في الأزل ،
 وأن الناس عند الله تعالى سواسية لا يحصل بعضهم بعضاً إلا بالحكمة ، وحسن المبرية ،
 والنسك بأهداب الدين ، وشعاره .

فكان يصير روائ سلطان المليك : « فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم فحضر الآن ساعة عقوبتهم » .

وقان يظهر فساد حكومتهم ، وانقضاء هذه الحكومة إلى سد تعتمد عليه في يقائنها ، وفرض سيطرتها الباعثة على المصريين - « إن جميع أسس متاورون عند الله ، وأن الشيء الذي يعرفهم عن نصيبهم هو العمل والعدل والعدل فقط ، وبين المليك والعقل والعضائل نصارت ، ثمدا يبرهم عن غيرهم حتى يستوحوا أن يملكوا مصر وحدهم ، وعترضوا بكل شيء أحسن منها من احوارى الحان ، والتجبل الصق ، وانما كن المرحلة . فإن كانت الأرض المصرية الراماً للمليك فليرونا الحقة اننى كسبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم » .

ولما كان لسكوات قد استأثروا بشئون البلاد ، وأبعدوا المصريين عن مناصب الحكم ، وحرموهم الاستمتاع بكل ما تصبى هذه المناصب على شاعتها من منعه السيادة ، فقد رسم بونابرت صورة تلك الحكومة الوطنية ، التى اعزم إنشاءها في مصر ، تضم بين أعضائها خمسة من كبار المصريين وفصلهم ، يعملون على إسعاد أهل البلاد قاطبة ، فقال : « ولكن بعونه تعالى ، من الآن فصاعداً ، لا يباين أحد من أهالى مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فاللهاء والعملاء والعقلاء بينهم سيدرون الأمور ، وذلك يصلح حال الأمة كلها » .

على أن بونابرت الذى أدرك قيمة تلك الروابط التاريخية والدينية التى جمعت بين المصريين والعنانيين تحت بواء الخلافة العامة ، ما كان يرمى أن يظهر في عروء هذه اسلاذ بمظهر المعتدى على حقوق السلطان العناني ، فبات يهجم إقناع المصريين بأن انفرسيين أصدقاء للسلطان العناني ، وأهم لا يمشكرون قط في مناصبة الداء العالى العداء . فقال : « ومع ذلك الفرساوية في كل وقت من الأوقات صاروا يحين بحصصى لحصرة السلطان العناني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه » .

وفصلاً عن ذلك فقد كان عسكر بونابرت صداقة الداء العالى ، من المدايدى التى قررهما ناليران في تقريره المعروف (١٣ فبراير ١٧٩٨) ، واسترشد بونابرت بها في سياسته العامة نحو تركيا ، حتى مع هذه الدولة من إعلان الحرب عليه ، والاصنام إلى أعدائه . وقد احتجم بونابرت هذا المشور بدعوة المصريين إلى الهدوء والكفة ، كما حذرهم الاغيار إلى جانب المليك في اتصال السطر ، أو مقاومة الفرنسيين .

ورعب بونابرت في إزالة ما قد يحول في أذهان المصريين أنه إنما جاء إلى هذه

البلاد وقد أعلن الحرب على السلطان العثماني ، وبيت الله على العذر به ، والاعتداء على حموفه ، فطلب إلى « كل قرية (تطيع) العسكر الفرنسي ، (وتصب) علم عربويه ، الذي هو أبيض وكفى وشحر ، (أن تصب كذلك) صحاق السلطان العثماني بحسب ما دام بقاؤه » .

ثم أوجز عرجه من إصدار هذا للشعور عندما نص في ظنه الأخير على أن « يواجب على المشايخ و علماء و أعيانهم و الأئمة أن يلاموا و طاعتهم ، وعلى كل أحد من أهله بلاد أن يفي في مسكنه مطمئناً ، وكذلك يكون صلاة قائمة في الخوامع على الصلاة ، والمصريون يجمعهم يسمى أن يشكروا الله سبحانه وتعالي لا تقصاء دولة الكويت ، فاني بصوت عال دُم الله لإحلال لسلطان لعمري . « دام الله لإحلال لعسكر الفرنسي ، نحن في بيروت ، وأصبح حال الأمة المصرية » (١) »

ومد أن دار له الحكم في القاهرة ، حرص بومبارت على توصية قوده و مد ظله ورجل الملكة عموماً في القاهرة والأقاليم أن يطهروا على الدوام احترامهم العظيم لعقيدته أهل البلاد وشعارهم وبقائهم وفضلاً عن ذلك فقد رأى بومبارت في مناسبته ، أن يظهر هذا الاحترام بصورة واضحة ، ابتداءً واعمد كثير من غيره أن من شأنها إرضاع المصريين بصدق دعاوى حكامهم الخدد ووددت لعرض بومبارت بعد أسابيع قليلة من دخوله القاهرة ، الاشتراك مع المصريين في احتفالهم « انقومية » ، وأبداهم الهدية . فترأس مهرجان قطع الخلس ، وأقيم الاحتفال بالمولد النبوي (٢) . وطلب إلى الجنرال مرمون Marmont في (٢٢ أغسطس ١٧٩٨) أن يرور الشيخ المصري لمناصرة الاحتفال بالمولد النبوي وبسط له القول عن اجتماعه بالعلماء والمشايع في القاهرة ، وعن إقباعه العظيم بهدية من محمد صواب الله عليه وظهره (٣) . وشرت (صحيفة لوكوربيه دولحت) بأول أعدادها وصفا رائعاً لهذا الاحتفال ، وبت بومبارت بهذه الصيغة إلى كل من حاكم الاسكندرية ، حتى تطيع من هذا الوصف بعد رحلته سحاً عدة يدعيها في جميع بلاد الشرق (٤) .

وواقع الأمر أن بومبارت كان يعتمد اعتماداً كبيراً على يداه أحبار احتفاله بهذه الأعياد الدينية لتكسب محبة المصريين ، واستمالهم إلى يده حكومته ، حتى به ما شئت

(١) جري ٢ ٤ ٥ ١٥٣ — ١٥٠ Reybaud III

(٢) جري ٣ ١٥ : ١٦ — ١٦ قولاً الترك ١٢ — ٤٤

(٣) Corresp. No. 3147

(٤) Corresp. No. 3176

أن طلب إلى الحكام الفرنسيين من مختلف مديريات القطر أن يورعوا منشورات
عده بين أهل البلاد محمد إليهم أسماء احتفاله بالمولد النوى في عام ١٢١٤ هـ «عندما
استمع القائد العام لقصة المولد . ثم أقبل على الصلاة بحضرة كبار الشايخ (١) »
واحتفل الفرنسيون بالمولد الأخرى ، وتأول أيام شهر الصوم ، وفي أول مستعر
سنة ١٧٩٨ أقيم الاحتفال بتعيين أمير الحج

على أن هذه الاحتفالات لم تحدث الأثر الذي استطره الفرنسيون ، بها في استمالة
المصريين إليهم ، على نحو ما سوبحه في «مفهوم البداية» وكأما قد تبين لمؤرث أنه
لا يكتفى أن يحتفل الفرنسيون بهذه الأعياد ، أو أن يقولوا إليهم مسعود ، حتى يصدق
الناس دعاؤهم بل إن ترديد هذا القول ، من شأنه أن يجعل المصريين يشعرون الظن
بهم وشكوك في نيائهم ، مادامت هذه الظاهر والأقوال مقتصرة إلى ما يؤمها من
واقع الدين وحقائقه ، وخاصة عندما جعل الفرنسيون بشرى التحرير وقد حرم الإسلام
شره ، ويعرف أهل البلاد أنهم كبار الصاري ، عنهم أحد . ولذلك فقد نذل
بونايرت قصارى جهده حتى جعل علماء الأزهر على تفسير كتاب الله الكريم «عما
يتفق ومصلحة حده» ، وأن يصدروا فتوى تحرم للفرنسيين اعتناق الإسلام ، على
الرغم من عفتي التحرير والاحتفال ، ويدعو الناس إلى أن يقسموا على الطاعة والولاء
للقائد الفرنسي ، حتى يستبد سلطانه بفعل ذلك على أساس شرعي في مصر . ومع أن
أغنى المذاهب الأربعة أصحروا على محرم التحرير ، فقد أقصوا حوار إسلام الحد الفرنسيين
على الرغم من أنهم لم يفتوا ، وأعلن بونايرت ذلك في الجوامع ، ثم مالوا بعد ذلك
أن جاءوا بفتوى أخرى تخفف شيئاً من قيود حرمة التحرير في حالات خاصة ، وعجز
إسلام الفرنسيين .

ونادر بونايرت بإعلان هذه النتيجة السارة من أعين المتأكد (٢) غير أن شيخوخة
الأزهر وسائر المصريين طلوا على الرغم من هذه الفتوى لا يصدقون ادعاءات بونايرت
ويعتقدون أن بونايرت وحيدته ليسوا سوى كفره

ومع ذلك فقد ثار بونايرت على سياسته الإسلامية الوطنية ، وكان من وسائله
محاولة قصم تلك العلاقات الدينية ، التي جعلت تربط بين المصريين والعثمانيين من أرمه
قديمة ، وبعث آمان المصريين في نصرة الإسلام ، وإفهامهم بأن الإسلام في وسعه أن

(١) Corresp. No. 4362

(٢) Charles-Roux-Bonaparte 79 83. Cherfus 116 7 Reybaud

يكسب قوة جديدة ، إذا مهتت القاهرة نهوضاً يرقى بها إلى مصاف المراكز الدينية الهامة في العالم الإسلامي ، فتشمل إلى جانب مكة المكرمة مكان الزعامة في هذا العالم عني أن يتم ذلك كله بالتعاون بينهم وبين الفرنسيين . وعلى ذلك فإنه ما إن ساءت علاقة بونابرت بالسلطان العثماني ، وانصبت تركيا إلى جانب الانجليز والروس في إعلان الحرب ضد فرنسا ، على أثر تحطم أسطول روس في معركة في قبر ايجرية خاصة ، حتى شرع بونابرت سدد يدور التعرقة بين المصريين والأتراك ، ويظهر السلطان العثماني في صورة من أصبح لا يهتم بمصلحة الإسلام ، ولا يحرص على الشريعة الحميدة . وكان من دعاواه في ذلك أن السلطان ظل متمسكاً بحالات البود والصدقة مع فرنسا ، طالما كانت هذه أمة عريقة في مسيحياتها ، حتى إذا تبدلت الأحوال بها ، وأنهى امبرسون أكثر عطفاً على لإسلام والمسلمين ، وأقرب ميلاً إلى تهم العقيدة الإسلامية ، ضد السلطان صدائهم ، فإذا كان ذلك مملك الأتراك مع هذه الدولة الصديقة ، نتي طست عني ولأنها لهم من قسم أرض ، فإن هؤلاء ولا شك سوف يمحرون عن المحافظة على راث الإسلام ، ولا مفر من أن تنقسم الدول مسيحية ، وفي مقدمتها روسيا وألمانيا ، أملاك العثمانيين الإسلامية فيما بينهم ^(١) .

وعند بونابرت إلى العماء والمناخ (الذين تألف منهم ديوان القاهرة) عن عقائد هؤلاء الخلفاء الجدد ، الذين فصلهم السلطان على غرب . وقال إن الروس يتمتعون بوحود آلهة ثلاثة ، بينما يؤمن العربيون بوحود إله واحد حسب ، هو إله الله والصبر ، الذي تمت بونابرت به إلى هذه البلاد . نفى عني الموصي لمثله ٣ ، وبوطد فيها دعائم الطم واعدة ^(٢) . وقد وصح بونابرت (في كتاب له إلى الشيخ المصري) أسس تلك الحكومة التي أراد إنشاءها في مصر منفصلة عن الخلافة العثمانية ، فقال إنه يرحو أن تخين الوقت سريعاً للمشاور مع علماء المصريين ومشايخهم وأهل الذكر منهم ، في سدد إنشاء نظام حكومي موحد يستند في أحكامه إلى القرآن الكريم . ويستشهد بما جاء في كتاب آفة العرب من مبادئ ، وأسباب تحقيق سعاده النشر ^(٣) . ثم حرص بونابرت على إظهار بيانه ورعته الصادقة في إحياء قوة الإسلام ، وما نكبه من عجة للمسلمين وعطف عليهم ، واسعاده عن كل ما يؤدهم في عقائدهم ، فشرع بوضع الرسل ، ويكتب الكتب إلى أمراء المسلمين وحكامهم

Corresp. No. 4364 (Au Grand Vizir) (١)

Corresp. No. 4269 (Au Divan du Caire 21 Juillet 1799) (٢)

Corresp. No. 3148 (٣)

في الأقطار المجاورة لمصر ، وهي أقطار كاست ولا تزال مصوية بحب لواء الخلافة ، وتدخل في صوره من الصور في نطاق الامبراطورية العثمانية ؛ فطلب إلى المواطن (بوفواران) Beauvoisins أن يذهب إلى يافا لمقابلة أحمد باشا الحرار ، صاحبه عسكاً ، حتى يدفع ما كان يتهمه به أعداؤه ، من الرعة في الاستيلاء على بيت المقدس ، وهدم دين الإسلام الحبيب ، ويؤكد للحرار باشا صداقه الفرنسيين ، وأنهم لا يبيعون استرقاق المسلمين ، بل يريدون على العكس من ذلك تحريرهم وخلصهم ^(١) .

وكتب بونابرت إلى حاكم درنة ، وإلى حاكم طرابلس ، بطلب عقد أوامر احمدة والصداقة بينهما ^(٢) ؛ وفعل مثل ذلك مع إمام مسقط ^(٣) ، وطلب إلى الإمام علاوة على ذلك أن يبعث بهذه الأخبار إلى سو صاحب ، ثم كتب بونابرت إلى نو صاحب بحره بحره عن طرد الاعلم من الهند ^(٤) ، وأرسل الكتب إلى شريف مكة ^(٥) لتوطيد العلاقات التجارية كذلك بين مصر والبلاد العرب والهند ، ثم إلى عبد الرحمن الرشيد ، سلطان دارفور ، يستميله إليه ، ويعدده ثمين القوافل الدائمة من دارفور إلى مصر للتجارة ، وطلب إليه إرسال ألفين من اسيد الأتثناء ^(٦) ، وفصلاً عن ذلك فقد استكتب أعضاء ديوان القاهرة رسالة إلى شريف مكة في آب ستمبر ١٧٩٨ ، عذرت فيها أعضاء الديوان عن الجهود التي بذلها بونابرت لتأمين طريق الحج ، وأنشأوا على سبيله ، وذكروا اهتمامه البالغ بأعداء المصريين الإسلامية والعومية ، واشترأكة في الاحتفالات والبهرجات التي حرص على إقامة في مناسبات هذه الأعواد جميعها ^(٧) .

وما كان السلطان العثماني ، وهو خليفة المسلمين قد أصبح عاجزاً عن الاصطلاح بأعداء مهام منصبه الدينية ، منذ اختياره إلى حجاب أعداء الفرنسيين ، ومعادرة نائبه مصر ، فقد عمّد بونابرت إلى نقل تلك البوطيع الدينية التي كان يقوم بها هؤلاء باسم السلطان (والخليفة) إلى العلماء والمتشايح المصريين ، كما اصطلاح

Corresp. No. 3077 (١)

Ibid. 3731-3732 (٢)

Ibid. 3900 (٣)

Ibid. 3801 (٤)

Ibid. 4234 (٥)

Ibid. 4235 (٦)

Cherfils-Doc. XL 87 — 89 (٧)

هو الآخر نصيب منها ؟ على عرار ما فعل عندما رأس الاحتفال بحلول شهر الصوم
المبارك عام ١٣١٣ هجرية فكتب إلى حكومة الإدارة في ١٠ فبراير ١٧٩٩ أنه قد
احتفل بهذا اليوم احتفالا عظيما و قام بالوصائف التي كان يقوم بها الدشا العثماني
في هذه المناسبة (١) . وعندما حرج القاضي العتيبي إلى الشام ، قرر وودرت
« أن يجتمع علماء المسلمين و محاروا بافادهم قصدا شرعيا من علماء مصر و عقلائهم ،
لأجل موافقة انقرآن العظم التاسع سيد المؤمنين من أن يكون لادنة
من عدى ، و حالاً في المحكمة ، (كما) كان يفعل الخدم في امصر الأول ،
باختيار جميع المؤمنين » .

و طلب إلى أعضاء الدewan أن يحضروا أهل مصر « أنه فقت وقرعت دولة
العثماني من اقاليم مصر ، و ظلت احكامها فيها ، (و أن يحرمهم) أن حكم العثماني
(وهم أصحاب الخلافة) أشد تعاضاً من حكم الملوك السفدي ، و الذين لا رطهم
أوصروا الخلافة بشعوبهم ، كسلطاني آل عثمان ، أو لا تعدهم احكام للسلور
على عرار الجمهورية الفرنسية دانها ، بل كان العثمانيون أكثر عدواً (من هؤلاء
الملوك) ؛ و له من عرف أن علماء مصر لهم عقل و بذر و كنه و أهله بالاحكام
الشرعية ، يصلحون للامضاء أكثر من غيرهم في شأن النظام (٢) »

و في أمر صدره وودارت ، عد إلى الاحكام الفرنسية في اللدريات نياً اختيار
الشيوخ العرب ، الذي أجمعت كلة العلماء على احضاره للقضاء في مصر ، طلب إليهم أن
يسوا الأهل البلاد أن حكومة العثمانيين ودرالت أيامهم من مصر ، و أن تعاليم انقرآن
لكريم لا تفر عما أن يحضر (العثماني) من القسطة طيبة ، ليعوموا بالامضاء في ذلك
لا يعهمون نعمة أهله ، و فعلا عن ذلك فإن (استأذنه) دانها لم يحدث فيها الإسلام
و يعتنق أهدا العقيدة المحمدية ، لا بد أن كان قد مضى على وفاة الرسول ثلاثة أو أربعة
قرون . بل إنه لو عد انني تكريمه معه إلى الأرض مرة ثانية لما طهرها ، و ما اعد
مقامه بين أهله ، و بزل حيا بأرض القاهرة للقدسة و على صفاء الليل ؛ أما رعيم
العالم الإسلامي ايوم فهو شريف مكة صدق الفرنسيين ، و لا حداد في أن علماء
القاهرة قد أصبحوا و حدهم أهل العلم دين سائر الناس ، و لا يعارض بسا في أنهم أكثر
لعلاء أطلاقاً في نظام الامراطورية العثمانية جمعها (٣) .

Corresp. No. 3952 (١)

Corresp. No. 3785 : ٣٨ — ٣٩ (٢)

Corresp. No. 4238 (٣)

وحاولت بونارت احتار أعضاء الديوان الذي أراد إنشاءه في مصر من بين هؤلاء
العلماء ، بحقيقة أنهم أعراض سياسة الإسلام الوطنية ، وذلك بإقامة نوع من الحكم
يشترك العناصر الوطنية إشراكا محدودا معيدا في إدارة شئون البلاد ، إلى جانب الحكم
الفرنسيين ، ونحت إشراف هؤلاء الحكام وسيطرتهم التامة . وذلك لصون استقرار
الأمن والاطم في مصر^(١) ، بمصلح السنية لرؤساء الديوان واخيارهم إلى تأييد الحكم
الفرنسي ، حتى يمسى له الاستعداد كما كان يستمتع به هؤلاء من تعود واسع ، لإقناع
المصريين بالرجوع لحكومة الفرنسيين ، وحثهم على الخضوع لسيادتهم ، والاحلال إلى
السياسة ، والاستعداد عن اعوانهم فقد أراد ورت أن يسعي سعود هؤلاء لعناء
والشبح ، الذين قرر أن يشكل دواوينهم ، سواء في القاهرة أم في الأقاليم ، على
نمطهم آراء المصريين ومعروفه مطامهم ورغبتهم . كما أراد أن شجع من أعضاء الدواوين
أدائه بكمه من إبحار لشروعات التي صبح عزم الفرنسيين على تنفيذها ، وذلك دون
حدوث اصطدام بينهم وبين الأهالي

وعى عن انبعاث بونارت كان سهدف من وراء ذلك كله التعميم مع المصريين ،
واسهلهم إليه من أجل توسيد سيطرته الفرنسيين في مسعمرهم الجديد . ولو أن
كثيرين يرمعون — اعهدا على ما ساد في بعض أقوال بونارت نفسه — أن عزم
قائد الحملة الأعلى كان يشاء إدارة وحده أهلية ، (ومعبر) أداة الحكومة بصورة
كامل سرب المصريين على الاصطلاح بأعضاء الحكم في البلاد ، فإن هذه كانت مراغم
عريضة ، ولا تفره الواقع من عموها سبني ذكره مفصلا في بعد ، وكما سبني أليف
دوان القاهرة من جهة — وهو أهم هذه الدواوين — وكما يتضح من معرفه الأعيان
التي اصطدمت ، أعيد . هذا ان وان من جهة أخرى . فقد صدر أمر بونارت تأسيس
ديوان القاهرة في ٢٥ يوليو ١٧٩٨^(٢) وصار تألف من عشرة أعضاء مصريين هم
الشيخ عبد الله الشرفاوي رئيسا واشبح خليل السكري والشيخ مصطفى لصاوي
وصنهما نائب رئيس ، والشيخ محمد المهدي سكرتيرا ، واشبح سليمان العموي
والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ
يوسف الشرجي واشبح محمد الدواحي أعضاء . كما ضم الديوان إليه اثنين عن
حالة الأورج في هذه اسلاد ثلاثة من الأوروسى هم كاف Caffé وولمار Wolmar

Ibid, 2857 (١)

Corresp. Inédite I 323. Corresp. No 2837 (٢)

وودوف Baudouf وعين مونغ Monge موميرا فرنسا وكلف بالاشراف على أعمال الديوان . فلم تكن أعضاؤه من المصريين وحدهم .

ولما كان العرس من تألف هذا الديوان المساواة على استقرار النظام واستتباب الأمن والمهدوء في القاهرة ، فقد بحث الديوان في أولى جلساته الإجراءات التي يجب اتخاذها لتحقيق ذلك ، وأسفر البحث عن صدور قرار بوضع الأختام على بيوت المليك ، كما قرر الرأي على إعطاء الأمان لكارثة هريش حوى يطشوا ، إلى الإقامة بالعاصمة^(١) . وفصلاً عن ذلك فقد وافق الديوان على تعيين « محمد أغا الملبى أغا مستحفظان وعلى أنه اشعراوى وإلى الشرطة ، وحسن أنه عزم أمين احتساب وظاهر من رواية الشيخ آخرى أن الفرنسيين أنفسهم هم الذين أشتروا تعيينهم ، واضطر أعضاء الديوان إلى الإذعان بعد أن كانوا متعيبين عن نقيد المساب لحسن المالك^(٢) ؛ (صفرهم الفرنسيون) أن سوف مصر لا يحقون إلا من الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم ، وهؤلاء المذكورون من نقايا السوت القدعة ، القس لا ينحسرون على لظلم كبيرهم ، (كما) قلدوا ذا الفقار كجدا محمد بك ، كجدا بومار^(٣) » . وكان السؤل عن احيدار هؤلاء الأربعة الذين تألف منهم في الحقيقة إدارة شئون الشرطة في المدينة ، وملاحظة الأمن واسظام ، (فتور) Venture كمر انتراحمة ، ومحلون Magalon الذى قام بأعمال القصلية اعربية شأنا عن محمد ؛ وقابل بونابت في عرس الحرفل الحزول إلى الشواطىء المصرية ، وودوف Baudouf أحد تمار مرسيلب وعصو الديوان^(٤) . وحصص ذلك المجلس أصا مصطفى كجدا بكر شاشا والقاصى » ، « ومن أرباب المشورة الحواحا موسى »

وفي ٢٧ يوليو ١٧٩٨ صدر أمر بونابت بإشعاء دواوى في الأقاليم على عرار ديوان القاهرة^(١) . ويكون لكل مديرية ديوان من سعة أعضاء . وأوصح بونابت انعصر من إنشاء دواوى الأقاليم . فقال إن مهمة أنصاتها انصر على مصالح قائلهم الخلفة ، فيعرضون على دواوى ما قد يصدهم من شكاوى الأهالي ، ويمعنون وقوع اعتداء القرى بعضها على بعض ، ورافضون الأفراد من أصحاب السمعة انصه ، ويوفونو عليهم ما قد يستحقونه من عفو ، مستعين في ذلك بإذام الأمر بالحدود الفرنسيين ، وطلب بونابت كذلك تعيين أغا للاكشارية على رأس قوة من الأهالي

Reybaud III 217 — 8 (١)

١٦٠٣ الخري (٢)

Reybaud III 229 (٣)

Corresp. No. 2858 (٤)

مهمه، المحفظة على الهدوء والسكينة ، والعمل على استتباب الأمن واستقرار النظام ، على أن يعصر في كل ما يتصل بشئون وطنه بحاكم الإقليم الفرنسي ، وفصلاً عن ذلك فقد طلب بونارت إلى أعضاء دواوين الأقاليم أن يقوموا بتقصير الأهدى عما يعود بالفائدة عليهم ، وعطف صوالهم ، أي إرشادهم وبذل أصبح لهم لتلبية مطب الإدارة الفرنسية ، والاتحاد عن مقاومة الفرنسيين . أما هذه لطلب فكاتب بأدبه الصرائف ودفع الميرى .

وواقع الأمر أن أهم ما كان يعنى به بونارت ، إلى جانب استقرار الهدوء والسكينة ، تنظيم مالية البلاد بصورة تضمن استعلاء مواردها وتحصيل إيراداتها . فمس أمر تشكيل دواوين الأقاليم على تعيين « مشتر » في كل مديرية من مديريات القطر لحاية الميرى ، وأموال الصرائف وإيرادات ملاك المالك إلى صدراتها حكومة الجمهورية الفرنسية ، وقد عين وكلاء فرسيون إلى جانب هؤلاء المشرقيين ، لمراقبة هذه الشئون جميعها ، ولم يكن تعويد المصريين حكم أنفسهم ما يهدف إليه بونارت من هذا . نظام الذي استند لإدارة الحكومة الإيفية .

واستمر رأى بونارت على أن ينشئ في القاهرة (دوائى عام) ، مجمع مندوبين عن ديوان نقاهة ودواوين الأقاليم ، وذلك حتى يستعين بهم في تنظيم شئون القضاء ، ودهوى السكينة ، وحرق توريثها . ومحدد الصرائف ، وحمايتها ، واستقرار الحكومة الإيفية^(١) ، كل ذلك على نحو يجمع الاصطدام مع تعاليم القوم الدينية وتقاليدهم وعادتهم . فيستخدم العلماء والأئمة والمجاهدين من أعضاء هذا الديوان العام ، الذين حرص بونارت على اختيارهم من بين الذين اشتهروا بالعلم والكفاءة ، وعرف عنهم حسن استعابهم للفرنسيين ، في تمتع كل ما قد يستثير شعور المصريين الدينى ، إذا هو احدث في هذه المسائل الشائكة قراراً قد يتعارض مع عقائدهم وتقاليدهم ، دون موافقة أئمتهم وعلمائهم . يحمله على ذلك الاعتقاد أن المصريين ان يحركوا ساكناً . و يهيموا بالثورة ضد حكاهم الجدد ، إذا هم اطمأنوا إلى أن هؤلاء لا يعمون التعرض لعقائدهم الدينية وتقاليدهم وعاداتهم الدينية ، فيطعن بونارت على الأقل بوقوفهم موقف الحياد وانسحاب من حكومته ، وانصرافهم إلى شئونهم ، تركيز الأمور تحرى في أعينها ، لا يرغمهم استماع مقاليد الحكم من يد جماعة إلى أخرى .

وعلى ذلك فقد صدر أمر بوبارت في ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ باجتماع الديوان في القاهرة^(١). وعندما حضر مندوبو دواوين الأقاليم إلى القاهرة صدر أمر بوبارت بتأسيس الديوان باسم في ٣ أكتوبر^(٢)، ثم كلف (مويج) و (برتولي) Berthollet القوميسريين الفرنسيين في هذه الديوانات، أن يسألوا أعضاء الرئى في مسائل القضاء والمالية والإرث والضرر وبطام نائب دواوين الأقاليم. وعند الديوان تمام أولى جلساته يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨ وعرض مويج ورئولى مشروعات الحكومة على أعضاء الديوان الذين كان من حقهم فقط إبداء الرئى والصحبة في هذه المسائل، التي أراد بوبارت الاستدراة آرائهم فيها. وقد استمر الديوان العمل بمقتضى جلساته حتى يوم ٢٠ أكتوبر، وقد وصل الأعضاء في كل هذه المسائل إلى حلول أرضت السلطات الفرنسية، معدا المسائل المالية فقد استقرت مناقشات طويلة، ولم يعط الديوان فرصة است فيها وكان لاختلاف بين هذه المسائل أهم أسباب تلك الثورة التي فوجئ بها الفرنسيون في القاهرة يوم ٢١ أكتوبر.

ذلك أن المصريين لم يصدقوا ادعاء بوبارت بالإسلام، ولم يجمع في استئالة المصريين إلى تأكيد حكومته، على الرغم مما بذله من جهود كبيرة في هذا السبيل. وفصلا عن ذلك فقد تصرفت عوامل عدة تحريك هذه الثورة، وسوف نأتي ذكرها مفصلا عند الكلام على آثار الحملة الاخيرة والسامسة. وقد أوجرها المعلم بقولا ان تركي في قوله^(٣) لا به مدائن مكنت المصريين في المملكة المصرية مقدار ثلاثة أشهر، كان المسجون يظنون أن بوبارت لم يورد لهم الأوامر من الدولة النهائية بقررتهم على المملكة، حسبما كانوا يشيرون أنهم حصروا إلى مصر بإرادة لسلطان سديم، وكانوا يوعدونهم في ورر إلى إقامة السلطنة من طرف الدولة النهائية. وقد كان يحتر أمير الحيوش قدوم عبد الله باشا العظيم من الشام إلى مصر، وأعد له مبرلا ليرتبه، وأمر بتدبيره وفرشه وقد مضت المدة المعبية ولم يحضر أحد، فغضب من قبل ذلك أسباب كثيرة للثورة والساع لفتن والثورور، من قبل السيد محمد كرم لأنه كان أحد الأنصار، ومن ورود المكاتيب من الأمراء المصريين لالاحساس إلى أهل تلك الأقاليم، وكتابات أحمد باشا الحارر إلى البلدان المصرية والاسنابهم على المساواة، وإن أقدم عليهم العساكر العثمانية ثم قيام أهالي ر دمياط، والحوادث التي بدنها العرب

Reybaud III 218 (١)

Corresp. No. 3415 (٢)

(٣) بقولا تركي ٦٤ ٦٦

والصالحين ، وعفو العرسوية عنهم وعدم التقصص لهم . وقد كان العربونه
يخرجون النساء والسات المسحات مكشوفات ، لوجوه في الطرقات ، ثم اشتهاى شرب
الحر ويعة إلى العسكر ، ثم هدم حوامع ومبارات في ركبة الأركية لأجل توسيع
الطرقات لشى العربات . وكان المسلمون يتقصون المصعداء من صمم القلوب ،
ويستظلمون هذه الخطوب ، وساحوا لقد آن أوان القيام على هؤلاء الأيام ، فهذا
وقت الانعصار إلى الإسلام ، فتعز أمير الخيوش على صغارهم وما اكتموه في سرارهم ،
فأمر "مر" لسائر حكام الخطوط أن كلا منهم يرأس جمع الأنواب امركية في شوارع .
وفي يوم واحد حلفت تلك الأنواب العظم ، ونصبا "حرف بالخير" . فركب أمير الخيوش
وأحد معه المهندسين ومهم الخبران كمران (كماريسى) انقلب أبو حشبه لأنه كانت
رحله الواحدة مقطوعة من ساقه ، ومصططح له رجل من حشب ، فهذا الخبران كان
أعظم المهندسين في تلك العرسوية . وبعد "مير الخيوش" تحول هذا الخبران على
سائر الأملاك التي حول دائره مصر ، وعرض على رأس كل مكان يرقا ، بإشارة لسيادة
العلم ، وإرا شهدت الإسلام هذا الأهم عركت للقيام .

على أن العلم يقولوا التكي عندما عرس أسباب هذه الثورة ، فعلى أقوى اسودت
الداعة إليها ، عندما انفتحت مطالب العرسيين ، له كاهل المصريين ، وبدرج توارت
اشقى الوسائل لجمع الأموال سواء كان ذلك بمرض عرامات ومصدرة الأملاك وتخصيل
انصراف ، ثم بسطة تلك السلطات الإدارية "سجدة" ، التي لم تعد المصريين في
وجودها إلا وسيله لا تترادى لهم ، وعمر يدم من مقبليهم وأملاكهم ، وبصديق
سبل السكب والعيش في وجودهم . وذلك بأن العرسيين ، الذين "رغموا" برعا
على الاعتماد في تدبير شؤهم وسد مضلهم على موارد البلاد وتروها ، بعد محظهم
أسطوهم في أنى غير ، وإعدام كل رجاى في وصول الإمدادات إليهم من فرنسا ، مدشوا
أن وحدوا أنفسهم منسافرين إلى اسكار الروسين التي تمكهم من جمع المال حسب
دون تفكير فيما قد يؤدى إليه أساليبهم "لمالية" من إثارة كوامن الحقد صدم ،
وتألب المصريين ودههم إلى الثورة عنهم . بل إن المصريين كانوا قد مدشوا يجمعون
أبناء من أن وطئت أودهم أرض مصر ، وقبل أن تبرل بهم كازنة أنى غير فكاف
وبارت عداة وصوابة الإسكندرية كلا من محانون وبوسلح أن يجمعوا عشرين من بخار
الأمكندرية الأثرياء ، حتى "يديعا" هم مد تلك من الذهب وانقصة كان توارت قد
أحصروها معه لقاء ثمانية ألف فريك (١) دها ؛ وفي نفس اليوم (٦ يوليو) طلب

بومبارت من القديسين على شئون حرك الإسكندرية أن يدفعوا مائة وخمسين ألفاً
فربك من حساب الخزانة^(١) . وكان من الوسائل التي اعتمد عليها في الحصول
على المال بكل سرعة أنه أعطى حق الترام حرك القاهرة ، ومصادر الإيرادات
القانونية إلى الأفراد عندما قدر مخزون أن هذا الالتزام سوف يأتي بأموال طائلة .

وفضلاً عن ذلك فقد اتخذ بومبارت إجراءات سريعة لمصادرة أموال السكوات
الماليات وأتباعهم في أنحاء البلاد ، فأصدر أمر^(٢) في ٧ يوليو بتشكيل لجنة في كل مديرية
لوضع الأنحاء على أملاك المالك وأملاك أعداء العرب^(٣) كما كان من واجب
هذه اللجنة السهر على تحصيل الضرائب من مباشرة وغير مباشرة بكل دقة^(٤) ، ثم
أصدر أمر بحوله القاهرة وأمره المتعدد (في ٢٧ يوليو) إلى رشيد والإسكندرية
والخبره وديوب بمصادرة أملاك المالك ، والاستيلاء على ممتلكاتهم^(٥) ، وقد شهد ،
بعد صدور الأمر بتشكيل ديوان الأقاليم ، كيف أن بومبارت أمر كذلك بوجود
مديون فرنسي للالتزام على تحصيل الديون وضرائب الأقاليم ، وتحصيل جميع
الإيرادات التي كانت من نصيب المالك ثم صدرت الآن من حق الجمهورية الفرنسية^(٦)
ثم حتم بومبارت في اليوم نفسه على جميع الأفراد الذين كانوا قد اشترؤا فرصة
الاضطرار التي حدثت في القاهرة عند هزيمة السكوات ودخول الفرنسيين
القاهرة فهبوا دور السكوات ، أن يدفعوا كل ما كان بأيديهم من هذه المنهوبات إلى
مخازن الحكومة^(٧) . ثم شكل بومبارت لجنة لتحديد قيمة الضريبة التي طلب من
كل سيدة من زوجات المالك أن يدفعها لقاء السماح لها بالنفاه في القاهرة ولاحتفاظ
بمقتنيات زوجها^(٨) .

ونوالى فرض الضرائب وتحصيل الأتاوات بعد ذلك فأرغم بومبارت (في ٣٠
يوليو) كبار تجار الإسكندرية أن يدفعوا ثلثمائة ألف فربك دفعا ، بعد استئصال ثلاثين
ألف فربك كان كلهم قد أخذها منهم قبل ذلك ، وأملوا يوماً واحداً لسداد هذا

(١) lb d. 2767

(٢) lbid. 2788

(٣) lbid. 2829

(٤) lbid. 2857

(٥) lbid. 2858

(٦) lb d. 2859

(٧) lbid. 2860

الملح^(١) وفي نفس اليوم طلب إلى السيد محمد كريم أن يدفع عرامة قدرها ثمانية ألف فرنك ، وأمله خمسة أيام لسدادها ولا « فصل رأسه » . ولما لم يدفع السيد محمد كريم هذه العرامة أهم بالخدمة ، وأمهل ثمانية أيام أخرى ، وأقص المبلغ إلى ثلاثين ألفاً ، ولكن كريم لم يدفع ، فأعدم في ٥ سبتمبر ١٧٩٨^(٢) . كذلك طلب إلى أهل رشيد أن يدفعوا عرامة قدرها مائة ألف فرنك ، وأمهلوا يومين لسدادها ، وقدم أهل دسائط مائة وخمسين ألفاً^(٣) . وفصلاً عن ذلك فقد طلب بونارت المال من اسجار ، فحصل من تحار الحرر مبلغاً كبيراً من الريالات المتساوية ، كما طلب إلى محار حان الحلبي أن يدفعوا ثلاثة عشر ألف ريال ، وأرغم الأفاط على دفع مبالغ كبيرة^(٤) . وما إن دخل وبارت لقاهرة حتى عهد إلى نظم « انصرحاه » ، أو دار سك النقود . أتى وحدها بها ، ثم كلف السككاني رئوله بحث تحويل الريالات المتساوية المصوغة من الفضة إلى عملة (البيدي) المصوغة من المعدن الرخيص ، ولتحقق من مقدار الربح الذي يمكن أن يجنيه الحكومة من هذه العملية . وكان قد بلغ بونارت أن عوون الريالات إلى هذه العملية الصعبة بأنه ما يبيع ثلث قيمة الريالات المستندة ربحاً صافياً ، ولما كان بونارت قد أرغم تحار الاسكندرية — كما سبق القول — على « شراء » جزء من سائلك الذهب والفضة التي أحضرها معه ، فقد قرر الآن استرجاع هذه السائلك من ذهب إلى أيديهم ، وعملها مع ما وحده من « عملة حدة » . القاهرة إلى عملة البيدي الرخصة^(٥) ، وطلب إلى كبير حاكم الاسكندرية أن يجمع هذه السائلك التي سبق إعطاؤها إلى تحار الثرى في طمر أن يسان هؤلاء ميساوي قيمها عما من المحصولات والعلات الزراعية ، كالأرز والقمح^(٦) .

ولما كان قد اجتمع لدى الفرنسيين بفضل هذه الإجراءات الصارمة كميات كبيرة من السائلك والحب والنقود القديمة والفضة ، إلى جانب الشيء الكثير من مقتنيات الكوآت الممالك وأنواعهم « وأعداء الجمهورية » فقد عهد لفرنسيون إلى التخلص من الأمتعة والدرش والأثاث النفيس وما إلى ذلك ، فأشأ بونارت (شركة تحارية) لتصرف ذلك كله في الأسواق المحلية (للصرية) وفي الأسواق الخارجية (للأوروية)

(١) Ibid. 2883

(٢) Ibid. 2885, 2925, 2926, 3247, 3248

(٣) Ibid. 2884, 2887, 2890

(٤) Ib d. 2896, 2897, 2920, 2949, 2950, 3208

(٥) Charles-Roux-Bonaparte 110

(٦) Corresp. No. 2853

إذا استطاع ذلك فازدحت أسواق القاهرة والمدن الكبرى من النيل والحبر
والخوهرات واغنى المصوغة من الذهب والماس والساعات ذات ابرقاس وغير ذلك
من اللطائف ، التي جمعتها العرسيون من بيوت اللاليك وكبار المصريين في القاهرة
وبولاق ومصر العتيقة صفة خاصة ، وأرغموا الأهل على تسليمها في نظر «أدوات»
يصرفونها من الصرخة في أجل معين لم يكن يقل عادة عن ثلاثة شهور^(١) .

وقد أسعرت الماشات التي دارت في الدوالي العام ، تصدد سظيم شئون القضاء
وحقوق الملكية ومائل التوريت وتحديد الضرائب وحسابها وما إلى ذلك ، عن صدور
عدة أوامر في هذه الموضوعات ، فصدر في ١٠ سبتمبر ١٧٩٨ أمر بإشياء محكمة
بحاربه في هذه المدن ، سدر ركية من مدير لشئون ادييه ، على أن تقوم بأعماله دون
مقابل وحددت الرسوم التي يدفعها أصحاب القضاة في ثلثة من المبلغ المسموع
سها^(٢) . وفي ١٦ سبتمبر ١٧٩٨ صدر أمر بفتح مكتب في كل مديرية ، لتسجل
مستندات المديت وجميع المستندات التي يعتمد أن تصحح موضع راع قضائي . وذلك
في نظر تعجيل رسوم عليها نسبة فحسبها ومن هذا الأمر هل أنه لا يمكن الاعتراف
بممتلكات الأشخاص التي لم يسبق تسجيلها ، واعتبار كل ما كان غير مسجل من
الممتلكات الأخرى ، أملاكاً هتلة ، وأهل شهاب هذه الممتلكات شهر واحد
بمدينتها في مدينة القاهرة ، وشهران في مديريات القطر ، فإذا لم يسجلها أهلها في
مجر هذه المدة أصبح من نصيب الجمهورية العرسية وقد من هذا الأمر
كذلك على ضرورة تسجيل الوصايا وعقود التجارح واسمعه بين الورثة في مدة
عشرة أيام من ربح عررها ، وشمل هذا الأمر على مديلات ودية عن «عريضة
التسجيل» ، فتراوحت الرسوم بين ٢ / و ٥ / هذا عدا تحديدت معينة من
الرسوم يخصصه على شهادات ليلاد والعرائن وعيد الأحكام والحجر وقسم إطلاق
وما إلى ذلك^(٣) . ثم صدر في اسوم سنة أمر آخر أكرم كل فرد من أصحاب الهن
أو الأعمان ، مهما كان نوعها ، بأن يحصل على رخص من إدارة التسجيلات حتى
يسمى له نأدة عمله ، وعليه أن يحدد هذا الترخيص سويوا وشمل هذا الأمر على
فئت لرسوم التي يدفع لها الحصول على هذه «اتراخيص» ، سواء أكان طالبوها

Charles-Roux-Bonaparte 112 -- 113 (١)

Corresp. No. 3268 (٢)

Ibid 3320 (٣)

من النصارى ثم اصحاب ثم انصار ثم السائين وغيرهم . وقد تراوحت هذه الرسوم بين عشرة ريات وعاشرين وخمسين رياتاً (١)

وعندما عجز كثير من نهار الحرير والس ، ومن الأقطاع وكذلك ساء المليك وروحة مراد بك خصوصاً عن دفع العرامات المطبوعة في أوقاتها ، عاد بوبارت فأصدر أمره إلى بوساج (مدير انشئون لالة) في ٢١ سبتمبر مشدداً عليه بضرورة ملاحظة سداد هذه الأموال بكل سرعة . بسب الحاجة الملحة إليها (٢) و « بسب هذه الحاجة الملحة » إلى انباء أصدر بوبارت عدة أوامر في ايامه التالية بتشكيل اللجن ، وسظيم الإدارة المالية عموماً ، واتخاذ ما يكمل جمع اقسامات والأموال بسرعة ، وذلك كي يفسى لخزينة الدولة أن يعمل على اوارداق تسطع بها أن تد صاحب الخيش ، وانفقات الإدارة (٣) من ذلك أن بوبارت أصدر أمراً في ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ لاجتماع الصرية المحصلة على المائى ، كالوكالى والجمامات ومعاصر اربست والسمسم وطواحين العلال والأحوش والخبز والسق و قهاوى والحاسسات والسوت والعرف . فصنعت هذه التالى درجاة أولى وثانية وثالثة ورابعة ، وتراوحت ما فرض عليها بين ثمانية عشر رياتاً على الوكالى الى من الدرجة الأولى ، وصفت ريات فقط على الخوانيت من الدرجة الرابعة (٤) .

تلك كانت قصة التبعات والإجراءات المالية ، التى لحقاً إليها بوبارت عدة المحاولات على الملاءة بكل وسيلة ونشط بوساج وغيره من عمال الإدارة المالية الفرنسية لهدم هذه الأوامر بكل دقة ، حتى أن الصرية سرعان ما وجدوا أن من التمدد عليهم محاولة الإذلال من دفع اقسامات أو الصرية أو سديد الرسوم ، وطمع استمؤمهم على وجه الخصوص من إنشاء المحاكم التجارية أو (محاكم القضاة) ومصلحة التسجيلات وإدارة أملاك الحكومة ، حتى أن مؤرخى الحملة الفرنسية اعتبروا تدمير الصرية من هذه المحاكم ومصلحة التسجيلات أهم أسباب الثورة التى قامت بالهزلة عقب انعقاد الديوان العام (٥) .

وكتب الشيخ الحرلى يصف ما أحدثه إنشاء محكمة قضايا ، ومصلحة التسجيلات

Ibid. 3323 (١)

Ibid. 3262 (٢)

Ibid. 3449, 3464, 3472, 3487 (٣)

Ibid. 3486 (٤)

Reybaud IV. 138 (٥)

وما تركته أساليب منطلقاتهم للآلية عموماً من آثار سيئة في موسى المصريين بأشور
من التهمك اللادع فعال في حوادث ١٦ ربيع الثاني ١٢١٣ — ٢٧ ستمبر سنة ١٧٩٨
لا وفيه شرعوا في ترتيب ديوان آخر وممونه محكمة القضايا ، وكتبوا في شأن ذلك
طومارا ، وشرطوا فيه شروط ، ورثوا ستة شعار من انصارى ، نسط ، وستة أعار من
نحر المدين ، وحملوا قاصبه الكبر منطى لفظى ، الذى كان كاسا عند أيوب بك الدفتر دار ،
وقصوا إليهم القضايا في أمور اسجار واعامة والموارث والعتاوى ، وحملوا لذلك
الديون قواعد وأركاناً من الدرع لسيئة ، وكتبوا سجاد من ذلك كثيرة أرسلوا منها
إلى الأعيان ، وأصموا بها سجاد في معارف تطرق ورؤس العطف وأبواب المساجد ،
وشرطوا في صممه شروط ، وفي ضمن تلك الشروط شروط أخرى ، تضررت سجيعة ،
يعلم منها المراد بعد لنأمن السكنة ، أئتم معرفهم لقوانين لتراكيب القرية ، وعصاه
السجل على أحد الأموال ، كقولهم بأن أئتم الأملك يأتون بحجهم وعكاثهم
اشاهدة لهم بالثابت . فإذا حصرها وسوا وجهة علكهم ها إما بالسج أو الانسفال
لهم بالثابت لا يكفى ذلك بل يؤمر بالكشف عنها في السجلات ، ويدفع على ذلك
الكشف دراهم مقرر عشوة في ذلك الطومار . وفيه واحد شكك مقدماً بالسجل طلب
منه بعد ذلك الثبوت ، ويدفع على ذلك الإستم داهم ثبوتيه وقوله فدرأ آخر ، ويأخذ
بذلك تصحيحه ، وكتب له بعد ذلك عكس ، وعطّر بعد ذلك في وجهه ، ويدفع على كل
مائه ثين . وفيه لم يكن له حجة ، وتو كانت وم . كمن مقيدة بالسجل ، أو مقيدة وم
يثبت ذلك التمييز فيهم نسط لليون الجمهور ونصير من حقوقهم ، وهذا شيء معدر
وذلك أن ادس إما وضعوا أنفسهم على أملاكهم إما الشراء أو مأثولها لهم من
مورثهم ، أو نحو ذلك بحجة قريبة أو بعيدة العهد ، أو تحميم أسلافهم ومورثهم ،
فيذا طولوا بالثابت مسموها تضر أو تعدر لحادث الموت ، أو الأسعار ، أو ربما
حصرت لشهودهم نقل ، وفيه قلب فعل به ما ذكر . ومن حملة لشروط مقررات
على الثوابت والموتى ، ومقاديرها مسوعة في القلة والكثرة ، كقولهم إذا مات الميت
يشاورون عليه ويدفعون معلوماً كذلك ، ويدفعون تركته بعد أربع وعشرين ساعة ،
فيذا تقيب أكثر من ذلك صطت للديوان أيضاً ، ولا حق فيها للورثة وإن فجت على
الرسم بأن الديوان يدفع على ذلك الإذن مقرر ، وكذلك على ثبوت لورثة ثم عيهم
بمقدن ما يحصهم مقرر ، وكذلك من يدعى ذيباً على الميت يشبه ديوان الحشر باب ،
ويدفع على ثبائه مقرر ، ويأخذ له ورقة يستلها ذيبه ، فيذا استمه دفع مقرر أيضاً ،
ومثل ذلك في الرزق والأطيان شروط وأنواع وكيفية أخرى غير ذلك ، والمليات

والمبايعات والدعوى والمنازعات والمشاحنات والاشهادات الجزئية والسكية ، والسافر كذلك لا يسافر إلا بورقة ، ويدفع عليها قدرا ، وكذلك المولود إذا ولد ويقال له إننت الحبيب ، وكذلك المؤخرات ، ومن أحر الأملاك وغير ذلك (١) »

وقد تقدم كيف أن هذه المسائل كانت موضع بحث أعضاء الديوان العظام الذين وسروا إلى حلول أوصاف المصريين في أكثرها ، ولكنه كان من التعذر عليهم أن يقرروا هؤلاء على ما أرادوه من تنظيمهم لنيليه . ذلك أن أعضاء الديوان ما لبثوا أن اعتصموا باعتراضا شديدا على ضرورة تقديم مستندات الملكية لتسجيلها ، كما اعتصموا على فصاحة رسوم المحاكم التجارية (محاكم القضاة) وانتقوا اعتراضهم هذه في الردود التي بحثوا بها إلى بوارث ، وعدت وحده بوارث أن تتخلص من هذه المعارضة بمحاولة تشكيل لجنة (لاقرار) نظام جديد لتجديد قيمة الرسوم التي يجب دفعها عند بعض في انقضاءها ، فكتب إلى موش ورتوليه في ١٨ أكتوبر لشكر أعضاء الديوان على ما بذلوه من جهد وعناية ، وطلب إليهم تأليف هذه اللجنة . وانتهر بوارث الصرامة فطلب إلى أعضاء الديوان أن يعملوا على تهذيب العوس ، وإدخال العاهرين إلى الإحلال إلى الكفة ، وأن يصححوا يابتهار لظاعة ، والرضا بالعيش في علاقات حسنة مع المصريين ، وعدم إزاره عصم ، وتعرض القري للحرب والدمار بجهة خفي المصريين عليهم . وكان سبب ذلك ما منع بوارث من أن يهيج قد عمدوا إلى روج الإشاعات السكاذبة عن عودة السكاوات المهيث إلى القاهرة قريبا (٢) .

ومع ذلك فإن شتيا لم يحدث لإزالة أسباب التدمير الحقيقية ؛ وذلك بمحاولة الوصول إلى حل (السألة المالية) بصورة برضى عنها أعضاء الديوان والمشايخ وسائر المصريين فضلا عن ذلك فقد انعقد الديوان يوم ٢٠ أكتوبر ، وأحصرت « قاعة مقررات الأملاك و انقار » التي كان قد صدر بها أمر بوارث منذ أربعة أيام . وتمت في هذه الجلسة الموافقة على هذه المقررات ، ويبدو أن ذلك كان آخر أعمال الديوان إذ أن الديوان مالت أن انقصر بعد ذلك غير أنه لم يكد يداع أمر هذه المقررات على سواد العاهرين حتى انقهر ركان الثورة . ووصف الشيخ الحرثي ذلك الحادث الذي حرك الثورة بقوله « وفي يوم السبت ١٠ جمادى الأولى ١٢١٣ — ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ —

(١) المرقى ٣ - ٢٠ - ٢١

(٢) Corresp. No. 3492

عملوا الديوان ، وحاصروا قلعة معر رباب الأملاك ونعمان ، جعلوا على الأعلى ثمانية
قراصة ، ولأوسط ستة ، والأدنى ثلاثة ، وما كان آخره أقل من رمال في الشهر
فهو معاني ، وثما اللوكائن والحداث والحمامات والمعاصر والسليبارح والجوابين
تسبها ما جعلوا عنه ثلاثين وأربعين ، بحسب الحجة والرواج والاسراع ، وكتبوا بذلك
مباشرين على عادتهم ، والتفتوه بالسارق وانطرق ، وترسلوا منها سحاً للأعيان ،
وعسوا المهديين ومعهم أشخاص بحسب الأعلى من الأدنى ، وشرعوا في اصط
والإحصاء ، وصدفوا بعض الخبث لنحرر القوائم ، وصطت لهم أربابها ، ولما أشيع
ذلك في الناس كثر لعظهم ، واستعظموا ذلك ، وبعض استسلم للقضاء ، فالتفت جماعة
من العامة ، وساحوا في ذلك ، ووقفهم على ذلك بعض السعبيين الذي لم يظفر في عوائق
الأمور ، ولم تفكر أنه في قلعة منسورة ، فجمع الكثير من الموتى من غير
رئيس يوسف ، ولا قائد نفوذهم ، وأصبحوا يوم الأحد مسجدين ، وعلى الجهاد
عازمين (١) ، وكانت الثورة.

وكان هؤلاء السعدون الذين ذكرهم الشيخ الحنري هم بعض مشايخ الأهرار الذين
فرغ إليهم أسس عندما استند بهم إحدى ، بشاوروهم في الأمر ، واليوم الصبيحة .
وفي الأهرار معر رباب ما لبث أن حلت من الأتربة الذين حملوا حولهم سائمين على
الحكم العرسي ، فكان من بين هؤلاء عدد من المشايخ الذين أسلمهم عدم إشراك
نوبارت بهم في مطبوعات الحكومة والنوطة ، الخدمة ومؤسساتها . وفصلاً عن ذلك
بعد أصدر السلطان فرماناً بحرض المديين على قتال ضد الكفرة العرسيين (٢) ،
كان رئيسي لذلك لا مراد وأبراهم ، طلاله من بالوس إلى الأهرار لتعريض
القلعة ، ودفع هؤلاء أن نوبارت يريد إرغام المسلمين على اعتناق المسيحية ، وأن جيشاً
من الهندك وبنانيين سوف يحضر قريباً إلى الشاطئ المصري لطرد العرسيين من
البلاد ، ولقيت دعوهم آذاناً صاغية وقبل منهم في الأهرار العدا ، والمؤذون يحرضون
على الثورة ، حتى إذا كان يوم ٢١ أكتوبر انفجر بركابها (٣)

غير أن هذه الثورة كانت قصيرة الأجل (٤) ، فقد استطاع نوبارت إخمادها ،
بعد أن احتسب قواته التركية ، والمرتفعات لخدمة من القاهرة والقلعة ، وصدرت

(١) أخرى ٣ ٢٥ ٢٦

(٢) Reybaud IV 142—8

(٣) Ibid. 139—142

(٤) انظر نقولاً الترك ٢٦

التعاقبات في اليوم التالي إلى الجيرال بون Bon^(١) لمهاجمة حتى الأهر ، وإطلاق مدافعه على الجامع الأهر إذا أقصى الأمر في ذلك ، كما عهد إلى الجيرال دومارتان Dumartin محاصره الجامع وقطع السبل المؤدية إليه ، ثم دخل الفرنسيون إلى الجامع الأهر وهم راكون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتمرقوا بصحه ومقصورته ، ورمطوا حيولهم ببلته ، وعانوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسيارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمحاورس والسكنة ، وهبوا ما وجدوه من الناع ، والأواني والقصاص ، والودائع والخسائر ، بالدواب والحرائات ، ودشتوا السكت والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه ، وعموطوا ، وبالوا وعمطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيها ، وألقوها بصحه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثبته أحرحوه^(٢) .

ومع أن نقولا التركي يقول إن « الحرب (قد استقامت) ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع كنت الفرنسيون على جامع الأهر ، ومكثوا (الجامع) وسلبوا ما كان فيه من الودائع والنداءير^(٣) » ، فالثبات — كما يؤخذ من رواية الشيخ الحرثي ورواية الفرنسيين أنفسهم^(٤) — أن الفرنسيين ارتكوا فعلهم الشنيع في اليوم الثاني من الثورة (٢٢ أكتوبر) . ومهما يكن من شيء فإنه لم يكذب بقصى لليوم الثالث حتى كانت الثورة قد أجمدت ويؤخذ مما كتبه بونارت ، سواء في تقريره المفصل إلى حكومة الإدارة بعد ذلك ، أم إلى الجيرال رينييه Reynier ، أن الثوار قد تراوحت حساباتهم بين ألفين وألفين وخمسمائة ، فيما لم يفقد الفرنسيون سوى ستة عشر قتيلًا ، وبلغ حرقهم واحدًا وعشرين ، وذلك عدا من دبح منهم في الطرق ، وقد بلغ هؤلاء عشرين رجلاً من مختلف الرتب^(٥) .

وكان من أثر ثورة القاهرة أن استبدل الفرنسيون سياسة الود والصدقة مع المصريين والتجسب إليهم حطة الصرامة وسوء المعاملة ، فأرسل بونارت عقوبات شديدة بعدد من المشايخ الذين اشتركوا في هذه الثورة ، وأصدر أمراً في ٣ نوفمبر ١٧٩٨ بإعدامهم ، ومصادرة ممتلكاتهم^(٦) ، ثم عطل القديوان مدة شهرين ؛ فلم يعد تابعيه

(١) Corresp. No. 3524

(٢) الخبر في ٣ : ٢٧

(٣) نقولا التركي ٦٨

(٤) الخبر في ٣ : ٢٦ - ٢٧ ؛ Reybaud IV, 179 - 180

(٥) Corresp. No 3539 (Au Gén Reynier)

(٦) Ibid. 3571

إلا في شهر ديسمبر ، عند ما رأى الخروح عملته إلى انشام ، فأعلن عندئذ تشكيل
الديوان في منشور أعداه على القاهريين في ٢١ ديسمبر ^(١) وكان يتألف في هذه
المرّة من ديوانين : الديوان العمومي أو الكبير من ستين عضواً يمثلون سكان القاهرة ،
وكان هذا الديوان يعقد بدعوة من حاكم العاصمة ؛ والديوان الخصوصي
أو الديموي — كما سماه الشيخ الخبزي — من أربعة عشر عضواً يختارون من بين
أعضاء الديوان العمومي ، ويعقد هذا الديوان يومياً في القاهرة وكان جلوسه
Glauber ، أحد أعضاء المجمع العلمي المصري ، المندوب الفرنسي في هذا الديوان ،
وسرع بومارت إعداده تشكيل الديوان بقوله إنه كان قد اقتضى من أولئك
الذين « أتبعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر فأهدبكم الله بسبب أعمالهم وبسبب
الفتنة » ، وقد حسب أحوال القاهريين ومعاملهم في أثناء مدة إبطال الديوان ،
وأمّره « إداري سيده ونمالي بالشفعة وراحمة على أعباد (فمثلاً) أمّره « وبسبب
« ديوان الأشرار وأهل الفتنة التي وقعت ساعداً (فقد) توحه (خاطره) في ترتيب
الديوان كما كان ^(٢) » .

ومع ذلك فقد تحدر على الفرنسيين أن يسمعوا بالهدوء والسلام في البلاد ، سبب
انتشار الاضطرابات في أوجهين أخرى وأعلى ، وكانت مقاومة المصريين قد بدأت
بصورة جديدة في عين أسدبان قبل بغير ثوره ، ثم استعجل أمرها منه
شهر أكتوبر ، ورغم مراد ذلك المقاومة في أوجه التي ، حقيقة كان بومارت قد
حاول الاتفاق مع مراد عقب قرار « مايت » إلى الصلح بعد هزيمة صلبة ، على أن يحكم
مراد في مدينته حرجاً تحت سيادة الفرنسيين والتبعية لهم ^(٣) . وأولئك هذه العاية
روشي Rosell قصص التماس السابق وصديق الكوّنات لمفاوضة مع مراد ، وتوقيع
معاهدة لإنهاء الحرب بينه وبين بومارت ^(٤) ، ولكن مراد أصر على التصق في
الفتن ، ورفض لاغري « مير سادة السلطان العثماني ، وبدد أولئك « الفرنسيين
الكفرة » الذين عروا مصر على الرغم من المصاعب القائمة ^(٥) ، وعلى ذلك فقد
استمرت العمليات العسكرية في الصعيد كما سبأني ذكره مفصلاً وأندم بسبب هذه

(١) Ibid. 3785

(٢) الخبزي ٣ : ٣٨ - ٣٩

(٣) Corresp. No. 2921

(٤) Ibid. 2922

(٥) Reybaud III 386

الاضطرابات والثورات كل رضاء في إمكان التعاون بين الفرنسيين والعربيين ؟ وزيادة على ذلك فقد شغل بونارت ورحاله في الشهور التالية بأمر الحملة الشامية ، عدم مذهب الصراع العنيف بين فرنسا وقائدها في مصر من جانب ، وبين أعضاء المحالفة الدولية الثانية من جانب آخر ؟ وكان تأليف هذه المحالفة التي انصبت إليها تركيا ، بعد تردها الطويل السابق في امتشاق الحسام ضد فرنسا ، من آثار هزيمة أسطول رويس في موقعة « أبوقير البحرية » .

الحرب الشامية :

ذلك بأن مسألة قضاء الامبراطورية العثمانية أو اسهارها كانت من السائل التي شغلت تليان وبونارت من أيام صلح كيو برسو على نحو ما تقدم ؛ واعتقد كلاهما أن اسهار هذه الامبراطورية واقع لا محالة ، وأن الواجب يقتضي من فرنسا ألا تمنع الفرصة عر دون الاشتراك مع سائر الدول في اقسام ممتلكات رجل أوروبا المريض ؛ فكان على الرغم من علاقات الود والصداقة التي ربطت تركيا بفرنسا من أزمنة بعيدة . فكان من رأي تليان ، عندما تقدم بقرره الشهور إلى حكومة الإدارة في ١٤ فبراير ١٧٩٨ أن يرسل الحملة إلى مصر يجب ألا يكون سداً في إتمام هذه العلاقات ، ثم عاد فأكد ذلك في تقرير آخر قدمه إلى حكومه الإدارة في ١٦ مارس من العام بعد^(١) ، وذلك اهت بونارت عند خروج الحملة إلى مصر ضرورة الاحتياط لصداقة انجليي وعدم استئذنتهم ضد فرنسا . واعتقد بونارت وتليان أن في استطاعتهما التوفيق بين عريصين متقاصين ، أحدهما يرمى إلى دعم علاقات الود والصداقة مع تركيا ، بينما يمدى الآخر إلى اقتطاع جزء من ممتلكات هذه الدولة ، وقد توجب استمرار العلاقات الودية بين فرنسا وتركيا ، أو انضمامها وانضمام تركيا إلى أعداء الجمهورية ، على مدى نطاق السياسة الجديدة التي اتخذت نشاطها ميداني هامين . أحدهما في القاهرة ، والآخر في القسطنطينية .

أما في القاهرة فقد بدأ بونارت هذه السياسة الجديدة عندما تحدث في مشوره إلى « أهالي مصر جمعهم » عن صداقة الفرنسيين « لحضرة السلطان العثماني » وإحلالهم له ، وأعنى أن من أسباب محيى الفرنسيين إلى هذه البلاد رعتهم في معاقبة المايك ، الذين « امتنعوا عن طاعة السلطان »^(٢) . وقد حرص بونارت خلال

(١) Jonquière II 590 - 1

(٢) ج ٣ ص ١٠٥

الشهور التالية على أن يدخل في روع الناب العناني في مصر ، وناش دمشق ، والصدر الأعظم ، وأحمد الحرار ، أنه لم يحضر إلى مصر ماصياً السلطان العدا ، أو أعرض الاعتداء على حقوقه في هذه البلاد فكذب إلى بكر ناش ، من معسكر أخيرة في ٢٣ يوليو ١٧٩٨^(١) ، أن عرس الفرنسيين من إحلال مصر إنا هو طرد المالك بسبب حروجه على الباب العالي ، وعدائهم للحكومة العرسية ، وبطط إلى بكر ناش القاء في القاهرة بآب عن السلطان العناني ، كما طلب إليه أن يؤكد للباب العالي أن استيلاء الفرنسيين على مصر لا يمكن أن يعد حجارة للدولة ، لأن الحراح الذي أرسلته مصر في انصافي سوف بحري إرساله إلى تركيا في المستعمل ومع أن حكر ناش أتم الحروح مع قول المليك الحارة رعاة إبراهيم بك ، « فاصدس الحرية والديار الشامة^(٢) » فقد كتب إليه بومارت ثانية في ٣١ أغسطس^(٣) بطط إليه العودة إلى القاهرة ، لاستيف وصادقه بها ، وؤكد له صداقته ، واحترامه لشخصه ؛ ولكن بكر ناش رفض إجابة دعوته .

وسط بومارت العرض من بحري الحلة إلى مصر ، في كتاب بحث به إلى الصدر الأعظم في ٢٢ أغسطس ١٧٩٨^(٤) ، فعل إنا هو معاقبة المليك الذي أساءوا إلى التجارة العرسية ؛ ثم أحر الصدر أن « ليرد ، وري الحارحية في باريس ، قد عين صغير الحكومه لدى الباب العالي ، حتى يعقد اتفاقات مع تركيا لإزالة كل مايشأ من صعوبات نتيجة للاحتلال العرسى في مصر ، ولتدعم ركان تلك الصداقة القديمة ابق ربطت دائماً بين تركيا وفرنسا ، والتي شترها بومارت ضروره للتدين ولاعى بها وما لم تلق بومارت رد على رسالته عاد فعت كتاب أحر إلى الصدر الأعظم في ٩ نوفمبر^(٥) ، أكد فيه صداقة الجمهورية للباب العالي . ورفضها الاضهم إلى أعضاء الحاماة التي تألفت ضد تركيا ، من النمسا والروسا . وقال بومارت إن القول التي اقتسحت بوبده فيما بينها سابقاً ، يريد اليوم اقتسام تركيا ، ولذلك فواجب الباب العالي في هذه الظروف أن يعتبر قرب دولة صديفة مستعدة دائماً للعمل ضد أعدائه . وما لم يحب الصدر الأعظم شيء على هذه الرسالة كذلك ، بادر بومارت فعت إليه بكتاب

Corresp. No. 2824 (١)

(٢) نقولا التركي ٢٩

Corresp. No. 3206 (٣)

Ibid. 3076 (٤)

Ibid. 3596 (٥)

آخر في ١١ ديسمبر ، عهد محمله إلى القسطنطينية في هذه المرة إلى بوشان Beauchamp قصص الجمهورية في مسقط ، عسى أن يكون هذا الخطاب دليلاً على صدق رغبة بونابرت في المحافظة على علاقات اود والصداقة مع تركيا . غير أن بوشان الذي غادر الاسكندرية في ١٣ فبراير من العام التالي سرعان ما وقع في قبضة الانجليز وهو ما يزال في طريقه بالقرب من رودس .

وحاول بونابرت كذلك أن يستميل إليه الحكام وأصحاب الحل وانعقد في البلدان المجاورة مصر ، والتي توقع أن تأييدها جيشا انتمائين إذا قامت الحرب بينه وبين تركيا . فسكب إلى عبد الله العظم ، باشا دمشق ، في ٣١ أغسطس ١٧٩٨^(١) ، يؤكد رغبته في العيش معه بسلام ، ويردد ادعاءه للعروف أنه إنما حصر إلى مصر للانتقام من المايك لحسب . وكانت بونابرت قد كتبت ذلك بأمام قلائل (٢٢ أغسطس)^(٢) إلى أحمد باشا الجزائر . حاكم صيدا وعكا وصاحب السلطان في فلسطين . يذكر السبب الذي دعاه إلى الحضور إلى مصر ، وهو معارضة المايك وقتلهم ، الأمر الذي ينهق عنماً ومصلحة احرار بلاد مصر ، لأن هؤلاء المايك كانوا أعداءه وحشوه ، وبني عن معه همة الرعة في قتال اسمين ، وقال مدلاً على صدق دعواه . إن حالطة لم تكذب مجمع له حتى أطلق سراح العيين من الأتراك الذين طلوا يرسمون في أعلا الاسترقاق سوات طويلة ، ناهيك عما فعله عند حصوره إلى مصر مع الأئمة والعلماء الذين أمنهم على حسابهم ووطنهم . كما وضع الساحد تحت رعايته ، وصار يهتم بشئون الخبز ، والاحتفال بالمولد السوي ، وغيره من الاحتمالات « الدينية والوطنية » .

وحمل هذه الرسالة كاتيه - بوفواران Calmet-Beauvoisins من صراط هيئة أركان الحرب ، وكانت مهمته^(٣) أن يؤكد لبحرار صداقة الفرنسيين له ، ويبني تلك الشائعات التي رجم مروحوها « زوراً وبهتاناً » أن بونابرت يريد الاستيلاء على بيت القدس ، والقضاء على العقيدة الإسلامية ، كما كلفه بونابرت أن يعرض على الجرار صداقة الفرنسيين ، ويصححه بالعدول عن التسليح أو التدخل في النزاع القائم إذا حدثت الجرار نفسه بذلك . وغادر بوفواران بولاق في طريقه إلى عكا في ٢٢ أغسطس ، ولكنه لم يستطع التوصل إليها بل هدد « بقطع رأسه » إذا فعل ،

Ibib. 3205 (١)

Pièces Diverses. 97 (٢)

Corresp. No. 3077 (٣)

واضطر إلى العودة على نفس السبيل التي حملته إلى عكا^(١) ، فوصل إلى دمياط في ٧ سبتمبر ، ثم قدم إلى بونابرت بمجرد وصوله إلى القاهرة تبريراً عن فشل مهمته والأخطار التي عرّضت له والإهانات التي لحقت به^(٢) ومع ذلك فقد كتب بونابرت إلى أيجار مره أخرى في ١٩ نوفمبر ، يؤكد له رغبته في عدم التدخل في حرب معه لأنه لا يعدّ أخطاراً ناشأ عن عدوّه « بيد أن الوقت قد حان لأن يوضح الجزار باشا موقعه » حتى إذا ظن يسمح لإبراهيم بك بالاحياء في الحدود المصرية فإن بونابرت يصبر ذلك عملاً عدائياً ، ويرى لزماً عليه أن يرجع إلى عكا أما إذا أراد الحرّار أن يعيش في سلام مع بونابرت ، فالسبيل إلى ذلك أن يعمل على إبعاد إبراهيم بك مسافة أربعين فرساً من الحدود المصرية ، وأن يطلق الحجارة حرة بين دمياط وسوريا . ولقاء ذلك تمهد بونابرت لعدم الاعتداء على أملاكه ، وإطلاق الحجارة حرة من حاسه بين مصر وسوريا في البر والبحر^(٣) .

غير أن كل هذه السامعي ما لبثت أن طأت بالفشل عندما أخفقت السياسة الفرنسية في القسطنطينية ذاتها ، وانضم اناب العالي في آخر الأمر إلى المخالفة الدولية ضد فرنسا وتفصيل ذلك أن فرنسا كانت قد اهتمت بحث الوسائل التي يحوّلها إليها العلاقات اود والصداقة مع تركيا منذ أن قررت إرسال الحملة إلى مصر ، وصار من الواجب على حكومة الإدارة أن تتف في هذا الموضوع بكل سرعة ، عندما توفي فخّاء في القسطنطينية في أواخر عام ١٧٩٧ (أوبير دوباييه) Oubert-Dubayet سميراً في تركيا ، في وقت كانت قد نظارت فيه الشائعات عن احتشاد السفن والجنود في شواطئ فرنسا الحوية . فاقترح نابليون في تمريضه إلى حكومة الإدارة في ١٤ فبراير ١٧٩٨ إرسال مفوض ماهر إلى القسطنطينية ، يستطيع أن يرعى مصالح فرنسا في تركيا ، ولمّا كان من المقرر إحصاء السفير الجديد في النوا وساعة فقد أبقى (روغان) Ruffin سكرتير السفارة الأول في القسطنطينية ثم رقي إلى منصب قائم بالأعمال في ٧ مارس . وطان منصب السفير حالياً حتى إذا مات إرسال الحملة إلى مصر ثمراً مبروراً منه ، عاد نابليون فاقترح على حكومة الإدارة في ١٦ مارس ضرورة إرسال سفير إلى تركيا تكون مهمته^(٤) عند وصول أبحار رول الحملة إلى الشواطئ المصرية ، أن يؤكد

Reybaud. IV, 247 (١)

Jonquière II 536 — 39 (٢)

Corresp. No. 3644 (٣)

Jonquière II 591 — 2 (٤)

وكان سبب الفشل في القسطنطينية صعوبة المهمة التي كلف روفان القيام بها عندما تعدد عليه إقناع الباب العالي بصداقة الفرنسيين له ، حين احتلت جيوشهم جزءاً من الممتلكات العثمانية . وعلاوة على ذلك فإن حكومة الإدارة لم ترسل إلى القسطنطينية ذلك السفير والمفاوض الماهر ، الذي أشار تاليران بضرورة إرساله ، وذلك على الرغم من أن بومبارت كان قد وافق على تقرير تاليران الذي قدمه إلى حكومة الإدارة في ١٦ مارس ١٧٩٨ ، ووافق على إرسال سفير إلى القسطنطينية . ويبدو أن السبب في عدم الذهاب سفير فرنسي إلى تركيا في الوقت المناسب هو أن بومبارت كان يشترطه عاملان : عامل الرعاية في السيطرة نفسه على المفاوضات مع تركيا ، ثم حرصه على إثبات أنه أولئك الذين يقبل انصياعهم في مواجهة كل ما قد يحدث من أخطار ، نتيجة العمل معهم ، حتى يطمئن إلى عدم خيانتهم له أو انصرافهم عن تأييده . وعلى ذلك فقد طلب بومبارت أن يكون تاليران نفسه السفير الفرنسي الجديد في القسطنطينية . ثم بدلا من إرساله دون إتمام إلى تركيا ، اكتفى بإصدار أمره إليه في ٢٣ مايو (١) ، لكي يكون على قدم الاستعداد لمعادرة باريس بمجرد صدور تعليمات أخرى ، حتى إذا تم الاستيلاء على مالطة بحث إليه بومبارت تأمر آخر في ١٨ يونيو (٢) ، بطلب إليه الذهاب إلى القسطنطينية ؛ ثم أرحل فرقاطة لتحميل السفير الجديد إلى تركيا .

والحق أن مسؤولية التأخير لم تكن كلها من نصيب بومبارت وحده ، ذلك أن تاليران نفسه لم يكن رغب في الذهاب إلى القسطنطينية ؛ إما خوفاً من الوقوع في قبضة الاعراب الذين كان لأسطولهم السيطرة الكاملة على البحر الأبيض ، وإما رغبة في البقاء في باريس لمواجهة العاصمة ، عندما بدأ أفق السياسة يتلبد بالغيوم . على أن حكومة الإدارة سرعان ما وجدت الاستعلاء عن خدمات تاليران في وزارة الخارجية أمراً متعذراً ، بسبب اضطراب الموقف السياسي في أوروبا . ولهذا اقترح تاليران أن يعين سفير آخر في القسطنطينية . وفر الرأي على ذلك في ١١ مايو ، أي قبل أن يبعث بومبارت بأوامره الأولى إلى تاليران (في ٢٣ مايو) بسبعة أيام ، ومع ذلك لم يصدر أمر نهائي تعيين سفير جديد إلا في ٢ سبتمبر . ووقع الاختيار على ديكورش Descorches ممن خدموا سابقاً في تركيا . ثم صاع وقت آخر قل قيم ديكورش إلى القسطنطينية حتى إذا ما وصلت إلى باريس أحسار القصص على روفان وسجته ، أوقف إرساله نهائياً ، واستطاع بومبارت عند إتمام مذكراته في معاه في سنت هيلانة ، أن

يحمل حكومة الإدارة مسئولية القتل في سبيل تلك السياسة التي سبق الاتفاق عليها بينه وبين أعضاء هذه الحكومة قبل إبحاره إلى مصر ؛ فإنه لما كان الفرنسيون - على حد قوله - لم يقدموا إلى الساب العالي تأييد يات بوضع أعراس الحملة المرسل إلى مصر ، ولم يحصر إلى القسطنطينية ذلك السفير الفرنسي الذي سبق الإعلان عن حضوره فقد اضطر الساب العالي إلى الانحناء في أحضان روسيا والمحتلة (١).

وكان وجود السفير الفرنسي في القسطنطينية في ذلك الوقت أمراً لا يعي عنه إلا لإفراح العثمانيين بحسن نيات فرنسا غرب ، بل وإلطان مساعي الأتراك في لروسيا ، الذين شطت سياسهم نشاطاً عظيماً لاستئانة تركيا حتى يصمم إلى أعداء فرنسا . وقد دأب سيمسر حيث Spencer Smith ، الوزير الأتراكى ، على إفساد العلاقات بين تركيا وفرنسا ، وساعده في ذلك ما كان يسود الأراك من شكوك في نيات الفرنسيين بسب ما كان يسمع من شائعات عن أعراس الحملة التي عهدها هؤلاء في طولون وانتقلت هذه الشكوك إلى عيوف طاهره ، عند ما جاءت الأخبار مدئة سقوط مالطة أولاً ، ثم وصول الحملة إلى الشواطئ المصرية . وراقب سيمسر حيث نشاط (روفان) واتمه انشائها عظيم لكل ما كان يجري من محادثات بينه وبين رجال الحكومة العثمانية ، واهتم كذلك بارتباط تامارا Bas le Tamara المدوم اروسى بمراقبة نشاط الفرنسيين في القسطنطينية . وكان أعظم ما يغشاه الروس أن يستمر عود فرنسا في الاياعات ، وخاصة بعد استيلاء الفرنسيين على حرر الأيوبيان ثم رادب عياف القيصير بول الأول عند ما احتل بونابرت مالطة . فكالت هذه المخاوف سناً في أن يعمل انقيصر من أجل الاندماج مع تركيا ، على الرغم من رغبته في سلام مع الجمهورية فاجتمع المدوم الروسى في الاستانة بالريس اميدى في يوليو ١٧٩٨ ؛ ومن ذلك الحين سارت المفاوضات بين تركيا والروسيا من جانب ، والروسيا والمحتلة من جانب آخر ؛ وكان لفرنس منها إقناع تركيا بالتحول في محالفة ضد فرنسا ، وإعلان الحرب على الجمهورية . وتردد الساب العالي في أول الأمر ، ولكنه سرعان ما سد هذا التردد بظهوره عند ما بلغه هرة الأسطول الفرنسى في أنى قبر ؛ فأصدر منشوراً في ٩ سبتمبر يندد فيه بتصرف فرنسا ، ثم ألقى القبض على روفان ومواطنيه في آخر سبتمبر وسجنهم ؛ وكان هذا العمل في عرف السياسة العثمانية بمثابة إعلان الحرب على فرنسا وكان اللورد نلسون Neison من كبار مؤيدي سياسة إعلان الحرب على فرنسا من

حاجب تركي . ذلك بأن نلسن كان يرغب انتصاره الحاسم على أسطول بروسيا أن يغير تركيأ حيثاً وأسطولا لطرده الفرنسيين من مصر نهائياً . فأنشئ على سبيل ميث ما أعداه من همة وكفاءة لجل انتاب العالي على التمسك في مصالحه العسكرية ، وإعلان الحرب على فرنسا ^(١) ثم أدركت الحكومة الانجليزية أهمية الاشتراك العسكري . تسرع مع تركيأ لإخراج الفرنسيين من مصر ، عندما أصدر هري دنداس Dundas ، أحد الوزراء الأتباع الذين اهتموا بشئون الهند خاصة ، على ضرورة إخراج بودبرت وحيشه من مصر محافظة على المصالح الانجليزية في الهند داتها . وقدم الاحصائيون في مسائل الهند ، كالكولوبيل فولارتون Fullarton ، ووارن هاستنجر Warren Hastings وغيرها التقارير تصفية عن المركز الذي تتصع به مصر في بحاره العام ، فصل موقعه الجغرافي وتوضيح أهمية الاحتفاظ بلوضع القائم بها ، وعدم سقوطها في أيدي الأعداء . حوفا على مصالح إنجلترا في الهند داتها . وكان لتحول روسيا إلى العدو ولاتفاق مع تركيأ عدوها انفعاده أثر حاسم ولا شك في إضغاع الحكومة الانجليزية لضرورة التدخل ^(٢)

وعلى ذلك فقد اجتمع حراجل Oranville ووزير الخارجية الانجليزية السير سدي سميث Sir Sidney Smith . وكان حجة بالثبوت القوية ، للتعاون مع الأتراك فصدرت إياه التوجيهات بالذهاب إلى القسطنطينية على ظهر (تيجر) Le Tigre . المركب الحربية التي استولى عليها الإمبر من الفرنسيين في يونيو ١٧٩٥ ^(٣) ، حتى يعمل مع أسطوله بالاشتراك مع الأساطيل الروسية والفرنسية ، لادفع عن الامبراطورية العثمانية « ولإخراج العدو في هذه الجهات » . ثم أعطى سدي سميث حقها دبلوماسياً بحوله الاشتراك مع أخيه ساسر سميث ، الوزير الانجليزي في القسطنطينية ، في المفاوضات المستمرة ^(٤) . واختار حراجل كذلك الكولوبيل كوهلر Koehler ، لينتقل إلى القسطنطينية على رأس قوة عسكرية معها تنظيم الحش المنى وإعداده . وذلك كما جاء في تعليمات كوهلر في ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٨ . حتى يستطيع اخلاء هجرة الجيش الفرنسي في مصر وتدميره ، ومخاطمة ثقلاته وسدده الأخرى في مساء الاسكندرية

وقد أبحر كوهلر إلى القسطنطينية في أوائل ديسمبر من العام نفسه . أما السير سدي سميث فقد وصل القسطنطينية في آخر ديسمبر ، في وقت كانت قد قطعت المفاوضات

Nelson III 158 (١)

Charles Roux-L'Angleterre. 1. 90 97; 108 — 112 Et Sq. (٢)

Barrow I 234 (٣)

Nelson III 216 (٤)

شوطاً بعيداً بين الرئيس أفندي وسنسر سميت من حيث ، ثم بين الأول والسود
الروسي من جانب آخر ، وكان عرض الإحتة أن نزع تركيا ، في نطاق المحالفة
المرجع عقدها ، الصال حد الفرنسيين في الشرق (١) وقد أسفرت اتفاقية عن
عدد محالفة دفاعية هجومية لمدة ثمانى سنوات ، بين روسيا وتركيا ، وقعها في يوم ٢٥
ديسمبر كل من تمارا وأحمد عاصف الرئيس أفندي (٢) . فتمهد كل من المتعاقدين
صهان أملاك الآخر ، ونصت المحالفة على أن العرض منها المحافظة لي يمتلكات روسيا
وتركيا ، لا الرعة في النوسع ، وذلك حرصاً من الدولتين المتعاقدين على حفظ التوازن
الدولى ، وتأيد السلام في أوروبا . ثم دعت الدولتان المتحالفتان سائر لدول الأوروبية
كألمانيا واإحتة وروسيا وجميع رؤساء الحكومات الأخرى للاصمام إلى المحالفة ،
تحقيقاً لهذا العرض نفسه .

وفي ٥ يناير ١٧٩٩ عقدت اإحتة محالفة مع تركيا ، وقعها من الجانب الإحتري
كل من سدى سميت وسنسر سميت (٣) وجاء فيها « أن جلالة ملك بريطانيا ، الذى
رطه امراطور روسيا أوامر المحالفة لونية ، قد اصم الآن في هذه المحالفة (المرمة
بين اإحتة وتركيا) إلى المحالفة للملاعبة التى تم إبرامها . خيراً ، بين السلطان لعنالى
وقبصر روسيا » .

ومن الطرائف المتعاقدان كل منها أملاك الآخر ، وسعد حورج الثالث ملك اإحتة
صهان جميع ملكات الامراطورية العثمانية دون أى استثناء ، وكما كانت قبل العرو
الفرنسي في مصر . وسعد السلطان العثمانى من جانبه صهان الملكات البريطانية دون
استثناء كذلك . ووصلا عن ذلك فقد نصب العاهدة على ضرورة مواصلة الحرب
الاشتركة فيما بين الحبيبين المتعاقدين ؛ فلا يقدم أحدهما على إبرام الصلح منفرداً مع
الأعداء دون موافقة الآخر . وبذلك تم عقد هاتين الماهدين لتأليف المحالفة الدولية
الكبيرة صد فرنسا . إذ أنه سرعان ما اصحت ملكة مابولى الى الخفاء بمقتضى معاهدة
القسططنية في ٢١ يناير ١٧٩٩ ، كما خضعت كل من اإحتة وروسيا على الحكومه
العثمانية ، فأعلنت انهما الحرب على فرنسا في ٢٤ يناير ، وطبت روسيا وحدها
خارجة عن نطاق هذه المحالفة (٤) .

Charles-Roux-L'Angleterre, I. 133 (١)

Noradounghian II 24 — 27 (٢)

Ibid. II. 28 — 31 (٣)

Charles-Roux-L'Angleterre.I. 132 (٤)

وما إن سم توقع هاتين المحالفتين حتى شمر اسير سدى عن مساعد أحد ، وأخذ يدفع الأبرك ، دفعا لا يحار استعدادهم لهذه العمليات العسكرية دون إنقاذ . وكان أكثر ما أثار همومه ومتاعبه حالة الضعف التي كانت عليها البحرية العثمانية ، حتى إنه كان من المتعذر الاعتماد على الأتراك وحدهم للقيام بأي عمل جدي دون مساعدة حرجية عمول اسير سدى على أن يطلب النجدة من إنجلترا . فكتب في ذلك إلى اللورد بلسن (في ٢٤ يناير)^(١) كما أنه طلب الإمدادات المالية من حكومته حتى تمكن تجهيز الاسطول العثماني ، أو يقدم هي اسطولا اعنيزيا للعمل بدلا منه . فضلا عن ذلك فقد طفق اسير سدى بكثر من عقد الاجتماعات مع الوزراء العثمانيين لبحث برامج العمليات العسكرية والبحرية عند لا تخله في مصر . ثم أصر أخيراً إلى رودس للاتفاق مع حاكمها حسين بك ، وإلى عكا للاتفاق مع حاكمها الخراز باشا ، لصدد برامج العمليات البحرية^(٢) . ولقي سدى سميت في أثناء ذلك كله مساعد حجة ، عندما غضب اللورد بلسن الذي ساءه أن تمت من يده فرصة الإشراف على حصار مصر ، والدفع عن الشواطئ التركية ، وأن يمين للقيام بهذه العمليات الهامة أحد الضباط الذين لم يشتركوا في معركة النيل (أو معركة أوقر البحرية) . فضلا عن إعطاء ذلك الضابط (أي سدى سميت) حقوقا تجعله شبه مستقل عن قيادته بلسن في البحر الأبيض^(٣) . ورادت متابع اسير سدى بسبب عدم وصول كوهنر ، الذي تأخر حروجه من إنجلترا ، في وقت كانت الحاجة فيه ماسة إلى تنظيم القوات البرية العثمانية وإعدادها وخاصة عندما بدأ وباتت معه يتأهب للزحف على سوريا في يناير ١٧٩٩^(٤) .

ذلك أن أسبابا عدة كانت قد أضمت بونابرت بصروره غزو انشام ، قبل أن يبدأ أعداؤه المرحوم عليه في مصر . فقد بشتت إليه حكومة لإدارة . منذ أن أحقت مساعها السياسية في القسطنطينية ، بكتاب في ٤ نوفمبر ١٧٩٨^(٥) ، تذكر فيه استحالة المواصلة بين مصر وفرنسا ، وإرسال الجند والقادة إلى بونابرت ما دام الإنجليز والروس أممات لسيطره في البحر الأبيض . وتطلب إليه أن يتحد ما راء من وسائل تكفل له الاعتماد على موارده في مصر لحسب . ثم تركت له أن يختار بين خطط ثلاث للعمل :

(١) Barrow I, 251 — 3

(٢) Charles-Roux Op. Cit. I 140 — 2

(٣) Barrow I 235 — 246 Nelson III 216 — 8

(٤) Charles-Roux Op. Cit. 141

(٥) Ibid 114 — 5

أولها القاء في مصر مع دعم مركزه بها ، بصورة يمكنه من دفع هجوم الأتراك عليه .
وثانها التقدم إلى الهند ، حيث يجد كما هو متظر شعوراً عني استعداد للانضمام إليه ،
لغة تفويض دعائم السيطرة الإنجليزية في تلك البلاد . وثالثها الزحف برا إلى
التسطنطينية ، فيسبق بذلك عمليات العدو الذي يهدده . ذلك بأن صعوبات الموقف
السياسي في أوروبا ما كانت تسمح لحكومة الإدارة بإصدار أية تعليقات أخرى ،
كما أن العودة إلى فرنسا كانت متعذرة . ولما كان بونابرت قد رحب بحيشه على سوريا ،
فقد يبدو أنه دعا فعل ذلك نصيحةً لتعليق حكومة الإدارة ، غير أن هذه التعليقات
وصلت إلى بونابرت يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ ، أي بعد أن أحد نصيق لطاق الحصار
على عكا بنحو أسبوع .

وواقع الأمر أن بونابرت كان قد كتب إلى حكومة الإدارة عد ١٧ ديسمبر^(١)
سنة ١٧٩٨ ، يسأل عما كان يقوم به الأتراك في سوريا من استعدادات عدائية ضده .
ولما كان الحارر قد امتنع عن الرد على رسائله ، ووصلت إلى بونابرت التقارير من
ريبيه عن زحف حد إبراهيم بك والحارات صوب الحدود المصرية (٣٠ ديسمبر) ،
ثم تبعه ما احتلال الجرار لقاعة العريش ، وكاتب العريش على مسيرة خمسة أيام لحرب
من القبية آخر معقل الفرنسيين في الحدود الشرقية^(٢) . فقد قرر بونابرت لهذه
الأسباب جميعاً أن يسبق أعداءه هذه الهجوم من حاسه ، وأصدر أمره في ١١ يار
سنة ١٧٩٩ لطليعة الجيش بالسير نحو العريش ، ثم احتل في الأيام التالية إصدار
الأوامر الخاصة بالعمليات العسكرية . وفي ٦ فبراير بدأت الحملة السورية بوصول
الجيش إلى قطية . ولم تفس أيام ثلاثة حتى كان الفرنسيون قد انجموا مع حامية العريش
في معركة حامية . وفي ١٠ فبراير عذر بونابرت القاهرة ، فجع العريش يوم ١٧ فبراير
واحتشدت جموع الفرنسيين ومدفعيهم تحت أسوارها ، واشتد إطلاق نار المدافع
على العريش ، حتى اضطر إبراهيم أغا حاكمها إلى توقيع شروط التسليم في ٢٠ فبراير ،
فأُحييت القلعة ، واحتل الفرنسيون العريش ، وأبقى الجيش بها خمسة أيام للراحة ،
واستأنف الزحف بعدها إلى سوريا^(٣) .

وكان بونابرت قد معادرت القاهرة ساعة واحدة في طريقه إلى العريش وقد كتب
إلى حكومة الإدارة يسط الأسباب التي أفضته بالهجوم على سوريا^(٤) ، فقال : إن

Corresp. No. 3767 (١)

Reybaud IV. 240,256 (٢)

Ibid. 310 — 15 (٣)

Corresp. No. 3952; Reybaud. IV. 257 — 8 (٤)

الانجليز قد حصلوا من الباب العالي على وعد بإعطاء أحمد الجزار باشوية دمشق إلى جانب عكا ، وأن عبد الله باشا وغيره من الشووات العثمانيين يقيمون الآن في عكا استعداداً للهجوم على مصر ، وأنه — أي وبأرت — سوف يعادر القاهرة لقتالهم أما الأعراس التي يرحو الوصول إليها من هذا الزحف ، فقد لحقتها وبأرت في قوله إنها أولاً دعم فوج الفرنسيين في مصر ، ودفع خطر الهجوم على هذه البلاد من أية حيوش قد سوى الزحف عليها من جهة الحدود الشرقية ، أو يريد الاشتراك في العمل مع جيش أوروى قد ترب إلى الشواطئ المصرية ؛ وثانياً إرغام الباب العالي على توضيح موقفه بصورة تساعد على نجاح المفاوضات التي لاشك في أن حكومة الإدارة قد ساءها مع الباب العالي في القسطنطينية ، ثم تأييد (بوشان) الذي أرسل في مهمة لمس العرب إلى القسطنطينية ، وذلك حرمان الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض من عون سبه من سوريا ؛ وذلك عند استطاعة وبأرت خلال شهرى الشتاء الذى بقيه أن يجعل من الشاطئ السورى منطقة « صدقة » ، سواء اتخفق ذلك بالطرق الدبلوماسية ، أم بحمد السيف والمدفع . وبما عذر ذكره أن وبأرت ما يث أن ختم رسالته هذه بقوله : « ما كان يسعه عند قياده بهذه الحملة التفكير في موقف الجمهورية الفرنسية داما ، لانقطاع أخبارها عنه مدة شهرين كاملين

وواصل الجيش رحله بعد سقوط العريش ، فاحتل الفرنسيون مدن بوس ، ثم سقطت عرة والزملة والد . وحاصر الجيش نابا فسقطت بعد أربعة أيام في ٧ مارس سنة ١٧٩٩ ، وفي ٩ مارس أرسل وبأرت إلى شيوخ نابس يحجزهم بين الحرب والسلام ، حتى إذا احتاروا السلام طردوا من نابس المايك ورحل الجزار باشا . كما أصدر في اليوم نفسه منشوراً موجهاً إلى شيوخ وعلماء وأهل عرة والزملة وبافا ، يطلب منهم أن يحدوا إلى الهدوء والسكينة ، وعدم باعتراف شعائهم وعقائدهم الدينية ، ونشر العدالة بينهم ^(١) . ثم كتب إلى الجزار يدعو إلى ترك القتال وانعطف في سلام مع الفرنسيين ، والامتناع إليهم ضد أعدائهم المايك والانجليز ^(٢) . وفي ١٣ مارس كتب وبأرت بفرراً مفصلاً يصف فيه حكومة الإدارة موقف الجزار العدائى ، وإحقاق جميع ما قام به من محاولات لاستئلاته . كما تضمن هذا التقرير ذكر العارك التي حاصها جيش وبأرت في العريش وعرة وبافا خصوصاً . ووجد وبأرت في بابا عدداً كبيراً من المصريين المنضمين في قلعها ، ومن بينهم السيد عمر مكرم .

علم يتعرض لهم بأدى ، بل إن بومبارت على حد قوله في الرسالة التي وصفت حوادث
الغزو في الرملة ومدينتي اللد ويافا ، وقرنت في دنوان القاهرة ، قد « روى قلبه لأهل
مصر الذين كانوا في يافا من عى وفقر ، فأعطاهم الأمان ، وأمر رجوعهم الى بلادهم
مكرمين (١) » .

على أن ابواء سرعان ما انتشر بين احد المرابطين في يافا ، وراد من خطره وحوادث
حوالى ثلاثة آلاف من أسرى العثمانيين في حالة رثة سيئة . فكثر الإصابات بين
الفرنسيين ، وما كان هؤلاء متدبرين من فلة ما لديهم من مؤن ، وكان الجيش
على وشك استنفاد الخبز على العدو ، فقد مات من واجب قائد الحملة العام أن يحصل
في أمر هؤلاء الأسرى ولهذا عقد بومبارت مجلساً حريباً لبحث هذه المسألة ،
ورؤى في مأدى . الأمر أن يرسل الأسرى الى مصر ، ولكن صعوبات عدة حالت
دون ذلك ، منها عدم وجود مؤن اللازمة هؤلاء الأسرى في أثناء سفرهم الشاق
الى مصر ، وبغير الاستعداد ، عن عدد من الحد الفرنسيين لحراسهم ، كما كان يخشى
من وقوعهم في قسوة الاعتد إذا هم أرسلوا بحرّاً الى مصر . قرر الرأى على إعدامهم
رماً بالرصاص ؛ وذلك بدلا من أن تركوا في يافا يقصى عليهم الخوج بها ، أو ينهبون
الفرصة للإغرام الى جيش العدو ثانية ، فاعدموا . ولا جدان في أن إعدامهم
كان وصمة عار في حديق قائد الحملة . وذلك باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم (٢)

لأنه مهما كان نوع الاعتذار بقى . بحيث لا رنك هذه الجريمة الشنيعة . فإن هؤلاء
الذين كانوا قد آثروا التسليم ، وفق شروط اعموا عليها مع بوهاريه Beauharnais
وكرواريه Croisier من باوران بومبارت . وما كان يسعى نحن من الأحوال ،
ومهما كانت الأسباب أن تحجب الفرنسيون وعودهم ، وأن يحرقوا قوايين الحرب
المعترف بها . وفصلا عن ذلك فقد كان في وسع بومبارت ، كما يقول بعض أنصاره ،
أن يوفق بين ما يتطلبه العمل من أجل المحافظة على جيشه ، وما كان يقتضيه واجب
الملك تلك الشروط التي ارتضاها المحاربون في ميدان القتال . وقد بقى بومبارت
حرّاً ما فعلت يده ، عندما أصر العثمانيون وأحلافهم اللدس نحواً من مدايح يافا ،
على المعجزة بكل شدة ، أحداً ثار إخوانهم حتى بومبارت تحت أسوار عكا
تجار ما عرسه على شاطئ يافا (٣) .

(١) المجلد ٣ ، ص ٥١ - ٥٣

(٢) Reybaud. IV. 341 - 58

(٣) ibid. 358

قد استأنف الفرنسيون زحفهم بعد سقوط يافا ، فاحتلوا جميعاً ؛ ثم وصلوا إلى عكا ، وكانت ذات تحصينات مينة . فبدأ بونابرت في حصارها في ١٨ مارس . وكان حصاراً شاقاً طويلاً استمر ثلاثة شهور ، صمدت في أثناءها عكا أمام قوات بونابرت ، بفضل ما أبداه أحمد الحرار من صرور مقاومة الصيدة ، وبفضل المساعدة التي استطاع سر سدي ميث أن يقدمها إلى العثمانيين المحاصرين ؛ وكان قد تمكن من الوصول إلى عكا قبل بونابرت بيومين اثنين حسب . وبصلا عن ذلك فقد استطاع السر سدي أن سقى الطريق معزجاً لوصول الانحدات من رودس إلى عكا ، وأن يشتت سطولاً فرنسياً كان يحمل مدافع الحصار إلى بونابرت ^(١) . كما أحصر على ظهر سمينته (تحر) إلى عكا الكولوبيل فيليو Phélieux ، رميل بونابرت في مدرسة بريين Brienne الحربية ، وأحد المهاجرين الذين انضموا إلى أعداء الثورة منذ عام ١٧٩٢ . وقد التحق فيلبيو بعد ذلك بخدمة المخترعة بوصفه من حساب المدفعية ، وعنده الآن السر سدي صمدت إلى الحرار ناشاً باعساره حير من يستطيع الإشراف على عمليات الدفاع عن عكا المحاصرة ^(٢) ، وقد قام فيليو بواجبه على خير وجه ، وكثيراً ما حاول بونابرت اقتحام أسوارها فأحرق في محجومه أسكر على عكا ، في ٤ ، ٨ ، ١٠ مايو ، حتى اضطر أخيراً إلى رفع الحصار عنها في ١٧ مايو

وحاول بونابرت في أثناء حصار عكا أن يستميل إليه شيوخ ورعفاء ابلداني المحاورة . فكتب إلى ملا مراد راده بدمشق ، بطمئنه على استمرار الحج إلى مكة المكرمة ، واهماظلة على شعائر المسلمين في دمشق ؛ كما كتب يستميل إليه ابن الشيخ عمر طاهر ، الذي حلفه الحرار في ناشوية صيدا . بعد أن قصي عليه ، فأجابه الشيخ عباس بن طاهر إلى جبل القرور ، وعاش معزراً مكرماً بينهم ، واستمع بعدو عظيم ، يكاد لا يقل عن نفوذ أميرهم بشير الشهابي . فكتب إليه بونابرت الآن بعده بإرجاعه إلى حكومة البلدان التي اعتمسها الحرار من أيه . وكتب إلى الأمير بشير بعده عند ظهره لصان استقلاله ، وإعطائه ميناء بيروت ، وتخصيص الحرية التي يدهها . كما كتب إلى شيخ ناسي يسميه إليه ^(٣) . وقد لى الدورور دعوة بونابرت ، لحضر وفد مهم كان عباس بن طاهر على رأسه لتحية بونابرت وعقد محالفة معه ^(٤) . غير أن هذه

(١) Barrow I 265 284

(٢) Reybaud V 258 — 9; Barrow I 193 et. Sq.

(٣) Corresp. Nos. 4044, 4047, 4097

(٤) Reybaud. V. 263 — 4

المساعي ما كانت لتسهر عن نتيجة حذرة ، ما دام بونابرت عاجزاً عن اقتحام أسوار عكا السبعة ، وعاجزاً عن الزحف إلى الأمام ومطاردة العدو .

حقيقة استطاع بونابرت أن يحرز انتصاراً كبيراً على قوات العثمانيين المتشددة في جبل طابور في ١٦ إبريل ١٧٩٩ ، وأصبح الطريق إلى الشام مفتوحاً بفصل هذا الانتصار ، ولكن وجود معقل الحراز باشا الحصين في عكا دائماً في مؤخرته معه من استئناف الزحف ، بل إن بونابرت ما لبث أن أرسل إلى حكومة الإدارة في ١٠ مايو (١) تقريراً مفصلاً عن جميع المعارك التي طامس حده عمارها منذ حصار عكا ، وقد عمل جيشه في أثناءها حصاراً كثرة ، فقتل من فواده بون Bon ، وكعاريلى ، وديتروى Detroye . وهوراس ساي Horace Say . وكان من الواضح أن بونابرت قد استمر رفع الحصار عن عكا والعودة إلى القاهرة . وهكذا لم تمض أيام قليلة حتى كتب بونابرت إلى الديوان القاهرة في ١٦ مايو يطلب عزمه على معاداة الشام ، وبعد بالوصول إلى القاهرة سرعاً (٢) . وفي اليوم التالي أذاع بونابرت بقاء بين الحشد أبلغهم فيه قرار العودة إلى مصر (٣) .

ومد ٢٠ مايو صدمت الأوامر النهائية باتحاد الترتيبات اللازمة لتنظيم تجهيز الجيش عن عكا والعودة إلى مصر ، فعاد الجيش عكا ، ثم مر في تفهقه بيافا وعرة ، ووصل إلى العريش في أول يونيو . وفي ١٤ يونيو دخل بونابرت القاهرة دخول بطور المنتصر ، وأقيمت الاحتفالات ستراً لمرعة عكا . فوصف المعلم بقولاً التركي موكب بونابرت بقوله (٤) : « فدخل مصر بموكب شهير ، ورتبه الكبير والصغير ، ومشت أمامه جميع العساكر المرسومة ، وحكام وأعيان وعلماء وأعوان مدينة مصر المحمية ودخل من باب النصر ، بالغر والنصر ، وكان يوماً عظيماً » . ولما كانت قد تطايرت الشائعات عن وفاته في أثناء الحملة الشاميه ، وانتشرت الاضطرابات في القطر بسبب عيسته لطويلة ، فقد وجد زاماً عليه أن يقضى على كل شك كقول قد ساور القاهريين في حقيقة انتصاره . وأصدر لهذه الغاية منشوراً في ١٩ محرم ١٢١٤ (٢٣ يونيو ١٧٩٩) « من محمد الديوان الخصوصي بحروسة مصر » : لإداعته في القاهرة ، وفي الديريات تحدث فيه عن دخوله القاهرة من « باب النصر يوم الجمعة في موكب عظيم ، وشك

Corresp. No. 4124 (١)

ibid. 4136 (٢)

ibid. 4146 (٣)

(٤) نقلاً عن الترك ١٠٤

حبل خيم ، وصحت السماء ، والوحاقت السلطانية ، وأرباب الأفلام الديوانية ، وأعيان
التجار المصرية ، وكان يوما عظيما مشهودا ، وحرحت أهل مصر للاقتات ، فوجدوه
هو الأمير الأول بداته وصماته ، وظهر لهم أن الناس يكذبون عليه ، شرح الله صدره
للإسلام . والذي أشاع عنه الأخبار الكاذبة العرمان العاهرة ، والمر الحارة ، ومرادهم
بهذه الإشاعة هلاك الرعية ، وتدمير أهل الملة الإسلامية ، وتعطيل الأموال الديوانية ،
لا يحسون راحة العبيد ، وقد أزال الله دولتهم من شدة ظفهم ، إن بطش ربك لشديد .
وقد نسط بوبارت في هذا المشور أحيار انتصاراته في الحرب الشامية ، ثم ما فعله
في عكا على وجه الخصوص عندما حرب أسوارها ، وهدم قلعتها ، التي تحصن بها
الجرار باشا . وجاء في هذا المشور أن بوبارت إنما رجع « إلى مصر المحروسة لأجل
شيتين . (الأول) أنه وعندما رجوعه إليها بعد أربعة أشهر ، والوعد عبد الحريدين .
(الثاني) أنه سمع أن بعض المفسدين من المر والعرمان يحركون في عيابه الفتن
والشور في بعض الأقاليم والبلدان ^(١) » . وقد فصل بوبارت حوادث هذه
« الفتن والشور » التي حدثت في عيابه في تقرير له إلى حكومة الإدارة من القاهرة
في ١٩ يولييه ^(٢) . فتحدث عن اشغال الثورة في بني سويف ، وهجوم إحدى السفن
الإمبريالية على الاسكندرية . وصرها بالمداخ في شهر فبراير ١٧٩٩ . ثم عرق
(تحليمتو) Taginamento ، من سفن المدفعية الفرنسية ، في اشتباك لها مع العدو
أمام القصير في ٩ فبراير ، ثم قيام الثورة في إحدى مدن مديرية الشرقية وإحراق هذه
المدينة . كما ذكر مطاردة العرمان محوار الجيزة ، ونورة مصطفى بك أمير الحج ^(٣) ،
ونورة البحيرة ، وكان سببا ادعاء رجل من أهل دره أنه المهدي استطر ، فتمه مئات
من المعاربة ، واشتعلت الاضطرابات في دمنهور ، التي ما لبثت هذا المهدي حتى استولى
عليها ، فلم تخمد الثورة بها إلا بعد حصار الجبال لانوس Lanusse ، الذي أوقع
أهل دمنهور مقتلة عظيمة ، واضطر المهدي إلى الفرار إلى الصحراء بعد أن حرق ^(٤) .
وقد اضطر لانوس كذلك إلى الاشتباك في قتال مع الثوار عند بحر موسى . وفصلا
عن ذلك فقد وصل إلى السويس مركبان إمبريانيان أطلقا عليها القذائف ثم انسحبا
(في ٤ مايو) .

(١) الحرق ٣ . ٧٣ - ٧٥

(٢) Corresp. No. 4188

(٣) Jonquière. V. 7 et. Sqq.

(٤) Ibid. 65 et. Sqq.

وشمل بونابرت في أثناء إقامته بالقاهرة بالقضاء على الفتن ، وتهذبة النعموس . ولكن سرعان ما حادته الأحبار عن وصول الحملة العنابية إلى الشواطئ المصرية . وكان بونابرت يتوقع محي هذه الحملة من مدة ، وصار يتخذ عدة لإتمام التحصينات اللازمة ، خصوصاً في العريش وقطية والاسكندرية ، ويستعد لمقابلتها بعد عودته إلى القاهرة . ونزل الأتراك عند « أبو قير » في ١٤ يوليو ، ثم احتلوا قلعتها في ١٧ يوليو ، وانتقل بونابرت من القاهرة إلى الرحمانية في ١٩ يوليو ، لمواجهة الخطر الجديد ، واعد مقر قيادته في الإسكندرية . فلم تمس أيام قلائل حتى التحم الفرنسيون مع العنابيين في معركة « أبو قير البرية » في ٢٥ يوليو . وكانت حروبا شديدة انهمر فيها العنابيون شر هربة ، وخرج حسين سيد مصطفى باشا قائدهم^(١) . ثم سمت قلعة « أبو قير » في ٢ أغسطس^(٢) . وأرسل بونابرت التقارير العنابية عن هذه المعركة إلى حكومة الإدارة في ٢٨ يوليو ، ثم في ٤ أغسطس ١٧٩٩^(٣) ، وقدر خسائر الأتراك في المعركة بحو ثمانية عشر ألف جدي . وفي ١١ أغسطس عاد بونابرت إلى القاهرة .

رحيل بونابرت إلى فرنسا :

وكان من أثر الانتصار في هذه المعركة أن زال كل خطر على مصر من جانب العنابيين ، على الأقل لصحة شهور تالية ؛ وذلك لأن هذا الفصل من فصول السنة ، لم يكن يسمح باستئناف العمليات العسكرية الهجومية من ناحية البر ، فضلا عن أن اندحار العنابيين كان لا يشجعهم على إرسال قوات جديدة من البحر إلى الشاطئ المصري^(٤) . وكان الفرنسيون عميقين عسدا شربت بحقيقتهم (لوكورية دوليحت) في ٦ أغسطس أن انتصار « أبو قير » قد أنهى عمليات « حملة السنة السابقة الدفاعية »^(٥) . بيد أن معركة « أبو قير البرية » تمحضت عن نتائج أخرى هامة ؛ إذ استطاع الفرنسيون ، بفضل اتصالهم بالعنابيين والسير سدي صحت ، أن ينفوا على شيء كثير مما كان يحدث في أوروبا ، بعد أن كادت يقطع عنهم تماما أخبار انقارة ، بعد أن تحطم أسطولهم في أول أغسطس من العام التالي . وكان للأحبار التي حادتهم

(١) Sidney Smith 58 — 102 (Trans of Berthier's Report, 11 Thermidor); Jonquière. V. 395 — 484

Pièces Diverses 118 — 122 (٢)

Corresp. Nos. 4323, 4334 (٣)

Berthier-Memoires (1 re. Partie) 165 Jonquière. V 460 (٤)

Le Courrier de L'Egypte No. 35 Du 19 Thermidor VII (٥)

عن طريق اغنييين ، والسير سيدني سميت خصوصا . أعظم الأثر في إقناع بونابرت
بضرورة العودة إلى فرنسا بكل سرعة

فقد انقطعت أخبار الوطن عن بونابرت من مدة طويلة ، حتى اضطر إلى الخروج
إلى سوريا وهو لا زال معطشا إلى هذه الأساء ، فلم يظفر بعنه إلا أنهم أسوار عكا .
ذلك أن حكومة الإدارة حاولت حراراً الاتصال بونابرت ، فوعدت في مصر المواس
وسن مورو Winan Moreau ^(١) بحمل أخبار ما حدث من حوادث في القاهرة ،
بعد ذلك اتى حمها إلى مصر ، مواطن هاميلان Hamelin ولغرون L'vrou . كما
أرسل يوسف ولوسيان أخوا بونابرت رسولا آخر من شيرة بارباكي Barbaki
اليونانية ، وإن كان هذا من يشك في صحة هذه الواقعة ^(٢) . فوصل الرسولان
إلى القاهرة في أوائل مارس ١٧٩٩ ، وأرسلهما دوحا حاكم القاهرة إلى سوريا ،
خطيا بمقالة بونابرت أمام عكا في ٢٥ مارس ^(٣) . وبس من شك في أن هذه
الرسائل اتى وصلت إلى بونابرت أمام عكا كانت عمل أثناء الموقف في فرنسا وفي أوروبا
محموما ، ولأحدان في أن هذه الأساء أثارت مخوف بونابرت من تعرض فرنسا دسها
خطر لغزو الأحمى في أثناء عياده عنها ^(٤) ، وصالا عن ذلك فقد أثبت معاصرون رسالة
من حكومة الإدارة إلى بونابرت محرره في باريس في ٢٩ مايو ١٧٩٩ ^(٥) ، تسلمها
بونابرت بعد عودته من سوريا إلى القاهرة . وشر هذه الرسالة إلى لأخطر الحدة
الجمهورية ، بسبب الجهود المحروه للعاده التي تسلمها كل من اتسا والروسيا وطلب
إلى بونابرت العودة بالنفس الأكرم من قواته إلى م يكن الخش كله ، وذلك حتى يقود
جيوش الامراتورية

على أنه كان من المنذر أن يعود قائد الحملة انعام إلى فرنسا مددات معبر مهددة
بالعرو . ولذلك فقد شغل بونابرت على نحو ما رأينا باعداد التحصينات اللازمة ،
وموزيع قواته بين الحدود الشرقية والشواطئ الشمالية بصورة يمكنه من مقالة العدو
وما كان بونابرت لا زال شديد التعطش لمعرفة حقيقة الموقف في أوروبا ، فقد أسر

(١) Meurthe 89 أرسله سبل Belville انفصل لفرسي في حوه على ظهر السفينة
أوريس Osiris في ٩ فبراير ١٧٩٩ فوصل إلى مصر في ٢٦ فبراير .

(٢) Reybaud VI 259 — 60

(٣) Jonquière V 666 — 8

(٤) Corresp. No. 4382

(٥) Reybaud. VI. 268 — 9; Ader 263

عرصة الأشد مع الغائبين فتح معلومات التي يريد . وأكده مصطفى باشا القائد
الغالب الذي وقع في أسر أن الحرب قد بدأت فعلا في أوروبا من ستة شهور مضت ،
وأن المهرمة قد خفت باجيوش العربية . وعهد مصطفى باشا إلى مراوغة نوبارت ،
فم يشأ أن يطفعه على كل ما كان لديه من أساء ، حتى يظل القائد الفرنسي فيها للشكوك
والخوف^(١) . فلم يجد نوبارت بدا من محاولة الانصاف بالإعذار ، فله يظفر منهم
بعبته ، فأنخذ من مسأله تبادل الأسرى وسيلة لنوع عرصة ، فبدأت للمفاوضات مع
الأرايك والإعذار ، وأودود نوبارت هذه المهمة بصديقين مرلان Merlan وديكورش
Descorches ، واستطاع الأخير أن يحمل إلى نوبارت مجموعة من الجرائد الإنجليزية ؛
وكذلك أعداد العدد من « عربة فرمكفور » اعرسة في ١٠ يوبه سنة
١٧٩٩^(٢) وعرف نوبارت منها مقدار المهرمة التي لحقت باجيوش اعرسة في مصادق
القال للمهنة ، وعتت بحوكة لأسطوبين الفرنسي والأبني الإفلات من رقابة جيفيس
ونلسن في البحر الأبيض^(٣) .

وزكت هذه الأخبار أرا عمقا في عس نوبارت ، فمال بوريين « وقد ظلك
شهور » عده لانصاف أنه أبحار من قرب ، وبذلك فيه ماإن وصبت (نوبارت)
طرية فرمكفور اعرسية حتى انكب على قراءتها بشعب رائد ، فصارح من
اعراة قال « بعد وقع ماكنت أجه » ، وصاعت إيطالي ، ثم أنفسهم ا لقد ذهبت
استدراي حمها سدى ، ولاندلي من العودة حالا دون أي إبطاء^(٤) . واستدعى
نوبارت الجرائد بربيه وأصغره على الجريدة ، ثم تبعه عرصة على الرجال ، ورعته
في اصطحابه معه ، على أن يظل ذلك مكتوما بينهما . ثم استدعى نوبارت أمير البحر
عاموم وأمره بإعداد الفرحتين مبرون Miron وكارر Carrère ، ثم مركين
آخرين وذلك لحمل نوبارت وصحبه إلى فرنسا .

ومع أنه يبدو في رأى كثيرين أن نوبارت كان قد انتم الرخذ إلى فرنسا من
عدة ساعة ، أو الأخرى وهو لا زال أمام أسوار عكا^(٥) . فقد جاء بعد هذه الرعة
بأسيرة التي تم بها « معاهدة » أثرت شعب أولئك لانس كانوا يودون كما كدلك

(١) Martin L. 394

(٢) Pièces Diverses 235

(٣) Reybaud. VI. 231 — 58

(٤) Bourrienne-Mémoires II 304

(٥) Richardot-Neauveaux Mémoires 188

العودة إلى الوطن . وصاروا ينترون الآن رحيل فائد الحلة « فراراً من اليذنان » مزوريا^(١) . ومع ذلك فمن المعروف أن بونايرت كان لا يتوقع البقاء في مصر طويلاً ، بل كان قد عقد العزم على العودة السريعة إلى فرنسا ، لتولي قيادة الحلة للعدة لغزو إنجلترا ، حسب اتفاقه مع حكومة الإدارة . كما أن حكومة الإدارة كانت تنتظر عودته ، ولم يحل دون تمديد هذه الرعة سوى إيهام أسطوله في أبي قير ، وإعلان تركيا الحرب على فرنسا ، وحروجه أخيراً إلى الشام . كما أنه ظل يعمل حرج للوقوف في أوروبا^(٢) . وعلى ذلك فيه ماإن وصته أبحار القارة وهو لا يزال سوريا حتى أحد يصكر حدياً في الرحيل إلى فرنسا . يدل على ذلك كتابه إلى عائشوم في ٢١ يويه سنة ١٧٩٩ ، أي بعد وصوله إلى لقاهره بأسبوع و حد فقط ، يأمره فيه بإعداد الفرقاطتين ميرون وكارير ، حتى يكونا على أهبة السمر في أي وقت من الإسكندرية^(٣) .

ومع أن الأبحار التي بلغت عن مناعب الجمهورية كانت غير كاملة ، وتنتهى تاريخ الحوادث التي ذكرتها عند ٨ فبراير سنة ١٧٩٩ ، فقد كانت كافية لأن تقض مصححه ، حتى أنه مالبث أن كتب إلى حكومة الإدارة في ٢٨ يويه يصححها بقصد الصلح مع العدو ، إذا عجزت عن إرسال الوحدات إليه من الحد والأطباء والجراحين ، إلى جانب الأسلحة التي يستطيع فصلها أن يسد تلك الثغرات التي أحدثتها الحرب السورية في صفوفه ، وأن يحتفظ صوحه في مصر داه^(٤) . وعلى ذلك فيه ماإن «صمان» على هذه البلاد من خطر العدو القريب بعد اسصاره في معركة «أوقير البرية» في ٢٥ يوليو ، حتى شرع يحمل حدياً لمعادره البلاد بكل سرعة ، وتصرفت عوامل عدة ، غير ماوقف عليه من أساء الحرب في أوروبا ، على إضاعة لضرورة العودة

ذلك أن الانتصار في هذه المعركة سوف يفتح له فرصة العودة إلى باريس رافع الرأس موقور الكرامة ، فلا ذكر مواطنوه أمام هذا النصر الهاهر شيئاً عن تلك الهزيمة الشنيعة التي حلت بأسطوله في العام الماضي ، وفصلاً عن ذلك فقد دلت الاضطرابات التي وقعت في فرنسا داتها على أن الوقت قد حان لاقتطاف تلك «الكثرى» التي انتظر بونايرت سحقها وقتاً طويلاً . وكان اشتعال الثورة في إقليم Vendée ، وتعرض دستور عام ١٧٩٥ للروال ، وحديث اليمامة عن عودة

(١) Desvernois 219

(٢) Ernout 209 — 12

(٣) Corresp. No. 4197

(٤) Ibid 4225

الإرهاب ، أشد الأخطار التي تهدت كيان البلاد الداخلي . وهكذا اجتمع من العوامل الداخلية والخارجية ماساريكي لتوجيه الأنظار إلى بومبارت ، ودعوته للحضور على عجل لإفقاذ الوطن^(١) .

غير أن استعداد بومبارت للرحيل لم يمه من إتمام الإجراءات اللازمة للاطمئنان على تحصيلات الحدود الشرقية والشواطئ^(٢) . كما حاول أن يفتح باب المفاوضة من أجل عقد الصلح مع تركيا ، فكتب إلى الصدر الأعظم في ذلك في ١٧ أغسطس ١٧٩٩^(٣) ، ولم ينتظر بومبارت رداً على رسالته لأنه سرعان ما وصله من عنوم في مساء اليوم نفسه أن السفن الانجليزية والعثمانية قد أبحرت إلى قبرص . فطلب بومبارت من مرافقيه في البحر المنتظر أن يكونوا على أهبة الاستعداد للقيام مع قائد الحملة العام « رحلة في الوجه البحري » عند منتصف الليل ، وفي صباح يوم ١٨ أغسطس عذر بومبارت بولاق مكرراً ، وأصدر وهو عموف في طريقه إلى الشاطئ « أوامر عدة إدارية » ، بشأن تنظيم الجيش ، وتوزيع قواته . كما كتب إلى الحرال كبير في دسباط يطلب منه الحضور بكل سرعة لمقابلته في رشيد ، وحدد يوم ٢٤ أغسطس موعداً لهذه المقابلة ؛ وذلك حتى يبحث معه « مسائل في غاية من الأهمية »^(٤) . وبعد ما بلغ بومبارت الرحمانية في ٢٠ أغسطس كتب إلى مو في رشيد كي يحضر لمقابلته في اليوم التالي ، في مكان يقع بين أني قير والاسكندرية . وفي يوم ٢١ أغسطس وصل بومبارت إلى (ركبة عطاس) ، وكان في اليوم التالي فقط^(٥) عند اقترابه من الاسكندرية أن أخبر بومبارت برفاهه أنه يستزم اصطحابهم إلى فرنسا .

ولما كان غشى من ظهور حصن سعن المدو بالقرب من الاسكندرية ، فقد قرر بومبارت الرحيل دون انتظار حضور كبير . واكتفى بمقابلة مو ، فأطلعه على عزمه ، وعهد إليه بالقيادة في الاسكندرية ورشيد والبحيرة^(٥) . كما سلمه طائفة من الأوامر والتعليمات التي كان قد أعدها لكسر . وفي مساء يوم ٢٢ أغسطس خرجت الفرقاطتان ، تصحبهما سفينتان صغيرتان ، من الاسكندرية . فكان على ظهر الفرقاطة (ميرون) كل من بومبارت ورتنيه وبوريين وبوهاربه وديروك وموخ ورتوليه ، عدا آخرين

Berthier-Mem. 1 re. Partie 170 — 171 (١)

Reybaud. VI 276 — 82 (٢)

Corresp. No. 4369 (٣)

ibid. 4372 (٤)

ibid. 4373 (٥)

غيرهم بينا حسب المرافطة (كاربر) القواد لان Lannes ومورا Murat ومارمون Marmont وآخرين . وفي يوم ٩ أكتوبر ١٧٩٩ رل بونابرت في ميناء فريجور Frejus في شاطئ فرنسا الجنوبي وذلك بعد رحله استغرقت سبعة وأربعين يوما . وفي اليوم نفسه غادر بونابرت فريجور إلى باريس^(١) وكان في أثناء سفره إلى باريس أن كتب من مدينة (أكس) Aix في ١٠ أكتوبر رسالة إلى حكومة الإدارة^(٢) يسط فيها الأسباب التي أرغمه على العودة ، وذكر الإجراءات التي اتخذها للدفاع عن الشاطئ المصري بإشراف الجنرال كلير ، وعقب قياده ، ثم أشدد بذكر الشائع إلى فرنسا عن انتصاره في موقعة « أبو قير المر » فقد إن مصر قد زال عي بعض هذا الانتصار خطر انزواء تاماً ، وأصبحت ملكاً حاصلاً لفرنسا ، ولا يدرع الفرنسيين في املاكها أي مسارع . وفي ١٣ أكتوبر وصل بونابرت إلى باريس

كلير وقبادة الحملة

على أن الرحيل عن مصر لم يكن معناه أن بونابرت كان ضعيف الإيمان بمشروع الاستعمار لفرنسا في هذه البلاد ، أو أنه رغب بسلم هذه المستعمرة « الحملة » إلى أعدائه إلا بدأ أرغم على ذلك ارجاء ، وانتهى عقد صلح في أوروبا أن يحق لفرنسا عن مصر تمناً لإيقاد الجمهورية .

ولذلك فقد بدأ اختيار كلير بعدد الحملة العامة في نظر كثير من المعاصرين مصر عرساً ، لأن كلير كان وقتئذ من رزمة وثقت ادمي استفدوا من مشروع الاستعمار الفرنسي في مصر مقصي عليه بالفشل لا محالة . نسب ما صادر من عوامل جعلت في نظريهم مركز « الحملة » في هذه البلاد على حاسب سطيم من الخطورة ، نظراً إلى عظم سطوها ، وما سكدته من حاسائر فادحة في الحرب الشامية ، وفي أثناء اتصال المستعمر ضد الثورة المشبعة في الصمد وسائر الأقاليم المصرية ، وتهدد حذب الجذبات من حذب وسلعة ودحائر ومؤن ، مع حاجة المستعمرة النائية إلى ذلك كله ، عندما ظل الأسطول الانجليزي صاحب السيطرة في البحر الأبيض ، وكاد يقطع كل اتصال بين مصر وفرنسا . أصب إلى ذلك ما كان موقعه هؤلاء « الزاهدون » في اسبحار مصر من إضائق حيوش العدو على هذه البلاد لغروها من كل جانب .

وقد عرا كثيرون اضطرار بونابرت إلى تسليم قبادة الحملة إلى كلير من جهة ،

(١) Pièces Diverses 225 8, Jonquière V Chap. III, Corresp. No. 4383

(٢) Corresp. No. 4382

ثم انبحار كليبر الى جانب أولئك الذين على مشروع الاسنجر اعرضى في مصر من جهة أخرى ، الى أن يوارث ماوقع احبائه على كابر الا لرغسه في عوده الى الجبال دريه اى فرنسا ، واعتاده أن كليبر كان أكفأ فواد الحملة ضد دهاب دريه ، وأقصرهم على محمد عبد الله^(١) فعهد اليه عباده الحملة ، ويستمدون في ذلك اى ما جاء في بعثت بوارث منه الى مو في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ . وكان أصحاب هذا الرئي يتردد له ذهبوا اليه ، ان العلاقات بين الرحلين لم تكن وديه في أنه ، وجود بوارث في مصر وزعموا ففلاس ذلك أن عدم هذه العلاقات بينهما أثر تأثيراً بالغاً على السياسة اى اسعها كليبر مع عدم حياهم لبعيد التصيب الى تركه له وبارث . وصار يطلب احداً من مصر بكل وسيلة واستندوا في ذلك الى أن الرحلين لم تكن بينهما معرفة سابقة قبل مجيئهما الى مصر ، والى أن بوارث كثيراً ما كان يقد إداره كليبر في حكومة الإسكندرية كما أن هذا الأخير لم يكن راضياً عن بعض أعمال بوارث وتصرفاته ، فكان أن عطفت أرب الخلف . بينهما وهذا القول وإن كان أعظمه مبيحاً فيه . يعرف عن بوارث من جهة أخرى أنه كان يدعو لرحل ذلك احمد الذي يحمل كل مااون بينهما معديرا وعمل كليبر على ابعده في مصلحة الوطن مسكاة في بوارث حسب

ثم من السلم أنه لم يكن بينهما معرفة ولم تقابل قبل قيام الحملة الى هذه اسلاد^(٢) ومع ذلك فقد أسهم كليبر في حروب الثور ، وفلاس عن اشتراكه في اتحاد نوره القديه ، وظهور كفاهه متدرة عند بيده حش (امة مروانور) ، حتى ان حكومة الإدارة ما كانت ترضى بالاستمعة عن خدماته عند ما طلب كليبر الاسفالة من قيادة هذا الجيش^(٣) ، بل من يوم أن أعلاه منصبه حتى تسير احمد الى هوش قيادة جيش اسمر واور في مارس ١٧٩٧ وقائه بذلك مكانه ما كان بوارث ليعمل عن البول عه ومعرفة نشاطه ومع أن كليبر فصل المربة بعد ذلك فم شترك في اعلااب ١٨ مركتيديور (٤ سبتمبر ١٧٩٧) . على خلاف ما فعل مو الذي أحقق في جهته على نحو ما سبق ذكره ، فيه ما بدأ العمل حتماً للاسهم من الخلقه عه عند الصلح مع لفسا في كسو فرسو ، حتى قرر بوارث الاستفادة من خدماته ، فعت اليه باخراال كفارالى ، أحد أصدقاء كليبر الجيدين ورملائه في جيش الصامردانور طلب اليه

Berthier. Op. Cit. 181; Ibid. 4374 (١)

Ernouf 157 (٢)

Pajol 256 (٣)

الاتفاق بحيث اعلنت في يناير ١٧٩٨ ، قبل كليبر ، وفي ١٢ أبريل صدر قرار حكومة الإدارة « باستخدام كليبر تحت قيادة بوناپرت في الحملة للمدة في طولون » . ومع أن انصر من إعداد هذه الحملة قد ظل سرّاً مكتوماً ، فقد كان كليبر أحد أولئك الأفراد القلائل الذين وثق بهم بوناپرت ؛ فوقف على حقيقة أمر الحملة ، وذلك قبل صدور الأمر بعينه ، فاسك يحض التقارير والخرائط الخاصة بالهند وفارس ومصر ، ويدرس مجرى النيل وطبيعة الأقاليم والسبلان المصرية ، انبى توقع حدوث المعارك الهامة بها . وقد حدث ذلك كله قبل سفره الى طولون ^(١) .

وحملت ادارة فرسكلان الحزال كليبر الى الشواطئ المصرية ، فاشترك في الهجوم على الاسكندرية ؛ ولكنه أصيب بجرح في رأسه ، فانقلبت قيادة جيشه الى اديران دوجا وترك كليبر في حكومة الاسكندرية ، على الرغم من روع به الى الخدمة العامة ، والاتفاق بعائده بوناپرت الذي حمل له في قلبه محبة واحتراما كبيرين كثيراً ما أفصح عهما صارات صريحة حاسمة ^(٢) . حتى أن بوناپرت ما لث أن وعد في ٣٠ يوليو بصمه إلى صفوف الجيش العامل خلال الأسابيع التالية . ولكن نزول الكارثة بأسطول برويس في أول أغسطس سرعان ما جعل الرحلين معهما أحدهما الآخر .

فقد كان كليبر لا يوافق على الحملة التي انعددها برويس من أن الأمر لمقاتلة أسطول العدو ، فبقف بسعة حامية تطوى قلاعها في حط غير متحرك ، يتيح لعدو امتار بالمهارة إصابة هدفه بكل سهولة . كما شاء كليبر أن يرى بوناپرت يسوء إلى كوتر أميرال (ملاسكيه — دوشابل) Blanchet Duchayla ، ومحاول إلقاء شطر من مسئولية الهزيمة على عاتقه ، مع ما أئدها هذا الأميرال من صروب السالة على ظهر نارحته فرسكلان ، وإصاته في أثناء المعركة ^(٣) واتسعت شقة الخلاف بين كليبر وبوناپرت عند ما عمد هذا الأخير إلى فرض انعامات بملأ مما يتجمع منها لديه خراته الخاوية ، فلم رص كليبر عن هذه السياسة حرصاً منه على عدم تغير الأهليين ، وعاصمة عند ما صارت تحصر إليه وفود العربان للاتفاق على السلام معه . ولما كان كليبر نفسه في حاجة ملحة دائماً إلى المال للاتفاق على شئون الإدارة والجيش في الاسكندرية ، ثم لمحوي الاسكندرية ذاتها بالملال والمؤن ، خوفاً من انتشار المجاعة بها ^(٤) فقد استولى

(١) Pajol 269; Ernouf 160 — 1

(٢) Ernouf 175

(٣) Ibid 187 — 8

(٤) Pajol 229,303,307

على الأموال التي خصصها بومارت وأرسلها لإصلاح القبة الناقية من الأسطول المتعطل ، ودفع بها مرنات الجند النأخرة ، كما اتفق منها على فروع الإدارة المختلفة . وساء بومارت هذا التصرف ، وألح في ضرورة تسليم المبالغ التي أرسلها إلى الأسطول ، وشدد عليه في جمع عرامة كبيرة من نهار الاسكندرية ، ووجه إليه نقدا لادعا إد كتب إليه في إحدى رسائله : « إن إدارة الاسكندرية تسكف صف ما يتفق على سائر الجيش ، كما تسكف مستعفات الاسكندرية ، التي لا يوجد بها سوى ألف حريق فقط ، مبلغا من اللان يريد كثيرا على ما تسكفه مستعفات الجيش بأجمعها » (١) فعد كليبر هذا القول تأييدا لاحتجته ، كما امتنع عن جمع العرامة المطلوبة ، وعرض على بومارت استقالته من حكومة الاسكندرية ، كما أنه طلب تحقيقا في أمر لو صح بسننه إليه لخرصفته ، وثبتت ، عليه تهمة سديد أموال الجيش ، وهو الرجل الذي م يعصر إلى مصر « لكي يجمع ثروة » (٢) .

وقد يمد كثيرون ذلك نقاش ، الذي دار بين الرجلين خلال شهري أغسطس وسبتمبر ١٧٩٨ . سنا لوجود الحفاء الذي اعتقد هؤلاء أنه كان من التعذر على الرجلين سيانه . ومع ذلك شن الثالث أن بومارت سرعان ما أخذ يدعى لإزالة أي أثر قد يجم عن إساءة لم تكن متعمدة نجان من الأحوال (٣) فوسط كعاريلان في الأمر ، ثم دعا كليبر إلى القاهرة ، فوصلها في ٢١ أكتوبر . (٤) وعندما خرج الجيش إلى سوريا ، كان كليبر من بين قواده ، وأولاه بومارت ثقته الكاملة ، وظهر تعاون الرجلين في أثناء معركة حل طابور ، التي كان عامل النصر الحاسم فيها وصول بومارت مسداته لتعزز قوات كليبر ، ووفاه بومارت حقه من الشاء عندما اعترف في رسالته بمجهوداته في هذه المعركة ، ورفض أن يتحدث عن نصيبه هو في إحرار هذا الانتصار في تقريره الذي رفعه عن معركة حل طابور إلى حكومة الإدارة في ١٠ مايو ١٧٩٩ (٥) ومع ذلك فقد ذكر مارمون وبوريين أن سوء التفاهم كان سائدا بين الرجلين في أثناء الحملة السورية ، ويبدو أن ذلك قد حدث في أثناء حصار عكا لأن كليبر كان يرى أن الشعة التي فتحها الفرنسيون في أسوار عكا من الصيق بحيث لا تسوغ هجوم الجيش على

Corresp. Nos. 3189,3210 (١)

Payol 305 — 6 (٢)

Corresp. No. 3271 (٣)

Ibid. 3418 (٤)

Ibid. 4088,4124 (٥)

هذا الحصن أصبح ، فأشار بأمره لمحمود كجأنه بعد الخدق التي شققها الفرنسيون حول بقعة داب عمى لكي تحية الجنود من وراء العدو . وصلا عن ذلك فقد أظهر كلير شيئا من الصبر وطلب وهو في المؤخرة عمى ظهر الخندق أثناء تفحصه من سور . ومن الواضح أن تلك لم تكن شديدا كافية لإزالة سوء الظاهر بين الرحلين تاهيك يمثل ذلك الجفاء للزعم بينهما (١) .

وواقع الأمر أن نوبارت عندما أحرر كلير بعدة الحملة العامة ، رأى فعل ذلك بعد إمعان الفكر ، وليس رغبة صادقة . وما كان ليقص منه دربه بل هذا الصب ، وإن كان هذا الأخير « أكثر توصفا من كلير ، وبساووه في كدته العسكرية » (٢) ذلك أن كلير كان قد تمت مقدره إداره منه في أثناء حكمه بالأكاديمية . لا يقل من شأن ذلك الخلاف الذي حدث بينه وبين نوبارت ، وكان من أسائه المهمة التي كلير أدلى في عبر الوجود . أتى أراده نوبارت . وصلا عن ذلك فإن دربه معه كان قد ارتكب كثيرا من « اختلافات » الإدارية في أثناء حملته في الصمد ، وذلك عندما صار يستوى على الأموال من الأقاليم . تشملها عيادته ، وذلك بلاهق مما عني حيشه وعن عمد به العسكرية حتى أن نوبارت مالت أن كتب إلى رايوشك Zaporochk قومدان في سوبو في ١٧ أغسطس ١٧٩٩ (٣) ، أي قبل سمره عمسة أيام فقط ، جاء عن أخفى الذي رسكه تساهة للبحرال دربه أن يسوى على أموال مدرسه ، وبعدت بصره إلى أمر أصدره نوبارت في اليوم معه لمع وقوع أي هاون في جمع الأموال وانبرى في الأقاليم ، وعدم استطاع شيء من المانع المتعددة منها . تسكن الأسباب (٤) .

وواضح من كل ما تقدم أن نوبارت لم يكن مرعفا عن اختيار كلير لقبادة الحملة العامة ، بل إن هناك ما يدعو كذلك إلى الاعتقاد أن هذا الاختيار كان قد تم الاتفاق عليه معداً بين نوبارت وحكومة الإدارة قبل خروج الحملة . فقد حدث عندما قدم نوبارت إلى حكومة الإدارة مذكوره المعروفة من الحرب ضد المخلعة (١٣ أبريل سنة ١٧٩٨) (٥) . وقد رأى نوبارت أن شتاء عام ١٧٩٩ هو خير الأوقات لملازمة لبدء هذه الحرب . إن (مرلان دي دويه) Mer n de Doua ، أحد أعصاب

(١) Ernouf 206 — 8 Pajol 328 — 31

Galland. I. 194 (٢)

Corresp. Inéd. te II 442 (٣)

Corresp. No. 4368 (Ordre du Jour) (٤)

Jonquière L. 350 — 2 (٥)

هذه الحكومة التي حصرها مباحثة موضوع العرو وشد مالمث ش أ كد لأحصائه حصول الاتفاق بين بونارت وحكومة الإدارة على أن تنسج الحمرال ككبر قيادة الحملة العامة في مصر عند عودة بونارت إلى فرنسا^(١)

وعنى ذلك فإذا ثبت أنه لم يحدث من ككبر وبونارت ما يدعو لإثارة الخصم بين الرجبين بالضرورة التي يحس البعض بينهما مصدرًا ، وإذا ثبت كذلك أن بونارت لم يكن صريحاً على اختيار ككبر لقيادة العامة ، فالواجب يقتضى كل مصعب أن يحدث سياسة ككبر كهمد عام للحملة في مصر ، على ضوء جديد لا يثبت أن يكسب عن حقيقة واضحة ، هى أن هذه سياسة وإن كانت تقوم فى حوها على مبدأ الخلاء عن مصر ، فإنها كانت تنفق من بواحبها الحملة مع أهداف التي تصممها التعميات التي تركها إليه بونارت نفسه قبل رحيله إلى فرنسا .

وقد بادروا ، منذ ٢٤ أغسطس ، بإرسال هذه التعميات التي تركها بونارت بي يديه . سم ككبر إلى قائد الحملة لتمام فى رث د^(٢) وكان بونارت قد أعد مع هذه التعميات أمرًا يعطاه لتمام مامة ، بي ككبر^(٣) وترث بعض الأوراق التي تحمل آخر الأباء عن الموقف فى أوروبا ، كما أعد مدكرات مفصلة تبذل بعض المسائل التي أشار إليها فى مضمونه . ولعل أهم ما جاء فى هذه التعميات^(٤) حديث بونارت عن الكتاب الذى حدث به إلى الصدر الأعظم ، لفتح مفاوضات الصلح مع تركيا^(٥) ، وضرورة إرسال حامل هذا الكتاب إلى فرنسا ، ثم إرشاداه لقائد الحملة الجديد فى موضوع الصلح مع تركيا عمومًا . ولما كان بونارت يعلم حاجة الحملة إلى الإمدادات ، فقد أخذ على عاتقه مسئولية إرسالها ، واعتمد بونارت فى ذلك على إمكان خروج الأسطول الفرنسى والأسطول الاسباني الخدم من موانئ فرنسا وأندلس ، بحملين للأمدحة والذخائر وقسم من الجيش الاحباطى كذلك^(٦) . ثم وعد بانحد الاحراءات المكعبة ببلاد ككبر كل ما سمع من أحبار من حيث لآخر ، كما لسط

Thibaudeau, I. 201 (١)

Pajol 338—9 (٢)

Corresp. No. 4375 (٣)

Corresp. Inédite II 454—9; Berthier, Op. Cit 188 6; (٤)

Corresp. No. 4374(Alex 22 août 1799)

Corresp. No. 4364 (٥)

Jonquière V. 119 Et. Sqq. (٦)

قواعد السياسة الداخلية الواجب اتباعها في مصر دأبها ، وقوامها : (أولاً) الاعهاد على صداقة المسيحيين ، مع منهم من الاسحقاف عواظيهم دعاً لتصب « الأتراك » ضد الفرنسيين ، (وثانياً) اتتبع شفه مشايخ القاهرة ، لما لهم من نفوذ ظاهر على سائر أفراد الشعب . وأشار يونانرت كذلك إلى ضرورة إتمام تحصينات الاسكندرية ولعريش ولبرلى ، والعمل بكل وسيلة لتنظيم شئون الإدارة « المركبة » على أن يعهد إلى المواطن بوميلج — وهو رجل حر وعمل — بالشئون المالية حسب لعله ، بعض ما اكده من خبرة ودراية بأحوال البلاد ، يستطيع سيطتها .

وكان أهم أجراء هذه التعاليمات ولا شك تلك التي تناولت المفاوضات مع العثمانيين ، فقد حوّل يونانرت الجهرال كليز الحق في إبرام الصلح مع تركيا ، ثم في هذا الحق في انوث معه قيود معينة ؛ لا يلم اتفاق إلا إذا أحققه حكومة الجمهورية في محاولاتها الاتصال بأخيران كليز ، وتعمد وصول أية عهدة ، ونهى حر إليه من حرب حلال الشهور المقبلة « من الآن إلى شهر مايو » من عام ١٨٠٠ ، ثم تشي الطاعون وهلك بسببه ألف وثمانية مائة ، وبات لذلك من المخاطرة رح الجيش في الحملة المتوقعة ، فعسدت فقط بحق له إبرام الصلح مع تركيا ، ولو كان الخلاء عن مصر من شروط هذا الصلح الأساسية . ثم عاد يونانرت فطلب من كليز أن يعمل حتى في حالة قبول هذا الصلح على إرجاء تعيد شروطه إلى حين الصلح العام في أوروبا ، إذا كان هذا ممكناً . كما طلب إليه أن يشترط في نظير الصلح على أساس الخلاء عن مصر انفصال الباب العالي عن الخدمة الدولية ، وإعطاءه للمصريين حق التحارب في البحر الأسود ، والموافقة على هدية ستة شهور يتم في أنائها تبادل التصديق على المعاهدة ، حيث أنه من المتعذر تعيدها قبل التصديق عليها ، وأن يشترط فضلاً عن ذلك عدم حصول أي عمل عدائي خلال هذه الهدنة . وقد أوضح يونانرت في تعديته أسباب هذه القيود جميعها بقوله محاطاً بكليز : « وبك تقدر أكثر من أي شخص آخر أيها الجهرال لمواطن أهمية احتلال مصر ومقاتتها في يد فرنسا . إن الامراطورية العثمانية المهددة بالانهيار من كل جانب تنداعى أركانها اليوم ، وسبكون إخلاء فرنسا لمصر من المصائب التي تعظم نتائجها ، إذ قد رى في أيامها هذه البلاد تنتقل إلى يد أوروبية أخرى »

أما المذكرات التي ضمتها يونانرت إلى هذه التعاليمات فكانت أربعة أملاها يونانرت في تاريخ سابق^(١) : عن « الإدارة الداخلية » وأعمال « التحصينات » ثم « الدفاع

عن مصر » وأخيراً عن « الشؤون السياسية » فتكلم في مذكرته الأولى عن ضرورة استقالة المشايخ والعلماء الدينيين حتى يتعاونوا مع الفرنسيين في إدارة شؤون البلاد ، ويفيد الفرنسيون من معاونة هؤلاء لهم وهم قوم عدول أعياء وعلى خلق عظيم ، فضلا عن زعامتهم المعترف بها بين أهل البلاد ، واسهر بونابرت الفرصة فتحدث عن مكانة القاهرة في العالم الإسلامي بعد مكة المكرمة ، وضرورة للمصريين في محاولة إقناع المصريين بأن الفرنسيين يحمون القرآن « الكريم » ويعتزمون الرسول صلى الله عليه وسلم . ووصف بونابرت للمالك بأنهم كانوا قوة انتهى أمرها ، وأوصى بأن يستمر استخدام الإقباط في تحصيل الضرائب ، والقيام بعبء ذلك من أعناء الإدارة للثألية التي اصطلموا بها ، وذلك حتى يحبس الوقت الذي يمكن استداله أوربيين بهم . وكان من رأيه أن يحرمي تمويل المصريين على الخدمة العسكرية ، حتى يمكن إطفائهم بالحيش والحرية .

وعندت بونابرت في مذكراته عن « التحصينات » و « الدفاع عن مصر » فأشار بضرورة إقامة الحصون في العريش والقطية والصالحية ، وفي وادي الطويلات لصد هجوم العدو على مصر من جهة حدودها الشرقية ، كما أشار بدعم تحصينات الاسكندرية وأبي قير ، ودمياط ، وهي الأماكن التي يستطيع العدو إرسال قواته بها في الشواطئ الشمالية . وكان من رأيه أن هناك طرقاً ثلاثة يمكن مهاجمة مصر داتها أولها طريق عمرة وبرخ السويس للحيوش المحتجعة في الشام ، وثانيها الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط من جهة البحر الأبيض ، وثالثها المحوم من الشرق والتهال معاً اذا اتحد العثمانيون والاعبيرو في رحف مشترك على مصر ، فيحصر الأولون من جهة الشرق ، بينما ينزل الآخرون قواتهم في الشاطئ الشمالي ووضع بونابرت خططا مفصلة لمقاومة كل عزو محتمل .

وكانت مذكرته عن « الشؤون السياسية » مذكراً هامة حقيقة ، رسمت خطوط تلك السياسة الافريقية التي هدفت إلى اتحاد مصر قاعدة يعمل الفرنسيون معها على دعم حيلاتهم بأمراء الدول الإفريقية وسلاطينها ، والتوغل في قلب القارة المجهولة . فطلب بونابرت أن يوفد ممثلون إلى مماليك سار والحشة ودارفور ، لإنشاء العلاقات التجارية واستقدام نحو عشرة آلاف من العبيد سويوا لإطفائهم بالحيش ، وكان بونابرت قد بدأ فعلا في تمديد هذه السياسة عندما بعث بالكتب إلى الحكام في درة وطرابلس ودارفور على نحو ما سبق ذكره . ولما كان لعربا قصص في طرابلس ، فقد أشار بونابرت إلى ضرورة إقناع طرابلس وبنو عاتمة إرساله ممثلين سياسيين من قلوبهم إلى مصر .

وعقد يونانرت آملا حكمة على استخدام هؤلاء في فتح طريق الاتصال بين مصر وفرنسا .

وعرض يونانرت في هذه المذكرة ملووقف كما بداله بين تركيا واخترتة وروسيا من جانب ، وبين فرنسا من جانب آخر ، ولما تجرد ملاحظته أنه ما كان يعتقد بصعوبة الاتفاق مع العثمانيين إذا فتح كلب في استالة الخرج انواحدس إلى مصر للذهب إلى مكة أو عند عودته من إلى بلادهم ، فيحملهم السكب ورسائل لشهوية إلى الصدر الأعظم . وإذا استطاع كذلك أن رسد إلى صدر الأعظم معاوصين مهرة بسط موز دفاع الصدر بأن الفرنسيين لا يريدون امتلاك مصر ، ولما يستجد موز طريقا لحب للوصول إلى الهند ، للاستقام من اخدمه ، وكان يونانرت لا يشك في نجاح هذه المحاولات ، لاعتماده أن السلطان العثماني ما أقدم على الحرب ضد فرنسا إلا مرعما ، وقد مات الآن حتى إنها سب الحماض الفادحة التي تكسب حوشه الرسالة من الشام ورووس من جهة . ثم انبأه إلى كل هذه الأحطار بقى أحدثت به من ناحية روسيا ، وهي الدولة التي ناصب ركب العداء من أزمان بعيدة .

وفضلا عن ذلك فقد اعتقد يونانرت أن عودة اسد ، والودة بين الأراك والفرنسيين إلى ما كانت عليه تمام فرنسا الأول كعبيل بأن جمع روسيا من القيام بأي عمل عدائي ضد جيش الشرق في مصر ذلك بأن اسرار الفرنسيين أسرع ثم حلاهم عن هذه البلاد من شأنه إقذع القصر بالترام حطة المسألة مع فرنسا إلى لا عمل القصر في صدره أنه صفة ضد حبستها في مصر . ولاحداسي أن الإخيلير وحدهم هم الذين بصرون على طرد الفرنسيين من هذه البلاد . ومع ذلك فقد كان من رأى يونانرت أن الفرصة قد أفتت من أيديهم ، منذ أن انتقلت الحرب إلى إيطاليا وألمانيا ودول الشيا ، نتيجة لتأليب امحالفة الدولة الثانية فأصبحت امحلترا في حاجة ملحة إلى اسخدام كل قواتها في الحرب القارية . ومع ذلك فإن يونانرت ما كان عثي شيئا من استطاعة الاخيلير التصرع لمناصة الفرنسيين اعداء في مصر ، ولاهم برعاية مصالحهم في اسد ، إذا حلب المهرجة معالفة الدولية وساد اسلام في أوروبا ، وذلك بأن تركيا سوف تجد أن من مصحتها في هذه الظروف الجديدة أن تسعى لاحتداب مودة انفرنسيين المصريين بصوره تحرم الاخيلير من الاعتماد على معاونة تركيا (١) .

تلك كانت حقوى التعيينات والإرشادات التي تركها بومبارت للجنرال كليبر ؛ وواضح منها أن بومبارت ، عندما عذر هذه البلاد كان مهتماً بل أي أمر آخر ضرورة التفرغ لمباراة أعداء فرنسا ، ومعظم المخالفة الدوبة الثابتة ، وإبرام معاهدة على قبول الصلح مع الجمهورية ، وساء على ذلك فقد عدا نفاذ الحملة في مصر أو الجلاء عن هذه البلاد أمراً أراد بومبارت بمحرد المساومة فيه مع تركيا ، لإجراحها من المصلحة ضد فرنسا . فهو لا يردد إذن في إخلاله بمصر ، إذا تطلب الموقف العسكري والسياسي في أوروبا دائماً هذا الجلاء ، وكان من شأن ذلك إضافة لفرصة لبومبارت حتى يعقد صلحاً في مصالحة دولته ، ولذلك فإن أكثر ما كان يرحوه بومبارت أن يستطيع قائم الحملة الجديد إرجاء الخروج من مصر والجلاء عنها أطول مدة ممكنة ، ولي أن يتم شيئاً عقد الصلح العام مع أعداء الجمهورية في أوروبا على أن تبدي هذه السياسة كان مرتطفاً تلك الخطه ، التي سوف عليها ظروف الموقف على قائم الحملة الجديد ، الذي كان من حده بعض إحاطته بوثق المركز الذي وحده فيه جيش الشرق وقتئذ أن يتحمل مسئولية لتفهم إذا كان في قدره إبقاء في هذه المسيرة الحملة والتمسك بها مدة طويلة أو إخلاله بها في أقرب وقت وبكل سرية .

تقرير كليبر :

« بعد تعيين بومبارت ورسائله الخزان كليبر مساء ٢٢ أغسطس وهو لا يزال في دمشق ، فقد وصل إلى رشيد بعد يومين ولم يجد أحداً في انتظاره بطبيعة الحال رحيل بومبارت في مساء يوم ٢٢ أغسطس نفسه على نحو ما تقدم ، واستند به العضب حتى أنه كتب إلى مو في صبيحة اليوم التالي لوصوله (٢٥ أغسطس) يقول إنه ما زال حاصر إلى رشيد حتى وجد « أن الطر كان قد فر من وكرة » وسأله مو في سحرة ظاهره أن « يستطاع له بعض تعميلات عن رحيل (البطل) ومحمد البجليين » (١) غير أن هذا العصب انطوى سرعان ما حفت حده رويداً رويداً عندما أحد كليبر يتدر الموقف وحاربه الأساء من مو لا تعال تصاده إليه ، حتى أنه هالت أن كسب إلى مو في عصر اليوم نفسه يطلب حضوره إليه لاسحدث معاً في بعض الشؤون المهمة ويقول له « إنه وإن كان يوافق على لأسباب التي سمعت بومبارت على الرحيل فإن لديه — على الأقل — ما يحوله عن اشكال الذي تم به هذا الرحيل » (٢) ، ومع ذلك فقد

Pajol 338 (١)

Ibid. 340 (٢)

أشد كبير من تلك الملاحظة على تصريح الأمور بكل حمة، فأصدر وهو لا يزال في رشيد منشوراً إلى قواد الحملة، كما أصدر منشوراً آخر إلى الخدع عند انتقاله إلى القاهرة^(١) لهذه نفوسهم وتطبيب حواضرهم، فزار حيل وبارت المعاشي إلى «أسب قهرية» ومحدث عن انظار وصور وحدات من فرنسا في وقت قريب إحياء لأعمالهم، وفي ٢ سبتمبر جمع إليه افواد وسط الوحدات المختصة كما عهد الدواوين، وأكد لأعضائه أنه لا تن عن بوارت رسة في حماية الدين الإسلامي ورايته والنهر على سعادة المصريين وسط أوجه العدالة بينهم، بل به وعد أن يخدموا حدود بوارت «الذي طهر محبة انصاف وشفاع والوجود والأعين بانباع حطة العدل وراحة» وذلك حتى يكون — على حد قوله — حذراً تلك الحدة التي جمع بها بوارت^(٢) واسكب كبير مدرس شؤون الإدارة عامة وادبية خاصة

أصدر نظام الحكومة وأصدر قراراً في ١٤ سبتمبر ١٧٩٩ تقسم القطر المصري إلى ثمانيه فبايم إدارية كاب حوصرها سعادتي القاهرة حوصرها الخيرة والندوية وأطامع وحاصرها ليس والشرقة وامرئش والويس، ثم حواضر الاسكندرية ودمياط وسمود وموف وى سوب ونيوط وأتى كبير الدواوين إلى أشبها بوارت في الأوامر كما نظم شؤون تعيين اصحاب، وعلى مخطط حساب الدرهم الخمة فضلاً عن عيه لستأر فروع الإدارة ولأهم مخطط الخزانة ديرة في المصدر^(٣) فدل هذه المشاهد على أن كل واحد قد فرغ من عمله على الاصطلاح انصاف منصبه الجديد بكل حمة.

وسكن وجود كبير القاهرة سريعاً ما جعله ليس عن كتب مهذار المخطط الذي أثاره رجيل بوارت الفدحى من فريق كبير من رجال الحملة، حتى إن هؤلاء التدمرين صاروا يعتمدون أن بوارت ما عادر هذه اللاد إلا بأسه من دعم أسس السيطرة الفرنسية في مصر نهائياً ونافوا يعتمدون آملا كيه نسب هذا نقش بيه على العودة ورياً إلى قرب^(٤) وكان أشد الناس بدمراً وشأماً من ذهب بوارت دون أن يجمعها معه دوحاً فأنعمام الدهره، ووسايح الخمس بالشئون المالية وكان بوارت قد كتب إلى دوحاً يوم معادته الاسكندرية خطاً بيه عن خطاً

(١) Pajol 340; Pièces Diverses 229

(٢) Pièces Officielles (Sec Part) Extrait du Courrier. 2 — 5

(٣) Rousseau 31 — 4, 53 — 4

(٤) Galli 141 — 2

واجراً ما للرجل الذي استحق ثأره بسب ما أئده من نشاط وحكمة ساعداً على تهديمه
الخواطر واستناب الأمن والنظام في أثناء غياب بونايرت في حملة الشام^(١) فأثناء
اسيره إلى فرنسا « لأسباب فورية » ، ووعده بإرسال سجن حرة إلى هذه البلاد
في أثناء الغد ، في استطاعة دوجا أن يعود على واحد منها إلى أرض الوطن^(٢)
ولكن دوجا حين فزع من الزم من يعتقد أن بونايرت لم يعادر هذه البلاد وأنه لا يزال
بالسكندرية فكسب إليه في ٢٦ أغسطس^(٣) يستوصيه بسب « سكونه » ثم « هروبه »
دون اطلاع حاضرائه على غرمة اصطحابهم معه ، ولم يظهر دوجا مقدمة الحبل ورد
على - له - وعندهذا كد لديه رجل بونايرت فأصدر أمراً يومياً يسوع فيه رجل
الممرام بوصول أوامر مشددة إليه بذلك من حكومة الإدارة ، وبإشاد الفرنسيين
والصربيين على الراء « عدم إطلاق » بسب غياب بونايرت^(٤) ، ومع أنه شعر بالحمل
والخبرة سب أشدده اساق في تكذيب هذا ساء ، واعتقد أنه إما كان قريبة هاق
وخدمة كبرة^(٥) ، فإن دوجا ما لث حتى أحد بعد رسالة إلى (باراس) عضو حكومة
الإدارة يصف فيها حال الخطة السيئة التي تركها عنها بونايرت فقال^(٦) : إن بونايرت
غادر البلاد « وعنى » من الخطة والخرق والخراب حارة ، فلامال ولا بارود ولا سلاح
وتحصينات الاسكندرية ودمس وعرش صعبة وسينة ، ولقد فتك اللواء والرمد
مدد عظم من الحادى جانب من هلكتهم المعارك السابقة ، وقد ظل الماقون دون
ملاص ، وقد راكب الديون على الخلة ، ونقص عدد الجيش الى سبعة آلاف حدى
وهذا كله في وقت يمدويه مدو - وهو على مسيرة ثمانية أيام لحسب - بالزحف
على القاهرة

وكان وسيلج كذلك من أشد الدقيق على بونايرت بسب عدم اصطحابه له
في رحلته إلى فرنسا ، وهو الذي اعتقد في قراره معه أن بونايرت ما كان يستطيع
الاستعانة عن خدماته ، ولم يكسر من حدة قوته معه أن وبرت شاء أن يتركه
الى جانب كابر لمعاونته ، لأن بوسيلج كما قال بونايرت كان رجل حد وعمل ، وله إلم

(١) Berthier, Op. Cit. 200

(٢) Corresp. No. 4376

(٣) Jonquière V. 639 - 40

(٤) Galland I. 190

(٥) Berthier, op. cit; 200

(٦) Rousseau 4-5 Note (1)

شئون الإدارة المصرية « لترتبك » ولم يعد شي في اسلاف محمته ذلك الكتاب الذي بعث به إليه بومبارت في الوقت الذي كتب فيه الى دوحا نفسه يشته باضطرابه الى العودة الى فرنسا بكل سرعة ^(١) . بل اعتقد بومبارت أن بومبارت نعيم بجمع بيانه عنه ، كما نعيم أن حركة في هذه البلاد . وكان هذا الاعتقاد كاذباً لأن شير كوهن حده صد بومبارت وانتشي من ذلك الرجل لدى صار بعده بالغمدر والحقبة وقلة الوفاء . وكانت وسيله ان ذلك أن يهول من كليل الأمر ، ويعد الى زيادة عدد تصور حكمة ذلك الارسل الذي لدى أشار إليه بومبارت في نهاية ^(٢) واستطاع بومبارت أن يبان عينه نسب اعتماد قائد الحملة الجديد عليه وعلى رمية دوحا في كل ما كان يطلبه من معلومات نيل له « حقيقه » الموقف ^(٣) . ذلك أن كليل الذي حل بعداً عن « مركز الأعمال » ولا يعرف من دقائق الإدارة ومفاسها إلا ذلك البراريسير الذي ناحت له فرصة وجوده بالاسكندرية وديبط ، بل إن كليل الذي لم يشهد من تعلم الدنيا سوى حرم صغير من أرضها دت انزاعة العيلة نسب وقوعها « على حافة الصحراء » ظل يعمل كذلك ما كانت تتمتع به هذه « المستعمرة » من مواد لاثروة استعمارية عكس سبلاتها واستثمارها ، وعلى ذلك فقد سهل على بومبارت أن يحل في روعه ريادة النقيب على الإرادات ريادة عبدة واستجدة ادوار بين المحلل والمنصرف ، بل استثمار الفرق بين الإرادات وانقلاب في الرادة واستعان بومبارت في رسم هذه الصورة انفة رمية دوحا الذي طفق هو الآخر يتحدث عن حباب الخشب اسننه ، فقال إن الحد منهم ادلاس والأساحة والدخائر ويهمهم كما وامور على في شول البلاد وعرضها في حومت صغيرة يسهل على اندو اكتساحها ^(٤) . وكان من سوء طالع كليل حتماً أن يجد نفسه عند وصوله الى القاهرة هدى الزحدين ساقين على بومبارت شير قحمة ، وهذا هو الآخر يطر الى حالة الحملة عطار فاس وعمل بومبارت مسئولة من بالجنس من اللا ، نظم

وساعد على ذلك أن القاهرة حين يحى ، كما بر إم كانت قد أصبحت عند رحل بكل أولئك المتدربين من الحد الذي كان لا لزل عافة أذهابهم ذكرى لأهوان التي صادفوها في رحلتهم صجراوى على القاهرة واستند بهم العلم واتفاق مسد أن سطر

Corresp. No. 4378 (١)

Berthier, op. cit, 201 (٢)

Ernouf 223 (٣)

Berthier, op. cit. 201-2 (٤)

أرسلوا له بروس في أي قرن تم حاء رحيل بونارت صحت على إباله ، وصور لهم الوهم والوجل أنهم إنما أعدوا إعاداً إلى هذه البلاد البلية بل وهو إليها ، ولا سبل الآن للعودة إلى أرض الوطن فبات شغلهم الشاغل تدمير كل وسيلة للخروج من هذا المأرق وأدعى كثيرون لمصر حق محصلوا على « شهادت مرضية » من أطباء الحملة وخراجها أتمت دجيت Desgenettes ولاري Larrey غير تبرعهم من الجيش^(١) وكان لا يقل المواد والاصطاد عن حدوده رعة في اعوده إلى فرنسا ، وعظم دمر الاصطاد على وجه الخصوص عندما وحدثوا رحيل بونارت ، وتطرق جماعة منهم بمدوا هذا الرحيل « هروناً » يجب أن يحاكم صاحبه أمام مجلس عسكري يقضى بإعدامه ، كما يحاكم كل جندي يجرؤ على التحلى عن مركزه في مواجهة العدو^(٢) وبلغ تور أعصاب كبار رحالة الحملة حدّاً جعل قائده كالحزال لاوس Lanusse والحزال حوبو Janet يخدمان في راع أقصى إلى مزاره كان من الميسور احتسابها^(٣) ، واعتقد كثيرون أن غياب دريه في الميدان وعدم وجوده إلى جانب كبير في هذه الظروف الدقيقة كان من العوامل التي ساعدت على طغيان موجة التدمير على كل حكمة وزوية^(٤) ، فكان من أثر ذلك كله أن « كبير يقدر » مسالك « قائده السابق وبهكم عليه في محاسبه الخاصة تهكماً جارحاً ؛ وبلغ حق كبير حدّاً جعله يفكر في إساءة بونارت ويعمل على إثارة المشاكل بين بونارت وروحه من باريس^(٥) وأمر نرجيل أسبده فوريس Fourès إلى فرنسا حتى تابع « سلطان والعاشق الذي فقدته »^(٦) ، وأرکها مو البحر ؛ ولكن الانحياز سرعان ما قمعوا عليها وأعادوها إلى مصر ثانية . ونجم عن تسرع كبير وعدم محطه في محاسبه أن داعب أقواله عن بونارت وصارت تنقلها الألسن ، وانقسم الجيش من ذلك الحين إلى فريقين يعصب على بونارت مسدكه ويريد العودة إلى الوطن ، وآخر أحد على عاتقه دفع كل اتهام وجه إلى قائد الحملة السابق ويتمسك بالبقاء في مصر ، وكان مو على رأس ذلك الفريق الثاني . واتسمت شعبة الخلاف بين الفريقين عندما طلق كبير يقدر بشدة سياسة حكومة الإدارة ، التي أنصت

(١) Jonquière III 389 : Bricard 331—4

(٢) Desvernois 219

(٣) Jonquière III 28—9

(٤) Ernouf 222

(٥) Rigault 4—5

(٦) Rousseau 70

إلى الاشتراك مع الغنابيين ، ويدكر صراحة أنه لم يكن من رأيه نتائج « انهيار بين سوريا لأن الصحراء ... على حد قوله ... إيدي هي عبارة حديق » يفصل بين سوريا ومصر ، كان يجب على العربيين أن يتركوا للعدو مشقة اختياره فيما يخص جيش الشرق في بليسي والصالحية (١) .

فكان تحت تأثير هذه العوامل جميعها أن أرسل كابر إلى حكومة لإدارة تقريره المشهور عن مركز الحملة في مصر عند رحيل بومبارت إلى فرنسا ، ومع أن الأخير الذي صادروا هذا التقرير ثم نشره بحمل يوم ٨ أكتوبر سنة ١٧٩٩ مارغوا لكتة (٢) فقد اتفق الرأي على أن كليبر كتب هذا التقرير في ٢٦ سبتمبر (٣) وقد أسهله بصارت تهكم فيها على بومبارت الذي عذر اسلاد بكل سرعة دون مقابلة ورثله خطانا إلى الصدر الأعظم في القسطنطينية مع أنه كان يعرف تماماً أن الصدر موجود في دمشق ثم تحدث عن حال جيش الشرق السيئة بسب نقص قواته إلى النصف تقريباً ، واتسع رقعة البلاد التي يطلب إليه احتلالها والتمسك بها والدفاع عنها ضد جيوش ابيات العلي واعترة وروسيا وهي دون كبره تعمل متحدة لعرض واحد ، هو إحراج الفرنسيين من مصر ، بما يخص الجود ، اللباس ولؤلؤ والأسلحة والبرود ، وتفنت هم الدول - طاريا وارمد والأمراض الأخرى ، ويستند هم الأعياء والضعف والأمل في أن تستطيع (اسالك) التي أنشئت ومصنع سارود في الروضة أن تسد حاجة الجيش ، كما أنه من التعذر بعيد نبي من الأوامر لكثيرة التي تركها بومبارت في رحيله لأمداد الجيش باللباس والمخاضة الأخرى ، وذلك بسبب العوز المائي لأن بومبارت قد معاديه لبلاد كان قد استعد كل مواردها خلال الشهور القليلة الأولى من الاحتلال ، وجمع من عوامات الحرب كل ما يستطيع إنسان أحده من اللاد ، وحتى أن القحو ، إلى مثل هذه الأساليب الآن من شأنه أن يحدد الثورة ضد جيش الشرق في الوقت الذي يحيط به العدو بالفرنسيين من كل جانب ، وفصلا عن ذلك فإن بومبارت غادر مصر والخرش حواره حديه ، ورواتب الجود المتأخرة بلغ حوالي أربعة ملايين فرنك ، يبيع سوء الحملة بحسب عدمه دين بميل مدبر مع غيره من المطالب المستحقة نحواي نشره ملايين فرنك ، ولا يستطيع الحكومه

(١) Pajol 369

(٢) Copies Of Original Letters Part The Third . 28 37

Rousseau 76-84

(٣) Berthier, op cit 205. Pajol 358 Ernouf 225

أن يحصل شيئاً من الصراحة إلا في شهرى نوفمبر وديسمبر . بل وقد يتعذر عليها أن تفعل ذلك عندئذ بسبب انتقال الموقع مع العدو ، لأن مصر على خلاف ما يبدو من سكوت أهلها الظاهر نكاد نكون مؤمنة للشورة عند أول ساعة ، إذ يترص المصريون والدوثر بالعربيين ويعتمدون في ذلك على المثلث الذي ماثوا بجذوهم بالأسلحة ورسائلهم . في حين أن إراهم بك مداراً راسماً بجواري الألفين من مملكتك في عره وقد وصل ثلاثون ألفاً من جيش الصدر الأعظم والحرار ناشأ إلى عرة كذلك .

ثم انتقل كليبر من ذلك إلى الحديث عن « شخص » بومبارب من مسئولية مواجعة هذه الأخطار التي كان يعرف عدم المعرفة وحوادثها . وإلى ما كانت تجرب له تعلمات حكومة الإدارة محاولة لتخصص بها . وماش كليبر انتعلات التي ركبها له القائد السابق بشأن إرام الصبح مع الباب العلى « حتى ولو كان الحلاء عن مصر » شرطاً أساسياً لإبرامه ، ثم تسأل : وماذا تستطيع ألف وحماته رجل أن يفعلوا في أرض واسعة تحب اللود عها صد قوات العدو الحبيبة إلى جانب الاشتراك في معارك يومية مع الأتبيين . مع العلم بأن الاسكندرية والعريش وهما « دمة حاصرة » - على حد قول بومبارب - تمهران لأسباب عدة عن الدفاع والمقاومة . ولا يعنى الانتصار في معركة أبي قير البرية أن الأتراك سوف يعجزون - كما توهم بومبارب - عن استئناف عملياتهم العسكرية بكل حمة .

وعلى ذلك فإن كل ما يستطيع كليبر أن يفعله هو أن يعض قداماً في مفاوضات الصلح التي حاول بومبارب معه بذنها مع الأتراك ، إذا أحاط تصدر الأعظم على رسالة بومبارب ، فيقترح كليبر حينئذ إرجاع مصر إلى الباب العالي بشروط لحصص في « أن يوحد مائتا في مصر مائداً عن السلطان العثماني كما كان الحال سابقاً ، وأن يترك له الميرى الذي كان من حق الباب العالي أن يقسمه في انصاف ، ولو أن اسباب العالي ما كان يحصل من هذا الميرى شيئاً ، وأن يفتح طريق التجارة بين مصر وسوريا ، وأن يبقى المصريون في مصر يحلون مواضعها المحصنة ، ويجمعون الإيرادات عما في ذلك انصرتب الحركة ، وذلك حتى بعد حكومة الإدارة الصبح مع المخترة » ، وقال كليبر إنه يؤدي خدمة كدرة لوطه ، إذا ظهر سعيه ، ولو أنه توقع أن يحول دون تحقيق صلح على هذه الأسس تدخل الإغدير واستخدامهم لإحباط مساعيهم في ذلك ولاشك مما عرفت عن الأتراك أنفسهم من صلف وكبرياء يجعل قولهم هذه لفقر حاب متعديراً ، وقد سوع كليبر قبول مبدأ الحلاء من حاشه كقواعد أساسية لإبرام صلح

مع تركيا بحجر البحرية العربية ذلك أن فرنسا مد أن فقدت بحريتها قد خسرت في رأيك ه القوة المدافعة إلى حرمها من السيطرة على الموضع والتي جعل فقدتها إرام الصلح مع تركيا أفضل الوسائل التي عهد للعرب بين طرفاً شراً (عاصرون به) من مشروع لا يمكن أن يحقق لأشخاص التي دعت إليه « وأرسل كبير مع تقريره بياناً بالأدوات اللازمة مدوية ، ثم ملحقاً باليونان التي عقدتها بونابرت وعدد اسلاد دون أن يسدد شيئاً من^(١) ، ولما كان قد سبقه وصول سفينتيه أمام دمياط في انتظار أسطول القطان بات اصهر في صفا فقد نادر كذلك مكتبة هذه الآراء في ذلك تقريره وقدر كبير عدد الجيش العثماني من خمسة عشر إلى عشرين ألف حدي

وهكذا كان واضحاً أن كبير عندما بحث هذا التقرير إلى حكومة الإدارة كان يعتقد أنه بات من المتعذر على الحملة القاء في مصر طويلاً ، وأنه قد وطد اعزم على الماوضة من أجل الحلاء عنها ، وأراد أن يستند في عزمه هذا على أن الجيش والإدارة قد صعد درجة من سوء الحال والارباك بعض على كل أهل في إمكان الاحتفاظ بالبلاد في وجه العدو المألب عليها من كل جانب ، وذلك بسبب حاجة الجيش إلى الأسلحة والعتاد إلى جانب انهض الباطن في جوانه ، ثم بسبب ضعف وسائل الدفاع في قطية والمرش والمينى ودمياط والاسكندرية . وهي مركز الدفاع الهامة عن مصر

على أن إعداد التقرير بالصورة المقدمة كان معناه أن بونابرت وحده هو المسئول الأول عن إلحاق الحملة إلى تلك الحال البهيمية التي كانت عليها عند سفره . ولذلك فقد اعتر كثير من هذا التقرير بمثابة « اتهام » موجه ضد بونابرت منسبة^(٢) ، وكان من المنتظر لهذا السبب عنه أن يمدد كثيرون إلى لحص الأتوان وتقدير الاعتبارات التي حامت به والتي يرى عليها كبير عزمه على المضي في مفاوضات الصلح من أجل الحلاء عن مصر بكل سرعه ، حتى إذا تبين أنها غير مجدية سقط الاتهام الموجه ضد بونابرت ونحمل كبير وحده مسئولية الرغبة في الجلاء .

ومع أن كبير اهتم في تقريره بإظهار حاجة الجيش إلى الأسلحة والمهمات إلى جانب بيان ما وقع من نقص عظيم في قواته . وذلك فضلاً عن اهتمه بإظهار عور الحملة وحاجتها الملحة إلى المال ، فقد انفق رأى الكثيرين حتى من بين أعضاء كبير والمدافعين عنه على أن تقرير ٢٦ سبتمبر ١٧٩٩ كان يحوى تفصيلات غير صحيحة^(٣)

ذلك أن عدد جيش الحملة عند خروجها إلى مصر في مايو ١٧٩٨ كان يبلغ ٢٩٤٠٢^(١) وقدر (ديجنيت) طبيب الحملة حسارة جيش الشرق إلى ما بعد معركة هليوبوليس وثورة القاهرة الكسة نحو ٨٥٤٢^(٢) ؛ يقابل ذلك اصحاب آلاف الجنود البحرين إلى الجيش بعد كارثة في فراسخريه ثم إنشاء ثلاث فرق من اليونانيين (في أكتوبر ١٧٩٨) عدد كل منها مائة في كل من القاهرة ودمياط ورشيد لحراسة ٥ عربات المدد ٥ في الطريق^(٣) أي أن الجيش كان يبلغ عدد رجال بومارت حوالي اثنين وعشرين ألف رجل^(٤) ؛ وفصلاً عن ذلك فقد أعد دوجيرو Duguereau رئيس زكاز حرب المدفعية إحصائية في أول سبتمبر ١٧٩٩ جاء فيها أن عدد مدافع الجيش تبلغ ١٦٦ بينها واحد في الحصون ٢٣٧ مدفعاً ، أما عدد القناصل أو الخيل فمدفع ٣٣٨٧٤٦ وبلغ عدد صفات الساق لدى الشاة ٧٨٨٩٣١ و٧٨٨٩٣١ حرسه ؛ ويهول الحرس دماس Damas إنه كان بالأسكندرية وحدها ٦١ مدفع حصار من انطار اندرسى و ٨٨ مدفعاً من طراز أحسن عدد ١٨ مدفع ميدان و ٤٨ مدفعاً من غير قادتها^(٥)

وبدل البحث من ناحية أخرى على أن كبير كان محققاً للدرحة ما في شكواه من قلة المال وحاجه الحملة المستمرة إليه على الرغم من الامرات والأبواب التي فرضها وجمعها بومارت والمبالغ التي استدانها ، حتى أن دوجيرو في القاهرة مالت حق شكاً من قلة المال في أثناء الحرب انشاميه ، وطهق يؤكد حاجه الحاجة إليه دائماً^(٦) فقد مع استمر من رواتب الجيش وانعزله حتى أواخر شهر أغسطس ١٧٩٩ حوالي ٧٩٥٠٠٠ فرنكا ولم يكن من المنتظر بحصيل ما يكفي من الضرائب والامرات المالية وما إليها لتدفعات الحملة لأسباب عدة ، لعل أهمها أن مياه الفيضان في عام ١٧٩٩ لم يضر جميع الأراضي الزراعية وذلك بين بلعت رواتب الجيش ٣٠٠٠٠٠ ر ١٣٠٠٠٠ ريك في الشهر الواحد^(٧) وبعد الديون التي تركها بومارت ١٦٣١٥٣٥٢ ر ١١٣٠٠٠٠^(٨)

Jonquière I 355-9 (١)

Desgenettes I. 177 (٢)

Corresp. No. 3542 (٣)

Rigault 14 (٤)

Ibid 14 (٥)

Guttry 316 (٦)

Rigault 15 (٧)

Gall 234 (٨)

فرنكا. ومع ذلك فقد اعتقد كثيرون أن هذه الأرملة المالية لم تصل إلى درجة من الخطورة، بحسب اعتقاد الحملة الجديد أن عملاً تقريره بمعالطات أو مراعى غير صحيحة، فضلاً عن أن هذه الأرملة لم تكن كافية في نظرها لأفاعة ضرورة الخلاء عن مصر بكل سرعة (١).

ووصل تقرير كبير إلى باريس في ١٢ يار ١٨٠٠، كما وصلت في الوقت نفسه تقارير عدة بشأنها (دور) Deure مدير المهام، و (استيف) Estève مدير الخزانة وكذلك طائفة من اعداء ورؤساء المدفعية وانشاة والفرسان وآخرون غيرهم، استطاع بونابرت الفصل الأول أن يعتمد عليهم في تنفيذ مآخذه في تقرير كبير من مزاعم، فكان مما ذكره بونابرت أن أعداء في مصر لم يكن يعلم أن الصدر الأعظم عندما بعث إليه بونابرت رسالته كان قد عادر انعطافية، وعلاوة على ذلك فقد كان الصدر الأعظم في أرمينيا العليا في نهاية شهر أغسطس ١٧٩٩ وعندما كنت كبير تقريره أي في أواخر ستمبر كان الصدر في أطوروس وليس في دمشق أو في حلب (٢)؛ وناقش بونابرت قول كبير عن نقص قوات الحملة وحاجة الجيش إلى الأسلحة والبلاس وما إلى ذلك فقد ذكر مسبقاً إلى ماخاه في تقارير دور واستيف وغيرهم أن الجيش في شهر سبتمبر ١٧٩٩ كان يبلغ ٢٨٥٠٠ ولديه عدد الكافي من الأسلحة والبلاس. ثم سأل مسألة حاجة الحملة لذلك فقال إن ابرتات كانت تدفع للحدود من عدة طوطة، ولا ريد التناحرات على ١٥٠.٠٠٠ فرنك، وبأن هذه كانت من زمن بعيد، وفضلاً عن ذلك فمن المنظر حسنها في تقرير (استيف) أن تحصل الخزانة ستة عشر مليوناً من الفرنكات؛ وأعرض بونابرت كذلك على قول كبير أن مصر على الرغم من هبوطها الظاهر كانت لا تعصم للمصريين، فكتب أن «مهلك الشعب في أثناء الحرب السورية كان لا يدع محالاً للشك في أنهم يميلون إلى المصريين، وعلاوة على ذلك فإنه لا يحب أن يخشى الأسان شيئاً من حرب المماليك لصعب البسكواب إبراهيم ومراد ومخبرهم عن الهجوم أو المقاومة كما أنه كان لا يوجد في سوريا في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٩ رجل واحد من جيش الصدر الأعظم، بل إن الخراز ناشأ قد سحب حده من عرة إلى عكا، فأصبح لا يوجد في غزة سوى أربعةة لحسب من مماليك إبراهيم بك (٣)؛

Berthier, op. cit. 202-4 (١)

Ibid 205 (٢)

Ibid 206-211 (٣)

وعلى بونارت غاية خاصة مدفع ذلك « الاتهام » الذي وجهه إليه كبير عندما ذكر في تقريره أن بونارت قد عذر مصر وهو يعلم بوجود « أزمة خطيره » ويشعر باقتراب هذه الأزمة ، حتى أنه على حد قول كبير — طالب حتى أشار عليه في تعليماته بأن يقدم صلحا مع الأتراك على أساس إخلاء عن مصر في الظروف التي أوضحها بونارت له في تعليمه فقال بونارت : إن هذه الأزمة الخطيره كانت لا توجد إلا في محيلة كبير نفسه ، ثم في محيلة أولئك منكري القدي أرادوا استشارة كبير وحمله على ترك مصر ومعادرتها ، ذلك أن بونارت الذي بدأ المفاوضات مع القسطنطينية عدة وصوله إلى الإمبراطورية ثم استماعها وهو في - سوريا ما كان - من وراء ذلك إلا تحقيق أغراض معينة ، منها منع إنباب العالي من إسلاق الحرب وصرفه عن قس قمرسيين ، أو على الأقل كسر حده - وحيا - بوضع بطريق الرسل القريسيين والأتراك لخدمته في هذه المفاوضات الوقوف على أخبار الحوادث في أوروبا ذاتها ، وأما ذلك لأزمة الخطيره التي تحدث عنها كبير فإنه لم يكن هناك قط ما يدعو بوجوده ، لأن الجيش الروسي الذي قبل عنه به براط في الدرديل لم يكن إلا وهما وحيدا ، وكذلك الحال فيما يتعلق بذلك الجيش الإمبري الذي احتار تضيق ، كما أن الصدر الأعظم سرعان ما اصطدم مع الحرارة ناشب عبيرة الحرارة انشديدة ، فصف إلى ذلك كله أن جيش الصدر لا يريد على حمة آلاف الحب ، وفي وسع الصدر إذا شاء أن يجمع في آسيا أربعين أو خمسين ألفا من الرجال غير أن هؤلاء سيكونون كما يبدو من الرجال الذين لم يشهدوا قتالا قط قبل ذلك ولا يمكن أن يطلع هذا الجيش قوة القنايين الذين قاتلوا في معركة حمل طاور ، فالخطر المتوقع من جانب صدر الأعظم وحيشه لا يستند إلى أي أساس والحقيقة « أن مصر لا يهددها خطر ما إلا من جانب أصحاب الفكر السيء والروح الخبيثة من رجال أركان الحرب قمرسيين أنفسهم » . ثم استقل بونارت من ذلك إلى ذكر الأسباب التي دعت إلى إحصاره عقد الصلح فقال إنها كانت خوفا من انتشار الوباء في عام ١٨٠٠ وهلاك عدد عظيم من جد الحلة - ورعنه كذلك وبعد أن قضى الوباء في العام السابق على سببائه جدي قمرسا ، أن يخفف من عبء المسئولية المتقاة على عاتق خلفه في القيادة ، فأجبره عقد الصلح دائما على تربيته أن يضل في مصر حتى يتم عقد الصلح العام في أوروبا - ومع ذلك فلم يحدث ما يعصى بعيد هذا الجرح من التعليمات لأن كبير كتب تقريره في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٩ وكان لا يزال أمامه منقح من الوقت حتى شهر مايو سنة ١٨٠٠ ولما عقد الصلح مع الباب العالي ومن المحتمل على حد قول بونارت أن تكون قد وصلت إلى كبير في أثناء هذه المدة الطويلة أحبار من

فرنسا^(١) وقد دافع بونابرت بعد ذلك عن حالة التخصيص في المريش والإسكندرية كما حدث عن أهمية انتصاره في معركة أبي قير البرية ثم احتتم « لتديقانه » على تقرير كلير بقوله « إن رسالة كلير تظهر مقدار الفارق الذي أسولى على هذا القائد ، كما أنها زخر بالمزاعم الباطلة^(٢) » .

وسواء أكان كار يستند إلى أساس قوية في طلب للمفاوضة مع الباب العالي من أجل الحلاء عن مصر أم كان بونابرت عفا في دعواه أن انوقف في مصر في شهر سبتمبر وفي لشور العيلة التالية لم يكن يسوع عهد الصلح مع العثمانيين على أساس الحلاء عن مصر ، فمن الواضح أن كلير ودباب يستند اعتقاداً صحيحاً أن الحملة قد ساء حالها لدرجة خطيرة ، حتى أنه إذا سبب أن عقد الصلح أمر مستعجل ، فلن من نتائج الدخول في المفاوضات مع الأتراك منع هؤلاء من الزحف على مصر ، ثم كسب الوقت حتى تصله الوحدات اللازمة من ماب وسلاح من فرنسا . وريادة على ذلك فقد اعتقد كلير أنه يسلكه هذا الطريق إنما بعد حوهر التمهيد التي تركها بونابرت له^(٣) ، ولا مراة في أن فتح باب المفاوضات مع الصدر الأعظم كان متمثل تلك الخطوة التي خطتها بونابرت من قبل عندما بعث برسائله إلى الصدر الأعظم في ١٧ أغسطس ١٧٩٩ وقد استحث فيها بونابرت الصدر الأعظم على ضرورة المفاوضات في مصر وفرنسا معاً لتقوية جميع المسائل التي كانت مثار النزاع بين الدولتين ، والتي كانت تسبب لا تسطيع جهداً يستمر . كما قال بونابرت - أكثر من ساعتين^(٤) ذلك أن هذه « الخطوة » السياسية كانت تقضي الدخول في المفاوضات مباشرة مع العثمانيين لعقد صلح مفرد مع تركيا يمكن بفضل أربع ركبا من المهانة الدولية الثانية صد فرنسا من جهة ، وبقاء فرنسا في مصر من جهة أخرى أو على الأقل الاتفاق على هدنة مع العثمانيين تحول دون استمرار الأعمال العسكرية فترة من الزمن لا تحصل المحترقة في أنشائها على أية معاونة من العثمانيين في أثناء صالها صد فرنسا ، فصلا عن أن هذه الهدنة سوف تتيح الفرصة للفرنسيين لاستئناف القتال بكل همة إذا وصلهم الوحدات

(١) Berthier, 212-4

(٢) Ibid, 219

(٣) Pièces Officielles, op. cit, III

(٤) Corresp. No. 4364. Corresp. inédite II 445-9

في مصر أو العمل على إنهاء مفاوضات الصلح يحتاج إذا تبين أنه من التلذذ إرسال هذه التلذذات إلى جيش الشرق (١).

مفاوضات الصلح وانفاق العرش

وعلى ذلك فقد يادر كبير بالكتابة إلى يوسف حسانا باشا الصدر الأعظم في ١٧ سبتمبر ١٧٩٩ (٢) بقي رغبة فرنسا في إبرام مصر من تركي ويدكر أن سبب إرسال الخلية إلى هذه البلاد إنما كان محاولة لإبقاء العرب في قلوب الأتراك وسيدد في ملكهم في الهدد وإرغامهم بإرغام على قبول الصلح مع فرنسا اتصالاً عن الانتقام من طرد نابليون من أدي على أيدي المليك وعلم من مصر من سيطره لسكوات وإرجاعها إلى تركيا ثم طلب كبير من الصدر أن يقدم لاده عقد الصلح مع فرنسا حتى إذا ارتضى الصدر أن يرسل مبعوضاً إلى كافر فويل هذه المفاوضة كل رجب . وفي أوائل أكتوبر ومن محمد رشدي فمدى رسول الصدر الأعظم عمل رداً (٣) على كتاب بونابرت السابق (في ١٧ أغسطس) وكان كتاباً — على حد قول كبير — يدل على « الكبرياء ومعرفة الغيرة من الإهانة المذمومة » ولكن كبير سرعان ما تعلب على عصبه وكسب إلى مدو في ١١ أكتوبر حتى تحصل أمة سفيرة أوروبية قد تكون أمام الاسكندرية حية الدخول في مفاوضات مع الأتراك أو الروسين على أمل أن تحرك هذه الأحداث عبره لأترك فيصبحون أكثر ميلاً لله مع الفرنسيين اتصالاً عن إتاحة الفرصة لملك ابوف دنم إذا أصر كبير على عدم إغلاق باب المفاوضة (٤) ومع أن كافر لم يتطعم كسح جماع هذه في اليوم الذي عندما قابل محمد رشدي فمدى رسول البغايا الذي حمل إليه كتاب الصدر وذلك بحضور مصطفى باشا القائد العام الذي أسره الفرنسيون في معركة أبي قير البرية وحضور بوسلج (٥) فقد أمكنه أن يستطاع التفاوض على أرادها للصلح مع تركي . وكانت هذه المفاوضة (أولاً) في حاله الفرنسيين عن مصر وعقد معاهدة دفاعية هجومية بين فرنسا وتركيا يطلب إلى آخره الاتصاف إليها ، وذلك حتى يمكن الدول المتحالفة من الدفاع عن كيانات الإمبراطورية

Charles Roux. L'Angleterre II 6: Roussseau 45 (Note 1) (١)

Pajol 352 4. Roussseau 45 — 9 (٢)

Pajol 370 — 2 (٣)

Ibid, 372 (٤)

Rigault 48 (٥)

التي أتت من روسيا وقد طلب كثير أن يظل هذه المفاوضات المتعلقة بمسألة الخلاء
والحالفة سراً مكنوماً عن روسيا (وثباتاً) فإنه لم كان اشتراك مخترة في مخالفة
صورتها للدفاع عن ترك فعدت بعد الصلح أولاً بين فرنسا ومخترة أمر لا مصلح منه
ولا يحيد عنه تحقيق هذه المسألة. وأخيراً فقد عيّنك كثير بعدم الخلاء عن مصر حتى
تم بعد الصلح بين فرنسا والمخترة على أن كليهما قد وافق حتى يتم الدليل على رغبة
الفرنسيين في إخراج هذه البلاد خادمة في وجود شواهد تشهد لسلطانها في
في مصر من تاريخ التوقيع على الاتفاق. ووجه أن كثير كان يهدف من هذه
الغرض هو إقناع المصدر الأعظم أن روسيا هي التي كانت الدولة المتأثرة وأن مو
مصلحته التي أنفسهم أن يفة موا الإقليم ذلك، وأن هموا في دعم الحالة منتطرة
اصوره تخلفها ذات أثر في أي شأن قد نشب مع روسيا، والحالولة دون توسع
هذه الدولة على حساب تركيا أو أنه قد اتسا على دسهم بمساكنات بينهما في
بينهما. وفتح كل من محمد رشدي قدي ومصطفى باشا أن هذه المواقف التي
استلها كثير، كانت حكيمة وعادلة. وكان من رأيهما أن يمدونه مع الأخير ووجه
كثير يعطاه كل مساعدة للفرنسيين، إذ اوقف الروس على « سر » هذه المفاوضات
وشواهم مفاوضات على تركيا، كما وافق محمد رشدي قدي ومصطفى باشا على أن
الذين لا يستحقون سوى التماثل التي عماله بها العربون، وأظهرا استعداداً
لدى لطرد المالك من مصر نهائيًا، وحكم هذه البلاد بالحرية التي يحكمها
الفرنسيون أنفسهم (١).

وبعد مرور عشرة أيام من هذه المحادثات، بعثت طاعة كثير رد المصدر الأعظم
في رسالته التي بعث بها إليه في ١٧ مارس، وكان رد المصدر لا يحمل أي أمل في مكان
ابوصون إلى اتفاق عديم الفوائد في « معاوضة » إلا على أساس حلال،
الفرنسيين عن مصر دون قيد أو شرط (٢) وكلف كثير مصطفى باشا وكان « صدقاً
للفرنسيين » والواسطة التي استخدمها وقد كل من كثير والمصدر الأعظم في إرساء
رؤيتهما (٣) — أن يكتب إلى المصدر من محادثات لأخيرة وأحال كثير المصدر
إلى خطاب مصطفى باشا (٤) ثم سمحت امصرة أمير المصوحات بعد ذلك سيراً حياً

(١) (Le procès verbal de la conférence . . .) Pajol 374 6

(٢) Rigault 48 et (Note 3)

(٣) Testa II No. LXXIII. 1 — 2

(٤) Pajol 377 — 8

عند ما قرر السير سدي سميت الدحل في المفاوضات الدائرة بين الأتراك والعربانيين .
 ذلك أن لفسر الذي اعتبر آ كبراً بالغة الخدمة بين تركيا وروسيا وانتهى
 كان يثق ثقة عظيمة بسير سدي سميت الذي حضر مفاوضات القسطنطينية في مرحلتها
 الأخيرة (١) . فادر الآن ناطلغ السير سدي في رسائل نوناوت وكليز إليه ثم
 ردوده عليها (٢) . وفسر السير سدي الفرصة فكتب إلى كليم في ٢٦ أكتوبر
 عام ١٧٩٩ (٣) يقول إنه من يتعدى أن يعمل الأتراك « مفردس » الصلح أو الهدنة
 ما دامت معاهدة لتدفع لهم ويتم وين الاغلي في ٥ يناير ١٧٩٩ قائمة . واصل
 عن ذلك فيه ما كان في وضع عربانيين أن يستحووا من هذه البلاد دون موافقة
 ريط ما أو عمها ، لأن الاغلي هو أصحاب السيطرة في البحر الأبيض . وحتى سدي سميت
 أن يظن العربيون أنه بما رد استجابه من مصر حوفا منه على المصالح الاغلية في
 الهدف كد روال كل خطر على الهدنة من قبل العربانيين في مصر ، لأن الاغلي استعدوا
 الهبة على تنو صاحب في معارضة بر - ما و ١٧٩٩ وقد قسمت شركة الهند التجارية
 أملاكة الواسعة مع أعزته (٤) بل إن الاغلي بما أرادوا بحلاء مصر من العربانيين
 لأهم يهدوا المحافظة على كيان الأمر بصورة أمينة ، ولا عزمه في أن يروح
 العربانيين من مصر سوف يسهل على عقد السلام في أوروبا . ورجح كليم تدخلي
 سدي سميت في المفاوضة لاعتق ذلك مع زعمته أي أدها في أثناء المفاوضة مع محمد
 رشدي أفندي ولاءه . بأن هذه له وصاف « من المحتمل أن تصبح مقدمة بعد
 السلام العام » أي ذلك سلام الذي لا يشك كليم في أن سدي سميت إن عزمه
 الرعي في عزمه ، ولو أن ارعة في المصالح لا يعني أن موقف اجلة في مصر كان صعباً
 وأن جيش الشرق لا يمكنه دفع هجوم أعداء مصر فقد تحدث كليم عن نجاح اجلة
 في سيطرة على الموقف في مصر وقوة لخصمها في أشأه جيش الشرق فما
 ووفرة استعدادات هذا الجيش وكثرة رحله . وواصل أن عرض كليم موقف مصر
 اجلة في مصر بصورة يحجب عما جاء في تقريره من حكومة الإدارة بما كان واسع
 له وصفي الاخير والأترك بأن التحول في هذه المفاوضة ما كان لرعة رحان الجلة
 وجودها في الخروج من مصر مهما كلفهم ذلك من ثمن والعودة السريعة إلى أرض

Barrow I 381 (١)

Pièces Officielles 175 (٢)

Pièces Diverses 347 - 50. Ibid 175 8 (٣)

Charles-Roux. L'Angleterre I 260 - 1 (٤)

الوطن^(١) وأخيراً ناشد كبير السير سدي سميت أن يعاون معه لوقف القتال بين
الإنجليز والفرنسيين، كما ذكر له أنه كتب إلى الصدر الأعظم حتى يوقف مدونين
لإجراء المفاوضة في أي مكان يختاره الصدر، وذلك مع احترام دياره وتوسيع مدير
الشئون الدابة اللذين أحارهما كبير لهذه الغاية. ولو أن كبير يتعدى أن يحرق
المفاوضة على ظهر إحدى سفن سير سدي سميت

وإذا كان الصدر الأعظم مصراً على صروره جلاء الفرنسيين كخطوة لا مفر من
اتخاذها قبل الدخول في مفاوضات الصلح، فقد حرص كبير في رسالة إلى سدي سميت
على توضيح هذه المسألة وإقناع سير سدي بأن إخلاء لا يمكن أن يتم إلا كبادرة
من سائح المفاوضة وعند منحها. كما أنه حاول في الوقت نفسه إقناع الصدر الأعظم
بذلك فأرسل إليه في ٨ نوفمبر^(٢) كتابين: «دعني بينه وبين سير سدي»، كما اقترح
على الصدر إرسال شخصين للمفاوضة، وقوى أمل كبير في نجاح محاولته عندما وصله في
اليوم التالي كتاب من الصدر الأعظم رداً على رسالته السابقة كان حائلاً من الكبرياء
والعزفة، وأسلوب في غاية من الأدب والاضعة «وأن يوسف صيا كان
لا راس مصر على عدم الدخول في مفاوضات من أجل عقد الصلح أو الاتفاق على هدنة
مع الفرنسيين طامحاً بقي هؤلاء في مصر^(٣)». وكان من أسوأ دعاوى كبير، انتصار
حيث الشرف على حملة غنائية صغيرة عبده سيد على بك رليه عبد دمياط وأعدت
مواجهتها على مصابيل فرسان البحر. وذلك لإزعاج الفرنسيين على الدواع من
الشواطئ المصرية الشمالية، حتى يتمكن الصدر الأعظم من ذلك من انزعاج جيشه
على الحدود الشرقية^(٤) بهمهم الخيال فردسه Viceroy وأمر بهم حصاره كبيره
وأمر قائدهم^(٥). وكتب السير سدي إلى راقب الحملة على ظهر لارجه (بيجو)
في ٨ نوفمبر يقول معقفاً على هذه الحركة إن الفرنسيين لابد وأن يكونوا قد عمدوا هم
كذلك حصار كبير من أثرها في إضعافهم ولا شك أن الاشتراك مع جيش عظيم بعدد
وإن كان غير نظمي، ولا يمان منه فقد يضمن قوائمه شت، وسوف يكلههم تماماً في
لبنة مهمها أحرروا من انتصارات صدره. وبعد سير سدي آملاً كبيره على إمكان

Ibid. II 25 (١)

Rousseau 105 6 Pajol 382 Berthier, op. cit. 386 - 7 (١)

Pajol 382 - 4 (٢)

Barrow I 377 (٣)

Pièces Diverses 243 - 5 (٤)

استقالة الفرنسيين للاتفاق على إخلاء مصر دون سعة دعاء أخرى إذا هو أفلح في إقناعهم لصدق هذه الحقيقة^(١).

غير أن السير سدي لم يكن في حاجة لمحاولة إقناع الفرنسيين لصدق هذا الرأي وحججه ، لأن كبيرهم كان لا يخل عنه رغبة في عقد الصلح ، حتى أنه حتى من أن يعتقد الأتراك أنه قد مات لا رعب في المفاوضة بعد انتصار مردييه في دمياط مما أدى إلى يوسف صبا في ١٠ نوفمبر^(٢) يؤكد له رغبته في المفاوضة ، ويطلب إليه أن يرسل عن رأيه الذي تمك به طويلا لأن إخلاء مصر لابد أن يسبقه مفاوضة من أحد الاتفاقي على تعييده . وأمام هذه الرغبة الصادقة في المفاوضة والاتفاق من جانب كبير وما كان الفرنسيون قد هزموا الأتراك في دمياط وبرهن حينئذ الشقاق بذلك على قدرته على المقاومة^(٣) ، وكان السير سدي شديد الرغبة كذلك في الاتفاق ، فقد تمادى العوامل التي جعلت في النهاية البدء في مفاوضات الصلح ممكنا واستعد السير سدي للرحيل إلى المياه المصرية ، وعند أخبار دبريه ووصول بختيل الحلب الفرنسي في هذه المفاوضة اختيارا موهبا^(٤).

ووجد كبير لزاما عليه وقد تم الإتيان على بدء المفاوضات ، أن عبر حكومة الإدارة بمحدث . فمادر لهذه النيابة المواطن ماراس من أقرباء ماراس عضو حكومة الإدارة الإسكندرية في ٣ نوفمبر ١٧٩٩ بعمل رسائل عدة إلى باريس تشرح حقيقة الموقف في مصر . ثم توعد في ٢٤ نوفمبر (حروسير) Grosbert من صراط المدفعية رسائل أخرى مع صور من الأوراق التي حملها ماراس^(٥) وفي ٧ ديسمبر أصدر كبير تعليماته الأولى مدوية ، دبريه ووصول ، وذهب كلاهما لمقابلة السير سدي بحيث على ظهر مارسته (تيجر) ختمها هذا في ٢٥ ديسمبر إلى باقا لمقابلة الصدر الأعظم من أجل الاتفاق على الهدنة واختيار مكان المفاوضة . ولكن الصدر الذي أكل استعدادات الترو وبدأ عملياته العسكرية ، كان قد وصل إلى العرش مد ٢٢ ديسمبر وشرع في تصديق الحصار عليها . وعلى ذلك وقد انتقل المفاوضان الفرنسيان إلى المعسكر العثماني في العريش^(٦).

Barrow I. 379 (١)

Pajol 384 — 6 Rousseau 109 10: Berthier 294 6 (٢)

Charles-Roux; op. cit. II 26 (٣)

Pièces Officielles. 205 6 (Lettre De .. Sidney Smith) (٤)

Au Kléber, à Jaffa 8 Nov 1799)

Rousseau 124 — 5 (٥)

Pajol 394 — 5, 400, 406, 408 9, 415, Rigault 57, 59 (٦)

وكانت التبعيات التي أصدرها كبير لدوييه في ٧ ديسمبر تعلبات معصلة^(١) طلب فيها وقف القصاص في أثناء المفاوضة ، كما أنه وافق على إخلاء مصر ، ولو أنه اشترط لذلك إعلان المحامه الثلاثيه (من ريكيا واختره وروسب) صدر رسا ، وإخلاء حرر كرفو ورائق وسيفالونيا وعودها إلى فرنسا . وكان الضحايا قد احتلوا هذه الحرر عندما عرا الفرنسيون مصر ، وبما كان إخلاء مصر جود هائده كبيرة على اختره فقد أراد كبير أن تعطى هذه الدوله إلى جانب ريكيا صبا سقاء حرر في ماطة وهورو GUZZO في حوره فرنسا ، واشملت التبعيات على تمصيلات أخرى خاصة بالاندى المرمع عقده لعل أهمها ما يتعلق بالاهنام ، الأمر الأهمالي الذي ساعدوا الفرنسيين وخدموهم في مصر وتاميمهم على حياتهم وأموالهم ، وقد أحسم كبير هذه التبعيات بقوله ، إذا تمسك العدو بضرورة إخلاء عن مصر من غير قيد أو شرط فتبيحه لتطور الحوادث في أوروبا بصورة تعرض الحدود الفرنسية للغزو ، ووقعت في يد العدو المراكز الفرنسية الهامة أو كانت هذه ممددة سجونهم عليها ، فلو أحب يقتضى المفاوضين الفرنسيين عندئذ أن يعسا عدم موافقة القائد العام على إخلاء كالندي يتمسك به العدو ، إلا إذا وصلت كبير أوامر مكتوبة من حكومته

فدارت من ثم مفاوضات طويلة أعرضها صعوبات عدة مدشوها مطالبة كبير بإحلال الهدنة الدوليه الثابته وإعادة حرر الأنوبيان (كرفو ، رائق ، سيفالونيا) إلى فرنسا ، كما رفض سدى سميت إعطاء صهان جديد من جانب اختره للمتمسكات الامبراطورية النمليه ، أو رول جيش الحلة عند العوده في غير الموانى الفرنسية^(٢) . وتمسك المفاوضان الفرنسيان بمطالبهما ولكن دون نتيجة ، ثم انقلب المفاوضات إلى العريش في الأسبوع الأول من شهر يناير ١٨٠٠ في معسكر الصدر الأعظم ، وكان الضحايا قد اسنولوا على قلعة العريش منذ ٣٠ ديسمبر ونحت سدى سميت مع يوسف صبا الشروط التي عرضها الفرنسيون للصلح ، وقر الرأي على رفضها ، وسلم السير سدى إلى المفاوضين الفرنسيين في ٨ يار مذكرة بالمواد التي تم الاتفاق عليها بينه وبين الصدر الأعظم^(٣) . وكتب إلى كبير في اليوم التالي يطلب منه إعطاء معاوسيه تبعيات جديدة كما قال : « إنه لا يساوم في هذه المسألة ، وليس في غرضه أن يرحو حروح

(١) Pajol 401 — 5; Rousseau 135 — 9

(٢) Pièces Officielles 221, 224 — 6, Pièces Diverses 382 3.

Rigault 57

(٣) Pièces Officielles 231 — 3; 241—2

الجيش العرسى من مصر فبيان لديه لقاء هذا الجيش وحروجه وبوأن هذا الجيش سوف يفقده كل قدرة على العمل فى أفريقيا أو آسيا بسبب تصاعد العوامل المكافحة هذه من كل جانب بينما يجمع حروجه سعة الهباء دون جدوى^(١).

غير أن كبير مل وصول كتاب السير سدى حيث كان قد بحث تعليقات جديدة إلى دريه ونوسيلج تارل فيها عن أكثر تلك الشروط التى فيها صوله احتلاء فى تسياته السابقة. والنسب فى ذلك أن كبير على الرغم من انصار فريديه فى دماغ كان لا يزال مفتعنا سوء حال الخلة، بل ويتوقع زياده هذه احوال سوءا كلما طال بها المقام فى مصر دون وصول أية عذاب إليها من فرنسا، حتى أنه كتب مد ٣ ديسمبر ١٧٩٩ إلى حكومة الإدارة يحمل إليها أسماء قنول الصدر الأعظم للمفاوضة وقبول إياه لا يستطيع الاشتراك مع العدو فى الحركة الثقيلة إذا طل لانفصله الوحدات البرية ويخشى من أن يرغمه العدو على تبادل حصوصا فى الحدود السورية^(٢) ثم راد اصاع كبير بضرورة عقد ا صلح مع الفرنسيين عندما ترسل إليه در ٩ وبوسيلج «الأحدر» إلى وود عليها من امير سدى. وكلها تدل على خطوره موقف الجمهورية فى أوروبا بسبب الحصار الذى فرضه الإبحار على ماطة وعلى الأسطول العرسى فى ميناء رست وامهرام اعر سدى وأحلاتهم فى هرسده وتسلم الأسطول لهولدى دون مال، وإعلان روسيا واناب العلى الحرب على أسبابا جديدة الجمهورية، ومحاصرة لروس لجوه^(٣) ثم لم يمر أيام فسفه على إرسال هذه الأخبار إلى كبير حتى ماذر المفاوضان الفرنسيان إرسال أخرى تصل بأساء أوروبا إلى يوم ١٠ أكتوبر ١٧٩٩ وقد تؤكد لدى كبير فصلها أن الفرنسيين قد قعدوا إيطاليا وحلب بهم الهراثم فى ميادس عدة أخرى، وأن الثورة قد اندلع لهاها من حديد فى مديه وأن الوطن فى خطر^(٤) وعلى ذلك فقد أرسل كبير إلى مفاوصيه تعليقات جديدة فى ٣ يناير ١٨٠٠ بل عفتهاها عن مطاله السابعة مكتنيا بمطالبة الباب العالي لقاء الخلاه عن مصر بالترام الجديد فى أثناء الحرب، وأن يصبح لجيش الشرق عند عودته بإصلاحه ودحارته وعنده إلى فرنسا الحق فى أن يقوم بحصيه من العمليات العسكرية «صدأى إسان وفى أى مكار»

Ibid. 226 — 8 (١)

Pajol 396 — 7 (٢)

Berthier 317 — 8 (٣)

Pièces Officielles 220 - 2; Pajol 417 (٤)

وروى كبير تسليم قلعة العريش صباحا للمعاهدة^(١) وكان كبير عندما بحث هذه التبعيات لا يزال يعمل سقوط قلعة العريش في قبضة العثمانيين . ولكن سرعان ما وصلت الأخبار في اليوم التالي (٤ يناير) عن سقوط هذه القلعة كما وقف على تصيلات هامة رادته أقنعا بضرورة إتمام الصلح بكل سرعة . فقد رحب الصدر الأعظم على العريش بدعوى أنه لا يستطيع انتظار المعاوضة في وقت لم يكن صدوبا كبير قد انصلا بعد بالسير سدى حيث على طهر نارحت (تاجر)^(٢) وحاول كبير أن يصل إلى عقد هدنة مع العثمانيين ولكن دون جدوى^(٣) فقد ظل هؤلاء يحاصرون العريش وأصلوا قنصها نارا حامية حتى استولوا عليها في ٣٠ ديسمبر ، وأوقفوا بالعريش مدعجة كبيرة . وكان كما آلم كبير وقتئذ مصعبه أن سب سقوط قلعة العريش كان مرده إلى عصيان حاميتها فقد طلب حوائى ثمانين من رجال الحامية إلى قائدهم كيرال Cazals تسليم القلعة إلى العدو ومع أن الحمال استطاع تهدئة النفوس ووطد العزم على الاستمرار في المقاومة حتى أواسط يناير وهو الوقت الذى انتظر فيه ، عاد دجيره فقد سدد العدو الصرب وأمر كيرال فرافا من الحامية بالخروج للالتحام مع العدو ولكن أحدا لم طع هذا الأمر سوى ثلاثة فقط ثم علا صياح الحدود يطلون التسليم وأنطلقوا بإطلاق النار وترعوا بدعوى العثمانيين لاقحام أسوار القلعة فسلق هؤلاء الأسوار وشددوا المحوم على القلعة وعندئذ لم ر كيرال مامسا من التسليم غير أن هذا التسليم لم يمنع الأتراك من الانقاع رجال الحامية فقصوا عليهم في مدعجة مروعة ، وعظمت الكارثة عندما انفجر مخزن البارود فكانت خسائر الفرنسيين حسمه^(٤) . وما أن سمعت كبار هذه اتصيلات حتى أرسل ينيه دريه وبوسياح سقوط العريش ويطلب منها إنهاء المعاوضة بسرعة ، كما كتب إليهما في اليوم التالي (٥ يناير) ، ومع في العريش « ذلك الحادث الذى لا يشك في أنها وقعا على حقيقته ، ولم يتأوفا في الاحتجاج لدى الصدر الأعظم على حدوثه^(٥) » ومع ذلك فإن عصيان حامية العريش لم يكن الأول

(١) Rousseau 175 - 7° Berthier 324 - 6; Pajol 416 - 7

Pièces Officielles 230 - 1

Pièce. Offic 212 - 14 (٢)

Pajol 404; Ibid. 206 - 7 (٣)

Pièces Diverses 249 - 52, Bouchard 64 et sqq (Rapport (٤)
du Citoyen Feray ...)

Pajol 418 - 9 (٥)

من نوعه ، فقد تمرد الجنود في عربة الريح (العربة من دمياط) في ٢٢ نوفمبر ،
وفي ١٧ ديسمبر كتب الجنرال لا بوس عن عصيان فريق من حامية الاسكندرية
كذلك^(١) بل إن تمرد حامية العرش كان يجري إلى سريان روح التمرد من حاميات
الاسكندرية ودمياط ، ومن دمياط على وجه الخصوص لسبب دحل طائفة من حدود
حاميتها المنتمين إلى العرش^(٢) . أضعب إلى هذا كله أن القاهرة ذاتها كانت لا تخلو
من التمرد ، حتى أصبحت سجون القلعة - كما كتب كليبر نفسه إلى دوحا - وكراً
حديثاً للمتمردين يحبكون فيه حيوط مؤامراتهم وصددون فيه كل يوم وريقات
محسوس لها الجنود في مختلف الفرق على الثورة ولصوص^(٣) . وعلى ذلك فقد نادر
كليبر في ٧ يناير ١٨٠٠ بإرسال تعليمات جديدة إلى دريه وبوسيلج ولر وصلها عن
كل الشروط التي ذكرها في تمرد ٢٦ سبتمبر إلى حكومة الإدارة أو تمسحها تعليماته
الساقطة ، وأراد أن يبدد بها الخلاء أو يكسب عاقبة تثيره من مناقشات مع المعاوين
الأثرات بعض الوقت . فصحت تعليمات ٧ يناير^(٤) على ضرورة العناية بأمور ثلاثة لحسب
هي عدم دخول الجيوش النائية إلى مصر إلا بعد وصول السفن المعدة لنقل الخيلة وهي
السفن التي تحب على الصدر الأعظم أن يعمم بإعدادها وروادها بأنواع ، ثم طلب
تسليم عدد من الرهائن إلى حاسب إعطاء تعهدات أخرى حتى يضمن بذلك ملاحظة
مبدأ المعاهدة والحكمة التي تنصها ملاحظة دقيقة ، وأخيراً عدم فرض أية قيود محد من
حق جيش الخيلة في العمل ضد أعداء الوطن جميعهم عند عودة الجيش إلى فرنسا .

وما كان كليبر قد صبح غرمة على السير فدما في المعاوضة فقد كتب إلى الصدر الأعظم
في يومى ٧ و ١٠ يناير ١٨٠٠ يطلب إليه أن يرسل إلى الصالحية مدونين عشائين
للمعاوضة معه مباشرة^(٥) . وكان نزول كليبر عن شروطه السابقة يمينه محدوت تحول
جوهرى في موقعه من مسألة الجلاء ، إطلاقاً ، ولأريب في أن كليبر قد أدرك ما يبطوى
عليه هذا التحول من خطوره كبيرة ، ذلك أنه مالت حتى كتب إلى حكومة الإدارة
بعد يومين اثنين من إرسال تعليماته الأخيرة يضر في واقع الأمر الأسباب التي أقتضت

(١) Ibid 424 — 5

(٢) Dogureau 297

(٣) Rousseau 162

(٤) Pièces Diverses 393; Ibid, 182 — 3

(٥) Pièces Diverses 393 5 * Pajot 426 — 7; Rousseau (*)

بموجب الحلاء عن مصر دون قيد أو شرط ، فوسط مراحل المفاوضات السابقة وما وقع من حوادث في أثناءها ، ومن أهم هذه الحوادث سقوط قلعة العريش . إلى أن قال . وعلى ذلك فإن طواهر الأمور تبدل جميعها على أن الجيش الذي أتولى قيادته سوف يكون قد وصل إلى إحدى موانئ الجمهورية في شهر أبريل ١٨٠٠ ، وما إن ينتشر هذا الخبر في أوروبا حتى ينقسم الرأي في فرنسا ، فيغد فريق مسلك قائد الحملة بينما يؤيده فريق آخر ، ولكنى سوف أعتصم بالهدوء والسكينة . فلا أرح نفسي في هذا النقاش العظيم لاقتناعى بأن الحكومة مهما كان شعورها سوف تخرج عن راسخ في هذه المسألة حتى تستمع كذلك إلى كل مالى من أطراف في ذلك ^(١) ، وكان كل ما أراد كل من أن يتمسك به في هذه المرحلة إعلان المحالفة الثلاثة ضد فرنسا ، كما عهد آمالا كبيرة على إمكان الوصول إلى اتفاق بشأن الهدنة التي أرادها في أثناء المفاوضات .

غير أن هذه استعجابات الجديدة سرعان ما تأثرت استبداد دبريه ونوسيلج . لروى كبير عن الشروط التي قيد بها الحلاء من جهة ، ولاعتقادها من جهة أخرى ، كما كتبنا إلى كابر في ١٣ يار . أن الأتراك لم وافقوا على إعلان الهدنة خوفا من أن يؤدي ذلك إلى إعلان روسيا الحرب عليهم . فضلا عن أن اعتبرا سوف تدب ماوسعها من جهد وحيلة أصبح استمرار هذه الجماعة ، حتى تعين الوقت لعقد السلام العام في أوروبا . أصب إلى ذلك كله أن دبريه ونوسيلج كما صمى الأمل في إمكان الاتفاق على الهدنة بين فرنسا وتركيا ، أو مواصلة الأتراك على عدم الدخول إلى مصر حتى يرحل الفرنسيون عنها . لأن أكثر حدودهم يقيمون فعلا في العريش . أى في أرض مصر ، ومن الممدر إيمانهم ، بعد أن سقطت قلعة العريش في قسهم ، بالانسحاب إلى ما وراء الحدود ^(٢) .

وحدث في اليوم لتأى موقعة دبريه ونوسيلج ، فأنصر المفاوضات المشيائ الزس أمدى والنفردار - على ضرورة حلاء الفرنسيين دون قيد أو شرط واستمرت الأحداث تأى إلى المسكر العناني في العريش ، كما أن اخود العنانيين كانوا يلحون في بدء الزحف بكل سرعة ، حتى يتخلصوا من مشاق العيش وشظفه في معسكرهم . وعلى ذلك فقد طلب المفاوضات الفرنسيين من كبير في ١٤ يار يسألانه إما أن يأمر بقطع المفاوضات ، ويأذن لها في معادرة المسكر العناني ،

وإن يجوز لها الحق في الاعتاق على الجلاء دون قيد أو شرط ، وبالعورة التي يريان من المصلحة قبولها . وذلك حتى يستطيعا الدخول من حظر شعرا أنه يهددها ، إذا بقيا طويلا في العريش دون الوصول إلى نسخة حاسمة^(١)

على أن كليبر كان قبل أن تصله رسالنا معاوضيه قد كتب إسماعيل من الصاحبة في ١٥ يناير^(٢) أنه لا يزال مصر على إخلاء مصر ، ويردها أن يقبل الصلح حتى ولو رفض الصدر الأعظم إغلال المحملة الثلاثة وقبول الهدنة . وكان كل ما طامه كليبر معها ألا يبدأ هذا الجلاء في صورة تسليم ، بل يجب عليهما أن يكسياه صفة المعاهدة على أساس ما جاء في مذكرة سدني سميت الواقعة في ٣ ديسمبر . وكان سدني سميت قد وافق في هذه المذكرة على أن يفرج الجلاء في قالب معاهدة مبرمة بين طرفين ، يحصل فيها الطرف الثاني التزامات معينة في نظير تقرر مبدأ الجلاء^(٣) . وما إن وصلت كليبر رسالته دبريه وبوسيلج ، حتى نادر نالكتة إسماعيل من جديد في ١٦ يناير . بددب إليهما الاتية في على الجلاء ، متمسكا في هذه المرة بهذه اداة شهر واحد لحبس . وذلك حتى يستطيع حدودا حجة الاستجاب من الوجهة القنصلية وهكذا وافق كليبر على مبدأ هذا الجلاء دون قيد أو شرط فكان ذلك تسليم صريحا من حاسه

واستاء المفاوضين الفرنسيين من هذا التسليم استياء شديدا . وأمرى دبريه على وجه الخصوص عدم وئدة معه الاندفاع في قبول الجلاء عن مصر دون قيد أو شرط . ذلك أن كثير من — كما قال دبريه — قد كانوا يحدثون الآن عن وقوع انقلاب أو ثورة تسلط بوارث عسائرها رماهم الحكم في فرنسا ، وفصلا عن ذلك فإن الحبش القنصل أدلة لا تسمح للفرنسيين ، بل يكفي احد أي هجوم يقوم به أن يفت فرقه فرنسية في وجهه غير أن تحذيرات دبريه ذهب جميعها سدني أمام إصرار كليبر ، الذي بعث إلى دبريه برسالة طويلة أسط فيها الأسباب التي أئتمه بضرورة الصلح على أساس الجلاء ، ثم عرض على دبريه قيده الحملة التي لم يقبلها كليبر — على حد قوله — إلا مرعفا ، وذلك إذا ظل دبريه مصرأ على عدم الموافقة ويرى أن في وسعه الوصول إلى حل حاسم آخر^(٤)

ومع أن كليبر على ما يبدو قد قرر أن تتحمل وحده مسئولية قبول الجلاء عن مصر دون قيد ولا شرط ، فإن هذه كانت ولا شك مسئولة حسيمة مالت كليبر أن

Ibid 341 (١)

Pajol 430 (٢)

Berthier 327 - 9 (Note du Sidney Smith, 20.12 1799 (٣)

Pajol 432 - 3 (٤)

شعر مخطورتها ، وجمع عزمه على أن لا ينفرد وحده بتحمل اعباء كله ، فاستمع إلى نصيحة (داماس) Damas رئيس أركان حرية^(١) ، وعقد في الصالحية محسا حريا لبحث مسألة الصلح ، حصره نسخة من القواد كان مهم إلى حاسب داماس ، دافو Davout وريبيه Reynier وقربان Friant ورامبون Rampon ، كما حصره دور Daure مدير المهمات . عني أن هؤلاء لم يكن في استطاعتهم أن يردوا القائد العام عن عزمه ، عندما كان كبير قد حول معاومته ماثلا الخي في الانعاق على الجلاء قبل دعوة المجلس إلى الانعقاد^(٢) . ومع ذلك فقد كان واضحا أن المجلس لا يوافق على شروط الصلح كما استطاع لهم كبير ، واشتدت معارضة الجنرال دافو على وجه الخصوص لهذه الشروط ، غير أن الحاضرين مالوا أن يصحروا على محصر هذه الجلسة الموافقة^(٣) ، واستطاع كبير أن يكسب إلى دربه وبوسلح في ٣٠ يناير أنه كان من رأى القواد المحصرين « بطرا لسكرتير الحكومة الطويل وخصوصا بعد عودة بومارت إلى فرنسا » أنه لم يعد هناك أى أمل في وصول وحدات من أرض الوطن

ذلك ولما كان الاحتفاظ بحصر متعددا بعد ، فقد بات الاشتباك في المعركة المقبلة لاحدوى منه ولا طائل عنه ، حتى إذا كفل النصر للعربيين ، أما إذا أضميوا بالهزيمة فإن الجيش سوف يحول به الكوارث لعدم وجود أية موارد لديه^(٤) . وكتب كبير في اليوم نفسه إلى دوحا في القاهرة ، يخبره بما حدث « وموافقة رملانه الإجماعية » . وطلب إليه في الوقت ذاته أن يمدى رأيه فيما جرى ، كما سأله أن « يستشير » الجنرال لانوس إذا كان هذا الأخير قد وصل إلى القاهرة . ووافق دوحا لطبعة الحال على الجلاء رولا على رأى رملانه^(٥) . وما إن كمل توقيع أعضاء المجلس الحرى على محصر الجلسة حتى نعت كبير هذا المحصر إلى دربه وبوسلح في ٣٣ يناير^(٦) . وبشطت المفاوضات في اليومين التاليين ، وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٠٠ وقع ديزيه وبوسلح على اتفاق ابريش كما وقعه وكيل الصدر الأعظم^(٧) .

Rigault 61 (١)

Dogureau 304 (٢)

Reybaud III 73 (٣)

Rousseau 200 (٤)

Pajol 439; Ibíd 199 (٥)

Rousseau 201 (٦)

Testa II 7—11, Pièce Offic. 41 50' Pièce Divers. 255—62' (٧)

Pajol. 444 — 8; etc.

ويتألف اتفاق العرش من مقدمة واثنين وعشرين بندا ؟ وقد أفرغ الاتفاق
في قالب معاهدة تفرس في شكلها الظاهر الترامات معية على الطرف الثاني ، وذلك
في ظير قول الطرف الفرنسي الجلاء عن مصر وإحلالها . جاء في مقدمة الاتفاق كما
نشر وقتئذ منقولا إلى العربية (١) . « أن اجيش فرنساوى مصر ، عندما قصد
أن يوضح ما في نفسه من وقور الشوق خض الدماء ، ورأى نهاية الخصام لأمير الذي
قد حصل ما بين المشقة الفرنسية والباب العالي ، قد ارتضى أن يلم بحو الاقليم
نصرى حسب الشروط الآتى ذكرها ، نأمل أن هذا التسلم يمكن أن يتجه ذلك إلى
الصالح العام في بلاد المغرب قاطبة » .

أما أهم هذه الشروط فكانت تلك التى صحت على اسحاب الجيش الفرنسى « بالأسلحة
والعربات بالمتعة إلى الإسكندرية ورشيد وأبو فير ، لأجل أن يتوجه وينقل بالمراكب
إلى عراسا ، إن كان ذلك في مراكبهم الخاصة هم أم في تلك التى يقتضى لها العاى
أن قدمها لهم بقدر الكفاية » . وما نجد ملاحظته أن الاتفاق لم يعرض شيوذاً
على حرية الجيش العائد في العمل ضد أعداء الوطن ، كما وافق الطرفان على هذه
«لأمة شهور قد تطول مدتها إذا لم الأمر ويتم في أثناءها نقل الحملة . واشترط لطرفان
حماية مصالح رعابا كل من الدولتين فرنسا وتركيا في ممتلكات الأخرى ، فصت
المادة الخامسة على « ترحيب الأموال والأموال المتعلقة سكان البلاد وراعبا من
انترقيين » كما حرص الفرنسيون على عدم إلحاق الأذى عن مساعدتهم وحسومهم في
مصر في أثناء الاحتلال ؛ جاء في المادة العاشرة « فلا يحصل التشويش لأحد من
سكان الإقليم المصرى من أى ملة كانت ، وذلك لاقى أشخاص ولا في أموالهم ، نظراً
إلى ما يمكن أن يكون قد حصل من الأعداء ما بينهم وبين الفرنسية من إقامتهم بأرض
مصر » . وقد تضمنت المواد الأخرى تفصيلات كثيرة بشأن الجلاء وإحلاء الأديم
النصرى ، وما ربط بذلك كله من تدابير مالية وصحية وغيرها . على أن أهم ما نجد
ملاحظته من هذه التفصيلات المص على ضرورة الحصول من الباب العالي أو من
حلفائه الاعلى والروس على « فرمانات الاذن وأوراق المحافظة بالطريق » ، أى
الحصول على حوارات مرور لصان عدم الاعتداء على جيش الشرق في أثناء عبده إلى
الوالبى . الفرنسية ، ثم ضرورة أن تجهز تركيا أو إنجلترا وروسيا « السفن اللازمة

لرجوع الجيش المذكور «لأمن والأمان إلى بلاد فرنسا» ، على أن تتمهده ، ولجعلها مدمم التعرض للجيش الراجع بأي أدى .

واحباط انحبس الاتفاق لغرض كل ما قد يتأ من « مشا كل » عند تمهده .
 وذكر لشرط ثالث أن « رجل الجيش الفرنسي يتبعه يد لوكلاء انهم يدين
 لهذه الامانة من قبل الباب الأعلى وسرى العسكر كله ، وإذا حصل خصم مدين
 لوكلاء المذكورين بوقت الرجل في هذا الصدد فذهب من قبل حضرة سدي تحت
 رجل يهوى الامانات المذكورة حسب قواعد السياسة البحرية السالكين سلمها ملاد
 الاسكر » و« في التردد الحادى والمنعرجين » فكل ما يمكن حدوثه من المشا كل
 التي يكون محمولة ومعكس الاطلاع منها في هذه الشروط ، فلا بد من محارها بوجه
 الاستحباب ، ما بين الوكلاء ، فحين لهذا بقصد من قبل الخ بانونر الأعظم على اثنان
 وحضرة الجنرال كله سرى العسكر العام ، بوجه سبل وحصل الاسراع ، « انمو » وقد
 صدق كليل على اتفاق العريش في ٢٨ ر ١٨٠٠^(١)

ومع أن البر سدي لعب دورا ظاهرا في نجاح الموصلة وعقد اتفاق العريش
 فقد امتنع عن التوقيع عليه ، ولم يكن ذلك الامتناع عن رعة منه في التحنى عن حسن
 نصيبه من الشولية ، أو لأنه كان يسمر في رعة اربعة في مفاضة ما الاتفاق
 فيما بعد . وهو الرحن ، انتهى سمحت سياسته أي ، نجاح^(٢) فاستطاع تحقيق أغراضه
 بموافقة الفرنسيين على الحلاء عن مصر ، وعوده هذه املاذ إلى حضيرة الدولة المتحدة
 وقصلا عن ذلك فإن استرحاع المتأيين سيادتهم على مصر من شأنه أن تمكن الأسطوب
 الإغلبى من استخدام موانى الاسكندرية ودمياط ورشد ، والاختلاف إليها طاء ،
 بقيت المصلحة النهائية الاغلبى . ثم إن سدي سميت ، فحصل ما جاء في شروط هذا
 الاتفاق ، كان يحمل مكانا محذرا عنك من ملاحظة تعدد سياسة الحلاء بكل دونه
 وذلك عندما أقامه الاتفاق « حكما » ، نظر في بعض ما قد يحدث من خلافات متعصه
 بين الأراك والمتمارس بشأن الحلاء عن مصر بكل سرعة .

وما إن صدق كليل على اتفاق العريش حتى أصدر منشورا إلى ديوان القاهرة
 في أول فبراير ، يطلع الخ ، ويرعت من هذا المنشور نسخ عدة في جميع الأديم .
 وحاول أن يرد عقد لاتفاق إلى رعة الأمة الفرنسية في أن يحفظ العلاقات الود

(١) جري ٣ ١١ (رسم تصديق كليل على الاتفاق)

(٢) Charles Roux - L'Angl II 38

وإصدافه القديسة مع الامراض صوريه القديسة . وأن ترى هذه البلاد مود مرة أخرى إلى العنانيين ، كما أنه كان رجوا أن تهدد الاتفاق إلى عقد الصبح العام في أوروبا^(١) وطرب المصريون لهذه الأنباء فأقبلوا يقدمون لذل ولتؤن الأزمة « لترحيل العريايه » عن طيب خاطر . وكان سرور العريسيين الذين اضطروا العودة السريعة إلى أرض الوطن لا يقل عن سرور المصريين ، فعلى الجيش بدأ الاتفاق لدى أسسه إنهم كثير في ٢٧ يناير فخرج عظيم .

ذلك أن كثيرين من جند الحملة ورجالها كانوا يرون في الحصول على تلك الشروط التي تضمنها اتفاق العرش ممحاً كثيراً لاسب طاهر ، هو أن هذا الاتفاق قد كفل لهم العودة القسرية إلى فرنسا ، والجيش لا يراى موقوف الكرامة مرفوع الرأس لم يلحق العار ونشاز شرفه العسكري . تحقق سلامة ودي صولة ، أن في فرج الجود كان عظماء حتى إهم ياتوا يعدون الاحتضات عدا ، مترقبين الإذن بالرحيل ، وقد بعد صبرهم حتى أن الحراك قوديه من كبار قوادهم ما دلت أن هتف بشون حزلا . « لنذهب مصر إلى جهم وشس المير ، وسنحنا أوروبا وليجب أهدبا^(٢) » .

غير أن كثيرين من المسئولين سرعان ما استمعوا بعد نشونهم الأولى لجماعة مسئولية الإقدام على إعلاء مصر ، ثم عظم لشعور شطورة المواقف رويداروسا حتى إن كابر نفسه ، بعد إعلان بدأ لاتفاق على حده ، ما دلت أن صار يحسن الفكر في عواقب هذه الخطوة التي اتحدتها على أن يتحمل وحده مسئولية العمل بها ، بعد أن فرض إرادته فرضاً على ذلك المجلس الحرفي الذي دعاه للاستعداد في الصاحنة . لإقرار تصنياته إلى دريه وبوسلح على نحو ماسق ذكره . وعلى ذلك فقد أعصر اهتمامه الآن ، بعد أن أذاع سبي جيش الشرق بدأ الأساق في سن الأسباب التي أعدها تسوع عقده ، وقد بدأ كثير بسط طرفاً من هذه الدواع في منشوره الذي أصدره في ٢٧ يناير وتضمن بدأ الاتفاق^(٣) فقال إن « طروفا قهريه هي التي أرغمته على الصلح » ثم أشار إلى الظروف التي تولى فيها قيادة الحملة فقال : « ولو أني شئت في حمل ذلك العبء الثقيل الذي تركه لي بومبارب لما قلته دون تردد ، وذلك لأنني أشعر يقيناً بأن

(١) Pièce. Offic 57-9; Rousseau 220 — 1

(٢) الخبر ١٢٠٣ ١٩٢٠ 65. Bricard 391, 398

(٣) Pajol 443 — 4; Rousseau 205 — 6

حشافة مضية ، ولم يكن في وسمى الاحبار بين رفض هذه القيادة العامة وقبولها .
وكتب كلير في اليوم التالي إلى حكومة الإدارة^(١) يذكر الأسباب التي دعت إلى
قبول مبدأ الجلاء دون قيد أو شرط ، معاً ذلك إلى عمر الاسطولين الفرنسي والاسباني
عن ادراج السيطرة البحرية من الاسطول الانجليزي وحروجهما من البحر الايوني ،
وازواجهما محاصرين في ميناء روست ، وفصلاً عن ذلك فقد حدثت عند انقلاب
٢٠ ريرال السنة السابعة (١٨ يولية ١٧٩٩) وهو الانقلاب الذي دخل بمصلحة
أعضاء حدد في حكومة الإدارة — أن وجهت اتهامات كثيرة إلى أعضاء الحكومة
السابقين ، فاعترضوا مسئولين عن جميع الأضرار التي لحقت بالجمهورية الفرنسية بسبب
إرسال الحملة إلى مصر . ولما كانت الحكومة قد ابرمت الصمت العقول ، وذلك على
الرغم من وصول بومبارت إلى فرنسا ، فقد بات واضحاً أنه لم يعد هناك أي أمل في
وصول اسعادات السريعة إلى جيش الشرق ، وعلى ذلك فقد وجد كلير ، كما استمر
يقول ، أن خير مايعمله هو أن يحاول كسب الوقت ، فاستمر في المفاوضة التي مهد لها
سلعه ، حتى حدثت ماغير وجه المسألة عند سقوط قلعة العرش بسبب تسلل حاشيتها
لجور عزائم رجالها وجبنهم .

وامتنع كلير عن حوص عمار معركة فاصلة مع العدو ، لفلة ما لديه من حدود
كانوا مورعين في مراكز عدة ، ولخوفه من أن تترن كارثة المهرجة بجيش الشرق .
وقد عرا كلير انتشار روح التمرد والاضيان بين الجيود ، وخصوصاً في ديباط
والاسكدرية ، إلى « عاص صر هؤلاء ، والأثر السيء الذي تركه رحيل بومبارت
في «موسمهم » . ومع ذلك فإن كلير لم يشأ على حد قوله أن يست في أمر الصلح إلا بعد
استشارة قواده ، فجمع لذلك مجلساً حرياً مالمث أن وافق على إبرام الصلح .
ثم احتتم كلير هذه الرسالة الطويلة بإظهار رجائه أن يمهّد هذا الاتفاق إلى اضمح
الباب العالي إلى الفرنسيين ، ثم إلى خروج الإغلب من محاذة « ليس من مصيحتهم
حؤاررتها وتحضيدها » ، ثم إلى الصلح التام أخيراً كاحدى نتائج تسلل مصر

وعاد كلير إلى الكتانة مره أخرى لحكومة الإدارة في ٣٠ يناير^(٢) فقال .
إن بومبارت لم يذكر في تعليماته شيئاً عن رخص الصدر الأعظم لأنه لم يكن يتوقع حدوثه ،
وفصلاً عن ذلك فقد وعد بومبارت بإرسال السعادات إلى مصر معتمداً على وجود

Pojar 440-50 (١)

Rousseau 213 — 9; Ibid 452 — 6 (٢)

الأسطولين العرسى والأسباني في البحر الأبيض وما كان يطن إسان وفشان هدى الأسطولين سوف محرمان من البحر الأبيض ويعودان إلى المحيط الأطلسي ؛ وما كان يطن إسان كذلك « أن الحملة المصرية ، وهى التى أعمل شأنها عندما وأهممت ، سوف تصبح مادة الاتهام الموجهة ضد أولئك الذين أمروا قيامها » .

وهكذا حاول كليبر أن يسوق من الأدلة والبراهين ما يكفى في نظره لقول إبراهيم الصلح على أساس الجلاء لحرب ، وقبل المدة التى حددتها بومبارت في تعدياته ستة شهور على الأقل ، ودون التقيد بلك الشروط التى نصت عليها التعديت . وكان أهم ما استند إليه كليبر في ذلك أنه قد باب متعدياً على حكومة الإدارة أن ترسل أية غمدات إلى مصر ، بسبب هزيمة حيوشيا في أوروبا ، وعاصرة أسطولها في ميناء رست صلا عن أن كليبر معه لم تكن لديه قوات كافية لصده الحيوش العنانية المدفعة على الحدود وخصوصاً بعد استيلاء هؤلاء على قلعة العريش . أصعب إلى ذلك كله أن تسام هذه انقلعة ككشف عن روح التمرد وانعصان في الجيش وعدم إحكام حنود الحملة عن ارتكاب الخيانة .

ولما كان كليبر يريد التوصل من كل مسئولية إذا بقيت هناك مسئولية بعد هذه الأدلة والبراهين التى ساقها ، فقد تعمد أن يصور إرسال الحملة إلى مصر كسياسة لقرار كان يتخلى من الحكمة السياسية . وعلاوة على ذلك بعد أهم بومبارت بقصر الظفر عندما ترك الحملة في أشد الأزمات حرجاً ، وصار يعنى النفس بالقدره على إرسال الجنداب إلى مصر في ظروف لم يكن لبومبارت أى سلطان عليها . ولاشك في أن محاولة كليبر التوصل من مسئولية عقد الصلح إنما يدل من جانب آخر على مقدار ما كان كليبر معه يشعر به من خطورة الخطوة التى خطاها عند عقد اتفاق العريش . وراد هذا الشعور في الأيام التالية روبداروبدا حتى انتهى إلى قلق شديد ، استنيد بالقائد العام عند ما سرت روح المعارضة ضد اتفاق العريش بين قواد الحملة وصباطها ، واتسم المعارضون فريقين ، أحدهما لارحمى بالجلاء عن مصر إلا بعد عقد السلام العام في أوروبا ، وذلك تبعداً للتعديت التى تركها بومبارت ، وكان الجبرال ديزيه على رأس هؤلاء المعارضين ، وفريق آخر من الاستعماريين الذين حضروا إلى مصر لإنشاء تلك المستعمرة الجديدة التى أرادوا بها تعويض فرنسا عن خسائرها في جزر الأنتيل بالهند الغربية ، وقد تمسكوا بضرورة البقاء في مصر ؛ وترغم هؤلاء الجبرال منو .

فقد حذر ديزيه الجبرال كليبر معية الاندفاع والالحاح في طلب الصلح ، لأن السير

مدى سميت ، كما كتب دبريه في ٩ بوشير ١٧٩٩ ، م يكن هدفه من المعاوضة مع
العربيين سوى إقناعهم بصروده « الخروج من مصر بكل سرعة » ^(١) وكان من
رأى دبريه فصلا عن ذلك أنه ما كان يحب الخوف موت الجيش العثماني الذي
وإن إنه يتألف من جماعات تعيش في مؤس وشقاء ، حرم ما يمكن أن يوصف بأنها
« عصابات من المصوص ووطاع الطرق » ، ولا قدره لها على الوقوف أمام فرقة واحدة
فقط من فرق الجيش العربي ^(٢) . وكان دبريه ولا شك عفا عما ذهب إليه ،
ورفعت الحوادث مما بعد على صحة رأيه . بل إن « مورييه » سكرير للورد الجين
Elgin ، ليعبر الإبحري في امسططيديه ، لم يلبث هو الآخر بعد أن مكث مع
الجيش العثماني فترة من الزمن ، بين شهرى فبراير ويونيو ١٨٠٠ ، أن شبه المسكر
اثنان « لسوق كبيره مكنظه ساعة الذين يشاركونهم الحود أنفسهم هذه الهدية ،
فيصد بحار الخيل وغيرهم هذه السوق ، وهدمها الصفقات في مرادات غلبة » ؛
كما اكثرت التبعيات ولقاهي ، حتى اعدم كل نظام في هذا المسكر ^(٣)

ومع ذلك فقد مضى كايبر في سبيله وطلب من دبريه ، عند ما قرب موعد رحيل
هذا الأخير إلى فرنسا ، أن يسجل قصارى جهده لدى أفعاب السلطة في باريس ،
لتأييد ذلك « ارحل الصعب الذي اعتمد في أعماله على حمايته الحقيقة وإعمال المسكر
وارويه غضب » ، لعل دبريه يستطيع إزاله عصب هؤلاء على كايبر ^(٤) . ولكن
دبريه الذي حصص لأوامر قائد الحملة ، على الرغم من عدم موافقته على الحلاء ، ما لبث
أن كتب إلى بونارت ، في ٢١ فبراير ١٨٠٠ ، فل إبحاره من الإسكندرية بأيام
والليل ^(٥) ، لنقل إليه خبر اتفاق العريش ، وجشدر عن توقعه عليه عندما ذهبت
جهوده سدى ، في محاولة إعطاء بونارت سعة من الوقت تحسكه من إرسال الأحداث
إلى مصر ، واستطراره في آخر الأمر إلى لامثال لأوامر كايبر لقاطمة شأن لتوقيع
على اتفاق العريش .

وعندما وصل دبريه إلى طولون بعد رحلة شاقة متعبة في البحر الأخضر ^(٦)

Berthier 283 (١)

Payol 432 (٢)

Morier 21 — 4 (٣)

Payol 441 (٤)

Pièce. Divers. 268 — 9 (٥)

Pièce. Offic. 90; Rousséau 209 — 10 (٦)

باجد بالكتابة إلى نوبارت في ٥ مايو ١٨٠٠ فقال : إن كبير رخص أن يسمح له بالالحاق بقائمه الأعلى حتى يعف إلى حاشه في ميدان القتال ، « فاستقام في مصر ، وأرغمه على توقيع اتفاق العريش ^(١) » .

وحدد بوسيلج ، المفاوض العربي الآخر الذي وقع على اتفاق العريش ، حدوده من ديرة رمله ، وذلك بأن بوسيلج عاهد الإسكندرية إلى طولون في ١٤ مارس من العام نفسه ، ووجد ديرة مارال بالحجر الصخري بطولون ، لم يلبث أن كتب هو الآخر إلى نوبارت في ٥ مايو يسطر الأسباب التي دعت إلى بدء المفاوضات التي انتهت باتفاق العريش ^(٢) ، وكانت هذه لاتعدو كل ما ذكره كبير نفسه من حجج ودعوى سردها في تقاريره ورسائله إلى حكومة الإدارة ، ذكر بوسيلج كذلك أنه كان من المخطر أن تعطط حروح حجة من مصر ، على الرغم من توقيع اتفاق العريش ، وذلك لعدم حمور السمن في ارم المندوبون سحبرها لعل الجيش إلى فرنسا . وقد حاول بوسيلج في هذه الرسالة أن يحمل كبر وحده مسؤولية تقرر الحلاء عن مصر منو واتفاق العريش :

أما فريق الاستعماريين الذين رعدوا بالقاء في مصر ، فقد كان أشد معارضة لاتفاق العريش وصدحه من ديرة بوسيلج ومن عا نحوها ، وكان من الطبيعي أن يتوهم الخيال من هذه المعارضة أمسية : فقد حصر منو إلى مصر بخدوه أمل واحد عظيم ، هو إمكاني إنشاء مستعمرة « حجلة » في هذه البلاد ، ونعوص على فرنسا حصارها في الحد من جهة ، ونعوص على من نفسه بعض الحصار التي تكسبتها أسرته في جزيرة سان ديسكو من جهة أخرى . وعلى ذلك فيه ما استقر به المقام في رشيد ، التي عيه نوبارت في حكومتها بعد سقوط الإسكندرية ، حتى اسكب على عماله الحديد لكل حجة ، واستطاع بعد فترة قصيرة من تعيينه أن يرسل إلى نوبارت في ١٥ يولي ١٧٩٨ ^(٣) تقريراً صافياً عن رشيد ، وما كان لأرضها من قيمة اقتصادية كبيرة . ثم لم يمض شهران حتى أورد في هذا التقرير بآخر في ٣ سبتمبر من العام نفسه ^(٤) ، عرض فيه ما هداه إليه أعمال المعسكر في مرانا الديار المصرية من الناحية الاستعمارية ، فتحدث

(١) Pièce. Diver. 287 — 8; Pièce. Offic. 87 — 9

(٢) Pièce. Diver. 289 — 93

(٣) Jonquière II 238

(٤) Ibid III 108 — 9

عن موارد البلاد الاقتصادية بالتفصيل ، ثم أظهر ما يمكن أن نحبه مصر من فائدة محقة إذا هي بادرت بإنشاء ثلاث تجارة هامة ، مع دول إفريقية الشمالية ، ووسط أو قلب القارة الإفريقية ذاتها .

ولما كان منو حريصاً على بقاء « المستعمرة الجديدة » في حوزة فرنسا ، فقد شرع يوضح في رسالة أخرى إلى قائده ، في ٧ سبتمبر (١) ، ضرورة استخدام وسائل الإقناع والملاطفة والملاية مع الأهليين من أهل استوائهم ، لأنه كان من المتصور كما قال أن يقيم المصريون صرح سلطاهم في البلاد ، من غير أن يتحدوا في ذلك على حدة المصريين أنفسهم لهم (٢) ، بل لقد كانت الحكومة موافقة في رشيد أهمية واضحة ، لأن هذه الحكومة إنما تشرع بزيادة النخلة الاستعمارية الجديدة ، التي كان من أقوى دعايتها تلك السياسة التي ابتدعتها بونابرت ، والتي عرفت باسم السياسة الوطنية الإسلامية . وهي سياسة كان منو نفسه من كبار مؤيديها ، حتى إن بونابرت ، الذي صرف في منو هذا التأييد الصريح ، عالت أن امتنع حصاره ، ثم كتب يشكره على ما كان يظهره من صرور الإحلال والاحترام للذي الكرم صلى الله عليه وسلم ، ثم عهد إليه في ٣٠ أكتوبر ١٧٩٨ بالحكم في إقليم الحيرة والإسكندرية ، على الرغم من أن منو كان قد رغب في الحضور إلى القاهرة . وذلك على حد قول بونابرت لأن « مصلحة الجيش التي خدمها منو خدمة صادقة كانت لا تبال في تقصير وجوده بعض الوقت في الشمال » (٣) .

وطى ذلك فقد بقي منو في مصره ، ولم يصحب بونابرت عند خروجه في حملة الشام . ثم قطع منو في سياسته الوطنية الإسلامية شوطاً جديداً ، فاعتنق الإسلام ديناً ، وتزوج من بيت معروف في رشيد . ومع أن هناك من يزعم إسلام منو إلى رعة هذا القائد في التمتع بملذات الحياة وسط « حرم » نرقى (٤) ، فقد أصر منو على التمسك بمبادئه الجديدة في مناسبات عدة ، حتى إنه عند استعداده للرجيل موت هذه البلاد ، عند خروج الحملة في آخر الأمر ، لم يشأ أن يعادر الأراضي المصرية دون أن يحتفظ « كما يحب على كل مسلم » مصحفين من المصاحف الثمينة ، وعدا ثلاثة أو أربعة من كتب الدين الصغير . وكتب منو في هذا المعنى إلى الجنرال هتشينسون Hutchinson ، القائد

Ibid. 109 (١)

Corresp. No. 3115 (٢)

Ibid — 3506 (٣)

Marmottan 81 (٤)

الإعطيرى الذى سلم إليه الاسكندرية^(١) ، كما أنه حرص على اقناع القبطان مينا ، قائد القواب العناسة ، بأنه إنما اعتنق الإسلام عن روية وحسد تعكير عميق ، « عندما وصح له أن الإسلام عبيدة سمحة طيبة ، وأن الدين الإسلامى أعظم دياراً وأعلىها شأنًا »^(٢) ، وفصلاً عن ذلك فقد احتار موسى وحواله ، السيدة رييدة بنت السيد محمد البواب ، وعقد عليها لأنها كانت على حد قوله : « من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم » ، ويعرف أهلها بالاشراف ، ويتعمسون لذلك عمامة حصراء ، وصار ينظر بعض العظمة والسرور إلى أن ولده منها (سلبان مراد) - سوف يكون من رمره الاشراف الثنتين إلى البيت النبوى الكريم^(٣) .

وكان قران موسى من السيدة رييدة في ٢٥ رمضان ١٢١٣ هـ ، للوافق لليوم الثاني من شهر مارس عام ١٧٩٩م^(٤) ، ولعل أكبر ما يؤخذ على موسى أنه ظن راعياً في قضاء شهر بعسل « إلى جانب روحه ، أو نمسة الوقت كما يقوى حسومه وسط الحريم في رشيد ، فظل مدة شهرين بمنحاً عن تلبية دعوة بوبارب ، والشحوص إلى سوريا كي يتسلم حكومتها .

وعندما اسطر في آخر الأمر إلى بعيد أوامر قائده ، ناطقاً في الاستعمال بصورة مكنته من الوصول إلى القطية ، في وقت كان بوبارب معه قد وصل إلى القطية في طريق عودته من سوريا^(٥) ، فقام موسى بها . وعندئذ أوفده بوبارب إلى اعريش حتى ينظر أحوالها ، ثم قام موسى بعد ذلك رحلته إلى وادى اسطرون . حتى إذا أرب العنابيون حذروا في أقي قبر ، عهد إليه بوبارب بالقيام على حصار قلعة اعريش . فظل موسى على حصارها حتى سقطت^(٦) . وفي أغسطس ١٧٩٩ قابل موسى بوبارب ، قبل رحيل القائد العام إلى فرنسا ، فأعطاه بوبارب قيادة الإسكندرية ورشد والبحيرة ، وسلمه ما كان لديه من أوامر وتعيينات إلى الخيران كبير وسائر قواد ورجال الخلة .

(١) Rousseau 426 (Lettre de Menou. 13/9/1801)

(٢) Rigault 44 (Lettre de Menou 1/9.1801)

(٣) Rousseau 411

(٤) Al Bahgat. 224 — 9 (Acte de mariage de Général (١) Abdallah Menou ...)

(٥) Rigault 45; Reybaud VIII 43 — 4

(٦) Jonquière IV 606; V 351, 433

وعندما عرفت رغبة كليبر في للمفاوضة مع العدو ، اعتقد مو في أول الأمر أن كليبر إنما كان يرحو من مفاوضة مع النمانيين حمل هؤلاء على الخروج من المحاطة بالدولة ، فضلاً عن تأميم الحدود المصرية الشرقية من جهة سوريا وعلى ذلك فإنه سرعان ما صار يدعو إلى تأييد سياسة للمفاوضة ، والوصول إلى اتفاق مع الأتراك بحقق هذين القرضين . فكتب إلى كليبر في ٦ أكتوبر ١٧٩٩ (١) أن في وسعه دعم مرصكره في المفاوضة إذا هو أرسل إلى الصدر الأعظم مفاوضاً ماهراً بشق تكفاه ، ذلك أن النمانيين إذا فتحوا عيونهم قليلاً استطاعوا أن يلحظوا وجه العناية في تلك المخالفة « الشبهة » التي عقدوها مع غرماهم اروس . ولا جدال في أن كليبر سوف يبال غرماً عظيماً إذا استفاق الأتراك على يده ، وتنبهوا إلى الأخطار التي كانت محقق لهم ، ووضع كليبر أسس معاهدة جديدة معهم

ولما كان معروف عن مو أنه من أشد أنصار الحرية الاستعمارية في مصر ، واشتهر لذلك بتأييده لليونارب ، ورغم أولئك الذين شمسكون بضرورة اللقاء في هذا القطر ، على الأقل حتى يحين موعد عقد الصلح العام في أوروبا ، فقد وجد كليبر أن من حصة الرأي ، إذا هو شاء أن يكسر من حدة المعارضة ضد الحلاء ، أن يشارك في المفاوضة أحد كبار مؤيدي الاستمرار في مصر وعلى ذلك فإنه ما بدأت المفاوضات صورة جديدة حتى ماذر بالكتابة إلى مو في ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ (٢) ، يدعو مو إلى القاهرة ، حتى إذا حصر في الوقت اللائم أي في خلال نهاية أيام - أوفده كليبر إلى العسكر العتاي ، مروداً بالسلطات اللازمة للمفاوضة ، وذلك « حتى يرسل مو عن عبي الصدر الأعظم السكين ملك العشاة (التي معته من إدراك جسامته الأخطار التي تحديق بتركيا) ، وحتى يفسح مو بالفائدة المرجوة من الإصاخة بسمعه إلى صوت العقل والحكمة ... »

بدأن مو في هذه الآونة كان قد أدرك حقيقة بيات كليبر ، وعرف أنه إنما يريد الجلاء عن البلاد وإنهاء مشروعات الفرنسيين الاستعمارية في الشرق . وخشى مو من الوقوع في الشرط الذي يصبه كليبر له ، فاعمد عن عدم إمكانية الحضور إلى القاهرة « في الوقت اللائم » ولما كان كليبر قد طلب تسليم الجنرال لابوس قيادة

Rigault 24 (١)

Berthier 285 (٢)

الإسكندرية عند مجيء مو إلى القاهرة ، فقد باذر مو شلجته القيادة وروحى
الأرواء في رشيد

وحاد أرواء مو ، مع رحيل بومارت ونولية كليز القيادة العامة ، وفي الوقت
الذي بدأ فيه كليز المناقصة من أجل التروح عن هذه البلاد ، دليلاً حديداً على أن
مو الذي رفض الاشتراك في هذه المناقصة كان لا يزال مصراً على مقاصده ومقاصد
بومارت قائمه الأول ، ولا يزال شاتاً سياسة الحلاء التي احتلها كليز لبعه
وابقى لفتت تأييد يكاد يكون تاماً من حباب جيش الحملة رمنه . واسمى مو بسبب
موقفه من مسألة الحلاء إلى سحق أولئك الزراعيي في العودة السريعة إلى الوطن
وقدمهم . حتى أنهم صاروا يصمون به مختلف الاتهامات ويقولون عليه الأقاويل
الكثيرة ، ويصفونه « بأنه كان مصراً أكثر من فرنسا » ، ومفضل المعاد في مصر
على رعاية مصلحة فرنسا . وكان من الطبيعي أن يحسب مو من هذه التهم التي وجهت
إليه حرافاً وأن يحتج على أصحابها لدى وائداً الحملة . وأخذ مو من احتجاجه دريفة
في الوقت نفسه لسط آرائه . والدعوة للاستعمار في مصر . فقال في رسالته إلى كليز
في ٢٤ نوفمبر ١٧٩٩^(١) : إن حصونه يبرون دعوته إلى القاهرة « إلى تعدد حيازة
الضرائب من الأراك والصرين في الجهات التي حصلت لحكومته ، وأنه رعى مصالح
أهل البلاد أكثر مما رعى مصالح الفرنسيين أنفسهم » . ثم اضعل مو من ذلك إلى
الكلام عن مراد استعمار مصر فقال : إن منجبه لا يدرون شيئاً عن أسط الوسائل
للأزمة لتأسيس المستعمرات ، ولا يدركون أن امتلاك مصر من شأنه أن يمكن
الجمهورية من تعويض خسائرها في حرر الأمتيل ، كما يصبون تجارة الفرنسيين
في الشرق وحرر الأرحيل ؛ وصلاً عن ذلك فقد كان من رأيه أنه ليس بالأمر
العسير أن يتم العام مع الاخضر صدد لقاء لفرنسيين في مصر في سلام وهدوء ،
إذا اطمأن الاخضر إلى أن أعداءهم لا يريدون إزعاجهم في الهدوء . ودافع مو عن
رواحه من أسدة ريدة فقال : « وهل يعرف أولئك الخلق الذين يسيرون على أرواج
من سيدة مله أي ما فعلت ذلك إلا بدافع من حسن السياسة واستحاجة لمطامعة
حب الوطن ؟ »

وواقع الأمر أن رسالته مو إلى كليز إنما كانت نشر إلى تلك المادى التي استرشد
ها في سياسته دائماً ، وعززها كتاباته من آن لآخر ثم أيدها أعماله ، وهي مادية .

مدارها الاحتفاظ بمصر ، وإتقاء مستمره بها على أساسين هاميين ، هما استئالة الأهالي وحذب ودمج من جهة ، ثم التفاهم والانفاق مع الاعراب من أجل البقاء في مصر من جهة أخرى . وعلى ذلك فقد أصبح من المتوقع أن تبنى معادلات العريش في هذه الظروف كل معارضة من جانب مو ، ومع أن أحداً يستشر مو في مسألة الصلح وعلى وجه الخصوص بمدارواته في رشيد ، فقد ظل مويست بالكتب والتقرير إلى كليبر طوال شهر سابر ، حتى لا تبنى فئانه أمام إصرار « الاعراب والعريشيين والأتراك جميعاً » على إخلاء مصر . وكان من ثم ما كسبه مو في هذا الشأن (تقرير ١٦ يفرور من السنة الثامنة للجمهورية) الذي أرسله إلى كليبر (في ٦ سابر ١٨٠٠) بعنوان « مذكرة عسكرية وأحصائية من مصر » (١) .

وقد أراد مو في هذا التقرير أن يهيم الرأي الذي أخذ روح وقتئذ بين رجال الحملة ، وهو أن بقاء مصر في حوزة فرنسا قد أصبح عديم الجدوى ، وذلك لإخفاق الفرنسيين في طرد الأعداء من الهند . فأثبت مو في قسمي هذا التقرير الأول والثاني إحصائية ما كانت عليه مخارجه فرنسا الخارجية قبل « الثورة » ، ثم ما آتت إليه بعدها فذكر أن الزحف الذي حمله فرنسا من تخارجه إمبراطوريتها الاستعمارية القديمة في عام ١٧٨٩ كان يرى على مائتي مليون فرنك ، حتى إذا نشبت حروب الثورة في أوروبا ، واستولى الاعراب على حرر الأنتيل ، واندلع لحب ثورات في حرر الهند العربية ، وصار حيد الأملاك في (تير — يغب) متفتراً ، وبات متهدراً كذلك الاتصال بين فرنسا والهند الشرقية وحرر الروسون وويل دي فرانس ثم الشاطئ الأتريقي اعرف ، ثم اشتكت وحدقات العرب وأنسا كل اللبالب (أو لشرق) مع كل أوروبا في الصال ضد فرنسا ، فهدت فرنسا بسبب ذلك كله من تخارجه المستعمرات ما تباع قيمته بعا ومائة مليون من الفرنكات سبوا ، ونقت فرنسا تخارجهها مع أساليبها والدول التي آثرت الحيد في الصال القائم إلى جانب بعض دول الأعداء التي رعبت في التخارجه المسترة ، وذلك رفع أعلام اسلطان المجاهدة على صواري سبها .

وخرج مو من ذلك إلى حقائق معينة أحملها في قوله : « لقد فقدت فرنسا حرر الأنتيل إلى الأبد ، ولن تعيد المحلثة إلى الفرنسيين ممتلكاتهم التي فقدوها في الهند » بل إنها ولا شك جوف تمنعهم من إنشاء أية صلات تخارجه مع دول البحر الأبيض .

الوسط ؛ وهذا إلى أن المحلثة سوف تكون من نصيبها ، حصل معاينة الخالصة والتجارة التي أرمتها مع الولايات المتحدة ، تلك السكينة ذاتها التي تمتعت بها فرنسا سابقا في القارة الأمريكية ، وهكذا لم تنق فرنسا موضع في هذا العالم حتى نبدأ فيه من جديد تشيد صرح إمبراطوريتها . ولا ماض من استمرار هذه الحال على الأقل مادام الفرنسيون لا يحاؤون إلى استخدام الوسائل التي تكفل لهم إنشاء مستعمرة تستطيع أن تعوضهم شيئا عما فقدوه من «ملاكهم» .

وإثرى مو ، في القسم الثالث من هذه الذكره المدهمة . وصح ما ينبغي على فرنسا أن تفعله حتى عار هذا المأزق سلام ، فألح في ضرورة بناء مستعمرة فرنسية في مصر ، ثم اتسكت هذه المستعمرة لتعويض الفرنسيين عن خسائرهم في أمريكا والمند الغربية ، مستندة بما ذهب إليه إلى أنه « كان يدخل في اعتبار الحكومة الغربية ولا شك عند إرسال حملتها إلى مصر إنشاء مستعمرة في هذه البلاد بوصفها على الجمهورية خسارتها ، لأن الأموال الطائلة التي أنفقت في تجهيز هذه الحملة ، ومحتفلات العائد الكثير الذي جمع ، وإعداد الرجال الذين وقع الاحسار عنهم لمراقبتها ، إنما يدل على أن العرض من إرساء هذه الحملة لم يكن مجرد ابرهة ، وإنما كان لغزو وإرساء الفتوح الحديثة على قواعد قوية ودعائم ثابتة ، ولم يحدث لغزو وإرساء كهو الطمع حسب ، لأن مصر لها من موقعها الجغرافي ما يجعلها مقراً ومسودنا لجارة الهند الآتية بطريق البحر الأحمر ونهر النيل وميناء الاسكندرية

« ولا يقلل من شأن هذه الخفصة حال من الأخوان أن الإبحار موحودون بالهند ، وأن الفرنسيين مضطرون إلى التحجى عن فكرة إقصاء هؤلاء ، وطردهم منها . ذلك لأن مصر تتمتع بثروة داخلية عظيمة من خير مستعمرات العالم ، فهي تنتج الأرز والقمح والشعير والنبيلة وغير ذلك كمحبات عظيمة . فضلا عن نمو شجر العنب بكثرة ، ووفرة الخيول وأخود أنواع الحيوان ؛ وكذلك تطرون . وبما يدعو إلى التفاؤل في إمكان قيام صناعات الحرير والزيت وحوود شجر النوت والزيتون . وعلاوة على ذلك فإن مصر من شجر قصب السكر والقطن وغير ذلك مما يسهل معه انتظار حصول فرنسا على خير من هذه المستعمرة الثرية ، بل إن مصر ، إذا قدر لها أن تحتج بإدارة حارمة مصلحة ، ستكون بعد عشر سنوات حسب أفضل مسعمرات العالم أجمع ؛ ولا يتأتى ذلك إلا بالقصر على استعمال مسحات الأرض ، بل على المستعمرين أن ينشئوا إلى جانب ذلك مصانع لتكرير السكر وصنع البيرة ، وفي وسع فرنسا أن تستقدم من مدن دمجو للمستعمرين حتى يجهلوا معهم إلى مصر صاعاتهم »

واعتمد سوي هذا الجزء من مذكرته على ذلك البحث الذي ألقاه نابليان في المجمع
العلمي ساريس في ٣ يوليو ١٧٩٧ ؛ ولما كان يريد استعلاء انتباهه حينئذ لشرق إلى
ما جاء في هذا البحث ، فقد أثير سوي إليه في مذكرته ، وذهب بوضوح كيف أن
نابليان كان يتوقع أن تنفذ حرب ذات يوم مستعمراتها الأمريكية ، ويطلب لذلك من
بلاده أن تتخذ المدة لتعويض هذه الخسارة ، وذلك علاوة على ما ذكره نابليان نفسه من
أن السوق دى شوريل كان سعى منذ ١٧٦٩ لإفصاح ركباً لطريق المفاوضة بضرورة
تحويلها عن مصر إلى فرنسا . كما بين بوضوح وحلا ما كان هناك من وجوه الشبه
بين محتاجات مصر ومسحات حرر الأشبل ، فصلا عن عذر أضاء وطه من استعداد
الاعلبر وإصرارهم على سيق الفرنسيين في مزار الاسعار والاستيلاء على جميع ما يقدره
هؤلاء من مستعمراتهم إلى جانب امتلاك الأراضي الواسعة الجديدة

وحما كانت هناك سمومات ولا ريب سوف تفسد جيش الشرق ، وبحول دون
استعمار مصر والاستقرار بها ، فقد شرع سوي في الجزء التالي من مذكرته بشرح
وسائل تدليل هذه السمومات بقوله : إن العمل على « نصب » أهل البلاد سهل ميسر
إذا سلك الفرنسيون مع الأهليين طريق التسامح ، وحكوهم بديس والفسطاط
فالسالوم إنهم ، وفصلا عن ذلك فإن لدى جيش الشرق من القوة العسكرية ما يمكنه
من الاحتفاظ بالسيطرة الكاملة في البلاد ، فإذا اعترض معترض أن مصر سوف تظل
في أثناء الحرب محرومة من لتجارة مع غيرها من البلدان الأخرى ، وأنهجر لذلك عن
عموم جيش الشرق ، فمن السهل دفع هذا الاعتراض بما ظهر من القدرة على الحصول
على إيراد كبير من مصر سويًا ، رد على ذلك أنه إذا اعترضت الكلمة على أن ترك الحد
وتجارة الخبيص العازمي للاعلبر يعمون بها ، فإن هؤلاء سوف يفسعون بدورهم أن
يتركوا مصر للفرنسيين ؛ أما إذا هدد اروسيون جيش الشرق في مصر ، فإن هذا
التهديد لا يلبث أن يستثير معارضة الاعلبر حوفاً من تسحق قوة اروس لدرجة عشي
معهما رأس هذه القوة . ومن هذا مال الاعلبر حتى يحطموا كل أمل لدى اروس في
الاستيلاء على مصر . أما إذا كان الخطر الذي يتهدد الفرنسيين في مصر أياً من جانب
الأتراك فمن ايسور إزالة هذه المخاوف بالانتماء مع الأتراك أنفسهم ، على أساس أن
« تحفظ الباب العالي نوع وقسط من السيادة المدينة يكنى لاشتراكه في ممارسة سلطان
السيادة العليا مع الفرنسيين في مصر » فصلا عن دفع قدر من المال إلى الباب
العالي سنوياً .

أما إذا قيل إن فرنسا لا تملك بحرية نافذة، فالجواب على ذلك أن عقد الصلح مع إنجلترا من شأنه أن يلغى حاجة فرنسا إلى بحرية بحرية كبيرة ، وكذلك إذا قيل إن الوفاء سوف يعتك بعدد كبير من الفرنسيين في هذه البلاد ، فوسيلة التعلب على على هذه الصعوبة أن تكافح الفرنسيون هذا الوفاء ، « متى كان الوفاء أشد حكام من الحيات الحبيثة في حرر الأسيل » ومع ذلك فهناك حقيقة واحدة لا ينبغي أن تعرب عن ماله إسان ، هي أنه إذا ترك الفرنسيون مصر ضد حروبها إلى الأبد ، ولا أمل في عودتهم إليها مرة أخرى ذلك بأن الإعمار والروس سوف يسيرون هذه الفرصة للاستيلاء عليها . ولا شك في أن هؤلاء بدأوا مطاير السادة للباب العالي سيصبح في مقدورهم أن يدعوا مراكرهم في هذه البلاد بصورة تحقق سيطرتهم على السلطان العثماني نفسه في النهاية

ذلك كانت مدكرة ١٦٠٥ يعمد الشهرة ، وقد بسط صاحبها آراءه على أساس انهاء في مصر وعدم الجلاء عنها . حقيقة اشملت هذه المدكرة على بعض الآراء « الحالية » كاعتقاد متو أن في وسع الفرنسيين أن تعقوا مع الإنجليز على أساس أن ترك هؤلاء في عاهم في مصر ورسوا باستقرارهم في أرضها . أو اعتمده أنه من اليسر إنشاء مستعمرة باحثة في هذه البلاد دون الحاجة إلى وجود بحرية قوية لدى فرنسا ومع ذلك فقد كانت المدكرة الواضحة في هذه المدكرة أن الواجب يقتضي جيش الشرق أن ينظر إلى مصر من ناحية قيمتها التجارية والاقتصادية ، ومن ناحية كذلك ألا يخرط في هذه البلاد بشا (١).

عن أن كبير وقد قرأه على الخلاه في مصر هذه المدكرة أي التعاق ، بل معنى في سياسته قديما حتى إن مو اصطر إلى التكنانة إليه في ١٧ يناير ١٨٠٠ (٢) بحصه على عدم التعريط في المستعمرة ، وأنشأ يقول . إن كبير ولا شك سوف يسمع عكاسة تضمن له الشهرة الخالدة والصيت النعيد إذا هو قرر الصلاه أمام الإنجليز والروس والأتركة جميعاً ، ثم اشترط كل ما يحقق مصلحة بلاده . ولكن كبير مالت أن أرم اعاق العریش في ٢٤ يناير ، وبدأت المعارضة تشد وتقوى بين طائفة من فواد الخلة ورجالها ترعهم مو الذي مالت أن كسب إلى نوفمبر في ٢٤ فبراير (٣) يصعب له حرية العميق لما حدث بسبب الاتفاق على الخلاه عن مصر دون قيد أو شرط ، ويسم

Rigault 30 (١)

Rousseau 192 (٢)

Pièce. Offic. 60 — 3 (٣)

في ذكر الفوائد العظيمة التي تعود على فرنسا من بقاء هذه البلاد في حوزها ، كما كان يحرق في نفسه مباح تلك الصفات الطائفة التي تكسبتها الحجة بسب أعمال التحصيلات العديدة ، وإشياء المعامل ، والعناية بوسائل الري وما إلى ذلك . وطفق يتحدث عن الوسائل التي تمكن من عقد الصلح مع المحلثة وركبها من غير حاجة إلى الخروج من مصر ، حتى إذا آن وقت عقد الصلح العلم في أوروبا وكانت فرنسا غير راضية في الاحتفاظ بمصر ، أو هي معز عن ذلك ، كان في وسعها على الأقل أن تطلب تعويضا كبراً لقاء الإحلاء . ودافع الأمر أن هو كان يحزن لانفاق العرش بصرراً عطفا للسير مدني سميت الذي استطاع إحراج الفرنسيين أو « طردهم » من مصر ، دون حاجة إلى الاشتباك معهم في معركة واحدة (١) .

ووجدوا من بين حشائط الحجة ورجلها من شاطره هذه الآراء ، فكان هناك توسار Tossard الذي أخرجه كفرنسي أن يترك بلدا عسائطا كعصر ، وكان هناك القائد دافو الذي كان أظهر المعارضين لكثير عند اعتقاد المحسن الحربي في الصالحة ، وزاد أن يعرف به الجميع هذا الموقف . ثم أقل على تأييد مو ، وما لبث قبل إبحاره مع دربه إلى فرنسا في ٣ مارس أن حدد احترامه وتأيدته له (٢) . وراود عنه المعارضين لانفاق العرش رويديا رويديا كما قرب موعد الرجول إلى فرنسا ، حتى ذكر أحد المعارضين (٣) أن هذه المعارضة بدأت في أول الأمر في صورة عدم الانفاق على الطريقة التي بحري بها إحلاء البلاد ، ثم ما لبثت أن انتقلت من ذلك إلى عدم الرضا عن المعاهدة داتها ورفض فكرة الإحلاء . رفض قاطعاً وأرغمت هذه المعارضة الجراح دوحا إرعاعا شديداً . وكان دوحا من الأفراد القليلين الذين واقفوا على سياسة كثير ، واعترف العودة إلى فرنسا (مع موسيغ) ، فبقى عسا كبرا من حاشب المعارضين « الذين طلوا سطون رحله من الإسكندرية مدة طويلة حتى اضطر قبل إفلاعه منها (في ١٤ مارس) أن يشكو طائفة من الرحان كميال Vial ودافو « الذين أرادوا مع أحد مؤيدي (انفاق العرش) من إبلاغ صوته إلى أجمع أولى الشأن في فرنسا » (٤) .

Rousseau 223 (١)

Pièce. Offic. 87 (٢)

Doguereau 305 (٣)

Rigault 66 (٤)

وما أن قويت المعارضة ضد اتفاق العرش حتى ارفع كليبر أراحا عطايا ، ثم استبد به القلق عند تلقي لدى وصوله من الصالحية إلى القاهرة في ٨ فبراير مخرج من الأبحيز على إداعه من أساء عن سقوط حكومة الإدارة ، ووصوله بونارت إلى الحكم في فرنسا وكاتب هذه ولائت أساء خطيرة ، وخاصة وقد حل كليبر لا يصله شيء من أحوار الوطن أو من أحوار بونارت منذ رحل هذا الأخير في شهر أغسطس من العام السابق ^(١) . ثم سرعان ما تأيدت صحة هذه الأساء عند ما وصل إلى أي قبر في ٢٧ فبراير (لاتور موبورج) La Tour Maubourg رسول الحكومة ، يعمل إلى جيش الشرق طائفة من الرسائل وانتقارر والصحف . فأيد الرسول حدوث الانقلاب انقلاب رومير الذي وضع بونابرت على رأس لفصلية - كما اشتمت الأوراق التي أتت بها على وصف مسهب لحوادث هذا الانقلاب وصورة من دستور الفصلية الجديدة ^(٢) . على أن الأمر الذي استمر على ألسنة كليبر أكثر من غيره كان حلو هذه الرسائل وانتقارر من أبة إشارة قد يسدل بها على أن الحكومة الجديدة ستتم إرسال معدات سريعة إلى مصر . كما أن بونارت لم يمس بمرسال كلمة تشجيع واحدة إلى جيش الشرق أو إلى قائده ^(٣) . وفصلا عن ذلك فقد حقق كليبر حينما كبراً عندما عثر ضمن رسائل حروسير على خطاب نصت به الأخير في ٢ يار ١٨٠٠ ^(٤) إلى حكومة الفصلية ، عند وصوله إلى فيلافراسكا ، يقول فيه إن جميع حدود الحملة يحدون كما بينهم من الأردية والبلانس ، ولا سمب للحواف من حيوش المصدر الأعظم لتعوق جيش الشرق على العتايين ، حتى إن انتصار كليبر عند التهامه مع هؤلاء في المعركة الصلة سوف يكون عطيا ساحقا . وعلاوة على ذلك فإن المجلس عملاً صدور الجند ، كما عملاً قلوبهم المحبة لقائدهم الذي يتمتع بثقتهم العظيمة ونسود بينهم روح عالية طيبة . فناء كلام حروسير مافصلا لما ذكره كليبر عنه في تقريره المعروف لحكومة الإدارة عن حالة الجيش السيئة ، وهي الحالة التي أوفد كليبر هذا الصابط المدعي لينسط حقيقتها مشافهة لدى أعضاء الحكومة ، على أمل أن يعرر حروسير بأقواله كل ما سطره كليبر في رسائله وتعاريره . ولذلك فقد ثارت ثائرة كليبر ووصف عمل حروسير ومسلكه « بالحق والندالة » ^(٥) .

Pajol 456 (١)

Corresp. No. 4526 (٢)

Rousseau 234 (٣)

Pièce. Diver. 247 — 8 (٤)

Rousseau 232 (٥)

وحق لكثير أن يعضب وأن يتألم ، ذلك أن مركزه كان في غاية الحرج بسبب وصول تومارت إلى أعلى صاحب الحكم في فرنسا ، وفي وسعه فصل منصبه الجديد أن ينظر تلك الاتهامات الخطيرة التي وجهها إليه كبير في نوفمبر ٢٦ ستمبر ، وأن يفصل في موضوع كان هو نفسه أحد طرفي الخصومة فيه ^(١) ، ومع ذلك فقد كان إيمان كبير عظيمًا بضرورة الاتفاق على أساس الخلاء عن مصر ، حتى إنه مال إلى أن يكتب إلى دوحا يقول ^(٢) : « إنه تكافلت وحوه الرأي فيما فعله من أجل الانتهاء من مسألة انقضاء في مصر رداد بعباً من الأحيال القليلة سوف تروح هامة بأ كليل من الهد والفتار ، لأنه وحده لديه من لشجاعة ماحظه يقرر صورة معقولة إنها معامرة (جنوية) - برعان ما يبعدها صاحبها عنه ومتكرها صوره تدل على الحب وعدم الشجاعة » كما مضى نقول في رسالة كتبها في الوقت نفسه ^(٣) (٦ مارس) إلى بوسريخ : « إن الإقدام على تأسيس مستعمرة دون أن يكون لدى الدولة التي ترغب في تأسيسها حكومة مستقرة أو محرمه قويه ، وحرانها حافية ، وهي محوص في الوقت نفسه بحمار الحروب في أوروبا ، مما يدل على منهي السحب والهددان ، وشبه بمحاولة فرض الحصار على مكان دون أن يكون لدى أصحاب الحصار أي سلطان في الميدان ولا دحر حرب لديهم ، بل إنه لأشد سوءاً من ذلك . . . وفي وسع تومارت القوي التقدير أن يكتم أهواء الناس فلا يطقون بالحقيقة وقتاً من الزمن ، ولكن الحق ثمين من يظهر عاجلاً أو آجلاً فيعرفه الجميع »

وفضلاً عن ذلك فقد ساء كبير على حد قوله أن يتصدى للمعارضة من أولئك الذي وقعوا بأيمانهم على محضر المجلس الجري الذي انعقد في الصالحية ، وقرر أممائه الموافقة على الصلح ، وطلب كبير من دوحا وبوسريخ أن يذكروا الحقيقة كاملة عند عودتهما إلى فرنسا ، وألا عثيا في قول الحق لومة لأثم . وفي ٢٧ مارس كتب كبير ^(٤) إلى وزارة الحرب في باريس يبدى « دهشته العظيمة » من حلو كل ما جاء به لائور موبورخ من رسائل وبعثات من ذكر شيء قد يساعد من أن الحكومة إنما تقترن إرسال النجيدات السريعة إلى مصر ، ثم حلوها كذلك من أية هامة جديدة بعد أن عبر الموقف من رجل تومارت إلى فرنسا الأمر الذي يدعو إلى اعتباط كبير على حد

Pajot 457 (١)

Rousseau 227 — 8; Ibid 457 (٢)

Rousseau 233 (٣)

Pajot 459; Rousseau 236 (٤)

قوله تلك النسوية التي انتهى إليها حديثاً . وفي ٢٧ مارس كان قد انتهى أسوع تقرب على آخر اشتراك وقع بين الفرنسيين والعمانيين في معركة كبيرة ، نتيجة بعض الإخفاض والعمانيين ليهودهم ، حرج منه كبير مصوراً مظفراً ، وهكذا فإنه على الرغم من معارضة الشددة التي أثارها حصوم (الاتفاق) ، والتي ازدادت حدتها بعد وصول لآتور موبورج محل أبحار اعلا (١٨ رومير) الذي أوصل بونارت إلى القنصلية ، ثم على الرغم من أن العدو قد سكت عنه ، فقد حل كبير يؤمن إيماناً صحيحاً بسداد تلك الساسة التي أسهدهت الحلاء عن مصر ، والتي أنهت إلى عقد اتفاق امراض . وفصلاً عن ذلك فإن كبير يمكن مسئولاً بحال من الأحوال عن نقص هذا الاتفاق ، بل وقع قسط كبير من مسؤولية نفسه على عاتق الإخفاض أنفسهم .

المختلة ونقص اتفاق العريش .

ومسئولية الإخفاض عن نقص اتفاق العريش حقيقة لا تملحدلاً أو مناقشة . ذلك لأن العمانيين حلفاءهم ، على الرغم من تلك الملهمة واحدة التي اصطفاها المصدر الأعظم في رسائله إلى كل من بونارت وكبير ، كانوا رجوعاً منكراً للمعاوضة مع الفرنسيين حتى يتسنى إحراج هؤلاء من البلاد وعودة البحار المصرية إلى حظيرة الدولة العثمانية ، فضلاً عن أنه لم يكن من مصلحة العمانيين في نقيض أن يحوشوا عمار حبيب عامة مع الفرنسيين في مصر ، لاختلال نظام حيوتهم ، ولخروج أحمد باشا الخراب على سلطانهم وعصاه في عكا ، وإقدامه على قطع المواصلات بين الجيش العثماني وإحلف على الحدود المصرية وبين القسطنطينية . فضلاً من مساعدته . حتى ساد الشعور عقب انسحاب الفرنسيين من عكا بأن المصدر الأعظم إنما أعد حيوشه الحرارة لإزال العقوبة بكل أولئك الباشوات الذين سدوا سيادة السلطان العثماني ، ولم يكن يحاول طرد الفرنسيين من مصر . وكان مما ألقى متحج العمانيين رؤسهم أسطول حلفائهم الروس بمحار عاب المياه العثمانية ، معظمت محافهم حتى إنهم صاروا يسمون الدائرة بحصين الصابق بمصلاً على كل ماعداء ؛ لأن مصر أو أي إقليم آخر من أقاليم الامبراطورية العثمانية لا يعدو كونه عضواً في حتمان الدولة . بينما تعتبر الصابق بمثابة « الحلقة » إذا أطلق الأعداء عليه فلا ماص من هلاك الجنان كله (١)

وعلى ذلك فقد اجتهد الأتراك في مبدأ الأمر حتى ينفوا للمعاوضة مع الفرنسيين سرّاً مكتوماً ، على أمل النجاح في الوصول إلى اتفاق ضمن خروج هؤلاء الأخيرين

من مصر ، حتى إذا قطعت المفاوضة شوطاً تبين منه أن القائد الفرنسي يريد حقيقة الخلاص عن مصر ، وصار ضرورياً كذلك أن يبحث الضابطون مع حلفائهم مسألة إعداد (حوارات المرور) اللازمة للمرسين حتى لا تعرض لهم شيء أساطيل الحلفاء من الروس والإنجليز في أثناء عودتهم بطريق البحر الأبيض ، اضطرا الأتراك إلى معانعة حلفائهم في أمر هذه المفاوضة ، فلم يها السير سدي سمث في أواخر أكتوبر عام ١٧٩٩ ، أي بعد مضي شهرين تقريباً على بدئها ولم يذكر الرئيس أمدي وزير الخارجية الفرنسي عنها شيئاً للورد الإنجليز في القسطنطينة : سسر سمث Spencer Smith إلا في ٣ أكتوبر حين طلب الرئيس أمدي إلى حلفائه الإنجليز والروس أن يحاولوا الدولة في إخراج المرسين من مصر ، وذلك بإعطائهم هؤلاء (حوارات المرور) اللازمة لهم . ومع أن تمارا Tamara المندوب الروسي كان قد وافق على إعطاء عدد من هذه الحوارات ، فقد حاول سسر سمث ، من ناحيته أن يكسب بعض الوقت حتى يدير الأمر الذي فوجئ به معانعة ، واعرض على عودة الجيش الفرنسي مكامل عدده وعدته دفعة واحدة إلى فرنسا ، حوفاً من أن يلحق الأذى بمصلحة الحلفاء أنفسهم من جراء عودة جيش الشرق ، والحرب ماراثب دائره الرحي في أوروبا وقضى الأتراك وهمائياً يحاولون تنديد بمخاوف سبفسر سمث ، ونفق دهن تمارا عن « خدعة حرية » للعدو بالجيش الفرنسي القائد إلى بلاده ، واقترح الأتراك على الإنجليز قبول هذه « الخدعة » ومدارها أن يقل الفرنسيون إلى مكان ما بدلاً من إرغامهم في الشواطئ الفرنسية ، حتى إذا ركوا السفن انقص عليهم الحلفاء وفكواهم في مدحمة عظيمة ، ثم شردوا من بقي منهم أحياء ، بعد أن يسبواهم أردنيهم وملابسهم وكل ما يحملون ^(١) وقد دل اقتراح الأتراك هذه « الخدعة » على الإنجليز أنهم كانوا يريدون الحصول على (حوارات المرور) بصورة من الصور وأمام إخراج الأتراك وإلحاقهم وافي سسر سمث في ٣ نوفمبر على إعطاء هذه الحوارات ، ولكنه اشترط موافقة اللورد إلجين Elgin السفير الإنجليزى الجديد على ذلك وكان من المنتظر وصول هذا السفير إلى القسطنطينة بين آونة وأخرى

على أن وصول (الجيش) إلى القسطنطينة بعد أيام قليلة سعيماً فوق العادة لدى السلطان سليم ما لبث أن صب ارتنا كآ تهاهراً في دوائر الباب العالي . ذلك بأن سفارته كانت تنزع من سسر سمث وأخيه السر سدي كل صفة تخولهم حق المفاوضة

مع الأتراك والروس ، في وقت كانت المفاوضات من أجل حلاء العرسيين عن مصر قد قطعت شوطاً يدعو إلى الأمل في إمكان إنجازها ، على النحو الذي يريده الأتراك أنفسهم ؛ ويتفق مع وجهة نظرهم ، فضلاً عن أن اللورد إلجين عند حضوره إلى القسطنطينية كان يعهل حقيقة الموقف في مصر ، وعليه علاوة على ذلك بحماية أمور عدة ، وأعاد قرار عاجل بشأنها ؟ من ذلك أن المفاوضات بين الأتراك والعرسيين في مصر كانت قد وصلت إلى مرحلة هامة ، مد أن توسط العرسيني في الأمر ، ووقع على كتابته المرفوف إلى كليبر في ٢٦ أكتوبر ١٧٩٩ بوصفه وزيراً معوضاً لدى الباب العالي (١) ؛ ومن ذلك أن الأتراك كانوا مسميين على استرجاع مصر وحلاء العرسيين عنها بكل سرعة ، فيما أبى (بما را) المسدوب الروسي يدعو الآن لسد المواقعة على هذا الحلاء ، ويطلب إلى الإيجلير أن يرفضوا ذلك على حلاى ما كان يريده سابقاً ؛ ومن ذلك أنه كان على اللورد إلجين أن سدى رأياً قاطعاً في مسألة تلك « الخدعة الحربية » التي اقترحها النمانيون سحر من من عارا للعصاء على جيش الحملة .

ورفض إلجين « الخدعة الحربية » ، ولكنه أمر بأن للمنيين الحق في المعاوضة والاتفاق على أساس حلاء العرسيين من مصر ، وإحلاء هذه البلاد منهم ، لاسيما وقد وافقت روسيا على هذا المدأ ، والروسي من أعضاء المحاكمة . وانحصر الاهتمام لذلك في طمس ما يطله العرسيون من حمان يكفل عدم تعرض الأسطول الانجلى لهم سد نقلهم من مصر إلى بلادهم غير أنه كان يسوء إلجين أن يطل السير سدى ممت ، بوصفه وزيراً معوضاً ، يلب دونه دوراً هاماً في المفاوضات ، كما أن إلجين سرعان ما عبر موقعه من مسألة الاتفاق بين الأتراك والعرسيين على أساس حلاء هؤلاء الآخرين عن مصر . وكان لهذا التميز أسباب عدة ، منها أن الأتراك أنفسهم قد ظهر الآن ترددهم في قبول الصلح عند ما انتهت الخدعة الحربية أفد منهم ، فأرادوا لو عكس الأسطول الإيجليرى في البحر الأبيض من أن يقبض على الجيش العرسى لعائده إلى بلاده ، ويعمل على إبادته وإفناؤه . وكان أعظم ما يحشاه إلجين من اتفاق الصدر الأعظم وكليبر ، ثم عودة السلام بين تركيا وفرنسا ، أن يزداد نفوذ العرسيين في القسطنطينية حتى يطمى على كل نفوذ آخر ، وقد لى إلجين نفسه آثار النفوذ العرسى الكبير في القسطنطينية على الرغم من وقوع الحوادث الأخيرة . وقد بسط

إلخين ذلك كله في رسالة نصت بها إلى اللورد جرينفيلد Grenville وزير الخارجية الإنجليزية في ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩^(١).

على أنه بما عذر ملاحظته أن إلخين ظل ما يقرب من شهر لا يطلع السير سدي على آرائه أو ما وصل إليه من نتائج . بل إن إلخين الذي شكى في ١١ نوفمبر من استعجال السير سدي صفة اللورد المعوص ، مالت حتى قرر في ١٧ نوفمبر أن يترك لتعديده وتقدير الصدر الأعظم الفصل في مسألة (حوارات المرور) لأن الخيبة التي يمحها السير سدي وصفه قائد القوات البحرية الإنجليزية في الليمانات ، عند الخلة عند خروجهم من مصر ونقلهم إلى بلادهم تساوى في قيمها وأهميتها (حوارات المرور) التي يصدرها إلخين نفسه^(٢) . ولعل إلخين كان لا يزال رده مصاحبة السير سدي ، عند ما شاهد عد قدومه إلى القسطنطينية مقدار مائتاً من علاقات طيبة بين الصدر الأعظم والسير سدي سميت ، حتى إن الصدر صار شق فيه ثقة عظيمة ، ولا يرى ما يدعو إلى إعادته عن المعاوضة ومبدآن العمل ، على الرغم من تعيين سير إيجدري حديدي القسطنطينية . فلما أن الأمور كانت تسير في نظر الصدر سراً صعباً^(٣) أو لعل إلخين من جهة أخرى كان لا يزال في حاجة إلى وقت أطول يعرفه في شخص موضوع الصلح بين تركيا وفرنسا ، حتى إذا قرر رأيه على شيء استطاع أن يعطو خطوة حاسمة في هذه المسألة .

وعلى شيء من هذا فقد بدأ إلخين يوضح موقفه من السير سدي بحيث من أواسط شهر ديسمبر ؛ فكتب إليه في ١٧ ديسمبر ثم في ٢٢ ديسمبر يعترض على فعله ويحتج على دخوله في معاوضة من أجل إخراج الفرنسيين من مصر دون أن يشارك معه في هذه المعاوضة الأتراك أنفسهم . إذ لم يحضر مؤتمرات الصلح التي عقدتها السير سدي مع الفرنسيين ، على حد قول إلخين ، أحد من القناصل يحمل من الباب العالي تعليلت يستطيع فصلها المسألة حديداً في المعاوضة ، مع ما في ذلك من تعرض التحالف مع الأتراك إلى خطر الانهيار . وكتب إلخين : « حقا إن مجلس مصر من قصة الفرنسيين لأمر هام ، ولكن هذه الرغبة لا يجب أن تكون سبباً في إثارة طعن الحكومة لفتية وشكوكها ، وهي الحكومة التي من واحدنا أن تسلك في شئونها الطريق الذي تعتبره ملائماً لمصالحها ، ولكن شرطاً أن يكون هذا السلك متفقاً في الوقت معه وجميع الارتباطات التي التزمت بها تركيا نحو إنجلترا^(٤) » . وواضح من هذا

Charles - Roux, op. cit. II. 42 (١)

Othorbal 107 (٢)

Barrow I 381 (٣)

Charles - Roux II. 43 (٤)

القول كذلك أن إحيى صار يخشى عواقب محاولة الأتراك أن يصدوا مسلحا معزداً مع فرنسا وكان أهم ما أحده إحيى على السير سدى سميت أنه لم يخطط لهجه للسألة فيدير الأمر بصورة تكفل تعاون الباب العالي مع الإنجليز في اتحاد متين من شأنه أن يحلل العثمانيين على الاستمرار في الحرب ضد فرنسا ضد بغداد مصر .

بلك كانت اعتراضات اللورد إحيى على عمل السير سدى سميت ، وبعض هذه الاعتراضات يستند ولا شك إلى أسباب صحيحة ، بينها مصها الآخر لا مدوع له . فالقول بصورة اشتراك معاومي عثماني في المناشات الحارية مع العثمانيين في مصر كان لموا لا طائل تحته ، لأن المفاوضات إنما بدأت بين كبير وانصر الأعظم قل تدخل السير سدى سميت على عموما سقى ذكره . عر أن إحيى كان على حق فيما يبدو في اعتراضه الآخر ، عندما طالب بقاء العثمانيين إلى جانب الإنجليز في الحرب ضد فرنسا ، بعد خروج جيش الشرق من مصر . وذلك لأن السير سدى لم يمر هذا الموضوع أي اهتمام لأسباب طاهرة ، منها أنه كان لا يقيم وزناً كبيراً لقدرة الأتراك العسكرية لما عرّفه عن ضعف جيوشهم وفساد نظامها ، فلم تهتم بمواصلهم القتال ضد الفرنسيين بعد خروج هؤلاء من مصر . وهكذا عن ذلك فقد اعتمد السير سدى أن في وضع الأسطول الإنجليزي مرآجه مصر وركبها معا ، إذا وقع في كليهما من الأحداث ما يدعو إلى هذه الرقابة

ومع ذلك فقد حارب هذه الاعتراضات جميعها تآخراً ، لأنها لم تنجح السير سدى سميت في الوقت المناسب ، أي قبل توقيع اتفاق الميريش الذي حدث كما هو معروف في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ . وعلى ذلك فإنه ما إن وصلت أخبار هذا الاتفاق إلى القسطنطينية في منتصف فبراير حتى أظهر اللورد إحيى امتناعه لحدوث الاتفاق دون الأحد باعتراضاته من جهة ، ولأنه لم يشترك في عقده من جهة أخرى . وبدأ إحيى من ذلك الوقت حملة شديدة ضد اتفاق الميريش وحده « صاحبه » ، وطلق يبعث بالكتب إلى اللورد حرنفيل طوال شهرى فبراير ومارس ينسب فيها أسباب معارضته ؛ ومنها أن الفرنسيين مشهورون بالعدو والحياة ، فلا يجب الوثوق بما أحدهم على أنفسهم من حيث الجلاء عن مصر في خلال ثلاثة شهور ، بل إن رعيته في الاحتفاظ بحور الأيوبيان وحريّة مالطة لتدل دلالة واضحة على أنهم يعون العودة في المستقبل القريب إلى مصر واحتلالها مرة أخرى ؛ ثم أن إحيى شعر باستياء عظيم من ناحية السير سدى الذي تجاهل دعوته للمساهمة في المفاوضة ، حتى أن اللورد ما لبث أن أنهم السير سدى بأنه كان « يعمل ضد موته » أضف إلى هذا كله أن السير سدى رضى تضحية

العثمانيين جنفاء الانجليز لسبب مياقته في اعصار العرسيين انجذاب سالة وبطولة تقتضيه
أن يحفظ لهم شرفهم العسكري ، كما أنه أنهى الحرب في مصر دون أن تتدرج مع الجيش
الفرسي السائد إلى وطه من الاشتباك مع الانجليز وجنائهم في مبادي أخرى ، ودون
أن يوضع للعثمانيين أنفسهم أن عليهم التزامات معينة نحو جنائهم الانجليز ؛ ودون أن
يحصل منهم على أي تعهد بضرورة الكثرة على بدل كل ما في وسعهم من جهد إلى جانب
جنائهم في القصة المشتركة ضد فرنسا ، مما يدرس جمعه وما كان يفهمه الجيش معه
عن حقيقة المهمة التي أوعد من أجلها إلى سماره القسطنطينية ، وقوامها « تأييد المحافظة
الثلاثة حتى تشر فائدتها في مواصلة الحرب ضد فرنسا ، ثم العمل على تحرير الديول
بحارة . ثم دعم الوددة الموحدة الآن في الامبراطورية العثمانية نحو المعتزة ، وذلك
بالحصول على مرابا المودد الانجليز في القسطنطينية بصورة مخبرم فرنسا عند
الصلح من استعادة موددها السياسي في تركيا بذلك التفوق الذي أحدث منه الأمة
الفرسية في تشييد صرح عظيم من الأرمه السابقة إلى الوقت الحاضر ^(١) »

وانتقد الجيش نشاط السير سدي قدا مرا . وعده مستولا عن هذه الأخطاء جميعها
ذلك بأنه اعتمد لعمه سلطان « انور رانموس » . وطلب الهدنة . ثم اقترح صدا
اخلاء ، ثم أظهر تبذره لافاق العرش ، وصار من التعمد عليه الآن أن يطلب من
الأراك أن يسكنوا على أعناقهم ، وأن يأموا هذا الاتفاق ويسقوا عهودهم .
ومع ذلك فقد كان السير سدي صيبت معه على حد قول الجيش ، أول من عمل على
إثارة لشكوك والخوف في نفس السير الانجليز من ناحية العرسيين ، الذين
قد سدمون على قولهم الاتفاق ، وإصمدون إلى استئناف القتال ، وعصروا إلى مصر
مرة ثانية . بل إن السير سدي كان متحيا على اللورد إجين عندما ادعى أنه وافق
على حلاء العرسيين من مصر ، بالصورة التي تضمنها اتفاق العرش ، حتى أن الجيش
ليحد لزاما عليه الآن ، على حد قوله في رسالته إلى جرميل في ٢٦ فبراير ١٨٠٠ ،
أن يصرح جها وعلاية أنه لم يقترح شيئا من شروط الاتفاق بل ولا يعرف شيئا من
أمر هذه المقترحات ذاتها حتى وقت وصول اتفاق العرش إلى القسطنطينية .

وواضح أن الجيش عندما حهر هذا القول إعا فعل ذلك مدفوعا بمامل الحق
والعيط حسب لأن الجيش كان يعلم في واقع الأمر ، مد حصوره إلى القسطنطينية
في نوفمبر ١٧٩٩ ، أن تم معاوصات تدور بين العثمانيين والفرسيين في مصر ، وكان

ما عرفت من أمرها كافياً لأن يرغمه إرغاماً شديداً ، حتى كتب في ذلك إلى حرميل خطاباً المرفوع في ١١ نوفمبر ، فضلاً عن أن بدأ إخلاء عن مصر كان مطروحاً على بساط البحث منذ وصول السير سدي سميت إلى القسطنطينية في ديسمبر من اليوم السابق . وقد تودلت بشأنه المذكرات الكثيرة بين الروس والاعظم والقبائين ، حتى إن اخبر نفسه عند قدومه لم ر من الحكمة في أول الأمر أن تدخل تعطيل نقل جيش الحملة من مصر إذا تمت الموافقة بالسلل اليهودية على مبدأ الجلاء ، عرض « الخدعة الحربية » ثم كتب في ١٦ نوفمبر إلى حاكم الهند العام يعلم إليه أحبار المعاوضة التي استطاع بها السير سدي سميت لتجديد مصر من قصة الفرنسيين لقاء شروط معقولة . وما هو حدير بالذكر أن الحبيب عندما بعث هذه الرسالة إلى الهند كان يؤمن بضرورة إعطاء كل ما يندبه ، الفرنسيون من محاولات تسكف لهم انقاء والاستقرار في مصر ، رعاة لمصالح الانجليز في الهند ذاتها .

وعلى ذلك فإن الانجليز سوف يسحبون ، بعض ما لديهم من جهود كبير ، في منح كل التسهيلات اللازمة لإخراج الفرنسيين من مصر « لأن استعلاء مصر من قصة فرنسا ما هو على حد قول الحبيب إلا حلقة أخرى في سلسلة تلك الانتصارات العظيمة التي أحررها الهند (الانجليز) في الهند حديث « ومع ذلك فقد مضى الحبيب في معارضة لاتفاق العريش ، حتى أنه كتب إلى القورد كيث Keith أمير البحر الانجليزي في ١٠ مارس سنة ١٨٠٠ يطلب إليه إرسال قوة عمرة إلى نيليه المصرية أمام الاسكندرية رجاء أن يستطيع كيث فرض شروط جديدة - للصحح - على الفرنسيين (١)

على أن كيث كان قد سمع ، قبل وصول رسالة الحبيب إليه ، أوامر صريحة من حكومته تقتضيه أن رفض أي اتفاق أو معاهدة بشأن الجلاء عن مصر ، طالما كان هذا الاتفاق لا يمس على ضرورة أن يسلّم الفرنسيون أنفسهم ككأسرى حرب تسلّم مطلقاً دون قيد أو شرط . والعلة في ذلك أن الحبيب لم يكن وحده حامل لواء المارحة ضد اتفاق العريش ، بل شاطرته الحكومة الانجليزية مسئولة تقض هذا الاتفاق ، عندما تبدلت سياستها رويداً رويداً من العمل على إخراج الفرنسيين من مصر تأييد صورة من الصور ، إلى الرغبة في استقاء جيش الشرق في مصر ومحاصرته بها ، ذلك ان انتصار نفس العظم في صوقعة النيل (أو معركة أبي قير البحرية) سرعان ما بدد مخاوف الانجليز على ممتلكاتهم في الهند من قاء الفرنسيين واحتلالهم مصر ، وما إن وصلت أخبار هذا الانتصار إلى لندن في ٢ أكتوبر ١٧٩٨ حتى فقد الاهتمام بشئون

مصر والشرق عموماً ملكته انديعة ، وباب الإغليز لا يوصون إلا بأمر واحد محض ، إما إخلاء الفرنسيين عن مصر من غير قيد ولا شرط وتسليمهم كأُسرى حرمه ، وإما مقاوم محصورين في دائرة قنوجهم الضيقة ، فيسعون من الاتصال عرساً حتى يصبوا في هذه البلاد عن آخرهم ؛ وحصار الخطة في مصر سهل حين لا يكلف الإغليز سوى ملاحظة مفاهد البحر الأبيض والأحمر ، كما أنه أقل خطورة ومشقة من السماح بعودة جيش الشرق إلى فرنسا ، واشترائك في المعارك الدائرة في أوروبا .

واعتقد الإغليز منذ انتصارهم في معركة النيل أن هذا الحش قد أصبح تحت رحمتهم ، وراد عليهم عندما سقطت في أيديهم رسائل جيش بونابرت أتت بها الحدود وانسأط إلى أيديهم ودوهم ، فصارها اسطول يسي الراس في البحر الأبيض فلأتت تصل إلى أيديها ، وانتهى الإغليز من قراءتها إلى أن جيش الشرق قد مات بسبب ما لقيه من صعوبات لا يستطيع دفع هجوم العدو عليه ، ولما انتهت الإغليز جيش الشرق لذلك حد حمل يلقى على هذه الكب عند إرسالها إلى لندن بأسلوب متوه المرء والسحرية^(١) ؛ ثم رسخ اعتقادهم بأن مصر جيش الشرق إلى المهزلة لا محالة عندما جاءهم الأخبار عن رحيل بونابرت إلى فرنسا ، فاعتبروا هذا الرحيل « هروبا » ، وعدوه دليلاً حديداً على أن نهاية جيش الشرق في مصر قد قربت وما إن صدر الإغليز حد ذلك تقرير ٢٦ سبتمبر الذي بحث به كثير إلى حكومة الإدارة حتى تأييد لديهم أن « الحملة » سوف تهلك عاجلاً ، ويتلشى ذكرها وسط كارثة مروعة ، وعلى ذلك فقد اعتبر الإغليز رغبة الفرنسيين في المفاوضة من « حل الحلاء والعودة إلى الوطن دليلاً على المهزلة واعتراضاً ظاهراً بها .

وفي أثناء نشوة « الانتصار » هذه وصلت إلى لندن في نوي ٨ ، ٩ ديسمبر ١٧٩٩ رسائل سيمر سميت والورد الخبي في موضوع (حوارات الزور) التي يطلبها الأتراك لتسهيل عودة جيش الشرق إلى فرنسا . فأصدرت الحكومة قرارها في ١٢ ديسمبر ، بعدم السماح للفرنسيين بإخلاء البلاد ، فإذا كان الجيش قد وافى على خروجهم فمن الواجب أن تصدر الأوامر إلى اللورد كيث حتى يرغم الفرنسيين على العودة إلى مصر ثانية . وفي ٥ ديسمبر صدرت الأوامر إلى اللورد كيث ألا يوافق بحال من الأحوال على عودة جيش الشرق إلى فرنسا ، أو على تسليم هذا الجيش إلا إذا سلم أفراداً كأُسرى

حرب للدول المتحالفة ، فبدأ ظهر أن السفير الاغلىرى في القسطنطينية قد وافق على إعطاء حوارات الضرور لهذا الجيش قبل أن يحرف رغبات حكومته ، فالواحد يقتضى اللوردي كيث عندئذ أن رفض الاعتراف بصحة هذه الحوارات ، وأن يرغم السفراء المروضة بها على العودة ثانية إلى الألكندرية (١) وقد بسط حرميل وجهة نظر الحكومة الاغلىرية في هذه المسألة ؛ وخواها أنه لا ماص من اشتراك الدول المتحالفة في قبوله تسلم العدو ، ولا يصح لأحد أعضاء المتحالفة أن يدعو « مفردا » مع العدو عند تسليمه ، وهل يستطيع الأتراك على حد قوله « أن يجبروا أنفسهم الاتقان مفردين على » تسلم « مع العدو على حده . بيد يرجع إلينا وحدها الفصل في إرغام هذا العدو على التسلم ؟ فاما أن نكون الأتراك حلفاء للاغلىرى في هذه الحالة لا يستطيعون العمل من غير أن يشترك فيه معهم . وإما أن يكونوا غير حلفاء لنا وعندئذ لن يستطيعوا عبث الأتراك بأي عمل ناتوه هم من جانبهم فقط » ولا مراد في أن هذه كانت حجة قانونية سليمة . ولكن الميب كل الصب فيها أنها جاءت متأخرة ، وكان الواجب إعلانها عند بدء المفاوضة بين الأتراك والعربيين . أى من تسعة شهور سابقة على الأقل . وفصلا عن ذلك فإن المهر بهذا القول الآن معناه محال كل ما وقع من حوادث في أثناء هذه الشهور الطويلة ، لوجود السير سدى سميت في مياه المياعات وهو لا زال مرودا بالسلطات المملوكية التي أعطاه إياها حرميل معه وحوالته حق المفاوضة . كما كان السير سدى يجمع بفسادة عمره « شبه مستقلة » . وله على الأقل وقتئذ تحكم الواقع فعلا حق التدخل في عمليات القبايين العسكرية . أضف إلى ذلك كله أن السلطات في لندن ما كانت محفل نوع « الحول » القدى بمصلحة السير سدى على سواء ، لإنهاء المشكلة القائمة . وقوامه تسليم العربيين عمدا إحصاء مصر والحلاه عنها بكل سرعة ومن غير حاجة إلى إرافة الدماء إذا كان ذلك ممكنا (٢)

ولذلك فإن هذه القرارات التي اتخذتها الحكومة الاغلىرية . والأوامر والتعليمات التي أصدرتها في غضون الأسبوعين الأولين من شهر أغسطس ، إنما تدل دلالة واضحة على أن موقف هذه الحكومة في مسألة بناء جيش الشرق في مصر أو حلاله عنها كان معضيا ولا شك إلى تعطيل إتفاق العربيين عند إبرامه ، وذلك قبل عقد هذا الإتفاق بأربعين يوما على الأقل

وواقع الأمر أن معارضة الأدميرال هذا الاتفاق ما لبثت أن رادت شدة على شدتها ، وكان اللورد ديلس في رمره أولئك الذين نسبوا في إحمافه ، ذلك أنه كان يكره بوابت كراهة عطية حتى سماه « بالشريد » ، واعتقد أن هلاكه قد سب وشيك الوقوع بعد عظم أسطوله في أي غير ثم استعانه من سكا ، ^(١) ثم طفق يؤكد لسترس ميث واللورد الحين عجزد أن وصله حرا معاومات أن العريبيين في مارق لا يرجى خلاصهم منه ، وأنه لا يمكن أن يصدق أنهم سيعون حفيظة بحلاء مصر ، « وحق إدارعوا في ذلك فانه لم يسمح لهم سوى واحد بالمودة إلى أوروبا ورجى الحرب في هذه القساره لانزال دائره ، بل ستركهم دنون في مصر جمعا حتى عصفوا عطية وعمره لعيرهم ، ويقر العالم بما رسهم دراس من دروس العدل الإلهي ^(٢) » وكان ديلس قد رفض منذ ١٨ مارس ١٧٩٩ أن سأل العريبيون حوارات مرور حتى عملهم سبهم لسلام إلى بلادهم ، وأصدر في ذلك أوامر قاطعة إلى السير سدي حتى لا يسمح لفردهم بمهم بمعدرة الأراضي المصرية ^(٣) . وما إن عرف بعد ذلك أن المعاومات قد تطبع شوطاً جيداً ، وأن البحث بدور حون إعطاء حوارات لمرور الجيش اشرق ، حتى كتب إلى السير سدي في ١٥ يار ١٨٠٠ ^(٤) مصر : على عدم إعطاء أية حوارات للعريبيين . وكان كل ما اهم به أن محل الصدر الأعظم رجفه على مصر حتى تبدأ تلك الحركة التي ما كان ديلس يشك في أنها سوف تنهى تحطيم العريبيين عظمها «أما ^(٥)

وهكذا تصارعت عوامد عدة على نفس اتفاق العريش ، ووقع على كاهل اللورد كيث إبلاغ كبير تعليقات حكومته . وكانت هذه التعليقات قد وصلت في ١٠ وائل يار ١٨٠٠ ، فأعد رسالة إلى كبير في اليوم الثامن من يار . ذكر فيها هذه التعليقات ، على أن يقوم السير سدي بإرسال هذه الرسالة إلى كبير في مصر ، وكتب كيث خطأً بحر إلى السير سدي في ١٠ يار . وقد تسلم سدي في ميث هذه الرسائل وهو يقرس في ٢٢ فرار ١٨٠٠ ، أي بعد انقضاء شهر تقريباً على عقد اتفاق العريش ^(٦) ، أما كيث فقد كتب إلى كبير « إنه ما على ماوصله من أوامر

Nelson III 451 (١)

Ibid IV 157 — 8 (٢)

Ibid III 296 (٣)

Ibid IV 179 (٤)

Ibid 153 (٥)

Berthier 354; Barrow II 9 (٦)

قطعة من حكومته صدد عدم قبول أي اتفاق مع الجيش الفرنسي هيأه البحارال
كثير في مصر وسوريا إلا إذا بقي هذا الجيش سلاحه وسلم حده كآسرى حرب ،
ثم ترك للدول المتحالفة كل السفن والقناطر الموجودة في مائتي الاسكندرية وفي
المدينة ذاتها ، وعدم السماح لأحد من الحدد عند حدوث الاتفاق بالعودة إلى
فرسا إلا على قاعده ، ذلك لآسرى ، لذلك يرى (اللورد كيث) من واحة
أن يذكر للبحارال كثير من جميع السفن في بحر من هذه البلاد محملة بالجنود
الفرنسيين ومروده عوارات لمرور يحمل بوفيع أناس غير أولئك الذين من حقهم
وحدهم اعطوها سوف رعمها ساط البحر تحت قيادته على العودة إلى الاسكندرية
كما أن السفن التي يمتز عليها في صربى عودتها إلى أوروبا مرودة عوارات لمرور
سواء على اتفاق خاص (بين الفرنسيين وبين إحدى الدول المتحالفة) سوف يضغط
كمائهم حرب ويسير اخود الذين يحملهم هذه السفن أسرى حرب ^(١) . وعدنده
كان قد مات واحداً أن كل ما ظل يبدله مدى سمث على وجه الخصوص سوال
الشهور الماضية من جهد وجيلة لإجراح الفرنسيين من مصر دون حاجة إلى الاشتباك
مهم في معارك حديدية بما لإرءاهم على لتسلم كآسرى حرب ، وإما لإفائهم
وإبداهم ، قد ذهب جميعه سدى ومات سياسته بالمثل ^(٢) . وفصلا عن ذلك فقد
ظهر الآن كذا ، قد تعطل أمر القصر في مسألة الخطة الفرنسية في مصر فمرة أخرى
من الزمن سدى سمث الذي احتضن اتفاق الفرنسيين وكان حريصاً على نجاحه
مالث أن حدد سعيه كل همته وشايد كي يحمل حكومته على قبول هذا الاتفاق وسعده .

استئناف القتال ومعركة هيدوبوليس

وبرجع اعتقاد سدى سمث بإمكان إجراح الفرنسيين من مصر دون حاجة إلى
الاشتباك معهم في معارك حديدية إلى الوقت الذي وصل فيه إلى القسطنطينية في أواخر
عام ١٧٩٨ ، أي بعد أن تحرر بلنسن انتصاره الحاسم في موقعة أبي قير البحرية ،
وكشفت الرسائل انى صادرها الانجليز في البحر عن منع ما وصل إليه حال جيش
الشرق في مصر من ضعف وسوء أفعده في نظر الانحدر كل قدرة على المقاومة عالم
بصله عادات حديدية من فرسا . اطمأن السير سدى سمث إلى تمدر إرساله إليه
بصل نقطة الأسطون الاعلى في البحر الأبيض . وفصلا عن ذلك فقد كان الأراكان

Pièce Diver 305 — 6 (١)

Charles - Roux II 52 (٢)

أنفسهم — على نحو ما تبين السير سدى في أثناء مفاوضاتهم معهم من أجل عقد المحالفة المبرومة في شهر يناير من العام التالي — حرصين كل الحرص على ضرورة إخراج الفرنسيين من مصر بكل سرعة ؛ يدفعهم إلى ذلك على وجه الخصوص أن الإغلب لم يكن في بيهم وقتئذ إرسال أية قوة برية للاشتراك في العمليات العسكرية . مكتفين بذلك بوصف حرم من أسطولهم في مياه الشرق حرسه . وعلى ذلك فقد سهل الاتفاق في المؤتمرات التي حضرها وبراء الباب العالي والندوب الروسى عارا ، إلى جانب السير سدى على تمرير مبدأ تحويل الجيش الفرنسى إلى بلاده عند سبوح الفرصة المتاحة . وبعد انعقاد هذا القرار في أوائل مارس ١٧٩٩ تقدم البحث في مسألة عوده جيش الشرق إلى فرنسا بخطوات واسعة حتى إن السير سدى ما لبث أن أعد فعلا صورة حوارات المرور التي تعطى لأفراد هذا الجيش عند رحيلهم^(١)

وقد سبق كعب أن سبق رفض في ١٨ مارس أن يحصل الفرنسيون على حوارات المرور ، وأصدر في ذلك أوامر قاطعة إلى السير سدى^(٢) ، بيد أن سدى حيث ما وقف مد شهر أكتوبر على حقيقة المفاوضات الدائرة بين الأتراك والفرنسيين حتى اعزم التدخل معه في هذه المفاوضة . فأنار عمله هذا جدلا كبيرا حول حقه في التدخل وإشرافه على سير المفاوضة^(٣) . وكان اللورد إلجين ، أول المفاوضين على تسعة السير سدى معه ، وبرز مفاوضا لدى الباب العالي ، عظمى ما أعطى إليه وإلى أخيه سيمبر حيث من سلطات حولها حق المفاوضة . والاتفاق على رسوم معاهدة التحالف التي أبرمت مع النماليين في ٥ مارس ١٧٩٩ . حقيقة ألقى بحج ، السفير الجديد إلى القسطنطينية هذه الحقوى مد بوقته من العام معه . ولكن وجود اسير سدى في مكان المفاوضة — سواء كان ذلك في العرش أم في غيرها — وبعد اللورد إلجين عن مكانها ، ثم ما فعله اللورد إلجين معه من حيث محاولته اسير سدى حق الاتفاق في مسألة حوارات المرور في ١٧ نوفمبر ، وارتدح انصدرا الأعظم إلى سير المفاوضات بإرشاد السير سدى وبوجهه ثقة العظمى به ، ثم عدم صدور أية أوامر من جانب حكومته تمنعه من الاشتراك في المفاوضة ، كل ذلك كان من ثمره أن يظل السير سدى ماصيا في شأنه . وفصلا عن ذلك فقد اعترى الفرنسيون أن من حقه المفاوضة يحصل

Nelson III 336 (١)

Ibid 296 (٢)

Pièc Diver 350 et sqq. Pièc. Offic 178 et sqq Charles - (٣)
Roux. II. 15 et sqq

ما لديه من تعليلات محوله ذلك ولأنه بوصفه قائداً للقوات البرية والبحرية الإنجليزية
حسب كان لديه من السلطات اللازمة ما محوله حتى المعاوضة^(١)

وعلى كل حال فقد مضى السير سدي في طريقه لا يأنه لاعتراضات المعارضين ،
حق ظفر بعبته وتم اتفق العريش في ٢٤ سار ١٨٠٠ على نحو ما سبق ذكره . وضح
بحرم السير سدي عن مقاومه كل يعود رعى إلى هدم الاتفاق ونقسه عندما تبين له
اشتداد حملة المعارضة صده^(٢) ، فكتب إلى مجلس من العسكر العثماني بعد ستة أيام حسب
من عقد اتفاق العريش ، برد على رسائل أمير البحر الإنجليزي التي ملحه فيها من إعطاء
حوارات المرور للعربيين ، وسط الأسباب التي دعت به إلى قبول الاتفاق فقال
« إنه لما كانت حملاتنا الكبرى في هذه الجهات بما تهدف إسعاد مصر وإرجاعها
إلى صفاتها وتأمين مسلك الرقصة في الهدم ، وكل هذه فوائد تتطلب للوصول
إليها بصحبت كبره ، فبني لا أشك ستا في أنكم سوف توافقوني على أن هذه
المعاوضات قد حسمت أقصى ما قد ترحو الإنسان لموعه في حرب - مع عدو - من
المصدر أن يكون عرصها بحطم عدو منصف بالثجاعة واللبالة ، أو إلحاق العار به
وإهانتته من غير حاجة إلى ذلك ، فصلا عن أنه مما يحب أن يذكره المرء دائماً أن الجيش
المدرّب الذي عركته البحارب مهما أشد تدمره من الخذل التي هو عليها فإن اليأس
سوف يحمله تحفظ طويلا ملاد معرلة بشق القوات العديدة أرضه . وتكثر بها السدود
حتى إنه ليتعذر الدخول إليها^(٣) ... »

وما إن وصته في فروع رساله اللورد كيث إلى كلبه حتى نادر مارسلها مع أحد
صداقه إلى القائد الفرنسي ، وحمل السر سدي هذ الرسول خطا آخر منه إلى كلبه
في اليوم نفسه (٢١ فبراير) ، كان غشاة اعتذار عن سياسته حكومته التي أقصت إلى
نص اتفاق العريش واستند سدي سميت عند مجلس الأعداء لفعلة حكومته
بأن الأوامر التي أرسلت إلى اللورد كيث من ١٥ ، ١٧ ديسمبر من العام السابق
كانت فديعة . ولا مراء في أن الحكومة إنما انطب بها إليه وهي لا تزال تعتقد أن
المعاوضة كانت عري بين الأتراك والفرنسيين وحدهما ودون أن يشترك فيها حلفاء
العثمانيين ، كما أرادت الحكومة من هذه الأوامر أن مع تعبد أية اتفاقات لانقرها

Pièce. Offic. 197 (١)

Ibid 253 (٢)

Barrow II 5 — 8 (٣)

معاهدة التحالف القائمة وسعاصم معها ثم معى السير سدى يعون . أما وقد دأب أمر الانفاق وعرف اجمع به ، فهو لا يشك فى أن قرار الخطر المعروف على الدرس بعده لنقل الجيش سوف يرفع قل وصورها ، وأنه أى لير سدى سوف يبدى كل ماوسعه من جهد وحيلة لتأييد الانفاق ، ويحذر عن تأخير الذى حدث فى إبلاغ هذه الأوامر إلى كثير تطول المدة التى تطلب الخطابات فى ثنائها فى الطريق ، ويطلب إلى القائد الفرنسى هذه الأمور على ما كانت عليه سدة المفاوضة ، إذا كان الفرنسيون لم يشرعوا بعد فى إخلاء بعض مراكزهم فى البلاد ، وذلك لجبن وصول أوامر أخرى من الحكومة الإنجليزية ماسة للظروف الحالية . وذكر السير سدى فى حاشى كلامه أنه يتوهم الحضور نفسه سراً أنهم الإسكندرية حتى يسلم جواب كبير على رساله (١)

وعاد السير سدى قمرس . وعند وصوله إلى الإسكندرية كتب إلى توسيلج فى ٨ مارس ١٨٠٠ — وكان توسيلج لا زال بالإسكندرية — نصف النصوبات التى يصعها رؤسائه فى طريق أى أم فى من طرار انفاق العريش لمنع تصده ، ويحاول إقامة الحجة على صدق سده بعدم وصول أية تعليمات بحقه من حكومته فى أثناء المفاوضة ، ذلك بأن أوامر حكومته الأخيرة إما كانت مؤرخة فى ١٠ يناير ، ولم تلعبه فى قمرس إلا يوم ٢٢ فبراير فقط . ولذلك فإنه يرى زاماً عليه أن يقطع الفرنسيين على حقيقة الموقف ، وبعد فى الوقت نفسه بأن يبدل قصارى جهده فى إقناع حكومته بأن ما تم الاتفاق عليه كان عملاً حكماً . ولدى السير سدى من الأسباب ما يجعل أمته فى النجاح قوياً (٢) .

وكان عزم السير سدى من محاولة إشاعة روح الطمأنينة فى نفوس الفرنسيين ، على الرغم مما كانت عظمه أوامر حكومته الأخيرة من معنى التحدى والاستمرار ، أن يجمع استئناف القتال بين الفرنسيين والأتراك . وذلك لإدراكه أن نجاح جهوده من أجل الحصول على موافقة حكومته على انفاق العريش وتمديد سياسته إنما يتوقف على منع حدوث أى اشتباك بين جيش الصدر الأعظم وكثير

ولذلك فقد كتب (٣) إلى اللورد إلجين مند ٢٤ فبراير يرجوه « أن يتعاون معه فى منع استئناف القتال » . وكتب إلى القبطان «شا أن يرسل على جناح السرعة

(١) Berthier 354 — 5

(٢) Pièce Offic 255 6 ; Pièce Diver. 405 — 6

(٣) Barrow II 19

القبائل النازمة لحل جيش الشرق من الاسكندرية ، وفصلا عن ذلك فقد أعين السير سدي حتى يؤكد الفرنسيين حسن نيته أنه لن يردد في سبيل اتفاق العريش من اساحة التي تمنحه « فلا مع أي مركب فرسي يعاد الشواطئ المصرية ، ولو أنه لا يستطيع أن يعطى شيئا عن ملكه ماثر العريش إلا بخبره الخاصفة لقيادته جيلها »^(١) وبالفعل استطاع كل من دوح ودرية ونوسيلج ومائر محهم معادرة الاسكندرية^(٢) بل إن السير سدي مالت أن حاول الاضمار بالبحرال كثير الاتفاق معه على هدنة . ولكنه لم يستطع معادرة بارحنه (بحر) ، كما أن كثير لم يستطع معادرة انفاهره .

وهفق السير سدي من ناحية أخرى عند لاسباله ممارصى الاتفاق من مواطيه الاخير . فظل طوال شهرى فبراير ومارس ١٨٠٠ بحث بالكسب إلى الجيش وبنس وإلى وزارة البحرية الاخيريه ، حتى عروا « حلا » تكفل خروج الفرنسيين من مصر . دون حاجة إلى إرافه دماء جديدة ، على نحو « تمعه اتفاق العريش »^(٣) ولعل أهم هذه الكتب كان كتابه إلى بنس في ٨ مارس ، ثم كتابه إلى اللورد كين في ١٣ مارس ، فقد حاول في كتابه الأول أن تلقى مسئولية (الاتفاق) على عاق اللورد الجين عندما أحد يقول « إنه ما كان اللورد قدأ كد على ضرورة إسهاء هذه المسألة وقبل كل شيء مع الفرنسيين من كسب الوقت ، ثم طلب إلى في الوقت نفسه أن أنرك العنانيين يدرون شئوهم بالطرق التي يحلو لهم ، فيه لم يعد في استطاعتى إذن فعل شيء . سوى قبول ذلك الوعد الذى أعطاه المصدر الأعظم للحيرل كثير في رده الأول عليه في أكتور ١٧٩٩ . ولخواه أنه في إمكان الجيش الفرنسى أن يستعبد أسلحته على سعة وغير ذلك من المعن التي يقدمها له الباب العالي عند الحاجة إليها »^(٤) .

وحاول السير سدي في رسالته الثانية أن يستميل اللورد كين إلى جانب أولئك الذين ساهموا حديا في إتمام الاتفاق على أساس الحلاء عن مصر ، فامتدح كثير لسويعه العسكري ولفسائله وحسن ثمائه ، وأثنى على توسطه لتسكة بالمبادئ والآراء الحرة ، ثم قال « ولم بدر غلدى ثباتا أنا قد نعهد إلى وضع عقبات في طريق اتفاق لاشك في أنه يعدنا كثيرا ، ومن الواضح أنه ما كان يمكن الوصول إليه على أى أساس آخر

Pièc. Offic 89 — 94 (١)

Barrow I 384 — 91; II 19 — 36 (٢)

Ibid II. 23 — 5 (٣)

مع جيش مدرب حكمته التحارب ولم تزل المهرمة بساحته ، ومن المتعذر أن يقلل
هذا الجيش التسليم كأمرى حرب^(١) .

وآثرت جهود السير سدي سميت في لندن عندما وصلت أخبار اتفاق المربش
إلى العاصمة في غضون شهر مارس ١٨٠٠ وانقسم الرأي صدد هذا الاتفاق فوافق
فريق عليه ، حتى الرغم من شدة معارضة أولئك القدي أعضاءهم « بدون » السير سدي
حق إنه رضى بسوده جيش الشرق إلى أوروبا ، ولم ترك « عصبة من المصوص وقطاع
الطرق » على حد قول اللورد بلس هيكوك في مصر واستند مؤيدو
الاتفاق إلى ما جاء في رسالة كتبها اللورد كيث معه إلى وزارة البحرية الإنجليزية
في أول مارس من ذلك أن السير سدي كان اصابط الذي وجد في ميدان العمل ،
ولازع في أنه كان يستطيع إعطاء العدو ما يراه من شروط ملائمة بصون مصالحه .
فصلا عن أن اللورد الخين لم يقصر على التفكير في ضرورة إخراج الفرنسيين من
مصر ، بل أوصى كذلك توصية شديدة لزوم إخراج الاتفاق من أجل إخراجهم ،
ووافق على ذلك أيضاً « السير الروسي » رسماً^(٢)

ولما كان من الصعب على الحكومة أن تعين عملاً قام به أحد رجال الدولة ،
ما في ذلك من الإساءة إلى سمعتها ، وإضعاف الثقة بها ، والانسحاب من هبتها في مصر
حلفائها وأعدائها على السواء ، فقد اتفق حرسيل ووزير الخارجية بضرورة الامتناع
عن أي عمل قد يعارض مع التعهدات التي أبرمها السير سدي بحيث خطأ باسم
حكومة صاحبة الجلالة » . فكتب في ذلك إلى اللورد الخين في ٢٨ مارس ،
وطلب إليه أن يصلح الملامح مع اناب العالي حتى يتم إعداد حوارات المرور اللازمة
للجيش المصري ، على أن يظل الإيجلر حلفاء للباب العالي حسب ، ولا يكونوا طرفاً
في المعاهدة ، وعلى أن يحترم الإنجليز هذه الحوارات كذلك . بل طلب إليه ، علاوة
على ما تقدم ، أن يلفت نظر الصليبيين والروس إلى ضرورة تعيد الاتفاق الذي
تم الارتباط به مع العدو بكل أمانة ، إذا شاهد من هؤلاء روعاً إلى القيام بعمل
عدائي ضد المصريين ، بل أو حد حروجهم على ظهر السفن التي تنقلهم إلى بلادهم^(٣)
وفي ٢٩ مارس صدرت « وزارة البحرية الإنجليزية » بهذا المعنى إلى اللورد كيث ،

(١) Ibid 1 384 — 9

(٢) Ghorbal 117; Nelson IV 213

(٣) Barrow II 13 — 4

ولو أن هذه الوزارة كانت لا تزال مصرة على أن السير سدي سميت لم يكن مروءاً
سلطات بحوله الحق في عهد اعاق من هذا القيل ؛ بل إن الحكومة — كما نصب
هذه التبعيات تقول . لم تقل اعاق العرش إلا لاعتبار ولحد ، وهو أن « قائد جيش
العدو » قد عامل السير سدي على ما سددو كشيخ اعقد القائد العربي عن حسن
نية أنه كان مروءاً بالسلطات التي بحوله الحق في إرام هذا الاعاق^(١) »

وسواء أكان السير سدي مروءاً بهذه السلطات أم كانت وراثة العجرة على حق
في دعواها ، فقد جمع سدي سميت بعد لأي وعده في الوصول إلى عرشه ، ولكن
هذا النجاح لم يسفر عن نتيجة ، لأن موافقة الحكومة الإنجليزية على اعاق العرش
جاءت متأخرة ، إذ كان كليل قد اشتبك مع العتايبي في معركة كبيرة في ٢٠ مارس
أي قبل صدور أوامر الحكومة الإنجليزية بالسجوع عربياً ولم تعد شدة محاولات السير
سدي سميت في منع استئناف القتال بين جيش الشرق وجنود الصدر الأعظم .

فقد شرع كليل بعد اتفق العرش عقب دمه مباشرة ، فعمل عداد الخس
ودخاذه إلى الإسكندرية حيث كان يجري العمل على قدم وساق استعداداً للرحيل ،
وشرع الخيس في إحلاء الصعد ، كما رح عن مراكز عدة في الوجه البحري ما لث
العتايبيون أن احتلوا في العظيمة والصالحية وبنس ودمياط وسره النرج ، وأحضر
يوسف صبا الصدر الأعظم جيشه إلى بنيس ، بينما راضب طلائعه في الخاكة على بعد
أربع ساعات من القاهرة ، وكان الفرنسيون على وشك إحلاء القبة وسائر حصون
القاهرة ، عندما لعب كليل رسالة السير سدي من فرس تنبئ بصور الأوامر إلى
الأسطول الإنجليزي في البحر الأحمر أن يحول دون سبيل اعاق العرش ، وأمام هذا
النتحول المفاجئ لم يجد كليل ماصاً من وقف عملية الإحلاء وانعقاد صائفة من التداير
العاجلة للبراء الخطر الذي يهدده من انتشار العتايبيين في قسم كبير من البلاد ، فأمر بحد
البرحامية ورشد بالحصور إلى القاهرة ، وشدت على حد الصعيد لكي يسرعوا بالهجرة
إلى العاصمة ، وعسكرت القوات العربية في مسقط القبة ، وأرسل كليل صوره من
كتاب اللورد كيث إلى الصدر الأعظم ، وأعلن أنه قد قرر تأجيل إحلاء القاهرة ،
ويعتبر رحب الجيش العتايبي الراض في بنيس عملاً عدواً^(٢)

على أن الصدر الذي كان يتشوق إلى دخول القاهرة دحس أن يزيث في الأمر ،
فرحب بحيشه على الخاكة ، ثم ما لبث طلائعه أن وصلت إلى بلطرية على مسافة

ساعين من القاهرة ، بين أحدث قواته الألمانية مواقعها في سهل القبة بين المراكز
الفرسية دها . وعندئذ وجد كليل لراما عليه في ١٣ مارس أن يطع حدوده على
جمعية الموقف ، وتوقع تعطيل تعيد اتفاق العرش « بعض الوقت » ، ونوأنه عرا ذلك
الى امير حدث في فاده الأسطول الانجليزى (١) ثم حاول في الأيام التالية بين ١٥ ،
١٨ مارس أن يصل إلى عامم مع الفرنسيين على أساس أنه تعذر التسلم بإسلام القاهرة ،
فد أن يصل موافقة رؤساء الأسطوليين الانجليزى والروسى في اسحر الأدهس على
معاهدة العرش ، وأنه لا ماضى لذلك من بقاء جميع الاعلاع في انماضه وفي ابوجه
البحرى عموما في حوزة الفرنسيين حتى تأتي هذه الموافقة . ولكن الأتراك الذين توهموا
على حد قول كليل أن هذه العروض المتواضعة دليل على ضعف الفرنسيين ،
وأن هؤلاء يحرون عن صد جيوشهم ، سرعان ما رفضوها . وعسك الصدر بصرويه
إحلاء القاهرة حسبما نص عليه الاتفاق . علاوة على إحلاء جميع القلاع وإحلاء الوجه
البحرى كذلك (٢)

واستند الأتراك في ذلك على أن رفض الحكومة الانجليزية لأهمية له ، وعمرتهم لهم مادام
اسباب اعلى نفسه قد وافق على المعاهدة (٣) ثم راد الموقف حرجا عندما اسمر الأتراك
في استعداداتهم فحاصروا مدافعهم من العرش ، كما حاصروا الامدادات من المصوره
والمهوية والعربية والعلوية والشرقية . بل إنهم لم يقصوا بذلك عطفقوا ، ورعون
المدشورات في طول اسلاد وعرضها ضد الفرنسيين « الكفار » أعداء الدين الإسلامى ،
الذين لا رعون عهدا ولا دمة » ويؤسسون مراكر لتحريك الثورة عليهم في القاهرة
والخلة لكرى وديماط . وأمام هذا الخطر الداهم إذن اضطر كليل إلى اتحاد العدة
لمباكرتهم قبل أن يفعل أمرهم وبسطير شرهم ، فمشر على الحشد في ١٨ مارس حطاب
اللورد كيث ، وعلق عليه بقوله : « ولا سمع المرء أن يرد على هذه الإهانات إلا بإحراز
النصر فاستعدوا للمعركة (٤) » .

ومند أن صبح عزم كليل على قتال الأتراك شرع مدبر خطة المعركة المنظمة وكان
عليه أن يحار أحد أمرين : ما التقاء في القاهرة واستطار الصدر الأعظم بها ، وإما التقدم
للاتحاد مع العباسى في معركة حاسمة ، وهصل كليل الخروح لمقاتلة العدو ، فلما وقعت

Bricard 397 (١)

Fajol 465 — 8 (٢)

Pièc. Offic. 115 — 6 (٣)

Galland I 247 — 8; Ibid 68 — 9 (٤)

الساعة الثامنة من صبيحه يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠ حتى بدأ الجند مخرجون من نكباتهم بكل سكوت في صورة مرعات ، بتولي الجيران فرسان قيادة مربعي بسمة ، والخرال ربيعه مربعي الميسره ، تبعهم كثير وأركان حربه ، وبقي الحداد فردييه بالقاهره للدفاع عنها . ورحل الفرنسيون صوب المطرية حيث أقام صاحب باشا ابن الصدر الأعظم على رأس قوة كبيرة من الاسكشاده ، فبدأت من ثم معركة هيوبوليس وامتد ميدانها من المطرية حتى جهات الصاخه ، وأوقع الفرنسيون بالأرك حربه مسكرة (١) وما كان يصوح باشا أحد المواد القنايين قد استطاع في أثناء المعركة الإفلات من الفرنسيين ، والامحول عرسانه إلى القهرة معلنا هزيمة الفرنسيين فقد أرسل كثير في أثره بعض القوات بقيادة فريدي وودورث Donzeot . بما أصل هو على تثبيت انقبة الداية من قول القنايين . رحل على الصاخه رجاء أن يعثر بها على الصدر الأعظم ، ولكن يوسف صبا كان قد أحلى معسكره على محل عدم شاهد اسهرام حيثه ، فلم يجد الفرنسيون عند وصولهم سوى حيام القنايين وعادهم معترآ في كل مكان . وعندئذ قصد كثير القاهره ، وكانت القاهره في أثناء ذلك كله مسرحا لثورة عابئة (٢) .

ذلك أن القاهريين الذين طلوا يترصون بحيش الشرق الدوائر ، سرعان ما أيقظهم من نومهم دوى المدافع صبيحة يوم المعركة ، انهوا من رقادهم مدعورين ، « ولم يدركوا حقيقة الحال » فكثرت منهم « القمط والقبل والغال » حتى إذا بين لهم أن الحرب دائرة بين الفرنسيين وبين القنايين و « الأمراء المصريين » الذين صهبوا جيش الصدر في رحله إلى الخاسكة والمطرية ، « هاجوا ورحلوا إلى أطراف البلد وقاتلوا أشخاصا من العرساوية صادفهم خارجين من البلد ليذهبوا إلى أصحابهم ، ودهست شردمة من عامة أهل مصر فانتهد الخشب وبعض ما وجدوه من عحاس وغيره حيث كان عرسى العرساوية ، وحرق السيد عمر احدى نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي واصمم إليهما أتراك خان الخليلي والمعاراة الذين عاصر . وتبهم كثير من عامة أهل البلد وجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدي الكثير منهم اساييب والصي والقليل معه السلاح . وكذلك تحرب كثير من طوائف العامة والأوداش والخشترات . وحاولوا يطوفون بالأرقفة وأطراف البلد ولهم صباح وصبيح ومحاوية

Berthier 397 — 410: Pajol 469 Sqg; Ader 308 — 11 (١)

Reybaud VIII 373 — 95 (٢)

تلكات يقفونها من احتراعاتهم وحراقاتهم ، وقام الكثير منهم إلى خارج
البلدة على تلك الصورة . ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر فوصل
جمع عظم من العامة من كان خارج البلدة ولهم صيايح وحدة وجمعهم
إبراهيم بك ، ثم أخرى وجمعهم سلم أعا ، ثم أخرى كذلك وجمعهم عثمان كجدا
النبوة ، ثم يسوع باشا وجمعهم وافر من عساكرهم ، وجمعهم السيد عمر القبط
والسيد أحمد المحروقي وحسن بك الحداوي وعثمان بك المرادي وعثمان بك الأشقر وعثمان
بك الشرقاوي وعثمان باشا الخازندار وإبراهيم كجدا مراد بك الغروي والساري ، وجمعهم
ممالكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على المحلة حتى وصلوا إلى وكالة
دى العمار ، فقال يسوع باشا عد ذلك للعامة اقتلوا الصاري وحاهدوا فيهم «
فكاس مثله كبير ذهب صحيحا عديدون من « الصاري القبط والشوام وغيرهم » .
واشتد المرح والفرح وكثر الهب والسلب وجمع « الصاري » كل من استطاعوا
« من الصكر المرساوي والأروام » وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعدم الأسلحة
والبارود والمقاتلون بظلمهم وقوع هذا الأمر ^(١) « وصاروا يطلقون النار على الثوار
من سطوح المنازل والنحوا معهم في الأرفق وعصن الفرنسيون والصاري الذين
استطاعوا ذلك في قصر الألبى بك بالأركنة وكان مقر القيادة العامة العربية وتولى
الدفاع عن القصر الجنرال دراسو Duranteau الذى تمكن من الصمود في وجه
ناصر باشا وجموعه المحتشدة في ميدان الأركنة . حتى حصر الجنرال لاجرانج
Lagrange لجنده ، فاداع لاجرانج بأبصار الفرنسيين في موقعة هليوبوليس ،
ثم تبعه فرنان ودوريو ففوى مركزه الفرنسيين في الأيام التالية ^(٢)

وعندما وصل كليبر إلى القاهرة في ٢٧ مارس كانت الثورة قد بلغت ذروتها
واندلع فيها في الوجه البحرى ، وعلى الخصوص في دمياط ومحمود ، وساعد على ذلك
استحاب الفرنسيين من مراكزهم المهمة في هذه الجهات ، واحلاؤها تعيداً
لائتاق العريش قبل نفسه . وبادر كليبر بإرسال قائده بليار Belliard ورامسون
إلى الوجه البحرى ، كما أرسل الجنرال لانوس إلى محمود لإخماد الثورة ، وقرر
كليبر الانتظار ريثما يعود بليار ورامسون فل أن يشترع حدياً في إخضاع القاهرة ،
وكان سبب هذا التمهل ضعف قوات كليبر العسكرية حد للمارك الأخيرة ، وعدم وجود

اللسان والمعدات الكافية لديه ، ثم رعبته في كسب الوقت حتى يتسنى له اغتاز استعداداته ومخبراته وعمد كثير إلى الحيلة والحذبة حتى توقع الانقسام والتمزقة بين العنانيين وأهل القاهرة ، وكاد ينجح في فعلته ، ويرعى الأتراك بالاستحباب من من القاهرة ، والاحتاج بحش الصدر الأعظم ، لولا أن القاهريين وعلماءهم ما لشوا بمجرد إداة الخبر أن هرعوا إلى ناصب باشا وكبار العنانيين يلحون عليهم في اللقاء ، بينما ارعت النساء وكل محور ضعيف لا على قدام الحشود العنانيين يلبسها بالدموع ويرجون هؤلاء الجود في عون محزون ان لا يركوهم فريسة لاصب للمسيحيين الشديد عليهم وانتقامهم منهم^(١) فرفضوا الاستحباب .

على أن كبير سرعان ما أدرك محاسن كبيراً كان له أثر ظاهر في معاونة القائد الفرنسي على إسعاد ثوره القاهرة ، عندما استطاع أن يقد مع مراد بك حامل لواء المقاومة العنيفة في الصعيد معاهدة صداقة في ٥ إبريل ١٨٠٠^(٢) وكان لقول مراد الدخول في معاهدة مع الفرنسيين ثبات عدة ، إذ تمكن الحيرال (دريه) من مطاردته في أرجاء الصعيد منه عام بطوله وكده حسان حسيبة^(٣) . فضلاً عن ذلك فقد اشتد نفور مراد من العنانيين بسبب صلهم وعمرهم ، ثم أقص مصحبه ما لحظه من استعدادهم الكبير في سوريا فارجع على مصر ، وصار يحثي أن يسترجع العنانيون نظامهم القديم وسؤددهم في البلاد بعد إقصاء الفرنسيين ، وأن يعمد الأتراك المتصرون إلى طرد المماليك منهم بعد ذلك . وقويت شكوكه عندما نشر الفرنسيون في القاهرة شروط اتفاقية العرش ، وقد نصت هذه على أن يتسلم العنانيون المراكز التي يملكونها الفرنسيون رويداً رويداً حسب شروط الاتفاق^(٤) . ثم علم مراد أن الأتراك يريدون إقصاء المماليك عن الحكم وإقصاء عليهم^(٥) ؟ يقابل ذلك أن يوبارت ثم كبير من بعده قد أظهر أعوراً است لاطمة روح مراد الشيء الكثير من صروب العاية وأسباب التوقير والاحترام ، وكانت هذه السنة عندما روحها مراد أرملة مات عنها زوجها صالح بك الكبير في عام ١١٨٢ هـ ١٧٦٨ ميلادية^(٦) . واشتهرت

Ader 318 (١)

Champollion - Figeac 332 — 3 (٢)

Pièc. Diver. 123 — 51: 241 — 2 (٣)

الجري ٣ : ٨٧ — ٩١ (٤)

Galland I 240 (٥)

الجري ٣ : ١٧٥ (٦)

عمل الخير وقد فعلت است فاطمة السقاء في القاهرة عند محنة الفرنسيين وحرس
بوابات وكثير على انصافه بامرها وقد ظل بها في عهدها معسوخا كما كان طوال
ثلاثين عاما عاما — على نحو ما ذكر كبير بعضه — لئلا يله انؤساء وأصحاب
الطاحات (١)

ورعب مراد مد أن انتشر خبر انقيا العرش أن شرب إلى الفرنسيين لعله يظهر
مهم معاهدة تحالف وصدائه بين القبا الدائر بينه وبينهم ، فيميش معهم في سلام
وعهده . خلال ائدة تقصره بآوبة لهم في مصر . ولذلك فإنه ماثل أن طلب من
الجنرال كير أن يدين له زيارة الصدر الأعظم عندما دناه الصدر بزيارته في معسكره ،
وذلك قبل نفس ائدة العرش وعدد القتل بين الصدر الأعظم وكبير ، فكتب إليه كبير
« إنه ما كان رى في حمام الصدر الأعظم وحيم مراد سوى أصدقاء ومحبي ، وأن مراد
مطبق الخربة في القهط إلى يوسف صاه » (٢) وقد استطاع ائدة موران Morano
حامل هذه ارسالة إلى مراد أن يتحدث معه حدث طويلا ، أعلن في ثباته مراد أنه
لن يشمر سلاط قط في ونة الفرنسيين . وعندما بين سكر أن لا ممدى من الاتهام
مع جيش الصدر الأعظم بادر بارسا (فوريه) Fourier . سكرتير الجمع
العلمى المصرى ، إلى السب فاطمة بريحوها الوسط بينهم وبين مراد ، وكان ذلك قبل
معركة هليو بوليس يومين حسب . فائدت الصده حدث فوريه إلى روجه . وكان
مدار الحديث أن ثقة الفرنسيين في الانتصار على الأتراك في السال امتظار عظيمة ،
وأنهم يرغبون في اسبلة مراد إليهم ، ولكن مراد رفض أن عهد شيء أو تورط
في عمل من الأعمال قبل أن يعطع الفرنسيون كل علاقه بينهم وبين الصدر ،
« ويتهمدوا نى الحرب عليه » فيبحار عندئذ مراد وسمعه إليهم ولما كان كل ما يرحوه
كبير وقتئذ أن يقف مراد موقف الجيد في أثناء المعركة القادمة ، ولم تكن المفاوضات
بين الطرفين قد انتقلت بعد إلى مرحلة البحث في أية شروط محبة من قبل القائده
الفرنسي أو البك المصرى ، فقد عد كبير جواب مراد صراحة محجودة ، واكتفى بأن
طلب إليه عدم الاشتراك في أية معارك قد تنشأ بينه وبين الصليبيين (٣)
وعلى ذلك فقد امتنع مراد عن الاشتراك في معركة هليو بوليس ، مع وجوده براحه

Pièce. Diver 327 (١)

Reybaud VII 424 — 5 (٢)

Berthier 417; Ibid 426 — 7 (٣)

قريباً من ميدان القتال ، وعندما دخل ناصف باشا وإبراهيم بك القاهرة رفض مراد أن يستمع إلى أقوال إبراهيم بك وميله القديم الذي ألح عليه بالانضمام إلى صفوف العثمانيين ، وذهب بمسكوكه إلى طرہ . وكان مراد في طرہ عندما جاءه وكلاء كبيرين يتفاوضون معه ، فأرسل مراد إلى كبير عثمان بك البرديسي مرودا بطلباته ، وخواتها أنه يطلب الاستقرار في حرہ من البلاد المصرية ، حتى إذا ركبها الفرنسيون استطاع بمعاونة النجيدات التي يمدونه بها الاستحواذ على بلاد هو صاحبها ، وليس هناك غير الفرنسيين من يستطيع جرمانه منها ، ثم قطع على نفسه عهداً بأن يظل أميناً على اتفاقاته معهم^(١) . ولما كان كبير قدر حب رسول مراد ، وقطع هو الآخر عهداً على نفسه بعدم حرص الفرنسيين لماودة مراد ومخاليكه وإزعاجهم في شيء بعد ذلك ، وأعلن أنه يجمع الاهتمام بمصلحة مراد بك في المرتبة التالية ، لاهتمامه بحبسه مائترة ، فقد أصبح ميسوراً بدء المفاوضات بصورة جدية ، وعقدت الاجتماعات لبحث قواعد انضمام في القاهرة في أثناء اشتغال الثورة بها^(٢).

وفي ٥ أبريل ١٨٠٠ وقع بين الماهدين كل من الجبال دماس واللوطن حنوييه Oulier عن كبير ، وعثمان بك البرديسي عن مراد . وكانت تتألف من عشر مواد تنص على إعطاء مراد بك الحكم والامارة في الصعيد ، والاسماعيلية وبلاد الكائنة بالمراتشوق والبر البري للبل ، أسداء من بلده بمصغوره مدبرية حرها إلى أسوان . على أن تكون حرها الحاصره ، وذلك لقاء أن يؤدي مراد إلى الجمهورية الفرنسية (للبري) الواجب دفعه عن هذه الجهات إلى صاحب الولاية على مصر ؛ وفصلاً عن ذلك فقد ضمن قائد الجيش العربي مراد بك الاتساع بدخل حكومة هذه الأقاليم . كما عهد بحمايته إذا تعرض لمجوم أعدائه عليه ، وقد تعهد مراد من حابه بتقديم النجيدات اللازمة لمعاونة القوات العربية إذا تعرضت الأما كن التي تحتلها هذه إلى أي هجوم من قبل العدو عليها . وبما عذر ملاحظته أن الفرنسيين اشرطوا في هذه المهادنة احترام مسكية الأفراد في الأقاليم التي حصصت للحكومة مراد ، حرمت من التصرف في مسكية شيء من الأراضي التي لا يملكها . وعذولة أعطائها إلى أفراد حاشيته على اعتسار أن « أمير الوحه القسي » له الحق في الجمع بالإيرادات للمتصلة من الضرائب حسب^(٣) .

(١) Préc. Diver, 328; Oalland I 257 — 8

Berthier 418 (٢)

Reybaud VII, 428 — 32 (٣)

ودكر العلم بقولا التركي العرس من إرام هذه المعاهدة ، وهو تسليم البلاد إلى مراد عند خروج الفرنسيين منها ، فقال « واستقدت للشورة على أن مراد بيك يصع وليمة للأمير كبير في حررة الذهب القربة من الجيزة ، ويدعوه إليها » وهناك يكون الاتفاق . فركب أمير الحيوش إلى الجيزة ، ومعه عثمان بيك البرديسي وعثمان بيك الأشقر ، وسار بمر قبيل إلى مقالة مراد بيك . فحين وصل وتقالا تلقاه مراد بيك بكل تشاشة ، وتصالحا مصالحة الإخوان وحلوا في ذلك الهدوان . وحلوا معهما (داماس) الورير (وديانوس) الترحمان . . . وهناك عاهد أمير الحيوش مراد بيك العهد الدائم ، وأنه يعيم في بلاد الصعيد يعيش بعيد مع سائر من يروم إقامته من العرب والمهاليك هناك ، وصره بجميع ماله من الأملاك ، ويكون حاكما على مدينة حرصه ، ويدفع لعشيرة مال ميريا المرتب عليها ، وأنه يرسل إلى إبراهيم بيك وقية العرب أن يكون لهم الأمان ، ثم عاهده أيضا إذا أحلت القساوية القديار المصرية فلا يكون تسليم هذه المملكة إلا له دون غيره من الدول ^(١) .

ولم يحد مراد غضاظة في قبوله السيادة الغربية وتفصلها على سيادة النمانيين ، عا دام الفرنسيون في البلاد ، حتى إنه سمى هذه « سلطنة فرنسا » ^(٢) . وامتدح كثيرون هذه الخطوة التي خطاها كبير فقالوا إن عقد هذه المعاهدة مع مراد إنما كان يند على بعد نظر سياسي من كبير . ذلك أنه أصبح في استطاعة الفرنسيين عندما يعادرون « الشرق » أن يجدوا في مراد بك سلطانا يصوبه على هذه البلاد ، حتى لا تقع مصر في فصة الإغمبر ^(٣) ؛ على أن مما يحذر ذكره أن فكرة الاتفاق هذه مع مراد بك لم تكن جديدة ، فقد سبق أن كلمت بومارت الفصل النمساوي روشيني Rosetti أن يرسل للاتفاق مع مراد ، وخوله الحق منذ أول أغسطس ١٧٩٨ أن يعقد معه معاهدة على أساس احتفاظ مراد بمدينة حرصه ، في نظير دفع الميرى المرتب عليها ، لقاء أن تظل هذه المديرية تابعة للحكومة الفرنسية ^(٤) ؛ أما وقد تعيرت الظروف الآن فقد أصبح تسليم البلاد إلى مراد بعد حلاء الفرنسيين عنها الفكرة الطاهرة في هذا الاتفاق الجديد .

ولا جدال في أن الفرنسيين قد أفادوا فائدة كبيرة من هذا الاتفاق . فقد أصبحوا

(١) بقولا التركي ١٨٣ — ١٨٤

Ernouf 258 (٢)

Rigault 75 (٣)

Corresp. Nos. 2921, 2922 (٤)

لأن مطمئنين إلى الترام مراد الهدوء والسكينة ، فلاحجار إلى جانب أعدائهم في النصال القائم ، فصلا عن أنه سوف يصحح في ومعهم أن يتعرعوا لثائرة أعدائهم في الوجه البحري ، فيحتل مراد بأحاده انبواض التي غلبوها في الصيد ، ولا يجد الفرنسيون ضرورة إلى بفترة قواتهم في أعزاء القطر ، لاسيما وأن هذه القوات قد أصبحت قبيلة^(١) وكان من أثر عقد هذه المعاهدة أن تقل مراد مساهمته على مساعدتهم في إخماد الثورة الفاشية في القاهرة . وقد ضب هذه الثورة مستمرة الأوار منذ ٢٠ مارس قطنهم لهم المؤن والدخائر ، كما سلم إليهم الغنمايين الذين خافوا إليه يطلدون حمايته ؛ وفصلا عن ذلك فقد أرسل لهم عدداً من المراكب المحملة بالخطب والمواد المنسبة لأحداث الخرائق في القاهرة . حتى إن هؤلاء سراعاً ما تمكنوا من إخماد الثورة بفصل الخرائق التي أشعلوها في الأحياء الوطنية ، وفي حتى يولاق على وجه الخصوص . الذي سلطوا عليه كذلك يران مدافعهم حتى حروبهم غرباً (١٥ ابريل^(٢)) . وبعد ما صبح عزم القاهريين على التسليم توسط مراد في المفاوضة ، وكانت معاوضة شاقة مصيبة^(٣) انتهت بإبرام الصلح في ٢١ ابريل ١٨٠٠ بين ناصر باشا وعثمان أفندي وإبراهيم بك من جانب ، وبين كبير من جانب آخر . وكان يتألف من تسع مواد حصل بفصله الحدود العثمانيون على مهلة ثلاثة أيام بين ٢٥ و ٢٢ ابريل حتى يخرجوا من القاهرة في أناسها ومعهم نقول أماليك إلى البلاد الشامية عن طريق بلبيس والساحلية والقطية والعريش ، ووقع الاختيار على الجبال (ريشيه) « لحراسهم » في أثناء هذا الاسحاب سراً من حدوث أية « إهانات » لهم . ومع كبير أهل مصر على وجه العموم ، والقاهريين على وجه الخصوص ، الذين اشتركوا في الثورات والاضطرابات الأخيرة عمومًا شاملاً ، وفي ٢٤ ابريل كاتب الخيال (ريشيه) بأن يوافق العثمانيين والمماليك الذين غادروا القاهرة^(٤)

كبير بعد هليوبوليس :

واعتبر كثيرون أن كبير قد طوى صفحة مدعة ، وبدأ أخرى جديدة في تاريخ حكمه في مصر ، بفصل انتصاره في معركة هليوبوليس ، وإخماده ثورة القاهريين

(١) Pajol 486

(٢) Reybaud VII 444—6, Berthier 412—28, Galland I 251—64

(٣) الجبرتي ٣ : ١٠٢ — ١٠٨

(٤) الجبرتي ٣ : ١٠٩ و 62 — Reybaud VII 457

الثانية ، وحاول أصحاب هذا الرأي أن يرددوا محوثة مستعينة ومستعلة لدراسة نشاط كليبر في تلك الأسابيع القليلة التي انقضت من يوم انتصاره على العنابيين في معركة هليوبوليس في ٢٠ مارس ١٨٠٠ إلى اليوم الذي لقي فيه كليبر مصرعه في ١٤ يونيو من العام نفسه . واستندوا في ذلك إلى أن كليبر بعد هليوبوليس قد احتفظ لنفسه خطة جديدة ، واسترشد في سياسته بأعراس مجلس عمال كان يستهدفه قبل انتصاره في هذه المعركة . فقالوا إن القائد الفرنسي ما لبث بعد هذا الانتصار أن بد سياسة الخلاه ظهرياً . ووطد الحرم على اللقاء في مصر ، وكان من أصحاب هذا الرأي يوارث نفسه الذي اعتقد أن كليبر بعد ٢٠ مارس صار لا يفكر إلا في أمر واحد حسب هو الأهم بدعم أركان المستعمرة الفرنسية الناشئة في هذه البلاد^(١) .

وفصلاً عن ذلك فقد اعتقد آخرون أن كليبر ما كان يستطيع العودة إلى فرنسا ، خوفاً من بطش يوارث الذي وجه إليه كليبر « اتهامات » خطيرة في تمرده المشهور إلى حكومة الإدارة (في ٢٦ سبتمبر ١٧٩٩) ، وابتز لقاء في مصر بعد وصول يوارث إلى القسطنطينية عقب انقلاب ١٨ رومبر^(٢) . وذهب فريق من المصلين ، ومن أصدقاء كليبر في إقامة الحجة على أن القائد الفرنسي قد غلب على سياسة الخلاه ، إلى أن انتشار روح ارضاء بين الجنود بسبب ما أبداه كليبر من اهتمام بشأنهم حتى صاروا يرتدون أردية جديدة ومحصلون على مرتباتهم ويحصدون غلبة كافية جعلهم يسبون متاعهم السابقة ، كما أحدث متاعهم ثقل رويداً رويداً بعد انتصارهم الأخيرة ، وبدأوا يتوقون طعم الحياة العظيمة قليلاً ، ويسعدون على حدوث انقلاب رومبر آملاً عظيمة في وصول الوحدات إليهم ، فقويت رغبتهم في الاحتفاظ بنفوسهم في هذه البلاد ، ثم رادهم انتصارهم في هليوبوليس ثقة في إخراج النصر على العنابيين في كل المعارك المقبلة ، كما جعلهم الحق على الإطعام لتقصم اتفاق العريش لا يبالون بقوة هؤلاء وأناسهم بل ويتوقون للانتقام منهم^(٣) . على أنه كان هناك إلى جانب هؤلاء الذين قطعوا بأن كليبر إما أصبح يريد البقاء في مصر بعد معركة هليوبوليس ، فريق آخر استملق عليه فهم سياسة القائد « الجديد » ، حتى ناب يبرو إلى كليبر التردد والتقلب وعدم الاستمرار على حال ، وبصفه آراءه بالإهم وعدم الوضوح^(٤) ، وكان مما حيرهم إقبال كليبر على الرعة في

Bertrand II 349 (١)

Martin II 99 (٢)

Reynier 90 (٣)

Régault 73 (٤)

استئناف المفاوضات مع النمانيين تارة ، ورفضه لمفاوضة معهم تارة أخرى ، واهتمامه بإدخال صروب الإصلاحات ذات الأثر البعيد خنا ، ثم إرضائه للصربيين وإثارة سطوتهم عليه بسبب ابتزاره الأموال منهم حياء آخر ، واتجاهه على قطع كل صلة مع الإغليز ، ثم إصراره في الوقت نفسه على أن عقد اتفاق العريش لم يكن خطأ سياسيا ، إلى غير ذلك من الأمور والأعمال التي عجزوا عن عبورها أو معرفة أساسها .

ومع ذلك فإن القول بأن كليبر إنما كان يسعى النقاء في مصر ضد مودة هاليو بوبس ويعمل على دعم أركان للمستعمرة الجديدة ، قول لا يستند إلى أسباب صحيحة ، ذلك أن عوامل عدة قد تصرفت منذ وقائع ٢٠ مارس على إحداث أثر واضح في سياسة كليبر حتى إنه يستطيع كل إنسان أن نفس من خلال الوقائع للمصادفة المتلاحقة أن اتفاق العريش كان يهدف عرضا واحدا معيا ، مهما تغيرت صورها ، وبدت للعين المتحررة كأنها متصادمة مسافرة . فقد نفس كليبر يده من الإغليز عما ، وقد أثبت في قوم سكنوا في نظره عهودهم منذ أن رفضوا اتفاق العريش ، ضد كل محاولة للتعاطف والاتفاق معهم . ولما كان يعتقد أن الإغليز لا يستطيعون تهديد جيش الشرق في مصر إلا إذا عقدوا العزم على مهاجمته من البحر ، وإزال حملة بحرية على الشاطئ المصري لهذا المرسى ، واعتقد كليبر أنه ما كان ليتسنى لهم فعل ذلك من غير معاونة الأتراك لهم ، فقد أراد كليبر أن يوقع التعرقة بين الإغليز والنمانيين ، متحدا من التريبات التي بدأها الإغليز وقتئذ من أجل احتلال الإسكندرية ودمياط والسويس ذريعة لإنارة أسباب التمرد بين الأفريقيين . وهياج الأتراك ضد حلفائهم . وأراد كليبر من ذلك عظم المحالفة للرمة بين الإغليز والنمانيين ، واستئالة الأخيرين إلى عقد معاهدة مع الفرنسيين ، بلزهم الوقوف موقف الحيد النائم في الحرب الدائرة ، حتى يحين موعد عقد السلام العام في أوروبا ، وقد أراد كابر فصل نفسه مع النمانيين أن يثنى مع رؤسائهم في القسطنطينية علاقات بمكة من الاتصال بالحكومة الفرنسية عن طريق الباب العالي ، فتأية أبحارها . فضلا عن ذلك فإن نجاحه في تحقيق هذه الأغراض سوف يتيح له الفرصة في مصر حتى يتفرغ لشئون الإدارة والحكم بصورة تساعد على زيادة موارده الساحبة ، فيسد مطالب الحملة ويرضى الجيش ، فلا تدمر ولا ضجر حتى يخرج جيش الشرق من مصر مرفوع الرأس موفور الكرامة^(١) . ومع أن كليبر ما است أن يبدد ذلك دليل فكرة استئالة الأتراك والاتفاق معهم في ظروف

سوف يأتي ذكرها ، فإنه ما كان يدور في حلد كلير قط أن عهد اتحاق العرش كان حطاً سياسياً ، أو أنه قد تمخلى عن حطة الحلاء عن مصر حين قرر المقاومة ، ورفض أن يتأثر بمحاولات الأتراك والإبحلر لإقناعه بقبول اتحاق العرش مرة أخرى وشعبه بسوصه .

وعلى صوء هذه الحقائق إذن يمكن تصور ذلك « التردد و لتقلب » الذى اتسمت به سياسة كلير في ظاهرها ، والذى حمل كثيرى حتى من بين رجال الحملة وقوادها وقتئذ يعتقدون أنه قد تمخى عن سياسة الحلاء وقرر البقاء في مصر .

فقد كتب كلير إلى الجبرال لا بوس في ٢٨ مارس ١٨٠٠ عندما أبلغه اللورد كيث أوامر حكومته المتأخرة في شأن قبول اتحاق العرش « أن الأحبار التى حملها إليها اللورد دون حمل أو حياة فبيلة القيمة بعد هذه الانتصارات التى أحرزهاها (في هليوبوليس) ، وأعتقد أن في استطاعتنا لرمن طويل أن نأمن من وقوع أى هجوم صلب ، بل ربما كان في وسعنا كذلك أن منتظر همدوء واطمئنان حتى يعقد الصلح العام في أوروبا^(١) . ولما كان كلير على نحو ما سبق ذكره لا يراى برعب في امتثالة الأوامر إليه فقد سطر رسالة طويلة للباب العالي في ١٠ أبريل يمسط فيها الظروف التى أدت إلى اتحاق العرش ، ويتحدث عن هزيمة الجيش عثمانى في هليوبوليس ، ويقول إنه لا يزال برعب في إعادة الصلاب الخاصة الوددة ، التى ربطت بين الأمتين العثمانية والعربية من أجيال عديدة وسوف يحمد الباب العالي لذلك « مستعداً لأن يصع مصر بين يديه ثانية وفق الشروط التى نص عليها اتحاق العرش مع بعض التعديلات التى تتطلبها الظروف الحالية ، ولا ممانس من إدخالها على هذا الاتحاق » فليس هناك ما يدعو إلى إراقة دماء جديدة عند مافات من اممكن إرجاع مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية بطريق المقاومة بعد أن عجزت القواء المسلحة عن ابراعها من أبدي الفرنسيين^(٢) . وقد أصبح كلير عن هذه الرعة لرحاله عندما كتب في اليوم نفسه إلى الجبرال لا بوس أنه ما يزال ، على رغم ما وقع من حوادث مائة ، برعب صادقا في عقد أوامر الحملة وإنشاء العلاقات التجارية مع تركيا ، ويريد إرجاع مصر إلى العثمانيين وفق شروط معقولة^(٣) .

Rousseau 254 (١)

Pajol 477 — 8; Ibid 257 — 8 (٢)

Rousseau 258 — 61 (٣)

ولما كان كبير ينتظر أن يؤتى هذه السياسة فخرتها ، فقد انكب على شئون الإدارة والحكم بكل حمة ونشاط ، لإزالة ما بقي من آثار ثورة القاهريين الأخيرة ، وتدبير الذين حتى يحين وقت عقد الصلح العام في أوروبا . واعدد كبير في مله خزانته بالأموال على وسائل شتى ، كان يسعى من بعضها الاستيلاء على المال حسب ، من أى طريق كان ، بينما يريد من بعضها الآخر إدخال صروب من الإصلاح على الإدارة المالية تمسكه من حاية الضرائب وعصيلها بكل دفعة ، فحاجاً إلى « الغرامات » الفادحة مرميها على الأهلين انصافاً منهم لقامهم شؤنها الأخيرة ، كما لحاً إلى « المصدرة » وغيرها من صروب إررار الأموال ، واستطاع كبير أسياب العسف والصرامة مع كبار المشايخ ، فدكر الشيخ الحبري أنه جمع أهل الدنوان وأنهم تأييداً عيماً سى اشتراكهم في الثورة وقال . كان حراً فذكر أن يعمل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق ، من فليحكم عن آخركم ، وحرى بلدكم ، وسى حرركم وأولادكم ، ولكن حيث إب أعصاكم الأمان فلا تقص أمسا ولا تفنككم ، وإنما أخذ منكم الأموال ؛ فاطلوب منكم عشرة آلاف ألف مراك . . . على الشيخ اسادات حامة من ذلك حمينة وحمة وتلاتون ألفاً ، والشيخ محمد بن الجوهري خمسون ألفاً . وأخيه الشيخ فتوح خمسون ألفاً ، والشيخ مصطفى الساوى خمسون ألفاً ، والشيخ العلى مائتين وخمسون ألفاً ، تقطعها من ذلك بطريق دور العارفين مع القمى ، مثل : المحروقي . واليد عمر مكرم ، وحسين أغا شمس ، وما بقي تدرون رأيكم فيه ، وبورعوه على أهل البلد ، وتركوا عدداً منكم خمسة عشر شعفاً . انظروا من يكون فيكم رهنة عدداً حتى تسدوا ذلك السبع وقام من قوره ودخل مع أصحابه إلى داخل وأعلق يده ويهم لئاب ، ووقفت الحرسية على الباب الآخر يعمون من عرج من الخالبيين ، فمات الجماعة واستمعت وحوهم ، ونظروا إلى بعضهم البعض ، وعجبت أفكارهم . ولم رل الجماعة في حيرتهم وسكرهم ، ونفى كل منهم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً . ولم رالوا على ذلك الحال إلى قرب انصر حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر بوله في شاك المكان ، وصاروا يدخلون على صارى انعط ، ويقعون في عرصهم ، فالتدى اعترفيهم ولم يكن معدوداً من الرؤساء . أخرجوه بحمة أو سب ، وبعضهم ترك مدامه وخرج حاجباً وما صدق عخلص منه^(١) . وأهين الشيخ محمد لادات إهانة بالغة ، وعامله كبير تقصوة وعظمة ، حتى بدا كأنما القائد العربى ما كان يعسه من أمر المصريين وحوهم سوى

امزار الأموال منهم ، حتى علا بها حزائنه ويصق منها على خيشته^(١) . وفُرِصت عرامة كبرة على ططا ، اقتصاصا من ثوره أهلها ، ثم على المحلة الكبرى ؛ وثارت هذه الأعمال سخط للعربيين الذي سرعان ما حلت الصائفة بهم لفداحة الغرامات التي وقعت عليهم حتى إنهم « سموا اللوب فلم يحدوه »^(٢) .

وحدث أن بدأت تقدم إلى الاسكندرية حوالى ثمانية من السفن المعدة لقلل الفرنسيين إلى بلادهم ، عدا أربع قراوت . وذلك في شهر فبراير بعد دجوع حرا أتماق امريش^(٣) . كما حصرت سفن عثمانية محملة بالذخائر والعتاد لحيش الصدر الأعظم في العريش ، كما قدمت سفن عثمانية محملة بالذخائر والعتاد لحيش الصدر الأعظم في العريش ، وفي المواضع الأخرى ، « قطعهم المرساوة ، وأظهروا لهم المائلة ، وأظهروا لهم سيرة . انتهى فدخلوا إلى البيا ورموا مراسيمهم ووقعوا في فتح الفرنسيين فاسولوا على الجميع »^(٤) . وصلا على ذلك فقد دخل إلى الاسكندرية عدد من السفن اعادته المحملة بالتجارة فأصدر كبير أمراء في ١٦ ابريل ١٨٠٠ عسادرة هذه السفن جميعا والاستيلاء عليها^(٥) . وأسر الفرنسيون فرقة معارضة أهل السويس والمخاريم إلى حاسب المسلم العنابي الذي كان قد تسلمها من الفرنسي عقب الاتفاق ورفض الآن إعادتها « فقصم الفرنسيون وقتلهم عن آخرهم ، وهبوا الصدر وما فيه من اثنى والنهار محواصل التجار وعرد ذلك » ، وأرسل مراد بك من الصيد كل ما كان العنابيون قد جمعوه « من أعنام وحول ومبره ، وكان شيئا كثيرا » وذلك عندما اضطروا هؤلاء إلى إخلاء الصعيد ، بعد أن كانوا قد شرعوا في احتلاله . واستولى الفرنسيون كذلك على المؤن والعلال واشعير والأتان التي جمعها العنابيون في الوجه البحري خصوصا . بل إن كبير ماليت أن عرض على « لمواحي علالا وشعمر وقولا وسأ ورادوا جيو لا وحولا ، فوقع على كل إقليم زيادة عن ألف فرس ، وألف جمل سوى ما يدفع مصالحة على قولها للمواظب وهو نحو ثمانمئة أو أربعمئة »^(٦) .

وكان لمرس الحصول على المال أن أصدر كبير أمراء في ٢٨ ابريل ١٨٠٠ بعضا بولسه « الإدارة المالية » القديمة التي كان يديرها بوسيلج ثم استيف من بعده ،

(١) Rigault 77

(٢) الجبرتي ١٩٤: ٣ ; Rousseau 292—3

(٣) Pajol 487

(٤) الجبرتي ١٩٨ : ٣

(٥) Rousseau 297 (Note 1)

(٦) الجبرتي ١٩٨ : ٣

حكاه استيعب الآن بالإشراف على الإيرادات العامة ، على أن يجمع الضرائب والأتاوات المحتقة التي يجري دفعها نقداً ، مثل نظري والفايض والرائي واستكشوفية وما إليها ، في قسم عام باسم « الضرائب العمومية القديمة » ، ابتداء من سنة ١٢١٤ هجرية ؛ وللقائد العام وحده حق تحديد هذا النوع من الضرائب في كل عام حسب علو النيل وحالة الفيضان ومقدار محصول الأرض الزراعية . واقتصر عمل الأقطاع على تحصيل الضرائب حسب . ولا كان عرض كبير اسكار الوسائل التي يمكن بها ملء « الخزانة » بكل سرعة ، فقد اشتمل هذا الأمر على تفصيلات وافية لإرشاد حكام الأقاليم والمحصلين وسائر العمال إلى إحدى الطرق لنظم توسيع الضريبة وعملها بسهولة ودقة وصط قيمها في كل موسم ^(١) واعترف كبير بأن غاية من هذا « الإصلاح » لم تكن سوى ضمان وصول المال إلى حراسه « بكل سرعة » ، فقل « إن الإصلاحات الإدارية المطبقة من الأمور التي محتاج إلى نظم كبير ، ولم يكن في وسعه ائتمن تنمية العقرة والسوق أن يتذكر مثل هذه الإصلاحات الإدارية المطبقة في يوم وليلة ، حتى ولو قدر له أن يستعين في ذلك بآراء أفراد عرفوا بالخبرة والمهارة في هذه الأمور ^(٢) » . ومن صروب هذا الإصلاح أن شكل (لجنة إدارية) في ٢٩ أبريل ١٨٠٠ كانت تتألف من رؤساء مروع الإدارة العامة ، حمل أعضاها حمة ، وذلك حتى يبحثوا مع القائد العام شئون التجارة والزراعة والامشاث العامة ، بما كان بعد خطوط واسعة في سائل إقامة نوع من « بورارات » المختصة بمروع الإدارة المتقدمة ، لولا أن كبير عمد إلى تقييد نشاط هذه اللجنة بقصر عملها في أول الأمر على مراقبة جميع الضرائب وتحصيل الإيرادات ، قل أي اعتبار آخر ^(٣) . وعنى كبير بمسألة « الموردين » الذي اتهمتهم معهم الحكومة لتوريد المؤن للجيش والأعدية والملابس وما إلى ذلك ، وكان كثير من هؤلاء قد أثروا نتيجة للتلاعب الذي أقصى إلى حرمان الجنود من الأعدية الصحية السكاية والأردية والملابس اللائقة ^(٤) . ففتدد كبير في أن يبال الجند الوحشات المعية لهم ، وأن تعطى لهم الملابس اللازمة ، كما أمر بأن يصرف العلف المخصص لجنودهم بكل دقة ^(٥) ، فأشاعت هذه العابه روح الرضى بين الجنود الذين حسنت أحوالهم فاضمأوا إلى كبير وحكومته .

Rousseau 273 — 7 (١)

Ibid 296 (٢)

Ibid 277 — 9 (٣)

Pajol 487 (٤)

Rousseau 288 (٥)

وم يشاء كبير أن يترك القاهرة دون إصلاح ما نههم وحرب من مابها وأحيائها
عقب ثورة القاهريين الأخيرة ، فلم يقتصر شهر واحد حتى كان حتى بولاق قد استعاد
رونقه بعد الحريق الكبير الذى حدث فيه ، كما أصلحت ثكنات الجنود وغيرها من
مباني الجيش ، وأعد كبير رماحاً للأعمال والتحصينات لحماية الشاطئ ، و نظم سبل المواصلات
القاهرة ، واهتم بإعمار التحصينات اللازمة لحماية الشاطئ ، و نظم سبل المواصلات
فأنتاشا الحضور وشهد الكبارى على النيل ، ولما كان العرمان يطلبون أحوراً فادحة
كلما طلب الفرنسيون استدعاء حمالهم أو يتعدون بها فى الداخل حتى لا يستطيع هؤلاء
الضور عليها ، فقد جمع كبير عدداً من الحمال يستخدمها الجيش فى أسفلاته ،^(١) وفصلا
من ذلك أفاد كبير من رعة الأهالى عموماً فى الترام الهدوء والسكينة بعد ثورتهم
الأخيرة ، وشكل من القطر فرقة عسكرية من خمسة مائة جندي ، وأخذ يشجع الأهالى
من مسيحيين ومسلمين خصوصاً فى الوجه القبلى على الخدمة فى الجيش ، وشكل من
الأروام فرقا عسكرية بلغ عدد أفرادها ألفاً وخمسمائة نسمة ، وهذا على حد قول
الجنرال ريبه حتى يسير الأهالى إلى الخدمة فى الجيش ، ويبحث فى نفوسهم الروح
العسكرية^(٢)

ولا جدال فى أن أكثر هذه الأعمال كانت تنطوى على رعة جعيفة فى الإصلاح
وإن كان كل ما قصد إليه كبير مما جمع المال ، ومما استقرار الأمور ، واستتاب
الهدوء ، والسكينة . لأنه ما كان سوى دون ذلك مثلاً لنظم الإدارة المالية ، وما يستلزمه
هذا النظم من دراسة موضوع الضرائب ، ومراجعة شتى سجلاتها التى احتفظ بها
الألقاط لمعرفة كل نوع من أنواع الضريبة ، وما كان مربوطاً بها على كل فرد ،
وإصابت كل فرد من المكلفين بأدائها ، إلى غير ذلك من المسائل المتصلة بأنواع عدمه
من هذه الضرائب ، التى لم يسند الحنافة فى تحصيلها على شئ سوى العرف والعادة
فى أحيان كثيرة^(٣) .

ووجد عدد من المعاصرين فيما بدله كبير من محاولات صادقة لإنقاذ المصروفات
فى جميع فروع الإدارة دليلاً على رعة القائد الفرنسي فى إدخال صروب من الإصلاح
دات آثار نافعة . بل يذهب بعض هؤلاء إلى أن كبير إنما كان يريد الإصلاح حقاً

Pajol 426; Reynier 86 (١)

Reynier 85 (٢)

Rousseau 296 (٣)

في كل ما فعله ، ندليل أن شئون الحكم والإدارة لم تشغله عن التفكير حدياً في مشروع كان يعنى منه الاستعاضة عن نظام ملكية الأرض في مصر بنظام آخر يقوم على أساس إعطاء الأرض للأفراد في صورة « حكر وفقى » ، بل بعقضاء كل فرد من أفراد الجيش جزءاً من الأرض مناسباً مع رتبته العسكرية ، وما أداه من خدمات للحملة . وذلك حتى يستلها هؤلاء دون أن يكون لهم الحق في امتلاكها ^(١) .

وعلى ذلك فقد كان من أثر هذه الإصلاحات ، وما أظهره كبير من صروب النشاط الذى تمثل جميع فروع الحكم والإدارة ، أن اعتقد كثيرون أن القائد الفرنسى إعا كان يعنى البلد في مصر ، وأنه قد نحى عن سياسته السابقة إلى أن يصب إلى اتفاق العريش . وراهم اعتقاد في ذلك ما طرأ من تغير على موقف كبير من العنانيين على وجه الخصوص ، بعد أواخر شهر إبريل تقريباً ، ولو أن هذا التغير كان تسمراً « طاهراً » ، ولا يدل على من الأحوال على أن كبير قد سد ظهره سياسة الخلاء عن مصر وإحلالها . فقد وصلت كبير في القاهرة رسالة من الصدر الأعظم يوم ٢٠ إبريل مدعى صاحب أن من حقه إزالة العراقل التي وضعها الاعلمر لتعطيل اتفاق العريش ، ويشكو من ذلك المبحوم الذى شه الفرنسيون على جيشه دون مسوع ، وصد كل قانون ، وصار يهدد كبير أن في استطاعته أن يدفع إلى امدان جميع القوات التي حشدتها لمداولة خصمه ، ويطلب منه أن يطلق سراح مصطفى باشا وغيره من أسرى العنانيين في القاهرة فلم يشأ كبير أن يحجب عن هذه الرسالة بل ردها إلى صاحبها ، وذكر في دليها أن كتاب الصدر الأعظم بسبب ما جاء به من أقوال « خاطئة وغير معقولة » لا يستحق غير السحرة ^(٢) . وذلك رقص كبير أن يدخل في مفاوضة مع الصدر والعنانيين .

وعلاوة على ذلك فقد أهمل كبير ^(٣) الإجابة على رسالة من اللورد كيث لث بها اللورد إلى بوسيليج في ٢٣ إبريل ، يسى فيها صدور أية تعليمات إليه أو أوامر من حكومته ضد الاتفاق الذى تم إبرامه من الصدر الأعظم والجنرال كبير ، بل إن تعليمات صريحة قد وصلت لإعطاء الفرنسيين حق المرور بسلام حتى يعودوا إلى أوطانهم ، وذلك رغبة من حكومته في إظهار حسن نواياها نحو حلفائها العنانيين ^(٤) . وكان كل ما واثق عنه كبير

Martin II 100. (١)

Rousseau 285 (Note 1) (٢)

Rigault 83. (٣)

Testa II 19—20. (٤)

حدد ذلك أن قبل في ٦ مايو ردا على خطاب من السير سدي صيحت في ٢٧ أبريل أن يطلق سراح مصطفى باشا وسائر «الأعدية» الذين كانوا قد حصروا إلى مصر عقب احتياق العريش لاستلام إدارة الجمارك بالبلاد ، وأن يرسلهم جميعاً إلى دمياط لقاء أن يطلق الصدر الأعظم سراح صابط من الفرنسيين كان قد ذهب للمفاوضة مع الصدر واحتججه يوسف صا في معسكره ^(١) وذلك رفض كلياً أن يدخل في مفاوضة مع الانجليز من أجل الخلاص عن مصر.

ومع أنه لم تكن عرباً أن رفض كلياً المفاوضة مع الانجليز وفشل ، لأنه كان قد عقد كل نفقة هم من أيام معركة هليوبوليس ، فإن رفضه الدخول مع الأتراك في مفاوضة كان شيئاً جديداً لا ملامح من معرفة سببه ، إذ اتضح أن كلياً قد استقر رأيه ليس فقط على عدم استئناف المفاوضة مع العثمانيين والانجليز على السواء ، بل اتحاد الأتمة أيضاً لمفاوضتهم جميعاً ، إذا ما لم أن تشوا محوماً جديداً على مصر . وهذا كان الساعث على ذلك عنور الفرنسيين على أوراق (موريه) سكرتير الماورد إلجين ؛ وكانت هذه الأوراق تشمل على امصلاات تلك «الخدعة الحربية» التي اشترك فيها مع الأتراك في تديرها للصدر بحيث اشترق وإفدائه . فقد سبق كيف أن إلجين لم يقل هذه «الخدعة» عند ودومه إلى القسطنطينية ، ولكنه سرعان ما قبل العمل بها إرضاءً للعثمانيين حتى لا يخرجوا على المخالفة ، وأصدر تعليماته في ديسمبر سنة ١٧٩٩ إلى (موريه) أن يذهب إلى الصدر الأعظم في بلاطه ليخلص حالة المسكر العثماني من جهة ، وحتى يعمل على سعيه الخدعة الحربية وبيع السير سدي صيحت آراء حكومته وتعليماتها من جهة أخرى ^(٢) . وقد استمر موريه مع جيش الصدر حتى بلغ الحدود المصرية . ثم لارمه عند رجعه على المطرية حتى إذا انهمر العثمانيون في معركة هليوبوليس ، غادر موريه المسكر العثماني إلى دمياط ، للاطلاع منها على عمل ، فوصلها في ٢٣ مارس ١٨٠٠ ، ولكن معركة الصغير لم تقو على مقاومة الأنواء ، فاضطر إلى الارتداد إلى بحيرة البرلس . وهناك أحاط به الفرنسيون وعثروا على أوراقه ، ومن بينها جوازله وبه ذكر «الخدعة الحربية» ، فأخذ إلى رشيد . ولما كان يحمل إيداعاً بالمرور سلام فقد سمح له بالاحتاق بالسير سدي . أما الجوزبال فقد أرسل إلى كلياً الذي وحد عند إطلاعه عليه ملاحظات دوماً

Rousseau 285—6. (١)

Ghorbal 116, 295—6. Martin II 109 (٢)

موريه معه ، تعليماً على أحداثه مع السير سدى سميت ، خصوصاً لصد تدبير الخدعة الحربية . ومع أن السير سدى كما انصح من فراءة الخورمال لم يوافق على هذه الخدعة لأن صيانة الإمبراطورية الثمانية واصلتها كانت متوقفة في رأيه على ملاحظة تنفيذ اتفاق العرش بكل دقة ، فقد كان ذكر أمر هذه الخدعة في فبراير ١٨٠٠ ، أي بعد إبرام اتفاق العرش ، كافاً لإنارة عصب كبير ، وعظم ثقته في الانجليز مالياً ، وخاصة عندما كتب موريه معه أنه يعتقد أن اقتراح الخدعة الحربية « إنما جاء نتيجة » كانت تروجه الإشاعات عن عدم صدق بوابا العرسيين ، وأن لا مخلص من الانحناء إلى عمل حاسم من طرار هذه الخدعة حتى يمكن أحلاؤهم عن مصر (١) .

وعلى ذلك فقد صبح عزم كبير على رفض كل معاوضة مع الإنجليز ومع الثنانيين . وذهب كبير في رفض المعاوضة مع الثنانيين إلى أنه لما كان لا يثق بمعاظمتهم الإنجليز ، وتشير عليه الدخول في معاوضات معهم ، فقد باب الاتفاق مع الثنانيين على أساس معاهدة العرش عتاً لا طائل منه ، لأن هؤلاء لم يكونوا أصحاب السيطرة في البحر الأبيض ، ولا حدودى كذلك من تسليم البلاد إليهم ، لأنهم لا يستطيعون لهذا السبب معه الاحتفاظ بعصر طويلاً (٢) . ثم سرعان ما ظهر أثر ذلك كله عندما طالب الأحرار عن ظهور أسطول عتني بقيادة القبطان حسين باشا أمام الاسكندرية في أواخر مايو . ذلك أن حسين باشا ما لبث أن أرسل اسحق بك يطلب الاحجام بالبحر لايوس في الاسكندرية لمعاوضة ، وكان اسحق بك قد عاش ردهاً من الزمن في باريس ، وأعلن أنه والقسطن باشا من أصدقاء الجمهورية . واعتقد كثيرون لذلك أن العرض قد سمحت أخيراً حق يثنى كبير فصل وجود هذا الوسيط الجديد ملك المصلا التي كان يريدتها مع اسلطان نفسه بالقسطنطينية . ولكن كبير الذي كان قد اعزم عدم الدخول في معاوضات مع الأتراك ، فصلاً عن أنه كان يحفل العرض الذي رفس من أحله أسطولهم أمام الاسكندرية ، وغشى أن يكون الثنانيون قد حصروا إيران حينهم إلى الر واستئناف القتال ، لم يلبث أن عذر القاهرة في ٣ يولية مع جماعة من الحد ، وأمر باجتماع عسكر الدلتا عند الرحمانية ، وأقام في الرحمانية عسكراً موحداً لمواجهة الخطر من أية جهة قد يأتي منها سواء كان ذلك من ناحية الشاطئ الشمالي أم من ناحية الحدود الشامية . ورفض أن يسمح لأى « معاوض » بالثول إلى الر خوفاً من

Martin II. 111. (١)

Rigault 83. (٢)

أن يكون غرض هؤلاء أن ينحسروا على مواقع العريش واستعداداتهم المعكّمة ، ولم يشه عن عزمه وصول رسالة يست بها (موريه) من باها في ٢ يويه^(١) يقول فيها : إن القوات التي كانت بحول دون عقد اتفاق العريش قد أزيلت نهائياً . بل إنه ما لبث أن نشر (جورنال موريه) في حريشه (الكورييه ديجيت) في ١٠ يويه وقال : « إن ماسحله هذا الجورنال ليدل دلالة قاطعه على أن موريه كان مكلفاً بتنفيذ خدعة حربية ، على ارفع من وجود المعاهدة ، ثم شرع يحذر موريه من المضي إلى هذه البلاد حتى لا يفض عليه ويشق كحاسوس إذا وطئت قدماء أرض مصر ، وقال كبير كذلك إن مصر أكلها القدي هدد به موريه سوف ينتظر ولا شك كل رسول قد يوفده موريه إلى مصر^(٢) . وفصلاً عن ذلك فإنه سرعان ما أعد مدكرة بهذا المعنى لإرسالها إلى موريه ولكنه قلل إرسالها .

وهكذا اضطرت الحوادث كبير إلى القسم بدور « حاكم في مستعمرة » وقائد للحملة أن يرعى عن الحلاء عن مصر ويحلها بدلاً^(٣) . وإن كان ذلك لا يعنى أن كلار قد عني عن سياسته التي أفضت بها معنى إلى عقد اتفاق العريش . واعتقد كثيرون من راعى انقضاء في مصر ، ومن هؤلاء عبد الله حاك مسو ، أن في وسعهم أن يهتوا قائد الحملة على « موقفه الجديد » وعزمه انتهاز على المقاومة ، وما يوهوموه هدولاً منه عن سياسته السابقة . ولذلك فقد جيل إلى مسو أن من الحكمة أن يحاول تحرير موقفه من المفاوضات الماسية ، وأن يبي وجود أية مؤامرات أو دسائس « بعيدة كل البعد عن تمكّره » ، كانت مسأهما ظهر من خلاف في الرأي بين الرحين ، فكتب في ٢٣ مايو سنة ١٨٧٠^(٤) يقول بعد أن شرح ذلك كله « وإذا كنت أعتقد أن التسليم القدي وقع في العريش خطأ سياسياً لا حربياً فيه ، فإن ما أحرزته أنت من انتصار ماهر ، وفتحك هذه البلاد من جديد ، لاشك في أنه سوف يتوح هامتك بأكاليل من المجد والتمخار » .

وأطلب مسو في مدح كبير وعده من مؤسسى للمستعمرات العطيفة ، وإن يقتل

Pièce. Divers. 418. (١)

Extra t du No. 70 du Courrier d'Égypte 21 Primal an 8 (٢)

Pièce Divers. 408—19 | Pièce. Offic 259—74.

Rigault 83. (٣)

Rousseau 299. (٤)

من شأنه إذا أزعج أوضاعاً على أن يحتفظ بمصر فترة محدودة من الزمن حسب ، حتى يحين عقد السلام العام في أوروبا . ولكن كليبر الذي ما كان يعتقد في قرارة نفسه أنه قد نجح بتاتا عن سياسته السابقة ما نث أن أحاب على رسالة مو قوله . إن كتاب مو قد سب له دهولا عظيماً لأنه حتى هذا اليوم لا يعتقد بحال من الأحوال أن اتفاق العرش كان خطأ سياسياً ، كما أنه لا يظن أن انصار الجيش في هيو بوليس كان عملاً يدعو إلى الفرح والسرور ، وأنه ما يزال حتى هذه اللحظة يعتمد اعتماداً حارماً أنه قد وصل إلى بليحة معقولة عند ما عقد اتفاق العرش ، لأنها (أي الحملة) معارضة طامعها الإسراف والعلو ، كما أنه ما زال مقتنعاً بأنه لا أمل هناك شيئاً في وصول معدات إلى المرسين من فرنسا ، ولن يستطيع هؤلاء سائناً ، أو على الأقل مدة الحرب الدائرة . أن يؤسوا مستعمرة في مصر ، فكتب أن شعيرات القطن وأشجار السجيل لا تبت عسكراً ولا تنفع أسلحة . وقال كليبر في ختام رسالته : « إنك تتجه نحو جهك صوب الشرق ، بينما أعده بوجهي صوب الغرب ، ولا يمكن أن تنق في هذا الأمر أبداً (١) » .

على أن مما يحذر ذكره أن رسالة مو لم تزعج كليبر ، فقد نادر قائد الحملة عند انتقاله إلى الرحامية باستدعاء ميو إلى القاهرة في ٢ يوية وبعده الحكم بها ومع أنه كان من رأى مو بعد ذلك أن الواجب يقتضي كليبر أن يسط لأولى الشئ في باريس كل ما وقع من حوادث فكتب إلى كليبر بذلك في ٨ يوية . فقد رفض كليبر أن يعمل بما أشار عليه ، ولم يكدر هذا الاختلاف صفو العلاقات بين الرحلين في أيام كليبر الأخيرة . وظل كليبر بعد عودته إلى القاهرة في ١٠ يونيو بمسماً في أوامره اليومية من بشر أبة أساء عن فرنسا ، أو الحديث عن أغراضه وبواياه . فكان من أثر ذلك أن استمر جد الحملة وفوايدها ، ما عدا أولئك الذين قرهم كليبر به كالجبال دامية ، يجهلون حقيقة ما بيت عليه عزمه من حيث اللقاء في مصر أو الحلاء بها . وعلى كل حال فإن الأهل لم يمتد بكليبر حتى يعرف جيش الشرق بوابا قائده الحقيقية ؛ ذلك بأن كليبر بعد أربعة أيام حسب من عودته إلى القاهرة ما لث أن لقي حقه عذراً على يد سليمان الحلبي .

فقد قصد كليبر في صبيحة يوم السبت ١٤ يونيو ١٨٠٠ إلى جزيرة الروسة ليستعرض فرق الأروام ، حتى إذا انتهى من ذلك ذهب مع المهندس (روتان) Protant ليفحص أعمال الترميمات الحارية في مقر القيادة العامة بالأركية ، وهي سراي

الألبي بك ، ثم ساول العداء في دار الخيال دامس ، وكان يربط بين السراي وبين هذه الدار مئتي طويل فوته (تسكيبه) من الحب . وحرص كبير بعد العداء ، ومع بروتان ليتعهد بقية الأعمال بالسراي ، ويبهاها بسيران في ذلك للمشي طلع عنهما سلمان الخلى في صورة متسول يطلب صدقة ، « فأشار إليه بالرجوع وقال له ما فسر وكررها ، ثم يرجع وأوممه أن له حاجة وهو مضطر في قصاتها . بما دامه مد إليه يده اليسار كأنه يريد ثقيل يده ، ثم إليه الآخر يده فقص عليه وصبره محجر كان أعداه في يده انتهى أربع صربات موائية ، فشق بطنه وسقط كبير إلى الأرض » مصرحاً بدمه وحول رومان مساعدته ، فصر به الخلى وفر هارباً . ولكنه لم يذهب مبدأ فعثر عليه العربيون « مروياً في النستان المخاور ليت حاري عسكر المعروف بسبط مصباح نحاس حائط متهدم ففصوا عليه ^(١) » أما كبير فمد يده من حراجه في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم معه وموفاته انتقلت القيادة إلى عبد الله حاك موحاكم القاهرة .

الفصل الرابع

التجربة الاستعمارية

تمهيد

كان مو بعد وفاة كليبر أكبر قواد الحملة س ، وبحوله قدم رسته العسكرية في يتولى القيادة العامة ، ولكنه ردد في قول هذا المص ، وكان من رأيه أن يتولى القيادة العامة بدلاً منه الجنرال ريبليه ، من أصدقاء كليبر الأوفياء^(١) ومن المحييين إلى الجيش^(٢) . ولكن ريبليه لم يقبل حرصاً منه على عدم مخالفة القوابيل العسكرية ، أو لأنه كان عثى من عمل عبء مسئوليات المص ، وس أهمها محاكمة قاتل كليبر أصعب إلى ذلك أن الخوف كان لا يزال مسئولياً على القوس من أن يكون الاعتداء على قائد الحملة السابق عثاء إدار لتحريك الثورة من جديد في القاهرة^(٣) . وأمام عروى ريبليه لم يجد مو ماصاً من قول القيادة بصورة « مؤقفة » ، حتى بأن تشينه في هذا المص نهائياً من جانب الحكومة الفرنسية .

وما إن تسلم القائد الجديد أعماله حتى أصدر إلى الجيش مشوراً في ١٥ بويه^(٤) ، يعلن خبر الاعتداء على كليبر ، الرجل الذي استطاع أن « يفتح » مصر مرة ثانية في مدى عشرة أيام ظم ، بفضل ما أحرره الجيش من انتصارات باهرة تحت قيادته ، والرجل الذي استطاع أن سظم الشؤون المالية ، ويدفع لأحد روااتهم المتأخرة . وقد احتتم مو هذا المشور بقوله « إنه يستمد القوة من روح كليبر ، كما يستمدّها من عقريه بوبارت ، حتى يمكن فصل ذلك من دفعهم — أى دفع رجال الحملة وحيشها — وهو من يبينهم إلى الصل بأعناد لتأييد مصلحة الجمهور » . وفي اليوم نفسه أصدر مو أمراً بتشكيل لجنة من تسعة أعضاء ، تصم إليها الجنرال ريبليه وآخرون ، وذلك لمحاكمة

Reynier 97. (١)

Martin II 141. (٢)

Rigault 93. (٣)

Galland I 279 — 83 . Bricard 424 — 5 ; Pièces Diver. (٤)

429—30 Pièce. Offic. 286—8 ; Richardot No. 21 pp. 448—9.

التهجين بقتل كليبر^(١) . وجرت هذه الحادثة فوراً ، صدر الحكم في يوم ١٦ يونيو بإدانة سليمان الحلبي قائد كليبر ، والهندس بروتان ، وبإدانة أربعة مشايخ كثر كما سليمان الحلبي ، لأنهم علموا سوابه ولم يسموا بها . وقد حكم على أحد هؤلاء تينايا بقراره ، ثم رى منهم آخر . تمت عند التحقيق أنه كان يحمل بية القاتل وعمره على اعيال قائد الحملة^(٢) . وفي ١٧ يونيو احتل جيش الشرق احتلالاً رهيباً بتشجيع رفات كليبر ، وألقى قوربيه ، القومسيير العرسى لدى الديوان وسكرتير المجمع بعض خطاب تأبين طويل . وكان بعد أن وورث الحملة التراب أن أعيد سليمان الحلبي ورفاقه الثلاثة^(٣)

رابع منو سياسته :

حزن الجيش لوفاة كليبر حزناً شديداً ، ولم يكن منشأ هذا الحزن العظيم حب الجيش لقائدة السابق لحب ، بل لأن كليبر أيضاً إلى جانب تعلق الجيش به ، كان صاحب سياسة الخلاء عن مصر والعودة إلى فرنسا . وكان من أثر حب الجند لقائدهم الراحل أن حتى بعض كبار الضباط في المراكز البعيدة عن القاهرة من إداعة سأ الولاء رسمياً على الحملات المختلفة إلا بعد مضي يوم كامل على الأقل من وقوع الحادث^(٤) . ومنذ أن صدر مو منشور ١٥ يونيو ، الذي أعلن فيه حر الاعتداء على كليبر ، صار يشارع الجيش عاملان ظاهران . هما عامل الحزن على وفاة كليبر ، وعامل الدهشة المفروية باخروج نسب اسعاف قياده جيش الشرق إلى الغرب إلى مصر^(٥) ؛ ذلك أن الجيش ، أو إن شئت فعلى الأقل قواده وضباطه^(٦) ، كانوا لا يتقون في قيادة مصر ، الذي وصفه جماعة منهم بأنه « رجل اللامع الدم » الذي يحمل عبء الحرب والقتال هؤلاء ، بينما قال عنه آخرون^(٧) إنه كصابط بنفسه الكفاءة ، ويهراً به الجميع ويسحرون به^(٨) . وجرع الجيش حراً شديداً لأن أحداً ما كان ينظر العودة

(١) Pièce Diver 430 1. Pièce, Offic 288- 9 Galland I 282 3.

(٢) Pièce Offic. 317-22. Pièce. Diver 450- 4. Galland I 284-90.

(٣) Pièce. Diver. 456- 61. Pièce Offic. 326- 32 Bricard

422-6 ; Martin II 125.

Rigault 94. (٤)

Bricard 423. (٥)

Douguereau 393. (٦)

Vertray 165. (٧)

Martin II 136- (٨)

إلى ذلك ما حدث سبعة لحضور العمارة التركية إلى الإسكندرية ، وما صار سديده قائدها حسين باشا من رغبة ملحة في لتفاوضة من أحد مبرري السلام ، فقد تأثر بذلك حامية الإسكندرية ، وعظم الأمل لدى حدود الحملة في العودة قريباً إلى أوطانهم وهكذا كان واضحاً أن اعتيال الحزب كلير لم يعبر شيئاً من رغبة الجنود وقوادهم وصاطهم بل وسائر رجال الحملة في معاداة هذه البلاد بكل سرعة .

وعلى ذلك فقد بات من واجب منو أن يختار بين أمرين إما التحلي عن سياسته الاستعمارية ، وهي سياسة انقضاء في مصر عن الأهل حتى يحل الوقت ليعود الصبح انهم في أوروبا ، وإما التحكك بهذه السياسة ، ومن واجبه عندئذ أن يادر بموصيحه سياسة الجيش الشرقى ، وأن يعمل لإقناع هذا الجيش لضروره البقاء في مصر « بحقيقاً للمصلحة العامة » . ولما كان منو قد اختار المعنى في عمرته الاستعمارية^(١) ، فقد أصدر بدار إلى جيش الشرق في ٣ مسدور من السنة الثامنة للجمهورية ٢٢ يوسه سنة ١٨٠٠ ، كان بمثابة البرنامج الذى صممه من أهدافه السياسية^(٢)

بدأ منو هذا انشاء محاطاً فواد الحملة وصاطها وحسودها بموله . إنه قد مات لازماً عليه أن يظلمهم جميعاً على « الحقيقة » التى فى وسعه أن يوضحها . لبيان الأسباب التى دعب الحكومة الفرنسية إلى إرسال الحملة إلى هذه البلاد ، « ذلك أنه عندما عمت هذه الحكومة في سنة الجمهورية السادسة (١٧٩٨) أن أعداءها قد أعدوا مشروعاتهم للاستيلاء على مالطة ومصر ، فرب أن سمع هؤلاء الأعداء من تنفيذ مشروعاتهم ، مسترشدة في ذلك بمرززة صون مصالحها التجارية في حوض البحر الأبيض الشرقى (الليبانت) ، وهى مصالح كانت يدر على فرنسا رغماً سويها يقدر سحو حميين مليوناً من الفرنكات . صدر قرارها بإرسال الحملة على مالطة ومصر ، وسلمت قيادة هذه الحملة إلى بومارب ، وكان بومارب قد اتفق مع الحكومة على أن تادر هذه بإرسال سفير إلى القسطنطينية ، في نفس الوقت الذى يادر فيه الجيش أرض فرنسا وذلك حتى طلع السلطان العثمانى عن الأسباب التى دعب إلى عرو مصر ، غير أنه حدث — لأمر لايسع للرء إلا أن يشك في صبه — أن هذا السفير لم يرسل إلى القسطنطينية ، وظل السلطان العثمانى يجهل لذلك أعراض الحكومة ، الأمر الذى

Rigault 97. (١)

Préc. Offic. 342-6; Préc. Diver 467-70, Bricard 433-5, (٢)

Rigault 97-9 (5 Messidor An VIII 24 Juin 1800); Galiand I 294-8 (6 Mess. An 8).

أفاد أعداء الروس والإختر فائده كبيرة ، وأتاح لهم لفوعة ليرعوا السلطان
العثماني على الانضمام إلى تلك التحالف الدولية التي تجمع أعضاؤها من جهة سنوات
عبد الناصر ضد الثورة ضد حرياتها . وقد تلا ذلك أن رلت أحياء في ألي قر
ودمياط حيوش عثمانية بفسادة الإختر وإرشادهم وقد استطعم أنهم أن تردوا هذه
الحيوش إلى البحر ، مما يقدم جيش آخر بقيادة الصدر الأعظم نفسه عن طريق
سوريا . وقد حرب معاومات ووقع « تسليم » لا أسمع بسبق بالتعليق عليه ،
وحدث اتفاق على هذا التسلیم ، أما كيف نفس هذا الاتفاق عدرا وحياة ، فهذا
أمر أتم تعلموه ، كما يدكرون ولا شك كيف كان عسك عظم عندما علم أنهم
يريدون مسك أن تسلموا أنفسهم إليهم كآسرى حرب ، كما أعاد جلبكم المهرجة
- في معركة حربية حسموها ، وأنتم الذي دان لكم النصر في جميع المعارك
التي خضتم عمارها .

« ولقد زحف الجيش العثماني وقدم ، ولكم هاجم هذا الجيش هجومًا صادقًا
في المطرية وهيونيوايس ، وتلاشى الجيش في لحظة . وثني بعض العثمانيين النهرين
أنفسهم في القاهرة ، فأرغمتم على نصيب الحصار على هذه المدينة حتى تمت بعد شهر
واحد من حصارها ، وإسكم لتعلمون كيف تم من الإعداء القطع على قائد الحملة العام
الذي محل ذكراه جميعاً أن قدماه من ييسا . ذلك أن أعداءكم عندما عجزوا عن إلحاق
المهزيمة بكم في المعارك ، لجأوا إلى وسائل العذر ، فاستخدموا (الذي) لتحقيق مآربهم
يدفعهم إلى ذلك اعتقادهم أن الاعتداء على كلب سوف يؤدي لاحتلال النظام
في جيش الجمهورية . وفهم أن هذا الاعتبار من شأنه أن يزيدكم شجاعة على شجاعتكم ،
وحرأه عن حرائكم ، حتى إسكم لتواجهون الشرق كله إذا اجتمع صدكم حتى تثاروا
لدم قائدكم المهذور . ولكنه من الواجب علينا أن نساءل ومن الذي رسم لنا الطريق
الآن ويوجه خطانا وأمرنا بما يجب علينا فعله ، والجواب على ذلك أن الذي
يوجهنا وأمرنا بما فعله هو صاحب الحق في هذا الشأن دائماً ، ونعني به حكومة
الجمهورية الفرنسية ، لأن لهذه الحكومة وحدها الحق في أن تصدق على كل ماسق
إرامه أو رفضه في الماضي ، ثم التصديق كذلك على ما يمكن إرامه في المستقبل بين
الجيش المرسى وبين دول العدو ، ولا حدان في أن جميع أولئك لا يريدون أن يستمعوا
إلا لنصوت الشرق ، ولأن سلوا لإبداء المصلحة الوطنية تحب وإني لتيقن من أنكم
جميعاً من أولئك الشرفاء الميورى على مصلحة الوطن الذين يدركون استحالة

وجود طريق غير هذا الطريق القابولى الشريف ، الذى يمكن منسه الوصول إلى عقد أية معاهدة مهما كان نوعها مع أعدائنا . أما ما يتعلق بشخصى فإنى أقول إنى لو حاربلى أن أؤثر مصلحة الخاصة على ماعداها أو غاب عن ذهنى لحظة أنى قرسى لها ودعا ، لرعبت كما رعب أى فرد مسك ودون تردد فى اعوده إلى أرض الوطن . ولكنى أعود فأقول كلاما أنا ، الجمهورية الشصان ! لما سترشد جميعاً إلا بما عليه عليها مصلحة الجمهورية بحسب . فحين إذا طلب من القتال واقتصاد اواجب حوص عماد المارك ، قابلا واتصرنا ، وإذا امتنع العدو عن القتال ورعب فى اعاوضه بدلا من ذلك ، أصعب إلى كل ما عدم إليها من مقترحات ، ولنى يكون فى وسعنا تنفيذ أية معاهدة مالم تصدق عليها حكومنا . وأنتم لا زالون بذكرون ولا زلت كيف قادكم بوبارت إلى النصر مرات عدة . وإن لهذا القائد وحده بحسب . بوصفه فصيل اللاد الأول . الحق فى إرشادنا إلى الطريق الذى يجب عبنا أن نسلكه ، وسوف يعلم بوبارت بكل شىء . وله من وقوفه على محرمات الأمور وإلزامه بما يحدث من وقائع ، فصل وجوده بينها ، ما يمكنه من إحداثا بكل ماقد نجمع عليه إرادته الوطن .

لأقد تحدثت إليكم فأوضحمت لكم الحقيقة كما تؤمن بها . وسوف أسلك ذلك الطريق الذى شقته من قبل بوبارت ثم اكبر ، فأنس فصارى جهدى حتى أبل تقدركم كما أقدر تفنكم ، ولنى معنى لحظة دون أن أعمل بعائدكم والعناية بأمركم أفيدأ اكبر تنظم الإدارة المالية ودعم تركابها ، وكل ما أريد أن أذكركم به لأنى لا يجب عن أدهاسكم أنى ما يمكنى لحدوثه من أصرار لحظة من الاضطرابات العسيرة ، بعضى وقتا طويلا من الزمن لإيراته .

و أما ما أطلبه من الجيش فهو أن طيع الحيد رؤساءهم من كل اربب العسكرية وأن بسود الجيش النظام المدهوق الصارم ، وأن يحلى الجمع بالخلق القويم ، ومن حق أن أطلب ذلك مسك ، بل سوف أطلب ذلك منكم دائما . وسكنى أعين أسكم من الجمهوريين . وأسكم سيجلون بمصالح الجمهوريين . وعندما تأنى اليوم الذى يعود فيه إلى أوطانا حتى لنا أن نحرر جميعاً بذلك القدر الذى ساهمنا فيه ، فصل اشتراكنا فى حملة لما اليوم ولا شك أعظم الأثر وأبلغه فى شئون العالم السياسية .

وهكذا بسط موى « بداته » لجيش الشرق تلك الأسس التى اتوى بناء سياسته عليها . وأهمها عدم الفصل فى مسألة الخلاء عن مصر حتى تأتبه أوامر صريحة فى هذا الشأن من حكومة باريس ذاتها . كما كان واصحا أن قائد الحملة الحديد لا يقر (المعاهدة) التى عقدها اكبر مع العتبيين ، بل صعبها بأنها كانت « سلبا » بنأى بعده عن التخليق

شيء عليها . فكان هذا النداء كافياً لأن يبين لحدود الحملة وصايتها وقوادها حقيقة
 نوابها . ومن ذلك الحين دب الاعسام في صفوف جيش الشرق ، فكان هناك
 « السكيبون » الذين أبوا إلا تأييد سياسة كليبر . كما كانت مفهومة وقتئذ . وقوامها
 الجلاء عن مصر . وكان هناك « الاستعمارون » الذين انحازوا إلى جانب قائد الحملة ،
 وطلقوا يؤيدون سياسة مو . وقوامها التحك بهذه البلاد وعدم الفصل في مسألة
 الجلاء عنها حتى تحصل حكومة الفصل الأول في باريس إلى قرار حاسم بشأن إحلالها .
 وكان من بين هؤلاء الاستعماريين جماعة من القواد والفساط الموثوق بتأييدهم لمو ،
 كفيريان Friant ونوابيه Boyer وبيس Pepin وغيرهم . فقال فريان : إن الجيد
 استحوذوا بالنداء فأنهم هزروا « النقاء في مصر » . وقال نوابيه — وكان وقتئذ حاكماً على
 إقليم البحيرة — إن الجيد ما لبثوا أن رحبوا بدهاء مو ، لا عتراضهم بأن نوابه كانت
 وحده صاحب الحق في إصدار لأوامر اللازمة لإحلال مصر (١)

ومع ذلك فقد كان واضحاً أن دهاء مو لم يبر شيئاً من موقف أخصار سياسة
 كليبر . ذلك أن مو الذي حرص على تحييل ذكرى كليبر في مدائه ، لم يسعه وهو
 الذي ادعى إلى النقاء في مصر إلا أن يقدّم تقدراً لاتفاقى نهوض . فكان ذلك
 بمثابة إعلان الاستسكار الشديد لأهم عمل سياسي قام به كليبر في مصر ، بما رتب عليه
 أن أصبح أكثره الخدسورون من هذا الداء . ومن صاحبه (٢) كما يعرف أولئك الفساط
 الذين عرفوا كليبر وخدموا معه في جيش الربيع قبل الحى . إلى مصر ، وكان من بين
 هؤلاء دوريلو Donze et حاكم أسيوط . لقد ساء أن يسمو مو في نقده ، بما
 هو لا يستمد لقوة من روح كليبر نفسه ، لترسم خطوانه ، وفصلاً عن ذلك فقد كان
 من المتوقع أن يبقى هذا « الداء » كل مقاومة من جانب أولئك القواد والفساط
 الذين تمتعوا بصداقة كليبر ووثق بهم القائد الراحل ، فاستمروا في تدبير تلك السياسة
 التي أسمرت عن عهد اتفاق العرش . وكان داماس Damas رئيس أركان حرب
 كليبر أحد هؤلاء الأصدقاء الذين قرعهم كليبر فأخلصوا إلى معاونته كما كان داماس من
 كبار مؤيدي سياسة الجلاء عن مصر . وعلى ذلك فقد أعصه دهاء مو ، واعتبر هذا
 النداء بمثابة طعة محلاة سددها مو إلى طهر كليبر لاعتياله عدراً وحياة ، مثل مو
 في ذلك مثل أولئك القتلّة الذين اعتلوا كليبر ، بل إن كراهية داماس لسلطان الخاني

Rigault 100. (١)

Bricard 436. (٢)

قتل كبير سرعان ما انتدب حديثها حتى شملت موبه ، وعلى ذلك فقد ظل داماس يطلب الاقتصاد من قتلة كبير يريد بذلك أن تشمل هذا الاقتصاد الجوال موباً أيضاً^(١) .

وكان لهذا الانقسام الذي حدث في صفوف الجيش أخطر الآثار على مصر الحملة ذاتها في النهاية كما ستأتي ذكره ، على أن موب وقد رسم الآن معالم السياسة التي قرر اتباعها قد بات لزاماً عليه بعد إصداره بماء ٢٢ يوبه أن يقرر لشئون الحكم والإدارة في تلك « المصرة » التي أوجده الظروف على رأسها كتابات ضرورياً حد أن أعلن إلى الجيش رعايته أن يعلن هذا البرنامج كذلك إلى الإمبراطور والقبائليين ، وبمسط لهم موقعة من المفاوضة ، ثم من مسألة حلاء الحملة أو بقائها في مصر ، حتى تصله أوامر قاطعة في هذا الشأن من حكومته . ولذلك فقد بدأ موب نشاطه السياسي بإرسال تلك للذكره التي كان كبير قد أعدها ردّاً على خطاب موريه Monier سكرتير اللورد الجين الذي كتب إليه من مالها في ٢ يوبه ، وذلك بعد عشور كبير على (جوربان موريه) على نحو ماسق ذكره ، وحال اعتقال كبير في ١٤ يوبه دون إرسالها فدار موب الآن بإرسال هذه المذكرة إلى موريه حد أن أضاف إليها نسخة سطور حاء فيها^(٢) : « لاجدان في أن جوربان موريه ليس دليل على أن شعبة صاحبه الصدر والحانة ، وأنه قد عهد إليه أن يتخذ من المعاهدة المرمية ستاراً يخفي وراءه تلك الخدمة الحرة التي اعزم انصامها » . وعلى ذلك فقد حذر موب سكرتير اللورد من سوء التصير إذا هو حرض على المحي ، أو إرسال رسول من قبله إلى مصر . وهدده بالقاء القمص عليه وعلى رسوله ومعاملة الجميع كواسيس نصيهم الشقي على « حديق شعرة » . ولما كان قد وقع في الأسر بعض الصباط الإقليم عند ما ارتطمت فرقاتهم (كورموران) بالصخور عند آبي قبر ، وحتى موب أن يلحق بأور الجرال كبير الصباط بوصول Beaudot أي سوء . وكان كبير قد أرسله للمفاوضة مع القبائليين فاحتجبه الصدر الأعظم عنده — فقد حذر موب موريه وسائر الأتباع معه إلحاق أي أدى هذا الصباط الفرنسي ، وعدد الأسرى الأتباع وكانوا حوالي مائة واثني وخمسين من مختلف الرتب العسكرية مسئولين عن ذلك .

Rigault 102. (١)

Galland I 299, Pièce. Offic 273—4 (٢)

ولما كان السير سيدى سميت قد بحث بكتاب في ٩ يومية من تاريخه (تيجر) إلى الخيال كليو يحاول إقناعه بضرورة عقد اتفاق العرش^(١) . فوصلت هذه الرسالة بعد مقتل كلير ، نادر مو في ٢٠ يومية بإرسال الرد على هذا الكتاب^(٢) ، فبع سيدى سميت خبر الاعتداء على كلير على أبدي الأتراك جنود السير سيدى ، الذين لجأوا إلى استخدام «الخضر سلاح الحساء الأبدال» ، عندما عجزوا عن هزيمة الفرنسيين في المطر . ثم تناول الكلام عن اتفاق العرش فقال : إن ما فعله السير سيدى عندما طلب من حكومته التصديق على الاتفاق ليوضح للقائد الفرنسي الطريق الذي يجب عليه هو الآخر أن يسلكه . ولهذا فالواجب يقتضي مو أن يطلب التصديق من الممثل أصحاب الحكم في الجمهورية الفرنسية اليوم على أنه معاهدة يمكن عقدها بين الجيش الهندي بتولي قيادته وبين الاعداء وحلفائهم ، لأن ذلك وحده هو الطريق القابض والملائم الذي يجب سلوكه في كل معاهدة تحدث من معاومات بينه وبينهم . وانهر مو هذه الفرصة فألقى درساً قاسماً على السير سيدى سميت في ضرورة احترام الأمم لكتفها عند دخولها في اتفاقات معينة ، أو إبرام معاهدات على أبدي رسالتها . فالتفت إلى وسائل العذر والحجبة التي كشفت عنها أوراق موريتيه عندما تنوء جهودها العسكرية بالقتل . ثم تحدث مو عما يلقاه الأسرى الانحمار من معاملة سيئة على خلاف ما يلقاه بوصول في معسكر الصدر الأعظم وعرض على السير سيدى أن يطلق سراح هؤلاء الأسرى في نظير عودة بوصول إلى دمياط سالماً .

وأصر مو على موقفه من اتفاق العرش ، فرفض الاستماع إلى «معاوض العجيري» بحثه إليه اصابط بيان من الصالحية^(٣) . ولكنه لما كان يريد تخليص بوصول ، فقد اصمرت المكاتبات بينه وبين السير سيدى سميت في الأيام التالية ، ووجد السير سيدى في استمرار هذه المفاوضة وسيلة محاولة إقناع مو بضرورة عقد اتفاق العرش والحلاء عن مصر . وكب له في ذلك في ٢٢ يومية فقال^(٤) « في وسع مو أن يزيل عقبة من العقبات التي تحول دون عقد السلام ، بإحلاله مصر حليماً عليه

Charles-Roux II. 76. (١)

Testa II 22 3 - Rousseau 327 9, Pièce Diver 462 4 (٢)
Pièce Offic. 334-7 Richardot 455-6.

Rigault 107. (٣)

Testa II 23-4, Pièce Off 337-42; Pièce Diver 464-7. (٤)

الاتفاق مع كبير . أما إذا رفض مو فإن الإغريق مصممون على استخدام كل ما لديهم ولدى حلفائهم من وسائل لإرغام مو على قبول شروط لا يستطاع أن يحددها مو ملائمة كل للأئمة . ونصح مو بعدم إغلاق باب المفاوضة . وكان السير سدي سميت بعد آمالا عظيمة على نجاح مساعده تأييداً لتلك السياسة التي جرى عليها من مدة الأمر . وأسهرت عن عقد اتفاق العرش (١) . وفصلاً عن ذلك فقد كان السير سدي يهيئ من كتابه هذا بوجه الخطاب إلى جيش الشرق عامة في واقع الأمر . وليس إلى مو وحده . وذلك ، كما ذكر السير سدي في رسالة له بعد ذلك إلى الثوردي إلجين (٢) . لأنه كان يدرك تماماً رغبة فواد الخلة ومسلطها في العودة إلى أرض الوطن ، ولما كان يتوقعه كذلك من انقصاص هؤلاء من حول رجل لا يحترمونه ، أي أن ليس سدي كان يهيئ من وراء كتابه هذا تدبير بدور الانقسام والفرقة في صفوف جيش الشرق ، بعد أن أحرق ماعى الاغريق في إضاع مو بحكمة الحلاء عن مصر سلباً دون قتال ، وذلك حتى يحين الوقت الذي يستطيع فيه هؤلاء إرسال قواتهم لمساعدة مو وإرغامه على التسليم قهراً .

ولم يأنه مو لهذه الأساليب ومع أنه أعيد الرد على رسالة سير سدي (٣) ، فقد تكلفت بالمناجاة والمفاوضات الدائرة بشأن الأسرى ، وفي ٣٠ أكتوبر أطلق مو سراح الأسرى الاغريق ، وقد لقي هؤلاء كل معاملة طيبة مدة أسره (٤) ، وعاد بوصول سالما إلى دسماط ، وأطلق مو كذلك سراح مصطفى باشا (٥) .

وكما تعذر الاتفاق على الحلاء بين مو وبين الاغريق ، فقد كان من التعذر كذلك أن يتم أى اتفاق بينه وبين المتباينين في هذه المسألة لاسيما وأن مو لم يحجم في التشاور الذي أداعه على الحد في ١٥ بويقة عن توجه الإسهام إلى الصدر الأعظم نفسه الذي حمله مسئولية اعتياد كبير . واستند مو في هذا الاهتمام إلى ما ذكره سديان اعلی في أثناء التحقيق من أن الحدود المتباينين في حلب كانوا يسألون عن شخص في استطاعته الذهاب إلى مصر واعتقال القائد الفرنسي ، ولو أن سليمان اعلی قد أسكر قواماً

Charles-Roux II 77. (١)

Barrow II 63-4. (٢)

Charles-Roux II 77. (٣)

Galland I 309- Desgenettes (Mem. D) 154. (٤)

Pièce Diver 50-2. (٥)

أن الصدر الأعظم نفسه ودكله بذلك^(١). ومع ذلك فقد كتب مو إلى الصدر الأعظم عند ما أبلغه بأ الاعتيان « إنه لن يسمى لمعرفة شركاء سديد الحاق في هذه الجريحة الشقاء أو يبحث عنهم ». واهتم مو بوضع برنامج سياسي ، ومداره بحز مو عن تعيد أي أمر قد تضرر به المفاوضة أو تعيد أية معاهدة أبرمت في الماضي أو عكس إرادتها في المستقبل دون أن يسبق ذلك تصديق حكومة الجمهورية . وعلى ذلك فقد أحال مو المفاوضين على سفير الباب العالي في باريس ورؤساء الحكومة الفرنسية . ولم يشأ مو إغلاق باب المفاوضة في مصر إغلاقاً تاماً ، فأبدى استعداداً للاصغاء إلى أية أحداث قد تصدر من جانب يوسف حيا الصدر الأعظم ، وإعما على شريطة أن شأحل تعيد أي اتفاق قد تضرر به هذه الأحداث إلى ما بعد تصديق حكومة الجمهورية الفرنسية عليه . كتب مو هذه الرسالة في ٢٩ بويه^(٢) وفي الأيام التالية لم تقطع علاقته بالعثمانيين . فشكر الصدر حسين باشا الذي أطلق سراح بوصول من الأسر (في ٢١ يوليو) ، وانتهر مو فرصة عرق سفينة من سفن الأسطول العثماني عند السويس . وارتطم سفينة أخرى بالصخور عند أني فير ووقع فيها في أسير الفرنسيين^(٣) . فأوقف مو هذا القائد بصحة بوصول نفسه بالمفاوضة مع حسين باشا المظفر ، بشأن سادل الأسرى ، ولكن القبطان حسين كان قد انصرف وقتئذ بهارته عن الشواطئ المصرية فانطرد بوصول مدد طويلة دون جدوى .

ووقع مو أن يعاينه العثمانيون بشن هجومهم على انشاقىء التبالى أو الحدود الشرقية ، فسهر (لاوس) بالاسكندرية على مراقبة حركة السفن العثمانية والاحتياطية في البحر ، وأرسل مو عدداً من الحواريين في دسباط والصالحية لاستطلاع حركات جيش الصدر الأعظم على الحدود الشرقية . ثم لم يلبث أن عاود الاطمئنان مو رويداً رويداً من هذه الجهة ، عندما حمل إليه حواسيه أسماء انتشار اللواء في الجيش العثماني . وقتئذ لمهاجرة محمود الصدر الأعظم ورحاله ، وقرار عدد كبير من الحدود من الجيش هروناً من الخدمة العسكرية ، ثم قيام النضال بين جيش الصدر الأعظم وقوات أحمد باشا الحارث صاحب عكا ، ثم بين هذا الجيش وأهل نابس^(٤) . وهكذا

Pièce. Off. 308—16. (١)

Rigault 107—8. (٢)

Martin II 133. (٣)

Reynier (Mémoires) 146—7. (٤)

ما كأنما قد انتهت مهمة مو الأولى شوميع ساعته العدو من جهة ، وباطمئناؤه إلى سلامة حدوده الشمالية والشرقية من جهة أخرى ولو بصورة مؤقتة . وفي ٢٤ ستمبر سنة ١٨٠٠ استطاع مو إذن أن يعرض في شيء من الهدوء ما حدث من وقائع ، وما طرأ على علاقاته مع العثمانيين والإنجليز من حوادث ، ويوسط ذلك كله في تقرير شامل بعث به إلى وزير الخارجية الفرنسية في باريس ^(١) . ويرسم مو في هذا التقرير صورة واضحة لكل من الصدر الأعظم يوسف صيا والقسطن حسين باشا ؛ فوصف الصدر الأعظم بالحنونة والوقاحة ، وقال : إنه يبع برداد علاقته سواء مع الجزائر باشا ومع أهل مالس ثم مع العربان الذين درجوا على حب القوافل ، فقد حرص على استبقاء هؤلاء والتفاهم مع الإنجليز . كما يبدو أنه غشى العودة إلى القسطنطينية خوفاً من قطع رأسه وإعدامه .

ويذكر مو أن سدوياً روسياً دعى فراسكبي Frankins يقم في معسكر لصدراعظم في يفا ، ويبدل نصارى جهده لإقناع مو بأن البلاط الروسي يريد التقرب من الجمهورية الفرنسية ، حتى إنه لمرط حماسه قد أثار شكوك الصدر صده ، ويسكلم مو عن القسطن باشا الذي استنجم العداء بينه وبين الصدر . فيصفه بأنه كان أكثر عبثاً ودراية من يوسف صيا ، وعمازعه بأنسانيته فضلاً عن أنه موضع ثقة السلطان ومن أقرب المقربين إليه . وقد سادل معه مو عبارات الاحترام والتقدير ، واستطاع حسين باشا بفعل محولة الكثير في سحر بين دمياط والإسكندرية أن يرسل رساله إلى مو كما فعل لأخير ذلك ، لأن القسطن باشا كان يرعب رعية شديده في المعاوضة مع مو وعقد معاهدة معه حتى ترداد خطوبه عند السلطان ، وفضلاً عن ذلك فقد ظل القسطن باشا غشياً من أن يمد مو إلى إرام اتفاق مع الصدر الأعظم . أما مو فقد أخذ من رعية هذين الرجلين في المعاوضة والاتفاق وسيلة للاستماع إلى ما قد يقدمان به من مقترحات ، يعي من ذلك إطالة المحادثات على أمل أن يستطيع إثارة شكوكهما في أسماء ذلك حول حلقاتهما الإنجليز ، وسكندر صفو العلاقات بينهما وبين هؤلاء .

كما انهر مو الفرصة ، يصار يتفاوض مع القسطن باشا بصدد إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذين قال إنه توجد منهم عدد كبير في القسطنطينية وحرر الأرحيل وهي مختلف بواحي اللغات ، يقابل ذلك عو أربعة آلاف أسير عثماني في مصر . أما « ب السألة وجوهرها » أي مسألة الخلاه عن مصر فقد أخطر مو الصدر الأعظم والقسطن

بأنه أن لا معاوضة في ذلك إلا في باريس وفي القسطنطينية ، ولم يمس مو أن يذكر وهو يكتب ذلك أنه لا يزال يرجو أن تسفر هذه المعاوضة عن احتفاظ الفرنسيين بهذه البلاد ، التي سوف تصح دون أي شك أعظم للمستعمرات وأخيراً إطلافاً ، وفي وقت قريب . وتناول مو موقف الانجليز فقال إنهم على ما يبدو في شدة الاستياء من فعلهم عند ما تقصوا تسليم العرش المصري للمصريين ، فأنصاعوا عرسه إجماعاً مصر ، ومع ذلك فقد دأب السير سدي على إرسال معاوضين إلى مو وقائلهم مو بكريه وأتمه ، وساءه على حد قوله أن يدعى السير سدي رورا وهتتا أنه عامل (كورتيبي بويل) Courtenay Boyle قطان الفرقاطة (كورموران) معاملة سيئة . ولما كان الإنجليز قد قصوا على عدم سنن يوناسة في الماء المصرية ، وكان اليونان من رعا الدولة النمائية ، فإنه لم يفته أن يوجه أقطار القسطنطينية إلى هذه الإهانة التي سبها الإنجليز بالباب العالي عليهم .

وهكذا كان واضحاً أن المعاوضة في « لب المسألة وحوهرها » على نحو ما قال مو منه ، أي الفصل في مسألة الحلاء عن مصر أو القاء فيها بقول اتفاق العرش أو رفضه يعادى من اختصاص حكومة الفصل الأول في باريس ، وأنه من واجب الإنجليز والنمائيين كذلك أن يواصلوا معهم لدى هذه الحكومة ، وبما فعل سديان ما انتقل النشاط الدبلوماسي من مصر إلى ميادين أخرى . ولذلك فإنه لم يكن يسفر هذا التناطح عن نتائج حاسمة كان في مقدور مو أن يجد منعاً من الوقت لمعالجة شئون الخلافة وشئون تلك المستعمرة التي أشرف على إدارتها

التجربة الإستعمارية

١ — الإدارة والسياسة

استشهد مو في سياسته الداخلية بحكمة طاهره . هي أن مصر « مستعمرة فرنسية » بكل ما يحمله ذلك من معنى ويترتب عليه من نتائج ، لا شك في أن أهمها كان اعتبار نفسه نائياً عن حكومة القسطنطينية في باريس في حكم هذه البلاد ، وبمقتضاها ، وصاحب الحق في الوقت ذاته في أن يسفر « للشرع » واختصاصاته في هذه المستعمرة ، على رغم أن الاتصال كان متدنياً بينه وبين القناصل لعدم انتظام المواصلات المستمرة بين المستعمرة وبين مقر حكومة القسطنطينية في باريس . وعلى ذلك فقد اعتقد مو أنه إنما شغل في مصر مركز « رئيس الدولة » الذي تحولت الظروف والقائمة بمعالجة أمهات المسائل الاقتصادية والاجتماعية

في البلاد بوجه عام إلى جانب عاينته بأمر جيش الشرق ، من حيث العمل على توفير الموارد اللازمة لتربيته وتزويده بالسلاح ودفع مرتبات جنوده وصداقة وقواده وجميع رجال الحملة بدقة واسطمان . وبناء على ذلك فقد حرص مو على أن يصح لكل ما يصدر من مفرقاته العامة من أوامر صحة القوانين التي تصدر إليها أده الحكومة في تصرفات مختلف اشئون فتعالج هذه الأوامر مسائل الإصلاح اللازمة في فروع الإدارة ، إلى جانب إنشاء ما يترادى له من إدارات جديدة ، أو كل ما كان يقضى إخراجا من إصلاحات تكمل رفع مستوى الأهليين وتحسين أحوال الملاحين حتى يسعد المصريون من جهة ، ويطمئن الفرنسيون إلى عيشهم في هذه البلاد ويأمن جيش الشرق على جباه أفرادها من جهة أخرى . وكان على صوء هذه الاعتبارات جميعها إذن أن ي مو برنامج سياسته الداخلية فكانت تلك (الحرية الاستعمارية) التي تمتد بحق أكرم محاولة قام بها فرنسي منذ أيام بونابرت الأولى في مصر ، لتحقيق أهم أغراض الحملة ، أي الاستعانة عن الحصار التي سبقتها قرب في الهند الغربية بإنشاء مستعمرة جديدة وحملة في مصر ووجه مو في أوامر عاينته إلى الإصلاح الإداري ، ويدخل في ذلك ، إلزاما في « حسابات » الحملة بصورة محددة . ومرفه كل ما يتصل بشؤون الجيش وبعديته وإعداد التشييع العسكرية وروبيدها عما يلزمها من معدات وأحمره ، ورمم مكنت الجنود في الإسكندرية وغيرها ، والصرب على أيدي « اللوردس » الذين تعهدوا بتدعيم اللانس والأعداء وما إلى ذلك إلى جيش الشرق ، ومع بلايت « قوميسري الحرب » فقد ظل توريد هذه المهمات إلى الجيش من أيام بونابرت عممية راعية أنرى منها كثيرون . فكان لهؤلاء الاسم بيم وقع على الجنود اعلم كماه وكان يما ساعد على انتشار هذه المعاهد أن القائمين على حسابات الحملة طلبوا موضع الطون والشهات صد أن تمت وقوع احتلاصات في إدارة الإسكندرية ، كما تمت أن المشرفين على إرسال الدقيق إلى الجنود في لاندربات كانوا لا يتورعون عن السرقة ومن الذين حامت حولهم الشهات وثك في أمانهم (سوسى) Sucey ، أحد مدري المهمات أيام بونابرت نفسه ومن المقطوع به كذلك أن (بوسيلج) مدير المالية لم يترك وراءه ذكرى خاطره ، بل وجد من العطة والسكياسة عند رحيله من مصر أن يجمع « دغار الحسابات » وينقلها معه إلى فرنسا ، صوما أصمته ، حتى إن (إستيف) مدير المالية الجديد القدى حل مكانه في هذه الإدارة مالميث أن وجد زاما عليه أن يوصح لفتد الحملة الجبرال مو ما يترجمه من صعوبات حالت دون معرفة حقيقة « الحسابات » التي كانت في عهد بوسيلج قبل معادرتة

وكان من أثر هذا الإهمال وسوء التدبير من الدروس العرسية أن كثيرين من « القبط » الذين كانوا يجمعون الأموال والصرائب سرعان ما استطاعوا الاستيلاء على مبالغ كبيرة من الأموال التي جمعوها ، وساعدتهم على استقطاع هذه المبالغ لأنفسهم أنهم كانوا يحفظون سجلات الإيراد ولا يطلعون أحداً عليها ، كما أنهم طلبوا بحصون ما كانوا يجمعونه من أساليب في تدوين الحسابات وقيدتها بصف على غيرهم فهمها وفصلا عن ذلك فإن هؤلاء المخلصين ثابوا على إرغام الأهالي والملاحين على دفع مبالغ تزيد كثيراً على المطلوب ليرى والصرائب الأخرى المفروضة عليهم ، حتى يحفظوا ، ليعرف لأنفسهم ^(١) . ويبدو أن العلم بمقرب أو يعقوب القبطي كما سماه العرسيون الذين وثقوا به ثقة عظيمة كاب الرجل الوحيد الذي خالط في ذلك سائر زملائه

وكان من أسباب ارتداء الإدارة المالية وشئون الحكم عموماً أن القواد العرسية الذين عيوا حكماً لمدرجات اغلغله محمدوا إلى الاستئثار بكل سيطرة إدارية في الأقاليم التي يحكمونها ، فتمسكوا في الأموال والصرائب التي جمعوها من الأقاليم حسب أهوائهم ووفق رغبتهم فكانوا يعقوبها في أغلب الأحيان على حدودهم . وفي مطالب الإدارة العامة في مديرياتهم ، حتى إن الجبرال كثير لم يسعه إلا أن يلفت أنظارهم إلى أن ما كانوا يحصلونه من أموال إنما هو « ملك » الحبش ، فلاحق لهم أن يعقوبوا هذه الأموال على جماعة من الخددون أخرى ^(٢) . وحاول كثير تنظيم المالية فأصدر أمراً في ٢٣ نوفمبر سنة ١٧٩٩ بتأليف لجنة من خمسة أعضاء عهد إليها بوضع « مبراة » لبيان إيرادات ومصروفات اللجنة . وكان كثير ولا شك يسعى من ذلك إصلاح شئون اللجنة ، ولو أنه كان يهدف كذلك إلى إقامة اللجنة على أن جيش الشرق لا يستطيع البقاء طويلاً في مصر ، وأن من الخير له أن سادر ماغلا ، عن هذه البلاد ^(٣) على أن وفاه كثير سرعان ما قصت على محاولة هذا الإصلاح . ووجد الجبرال مواعداً تلم رمام الأمور أن يبدأ العمل من جديد لإدخال صروب الإصلاح اللازمة في جميع شئون الإدارة ، وكان أول ما عني به تنظيم مالية اللجنة ووسائل الإنشاف عليها ، فأصدر في ذلك على وجه الخصوص أوامر عدة .

من ذلك أنه طلب في أول يولية سنة ١٨٠٠ ^(٤) أن يقدم إليه كومبيرو الصالح

Rigault 113-5. (١)

Rousseau 100-1. (٢)

Rigault 116. (٣)

Pièce. Off. 354-6. (٤)

ومدروها في الجيش والبحرية وإدارة الأعمال الليكايكية والنفقة الأهلية ثم سكرتير
المجمع العلمي وغير هؤلاء من المدرس والقوم مدرس حسابات مصالحهم ، كما أصدر أمراً
يقضي على جميع الصايط والقواد الذين يقومون بالحكم في المديرية أو يشرفون على
الحصون والقلاع بتقديم معلومات واقعة عن كل تلك الأمور ، التي هم الإدارات
العسكرية والمدنية مدروها . إلى رئيس هيئة أركان الحرب ، وأن جعل ذلك أيضاً
وكلاء المالية . وفي ٣٠ أغسطس ثم في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٠٠ وصح موسى وأمره
بطريقة التي يمكن بها التحقق من إفاق الأموال في الوجود العامة لإفاقها ، كما شكك
لجنة من خمسة أعضاء مهمتها مراجعة الحسابات والصدق عليها . وفي ٩ يوليو أصدر
موسى أمراً مع حكام المدرجات من جميع أموال أو أتاوى خدمته دون استصدار إذن صريح
بذلك مقدماً . ثم تشدد موسى معاقبة القبط الذين نكث عنهم همة التلاعب . فقبض على
أطون أبو طاعة وأرغمه في ٩ أكتوبر على دفع مئة مائة وخمسين ألفاً من الفرسكات ،
« على أن يحسم هذا المبلغ من الأموال المطلوبة من العلاج في السنة المقبلة » وفي ٣ أغسطس
أمر موسى بتعير اختصاصات (اللجنة الإدارية) التي أنشأها كثير في ٢٩ أبريل الماضي .
وفي ٢ سبتمبر شكل موسى (مجلس خاص) يضم الرؤساء العسكريين والمدنيين ، مهمته
النظر في شئون الحملة ماعدا ما كان متعلقاً بشئون الحرب والسياسة ، فيؤلف
أعضاء هذا المجلس لجاناً لدراسة مختلف الموضوعات^(١) ولما كان هذا المجلس محروماً من
أية سلطات إدارية ، فقد أعده المعارضون لسياسة موسى موضوعاً لتقديم الالادع ، فاعترضه
الجنرال ريبليه « نادياً » لاعتكاف أن تربط على إفاقته سوى إصعاف النظام في الجيش ،
وإشاعة الاضطراب بين جنود الحملة^(٢) وحتى أنصار موسى أنفسهم أن يجد أعدادهم
(الكليرون) في وجود هذا المجلس وسيلة لإداعة أرائهم ، وعرض أعضاء المجلس
العديد على مقاومة موسى ، يشجعهم على ذلك أنه لم يصل أي إشعار من فرنسا انتدبت
موسى في منصب قيادة الحملة العامة ، بل كان من المتوقع عند انعقاد هذا المجلس أن يطلب
(الكليرون) استقالة موسى من منصبه ، ويبدو أن أصدقاء القائد الجديد كانوا على
حق في مخاوفهم لأن موسى امتنع عن دعوة المجلس الخاص للانعقاد تاتاً وطلب اللجنة
الإدارية تقوم بأعمالها^(٣) .

Galland I 314-9. (١)

Reynier 118. (٢)

Rigault 122. (٣)

وكان موأكثر بوقياً في ميدان آخر عندما أشرك معه (استيف) في تنظيم الإدارة المالية على أساس العمل القدي قام به الخزانة كثير في هذه الحاجة مد أن صدر أمره في ٢٨ إبريل سنة ١٨٠٠ بإلغاء الإدارة المالية القديمة ، فأصدر مو الآن أوامره في ٣٠ أغسطس و٧ سبتمبر ، كما أصدر منشوراً لهذه الغاية في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٠٠ ؛ وذلك لتأليف هيئة إدارة برئاسة استيف للإشراف على الشؤون المالية فتناولت هذه الأوامر جميعها تنظيم الهيئة التي كان عليها أن تنسق الأموال المتصلة من الضرائب وغيرها ، وصيغتها تم مراعاة حساب الإيرادات من جهة ، والمقايض المدسة والعسكرية من جهة أخرى ، على أن يستمر القسط في تحصيل الأموال والضرائب وعقضى هذا النظم الجديد أصبح مدير هذه الهيئة مسئولاً عن إدارته أمام الورر المختص في الحكومة المركزية بمصر ، ثم أمام القائد العام بوصفه ممثلاً للحكومة الجمهورية في مصر . ومع أن هذا النظم كان دقيقاً في محاسبته فإنه لم يمنع محض الضرائب من السرقة (١) .

وكان الغرض من هذه النظم أن توافر لدى إقصاده الصمة الأموال اللازمة للاعاق على حش الشرف حتى تحسن حال الجند وسائر راح الخلة عمومياً ، وفصلاً عن ذلك فقد أراد مو أن يسد ديون الخلة وأن يدفع مرائب الجند بصورة منظمة ، إلى جانب الاعاق على شؤون الإدارة العامة ؛ ولكي تنسى لقائد الخلة فعل ذلك كله ، أقل مو على تدير المال بكل وسيلة فقد بلغ ما كان يحصله الفرنسيون من هذه اسلاد حسب نعدو (دالماس) Dalmas أحد رجال مالهم في يوليو سنة ١٨٠٠ عاية عشر مليوناً من الفرسكات سورياً ، بينما ظل السكوات المليك يجمعون من أهلها حوالي سبع مليوناً في السنوات السابقة . والعلة في هذا النقص أن الفرنسيين عمدوا إلى إعطاء القسط محصل الضرائب أوراذاً كمهوره بأمصاهم يقد بها هؤلاء قيمة ما يحصلونه ، وكان القسط على نحو ما سقت الإشارة إليه يحصلون من القرى منافع أكثر من التعلق على محصبها من أهلها ؛ رد على ذلك أنه كان لحالة الحرب القائمة أثر مفسوس في تعطيل التجارة ، كما نفس الإيراد بسبب النازل إلى مراد بك عن حرم كبير من أقاليم الوجه القبلي التي ترك له التمتع بإيرادها . وكان كما أراد النطين به أن يضان النيل جاء معصماً في سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩) ، كما طلت مساحات واسعة من الأراضي دون رراعة . وعمد الفلاحون بسبب ذلك كله إلى الفرار من القرى نخلصاً

من دفع الصرية ، وراذب الخان سوا بقية ذلك الحصار الشديد الذي فرضه الإغلب على الشواطئ للصربية . وقد حدث هذا كله في وقت بلغت فيه سفقات الجيش من حمة عشر إلى ستة عشر ألفاً من العرسكات في الشهر الواحد ؛ وعلى ذلك فقد بات من الواضح أن مو سوف يندأ إلى وسائل غير عادة لجمع الأموال ، وأنه سوف يشر بذلك تدمير للصربين وشكواهم من إدارته

وكان من المبسور اسكار مختلف الوسائل لايوار الأموال من الأهيين ، وشطت اللجنة الإدارية خلال شهر يوبه ويوليو وأغسطس تجمع ما فرض على القاهرة وبولاق ودمياط من عرامات فادحه . كما بولب أمر التصرف في كل تبت للصانع والسلع التي وقت في قصة السلطات العربية عند مصادره السفن العنينة واسفن التجارة التي جاءت إلى الاسكندرية مع اتفاق العريش . فحبرت القاهرة على دفع حوالي حمة ملايين من العرسكات ، وهي العرامة التي فرصت على أهلها بطير قيم نورهم الثانية ، وانتهوا من دفعها « عياً » في ١١ أغسطس ، ثم حمت السلطات العربية حوالي مليون من العرسكات من الأقاليم . وصدر في ١٤ أغسطس أمر إلى (اسبف) أن يجمع مبيون فريك من الوحافية الذي تتألف منهم انقري العسكرية التي أنشأها السلطان سليم وكان هؤلاء يملكون مساحات واسعة من الأراضي ، ثم طلب من يعقوب انقضى أن يسدد ما بقي من حساب العرامة المفروضة على حي بولاق من حية ومكرمو في إعداد مشروع يمكنه من الحصول على قدر معين من المال من المتخ ، حتى يتسنى له ذلك ويفصل ما يجمعه من أموال أخرى أن ينفق على جيش بلغ حمة وعشرين ألفاً . « من غير حاجة - كما قال - لإزعاج أهل البلاد وتمطيل بثطهم التجاري »

وبعد مو رعته جمع أموالاً طائلة من مشايخ البلاد واشوام والقط واليهود وسائر سكان القاهرة من غير المسلمين ، واستثنى من ذلك نوابي حرر الأرحيل لحسب ، نظراً بما يقدمه هؤلاء من « خدمات » للحمة في عبيط التجارة الخارجية . ثم تناول مو الضرائب المحركة فأعاد تنظيمها بصورة جعلت فائداً تتراوح بين ٤٪ و ٧٪ من قيمة لتجارة المستوردة ، بينما فرض صرية قدرها ١٨٪ على الصانع المحلوة بطريق القصير إلى أسبوط . وكان عزمه من فرض هذه الصرية العالية أو « اللامة » أن يضطر التجار إلى إرسال صائهم المحلوة من بلاد العرب إلى السويس ، بدلاً من إرسالها إلى ميناء القصير . أما الضرائب التي أمر مو بتحصيلها على الصادرات فقد أصبحت عدا استثناءات قليلة لا يرد عن ٤٪ وعمل منو بحسب ذلك كله على

تشيط التجارة بين مصر وفرنسا ، فأحار التجار الذين يستوردون بضائعهم من فرنسا أو يصدرونها من مصر أن يدفعوا نصف الصريبة الجمركية المقررة على مثل هذه البضائع فقط . وألقى مولى ٧ و ٥ مستمر عدداً من الصرائب القديمة ، كصريبة الملح والصيد في النيل والبحيرات ، والأسلحة ومشروبات العرق ، واستعاض عنها بصريبة بسيطة على الملح حوالي فرك وربع على كل أردب من الملح يحى في أماكن إنتاجه . كما جرى تحصيل صريبة من اراعين في صمغ الشروات اروجية بمسبة ما يدفعه هؤلاء بها .

ولما كان السكوات المالك قد درجوا على فرض صريبة على الأملاك المقولة باسم « بيت المال » عند وفاة صاحبها وانتقال ركنه إلى وارثه . ولم تكن قيم هذه الصريبة معروفة أو محددة ، فقد استبدل مولى هذه الصريبة غيرها وحملها حوالي ٥ ٪ من قيمة الأملاك ، سواء أكانت مقولة أم ثانية . وفي ١٥ سبتمبر عجم هذه الصريبة حتى شملت جميع التركات التي يتركها أصحابها . مهما اختلفت قيمه هؤلاء أو دنائهم ومع أن « الكبيريين » ناروا في وجه مولى هذا التريب الجديد . بدعوى أن مصر ليست « مستعمرة فرنسية » - على نحو ما يأتي ذكره - فقد أصدر مولى أوامر أخرى في أيام ١١ ، ٢٢ ، ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٠٠ بإلزام جميع الأفراد ، بما في ذلك الفرنسيين أيضاً ، بدفع الصرائب المطلوبة إلى الخزانة العامة^(١) . ومضى مولى اسكار وسائل جمع المال . فقرر في ١٦ سبتمبر أن يحى « الدخولية » من عشرى مدينة من المدن انصرية الهامة مع إعفاء الصانع التي دفع عنها أصحابها صرائب حركية من هذه الرسوم الداخلية . وفي ١٢ أكتوبر فرض مولى قدرأ كبيراً من المال على أصحاب الحرف والصناعات مدفوعة في كل سنة ، ثم ما لبث أن طلب من القبط ملوناً من المركاب ، ومن الشوام مائة وخمسين ألفاً ، ومن اليونانيين خمسين ألفاً ، ومن ايهود ثلاثين ألفاً ، ومن الأفرع أربعين ألفاً على أن يدفع هؤلاء جميعهم هذه الأموال في الفترة الواقعة بين ديسمبر سنة ١٨٠٠ وستمبر من العام التالي^(٢) .

وعى عن البيان أن هذه العرامات الفادحة سرعان ما أثارت السخط الشديد ضد الفرنسيين ، وكاث من عوامل تعطيل التجارة . وقد وصف الشيخ الحرثي شيئا من الأنايب التي لجأ إليها مولى في تعمد سياسته المالية ، كما وصف آثارها فقال في حوادث شهر صفر سنة ١٢١٥ (توبه - يوليو سنة ١٨٠٠) ، بعد ذكر الوقائع التي ارتطمت

Ibid 132. (١)

Ibid 134. (٢)

مقتل كثير : « وفيه أتى في شهر صفر فرروا فرقة أخرى وقدرها أربعة ملايين ، وقدر المدون مائة وستة وثمانون ألف فراسة وكان الناس ماسدقوا قرب تمام الفرقة الأولى ، بعد ما قاسوا من الشدائد مالا يوصف ، ومات أكثرهم في الحوس ، ونجت العقوبة ، وهرب الكثير منهم ، وخرجوا على وجوههم إلى بلاد ، ثم دهم هذه الداهية أبصاً » ثم تكلم الشيخ عن الطريقة التي جرى بها توزيع هذه « الفرقة » على الأهلى ، سواء على المرميين أم النصارى أم الملاك ثم أمجاب الحرف (١)

فكان : وفي شهر ربيع الأول من العام نفسه (يوليو - أغسطس سنة ١٨٠٠) نادوا على الفرنسيين على الناس الخارجين من مصر من خوف الفرقة وغيرها بأن من لم يحضر من عدد اثنين وثلاثين يوماً من وقت المداواة هبته داره وأحبطت عيونه (٢) .

وذكر الشيخ في حوادث شهر ربيع الثاني (أغسطس - سبتمبر سنة ١٨٠٠) « وفيه اشتد أمر لطاللة نبال وعين قلبك رجل نصراني قطي يسمى شكر الله ، قتل بالناس منه مالا يوصف فكان يدخل إلى دار أى شخص كان لطيف الملبس وصحبه العسكر من انفرادة وانفلة ويهدم بصرم ويأمرهم بهدم الدار ، لم يدفعوا له انقرر وقت تاريخه من عمر تأخير وحصول ما فعله سولاقي ، فإنه كان يحسن الرجال مع النساء ويدخل عليهم بالمعطن والاشاق ويوقع عليهم العذاب ، ثم رجع إلى مصر فعزل كذلك (٣) » وكان مما حدث في هذا الشهر كذلك أن أعلق الهرسود جميع الوكائل والحنانات على حبل عملة في يوم واحد وحسوا على جميعهم ثم صاروا يهتجونها ويهيمون بها « فبدأ فتحوا حاصلاً من الخواصل قوموا ما به بأحسن الأثمان وحسوا عرامته فإن بقي لهم شيء أخذوه من حاص حاره وإن راد له شيء أحاطوه على حاره الآخر كذلك وهكذا . . . » .

وعند ذكر حوادث شهر جمادى الأول سنة ١٢١٥ (أغسطس - سبتمبر سنة ١٨٠٠) وصف الشيخ الحرقى مالخا الفرنسيون إليه من أساليب لا تترار الأموال من أهل القاهرة مدعوى حملهم على دفع العرامة المروضة عليهم فقال (٤) : « وذلك أنهم لما سموا الأحطاط . وتولى ذلك أمير الحطة وشيخ الحارة والسكنية والأعوان ورعوا

(١) الحرقى ١ : ١١٠٣ - ١٤٢

(٢) الحرقى ٢ : ١٤٢

(٣) الحرقى ٣ : ١٤٢ - ١٤٣

(٤) الحرقى ٣ : ١٤٣ - ١٤٤

ذلك رأيهم ومعتنى أعراضهم ، فأول ما مجتمعون مديوناتهم يشرع الكتبة في كتابته التبايه وهي أوراق صغار باسم الشخص والقدر المقرر عليه وعلى عماره تحسب احصاءهم ورأهم وعلى هامشها كراء طريق المصنف ويطعون لكل واحد من أولئك القواسم عدة من تلك الأوراق ، فقبل أن يفتح الإنسان عينه ما يشعر إلا بالعين واقف على بابه ويده ذلك التنبيه فيوعده حق ينظر في حاله فلا يعد بدا من دفع حق الطريق فما هو إلا أن يعرفه حتى تأتيه العين منه آخر فيعمل معه كالأول وهكذا على عدد اسعاب فإن لم يوجد المطلوب وقف ذلك القواس على داره ورفع صوته وشم حرقه أو حادته فيسعى الشخص جهده حتى يعلق ما يقرر عليه شعاعه دى وحاجة أو بصراى وما يظن أنه حلىس إلا والطلب لاحقه أيضاً معين وسنه فيقول ما هذا ؟ فيقال له إن الفردة لم تكمل وبقي ما كذا وكذا وحمل على العشرة حصة أو ثلاثة أو مسوات لهم أنفسهم . فيرى الشخص أنه لا بد من ذلك . فما هو إلا أن حلىس إلا وكره أخرى وهكذا أمر مسمر ومثل ذلك ماقرر على المرمين فكاتب هذه الكمورات من أعظم الدواهي للعلقة وكسبات الحى الطففة وقد استمر الحال على هذا الموال فى التهور التالية كذلك حتى إذا بدأ ينشر وباء الطاعون فى شهر شوال (يار - فبراير سنة ١٨٠١) ثم شب المصالح مع انقباضين والإعطير . وحد الفرنسيون مايشغلهم . ولو أن ذلك لم يصرفهم عن جمع الامداد والآلوى من المصريين .

ويبدو لأول وهلة وسبب ما عدم حجيجه أن مو ما كان يقصد من تدابير المالة سوى انترار المال حسب اللاهى منه على الحين والإداره ومع ذلك فقد ظل مو يحكم فى حيز الطرق التى يمكن ب إصلاح شئون البلاد ونميه مواردها المالية بصورة يمكنه من تدمير المال اللارم لسد مقفاته دون الالتجاء إلى تلك الأساليب الحائرة التى أرهقت المصريين وسبست مسطهم ، وآية ذلك أنه أعد مشروعاً فى يار سنة ١٨٠١ لتنظيم الضرائب على أساس الاكتفاء بصريه واحده بدلا من كل تلك الضرائب المتعدده السابقة ، من مباشرة وغير مباشرة ، التى أرغم الفلاح على دفعها وناء بحملها . أما هذه الصريه الواحدة التى احارها مو فكانت « صريه الأرض » وقد استرشد مو فى ذلك بآراء الفيزيوقرات Les Physiocrats أولئك القائلين بحكم الطبيعة والذين ظهوروا فى فرنسا أمام ثورتها الكبرى وأوحروا مبادئهم فى المعارة المشهورة « دعه يعمل ، دعه يمر » وكانوا أمحاء الصريه الواحدة أو صريه الأرض على اعتبار أن الأرض وحدها هى مصدر الإنتاج والثروة الاقتصادية ، فلا تعرض ضرائب على

غيرها . وقد عرف مشروع مو باسم المشروع العظيم (Le Grand Projet)
أو مشروع ٣٠ نفوس من السنة التاسعة للجمهورية
للمشروع العظيم :

أما هذا المشروع العظيم فقد ساول مسألة الصرائب كما تضمن الإصلاحات التي
اعزم مو إخراجها بسط ومحصل الأموال خصوصاً وقضى مو وقطوبلا في إعداد
مشروعه العظيم ، فذكر في ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٠ في منشور أصدره « لأهل
مصر^(١) » نفس وجوه الإصلاح التي ارتأها ضرورة لرفع كل تلك الصرائب العديدة
التي أرهقت الأهاليين وأنفلت كواهلهم ، والاستعاضة عن ذلك بصرية واحدة ،
وفي ٢٠ يناير سنة ١٨٠١ (٣٠ نفوس من السنة التاسعة للجمهورية) صدر أمر مو
بهذا المشروع العظيم^(٢) وكان مشروعاً عظيماً جداً ، لا جدان في أنه لو أمكن تنفيذه
لاستطاع أهل تلك البلاد أن يخلصوا من كثير من المساوي ، التي اقترمت نظم فرض
الصرائب ومحصلها . ذلك أن هذا المشروع العظيم كان يمر مبدأ المساواة بين المصريين
فما يؤدونه من ضرائب ؟ كما أن تنفيذه كان يقتضي حرمان المرمين من ممارسة شئون
القضاء والادارة التي درجوا من قدم الزمن على ممارستها في أرضهم ، أو على أدق
في تلك الأراضي التي « الرموا » بها ، فأصبحوا يتوارثونها لقاء دفع المال الربوط
عليها إلى الحكومة . ومضاه عن ذلك فقد منع القبط مصل هذا المشروع من تحصيل
الأموال . وذلك مما للتلاعب الذي أدى إلى وقوع كثير من الاحتسابات ، إلى جانب
إزال صفوف الصف والإرهاق بالأهاليين والملاحين عند محصل الصرائب

وعلى ذلك فقد تألف المشروع العظيم من ثمان وعشرين مادة ، تناولت موضوع
الصرائب ، فصحت على إلغاء كل الصرائب التي اعاد الفلاحون ولأهلون دفعها
كالتبري والبراني والمبايع إلى غير ذلك من انحرافات والصرائب الاضائية التي اشكرها
المتبرمون (والسكوات المليك في الزمن السابق) وأرهب سبها الفلاحون ، على أن
يبدأ هذا الإلغاء من سنة ١٢١٥ هجرية والاستعاضة عن ذلك جميعه بصرية واحدة
ابتداء من العام نفسه . أما هذه الصرية الواحدة فيكون تحديدها حسب عدد الأقدية
التي في حوزة أصحابها ووحدة الأرض ، كما صار من حق الفائد لعام وحده أن يحدد

(١) Rousseau 367—73; Reynier (Mém 166—72) Pièce Div 567—70.

Reybaud VIII. 72—4 Rousseau 382 93. (٢)

قيمة الصرية في كل سنة على حدة عقب قبضان النيل ، وقسمت الأرض إلى ثلاثة أنواع تحي عنها حسب حودتها فئات معينة بين عشرين ، وسبعة عشر وأربعة عشر فرنكا ، وذلك حتى يعرف الفلاح الذي يملك ستة أفدنة مثلاً من الأراضي الجيدة ، أنه قد قام بدفع ما عليه إذا حصل منه الحيازة قيمة الصرية المفروضة عليه وفنورها مائتان وأربعة فرنكات ، فلا يستطيع أن يرعه أحد بعد ذلك من المتمرين أو مشايخ البلد أو الكتّاب والصارفة ولا يطلب منه إنسان أن يساهم شيء في نفقات إصلاح الخسور والقنوات وما إليها وتعمد سمو في مشروعه العظيم بعدم زيادة هذه الصرية الواحدة بل إليه وعد سحبها في السنوات التي يأتي فيها قبضان النيل رديناً على شريطة أن يقوم الفلاح في كلا الحالتين بدفع القيمة المطلوبة منه عاماً . أما إذا صغر الفلاح في أداء ما عليه فقد هدّد سمو بإرساله الخلد إلى القرى لحصيل الصرية قسراً ، وتجهل عندئذ أهل القرى نفقات إرسالهم أما الأموال المتحصلة من هذه الصرية الواحدة فقد قسمت عتقسي هذا المشروع العظيم إلى أربعة وعشرين جزءاً ، منها اثنا عشر جزءاً نصيب الجمهورية الفرنسية ، وسبعة أجزاء لأصحاب المتمرين في نظر ما قدوه من الأموال التي أصادوا تحصيلها من القرى والتي « التزموا » بها ، ثم ثلاثة أجزاء أعطى إلى مشايخ البلد تعويضاً لهم عن الأتاوة التي كانوا يحصلونها من القرى ، ولتشجيعهم على تأدية أعمالهم . ولما كان منو قد عرض في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٠٠ على هؤلاء المشايخ صلحاً كبيراً من المال فقد استرلت هذه الأجزاء الثلاثة من الأتاوة المفروضة عليهم ، وأدما تبقى بعد هذا التوزيع وقدره جزءان ، فقد حصص للامان على أعمال القنوات والحدود ولدفع أحور العمال حتى يفي الملاحون من السخرة

ومما يجدر ملاحظته أن هذا المشروع العظيم قد حرم المتمرين كذلك من الإرادة التي كانوا يحصلونها من أرض الأثر ، ولذلك فإن السطة أحرار التي أعطيت لهم كانت في واقع الأمر بمثابة معاش سوى يصرف لهم ، وقد منع هؤلاء المتمرين من تحصيل هذه الأموال بأنفسهم منعاً قاطعاً ، بل إنهم ما لبثوا حتى حرموا كذلك من ممارسة « سلطانهم » القديم في القرى أو الأرض التي طلبت في حوزهم أرمناً طويلة ، عندما نصت المادة الحادية والعشرون على أنه « من الممنوع سائماً أن يدخل المتمرين في شؤون القرى أو يتمتعوا بأي سلطان بها ، لأن جميع ما كانوا يتمتعون به من سلطان في الماضي قد حرمهم منه الجمهورية الفرنسية . فالحكومة وحدها هي صاحبة الحق في إصدار أحكام الحيازة وللو ، ولو أنها لا تستطيع فعل ذلك إلا عن طريق

القضاء ووفق المايون « . والنتيجة الظاهرة لذلك كله أن للعميين ماوا بفصل هذا المشروع العظيم مجرد ملاك لأراضي « الوسية » التي يملكونها حسب ، كما نجم عن تحرير الفلاح من جميع القبود المالية والقضائية القديعة أن عدت أملاكه محررة . كذلك ، فأصبح في مقدوره أن يصرف في الأرض التي في حوزته ، وقد عرر هذا ابتداء اعتراف المشروع العظيم في مادته الرابعة عشرة والخامسة والعشرين بأن الفلاحين ملاك للأراضي . وجاء في المادة السادسة والعشرين « أن جميع ملاك الأراضي مطلق الحرية في أن يزرعوا أراضيهم حسب ما يشاءون » .

على أنه لما كان من المتعذر تنفيذ هذا المشروع العظيم قبل أن يتم مساحة جميع الأراضي ايرراية فقد أنشأ مو في ٢ مارس سنة ١٨٠٦ لجنة للمساحة ، من أعضائها المهندس لويس Le Perc والمهندس الحرافي جاكونان Jacotin . وذلك من أجل « الوصول إلى تحديد مساحة صربية الأرض السوية أو المبرى وتحصيلها بالعدل والقسطاس في مصر » وكان من أهم أعمال هذه اللجنة صسط مساحة المدان المصرية وتوضيح هذه المساحة بالمقاييس الفرنسية المعروفة . وفي ٥ مارس عرست اللجنة على مو جميع القرارات التي وصلت إليها في كل ما من شأنه أن يحدد الطريق أمامها لقيامها بالمهمة الملقاة على عاتقها .^(١) ولكن في مارس سنة ١٨٠٦ كان قد استؤنف الصال بصورة جديدة من أجل تقرير مصير الحملة داتها ، فتعدت مساحة الأراضي الزراعية ، وتعذر كذلك تنفيذ المشروع العظيم ، مشروع الصربية الواحدة .

٢ — الزراعة والصناعة والتجارة .

ومع أنه كان من شأن الأساليب التي لحأ إليها مو للحصول على امداد بكل وسيلة تعطيل الإنتاج ووقف النشاط الاقتصادي في داخل البلاد عموما ، فقد عول قائد الحملة الجديد على معالجة هذه الحالة بالنوفر على العناية بشئون الزراعة والصناعة والتجارة ، على أمل أن يصل من ذلك كله إلى دعم أركان تلك استعمرة الساحنة التي أراد تأسيسها في مصر . بهدف من مشروعاته الإصلاحية إلى تحقيق عرس واحد هو أن تعدو هذه البلاد مركزاً زراعياً وتجارياً هاماً تحي فرنسا منه كل ربح وفائدة . ولما كان الاهتمام بتجوية الزراعة تقتضي العناية بوسائل الري ، بما في ذلك إصلاح القنوات وإقامة الجسور ، لما يحليه تشجيع الزراعة على حد قوله من منفعة لغرب

عد نفاء هذه البلاد في حوزة الجمهورية الفرنسية بعد عقد المصلح العام ، ولا يترتب عليها كذلك من آثار طيبة يستطيع بعصها الفرنسيون إذا حرجت مصر من قصصهم أن يعجزوا عما أسدوه للإنسانية من خدمات جليلة فقد أصدر مو أمراً في ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠٠^(١) إلى مهندس الحملة ، أن ينتشروا في أرجاء القطر لدراسة محرى الهر ولحسن القنابات والحدود ، ومع مو يدخل حكام المديرية المختلفة في أعمال هؤلاء المهندسين وفصلاً عن ذلك فقد اهم مو معرفة مقدار الأراضي الزراعية في مصر ، فطلب من القبط أن يقدموا له بيانات مفصلة عن ذلك ، وكان عزم مو أن يخصص جزءاً من الأراضي الزراعية التي تملكها الدولة لإنتاج الملات التي يحتاج إليها فرنسا ، لأن مصر على حد قوله — قد أصبحت مهددة لا تحمل أي حدل أو منافسة مسعمره فرنسية ، وعلى ذلك فإنه لسدو أن إنشاء حديقة للتحارب من أعظم المشروعات فائده ونجدها . وذلك لأنه من الممكن بحرية ررع سانات حديقة بهذه الحديقة حتى إذا تحجبت لحرية عممت هذه الزراعات في أرجاء البلاد . وكان لتحقيق هذا العزم أن أعطى مو لأحد المواطنين الفرنسيين في أوائل يونيو سنة ١٨٠٠ حق الانتفاع بقطعة من الأرض الزراعية في قرية (مبيت عمه) ، لإجراها بحارب زراعة التي وصف السكر^(٢) وفي ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠٠ أصدر مو أمراً بتشكيل لجنة للزراعة^(٣) تضم إليها شامى Champy ودليل Delisle وسكتو Nicloux ، كلهم بإشاء حديقة لزراعة السانات المحبوبة من فرنسا والاستكثار منها إلى جانب التوفر على الصاية بأمر البيانات التي تنمو بالبلاد معها . وذلك حتى يمكن على حد قوله — الاستمادة من الدور التي وصلت حديثاً من فرنسا استمادة تامة من جهة وحتى يمكن تشجيع الزراعة في هذه البلاد ، والعناية كما تحب بالأشجار التي تنمو في مصر ذاتها . وفي ٢٤ ستمبر كتب مو إلى القنصل الأول^(٤) بعثه بإشاء (حديقة ثلثات) في القاهرة ثم يطلب إليه إرسال مجموعة كبيرة من بذور الحبوب والشمش والسكرى والتفاح وإرسال عدد من المصايين المديرين إلى القاهرة . ولما كان من أعراض (اللجنة الزراعية) عند تأسيسها العناية بالملات الوطنية فقد أشرف هؤلاء على زراعة

Pièce. Off. 394—5; Pièce D ver. 305, 500. (١)

Rigault 107. (٢)

Pièce. Off. 385—6 Pièce. Div. 497 9. (٣)

Rousseau 348. (٤)

الأرز والقمح والقدرة وغير ذلك من البساتين التي زرعها الفلاح كما درس أعضاء اللجنة كل المسائل المتعلقة بإنتاج الأراضي الزراعية في مصر وبمحتوا وسائل تقوية الأرض . ولما كان فيضان النيل ردينا في سنة ١٨٠٠ فقد قامت حكومة مو سوريج الدور والتقاوى على الفلاحين ، وعلى مهتدسو اللجنة الزراعية ملاحظة الأراضي حتى يوفرها الأسباب التي تكفل زرعها بسهولة . وفي ١٤ يوليو (١) أصدر منو أمراً مع قطع الأشجار للحيولة دون إزاحة الأشجار المصرية وذلك لأنه « لما كانت الأحشاب الضخمة الصالحة للوقود ولبناء السفن حسب هي التي تأتي إلى البلاد عن طريق تجارتها الخارجية ، فقد بات من الواجب على مصر أن تعتمد على أرضها في إسراع الأشجار التي تصلح لأعمال التجارة الدقيقة » . وفصلاً عن ذلك فقد أراد منو أن يشجع أهل القرى على الاستكثار من زرع أشجار الخمر والتوت والقمح وما يلم . وفي العام الزراعي ١٨٠٠ - ١٨٠١ كانت جهود منو قد أثمرت فانتعشت الزراعة المصرية (٢) . كما أن هذه الجهود ما لبثت أن لعبت كل ترغيب في فرنسا وشر حورنال الوينبور الفرنسي *Moniteur* في ١٦ ديسمبر سنة ١٨٠٠ بأمر من نوبارت خطاب منو المتعلق بحديقة البساتين ، كما نشر الفصل الأول في الأسبوع التالي في الصحيفة نفسها خطاباً كان منو قد أرسله في ١٤ نوفمبر تحدث فيه عن إرسال عيانت من السكر إلى فرنسا حتى يرى الفرنسيون ما يستطيع مصر أن تنتجه (٣) . وعلاوة على ذلك فقد أحاط الفصل الأول رعة منو فأعد بحثه من نماسة من البساتين الحادقين بمحلولي معهم اثنين وسبعين صندوقاً من بذور الفاكهة وعدد كبيراً من شجيرات المأكلة عدا الآلات والأدوات الزراعية اللازمة لإجراء التجارب المزمعة في حديقة البساتين في القاهرة . وقد صدرت هذه البعثة طولون في ٣١ إبريل سنة ١٨٠٠ على ظهر السفينة (لا فيرج دي بييج) *La Vierge des Nièges* في طريقها إلى مصر ، ولكنها سرعان ما وقعت في قصة الأسطول الإنجليزي أمام مرج العرب على مسافة قريبة من الإسكندرية في مساء ٨ يونيو (٤) .

ومع أن اللجنة الإدارية كانت قد قطعت في ٣١ يونيو سنة ١٨٠٠ بأنه « من المستحيل

(١) Pièce Div. 484-5; Pièce. Off. 367-9.

(٢) Rigault 168

(٣) Lokke et Debien 349

(٤) Ibid 355

فعل شيء للهوض بالصناعة في مصر^(١) فقد كان للحيش مطالب عدة لا على عن .
بدير كل ما يمكن من وسائل لإحيائها . وابت لزاما على مو كذلك أن يهتم بأمر
الصناعة المحلية والقيام بعدة تحارب في سبل إحيائها قبل الانصراف نهائيا عن محاولة
الهوض بالصناعة في هذه البلاد . وكان مما شجع مو على المضي في محاولاته أن المهندس
كونتي Conti استطاع أن يعرض موالا لنسج الأقمشة ، كما تبين أنه كان في وسع
التجار الفرنسيين المقربين في القاهرة إدارة مثل هذه الأعمال . وعلى ذلك فقد اقترحت
اللجنة الإدارية على مو في ٦ يوليو أن يثني مصعاً للنسج ، فأقبل مو على هذا
المشروع بكل همه . وفعلا عن ذلك فقد أراد أن يصم هذا المصنع عدداً من العمال
المصريين لاعتقاده « أن التوفر على تعليم سكان البلاد بكل الطرق الممكنة إنما يصير من
أحدى الوسائل التي نكفل للهوض بالمصنعة الناشئة هو مصعاً سريعاً عنها » غير أن
اللجنة الإدارية مالت أن عارضت هذه الرعة بكل قوة خوفاً من تسرب أسرار
الصناعة الفرنسية نتيجة لإشراك العمال المصريين في المصنع من جهة ، ولأنه كان من رأي
هذه اللجنة عدم التوسع في الصناعة في مصر حتى تظل المصنعة الحديثة بمعتمده اعتماداً
تاماً في سد حاجاتها على ما تنتجه المصانع الفرنسية ، ، محملاً عندها حماية التجارة وتحقيقاً
للقاعدة الاستعمارية التي تقضي بإلزام المصريين وأهل المستعمرات عموماً أن يشتدروا
كل ما يريدونه من فرنسا دائماً ، كما جمعهم من إنشاء مصانع المتشابهة للمصانع الفرنسية
ودارت مناقشة كبيرة بين مو وأعضاء اللجنة الإدارية في هذا الموضوع فكان من
رأي مو - على خلاف ما أحدث به اللجنة الإدارية - « أن المصلحة تقتضي الأمم انصبة في
صنعة أرضها ومصانعها أن تعمل على إعاش الصناعة في الأمم المجاورة لها والتي تتعامل
مها تجارياً وذلك لسبب بسيط هو أنه من المنعذر على أية أمة أن على ربحاً أو فائدة
إذا هي باعت منتجاتها إلى أمة فقيرة لا يمكنها أن تدفع ثمن ما تسورده قدياً أو بطريق
تبادل المتاجر مع الأمة المصدرة » .

ومع ذلك فقد استملك أعضاء اللجنة الإدارية آرائهم الاستعمارية والاقتصادية
وكاتب هذه سطرآت مالة عتفة ، وأحجار (كوني) إلى جانبهم فأعلن امتناعه عن
إطلاع المصريين وأهل هذه البلاد على أسرار الصناعة الفرنسية . وهكذا بدأ كوني
في إنشاء مصنع لنسج الأقمشة بعد أن أحد ربه فاشترط خروج غير الفرنسيين معهم

من التصع كما اشترط في حالة موافقة حكومة الجمهورية على إرجاع مصر إلى السلطان انتهى أن يتم تحطيم أدوات الصاعه والمتحات الصاعية جميعها أو تنقل هذه إلى فرنسا . وفي ٢٤ سبتمبر^(١) استطاع مو أن يكتب إلى وزير الخارجية الفرنسية أن كوتش أثناء طاحونة لإدارة الآلات اللازمة لصنع الأقمشة ، ولذلك فقد مات ممكناً الحصول في زمن قصير على الأقمشة اللازمة للحيش . ومع ذلك فإن العمل لم يبدأ في هذا المصنع إلا في شهرى يار وفرار في العام التالي^(٢) وإلى جانب امسبح لأقمشة قامت بعض المصانع الأخرى ، فصع رجال الحملة الصناعون من الزبوت المصرية ونجح المواضع (فادر فلدت) Vanderveldt في صنع البيرة . وفي ٢٤ سبتمبر طلب مو من وزير الداخلية في فرنسا أن يرسل إلى مصر عدداً من النساخين وصامى الأقمشة والخدابين وصامى الساعات وحروف الطاعة وغير هؤلاء . من اصاع ، وفي ١٨ ديسمبر وعد مو كلا من بيجو Bégot ، وريجاز Regas بحماية ما يبدلونه من جهود لانقاذ الصناعة ولو أنه رفض في الوقت نفسه أن يجمع غيرها من الاشتغال بالداغة .



وكان إحياء التجارة من كويات السائل التي شعلت مو وذلك لما رتب على الاحتلال الفرنسي لهذه البلاد من آثار سبست ركود النشاط التجارى في البلاد ، بل كادت تقضى عليه قضاء مزمناً فقد شدد الاعلبر نطاق الحصار على الشواطىء المصرية فحوا تجارة الوارد والصادر ، كما أن وجود جيش الصدر الأعظم في سوريا اضطر مواد جيش الشرق إلى منع تصدير الحبوب إليها . حرمت مصر من سوق هام لتجارتها الخارجية وكان بما راد الحالة سوءاً تلك السياسة المالية التي سار عليها كل من بونارت وكلمر ، والتي كانت تمنحها وسداها جمع المال من الأهليين بكل الطرق حتى أنفرت من المال حرائى التجار على وجه الخصوص ، وجاءت نفس مو في جمع المال منهم صمناً على إمالة ، فراد حملك التجار ووقف نشاطهم ، ونات من الواضح أن إحياء تجارة مصر في البدايين الداخل والخارجى على السواء يقتضى بذل جهود عظيمة . كما قد مات من الواضح كذلك أنه لاغنى عن إحياء تجارة هذه البلاد لإعاشى حال التجار وسائر الأهليين وريادة الثروة العامة بصورة ممكن

موسم الحصول على الوارد اللازمة للاعاقق منها على جيش الشرق في مصر .
ولذلك أقبل موسي على معالجة مسألة التجارة وتوسع نشاطه بين تدبير وسائل
إعاشها في داخل البلاد وأنها وبين محاولة إنشاء العلاقات التجارية الواسعة مع
إسكندرية . فعمل على توحيد قنات ، لنقل الباقى في داخل البلاد (١) ، وأصلح
قناة الإسكندرية ، كما أمر بإصلاح الطرق البرية وحفر قناة جديدة بين دمياط وقناة
النصارى (أول ديسمبر) ، وأسك مهندسو الحملة على دراسته كل مساعد على
تسهيل سبل المواصلات بين أقاليم الوجه البحرى المختلفة وربادة الطرق الصالحة للنقل ،
كما اقترح جيران Girard أحد هؤلاء المهندسين (في ٢٧ ديسمبر) إنشاء مركز
إدارى في طنطا للإشراف منه على كل أقاليم الدلتا

وفي ميدان التجارة الخارجية بدل موسي قصارى جهده لتنظيم حركة السفن في الدوايق
وتسهيل التبادل التجاري في مصر والبلدان الأخرى وتشجيع التجارة الخارجية عموماً .
من ذلك أن اللجنة الإدارية ما لبثت أن أشارت بإقامة لجنة مختصة (لجنة المخابرين)
في الدوايق ، مهمتها جمع المعلومات عن السفن التي صادرها الفرنسيون في الدوايق البحرية
من أن استؤلف النصارى مع الإيجلر والقبائين عقب نقص البضائع العريضة فصدر موسي
في ١٩ يولية سنة ١٨٠٠ أمراً بحل من حق إدارة المراكب السماح للسفن بمساعدة
الدوايق ، كما حول القائد العام وحده حق السماح بصدير الأدوات المستخدمة في الزراعة
والصناعة . وقد أدت هذا الأمر كذلك بصدير القمح والحبوب من السويس
ثم بصدير الأرز عموماً (٢) . وفصل عن ذلك فقد عمد موسي إلى التجهيز من صرامة
دوايق الحرب من أجل تسهيل التبادل التجاري بين مصر والأقطار الأخرى ، فأمكن
بفضل ذلك تصدير المنتجات المصرية إلى تركيا ، كما سمح للمحار الإيجلر بالانتقال والتجارة
على سفن يونانية ، بدعوى أن اليونانيين من الشعوب المخابرة على الرغم من أنهم كانوا
من رعايا السلطان العثماني ، وأعاد اليونانيون من ذلك فائدة كبيرة ، فأحصروا متاجرهم
إلى مصر ، وعقد الفرنسيون آمالاً كثيرة على إمكان استئناف العلاقات التجارية
مع تركيا بواسطتهم .

وكان من الوسائل التي لجأ إليها موسي لتشجيع التجارة الخارجية عموماً أنه طفق
بديل الوعود السخية بإعطاء جوائز كبيرة للمصدرين والمستوردين ، وإعفاء السلع
المخلوقة من الخارج من الضرائب الجمركية ، ما دامت هذه السلع بما يطله الجيش

Pièce. Offic. 402 (١)

Rigault 174 (٢)

ويبدو حاحه وفي ١٥ أغسطس مع مو عمال الجمارك والحكام العسكريين في مختلف الأقاليم من تحصيل صرية عبر الضرائب الحركية للقررة ^(١) . وطبق مو هذا الأمر بصورة عملية عد ما وحه تأييداً عيماً إلى الجبرال حوليان Julien لأن هذا الأخير كان قد حصل أرمائة قرش عن كل سبعة يونانية عند خروجها من الإسكندرية ، وم بعد شيا اعداد حوليان بأن كبير كان قد أحر له أن يفعل ذلك ، وأن احرال (لاوس) قد أقر هذا العمل عند استشارته ^(٢) ؛ وفي ٣٠ أغسطس أمر مو بأن يعطى كل فطاط سفة عند دخوله ابياء « وثيقة » رحيب سكمل له الاطمشان عن المتأخر اتي محملها سفينه وتضمن له قصص الثمن عند بيعها ، وعرضه من ذلك تشجيع التجارة الى عملها السفن الأجنبية إلى اموان المصرية ^(٣) . وفي ٨ ديسمبر تمت مو إلى فرانس Friant مجموعة من المنشورات لإداعها حتى يستطيع أهل حرر الأرحيل أن يقفوا معها على ما يباله تخارم من معاملة طية عند حضورهم إلى مصر ^(٤) . ووصلا عن ذلك عمل مو نصيحة كل من (رامسون) و (لاوس) برفع الخطر المفروض على انفسه لتي صادرها انفرسيون فكان من أثر ذلك كله أن أحدث السفن الصغيرة . بعد تكترة عظيمة في التهور التالية إلى الاسكندرية . وحاول مو أن يحطم ذلك الحصار البحري الذي فرضه الانجليز على اشواطى . ادمرية ، وسلك صدارى جهده حتى تمكن الفرنسيون من إرسال بعض سفاتهم محملة بالصنائع من هذه البلاد إلى فرنسا . فعهد في ١٧ نوفمبر إلى اثنين من التجار الفرنسيين هم (رمال) Real و (باتالون) Batthalon بإرسال مركبين إلى فرنسا ، فاستطاعت واحدة من هاتين السفينتين الخروج من الاسكندرية محملة بالأرز والبن فوصلت إلى تونس بعد جهد ومشقة ، وافرغت حولها هناك ، وقامت في أشهر معه حركة كرهه لندهير عدد من السفن المحملة بالأرز والسكر والبن والقطن والصمغ بنية إرسالها إلى مرسيليا . وفي ٢٧ نوفمبر و ١٩ ديسمبر سنة ١٨٠٠ استطاعت ست من هذه السفن الخروج من الاسكندرية . وحدث في فبراير من العام التالي أن تارلت حكومة مو عن أربع سفن للتجار انفرسيين وسفينتين للتجار الوطيين وذلك لكي رساها هؤلاء . محملة بالتأخر إلى مرسيليا .

Pièce. Div. 496 : Pièce. Off. 384 (١)

Rousseau 335 — 6 (٢)

Pièce. Off. 402 ' Pièce. Div. 508 (٣)

Rigault 175 (٤)

عن أن وجود الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض حصل من التندر إحياء النشاط التجاري في ذلك البحر أو إيماء للواصلات مفتوحة بين مصر وفرنسا . ولذلك فقد ظلت موانئ البحر الأحمر طوال أيام الحملة الفرنسية في هذه البلاد مراكز التجارة الرئيسية للصادر والوارد على السواء . ولم يلب هذه الحقيقة عن أدهان أعضاء اللجنة الإدارية . وكان يواكب أول من اعترف بضرورة أن يصبح ميناء السويس مقر تجارة ليس والنوازل الآتية من بلاد العرب وتجارة المنتجات الأوروبية والمصرية ، ذلك أن السويس كانت أقرب إلى اوجه البحري من القصر الميناء المصري الثاني على البحر الأحمر . ومنه أن سائر الفرنسيين عن القصر إلى مراد بك في عهد الخيال الكبير ، بعثت اللجنة الإدارية الأنظار إلى ضرورة الاهتمام بميناء السويس ، لا سيما وقد باتت ضرورية إيجاد ميناء صالح جديد للوجه البحري بعد أن شدد الإغليز الحصار على شواطئ الدلتا الثمانية . وعلى ذلك فقد قدم أحد الفرنسيين (الوطني ريبية) تقريراً صافياً إلى مو في ٧ يونيو سنة ١٨٠٠ عن أهمية السويس لتجارية ، وفي شهر يونيو وديسمبر من العام نفسه عظم الأمل لدى مهندسي الحملة في إمكان شق قناة تمتد من السويس وتصل البحر الأحمر شاطئ البحر الأبيض . فكتب للمهندس لويس Le Père إلى القصر الأول أن إعادة فتح قناة مصر من القدم ، مما ت عملاً لا يحول صعوبات كبيرة دون تحقيقه^(١)

على أن العناية بميناء السويس كانت لا تنكح وحدها لإحراز السيطرة التجارية في البحر الأحمر ، بل إن ذلك كان يقتضي أولاً وقبل كل شيء أن يعمل الفرنسيون على إنشاء علاقات طيبة مع حكام لبلدان الواقعة على هذا البحر ، واستجابتهم إلى إرسال مندوبينهم إلى موانئ المصرية . وكان يواكب أول من اتبع سياسة التعامل مع الشريف مكة ، ووجد مو الآن أن حدود حدوده على أمل أن يؤدي هذا التعامل مع الشريف على الأقل إلى إبعاد السعن الإنجليزية عن البحر الأحمر . وإلى مع الإغليز من تأسيس مراكز جديدة لهم في جدة . واعتمد الفرنسيون أن في وسعهم التأثير على الشريف حتى يطمئن استقلاله ويفصل عن الدب العالي إذا هم أفلحوا في إثارة محافوه وشكوكه من ناحية الإغليز والعثمانيين معاً ، فضلاً عن أن الشريف في هذه الحالة سوف لا يحجم عن إغراق (محا) في وجه الإغليز كذلك . واعدد مو أن مساعيه سوف تشكل النجاح في هذه الناحية لأن الشريف أظهر في السنتين الماضيتين ميولاً ظاهرة نحو الفرنسيين ، فقد

رفض أن يعد الإنجليز بالرجال أو السفن ، كما أنه قبل في أكتوبر سنة ١٨٠٠ أن يسع
 يريد مو يمر إلى حرري إيل دي فرانس ورويمون الفرنسيين ، فكتب إليه مو
 في ٣٠ نوفمبر^(١) أن بومارت قد كلفه بأن يعمل على تحديد معاهدات الود والصداقة
 مع الشريف ، وأن شهر لذلك هذه الفرصة حتى يشه بأن جميع رغبات الشريف
 في وسعهم أن يحضروا إلى السويس دون خوف أو وجل ، وبأنه كلفه أن التفاوض
 يدعوا أية أبواب أو معارم ، كما أنه لن يجمع لهم ما يرغبهم ، لأن مو على حد قوله قد
 أننى جميع ما كان معرض على ساحرهم في الزمن الماضي ، مكسباً بحصيل صريفة
 واحدة حبس ، فلا يستطيع مربي أن يحصل بارة واحدة رادة على الفرصة المقررة
 فإذا فعل كان عليه ألوف وور ودون إمباله وعرا مو هذا القرار إلى ما يمكنه من
 احترام وتقدير للشريف . ثم استمر مو يقول إنه كان يهزم إرسال قافلة الملح إلى مكة
 المكرمة في هذا العام وإرسال الكهوة إلى الكفة الشرفة ، لولا أن ظروف الحرب
 القائمة قد جعلت إرسال ذلك متعذراً ، ووعد بالعمل على عمق هذه الفرصة
 في العام القادم .

وقد أودعت ولا شك هذه الخطة الحكيمة ، جاءت السفن من جدة وسبع
 إلى السويس في شهرى نوفمبر وديسمبر محملة بالأسحة القطبية والشيلاان الصوبية
 والحرار وأنس ، ولو أنه لما محذر ملاحظته أن الشريف غالب مع موافقته على إنشاء
 العلاقات التجارية مع الفرنسيين ، ظل منها في الوقت نفسه بإجراء الاستعدادات
 العسكرية في جدة وسبع ، ربما لما يخشاه أن يطرأ من حوادث في المستقبل .

ودخل ضمن برنامج مو إنشاء العلاقات التجارية مع سار ودارفور أي شطر
 الوادى الغربى ومع الحبشة من جهة ، ثم مع البلدان الإسلامية في إفريقية الشمالية
 العربية من جهة أخرى . ففعا مو في ذلك إثر بومارت واتسع الطريق الذى سلكه
 قائد الحملة الأول . وكان بومارت قد أوصى بإرسال مدويين فرنسيين إلى السودان
 والحبشة لإنشاء العلاقات التجارية وتنظيم شراء الرقيق ، إلى جانب التهديد من أجل
 التوصل في آخر الأمر في طلب القارة المجهولة فقام مو الآن بتعبه هذه الخطة
 واستطاع أن يكتب في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠ إلى وزير البحرية الفرنسية^(٢) أنه بحث
 لكنه إلى إمبراطور الحبشة ، كما أدلى بمقترحات معينة إلى كل من سلطان سار وسلطان

Rousseau 378 - 80 (١)

Ibid 359 (٢)

دارفور وسلطان دنقلة لعقد محالمة مع الفرنسيين في مصر ، بل سكلبت جهوده بالبحر
 « لأن قافلتين كبيرتين تسيران الآن في طريقهما من الحبشة وسار إلى القاهرة »
 وكان مو صادقاً في دعواه لأنه لم يقص زمن طويل حتى كانت القوافل قد وصلت
 من دارفور وسار إلى اسيا وأسيوط في طريقها إلى القاهرة ، كما أن (دوريلو)
 في الوجهة القبلية مالت أن تبت إلى مو مكاتب من سلطان دارفور ، يطلب فيه هذا
 الأخير صداقة الفرنسيين ويحطب ودمهم ويحرمهم بامتدادهم لجهر قافلة كبرة وإزالة
 إلى مصر هذا حصص الفرنسيون ، الصرحت الحركة التي كان الكواكب الهالك يحصلونها
 من القوافل . وفصلاً عن ذلك فقد أحضر « سهر » السلطان إلى مو ثلاثة من
 لعبد وسورن هدية له .

وكان يوبارت قد حرص على معاملة الحجاج من أهل أفريقيا الشمالية الغربية بمعاملة
 طيبة وذلك بعد تأدية فريضة الحج ووصولهم من مكة المكرمة إلى القاهرة في طريقهم
 إلى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش . وكان عزم يوبارت من ذلك أن يكسب
 صداقة أهل هذه البلاد فلا يصرفهم احتلال العرب في مصر عن التجارة معها^(١) . وم
 بعد على يوبارت سياسته سوى إعلان الباب العالي الحرب على فرنسا واشتراك
 وحلفاء العرب في هذه الحرب . فقد طلب الباب العالي من مصطفى باشا داي الجزائر
 ومحموده باشا باي تونس إعلان الحرب على فرنسا ، فامثل كلاهما للأمر وانقطعت
 العلاقات مدة من الزمن بين فرنسا وبين الوحافات ، ولكن الجزائر وتونس باشا
 أن عقدتا صداقة مبردا مع فرنسا ، فمادت الأمور إلى محورها ، وحسنت علاقة حكام
 هذه البلاد مع الحكومة الفرنسية^(٢) . وعلى ذلك نادر مو باشا الفرصة فكتب في
 ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٠ إلى كل من مولاي سليمان في مراكش ومصطفى داي الجزائر
 ومحموده باشا باي تونس ويوسف باشا داي طرابلس مؤكداً لهم جميعاً أن رغبتهم التي
 يريدون الحج إلى بيت الله الحرام سوف يلقون كل معاملة طيبة في مصر في أثناء دهاهم
 إلى مكة المكرمة . كما نادر بالكوفة إلى (ديوا - تاغيل) (Dubus - Thanville)
 المفوض الفرنسي لدى حكومة الجزائر لكي يصح رسماً لعمان انشطار المواصلات بين
 هذه البلاد وبين مصر من جهة ، ولتنحية العلاقات التجارية بين موالي الوحافات وبين
 ميساء الأسكندرية من جهة أخرى^(٣) . ويعلق الشيخ الحبري على هذه الحوادث بقوله

Jonquière II 344 - 5 (١)

سر حك ١ : ٣٦٩ ، ١٩٢ (٢)

Rigault 180 (٣)

في ٥ رمضان سنة ١٢٢٥ (٢٠ يناير سنة ١٨٠٦) . وفي ذلك اليوم قرى فرمان معصومه أنه وردت مكاتبات من فرنسا بوقوع الصلح بينها وبين أهل الجزائر وتونس شروط محسنة مرضية وقد أطلقوا الإذن للتجار من أهل المحتين بالسفر للتجارة فمن سافر له الحماية والضيافة في دهبه وإيانه وأقامته باسم دولة الجمهورية الفرنسية إلى آخره . ولم يظهر لذلك أثر^(١) . وكان سبب عدم ظهور أى أثر لذلك أن أيام الحملة في مصر قد كانت معدودة ، وأصبح شغل مو الشاعل تدبير الوسائل للدفاع عن مستعمرته

٣ - الحكومة الوطنية

وكان من الواضح أنه لا يرجى أى نجاح لجميع تلك اشروعات الى بدأها مو أو فكر فيها من أهل التهمس باستمره الحديد ونوطيد أقدام الفرنسيين بها . طالما كان المصريون يرفضون التعاون مع الساده الحدد ، ويتصورون رول الكوارث بهم ، وصالحا كان الإبحر والعناصون قد صبح عزمهم على إخراج الفرنسيين من مصر بكل وسيلة . ولا حداه في أن انصراف المصريين عن مؤاررة الحكم الحديد كان من العوامل التي ساعدت على إلحاق الهزيمة بحيش الشرق في النهاية عند ما عجز مو وقواده عن الصمود أمام قوااب العدو الزاحمة عليهم . وسواء أدرك مو أهمية تعاون المصريين معه لدرء الخطر الخارجى أم فاته ذلك ، فمن الثابت أن قائد الحملة الحديد قد بذل كل ما في وسعه من جهد وحيلة لاستيالة المصريين إلى الحكم الفرنسى كدعماء من تلك الدعامات التي كان لا عى عنها في واقع الأمر ، إذا شاء مو أن يكفل النجاح لشعرته الاستعمارية . وعى ذلك فقد كان تنظيم الحكومة الوطنية من أبرز البواحي التي ظهرت فيها جهود مو الاستعمارية . وكان قوام هذا السطيم إعادة النظر في اختصاصات السلطات المحلية من جهة ثم عث العلاقات التي تحب قيامها بين الحكومة المركزية « الفرنسية » وبين أهل البلاد من جهة أخرى . وقد أقبل مو على معالجة هذه السائل بكل نشاط وهمة وصادف عند محاولة تحقيق عزمه صعوبات عدة وسدل في سبيل التغلب عليها جهودا شاقة مضنية .

فقد دل أعتيال الجبران كبير على أن هو « حقيقة كانت تفصل بين الفرنسيين وبين أهل البلاد والعالم الإسلامى عموما » ذلك أنه ثبت أن علماء الأزهر كانوا قد استضافوا

سليمان الحلبي قاتل الجنرال كبير أسابيع عدة ، كما أن أحدا من هؤلاء لم يبالغ عن سليمان شيئا ، مع أنه أفضى إلى جماعة من هؤلاء الشيوخ بما كان يعتزمه . وبما فريق منهم عن ارتكاب فعلته . وقد حكم على هؤلاء بالإعدام كغيركاه له في الحرية . وفصلا عن ذلك فإن القاهريين لم يلزموا الهدوء والسكينة بعد ذلك إلا نتيجة لما حل بهم من كوارث على إثر تلك المعارك العاصفة التي فرضها الفرنسيون عليهم ، ونسب إهانتهم وما داقوه على أيديهم من سوء المعاملة بعد مقتل كبيرهم . ومع ذلك فقد ظل مو على الرغم من هذا كله يعتقد أن في وسعه أن يصيق شقة الخلاف بين الفرنسيين والمصريين ويستل سحبة الأحرار إذا هو استطاع أن يبدأ عهدا جديدا من الحكم ، فاستبدل الفرنسيون سوء المعاملة التودد إلى المصريين واحتداد قلوبهم ، وحاولوا أن يحكموا بهم بالعدل والقسطاس .

وكان مما راد مو اقتناعا بإمكان الوصول إلى عرصه ما أظهره الفرنسيون من رغبة حاش عند فقد كبيرهم ، وإصرارهم على محاكمة سليمان الحلبي وشركائه محاكمة عادلة . بل الانقصاص منهم ، فكان لهذا المسلك الحكيم من جانبهم وقع حسن في نفوس مصريي ما لبث الشيخ الحرفي أن أشار إليه عند ذكر هذه الواقعة فقال في حوادث ٢١ محرم سنة ١٢١٥ - ١٢ - يومية سنة ١٨٠٠ - وأعد الفرنسيون في شأن ذلك أوراقا ذكرت فيها صورة الواقعة وكيفيةها ، وطعوا بها سحا كثيرة باللعاب الثلاث المراساة والتركية والعربية . وقد كتبت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لتصورهم في اللغة ، ثم رأيت كثيرا من الناس منشوق بعنه إلى الاطلاع عليها لتصمها حر الواقعة وكيفية الحكومة ، وما فيها من الاعتار وسط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يسمون القوم ولا يندسون بدس ، وكيف وقد عاينوا على كبيرهم ويسوهم رجل آفاق أهوج وعذره ، وعضوا عليه وقرروه ولم يجلوا قتله ، وقتل من أحرعهم عجرد الإقرار مد أن عثروا عليه ، ووجدوا معه آلة القتل مضمدة بدم ساري عسكرهم وأمرهم . رتوا حكمه ومحاكمة وأحضره القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة . مرة . مرة بالقوة ، ثم أحضروا من أحرعهم وسألوه على امرادهم وعثمين ثم بعثوا الحكومة قيم عا التضاء التحكيم وأطلقوا مصطفى أفندي الرضوى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص ، كما يفهم ذلك من خبري السطور ، بخلاف مراءسه بعد ذلك من أعمال أوباش الساكر الذين يدعون الإسلام ويرغمون أنهم

عاهدون وقتلهم الأعمى وعازيهم على هدم البنية الإسلامية بمجرد شهادات الحيوانية^(١) وكان اعتياداً على هذا الأثر الطيب إذن أن أقبل مو على مشروعات إصلاحاته لتحصين أحوال أهل البلاد في الاسكندرية والبحيرة ورشد وعبرها وكان من بين الذين اعتمد عليهم مو في دعم أركان الحكومة في البلاد حسن طوبار وكان من أصحاب الأملاك الواسعة في قلم البحرية ، سدى خدمات كثيرة للمصريين ولكن الأهل لم يندبه فتوفي في يولييه سنة ١٨٠٠^(٢) ، ثم الشيخ المصري واعتقد مو أن الاستمرار على تلك السياسة الوطنية الإسلامية التي اتبعتها بوارت من قبل كميل ماحدات المشايخ والعلماء وسائر الأهالي إليه ، فشد على حده بأن يحترموا تقاليد وعادات المصريين ما وسعهم ذلك واحتمل مو بالوفاء النوى الشريف واستعد لإرسال الكسوة إلى الكعبة وفي ١٧ أغسطس سنة ١٨٠٠ احتفل احتفالاً كبيراً بقطع الخبز^(٣) ، وفضل مو إلى صرورة أمين الأهالي على أملاكهم ومعتقداتهم فشد على حده بأن يحترموا حقوق الملكية ، كما أصدر أوامر عدة يطلب منهم الإسراع عن كل ما يؤدي انحصلة ويهدد الأخلاق الكريمة ، ولم يفر مو اهتمامه على ملاحظة سلوك حده بحسب بل صار يحرر كذلك بحكاية العادات القديمة التي انتشرت وفقد بين سكان القاهرة أنفسهم كاستنار العبيات والرافعات وارتكاب طائفة من الدراويش أعمال القبيحة في شوارع القاهرة وطرفاتها وبما هو حدير بالذكر أن العلماء والشيخ كانوا قد حاولوا مع هذه العمال القبيحة والعادات القديمة ولكن دون جدوى ، ولذلك فولت أوامر مو الآن بالاستحسان والتأييد من جانب العلماء ومن جانب القاهرة من أهل الطبقة الوسطى خصوصاً^(٤) .

الديوان .

ونظم مو الحكومة للركزة في القاهرة والحكومة الإقليمية في الدريات فأخذ القاهرة مركزاً للقيادة العامة العسكرية ، على أن تصم إليها المدينة ذاتها والقلعة والحصون المحاورة لها ومصر القديمة وحررة الروسة ، ثم ألحق بها السويس ووضع بلادي على

(١) الحربي ١٢٢٠٢

(٢) (Extrait du No. 75 du Courrier de L'Egypte. 9 Thermidor an 8) - Pièce. Div. 490

(٣) (Extrait du No. 78 — 6 Fructidor an 8) - Pièce. Off. 399 — 341

(٤) Galland II 23 — 8

رأس حكومة القاهرة وفي الأقاليم عهد بالحكم إلى القواد الفرنسيين في مديريات
المنظر الثاني وصار هؤلاء يتمتعين بسلطات واسعة على اعتبار أنهم يمارسون
في واقع الأمر تلك السلطات التي مارسها الكوادر المايك والكشاف من قبل فأقر
مؤ في ديسمبر سنة ١٨٠٠^(١) أن يظل هؤلاء الحكام الجمع بهذه السلطة الكبيرة فيما
يصل إلى بالأمور العسكرية وشئون الأمن والدفاع عن البلاد وأهلها كما حولهم الحق
في إلقاء القبض على كل الذي يجرؤون على تمكيد معو الأمن ولم يقتصر عمل هؤلاء
الحكام على ملاحظة شئون الدفاع والأمن بل طلب إليهم كذلك أن يرودوا الحكومة
المركبة بالمعلومات المتعلقة بـ طبيعة البلاد ومنازل البحارة وحال القواد وشئون
السكان فيدون الحكام هذه المعلومات في سجلات خاصة يبين بمردود غير ذلك
ما يصل بأعمال النوليس ووسائل الدفاع العسكرية وحفظ مواصلاته بوصفه قائد الحملة
إتمام أن يبين مشايخ البلد في امرى وقد نجم على هؤلاء ابتداء من ٢٣ سبتمبر سنة
١٨٠٠ أن يحصلوا على (فرمان) جديد من مؤ حولهم الحق في مراولة أعمالهم^(٢).

ووصف الشيخ الحرفى هذا الترتيب فقال في حوادث نهر حمادى الثانية
سنة ١٢١٥ (أكتوبر - نوفمبر سنة ١٨٠٠) « وفيه مروا على مشايخ البلدان
ممرات يقومون بدفعها كل سنة - أعين وأوسط وأدى - فالأعلى وهو ما كانت يده
ألف دنانير أكثر من مائة ريال وحصلوا الشيخ سليمان الميموني وكبلا في ذلك فيكون
ساره عن شيخ المشايخ - وعليه حساب ذلك - وهو من تحت الوكيل الفرنسي الذي
يقال له برون (Brizon) غير أنه لما كان هذا الترتيب احدث قد جاء مصحوبا
تجمع المال من مشايخ البلاد فيه مائة مائة أثار السخط ضد مؤ فقال الشيخ الحرفى .
« ولما شاع ذلك صحت مشايخ البلاد لأن منهم من لا يملك عشاء فاتهموا على أن ورعوا
ذلك على الأطنان وراحت في الحراش واستمروا البلاد والكفور من القطة فأملوها
عندهم حتى الكفور التي حرت من مدة سنين بل سموا أسماء من غير مسيات^(٣) » .

وتناول مؤ موسوع الدواوين في القاهرة والأقاليم ، فأعاد البحث والعرض ، ومن
المعروف على نحو ما تقدم أن ديوان القاهرة كان قد أُنشئ في أول الأمر في ٢٥ يوليو
سنة ١٧٩٨ ، ثم تم إنشاء ديوان الأقاليم في ٢٧ يوليو من العام نفسه ، ثم عطل

Rigault 146 — 7 (١)

Ibid 148 — 9 (٢)

(٣) الحرفى ٣ : ٤٤٤

ديوان القاهرة عقب ثوره الفاهريين الأولى ، وأعيد تأليفه في ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ من ديوانين : كبير أو عمومي ثم خصوصي أو ديمومي ، كما أن بومارت كان قد أعاد تنظيم ديوان الأقاليم في ٢٠ أكتوبر^(١) . ومما يجدر ملاحظته أنه لا يوجد ما يثبت قطعاً أن ديوان القاهرة قد دعي إلى الاعتماد أيام الجبرال كبير بعد انتصار هذا القائد في موقعة هليوبوليس . كما أن ديوان الأقاليم كانت قد انحلت منذ أن عهد اتفاق الميريش ، ولم يعد كبير إنشاءها لزمه أن هذه الديوان الإقليمية عديمة الجدوى . بل إنه من المحتمل كذلك أن يحاكم القضاة التي شكلها بومارت في القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط لم يستمر في عملها وانحلت تماماً في عهد الجبرال كبير . وعلى ذلك فقد مات من نصيب مو أن سطر في كل هذه الأمور لإعادة تنظيم الديوانين والمحاكم ، وكان من رأيه بعد الفحص والدرس أن يكتب العربيون بإعادة تشكيل ديوان القاهرة حسب ، والاعتماد على ديوان الأقاليم . ثم لعمل على دعم ركان الديوان وذلك بأن يصبح لأعضاء هذا الديوان حق تعيين لقوانين الإسلامية من جهة ، ثم الإشراف بصورة جديدة على المحاكم الوطنية من جهة أخرى . لأن هذه المحاكم إنما كانت تستند في أعمالها إلى أحكام الشريعة المحمدية .

وقد ترتب على الرعة في تنظيم المحاكم الوطنية البحث من جديد في تنظيم شؤون القضاء . فموما في هذه المستعمرة الناشئة . وعلى ذلك أصدر مو أمراً في ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠٠^(٢) تأليف لجنة من فورييه وبوسوط ورجنيه Régnier كي سعت «موسوع إنشاء المحاكم والطريقة التي علاؤها وظائف القضاء ، ثم ما يمكن إدخاله من تعديلات معدلة لعدد الرسوم القضائية » . وذلك كله إلى جانب ما قد عمله القائد العام على هذه اللجنة من مسائل الإدارة الداخلية وما يجب أن تقوم من علائق بين الحكومة العربية وأهل البلاد . فضلاً عن ذلك فقد طلب مو إليهم أن يستشيروا أعضاء لجنة أخرى أزمع تأليفها من الشايخ والعلماة الذين في وسعهم أن يباينوا فورييه ورملاءه على فهم هذه المسائل^(٣) .

وفي ٢ أكتوبر سنة ١٨٠٠ صدر أمر مو بتنظيم القضاء وإعادة تشكيل ديوان القاهرة في وقت واحد^(٤) ، فاشتمل هذا الأمر على مقدمة وعلة مواد ، جاء في المقدمة

(١) Jonquière II 276 Corresp. No. 3516

(٢) Pièce. Dive. 500 : Pièce. Off. 390

(٣) Rigault 153

(٤) Pièce Div 537 — 46 Pièce Off 444 57

« إنه لما كان نشر العدالة بين أهل البلاد الخاصة للإدارة الحكومية من أهم واجبات الحكومة القائمة ، كما أن من واجب هذه الحكومة إنشاء المحاكم التي تعمل في قضايا الأهالي المدنية ، وتوفيق العقوبة على المدينين والمجرمين الذين يأتون ضد النظام العام والمجتمع ، فقد تقرر أن تكون الأحكام الصادرة من المحاكم القائمة في مصر ، أو التي تقوم في المستقبل ، باسم حكومة الجمهورية الفرنسية . كما تعتبر جميع وظائف القضاء في مصر شاعرة ولا يشعلها أحد اشتداء من ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠ ، فيستمر القائمون فعلاً بشئون القضاء في تأدية أعمالهم بصورة «مؤقتة» وذلك حتى صدر الأمر بالتعيينات الجديدة اللازمة للـ هذه الوظائف . وتناولت مواد هذا الأمر ترتيب المراجع إنشاءه ، فتحدثت بعض هذه المواد عن تأليف ديوان القاهرة ، واختيار الأشخاص اللائقين للـ مناصب القضاء . معرفة أعضاء الديوان ، ثم تنظيم شئون اتصاف عموماً . ولذلك كان لأمر أو « قانون » ٢ أكتوبر سنة ١٨٠٠ أهمية كبرى في تاريخ تلك الحكومة الوطنية التي شاء مو أن يتحد معها دعامة قوية لضمان نجاح عمره الاستعماري .

أما فيما يتعلق بتشكيل ديوان القاهرة الجديد والمرض من دعوته ، فقد نصت المادة الثالثة على أن يتألف هذا الديوان من المشايخ وغيرهم من المدينين الذين اشتهروا بالقوى والورع والعلم والرهبة . وذلك بأن ينتخب علماء القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط وسائر مدن امطر الكثيرة هؤلاء الأعضاء . وبين مو المرض من دعوة الديوان قوله . « أن هذه الجماعة من أكابر علماء مصر إنما تتحد مركزها بين الحكومة الفرنسية وبين المسلمين من المصريين بصورة يمكنها من السير على نطق القانون والإشراف على إدارة الخوامع والتكايا والأوقاف ومراقبة شئون التعليم الشعبي ، إلى جانب إعداد قافلة الحج القاهية إلى مكة . ثم ملاحظة عادات البلاد المدنية والوطنية وصونها والعمل على تأييدها ودعمها . وفلا عن ذلك فإن بين مهام الديوان أن يقبل إلى أهل مصر ما توجه إليهم الحكومة من مشورات ، كما أن من الواجب عليه أن يعرض على الحكومة مطالب الأهالي ، على أن يكون اتصال هذا الديوان بالقائد العام مباشرة . وفي المادة الثالثة حصل عدد أعضاء الديوان تسعة « أصليين » محضرون جلسات الديوان مرات ثلاث في كل فترة عشرية ، وتصرف لهم مرتبات يأتي تحديدها في أمر مفصل يصدر في هذا . وكان إلى جانب هؤلاء الأعضاء الأصليين ، أربعة عشر عضواً من « أعضاء الشرف » يختارهم القائد العام ، متى وكيف شاء ، حتى من بين علماء القبط والشوام والأروام ، الحضور للجلسات على أن يكون هؤلاء صوب

استشارى بحسب . ويتنصب أعضاء الديوان بعد كل ثلاثة شهور رئيسا وسكرتيراً يمكن إعادة انتخابهما في الدورات التالية . ويدعو القائد العام لجنة من العرنيين يسمى أعضاؤها نفسه لحضور جلسات الديوان . وذلك لضمان تنفيذ أوامر الحكومة ، وللملاحظة أعمال الديوان . وتصحيح ما قد يقع من أخطاء في أثناء جلساته ، ومع أعضاء الديوان من تعدى اختصاصهم . وكان من وظائف هذه اللجنة العرسية إلى جانب ذلك الإشراف على الإدارة القضائية في البلاد . ثم عين للديوان مكان لاجتماعه ، فلا يجوز له أن يعقد جلساته في غيره . ومع الديوان من عقد جلسات غير عادية إلا بإذن من القائد العام . فإذا حان ذلك كان حراؤه الاعلان ، كما منع من استصدار أو إداعة أية منشورات من غير تصريح بذلك من القائد العام نفسه .

وفي المادة السابعة نظمت شئون القضاء . فصوت هذه المادة على أن يعقد الديوان جلسته الأولى في بداية شهر صفيير (سبتمبر) ، فيعقد أعضاؤه إلى إعداد قاعة بأسماء الأشخاص الذين يعمد على اختيارهم للوظائف القضائية رأى أكثرية الأعضاء وعلى شريطة أن تشمل هذه القاعة المقدمة إلى الحكومة على ثلاثة أسماء يرشح أصحابها لمصب قاضي القضاء في القاهرة . وذلك حتى يختار القائد العام واحداً من بينهم . هذا المصوب ، ثم أسماء الأفراد الذين يختارهم الديوان ملء المناصب القضائية في المديرية ، على أن يكون كل هؤلاء من الذين ولدوا في مصر أو أقاموا في هذه البلاد عشر سنوات وقد ترك قاضي القضاء الحق في أن يجي من يوبون عنه في محاكم القاهرة ومصر القعدة وبولاق ، يترك للقضاة الآخرين الحق في تعيين من يوبون عنهم في محاكم المديرية كذلك . ومن صروب الإصلاح التي أدخلها مو أنه أنطلق في مواد هذا الأمر التالية تقدم العطايا والهدايا للقضاة أو من يوبون عنهم وإلى الكتبة وسائر موظفي المحاكم . كما وعد بإعداد وثائق معينة للرسوم القضائية .

وعهد مو سعيد القوايين والأحكام الإسلامية إلى السلطة العسكرية . ورحالها هم الذين يقضون على المذنبين الذين تصدر الأحكام صدم أو يصبون سمعة سيئة بسبب ما يرتكبونه من آثام ضد المجتمع ، كما أنه بات من اختصاص السلطة العسكرية كذلك جمع الأدلة التي يستند إليها القضاء في إصدار أحكامهم . ثم القيام بتنفيذ ما يوقفه هؤلاء من أحكام على المذنبين أو المحرمين بكل سرعة . وحرّم منو على ممثلي السلطة العسكرية التدخل في أعمال القضاء حرصاً على العدالة . عندما كان صهان العدالة موطأ على حد قوله نزاهة القضاة أنفسهم وحكمتهم . وأشرك منو مع السلطة العسكرية في القبض على القتل والأشرا والسارقين ومن إلهم « السلطة العمومية » التي كان من حقها كذلك أن تقدم كل هؤلاء للمحاكمة وفق قوانين البلاد الخائية

وتناول مو في المادة الرابعة عشرة وفي المواد التالية خمس هذه « القوايين »
 المحو أو التعديل . فكان أظهر ما أدخل على هذه القوايين رفض مبدأ (الدية)
 أو نفي الدم ، وكان قد جرى العرف على أن القاتل في استطاعته الإفلات من العقوبة
 إذا هو دفع مطلقا من المال إلى أسرة المقتول « تعاقبه » وزيادة على ذلك فقد
 رفض مو أن تترك لأسرة المقتول مطاردة القاتل والاقتصار منه أحدا بالتأثر وإنشاء
 انتهوية الانتقام . وذلك بدلا من رفع الخصومة إلى القضاء والرصوخ لأحكامه
 وعلى ذلك فقد صحت المادة الرابعة عشرة القضاء من إبداء عقوبة الإعدام غيرها . كما
 مستهم من قول الوساطة في ذلك . ومهدت الحكومة بالقيام على حمايتهم ومنع الأذى
 عنهم عند تأديتهم هذا الواجب واعتبرت من محررون على تهديد القضاء شركاء
 في الجريمة .

وحاء في المادة الخامسة عشرة أن علماء الديوان في القاهرة يؤلفون هيئة قضائية
 عدا « ومن حقهم أن يقرحوا عزل القضاة الذين لا يؤدون واجباتهم على الوجه
 الأكمل ، وكذلك جميع الموظفين في المحاكم ، فضلا عن إلغاء الأحكام أو تعديلها
 إذا فشلت هذه في تحقيق العدالة ، ثم خمس الرسوم القضائية إذا زادت عن القدر
 المقرر . وبذلك أضحى ديوان القاهرة تنبأ محكمة علي استئنافية فوضع مو في المادة
 التالية (الثامنة عشرة) الطريقة التي يمارس بها الديوان سلطته القضائية عندما يطلب
 أحد طرفي الخصومة استئناف حكم من الأحكام التي أصدرها أحد القضاة في المسائل
 المدنية والجنائية . فكان على طالب الاستئناف أن يقدم طلبه في ذلك خلال ستة أيام
 في القضايا المدنية ، وأربعة أيام طلب في القضايا الجنائية ، على شريطة أن يصحب هذا
 الطلب فتوى صادرة من مفتي المذهب الأربعة عشر على عدم موافقة هؤلاء على
 طريقة المحاكمة التي حدثت ، أو اعتبار الحكم الصادر في نظرم مخالف للقانون ؟ حتى
 إذا جاءت هذه الفتوى ، قبل الاستئناف ، ومحت أعضاء الديوان الدعوى للساعة
 من جديد ، فإذا وافق عندئذ ثلث الأعضاء الحاضرين على حكم القاضي فقد هذا الحكم .
 أما إذا عارض ثلث الأعضاء على الأول فيطلب الحكم ، وأرسل الديوان قراره الجديد
 إلى القاضي ، حتى يقوم هذا بسجله وعندئذ يجري تنفيذ القرار أو الحكم
 الجديد مباشرة .

وتناول مو تنظيم القضاء بين أهل الطوائف غير الإسلامية المقيمة في مصر
 عند الفرنسيين خمس الأمر الصادر في ٢ أكتوبر على إنشاء محكمة لكل طائفة من

طوائف القبط والشوام والأرواء واليهود وغير ذلك من الطوائف الأخرى ، ما دام أهلها من غير المسلمين ومن غير الفرنسيين ، وعلى شريطة أن يكونوا كذلك قد ولدوا في مصر أو يقيمون بها . فيتولى كبير كل طائفة رئاسة المحكمة التي يحصرها عنوان جيهما القائد العام . وتشمل اختصاص هذه المحاكم الطائفية جميع اختصاصات المديرة بين أفراد الطائفة ، ولو أن ذلك لم يمنع من عرض هذه القضايا على القاضي الإسلامي طالما رغب في ذلك أحد طرفي الخصومة ، وكانت المحكمة الطائفية قد عثت بالدعوى من قبل ووصلا عن ذلك فقد كان في وسع للتخاصمين أن يحذرا إلى المحكمة الإسلامية مباشرة إذا انقضت كلتاهما على ذلك . كما كان لمتخاصمين الحق دائما في استئناف دعواهما أمام القاضي الإسلامي إذا طلب أحدهما ذلك . وللقاضي الإسلامي أن يصدر ما رآه من أحكام على شريطة عدم تعمد هذه الأحكام حتى تمرس أولا على الحكومة التي تصدر ما يزم من أوامر لتصددها . وكان من حق قاضي المحكمة الإسلامية أن يطر الدعوى التي يكون أصحابها من غير الفرنسيين ومختلفون في الدين والمذهب ويتعذر عليهم الاتفاق على محكمة أخرى ، أما إذا اتفق طرفا الخصومة على تقديم دعواهما أمام محكمة معينة غير المحكمة الإسلامية فقد امتنع عليهما حينئذ استئناف هذه الدعوى أمام القاضي الإسلامي . وقد تعدد شهر ديسمبر (أي ابتداء من ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠) لتعقد هذا النظام « على أن يجري تطبيقه في جميع الأقاليم بما في ذلك الملك الأقاليم التي يتولى إدارتها مراد بك أمير وحاكم الصعيد باسم الجمهورية الفرنسية » .

وهكذا تضمن « قانون » ٢ أكتوبر سنة ١٨٠٠ إنشاء ديوان القاهرة وإنشاء المحاكم القضائية إلى جانب تنظيم القضاء عموماً . وقد اختلف تنظيم الديوان الجديد عن ديوان بونابرت السابق ؛ فخل من ديوانه من مجلس واحد ورسم اختصاصاته بصورة واضحة ، فصر نشاط الديوان على الشؤون القضائية ، تلك الساحة التي اعتقد من أن في استطاعة علماء والشيخو إدارتها فترعوا لأنعمالهم فيها أن سدوا خدمات حيلة للقضاء في هذه البلاد ، وأن يصححوا أداة فعالة لصالح العدالة فضلا عن ضمان استقامة الأمور في المساجد وأما كس « التعليم الشعبي » فحصل إشرافهم على إدارتها جميعاً . وقد كانت هذه مسائل تصل اتصالاً وثيقاً بعائدات الضرائب وتكاليفهم وعاداتهم . وصف الشيخ الخبزي هذا الديوان فقال في حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٥ (١) :

« وفيه شرعوا في ترتيب الديوان على سبيل غير الأول من تسعة أعمار متعمدين لا غير ، وليس فهم فبطي ولا وحافل ولا شامي ولا غير ذلك ، وليس فيه خصوصي وعمومي على ما سبق شرحه ، بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء هم الشيخ الشرفاوي رئيس الديوان ، والهادي كاتب السر ، والشيخ الأمير ، والشيخ انصاري ، وكاتبه ، (أي الشيخ عبد الرحمن الحصري نفسه) ، والشيخ موسى السري ، والشيخ خليل الكري ، والسيد علي الرشيد سيب ساري عسكر ، والشيخ الصيوي ، والناصري الشيخ إسماعيل الزرقاني ، وكاتب سلاطه النازح السيد إسماعيل الحناب ، والشيخ علي كاتب عربي ، وقاسم أفندي كاتب رومي ، وزحمان كبير القس روفائيل ، وزحمان صغير الناس غير الشامي ، والوكيل الكنتاري فورييه ، ونقال له مدر سياسة الأحكام الشرعية ومقدم ، وحصة قواسم ، واحتاروا لذلك بيت رشوان بك الذي نحارة عابدين وكان يسكنه رطلان وأعدوا للمرحمين والكننة من امرساويه ، مكافأ حاصاً محسوس به في عمر وقت الديوان على الدوام لترجمة أوراق الوقائع وعمرها ، وجمعوا لها حرائق للسجلات ، وفتحوا أيضاً عماراً داراً مفدوها إليها وشرعوا في تميمها وتأنيقها ومموها بحكمة البحر ، وأحدوا رتونا أماراً من عمار المدين والنصاري يجلسون بها للظفر في القضايا للتمهدة فواين التجار ، وانسكر على ذلك كله فورييه ، ولم يتم ذلك المكان الثاني » .

وبما كان موقفه اقتنع بأنه قام بإصلاحات كثيرة ، فقد بات ينتظر أن تأتي هذه ثمرتها المنشودة ، كما أسطر أن يشاطره المصريون التماثل هذه التطهات الجديدة والرساها ، وفي بشوة من بشواه أصدر منشوراً أو بداء موحهاً إلى أهل مصر ، في ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٠^(١) تحدث فيه عن إصلاحات التي أعدها ، ثم عن تلك الإصلاحات التي يعتزم إحراها ، وطالب للمصريين أن يتعرفوا بصيغ فرنسا وأياها البيضاء عليهم ، بعدما كان للمصريين يعيشون في رؤس وتعامه ، لحالت الحياوش الفرنسية إلى هذه البلاد محرر أهلها من الشقاء وتشيع بين ظهراسهم السعادة ، واعتبر الفرنسيون مصريين لإحوة لهم فصوا بأمرهم وأحسوا معاملهم ، وأصدر موأوامر عدة لإصلاح شئونهم ورفع الظلم عنهم ، فوضع للصرائب نظاماً تاماً لا يتجر بعد أن ألمى عدداً عظمها ، وصح المترمين ومشايخ المدارس إرهاباً لأهلها وإثقال كواهلهم بالعارم والأنوات

Pièce Off. 489—93 : Reynier (Mém) 166—62 : Rousseau (١)

وما إليها ، وعظم الغضب ، فبات سر العدالة مضموماً دون حاجة لتقديم الهدايا والرشاوى للقضاة ، وحفظ الأمن وكفل للمصريين حصولهم على أمان كل ما يقدمونه من مؤن وأعدية للحدود المصريين في مختلف الدرياب . ذلك أنه قد صدرت إليه على حد قوله « أوامر الجمهورية الفرنسية وأوامر الفصل بونابرت لعمل حاداً ودون أن يعمل لحظة حتى يعم المصريون بالسعادة ويشعروا بالنسطة والسرور » . وقد احتتم من هذا التدشور الطويل تقديم الصبح للمصريين أن حرموا الهدوء والسكينة ، ويوعده بترد العقوبة الصارمة لكل من عثر على الإحلال بالنظام ، فأعد إلى أدهمهم حامل بأهل بولاق من عقاب صارم تأديباً لهم على ثورتهم .

وكان ديوان القاهرة أداء طلبه في يد من علم يعرف عن أعضائه أنهم اعترضوا على شيء مما طلبه منهم أن يفعلوه ، ولم يبدعوا استقلالاً في الرأي ، ولم يجرؤ أحد على التوفيق موقف المعارضة ومحاولة مناقشة مسألة من المسائل التي كان يرضى الفرنسيون على أعضاء الديوان فرنسا حتى إن كثيرين من المؤرخين يوهوا بسبب ذلك كله أن الديوان كان يتعاون مع الجبال معاوية كاملة وثيقة ، دليل الرضا عن حكمومه والخضوع لسلطان الفرنسيين عن رغبة وإرباب . ومع ذلك فقد كان لهذا « الخضوع » انطاعري أسباب عدة لعل أهمها تمسك أعضاء الديوان بحطة « لمداراه والتربث » ضد كل تلك المهمات الصارمة التي أُرسلت إليهم من القاهريين عقب ثورتهم السابقة ، واشتعال العلماء والمشايع إلى جانب سائر القاهريين شديد الأموال لدفع الامرات المادحة التي طولوا بها ، وانظار المرح في وقت كان من المتوقع فيه أن يبدأ العشويون وحلفائهم الإيجليز الزحف على الحدود المصرية والمحكوم على جيش الشرق وطرد (الخلة) من الأراضي المصرية . وعلى ذلك فقد ظل الديوان يوجب رعات من مساره ومداواة له . فقد حدث في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٠٠ أن أشار من على أعضاء ديوانه بأن يرسلوا تهئة إلى بونابرت بمناسبة وصوله إلى أرفع مناصب حكومة الجمهورية الفرنسية وأن يسهر الأعضاء هذه الفرصة ، فيبدوا رعيهم في انضمام مصر إلى فرنسا نهائياً^(١) ، فادر المشايخ : الكرى ، والشرقاوى ، وعبد الأمير ، والمهدى ، وانصاوى ، والقيومى والسيد على الرشيدى ، وعبد الرحمن الخرقى ، بإعداد خطاب في هذا المعنى قريء بالديوان^(٢) في ٢٤ جمادى الثاني ١٢١٥ ، ١٣ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، ثم تقرر حفظه

في سجل الديوان . فأنشئت هذا الخطاب في سجل الديوان بإشراف كل من : الشيخ إسماعيل الزرقاني القاصي ، والسيد إسماعيل الحشاش ، « وثائق » الديوان ، وكانت سلسلة التاريخ .

وفي هذا الخطاب^(١) هـ العطاء يوبارت على مصبه الجديد ، وأنشأوا عليه بناء عاتراً ، وأندوا أنفسهم لاضطراره إلى معاداة هذه البلاد حتى يحصل فرنسا من أعدائها ، ووصوه بسيف الله المسلول ، ثم قالوا : « وعن إذا لنا إن المصريين يؤلفون مع الفرنسيين أمة واحدة لأصبا في هذا القول كبد الحقيقة ، وبرجع القتل في بوشق عرى هذا الاتحاد يوماً بعد يوم إلى ما أئدها من عناية فائقة بأمر هذا الشعب مدقنا عند الله مو صاحب الصلوات القذائع والمقام الربيع الذي حياه المولى بالحكمة وسداد الرأي ، رعاه الله بعين عيانه وأثابه جزاً على ما عبس به من رأفة وحنان » . وشكر العطاء المولى سبحانه وعالي الذي أظم ، يوبارت اختيار عداقه مو حاكماً على مصر ، ثم قالوا في ختام رسالتهم : « ونحن إنما نطلب إليكم ألا تعملوا أمر مصر . فيبدل المسيان عليها حكاماً ، ذلك أن مصر هي البلاد ، ولانك في أن شرف عاصمتها هو شرفكم . وأما أهلها فهم يكون لكم كل حجة ونقدير . وترهون عودتكم إليهم عارغ انصر ، إن الدين الإسلامي الذي ظهر بتقديركم ليدعوكم إلى الحق . إلى هذه البلاد مره أخرى ولقد وعدتم أنتم بذلك فلا تحلفوا وعدكم ولن يطول الأمد على تمام الاتحاد بين الأمتين ، فلا معدى عن حدوث ذلك في يوم قريب ، وإن هذا اليوم آت لا ريب فيه لأن المولى عز وجل قد أراد ذلك ولا مناص من تعيد إرادته » .

وإذا كان أعضاء الديوان قد درخوا على « مداراة » مو قضاوه إلى ما طله منهم خوفاً من الاصطدام معه في مسائل كثيرة ، فقد وجد الأعضاء في بعض المسائل التي عرصها مو عليهم مراً سادست هوى في موسمهم ، فاقبلوا على معالجتها بكل حمة ؛ وبأن كان مو قد اصطفى الحكمة والنأي فلم يشأ أن يحرص إرادته فرصاً في المسائل التي اعتبرها ذات صلة وثيقة بالحكم الشرعية الإسلامية أو عادات وتقاليد البلاد القديمة ، فقد ظهر من آن لآخر أن هناك تعاوناً كاملاً بين الديوان وبين حكومة مو من شأنه أن يسرو في ظاهر الأمور على الأقل النجاح إلى مو في تحرية حكومته الوطنية . من ذلك « مسألة مسط الأساس ومعرفة الأعمار » التي عرصها مو على أعضاء الديوان فاسرى هؤلاء بحثونها ويقرون وجهة نظر منو ويكفلون ما بدا لهم من نقص في مشروعه

الحديد . وقد شرح الشيخ الحبري هذه السأله وما دار بشأنها من مناقشات في الدواوين فقال في حوادث ١٦ شعبان سنة ١٢١٥ و ٢ يناير سنة ١٨٠١ (١) . « أن ساري عسكر أمر وكيل الديوان أن يذكر لمشايخ الديوان قصده وسط وإحصاء من يموت وبوئله من المسلمين وآخرهم أن ساري عسكر يوارثه كان في عرمة ذلك وأن يقيد له من يتصدى لذلك ويرثه ويديره ويعمل له حاكمية وافرة فلم يتم مراده . والآن يريد تنعيم ذلك ويطلب منهم التدبر في ذلك وكيف يكون وذكر لهم أن في ذلك حكماً وقوائد منها وسط الأنساب ومعرفة الأعمار ، فقال بعض الحاضرين وفيه معرفة انقضاء عدة الأرواح أيضاً ، ثم اتفق الرأي على أن يعملوا بذلك قلعت الحارات والأحطاط وهم يقيدون على مشايخ الحارات والأحطاط بالتمحص عن ذلك من خدمة المولى والمسلمين والنساء والقوالم وما في معنى ذلك . ثم ذكر الوكيل أن ساري عسكر ولد له مولود يسمى أن نكسوا له تهته بذلك للولود الذي ولد له من المرأة السلطنة ارشيدية ، وحوانا عن هذا الرأي ، فكتبوا ذلك في ورقة كبيرة وأوصلها إليه الوكيل فوراً » .

ومع أن الشيخ الحبري لم ثبت في تاريخه صورة هذه (الورقة) ! فقد ترجمها (حالاً) في كتابه وهي مؤرخة في ١٦ شعبان سنة ١٢١٥ و ٢ يناير سنة ١٨٠١ (٢) أمضاها عدة ائمة الشرفاوى رئيس الديوان ومحمد المهدي سكرتير الديوان . بدأ العلماء رسالتهم الطويلة « نشأ على يوارث ثم على مو ؟ فمدحوا يوارث » الذي اتفق قراراً ممدداً من أهل إعداد سجلات لقد أسماء المولى في مدينة القاهرة » ، إذ فصل هذا القرار الحكيم بنسب تنظيم أعمال الحكومة ؛ على أنه كان من الضروري كذلك لإتمام هذا التنظيم أن تعد سجلات أخرى تنفيذ أسماء المواليد حتى يمكن فصل ذلك جميعه معرفة عدد الوفيات والمواليد في القاهرة وسائر المدن ، ثم قالوا « وإليك وحدك أيها القائل — ويحصلون الحلال مو — الذي أراد القدر على ما يبدو أن يعمرى على يدك إتمام وإعمار مشروعات يوارث النظم بأسرها ، يرجع الفضل في إظهار الرغبة في تلويح نظام سجلات الوفيات والمواليد عايتة . وقد أكدنا للمواظفين فوراً قومسبر الحكومة أن هذا النظام سوف يلقى تأييداً كاملاً من حاسب العقلاء والمعرفين بالحكمة وسداد الرأي من أهل ثلثة البلاد جميعهم ، ورحوتنا أن يرفع إليك ما انفق عليه رأى الديوان في ذلك » . واحتضن أعضاء الديوان أنفسهم هذا المشروع وتعهدوا عنه

كانهم أحماءه ومستعدوه ، فحدثوا عن فوائد هذا النظام « الذي يظنون » ، وأنها أحكام توزع الثركات ، والوقوف على عوية الأفراد ومعرفة حقيقة أعمارهم ، والوقوف على حال كل أسرة ، فيتسنى حينئذ تقط عمود رواح السيدات من مطلقات وأرامل ، ولا تستطيع إحداهن ازواج قبل انقضاء عدتها ، فصلا عن أن من مرايا إعداد سجلات النوليد : صط مسائل السوة الشرعية والتحقق منها ، ولذلك « يترح » الديوان على سو أن يصدر أوامره إلى الحكام في كل مديرية أن يبيتوا سجلات كاملة للمواليد والنوفيات يدون بها جنس كل فرد ذكر أو أنثى ، إلى جانب ديانتته ومسقط رأسه . وكان بعد أن فرغ أعضاء الديوان من ذكر ذلك كله أن انتقلوا إلى تهته مولود الجديد الذي ولد له .

وأجاب مو على هذه الرسالة بكتاب طويل فري . والديوان في ١٣ يناير سنة ١٨٠١ . أئتمته الشيخ الحبرني في تاريخه عند ذكر حوادث اليوم معه (٣٦ شعبان سنة ١٢١٥) . قال مو ضمن ما قال (١) . « حبات حصرة بو بارتته الشهير النيل الصديد الشجاع خليل قد تقدم فأمر بأن محرر دفتر يكتب فيه أسماء كامل اللتين والآن حضرتكم « طلبتم مني دفتر آخر حلافة فيه يتحرر أسماء المولودين أيضاً ومن حيث ذلك فلا بد ن أعتى منذ الآن مع حربن الاهتمام بهدي الأمور وهكذا أيضاً بتحرر دفتر الزواج « كان ذلك أشد المهات والحوادث الواحات ، ثم يشع ذلك تحديد نظام غير قابل سبر في ضبط الأملاك وانتهير الكامل عمن ولد ومات من السكان وهذا يعرف من هدي كل بيت ، وعلى هذا الحال يبسر للحاكم الشرعي الحكم بالعدل والإنصاف وينقطع الخوف والانتقام بين الورثة ، وتقرر الولادة ومعرفة السلالة التي هي الشيء الأختل والأوفر استحقاقاً في الإرث » .

واعترض مو بالنيحة التي وصل إليها ومهاجمة الديوان له تهته المولود الجديد سمر يقول : « وهكذا إن شاء الله لابد من الفحص والتفتيش بالحرص والتدقيق وبدل نعمة للمصون لأقرب بواله إلى ما يلزم لإكان ما قصدها ، ثم إن أراد الله لابن أن أعتى « طاعة على وجه تام كل وقت يقتضي لنا أن ندر أشياء نستعيد بها هذه المملكة التي « تسلمنا بياضتها وهذا يوفر وتحقق كوننا امتثلنا لأوامر دوله جمهور القرساوية وحصرة قصلاها الأول بو بارتته ، فباحصرة المشايخ والطلما الكرام إتنا لشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا تهته بولادة ولدي السيد سليمان مراد حاك مو فطلب من الله سبحانه

وتعالى وأسأله كذلك بحاج رسوله سيد المرسلين أن يحججه على رماً مديداً وأن يكون
العدل حياً والاستقامة والحق مكرماً وموفاً وعده صادقاً وألا يكون من أهل الطمع
بهذا أو فر القى الذى أرحبه لولدهى أن ارحل الذى لا يهتدى إلا بالخير فلا يصرف
اعتناؤه إلا فى خير الأدب لا فى قبة العفة والذهب فسأله تعالى أن يطيل
فياكم والسلام .

ولا جدال فى أن ما ظهر من « تعاون » فى هذه المسألة من جانب الديوان مع
الحكومة كان من أقوى الدوافع التى حثرت مو على المصطفى فى سياسته الوطنية ، بل
حظته شديد لإيمان فى إمكان التطلع على ما قد تقتضيه من صعوبات ، وارتاح مو إلى
ما وصل إليه فأصدر مرسلاً أكو رسة ١٨٠٠^(١) أمراً أعلن فيه عهده شامل
عن كل أولئك المصريين الذين عادروا القاهرة عقب تسليمها بعد نورته الثانية خوفاً
من بطش الفرنسيين هم أو مخلصاً من دفع الغرامة التى طولت القاهريون بأدائها ،
فسبح لهم الآن بأن يعودوا إلى مدنهم آمين مطمئنين ، واستثنى مو من هذا العفو
المصريين الذين عادروا القاهرة قبل ذلك ، فأمر الآن بمصادرة أملاكهم وفى يومى
٢ و ٣ بديرسة ١٨٠١ ذكر مو فى أوامره حادث إيمان شبيحين على عدة بعض
الفرنسيين الذين طاردتهم بعض الممالك فقدم شبحان ومكافأته لهما بأن حلق عليهما
كسوة من القرو والشيلان ، كما أنقص ربح المال المطلوب منهما ومن قريبتهما^(٢) .
وتعجب ذلك أن ثلاثة من الفرنسيين كانت قد عرفت بهم مركبهم فى النيل قريباً من
مكان أقام به ماليك الألبى بك ، وأبصر هؤلاء لطاردتهم ، فساعدتهم شبحان من القرى
المجاورة على النجاة ، ورصداً تسليمهم وعجا فى إنذاره أهل القرى ضد المالك ، فاضطر
هؤلاء للسكوس على أعقابهم ، ودر استبحان طريقة لفرار الفرنسيين حتى وصلوا
سلام إلى المعسكر الفرنسى فى بنى سويف^(٣) .

وكان مما أهم به مو كثره هام من أجراء سياسته الوطنية ضرورة إحصاع عربان
الدولة لسلطة الحكومة من جهة ، والقضاء على مقاومة الممالك من جهة أخرى . فقد
بلغ عدد العربان وقتئذ أربعين ألفاً ، وانتشروا فى أرجاء البلاد يصيئون عسداً ، يسرون
على القرى ويهبون أهلها ويسبون متاعب شديدة لحيش الشرق ، حتى أن بومارت كان

(١) Pièce Div. 549 — 50 : Pièce Off. 462 — 3

(٢) Rigault 160 — 1

(٣) Galland II 30

قد أعد لملكائهم ومطاردتهم فرقة خاصة من المجاعة^(١) وأحرر نحاتاً كبيراً عليهم
عند ما قهر المجاعة هؤلاء العربان ، واسولوا على مواشيهم ومتاحريهم . واضطر جماعة
مهم في بعض الأقاليم إلى الاتحاق مع الفرنسيين والعيش في هدوء وسلام معهم .
من هؤلاء عربان أسوط الذين عقدوا في ٢٩ يويه ١٨٠٠ اتفاقاً مع حاكمها
(دوريلو) تمهدوا فيه بدفع الصرية . أما مو فقد تكللت مساعيها بالنجاح عند ما استطاع
هو الآخر أن يبرم اتفاقاً مع بعض هؤلاء العربان في أول ييار سنة ١٨٠١ ، فأمن
هؤلاء على حياتهم ومواشيهم ورموا الهدوء والسكينة ، وفصلاً عن ذلك فقد سمح مو
جماعة من عربان الشام بالإقامة على الحدود المصرية^(٢) ، على أمل أن يبعد ذلك في
مع إرسال الحبوب إلى العدو إلى جانب رفع قحة الأراضي الواقعة في هذه الجهات ،
يمكن جمع تلك منها . وأما أولئك العربان الذين رفضوا الاتحاق أو الانصواء تحت
الحكومة فقد نشط قواد مو وحكام المدرجات المختلفة في مطاردتهم ، وكان أولاد
و من أخطر هؤلاء العربان شاماً ، انغمسوا بصفة على إقليم البحيرة فهوا أهل الإقليم
، صطروا عربان أن يخرج لمطاردتهم واستطاع كبح جماحهم بعد مطاردة عيية^(٣)

و مراد

وحاول مو التغلب على مقاومة المالك ، ولكنه لم يكن موفقاً في مساعاه ، ذلك أنه
مر على تعقب أحد بكواتهم محمد بك الألبى ، ففشط في مطاردته ، كما أنه لم يشأ أن
يـم تلك المعاهدة التي عقدها كايبر مع مراد بك فعز هذا الملك صديق الفرنسيين
مديهم . وتوصل ذلك أن الألبى بك كان قد عاد وقتئذ من الشام إلى مصر وقصد
سرقية ، وأعلن رغبته في الذهاب إلى الصعيد للاصطدام إلى مراد بك ، ولكن الألبى
لا من أن يذهب إلى مراد في التو والساعة ، فصل الإقامة ردهاً من الزمن مع قلعة
(بحارب) شرقي القطيف ، وكانت من القائل الكثرة على الفرنسيين فادر مو
إرسال قوة من المجاعة لمطاردة الألبى فيما ذهبت قوة أخرى صوب بورخ السويس
مطاع الطريق عليه عد تفهقره . فكانت مطاردته عيية صارمة . فاستولى المجاعة على
كل متاعه ، ونجا الألبى بنفسه في حراسه فيلين من رجاله بعد مشقة وصعوبة . ثم لجأ
إلى مراد^(٤) وحاول مراد أن يوسط بين الألبى وبين الفرنسيين ، وطلب أن يعطيه

Bertrand II 59 — 61 (١)

Reybaud VIII 61 — 2 (٢)

Rigault 162 (٣)

Reybaud VIII 58 — 9 (٤)

هو لاء أرساً بعش من إرادها ، ولكن من غير حدود . فكان امتناع مو عن إحاطة ملتصق مراد أحد أسباب العود الذي كثر صعو العلاقات بينهما

وكان مو قد حرص في أوان الأمر على استبقاء موده مراد في سبيل المحافظة على المحالفة القائمة بين مراد والفرسيين . فاستأجراً معه عندما سحر عن دفع الحرية كاملة بسبب انحصار السبل وقتئذ ، ول كان تكلفه مراد من نفقات باهظة عندما جمع حوله المالكين الذين لحقوا إليه في حرجا . بل إن مو ما لبث حتى أرسل داماس واستغف اللاتفاق مع مراد وإعطائه بضع قرى جديدة إلى جانب إقصاص حصة الحرية المطلوبة عن عام ١٨٠٠ ، وكتب مو إلى الحكومة الفرنسية في ٢٤ سحر من العام نفسه (١) بمناسبة إرساله صورة من اتعاقه الأخير مع مراد إلى باريس ثم صورة أخرى من اتعاق كليبر معه . إن من واجب الفرنسيين تصديق معاهدة كليبر - مراد بحفاضة على شرف الوطن . لأن مراد الذي كان في وسعه أن يحقق الأذى بالحش الفرنسي المحارب في معركة هيدوبوليس قد امتنع عن فعل ذلك بل ومن الواجب لأشراء صدقة مراد بأى ثمن . ومع أن مو كان يحد في تسليم مده الفصير إلى مراد ، مولاً على أحكام معاهدة مع كليبر ، عملاً تتعارض مع معاهدة الفرنسيين ، لوقوع هذا اليلام على شاطئه اسحر الأخير ، لما يهدد سقوطه في أيدى الإغدير الذين قد يحاربوه لإرهاب قواهم . إذا قرروا غزو مصر من هذه الجهة . ووجد مراد ظهر الحن خلاءه الفرنسيين . فقد "مد مو عنه هذه الشكوك بكل سرعة بسبب كراهية مراد الشديدة للاغدير والعنانيين ، ولأنه ظن أمياً على عهوده وفيأ خلفائه حتى هذه اللحظة ، ولأن دوريان حاكم أسبوط دأب على ملاحظة حركاته ومراقبة نشاطه بكل دقة . وقد عاد مو فائق على مراد في رسالة أخرى كتبها في اليوم نفسه إلى وزير الحرية الفرنسية (٢) فاستدع مسلكه وقال إن روحه وهي أرملة على بك الكبير كانت تتمتع في القاهرة بكل احترام وتبجيل من أيام بونايرت نفسه .

ومع ذلك فإنه كان من المتعذر أن تطل العلاقات حسنة بين مراد ومو بالدرجة التي يلزمها أيام كليبر . ذلك أن مراداً كان قد عظم أمه أمام كليبر في قرب حروح الفرنسيين من هذه البلاد . وعقد آملاً عظيمة على استطاعته أن يعرّد حكم مصر ما عرف عن رعية كليبر في الجلاء وإبرامه اتفاق العريش لتخفيف هذه العبابة ، ولكن ما إن سلم

Reymer (Mém.) 192 — 3 . Rousseau 358 — 9 (١)

Pièce. Div. 522 ; Pièce. Off. 423 4 ; Rousseau. 353 ~ 4 (٢)

مورمان الحكم حتى اظهرت كل هذه الآمال . فقد تمت لدى مراد أن مو إمام يحيى
اشقاء في مصر ، وأنه إمام يعتبر مراد ملك حاكماً في مديريات حرجا وأسوان بوضعه
أميراً خلف ، بحكم الصعيد باسم الجمهورية العربية^(١) . فضلاً عن ذلك فقد صدر أمر
٣ أكتوبر سنة ١٨٠٠ يقضى باتباع النظام القضائي الذي أوجده مو في جميع الأقاليم
لدى يديرها مراد باسم الجمهورية العربية ، فانزع هذا الأمر من مراد كل حق
في الإشراف على تعيين القضاة في المديريات الخاصة له . ثم سرعان ماخذ من الحوادث
مد ذلك ما قضى نهائياً على كل أمل لدى مراد في حلاء العربيين عن مصر أو في أي
مهم على صورة الحكم بينه وبين مو . فقد تطارت الإشاعات بأن العنانيين يستعدون
لإستئناف الصلح ضد العربيين ، وكان العنايون قد اعدوا في باها والعريش مواقع
لجندهم في هليوبوليس ، وساعدتهم الإبحار في تحصين هدى الموقعين ، وعكفت
حرة من الاسكندرية والميلك من التقدم عن طريق قطية وروح السويس إلى الحدود
صربية داهيا كطلائع جيش الصدر الأعظم . وما كان يوسف صليبا باشا قد طرد
دون الأحبار مع رجال الأسطول الاعلري في البحر الأبيض ومع رجال الدولة
العثمانية في الآستانة . فقد بات من المتوقع أن رحلت العنايون على هذه البلاد فرساً
لطرفي البحر ، بينهم حلفاءهم الإبحار إلى زحل حملة على شواطئها . ولم يكن أمر
هذه المحتوم المتوقع سرّاً مكتوماً ، بل حرم الخواص بسبب اليونانيون الذين حادوا من
شبه على إدايته كما أن كند هذا الشأن حصن لبحار البحر أفضت منهم من رفاعة الأسطون
الاعلري في البحر الأبيض . أصعب إلى هذا كله أن مراد ملك استطاع أن ينفذ من
مملكته إبراهيم ملك الذي حادوا إليه على حقيقة أعراض العنانيين والإبحار
ومدروهم من حطط عسكرية ، وكان مما عرفه مراد أن الصدر الأعظم يرغب
في الاتفاق مع الفرنسيين

وكان السبب في ذلك أن العنانيين كانوا يحشون من حلفائهم الإبحار الذين عظم
نودهم وقتئذ في الآستانة ، فصاروا يعضون لذلك الاتفاق مع الفرنسيين بالطرف
سببه على مؤازرة الإبحار لهم واشتراكهم معهم في الصلح للسطر^(٢) ، وعلى ذلك لما إن
مع الصدر الأعظم بناءً على ذلك الاتفاق الذي وقع بين مراد بيك والأمير كلير ، وأنه
وعده إذا رحلت فرنسا أن يسلمه الصدر المصرية ، ثم سببه ما حل بالأمير كلير

من النية ، « حتى نادر بانتهاز الفرصة يطلب من مراد بك التوسط بينه وبين العربيين . وكلف إبراهيم بك أن يكتب إلى مراد بك حتى « يتطالب عبد الله مو أمير الخروش بعدمصلحته كبير » ، وأن يبين له أنه لا معنى عن خروج العربيين من مصر في أسياهم لصحرم التوضيح عن مقاومة جيوش العثمانيين وحلفائهم الإغليز ، وأن « خروجهم (لذلك) بالصنيع والسلام أوفق لهم من خروجهم بالقهر والإرغام » . ووجد الصدر الأعظم إبراهيم بك أنه « متى عون العربيين على الامتثال وخرجوا على هذا الموال يسلم للمملكة إلى العرب للمصريين كما وعدم كبير ورتحل هو للقسطنطينية بالتمسك كر الهايوية ، ورسول ويرا يكون بالقلمة السلطانية ، وذلك حكم الأيام السالفة بدون مناقصة ولا محاجة^(١) » فكتب إبراهيم بذلك إلى مراد كما أرسل الصدر رسالة في هذا المعنى إلى مراد بك .

وقبل مراد الوساطة . وانتهر فرصة إرسال أحد رجاله عثمان بك الردى بالحرية السورية إلى القاهرة ، فكلفه بأن يقول إلى مو أساء الخلة التي بعدها العثمانيون مع الإغليز لعرو مصر . ووصل الردى بالقاهرة في ٧ فبراير سنة ١٨٠٦ وفي اليوم نفسه قابل مو^(٢) . فأطلعته على ما لديه من أساء خواها أن حشا يبلغ ثمانية عشر ألفا يعتم الفصل بالاشتراك مع القبطان باشا والبول في الشواطئ المصرية ، بينا يختار الصدر الأعظم بحيشه الصحراء ويمرو الأقاليم الشرقية ، فصلا عن أن أساطولا إغليزيا قد غادر المدي طريقه إلى السويس ومن للتطير وصوله إليهم قرب . وما كان مراد قد طلب من الردى أن يطلع مو على رسالة الصدر الأعظم ، فقد فعل الردى ذلك ، ثم طلب الردى باسم مراد أن يذكر مو مصلحة مراد دائما إذا هو قرر الاتفاق مع العثمانيين ، كما أن مراد كان مستعدا لإرسال المحدثات إلى مو عملا بمصوص الاتفاق المزمع بينه وبين كبير إذا قرر مو المقاومة بدلا من الانقياد^(٣) .

غير أن مو بدلا من الترحيب برسول مراد ما لث أن ركب رأسه فأساء مقابلة الردى ، واعتقد أنه من المتعذر حدوث أي اتفاق بين العثمانيين والإغليز لتدين محالفة هجومية من أهل استئناف القتال ضد العربيين ، ونبي أن هالك ما يدعو لرسول النعمة من مراد أو ما يسوع تدخل مراد ووساطته ، واستند مو المصعب فقل إنه

(١) نقول الله كي ٢٠ - ٢٠١

Martin II 168 (٢)

Reybaud VIII 108 (٣)

كان من الأصل لمрад أن يظل في إقليمه هادئاً ساكناً فلا من تبادل الرسائل مع
 بعدو في سوريا ، ثم كشف انصاع عما كان ياوره من شكوك من ناحية مراد الذي
 جمع حوله أولئك المالك الذين حصرُوا من الشام فسمح لهم بالإقامة في إقليمه وأُخذ
 عنهم بالأسلحة ودافع الردى عن سلوك مراد ما وسعه ذلك فعرا إلى كليبر معه
 الرسالة في أن يثني مراد علاقات معدة مع جيش الصدر الأعظم ، حتى يتمكن الوقوف
 على حركات هذا الجيش كما أن كليبر معه هو الذي أجاز مراد أن يدعو بمملكته
 وبملكه الحكوات الذين دعوا عنهم للإقامة معه ولكن كل هذه الحجج ذهبت هباءً لأن
 « و الذي أصر على رأيه ما لست أن فإن إنه » لا يرى معه مقيداً بما فعله كليبر أو متزاماً
 سلوك الطريق الذي سلكه معه ، وإنه لا يعترف التفرط في مصر وبينهما ^(١) .
 كان حافى القول جيشاً هامة ، ثم نادر فاقس إلى الردى في القريش لا يعترفون
 طعاً « الخروج (الآر) من هذه المملعة ، في حرماً وأردن تركها سقى في ذلك
 وقت تقيم بوعداً مع مراد بك ومع ذلك مراد بك فاقس بمملكته مصر راحة كلية
 من مصر دعوا من أعضاء المشيخة العرساوية ولا يكن معهم إلا بدو ^(٢) .

وأخيراً الردى في مفاوضات أخرى شأن بوسط مراد في مسألة الأتقي ، فرفض
 و إعطاء بعض القرى إلى محمد بك الأتقي حتى يتعيش من إرادها ، ثم لم يكتف
 ذلك بل طفق يحيى « بالثمة على مراد ويؤمره بأبي عبيد لأنه لم يرسل إليه الأتقي .
 « وقد صعدت معه » وطلب الردى أن تدن له مو رارة بعض كبار القواد
 حتى يسلمهم كساً من مراد وحق يظهر لهم ما يكره من احترام وتقدير لأشخاصهم ،
 بعض مو تسلم الرسائل إلى المواد بدعوى أن مراد ما كان يحق له أن يكتب لغير
 « الخلة العام ومثل الحكومة الفرنسية ، ثم أدن للردى رارة القواد على شريطة
 أن لا يلم أحداً منهم أنة رسالة من مراد ^(٣) .

وساء الردى أن يحاله مو بكل هذا الحفاء وعدت في ذلك مع (داماس) ،
 (دور) ومع أنهم حاولوا إزالة هذا الأثر السيء من نفسه فإن الردى لم يسعه
 إلا إبداء دهشة من أحسار رجل من مو لئلاً ذلك للنصب الخطير الذي حلا بوفاته
 كليبر ، وأظهر ما ياوره من مخاوف على مصر حيث الشرق الذي قد يلحق به أذى
 كبير على يد هذا الرجل . ومكث الردى مدة من الزمن في انتظار جواب من مو

Martin II 170 (١)

(٢) نقولاً التركي ٢٠٦

Martin II 171 (٣)

ولكن بلا طائل، حتى إذا جاءت الأنباء عن وصول الأسطول الإبحري إلى الشواطئ المصرية حدد اردبني للسي وعرض مقترحات مراد بك مرة أخرى ، ولكن موالت أن أمره بمطردة القاهرة بكل سرعة ، وهدد برأى العقوبة الصارمة عماد إذا ظهر أنه يسعى الإبحار إلى جانب العدو^(١)

جريدة التنبية :

على أن الكلام عن حكومة مو الوطنية لا يتم دون سأل ناحية من النواحي التي تدل على مبلغ اهتمامه باستتابة أهل البلاد إلى تسييد سياسته من أجل تخاج بحرته الاستعمارية . فقد كان من الشروعات التي درسها مو لاستتابة المصريين إلى حاشه وش دعائه بينهم إصدار جريدة عربية ، تساعد على توطيد أركان الحكم في المستعمرة الحديثة . وذلك بفضل ما قد ينسى له من إداعة أعمال حكومه في هذه الجريدة ، ونشر أوامره الإدارية وقراراته صوره تكفل بعير أعراضه من الحكومة الرحيلة التي أحدثت على غامها إسعاد أهل البلاد ، وذلك حتى يستطيع هؤلاء أن يدركوا حقيقة ما يسطوى عنه النشاط الحكومي من رعة في شر الحرية والعدل ، والعمل على استتباب الأمن والنظام . فيدفعوا نوعاً من المودين (العربية) غير تلك التي حروها في الماضي ، ويمثلوا على مؤازرة حكومه^(٢)

وعلى ذلك فقد أصدر مو أمراً في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ « بإنشاء وطبع جريدة عربية تقوم بنشر أوامر الحكومة المصرية وإداعة أعمالها في أرض البلاد ، وتهدير المصريين من الانسياب وراء أمحاب البول المرسنة ومشرى القلاقل والاضطرابات الذي قد يصبون إلى استئثارهم ، كما تعمل على دعم الثقة وتأييد ذلك الاتحاد الذي ترداد أوامره إحصائياً يوماً بعد يوم بين أهل البلاد وبين الفرنسيين^(٣) » .

واختار منو لهذه الجريدة اسم « التنبية » ، وعهد بالإشراف عليها إلى السيد اسماعيل الخشاب . على أن طبع بالمطبعة الأهلية ، وبحري توريجهما في القاهرة والمديريات ، ويعطى رؤساء القواقل الذي يحضرون إلى القاهرة أعداداً كثيرة منها . وذلك حتى يعملوا على إداعها ونشرها في اعين والشام وداخل القارة الإفريقية . وحمل مو من حق الدنوان معرفة ما طبع من هذه الجريدة والموافقة عليه مقدماً ،

(١) Reybaud VIII 110 Martin II. 172 — 3

Galland II. 117 (٢)

Rousseau 375 — 6 (٣)

وذلك لتأكد من حل ما يشترها من أحوار ومقالات من أشياء أو عبارات قد تفسى بالعادات والتقاليد المرعة في البلاد الشرقية أو يحط من شأنها . أما الجريدة نفسها فقد قسمت إلى أربعة أقسام . احتض الأول منها نشر أوامر الحكومة وذكر أعمالها ، فيما نشرت أوامر الدewan في القسم الثاني ، وأساء أوروبا وآسيا اثنى بهم المصريين الاطلاع عليها في قسم الجريدة الثالث ؟ وشرت حتى مسائل الفنون والعلوم في القسم الرابع . وفصلاً عن ذلك فقد اتسعت الجريدة — حين جاء في أمر ٢٦ نوفمبر — لتشمل بعض المقالات الأخلاقية والموضوعات التي تتناول توضيح طائفة من المبادئ التي يجب أن تترشد بها كل حكومة سالحة في أعمالها . وعهد قائد الحملة إلى المواطنين دوريه بالإشراف على التديب . ولكن جريدة التمه طلت في عمدة المشروعة التي أوجدها عقوبة مؤووم مع لها فرصة التمهيد

تلك إذن كانت معالم السياسة التي اتبعتها مؤو في إدارة شئون البلاد الداخلية . وهي سياسة كان قوامها العمل على إنشاء مستعمر عربي قتل أي اعتبار آخر ، مادام جيش الشرق باقياً في مصر ولم يادرها . عبر أن هذه الجهود التي بذلها مؤو كان نصيبها الفشل في النهاية لأسباب ثلاثة رئيسة

(أولها) أنه كان من الصعب احتمالة المصريين إلى قبول الحكم الفرنسي ، طالما كان من دأب الفرنسيين — ومؤو على رأسهم — فرض المعارم عليهم وإسرار لئال مهم . وم بعد شيء إنشاء الدewan في مصر كرت لباس الدين « أنوا إليه » على حد قول الشيخ الحرفي — من كل فج يشكون » ويطلبون رفع هذه اللظام عنهم ولكن دون جدوى^(١) . كما صبح مشايخ البلد والملازمون وغيرهم من كل تلك الأنظمة التي أسكرها مؤو اضط أعمالهم ، وسر دولاب العمل الحكومي بكل دقة ، فأسمرب عن إرهابهم ، أو ترب على تطسها إعمل تقاليد أهل البلاد وعاداتهم . وفصلاً عن ذلك فقد جر في مؤوس انماهريين خصوصاً أن يرفوا الفرنسيين وهم يهدمون بيوتهم ووكائهم وحواليهم ، كي يستخدموا أحجارها في أعمال التحصينات التي أظاموها حول القاهرة ، أو لإصلاح الطريق مبيحة لإزالة هذه المذبة ، حتى يسهل على حيوشهم الانقاله في قلب المدينة .

(وثانيها) أن مؤو ظل يواحه في أثناء ذلك كله معارضة قوية « إيجابية » من ناحية

عدد كبير من فواد الخلة وصاحباها ، ومعارضة صامتة « عليه » لانهم في آخرها عن المعارضة الأولى من ناحية طائفة كبيرة من عماء الخلة الذين شاركوا جيش الشرق رغبته في العودة سرياً إلى فرنسا .

(ونالها) أن مو لم يجد متسعاً من الوقت لتعيد مشروعاته وإصلاحاته عند ما بات مصير الخلة أمراً مقررّاً حسب استئناف النضال من جانب العنانيين وحلفائهم الإبحسيين لإخراج الفرنسيين من هذه البلاد بطريق الحرب والقتال ، عند أن أحسب جهودهم في محاولة إقناع مو بضرورة تنفيذ اتفاق العرش والخلاء عن مصر بالطرق الدبلوماسية ، ومن غير حاجة إلى الاشتراك في معارك حربية .

أما مع إحقاق مو في استقالة المصريين إلى الحكم العربي سوف تأتي انكساراً عنه عدد ذكر (أثر الخلة) عموماً . كما أن محمد القنابل كان مرتبطاً في واقع الأمر بموقف السياسي في أوروبا ، وساعد ضعف حكومة مو حسب تعرق الكلمة والامهاس في الخلة العام في « مؤامرات » ضعف روح الجيش المصرية وصرفت مو وقواده « التأمير » عن تدبير شئون الدفاع عن هذه البلاد بصورة حدية ، على سرعة إهمال جيش الشرق عندما اندفعت جيوش العدو على « مستعمرة » مو من كل جهة ، وكان حدث هذا التفتك والاحتلال ولا شك معارضة لفرق قوى من كبار فواد الخلة وضباطها وعلماؤها للجنرال مو .

المعارضة ضد متو :

وبدأ الانقسام يذب في صفوف جيش الشرق من وقت تسلّم مو لقيادة الخلة العامة ، فقد قوبل حدث وصوله إلى هذا المنصب بالدهشة المروعة بالمرح ، وبعد أن أصدر مو نداء المعروف إلى الجيش في ٢٢ يولييه سنة ١٨٠٠ ، ظهرت المعارضة ضده بصورة واضحة ، حسب لسيط هو يقين رجال الخلة أن مو لن يعادر هذه البلاد إلا إذا أرغم على ذلك إرغماً ، وأن العودة إلى الوطن قد أرحى أمرها ربما قد يظن كثيراً في عهد قائدهم عام نصف اتفاق العريس بأنه كان « نسلها » ، وردد في رأسه مشروعات واسعة لإنشاء مستعمرة حميلة في مصر ، تحقيقاً لأغراض الخلة عند إرساله وقد تقدم كيف عول مو على بدل قصارى جهده أنهدئة روع الجيش وإعاده انظم إلى صفوفه ، واستقالة الحد إلى الرضا بالنداء في مصر حتى تحصل حكومة تفصل الأوس في باريس في أمر هذه المستعمرة الجديدة ، ولو أنه ظل عظم الرجاء في أن يأتي قرار الحكومة في صفقا مع رغبته في اسقاء هذا استطاع توطيد أقدامه في مصر ودرء كل خطر عنها .

وأدرك مو أنه لا عى عن بوطيد أسباب الراحة لجوده وحصل حياتهم
 في هذه البلاد هيثة سعيدة ، إذا شاء أن يقتضى على ذلك التدمير المنتشر بينهم ، وأن
 يسأل إلى استئانهم إلى القاء في هذه البلاد دون أن يشعروا بصاحبه ، أو يسندهم
 طين إلى الوطن . ولذلك فإن مو ما إن تسلم رهام الحكيم حتى شرع بعمل مجد وبشاط
 من أحد نخس أخوان الجند والخرس على راحهم وزاههم . وبدد مو قسارى جهده
 في سبيل ذلك حتى إن كل ما أدخله من سطبات وإصلاحات مالية وإدارية كان يدور
 في واقع الأمر حول عرس واحد هو تدبير الماء للاعاق منه بسجده على جيش الخلة^(١)
 وقد تقدم كيف أهم مو بسط حسانات الخلة وسبع بلاعب « الوردين »
 قومسيرو الحرب ومن إلهم . وكان انصرف على أيدي هؤلاء الوردين واقومسيرو
 ضرورياً لصيان استقامة الامور في جيش الخلة وبوفر أسباب الراحة للجنود . وعلى ذلك
 فقد شدد مو في مراعاة شئون الخوص التي وجد فيها الوردين معاً لا يصعب من الرشح
 على حساب الجنود ، فأصدر مو الأوامر الصادرة لمنع بلاعب هؤلاء الوردين ،
 وشكل لجنة لمخصص الخمر المقدم لجيش الخلة^(٢) . وما كان قومسيرو الحرب هم الذين
 سرفون على سد مظالم الخمش وصاحبه ، فقد خفس مو حال كل واحد منهم ،
 وبعد ما وجد أنهم يكلفون حراة الخلة أموالاً طائلة لكثرة عديم من جهة ،
 وعدم دقة إشرافهم على شئون الجيش من جهة أخرى ، عمد إلى إعاض عديم ،
 مراعاة للاقتصاد — على حد قوله — في نفقات جيش ثشرق دون الإحلال عصابة
 من^(٣) . وفي ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠ كتب إلى وزير الحربية الفرنسية مدحه
 هذه الخطوات . فقال إنه أعرض عدد قومسيرو الحرب إلى عشرين ، بعد أن كانوا
 ثلثة وثلاثين قومسيرو^(٤) . وبعد مو آمالاً عظيمة بعد إجراء هذا « الاقتصاد »
 إلى استطاعته المصى في دفع مرتبات الجنود بصورة مستقيمة^(٥)

وكان مما أهم . هو كذلك توفير أسباب العلاج في مستشفيات الخلة ومحاطة
 في صحة الجنود وسلامة ثديهم . وحين مو على ذلك ما وجدته عند تسلمه قتاده
 خلة ، من أن استشفيات في حال رثى لها ، بسب ما كان ينصب به رجال

Pièce. Off. 354 (١)

Pièce. Div. 488 : Ibid 372 — 5 (٢)

Pièce. Off. 476 — 9 (٣)

Ibid 420 (٤)

Ibid 419 (٥)

الإدارة — على حد قوله « من عدم الأمانة وقلة الذمة في أعمالهم ^(١) » . فأدخل مو بضعة تعبيرات هامة ، مستعيراً عن « عديمي الذمة والأمانة » ، بعدد من الرجال الذين وثق في أمانتهم وطهارتهم . فبعد الحال في المستشفيات سريعاً ، ووجد الموصي فيما يقدم لهم من أطعمة عداً كافياً ، كما كثرت الأرطقة والضادات وسائر الأدوات الطبية ، وأحكمت الرقابة على « صراط الصحة » تحت إشراف (دعيجت) كبير الأطباء ، و (لاري) كبير الجراحين ، و (بوديه) Boudet كبير الصادلة ، على سلوكهم . بل إن صراط الصحة سرعان ما أظهروا شجاعة مشكورة في مكافحة الأوثنة أو في إنشاء الخدمة في الميدان . وقد أعاد (لاري) نوعاً من « الأسرة الثقيلة » لاستخدامها في نقل المرضى أو الجرحى في أثناء سير الجيش ، فخصص مو نموذجاً لها وأمر بصنع مائة منها يجعلها حيون حلاً ألحقت بقسم الإسعاف في الجيش ، كما شهد بالإشراف على هذه الخدمة إلى دعيجت ولاري وبوديه ^(٢) .

وإلى جانب توفر أسباب الراحة للمادة لجيشه من حيث لاهمهم بما كل الجود وملابسهم ، والعناية بممراتهم وجراحاتهم ، حرص مو على إحياء روح الحمى المعوية . لاسيما وقد وجد هؤلاء مدعماً من الوقت لتقليب وجوه الأرضي في وصل إليه حالهم ، والتفكير في مآلهم ومصر الحملة مجموعاً ؛ وذلك مدأً وصفت الحرب أوارها فعلا بعد هزيمة الشيبين في معركة هيدوبوليس في مارس سنة ١٨٠٠ واستحارهم من الأراضي المصرية . ووقع الحدود بجهة هذه « البطالة » فريسة لما صار يتنازعهم من مص شديدة للإقامة في مصر ، وحين عظم إلى الوطن ورغبة ملحة في العودة إليه ؛ ولما كان أكثر القواد والصراط في عداد المعارضين لسياسة الاستعماريين ، فقد ظن مو إلى حكمة هذا الخطر ، وأخذ يصل لكل حملة لدرئته فكان من الوسائل التي لجأ إليها لإحياء الروح المعوية في الجيش أنه أحرى عدة ترقية بين الصراط ^(٣) ، وذلك كما قال حتى يعوس شيئاً على رجال يحملوا مشقات عظيمة في مصر ، ومات الآن يشعلهم التعكر في العودة إلى فرنسا ^(٤) . فخصص مو إلى ترقية ضائعة من الصراط إلى مراتب القيادة كان أكثرهم قد استحقوا فعلا الوصول إلى

Ibid 428 — 30 (١)

Ibid 458 (٢)

Ibid 385 (٣)

Rigault 261 (٤)

رسة (حرال) ، سب ما كان لهم من « أفندية » في اللاص التي يشعونها ، أو مكافأة لهم على ما قاموا به من خدمات معروفة (١) ، وبدل مو كل ما وسعه من جهد وحبلة لث روح النشاط في الجيش ، وإحياء الأمل في صدور حيوته ، فأصدر منشورات عديدة تحتج مسلكتهم ، وثنى على شجاعتهم وسالهم تارة ، وقل إليهم أخبار الوطن تارة أخرى .

وهدف مو من إذاعة هذه المنشورات إلى تحقيق عرس معين ، هو إقناع جيش الشرق بأن مقامه بعدد عن فرنسا لم يكن معناه في يوم من الأيام أن يوارى القصر الأول دماراً لا يمس هذا الجيش ، أو أن الصلة قد انقطعت تماماً بين فرنسا وبين جيش الشرق ، ذلك حتى لا يشعر الجنود أنهم يعيشون في معي جدي عن أرض الوطن ، وحرص مو على ذلك تحقيق ثلثه على تكديبه كل ما صار الاغترل يشعونه عن يوارى ، كما وجد من الحكمة والمقالة الرأي أن سادر إذاعة ما كان يلمه من أضرار عن سر الأمور في أوروبا من ذلك أنه وجه نداء إلى « جنود جيش الشرق الشجعان » (٢) في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٠٠ ، تحدث فيه عن كل ما يلمه من أساء عن الموقف في القارة موما ، وعن حركات الجيش الصلبي على وجه الخصوص في آسيا وعند الشواطئ المصرية . وخفاها أن « من الروس الرابضة أمام ماطة وشيور وكروفي وعمر لأرحيل قد غادرت أما كنها وعادت إلى البحر الأسود ؛ وأنه ما ين وصل إلى سمع مبصر ساد ذلك الأمر الذي ألامه اللورد كيت بشأن عدم إخلاء الفرنسيين لمصر حتى طلب مقابلة السفير الإنجليزي في طرسبرج ، كي يسووجه السب ، واعتبر السفير عدم وجود أية معلومات منه عن هذه المسألة ، وفصلا عن ذلك فن القطوع » أن فصر روسيا قد استدعى سفيره من لندن ، وأندى رعته في معاداة السفير الإنجليزي روسيا ومن المعروف كذلك أن (السير سدي سميت) قد استدعى إلى لندن ، وبأنه من الواجب أن يحترف للرء بأن سدي سميت قد رفض التورط في مسألة تلك « الحادثة الحربية » التي اقترحها موريه . أما موريه فقد استدعى إلى القسطنطينية . . . وحرص مو على إذاعة أخبار معركة مارخو التي انتصر فيها يوارى على جيوش النمسا في ١٤ يويه سنة ١٨٠٠ ، وكاتب هذه ولا شك أخباراً طيبة تشد من عزم جنود الحملة ، وبعث التعة في نفوسهم ، وتدخل الطمأنينة ، إلى

فلوهم . ثم نشر موكل ما كان يردده الإنجليز من إشاعات عن الانتصارات التي أحررها بونابرت ضد ميلاس Mélas القائد النمساوي ؛ صدر العدد التاسع والستون من جريدة (لو كورييه دوليجيت) يحمل ألباءها . وليس سوا ما أحدثته نشر هذه الأحرار المشحنة من أثر طيب في نفوس حد الحلة . فانتشر فرصة حصار بودي Lodi العسة الفرنسية ، تحمل أحرار انتصارات الجمهورية ، ودعم أركان الحكومة في فرنسا ، فادع بداعة ذلك كله على جيش الشرق ، كما أنه أذاع من حديد أخبار معركة مارغو ، وكانت (لودي) قد أحصرت نشره رسمية عن هذه المعركة . وحدث مو عن انقلاب ١٨ رومبر أشهر (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) ، الذي رفع بونابرت إلى القسوية « عمق محبة الجمهورية من الدمار »

وكان عزم مو الظاهر من إذاعة هذه الأنباء أن يطمئن جيش الشرق إلى أن الحكومة في باريس إنما قوم على دعائم ثابتة قوية ، فلا يسند اشتاؤم بال جيش ، وتذهب هذه الأحرار حماسة ، فمسي الخوف يرددهم ، ويوطدوا انهم على الاحتار بمواقفهم في هذه البلاد ، وردادوا سلامة في موقعهم من أعدائهم الإنجليز خصوصا وواتت الفرس مو عندما أفلت ثلاث سفن أخرى من رقابة الإنجليز فوصلت إلى الإسكندرية . رروالي Rosali ودعاجيه Degage وسانت سلب Saint Philippe يحمل أسماء جديدة من الوطن ، منها شبت مو في منصب القيادة العامة - وسوف تأتي ذكر ذلك مفصلا . فاداع مو هذا الخبر على حسنه في أمر يوحى في ٤ نوفمبر سنة ١٨٠٠^(١) ، كما أنه دُع نهر يمين حطاط وصله من كارو ورر الحرية الفرنسية يعطى إليه فيه « أن يعمل بكل حرم على دعم كل تلك الأسس التي وضعت للاحتياط بحصر حق محي . موعد عقد السلام العام في أوروبا ، فتقرر بفصل ذلك مصير هذه الفتوحات العظيمة التي لا تفدر ضمن بصورة خاصة » . وقد علق مو على رساله كارو بقوله : « وهكذا روي أنها الحيد مقدار اهتمام الحكومة بكم ، كما روي مقدار ما يثره بحاكم بفصل تسلككم من إعجاب أوروبا بكم واعتراف الوطن لصديقكم عليه »

ولما كان قد اراداد الاتصال بين فرنسا ومصر في ذلك الوقت عن دي قل^(٢) فقد استطاع مو أن يكثر من إصدار الأوامر اليومية التي حملت إلى جيش الشرق أسماء انتصار الفرنسيين في (هوهلدر) ، في ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٠ ، والهدية التي أعفت

هذا الانصار مع النصارى ، والصبح الذى عقدته فرنسا مع روسيا . وضعت هذه الأبحار فعل البحر فى العوس ، غفب التسمر وامتنع القلق ، وكادب سجع جهود مو فى ش روح الطمأنينة فى نفوس الجنود وترويضهم على الرضوخ لمطالب السياسة التى فرصت عليهم فرنسا النقاء فى مصر ؛ حتى ظهر كأنها جيش الشرق قد بدأ تألف العيش فى هذه البلاد ، عندما اهم مو إلى حاسب ذلك كله تنويع أسباب التسيه لهم ، كشاهدة التمثيل وحضور الحفلات الموسيقية وغير ذلك مما سوف يأتي ذكره فى موضعه . وطالب بعوس لحيد للعيش فى مصر حتى إن كثيرى منهم ما لشوا أن أنشأوا صلاب وثيقة مع أهل البلاد ، فتروحووا من مصريات ، أو غاشوا مع رجعات ، ووحدوا فى الحياة السفرة متعة كادت تنسبهم الحنين إلى الوطن^(١) .

والكن هذا الحال لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما حدث رد فعل كبر بعد أن تيقن اليهود أن هذه الانصاراب القاهرة التى أحررها الفصل الأول فى أوروبا لا تمنى أن جهودا فعالة سوف تبدل لحدثهم أو لإبعادهم من هذه البلاد وإرجاعهم إلى وطنهم ، وفشل كل ما كانوا يعمون به من النهج لظاهرية فى رالة تلك السكابة لى استمرت نمو وحوهم ، وفتر حماسهم فصاروا لا يمتأون عذشورب مو وأوامره لونية ، بل صاروا يعتمدون إظهار عدم المبالاة بقائد الحملة العام بهه . وطلت انصارهم شاحصة إلى فرنسا^(٢) . وكان السبب فى إحصاء مو وإصاعة كل تلك اليهود لى بدنها من أحل اسالة الحد إلى تأييد سياسته وغيبب النقاء فى مصر إلى بعوسهم ما صمم عليه فريق من كبار فواد الحملة وصااطها من مباحصة مو العداء ، وحمل نواه انمارضة القوية منده وضد تجربته الاستعمارية .

ونوعت أسباب هذه المعارضة وتعددت . فكان مرد بعضها إلى ما حدث من كدر العلاقات بين مو وبين فريق من كبار فواد الحملة ، الذى كانوا من أصدقاء كابر ، ثم ساءم أن يصل إلى مصب القناده رجل يحلو فى نظرم من كل صفات امكرى الحاجع . وقد ارداد تكدر العلاقات بين هؤلاء وبين مو بعد أن وجه لفائد العام الجديد بداءه العروف إلى الجيش فى ٢٢ يويه ، ووصف فى هذا النداء مووصب المعارضة الصريحة لسياسة كليل ، كما حاول أن يظهر تمسكه بالولاء الصادق لروبارت ، حتى يدخل فى رمرة « الونارسين » تحت هذه المحاولة صتا على إمالة ،

(١) Qaland II 12 — 14 : Ibid 288

(٢) Bricard 447; Doguereau 395, Villiers 288; Marun II 145

ذلك أن هذه « البونارس » الجديدة سرعان ما أدب إلى ريادة شكوك قواد الحملة في أعراض مو وغائاته ، لأن مو لم يشق لنفسه طريقاً في ميدان من مبادئ الحرب والياسة يقربه من البونارسين الذين استرعدوا في حياتهم العسكرية واسياسرة عمادى انصل الذى جلس فراساً ، أعدائها والذى عقد عليه أهلها آماسهم في الوصول دلوطن إلى دروه اشحد وارمسة «عبر قواد الحملة « بونارسية مو ونارسية رائعة » لهما وسداها التخلو للقائد الكبير حسب .

وما إن دعا مو إلى ضرورة النعاء في مصر واستتارها حتى وجد أعداؤه مساوئوه في سياسته الاستعمارية سيلا لشد صفوف المعارضة النافرة صده ، فدب الخلاف في جيش الشرق ، وانقسم هذا الجيش فريقين : فريق الأقلية الاستعمارية التي التفت حول مو وأدت سياسته ؛ وفريق الأكثرية من أصار اخلاء عن مصر والذين عرفوا باسم «الكبيرين» ، لأن كبير كان يمث في نظرهم سياسة الجلاء أو الاعراض على الأول على إمكان تأسيس مستعمرة فرسة في مصر . وفصلا عن ذلك فقد وجد هؤلاء في إصلاحات مو ومشروعاته ما أحدهم ، جعلهم يعدون هذه الإصلاحات ومشروعات قداً مراً لا بدت ، بل إن منهم من ذهب في نهاية المطاف إلى اعتبار مو بسبب هذه الإصلاحات «مهملاً» على أى شيء آخر غير كعبه لىولى منصب القيادة العامة . أما أولئك القواد الذين آثار مو حفيظهم فكانوا ربييه ولاوس وداناس ثم مدير المهابت هكتور دور Hector Daure وفومسير الجيش أو الحكومة تالان Tal en .

وقد نشأ الخلاف بين ربييه ومو منذ أن تسلم مو قيادة الحملة العامة . فمع أن ربييه لم يشأ تولي هذا المنصب وأحد يلج على مو في قوله ، فيه سرعان ما دم على فعلته ، ومدير يرو هتاتاً وروراً صباع قيادة الحملة منه إلى حديصة مو له ، فكأن حجتة في ذلك أن مو ومن اعنيال كبير كان عللاً منصب حاكم القاهرة ، ومن واحده لذلك أن يشرف بصورة مؤقتة حسب على إدارة أعمال الحكومة . ولذلك فقد أبدى مو ررداً كبيراً في قوله قيادة الحملة العامة ، وقبل الاضطلاع بأعمال الحكم بوصفه حاكماً للقاهرة فقط (١) . ولذلك فإنه ما كان يحق لمو أن يستمر في ممارسة تلك السلطة التي أسرها لنفسه انتراعاً بعددت إلا إذا عمد مجلس حرنى بصم قواد جيش الشرق لبحث موضوع القيادة العامة . وانتمت كلمة هؤلاء المختصين على إعطاء مو هذه القيادة وكان كما راد من عصب ربييه أنه علم سدر صه منصب القيادة أن الجيش كان ينتظر

انتقالها إليه ، وأن قوله لها كان يليق ولا شك ترجيحاً عظيم من جانب جيش الشرق بأسره . واستمرت هذه الخلاف بين ريسه ومو في اشهر الدله حتى بات ربيبه يرى في كل أعمال مو وإصلاحاته مسوغاً للأمان في نفسه والهمم عليه والاردراء بشخصه (١) .

ودت الخلاف بين لايوس حاكم الإسكندرية وتالين قومسيه الحكومة بها من جانب ، وبين مو من جانب آخر ، عندما أراد مو بعد اسلامه فبده الحملة العامة أن يجري عميقاً في بعض لاجراءات انشائه التي احدثت في عهده . فقد حدث بعد نقص اتفاق العريش أن أمر الجبرال كبير بمصادره بعض المدو الرئاسة في الإسكندرية ، واسهر جماعة من البحار ورجال الإدارة هذه الفرصة للاستيلاء على التجارة التي حملتها هذه السفن بأساليب غير ربهه ، وتهاون لايوس وتدنس في منع هذه العمليات غير لشرعية وانصرفت على أيدي انتلاسين ، فأراد مو سيد استلامه قيادة الحملة انعامه أن يحسن هذه العمليات (في أغسطس ١٨٠٠) حتى يرضى من إدارة المدينة كل من نبت عنهم تهمة اللعاب (٢) . فإما هذا العمل لايوس ، الذي اعتبر أن مو إنما كان يصد من وراء ذلك إلى حدس سمعته وانطوى في أماله ، فطلب أن يبعد بعض إدارته في الإسكندرية عموماً إلى مجلس عسكري (٣) . ولكن مو رفض ذلك ، وعدنه طلب لايوس تأليف لجنة للتحقيق في ذلك اللعاب الذي وقع وأدى إلى « هيب » محاره السفن المصادرة ، فوافق مو على تأليف هذه اللجنة (٤) التي بدأت عملها دون إهمال . فكان هذا الحادث كافاً لأن يسب الخيرة وتعلق للجبرال لايوس ، الذي ظل من ذلك الحين تساوره اشكوك في نوايا مو نحوه ، وحيل إليه الوجه أن قائد الحملة العام قد أحاطه بعدد من الجواسيس لمراقبه حركاته وسكناته

وراد من هذه شكوك لايوس أنه كان في قراره يهده لا يطمئن إلى مو ثانية ، بسب اختلاف سياسهما عندما كان لايوس أحد أولئك الكبريين الذين عارضوا سياسة مو الاستعمارية ، وأرادوا العودة إلى الوطن . ومع ذلك فقد بدل مو قصارى جهده حتى يهذي من روعه ونقصي على وسائمه ؛ وما إن اسبب اللجنة من أعماله ، حتى نشر مو نتائج خصم ، الذي أثبت أن السرقاق التي حدثت كان لا يمكن في وضع

Ibid Chapitres VI — VII (١)

Rousseau 336 — 7 (٢)

Richardot (Pièce No. 31) 465 — 6 (٣)

Rigault 189. (٤)

الأمر ملاحظتها لتفاهتها ، وامتدحت اللجة ملك لاوس وأثبت على إدارته وكان
شكر ذلك كافياً ولاشك لتبرئة صاحبة لاوس والمحافظة على مصبه . غير أن مو الذي
أراد أن يعهد بأحكام الإسكندرية إلى أحد رجاله القريبين إليه ، والسري شق في
ولايتهم له ، مالت أن يادر بإقالة لاوس من منصبهائنا في ١٣ أكتوبر ، وعين فرنان بدلا
منه . وذلك قبل انتهاء اللجة من أعمالها وشكر نتائج خصها ، فأول أعداء مو
ومعارضوه هذا العمل تأويلات شتى ، فادعوا أن مو إنما أراد بذلك أن يرغم لاوس
إرغاماً على التقدم إليه بطلب العودة إلى فرنسا ، حتى يحصل منه شيئاً ، كما زعموا
أن مو أراد من إقصاء لاوس من حكومة الإسكندرية أن ينتهي من عيقله ، لحرمانه
من هذه الحكومة أيام كبير الذي أخرجه منها ، ووضع لاوس مكانه ، فأكل الخقد
قلبه (١) .

وسواء رغب مو في إبعاد لاوس من مصر أم م رغب . فقد قرر هذا الأخير
النقاء ، وما إن وصل إلى القاهرة حتى انضم إلى سائر الكليبيين ، وعلى رأسهم رئيسه
وداماس رئيس هيئة أركان الحرب أمام كبير . وكان داماس من أشد المعارضين قعة
على مو ويصر له عداً عظيماً . بدأت العلاقات بين الرجلين طاسة أمام كبير ، فهما مو
قائد الحملة السابق على اختياره الموفق عند ما عهد بمصعب رئاسة أركان الحرب إلى
« رجل يسمع ربما الجميع » (٢) . وحرص داماس على احداث ود مو . ولكن
الحال مالت أن تغير عند ما وجد داماس نفسه مضطراً بسبب منصبه إلى الاتصال
بالقائد العام الجديد دون انقطاع ، وخدمة تلك السياسة الاستعمارية التي حرمي عنها
مو ، والتي كان داماس لا يوافق عنها شيئاً ، لاسيما وقد كان لداماس - وهو صديق
كبير لاجم - نصيب في تلك السياسة التي أقصت إلى بعد اتفاق العريش ، كما اشتهر
بكرهيته للإقامة في مصر ؛ وقد رادب هذه الكراهية مداعبين صديقه كبير . وكان
داماس من بين أولئك الذين عارضوا بقوة سياسة مو الاستعمارية عموماً . وعلى ذلك
فقد كان من السهل أن تعدد أسباب الخلاف بين الرجلين ، حتى إن داماس بات يعتقد
أن مو يبدل كل جهده لإرغامه على الاستقالة .

وعند ما انخرجت الأمور ، وبات من المتعذر على مو أن يتعاون معه ، اضطر مو
إلى إقالته من منصبه في سبتمبر ١٨٠٠ ؛ فكان هذا الإجراء يفضي إلى حدوث أزمة

Martin II. 147. (١)

Rousseau 17. (٢)

كبيره . ذلك أن كثيرين من أعداء مو وصاوشه سرعان ما اتحدوا من إقالة داماس
 دريعة لتوجيه حملة من العهد اللادع ضد مو ، الذي أقال داماس — كما قالوا — دون
 سب (١) وركب داماس رأسه فرص في أول الأمر هذه الإقالة ، وأصر على
 عسكه بحصه ، ثم أخذ خطب تعديبه للمحاكمة أمام مجلس عسكري . ولكن منو ،
 الذي أصر هو الآخر على إبقائه ، ورفض « محاكته » ، استبد في تصاد داماس في
 أن المسألة لا تعدو تعذر الاتفاق حسب بين رجلين مختلفين في آرائهما ومبادئهما
 كل الاختلاف ، فضلاً عن أنه كان لا من حق القائد ، لأعلى في أي جيش من الجيوش
 أن يختار من يعمل من فؤاد تحت قيادته . وأظهر مو تصاداً ولباً عندما قبل
 وساطة ريفيه وفرمان ، وعمل « نصف وطاء » هذه الإقالة ، وأعلن إلى الجيش في
 ٨ سبتمبر أن داماس « انقطع » عن مراوغة وصداقه حسب ، ثم وجه شكره لداماس
 من حكومة الجمهور ، على ما تصاد لها من خدمات كرتيس لجيشه (وكان الحزب (٢)
 في ١٦ سبتمبر عين داماس حاكماً لى سوبف والتقيوم . ومع ذلك فقد ظل الأمل يحرق
 في نفس داماس ، كما ساء ريفيه وسائر انهواد إقالة داماس من منصبه . فكتب للحرال
 ردييه إلى داماس من سوبف « أن (داماس) لم يفقد في واقع الأمر شيئاً كثيراً
 ، هو حزين ثقة هذا الرجل » أي الحرال مو . وظل داماس ضد هذا الحادث
 موضع احترام وتعدير من فؤاد الحلة وصاوشه (٣) .

ويرجع منشأ الخلاف بين هكوردور وبين مو إلى أيام الحملة الأولى ، عند ما كان
 - وعلى رأس الحكومة في رشد - فقد نقد (دور) إدارة مو قد لا دعماً . ومع أن
 دور كان على خلاف كذلك مع الحرال كلير ، فقد كان من السهل روال هذه الخلافات
 عند ذلك ، ثم توطدت الصلة بين دور وكليير حتى بات هكوردور من أقرب المقربين
 لى كليير في عهد فاديه انعامه للحملة . واتسمت ثقة الخلاف بين دور وبينو بسبب
 إصلاحات هذا الأخير الإدارية ، وعلى وجه الخصوص تلك الإجراءات التي أراد منها مو
 بحكام الرقابة على حسابات الحملة وسط ما لينها بكل دفعة ، حتى إن دور صالت أن قدم
 استقالته في أغسطس ١٨٠٠ ، وإن عاد فاستردها عند ما طلب إليه مو التثبت وإيمان
 نظري في أمر ما كان يعنى منه مو — كما أعلن ذلك مراراً — سوى إصلاح حاله

Martini II, 148. (١)

Pièce. Off. 405-6. (٢)

Galland I 329. (٣)

الجيش عن طريق نظم الإدارة ، وإزالة كل ثبوت الفساد والساوى^(١) انطاهره .
ويبدو أن مو ما لبث أن صار يرغب في التخلص منه بعد ذلك كلية ، فعرض عليه
مصب (مفتش عام) لقاء سارله عن منصب مدير مهمات الحملة الذي يشغله ، فقبل
هكسور دور ذلك وبعين (سارتلون) Sarlelon بدلاً منه
ولكن مو سرعان ما عي دور مفتش عادياً بحسب كسانر مفتش الجيش^(٢) ،
فأنار هذا العمل خميطة دور الذي يرى باقش ذلك الحق الذي أعده مو لنفسه في
عمر موظفي الحملة كما يشاء وبهوى ، فت من ثم ذلك القاش الذي اسمر بدور بعدد
بصورة حدة حول مبدأ كان على حاسب عظم من الأهمية هل مثل مو حكومة
الجمهورية فما يصل لشئون هذا البلد لفتوح (أي مصر) حسب ، أو أنه يمثل الجمهورية
فما يصل لشئون مصر وشئون جيش الشرق كذلك ؟ فإذا كان الأمر الأول هو
الصحيح ، فمن حق مو المهمة على شئون هذه البلاد المحلية فقط ، وإذا كان الأمر
الثاني فمن حقه المهمة كذلك على شئون جيش الشرق ، وفي هذه الحالة الأخيرة له أن
يعزل أو يبعين من شاء من فواده ورعاله ، ويتصرف كما يريد في كل ما يختلص للجيش
بصلة فكان من رأى مو أنه يوصفه انعاث لأعلى للحملة إما يهمل على شئون مصر
الداخلية وشئون جيش الشرق على السواء ؛ وكان من رأى دور وصعوف المعارضة أن
مو إنما يمثل الجمهورية فما يصل لشئون البلاد الداخلية حسب ؛ وعلى ذلك فإن مو
يوصفه قائداً للحملة إما بمخصص لقوة القوايين الفرنسية ، ومن مقتضيات ذلك أنه
لا يحق له أن يعزل موظفاً من موظفي الحملة دون محاكمة وإلا أعد متحياً على العبر
وطدا ، وهذا لا يمكن أن رضى عنه حكومة القسلة بعد ذلك الجهاد الشاق الطويل
الذي اسمر عشر سنوات تقريباً ، من وقت اندلاع الثورة الفرنسية الكبرى ، التي
قامت من أجل القضاء على الظلم والاضداد ، وحبان العدالة ونشر ألوية الحرية .
على أن وضع المسألة بهذه الصورة إما كان بطوي في واقع الأمر على جوهر ذلك
للوضوع الذي ظل سبأ في احتدام القاش دائماً بين الاسماريين ، وهم أنصار مو
ويين (الكليريين) من أنصار الحلاء عن مصر ، والذين رفضوا أن يضربوا من
الناحية القاقوية أن هذه البلاد كانت مستعمرة فرنسية . وقد وجد الكليريون في
شخص (تاليان) Tallien خير من مصر « نظرتهم » ونوصحها ويؤيدها ، لما عرف
عه من دراية واسعة بالتعاون من جهة ، ومهارة في عرض حججه ودعاويه ، ولما لاقه

Rousseau 334. (١)

Pièce. Off. 476. (٢)

في توجيه هذه « المعارضة القانونية » من جهة أخرى وقد اتحد تاليان من إصلاحات
 مو ومشروعاه درعة لإثارة روعة من الحد القانوني حول تلك السلطات التي أراد
 مو أن « يتركها » لنفسه ، بوصفه قائد الحملة الأعلى في مصر ومؤسس للمسحرة
 الرئيسية الجديدة في « الشرق » (١) .

وعندما قرر تاليان أن يتحد من إصلاحات مو موضوعا لإثارة هذا الحد
 مدوى ، كان قد مات الطريق مبدأ وعمدا أمامه لهذه العاية ، حسب تلك الانتقادات
 كثيرة التي وجهها المعارضون ضد هذه الإصلاحات ؛ وكان أحف هذه الانتقادات
 حذاء قولهم أن مو قد اشتط في إصلاحاته شططا عصبيا ، حتى إنه لا يمكن أن يسع منها
 حدوث تغييرات عميقة في عادات أهل البلاد وتقاليدهم ، فلامدوحة من أن شر
 الإصلاحات اسماء المصريين الذين عاشوا على حالهم القديم أربابا طويلة ؛ وفصلا
 ذلك على القول أن صاحب هذه الإصلاحات قائد اعتنق الدين الإسلامي وتزوج
 سيدة مسلمة لن يحدى بها في حمل هؤلاء يستقيمون ما أحرأه مو من إصلاحات ،
 دخله من تغييرات على عاداتهم وتقاليدهم ، « لأن مو السلم - كما قالوا - لم يكن
 وضع الأمر موضع احترام أو تقدر من قبل ذلك الشعب ، الذي بلغ عكسه بكل
 هو متصل بعقيدته ودينه درجة التعصب الشديد (٢) » . وكان رئيسيه إن ما أحدثه
 من نظريات مالية وإدارية وقضائية لم يكن لها من أثر سوى ردهدم المصريين ،
 ب إبطاله ما جرى به العرف قديما ، عند ما اعتاد مشايخ البلد في ندابة كل عهد من
 عهد على تقديم الهدايا من حيوان أو ماشية أو جمال إلى المرميين الحد ، في نصير
 هؤلاء المشايخ في أعمالهم ، ودخلع عليهم الدرهمون وأنصحاب الأرض الكساوى من
 والشيلان دلالة على رصانتهم سواء مشايخ البلد في ماصهم (٣) ، أما إعادة تشكيل
 القوانين وقصر عضوية على المشايخ للدين ، فكان في نظر هؤلاء المعارضين عملا
 مدوى منه ولا مائل عنه ، لأن هذا المدوى - بعد شت في إرابة كل تلك الظالم
 ويعارم اتق أنقلت الأهيين الذين عصوا كذلك من إصلاحات مو القضاة والديانة
 المعمومة ، وعمره خصوصا على إلغاء الدة أو « عن الام » ، عالما في ذلك عادات
 لبلاد وتقاليدها .

ل إن هؤلاء المعارضين ما لشوا أن انهموا مو بالرعة في تحريك الثورة في

(١) Rigault 195-6.

(٢) Martin II. 149.

(٣) Reynier 106-7.

القاهرة ، باستنارة أهل الطبقات العامة والمتوسطة ضد الطبقة الارستقراطية . على
عرار ما حدثت في غرب دأها واستندوا في ذلك الاتهام إلى ما جاء في صحيفة
(لوكورية دوليحت) التي نشرت في عددها السادس والسبعين في ٦ أغسطس ١٨٠٠
مقالاً جاء فيه ^(١) « مرض الطبقة الارستقراطية العبة في القاهرة سيطرتها بصورة
من المحتمل أنها تعوق كثيراً ما عمله أصراًها في أي مكان آخر ، وإن هذه السطوة
تتمكن أصحابها من أن يحكموا دائماً ، ويحصل عودهم ، ذلك الشعب الذي يكاد هو
وحده تحت عبء المطالب المالية . وعلى ذلك فقد وضع القائد العام نصب عينه الحد
من هذا العود ، وإخضاع عدد الاسطاعة ، واستثنى تلك الطبقة الخاصة العاملة ،
وهي طبقة الملاحين ، مما تماشى من مشقة » . وقال (مارتان) Martin تبعياً إلى
هذا الكلام — في سحرة لادعة « وهكذا حتى تمكن هو من تمديد هذا المشروع
الحليل أصدر أمراً في نوفمبر ١٨٠٠ بإنشاء حرسية عربية سماها (النسيه) ، ثم أصدر
لما كان هناك من حاجة فصولي إلى محرر بأنه : »

شاهد الكليبريون إذن كل هذه الإصلاحات ، تصدر بها أوامر من بعضنا تلو
بعض دون انقطاع ، فأقسم ذلك وامنعوا منه ، ثم باتوا يتفحصون الأمر من عو ،
حتى إذا أمر في مستعمرة صربية (بيت المال) انقضى الحرس عها — ا
فتشغل التركات التي عثت عها أصحابها مهما احتلت حساباتهم ودانائهم ، ابرى
الكليبريون يناقشون من الخراب ، واعدوا من هذه الصربية طريقة لإثارة تلك
« المعارضة القابوية » التي حل بالنس لواءها . ومن ذلك احيان احترم انقش بين
الكليبريين وأنصار هو من أحل الفصل هه في مسألة المسائل وقتئذ ، أي فيما
إذا كانت مصر مستعمرة فرنسية أو بلاد « مملوكة » حسب . وكان بالنس من أيام
الجنرال كليبر من كبار مؤيدي سياسة الحلاء ، ولم يتردد لحظة في إطلاع هو على حقيقة
رأيه في هذا الموضوع منذ ابريل ١٨٠٠ ، ولم يعبر شيئ من موقفه بعد أن تم من
قياده الحملة العامة . ووجد الآن في صربية (بيت المال) ، التي كان يقتضى تنفيذها
مرض صربية على تركات الفرنسيين اذوليين في مصر ، فرصة مواتية لنحطم كافة
إصلاحات ومشروعات هو ، التي هدف منها إلى إعادة تنظيم هذه البلاد كمنعمرة
فرنسية سوف يبقى بها الفرنسيون رماً طويلاً ، وذلك إذا تولى أن يقيم اللجنة
الدائمة على أنه لا يمكن محال من الأحوال اعثار مصر قانوناً « مستعمرة فرنسية »

فكان من رأى تاليان أن جيش الشرق إنما يقيم في بلد مفتوح حسب ؛ وحجته في ذلك أن حكومة الجمهورية هي التي أصدرت أوامرها إلى هذا الجيش باحتلال مصر ، فاجيش إنما يدخل مصر بناء على هذه الأوامر . ولا يمكن أن احتل هذا الجيش نفسه مفتوحا في مستعمرة ، كما يذهب البعض دون تكبير كبر ، إلا بعد بوافر شروط معينة ، أهمها إبرام اتفاق مع الدولة التي كانت أصلا تملك هذا البلد . ثم التصديق على معاهدة صلح ، ومن حق السلطات التشريعية والتجديدية وحدها عندئذ أن تعلن أن هذا البلد مفتوح مستعمرة ، ونفس القوانين التي تحت تفصاها عديد ما يفرص على هذا البلد من مطالب مالية وبحري بحصيلها منه . ولما كان شيء من ذلك لم يحدث فيما يتعلق بمصر فإن الجيران لموا لا يمكن استنساخ « حكا » لها . وإنما هو فقط قائد عام لجيش الشرق ، فلا يمدى سلطته وضع أنظمة البوليس الخاصة بالحفاظة على النظام ، واستتباب الهدوء والسكينة . فضلا عن أن يمد من وسائل تكمل دفع مرتبات الجند ، بمداد هؤلاء المأوون والأعدى وما إلى ذلك . وعلى ضوء هذه الاعتبارات إذن كان حصيل صيرية بين المبدأ عن ركائز الفرنسيين الذي عوتون في مصر حرقا للدستور ، وثباتا على العدالة ، لأن مو لا يجمع في مصر سلطة الشرع الذي من حقه من قوانين ، ولأن الحكومة الفرنسية سوف تظل من حقا دائما أن تحصل هذه تسرية من الورثة الذي لن يحدوا سبيلا للامتناع عن دفعها ، على الرغم من تلك صيرية التي تؤخذ منهم في مصر . ثم جلس تاليان من ذلك كله إلى تقرير مبدأ عام دعى بإعفاء الفرنسيين من دفع أنه صيرته من تلك الصرائب الماثرة التي بحري عسيبها في البلدان الموصولة^(١) . ووجد تاليان في موضوع (هكتور دور) وسيلة مدعى بحجته القانونية إلى عاها . واستشار أن مصب اعائد العام للجيش لا يمكن أن يسى على مو صفة ممثل الحكومة الفرنسية أو النائب عنها ، وأن الواجب يقتضى الفرنسيين والمصريين على السواء أن يجمعوا لما تصدره العاصمة الفرنسية من أوامر حسب^(٢) .

وذهب الكساريون عموما إلى دعواهم أن مصر لم تكن سوى بلد مفتوح ، إلى أن نقول بأن مصر مستعمرة فرنسية يتناقض تماما مع كل تلك الأعراس التي دعت فرنسا إلى احتلالها ؟ فمن الثابت أن فرنسا رعت دائما في أن تعطى للسلطان العثماني حقوق

Rigault 185-5. (١)

Ibid. 197. (٢)

سيادته على هذه البلاد ، آبه ذلك جمع ما صدر من منشورات ورسائل تضمنت هذه الحقيقة ، أو ما جرى من معاولات أيام بونابرت وكثير استندت في واقع الأمر على هذا المبدأ كقاعدة أساسية . وفصلاً عن ذلك صدقوا بأنه لن يترتب على التصريح بأن مصر مستعمرة فرنسية سوى زيادته المحاربة القائمة بين تركيا والمملكة قوة على قوتها ، ثم إيمان هاتين الدولتين في النصارى ضد الجمهورية . نية طرد الفرنسيين من مصر ، حتى إذا تكاثرت جهودهم بالبحر فقدت فرنسا كل ما عانت به من جهود في هذه السلاسل من أزمينة قديمة^(١) .

وهناك سبب آخر لا يرداد معارضة القواد للبحرال مو . هو « بونابرتيه » التي سبق الحديث عنها . فقد كان طبيعياً ، وقد شاهد مو سحب هذه المعارضة لتكاثف حوله ، أن يحكم صلاته رجال الحكم في باريس ، توقعات قد يبدله أعدؤه من جهود في العاصمة الفرنسية ، لإخلاق الأذى به ، حرص على اسهر كل فرصة لإظهار ما يمكنه من محبة وولاء لبونابرت ، معتمد على علامته القديمة به ، وعطف بونابرت عليه في إبقاء حبلى « المودة » متصلاً ، ولذلك فإنه ما وصله بتأسيس القسطنطينية حتى يادر نهضة بونابرت « الفصل الأول » على هذا النص ارفع اسمي الله ، كما حرص في الوقت نفسه على هيئة الفصلين الآخرين لوراب Lebrun وكامبسيريس Cambacérès^(٢) . واحط لنفسه خطة الإشادة بذكر بونابرت ومحمد اسمه في أوامره اليومية ، وبلاغه إلى الجيش ، حتى أصبح هذه « البوابة » عتبة صلبة له ، كما أنها أفضت في الوقت نفسه إلى إثارة شكوك معارضييه في ولاء وأعراسه . فقد اعتقد هؤلاء أن مو إما كان يهدف من هذه « البوابة » ليس إلى التودد والتقرب من الفصل الأول حسب ، بل أيضاً إلى إعلان موقفه بصورة قاطعة عن سياسته الجلاء ، اتق اعتبر الكليرون سمعه في القيادة زمرتها ورادهم يقيناً على إهمهم أن مو احتار لاسه من السيد للهمة التي أعدها روحاً له اسم سليمان قاتل كثير ؛ فاعتروا ذلك دليلاً على كراهية مو لكثير . ثم سرعان ما نأكد هذا الاعتماد لديهم عندما رفض مو السامحة في أية درجات مجمع لإقامه نصب تذكاري للبحرال كبير في فرنسا على سقفة جيش الشرق^(٣) ، مع أنه أصدر أمراً يومياً في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٠ تحدث فيه عن

Martin II. 156. (١)

Pièc. Off 64-6. (٢)

Martha. II. 160. (٣)

تلك اللحظة التي أنشئت في فرنسا جمع التبرعات من أجل إقامة نصب تذكاري للجنرال
درويه الذي قتل في معركة مارغو ، ثم طلب من الجيش المساهمة في ذلك^(١)

ولم يُجمع القواد معارضتهم لقائد الحملة فداعب أخبارها ، وعلم بأمر هذا الإقسام
صايط جيش الشرق وجوده^(٢) . وعهد القواد إلى إظهار تخريمهم صدمو بصورة
واحدة ، فانتهروا فرصة الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية في أول ديسمبر من سنة
الجمهورية التاسعة (٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠) ، جمع دماس وأصدقائه وأصدقاء الجنرال
كثير في مركب للرهة في البلد ، مما ظل مو في مركبه وهو تكاد يكون صعدا .
وامتلأت أسماء مدرسي القواد دماس وريميه ولانوس بالسيوف في أثناء الاحتفالات
التي أقاموها في المساء ، بما كاد يعمر مهن حفل الجنرال مو^(٣) . وقد رتب إلى
ربوع أخار هذه الخلافات أن انضم الصاعد من الرب الصغير فريميه شجدها باصر
بقائد العام وهو فريق الأقلية ، والآخر مدرسه وهو فريق الأكثرية . ثم اشترت
عمال الحاسوبية نصار كل جماعة يحسون على الجماعة الأخرى . وساء عملاء
عربيين أن روا جيش الشرق فرصة لهذه الخلافات^(٤) . وعجز مو عن حسم
سباب الترام لأنه كان وقتئذ لا يزال منصبا لقائد العام إلا بصورة « مؤقتة » ، ويعتبره
ر القواد لذلك زميلا لهم حسب . ولا تمارس « سلطات » قائد العام إلا بصورة
« مؤقتة » كذلك ، ومن فهم أن يقعدوا أعماله بحرية وصراحة ، وألا يصروا أنفسهم
بأنهم بالطاعة له إطلاقا « ودون قيد أو شرط » . ثم إنهم ما كانوا يعتقدون أن مو
وفي بطل قائداً عام للحملة . بل توصوا قرب اسماء هذه « القيادة » التي أرغمهم
ربما عند وصول أول برید فرسي إلى مصر^(٥) . وكان ريميه على وجه الخصوص من
أشد هؤلاء اقتناعاً أن مو لن يطر « تشييته » في منصب القيادة العامة ، فاعبر لذلك
أن من واجبه وواجب سائر قواد الحملة أن يقوموا جميعاً بملاحظة ما فيه الصالح العام
من جهة ، وأن يعملوا لتصحيح ذلك الخطأ الذي وقع فيه رئيسه نفسه عندما تخرج عن
منصب القيادة للجنرال مو^(٦) .

Pièc. Div. 531 : Pièc. Off. 436—7. (١)

Rigault 194 (٢)

Galland I 323—4 (٣)

Dogureau 124 Briard 448 Malus 200 (٤)

Rigault 199 (٥)

Reynier 129 (٦)

وعلا القواد بما أرادوا أن يسطعوا به من تفعّل أنفسهم ، فحشوا يديرون الخطط « لتصحيح » ذلك الخطأ . لقد عزم من إساد القيادة العامة إلى مو ، ويقبلون وحده الرأي في مشروعات هذه ، كان العرض منها إما العمل على إقالة مو ، أو تقديمه لفحاكة أمام مجلس عسكري^(١) ، وإما القس عليه وحده في القفصة بدعوى أن أمه قد أساءت ، وقد ذكر فريدين تفاصيل هذه « الخطط » الأخيرة . فعند إن القواد اسرموا ، أن يحط كارهم في الجيش حتى إذا سمّات الأفكار لقول حطوبهم ، اتتاه ألقوا القس على مو وأعلنوا احتّار الحران ربييه قائداً عاماً للحملة^(٢) .

أما الكليرون محمواً فقد استندوا بما ذهبوا إليه من ضرورة عزل الحران مو وإقالته إلى أن إصلاحات مو ومشروعاته كانت تدل على الخدعة وفساد الرأي . كما تصمّت أوامره المنطقة هذه الإصلاحات تعريضاً بسعة الرؤساء العسكريين والإداريين الذين قاموا بأعباء الحكومة من أيام كليبر ، بل ومن أيام بومارت معه ؛ وفصلاً عن ذلك فقد أدّى عكس مو بأن مصر مستعمرة فرنسية ، وإصراره على وجهة نظره ، إلى قيام كل تلك النقاش التي أوقعت الانقسام في صفوف الجيش وأسفرت عن عواقب وخيمة .

غير أنه كان من الواضح أن هؤلاء « السامري » لا يستطيعون المعى في حسم إلا إذا وافق الحران ربييه نفسه على بولي قيادة الحملة العامة حدياً للحران مو ، ولكن ربييه سرعان ما وجد من الممدد عليه أن يقر هؤلاء « السامري » على عملهم لأسباب عدة ذكرها ربييه معه^(٣) ، أهمها أن موقعه كما قال — قد بات دعماً له وأن مو بأن يبدل قصارى جهده في مؤازرته وبسجته ، وذلك عندما « صلب » إليه أن يقبل قادة الجيش ، حقيقة آثار مو بعد ذلك بعدله ومؤامراته ودساتنه حفظة ربييه ولكن هذا الأخير كان لا يمكنه الموافقة على إقالة مو وعزله خوفاً من وقوع الانقسام واتقاء لما قد يحدثه ذلك من آثار سيئة حطرت . على أن امتناع ربييه عن قبول انقياده العامة لم يصرف أولئك الذين أظهروا السخط على أعمال مو وأرادوا عزله عن عقد آمالهم العربية على إقناع ربييه ببول منصب القيادة العامة في المهارة ، وسكن ربييه كان قد وطف العزم عندئذ على عدم الاستماع إليهم ، معللاً ذلك بقوله « إنه من المنتظر

Reybaud VIII 94 (١)

Rigault 199 (٢)

Reynier 128—9 (٣)

عليه أن يهل هذا المصعب بالرغم من شعوره بأن هناك حاجة ملحة لوجود رئيس آخر للحلقة ، بدلا من الجرال مو ، ذلك أن البلاد كان قد ساء حالها كثيراً بعد التغييرات التي حدثت في الإدارة والانقسام والشتاق الذي نجم من ذلك ، كما سعد سلى إردباد سوء الحالة بديد ما كان مدحرا من أموان في ثام الجرال كبير ، ثم تلك الوعود التي نصحتها أوامر مو اليومية بشأن المعنى في دفع مرتبات الحد بصورة منتظمة ، وقد أسرف مو في بدل هذه الوعود بإسرافاً عظيماً مع صعوبة تحقيقها ، أصب إلى ذلك كله تلك المشكلات التي كان من المتوقع حتماً أن يواجهها حلب مو في قيادة الحلقة العامة ، وهضلا عن ذلك فإنه لم يكن من المستبعد نتائجاً بالرغم من كل ما تقدم أن يظهر منه تشبته في قيادة الحلقة ، فسود الفوضى واحتلال النظام في الجيش ، لذلك وجد ربييه أنه من الحكمة والصواب أن يرضى الاشتراك في كل تدبير ، يفضى إلى عزل مو ، أو إلقاءه من عليه وحده^(١) ، وأمام استمرار رسده على موقفه استقر رأي القواد العارضيين على الاكتفاء بحادث خطوه من شأنها الحد من نشاط مو ، وسدده من ث روح لالتسليم في الجيش ورياك إدارة البلاد ، وذلك بإهداء الصباح له خلب .

خطوه ٦ ربيع

اتفق القواد فيما بينهم إبدن على عدم موعد لمقابلة مو ، محتجين ، لتعبد عزمهم فاضاروا في أول الأمر يوم ٤ ربيع من سنة الجمهورية التاسعة (٢٦ أكتوبر ١٨٠٠) كما اتفقوا فيما بينهم على « الأسباب » التي عولوا على ذكرها للقائد العام كعديريه د محمد هذه الخطوه ، ولخص الجرال ربييه معه هذه « الأسباب » التي قال إنها أفضت بمواد لضرورة السعي لمقابلة مو والتحدث إليه في شأنها^(٢) ، وكانت هذه أساساً موعنة منها ما يتعلق بملك اسدع التي استحدثها مو في الإدارة ، ومنها ما يتعلق بمسلك مو نفسه ، فقد شكاه مواد من « شذوده » تظهر في معاملة عديريه من رجال الحلقة كان من بينهم هؤلاء القواد أنفسهم الذين درج مو على توجيه أقصى عبارات التوبيخ والأتايب لهم على أنهم الأمور وأغلبها فيه ، وهضلا عن ذلك فقد احتار مو في « عطيه » التي نصحتها أوامره اليومية إلى الجيش أسلوباً خاطئاً اعتقد أنه كعمل يوقع الحدود أن من أخبر لهم أن يحولوا لخلق الحسن الكرسم كأما كان هؤلاء شرادم من ثام حلوا على الشر لا يعرفون للشرع معنى ولا حلاق لهم ؛ حتى يدمر الحدود من ذلك تدميراً

شديداً . هذا فيما كان لا يقل استياء الأهالي أنفسهم وتذمرهم عن استبداد وعصب الجيش لأن مو سرعان ما قذف الرعب في قلوب المصريين بسبب ما استحدثته « عفرته » من دم ، وسحق حياله القاص من إصلاحات . جعلت هؤلاء عمارون بالشكوى من فائدة سلم كانوا قد انظروا بعقل إسلامه أن سلم الخير كل الخير على يده ، فاقب هذا الأمل يأساً حتى ملأ الحزن نفوسهم لعدم اصطلاح قائد مسيحي بأعداء الحكم بدلا منه . أنه ذلك ما صار يشعر به الشيخ المهدي على وجه الخصوص من استياء عظم ، وهو من الذي اتفقا على التعاون مع الحكومة^(١) . وعي عن انسان أن المصريين كان في وسعهم اصطلاح مصر والأمان والرضا بحكومة مو على يدها قلم ، وهم الذين تعودوا على احسان الظلم والحرمان الأبد والملك ، ولكن تلك الفترة البسيطة التي حملهم يشوقون حلها مراد الحكم الذي أقامه كل من بوارت وكثير على أساس من القوانين والأنظمة الأوروبية محمد على انقاره بين آدم هدى لغندس وبين أيام مو ، وحملهم يشعرون بشدة ما حل بهم من نؤس وشقاء على يده .

وسكن القواد ما تشاء أن أحوارهم مو إلى موعد آخر ، لأنه حدث في من اليوم الذي احتاروه لمعالمة أن وصل صابط من صولون محمد البريد الفرنسي^(٢) . فبريت اقواد حتى تقوا على ما جاء به هذا الصابط من أخبار و تعلق بمقر عليه رأي الحكومة في باريس بشأن تعيين قائد عام جديد للحملة بعد مقتل الجنرال كبير ، ولكم سرعان ما تنمو أن الرسائل الواردة كانت لا تزال مفعونة باسم الجنرال كبير^(٣) . فعرو عدم إرجاء اللقائه ، ثم رادهم افسا صرروا ذلك أن مو مالت أن ادع على الجيش في أمر يومى في ٦ ربيع (٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٠) الأحجار الواصلة من فرنسا مع « إعلان » عام للجيش بأشده فواد الحملة وصداها وجودها أن يسوا خلافاتهم ، وأن يمدوا المدرعات الحربية ، وأن يصافروا جميعاً على مقاومة « اللوامر الدينية » لأنه وإن كان من شيعته القوم مقدما على حد قوله — عن جميع أعدائه الشخصيين ، فإنه لا يسهه إلا أن يعادى « أعداء الجمهورية » بسبب الشدة والصرامة^(٤) . وكان السبب في صدور هذا (الإعلان) الذي تصفه الأمر اليومى أن الجنرال داستان Destaing أطلع مو عزم القواد على مقاومته ، وكان داستان كثير التودد إلى مو ، كما أن مو

Ibid 126 (١)

Reybaud VIII 95 (٢)

Reynier 129 (٣)

Rigault 201 : Ibid 129 (٤)

قد اصطفيه دون سائر زملائه^(١)؛ فوهم مو أنه إذا نشر هذا (الإعلان) فإن القواد سوف يحدون فيه رادعا يجمعهم من محاولة معالته^(٢)، ولكن سرعان ما جاءت النتيجة على خلاف ذلك.

فقد تصمت الأخبار التي أداها مو في أمره اليومي أنه قد بات من المنتظر عقد سلام دريا، وأن الوطن لا يزال يذكر أسماء البعدين^(٣)، وكانت هذه أخباراً طيبة لاشك في أنها سوف تبعث للطمأنينة إلى نفوس الجنود، فيصرف هؤلاء إلى القيام بأعمالهم العسكرية في هدوء وسلام، لولا أن مو أفسد ذلك كله بنشر إعلانه في ريل هذا الأمر اليومي، فتحدث عن وجود خلافات وقسمات في الجيش، وقضى سمعه هذا على ذلك الهدوء الذي كان يشهده؛ فعلق الجنود على مصيرهم، كما أن القواد لم يروا في نشر هذا (الإعلان) إلا متاوره قصد بها مو تأليب الجنود عليهم^(٤).

عنى ذلك فقد صبح عزمهم على طلب مقابلة دون إسماعيل فاجتمع القواد الذين كانوا باهرة وقتئذ في برن الجوزل ليلار. وحصر هذا الاجتماع كل من رينيه وداماس، لاوس وفرديه وسار، وفر رأسهم على الذهاب إلى مو في الليل والساعة. ثم وافق مو على الذهاب معهم، ولكنه عزم عزمه فحذف في الطريق وبعد ساعات معدودة فقط من صدور الأمر اليومي كان هؤلاء القواد في حصره اخبر ل مو في مقر القيادة العامة.

وقال مو القواد، والهم وانكسر بادبان على وجهه؛ ذلك أنه كان عثى من أن دور عزم هؤلاء المطاهرين لتأمر على شخصه، واعتقد أنهم ما حصروا إليه، لا ليحاووه على الاستقالة من القيادة بمختلف وسائل الضغط والتهديد^(٥)؛ أو أنهم حصروا للمص عليه حتى يقدموه للحاكم أمام مجلس عسكري^(٦). وعلى ذلك فإنه ما بين له أنهم إنما جاءوا لإظهار ندمهم لحسب من إدارته، وإفناعه بالعدا كثير من الأسلحات التي استحدثتها، والتي نشأت في واقع الأمر من اغتار مصر مستعمرة سية، ثم عزم شكايهم الخاصة عليه، حتى امرحت أسرار وجهه.

وكان حديث القواد حديثاً طويلاً عليه بوجه كثير من الهم إلى قائد الحملة العام

Reybaud VIII 95 (١)

Martin II 158 (٢)

Ibid 158 (٣)

Reybaud VIII 95 — 6 (٤)

Martin II 161 (٥)

«الوقت» ، حولي لكلام الخبر الرئيسي^(١) مبيها مقدار الألم الذي حرق في مؤسسه سبب ما شهدوه من آثار الانقسام التي في جيش الشرق . وذلك بعد أن ظل هذا الجيش يعيش في هدوء وسلام مدة العامين السابقين أيام بونارت وكابر . ولما كان القواد قد لارموا الجيش بعد أن بدأت تلك المارك التي حصوا غمارها مع حوهم ، فاستطاعوا أن يرقوا عن كثب مبلغ ذلك الاتحاد الذي ألف بين قلوب الحدد ، فقد وحدوا التزاماً عليهم أن يحثوا أسباب هذا الانقسام ، ويصلوا إلى برته . وقال رئيسه : إن البحث سريعاً ما يقص إلى معرفة منشأ هذا الانقسام الذي لم يكن سوى إحدى نتائج تلك الدع التي استحدثتها من ناحية ، ثم الطريق الذي سلكه مع أفراد جيش الشرق بعد أن انتهت إليه « بصورة مؤقتة » قيادة الحملة العامة من ناحية أخرى ، وقد هدام التفكير إلى أن حير ما يمكن عمله لرجوع الاتحاد والتآلف وأبعد حسن النظم هو أن يحدد من إلى إلقاء بعض تلك الأوامر التي أصدرها ، وإبطال طاعة من القرارات التي اتخذها وحاش جميعه ماقصة للصالح العام ، وفصلاً عن ذلك فإن الواجب يقتضي من أن يترشد في مسلكه في السبق هو بين الجمهوريه الفرنسيه . وكل تلك الداعي التي تعمل بها لهدايا العسكرية ، كما أن عليه حل أي شيء آخر أن يضع حداً للأوامر التي اقتضت فيها^(٢) .

وكان القواد الهم بعد من غير حساب أو وارع ، وسوا هذه التهم جميعها على ما عرفوه من رعة منو الصرخة في تأسيس معصرة في مصر فقرأوا عليه «مذكره» أعدوها في هذا الشأن من قبل^(٣) . جاء فيها : « إن اعتبار مصر مستعمرة فرنسية ضمن عر صاحب في الوقت الذي أكد فيه دائماً كل من بونارت وكنتر للامنيين أن هذه البلاد ليست سوى رهية أو ودعة في أيديهما ، فصلاً عن أنه كان من المتعذر على الحكومة الفرنسية في هذه اللحظة دنسها بسبب ما جرى في أوروبا من حوادث ، إلا أن بعد مصر بلاداً مفتوحة لحسب . وذلك حتى يمكنها أن بعيد من اسلاكها لحد البلد بعد ما يحين موعد عقد السلام العام في أوروبا » ، بل إنه لم يكن من المصلحة تتأ الإصرار على الادعاء بأن مصر مستعمرة فرنسية ، لأن من شأن هذا الادعاء استئثار الأبرك لمصاعبة جهودهم وتآليب جميع الدول ضد فرنسا^(٤) ، فإذا اتفق الرأي على

Reynier 202 (١)

Ibid 131 (٢)

Rigault 202 (٣)

Pièce. Div. 564 (٤)

سار فتح مصر « نطقاً مؤقتاً » ، ذات من استعذر على مو أن يعبر شيئاً من فواحي بلاد أو ما قصه به العرف وأعرته عادات أهلها ، لأن حدوث هذا التعبير ، مهما استمر وراء تلك الإصلاحات التي استحدثتها مو ، سوف يحجم عنه ارددد قلق تلك الدول التي ناصبت فرنسا العداء ، ثم يعود سكان البلاد من كل ما هو فرسى ، لا سيما وقد أشغل مو كاهل هؤلاء بالصرائب المعادحة التي فرضها عليهم ، وأشد هذه سوءاً ولا شك صربية مشايخ البلد أو العمد . أصعب إلى هذا كله أنه ما كان يسمى قط أن يطلب مو من الفرنسيين أن يدفعوا أمة صربية^(١) وكانت هذه الملاحظة الأخيرة عتبة رد بريخ على ما كان مو قد فعله حل هذه العقالة باسم ثلاثة حسب ، عمد ما أصدر أمراً في ٣ ربيع بقصى « على جميع الأفراد لديميخين بالبلاد مهما كانت مستقيم ويدخل في عداد ذلك الفرنسيون أنفسهم - يدفع كل صرائب التي يمس القانون عليها^(٢) » .

وعندما أتم القواد كلامهم في هذه المسألة الجوهرية ، لبيان أنه من النعذر اعتبار صر مستعمره فرنسية ، انتقلوا إلى ذكر تلك الصرائب التي شكوا منها ، فاهمه ريبية داماس ولايوس بأنه « أظهر الجيش فيما أصدره من أوامر يومية وكأنه عصانة من مدع الطريق حسب ، كما أدار قيادته العامة وكأنها مندى من المسندات العامة ؛ ثم يحترم القواعد المتبعة ، فصار يرأسل مع صدر المردوسيين مباشرة » ثم اهتمه بمواد تدبير المؤامرات وراحو يجعلونه على ذلك تمعياً شديداً ، وساءهم أن يعزل مو موطنى الحملة ويعزل من الخدمة من يشاء ، مع أن الحكومة الفرنسية هي التي قدمت هؤلاء وطائهم ولا يملك مو وحده حق عزلهم أو فصلهم ، لأنه لا يستطيع أن يسمع منه فوق القانون . ثم تناولوا علاقة مو بالجيش وبلاد التي تحبها جيش الشرق ، دولوا إن الواجب يقتضيه أن يقلع عن الادعاء بأنه يمثل الجمهورية في كل شيء ، أنهم وإن أحاروا له حق تمثيل الجمهورية فيما يتعلق بإدارة هذه البلاد ، فإنه من ناحية أخرى لا يعدو كونه « قائداً » حسب لجيش الشرق ، ولا يحق له لذلك أن يعمر أحداً فيه حكومة الجمهورية وظيفته دون محاكمه أولاً أمام مجلس عسكري ؛ والأخرى به على كل حال أن عارس ما يتمتع به من حقوق محدودة وعنده قائد الجيش العام حسب . ولا تعدى تلك الحقوق إخراج الترقية في مختلف الرتب العسكرية في ليدان ، على أن سحق دائماً صاحب الترقية رفع درجته عن حذارة محبحة ، كما لا يجوز أن يحدث هذه

Reynier 127 (١)

Ibid 130 - 1 (٢)

الترقيات إلا في نطاق ضيق وقدرة ما تدعو إليه الظروف القائمة فعلا . وصلا عن ذلك فلو أنه حدث أن أعلنت الجمهورية هذه البلاد مستعمرة قريبة لكان تكييف إدارة هذه المستعمرة من شأن رجال الحكم في باريس وحدهم . وواحد من أن يتمتع عن سبق الحوادث فلا يجد من لرعة في إشباع رواه فرصة لاستحداث هذه السبع الكثيرة مدعوى الإصلاح . ولما كانت الحكومة الفرنسية معها حتى هذا الوقت قد امتنعت من اعتبار هذه البلاد مستعمرة من مستعمراتها ، فمن واجب من كذلك أن يحترم استقلال كبار موظفي الإدارة ، فلا يدرج صراف الخلة العام أو مدير مهنيتها بقدوم أية حسابات إليه ؛ ومن واجب من أن يعتبر هذين الموظفين على وجه الخصوص من ذوي الحصانة التي جعل عمل عرلها أو استعادها أمراً مستعصياً^(١) .

ثم شكوا القواد من مسائل أخرى كانت أقل خطورة من سابقتها ، فتحدثوا عن (الدخولية) ، وهي الصرية التي فرضت على العلال والأعدية ، وعم منها ارتفاع أثمان ارتفاعاً فاحشاً ، كما طرّفوا موضوع الترعاب التي جمعت لإحياء ذكرى الجبال دبريه ، وإبدال من على تأييد هذا العمل ، والاشترائك في إحياء هذه الذكرى ، فيما امتنع عن اسرع شئ لإقامة نصب بذكرى للبحرال كبير . وكان اسكيبريون قد كفوا داماس بمجمع الترعاب اللازمة لذلك ، ثم يصدر من أمراً بوجوب يحمل إلى الجيش ما هذا المشروع المرر عليهم ، كما فعل من أهل إحياء ذكرى الجبال دبريه ، فصلا عن امتناعه عن التبرع^(٢) .

وأصمى من في أول الأمر لسلك هذا الكلام الطويل وقد عقدت الدهشة له . فكان يكتبني في رده إعادة بسطة ، أو الإجابة بملء فم أو لا ، حتى إذا تبين من خلال الحديث أن القواد لم يحثوا إليه لهدوده أو يرغموه على اعتزال منصبه ، هذأت أعصابه تدريجاً واستعاد ثقته بنفسه رويداً رويداً ؛ فاستطاع أن يجيب على دعوى القواد بأن مصر بلد مفتوح بحسب تعاريف تطهرة فاطمة ، فقال إنه إنما يعد مصر مستعمرة فرنسية ، وأن لديه ما عمله على الاعتقاد بأن وجهة نظره هي الصحيحة آية ذلك ما وصله من رسائل من وزير البحرية الفرنسية تحوله الحق في إطلاق اسم المستعمرة على هذه البلاد ، وإبه لذلك ما عمد إلى مطالبة مواطنيه الفرنسيين بدفع الضرائب إلا لتعديداً لما يجري به العمل في سائر المستعمرات الفرنسية من قديم الزمن^(٣) .

Rigault 203 - 4 . Martin II 159 ' Ibid 130 (١)

Villiers 261 (٢)

Rigault 202 (٣)

واحتدم النقاش بينه وبينهم ، ولكن مو . القدي عرف باللاقة وإتقان أساليب غاورة ، ما لبث أن أعرف بحاطبه عن هذا الموضوع الجوهري الذي كان وصولهم به إلى قرار حاسم مساعداً لمصلحة مو . ومن شأنه أن يهدم ذلك الصرح الذي بذل وقصاري جهده لتشييد دعائمه . وعلى ذلك فقد انتقل القواد إلى الحديث باستفاضة . مسائل كانت مثار شكوك شخصية وفردية ، دون أن يبرعوا من مو حوالياً حاسماً . كل تلك « المدع » والإصلاحات التي حاولوا الاستئصالها . وما إن انتقل القواد إلى وسط شكايهم الخاصة وعرض مطالبهم حتى استطاع مو أن يحد بحرجاً سهلاً من أفعاله باسطاع الهدوء والحرس على تطيب حواطرهم ؛ ولم يحد عصا في بدء عود الخيلة ؛ وعول مو على مساعدتهم حتى إذا سهب هسهبه الزوطة عرف كيف يحل من مناوئته ويقضى على نوايرهم .

وعلى ذلك فقد تظاهر مو بأنه لم يصله أي خبر عن الاكتشاف من أحد إحياء دبري كبير ؛ ولم يبد عليه أي ارتعاج عندما كذب القواد دعواه ، بل وعد بالاعلان هذا الاكتشاف في أمر يوم يصدره إلى الجيش . من على جمع التبرعات اللازمة . دكرى الفائدين دبريه وكبير معاً وفي وقت واحد . ووافق القواد على فوطهم (الدخولية) كانت سبب ارتفاع أثمان المواد المعدنية ووعده بالاعمال ما يكفل من جربات لحصول الجهد على كفايتهم من الأعداء ، وعلم مو في آخر الأمر إعطائه . من الوقت للتفكير حدياً في عرصه القواد من مسائل ، ووعده بالاحاطة على . لهم كساة بعد فترة وجيزة من الزمن ^(١) ثم ما لبث أن استدعى القواد بغائته في . التالي (٨ ربيع) ، وأعلن أنهم عزموا على إلغاء أو تعديل بعض القرارات . فة ، ولو أنه يدرج بوجوب التريث حتى يتم هذا الإلغاء والتعديل شيئاً فشيئاً . قد يترتب على اتخاذ أي إجراء سريع من فتنة واضطراب لاسموع لها . ثم . مو فرصة احتياج القواد به يوم الاحتمال ما بين الحزب دبريه عسكرياً (١٠ ربيع) . و (١٨٠٠) فطمأن حواطرهم ، ووعده بإبطال تحصيل ضريبة بيت المال من الفرنسيين ، والنظر في إلغاء بعض الإحراجات السابقة . ثم طلب إلى صراف الجيش أن صدر أمراً يومياً بإبطال هذه الضريبة ، كما أكد استعدادهم لتهدئة كل ما طله القواد في مقابلتهم الأولى له . وكان مو قبل الاحتمال يومين قد كذب إلى الأحرار رئيس أركان حربه الحدي . بعد انهاء داماس — يطلب إليه أن يعهد بحصص

بمضى العام إلى هكسور دور وأن برقع مرتباته ترضة له ، ومن دور هذا المنصب^(١)
وأقام الجيش في أول نوفمبر احتفلا مهياً في سهل القصة لتأبين الجنرال ديريه^(٢) ،
وبدا لأول وهلة أن أسباب الخلاف بين مو وقواده للعارضين سوف يقضى عليها .
وفي ٣ نوفمبر علم ربييه أن مو قد ألقى الأمر الذي نص على تعيين صربية بيت
الملك من الفرنسيين . وفي اليوم نفسه ماورى الغدا في منزل بيار مع حاشية لقواد فوجد
في ثوبه ذلك أنه لن يدعو للاعداد ذلك (المجلس الخاص) الذي كان قد صدر أمر
بإيداعه في ٢ سبتمبر . ولم يعد أصلاً إلى مو ما سبق ذكره . وفي ٨ نوفمبر برز مو
بوعده في صدور أمر يوصى بفتح بمقتضى الاكتشافات اللازمة لاقامة نصب تذكاري
لكل من دريه وكليير^(٣) .

غير أن ذلك كله لم يفتح لكليير بين أن مو كان يعنى حقيقة بإزالة أسباب العور
أو أنه يود استالة القوم إليه . وساد الاعتقاد بينهم أن مو إنما كان يهدف لكسب
لوقت طيب ، ويريد دفعة من الوقت ليعمل الطرقات بما يجب عليه عمله قبل انشورطاق
وحدة مطب لقواد جمعها . وليس ثوبت الذي ماورتهم الشكوك في وإيا مو الأسباب
لإقامته دليل على صدق ما فهم في حديثه . من الاحتفال العسكري ، الذي أقام لتأبين
الجنرال ديريه ، فلاحظوا أن المكان الذي وقع عليه الاختيار لتلك الاحتفال في سهون
انصبه كان قريباً من ميدان معركة هلو ، وليس التي انتصر فيها كليير لا فاصح مصر
مره ثانية ؟ ، وما كان وجود الجنديين فرساً من ميدان المعركة من شأنه أن يذكر
الجنود وفاة قائدهم ، الذي اعلى في نفس اليوم امضى سقط فيه ديريه في معركة مارنحو .
فيشعر الجنود باغتراب والامس ، فقد استمر انكليريون أن يجد المشككون في تأبين
ديره ما يعنونه كذلك عن الجنرال كليير ، ومع ذلك فإن أحداً لم يذكر كليير الكلمة .
كما أن أحداً لم يذكر في تكريم ذكره في هذه المناسبة ستر بعض الزهور على قبره^(٤)
بل إن هذا الخلل ما لبث أن أبهى في صمت عميق ، لأن مو قرر أن يشكلم رجل
واحد بحسب في تأبين ديريه . فأتى فوريه Fourier خطاً طويلاً^(٥) أشاد فيه بذكر
ديره ، فأشبه في وصف مناهه ، كما عدد كل تلك الخدمات الجليلة التي أسداها

Rigault 204 : ibid 125 (١)

Phéc. Div. 572 — 3 (٢)

Rousseau 431 (٣)

Reynier 133 (٤)

Reybaud VII 101 (٥)

لوطه^(١)، وأعد فوراً ذكر الجوانب الكبير . فإزم القواد الصحت وقد أمصهم هذا الإفعال . وأعص الحبل وقد راد مورهم من مو وعظمت كراههم له

وفصلا عن ذلك فإنه سرعان ما تبين لهؤلاء القواد المعارضين وأنصارهم أن مو إنما كان يضرهم لهم العداء ويريد التخلص منهم . آتة ذلك رغبته في إصدار تاليان على وجه الخصوص ، حتى إنه أعد له حوار مع إلى فرنسا من ٢٨ أكتوبر ، ونجح في حملته على معاداة البلاد ، فاستطاع بذلك أن يبعد عنه أشد المعارضين خطراً عليه وأنفواهم مراساً في تأليب المعارضة ضده^(٢) . ثم ما لبث أنه كشف عن حقيقة نواياه ضد ما طهق يسمى في الأيام التالية لإقناع زعماء المعارضة ، لأحرار دامن ولاوس وفرديه ، إلى فرنسا ، وقرعهم عنهم العودة إلى الوطن . وقد رفض هؤلاء جميعاً معاداة البلاد وقتئذ ، لأنهم كانوا ربيسة « كانوا لا يريدون أن تفقد فرنسا مصر فتتسبغ هذه البلاد بسبب ضعف اليد المظرة على الجيش^(٣) » . وعلى ذلك فإنه بدلا من أن تسهم الأمور في « مستعمرة » مو ، سرعان ما وجد قائد الحملة العام أن الحق قد أخذ يرداد كعهرارا ، بسبب كل تلك السحب المتعددة . وكان منشأ هذه الصعوبات التي صادفها أنه إنما يشغل منصب القيادة العامة بصورة مؤقتة .

تثبتت منو في القيادة العامة .

وقد فطن مو إلى أنه لا سبل لإيجاد المعارضة ضده طالما كانت قيادته « مؤقتة » . ومن المحتمل أن تصدر أوامر الفصل الأول من باريس بإحراجه من منصبه ، وإسناد قيادة الحملة العامة إلى رجل آخر . ولذلك فقد اعتمد مو في اختيار انتقبات التي صادفته على كياسته لحسب ، فأقن أسلوب « الإدارة » ، وبدل كل وما سمع من جهد وحيلة حتى يتجنب معية الاصطدام . السافر مع القواد الدقيقين عليه ، وراس نفسه على احتمال « مشكاهم » حتى تحصل حكومة الفصل الأول في أمر قيادته . ووجد من الحكمة وأصالة الرأي أن يعصى قديماً في إصلاحاته وتنظيماته ، صارياً عرس الحائط هذه المعارضة العوية ضده ، كما هداه التفكير إلى أنه من الخير له أن يفعل الحديث عن هذه الإصلاحات والتنظيمات فيما رسله من أبناء إلى حكومته^(٤) ، فلم يكتب عنها شيئاً منذ أن

(١) Bricard 442 — 6

(٢) Regault 201 ; Rousseau 337 — 8

(٣) Reymer 133

(٤) Ibid 133

أعلنت (أوربريس) في ١٠ يوليو ١٨٠٠ محمل أنهاء الاعتداء على كليبر ، مع بيان موحز عن وضع البلاد العسكري^(١) . وعنى ذلك فقد اسمح مو في كل ما يثبته من رسائل حتى أواخر شهر أكتوبر إلى الفصل الأول وإلى وربري الحربية والخارجية في باريس عن ذكر شيء من أخبار ذلك الانقسام الذي ظهرت بوادره في الجيش ، منذ أن تسلم القيادة العامة ، أو نشاط المعارضة صده . فقال عند ما كتب إلى نوبارت في ٢٤ سبتمبر^(٢) ، « إن الظروف أصبحت إخراج داملس من رئاسة هيئة أركان الحرب ، وتعيين الجنرال لاجرايج بدلاً منه » ، وطلب إلى الفصل الأول أن يصدق على التعيينات التي أوجراها وقد كانت هذه كما اعترف مو تعيينات كثيرة « وإن كان ذلك بسبب الظروف التي حثت إخراجها » . واكتفى مو في رسالته الجديدة إلى كارنو Carnot وربر الحربية بأن تقل إليه خبر تعيين الجنرال لاجرايج رئيساً لهيئة أركان حربه^(٣) . كما سهر فرصة الإفاضة في فعله من إصلاحات يسعى منها توفير اعتداء وانكسار للجيش ، وعمر المستشفيات بكل ما يلزم بدواء المرضى والجرحى ، والعناية بأمرهم ، فذكر كيف أنه اضطر إلى معاملة المهندسين والموردين وفريق من رجال الإدارة الذين ثبت عشمهم وبلاغهم معاملة صارمة شديدة ، حتى إن هؤلاء سرعان ما تقموا عليه وصاروا أعداءه . وإن كان مو كما قل لا يمسأ أعداؤهم ، طامح كان هدفه صون المصلحة العامة وحديثها^(٤) . وهكذا كانت هذه العبارات الموحرة البسيطة كل ما شاء مو أن يذكره للحكومة في باريس حتى أول ربيع من سنة الجمهورية التاسعة (٢٣ أكتوبر ١٨٠٠) عن ذلك الخلاف الذي استحكمت حلقاته بينه وبين قواد الحجة وأكثر رجالها .

ولكن الخصومة ما لبثت أن اشتدت بين مو وبين قواده ، ثم امتدت شقة الخلاف بين الفريقين حتى بات من المنصهر سكران وجود الانقسام أو إحقاؤه ، وبخاصة عندما عقد القواد اجتماعهم لتدبير عزل مو من القيادة أو حمله في القلعة . واستطاع مو الذي حصر عهد مؤامرات الثورة والإرهاب في باريس أن يعرف حركات أعدائه ، ولا يموت تدبير من تدبيراتهم ، كما أنه استطاع أن عذب إليه بعض رجال الجيش ، كالجنرال داستان والناشط شاميه Chamie ، صار هؤلاء يعاملون إليه الأخبار ناطا

Pièce. Div. 477 - 83 (١)

Rousseau 344 ' Ibid 515 (٢)

Pièce. Div. 519 (٣)

Rousseau 351 (٤)

ووجد مو أن الصمت أو الإدارة قد بات لا يجدى نفعاً ، وأن من واحة التسليح بالحيلة والحدس ، واتحاد الأهنة للدفاع عن نفسه وعن إدارته أمام مواطنيه في مصر بوى فرنسا على أنسو ، ثم أمام الفصل الأول قبل أى إنسان آخر . وعن ذلك فقد سد مو حظه الأولى . وشرع منذ ٢٣ أكتوبر يتياً لإرسال الحمرال فيال Vial واصط لاروسكى Lazowski إلى باريس ، حتى يشرح لحكومتهما حصمة الموقف في مصر^(١) ، وجملة رسائل إلى الفصل الأول وإلى غيره^(٢) من رجال الحكم والأصدقاء في باريس ، وهدر فيال القاهرة في ١٢ ربيع (٣ نوفمبر) ، ثم أوقع من «الأسكندرية على ظهر (لودى) » بعد توسيق هلع طولون في ١٤ ربيع (٥ ديسمبر) وبعه لاروسكى^(٣) . وشرب الحريدة الرحمة (اموينور) Moniteur رسائل مو في حملة أعداد من أعداده . شداء من ٢٥ ربيع من سنة الجمهورية التاسعة (١٦ ديسمبر^(٤)) وفي هذه الرسائل أشار مو إلى وجود جماعة ماهرة للاستمرار في مصر ، اضطروا إلى ماصهم حالاً شديداً حرصاً منه على المصلحة العامة ، ذلك أن ما بذله من محاولات للمحب على العقود الكثيرة التي اعترضت إصلاحاته إنشائية والإدارية سرعان ما جعل العميين وأصحاب المصالح الشخصية يصوبوه العدم^(٥) . وتلك حقيقة في وسع فيال ولاروسكى أن يسطروا لفصل الأول . ثم طلب مو من بويرت أن يسطره كتاباً به من عبارات التأييد « ما يحمل كل أولئك الذين يحب أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم على احترام النظام وعدم الخروج على طاعته^(٦) » . وفي الوقت الذي كان فيه مركز مو بوضعه قائداً « مؤقتاً » لجيش الشرق قد بلغ صوبى الحرب ، حتى اضطروا إلى إرسال فيال ولاروسكى إلى باريس ، حدث أن وصل إلى لاسكندرية صابط من طولون يحمل بريد فرنسا ، وكان وصوله في نفس اليوم الذي غادر فيه فيال القاهرة . وكان هذا البريد يحمل أنباء شتى ، منها استئناف القتال في القاهرة بعد انتهاء تلك الخدمة السبطة التي أرست عقب انتصار الفرنسيين في معركة ماريجو ، ثم سقوط مالطة في أيدي الأتليخ في ٢٥ ستمبر^(٧) ، وعقد السلام بين

Reybaud VIII 101 (١)

Rousseau 366 (٢)

Piéc. Div. 504 — 6 (٣)

Rigault 228 ' Martin II 162 (٤)

Reynier 134 (٥)

Rigault 205 (٦)

Malus 199 (٧)

فربما وأهمل تونس والجزائر^(١). على أن أهم ما حمّله هذا الرسول كان ولا شك ذلك الأمر الذي أصدرته حكومة باريس « لتثبيت » موهائيا في قيادة الحملة العامة وندد موه بإبلاغ ذلك السأ إلى الجيش ، فأصدر أمراً يومياً في ١٣ ربيع (٤ نوفمبر ١٨٠٠) يحسب به انتقال قيادة جيش الشرق إلى صورة رسمية^(٢). وما إن وصل الرسول إلى القاهرة بعد ذلك بيومين حتى سلم هذا الأمر الحكومي إلى موهوراً^(٣).

وأحدث « تثبيت » موه في القيادة أثراً عميقاً ما دت أن تطرب آثاره ليس في موقف رئيسه ورملائه من القائد العام نفسه ، بل كذلك في موقفه من نفسه من المواد المتأخرين عنه ، والذين حملوا صده نواء المعارضة الشديدة منذ أن ولي قيادة الحملة « مؤقتاً » من حوالي خمسة شهور مضت . فاستوفت على هؤلاء المعارضين لدهشة والخيرة انعطية ، وطمعوا بالسوء « الأعداء » حكومة الفصل الأول التي أقدمت على هذه العملية . وعللوا ما حدث بقولهم إن كل ما كانت باريس تفرقه عن أخبار موه أنه من القواد المحطوطيين في الجيش ، بدليل احتياله بقيادة الحملة العامة ، ولم يحسب إلى علم الحكومة أن الجيش بأسره متفهم منه ، وأن موه يشمل مصاب أقباده لخدمة إلا بوصفه أقدم القواد الموجودين في لربة العسكرية عند وفاة كبيره ولا حد في أن الحكومة اعتقدت أنه قد أدرك بصيرة من المرات كفي لاصطلاسه بأسباب الحكم والإدارة عمارة وكفاءة ، فضلاً عن أنها انتظرت من موه أن طلب النصح من رملائه القواد فيما يتعلق بالشئون العسكرية املة خبرته بصون الحرب والقتال ، كما انتظرت منه أن يبدل قصارى جهده لشد أو أصر الألفة والاعتماد بينه وبين رملائه واستمر القواد يصرون هذه الخطوة على نحو ما طاب لهم أن يسروها ، وقالوا إن الحكومة اسأقت إلى ذلك بسبب مداع عن اعساق موه الدين الإسلامي ، وتوقعها أن تحدث إسلامه قلوب أهل البلاد إليه ، فبلى من تأييد هؤلاء له ما يكفل انجاح لإصلاحاته الإدارية وتبطينه لسيالته ، وكان للحكومة في باريس الممد كل العذر في توقع ذلك كله بسبب تقارير موه للبيعة ، التي حجب بها الحكومة ، ثم ما أداعه روراهوت — على رعمهم — من وجود جماعة مناوئة للاستعمار في مصر ، وهو قد اعتصب لنفسه كل فصل فيما سم من إصلاحات في هذه البلاد من وقت معادرة بوارث لها ، كأنما كانت

(١) المرفق ٣ ١٥١

Rigault 210 (٢)

Reynier 137 (٣)

هذه كلها من صفة هو وحده ، فمخط كبير حقه وسى خطه ، كما ادعى دون مرر أنه
 « في إدارة حكومة هذه البلاد لعائمه أهلها حسب » ؛ وكذب على الحكومة
 عندما وصف الجيش بأنه في حال يرحى له ، ثم ركب من الشطط فألقى أصدقاء كبير
 وخدمهم تهمة مساوئه لاستمرار في مصر . وساعد على رواج مقترانه وصول رسائله
 ونقاربه إلى فرنسا . ووصلا عن ذلك فبه ما مع الفصل الأول من ثلاث الخلافات
 القائمة بين مو وبين سائر القواد حتى حتى من ازدباد الانقسام في صفوف الجيش إذا
 هو أقدم على احتشاد قائد آخر لقيادة الحملة العامة بدلا منه . أصب إلى هذا كله أنه كان
 من سوء التدبير الصمد على عرله من الفساده في وقت ظهر فيه مو بمظهر ذلك المستعمر
 الذي شيد صرح استعموره الجديدة في مصر ، وتعهذ إلى جانب ذلك بالمخاطفة على هذه
 المستعمرة « للاحقة » ، وإثباتها في حوزة فرنسا ، فأدعت حكومة باريس إذن للأمر
 اواقع وراحت ربحو من ماء مو في صفة التحكك من إفساح الرأي الصمد في فرنسا
 عراما نقاء هذه المستعمرة في صفتها ، وث روح الحماس في الشعب الفرنسي حتى ينسب
 لها إرسال الجند إلى مصر لاستعموره الفرنسية الجديدة (١) .

ذلك كانت الأصحاب اتى دعوت في نظر القواد والجرال ربيبه على وجه الخصوص
 إلى تثبيت مو في افساده لعامة . وسواء كان ربيبه ورملاؤه على صواب في ذهبوا إليه
 في تمثيل تأييد مو في اعباده أم كان الفصل الأول متأثرا بما فعل بعوامل أخرى ذات
 صلة وثيقة أساسه الخارجية على نحو ما سيحى . ذكره في الفصول التالية ، فقد كان من
 الواضح أن قرار بومبارت جاء معارضا لرغبات القواد الذين سرعان ما وخذوا أنفسهم
 حسب ذلك في شر مآرى . فعد استند هؤلاء في معارضتهم انصاعة إلى أن مو إنما
 يتمتع بقيادة الحملة بصورة « مؤقتة » ، وفي وسعهم لذلك أن يعارضوه ما شاء لهم
 الهوى . أو تفقد الصدقة . — دون لوم عنهم أو تريب . أما وقد صدر قرار
 حكومي « بتثبيت » مو في اقيادة ، فقد بات براما عليهم احترام هذا القرار الحكومي ،
 وإلا عدت معارضتهم له ثورة صريحة ضد حكومة الجمهورية ذاتها ، وعلى ذلك فقد صار
 متعذرا عليهم التماس عظاهره من طرار تلك المظاهرة التي قاموا بها في يوم ٩ ربيع
 وقضى على كل أمل لهم في الاستحواذ على السلطة أو تمرر مصر جيش الشرق وفق
 رغائبهم مهما كانت أغراضهم باهمة ومعيدة . ومع ذلك فقد استصحب على القواد دفن
 أحقاد لاصي ، كما استصحب عنهم أن يفلتوا عن معارضتهم ، ولذلك فقد شغل هؤلاء

في القصر التالية بأمر من : أولها تدوير حطوتهم التي اعدوها في ٦ ربيع من سنة الجمهورية التاسعة مع إقامة الرهائن على أهم على حق في معارضتهم حكومة مو وفيما يتحدونه من وسائل لإظهار وجود هذه المعارضة في مصر ومصر معاً ، وثانيها الإصرار على رجاء بوارث أن يعزل مو عن الفساد ، أو أن يبحث في استدعائهم من هذه البلاد هناك (١)

وقال القواد في تدوير مسلحهم يوم ٦ ربيع إن هذه الخطوة قد حققت شرطاً مما هدى أمحاجها إليه ، فاصطاع مو الحكمة والروية في إصلاحه استعداداً وأخرى تعديلاً مخططاً في بعض ما أصدره من قراراته السابقة ، كما أنه وعد بإبطال العمل الآخر شيئاً فشيئاً (٢) ومع ذلك فإن استمرار المعارضة في رجمهم كان أمراً لا ماص منه لما ظهر من عدم حصول نتيجة وانسواء أعراضه ، ذلك أن مو لم يسمح بجمع التمرعات اللازمة لإحياء ذكرى الجبال كغير إلا بعد وثوقه من مو موافقه إليه الرسول الواصل من فرنسا حديثاً من أن باريس قد اشتركت في تعيين كليبر . وفصلاً عن ذلك فإن مو لم يشأ أن يرسل إلى باريس النص الكامل لتلك التقرير الذي وضعه كليبر عن معركة هليوبوليس قبل وفاته ، ثم سهر على إعادته بعد ذلك الجيران داماس (٣) ، فاستبعد مو عند إرساله كل ما يتعلق بحملة الجيش ضد وفاة كليبر وأعمل ذكر تشكيل تلك الفرق الإضافية التي صممت إلى الجيش كقوات مساعدة (٤) وأعد القواد المذكورة مسربة اعترموها إرسالها إلى الفصل الأول والحكومة الفرنسية ، لبيان الأسباب التي حملت ريبه وداماس ومرديه ولانوس وبلير على الاجتماع بالجبال مو يوم ٦ ربيع من سنة الجمهورية التاسعة ، للبحث فيما فيه صهان مصالحة حديث الشرق ، كما اشتملت هذه المذكرة على تفاصيل ما حدث في أثناء هذه النقطة بكل دقة . ولم تشأ القواد أن يوصوا جماعة على هذه المذكرة حتى لا يندو في صورة عريضة اتهام « إجماع » ضد مو (٥) .

وسمى القواد ليستميلوا إلى حاسهم زملائهم العديدين عن القاهرة ولا كان الجبال راضون حاكم دسباط من كبار مؤيدي مو من وقت تسلمه القيادة العامة

Rigault 205 (١)

Reynier 137 (٢)

Pièce Off 110 - 70 . Pièce Div 303 - 44 (٣)

Reynier 135 ' Pièce Div 574 - 7 : Pièce Off. 494 - 504 (٤)

Reynier 139 (٥)

في يوم ١٨٠٠^(١) ، فقد بدله ريبليه وداماس جهداً كبيراً لاسيما أنه إلى صروف
لعارضة ؛ كما أنهما حاولا إقناع قائد آخر هو الجنرال فريان صواب ما حدث
يوم ٦ ربيع ، فأرسلا إليه تفصيلاً هذه الخطوة وأسفرت جهودهما عن النجاح
عندما كتب فريان إلى داماس في ٧ نوفمبر يهتف مع ريبليه عليه على دفاعهما عن مصلحة
الجيش ، ويؤكد لهما انضمامه إلى إخوانه يوم ٦ ربيع لو أنه كان بالقاهرة وقتئذ .
ثم تسأل في ختام رسالته « متى تنهى هذه البدع للسعدنة وتستطيع العودة إلى
رسالتهم برفق السلام نحاحيه على الجمع حتى يصلوا إلى ما نوصو إليه أنفسهم ؟ »^(٢)
وكتب القود إلى أصدقائهم في فرنسا يتحدثون عن إدارة مو وإصلاحه ، فكتب
لأبوس إلى الجنرال لان Lannes في ٦ نوفمبر تطبيقاً على « فعال » مو مسالماً
« وماذا يمكن أن رجو إنسان من رجل يتعدى عليه الرجوع إلى فرنسا سبب ذلك
لأسم الجديد الذي اتخذه لنفسه في مصر وحواله لذلك من مطاردة دائية له عند عودته
إلى أرض الوطن ؟ » وفي ٢٤ نوفمبر كتب داماس إلى صديقه الجنرال مورو Moreau
« وإني لم ألق يقين أنه لا يزال في وسعنا أن نحرر « من الانتصارات » . ولكن من
اجتماع ذلك أن نضطر إلى الاستعجال وبعده يبدو أن تعرض الخطر ، قد يكون حتمياً
ولا تلزم عدته جداً عظيماً ، أمر محقق ، فلا جدال في أنه لو استمر النضال على ما « هذه
من شدة وصلاة فإننا سوف لا نثبت طويلاً حتى نرى أنفسنا وقد حلت بها المخرعة بالرغم
من انتصاراتنا » . ثم أرسل إليه تقريراً اشتمل على كل تلك الحوادث التي أرغمت الجيش
- في نظر داماس - على البقاء في هذه البلاد « للسكود » ، ورجاء أن - هي
« استدعائه إلى فرنسا » وفي « من اليوم الذي كتب فيه داماس رسالته إلى مورو ،
مث ريبليه بكتاب إلى هذا القائد معه يظهر فيه الأسف على حرمانه من حوصي غرار
لعارك إلى جانب مورو بسبب إقامته في مصر ، ورجوه أن يسعى لاستدعائه » إذا
كان لا يزال هناك ، يجب عليه فعله من أجل إنهاء الحرب » في أوروبا وقد كتب
ريبليه كذلك في ٢٤ نوفمبر إلى الجنرال فرينو Ferino يشكو من « البطالة » التي يمر بها
وهو في مصر من كتب أكابيل الحمد والفخر بالاشتراك في لعارك الدائرة في أوروبا
« رجوه أن يبدل قصارى جهده لاستدعائه إلى فرنسا » وفي رسالة إلى الجنرال سان
سير Saint - Cyr أكد ريبليه ضرورة إرسال قائد جديد بدلاً من مو إلى مصر كما

أكد ضرورة أن يتم احضار هذا القائد من غير أولئك للوجودين في مصر وفي نفس اليوم أيضا (٢٤ نوفمبر) كتب ربييه إلى بونايرت يشكو له من سوء الذي يدير دور الشقاق والتفرقة في جيش م يعرف حتى هذا الوقت غير الاتحاد وجمع الكلمة ؛ فقد اسس موكثيراً من القوانين غير الصالحة أو اللائمة لمعاداة أهل البلاد وتبليدهم وأعد قواداً عتوا ، ماحرماً الجميع وبغيرهم ، ولم تقدر شيئاً لمحاولات ربييه لإطلاع منو على ما يشع من تدمير وسخط بين جنود الحملة وبين الأهليين على السواء ؛ ثم بقي ربييه أن له يدأ في كل ما حدث ، أو أنه يقتظر تخفي مصلحة دائمة من ذلك ، أن يرى من الملائم أن تناسح له الفرصة له دره هذه البلاد على الأقل بعد إلحاق المريعة بالمعاريين ، وذلك حتى لا يتحد أولئك المستاءون من سوء اسم ربييه ستاراً لتأليف حرب يتصدى لمعارضة موكثير أن يكون له يد في ذلك (١)

وما إن فرغ القواد من تحرير رسائلهم حتى وقع احتبارهم على أوحيت داماس Auguste Damas ، من اسباط المولين لهم ، ليحمل هذه الرسائل على أن يذهب بها إلى فرنسا يوم ٢٤ نوفمبر نفسه . ولكن أوحيت داماس لم يستطيع معاداة مصر حتى يوم ٩ يناير ١٨٠١ ، وعندئذ وقع في قصة الاعمال (٢) ومع ذلك فإن هذا الحادث لم يكن مصاد أن القواد قد أحققوا ما أرادوه من إثارة الرأي العام المعرسي ضد موكثير ، واستمالة بونايرت إلى تأييدهم ، ذلك أن تالان — كما سبق ذكره — كان قد حصل على حوار قصير ضد ٢٨ أكتوبر ، صادر البلاد واستطاع الوصول لسلام إلى فرنسا . وقد حمل تالان في حقيته « أوراق الانهزام » التي أعدها المعارضون ضد قائد الحملة .

وعنى عن البيان أن موكثير كان ملأ بكل ما يفعله أعداؤه وبسمون إلى تحقيقه ، وساء أن يعمل هؤلاء لشويه سمعته وهدمه . ولم يكن من المنتظر لذلك أن يقف مكتوف أيدي أمام نشاط أعدائه . وإذا كان موكثير قد حصل اصططاع التريث وسلك طريق إنداراة معهم في الماضي ، لأن قيادته كانت « مؤقته » لما لا يدى معه الآن وقد حاده قرار التثبيت من انص في إصلاحاته المريرة عليه ، أو ذلك « الدع المستحدثة » على حد قول معارضي ، وأحد هؤلاء المعارضين أنه سبهم بالشدة والعسكرة وقد أطمأن الآن إلى حصول حد جيش الشرق لأوامره ؟ وعلى ذلك فإنه ما إن وصله أمر الحكومة

بثبته في منصبه حتى يندطهرياً سياسة اللين التي اتبعها مع قواده ومحاولة التعاهم معهم ، وطعق هو الآخر يعمل كما عمل قواده لاسيابة الرأي العام إلى حاسه في مصر وفرنسا معاً ، بيان حطل ذلك الرأي الذي حصل القواد يقومون بخطوة ٦ ربيع ، وإظهار هؤلاء القواد عظم انفاقين الحادس عليه ، والذين ما كان يحركهم سوى أهوائهم الشخصية واستعان سو في تدبير هذه الخطة صدهم بطائفة ممن وثق بهم من الضابط والقواد مثل داسيان وشاه وغيرهما . وفصلاً عن ذلك فقد وجد موثّق من الخبر له أنّ يقص من هذه البلاد أكر عدد يمكن من هؤلاء المعارضين له . وكانت الخطة التي شها مو على أعدائه سواء في مصر أو في فرنسا حملة عيفة ، عرصها تشويه سمعة هؤلاء وإسقاطهم في نظر مواطنيهم في هذه البلاد وفي أوطانهم

وعلى ذلك فقد راح مو يحرص على انقواد حوارات سمر تمكهم من العوده إلى فرنسا ومع أن هؤلاء رفضوا أن تركوا وظائفهم من غير أن يساهم أمر صريح بذلك من القصل الأول ،^(١) فقد نجح مو في اسبالة الحمران فردييه إلى مصادرة هذه البلاد وأصب في ذلك أن فردييه كان مبروحاً من سبلة إيطالية كرهت الإقامة في مصر . وألحت على مو نفسه في طلب العودة إلى فرنسا ، فرحب مو بهذه الفرصة وكتب إلى فرنان فومندان الاسكدرية^(٢) أن يعد لنقل فردييه وروحه مركب انريد (لودمخاجيه) Le Dégagé ، فأقلعوا إلى فرنسا في ديسمبر . وكان فردييه يحمل معه رسائل عدة من مو وكلم مو الخبر في أول الأمر ، ولكن ما إن عرف رجيل فردييه وكان من كبار المعارضين لمو — حتى اشدت حقد سائر القواد على مو ، كما وصف لانيوس فردييه بالحياة ، ونهكم عليه نهكاً مرّاً فقال : « إن السيدة بورا يباسكي قد سافرت ومعها فارسها » . ولم يكن فردييه موففاً في رحلته فوقع هو وروحه في قصة الإغمر^(٣) أما سائر انقواد فقد حددوا القسم أن يتقوا على عهدهم ، بما أن يعادروا البلاد جماعة مع جيش الشرق نفسه ، وإما أن يتقوا في مصر حتى يستدعهم وتبارت من هذه البلاد رسمياً^(٤) وورد الاتصال من ذلك الحين بين مو وبين رعماء المعارضة شدة على شدته

Rigault 207 (١)

Rousseau 380 — 1 (٢)

Vilner 289 (٣)

Rigault 209 (٤)

واتخذت من استناد المعارضة هذه في جوهرها إلى أن القائد العام لا يجب عليه أن يعتبر مصر مستعمرة عربية ، دراسة لتشويه سمعة القواد والخط من كرامتهم بين حدود الحملة ورحالها ، فانطلق أنصاره ومؤيدوه محسوسون في آذان الحد في نادي ، لأمر ثم يجهرون صراحة بعد التهيد لقول دعاوهم ، أن جميع من حملوا لواء المعارضة ضد موم من مبادئ الاستعمار الفرنسي في هذه البلاد . وأن العرص من تلك الظاهرة التي دبرها المعارضون يوم ٦ ربيع (٢٨ أكتوبر) كان التخلص من عريتهم وانقض عليه وحسبه ، بل إن هؤلاء المعارضين من أنصار الجلاء عن مصر وإحلالها كانوا على صلة بالمدو (١) ولما كان للمعارضون قد اتخذوا من كبير « معبود » الجيش على رعمهم رمزاً لسياسة الجلاء التي سوا عليها معارضتهم ، فقد صمم موم على تعظيم هذا « المعبود » وتقويض عروش محمده كطلوه لاعي عما إذا هو شاء تعظيم (الكليريين) أنفسهم ، وهدم تلك الجماعة التي اعتقدت خطأ أو صواباً أنها إما ترسم خطوات قائد الحملة السابق فيما تفعله . فداع أنصار موم ، كدانتون وشابيه ، في رسالتهم التي شردها في مصر أو بعثوا بها إلى فرنسا كل ما من شأنه تعظيم عهد كبير ، وتلطيف ذكره وتشويه سمعته .

وفصلاً عن ذلك فقد وجد موم أن يظل يسعى أعدائه في فرنسا ، حتى يصون استقاء مودة بونارت وتأييده له ، فشرع بمكر في إحدى الطرق لإقناع القصل الأول بأن صرح الاستعمار الذي أرسى بونارت بذه قواعد في مصر إنما يقوم على دعائم ثابته متينة . سحاح سياسته الاستعمارية ، وهداه التعكير إلى أن حبر ما يحقق ذلك حمل الديوان على إرساله تهينة إلى بونارت على نسله أزمة الحكم في فرنسا ، وإعلان رعنهم الفاطعة في الانضمام إلى فرنسا . فكانت رسالة الديوان التي سمت الإشارة إليها ، وقد أرسلها موم بعد تمهها إلى الفرنسية يوم ١٤ نوفمبر إلى باريس مع خطاب منه إلى القصل الأول (٢) وأكد موم في هذا الخطاب مقدار ما بذله من جهود حتى يكون أهلاً لتلك المركز الذي صار يشغله بفضل « شيت » بونارت له في قيادة الحملة العامة ، كما أكد إخلاصه وولاه للحكومة الجمهورية « حتى آخر يوم من أيام حياته » ؛ ولما كان يرى حين بونارت إلى حبسه دائماً فقد حرص على أن يبعث إليه بتحيات جيش الشرق « الذي يمثل دائماً لأوامر القصل الأول »

Ibid 266 (١)

Rousseau 373 — 5 : Testa 26 8 : Galland II 6 — 11 (٢)

وفصلا عن ذلك فقد تحدث مو عن إصلاحاته الكثيرة ولم يفته أن يذكر أن أعضاء الدewan أنفسهم هم الذين سطوروا كتابهم إلى بومارت ، « فالكاتب كله من إشارتهم ومن ثمار قرائحهم » . ولم يتلقوا نصحا أو إرشاداً من أحد حين إعداده ، ولم يتدخل مو أو فوريه في شيء . وكان بعد هذه العبارات التي حملت في ثيابها إطراراً ظاهراً للفصل الأول أن انتقل مو بدقة إلى الإشارة إلى كل أولئك الذين قال عنهم « إنهم يكبدون في الحفاء لإثارة حواطر الجيش والذين أزعجوا على الترام حادة الصواب ، فضل امتناع الجيش عن أسائر محكمتهم » .

على أنه لما عذر ملاحظته أن الدewan لم « يتطوع » بالكسدة إلى بومارت من تلقاء نفسه على نحو ما أراد مو أن يقول ، بل كان الواقع على خلاف ذلك . لأن مو هو الذي طالب من الدewan هذه الكساة ، ولم يشر الشيخ عبد الرحمن الحرفي شيء إلى هذه الرسالة في تاريخه^(١) . وفصلا عن ذلك فقد رفض الجيش على الرغم من إلحاح مو أن يكتب رسالة أخرى في هذا المعنى نفسه إلى بومارت كما فعل الدewan^(٢) .

واتهم مو فرصة تعيين ثيودور Thibaudeau ، وهو من أصدقاءه ، في أحد مناصب الدولة العادية فكتب إليه في ٢٨ نوفمبر^(٣) متحدثاً عن جهوده من أجل إقامة الحكمومة النشطة في مصر ، ومطرباً لصفات ثيودور القانوني والشرع البارع ، كوسيلة عهد له الكلام عن تالبان — وهو من رجال القانون المعروفين — وتناول شخصه بالقد والتجريح ، فقال : « وكنت أتمنى لو أني سعيد حقاً أن أحد نحائي مشرعاً للشرق يتعصب بمنزلة الكفاءة والقدرة التي يتمتع بها ثيودور ، ثيودور الذي اشتهر بصلاته » كالعصيب من الحديد « لقد صادفني هنا عصابات شديدة كثيرة ، ولكنني وقد تعبت كيلاً كون صليبا من حديد كثيودور نفسه قد تمت لي مصارعها و الصمود تمامها ، وإني لأذكر عاصمة « القصيب الحديدي » إني تمكنت من أن ألقي إلى أوروبا ثمانية تالبان المعروف ، وذلك بعد أن كانت أوروبا قد لفظته إلى أفريقيا . وكان هذا الرجل إني حارب اشتماله بأسباب اللهو والتسوية في مصر يعمل لتجريك الجيش وحته على الثورة والصيان ؛ ولقيت مساعيه رجسا من حارب أولئك الذين كان الواجب يقتضيهم ، يعمل ماشعلوه من مناصب كبيرة ووصلوا إليه من رتبة عالية ،

(١) الخريف ١٤٤٤ : ١٤٤٦ —

(٢) Reynier 142

(٣) Rousseau 377 — 8

أن يكونوا قدوة حسنة ومثلاً طيباً للآخرين . ولكنهم بدلاً من ذلك لم يحدوا عصاهم في إسحاء السمع إليه وقبول نظرياته الثورية ، تلك النظريات التي أفسدتهم . أما الحدود فقد أتوا الاستباق وراء هذا التحريض ، وذلك لصدا معدوم ، وما عخلوا به من صمت الشرف والنبالة . ولما كان هؤلاء يملون مرسات حسنة ويعدون عداء كافيّاً وإردية طسة فقد باتوا على استعداد للسير إلى أطراف العموره . طالما يدعهم الصالح العام إلى ذلك . فبات مساعي الأشياء بالمثل واضطروا إلى استئناف أعمالهم صاعرين . ورحل تالان ينشر مقاسمه في مكان آخر .

وحمل مو على بالان حملة شعواء ، فكتب بعد يومين إلى فوربي Forfait ورر البحرية في ٣٠ نوفمبر ^(١) يبي نغماً بأنّه أعطى حواراً للسفر إلى تالان ، بل صار « يشكو من الشكوى من أوثث الرئاسة الذي يحرون لأنفسهم نقل أفراد لا يحملون حوار سفر على سعيهم » ومن هؤلاء الآخرين إيسار Insard صديق تالان وأحد المشغلين بالبحارة : كما أن تالان وإيسار سمعا نفسيهما بأن يأخذا معهما ذلك لا يعمل حواراً للسفر هو المواطن حيلا Dirot ، أحد الصنادلة المهره ، مع حاجة الحيلة وحيش الشرق إلى الصبالة عموماً . ولم يشأ مو أن يدع الفرصة تمر دون أن يتم باليات بمحاولة إشاعة الاضطراب في صفوف الحلد ، وحمل حيش الشرق على التمرد والتمصيان عبر أن مو لم يكن صادقاً حين ادعى أن تالان عاود هذه البلاد دون « حوار للسفر » لأن مو الذي لم يدرح وسعاً في حمل تالان على السفر لاحده كان قد أعطاه حواراً بمد ٢٨ أكتوبر ١٨٠٠ ^(٢) ومع ذلك فقد صدق الفصل الأول دعواه كما صدق كل ما قاله مو فأصدر أمراً بالقص على تالان في ٤ يناير ١٨٠١ لأنه أقدم على مغادرة البلاد دون حوار للسفر بعد أن كان قد أثار فيها الفلاقل والاضطرابات ^(٣)

ونشط أنصار مو بها محمول لكثيرين ويسملون لحطيم محد كبير معه دون هوادة ، فمن ذلك أن شايه كان قد أعد منذ أول ربيع (٢٣ أكتوبر) حطناً معصلاً إلى الفصل الأول ، لم يشأ إرساله قبل أن يأخذ رأى فائد الحملة في ذلك فعث به إليه في ١٥ ديسمبر ، ماركاً له الحار في إرساله إلى فرنسا أو إتلاوه ^(٤) ولم

Ibid. 380 (١)

Rigault 201 : Ibid 377 — 8 (٢)

Corresp. No. 5253 (٣)

Reynier 183 (Chatié . . . Au Général en Chef Menou . (٤)

كان هذا الخطاب عبارة « صحيفة إهام » صد الجيرال كليز وصد الكسريين في مصر
 كما كان عبارة « شهادة » في صالح مو « ووثيقة تأييد له » ، فقد احتار مو إرساله
 هذا الخطاب إلى بونارت^(١) وهو خطاب طويل ، استلها صاحبه بذكر ما كانت تعاييه
 البلاد من أشد صروف الحرمان عند معادرة بونارت لها ؛ وهي حبيبة لا يحال شايه
 . فكان أن بونارت نفسه يحملها ، ومع ذلك فقد لا يعرف الفصل الأول مقدار
 الخسائر التي قوبل به اختيار الجيرال كليز لعيادة الخطة ، وذلك لأن كليز كان معدوداً
 من القديسين والملائكة ، وفي وسعه أن يقوم بحالات الأمور وأعظمها ، واسطر منه
 الجميع أن يفعل ذلك . أما إذا جيب كليز كل هذه الآمال المفقودة عليه فإن إيمانه
 لاشك يكون عندئذ كبيراً وخس لا يلقى وزن أعماله وإصدار حكماً عليه ، لأن كليز
 قد قضى نحبه ، والأحبال المأدومة وحدها أن تعمل في أمره ، وهذا حقها دون ريب ،
 ومع ذلك فقد يصح لأحد الأفراد أن يغف عني شيء مما كان يفعله هذا المائد وجمعية
 مسددة في أفريقيا . فإذا نسي للمرء أن يعرف ذلك ، وجد أن هناك تناقضاً ظاهراً
 صريحاً بين ذلك المبدأ الذي دعا القوم لإقامة نصب بذكاري له بعيداً لاسمه ، وبين
 المبرلة الخفة التي كان يحب أن يوضع فيها هذا المائد في تمديد الناس ، لأن كليز لم يفعل
 شيئاً لإزالة الأسوأ التي كان يعمل صحيح الناس معها وقت احتضاره للمأدومة ؛ بل إن
 هذه الأسوأ ما لبثت أن ازدادت حتى تعاقب شرها في عهده ؛ واضمح كليز عن توفيق
 العقوبة المرددة على أولئك الذين تصرفوا في الأموال العامة وهدوها ، ثم شمل بحميتهم
 قهراً هؤلاء السادس في عوايتهم حتى استعمل الخطب ، صار الجيرال لا يأكلون إلا حراً
 مخلوطاً بالقش وغيره من المواد المبرية ، حتى عافيه النفوس ، ووصفه الجيرال مو وهو
 ارحل المحسن الأمين بأنه كان حراً يتردد للفقراء واسحلاء في إطعام كلهم منه !

وحد شايه على الإدارة الإلمية في عهد الجيرال كليز فقل إن حكاه استيريات
 الفرنسيين كالجيرال ريبية ورملائه رامون وفردييه وداستان وبوايه Boyer سموا
 أهل الأقاليم صوفاس المذاب ، فألقوا كاهلهم بالصرايب المأدومة ، وحاروا عنهم
 في الحكم حوراً عظمياً حتى ربح هم الأمم ، وأقصى هذا الإرهق الشديد إلى محروب
 أقاليم رومها في ديباطة والشرية وسائر جهات الدنيا ، وإن مثلاً واحداً ما كان يفعله
 هؤلاء ليعمل كافياً ليدان نوع هذه الحكومة الإلمية العائمة ؛ فقد وجد بوايه ذات

(١) Reynier 183 (Note 1) ; 184 - 90 (Chamé . . Au Premier Consul 23. 10. 1800)

مرة أن من الخبر له أن يعي قافة من العرب ، كأنها قد أدت استولى على بحارة أصحابها حتى لا يظلمه أحد شيء ، مع أن هؤلاء العرب كانوا من أصدقاء العربيين ووصلا عن ذلك فإنه بدلا من أن يعي الحكام الميسون في السويس بدعم العلاقات التجارية بين هذا الميناء وسائر موانئ البحر الأحمر ، أهم هؤلاء يحرص العراصات القادة على الأمن التي قد يذهبها سوء الطالع إلى السويس ، علاوة على الاستئثار لأنفسهم بالحرف الأكبر من التحويلات التي تأتي بها هذه السفن ، ثم محصيل صربية ثقله على تلك التحويلات التي شاءوا أن يتركوها لأصحابها .

ولاشك في أن الجبرال كليز كان لا يحفل هذه الحقائق التي عرفها جيش الشرق بأسره ، ولم يكن هذا حال الحكام وحدهم فقد اشترك معهم في ارتكاب هذه الآثام ومسيرو الحرب ، وهم الذين كانوا « عصاة من الأشرار » على حد قول شايه - الذين رفعوا صواب الحياء عن وجوههم ، وعجزوا من كل عفة ؛ وحرارهم في ذلك سائر الموظفين في دروع الإدارة الخسفة وقد وصف شايه هؤلاء أيضاً بأنهم كانوا طائفة من « خثالة القوم » لا يرحى أي حر من حصورهم مع الجيش إلى مصر أما سائر صباط الخطة فإنهم سرعان ما صاروا يسبحون على موال فؤادهم ورؤسائهم ، وهكذا صحت البلاد من شرورهم وآثامهم ، وصار أهلها يشكون من شراره وقسوة المرءوسين ، إلى جانب حور الرؤساء وعصاهم بهم ، ثم لم تنح المستشفيات من شرور هؤلاء الآثمين ، فامتدت إليها أيدي اللصوص والهايين ، واكتظت حجراتها بدمري والجرحى الذين أعورهم من يقوم على خدمتهم أو يسهر على علاجهم « فقصوا بحمهم وهم يسمطرون اللغات على تلك الدولة التي دافعوا عنها ، وعلى حكومتها التي خدموها بحسنهم الآن سد النواة ، وتركهم يموتون دون شفقة أو رحمة .

وكانت هذه ولا شك صورة قاسية لحكومة الجبرال كليز تكفي إذا ثبت أنها صحيحة لتفويس عروش محمد . ومع ذلك فقد وجد شايه أن يطمئن هذا الزملاء وجماعة الكليزيين طمعة محلا لا سبيل بعد لإحياء ذكرى كليز أو لقاء معارضة الكليزيين إذا هو استطاع أن يبدد سياسة الجلاء عن مصر وما حث إليه كمرس عصا يظن كل إنسان الفرار منه للفتنة منه . ولذلك فقد سمى شايه هذه السياسة « تسليما ديبا » اضطر صاحبه تبرر له أن يلمطح بالعار صمة جيش الشرق ، عندما عرا (كليز) تلك الضرورة الملحة للمقاومة مع العدو إلى وجود حركات حرثية من العصيان والتمرد يرى شايه من المحتمل « أن حدوثها كان بإيعاز من الجبرال كليز نفسه » ولعل السبب في ذلك كما قاله أن كليز كان يعتقد خطأ أن الحين وحور العربة قد تطرقا

إلى الجيود حتى من هزيمة الجيش إذا هو اشبك مع العدو في معارك فاصلة . ومع ذلك فيه سرعان ما يمدد هذا الجيش أو هام كل أولئك قدس طمعوا في سالة الحدود وكفانهم فأحرر جيش الشرق انتصار هليو بوليس الدهر بالرغم من رداءة المواقف التي أحدثها قواته وقت القتال .

ويقد شايه سوء توزيع القوات الفرنسية في أثناء هذه المعركة فيقول . لو أن الجيش كان موقفاً في أخبار مواقفه وتوزيع قواته لامتنع على ستة آلاف من الفتيان وباليك دخول القاهرة ، ولطلق على فيه الحجة ثمانية آلاف فرنسي من الوسائل لشعاع الدين ذهبوا بحجة هذا الحادث ؛ بل إن اعتقد كبير الخطيئة ، أشار لمرور والعصيان في جيشه دعه لأن يترك الجيش تسقط في يد العدو . وهكذا مضى كبير سب وقوعه تحت هذا الوهم الداهي عوالم سبانه حدى . وما كان يحمله على فعل ذلك في واقع الأمر سوى كرهية الشديدة لمشروع الخطة الفرنسية على مصر . ثم كان بعد أن تمت هذه التضحية أن راح كابر يتنص منها أعماراً جديدة لإحلال السلام والحلا . بها . ومع ذلك فقد أنشأوا له صفاً دكارياً . وكان الأخرى هم أن يحجوا لذكرهم بصفاً يبقى دليلاً إلى الأبد على ذلك العيب الذي تشعل حدوده في اسفوس دائماً ذكرى هذا « القابل » . ولم يشأ شايه أن يقتصر حملته الشعواء على كبير حسب بل حسب جام عصبه كذلك على داماس رئيس هيئة أركان حربه فقال . إن حرم داماس ومسئوليته كما يريدان في خطورتها على حرم ومسئولية كبير نفسه . لأن داماس كان صاحب تأثير كبير على كبير ، وقد اسخدم مسطحة عالية في حر النكبات على الجيش وإلحاق الأذى والدمار بمصر ، حتى فعدت الجمهورية كل ما عقدته من آمال على إمكان الوصول في وقت قريب إلى إرام الصلح العام في أوروبا

تلك كانت حل الجيش الباعثة على الناس إذن عندما نظم الحزب المو رمام انقياده العامة ؛ وكان عليه أن يقوم بعمل حاسم لاستئصال كل هذه المعاصد . وقد صبح عزم ممنوع على فعل ذلك . ووصف شايه صحامة الجيود التي يتطلها مثل هذا العمل الحارم فقال : « وإذا قد أمر كبار رجائه الدولة فاصحح ذلك الروح المعسوى العالي الذي يحول دون انتشار المساوي . ومع البلاء ، مات العمل من أحل انقضاء على المعاصد وإرجاع النظام عملاً شاقاً فاسياً يقتضى جهداً حاراً وهمة فذة عالية . ولذلك فإن ما فعله مو في مصر لتحقيق هذه الغاية ليخيه بنامها ما فعله فونارت بهبه على فرنسا . آية ذلك أن ما أدخله مو من صروب الإصلاح الأولى على الإدارة ليس

دليلاً على أن هذا القائد رجل شريف نبيل قد صبح عزمه حتماً على إصلاح الجيش .
وما كان شايه يريد السدد معارضة القواد فقد عرا ظهور هذه المعارضة غير التريفة
إلى رعدة هؤلاء في إبطال كل أثر لإصلاحات مو حوفاً على مصالحهم ومواقفهم الشخصية
فقال : إن الوحل سرعان ما سملهم على تأليف حزب تعطيل هذه الإصلاحات ، ثم
أكثروا من عقد الاجتماعات السرية في بيوت رئيسه وهكتور دور وداماس مدير
المؤامرات ضد مو . واشتطوا في تقديمه ولأعماله ، ولكن مو لم أنه لهم ومضى
مدماً في إصلاحاته وحسر هؤلاء ثقة القائد العام في أشخاصهم ؛ وتوهم القواد أن مو
قد أهمل أمرهم عن ضعف واستجداء ، وأن شايه مو دليل على حسبه وحوار عريضة ،
فأردوا أن يبرلوه من القيادة ، وأوفدوا رسالهم إلى صاعد الخانات في القاهرة يحسون
البصيص تهيداً لهذا الانقلاب .

ثم فص شايه كيف أن واحداً من هؤلاء الرسل جاء لاستشارته ضد مو حتى
إذا احدم النقاش يسهل لم تردده هذا الرسول عن آخر صراحة بأنه لن يعترف
بالجيران مو مثلاً للحكومة الفرنسية في هذه البلاد ، وأنه سوف لا يدين بالطاعة غير
الجيران رئيسه وحده إذا حدث انقسام في الجيش . وقد استمر هذه المناقشة كما قال
شايه حتى جاء أمر بوزارت تنشيت مو في القيادة ، فقطع هذا « الأمر » دارها ،
وإن كان لا راب هناك طائفة من أولئك الذين أصمروا انعقاد لمو وحيش الشرق
بأسره ، وصمموا في إصرار وعناد على عدم سيان المصالح ، وحقدوا على مو أنه
كشف عن نواياهم السيئة للفصل الأول . ولذلك فقد توسل شايه إلى بوزارت أن
يسندى إلى فرنسا كل أولئك الذين يعرفون بأعمالهم نشاط قائد الحملة انعام ،
لما يترتب على استدعائهم من صون المصلحة العامة واثمين جيش الشرق على
سلامته في مصر .

واستمر الحملة ضد « ذكرى » كلير وحسد الكليبرين عموماً ، وكتب
لاحراج^(١) رئيس هيئة أركان حرب الجيران مو ، ومن أحلم صدقائه ، إلى بوزارت
في ١٩ يناير ١٨٠١ يهدم حملة كليبر ويبدد سياسة الجلاء عن مصر ، فقال عن كليبر
إنه « رجل عروب أوروبا عا كما عرف العالم أجمع أنه أراد إخلاء مصر والخراب من
هذه البلاد ، وأنه ظل يعمل لتحقيق هذه الغاية حتى نماته » . ولما كان انتصار
هليوبوليس قد أكسب كليبر صيتاً بعيداً فقد حاول لاحراج هدم هذا الصيت العسكري

هنا أن كليبر نفسه كان صاحب الفصل في هذا الانتصار الذي تم بالرغم من الأوامر
إلى أصدرها يطلب فيها من الجيش عدم الاشتباك مع العدو في قات أو الالتجاء معه
في أية معركة. وبملا عن ذلك فإن سبب الانتصار الحقيقي كان وقوع « حادث
مفاجئ » في أثناء القتال أقصى إلى النصر الذي أكرم جيش الشرق وحاراً ،
في الوقت الذي ظل فيه ذلك الحادث يردد ، الذي أحب السلام دائماً يطلب بمفاوضة مع
العدو وغرلاً لآخر في رغبة كليبر في الحلاء عن مصر وكل ما رتب على ذلك من
خطاه وقع فيها هذا الحادث ، إلى حقيقة واحدة هي أن أمبيلاء الفرنسيين على هذه
البلاد كان من فعل بومارت نفسه « وأحد فوجيه » « ما يذبح حرم جيش الشرق
من قيادة مو فإن مصر لا تخلو ودة في فتحة العدو بعد شهر واحد فقط من
هذا الحرمان

لك صورة لنوع الخلل الذي كان يشهدها كل فريق على الآخر . ومنذ أن أعزم
الحرمان من أقصى في حملته ضد مواد مصريين جهرًا وعلافة سار إخماء أمر هذا
الانهزام والاشفاق على الجيش معزراً ، فشاعت أخبار الخلاف بين الجنود ، وشهدت
مصار الصباط في النزاع العائم ، وبسطت أعمال الخصومية فصار كل فريق يحسن على
الفريق الآخر ، وبدأ عهد من الدمار والخوف والكراهية والحقد ، حتى ملك نهر
قنوات كثيرين ، ومات العملاء محشونون ، وعلى ذلك كله إلى سائح وحمة^(١) ، ورايت
الكراهية بين مو والسكيبريين عندما أصبح قائد الخلة من روحه الصفة الرشيدة
ولد في ٧ فبراير من سنة الجمهورية التاسعة (٢٧ نوفمبر ١٨٠٠) ، وجاءه من مراد مو
وكان احتبار اسم سليمان أحيدراً غير موافق لمطابقته لاسم من الجيش قاتل الآخرين
كلير فقد أخذ السكيبريون من هذه التسمية ذنباً آخر على كراهية مو لسله في
القيادة ، وعلى أن مو قد فرر الفاء في مصر بصورة لا يمكن شكاً أو حذلاً فاتهمه
القواد بأنه إما يريد انقاء في مصر والانهزام بها عن محيط السياسة الأوروبية حتى
يخلصها عما في عن تقلبات الحوادث في أوروبا . مستخدماً جيش الشرق في هذه البلاد
لتحقيق مآربه^(٢) . وعندما أصدر مو أمراً يومياً في ٣١ ديسمبر ١٨٠٠ بتخصيص
الجزء الأكبر من الأموال التي جمعت لإقامة نصب تذكارية لكل من دبره وكليبر معاً

(١) Malus 199 — 200

(٢) Rigault 267

للاسراع في تشييد النصب الخاص بالحرال دبره^(١)، ثبت لدى الكليبريين أن مو
عا عادتهم بإخفاء عذائهم لهم .

وفي فبراير ١٨٠١ حدث عند إيداع خبر انقراض على بالين أن اتهم أحد أنصار
مو في اجتماع كان يضم بعض أصدقاء الكليبريين كلا من ريديه وهكودور دور إلى
جانب تالين نفسه سخر من الجيش في الثورة ، وعلى الحر إلى الحرال رئيسه ، وكان
م. راد الطين لة أن راحت. لإشاعات وتشد كدلك بأن الحرال فيل عبد رجليه
من الإسكندرية كان قد همد الكليبريين بأنه سوف يطعن القصر الأول على
« الشيء الكثير » من أحرار الفرنسيين الذي تصوا أنفسهم لمؤنة الاسمرار في
مصر . وفصل عن ذلك فقد همد مو من مده قرية إلى بوحية لهم إلى رئيسيه .
وكان يحكم فيهم الشرقية ومكلا عرافة الحدود السورية . فبسط إليه التهامون
واسعروا في دء واحد حتى أنه رء العربان المسمون بالمؤن إلى الجيش المتناهي
بقيادة الصدر الأعظم . ثم اتهمت شعة اختلاف بين مو وفواؤه عندما ذاع في مصر
حر تلك الخطابات والتعاريف التي أرسلها مو إلى فرنسا ثم نشرتها الصحف الفرنسية .
وكانت زحزح عبارات تلميح والثناء على إدارة مو مشيطة المصلحة في مصر . فابري
رئيسيه ورملاؤه يمحسون هذه « المعربات » على رعمهم ، وصروا يتقدون نقوسة
وصرازه أوامر مو اليومية إلى الحشد وقراراته ومشوراته ، كما حرؤوا على تصوير قائم
الحالة لعام في صور هزليه مضحكة ، وهرؤوا به وصغروا من كتابه ، وبعكوا عليه حسب
أسلوبه الخطافي وطرفة حديثه ، ثم أمعدوا في النكابة به ، لا يحدوا من حياته الخاصة
ورواحه من صيدة موصوعا للمكاهة والتسدية ، واطفؤوا بسموه بأشياء لهم
الحيل وأملت عليهم الزرابة لشخصه أن يسموه به . فهو بارة « حرال المتداع » ،
وبارة أخرى « الحرال الثوري » إشارة إلى نشاطه أثناء الثورة في فرنسا .
أو « الحرال المسحك » ، وهكذا حتى تورت العلاقات بين امرئيين ، واهتاحت
العوس ، ووات من المتوقع أن يعجز ركان العصب سريما وبعد أول يادرة . وقد
حدث هذا الانحجار عندما أصدر مو في ٢٣ لمغور من سنة الجمهورية التاسعة
(١٢ فبراير سنة ١٨٠١) أمراً بوماً أحدث صحة كبيرة ، وكان من أخطر أسباب
تمزق الكلمة في وقت كان لا يماص فيه من الاتحاد لدمع خطر الدرو عن هذه
السلاد ، حينا أطقحت حيوش العدو عليها من كل جانب

حاريت دى هراس (حريده فرنسا)

وكان سبب صدور هذا الأمر اليومى أن البريد حمل عدداً من أعداد (حريده فرنسا) Gazette de France إلى مصر في غضون شهر يناير ١٨٠١ استرعى انتباهه دو لافان يوم أن أعداءه هم المسئولون عن كل ما جاء به من أخبار وتعليقات كان اعرض بها هدمه وإقصاءه من قنائه الخلة وكات (حريده فرنسا) قد درجت على نشر ما يصلها من همدوح وانصططية عن مصر ونشاط رجال الخلة بها ، ف نشرت في عدد (١٠١٧) الصادر في ٥ ديسمبر من سنة الجمهورية التاسعة (٢٧ سبتمبر ١٨٠٠) رسالة واردة من همدوح شاميه مؤرخة في ١٥ سبتمبر بحمل أساء البريد الإغلى الصادر من لندن في ٥ سبتمبر وقد اشتملت رسالة لندن هذه على طائفة من المعلومات والأخبار استشهد من الرسائل الواردة إلى لندن من شواطئ الشام ومن الوجهة البحرية في مصر بين ١٠ و ١٥ يوليو ١٨٠٠ ، أى أن مقال (حريده فرنسا) كان يسند في حواره على أخبار واردة من مصر نفسها .

فتحدث المقال عن عهد مؤخر في يافا في ٢٢ يونيو ١٨٠٠ . حضره الصدر الأعظم ولطفطن باشا وارسى أفندى والسككياتك والسير سدى حيث لبحث الطريقة التي يمكن بها تعيدته في العرش ، وقد حمل قرارهم أحد الصلح في ليل ٢٣ - ٢٤ يونيو في طريقه إلى مصر ولكنه سرعان ما وصل ما أعاد كلير إلى المعسكر العثماني في مساء يوم ٢٨ يونيو وانتخاب قيادة الخلة إلى مو القدي أمان الخلاء هذا الخبر . ول كان الحيران مو قد اعتسق الدين الإسلامى وروح من مسلمة ويعتقد الأتراك أنه بطمع في الدخول في رسمه السكواب الحادث ، فقد ثبت لدى العثمانيين والأعير أن القائد العام الجديد سوف تشدد معارضة لافان لعرش ، آية ذلك أن الحيران مو كان على رأس حرب الاستمرار في مصر ، ورعيه للعاصمة التي أخرجت على عهد اتحق العرش أيام كلير ، ثم إنه استمال من منصبه في حكم الاسكندرية ورشيد ، واضطر كلير إلى تعيين الحيران لافان بدلا منه . ثم مضى صاحب القلح مول ، وفصلا عن ذلك فقد أقيمت رعة مو في القاء تعصيا من حاب نوبارت القدي أرسل لهذه العامة الصلح (لاور موبورج) من نحو ثلاثة شهور مضت . ثم تعرت الرعة في الدماء فصل الانتصارات التي أحررها الفرنسيون في إيطاليا ، ولذلك فقد مات مقصيا على كل أمل في إمكان استمرار المفاوضات للتعارض الواضح بين ما يهدف إليه العثمانيون وحلفاؤهم منها ، وبين رعية مو الشخصية في القاء في مصر ، ثم ما تهدف إليه كذلك سياسة

القصد الأول . وقد استند مو في عمكة بابقاء في مصر إلى أسباب عدة منها :
 الوثائق بعود الأثاث ، واعيان البحار كبير ، بل إن مو عالت حتى قطع كل صلة له
 مع الأتراك ولم يكتب إلا لغير مدني سمحت وحده ، وقد فهم السير مدني من كتابه
 مو أنه وإن كان لا رفض فكرة استئناف المفاوضات من أجل إخلاء مصر فهو من
 ناحية أخرى لا يحبر لعمه اتحاد أي إجراء في هذا الشأن دون موافقه التفاصيل ، أي
 أن مو يقوإنه كان يعزم القتال والمقاومة ، « ولذلك فمن الواضح أن عديد المعاق
 العرش قد مات اليوم متهددا ، إلا إذا حدث أمر واحد هو قيام اخوانه الفرنسيين
 بالتمرد والعصيان . حتى يفسى بذلك عزل خراب مو وإعطائه القيادة العامة إلى قائد
 آخر من أنصار سياسة الخلاء عن مصر وإحلالها » ، ولكنه لما كان من المخاطرة أن
 يعتمد أمره كثير على وقوع مثل هذا الحادث حسب اتساع الخلاء ، فقد مات من واجب
 الباب العالي أن يترك حربه في محب عليه اغتدبه من وسائل فعالة لإجراح الفرنسيين
 من هذه البلاد بطريق الحرب وامتناع مصر ثانية . وعلى ذلك فقد صار شعب الباب العالي
 الشاعل هو إعمار الاستعدادات اللازمة لإرسال الإمداد ذات لكثرة إلى أدمر الأعظم
 وقد استطاع أن يثبت أنه فعلا نحو إلى ثلاثة آلاف معاق ، منهم من الفرنسيين ، هذا
 فيما استأجبت انضمام ناشا والسير مدني سميت التحول في ابيد المصرية ، بل إن هناك
 ما يدل على أن المعاق قد سم على تعيينه الحصار على المواقي المصرية وشيخ هجوم الصدر
 الأعظم استمر على مصر من جهة اسحر كذلك^(١)

ذلك كان مقام (حريدة فرنسا) ، وقد وصح من خلال مسطوره أن انصهرة
 القاهرة لتي أمت هذا الكلام كانت تدور حول أمور ثلاثة (أولها) أن كل أدم
 قد انقطع في استئناف المفاوضات من أجل إخلاء الفرنسيين عن مصر « سماعاً » حسب
 وفاء كبير ، لأن خلفه في القيادة كان من كبار مؤيدي مشروع استعمار مصر ؟
 و (ثانياً) أنه من بعد انقضاء العرش طالما كان مو على رأس الحملة ، وأن
 مصلحة انمايين والإخبار تقصمهم لذلك أن تقصوا مو من القيادة العامة وهو أمر
 يصعب تحقيقه من غير قيام جيش اشرق بحركة عصيان خطيرة تشغل مصلها مقاييد
 الأمور إلى قائد آخر من مؤيدي مد الخلاء ، أي من أولئك الكيبريين الذي
 زعموا المعاصرة ضد مو كالحركات ربييه وداعاس ورامون ؛ و (ثالثاً) أن عرو
 مصر يات متوقفاً في القريب العاجل بسبب استعداد الصدر الأعظم لبدء هجومه على مصر .

وقد اهم من هذا المقال اهمياً شديداً ، وكان مما استأثر بكل انتباهه وسب له الارواح العظيم ذلك الجزء من المقال الذي عُدث فيه صاحبه عن آتدر تعيد اعاق العريش ما دم من يشعل مصب قائد الحملة العام . ولا حيلة للخروج من هذا المأرق إلا بمحدث ثورة في جيش الشرق تسمر عن إقصاء من عن القادة وإفراح انطريق نفائذ آخر من أنصار سياسة الحلاء . وكان من الطيبي أن سحه شكوكه من في أعدائه ومعارضيه الذين بدلوا كل ما وسعهم من جهد وحيلة لعرته ، وكان وجه الخطر في ذلك كله أن أحار هذا الانقسام قد نعت اعدو القديت يعتمد على اسعلان هذا الصمف اللداحي ورعة المعارضين في انعوده إلى الوطن في تعيد مأربه . واعتقد منو أن المسئول عن ذلك هم رئيسه وسائر الكابريين الذين خدموا بعاطفهم انمو صد مصلحة الوطن وإن حدث ذلك نظري غير مباشره

وفكر من في بحث اعداده من وسائل لإحباط مؤامرات أعدائه ، فقرأ مقال (حرمة فرنسا) على صدقاته وأنصاره في ٢١ يناير ١٨٠٩^(١) ، ثم كتب إلى الخزانة رتييه Berthier وزير الحربية الفرنسية في ٦ فبراير^(٢) بعد لشكر الفصل الأول ويؤكد ولاءه وإخلاصه له وولاء « أكثرية الجيش العسكري » سوارت وعزمهم على سعيه رعيته في الاحتفاظ بمصر بكل قوه . ثم تحدث عن مشري انفس والاضطراب في الجيش وإحباطهم بسبب انصراف الجيود عنهم ؛ وانتقل من ذلك إلى الكلام عن اعداء الذي وصله أخيراً من (حرمة فرنسا) والذي يوقر رتييه ما جاء فيه لعرف حقيقة ما يدركه « أعداء المصلحة العامة » من مشروعات هدامة . إلى أن قال « ومع أن هذه الخريدة قد رُسست إلى من فرنسا فإني أحهد مرسلها ؛ وعلى كل حال حالواصح الخلى أن أولئك الذين أرادوا تحريك القصة والاضطراب في مصر قد وحدوا وسيلة لإداعة أحبار مشروعاتهم في أوروبا ولا حدال في أنهم يحون من ذلك التأكد بما إذا كان هناك من يؤيدهم فيما رسونه » . وقد حمل هذه الرسالة رسول روده منو تمصيلات كثيرة يطلع عنها الخراب رتييه بعد وصوله^(٣) .

ومع أنه كان يعور من القليل المادى وابرهان القاطع على أن رتييه والكابريين هم المسئولون حقيقة عن « إداعة أحبار مشروعاتهم في أوروبا » ، فقد كان واضحاً من

Reynier 143 (١)

Rousseau 396 — 7 ؛ Ibid 391 — 2 (٢)

Reynier 391 Rousseau 397 (Note. 1) (٣)

باحة أخرى أن أحبار جيش الشرق كان يعاينها الخوادم تنبأ إلى أورو . وناث
لزاماً على قائد الحملة عندئذ أن يحث الجند من أعدائهم الذين يحسبون عليهم ، كما
أدرك أن القضاء على « مشروعات » المعارضة المؤدية ضروري إذا هو أراد تحقيق
انفصال مشروعات العدو الذي يستند في تنفيذها على وجود الاقتصادات الداخلية .
ولم يكن هناك ماسح يد من أن يعمل على جمع السكينة على أساس طاعة الجند
لرئيس الحملة وقائد جيش الشرق صاعداً ، ووضع كل قسم في شحبه والاقتصاد
إلى قيادته . وبقي ذلك فقد حصل هو ترفيع انصراف المؤسسة للقيام بعمل حاسم ضد
أعدائه وبمعارضة خصوصاً . ووتته انصرافه عندما وصلت إلى مصر في الأسبوع الأول
من شهر فبراير أثناء الإغناء على نورث في باريس ومحاولة اغتياله^(١) . وتفصيل
ذلك أن موضوعاً كان قد ذكر مكه في ٢٤ ديسمبر لاعتقال ممثل الأول وهو في
طريقه إلى دار الأوبرا فوضع في شارع (سان نيكاس) Saint - Nicase ريملا من
اسارود فوق عربة ، ولكن انقلب . حيث أن انفجار بعد مرور بونارت بلحظات
معدودة فتح القصر الأول وحمل كثيرون عنه . فعظم سخط الرأي العام في فرنسا وآتهم
الفرنسيون ، لإفجار تدبير هذه السكينة حتى يحسبوا من بونارت عدوهم لأكرم .
فوجدوا في هذا الحادث صالته المشوذة لجند جيش الشرق من العدو انصراف من
جهة ، وللقضاء على معارضة من جهة أخرى حتى تضمن جمع السكينة والقضاء
على الانتقام .

وعلى ذلك فقد رأى مؤلفه إذا محمد إلى إداعة أخبار هذا الحادث للزوع ثم أضاف
إليه مقال « جريدة فرنسا » استطاع إدكاء نار الكراهية الشديدة ضد الإنجليز
في صدور جنوده ، وإلهاب حماسهم فلا يعودون يسمعون إلى أقوال معارضة أو يأبهون
« لتحريرهم » فأصدر في ٢٣ بدور (١٢ فبراير ١٨٠١) أمراً يومياً إلى الجيش
سرعان ما اكتسب شهرة دائمة في تاريخ الحملة في مصر على أيام هو حق صار
يصحح ما نزلت عليه من تناقض وحيمة من أهم العوامل التي قضت على كل اتفاق
بدلاً من توحيد الصفوف ، والتي مهدت لذلك لانسار العدو بدلاً من إخماد مصر وقضاء
هذه للتعميرة الحملة في حوزة فرنسا .

الأمس اليومى في ٢٣ ليفور :

وصف مؤلف هذا الأمر اليومى حادث الاغتيال على جبهة القصر الأول ثم علق
على هذا الحادث بقوله — موجهاً الخطاب إلى جنود جيش الشرق : « إن الأشرار

الذين أرادوا اغتيال القسطل الأول قد انضموا في تمهيد مآثرهم على حماية أو حرم من الأجناب سواء كان ذلك في فرنسا أم في أفرقة أو في سائر أحرار أوروبا ، يعملون دون هوادة لقلب الجمهورية ولا تنزعون في سبيل ذلك عن استخدام كل الطرق كالقتل السم والسموم والتحرش على النصبين والثورة وقد شجعت أنصار هذه الجماعة إلى مصر فخرؤوا على الضأن في وسعهم أن يجيدوا لكم عن طريق الشرف والصواب . ولقد رأيت أن تذكر لكم شيئاً وأضع تحت تصرفكم وباطركم ذلك المآل الذي بشرته (حريدة فرنسا) وبذلك نص هذا المقال « كنه . . » ثم أثبتت من المقال رسمه ، واحتتم أمره القومي بقوله : « إنه ليحس لي دون ريب أن أحس حقاً عظم على أولئك الأجناب الذين تألف منهم هذه الجماعة ، ولقد صار حكم القول من اللحظة الأولى التي تشرفت فيها . . . » سلم فبادركم أن حكومة الجمهورية حسب هي التي يسلمها أن تصدر لأوامر بكم بإحلال هذه البلاد ، كما صار حكم القول بأن بإحلالكم للوطن يتطلب منكم أن تبدلوا في سبيله كل تسخية . فإذا كان الواجب يقضي علينا بالهلاك والفساد في مصر ههنا وفيما حرمنا ، ونحن ما زال في حدود أولئك الجمهوريين الذين قاموا بكل واحد منهم ولا ريب في أناس سوف فقد أمام العالم أجمع كل شرف إذا ركبا هذه البلاد دون أن يعلنا في ذلك أمر حكومي صريح . ومع ذلك فلا حاجة لي للتحدث إليكم بتسليحة عن هذه المآل . وأتم الذين يرون معاً انسانية بقدر معرفتي أنا لها . ولكنني ما قصدت من حديثي معكم إلا توضيح مآل حماية أعدائكم وعذرهم ثم إرشادكم إلى ما يلحق باله أعداؤكم من وسائل دنيئة لقبال الجمهورية وهدمها (١) »

وكان من على حق في عذره حبس التفرق من الأسبق وراء « المحرطين » وتذكير الحود بواجب طاعة المعروضة عليهم لقائد الجبهة فقد كان معروفاً وقدم أن ثمة مراسلات بحري بين انشاطي المصري وبين الناصر الإمبراطورية في عرص البحر لإبلاغ السير سدي ما يقع من حوادث في داخل البلاد ؛ كما ذكر بدار في خطاب له إلى من هو أنه عثر على منشور مبهجة في القاهرة (٢) . وفصلاً عن ذلك فقد ذكر الشيخ الحبرتي في حوادث ٩ رمضان ١٢١٥ (٢٤ يناير ١٨٠١) أن العنانيين كانوا يرسلون « سيدي محمود وأخيه سيد محمد المعروف بأبي دقة » كما كانت رد الرسائل إلى سيدي

محمود عن طريق السيد أحمد المحروقي « فكان يقصد إلى قلوب وبنقي ورود القاصد ويرد له الجواب » ، بل إن سدى محمود (أو محمود أهدى) كان تلقى إلى جانب ذلك من الفتورات المكتوبة بالعربية « لتوريثها ووضعها في أماكن معينة حيث سكن الفرنسيون » . ووقف مو على حقيقة ذلك كله^(١) . ومن ناحية أخرى كان هذا الأمر أسوأ نص من المدأ الذي جاء به (دأ) مو العديم إلى حيثه في ٢٢ نويه ١٨٠٠ من حيث مطاللة الحدود بالطاعة التامة لقائد الحملة ، وركب تمرر الخلاه عن مصر أو القاء ه في يد حكومة الجمهورية . فلم يأت أمراً جديداً .

ومع ذلك فقد أثار هذا الأمر النوى نائرة القواد سدا ما أحذوا يقرؤوه بإمعان ودر خلال الثلاثة الأيام التالية (٢٣ - ٢٥ نيبور) ويقبلون وحوه الرضى في محمولاته . ثم ذهبوا إلى أن مو قد كان يشتر إليهم وحدهم عندما حدثت عن أولئك الذين اعتمد عليهم الحرب الأهلى في قلب الجمهورية وهدموا وعرض جيش الشرق على العصيان والثورة . بل ذهب بهم انهم كل مذهب فحبلوا أن مو وحده هو صاحب هذا المقال الذى نشره (حریده فرسا) والذى قصده أمر مو لبومى . فكذب ريبية عليها على ذلك كله « إن إشاعات داعب في فرنسا عن وجود حرب ماضى للاستعمار في مصر قوامه كل أولئك الذين عتقوا شاة كبرى ، ثم ما لبثت هذه الإشاعات أن اردادب رواجاً عند وصول الرسائل والتقرير إلى فرنسا من مصر ، كما نشرت الصحف الفرنسية بعض المقالات في صور رسائل وارده إليها من بلدان أجنبية . وذلك لتأييد هذه لتهافت بدعوى أن العدو بمسسه كان واقفا عليها ويهم شمرها . ومن الواضح أن الجراح مو كان نحد في ذلك وسيلة لانقاذ الحبيطة لنفسه ، (حق عصب أتر ما نكنه معارصوه صده) ، وحق يثير عاصفة من الشبهات حول مو كان في استطاعتهم وحدهم أن يصححوا أمره^(٢) . وفسر ريبية مقال (حریده فرسا) تفسيراً مختلف تماماً عما ذهب إليه مو نفسه فقال « إن هذا المقال قد أفرع في قالب يوحي بأن كانه صابط إغبرى ، لأن العرس من كتابته م نكى سوى إظهار الجراح مو في صورة أكثر انفسواد صلاحية لتولى مهمة الدفاع عن مصر ، وأنه لن يتسنى للعدو استرجاع هذه البلاد إلا إذا قام جيش الشرق بالثورة وأقصى متو من القيادة

(١) الميرق ٣ : ١٥٢

(٢) Reynier 141

واستقبل به قائد آخر الحملة من بين الجماعة التي ناوأت الاستعارة على رعيهم و اتى ادعوا وجودها زوراً وبهتاناً (١) »

وكان مما حمل القواد على الاعتقاد بأن متو هو صاحب هذا لقصال الذى أراد من نشره فى فرنسا تطبيع سمعهم بين مواصبيهم أنه حدث أن عرفت فى مصر وقتد الصحف الفرنسية اتى نشرت كل تلك الرسائل الرسمية التى عث بها متو إلى فرنسا فى عدون شهر يوليو ١٨٠٠ وكان المركب الفرنسى (أوربرس) الذى عذر هذه اسلاد فى ١٠ يوليو قد حمل هذه الرسائل إلى فرنسا فاستغدرسيه ورملاؤه أن متو قد عمد إلى إرسال هذا المركب سراً من الاسكندرية حتى يدع فى أرض الوطن أسماء تأييد حرب متاوىه للاستعارة من أولئك الذين عرفوا بتأييدهم لامتاق المريش

وما أن تصافرت كل هذه العوامل لإجماع القواد الفرنسين أن متو إنما كان يعمل لإلحاق الأذى بهم وإهائهم وحطهم سمعهم فى مصر وفرنسا معاً وإثارة كراهية القصل الأول صدمهم ، صبح عزمهم على أن الوقت قد حان للعمل وسد الصمب طهرياً ، «لأن الصرر — كما قال ريبييه — قد أصبح الآن طاهرًا واضحاً» ولاسبل إلى الرأاة والاداهة إذا شاءوا عنه . وعلى ذلك فقد ماذر هؤلاء تحرير خطابات شديدة اللهجة إلى متو يظلمون فيها أن ينى القائد الصمام عنهم رعيها كل تلك الاتهامات التى لقصها هم دون حساب طريق غير مباشر . كما هددوه بإداعة هذه الخطابات ونشرها على نسلأ إذا هو أحجم عن تكذيب الاتهامات الموجهة صدمهم (٢) فنبأت من ذلك حال عربية حقا عند ما شمل القواد ورئيسهم تبادل الرسائل فى الفترة التالية وإرسال الخطابات إلى أصدقائهم وإلى القصل الأول فى فرنسا فى وقت كان العدو قد اتخذ هتته للاعصاص على البلاد وعرو مستعمرهم رآ وعجرا .

وقد عث ريبييه بكتاب إلى متو فى ١٤ فبراير ١٨٠١ (٣) تسال فيه عن العرس الذى جدا بمائد الحملة العام إلى إصدار أمره السوى (فى ٢٣ يليمور) ، ويطلب رصاها كاملا لمعى نشر تلك الرسائل التى يمال إنها صادرة من اعلترة ، بعد وصف حادث الاعتداء على حياة القصل الأول ، كما يقصد متو من ذلك إلى أن هالك عدداً من الأفراد فى حيثى الشرق لا وطنية ولاشرف لهم يحولان دون انصامهم إلى أعداء

Ibid 143 (١)

Ibid 144 (٢)

Ibid 176 — 8 (٣)

الجمهورية ، بما الحق أكثر الأذى لهذه هذا الجيش . وفصلا عن ذلك فقد طلب ريبية من مو أن يقولها كلمة صريحة إذا كان يرغب في رواج هذه الإشاعات الكاذبة عن ريبية ورسالاته ؛ على أنه لما كان ما حدث قد سبب لهم الإهانة فقد ات براما على مو أن يبقى نعيًا قاطعاً كل تلك الأقوال التي جاءت في أمره اليومى . أما إذا أصبح مو عن فعل ذلك فإن ريبية سوف يرى لزما عليه هو الآخر حينئذ أن يعتت بصورة من كتابته هذا إلى جميع صباط وحمود الحملة مع مذكره صغيرة بسط في صدق ودون موارنة حقيقة تلك الخطوة التي قام بها اقواد في ٦ ربيع ادهى . وقاب ريبية في ختام رسالته وإذا كان لدى مو موضوعه القائد انعام السلطة اللازمة والوسائل الكفيلة بنشر ما يريد وإداعته حيث لدى ريبية وإخوانه كذلك أفلامهم يشترعونها في وجه مو وفي وسعهم أن يحدوا من الوسائل ما يكمل إطلاع الجيش وإطلاع الوطن على حقيقة الأمر والواقع .

وفي اليوم التالي (١٥ فبراير) نادر كل من داماس ولاوس وبيار اعرض شكواهم فأكد داماس^(١) أنه لاوجود لجماعة مساوية للاسماء في مصر إلا في محلة مو غرب أما إذا كان مو يريد من نشر مقاب (حريدة فرنسا) إلحاق الأذى بممارصيه فإن داماس لن يحجم من حاشه عن إعلان حقيقة مو وعدره على الملأ وإظهار أعداء الجمهورية الحقيقيين . وسج لاوس عن سوال داماس ، بل كان قسلى لمحة منه عندما اتهم مو صراحة بأنه كان صاحب المال . وقال إن الأسلوب الذي أفرج فيه مقاب حريده فرنسا لئلا دلة واضحة على بهمدار ما منه حش صاحبه وحداعه « ذلك أنه إذا أمعن القارئ النظر في تلك العبارة المصطعة التي أراد صاحبها أن يصور (مو) في صورة من استهان من حكومة الإسكندرية ورشيد وقت انعاق انبريش ، بين يعرف جميع الناس الظروف التي تسلم فيها (لاوس) حكم تلك الجهات من (مو) فل هذا الانعاق ثلاثة شهور على لأقل ، وكيف أن (مو) قضى هذا الوقت بد كل الوقت الذي حاصروه العدو الفاضل قائماً في رشيد رغم كل ما وصله من أوامر لاستدعائه إلى مكان آخر — لأدرك القارئ حقيقة صاحب المقاب وعرف كانه » وعرض لاوس لأسباب كراهية مو له ، فعراها إلى ذلك الاستياء الذي أظهره لاوس من تسلم مو لقيادة الحملة ، فكانت هذه الكراهية مصدر جميع المؤامرات التي درها مو منه وجميع ما ألقى من شبهات لنشويه إدارته . حتى استدعى هو الآخر

من حكومته إلى القاهرة . ثم قال موعداً « ولكن فليست من مو ما يعمله لانوس »
عندما يشر على اناس قاطبة كل ما عرفه عن حث مو ومكره وحداعه ' » وشذ
سار عن رميده فكان أقرب إلى الاعتدال في لهجته ، فطلب من مو « بصاحاً
صادقاً » عما إذا كان هناك حرب مباوية ، حقاً للحكومة في مصر ، وتساءل عما إذا
كان مو يتردد من أعضاء هذا الحزب إذا وحده . واستند طبار في طلب هذا (الإيضاح)
إلى ضرورة هذا العمل من أجل جمع الكلمة ونوحيده الصوف وإعادة الثقة إلى اسفوس
وهي أمور لاغى عنها جميعها لصالح شحاح العمليات العسكرية انقطة واستناد
لحدوده والسكينة (١) .

وكان اتهام مو بأنه صاحب مقال (حريته فرنسا) اتهاماً خطيراً ، وإن كان
لاستند إلى شيء من الحقيقة والواقع . وفصلاً عن ذلك فقد أثار أمره اليوم الاستد
في ٢٣ الميعود عاصمة من الاضطراب وهشاح الخواطر لم يكن مو يتوهمها وكان
لما من إحد من العمل لتسكين هذه العاصمة وسهله الأعصاب النيرة . وعلى ذلك
هد نادى مو الإحابة على هؤلاء انفرادي في نفس اليوم الذي وصلته فيه رسالتهم (٢)
كانت ردوده جميعها مفرقة في قالب واحد بدأها مو بذكر وبق وجود أنة صلة
بين مباشرة في أمره ابوي وبين ما يشكو منه قواده ، بل أعان « كان ما بعد تاتنا
ن يشير في شيء إلى أحد منهم ، وإنما كان كل ما قصد إليه الإشارة إلى « جمعة من
الأحاب » دأبت على « عمل من أجل قلب الجمهورية مدتن بدت انثوره الفرنسية .
م تكن هذه الجماعة سوى الإخلاء الذين يريدون تحرير الجيش على الثورة والعصان
الذين ادعوا للشورات المهيجة في القاهرة ، وأنشأوا من مده صلاب وثمة مع بعض
مناصر في الاسكندرية للوقوف على حقيقته ما يحدث في داخل البلاد . ومن لواصحه
كذلك أن الاخلاء أنفسهم هم الذين كتبوا المقام الذي نشرته حريته فرنسا

ومع وصول هذا الرد والازعم من ملك الصراحة التي توحاها مو في الإحابة على
سائر قواده من هؤلاء لم يبعوا بها فكسب إليه ربيبه في اليوم نفسه (١٥ فبراير) (٣)
إحسانه لا تشق عيلاً ولا تروى طمأ لأن مو لم يشأ أن يسي بصورة رسمية كل ملك
لغترات التي أذيعت في الجيش والتي صدر أمر ٢٣ ببعور البوي على ما يبدو لتأييدها

Rigault 279 — 81 (١)

Rousseau 397 — 8 (٢)

Reynier 178 9 Richardot 464 — 5 (Pièce No. 30) (٣)

أما إذا كان الاخجلر يعون من نشر هذا المقال إثارة الاضطراب في جيش الشرق فقد
 بعدد ما رآهم عندما أذاع المقال في أمره اليومى ؛ ولاعراء في أن الاخجلر لا يحجمون
 عن اللجوء إلى كل ما يحقق أغراضهم لانتزاع مصر من قبضة الجمهوريه ، فلا يتورعون
 في سلب ذلك عن حيث حدود المؤامرات وتدمير المكائد ، ولاعراء في أن الواجب
 يقتضى من أن سدل قصارى جهده لإحباط مآسئهم ومطاردة وكلائهم ولكن إداعة
 الأوامر اليومية على عظم ما جاء في أمر ٢٣ ليعبور لن يحقق شيئا من ذلك - ثم أشار
 ربييه إلى كتابته الذى بعث به إلى مو يوم ١٤ فبراير وما تضمنه من « حقائق يعرفها
 مو معرفة جيدة وله وحده إذا شاء أن يعترف بها وأن يحجب عنها بصراحة بعث الرصد
 التام » في نفس ربييه وزملائه .

ولكن مو لم يثب « الاعتراف بهذه الحقائق » على النحو الذى أرادته ربييه
 وقد كتبى عندما كتب له في اليوم الثانى (١) بأن صار يستمرى إلهائه إلى أن الصاخ
 انعدم يقتضى وضع حد حاسم لهذا انبعاث الدائر بينهما كما قال إن ما يريد أن يعبر به
 ربييه ما جاء في أمره اليومى يتعارض تماما مع نفس هذا الأمر اليومى وروحه ، فعلا
 عن أن مو نفسه لم يكن امكبر وقتئذ في شيء بما ذهب إليه ربييه سائلا ، ثم حسم
 كتابته قائلا « ومن الواجب علينا أن لا نشعل أنفسنا في هذه البلاد إلا بأمر واحد
 حسب هو صون المصلحة العامة » .

وما لم يفتتح ربييه وزملاؤه هذه الإحاطة فقد عمدوا إلى إداعة رسائلهم إلى مو
 حتى انتشر جوهر في أوساط الجيش وقصى القواد علاوة على ذلك الأيام الأربعة
 التالية حتى يوم ١٩ فبراير في كتابه الخطابات إلى أصدقائهم في فرنسا بعث ربييه بعدة
 رسائل إلى ربييه وسان سير ومورو ثم إلى تومارت ، وكسب داماس إلى دوحا وإلى
 امصل الأول ، وأرسل ربييه صوراً من خطابات إلى مو مع اندكرة التي سبق أن
 أرسلها القواد مع (أوجست داماس) لترير خطوة ٦ ربعير المعروفة ثم صورة من
 رسالته التي طلب فيها تعيين قائد آخر للحملة بدلا من مو (في ٢٤ نوفمبر ١٨٠٠)
 ومن خطابه إلى مو في ١٥ فبراير ، وحمل هذه الرسائل إلى فرنسا الجراب فوجير
 Fagière والباطن بـ Barre . وطلب القواد في رسائلهم استدعاءهم من مصر كما
 حذروا أصدقائهم من عواقب هاء مو في قيادة الحملة كما طلبوا من أصدقائهم أن يبدلوا
 قصارى جهدهم لاستئالة تومارت إلى حاسهم . وقصى مو وقته كذلك في الكتابه

فبعث إلى القنصل الأول رسالته في ٢٧ فبراير ١٨٠١^(١) عذرت فيها عن أخطاء من المحتمل أن تكون قد وقعت ، وعن خلاف في الرأي من المحتمل كذلك أن يكون قد حدث ، فيما دار من نقاش حول فتح مصر والاحتفاظ بها ، ولكن مرد ذلك كله إلى تلك الظروف السيئة التي قصي عليها انقلاب ١٨ ربيع (الذي أوصل يوناوب إلى القسبية) فلم تكن منشأ هذه الأخطاء والاختلافات إذن بيان الواجب أو إسهال صالح الوطن . ثم طلب من الوافدة والرحمة من يوناوب تأويلك لرجل من جيش ثيوري الذي ربما أثاروا شكوك القنصل الأول من نياتهم بعد أخطائهم .

وهكذا أصبح من وقوده وقهم النخب في كتابة الرسائل واتراشق بينهم والدخول في مهارات لا حدود لها ولا طائل منها . في وقت كان الواجب ينتصهم جميعاً أن يسدوا خلافاتهم ظهرياً ، وأن يبدلوا كل ما وسعهم من جهد وجيلة جمع لكلمة ، وأن يوقفوا صف واحد أمام عدو يتهمون عليهم في العدد والعدد ، و بعد تدابر واسعة الاقتصار عليهم وطردتهم من هذه البلاد التي لم يعرفوا كيف يحتفظون بها ، ذلك أن الانجليز كانوا قد أرسلوا حملتهم إلى الشواطئ المصرية بعد رسالته من الأخيرة إلى يوناوب بأن قبيلة معدودة ، كما تحرك جيش العثمانيين على حدود البلاد المصرية لردودهم .

الفصل الخامس خروج الفرنسيين

١٠٤

كان الخلاف الذي حدث بين الجنرال مونتانيون قائد الحملة الفرنسية العام في مصر وبين الجنرال ريبييه ، أكثر القواد الفرنسيين حربه ، فمضى الحرب وأعظمهم تمعنا ثقة الجنود بعد وفاة كلير ، آثار حظيرة قصت على بيت استعمرة الفرنسيه التي أراد مونتانيون أن يسان آخر إنشاءها في مصر ، وأثر عيب الفرنسيين على معارة البلاد ومسط سلسلة من الهزائم كان الأمن كبيراً في استطاعة (جيش الشرق) أن يحتسبها ، لو أن انتقامه من الرحلين كان موجوداً ، فقد عزم عن انعدام كل نظام بين العائدين أن ظل مونتانيون رفض مره بعد أخرى ما كان يقدم به ريبييه من آراء حكيمة بصدد الدفاع عن (المستعمرة) فظفر إليها بطرة المسرب الحاقق ، لا بعيد عن حططه بقى رصمها نفسه ، أو عاوه هو عدد من لسط والقواد الذين ما كانوا رفوف ساماى ممرات الصدارة في الجيش ، بون رحلا عبر عبد الله حاك مونتانيون كان قائد الحملة العام في مصر ؟ وفصلا عن ذلك فإن أحد من معاصريه لم يشهد له بالندرية في مونتانيون الحرب والقتال وقد سب إعفاء آراء ريبييه وصاح رملائه الذين استموا إلى حربه فشل عمليات الفرنسيين العسكرية في الدفاع عن القاهرة وإسكندرية ضد جيوش الإنجليز والهنديين الكبار ، التي استطاعت هزيمة شرادهم الفرنسيين المنعزلة في أمهلا وإرغام القاهرة والإسكندرية على التسليم في وقت كان يواكب الفصل الأول منل تحصارى جهده لاجدة جيش الشرق في مصر ويتحد العده خلاصه ، ثم أفتح في معاه ففقد مع عزماته الإنجليز (مقدمات الصبح) في لندن من وصول أحبار اهرام مونتانيون وجرمه على بدء المفاوضات من أجل التسليم بتأني ساعات فقط (١) .

وفد يسوع كثير من تقدم مونتانيون جيش الشرق كان قد مال منه الأرض والنعب

وأشكت قوات الحروب حتى نقصت مدونه نغصاً ملحوظاً^(١) وذلك دون أن تصله مساعدات كافية سد ثمرته وتقبل عثرته ، فتركته الحكومة الفرنسية باصل صد جيوش تفوقه عندئذٍ وعدة ، بينما هي قد طلبت قائد الحملة العام بالمدود فترة أخرى من الزمن تمكن حكومة الفصل الأول من عقد الصلح العام في أوروبا ، واتخذ وعود جيش الحملة في مصر وسيلة مساومة من أهل الوصون إلى شروط أدعى لتأييد الصلح الفرنسية في الشرق^(٢) وكان من المآخذ كذلك أن بقي الفرنسيون في مصر^(٣) فتوطد قدامهم في تلك (المستعمرة الخسدة) لى من الرأى على إثباتها في الشرق على أسس (جديدة) تحتجب كل الاختلاف عن تلك الفواعل لى كان عمل الفرنسيين بها من أهم أسباب صياح إمبراطورهم الاستعمارية القديمة^(٤)

وقد يكون هذا القول سليماً في ظاهره ، وعقد ولاشك ما يؤيده لصدد بناء لمعمره المصرية الجديدة في حوزة الفرنسيين لو أنه كان ميسوراً للاستعانة عن حقائق التاريخ صرور الافتراض وثق أنواع الاحتمالات ، على أنه لاحدال من حاجة أخرى في أن مدوقائد الحملة العام كان في وسعه أن يطيل أمد مقاومه ودعا من ارمى لو أنه استمع إلى الصبح وأصغى لأراء سائر لقواد المحكيين ، وأحسن بصريف الأمور ، وفصلا عن ذلك فإن القول ترك الحملة وشأنها وإقصاء النظر في مصيرها من تدابير الحكومة عرسية إهام لا يستند إلى ثوب من الحقيقة ، ولا يمكن أن نرى العائد العام من مسئولة تعجيل محروح الفرنسيين من مصر وقتل محرمهم الاستعمارية « الجديدة » في أهم ميادين الشرق الجديدة .

لبنان برت وإجباء الحرية العربية

فقد حرص لبنان وهو يعصر على أن يظل طريق الاتصال مفتوحاً بينه وبين حكومة الإدارة في باريس ، وبذلك تصارى جهده من أهل اطلاع أعصابها على أمهات حوادث في مصر ورويدهم تآرائه ، بقصد اتحاد الوسائل الكفيلة بإمداد الحملة بالحد والحدائر والمؤمس ، وذلك على الرغم من نقطة الإخلاء الذين سهر أسطولهم في البحر

(١) Walsh - App. No. 38 p. 130² Wilson 208 209

(٢) Bertrand II 418

(٣) Rigault 391

(٤) شكرى : ٢٦ وما بعدها

الأبيض خصوصا لمع كل اتصال بين جيش الشرق وأرض البوطن وفي اليوم الذي غادر فيه نوبارت مع عمدة الحملة طولون في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ أمر بإعداد قافلة من السفن المحملة بالإمدادات اللازمة ، على أن يخرج قسم منها في آخر مايو يحمل لها من الجند إلى جانب ثؤن وانجائر ، بينما تصدر أسماء سفيدان مسلحتان من السفن إلى استولى على الفرنسيين من جمهورية أندلسية حوالي ١٠ يونيو^(١)

وقد قدم بالإشراف على غييد هذه القافلة نارجاك Narjac مدير المهمات ، الذي كلفه نوبارت علاوة على ذلك عوالة الحملة بأخبار الإنجليز من وقت معاداة الفرنسيين طولون إلى وقت وصولهم إلى تشواطى^(٢) النصرية ، وألكس نارجاك على عمله بكل مهمة حتى آخر إعداد ستة وعشرين مركبا ، واستطاع أن يرسل في عرس البحر اثني عشر مركب رند وصلت أكثرها إلى مالطة مباشرة ، ولعب التشاطى^(٣) المصري فالتت من رقابة الإنجليز^(٤) وما كان الأسطول الإنجليزي ذات الحركة في البحر الأبيض ينقل من موضع إلى آخر ناجث عن لاهة الفرنسية ، فقد استطاع الفرنسيون الاستيلاء على مالطة^(٥) ، وهل أبحار سقوطها إلى فرنسا مركب محدد تبصر له مصادفة أن يشهد هجوم الفرنسيين على الجزيرة^(٦) ، مد أن الإنجليز سرعان ما استدعوا الرقمة في البحر الأبيض لاستولوا في أواخر شهر يوليو على رسائل نوبارت التي نعت بها الفرقاطة (سبيل) Sensible ، وعمل كذلك أعلام فرسان القديس يوحنا ، وأسلاف الحرب التي عنهما الفرنسيون في مالطة ؛ أما حكومة الإدارة فقد حثت بحمل تفاصيل الحوادث الحسنة حتى بلغها أخبارها عن طريق رسون رل في نابولي ، وعندها صدرت بكتابه حطت هيئة إلى نوبارت في ٦ يوليو وصل به (بوميل) Les riple إلى القاهرة في ٩ سبتمبر^(٧) .

وكان ١٤ أريج أعضاء حكومة الإدارة وأخص مصاحبتهم تحوال أسطول الإنجليز ، يستمر في البحر الأبيض ، وحوهم من غنوره على ابحاره الفرنسية بعد إقلاعها من مالطة ، وما إن بلغهم في غضون شهر أغسطس أن ظهور (اسن) ثانية في صقلية

Corresp. No. 2586 (١)

Meurthe 28 — 9 (٢)

Nelson III 9 — 10, 24 5, 37 — 41, 44 — 5 (٣)

Jurien de La Gravière I. 359 (٤)

Meurthe 29 — 30 (٥)

(في ١٨ يوليو) ، يتمتعون بما عاودة البولينيا ، حتى انطمأنوا بعض الشيء لإمكانات
إفلات العبارة الفرنسية ، ووصولها لسلام إلى الشاطئ ، مصرى ؛ ولو أن عددا ما كان
يسعى في الوقت نفسه ، انتفاء كل خطر على الحملة ، أو أنه في استطاعة تلك الغفلة المجهدة
في طولول الإبحار إلى مصر ، بينما كان (مارحاك) معه فقد كل شيء في قدرة هذه
الغفلة الصغيرة على المرور لسلام ، واحتراق نطاق الحراسة لإبحارية في البحر الأبيض
من إن حكومة الإدارة ما لبثت أن أصدرت أوامرها إلى (مارحاك) بتسريح أكثر
سفن النقل بعد تمهيج شؤون والدخار لموسى كورسيكا ومالطة ، بصورة يمكن هاتين الجزيرتين
من مضومة الإبحار إذا اعدى هؤلاء علمهما^(١) وظلت حكومة الإدارة تترقب وصول
أخبار حاسمة من حاسد وبارت ترشدها إلى ما يجب عليها فعله

وأدرك نواب أهمية ورود حكومة الإدارة ، لأخبار الصحيحة عن سير عماره
الناجح ، وورول حملة لسلام إلى الشاطئ ، مصرى ، حيث رسو بين إلى فرنسا بعد ورود
جيش الشرق في جهة المخرج (٣٠١ يوليو) ، ثم فلتة ، ولكنهما لم يتطعما الوصول
إلى فرنسا ، ثم سجدوا أحدهما في رحله ماطة ، ومع الآخر في أسر الأتراك ،
ولما كان العرب قد أخذوا في قطع الطريق بين القاهرة والشاطئ ، فتره من الزمن
فقد تمرد على نواب إرسال أية أخبار عن تامين المواصلات الداعية ، ومع ذلك
بعد شاء سوء الظن فقع رسون له بعد أيام في أيدي الإنجليز (في ٧ أغسطس) ،
فاستوى هؤلاء على عدد من خطابات كانت معه ، ما اشوا أن يشرها مع غيرها من
الرسائل التي وقعت في أيديهم بعد ذلك وفي أواخر أغسطس عذر (موتى) Mothey
مصر رسائل من نواب ، فباع شكوا في ٢٨ ديسمبر ، ثم نارس في ١٦ أكتوبر ،
سكات هذه أوب ما وصل من رسائل ونواب إلى حكومة الإدارة رأسا^(٢)

واستصعح نوابت أن يثبت بصدقة من الأوامر اليومية الصادرة لجيش الشرق
مطبوعات الحملة من وقت وصولها إلى مصر ، مع سمن الدول الجديدة التي صبح لها
الخروج من ميناء الإسكندرية كل مساء من أواخر شهر ديسمبر ، ومع أن حرفة
كثيرا من هذه الوثائق قد أُلغيت العدو في أثناء محاولة اسمن أن تحتري بها نظامه

(١) Ibid 33 — 6

(٢) Copies of the Original Letters. (1799), Simon (An VII) ' (٢)
Mourthe 44, 46.
(٢٢)

الحصار البحري الإنجليزي ، بعد أطلعت سفين في الإبلات بحوالى خمسين رسالة منها ، نقلتها إلى عدة موانئ ، وروىه . وسهل بعد ذلك إرسال هذه الأوراق الهامة بها إلى باريس . وفصلا عن ذلك بعد غادر الإسكندرية (جوليان) Lallien ، أحد قومسييرى الحرب ، في ١٣ أكتوبر يحمل مجموعة كاملة من هذه الأوراق اليومية ، ومطويات جيش الشرق اعتمدت . وفي ٨ نوفمبر غادر الإسكندرية رسول آخر يدعى ثيبو Thibaut وما إن رتب في أنسكوفا حتى نادر يرسل صائفة من رسائل بوارت إلى حكومة الإدارة ، فوصلت باريس في ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ (١) .

وقد صادف ورود هذه الرسائل الأخيرة ، انتشار إشاعات في باريس عن أن حكروها قد لحق بهد الحملة العام في مصر . فمن فائن إنه لقي معه في اتصال مع الأرائك تحت أسوار الإسكندرية . إلى آخر يؤكد وقاه في أثناء ثورة سبعة شب بالهاهرة وكانت (هـ) مصدر هذه الإشاعات داعب كذلك في لندن ، حتى إن حكومة الإدارة وجدت لزاما عليها بعد وصول رسائل بوارت الأخيرة يوم واحد فقط ، أن تنكب في ١٤ ديسمبر إلى الأميرال بيبيل لو بلای Prev de la ley ليستعمر في أنسكوفا من الرسوب (تدو) عن حقيقة الحساب في مصر على أنه سرعان ما هدا روع أعضاء حكومة الإدارة ، عند ما شرب (عربة فيبا) Gazette de Verne مكديا قاطعا لهذه الأقوال ، وأكدت أن أساء الهاهرة لا تشمل سوى قيام ثورة في الهاهرة ، وقبل أحد المواد طسب (٢) وما إن طمأنت حكومة الإدارة على حدا قائد الحملة العام . حتى شرع أعضاءها محصور ما جاء في رسائل بوارت من آراء ومفترحات ذات صلة عوقف الحملة وجيش الشرق من الناحيتين السياسية والعسكرية خصوصا (٣) .

وقد تحدث بوارت في رسائله عن هزيمة في قبر البحرية ، وأنا كد لدى أعضاء حكومة الإدارة حول لكارته من المعلومات التي أمدهم بها (لاسيك دي شايه) Blanquet de Chayla ، وكان هم ما لفت نظر حكومة الإدارة بإصرار بوارت على إنشاء أسطول جديد في البحر الأبيض . يتألف من السفن الثلاث التي تحت من موقعة أبي قبر البحرية ، والسفينة التي بقيت في طولون وأنسكوفا ، وإحدى سفن البندقية

(١) Meurthe 67

(٢) سكي ١٨١ - ون في هذه الثورة دبوى وسلكوسكي

(٣) Meurthe 67 - 9

واستبدل به قائد آخر للحملة من بين الجماعة التي باؤت الاستمرار على رءسهم و التي ادعوا وجودها زوراً ومهتاناً (١) .

وكان مما حمل المواد على الاعتقاد بأن مو هو صاحب هذا للعمال الذي أراد من نشره في فرنسا تلطيف سمعهم بين مواطنيهم أنه حدث أن عرفت في مصر وثقت الصحف الفرنسية التي نشرت كل تلك الرسائل الرسمية التي صلت بها مو إلى فرنسا في غضون شهر يوليو ١٨٠٠ وكان المركب الفرنسي (أورر حن) الذي عذر هذه أسلاد في ١٠ يونيو قد حمل هذه الرسائل إلى فرنسا فاعترضه ربييه ورملاؤه أن مو قد محمد إلى إرسال هذا المركب سرّاً من الاسكندرية حتى يدع في أرض الوصن بناء تأليف حرب مداوىة للاستعمار من أولئك الذين عرفوا تأييدهم لاحتياق العريش

ولما أن تصادف كل هذه العوامل لإدراج المواد العريشيين أن مو إنما كان يعمل لإحتياق الأديهم وإهدابهم وتخطيهم سمعهم في مصر وفرنسا معاً وإثارة كراهية لقنصل الأول سدهم ، صبح عزمهم على أن الوقت قد حان للعمل وبد الصمت طهرياً ، «لأن الضرر كما قل ربييه قد أصبح الآن ظاهراً واضحاً» ولا سبل إلى المראה وإنداهية إذا شاءوا تحسه . وعلى ذلك فقد نادر هؤلاء تجرر خطابات سدهم اللهجة إلى مو يطعون فيها أن يبي القائد العمام بهم رعباً كل تلك الاتهامات التي ألصقتها بهم دون حساب بطريق غير مباشر ، كما هددوه بإداعة هذه الخطابات ونشرها على الملأ إذا هو أحسن عن تكذيب الاتهامات الموجهة ضددهم (٢) فبشأت من ذلك حال عربية حقا عند ما شغل القواد ورئيسهم تبادل الرسائل في الفترة التالية وإرسال الخطابات إلى أصددهم وإلى القنصل الأول في فرنسا في وقت كان العدو قد اتخذ أهته للانصاف على البلاد وعرو مستعمرتهم رأ ومخرا .

قد بحث ربييه بكتاب إلى مو في ١٤ فبراير ١٨٠١ (٣) يسأل فيه عن العرص الذي حدا بقائد الحملة العام إلى إصدار أمره انوى (في ٢٣ بلعور) ، ويطلب إيصالاً كاملاً لمعى نشر تلك الرسائل التي قال إنها صادرة من محلفه ، بعد وصف حادث الإعداد على حياة القنصل الأول ، كما يقصد مو من ذلك إلى أن هناك عدداً من الأفراد في جيش الشرق لا وطنية ولا شرف لهم يحولان دون انصافهم إلى أعداء

Ibid 143 (١)

Ibid 144 (٢)

Ibid 176 — 8 (٣)

البحر ، وصلا عن ذلك فقد أوفى الوقت الذى يجب فيه إقناع أساطيا حديدة الجمهور .
 بإخراج أسطولها من الموانئ التى تطل رابطة فب دون حراك فترة طويلة من الزمن ،
 وما كان بومارت يتعد بإمكان إرسال « الحلة الكبيرة » على اعتراف عادام ابدا عن
 فرنسا ، فقد صبح بإخراج الأسطول الفرنسى الزائى فى ميناء « رست » ورساله
 إلى البحر الأبيض ؛ أما إذا اتضح كذلك أن حكومة الإدارة عاجزة عن « فعل شئ »
 فى برلندة^(١) فقد يكون من الأفضل أن تعمل هذه الحكومة مبدئ الحرب البحرية
 إلى البحر الأبيض المتوسط ، لأن الحرب فى هذا الميدان سوف تسبب بلاخيار صعوبات
 عدة ، وتكبد نفقات حسيمة ، منشؤها اضطرار هؤلاء إلى تبوئ أسطولهم الكبير
 فى حرر لأرجيل . مما يبعد الفرنسيون من مراكزهم فى مصر وكورفو وما عدا
 وإيطاليا ، كقواعد يديرون بها ربح هذا القتال لبحرى ، وعلاوة على ذلك فإن
 الأسطول الفرنسى سوف يجد فى الإسكندرية مدعاً يقية شر مطاردة العدو سد الحاجة
 إذا ظهر فباس أنحمى لياه فى هذا لياه خطئ (رويس) السابق ، وثبتت صلاحية
 اللياه لاستقبال السفن ذات الحولة الكبيرة .

ثم انبرى بومارت مع الحجة على ضرورة اتحاد كورفو قاعدة هامة رسكر
 عليها الأسطول الفرنسى مدافعه من العدو ، وشل حركتها من جهة ، ولأن جمع
 الأسطول فى حرر الأيويان سيح الفرصة من جهة أخرى لمراقبة اساب الهى ومع
 أن بومارت ما كان يعترف وقتئذ بقدام اساب الهى على قطع علاقه مع الجمهور ،
 بعد سؤرته الشكوك من ناحية الفرنسيين ، حتى إنه كان يتوقع بشوب الحرب معهم ،
 محله مكرر يقول ضرورة ذهاب باليران إلى القسطنطينية ، ثم إرسال ردودت
 Bernadotte فى الوقت نفسه على رأس قوة إلى كورفو لمرور الثورة ولبيا فى
 حماية الأسطول المرمع إنشاءه ، حتى يحجر أكر قوة مستطاعة من قوات النمانيين
 فى أرض اللورة .

وقد كان بومارت محملاً ولا شئت فى آرائه بعدد إرسال أسطول فرنسى إلى كورفو
 فإن (ديو) Dufour مدبوب حكومة الإدارة فى كورفو م يأت أن بحث هو لآخر
 فى ٧ ديسمبر بتقرير إلى حكومته ، يتحدث فيه عن إحدى الوسائل التى يرتبها لعداء
 « ترس » الأديراتيك ومعمره فى حورة الفرنسيين ، وذلك بإدخال أسطول من عشر

بوارج أو التي عشرة مائة في هذا البحر لطارده العدو ، وإرسال أسطول مثله إن أمكن ذلك إلى كورفو حتى يحمل النجدة إلى مصر . وقد وصل تقرير (ديوا) إلى حكومة الإدارة في ١٠ مارس من العام التالي ، ولم يكن له تأثير مباشر على قرارات الحكومة . ومع ذلك فقد كان من الواضح ، أن العسكرية الجوهرية في رسائل بوارج ، وإلى ما كان في وسع حكومة الإدارة أن تتجاهل أهميتها ، هي إحياء تلك البحرية التي تخطمت في موقعة أي دير البحرية . وفصلا عن ذلك فقد رسم بوارج الطريق الذي يجب سلوكه من أجل إحياء هذه البحرية أولا ، وتأمين حيش الشرق في مصر ثانية^(١) ، وأصبح التزاما على حكومة الإدارة أن تدير الموقف بصورة حادة سياسة حكومة الإدارة

وكان واضحا من مبدأ الأمر أن إنشاء الأسطول الذي اقترحه بوارج من السفن التي ذكرها في رسالته تحول دون عمقه صمودات عنه . مهما أنه لم تكن لدى الجمهورية من مائة أسطول روس سوى ثلاث سفن خشب ، منها سيمان محاصرتان في ماطة ولا ممدى عن بقا ، السبعة الثلاثة في كورفو للاسطلاع عمقة الدفاع عن هذه الحرية ، وفصلا عن ذلك فإن سفن السبعة التي ذكرها بوارج كانت لا تصلح للخدمة العسكرية مع الحاجة إليها ، إلى جانب ذلك في نقل اللؤلؤ إلى البحر إلى طلت في حورة الرئيسين في البحر الأبيض ، أما السفن الموجودة في طولون فكانت معدة لنوين ماطة ، بين أحوالها المهترئة في أن تكونا تمتد للبحار منها إلى كورفو بقده أمير البحر (ليفين لوبلاي) الذي صدرت إليه الأوامر في ٤ أكتوبر بضرورة إعدادها لهذه الغاية ، ودأب (لوبلاي) على تسليحها مند وصوله إلى أن يكونا في شهر ؟ أصعب إلى ذلك أن سفن السدقية الثلاث لم تكن صالحة للخدمة فقد فشلت جميعها (في ديسمبر) في حمل النجدة التي أرسلت بها إلى ماطة وكورفو . واضطرت إلى الكومس على أعقابها بسبب دخول المياه في خطوطها ولربوع غيبتها ؛ وعلى ذلك فقد رفضت حكومة الإدارة هذا المشروع على اعتبار أنه غير عملي ولا سبيل إلى تفيذه^(٢)

علم أنه لم يكن هناك شك من جهة أخرى في أن الحرب لا يمكن أن تنتهي مع الحب ؛ وما تولت إمبراطات الفرنسيين في إيطاليا في يونيو ويوليو ، وأعلنت نابولي الحرب

في نوفمبر ، واحتلب حيوتشاروم بعد أن أرفع الفرنسيون على الاسحاب منها ؛
 ويوصف حكومة الإدارة ظهور قوات العدو على سهر الراي والأديج ، وانكب أعضاؤها
 على إغراق الاستعدادات العسكرية العظيمة بكل سرعة ، وصعب الخطط الكثيرة
 لتحقيق أهدافه من ذلك ما اقترحه بعض القواد الفرنسيين من إرسال جيش إلى
 ألبروس للرحيل عن طريق سالفوك إلى القسطنطينية في لوب الذي يكون قد بدأ
 فيه توارث كذلك من جهة بالرحيل على العاصمة العثمانية من جهة سوريا ، والاكات
 هذه الشروعات وغيرها أقرب إلى الخلق منها إلى الحقيقة ، وجمع حكومة الإدارة من
 هذه المعامرة الخطيرة صيغ نطاق الحصار وفتش على حرر الأوسان التي في حوزتها
 بعد وحب على الحكومة أن تكرر في وسائل أخرى أخرى معها وألم عامة ووجدت
 الحكومة أن لاماس لها في الهامة من اعمل برشادات توارث الأخرى ، من حيث
 إحراج أسطولها المحاصر في رست ، ورسالة إلى البحر الأبيض ، ثم محاولة إقناع
 حلفائها الأسان بجمع جهودهم لاجرة إلى جهودهم واستالة العثمانيين إلى دعوة الزارع
 القائم بينهم وبين الفرنسيين واستلان سحهم

وكان مما حمل حكومة الإدارة على إحراج أسطول بروي Brix من رست وإرساله
 إلى البحر الأبيض فتشها في محاولة البرول في إرلده ، وبعاء أي أمل لديها في إمكان
 البرول في انجليزية ، وبسر (حجاب الكثرة) على هذه الجربة ، مادام وارت متعبا
 في القاهرة ، وقتها سبب ذلك أنه من العث احتجاز الأسطول في رست دون أي
 عمل . وكان فشل حكومة الادارة في إرلده وشلا درها ، ذلك أن حكومة الادارة
 اضطرت إلى إعفاء الحطة التي أعدها توارث لاشراك معها لغزو برده بسبب قيام
 الماطعات الارلده الحسوبة بالثورة في آخر مايو بعد وحدث حكومة الادارة بعد
 حروح أكثر معها الحربية مع حملة توارث إلى مصر ، وما سكتته من عتقات في
 سبل إعداد العتارده الفرنسية ، أنه من الافضل لها أن تقصر نشاطها على وربع المال
 والسلاح على الثوار الإرتلديين الذين رلوا في درسي وهمورج ، وعهبر عدد من
 السفن في موانئ (سكس) Texel وديكرنك ورست ولا روشل ، كانت أهمها الحملة
 التي تألفت في رست من بارحة ونماني عرقاطاب ، وصعب جميعها تحت قياده الجراح
 « همرت » Humbert الذي عذرت قواته الثعور الفرنسية في أغسطس ، وبعثت
 الشواطئ الإرتلدية في أغسطس ، ورلت في خليج (كيللا) Kilaia في وقت
 كان الاعل قد عكسوا منه من إجماد الثورة ، فاضطر (همرت) إلى التسليم في ٨ ستمبر

وعندما خرج بعد ذلك الأميران (رومبور) Brompton بقصد الشاطئ الايرلندي كان نصيبه الفشل ، وسلبت سعة العدو في ١١ أكتوبر ، ووصلت باريس أخبار هذا التسليم في وقت كانت قد غادرت فيه ارقاطات أخرى موافى سكل ودسكرك ، ولاروشيل قضى العدو على عديمها وعسكت لأخرى من الافلات والعودة إلى قواعدها بعد أخطار كثيرة (١) .

وفد مع هذا الفشل أن اتسعت حكومة الادارة تحت ايام نايه عمليات عسكرية في إيرلنده ، وبما كان رأى أعصابها قد انعقد كذلك على عدم إمكان الصمود في حرب بحرية صر بحترقة في الخط الاطلسي ، فقد قرر الرأى على إرسال الأسطول الهولندي بقيادة الأميران (روى) إلى البحر الأبيض ، البدان الوحيد الذى يمكن فيه اسعار ، طريقة محمية بين هذه اموات البحرية والأخرى الرينة المعقلة في إيطاليا وكان مما قوى هذه الرعة لدى حكومة الإدارة وصول رسائل بوارب اى ايت ٣ (تيو) من أسكوا إلى باريس ، وهى الرسائل التى وصلت باريس في ١٣ ديسمبر ، ويتحدث فيها قائد الحملة على وجه الخصوص عن مرانا وجود بحرية فرنسا قوة في البحر الأبيض فأصدرت الحكومة أمراً بحدسة أم طسب ، سرورة عهدهم معن أسطولها في رست وإعدادها للحروح إلى البحر إلى قرب وقت مطاع . وقد بدأ من ثم تسليح معن الأسطول في رست وتغويها وحلب الزحان إلى على الرعم من الصعود . التى أثارها (شير) Schérer والعسكريون سبب حاجتهم إلى الحدود وتعمير القوات ابحارة في إيطاليا ، وللقضاء على أية ثورة قد يهوم بها للمكون (الشوان) Chouans في مقاطعة برنطاني ، أو رملان في مقاطعة (لنديه) Vendée وعينت حكومة الادارة تحت الوسائل التى تمكنها من تمرير أسطول بروى عند الفراغ من تجهيزه وحروجه إلى البحر الأبيض . وتناوب هذا اسحت سابع استعداد خلفاء الجمهورية بدل هذه اللعونة ، وقيمة مائتله حكومة الادارة من جهود في هذه اساحة لاستتالة هؤلاء الخلاء إلى معاونتها .

ومن أول الأمر سدت حكومة الإدارة فكرة الاستعانة بالأسطول الهولندي لعدم وثوقها بولاء هذا الأسطول ، ولأن (روى) نصه مالمث أن قدم تمبراً إلى حكومة الإدارة في أول فبراير سنة ١٧٩٩ يشكو فيه من سوء بوابا الهولنديين ويسوق الأدلة والبراهين على ميولهم اندائية ، وعشى من وجود الجواسيس الانجليز في حوزة

(فالتبرين) Wacheren ، وعلى ذلك فقد اكنمت حكومة الإدارة بأن يبقى أسطول « حليتها » في مياه (تسكل) ، يشغل الاعطار بأمرأة للسمنة في بحر الشمال من جهة ، وحراسة شواطئ إرلندة من جهة أخرى ، خوفاً من أن يدير الفرنسيون معاهدة حدهم بولا معانها على الشواطئ الانجليزية والهولندية مما وفي وقت واحد (١).

وكان من الطبيعي أن يحوّل الفرنسيون أنظارهم إلى حليتهم الأخرى أسابيا ، وكان لهذه أسطول ترين وحداته في « وافي » (فيرول) (Ferrol) وفادش (Cadix) وقرطاجنة (Cartagena) ويوم الأسطول الانحدر في الأطلنطي والبحر الأبيض على محاصرتها من مدة طويلة . وكانت أكثر وحدات هذا الأسطول في قادش بقيادة أمير البحر الاسباني (جورج دي مازريدو) Mazerredo . وفي ١١ يناير سنة ١٧٩٩ «وصح» (روى) لورر الخارحة نايران ، تهمية بوجيه لدعوة لأسابيا حتى بدأ استعداداتها من أجل هيئة أسطولها لاقام عمل مشترك مع الأسطول الفرنسي « في وقت قريب جداً » فصع أسابيا أسطولها في قادش واللواء الاسباني الأخرى تحت تصرف الفرنسيين ، فذهب السفن الوحيدة في (فيرول) إلى إحدى الموانئ الفرنسية في المحيط الأطلنطي ، وذهب ثحواسها الزايدة في قرطاجنة إلى طولون ، وتستدل بأعلامها رتبة الجمهورية ، ولم يكن من رضى (روى) اطلاع الاسبانيين على لعرص الحقيقى من اتحاد هذه الخطوة أى العمل في البحر الأبيض المتوسط إلى جانب الأسطول الفرنسي ، والسبب في ذلك أن الحكومة الأسبانية كانت ترعى من وقت لآخر (أبي قبر البحر) إرسال أسطولها إلى البحر الأبيض للتجول في المياه الاطرية كجاءت حكومة الإدارة ، بدعوى أن (مازريدو) يعجز عن حرق نطاق الحصار الذى صبره (جرفيس) Jervis على قاعده الأسطول الأسباني في قادش . وتلك دعوى ما كان يعيب عن فطة حكومة الإدارة إدراك ما اسطوت عليه من عوامل الإحراق السياسى ، ذلك أن أسابيا ادرت في الوقت نفسه (سنتبر سنة ١٧٩٨) يظهر رعتها في إرسال أسطولها للعمل ضد الإنجليز في إرلندة ، حير ميدان يتكن الحلفتين (أسابيا وفرنسا) من توجيه صره فاصمة إلى انجلترا منه . وتقدم الأسان بهذه العروس في وقت كانت قد باتت فيه محاولات حكومة الإدارة في هذه الناحية بالفشل والخسران ، وكان من

الواضح أن مشروع عرو إرلندة سوف يكون نصيبه الإيهان السريع من جانب حكومة الإدارة^(١)

يد أن إحياء تعرض الصحيح من دعوة الأسبان إلى سلم أسبيلهم في قادش وغيرها للفرنسيين ، سرعان ما أثار اعتراضات عدة من جانب مثل هذه الدولة في باريس ورئيس حكومتها في مدريد . ورفضت أسبانيا رفضاً قاطعاً فكرة السلم الأسطوري ؛ ولم توافق نتائجاً على حرمانها من أسطولها في درطاج ، في وقت كانت تريد الاستعانة به في استرداد حرره ميورقة ، التي أسولى عليها الإنجليز في نوفمبر ١٧٩٨ ، على أن يتم ما أثار معارضة الأسبانيين كان إصرار حكومة الإدارة على إحياء العرض من تمهيداتها البحرية للزعة في البحر الأبيض^(٢) .

وقد رادت صعوبات حكومة الإدارة عندما وجدت اشتطيه الإفريقي في البحر الأبيض معقلاً دون سعيها في وحاشات الحرب (الجزائر وتونس وطرابلس) ، وكان لقاء العلاقات الودية بين فرنسا والولايات ثلاث مع كبر كطريق للاتصال بين فرنسا وجيشها في مصر ، وعدد بوابات وأعضاء حكومة الإدارة آمالاً كبيراً على إمكان إرساء سريته عن طريق الوحافات ، ولكن الذب الذي ما لبث أن طلب من الوحافات إعلان الحرب على فرنسا ، وتوعد لهذه إغاثة مدعومين إلى الجزائر وتونس وطرابلس ؛ فقص داي الجزائر على القنصل الفرنسي وصحبه بالخدم في ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ولم يخلصه من هذه الأعلان سوى تدخل بعض التجار اليهود من أسره بكرى أدبت التعاضد في مarseilla والجزائر ، وفي يناير من العام التالي قص الثاني على وكيل القنصل الفرنسي في تونس ، وصودرت بعض السفن الفرنسية في أساء ، وفصل مثل ذلك أيضاً حاكم طرابلس ، وما كانت مراكنش تمنع عدد كبير من الاستقلال ، وقد رفض سخطها أن يقطع علاقاته مع فرنسا ، ومع ذلك فقد أعفقت مراكنش والجزائر وتونس وطرابلس مواهبها دون السفن الفرنسية ، سواء خوفاً من الإنجليز أصحاب السيطرة في البحر الأبيض ، أم ترولاً على رغبة الأتراك ؛ وطبق قراصنة الوحافات يدرون على سواحل تونس والجمهورية الرومانية في إيطاليا ، واضطرت حكومة الإدارة إلى لقاء القنصل على طائفة من بحر هذه الوحافات ومصادرة سفنهم ، إلى جانب الإذن بالفرصة في المياه

Ibid 49 — 53, 78 (١)

Ibid 79 — 80 (٢)

الإفريقية^(١) ، وضاع كل أمل في إنشاء طريق سهل لمواصلات النطمة بين فرنسا ومصر من هذه الناحية ، ولم يبق من وسيلة لدى حكومة الإدارة لإيصال ريدنها إلى مصر أو عيادها إذا شاءت سوى محاولة استخدام التواني الإيطالية

ومع ذلك فإن استخدام هذا الطريق الإيطالي لم يكن مأمون العواقب . لأن الفرنسيين لم يكونوا في هذه الآونة قد أحصوا كلاراً عاماً لسلطانهم ، وهي أقرب الجهات في طرف شبه الجزيرة الإيطالية الجبوى اشرقى إلى مصر ، فضلاً عن أن أنكوبا مياء الفرنسيين الهام على الشاطئ الإيطالي الشرقى كانت متوعدة في غير الأدرياتيك ، ويفصلها التوار الطيان ولصوصهم عن سائر مراكز الفرنسيين في إيطاليا . بيد تعتمد حكومة الإدارة على هذا المياء في مؤي كورفو ، وكان الأسطولان الروس والعثماني قد شرعا يطعان على كورفو الحصار منذ أربعة شهور ، وظهر الروس علاوة على ذلك بقظة كبيرة في حراسة مفاهد الأدرياتيك ، فاستطاعت إحدى فرعاتهم أن تأسر مركباً كان قد خرج من أنكوبا يحمل (لفرانك) رسولا إلى جيش اشرقى في مصر ، مردود رسالة من حكومة الإدارة إلى بونابرت بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، فوقع لرسول ورساله في يد الروس . غير أن حكومة الإدارة كان لا يسمها إعمال الطريق الإيطالي بعد أن أغلقت الوعاقبات موااسها في وجود الاسبان العرسية ، واضطرت بسبب محرج الأحوال في ميادين الحرب والسياسة في أوروبا إلى إطلاع بونابرت على كل ماطرأ من حوادث جديدة ، فأعذب تفرراً في ٣ مارس ١٧٩٩ لحصن فيه حوادث الحرب والسياسة الهامة ، ودكرت قيامها بتسليم أربعة وعشرين مركباً في برست ، دون بيان الجهة التي سوف يقصدها هذا الأسطول بعد استكمال عدته^(٢) ، وقد حمل هذه الرسالة من أنكوبا (رجمي) Ragmey أحد عملاء الحكومة و (لسكوت) Lucotte أحد صايطها ، ولكلها ما لث أن أحدهما في مهمتهما عندما ارتطمت سفينتهما الصخرة بالصخور بعد ذلك . وعادا أدراجهما إلى أنكوبا ، ولم يصل تقرير ٣ مارس إلى بونابرت^(٣) .

وفي أثناء محاولة (رجمي) و (لسكوت) الخروج من أنكوبا ، كانت حكومة الإدارة قد بذلت جهوداً أخرى لإيصال رسالة ٤ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى بونابرت ،

Ibid 84 — 5 (١)

Corresp. Inédite VI 239 (٢)

Meurthe 87 — 8 (٣)

فاساع (بلعيل) Belville فصلها في حوّه ثلاث سنن : إيرييس Isis ، أوريرييس Osiris ، سيراييس Serapis ، وحملت (أوريرييس) ويان مورو أومورفو W nan Moreau (Wynand Mourveau) مروت رسالة في بوشير ، فغادر ويان حوّه في ٩ فبراير سنة ١٧٩٩ ، وبلغ أنقير في السادس والعشرين من الشهر نفسه ، وذهب إلى القاهرة ، فأرسله منها (دوحا) إلى بونابرت تحت أسوار عكا ، فمكثت رسالة في بوشير سنة ١٧٩٨ أول خطاب وصل إلى قائد الحملة العام من حكومة الإدارة منذ خطاب النهضة الذي أوصله إليه (لوسيل)^(١)

وهكذا أصعب كل جهود حكومة الإدارة في محاولة الاتصال بقائد الحملة في مصر منذ عظم أسطول روس في أفقير ، عن إرسال ثلاث سنن . لمحت واحدة منها حسب في الوصول إلى الشواطئ المصرية ؛ ووجه كثيرون القوم ولأبيس حكومة الإدارة على إخمادها ، وإهمها آخرون لعدم لاهمهم بمصر حبش الشرق ووثقه ؛ وكان بوبس شقيق بونابرت ، الذي بلغ باريس في هذا الوقت بعد رحلة شاقة (مارس سنة ١٧٩٩) ، من أشد المائمين على حكومة الإدارة ، واعتقد هو وحوته الآخرين ، وعلى وجه الخصوص لوسيان Lucien أن الإدارة قد تركت حبش الشرق وشأنه ، وأصر لوسيان على ضرورة إرسال من التزم بكثرته إلى مصر سهل إلى القائد العام أخبار الوطن ، وبذل قصارى جهده لتأييد آراء بونابرت بشأن تنظيم بحرية قوة في البحر الأبيض ، وكان موقف الأسرة الحسنة ، إلى جانب فسخ حكومة الإدارة بمثل عوازلها السياسية سواء في أسبانيا أو في وحققت المغرب . تم إعلانها الحرب على النمسا (في ١٣ مارس) ، وبعد الصلح في إيطاليا والنمسا ، أكرم الأثر في حمل هذه الحكومة على إحراج أسطولها نهائياً من رست وإرساله للعمل في مياه البحر الأبيض^(٢)

خروج روي من رست :

عين الأميرال روي قائد عاماً للقوات البحرية الموجودة في رست في ١٤ مارس ، ثم أبلغ في اليوم التالي تعينات حكومة الإدارة ، وحوهاها^(٣) الخروج بأسطوله من رست والدخول به إلى البحر الأبيض لمحطم العدو أو على الأقل لطرده منه ، على أن يتعاضد روي الاشتراك مع أسطول الإغليز في المحيط . وعند قادش ، حتى إذا

Corresp. No. 4382, Jonquière V 666 - 8; Ibid 89 (١)

Meurthe 91 - 3 (٢)

Jonquière V 136 Sq. + Ibid (Pièce No 7) (٣)

بمع حل طريق ووجه ألا مدروحة عن الالتحام مع العدو حتى يستطيع العود لسلام ،
عقله حينئذ أن يطلب معاونه الأسطول الآسياني ، أما إذا سهل عنه المرور فالواجب
يعصيه أن يترك الآسيانيين في قاذش حتى يحتجروا بفضل عدم تحركهم منها شطراً من
أسطول (حريس) أمام مساء ، فتجف وطأة مطاردة هؤلاء للأميرال الفرنسي
في البحر الأبيض ، وطدت حكومة الإدارة من أمير البحر أن يذهب أسطوله
إلى الشاطئ ، الإيطالي ، كي يحمل من هناك حوالي الثلاثة أو الأربعة آلاف جندي
بأفهم ودحارهم ، فيقل أكثرهم إلى كورفو التي كانت تسلم للعدو ، ويترك كذلك
بعض الجند في مالطة ، ويعمل ما بقي من هذه القوة إلى الإسكندرية .

وقد تلاشت الحوادث بعد ذلك بصورة جعلت من الحكمة وأصالة الرأي التمتع
عروج الأسطول من رست للمعد في مياه البحر الأبيض ، ذلك بأن السفنة
(سانت جان باتيست) Saint - Jean - Baptiste وصلت إلى طولون في ٥ إبريل
تحمّل رسالة من بوارت (في ١٠ فبراير) ^(١) بحدث في صلبها عن استعدادها لبدء
حملة في سوريا ، وبسط ثبات هذه الحملة ، ووصلت رسالة بوارت إلى حكومة
الإدارة في ١٢ أبريل ، ثم مالت أن تأكدت لدى حكومة الإدارة حاجة جيش
الشرق إلى بعض البحري ، عندما رل في طولون أحد صباط البحرية الكونت أميرال
(برية) Pérée ، مع مركبي استطاع أن يخرج سهما من الإسكندرية في شهر مارس ،
تحمّلين بالجرحى وعدد من الجنود الذين قدموا قوة الإحصار في أثناء حملة ابراهيم
المشهور على القاهرة ، واستشار أمراء أسباني بين حدد الحملة ؛ وبملا عن ذلك فقد
محدث هذ الصابط عن انتشار انباء والدوس في الإسكندرية ؛ وقرار بخبرة (روس)
القدماء من صفوف البحرية . وقد ظلت الأخبار المزعجة تترى بعد ذلك على حكومة
الإدارة . عندما لما فشل الأسطول الصغير الذي خرج من انباء المصرية تحمل
مدافع الحصار الثقيلة إلى بوارت أمام عكا ، فوقف معه في يد السير سدي سميت
(في ١٨ مارس ^(٢)) ؛ وطارت لشتعات من كل جانب ، ولعل أثقل هذه وطأة على
مسمع أعضاء حكومة الإدارة كان إشاعة سقوط كورفو دنائها في يد العدو منذ
٣ مارس ^(٣) . وعندئذ قرر رأي على ضرورة خروج أسطول (روي) من رست
دون إبطاء .

Corresp. No. 3952 (١)

Barrow I 265 (٢)

Meurthe 109 (٣)

وفي ٢٦ ابريل سنة ١٧٩٩ خرج (روى) إذن بأسطوله بعد لآى وعاء ،
مسيراً فرصة التراخي في المرافقة من جانب وحدات الأسطول الإبحري ، التي وضعت
على حصار رست ، وكان أسطول روى سالف من خمس وعشرين بارجة ، وثلاث عشرة
حديقة ؛ وتلك قوة ما كان في وسع الإبحري أن يهنيوا بها ؛ وكان بما أقص مصاحب
هؤلاء على وجه الخصوص أنهم طلبوا يجهلون مقصد (روى) ، بعد السكون الشديد
الذي أحاطت به حكومة الإدارة أعراضها ؛ فاعتقد الإبحري أن روى إنما سعى للذهاب
إلى إيرلند ، أو أنه يريد التوكل إلى البرتغال خلفه الإبحري لشن المعركة عليها ^(١) .
واستطاع روى السر حتى سمع مياه قدش حيث كان أسطول الإبحري مياده Keith
لا يزال واقفاً على حصار الأسطول الأساسي في مسانها وعرجب للأمرال الفرنسي
فرصة مواتية للاشتباك مع الإبحري في معركة كان الأمل كبيراً في كسب ، وغدس
أسطول (مريدو) الأساسي من حصاره وإحراز السيطرة الكاملة في البحر الأبيض
تصوره يمكن الفرنسيين من الاستيلاء على سمن اروس والعنبيين ، وإشاعة الخوف
بين وحدات العرب ، وإعادة فتح المواصلات مع حاش الشرق ، ل يهدد القسطنطينة
داتها على حد قول لبران بالاقتراب من الصايق ^(٢) ، غير أن ثبت من ذلك لم يتحقق
سبب هبوب عاصفة هوجاء ما لبث أن أرغم روى في ٤ مايو على التوكل في البحر
معيداً عن عزمه ؛ فباع السير إلى جبل طارق دون أن يحدث أي انجماع مع الإبحري ،
أويم ذلك لاتصال استود بالأسطول الأساسي وفي ٥ مايو دخل روى إلى
البحر الأبيض

وكان محاح روى في دخول هذا البحر حدثاً ولا شك له خطره ؛ ذلك أن
وحدات الأسطول الإبحري في البحر الأبيض كانت موزعة في مراكز مهمة عكا
والاسكندرية وصعفة ومالطة وناولي وميسورفة ولا يزال جزء منها راسماً أمام
قدش ^(٣) وما كان من لتصدر اجتماع هذه القوات لاعتد سراً وفي سدد واحد
درلة روى ، فقد أصبحت السيطرة في البحر المتوسط من نصيب روى ولا شك ؛
وكان في وسع هذا القائد البحري أن يؤد هذه السيطرة لو أنه أوتي قدراً كافياً من
الحرأة والمهارة ، وواصل السير رأساً إلى مالطة أو الاسكندرية أو سكا . وآية ذلك

(١) Douin (Campagne de Bruix) 3, 79, 83

(٢) Jonquière V 160

(٣) Fortescue IV. 2. 637

أن الإبحار ما بينهم حر وحوادث أسطوله في البحر الأبيض حتى انسحبوا منهم من
أمام ماطة فترة من الزمن ، كانت كافية بتأمين حماية هذه الجزيرة . ولكن روى
على رغم من معرفة العددي على العدو شيئا بالمعرفة أسطوله ، وفصل الذهاب توجا
في طولون فليهما في ١٣ مايو . وأحد سجل الأعداد عن عدم دهاه في ماطة
أو عرها من المراكب التي سبق ذكرها . ذلك أن روى كان لا شيء في صلاحه
سواء للملاحة بطوله ، واحتمال وطأة التقلبات الحدي ، وعنى أن تعرضه بحارته
بالسر إلى مصر خصوصا إلى بعض المخاطر التي أودت بأسطول روس من قبل ، لأنه
كان يعلم حق العلم أن الإبحار سوف لا يوافق عن جمع شمل وحداتهم المتفرقة
وسوف في مظارفته (١)

ومع ذلك بعد نجاح وحوادث روى في طولون تعرضه لحكومة أن تمهد له
العداء عدة هامة . من ثم ما بعد ملاحظته تشبها ذلك لتعرض الجوهرى الذي
ظهر على موقعها من فوجها الحدي في مصر بسبب ما لحق بحيوثهم من هزائم
في طاب عددا في الحرب ضد النمسا (وحلفها الزودا) وعلى ذلك فبه بدلا
من الحكي في رسائل عدة بحداث إلى مصر ، وطدت حكومة الإدارة العزم على استدعاء
جيش الشرق ووجهته إلى أوروبا وعلى ضوء هذا سحبوا الحدي أعدت الحكومة
تجهيزها إلى روى ووجهته في ٢٦ مايو (٢) ، وكان الأمر الظاهر من هذه التجهيزات
أن وجهه روى عداه قبل أي شيء آخر أي إحلال الأراضي الإيطالية ، ونقل الجيوش
العربية منها ، ثم الذهاب ضد ذلك إلى الإسكندرية لنقل جيش الشرق بأمره
أو أكثره إلى فرنسا ، حسبما يتراعى لومبارت الذي ركبت له حكومة الإدارة حربه
الاحتار من الإحلال لنام أو إبقاء حربه من جيشه في مصر ، إذا عهدي نفسه لقدرة
على ترك حربه من جيشه لاحتلال هذه البلاد بأمان (٣)

على أن ما بعد ملاحظته أن حكومة الإدارة اشتغلت لتحقيق ذلك كله ، على
روى ، ولأن أن بدأ أية محاولة من أجل تمويش ماطة أو الذهاب إلى الإسكندرية
لإحصار جيش تونس إلى فرنسا ، أن يعمل ولا للاتصال الأسطول الأساسي ، ذلك

(١) Dourin 114

(٢) Meurthe 298 (P éce No. 9) Jonquière V 166 7
Ader 263

(٣) شكري ٢١٠

أن حكومة الإدارة كانت لا ترى مدوحيه عن اتحاد هذه الخطوة الهامة ضمان السطوة البحرية للأسطول الفرنسي في البحر الأبيض^(١) وعلى ذلك فقد عذر روى طولون في ٢٧ مايو ، وطوف في البحر الأبيض فترة من الزمن على شاطئ ليغوريا (جنوب) اسكندرية جيش مورو Moreau ، واستطاع الإفلات من معارضة القورد كيث ، وساعده انويق ، عندما عكس من المبحول إلى قرطاجنة والاتصال بأسطول الأسبان الرانس ٣ ، على أن (روى) لم يستطع تخافة بعد ذلك بالاشتراك مع أسطول الإمبراطورية بعيدة كيث وحريش ، وفصلا عن ذلك فقد رفض الأسبان الاشتراك معه في أية عمليات بحرية في البحر الأبيض . وعندما قرر روى في ٢٩ نوبة الخروج من قرطاجنة إلى قادش ، وفي ٨ أغسطس إلى الأسطولان الفرنسي والأصلي مراسيها في ريب

وكان لإحباط روى في تحقيق الآمال التي تربت على خروجه من ريب وجوده في البحر الأبيض رنة حزن وأسى عظيمين ، لا في فرنسا ، وحدها ، حسب بل في مصر أيضاً فقد صدمت ريب إجماعه فرحة لاموس من أجل مساعدة تلك السيطرة البحرية التي فقدتها فرنسا في البحر الأبيض المتوسط منذ عظم أسطول رويس في أبي قير ، والاسمعة من هذه السيطرة المشددة في افتتاح طريق المواصلات بين فرنسا ومصر ، إن لم تكن من أجل إرسال الوحدات إلى مصر ، فلا أقل من أن يستطيع حكومة الإدارة نقل جيش اشرف إلى فرنسا للدود عن أرض تونس^(٢) . أما يومار - فقد بعد فيها مد روى هذا الادعاء لعدم إسماعه بالسير إلى الشواطئ المصرية بمجرد نجاحه في المرور بسلام من حل طارق ، وقد قدر يوبارت أن روى لو كان ذلك لاستطاع الوصول إلى الممعات في وقت اشتداد الحصار على عكا ، ولما كان تدخله في هذا الطرف المناسب أحسن ، آثار على عروة الشام بل على مصر الجملة^(٣) .
وإذا لم تكن المباشرة لإحباط (روى) فكانت أن بدأت حكومة الإدارة بدل جهودها في نشاط أوسع مدى من أجل تنمية رايها مع تركيا ، ولوصول إلى اتفاق معها ، لطرفي الدبلوماسية عكها من استخدام جيش يوبارت إلى فرنسا

(١) Charles - Roux, I. 206 — 7

(٢) Douin I. : Charles - Roux I 208 — 9

Bertrand II 121 (٣)

حكومة الإدارة وركبا :

وقد تمدد^(١) كيف أن حكومة الإدارة كانت محرص على استبقاء علاقات الود والصداقة مع تركي ، على الرغم من إرسال الخلة إلى مصر ؛ وأُرسلت اتصالات بهذا المعنى إلى (روفان) Ruffin سكرير السفارة الفرنسية في القسطنطينية في ١١ مايو سنة ١٧٩٨^(٢) ؛ وبذل روفان في هذا السبيل ما وسعه العهد والخيلة ، ولكنه ما إن بلغ تركيا خبر رول الخلة في مصر حتى زعم روفان على عدم معدده سراي السفارة ، وصدرت التمرينات مع الفرنسيين من يظهر شعار دولتهم الجمهورية ، ثم أبحر الفرنسيون على عدم مشاركة دورهم ولظهور أمام الناس علنا في وصح النهار وقد سر روفان ذلك كله في تقرير له إلى تاليران في ١٠ أغسطس . وصحب فيه كذلك موجه انتصاف الذي أضيفه التي احتاحت جميع الأنك كل في يومها قبائل فرسيون وقد عرا روفان ذلك كله إلى مكائد الإنجليز والروس ، وحذر حكومة الإدارة من احتلال قطع العلاقات بين تركيا وفرنسا قريبا . وقد وصل تقرير روفان إلى باريس في ١٢ سبتمبر ، وبادر بالمراسل ببعض هذه الأنباء الخطيرة لإرسالها إلى تومارت ، وصحب بالمراسل تقريره إلى قائد الخلة خير تيمس (ديكورش) Descorches لسفارة القسطنطينية ، وحمل (ديوا ثامبل) Dubois-Thamville هذه الرسالة من طوره إلى أنكوبا ، ولكنه عجز عن إيصالها إلى مصر فلم يبع تومارت^(٣)

ولما كان روفان قد أبلغ تاليران في رسالته رول وابتدأ بحيشه في مصر فقد أدعت حكومة الإدارة في باريس هذا انسا رسما في ١٢ سبتمبر ، وقول هذا دأ مخرج شامل ، ولكنه سرعان ما دأع في باريس في ليوم نفسه خبر كان على حساب عظم من الخطورة هو عظم الأسطول الفرنسي في قتي قبر ؛ وتبدلت الأفراح أحزانا ، وأرجى قيام (ديكورش) إلى القسطنطينية حتى تصبح موقف تركيا من فرنسا بعد هذه السكارته ، أما الأراك فقد ألقوا القمص بعد ذلك على (روفان) وأرغابا انفرسيين وسجنوهم . وفي أول أكتوبر وصلت الأخبار من قيا إلى سفير أسبانيا في باريس (لشعاليه دي أزرا) de Azara بأن الأراك قد أعسوا الحرب على فرنسا غير أن حكومة الإدارة على الرغم من هذه الأساء للفرجة ، كانت لا زال على الناس

(١) انشا : سكري ١٩٣ ١٩٧

(٢) Jonquière II 594

(٣) Meurthe 40

بالقدرة على إبقاء الصلات الودية مع تركيا ، فعدت تايران لطلب حديده إلى (ديكورش) في ٣٠ أكتوبر ، حتى يحول دون قطع العلاقات ووقوع الحرب ، « إذا كان الوقت ما يزال يسمح بفعل ذلك » .

وطلب تايران إلى ديكورش أن يسترشد في معاصاته ومحاولاته مع الأتراك بمبدأ واحد لا غير ، هو « أن حكومة الإدارة تعي الاعتماد على مصر في حورس ، حتى تتمكن بفعل ذلك من لمفاوضة والاتفاق مع إنجلترا » ، وتحقيق هذه الغاية ، عليه أن يوضح للعثمانيين أن هذه احتلال الفرنسيين لمصر لن تطون عن هذه الحرب مع إنجلترا ، أما إذا أُلح الباب العالي في معرفة مقاصد الفرنسيين ونواياهم ، فإنه في استطاعة ديكورش أن يعرض على العثمانيين الاقتراحين التاليين أولهما وهذا ما كان نزع فيه فرنسا أكثر من أي شيء آخر أن يظل احتلال القوات العسكرية الفرنسية للبلاد ؟ وتستعج فرنسا إلى جانب هذا بمهمة حموق درص الضرائب واحتكار التجارة تحت سيده الباب العالي الوهمه أو الخياله (الاقتراضه) ؟ وثانيهما أن تستبدل مصر بجزر الأيوبيات التي اعتقد الأتراك أن حروبها من حورس العرسيين ضروري لتأمين اليونان ضد انتشار الآراء الثورية فيها ، في وقت يكثرت فيه التمرد والاضطراب في هذه البلاد . وحدد اقيام ديكورش إلى تركيا عن طريق أسكو ، يوم ١٢ أكتوبر ، بأنه سيعان ما حدثت الأخبار ، يؤكد إعلان تركيا الحرب على فرنسا ، فضلا عن جميع المطامع التي ارسكها العثمانيون ضد ارجاء الفرنسيين . وعلى ذلك فقد قررت حكومة الإدارة في ١٥ أكتوبر وقف بعثة ديكورش وسعيه من الذهاب إلى تركيا (١) .

وعظم الاتفاق على توبارن وحيشه في مصر ، عندما تلاحق الكوارث بمصها في إثر بعض لصدت تأزم الأمور في معاصات مؤتمر رشتاد Rastadt ، الذي انعقد منذ نوفمبر سنة ١٧٩٧ للظفر في شأن الصلح بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة بعد صلح كامبو — فورميو ، واستمر محققا طيلة العام التالي دون الوصول إلى نتيجة حاسمة ؟ بل إلى العلاقات ما لبثت أن محرحت بين فرنسا من جانب وبين انحصا وحلفائها من جانب آخر ، حتى انتهى الأمر بإعلان الحرب على فرنسا في ٢٢ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ؟ وأحرر الفرنسيون بعض الانتصارات في بداية القتال ، ولكن جوشم سرعان ما لحقت بها الهزيمة بين مارس وبوينة في ميادين القتال في ألمانيا وإيطاليا ؟

ورن الإغليز بقيادة دوى بورك في هولندة ، واسولوا على أسطوطها في (تكسل)
وحثب حكومة الإدارة عندما بلغها بأن استعداد حملة دوق بورك أن يكون العرص
مها للذهب إلى مصر وهرعة جيش الشرق وقائده .

وكان لهذه الكوارث أثران طاهران أولهما وصوح الحاجة إلى توبارت حتى
بولى مهمة الدفاع عن أرض لوطس ، وقد بسطت حكومة الإدارة هذه الرعة في
دعيت التي أعطاها إلى (روى) في ١٥ مارس سنة ١٧٩٩ على نحو ما سبق يانه ؛
وثانها زيادة الملق على مصر الحملة وجيش الشرق في مصر في وقت كانت قد ماتت
بالخسران مساعي الحكومة السياسية ، ومحاولة الاتصال بالحملة وتحدثها أولا ، ثم
تدبير أمر قدومها إلى فرنسا أو على الأقل قدوم الجزء الأكبر من جيشها وعودة
أسطوط روى إلى فرنسا دون أن تحقق شيئا من هذا العرص لأخير في أغسطس

وقد عزم عن ذلك أن صار التفكير في إحدى الدول التي لاستعدادها بوجوب من مصر
كل ما يشغل حكومة الإدارة ، فعدم تاليران في ٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩^(١) تقرير إلى
حكومة الإدارة ، اعترف فيه صراحة بأنه لم يعد في الإمكان تحقيق تلك المثل العليا
والشروعات المحممة التي سوعت إرسال الحملة إلى مصر ، وأن الواجب يقتضي
الحكومة أن تبحث حذبا لطرق التي تستطيع بها إحراج بوبارت قبل أن تعقد به
الأخطار بصورة تجعل من الضرر بد ذلك إعادته ، وأوصى تاليران في تقريره^(٢)
بضرورة عقد اتفاق يقوم على إخلاء مصر في نظير تمكين بوبارت من العودة - المأ
إلى فرنسا ، ونقل جيش الشرق إلى أرض لوطس على سبيل العدو حيث إنه لم يعد لدى
فرنسا سبيل كافية لقل جيشها ، فإذا أقرت حكومة الإدارة هذا المسد ، فالواجب إذن
أن تدخل في معامسات لهذه العابة مع تركيا والمخترة . ذلك بأن ركبا هي صاحبة
البلاد المصرية ، ولأنه لا يمكن إعفاء ما للاعتر من مصالح مدمرة في هذه المسألة من
الباحثين لتجديرة والسياسة ، بسبب وقوع مصر على طريق مواصلاتهم مع الهند ،
وصلا عن أنهم أصحاب السيطرة في البحر الأبيض ، وفي وسعهم بفضل هذه السيطرة
البحرية أن يمنحوا الإخلاء إذا شاءوا ذلك وحدث الاتفاق بشأنه على غير رغبة منهم ،
وعلاوة على ذلك فإن لدى الإغليز من السفن ما يكفي لجل جيش الشرق ؛ وفي

وجودهم صبان لعدم تعريض الجيش العائد إلى عدوان الغنابيين عليهم ، وهم المشهورون بالعدو والحياة .

وكان من رأى تاليران أن تظل القسطنطينية داهيا مكان المفاوضات للرمية ، على أن يتولاها أحد الوكلاء الأسان خلفاء فرنسا ، يد تحول صعوبات الحرب دون إرسال مدد من فرنسا ، ولم كان منتظرا أن يطلب العدو عدم اشتراك العواد والحدو الراحمين إلى فرنسا في أية عمليات عسكرية في أوروبا ، فقد أوضح تاليران بعد إعطاء مثل هذا التعهد دون موافقة نوابر البديثة . وكان من رأى أن الاحتفاظ بهذا الحق فائدة الجدة انعام من شأنه أن يحمل نوابر في النهاية على الكشف عن مركزه الحقيقي في مصر سحيد موقفه من المعاهدة المظرو . حتى إذا أمر نوابر على رفض إعطاء هذا التعهد ، جاء رفضه دليلا على استطاعه المقاومة ، وأنهت حكومة الإدارة في مأمن من بوجه أى لوم أو نائب إليها وانها لم ترك جيش الشرق وقائمه تحرق منها الأحطار من كل جانب . ولذلك عجب على الحكومة إبلاغ نوابر بما أصبح عزمها عليه في شأن هذه المعاهدة . وطلب تاليران أن يفسر في شروط الاتفاق على تسليم أولئك المواهبين الذين ألقى بهم الأراك في السجون ، وبلغ عددهم حوالي أثنى سمة في رودس والقسطنطينية ، وكان دي بوليه de Bouigny السفير الأساني في القسطنطينية يقوم بإرسال المساعدات لمؤلاء الأسرى وبوسط في شأنهم لدى السلطات العثمانية . ووقع عليه اختيار تاليران لإقيام بالمفاوضة على أن يحمل إليه التعلبات باللامر رسوب أساني كذلك (١)

وقد حدث قبل إعداد هذه التعلبات أن حرج تاليران من وزارة الخارجية وحل محله (ريهارت Ruyhardi) في ٥ ستمبر ١٧٩٩ . ولكن (ريهارت) كان من مؤيدى سياسة تاليران والذين يصعون لصحه وإرشاده ، فأنتم وضع قواعد الاتفاق المرمع كما أعدها تاليران من قبل ، ثم وافقت عليها حكومة الإدارة في ١٠ ستمبر على أنه سرعان ما ظهرت صعوبات عدة أرحأت إرسال تعلبات الإدارة للمفاوض الأساني سريعا ، كان مشؤها اتحاد روسيا موقف العداء ضد أسانيا ، والحواف من أن تستخدم بقودها لدى الباب العالي للقبض على السفير الأساني أو طرده ومع دخول أى مفاوض أساني إلى القسطنطينية ، وعزم عن أحيال طرد (بوليه) من تركيا أن شرعت حكومة الإدارة تنظر من جديد في أمر اختيار مفاوضها في القسطنطينية ، وصلا

عن ذلك فقد سبب أحوال الطرد عصب الفرنسيين لما وصلوا إليه من دل وهوان جعلهم يتمدنون على أسايا ومسلكتها في مساعده الجمهورية ، وراد طهم سوءاً بالملاط الأساني من انهمزاتهم الأخيرة

وقد وجدت حكومة الإدارة محرراً من هذا الأرق بأن أضافت إلى التعيينات التي قررت إرسالها إلى بونارت في ٢٠ سبتمبر بصدر المعاوضة لمرعه مع تركيا ، عبارة تدعوها إلى عدم الاعتماد على كلب على معاوضة (دي ولي) في انضباطه ، بل تحوله الحكومة الحق في اعتماد كل ما يراه له من إجراءات عسكرية وسياسية تعضها الظروف القائمة في سبل صلب عوده اسريفة إلى فرنسا . وقد انتهى عن تسليم ثلاثة رسل محتمين — هم عندهم ما أخذوا من أهل تونس وفيتاليس Vitalis اليوناني من كورفو ، واليهودي هورف Horvitz من — خدمي المكتبة الأهلية في باريس ، وعاد فينيليس باريس فعلا عمل رسالة سعيات حكومة الإدارة إلى بونارت ، قائد الحملة في مصر (١) .

غير أنه حدث في الأمم لتدليه إليه ما جعل حكومة لإدارة تهم عن هذه التعيينات وتساءل عنها ، وقد وصلها في ١٢ أكتوبر ريد أسدي عمل رسالة من (بولي) تاريخ ٢٤ أغسطس (٢) ، يذكر فيها حدث له مع اريس قدي ورر خارجية تركيا ، يدور حول وساطة أسايا المحتملة من أجل الوصول إلى اتفاق بين تركيا وفرنسا على أساس إخلاء مصر وعوده جيش الشرق إلى فرنسا . وكان في اسرعى بطر حكومة الإدارة أن هذا الحدث جرى قبل إصدار أية تعليمات إلى السفير الأسياي في القسطنطينية ، ومضاه عن ذلك فإن اقتراح إخلاء مصر في بطر عوده بونارت وحيشه إلى فرنسا إنما كان المقدم به اريس أسدي نفسه . واعتقدت حكومة الإدارة — وقد تلاقت رعاسها مع رعيات لاد العالي — أن في وسعها أن تستفي لأن عن تلك الوساطة الأسياية العصبية . وقد عظم هذا الاعتماد عندما وصلها في مساء اليوم نفسه تقرير من بونارت تاريخ ٢٨ يوليو ، أحضره العصبية (أوربريس) يتحدث فيه عن رول الأرائك في أبي قبر وهرعهم ، وقد تضمن هذا التقرير وصفاً من وضع الجنرال برتيمه Berthier لخلعة سوريا ، يخفى فشل بونارت أمام عكا تحت مسر العمليات الماهرة التي مكنت جيش الشرق من العودة إلى مصر ودخولها دخول

Ibid 199, 205 (١)

Ibid. No. 16 p. 319 — 21 (٢)

الطافر للتصريح^(١) فأحدث هذا التقرير تأثيراً عميقاً في هوس أعضاء الإدارة؛ وداع الاعتقاد بأن بونابرت بعد هذا النصر الهزلي لا يمكن أن يعسكر في القسطنطينية، وأن اميراج الرئيس قدس الذي وصل باريس عن طريق (بولي) لم يكن إلا شحنة لشعور الأتراك بالحرج عند هزيمتهم، وأنه بعد هزلك حجة إلى وساطة أسات ابى ما كان يرغم حكومة الإدارة على التفكير فيها سوى توقعها الرغص من جانب روسيا إذا طلب يتم التدخل، ثم عدم اطمئنانها إلى اسويد ابى وحديث من الكيسة أن تظهر شيئاً من اعداد خو فرس، بعد أن رتب لمراسم محيوش الجمهورية.

وعلى ذلك فقد قرأ رأي على إلغاء سمعيات اساعه وإعداد أخرى جديدة يعطى بونابرت أوسع سلطان ممكنة للمفاوضة وإبرام الاتفاقات التي يراها، سواء قام بذلك بمعه أم فصل أن يهدم إلى أي « فرسي » بحذره لهذه المهمة، وذلك كله دون أن يغير حكومة الإدارة نشاطه سمعيات بمعة في هذا الشأن، مكتفيه بأن يطلب إليه انصافه «مر الأسرى العرسيين»، ويسر لتدور مصلحة اعد السلام لعام في أوروبا^(٢).

وكانت الخطوة التالية أن شرعت حكومة الإدارة بحث في الوسائل التي يمكنها من إبلاغ رسالتها إلى بونابرت، فقرأتها على رسال سعة من رسالتهم إلى بونابرت إلى فيساو منها إلى (بولي) حتى يطلب من الأتراك السماح بإرسالها إلى بونابرت في مصر، وعجهم سمعيات في جنوة وطوبون محل على لتعلمت إلى قائد الحملة. وكان مما طعن حكومة الإدارة على امتناع طريق إلى مصر أن استطاعت السمعية هروندل Birondele الإفلات من رقده الانحد والوصول رساله من بونابرت على فيها سقوط قلعة العرش وطرب الإدارة لهذه الأخبار السارة التي أكدت في نظرها هزيمة الأتراك هباً، وفصلاً عن ذلك فقد قوى الأمل لديها في إمكان الوصول إلى صبح مشرف مع ركبا عندما أحدثت الأخبار تربي عن انصار جيوشها ضد الانحدير في هولنده على الانحدار برون Brune، وصد الروس في سويسره على يد الجيرال ماسينا Masséna فاسك (سمرت) وزير الخارجية على إعمار صياغة تعلمت حكومته الأخيرة لبونابرت بكل مهمة ويصح هو على وشك الصراع منها دافع في باريس لحافة في ١٣ أكتوبر حماهت له دوائر الحكومة، هو برون بونابرت في فرجور

Fréjus في ٩ أكتوبر ، ونحاوّر قواعد البحر الصخري في هذا الميناء الصخري حتى يصل بوبرت إلى باريس في أسرع وقت ممكن^(١) .

وصول بوبرت إلى باريس :

وأرعى حكومة الإدارة ولاشك حضور بوبرت المفاجيء ، في وقت كانت هذه الحكومة قد انتهت كل مشروعاتها على عدم استطاعة بوبرت معادته مصر ، والوصول إلى فرنسا قبل ربيع لعام التالي (١٨٠٠) على الأقل ، حسب انقطاع التواصل بين البلدين مدة طويلة ، ومع أن بوبرت كان يحرم بعد مكثه فترة قصيرة في مصر ، العودة إلى فرنسا لتتم مشروعات الحملة العسكرية ضد انجلترا ، فقد اضطر إلى إرجاء مواعيد عودته في شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٨٩٨ ، حتى يبين له موقفه لأرائك من جهة ، ويتم توطيد أقدام الفرنسيين في المستعمرة الجديدة من جهة أخرى ، وبذلك كان على استبعاد معادته البلاد في الوقت والساعة إذا حابه الأبحار من فرنسا بعد تألب أعداء الجمهورية عنها ، وعدم استتباب السلام في أوروبا^(٢) ؛ ثم وقد تحقق لديه ذلك بعض الرسائل التي حملها إليه كل من ويدن مورو ولينين Beauval ، ثم ما لبثه عن طريق الصحف التي بثت بها إليه الإخبلة^(٣) . فقد قرأه على الرجب إلى فرنسا في أول فرصة سانحة ، وتم له ما أراد فاستطاع الإفلات من رقابة الإنجليز في البحر الأبيض ووصل سالما إلى الوطن .

وكان في أثناء سفره السريع من فرجور إلى باريس أن قابل بوبرت في (اكس Aix) رسول حكومة الإدارة (بتاليس) ، وقص التعلبات والرسائل التي كان يحملها (بتاليس) إليه ، وصراع ما أحاط بوبرت إحاطة تامة بالموقف ، ومشروعات حكومة الإدارة تصدد المفاوضة مع تركيا ، ومحاولة استقدام بوبرت من مصر ، وذلك بفضل الأبحار التي حملها إليه كل من تاليران والأميرال روى ، وكان روى مد ١٤ أكتوبر قد أرسل إلى يوسف بوبرت صورة من التعلبات الصادرة إليه من طوبون بتاريخ ٢٦ مايو^(٤) ، ولم يدهش بوبرت لهذه الأبحار ، واعتبر التحول في

(١) Corresp. No. 4383 ' Préc. Div. 225 — 8 - Ibid 204 — 6

(٢) Corresp. Nos. 3259; 3439

(٣) شكري ٢١٠ — ٢١٥

(٤) Meneval (Sur le Retour) 11

مفاوضة مع تركيا أمر طبعيا تسويعه الظروف القاسية ، وأشار إشارة عارية إلى محاوره
المفاوضة مع تركيا^(١) .

وباع بوناربارت باريس في ١٦ أكتوبر ، وترتب على ذلك إلغاء تعليمات حكومة
الإدارة الأخيرة ، وإعادة بحث الموقف من جديد ، ولما كان ضروريا أن تتخذ
الحكومة قرارا بشأن معترحات السلام مع تركيا ، التي وصلها عن طريق (بويي)
فقد أعد (رينهارت) تقريراً في ٣ نوفمبر يرسم فيه خطوط السياسة التي يجب اتباعها ،
ويطلب من حكومة الإدارة إصدار أوامرها لتفيد ما يراه من الحلول التي تقدم بها^(٢)
وكانت هذه ثلاثة : إما تقوية حبش الشرق بصورة يمكنه من العاقبة في مصر والمحافظة
على المستعمرة ، ووجه الاعتراض على ذلك عدم وجود الرحلات والآن والسفن اللازمة
لفتح طريق لوصلات بين مصر وبريها ؛ وإما إخلاء وادي النيل . ولا يؤيد ذلك
ما يذكره بوناربارت نفسه من أن في استطاعته حبش الشرق على الرغم من ضعفه .
أن يدفع كل هجوم قد يقوم به العدو ضد المستعمرة مدة طويلة من الزمن ، وإما وعد
الأتراك بإعادة مصر إليهم عند عقد السلام العام والاحتفاظ بهذه البلاد إلى أن يحين
وقت الصلح ، وذلك حتى تبقى للحمية ضرورة أن يحصل على أموال من في أثناء المفاوضة
مع المحقرة لقاء الجلاء عن مصر وإخلاؤها .

وبد كان (رينهارت) يعرض هذا الحل الأخير ، فقد فوجئ بإرسال صديق إلى مصر
لمتبع باب المفاوضة مع الأتراك ، وشرح لهذه العاية (ديكورث) ، إلى أن أصبح
(وليي) ، إذ كان لا يزال في القسطنطينية ولم يطرده الأتراك منها بعد ، هذا الاعتراض
الجديد بصورة ودية . وكان الباب العالي قد أمر بإجراح بولس في ٢٩ سبتمبر وطلب
الحكومة تجهل ذلك حتى يوم ١٤ نوفمبر .

ولم تشأ حكومة الإدارة أن تتخذ قراراً فاصلاً في هذه الموضوعات دون استشارة
بوناربارت ومعرفة رأيه . فأعلن بوناربارت صراحة أن من الواجب أن تستشد الحكومة
في سياستها تلك المبادئ التي انطوت عنها رسالته إلى الصدر الأعظم في ١٧ أغسطس
سنة ١٧٩٩ ، ثم يعيدها إلى الخزانة ككتلة^(٣) . وفصلاً عن ذلك فإنه يتعذر عليه أن
يرفض الحل الأول الذي يرضه بوناربارت ، بل يرى بوناربارت على العكس

(١) شكرى ٢١٦

(٢) Meurthe 329 — 31 (Pièce No. 20 Rapp. de Reinhard)
2 — 11 — 1799)

(٣) شكرى ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢

من ذلك أنه من الضروري أن يدل كل جهد لخدمة أولئك الشجعان الذين تركهم في مصر ، و لعمل على دعم مرأى كرمهم ، ولا سدوحة لذلك عن إرسال القوات الكبيرة إليهم ، وأن يطلب إلى إسبانيا التعاون في هذا الأمر ، واعتبر تحرير جيش الشرق وإرسال القوات السكافية إلى مصر واحداً من نصيب مصلحة فرنسا والمحافظة على شرقها . وقد أيد بومبارت إرسال ديكورش لمقاومة في حدود النطبات التي تركها السكايير . وعلى ذلك فقد وافقت حكومة الإدارة في ٥ نوفمبر على خطة ديكورش^(١) ، غير أنه ما انقضى أيام قليلة على ذلك حتى حدث انقلاب ربيع لسيهور ، ذلك الانقلاب الذي طوح في يونيو ١٩٠٩ نوفمبر بحكومة الإدارة وأوصل بومبارت إلى منصب لفصلية .

سياسة الفصل الأول :

وكان معنى استئثار بومبارت بكل سلطة نتيجة لهذا الانقلاب الجديد أن أصبح يقع على كاهله وحده وعلى أي رجل آخر عبء مسئولية البت في شأن مصر وتقرير مصرها ، والسهر على سلامة حدوده ، ومن الثابت أن بومبارت على الرغم من اهتمامه العظيم وتبني دفع خطر الأعداء عن فرنسا في القارة الأوربية ، ظل يدل قصارى جهده لخدمة جيش الشرق وحلّاه ، وبادر بإصدار بياض بطمئنه هذا الجيش إلى أن حكومة الفصالية حدد مهمة بأمره ومشغولة به كل المشغولية^(٢)

وكان من الواضح من أول الأمر أن العامل الحاسم في فشل كل المحاولات اسابقة سواء لإنشاء المواصلات المسطحة والمأمومة مع جيش الشرق ، أم إرسال الوحدات إليه والمحافظة على المستعمرة الجديدة ، كان حاجة فرنسا إلى الحرية القوية ، وأنه مادام متعذراً على لفصل الأول أن يبعد ساء هذه الحرية في وقت قصير ، فإن المفاوضة من أجل عقد السلام مع تركيا أضحت الوسائل لخلّاص مصر ونقاها في حوزة الفرنسيين ، أو خلّاص كليير وجوده على الأول إذا أصرت تركيا على استردادها^(٣)

وعلى ذلك فقد أعدت تعليمات ديكورش على صسوء التعليمات التي تركها بومبارت للسكايير ومدارها الموافقة على إخلاء مصر ، إذا ثبت أن انواء منتشر في مصر وبربو عدد مهماه من الفرنسيين على حمائة وألف ، وإذا حل شهر فلوريان (أبريل مايو ١٩٠٠) دون أن يصل معدات إلى جيش الشرق ، أو كانت الوحدات التي وصلته

Meurthe 215 — 17 (١)

Corresp. No. 4411 (2 — 12 — 17٩9) (٢)

Rigault 214 : Meurthe 218 (٣)

صئيلة ولا تسد حاجته . وغادر ديكوريش باريس في ٧ ديسمبر ، وتعطل بسبب مشقة الطريق مدة ، فبلغ مرسيليا في ٣٥ ديسمبر . وبعد انتظار طويل ركب البحر على ظهر الفرقاطة (المصرية Egyptenne ١) في ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، لكنه اضطر إلى التوقف عند حرر هيرس Hyères . على مسافة قصيرة من طولون سب هبوب الرياح العبيبة ، وهناك بلغ (ديكوريش) حرر إحدى العريش الذي عقده كابر ، وهذا إلى طولون في ٩ أبريل . وفصلا عن ذلك فقد كتب إليه نابليون منذ ٣ أبريل ١٨٠٠ « بناء على ما وصله من أخبار الالة ت » أنه يعرض في مروره من البحر الأبيض لأخطار كثيرة دون طائل ، ولا فائدة من ذهابه إلى مصر (١)

وكان لديوع حرر عقدائه في العريش أثر ظاهر في نفوس الفرنسيين فاطمة . فقد تمس هؤلاء الصعداء بعد أن كثرت الإشاعات منذ شهر مارس ١٨٠٠ على وجه الخصوص عن تخرج الأخوان في مصر وانتشار الأمراض التي حشى الباريسيون من فتكها الدريع عند لحظة ، واستعدوا أن الحد الأدنى طلوا على قيد الحياة قد أحد الصنف منهم كل مأخذ حتى أنهم صاروا يحذرون عن اصعد أمام أعدو ويشدون الخلاص في انهزم لمصر . وادرب الصحف نكابة كل ما من شأنه تهدئة النفوس ولكن من غير طائل ، فطال الفائق سود مارس (٢) حتى أداعت الصحف الإنجليزية في أوائل إبريل حرر « تسلیم » كابر ، ونشرت الصحف الفرنسية بدورها نفس اتفاق العريش في ١٣ أبريل ، وبات واحدا على الحكومة أن تعان موقفاها من هذا الإتفاق

ولما كان نابليون من كبار مؤيدي هذا الاتفاق فقد أخذ منذ ديوع حرر اتفاق العريش يصح الفصل الأول بضرورة قبول هذا الاتفاق لأسباب عدة منها أنه يجب على الحكومة أن تظهر بين الاعسار ب بطله الرأي العام الفرنسي عندما ساد الاعتقاد بين الفرنسيين أن كابر وفواؤه ما كان في استطاعتهم أن يحصلوا على شروط أفضل مما حصلوا عليها ، وأن مصلحة الوطن نفعهم استخدام جيش الشرق من مصر حتى يتسنى له الدفاع عن فرنسا ذاتها ، وكان من رأي نابليون أن الاتفاق لم يجرع في صيغة « التسليم » بل كانت له كل خصائص « لمعاهدة » وأنه يجب به ولم يسع الفصل الأول سوى الموافقة على اتفاق العريش على الرغم من تدمره من سياسة كابر التي أقصت في نظره إلى عهد « المستعمر » فصلا عن أنه كان شديد العصب على كابر

اسمب اسم الى كاهنا له في تقرير ٢٦ سبتمبر ١٧٩٩ ، ذلك التقرير الذي وصل القنصل الأول في باريس منذ ١٢ يناير ١٨٠٠ وعمل بونارت وحده أكرم المسئولية عن سوء الحال التي وصلت إليها الحملة (١) .

على أن محاولة الانتقام من كبير وقتل وإتهامه بالتحديد واسميريط في السميرة كان عملا يبعد كل البعد عن عبي الصواب والحكمة ، ذلك أن الرأي العام كان يرفض أن توجه اتهامات من هذا القبيل لصاحب اتفق العريش ، وفصلا عن ذلك فقد حذى بونارت أن يشار الالهام يبحث مسلكه هو معه عندما شاء أن يترك مصر في ظروف لم تكن قد تحررت فيها الأحوال على نحو ما حدث بعد ذلك ، ولهذا الأسباب إذن وجد بونارت من الخير أن يوجه الاتهام لجنود جيش الشرق (٢) ، الشجعان الذين يعودون إلى اوطان بعد أن حلفوا في مصر آثارا حادثة . وأمر وزير البحرية أن يعلن عن لسانه إلى كبير أنه قد أقام الحملة بأعماله الذاهرة على أن بونارت كان محقا في اختياره لقيادة الحملة من بعده وإنه رفع اسم فرنسا عاليا (٣) .

وقصر بونارت جهوده بعد ذلك على محاولة إفساح الشعب الفرنسي بأن مسئولية « التسليم » إنما تقع على كاهل كبير وحده ، ذلك أنه كان يخشى من أن يدير كبير عند عودته حملات القتل اللاذع صده ، في وقت كثر فيه الحديث عن تدمير جيش الشرق من رجل بونارت إلى فرنسا ، وفي ذلك من الخطورة الكبيرة ما فيه على مركز القنصل الأول الذي لم يكن قد تأيد حلفائه بعد ، قل اسصاره العظيم في موقعة مار مارو معث بونارت من لوران ، وهو في طريقه إلى ميدان حمته الإيطالية الثانية ، رسالة إلى بوران ، وكسيس رجبية ، القنصلين في باريس في منتصف مايو ١٨٠٠ يحسن فيها على ضرورة إطلاع الشعب الفرنسي على حقيقة الموقف في مصر ، عند رجل بونارت منها ، وعندما كان الجيش ما يزال محتفظا بقوة على الرغم من المعارك الكثيرة التي حاص عمارها ، ولم يكن الطاعون قد انتشر في مصر فصلا عن اعتقاد بونارت أن ترك الجيش والتجني عنه عمل يتسم بالحق وانسالة

وبما يؤيد القول بأن حمزه قواد الحملة ما كانوا يرضون عن تسليم كبير ، تلك

(١) شكرى ٢٥٠ - ٢٥٨

(٢) Figault 218

(٣) Corresp. No. 4721 (19 - 4 - 1800)

الرسائل التي ذكر بونارت أنها وصلت من ديزيه^(١) ، وميو^(٢) ، ودافو Davout ، وعبرهم من كانوا لا يوافقون في قراره بموسم على إخلاء مصر وقبدها ، وقد طلب بونارت إلى لوران وتاليران إعداد مقالات في ذلك لكي ينشرها الصحف ، مع بيان الجهود التي بذلها بونارت الفصل الأول لتأييد جيش الشرق في مصر ، وحق تعرف أوروبا ذاتها أن مصر ما كانت تخرج من حوزة فرنسا لو أن بونارت بقي^(٣) .

وفي خطاب آخر لـديزيه حاول بونارت أن يتصل من كل مسؤولية في عقد اتفاق العرش^(٤) ، وكان من الطبيعي أن يهتم بونارت في رسالته لـميلييه القسطنطين يدفع أي اهتمام بالهشأ الحقة ، وعدم إرسال البعثات إليها عقب وصوله إلى باريس مباشرة ، فذكر أنه وجد الأخطار عند بحيثته بحق الجمهورية من كل جانب ، والأسطول مزال راسيا في رست سلا من وجوده في طولون ، ولا رجاء فيه ، فضلا عن محاصره الإغريق له وسيددم إياه ، وكان الواجب بقضي بونارت قل أي شيء آخر أن يحدد الاضطرابات في مديته . ويجمع المال اللازم لإبحار الاستعدادات اللازمة ، وقد تم تجهيز الأسطول ، وصدرت الأوامر بإبحاره فعلا . قبل أن يصل من القسطنطينية ساء تسليم كليبر بأيام قليلة^(٥) .

وكان واضحاً أن الفصل الأول إنما يعني من كتاباته هذه إقرار مسائلتين هامتين بإلقاء مسؤولية الإخلاء على كليبر ؛ ومعارضة مبدأ الإخلاء على غير الشروط التي تضمنها تعاقبه إلى كليبر ، أو تلك التي أعطيت إلى ديكنورث ، وسطوى حمده على رعيته اصادقة في بحدة الحجة وجيش الشرق ، إذا تمرد خلاؤها عن مصر في الظروف التي حددتها بونارت في هذه التعليلات . وعلى ذلك فإنه ما حادت إلى باريس أخبار نقص المياه في العريش وانحصار كليبر على العدو في معركة « هليو بوليس » حتى يادر بونارت يطلب إلى كاربونير البحرية في ٩ يوليو ١٨٠٠ أن يكتب إلى كليبر مؤكداً له وصول البعثات إلى مصر في خلال الشتاء القادم ، ويطمئنه إلى قرب عقد السلام العام (في أوروبا) في عشرة شهور ، ويظهر له ما يعقده الفصل الأول من آمال على إمكانية

Préc. Div. 268 — 9 (١)

Préc. Off. 60 — 3 (٢)

Testa II 21 ' Corresp. Nos. 4799, 4800 (٣)

Corresp. No. 4786 (٤)

Ibid — 4786 (٥)

للمقاومة والمقاومة في مصر ، ويكنى كليب دليلا على أن من مصلحة الاحتفاظ بمصر وسواها
ضوحه بها ، ثم ظهره الإخبار من عدد وموعدة ، فيما أن لدى بوارت ما يحمله على
الاعتقاد بأن الأتراك يحصلون أن يتركوا كليب وحيت في مصر كقوات «مساعدة» ..
على تسليم هذه الفتوح إلى الإخبار . فضلا عن ذلك فالواجب انقضى كليب أن يأخذ
بعض الاعتبار لخطه على صحة الجيش المرسل ومحمد ، ومصالح فرنسا التجارية
في الشرق ، ولربما التي يمكن الحصول عليها في صورة تعويضات عظيمة من المخلو
إذ بقيت مصر في حوزة فرنسا إلى وقت عقد السلام العام . وكذا انقضى الأول
اعباده على كلب ذلك الاعتقاد الذي ثبت أن يكون نصيبه كذلك من كليب نفسه (١)

وبدأت من ثم تلك المحاولات الدبلوماسية والعسكرية التي أرادها بوارت
الحصول إلى عقد السلام في أوروبا هناك ، أو إرغام انقلاب من شأنها فتح طريق
المواصلات البحرية مع مصر ، وإزالة الفرصة لإرسال البحري الذي تمكن جيش
الشرق من الإحاطة بهذه المسعرة لفرصة . وكان وارت شديد الإيمان بأن في
وسع المرسي أن يوطدوا أقدامهم في مصر إذا طان الأمر على تقاضهم فيها ، ووسع
العدو عن مد صلبهم ردها من أرض يصلحون في أثناء شوقهم ، وأن في وسعه هو
الآخر أن يتخذ من ماء مصر في حوزة فرنسا وسيلة تمكنه من عقد صلح مشرف
مع المخلو (٢) . وكان وارت يرحو نظير إخلاء مصر أن يوصى على فرنسا خسارها
في سان ديمو بالاسميلاء على نوبانيا في حوض النيل (٣)

الاضداد بجيش الشرق

ولم يكن هناك ماض لحاج هذه السياسة من أن يحتفظ جيش الشرق في مصر
بروحه العلية ، ويحمي من أدهان الحشد أن حكومة انقضا قد أهملت شأنهم . بل
إشاعة الطمأنينة في نفوسهم وإيمانهم بأن الفصل الأول لاسي الحطة عن التفكير في
أمرهم وتدير مخابراتهم (٤) ، والوسيلة الطاهرة لصيان ذلك إنما هي احتراق الحصار
الإخباري ، وإرسال السفن المحملة بالذخائر والرجال وأخبار الوطن ومشورات
الفصل الأول « الهدنة » ووسائله « للسكنة » . وقد أدرك بوارت منذ أن استقامت

Rigault 221 (١)

Meurthe 68 — 9 Corresp. No. 3439 (٢)

Thiers II 121 (٣)

Corresp. No. 4411 (٤)

الأمر له في فرنسا أهمية ذلك كله . وعلى ذلك فقد أصدر عب اعلااب القسلة بإصدار أمره إلى وزير البحرية في ١٥ نوفمبر بإرسال الإرمق لودي Lodi إلى مصر ، على أن يحترق إريقان آخران لإبحارهما في غضون نوفمبر وديسمبر ، ثم مركب ريد ، وانعراطة : المصرية L'Egyptienne .

وقد استطاعت (لودى) الوصول إلى دمياط في ٢٤ فبراير ١٨٠٠^(١) محمل الجنرال (جالو Galbaud) بيما وصلت سفينة أخرى (أوربريس) إلى أبي قير بعد أربعة أيام محمل أحد كبار الصايط (لابور مورويوح) . ولم يشأ الفصل الأول وقد ظهر بالفصلة أن يعترف وسط هذا النصر البحري عن عجة حده الشجعان في مصر ، ووجد من لعت أن يعتمد على هذه الجهود « البحرية » في إمداد الحجة عندما استطاعت سبيلتان لحسب الوصول إلى الشواطئ المصرية . فقرر أن يستخدم في هذه الغاية البحرية الفرنسية^(٢) فأصدر أوامره إلى روى في رست في ذائل يناير سنة ١٨٠٠ أن يخرج أسطوله من الميناء وذهب بكل سرعة إلى مصر محمل الأحداث الكبيرة إسبانيا^(٣) .

ثم كرر هذه الأوامر ثانية في ٢٢ فبراير على أن تأخذ روى مع الأسطول الإسباني الذي جاءه في رست في أغسطس الماضي ، فبدأ عطاردة الأسطول الإبحاري الوفاء على حصار هذا الميناء ، وغتار انصبق (حل طارق) ، ورفع الحصار عن مائة ، ويرسل قبل دحوه إلى ميناء طولون حرراً من أسطوله مروداً بالحد والأسفحة إلى الإسكندرية^(٤) . عبر أن روى لم يشأ المخارفة بالاشدك مع أسطول الإبحار الكبير في أية معارك ، واضطر بونارت في الأيام الأخيرة من شهر مارس أن يترك لأمير البحر ذات في أمر اندهاب إلى مصر إطلاقاً إذا ظل الإبحار يحشدون قوسهم ولم تصرف معهم قبل مضي وقت طويل^(٥)

وشعل بونارت حملته في إيطاليا ، حتى إذا تم له نصر في معركة مارنحو الكبيرة ، أصدر بعد أول من أسوع واحد يكتب من ميلان في ٢٠ يوسه لإعداد انفي عشرة

Ibid - 4393 (١)

Dumas III 92 (٢)

Corresp. No. 4494 (٣)

Ibid - 4612 (٤)

Ibid 4691, 4701 (٥)

سعية محمد الدخائر والبريد إلى مصر^(١) ، وأصدر أوامره في الشهر التالي لأساطيل برسا ورشعور حتى يأخذ أهبها للحروح إلى البحر الأبيض ، ثم بعث برحو من مدريد بإصدار الأوامر إلى أمير البحر الأسباني حراسا Gravna الموجود بأسطوله في رست أن يتعاون مع الأسطول الفرنسي ، فيتسنى لفصل لأول أن يجمع من الأسطولين الموجودين بهذا المساء أربعين مركباً حربيًا ، لا يأت أن يسم إليها بقية قطع الأسطول الفرنسي المورعة في موانئ لوريان Lorient ورشعور Rochefort وطولون ، على أن يسم إليها كذلك سفن الأسبان الموجودة في موانئ فيرول Ferro وقادش وفرطاحة ، فصدر حكومة مدريد أوامرها إلى الأميرال ميريديو لإتمام هذا التعاون .

وكان عزم بومبارت أن يخزي هذه العمليات بصورة ربح الإمبر و تلقى في صفوف أسطولهم الخبرة والارتباك ، وسقط الفصل الأول فرصة مواتية لإخراج أفضل قطع الأسطول الفرنسي النابه بقيادة الأميرال عانتوم Oanteaume ، فعمل ستة آلاف رجل إلى حياص الإمدادات العظيمة من مؤن وأسلحة ودخائر إلى مصر^(٢) . وما كان الأسبان ما يزالون يرفضون حروح أسطولهم إلى البحر الأبيض ، وعشرون مئة هذه العمليات الواسعة التي يعجز في نظريهم الأسطولان الفرنسي والأسباني عن القيام بها ، بسبب حال سفينهما السيئة . فقد عول الفصل الأول على التعلب على هذه المعركة بالطرق الدبلوماسية ، واعتد في ذلك على مساعي الجيران برتية ، الذي أوهمه إلى مدريد للمفاوضة من أجل تحرير عرش نارما . وبنت صاحبه بصله العزلة للملكة أسابيا ، كما أن روجه ماري لوير كانت أنة ملك أسابيا شارل الرابع والملك لوير من أسرة نارما ، فتعهد بومبارت (في أواخر أغسطس) بإعلاء نارما إلى مرتبة الملكية ، وتوسيع حدود الملكة الجديدة بطير إعادة لوريانا إلى فرنسا ، وانضمام أسابيا إليها في تهديد البرتغال ، وحملها على عقد الصلح مع الجمهورية الفرنسية . وضم علاقاتها مع إنجلترا ، ثم التنازل عن حرم من الأسطول الأسباني الموجود في رست هدية إلى فرنسا^(٣) .

وفي انتظار نجاح هذه المفاوضات الدائرة مع أسابيا ، أصر الفصل الأول على أن

(١) Ibid — 4932

(٢) Thiers II 75

(٣) Bertrand II 370 : Ibid 121 — 3

تصله على الدوام أخار حيثى الشرق فى مصر من جهة ، وعلى أن يذهب السفن الفرنسية إلى الشواطىء المصرية محملة بالذخائر والأسلحة والمقايير الطبية ، وهذا عدا العمال السائين والدفعين والفرسان . وتصادف مع غار من الجرائد لأجل إرسال الأسفذة اللازمة لجيش الشرق ، فضلا عن ذلك فقد خرج من القصل الأول على توفير وسائل اسلية والتزويج عن حده ، جمعت حوقة كوميدية لإرسالها إلى مصر ، ورتب اشتراكات فى أمهات الصحف الفرنسية باسم كبار ضباط الحملة حتى تصلهم الصحف على الدوام فيقرأوا فيها أسماء الوطنى ، وطلب إلى السندات اللاتى كان لهم أقرباء فى مصر أن يذهب إليها^(١) وذلك كله من أجل تعزيز أرواح المعسوبة بين رجال الحملة وحيث الشرق^(٢) . وأصدر الفصل الآون أوامره حتى تقوم الأناريق وسفن البريد والسفن التجارية من جميع موانى البحر الأبيض ، على ذلك الموانى الأساسية والإيطالية ، إلى مصر بصورة منتظمة

وهكذا شهدت الشهور اقليلة اسبالية من عام ١٨٠٠ وصول عدد من السفن إلى الشواطىء المصرية ، وقد عادت كذلك معها مرودة عائلت الأبناء من المستعمرة ، غادرت (لودى) طولون فى منتصف أغسطس ١٨٠٠ ، فوصلت الإسكندرية فى ١٤ سبتمبر بعد مطاردة عسة اضطرها إلى إلف ما عليها من ذخائر وأسلحة إلى البحر حتى نجح حملها ونحو من المطاردة ، وفى آخر أغسطس أغمرت مركبة البريد لا كاريسبور La Capricieuse من طولون ، ولكن الاخير ما لبث أن أسروها ، وكذلك كان مصير مركب آخر ، لاندبدان L'Independant ، وفى غضون شهر سبتمبر غادرت طولون القالة لاروسالى La Rosali ، ومركب البريد لوديجاجيه Le Degagé فوصلت الأولى الإسكندرية فى ٢٣ أكتوبر ، والثانية فى ٢٩ منه ، وفى شهر أكتوبر غادرت طولون السفينتان جين الكسدرين Jeune Alexandrine وسانت فليب Saint Philippe فأسر الاخير الأولى ولكنها وقعت فى قمة العرسين ثاية فى أسكونا ، أما الثانية فقد وصلت الإسكندرية فى آخر أكتوبر وقد أحضرت هذه السفينة أمر تثبيت سو فى قيادة الحملة كما جاءت طائفة من الأخبار الهامة .

وفى ٣ نوفمبر غادرت أوربريس طولون ولكنها عرفت قريبا من شاطىء تونس ، واستطاع الوكيل الفرنسى فى الوحات (وحافات الغرب) أن يتابع سفينة

جديدة أطلق عليها اسم السفينة المارقة وبعث بها إلى الاسكندرية حملة مدحائر الحرب وغير ذلك من المهمات والأدوات التي أمكن إيقادها من الشرق ، فوصلت أوربريس الجديدة إلى الاسكندرية في ٨ يناير من العام التالي ، وفي غضون هذا الشهر الأخير حاولت السفينة بوحريه Le Guerrier الوصول إلى مصر ولكنها أخطفت في مهمتها بينا استطاع مركب الردنوبوسلان Turbulent المدحون إلى الاسكندرية في ٤ يناير ١٨٠١ . وفصلا عن ذلك فقد استطاعت بعض السفن التي عذرت الاسكندرية في الشهور السابقة أن تعزل إلى طوبوس سلام ، فدخلت أوربريس (القعدة) في أول سبتمبر ١٨٠٠ عمل أساء بعض الحبال كبير ، وفي ٥ ديسمبر من العام نفسه وصلت كذلك سفينة (لودي) تحمل (بيان) ، (ولاروسكي) رسولى مو إلى الفصل الأول ، وفي ٢٥ ديسمبر وصلت السفينة الحربية (ماريا تيريزا Marie-Thérèse) وانتقلت (سانت جان Saint Jean) تحملان أعلام انجليس التي عملها الفرنسيون في ديبام وهليو وليس^(١) .

رواست تعرض الفصل الأول في أثناء ذلك كله لبعض في إرسال ما يستطيعه من معدات إلى مصر ، بل وتفكر أيضا في إعداد أسطول كبير لهذه الغاية ، عندما أسفرت مساعيه الصحية (نتيجة لاتصاراته العسكرية ولا شك) عن نجاح مهمة رتبته في مدريد . ثم أيدت العلاقات بين فرنسا وأسيايا ، عندما حقق الفصل الأول وعده في صلح لونفل Luneville في ٩ فبراير ١٨٠١ ، فوسعت فرنسا ممتلكاتها وعطى دوقها لقب اسكية الذي نظم فيه ، ورعى الأسبان أن يشتركوا مع الفرنسيين في الهجوم على البورغال وعروها ؛ وفصلا عن ذلك فقد عقد بو رت مع نابولى في ١٨ مارس معاهدة فلورنسة التي وافقت نابولى بمقتضاها على إسلاق مواهبها في وجه السفن الإنجليزية ، عدا إعطاء فرنسا ثلاث فرقاطات مساعدة ، واحل الحبال صوب Soul موالى ريندىرى وارسو وتارسو في إيطاليا الجنوبية ، وأعد المراسى في حلبج تارامت وول تشواطلى . هذا الحليج جيش كبير لهله في بعد عد إلى مصر^(٢) .

وساعد قبل ذلك اعيار بول الأول قيصر الروسيا إلى جانب فرنسا على إحياء ذلك الحاد المسلح القديم الذي فتحت القيصرة كاريبي الثانية مد يده وعشرين عاماً

(١) Rigault 210, 227 — 8

Bertrand II 370 (٢)

في إبرامه . فعقدت روسيا والسويد والصين معاهدة في ١٦ ديسمبر ١٨٠٠ لم تلت أن أصبحت إليها روسيا كذلك ، وقد أعقب دون الشك مقتضى هذا الحاد المسلح مواهبها في وجه الدهن الإمبري ، وقد اضطرت الإمبري بسبب ذلك كله إلى توسيع أسطولهم في أماكن عدة أمام أسواطهم المصرية ، وعند حل طارق ، وعلى شاطئ الرمال ، ثم أمام رشفور ورسب ، وهذا عند مراقبة الدول المحايدة في بحر الشمال ، واعتقد القصد الأول أن الفرصة قد سحبت أخيراً لكي يمر القدر أمام العام فاطمة . على أنه عند ما عاد الحملة إلى مصر من سف وست وثلاثين ألف رجل لم يكن ذلك الشاب الذي عرره الخيال الواسع ، بل إن مشروع الحملة كان مشروعاً جدياً ، ولا مناص من أن ينتهي أمره إلى خير النتائج وأعمالها "ترو" في المحافظة على مصبح الوطن (١) ومع أن ومارب لم يكن موفقاً في معاصمته في لندن على نحو ما ذكره — من أحد الحصول على هدية مع الإمبري يمكنه من إدخال عدد من السفن بأمان إلى الاسكندرية ، فقد ضمن بدل الأخوان في انقضاء داه على الصورة التي شهدناها ، والفرار من مشولية الحرب البرية ، أن عند الفصل الأول منسمة من الوهب بمصر جهودهم على مواصلة الحرب البحرية ، لا سيما وقد كانت أسواطهم الأوروبية تخضع جميعها تقريباً لنفوذه وسلطان .

وعلى ذلك فقد عدا الأهم بأعداد المشروعات العظيمة التي يمكن الحملة على مصر يستتبعها بكل تمكبره ، ومن ذلك صنع نوع خاص من الدهن ، يستطع لدخول في ميناء الاسكندرية دون حاجة إلى إزال المدافع إلى البر قبل دخول المياه ، ووافق على عودح مها في ديسمبر ١٨٠٠ ، وأصدر أوامره بصنع عدد من هذه السفن سريعة . وفي انتظار ذلك طلب في الشهر نفسه إلى موانئ لغوره وألكونا وحده (٢) أن يبعث إلى مصر بالسفن المهمة بالباط والعمال والعبيد والاراضاب والشمس (٣) ، وكسب إلى لوسيان بوارث السيف الفرنسي في مدريد في ديسمبر ١٨٠٠ وفي سائر من العام التالي ، أن يعمل من أجل إرسال سفن أسبانية تحمل إلى جيش الشرق الدخائر والأسلحة والأدوات الطبية ، كما طلب إليه أن يبعث عدداً كبيراً من السفن التجارية تنقل إلى مصر الأسدة والمشروبات الروحية ، فضلاً عن ذلك كلف لوسيان بإرسال

Thiers II 372 (١)

Ibid 373 (٢)

Corresp. No. 5234 : Ibid 373 (٣)

الأساء إلى مصر ، تم انكساره إلى حبش الشرق عما يشعره باهمام «أوروبا وأسائيا»
بأمره ، وما محفظته لمدان القاره من احترام وتقدير عطيشي^(٢) . وفي المواقف الإيطالية
وفي طولون جرى العمل على قدم وساق في ديسمبر ١٨٠٠ وفي الشهور التالية .
معدت السفينة تيري Tureone ميناء ليفورنه في ٢٥ ديسمبر .

وما أن وصل البحران مورا Murat إلى اسكويه بعد ذلك حتى سارت الاستعدادات
لكل حملة للجروح أربع سفن من هذه النيباء ، كما قدرت مركب انريد كارولين Caroline
حواه في ١٠ فبراير ١٨٠١ . وفي لندة بين ٢٠ و ٢٥ إبريل قدرت طولون
المرقطة لاساناري La Sans Parielle والإبر من بودي وبرودان Prudent
والسيفيتس خودويونيون Good Union ولافريج ديفيج La Vierge des Nèges
يتم قدرت في شهري مارس وإبريل لسيفيتس كورسيه ديفيديش Courrier de Cadix
ومساناتوان ديبادوا Saint-Antoine de Padoue . هذه فرطحة الأساطيل ،
ثم جرى تسليح الإبريق ليسانجس L'Espègle في مارسو في إبريل وميو ؛ وقد
ودعت أكثر هذه السفن في قصة الإخلاء . واستطاعت سفيتس حارب خودويونيون
وبودي الوصول إلى الاسكندرية ؛ الأولى في ٢٢ فبراير والثانية في ٣ مارس^(٣) ،
وفصلا عن ذلك جهز حمدان صمدان للجروح إلى مصر في شهري يناير وفبراير ،
تألفت أولاهما من العرقاطين لاجوسيبس La Justice وليحيبسيين L'Egyptienne
غدير باطوبون في ٢٤ يناير . حملان - عدا الأسلحة والذخائر - قوة كبيرة من
الحمد قدرت الاسكندرية في ٣ فبراير^(٤) ، أما الحلة الثالثة فقد خرجت من رشعور
في ٣٠ فبراير وكانت تألف من العرقاطين لافريكان L'Africaine وريحيريه
Régénérée وحملان يما وحماية حدى بقيادة الجنرال ديهورو
Destourneaux ولكن مالت هوب الرياح الشديدة أن فصل العرقاطين بعضهما
عن بعض ، فسقطت الأولى في قصة الإخلاء بعد حبل طاروق وكان عليها قائد القوة
يها استطاعت (ريحيريه) الوصول إلى الاسكندرية في ٣ مارس^(٥)

وشجعت حكومة الفصل الأول لتجار العرسيين على إرسال سفهم إلى الإسكندرية

(١) Lecestre I Nos. 29, 32

(٢) Rigault 231

(٣) Bertrand II 372 ' Reybaud VIII. 113

(٤) Rigault 231 ' Thiers III 42 3 ' Bertrand II 373

محطة بالأكولات وأنواع لمسوحات فوصلت من هذه السفن إلى الشواطئ المصرية لافرن La Verfu ولانطوان L'Antoine ، بينما أسر الإنجليز حريين ساروش Saint Roch وهيدروبوليت Hydropole ، وكان بحري الصل في تحصر عدد من السفن الأخرى عند بدء القتال في مصر لإخراج الحملة ، بل إن رجال الصناعة وإن في فرنسا صاروا يعكرون حذرا في إنشاء المؤسسات الصناعية في المستعمرة الفرنسية الجديدة حتى إن جماعة منهم اقترحوا على الحكومة إقامة « هاريفات » لصنع الأحواض في (الشرق) . وأيدت الحكومة هذه الرغبة في سبل تعزيز التجارة والصناعة الفرنسية في مصر . وبات واضحا بفضل سياسة الفصل الأول وتشجيعه أن امتداد الاستعماري قد بدأ ينعش من جديد ، وظهر كآفة العزم قد انعقد على عدم ترك تلك المستعمرة التي شاء الفرنسيون أن يمشوها في « ميادين جديدة وفق مبادئ جديدة » . وذلك على الرغم من أن الأتراك المميين كانوا قد سبوا حملاتهم على مصر وأن أيام الحملة في مصر قد كانت معدودة كما سيأتي ذكره . ولعل أكبر الجهود التي بذلها الفصل الأول في إرسال المتحدة إلى جيش الشرق وتأمين الحملة على مصرها ، كان نصيجه على حروب الأسطول الفرنسي بقيادة غانتوم إلى الشواطئ المصرية (١)

أسطول غانتوم :

واعتمد توارنت على غانتوم في عميق هذه الحملة ، لمعرفة الأميرال الفرنسي لمحلة الشاطئ المصرية معرفة جيدة ، فعادر غانتوم رست في ٣٣ سابر ١٨٠٦ بأسطول سأل من سبع بوارح وفرقاطة واحدة وسهينين من نوع افروس . حمل حبيها خمسة آلاف جندي ، وساعده على الإقلاص من مراقبة الإنجليز هوب عاصمة شديدة هزقت أسطولهم . ولما كان يفتنى من مطاردة هؤلاء له ، فقد تظاهر غانتوم بالذهاب إلى سان دومينجو ، وحمل على ظهر سبعة عددا من الرحان والنساء والأطفال السود إتقانا للخدمة ، وحازت على الإنجليز الحيلة . فترسلوا في إثره أحد أسراء البحر (كالدر Ca der) ، فيجمع شطر الأنيل (٢) . وبذلك أفسح الطريق لغانتوم ، الذي جمع أسطوله قذالة رأس سان فيسنت في طرف إيبريا الغربي ، ثم استطاع دخول مضيق جبل طارق في ٥ فبراير ، دون أن يطلع (وارن Warren) الأميرال الإنجليزي في منعه .

ولكن غاثوم لم يلبث أن استولى بعد خمسة أيام فقط على إربق العجبرى كان قد بست به الفلوردي كيث من شاطئ خليج ماكري (Macri) (مأجيا المصري رسالة رودس) يحمل أبناء إلى لندن ، فعلم غاثوم من رجله هذا الإربق أن كيث يحسب بأسطوله قافلة كبيرة من السفن ، وكانت القافلة التي حملت جيش السير والف ابركرمي إلى المياه العذبية ، لتعاون مع الأتراك على البرول في بعد على الشواطئ المصرية ، وطرد جيش الشرق من مصر . ثم سرعان ما تأكدت هذه الأخبار لدى غاثوم عندما وقعت في أسره فرقاطة العجبرية (ساكسي Success) . وعندئذ قرر غاثوم الذهاب إلى طولون ، فدخلها في ١٩ فبراير . وسبب هذا الفشل عصب بونابرت واستاءه العظيم ، ذلك أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى خوفه من مطاردة الإمبراطور لهم ، وأسطولهم كان ما يزال راسا في (ماكري) على بعد مائتي فرسخ من الإسكندرية ، رد على ذلك أنه لو أن غاثوم واصل سيره إلى الإسكندرية ، بعد احتيازه جبل طارق مباشرة ، لأمكنه الوصول إليها بين ١٥ ، ٢٠ فبراير ، وقد دل دحوب السفينين (لودي) . (راجع ٥) إلى هذا الباب في ٣ مارس على إمكان ذلك

وقد اعتبر بونابرت في بعد عودة غاثوم إلى طولون من أسباب إحقاق قومندان الاسكندرية فريد الذي عجز سبب «من قواه» عن منع رول جيش ركرمي في أني قبر في ٨ مارس (١) ، ومع أن غاثوم كان يرى متاعه ليس «مدين» ما أكد لديه بيا وجود الأسطول العجبرى في مياه ماكري ورودس بحارفة كبيرة ، بسبب ما أصاب أسطوله من إعياء على أثر هبوب العواصف في أثناء رحلته من رست إلى جبل طارق ثم حاجة منه إلى الإصلاح والتزيم لسريع ، وقد عر مؤرخو (الحالة العسكرية والعافية) إحقاق غاثوم إلى صديق أفق تمكركه ، ذلك الصديق الذي جعله يعتقد أن المحافظة على عدد قليل من السفن يعوق في أخيه امريسا خلاص جيش الشرق في مصر وسلامة المستعمرة (٢) ، ووافق أن غاثوم ، مثله مثل بروي من قبل ، لم يكن سوى تاج تلك البحرية المحلة إلى حطم روح رجالها المعوية انهزام في فير الحاسم في بداية الحملة

أما بونابرت فقد بادر بإرسال أوامره إليه للخروج لديه من طولون ، ثم لم يسعه أن يعمل تدكير غاثوم بأنه لو استمر في طريقه لاستطاع انحر مهجه ورفع سمعة البحرية الفرنسية ثانياً . وبعد ما طلب غاثوم البرول في درسه على شاطئ برفة بدلا

Ibid 376 (١)

Reybaud VIII 114 (٢)

من الاسكندرية ، يدعى أن درة لم تكن محصنة ومن اليسور استخدام أهلها العرب في نقل الجند بطريق البر على حملهم إلى الاسكندرية . وحد ثومارت من الخير أن يأتوا له بذلك إذا وجد عاتوم معه مرعماً على إزال الجند في درة وكان الانجليز عاصرون الاسكندرية بأسطول بهوى كثيراً أسطوله (١) ، وصدرت الأوامر من باريس في الوقت نفسه إلى موافى رشعور وفيرول وقادش لتنظيم قطع الأسطول بها من أجل إرسال المساعدات إلى مصر بكل الطرق (٢) .

وفي ١٩ مارس عذر عاتوم طولون وأخيه صوب سردسما على أن هذه أسدة الطويلة التي قصدها عاتوم في طولون كانت كافية لأن يجمع (وارن) الأدميرال الانجليزى أسطولا صغيراً في حمل طارق . يدخل به اسحر الألبس ويتحد لعدة لطاردة الفرنسيين ، واستطاع اللحاق بأسطوله قرب شاطئ سردسما في ٢٦ مارس ، ولكنه عاتوم ما أش أن قام بحركة ماهرة أفنت هاتين وارن ، وأحس من أنظار الأسطول الانجليزى ، وطني (وارن) أنه وقد عاين قصصه ، قد عم وجهه شطر مصر ، فصرم وارن على الاضمار بموافقه إلى أسطول اللورد كيت . وكان في وضع عاتوم لو أنه أوقف قليلاً من الجراء أن يقصد الشاطئ السوري عند حمص وحل الكركم ، فيجمع شيئاً من أحجار الغنايين ، وتحدد طريقته من هذه الناحية صوب دسماط . فصرل بها ما كان معه من معدات كثيرة (خمسة آلاف حدى) ، ولكنه عاتوم حصل — بدلا من ذلك — أن يعود أدراجه إلى طولون في ٥ أبريل بعد أسبوعين فقط من موقعة كابوت أو الاسكندرية ، وفي وقت كان لا زال الفرنسيون يحتلون القاهرة والاسكندرية (٣) .

وعقب الفصل الأول مره أخرى ، وصدر أوامره من جديد إلى أمير البحر الفرنسى لبدء محاولة جديدة ، وأصر على ضرورة إيصال المساعدات إلى مصر بالبرول في دسماط أو رفة . وروده بالمندافع لإقامة الطائرات على الساحل ، والمال لاستئجار الجنود والحوال لنقل الجند ونهات ، وكان في تخطيطه صريحاً بأنه لا يجوز لعاتوم الوقوف عند درة أو سقارى وإزال الجنود بها إلا إذا أصرع ارجعاً على ذلك . وخرج عاتوم من طولون لمره الثالثة في ٢٥ أبريل (٤) ، وكان أسطوله

Corresp. Nos 5415, 5421, 5430, 5446 (١)

Thiers III 45 (٢)

Bertrand II 375 — 6 : Ibid 95 (٣)

Thiers III 114 (٤)

يجعل عدا الجيود طائفة كثيرة من الصاع والسمائين الاحصائيين في علم اسباب ، ثم حوقة كوميدية لمسرح القاهرة^(١) وفي ٨ يوسه كان على مسافة عشرين فرسجاً فقط من الاسكندرية ، ولكن عاتوم قرر الذهاب إلى دزنة ، وأحقى في ازال حده بها سبب ما لقيه من مظاهرات الأهيين لعد ثيه صده ، فهد أسرع هؤلاء سلاحهم إلى نشاطيه صورة معركة ، فأدر عاتوم وجهه صوب كريت وفصل من أسطوله اسفينة هليوبوليس واث بها إلى الاسكندرية

أما هو فقد عاد أدراجه إلى طولون فدخلها في ٢٢ يوية واسطاع عاتوم في أثناء هذه الجولة العاشلة أن أسر مركا إبحيريا (Sous-marin) بعد قتال دام ساعتين ، بيما فص الإبحيري دورهم على خمسة لات من سده فادوها إلى حليج أني قبر . وقد أكد وصول هذه لقلاب إلى أني قبر اعداد الإبحار من أسطول عاتوم قرب من الإسكندرية فشدوا حصارهم على هذا الميناء ، وأرسات ثلاث موارح إبحارية وبارجة ركية إلى كوتة أميران بكر بون Bikerton لمطاردة أسطول عاتوم^(٢) . وهكذا أصاع عاتوم — سبب إحصافه — كل أمل في إقحام جيش كبرى وما من شك في أن طاقوم لو حاول دخول الإسكندرية وفشل لاستطاع أن يفعل ذلك^(٣) ، بدليل نجاح (هليوبوليس) في الدحول إلى ميناء ، ولأن أكثر قوات الإبحار الزاحمة على القاهرة بقيادة الجنرال هينشون كانت قريبة من الحرية ، ولا تقوم على حصار الإسكندرية سوى الجنرال كوث Coote بقوات لا تزيد على اثثة آلاف حدي تقرباً فشا بينهم المراض .

وهكذا ظل الفصل الأول مثاراً على محاولة إرسال اسحداث إلى مصر حق آخر أيام الحملة ، وم يعه من عقق عاتو سوى انحلال البحرية الفرنسية ، وعمر حكومة الفصلية عن ابهوس بها في أثناء تلك المدة القصيرة التي انقضت من وقت انقلاب برميير (نوفمبر ١٧٩٩) ، إلى وقت رول قوات أركرمي في أني قبر (في مارس ١٨٠١) ، رد على ذلك أن عاتوم م يكن من أولئك الذين أعطوا القدرة على الظهر بأكليل المجد وكسب لهم الخلود . وم مصر الفصل الأول نشاطه على عهده من البريد والفرقاطات وما إليها لإرسالها إلى انشواطيه المصرية ابعة بعد ابعة ، أو إعداد

Reybaud VIII 327 (١)

Thiers III 114 — 7 : Ibid 325 — 7 (٢)

Bertrand II 377 (٣)

الأساطيل في برست وطولون وقادش وفرصاحة خصوصاً لمباراة الإمبر ، وفتح طرق المواصلات البحرية بين فرنسا ومصر ، ونقل الوحدات العسكرية والموثون والذخائر إلى المستعمرة الجديدة ، بل إنه ظل في أثناء ذلك كله سداً شاملاً دبلوماسياً كبيراً مع حلفائه أو الدول المخالفة حتى يحميها شتى وسائل الضغط والإفدع على إغلاق مواهبه دون منعه العدو . ولعل أكرر دليل على أن اتصال الأول ما كان يرمى بأن ترك جيش الشرق في مصر وشأنه ، نكث الساعى الذى طلى بدلها في العسطة طيبة ولندن من أجل إخراج الأتراك من محالهم مع الإمبر ، وعقد صلح منفرد معهم يحفظ لفرنسا مصالحها من ناحية ، ومن أجل إقناع الإمبر بقصد هدنة ممكن الفرنسيين من إرسال الوحدات إلى مصر أمام هذا بعد إبرام صلح مشرف مع المحلة ، من ناحية أخرى .

القصل الأول وركب

وكان المرحس الاندق مع ركب ولا شك صعوة اسوفى بين رغبة فرنسا الظاهرة في الاحتفاظ بمصر تحت سادة العثمانيين « الاسمية أو الوهمية » على الأول ، وبين استمرار الأتراك على استعادة مملكتهم المندعة . وفصلاً عن ذلك كانت امريسيين مشكلة التوفيق بين رعيهم في المحافظة على ماء الدولة العثمانية ومنع انحلالها وتقسيم أملاكها بين فرنسا وروسيا خصوصاً ، وبين رعيهم كذلك في استبقاء مصر بينهم ، مع ما يتلوى عليه هذا العمل من معنى التقسيم الماعلى ، وما يجر إليه من عواقب خطيرة . من أثرها ولا شك اطلاق ركب في طريق الانحلال السريع في النهاية .

على أن القصل الأول كان على ما يبدو - كمر التقه في العطب على هذه الصعوبات ، بل الوصول إلى حل موفى لها ، يحقق أغراض امريسيين السياسية جميعها واعتقد بوبرت أن في وسعه إقناع السلطان العثمانى بمخون واد العريدين إذا أظهره على أغراض الدول المتحالفة نحو تركيا واقتسام مملكتها من جهة ، ثم عزمه على إعاء جيش المحلة في مصر يعمل كقوات مساعدة من شأنها معاونة العثمانيين في المحافظة على هذه البلاد حسب وأحمد بوبرت في هذه المحاولة على جهوده وجهود ممثل الجمهورية في تركيا ، فصلاً عن وساطة حلفائه أو وزراء الدول المخالفة ، وأكد بوبرت فيما بعد (١) أن المواصلات كانت تدور بكل هممة مع الباب الماعلى في الشهور الستة الأخيرة من عام ١٨٠٠ يقوم بها روفان ثم وزراء روسيا وألمانيا . ومع ذلك فقد

طل روفان في السجن مدة طويلة ويشكو لورر الخارجية تاليران مايلقاء من عنت وإرهاق على أيدي صاحبه

وفي يوبه حكتب وليي Bouigny إلى مدريد وكان وقتئذ سفيراً لأسبانيا في فينا أن يوارث نعت إلى السلطان رسالة عذره وبها يبيته حلفاء تركيا لها من وايا حبيته ، وؤكد له صداقة الفرنسيين وحرصهم على أن يستقي السلطان مصر بالصورة التي سبق ذكرها (١) . ولا يهمل إرسال هذا الكتاب إلى السلطان دليلاً على بدء مفاوضات جديدة في القسطنطينية . دع عليك القول بأنها كانت تسير بكل حمى ؟ وفي شهر سبتمبر دأب في باريس أنه حارب أساء من تركيا تقول إن الباب العالي ما كان يعنى من وراء استعداداته العسكرية للرحف على مصر سوى تهدئة حواسر الانجليز ودر الرماد في عيونهم لإحفاء عرصه الخفقي ، وهو انتظار بدء المفاوضات في أوروبا وانتهائها إلى إعادة مصر إلى الأتراك ، دون حاجة إلى تعاون هؤلاء مع الانجليز في قتال يصعبهم وذكر بوناپرت في بعد أن الباب العالي قد قطع على مصر عهداً بعدم القيام بأي عمل عدائي ضد (الحملة) في مصر ، وأن الصدر الأعظم سوف يظل بحيث راضياً بأرض الشام احتراماً للمحالفة العباية الانجليزية وتهدئة لخواطر الانجليز . ووعد الباب العالي بالامساع عن إرسال إمدادات لهذا الجيش ، لأن الأتراك كانوا يدركون أن الفرنسيين يروهم في مصر إنما يريدون إصانة مصالح الانجليز في الشرق بصرية قاطلة ولا يريدون إلحاق الأذى والضرر بتركيا (٢) .

وقد يكون الأتراك أقوى رعة في إحلاء مصر بالطرق السليمة بعد مفاوضات ناجحة ولكن انتاب كذلك أنهم ما كانوا يحتمون عن الاسراع بحلهم العسكرية مع الانجليز إذا تبين لهم أن استعادة سيطرتهم الكاملة وسيادتهم التامة على مصر تقتضيهم أن يدلوا جهداً عسكرياً كبيراً ؛ وما من شك في أن الأتراك كانوا يريدون استعادة سيطرتهم وسيادتهم على هذه البلاد كاملة غير منقوصة ، وآية ذلك أن الباب العالي الذي حل وساطة ملك روسيا في مص النزاع بينه وبين الحكومة الفرنسية ، لم يلبث أن طلب من اللورر الروسي في القسطنطينية في آخر يوليو ١٨٠٠ أن تقوم هذه الوساطة على أساس إحلاء مصر من الفرنسيين ، فتبدله روسيا مالياً من وسائط لتحقيق ذلك

Rigault 226 (١)

Bertrand II 371 — 2 (٢)

في أقرب وقت وأسرع ، سواء تم الإحلال بالوسائل السلمية والودية أم اقتضى الأمر اللجوء إلى قوة السلاح (١) .

وكان من الواضح بذلك أن استعدادات الأتراك العسكرية لم تكن درأً للرمادي عيون الانجليز ؟ ودت واحداً على الفصل الأول أن يحدد السعي من أجل إفساح الأتراك دعواه أن الفرنسيين لا يستطيعون إحلال مصر مادام الخطر باقياً من صراع هذه البلاد من تركية بعد خروجهم ، وعوده الكوابع المأليث يستمدون بالسلطة والسطان في مصر ، أو حشبة أن يحدد (حبه) الذات العالي (العادرون) إلى إمرأها من تركيا . فعول الفصل الأول على إفساح ذلك كله للسطان المعاني من جهة ، كما أحد رجال حكومته يقدون وحوه الرأى في إسكان الإفادة من وساطة روسيا و هذا الشأن ، وقد ساعد على التمسك في طلب وساطة روسيا ما أظهره بمصرها بول الأول من مول صادقة عو الفصل الأول وعلى ذلك فقد شرع (ديكورث) يخصص هذه المسألة منذ نوفمبر ١٨٠٠ ، وكان كل ما يصبه ويرب لصالح الفرنسية والروسية ، والوقوف على مدى انعاق هذه المصالح أو احتلالها من حيث الإبقاء على تركيا ومنع انحلالها وقد انتهى ديكورث من عته إلى إسهاء أى تعارض بين مصالح الدولتين ذلك ، لأن تركيا يحدد مصالح روسيا وفرنسا معا ولا يكلف المصطفة على كياها كثيراً ، لأن لقاء ديكورث ، اعتقد أن الانحلال لم يكن قد سرى في حثان تركيا بدرجة مهدد بوالها بل إن تركيا في أبه كانت بعيدة عن هذا الانحلال ، وسوف تبقى فائقة مدة طويلة

وكان مما أيد فائده اللجوء إلى وساطة روسيا أن الأحبار سريعان ما حدثت من القسطنطينية في ديسمبر (٢) تبين مراد اتحاد هذه الخطوط ، على اعتبار أن تعظيم نفوذ الانجليز في تركيا والشرق ، هو ما يجب على فرنسا وروسيا أن يهدفا إلى تحقيقه بكل وسيلة . بل إن أنصار هذا الرأى لم يشكوا في نتيجة هذه الوساطة ، لاعتقادهم أن الاحتلال الفرنسي في مصر لن يحول دون نجاح المفاوضات في وقت كان فيه العثمانيون على حد رعمهم - يسطرون إلى لقاء الفرنسيين في مصر كقوة يستطيعون الاعتماد عليها في تعريض نظامهم في تلك الأقاليم التي شنت فيها الثورات صدمهم في آسيا وإفريقية وصاروا لا يحبون منهاأة فائدة . واطمان الفرنسيون من ناحية روسيا مدأن تحضت دبلوماسية الفصل الأول مع روسيا ودول الشمال ، فحدد حياد هذه الدول

السلح مند ١٦ ديسمبر ١٨٠٠ ، وقعت الدولة الأربع روسيا والسويد والدان ، وروسيا المحالفة الرابعة على نحو ما أسلفنا القول . وكان الخوف من ذلك بعض مصاحم الفرنسيين من أن يقدم الروس على إرسال جيش بطريق البحر الأسود لمعاونة الأتراك في حملهم ضد مصر ، فكتب بونابرت إلى تاليران في ٣٠ يناير ١٨٠١ أن السلام مع النمسا لا توارى أهميته شيئاً في جانب التحالف مع روسيا ، ذلك بأن من شأن المحالفة مع الروس إباحة مصر لئلا يطرد أقدم الفرنسيين في مصر ، وبقاء هذه البلاد في حوزتهم ^(١) ، بل اعتقد بونابرت أن هذه المحالفة سوف تحكمه في النهاية من تمديد مشروعه الشرق العظيم ، وإلقاء الرعب في قلوب الإنجليز .

وبدأت المفاوضة بصورة جدية في باريس مع كوليتشيف Kolytcheff السفير الروسي مند فبراير يصدد الوسائل التي يمكنه من الاحتفاظ بمصر ، واقترح السفير أن توسط روسيا بين فرنسا وأعدائها على أساس إخلاء مصر السريع . وحاول بونابرت في نظيره المودعة على إعادة مآلظه إلى فرنسا القديس يوحنا ، أن يقنع الروس بتأييد رعيته في الاحتفاظ بمصر ، وكتب بونابرت إلى القصر في ٣٧ فبراير ١٨٠١ ^(٢) « أن من مصلحة جميع دول البحر الأبيض والأسود ، مصر في حوزة فرنسا » وأن العمل المشترك بين فرنسا وروسيا يجب أن يلقى الرعب في نفوس الأتراك ، ويمنحهم إلى سد محالفتهم مع إنجلترا . وكان في أثناء هذه المفاوضة على ما يظهر في شهرى فبراير ومارس ١٨٠١ أن تقدم بونابرت بمشروعه الشرق مقترحة على الروس القيام بعمل عسكري مشترك ضد الإنجليز في الهند ، فنزل حملة فرنسية كبيرة في شهر الدانوب إلى البحر الأسود ثم استأجرت حيث يجتمعها الروس حيثاً عظيماً ، فغیر الجيوش المجتمع عن طرق هيرات وصددها إلى الهند وتطرد الإنجليز منها . ^(٣)

وكثير ترديد الإشاعات في باريس بأن الروس قد وافقوا على ذلك ، وعهد القيصر بون الأول إلى الجرال أورلوف Orloff في يناير ١٨٠١ بقيادة الحملة الروسية المزمعة ؛ وأرعى هذا المشروع اعلمته أعما إرعاع . وعنه صارب نحاول استئلال مديحة القيصر وإزالة أسباب سوء التفاهم معه ، حتى اضطرت في آخر الأمر إلى إصدار أوامره ، إلى بسن بالذهاب إلى بحر الشمال لتتخطم بحالة الجهاد المسلح الرابعة . ورحا بونابرت

Sorel VI 105 (١)

Corresp. No. 5417 (٢)

Sorel VI. 112 — 4 (٣)

أن يتبع حروح الأسطول الإبحري إلى بحري الشمال والبلطيق الفرصة لخروج الأسطول
الفرنسي من برست يحمل البعثات إلى جيش الشرق في مصر ، غير أن هذه الآمال
سرعان ما انهارت عندما قتل القيصر بول عبلة في ليل ٢٣ - ٢٤ مارس ، ثم أرغمت
الدعمرك على الخروج من المحاربة عندما صوبت نيران كوسها من قذائفه في ٢ أبريل ، ثم
استطرد روسيا بعد ذلك إلى عقد الصلح مع المحترقة وانحلت المحاربة الروسية نهائيًا ؛
فصاعت من ثم كل فرصة في إمكان التحالف بين فرنسا وروسيا ، ولم يخرج إلى بحر
السلطوق ذلك الأسطول الإبحري الكبير ، الذي انتظر خروجه القصد الأول ، حتى
بعث بالبعثات من برست إلى الاسكندرية ، ^(١) وفصلًا عن ذلك فقد صمم الأتراك
على المعنى في مؤامرة الإبحار في مصر ، والتعاون معهم منذ أن وصل الباب العالي
بحر الانتصارات الأولى التي أحررها هؤلاء في أي فير والاسكندرية ^(٢)
معاصات لندن ومهمة أوتو

وكان الفصل الأول في أثناء مساعيه من أجل لمفاوضة مع تركيا من جانب ،
وإحياء محاربة الجهاد لمصلحة ضد المحترقة من جانب آخر ، حتى متى له إرسال البعثات
إلى مصر واستقاء هذه البلاد في حوزة فرنسا بصورة دائمة ، إذا نجح في إقناع تركيا
على التسليم بذلك أو بصورة مؤقتة إلى أن يحين عقد السلام العام في أوروبا ، إذا استطاع
حمل المحترقة على إبرام صلح مشرف مع فرنسا - كان الفصل الأول يدل جهداً
ظاهراً في لندن لتحقيق عرض مباشر أولاً ، هو عهد هدنة تمكنه كما أسما القول
من إرسال البعثات إلى مصر ، ثم الوصول إلى صلح في آخر الأمر تمكنه من اتحاد
مصر وسيلة للمساومة مع الإبحار إذا أصبر هؤلاء على إحلالها ، لقاء أن كان فرنسا
لعويصاً ملائماً عن فقدانها .

وكان فشل الفصل الأول في هذا الميدان ولا شك من الأسباب الحاسمة التي حالت
الإبحار شحوبون عن التمسك ببقاء الفرنسيين في مصر ، أي عن تلك السياسة التي
حطلمهم يعصرون اتفاق العريش عقب إبرامه ^(٣) ، إلى ضرورة إخراج جيش الشرق ،
وإرسالون محطهم إلى الشواطئ المصرية لهذا الغرض ، منذ أن تبين لهم ضعف جيش
الشرق في مصر من جهة ، ووقفوا على توازن موبارث ورعته المدعة في إرسال البعثات

Bertrand II 369 (١)

Rigault 236 (٢)

شكري ٣١٦ - ٣٣٠ (٣)

إلى جيشه ، ومحاولة إحراج الأتراك من التحالف مع الإنجليز ، واستثناء مصر في حوزته حتى يسجد من ذلك وسيلة لمساومة مرعبة مع إنجلترا . ولا جدال في أن الإنجليز كانوا أصحاب السيادة المطلقة في البحر الأبيض مد انتصارهم البحري في أي غير ، ذلك الانتصار الذي مكهم في الشهور القليلة التالية من الاستيلاء على جزيرة Gouzo مصرية من مالطة في أكتوبر ١٧٩٨ . ثم مساء ماهون الأساني في جزيرة ميسورة في نوفمبر^(١) ، وفتحت لهم موانئ صقلية وسردينيا ، وتأديت سيطرتهم أخيرا على استقلالهم على جزيرة مالطة ذاتها في ٥ سبتمبر ١٨٠٠ . وكان من أثر هذه السيطرة على بحر ماريأيا إجماع كل محاولة لها بونابرت من أحل إرسا أي تحركات كبيرة تحمها من غلاتوم إلى الإسكندرية

وعلى ذلك فقد عمد بونابرت مد أن حصلت له الأمور في باريس عقب عودته من مصر ، ومكنه انتصاره لأولى في القارة ، إلى الدخول في مفاوضات جديدة مع إنجلترا . استمرت في واقع الأمر إلى ما بعد رول الحملة الإنجليزية على الشواطئ المصرية . وقد مرت هذه المفاوضات في دورى طهرى ، يسمبر الأول منهما بمحاولة بونابرت إرسال الإمدادات إلى مالطة ومصر عن طريق عدد عدة بحرية مع الإنجليز عسكره من ذلك وقد طلت المفاوضة دائره في هذا الشأن إلى وقت عقد الصلح مع النمسا في لوفيل في ٩ فبراير ١٨٠١ . فيما يسمبر الدور الثانى رعية بونابرت الملحة في اتحاد مسألة بقاء جيش الشرق في مصر أو خلائه عنها وسيلة لمساومة مع الإنجليز ، من أجل استثناء هذه المستعمرة في أيدي الفرنسيين . أو الحصول على تعويضات هامة عن فقدانها ، وحروب جيش الشرق من البلاد رافع الرأس موفور الكرامة . إذا أصر الإنجليز على إعادته مصر إلى تركيا

وكانت الحكومة المصرية قد أرسلت إلى لندن المواطن أوتو Otto للبحث في مسألة تبادل الأسرى مع السلطات الإنجليزية مد يناير ١٨٠٠^(٢) . وحدث في أغسطس أن أعلن اللورد مينو Minto سفير إنجلترا في النمسا ، في ظروف سوف تأتي ذكرها رعية حكومته في أن تشترك في مفاوضات الصلح الدائرة وقتئذ بين فرنسا والنمسا ، وكانت النمسا قد طردت عد هزيمة جيوشها في معركة مارغو عقد الهدنة ، والدخول في مفاوضات من أجل عقد الصلح العام في أوروبا ، وأحياها الفصل الأول إلى ذلك

فبعد بونابرت من ردة الإنجليز في الاشتراك في هذه المفاوضات دوسية لإعلان عزمه على عدم تجديد الهدنة مع النمسا ، ما لم يعقد الإنجليز معه هدنة بحرية ، كان العرض ابواصح منها ، كما أدركه الإنجليز ، إرسال الهدنة إلى جنس الشرق في مصر وإلى الخامة النمسية في مالطة (١) وعلى ذلك فقد أصدر بونابرت أوامره في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٠٠ إلى أوتو حتى يعاوض الإنجليز ، هدائن من ثم تلك المهادنات التي استمرت بين أوتو والورراء الاخير طوال شهر سبتمبر (٢) ، فقترح أوتو إطلاق حرية الملاحة حتى تستطيع مرسا التجارية والحرس الخولة تأمين قنصل ، لإمدادات في مالطة والإسكندرية ، تطبق للمعاينة التي كان يجري وقتئذ العمل بها لتروى الموقع الذي كان يحاصرها الجيش النمسي في أديب مثل فيلسبورج Philipsbourg . ونوه Ulm والمخولشتاد Inglostadt حقيقة تعد فرنسا من تطبق هذا المبدأ في المحافظة على مراكزها في مالطة والإسكندرية ، ولكن ما كان يعني استيثار هذه الممثلة عاها وهي التي أحرقت بقوة مراكر أعدائها في العار . وركت فصل نصيب رسته بمر دون أن تحطم قواتها جيش النمسا .

وفي أديب سبتمبر حصل أوتو على صيحات جديدة من تاليران أن يوضح الإنجليز إصرار فرنسا على لمحة مالطة ومصر ، وأن (انصق كاتر) م يكن سوى نسخة احتلال طام الحكومة النمسية ، وأنه مد أن حصل الحكومة على تقرير توصح حقيقة شعور جيش الشرق ، سرعان ما أنه كد لديها أن في وسعها عمدا الاحتفاظ بفتحها . وقد طلب تاليران من المفاوضات النمسية في لندن أن رفض عقد الهدنة مادامت هذه لا تقوم على أساس تمس مالطة ومصر (٣) ، وفي ٤ سبتمبر عرض أوتو هذه المقترحات على الحكومة الإنجليزية ، ولم يكن من اليسور أن يسل لاخبر هذه العروض ، انطوب عليه من « صحبات » عظيمة ، إذا أحراروا تمس مالطة والإسكندرية ، لأن معنى ذلك احتمال بقاء مصر داتها في حوزة فرنسا ، وإعطاء الفرصة للأسطول النمسي (والأسطول الأساني) ان يابض في رست لاجراى نطاق الحصار الإنجليزي والقدحول إلى البحر الأبيض ، حيث يسهل عليه عندئذ أن يجد قواعد مهمة لإمداده بمحاخنة من المؤن والذخائر يصوره تمككه من المساعدة السطرية في البحر الأبيض عاجلا أو آجلا .

Stanhope III 234 (١)

Thiers II 134 — 5 (٢)

Rigault 222 (٣)

وما كان الإغريق في الوقت نفسه يحشون من تحطيم حيوش النخس ، واضطرار هذه الدولة إلى عقد صلح منفرد مع فرنسا ، من شأنه أن يريح عن كاهل بونابرت عبء القتال في لغاره ، وينتجح له القيام بعمل عدائي ضد الحزب البريطانية ذاتها ، فقد تقدم الإغريق عشروع فتلوا فيه الدحول في معاوصات عامة من أجل عقد الصلح الأوروبي ، واقفوا على أنحد (بونابرت) مكاباً للدؤعر الذي يعمد بهرير السلام .

ل عسوا بوماس حرميل شقيق ورير الخارجية لهذه المهمة أماعي يعلق أمر الهدنة البحرية ، فقد انس مشروعهم على وقع انفتاح في البحر والر معاً ، وألا يقتصر الهدنة على الدول البحرية فقط اخترة والنخس وفرنسا ، بل يجب أن تشمل حلفاء البحري الآخرين ، وكان عرض هؤلاء أن يعموا عن حليفهم البرتغال كل تهديد من جانب أسبانيا ومع أن الإغريق لم يكن في وسعهم أن يرفعوا صراحة معاملة مالطة والإسكندرية معس المعاملة التي عمت بها المدن الألمانية الثلاث ، فقد قيدوا موافقتهم بتهففات هامة تأس ولا شك كل قائده مستفاره من إرام الهدنة ؛ ذلك أنهم اشترطوا مع إرسال استحداث إلى مالطة والإسكندرية بطريق البحر بدرجة ممكن حاميات هذين السكانيين من الاستمرار في الدفاع والمقاومة ، بل يجب ألاكتفوا بإرسال أوون حسب وعلى دفعات متقطعة مرة كل أسبوعين ، وذلك بعد أن يقرر مدبرون يصون لهذه العاية مقدار ما محتاجة الحاميات من مؤن وأطعمة وأراد الإغريق من مقترحاتهم أن لا يهونوا فرصة الصلح على النخس حليفهم ، وأن يعموا عنها المهرعة حتى يصموا عروقها عن عقد صلح منفرد مع فرنسا .

ومع أن مالطة كانت في حاجة إلى المؤن والأطعمة ، بعد أن انتشرت بها المذاعة بسبب تصديق الحصار عليها ، حتى اضطر أهلها ورحان الحامية إلى أكل الحردان أحراراً^(١) ، فقد كان واضحاً أن مصر إنما تطلب الأسدحة والحدود لخدمة الحاميات بها ونبرها . ولذلك اقترح البيران في ١١ سبتمبر أن يطلب (أونو) من الإغريق السماح لست فرقاطات فرنسية مذهب من طولون إلى مصر دون أن يتعرض الإغريق لها شيء أو لا يقتسوها ، لقاء أن يتد أحد الهدنة مع النخس والبورساح حليف الإخترة .

وأصر تاليران في تعليلاه على أن يكون فتح المواصلات الحرة بين فرنسا ومصر أساس كل اتفاق ذلك أنه لما كان انحرص من إرسال هذه الفرقاطات الست قد أنف وماتق حدى وألم سدقة إلى الإسكندرية ، فإن الحكومة الفرنسية لا يسعها أن تترك

حيثما في مصر معرضاً لافراس وحوش العنايين في أثناء المفاوضات لعقد السلام العام في أوروبا . ومع أن بومبارت وافق على إلغاء الأسطول الإنجليزي في مراكش أي استمرار الحصار المصري على رست وعلى الشواطئ المصرية ، وإرسال المؤن والأطعمة إلى مالطة مرة كل خمسة عشر يوماً ، فقد تمسك في تعليقه إلى أونو في ٢١ ستمبر بضرورة إرسال الفرقاطات الست إلى الإسكندرية ، بل إن الفصل الأول ذهب في ضرورة إرسال الوحدات إلى مصر إلى حد اقتراح بفعل أمر الهدنة كلية ، والدخول رأساً مع إنجلترا في مفاوضات منفصلة عن مفاوضاته مع النمسا (١)

وحققت مباحثي الفصل الأول ، لأن الإنجليز ما كانوا يوافقون شاماً على إبقاء مالطة ومصر في حوزة فرنسا ، بل وحدث هؤلاء مبعوثاً لرئيسهم مفترحات بومبارت وورر خارجيته في أعرف كليلر معه ، بعد استئناف القتال ، بأن اتفاق العريش لأران ساريا ، وأنه إذا لمعه موافقه انخاره عليه فشرع خلا في تنفيذه ؛ وهو « اعتراف » بحولهم الحق ، وقد أمرت حكومتهم ان في العريش في مارس ، أن يصروا على إخلاء مصر ، وفصلاً عن ذلك فقد دأب في هذه الآونة حين نلهم مالطة (مد ٥ ستمبر ١٨٠٠) ، وحرره سقوط الحرية الفرنسيين ، من أهم موقع يستطيعون الارتكار عليه في إرساله الوحدة من فرنسا إلى مصر عبر البحر الأبيض . وكان من الطبيعي أن يرداد الإنجليز تشبهاً عطية الفرنسيين بإخلاء عن مصر . وعلى ذلك بحث تاليران إلى أونو في آخر سبتمبر بالكف عن مفاوضات الهدنة ، ما دامت هذه لا تحقق الغرض المأم منيها ، أي فتح لمواصلات مع مصر وإرسال الوحدات إليها (٢) .

وفي لمارك انالية آرنب موررو Morcau عبث النصارعة ساحقة في هولندن Holchenden في ٣ ديسمبر ، وزحف الفرنسيون صوبها ، وعقدت لم تحدد النمسا مباحث من طاب المدة في ٢٥ ديسمبر ، ثم عقد النمساويون مع الفصل الأول الصبح في يوميل في ٩ فبراير ١٨٠١ ، وخرجت النمسا من تحلفها مع إنجلترا . واعتقد بومبارت أن المصرة قد ماتت موالية للحل الإنجليزي على قبول الصبح ، وفق لشروط التي رتبها فرنسا وقوى هذا الاعتقاد سقوط وزارة Pitt ذلك الورر الذي اشهر بعدائه لحكومة « الجمهورية الفرنسية » (٣) . وعلى ذلك أسرع تاليران في ٩ مارس يطلب من (أونو) اللقاء في لندن ، واستئناف البحث في مقدمات الصبح مع إنجلترا

Thiers II 137 — 8 (١)

Rigault 224 (٢)

Charles - Roux II 99 (٣)

ومع أن أوتو كان يدرك تماماً أن الإيجد لن يوافقوا على ترك الفرنسيين في مصر وتأيد ملطانيهم بها ، فقد كان كبير الرضاء في إمكان المناوصة ستاح سبب ما سبه من تبدل ظاهر لدى طائفة من رجال السياسة الإخلمر . الذين كانوا يرون أنه من المست اشراع مصر عبوة من قصة الفرنسيين ، سواء بطريق المناوصة أو القتال ، عندما كان في استطاعة الفرنسيين دائماً أن يحاولوا العودة إلى احتلال مصر بالاتفاق وديامع تركا وليس في وسع بريطانيا في هذه الحالة أن تستأنف الحرب مع فرنسا لمجرد معها من احتلال مصر مرة ثانية ^(١) بل إن أوتو لم يلبث أن أقتنع بأن فرنسا سوف لا ترمع على إخلاء مصر في النهاية عندما طاعه في ٢١ مارس اللورد هو كسرى Hawkesbury و رر الخارحة الجديد في ورايه أدمحتون Addington رعه حكومته في الدحول في مفاوضات مع فرنسا ، ملعباً في روع المناووس الفرنسي في لوفت معه أن المخترة لا تمنح في احتفاظ فرنسا بمصر ، في نظير أن سقى في حوزة الإيجد ما أحدهم من أملاك فرنسا وحلفائها ، الأسان والمولدين ^(٢) وفهم بالمران من ذلك أن المناوصة المرمعة قد ماتت محصر في أمر واحد ، مالبث أن لحصه في تعبئه إلى أوتو في آخر مارس بقوله « إما أن تبقى في حوزة المخترة سيلان وأملاك نو صاحب سلطان ميسور Mysore في الهند ، بيتاً تحتفظ فرنسا بمصر ، وبما أن تفصل المخترة عادة مصر إلى السلطان العثماني صاحبها ، بيتاً يرجع هي أملاك نو صاحب إليه وسيلان إلى هولنده » وعلى ضوء هذه التعليقات إذن بدأ أوتو مفاوضات الجديدة في لندن

عبر أن أوتو لم يلبث أن محطمت آماله في إمكان الاتفاق معرر أن قابل هو كسرى إذ أصبح أن الإيجير الذين يرضون أن تحتفظ فرنسا مفتوحها في مصر أن يحتفظوا هم كذلك بمصوحهم ، كانوا مصممين على التمسك بعض هذه المفتوح وإسلاكها في الوقت الذي يطلب فيه من الفرنسيين أن يجردوا مصر إلى صاحبها الشرعى ^(٣) . ووحيد أوتو أن ملك كانت « صفقة غير متكاثرة » وعشا حاول أن يشع الورير الإيجيري بأن فرنسا عند تمسكها بمصر إعا يريد فل كل شيء الاحاطة بتمتعمة رراعية وحسب ومع ذلك وعلى الرغم من حية أمل المناووس الفرنسي الطاهرة ، فقد كان واضحاً أن إخلاء مصر بات موضعاً للمساومة ، حتى إذا أمكن الاتفاق بصورة من

Rigault 237 (١)

Driault (Politique) 165 (٢)

Rigault 237 (٣)

الصورة على توزيع مناطق القود الاسعاري الحدوده في آسيا وأفريقية بين مختلفه
وعرسا ، ذلك جميع القعات التي كانت دون إتمام الصلح بين هاتين الدولتين ولم
تتقدد راس الأمر في إجراء هذا التوزيع على أساس إحسان حوص البحر الأبيض في
دائرة القود العرسى ، بين يطل الإقليم المحب السيطرة الكاملة في الهند (١)

وعلى ذلك فقد بحث تايرون تيلانج ، إلى فوتو في ٨ أبريل عرس عدم ربح
الإقليم في الهند أو الإلحاق في إقطاع سيلان إلى هولندية ما دام هؤلاء مواطنين
على قاء العرب في مصر ولكن هو كبرى سرعان ما أكد في مذكره بدهاوص
الفرسى (في ١٤ أبريل) أن الإقليم لا يروا مصر في ضرورة إحلال مصر
كشركة أساسى لأى اتفاق بينهم وبين العرب ، وأنهم رعون في نظر ذلك باستار
العرب وحملتها لأسان وهولنديين عن أراكر العرسية في الهند وعن بحاثام
Negapatam ، وملا ، ورأس رحاء الصبح ومسورة ، ومنس أنواع الأجرى ،
عدا سيلان ودرجت وردود ، هذه هي في حورهم ، أما الهند فقد طلب حاصلة
لسطهم ، ثم مذكر هو كبرى شيئا عن مطقة ومصرها ، وفصلا عن ذلك فقد
احتفظ هو كبرى بمصر بحرية ، بصرف من حديد يرا حوت الأحبار مائة من
الحيش العرسى قد أتلى مصر ، أو من مصفده قد ترمب طده اماه ، وذلك في
توقيع معاهدات الصلح ، أي بين الهند وعرسا

وهكذا كان من الواضح أن اختلافه رقص أن يكون عرسا أمرا ضرورية
استراتيجية ، كما كان من الواضح كذلك أن القوة وحدها هي التي ترفع الإقليم على
التسلم ، مصر في حوره عرسا وكان من أسبب إصرار الإقليم اعتمادهم على أن
«إحلال احبارنا» سوف يحدث قرأ فصل اردناد ، نصار الإحلال ، التبرع والعودة
إلى الوطن . واتمصر الحلة بسبب ذلك كله في يد جيش الشرق معه واعقد
بومبارت وانتمد كثيرون عره أن يحج ديومانسته ، وهرغام الإقليم على عقد صلح
يعطى لعرسا مصالها ، إيا ، توقف على حسن ملا العرسيين في مصر ، وقدرهم
على المقاومة ، وتصبح حد الحلة ورطما على النقاء في هذه البلاد وإحراز الامتيازات
التي تقدم عرا كرم بها .

وما لبث «ص» انموصل في لندن هذه للرحلة حتى دخلت في دور من الركود
للمتعل ذلك أن المفاوضات والإحبار والمفاوض العرسى فصلوا حما استطار نتجه

القتال الدائر في مصر . وطفى اهتمامهم بتسيع سيرة الحوادث في هذا الميدان على سواء ، حتى أن المرء في الأيام القليلة التالية كاد يسي تماماً على حد قول (أوتو) ما عداها من حوادث في طرسبرج وكوسهاجن ومسرح ؛ وفي ٢٧ إبريل كتب (أوتو) أن انتصاراً حاسماً بدركة جيش الشرق في هذا الميدان من شأنه أن يرفع الإبحار يقول افتراضات الفرسنة . ودفع الاسعاد فوزه بأن المريعة قد رلت بحيش السبر رلف إركرمي (١) ، ولم يظن فوزه الانتصار ، إذ سرعان ما جاءت الأخبار في آخر مايو بأن إركرمي قد أفسح في برال حده في أني فير ، وأحرر انتصاراً باهراً على الفرنسيين في موقعة كايوب أو الإسكندرية في ٢٦ مارس ١٨٠١ ، وكان لهذه الأخبار رنة فرح عظيمة في لندن . ونادر هو كسرى ما شاف الفاصلة وصعد على أوتو معطاً شديداً أقول شروط الصلح التي جرحها الإنجليز . وهدد هؤلاء المثل لدول صدي فرنسا وعدد تحالف دولي ثالث على عطف ذلك التحالف الذي أسمى تصارهم لأول في معركة أبي قير البحرية إلى عقده (٢) .

واضطر بونابرت إلى التسلم بعد مصر بسبب ما لعله كدلك من (رئيسيه) ورملائه الذين لا طردم ه سو من مصر ، عن سوء الأحوال في هذه البلاد ، واشتداد الجرح على جيش الشرق . فوافق في ٢٣ يونيو على إرجاع مصر إلى ركب (٣) . ومع ذلك فإن العمل الأول لم يعد الأمل في حمل الإنجليز على إجابة شيء من مطالب الفرنسيين السابعة . لأن مارس كانت تعلم من وثيق المصدر أن الإسكندرية ما زالت تقوم ، وأنه ما دامت الإسكندرية بأيدي الفرنسيين فإن مصر ما كنها سوف تصل في حوزتهم وفضلاً عن ذلك فقد أكد بانتر أن الإسكندرية حسب ما سمع من أخبار في وسعها المقاومة لمدة عام بطوله ؛ ويكني تصحية من حاسب فرنسا بإحلاؤها مصر ، ويجب على الإنجليز أن على بدورها تلك المستعمرات المهمة التي امتلكها عوة من فرنسا وهولندا وأسابيا ؛ وإن حذر الحكومة العمل الأول أن تقدم تصحية أخرى ، إلى حاسب فقد مصر ، تصحيها العسكرية ، فإنها سوف تكتفي في هذه الحالة بعدم لبطلة بإرجاع سيلان إلى هولندا

ولكن سرعان ما كان العمل بسبب هذه المساومة الأخيره عندما هدد هو كسرى

Rigault 329 (١)

Driault 185 — 6 (٢)

Corresp. No 5649 (٣)

بقطع المفاوضات في ٢٧ يوليو . ثم عاد يوافق على إحلاء مالمطة خصب ، لقاء بعض الحرية في المهد العربية . وعوى مركز الإنجليز عندما دأبت في هذه الآونة أبحار سقوط القاهرة . ولما كان انفصل الأول عثى من عجز الإسكندرية عن المقاومة طويلا ، هد تسلم جيش دنبار في القاهرة ، فقد رأى من الضروري إيهاء للمفاوضة قبل تسليم الإسكندرية ، وطلب في ٨ سبتمبر من البيران أن يعمل على عقد مقدمات الصلح بكل سرعة لأن موها كان في وسعه على حد قول بومبارت أن يصمد بالإسكندرية هد يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٠١ (١)

وعلى ذلك فقد وقعت مقدمات الصلح في لندن في أول أكتوبر ١٨٠١ على أساس إرجاع مصر إلى الباب العالي ثم صان أملاك تركيا وسلامة أراضيها ، كما كانت ولي حرب الأخيرة . واستغنت إنجلترا أهم مستعمراتها المهد وسيلان وحريرة وبناد . وكان بعد انقراع من توضع مقدمات الصلح بعدى ساعات خب أن وصل رسول يعمل إلى لندن ريد مصر ، بهن اسيلاء الإنجليز على مرافعات الإسكندرية ، وطلب مو المفاوضات في شروط تسلم وإخلاء عن البلاد المصرية .

وفي غضون شهر أكتوبر نفسه كان قد تم إرجاع جيش الشرق من مصر ووصوله إلى فرنسا (٢) وفي ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ عقد الصلح العام في إمان على من المواعد السابقة من اعترافه وفرنسا وأسيان وهولنده ، وهكذا فقدت فرنسا مصر دون أن سال في الشرق أو في غيره من الميادين الاستثمار ما يعوضها عن خسارتها الفادحة .

وقد عرا بومبارت — وما بعد — اهدا امتل إلى عجز مو عن الاستمرار في المفاوضات حتى يوم ١٥ نوفمبر ١٨٠١ ، وهو اليوم اتدى قدتر فيه بومبارت وصول أبحار مقدمات صلح لندن إلى الإسكندرية (٣) وبعد جماعة من اللورجين (١) إلى الاعتقاد أنه يوشل الإنجليز في حمتهم على مصر في عام ١٨٠١ ، أى لو أن مو — بقون آخر — استطاع المقاومة . ورفض بومبارت للمفاوضة على أساس إحلاء مصر ، لكان في استطاعة فرنسا أن تحتفظ . على الأقل لفترة أطول من الزمن — تلك المستعمرة التي قامت حملتها في عام ١٧٩٨ من أجل إثباتها . وقد تناسى بومبارت

(١) Ibid - 5749

(٢) Rigault 382

(٣) Bertrand II 447

(٤) Charles - Roux II 225

كما تنسى هؤلاء المؤرخون من بعده أن الفصل الأول كان قد بدل كل ما وضعه من جهد وجيلة من أجل إرسال النجدة إلى جيش الشرق دون حدودي ، وأن اقتناع يونانرت بعث كل محاولة يندلجها في هذا السبيل لضعف البحرية المصرية قد كل شيء ، ثم اقتناعه كذلك بعث الاعتماد على أن جيش الشرق في إمكانية الاستمرار على المقاومة رمسا طويلا ، قد حمله بلم بدأ بحلاء مصر ، وبشجع من الإحلاء وسيلة لهزيمة ، إما لقاء حشده في هذه البلاد كمقاتلات ثابوتية « مساعده » تحت إشراف المصريين وسيادة اسباب المعنى ، سواء كانت هذه السادة « محبة » و « هدية » كما كان راجحاً ، أم واقعية فنية كما كان لامعدي عن حدوده ، نسب إصدار الساب المعنى إلى استراتيج أملاكه لعددة ومؤثره الإغليز له في ذلك ، وإما الاستعانة عن فقد مصر .

للعام الاستعماري في ابياديين الأخرى سواء كذلك كانت هذه العام « محبة » ، واستراتيج بعض المستعمرات التي قدتها حرباً في آسيا وأمركا وحمل الأغلبيز على اقتسام الإمبراطورية الاستعمارية مع فرنسا ، ثم كانت هذه العام « مساعده » بحلاء الإغليز على الأذن عن المستعمرات التي أحدها من أسيا وهولنده خصوصاً .

وعللا عن ذلك فإنه لم يكن من المحتمل تداً -- وقد تقرر مبدأ الإحلاء

في مقدمات صحيح بدن وظهور توادد الإغليز في مصر تسلحهم هزيمة على يد إيز أن يقع الداء الذي نذر استهانة سطوة السكندر على هذه البلاد بدلاً ، أو أن رضى الإغليز بالتنازل عن تلك الأسس التي بسطها هو كسرى في ١٤٠٠ سنة في مذكره إلى القاصد المصري قبل أن يصل إلى لندن أنه الحرب الدائرة في مصر ومع ذلك فإن الأمر لا يسهل إلا أن يسم غصنة طهارة على الزعم من ذلك كله ، هي أن يونانرت منذ عودته إلى فرنسا ظل شديد الاهتمام بحش الشرق في مصر ، وكان لا يبدل كل جهد من أجل إرسال النجدة إلى هذا الجيش ، والعمل على إشادة الثقة بين صفوفه ، ونقوة روح الجسد المعنوية وروح الجبهة القاطنة في مصر .

أما أن جيش الشرق قد أحقق في الأحكام عصر ، ونجح على نهضة ، فذلك إلى أمرين جوهرين : أولهما نجاح سياسة الإغليز التي بدلت هدف إلى عرص واحد منذ أن تنجلت عن الجبهة وصعدت حش الشرق وعدم قدرته على نهضة أخدفة ، وكان هذا الغرض ، طرد الفرنسيين من مصر بقصم وقصمهم ؛ وثانيهما أن مودد الحلة العام في مصر لم يكن له من المعززة أو القدرة العسكرية ما يمكنه من الصمود طويلا في وجه الجوش المعززة الإغليز المنجدة ، التي شرعت رحلت على البلاد من ناحية البحر الأيمن شمالاً والشمال شرقاً وعن طريق القصير وقتا حيويا .

سياسة المحترمة

وقد حدث هذا الرجف المشترك نتيجة لذلك التبدل الذي طرأ على سياسة الحكومة الإنجليزية . فعدلت عن التمسك بمبدأ العريسيين في مصر ، أو تسليمهم كأسرى حرب ، إلى اتخاذ الوسائل العسكرية المكثفة لإخراج جيش الشرق من مصر دون إبطاء ، ومهما تسكله إحتلاؤهم عنها من جهد ومضجحات عظيمة . وكان من أسباب تلك السياسة التي قصبت إلى نفس أعناق لعريش — على نحو ماسق بابه ^(١) — ديدع الإيعاز في دوائر الحكومة الإنجليزية بأن (المسألة المصرية) قد ماتت مميتة ، منذ أن وهنت روح جيش الشرق المصنوع بعد « فرار » بوارت إلى فرنسا . وأصبحت الشغاب رجال الحملة وحدها تذبذب سوء الأحوال في مصر ؛ رد عن ذلك أن بوارت عرجوحة من البلاد قد ترك مصير جيش الشرق في يد المدمر وحده وسوى لأشهر أعمره ^(٢) .

وعنى ذلك فإن الإنجليز ظلوا لا يثبوتون مدة طويلة بأنه عرووس تسهم من حاشه لعدة إصلاح في أوروبا ، والوصول إلى اعاق تصدد (المسألة المصرية) . وآية ذلك ما حدث في الثبوت سائلة ، فقد نادر بوارت — ككره من مضاعفة السياسة في صيل هيئة الأسباب التي يمكنه من إرسال الوحدات إلى مصر ، واستبقاء هذه المستعمرة في أيدي العريسيين إذا أمكن ، أو الحصول على مواقع هامة في ميادين الاسعجار الأخرى تعوض العريسيين عن فقدتها — نادر بوارت ، في رسالة بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٧٩٩ إلى جورج الثالث ، نصت بها بالبراز إلى حرميل تعرض الصلح عن الإنجليز . فكان نصيب رسالته الإهمال التام ، وكتب حرميل إلى تاليران في ٤ يناير ١٨٠٠ رفض المفاوضة مع حكومة القنصل الأول . مدامت فرنسا متمسكة بتلك المبادئ التي تمنعت عنها (الثورة) ولا راد السار عن أطاعتها وعاد تاليران الكره مرة ثانية في ١٤ يار واستمرت الحكومة الإنجليزية على رفضها (٢٠ يناير) ، وكان لهذا الرفض أسباب عدة تصل بالموقف العسكري في القارة الأوروبية ، وسياسة الحكومة الإنجليزية عموم . إزاء الحملة ، وشكوكها في صدق بوايا القنصل الأول السلبية .

(١) ثم انظر شكري ٣١٦ وما بعده

(٢) Charles - Roux II 83

وذلك أن مورسجون Mornington (الورد وثرلى Wellesley فيما بعد) كان
 مند مايو ١٧٩٩ قد انتصر على تنو صاحب سلطان ميسور الذي بقي حتمه فأخلفت
 إمبراطورته ودايت ميسور لسلطان الإنجليز ثم اتى كل خطر على الهند من ناحية
 الفرنسيين عندما ضمن الإنجليز السيطرة في اسير الأييس ضد موقعة آي وهر انجيرة
 وشدوا الحصار على جيش لشرق في مصر ، وعظم الأعداد في وقوع هذا الجيش
 في قصة الإنجليز قرب حوى إسمهم رخصو الموقعة على معاديه البلاد ، ورحيله إلى أرض
 الوطن ، وفصلا عن ذلك فقد استولت قواتهم في الهند انجيرة على حرر درنيك وتساو
 وريداد ، وفي إفريقيا الجنوبية على السكان الهولندية ، واسرعوا كذلك سيلان
 من قصة الهولندية ثم سقطوا الحصار في البحر الأحمر على حرر مملكة ، حتى
 أوشكت أن تسقط في أيديهم

وكان من شأن هذه الانتصارات بده الأمل لدى الحكومة الإنجليزية ، وعلى
 رأسها ولتم ب عدو (ثورة العرب) المدود في إرغام فرنسا على الانكماش ودخول
 حدودها القديمة ، وإشياء تلك الحكومة ب «البيدي» التي صمدت عدم انصياعها
 لمبادئ الثورة وبماستها ، و لوقوع عبث ثمر «أطباعها» وعلى ذلك لم يكن
 من مصلحة الإنجليز اظهاره قبول الصبح مع فرنسا ، بل إن Pitt ومعه ماكانوا
 يظرون إلى أنه عروس منهم من جانب الفرنسيين عقد السلام لا يبين انشك
 والريبة ، فاعزوا رعة كثر في التفاوض من أجل الخلاه حدة كبيرة ليس العرض
 منها سوى كسب لوقت لحسب ، ووجدوا في تلك التذات اني تصدرها بواب
 عند محي ، الخلة إلى مصر تؤكد لأهل البلاد إسلامه وإسلام حده ، وتحدث فيها
 بحى أمره من أصرار وألحمة من زهانات شخص انا في رومه ، ثم يدعاه بواب
 في كتابه إلى الصدر الأعظم أنه إنما جاء إلى مصر لخلص البلاد من مرور الكواب
 المالك وحدها إلى الباب العالي ، فصلا عن الأوامر والامانات اني تصدرها إلى كبير
 عند معادنه مصر لده التفاوض مع الأتراك ، على أن يدعاه في الوقت نفسه بعدم
 إخلاء البلاد والخلاء عنها حتى يحين عقد الصبح العام في أوروبا ، صورة يمكن الفرنسيين
 من الاحتفاظ بها في اسبابه - وخذ الإنجليز - أو بالأحرى بت وأصاره في ذلك كله
 مايسوع عدم الاعثمان إلى بواب الفصل الأول ، ورفض التفاوض معه رد على ذلك
 أن يحى الخلة إلى مصر كان - على حد قول ت - أعداء صريحاً على الباب العالي

صديق الإقليم وخليعهم ، كما كان العرض منه تهديد الإقليم في الهد وطرده منها .
وآية ذلك محاولة بونارت إنشاء اتصالات الوثيقة مع تروصاج (١)
ومع ذلك فقد وجدت طائفة من رجال السياسة الانحيز الذين خالفت آراؤهم
بصدد الصلح مع فرنسا ما ذهب اليه Pitt وصحة ؛ اذ كانوا لا يرون من الحكمة أن
ترفع حكومتهم المعاصرة للوصوب الى صلح ، من ستمه المتطورة لإحلاء مصر وحلاء
الفرنسيين عنها دون إطلاق رقصة واحدة بل ذهب الفرنسيون للحكومة مت الى
أنهم من ذلك ، عندما قوى الشعور رويداً رويداً بأن الفرنسيين قد قطعوا مرحلة
كبيرة في سبل توطيد أقدامهم في مصر ؛ حتى إنه صار في استطاعة سلطانهم أن يطوفوا
في أنحاء البلاد ، باحثين معسفي عن آثارها في أمن وطمأنينة ، يمدون عونهم المدة
في سلام وينشرونها ، ويقتل الصحف الأعمرية دأبها ، نفس هذه الحوث
والمراسلات المتتعة .

وكانت المعارضة في مطالبتها بضرورة المعوطة مع الفصل الأول ، على غير من شطر
كبير من الرأي العام الانحيزي . ثم سرعان ما أخذ موقف غير بصور . دعت
الحكومة دأبها الى التفكير جدي في تدبير خطتها . وقبول الدخول في مفاوضات مع
الفصل الأول ، وتدير أمر خروج الحملة وحلاء جيش اسرقى عن مصر . فقد نجم عن
اتهام بونارت الحسم في موافقة مارغو (١٤ يولي ١٨٠٠) أن دخل تدبير كبير
على الموقف السياسي في القارة . سبق ذكر بعض آثاره ، ونتمهي عهد الهد بين فرنسا
وفرنسا بعد الخروج تماماً من المحنة الدولية ضد حكومة الفصل الأول . ثم دلت
التفاهم بين فرنسا وروسيا . ذلك التفاهم الذي تم من بعد مجاعة الحد . مع
ارباعية (في ٢ ديسمبر ١٨٠٠) ثم بداية اسكلام عن ذلك (مشروع اسرقى لضم)
الذي اتفق بونارت من تحفة طرد الانحيز من لهد بمحاولة روسيا . فكان من
أثر هذا الدخول تسلم حكومة بونارت بضرورة دعوة ، وصريحها بذلك على لسان
سفيرها في فيينا للورد مينو Minto مند اعظمي ١٨٠٠ ، على نحو ماسبق بيده
وكان انحياز روسيا الى جانب فرنسا ، وموافقة بول الألبان قصرها على مشروع بونارت
الشرقي ، مصدر محووف عضمة لانحيزه على إمراضورس ، في لهد حصوف . وحاول
مت إفساد سياسة الفصل الأول مع روسيا بالعمل على إزالة أسباب سوء التفاهم بين
حكومته وبين القيصر . فمادر السير هوم بوبهام Sir Home Popham لندن إلى

روحيا لهذه الغاية في نوفمبر ١٧٩٩ . ولكنه لم يصل إلى طرسبرج إلا بعد فوات الوقت ، عندما كان سوء العاهم بين الدولتين قد بلغ ذروته .

وقد أدرك الواقفون على جميعة الأمور خطورة هذا التحول الذي طرأ على سياسة روسيا ، فكثرت ثبوت Abbott عضو شركة المصارف إلى حرمين في ٢٠ نوفمبر ١٨٠٠ بذكره عشروايات القيصره كارن الثانية ، التي كانت تهدف إلى افتتاح الشام وفلسطين ومصر ، وإرسال حملة إلى الهند عن طريق مصر بعد فتحها . وكان أوت قد أقام رجلا من رعي قبل ذلك في طرسبرج . ثم ما لبث أن تهرت آثار هذا التحول بعد ذلك عندما جاءت الأخبار إلى لندن في شهر ديسمبر تذكر أن اخرايا Tamara . « مصر » روسيا في القسطنطينية ، قد طلب من نائب الامالى عدم السماح للاخير بإرسال جنودهم في مصر . إذ يصر القيصر موافقة ركب على ذلك عملا عدائيا ضد روسيا (١) . وانزعج القورد اخن Elgin السفير الإخيرى في القسطنطينية أذا ارتاح بسب هذه الخفاصة « مستطره » بين فرنسا وروسيا ، وما كانت تحمل في طياتها من أخطار حتمية . ليس فقط على مستقبل الامراطورية العثمانية ، بل على مصر بممتلكات الإمبر في الهند داهيا . وراح الإحتياط الشبهة في القسطنطينية روسيا وعداد وروماى ناهد عن ذلك للشروع الشرقى الذى كثر الحديث عنه أخيرا في طرسبرج وباريس . حتى إن القورد ورلى ما لبث أن وهد من الحكمة وأصالة يرى أن سجدلا مفر عنه ، فعث إلى فارس الكائن ماسكوم Mulk m أحد صباطه منذ أواخر ديسمبر ، ليقتد بمعاهدة دفاعية هجومية مع انشاء خلع ماسكوم في عقدتها في يناير من العام التالى .

إزاء ذلك كله لم يكن هناك معدى عن تحول الحكومة الانجليزية عن موقفها . ومول الدخول في مفاوضة مع فرنسا لإخراج جيش الشرق من مصر ، ثم اتحاد كل إحصاء من شأنه طرد الفرنسيين من هذه البلاد فواء السيف والمدفع في النهاية . على أن هناك ثمرى لا سدوحة عن ذكرهما أولها أن طرفا من هذه الإحصاءات العسكرية كان قد بدأ التفكير فيه والعمل على تنفيذه ، في وقت كان (ت) لا يزال مصمما على رفض أى اتفاق يسمح بأسحاب الحملة من مصر بالطرق السلفية ؛ ويرى أن تتحمل تركيا وحدها عبء القتال ضد الفرنسيين ، بينما يحمر الاخلاص جهودهم في تقديم « مساعدات » ثانوية لتخفيف شيء من الصعظ الواقع على العثمانيين . وقد نجم عن

هذه الخطة مظهر حملة في لحد وإرساله إلى مصر عن طريق البحر الأحمر . والآخر
الثاني أنه بمجرد أن حدث ذلك التحول انتهى قصي إلى قبول التفاوض مع (أوتو) في
لندن منذ أغسطس ١٨٠٠ ، ثم بين للانجليز تغير الآراء عن القيم التي عمل عسكري
ناجح ضد جيش الشرق في مصر . فربط حكومتهم الاشتراك جديد في تقاليد الدائر ضد
الفرنسيين ، وأصدر هذا القرار عن خروج حملة البحر الأحمر ضد السور والفرار
إلى الشواطئ المصرية .

حملة البحر الأحمر :

وكان تقرير إرسال حملة من الهند إلى مصر عن طريق البحر الأحمر محمدا في
طوبه من إحقاق نتائج الحملة التي تمسك بها الحكومة الإنجليزية ، من دهاء الحملة
الفرنسية إلى مصر في ١٧٩٨ وهي أن ذلك لا يمكن وحدهم واجب عظيم جيش
الشرق في هذه البلاد فضلا عن فشل تلك السياسة التي رسم خطوطها المرشد
ميت . وأقمت في برامج اساق لعرض وهي أن يكون الفرنسيون من البلاد طوعا ،
ورضاء طريق اربع الأسابيع في الأرباب والفرنسيين . وقد قدم كيف أن الحكومة
الإنجليزية اضطرت إلى قبول اتفاق لعرض بعد أن رفضه وإن جاء هذا ، فهو
متاحراً (١) ، وكان من أثر استيفاء هذا وانصر كل في معركة هيو بوليس (في
٢٠ مارس ١٨٠٠) أن عادت الحياة إلى اتصال عظمي الأولى

ومع ذلك وجد من بين الأنحاء التي ترى من حسن سياسة عدم الاعتماد على
الأثر والخدم في مصادره جيش الشرق . واتفقوا (ب) رئيس الحكومة في اعتبار
أمر الحملة الفرنسية على مصر منها ، ومصر الحملة إلى فشل لا محالة بسبب « قرار »
بوارت . وهذا كما سدي ميت أن بوارت لن يترك مصر وشأنها ، وأنه سوف
يرسل البعثات إليها كل وسيلة . وكنت دنداس Dundas أحد أعضاء الحكومة
ابنارين إلى (ب) في نوفمبر ١٧٩٩ . أنه بعدد على اعتبار الحملة « منتهية » إذا
كان الفرنسيون لا زالوا محتضين جيش كبير في مصر (٢) . وكان من أثر هذا
الاختلاف في الرأي أن اضطرت (ب) إلى التحدث قرار عاجل في مسألة مشاركة العثمانيين
في عملياتهم العسكرية ضد الحملة ، وتحديد مدى هذه المشاركة ، عندما وقعت حكومة
على وجه الخصوص موقف المعارضة من تلك المفاوضات التي بدأها كبير في الشهر

(١) ثم انظر شكري ٢٢٩

(٢) Charles - Roux II 85, 106

نفسه ، من أجل إخلاء مصر بالطرق البحرية ، فارتأى (ست) (رسالته إلى دنداس في ١٢ ديسمبر ١٧٩٩) أن الواجب يقتضيه ، وقد أصدر تعليماته إلى أمراء الأسطول في البحر الأبيض ، لمنع الجيش الفرنسي من العودة إلى أرض الوطن ، والإصرار على تسليم جوده كأسرى حرب ، أن يبدل المساعدة للأتراك حتى يعمق بعض الشيء من عبء القتال ضد جيش الشرق ، كإيهامهم بأنها هذه المساعدة التي قرر رأيهم على التقدم بها فكانت إرسال حملة من الهند إلى مصر عن طريق البحر الأحمر عن أن مما تحذر ملاحظته أن أعاد هذا القرار م يكن معناه أن مت قد عدل عن خطته الأولى من حيث الاعتماد على الأتراك في القتال ضد الفرنسيين ، بل كان مستشفاً مع تعليماته التي أصدرها إلى اللورد كيث . أميرال الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض ، ومحاكماً ، والفرنسيين مع حملة من مصر « طرق الهند على النحو الذي أرادته كليلر والسيد سميت ورجال البحرية الإنجليزية في القسطنطينية فصلاً عن أدب الأعلى نفسه بل إن الأسباب التي حملت (ست) على بدل بعض المساعدة للأتراك ، في صورة إرسال حملة من الهند عن طريق البحر الأحمر ، كانت في جوهرها أساساً (سامية) ولا يجب أن يخطئ لدواعي والمجهود العسكرية بصفة وثيقة . ذلك أن خروج مثل هذه الحملة الإنجليزية من الهند من شأنه أن تكسر من حدة عصب الأتراك ، ويزيل شدة من ذلك الأثر السيء الذي أحدثته في موسمهم وفصل الاتفاق الثنائي الفرنسي ، ويكسرهم شجاعة جديدة على المضي في القتال ، ويخففهم من محاولة الخروج من المعركة التي عقدوها مع الأتراك (من يناير ١٧٩٩)

وإنه ملاحظة أخرى هي أن هذه « المساعدة » التي قرر من القيام بها لم تكن جديدة بالصورة التي يمكن الخديمتين (المخترة وركنا) من إزاله المبركة الحاصلة بحيش الشرق ، والب في أمر المسألة المصرية سميت لأن الحملة المزمعة كانت تأتلف من خليط من اليهود والإنجليز ، ولا تجد على أن المخترة قد تحدث على عاتقها فعلاً عمداً العمليات العسكرية الكبيرة . فصلاً عن ، يلزم من زمن طويل بوصول هذه الحملة الهندية إلى السويس أو غيرها من لوان في المصرية في البحر الأحمر وقد نجح عن عدم الرعة في مشاركة الفتيين حتماً في جهودهم العسكرية ، رفض التذكير في إرسال قوات إغريقية إلى مصر عن طريق البحر الأبيض . وعندما تخلف الحكومة الأخطار التي يمكن أن تعرض لها حملة الهند ، بدأ تدب على عمليات عسكرية ، دون أن تلتقي تأييداً كاملاً من ناحية البحر الأبيض ، قرر رأسها على تأجيل إرسال حملة الهند حتى تأتي الفرصة المناسبة .

ومع ذلك فقد فكر آخرون قبل (ب) في إمكان إرسال (حملة هدية) إلى مصر ، واحتلف معصدم من الحملة عن أغراض رئيس الحكومة الإنجليزية . من هؤلاء دندس وسدي سمث وإلجين ، بل ورجال الباب العالي نفسه في القسطنطينية . وطل التفكير في أمر هذه الحملة ، وصروعه الإسراع بإرسالها مع وحدات كافية ، يشمل أدهان الصدر الأعظم ورجال لسانة والحرب الإنجليزية ، الذين قصدوا معسكر الصدر في يافا ، أو أشرفوا على تنظيم جيوشه .

وكان عزم كل هؤلاء أن تشتت هذه الوحدات الإنجليزية المبدية اشتراكاً فعالاً في الحرب الدائرة ، وبصورة يمكن من إلحاق الضرر بحيش الشرق ، وطرد الفرنسيين من مصر في النهاية .

ويعود تفكير دندس في ضرورة إرسال الحملة المبدية إلى وقت دئوع أساء خطم أسطول روس في معركة في قبر بخره ، فأصبح إرسال أحد ساط إنجلترا (لوكولويل ميتلاند Marland) إلى البحر الأحمر للكشف والاستطلاع

ومن المحتمل أن يكون إلجين قد فكر في ذلك أيضاً من جهة أخرى في سمر سدي سمث (١) ، وقد كتب كلاهما إلى (لوري) حاكم الهند - بلال الأرمي في ذلك ، ولم يشجع وري إرسال حملة من الهند ، بدوى قوة مألوفة من حدود كان لا يزال بحاجة لاستخدامهم في عمليات عسكرية في الهند أما في القسطنطينية فقد بحث هذا الموضوع منذ أن عرف روس الفرنسيين في مصر .

وكتب سمسر سمث ، ابوزر الإنجليزي بالقسطنطينية وولند ، إلى ماسق (Manesty) ، وكل شركة الهند الشرقية لندرة في مصر ، في صروعه بوجه عدم حكومة الهند إلى البحر الأحمر ، واتخذ وسائل احتيطة والحذر لمنع وقت ، الذي نزل في مصر ، من تهديد مصالح إنجلترا في الهند ، كما أوضح له أن بين تسهم قد أظهروا هذه الرغبة (٢٨ يوليو ١٧٩٨) ، ووصلا عن ذلك فقد نادر سمسر سمث بإطلاع هذه الأخبار إلى اللورد جرنيل (ع أغسطس) ، وبعد به بصوره من كتابه إلى ماسق (٢) .

وطل ذلك فقد وجد اللورد إلجين والسير سدي سمث ، عند حضورهما إلى

Fortesque. IV 2. 803 (١)

Charles - Roux I. 65 (٢)

القسططبية ، فكرة الاستعداد لعملية من الهند محتمة في أدهان رجال السفارة من جهة . وفي أدهان الأرائك من جهة أخرى . وطلق سدى سميت بدعو إلى إرسال حملة من الهند عن طريق البحر الأحمر . لعدة الأرائك عند رحف بومارت على الشام ، وشديده الحصار على عكا ، ثم صب السجدة إلى مصر وهريرة النصارى في موقعة أى وى لبرية (١) حتى إذا ما نزلت (مفاوضات الفرنس) عاد سدى سميت العسكرية ، فاقترح إذا أضعفت مساحاته مع دربه وبوميلج أن تبنى حملة من الهند ، لأن الفرنسيين كانوا رهوب على حد قوله عزاء الهند ودى عى ميسور ، وغشوب من ظهورهم في الصعيد . بينا لا يرغهم سدى حيوش الصدر الأعظم أبى بعدم فيها النظام . وتشيع فيها الفوضى ، فضلا عن أن جيش الشرق ، وقد نصب قواته إلى حوالى النجاية عشر ألف رجل مرسا ، كان يدرك حظورة النعمان لمحمود مردوخ عليه من الحى البحر الأسس والبحر الأحمر في وقت واحد (٢)

وعندما نفى الإخميد انق اعريش . وتوقع كلى الهريرة عدى يوسف صيا الصدر الأعظم في هلو نويس (٢٠ مارس ١٨٠٠) ، استأنف سدى سميت مساعده في سدى ، سكى صدر وأمرها بخروج حملة الهند ، وكتب إلى اللورد مورحتون (ولى) ، بطلعه إلى حصنه الوقت في مصر ، حتى تأخذ الأهبة لإرسال هذه الحملة بمجرد وصول أوامر الحكومة الإنجليزية به في ذلك (٣) واعتنى اللورد بالحق السمر الإخارى الجديد . مد وصوبه إلى القسططبية في نوفمبر ١٧٩٩ — فكرة استقدام حملة من الهند لـ سيد عميات النصارى العسكرية ، فظل خلال شهر انشالية تكب إلى داس في لندن ، ولى مورس وى في الهند ، في شأن انقام فعل عسكري هام في البحر الأحمر ، تصعب مقاومة العدو ، واعتل بحالة الفرنسيين عن مصر وطردهم منها (٤)

وشجع التقدم الإخميد في جيش صدر الأعظم على ضرورة إرسال حملة من الهند لقيام عمليات عسكرية في الصعيد على وجه الخصوص ، في نفس الوقت الذى عارب فيه الأرائك لفرنسيين في الوجه البحرى . فقرر هذا الرأي (موريه) Momi

(١) Drompore Papers, V 480 Barrow I. 314 Sq ()

(٢) رسالة سدى سميت إلى مورس وى من مكة في ٩ نوفمبر ١٧٩٩

(٣) Barrow II 39

(٤) رسالة ١٨٠٠ فبراير

سكرتير اللورد إلجين ، الذي أرسله لسفير إلى معسكر الصدر الأعظم في بقاء ، مدبر
تخطيط جيش الشرق بالاشتراك مع العثمانيين عدرا وحياة ، بعد تسليم كلير انتظار بعد
إتمام اتفاق العريش^(١) ، ومكث في المعسكر العثماني مدة أقصه ضرورة إرسال قوات
إبحارية من الهند ، لمحاولة جيش الصدر في حربه ضد العربيين . وأبصر يوم ١٨
الرأى كذلك الجنرال كوهلر Koehler الذي تعصب له الحكومة الإنجليزية لإدخال شيء
من النظام في جيش الأتراك ، وأقام وقتئذ مع الصدر الأعظم في معسكره هناك . فشر
ضرورة إرسال حملة من الهند إلى الصدر ، كي يساعد حثتها في الصدر عديدات
الجيش العثماني على الحدود لشدة ، وتتاح الفرصة لذلك للفرم في وقت واحد مهموم
واسع اسطى على مراكز العربيين الموزعة بين الإسكندرية ودبيات واسوس
والقاهرة ، وفي الوحدة العنيفة وفي رأى أحد المؤرخين^(٢) أن ما نشره (كوهلر)
وقد كان نفس السيطرة في عليها العسكريون ورجال الجيوش الإبحاريين خطاهم ،
وراد الاقترع من رومسارو مدني لندن وكلكتا ، وفي حتى اسعدت بمهمات
حملة ١٨٠١ ، التي اسبها لأصدر على انفرسيين وحلاء جيش بونديرت من مصر

ومع أن (مورسجوس) و (ولزلي) كان برئوس في هدي ، الأمر على نحو ما رأينا
إرسال حربه من حاشته إلى البحر الأحمر ، في حاجة إلى كل قوة به رعد ، فإنه
ما لبث أن أدى استعداده لإحالة هذه الرعدة ، فجرد أن اسبها حملة ضد بوساحب في
مسور (في ١٧٩٩) ، وشروع بحث جديد مع صدرية مشروع الحملة المستمرة
وكان من ربه أن الاكفاء برساح جيش عن صرق البحر الأحمر ، في يوم الجمعة والسنة
اسطى في الصعد ، فجرد شعب انفرسيين وبعدهم إلى بوزجق قوهم على نحو ما قصده
ب ، ثم لا حدود منه ، ولا يحتم عنه سوى بقر في لدماء ، وبعد لأموال دون
شأن ، وذلك ما دم هذا الجيش لا يلقى مدوة مدوة من ناحية حملة أخرى
قوة برل في مصر من ناحية البحر الأبيض^(٣) ، ثم كان العرص من برساح
جيش الهند انعيم تعديلات شونة ضد مراكز العربيين العنيفة على شاطئ البحر
الأحمر ، فلا خطر في محاور ذلك ، بل رجو مورسجتون أن مود هذه المحاولة بمساعدة
دون تحمل نفقات كثيرة

(١) Ghorbal 116, 295 6

(٢) Charles - Roux. II. 111 — 2

(٣) رسالة من مورسجتون إلى دنداس في ٥ مارس ١٨٠٠

وما كانت الحكومة الإنجليزية لاتزال متعمدة في القتال على جهود العتايين العسكرية حسب ، ولا تريد إرسال حملة إنجليزية على مصر عن طريق البحر الأبيض ، فقد أصدر وزيرى على احداث القيام بعمليات واسعة النطاق في البحر الأحمر ، ولم يشه عن عزمه سوى إلحاح أصحاب مشروع الحملة الهندية الأولين ، أمثال إلجين وسدنى سميث وغيرهم ، فانصاع وزيرى رويدا رويدا إلى رغبة هؤلاء . وأحد عميل صد يوليو ١٨٠٠ إلى مصر من حربه من حيثه إلى مصر عن طريق اسحر الأحمر ، دون انتظار معاونه حملة إنجليزية أخرى كبره ، ترون في هذه البلاد عن طريق البحر الأبيض . ثم راد من اقتضائه أخيراً بضرورة اسجحل ، بمحدد هذه الخطوات ، ما صار يصل إليه عدده من أخبار انتصارات انقصد الأول العسكرية والسياسية في أوروبا ، حتى بات يحشى أن يهزم انوارت بحده جيش الشرق ، إما بتصويب صرته قائلة صد الإبحر في الهند ، وبب بالاستيلاء على مساعد اسحر الأحمر وعلى ضوء هذه التطورات الأخيرة إدس ، اسطر وزيرى أن يأتيه الأوامر من لندن بإرسال (حملة الهند) دون مهل إلى اسحر الأحمر ، وببب للرد مداوشة مراكر المرسلين في هذا البحر ، بل من أجل لتعاون مع جيش كبير آخر يبعث به الإبحر إلى مصر عن طريق البحر الأبيض (١)

واسكب وزيرى على عهده حملته بكل همة . ولما لم تنصه حتى نهاية عام ١٨٠٠ أنه أوامر من لندن بصدده هذه الحملة ، فقد أحد (وزيرى) على عاتقه مسئولية سقى هذه التعامات « مستطرة » ، وإحراج قوة ربة مع جماعة من الحيد بقيادة الأميرال بلاسكت Blankett لاميهم « بعض » عمليات في البحر الأحمر لا يحدى الاستيلاء على القصير والسويس ، ثم قطع كل مواصلات العدو مع منطقة القصير ، وإمداد الكوكت المالك بالأسلحة والذخائر عن طريق القصير ، وإشاعة الفوضى والارتباك في صفوف المرسلين . وعندما وصلت أخبار ذلك إلى إلجين في القسطنطينية ، نادر السمر بإبلاغ ذلك كله إلى لندن في ١٤ نوفمبر راحياً أن يبقى وصول حملة الهند إلى مصر وقيام الحفباء الانجليز واعتايين مخوم كبر على مصر من ناحية البحر الأبيض وسوريا ، حتى تتحقق أغراض حكومته (٢) . أما حملة الأميرال بلاسكت فقد عادت عساي في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٠٠

Charles - Roux. II. 115 (١)

ibid - 115 (٢)

حملة البحر الأبيض :

وعند ما كتب الخبير إلى المودجر في ١٤ نوفمبر ، كان قد صرأ منذ شهر
سبتمبر تعديل على خطة الحكومة الانجليزية ، من حيث مد فكرة الاعتقاد على جهود
العثمانيين العسكرية لحسب ، في مواصلة لعب صد امرسيين ، والافساح بصروده
الاشترك معهم حديا من أجل طرد جيش الشرق من مصر . وورد ذلك إلى أسباب عدة
فقد عمد الانجليز إلى انتصار بونابرت ، في حملته لايضائية لكناية ، إلى اتحاد
خطوات سريعة لحدده خلفاتهم في مختلف نواحي القارة ، ونفوية مراكرهم في البحر
الأبيض ، وبعدها سيطرتهم في هذا البحر . لمع بونابرت من إرسال أية إمدادات إلى
مصر . وفي ماو سنة ١٨٠٠ صدرت تصببات الحكومة إلى السر والعلانية أركرمي
Abercromby ، الذي حلف اسر شارلس ستيوارت في قياده البحر الأبيض ، ليحل
على امرر اعوات الانجليزية الواقعة على حصر مالطة . ثم سرر حامية ميسورقة ونجده
العثمانيين في بنطاليا ، وبدت نفوية لأهل باغولي وارتمالين بصورة عكهم من
الاصود أمام الفرنسيين إذا عرا هؤلاء بلادهم . وأحد آعربك الملكيين للثورة في
جنوب فرنسا ومساعدتهم . وفصلا عن ذلك فقد اعزم الانجليز في أغسطس لقيام
بعمليات عسكرية ضد لوان الأسيانية في فيجو Vigo ، وديرول Ferrol ، وقادش
Cadix وغيرها (١) .

بعد أن هذه الأعراس جميعها كان مصيرها الفشل ، بما لبحر الانجليز عن تحقيقها
وإلا لعدم تقيدها أصلا . ذلك أن السر جيمس سبي Fu leney لم يلبث أن اهرم
أمام ديرول في أغسطس ، ثم اضطر أركرمي إلى وقف هجومه على قادش في بداية
أكتوبر ؛ وعند ما حاول الأميران كيث إيرال السحباب في ليديوره وحده أن
العثمانيين قد مدوا هديهم مع الجيش الفرنسي في إيطاليا فترة أخرى في اتماق
كاستيلوني Castiglione ، ولم يسع كيث لعب نفسي المرض بين حده وما كانوا معه
من تعب وإعياء ، إلا أن يمت عريق مهم إلى ماهون في ميسورقة ؛ وبالأحرى إلى
مالطة ، وكان كل ما أفاده لانجليز من عملياتهم إزعاج مالطة على التسليم (في ٤ سبتمبر
سنة ١٨٠٠) (٢) . وفصلا عن ذلك فقد حاست الدبلوماسية الانجليزية وفشده في القارة
وسارت المحافظة الدولية (صد فرنسا) حثيثاً في طريق الانحلال ، فالتصا للهممة

Fortlesque IV. 2. 782, 788 (١)

Bertrand II 377 - 8 (٢)

تفاوض مع القصد الأول ، والروسا تخرج من المحلقة ، وتركيا متمعة من النصال ؛
يجب مراقبتها عن كثب ، وبدل المعونة لها حوها من أن تعق مع بونديت .
وتوقع الإنجليز أن صلح دبلوماسية .فصل الأول في إحياء مخالفة الحياد لاسمح
بين دول الشام الأوسع .وبت من الواضح أن الإنجليز سوف يعملون على إرساء حزم
من أسلحتهم للعسل في بحر لثمن ضد دول المحالقة المستظهرة ، ويصفاه فوهم البحرية
في البحر الأبيض .بيجة بذلك .وحتى الإنجليز بسب نقص قواهم في هذا البحر أن
يسطع الفصل الأول يرسله لحداد في مصر .أصب إلى هذا أنه كان لا بدو
أى عمل في البحر حروب الغرب بين من مصر دور قبل ومعاونة مدائن قتل كبير ،
وقضى على أعمار أخلاء .ومر حين للاستعمار في هيئة أركان حرب الجيش ، وتعلن
موظفان حملة لخدمة نصيبه على الماء ، وبه كان لإنجليز قد عرفوا حدوث الانقسام
في صفوف صند ،حملة وفوادها ، من لرسائل التي صدرها أسطولهم ، دعوى لديهم
الأمل .مما لذلك في مكان حرمه جيش الشرق ، وقد قرأ رأى على برال حزم أورويين
في لأراضي مصرية . وبرز الإنجليز خطه الانهيار على القناريين وحدهم في بحارة
الفرنسيين وأجلائهم عن البلاد .

وكان مما توقع الحكومة الإنجليزية ضروره التعاون العسكري مع الأتراك تهاوي
حدا . اعتماد برئى بين صاعدهم وعملهم في معسكر الصدر الأعظم على أن الجيش
العثماني بحاله اذراة عاجز كل البحر عن طرد الفرنسيين من مصر . وما إن طلب
توسيع صلا الصدر الأعظم وحدة المحلقة من حملة آلاف ، بل من عشرة آلاف
جدي .حتى يرى الجنرال كوهنر وحده سميت يؤدان طلب الوحدة ، واستند اليأس
(عور به) *Allet* ، لصدف ماشهده من صمد العثمانيين ، حتى إنه بات لا يرحو
أيه فائده من بش طهم عسكري مام يسرع .لإنجليز يرسل حملة كبيرة للاشتراك في
النصال إلى جانبهم ضد جيش الشرق ^(١) .

وكان في هذه الظروف غير النواوية يد أن قدم دنداس في ٣١ ستمبر مدكره
إلى رئيس الحكومة بحث الموقف في مصر خصوصا . واصطارت إلى دعوه بورارة
بلاعداد لبحث مسئلتى لبرعاه (حليمه الانجليز) ومصر . وقر الرأي -على الدفاع
عن البرعاه ، والاشتراك بصورة جدية مع الأتراك في عملياتهم العسكرية ضد
الفرنسيين في مصر . فعهد إلى الجنرال بلنبي بالمهمة الأولى ، بينما عهد إلى سير

والف أركرمي بالمهمة الثانية . وفي بداية شهر أكتوبر من عام ١٨٠٠ ، أصدر دنداس طائفة من العتبات إلى السير رالف ، أمره بالتحارب مع حملة عشر ألف حدى إلى إحدى الموانئ المناسبة في قبرص أو كريت أو آسيا الصغرى ، للعمل مع فواد السلطان العثماني ، والتعاون معهم من أجل الاستيلاء على الإسكندرية . وقدر دنداس عدد قوات العرب في مصر بحوالي ثلاثة عشر ألف حدى ، منهم ثلاثة آلاف تقريباً في حامية الإسكندرية ، بينما طلب بقية قواتهم مورعة في الوجه البحري وعلى الحدود الشامية وتوقع (دنداس) سقوط الإسكندرية بسهولة ضعف تحصيناتها من جهة ، ولانجر العدو عن مع الاعلن من تصديق الحصار عليها ، ثم اغلال الروح المعنوية لدى الفرنسيين الذي بعد صرهم ، وصاروا يوقون لعودة إلى الوطن كل سرعة وبأية وسيلة .

وعلى ذلك فقد طلب إلى أركرمي أن يحرص على امره في كل حاميات الإسكندرية وسائر الساحات في مصر إلى فرنسا . ويمكن على إدارة هذه امروس في صفوف العدو إدارتها مسو وقواد محلة . ثم مع أركرمي من الزحف داخل البلاد بعد سقوط الإسكندرية والموانئ الأخرى ، إلا إذا وجد ضرورة لهذا الزحف وكان من شأنه مساعدة العثمانيين على احصار الحدود من حائهم ، وانعدم في داخل البلاد . وأخيراً ذكرت العتبات ذلك الأوامر التي صدرت إلى الحدى من أجل إرسال حملة من حملة آلاف حدى للاستيلاء على موانئ البحر الأحمر التي في حوزة العدو ، وإصعاد جيش الشرق بسبب قيام هذه العمليات العسكرية في مؤخرته وفي أكتوبر (١) كتب دنداس إلى (ولزلى) حاكم الحدى العام عنه بقرار الحكومة ورغبته في إرسال قوة من ألف من إنشاء الانحر ، وألفين من الحدود للعمل من جهة البحر الأحمر . وحث كذلك بالكتب في هذا الشأن إلى كلاب Clive حاكم مدراس وإلى دسكان Duncan حاكم بنى في الوقت نفسه

ثم لم تكف الحكومة الإنجليزية تنحدر هاتين الحثتين (حملة البحر الأبيض وحملة البحر الأحمر) لمعاونة الأراك ، بل عملت أيضاً على تجهيز حملة ثالثة بقيادة السير هوم نوبهام بعد عودته من مهمته الفاشلة في نظر سرح . فهدت الحكومة إليه بالخروج في أسطول صغير ، لعل ما يجمع من حود في رأس الرجاء الصالح يذهب هم إلى بنى ، ثم يحمل ما يستطيع من القوات الحدية المعدة للاغمار كذلك إلى

البحر الأحمر ، ويذهب بهم إلى هذا البحر وحمل على الالعب نفية وحدات لأسطول
وحملة الأميرال ملاسكت ، وذلك يستطيع الجميع الاتحاد مع القوات المرسلة عن
طريق البحر الأبيض للاشتراك مع العثمانيين في إخلاء المرسين عن مصر وطردهم منها
وكان ديداس يرى أن في استطاعة توهم الدخول في بحر العرب والوصول إلى محار
في زمن عامه شهر فبراير من عام ١٨٠١ (١) وهكذا صدرت أبحرا الأوامر التي طلب
(وري) ينظرها ربما دونها . فقامت الحملة الجديدة إلى البحر الأحمر في بداية
ديسمبر سنة ١٨٠٠ ، وري الحد فذهبه أميرال بارد Bard في القصير في شهر مايو من
العام التالي ، ووصلوا الحرة في ٧ أغسطس ١٨٠١ ، بعد تسلق القاهرة بأربعين
يوما ، ثم دعوا الاسكندرية وقت سلم حاميا (٢) فلم يكن لها أي أثر في العمليات
العسكرية التي أنصت إلى إخلاء المرسين من مصر ، ووقع العرب كله في ذلك على
حملة البحر الأبيض .

رول أركرمي في أني مر

أما هذه الحملة التي رعتها أسطول الأورد كيث ، بقيادة لسير رايث أركرمي ،
فقد عازرت مالطة في ٢ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، ثم تمت شطر ميورقة فقامت بهامدة
اسماعت بعدها السير في البحر (٢١ نوفمبر) ، فاصدة إلى مالطة فلما في أول
ديسمبر ، ثم أقفب مرة ثالثة في ١٧ ديسمبر بعد أن كمل استعدادها ؛ وصارت سأل
من سبعة عشر ألف مدل ، وانجحت شرقا من طريق كرت ، فتمت فيه
مارموريس على شاطئ كرمنا Caramania آيب المصري ، فقامت مراسها في
خليج ماكري Macr شمال جزيرة رودس في ٢٩ ديسمبر ، وأرل أركرمي حدوده
إلى الشاطئ ليأخذوا صيهم من اراحة بعد مشقات السفر (٣) ، وكان عرض أركرمي
من البرول عند خليج ماكري أن يأكل لدى العثمانيين وصول الحملة ، وعزم الإبحار
على التعاون الحربي معهم ، فحج ذلك دون مدوحهم مع المرسين . وفصلا عن ذلك
أراد أركرمي أن يتجهل قليلا في سره ، حتى يسمح الوقت لوصول حملة البحر الأحمر
الجديدة في الوقت المناسب ، ويتمكن في الوقت نفسه من العثور على عدد من الجيوب كان

(١) Charles - Ronx II 120 — 1

(٢) Reybaud VIII 320 — 1

Reybaud VII 117 8 Wash 105 Fortesque IV. (٣)

في حاجة إليها لفرسانه ، ولتعل مدافع الحملة ، علاوة على روارق مدعية تركية لحماية الحملة عند مرورها على الشاطئ المصري ، وهذا عدا بعض السفن الخفيفة التي تستطيع الدخول في اسطحات المصرية الشاطئية (١) .

ثم كان من أهم أعراس أركرمي محاولة الاتفاق مع الصدر الأعظم ، بصدد الحملة في محب ، محذره من أخذ العرو والشرك ، على أساس أن أخرى عمليات العثمانيين العسكرية من ناحية الحدود السورية ، بينها بر أركرمي وقواته في فرع النيل الشرقي وكان تركرمي يعي النزول في باها دلا من الذهاب إلى الاسكندرية محذرا في ذلك حاله . حتى اشترت مع جيش الصدر الأعظم في ارجح بحر الصحراء على الحدود المصرية ، فيجمع الجيشان في السويس ويهبطان هناك وصول الحملة الهندية ، ثم يستأجر الخيوش الثلاثة رحمةا على الفهره (٢) وأرسل أركرمي إلى معسكر الصدر في باها الجبرال سرحون مور Moore للاتفاق مع يوسف صيا باشا بصدد ذلك كله ، وقد طن أركرمي راتب في مارمورس طول شهرى يناير وفبراير سنة ١٨٠١ سطر عوده مور من مهمته ، وإقال الأتراك على رويده بالحيول والمهمات اللازمة ، وجمع اسمين ورحال المدعية في رودس عبر أن العثمانيين م رودوه بمحاكاة كما أنهم م عمهوا شيئا في رودس بما طلب إليهم ، على الرغم من التساعى التي بذلها جيش في القسطنطينية لهذه الغاية ووعود اسباب العلى الكثيرة .

أما (مور) فقد رجع من باها في ٢٢ يناير يحمل أساء عبر مطهنة عن حالة الجيش العثماني السيئة وجهن قواده ، ويقرر عدم حدودى الاعياد على معاونة الأتراك ، أو انتظار نجاح أية حملة عسكرية أخرى بالاشتراك معهم . أصف إلى ذلك أن يوسف صيا باشا م يكن لديه سوى ثلاثة آلاف مقاتل تقريبا من عصابة الأحاس ، بمعظم الأسلحة والذخيرة ، وتنسج في صدوقهم القوصى ، ويعجرون عن الدخول في معارك كبيرة وبصمد الصدر على ابرام خطة الدفاع حسب من روى طويل ، وراد من احتلال الأمور في المعسكر النهائي كذلك وفاة الجبرال كوهنر بالطاعون ، وكان صاحب بقود عظيم على يوسف صيا باشا ، وفي وسعه اقناع الأتراك بجزا : خطط الانخيلز العسكرية ثم رادت الحال سوءا عندما أعلن أمير البحر العثماني القسطنطين حنين باشا ، الذى ذهب بأسطول له إلى القسطنطينية ، أنه لا يستطيع العودة قبل أربعين يوما . فراح أى أمل في إمكان

التعاون مع العثمانيين ، ومات واصحاً ألا معدى للاخطر عن الاعتماد على أنفسهم حسب
إذا شاءوا إدراك أى نجاح فى عملياتهم^(١) .

وبما كان أركرمى لا يزال متردداً فى اختيار الخطة التى يجب اتخاذها لاجتراح من
هذا المأرق ، لم يلبث أن وصله خبر دخول المرقاطيين المحميين ولاخوستيس Justice
وعدد من المصن الفرسية إلى الاسكندرية ، وعرف أن أسطولاً فرسياً قد خرج من
برست ودخل البحر الأبيض بحمل حدا وامدادات موعده لبعده جيش اشرفى فى
مصر . فكان لهذه الاساء أثر حاسم فى إزالة كل تردد لدى أركرمى واتخذ قرار
سريع فى التو واساعه^(٢) ، ومعارضة (مارمورس) إلى أنى قرر ولا اسكندرية رأساً
وكان مما عرر هذا القرار أن (مور) والقواد الاخرى فى هيئة أركان ، خرجت كما
يعبرون أن إصاعة الوقت فى (مارمورس) تموت على جيش اندى حارب فرصة
مباغة المصريين والحق المبرجة السرمة بهم فعزل هذه المباغة ، وعلى الرغم مما
كان يساورهم من قلق بسبب المصن انطهر فى قوة فرسانهم ، وغاب مور عبر الخطة
الأمنية التى تضمنها التعيين وهى الإعارة رأساً إلى الاسكندرية من ماطة بدلا من
الذهاب إلى شواطئ آسيا الصغرى^(٣)

وبما كان من واجب أركرمى أن يدعو العدو إلى الخلاء عن البلاد ، واماودة
إلى فرنسا قبل بدء القتال معه ، فقد وسط أركرمى ، ضد خروجه ماطة من ماطة ،
المصدر الأعظم لإبلاغ هذه العروس إلى مو ، ومات ما المصدر بدوره إلى مراد بك فى
بداية فبراير سنة ١٨٠١ ، وأوصلها عثمان بك الردى إلى القاهرة ، ولكن مو
رفض اخلاء فى ظروف سوف يأتى ذكرها^(٤) ، وعلى ذلك تصابرت كل هذه الأسباب
مجمعة ، لإقناع أركرمى بضرورة العمل فوراً ، ثم الرجوع إلى خطته الأولى . أى
الذهاب إلى الاسكندرية بدلا من دمياط . وفى بداية يناير كانت قد وصلت إلى
(مارمورس) القوات التركية المعدة لقتل الخبول عمراً ، وكان بحرى محبها فى
أرمير ، كما وصلت حصن روارى المدعومة بركبة من رودس ، ووصلت فى الوقت نفسه
من ماطة مة قطع الأسطول الاخرى . وفى ١٢ يناير وصل سر ريشارد بكترون

Wash 54 - 5° Reybaud VII 116; Fortesque IV 2 802 - 8 (١)

Bertrand II 380 (٢)

Moore I 397 - 9 (٣)

Reybaud VIII 108 - 9 (٤)

Bikerton على ظهر سفينة سويسشور Swiftsure ، والسر سدى حيث على سفينة (تيجر) Tigre ، كما وصل إلى (مارمورس) في اليوم نفسه قائد البحرية التركية^(١) . وفر الرأي في مجلس حربي على أن يكون رول المحلة في أني فير ، ثم تبدأ انزحف منها على الاسكندرية . وفي ١٧ فبراير اجتمع القواد على ظهر النارحة كبت Kent وشرح لهم السير رالف أركرمي العرض من الخطة وأصدر إليهم تعليماته النهائية^(٢) .

وفي ٢٣ فبراير عادر الأسطول (مارمورس) قصداً للشواطئ المصرية ، وكان تألف من سبع بوارج وست فرقة طاب مسدحه ، وسبع وثلاثين غير مسلحة ، وقربوت واحدة وثلاثة ناربي ، عدا ثمان تقالات مسدحه . أما الأسطول الثاني فكان تألف من عشر بوارج وثمان فراويت . ولكن سرعان ما هبت عاصفة شديدة ألقت الرعب في قلوب البحارين . فاصطفت فافهم عن الأسطول ، ولجأت إلى الطور المخاوره ، وحرم الأخير من معاونة الأتراك . وبت من الواجب الاعياد على أنفسهم لحسب في تعديبات اليابية^(٣) . وكان أسطولهم يحمل جيشاً معدداً من حوالي خمسة عشر ألف جندي من انشاء ، وألبين ومائتين من المرسا ، وسبائة مدعي ، وعشائة العام اسير رالف أركرمي . ثم بعه في القيادة الحبالاات السير هيني هنتسون Hey Hutchison ، كوب Coute ، كرادوك Craddock ، كمن Cavan ، مور Moore ، دويل Doyle ، سوارت Stewart ، ثم فمش Finche ولوسون Lawson^(٤) . ووصل الأسطول أمام لإسكندرية على مسافة تسعة أميال من الشاطئ . تقريباً ، في أول مارس سنة ١٨٠١ — وفي اليوم التالي ألقي الأسطول مراسيه في خليج أني فير على مسافة تسعة أميال من الشاطئ . وحال هبوب العواصف دوب ، زال الحدود إلى الشاطئ . حتى إذا هدأت الريح في ٦ مارس هاجمت بعض من المدفعة بقيادة السير سدى حيث طاية فرسية صغيرة عند مدخل بحيرة الماردة (أما فير)^(٥) . وكان أركرمي ، قبل يام الأسطول إلى أني فير أيام قلقله ، قد أرسل صابطين للاستطلاع على الشاطئ المصري عند (مرابط) وفي خليج أني فير ؛ فوصل إلى جهة مرابط في ليل ٢٧ فبراير وتزلا إلى الشاطئ . ولكهما لم يستطيعا العودة قبل طلوع

(١) Anderson 192 — 5

(٢) Walsh, 7; Ibid App. No. 3 P. 8° 9°

(٣) Anderson 213 — 14

(٤) Reybaud VII 120

(٥) Anderson 216 — 7

النهار ، فشاهد المدافعون الفرنسيون سفينهما في عبوة المياه (عبوة في قبر) ، فقتل أحدهما بينما أسر الآخر ، وأُرسل إلى القاهرة ، فوصلها في ٢ مارس ، وعرف الفرنسيون ، به إلى مصدها الإمبريوسيون وبرون بها ، ثم في حديق أني قبر ، واندفع أني (كثر) مرأى سطوله في نفس المكان الذي وقف به سطول (روس) من ذلك^(١) . وب كاس الرياح الشديدة قد غطت برون الخلة في لمر مدة ستة أيام تقريباً ، فقد مات لدى الفرنسيين من الموت ما يكفي لاستعدادهم لمربع وانتفى عنصر المساعدة ، رد على ذلك أنه كان في وسعهم ، لو أنهم أحكموا استدبر ، أن يدمروا رول الخلة أو يلقوا بها المبرعة ، فقد كان من رضى (مور) الذي نعت به أركرمي في المر عند هذه المبرعة ، في يوم ٦ مارس الاستطلاع . أن لبرول في هذه الخلة مخاطرة كثيرة . إذ يمكن طسه الأرض من سبل فوت مرسيين إلى موضع قرية جداً من الشاطئ . من وإحدى قواهم الخدمه عن سطر لآخر ، واستعد (مور) أن في وسع الفرنسيين كذلك أن يجمعوا حشدهم على البحيرة ، إذا أسقطهم هبوب الرياح وتضطرب برون الخلة إلى البر الوقت الكافي ليدمروا ذلك ، ووضع مور أنهم قد نادروا بجمع قواهم فعلا لهذه الحيلة^(٢) .

ومع ذلك فقد قرر أركرمي أن يحرق خطه ، واعتمد على ما كان لديه من معلومات دقيقة عن خدمة الشواشيء المصرية ، أمده بها جورج بلدون ، فحصل الإخبار ساعدا في القاهرة عند انضمامه إلى الخلة ، وكان أركرمي وكثير من ضلأ إليه الانضمام إليها ، فعاد نابوي ، حيث استقره انعام بعد دهائه إلى طسا على أس حروجه من مصر ، وغالب الأسطول في ماطة ، وحضر الآن مع الخلة في الشواطيء المصرية^(٣) . ووات الحظ أركرمي ، لأن الفرنسيين لم يحددوا نهتهم الكافية ، ولم يعرفوا الاستعداد من مواقعهم (لاستراتيجية) في المعارك الثلاثة متتالية ، فأرل أركرمي أخرا من الجيش معاده مور وأوكر Oaker ، ثم بقيادة لادلو Ludlow ، وكوب ثم عشرة مدافع ، وبلغ عدد الجميع حوالي ستة آلاف مقاتل^(٤) .

وكانت طبيعة الأرض التي حرت عليها المعارك منذ وصول الخلة الإنجليزية إلى

Bertrand 382 (١)

Moore II. 1 ' Walsh 73 Fortesque IV 2. 817 Et. Sq (٢)

Charles - Roux II 139 · 40 Anderson 239 — 40 (٣)

Reybaud VIII 125 (٤)

أنى قبر ، إلى وقت نصبتهم الحصار على الإسكندرية ، من شأنها مساعدة الفرنسيين على الدفاع لو أنهم أحسوا خطتهم العسكرية . ذلك أن المسافة بين أنى قبر والإسكندرية كانت عبارة عن وادى صيق دى اعفاس كبير ، تحده جانباً مرتفعات صخرية ، يفصل هذا الوادى عن التلال عن اسحر الأبيض ، وفي الجنوب عن مياه بحيرة المعبدة (أنى قبر) ، وبصيق الوادى كثيراً حتى يشبه عنق الزجاجة على مدقة قصيرة من قاعة أنى قبر في طرف الخليج التالى الغربى . ثم رداد صيق الوادى قبل الوصول إلى (معسكر قبصر) القائم على هضبة يحدها المرتفعات الصخرية في الشرق والجنوب والغرب ، ويحده امتداد الوادى الصيق في الشمال ، ومن وراء هذا الامتداد المرتفعات الصخرية التى يفصلها عن البحر الأبيض ، وتكاد هذه المرتفعات كلها تسد الطريق إلى مرتفعات بىكو بوليس حوى أطراف الإسكندرية عند باب رشيد . وكان عمرى الوادى الصيق طريقاً أحدهم إلى الشمال من قاعة أنى قبر إلى الإسكندرية ، ويعرف باسم طريق أنى قبر ، وانتهى في الجنوب من رشيد إلى الإسكندرية كذلك ، ويعرف باسم طريق رشيد .

أما حلف الإسكندرية ومرتفعات بىكو بوليس ، وكانت عمرى رية الإسكندرية متجهة صوب الشرق ، يفصل شريط صيق بينها وبين معفص عمرى مربوط المدينة ، وكانت لأزال حافة من أربعة طولية ، ثم عمرى هذه التربة كلها صوب الجنوب الشرقي بعد اختيارها مسطحة بىكو بوليس ، ويحترق شريطاً صغيراً من الأرض يفصل بين عمرى المعبدة (أنى قبر) وبين معفص بحيرة مريوط ، ثم تستمر في حرسها مائة مائة ودمهور والرحمانية ، حتى يصب مياهها في فرع رشيد عند صحرارط . وعلى ذلك فإن الإنجليز إذا رزوا في أنى قبر يعمدون عليهم الزحف رأساً إلى الإسكندرية . إلا إذا احترقوا الوادى الصيق ، فعرضوا أنفسهم ليران العدو ، دون أن يستطيعوا الاعتماد على أية مدفعية من جهة البحر أو بحيرة المعبدة . وهكئ أمامهم سوى الالتفات حول مراكر العربيين ، وهذا أمر يسهل إفساده إذا أحكم هؤلاء المدفع عما حيداً^(١) . وكانت إذن مهمة فرنس Frant قومندان الاسكندرية ، إلى جانب مع رول القوات الانجليزية إلى البر ، محاولة وقف رحمتهم في السهل الصيق إلى الاسكندرية فسادر مند ٢ مارس بوضع قواته على الشاطئ في مواجهة أسطولهم ثم أمدته الفرقة ورحمته ، في ٤ مارس بعض الوحدات فبلغت قواته حوالى ١٤٥٠

جدياً منهم ١٥٠ فارساً ، وأرسل مو في الوقت نفسه من القاهرة جيشاً بقيادة
الجنرال لانوس ، ولكن هذه التحدة لم تصل إلى الاسكندرية عن طريق ارحامية إلا
يوم ١٠ مارس ، فالتحمت مواقعها في (معسكر بصر) - أو (قصر القياصرة) .
علم يستعد قربان من هذه القوات في مساوئاته الأولى . من أجل منع رول الاخير إلى
البر وكان الواحد حصيه بسبع مئة قوته بالقياس إلى جيش الانخير ، أن يجمع في أي
قبر أو كرم مسطوع من الحد المورعين بين رشيد وقصبا (قلعة حوليان) وإدكو
ومعسكر بصر والاسكندرية ^(١) ، ولكنه بدلا من ذلك عمد إلى توزيع قواته على
طول المحسة ، وفيه المدفعية ثلاثة أقسام على حاشي الهصة وفي وسطها ، وترك
بالاسكندرية حوالي ١٢٠٠ من الجنود المصريين وسبب فارساً من غير الراكبين ،
ومائة وخمسين من سلاح الهندسين ، فصلا عن بقاء الجنرال رايونشك
Zayonschek في (معسكر بصر) مع سمائة من المشاة وآلاف من الفرسان ^(٢) .
فصل على الاخير بعدل بموافقتهم العددي هزيمة قربان وثبتت أقدامهم على الشاطئ .
وسطر الفرنسيون بعد أن سكندوا حجارة مدحة إلى النفق ، واتخذ مواقعهم
الحدثة على المرتفعات أمام باب رشيد ، للدفاع عن مداخل الاسكندرية ، ولما كان
الانخير مبعروا بعد من إزال فرسانهم ومدفيعتهم إلى البر ، فقد تعدد عليهم مطاردة
(قربان) ، وقصوا ثلاثة أيام دون حراك في مواقعهم ^(٣) وكان من السهل على اريان
أن يدير هذه الفرصة للهجوم عليهم فحصل بالديه من فرسان ومدفعية . ولأنه كان
يصعب على مشاة العدو الاستمرار في الرحف على رمال الوادي الرخوة ، دون اشتراك
فرسانهم والاحياء سيران مدفيعتهم ^(٤) ولكن قربان بدلا من ذلك شغل الوقت كله
بالكتابة في مو يطلب اليه من مارس الحضور بالجيش إلى الاسكندرية على تحمل
من القاهرة ، مع العلم بأن جيش مو ما كان يستطيع الوصول إلى الاسكندرية إلا بعد
انقضاء أحد عشر يوما في وقت كان يجب عليه فيه أن يحصر بالجيش إلى الاسكندرية
يوم ٩ مارس . لو أنه عاود القاهرة في الوقت المناسب للاشتراك في هذه العمليات
الهامة الأولى ^(٥)

Reynier 205 (١)

Richardot 389 : Rigault 295 (٢)

Moore II 2 Et Sq (٣)

Richardot 392 — 3 : Walsh 92 (٤)

Fortesque IV. 2. 817 (٥)

ومع أن قوات لانوس ، التي عذرت القاهرة في يوم ٤ مارس ، ما لبثت أن وصلت إلى الإسكندرية في ١٠ مارس ، وأصبح لدى فريان حوالي خمسة آلاف جندي ، وإنه لم يحاول محوما على الإنجليز ، بل فصل خطه الدفاع حتى يأتيه جيش مو ، وشغل فريان في الأيام الثلاثة ٩ ، ١٠ ، ١١ مارس ، ضمن مواصلاته بين الإسكندرية والبركة (بركة عطاس) . طريق الإمدادات الوحيد إلى الإسكندرية ، تعذر موافقه أمام الإسكندرية ، واحتل المرتفعات التي كانت تقوم في عرض وادي الصيق ممتدة من البحر إلى طرف بحيرة القعدة فكانت ميسرة تستند على معسكر فيصر بينا استندت ميسرته على رغة (أو حبيح) الإسكندرية في حربها التي فصل بين بحيرة القعدة وبين معسكر مريوط ، أما القلب ومددات عدة من الناحية الشمالية فترك في أي قير ، ومن الناحية الجنوبية طريق رشيد وأحمد (لانوس) في الوقت نفسه موقعا ، يمكنه من الانسحاب بميسره على معسكر فيصر ، وسط حياحه الأمن حتى طريق (أي قير) وعلاوة على ذلك أحد طريق من جيش فريان عبده الجبال دلاخراغ Del grange منطقة النبعة أو الخليج ، الواقعة بين بحيرة القعدة ومعسكر مريوط . ووسع فريان العرسان بقيادة الجنرال برون Brun في النصف الثاني أي حلف خط القتال الأول (١)

ووجد الإنجليز عندما فرغوا من إزلة مراسيمهم ومدفعهم إلى البر ، وفرروا التراجع على الإسكندرية في يوم ١٢ مارس . أن الواجب يقتضيهم ان تراجع أهم مواقع الفرنسيين في خط دفاعهم ، وهو معسكر فيصر ، الذي تركه عليه مدفعهم (٢) . وفي ١٣ مارس بدأت معركة سكوبوليس هجوم الإنجليز على خطوط الفرنسيين وقاموا (عوامره) للاعتناء حول ميسرة الفرنسيين ، فسروا طور هذه الميزة ، وعدت ما للجنرال لانوس أن الإنجليز قد أحفظوا لتعذر ، فحدث حياحهم الأيسر بقوات قليلة في أرض الوادي أو السهل الصيق ، وأن معركة قد كانت مرواية لنحطم هذا الحياح ، فعادز موقعه الحصين وأعطى عرساه عليهم وأمر المشاة والمدفعية بالتقدم ، وقام بحركة حريئة مفضلة ، إدام يكن لدى قوات فريان متسع من الوقت للدخل . ولكن لانوس سرعان ما أدرك خطأه عندما اكتشفت له جميعة المناورة . وحفظ عليه الإنجليز عوامتهم لتدفعه . فاضطر إلى التقهقر ، ولم يفران مدا من التراجع هو الآخر عندما شاهد ميسرة الجيش متقهقرة ، فأحلى لانوس وفريان معسكر فيصر

(١) Reybaud VIII. 138 - 9

(٢) Fortesque IV. 2. 825 . Wilson 19

واتحدوا موافقتهما الحديد على مرتفعات سكوبوليس القريبة من الإسكندرية وحسب
الفرنسون معركة ٢٢ فتور أو ١٣ مارس^(١) ، ودخل الإنجليز معسكر فيصر ، واتحدوا
منه مركزاً دفاعياً ميبعا ، يصدون به كل هجوم عليهم ، أو يحولون منه قاعدة يعتمدون
عليها عند استئناف عملياتهم العسكرية^(٢) . وتتراها قربان هذه الخريطة إلى حماس واندفاع
الحزان لانيوس الذي ماضى ضد حصوره إلى الإسكندرية سدى رعة شديد في الاشتباك
مع الإنجليز وإلحاق الخريطة بهم دون حاجة إلى انتظار وصول مو ، حتى لا يكون
لما تده حشيش الشرق الأعلى فصل في ذلك^(٣) . وقد تقدم (نوبارت) فيما بعد ابدفاع لانيوس
تقدماً جراً ، وفي رأيه أنه كان يجب على لانيوس عدم معاداة مواضع الحصينة أو التوجه
إلى باب رشيد بل إلى داخل أسوار المدينة إذا رجم الأمر . محمياً سران اندمعية ،
فكسب بفضل ذلك صنع ساعات تمكنه من معرفة أعداد الإنجليز اراحيين في
الوادي أو السهل العتيق تحت أنظاره ؛ وبوأنه فعل ذلك لأدرك خطوطه الخفية
المحموم على جيش يسع أربعة أمثال جيشه^(٤) .

وكان من آثار انحصار الإنجليز في هذه المعركة أن أقبل العربان بمدون الجيش
بانيول والأعداء ، فقد سرهم ولا شك اسهرام امرسيين الذي كانوا يمدون في معاملتهم
وكان العربان يعرفون اسر حورح بلدون ، الفصل الإنجليزي القديم الذي رل الآن
بينهم ، لتنظم حركة البيع والشراء بينهم وبين الحملة ، وأصبح بالاهق معهم على إقامة
(سوق) بالقرب من بحيرة القعدة (أي مر) تحت إشرافه ، لتقديم اللواشى والحايو
والجلد وما إلى ذلك إلى الخيوش الإنجليزية^(٥) . وبمسلا عن ذلك فقد تسبب عن
تقهقر قربان وعزله حامية أي غير الفرنسية أن سقطت قعدة أي مر في أيدي الإنجليز
في ١٨ مارس ، وسقط الحامية بقيادة دالموسى Dalhousie وبياش Vinache
كأسرى حرب ، بعد أن أقام الإنجليز على حصار القعدة ضد غجاج غميات رولهم إلى
البر^(٦) ، ثم نشأ هؤلاء خطين جدد من التحصينات أحدهما قربان من رعة

(١) Reybaud VIII 141 — 6 Walsh 86 — 92. Wilson 19 23.

Reynier 213 — 8

(٢) Fortesque IV. 2. 826-9; Walsh 86-92; Wilson 19-23

(٣) Rigault 297 — 8

(٤) Bertrand II 432 — 3

(٥) Anderson 239 — 44

(٦) Anderson 244 — 6; Martin II 183

(أو حليج) الاسكندرية ، والآحر أمام قصر القصاصرة (معسكر قيصر) ؛ وقد كان عزمهم عزل الاسكندرية ، ووجدوا أن محاصرتهم موط لا يصح لتأخيرات العسكرية ، فقد اعتمدوا على إخراج السيطرة التامة على مهابد القنطرة ، ومراقبة حدود الاسكندرية الجنوبية من بحيرة للعدية ، فاستولوا على قرية البيضاء ، وأدركوا مدسستهم من روارق المدفعية في البحيرة ، ووضعوا بطاريات قوية على طول الخط المدفعية ، وأخذ القنطرة (١) أما فريان في لم يستطع فعل شيء بسبب قواها الضعيفة ، وظل يسطر وصول البعثات وحضوره على رأس الجيش من القاهرة .

مؤ في القاهرة

وصلت أخبار تولد الإنجليز في أني فير وعمليانهم العسكرية وعصب فرنسا بعده من القاهرة ، إلى مؤ في وقت كان قائد الحملة انهم ما زال مشغولاً بخلافه مع كدر قواده ، وإعداد مشروعاته « الإصلاحية » العظيمة ، وجمع « اللؤلؤ » الذي هدم الحداث به في الفصول السابعة لسد العجز الظاهر في مالية الحملة ، وفرض الأتوات والاعازم ومع ذلك كان مؤ حزم مد شهري ديسمبر سنة ١٨٠٠ وبار من انهم إلى أن الأتوات والإنجليز يستعدون لإرسال حملة كبرى على مصر ، ثم لم يلبث أن طأه الأحمار في فبراير سنة ١٨٠١ حرم الإنجليز على التبول في شاطئ البحر الأحمر ، ووقع حدوث العرو في جهة أني فير والاسكندرية ، ولكنه لم يجد أي إجراء حاسم تقويه الدفاع عن أني فير والاسكندرية ، بل ظل محسباً غفلة للعمليات العسكرية من أجل الدفاع عن مصر ، دلت على عدم دراسته لقوى الحرب وأعماله في هذه الحطة على عديرات حاصنة وذلك على الرغم من المحاولات التي استمر مدتها ، فدر اوده لإظهار وجود الخطأ الحسم في مملكته فقد بث إليه دوريلو في ٤ يناير ١٨٠١ عخطاب من مراد بك يحدث فيه صاحبه عن وصول حملة البحيرة كبرى إلى رودس للاصنام إلى الأتوات في رحلتهم عبر الصحراء إلى حدود مصر الشرفية ، ثم بث إليه رسالة أخرى في ٢ فبراير عن رعية الصدر الأعظم في أن توسط مراد مع الفرنسيين من أجل عقد الصلح ، وكتب (دوريلو) في اليوم نفسه إلى (رئيسه) كذلك يحذر محصور عثان بك الرديسي من قبل مراد يحمل الخراج إلى القاهرة وبكى يحدث في بدء المفاوضات للرمعة بين الصدر ومؤ ووصل عثان بك الرديسي

فجاء إلى القاهرة لهذه الغاية في ٧ فبراير . وتأكد لدى مو اشتراك الانجليز مع
العثمانيين في الهجوم للسطر .

بعد أنه سرعان ما غلبت عن نفثة الردى هذه ومكانات دوريلو نتائج خطيره ،
كان لها أكبر الأثر في حطوط مو وإجرائاته التالية ذلك أن (دوريلو) أكد في
رسائله أن الصدر الأعظم لا يطرق كل باب من أجل الوصول إلى صبح ككه حسن
السبعة ، ولكنه من استعادة ثقة السلطان العثماني به ، إذا استطاع الاتفاق مع
الفرسيين على إخلاء عن مصر في صلح مفرد معهم^(١) وما إن وصل عثمان ابديسي
إلى القاهرة حتى أكد للعائد انعام هذه البرعة ، وكان مراد ك قد وقف على حقيقة
أغراض العثمانيين ، وعرف خططهم من عمليتك إبراهيم بك في المسكر العثماني ، فقد
عرف يوسف صيا الصدر الأعظم أن الخطة المقومة للعودة الأخيرة في القسطنطينية
قد قوى شأنها أخيراً ، وأنها عرض المفاوضة والصلح على روى الانجليز في لشواطين
المصرية ، أو دخولهم إلى البلاد عبر الحدود الشرقية خوفاً مما قد يرسب على ذلك
والانجليز ، فقامت أطبع استجوابه معروفه من سائح مصرية بمصالح العثمانيين^(٢) .
ولكنه ما كان قد باب الانصاب متعدياً بين الصدر ومو بسبب موقف هذا الأخير ،
وإصراره على أن تحرى كل اتفاق بشأن مصر عن طريق حكومة الجمهورية الفرنسية
وامنعقت المراسلات بينهما من مدة ، فقد اقترح الصدر على إبراهيم بك أن يطلب من
مراد التوسط ، وتذكر مراد خطوره الموقف ، ورأى أن من مصلحة حلفائه الفرنسيين
المفاوضة والاتفاق مع الأتراك ، فأرسل عثمان ابديسي إلى القاهرة يحمل عروض
الصدر الأعظم .

وقد ابديسي مو وبدل قصارى جهده ليكتب ثقته ، فاطلعه على الخطابات
التي كتبها إبراهيم بك إلى مراد باسم الصدر الأعظم ، وقد تحدث يوسف صيا في هذه
الرسائل عن صعوبة مقومة الفرنسيين ضد الخيوش الثلاثة التي قرر الحلفاء غزو مصر
بها ؛ وأن النصر إذا لم له الخط — والخط قلب ولا يؤمن حاسه — سوف يكلفه
حسائر فادحة ، وأن من حسن السياسة قبول المفاوضة على أساس إخلاء مصر^(٣) .
وكان من بين تفصيلات التي أعطاهها ابديسي ، أن جيشاً انجليزياً يألف من نخبة

Rigault 288 — 9 (١)

Martin II 168 ' Reybaud V. II 107 (٢)

Rigault 288 — 9 (٣)

عشر ألف جندي سوف يعمل بالاشتراك مع القسطنطين باشا في البرون على انشواطىء
المصرية ، بينما رحب الصدر الأعظم من يافا على الحدود الشرقية ، وتربن في السويس
قوة التحلية أخرى آتية من الهند . ولما كان مراد حريصا على بناء الحسم له في الصدر
وهد رعا مو لا يعمل مصالحه ، عند المفاوضة ، أما إذا رفض مو امعاوضه فإن مراداً
ما يزال على ولائه للعربيين ، ولا يتوان عن إرسال الجنده والإمدادات حسب معاهدة
التجالف فيه وبين الفرنسيين^(١) ، وسبح مراد وعثمان البرديسي بالمفاوضة .

وكانت الأسماء التي نقلها عثمان بك البرديسي إلى مو على حاسب كبر من الخطورة ،
إد بدل على أن الإخلاء قد فر رهم على الاشتراك مع العباسيين في العمل بسطر ، وأن
قوات عظيمة سوف تطبق على حيوش مو من الشمال والشرق والجنوب ، وأن من
الواجب على مو أن يسرع بإعداد انتدائير السحلة مواجعة لوف ؛ ولكن مو تطل
على الرغم من الأسماء التي أسمعها إياه مراد والبرديسي متأثراً بفكره خاطئة هي تصور
الانفاق بين الأتراك والإخلاء على أي عمل مشترك . فعلا عن انتقدته الراسخ بصدفه
الترك عندما راح يؤكد في رساله إلى باليران (في ٢٥ يدير) أن الاطشون ، ملك اسكا
دريما بجيش الصدر الأعظم ؛ وبكثير فرار الجنود من الصفوف ، كما ريد صمودت
الصدر يوماً بعد آخر بسبب عدااء العرب وعشارىء بمرور وأهل داس له ، وامسح
الجنود باشا في عكا عن الاعتراف بسلطة الصدر أو نائبه^(٢) ؛ وهو ذلك فيه بدلا
من العمل بصيغة مراد بك ، أظهر مو عدم تصديقه لأسماء التي جاء بها البرديسي .
وفي سانا إمكان تعاون الفتيان والإخلاء في أي هجوم مشترك على مصر

ولما كان يسوءه أن يعد مراد بك أدري منه سير الحوادث ، وأكثر اطلاعه
على دقائقها ، فقد عتب في معاملة البرديسي رسول مراد وحاط له القول ، وكتب أن
اترم مراد السكون في الصدر ، فلا يرجع خاطره على تحدث بعدائه ، ومن
الأفضل له أن تمتنع عن تبادل الرسائل مع السكوب الموحودى في معسكر الصدر .
وسد ما أحب البرديسي أن كبير على العكس من ذلك كان إذن لمرد بالانسان مع
أصدقائه وأعوامه بالشام ، قال مو غصبه لا يأتد الأعداء التي ارتكبتها كايبر ،
وأنه لا يريد بيع مصر ؛ ثم احتدمت المدة عند أربع البرديسي مو رعة مراد
في أن يصمم القائد العام عن إبراهيم بك ، الذي لحق به برحوة التوسط لدى مو في

(١) Reybaud VIII 107 — 8 — Reynier 153 — 4

(٢) Rousseau 394 — 5

انعمو عنه ؛ وقال ابن مراد لم يسعه أن رخص رجاء إبراهيم ، فقطعه قرية فقم بها مع تاليفه حتى يأتيه بمو . فاندفع مو حبيب على مراد سلوكة ويمون في كلام مدونه التاليف الشديد أن لوائح كان يقتضى مرادا أ يعث إبراهيم مكملا بالاعلان إلى القاهرة ، حتى يأتي حراؤه (١) . وفصلا عن ذلك أي مو أن يحبس ردة مراد في انعمو عن محمد بك الأتقي ، وعقب في حديثه مع عثمان بك الأردني بسبب صريح مراد عن الأتقي وشميه به (٢) . ثم عظم استياء مو عندما طلب الأردني زيارة كدر مراد حتى سمعهم نحوه سيده . طرح الأردني من هذه النقطة وجد نابع منه أناس جدا بعيدا .

وكان من أسباب عصب مو ذلك الاحترام الكبير الذي ظل مراد يظهره في رسائله إلى مو وإلى قواد الخلة المذكرى . لطوال كايير (٣) . وأظهر الأردني استياءه من مو في ثناء معذلانه بعد ذلك مع (داماس) و (دور) وغيرهما . وما أن علم مو ما جاعه مع هؤلاء حتى شدد الرقابة عليه وأظهر الشك في إخلاصه وأمانته . ودر موعده بالقلب لصدمه . هو الذي حرا كما بعد ذلك . وبقي الأردني في القاهرة أيام أخرى على أمل أن يجعل مو نصيحة مراد في النهاية ، وعلى انما وصية مع الأرك أو يطلب مساعدة مراد . ولكن مو لم يبر شتاما من موافقه ، وظل مصرا على رفض كل مساعده من ناحية مراد ، فهدر الأردني انقاظه بأثنا (٤)

وعلى الرغم من ذلك « لإهانة » لى لحف رسول مراد ، ظهر مراد عظمه لدين ، فلم يصب أو تغتر عريته ، وأخذ في مطاردة يهدى مولاي محمد ، ذلك لجهدى الذى حصر من درة بطرابلس لغرب ، ودعا إلى الثورة في لبحره ضد عرسين في ثناء حملة نوبارت في الشام ، حتى إذا وصى لاوس على قواته في دسبور (مايو ١٧٩٩) ، أبقى فترة من الزمن عاد بعدها إلى لظهور في ثناء ثورة القاهرة اناسة (مارس - أبريل ١٨٠٠) ، ثم لحق بعد إخمادها بخيش الصدر الأعظم ، وأرسله العثمانيون إلى هذه البلاد مرة أخرى (يناير ١٨٠١) ليحدد اتفاق وثورات بها ، في الوقت الذى تجمع فيه الخيوش استخافة الرجف على مصر وعيوها .

Reynier 155 — 6 (١)

Reybaud VIII 109 (٢)

Martin II 167 (٣)

Reybaud VII 109 — 10, Ibid 167 — 173 (٤)

ثم اضطر المهدي بعد مطاردة عبيده في الدنيا إلى الفرار إلى الصعيد ، ولقي هناك تأييداً من قبيلة جهينة ، وأحد مراد الآن في مطاردته مطاردة عبيته (١) ، وأُفْلِحَ في طريق شمال أساعه (٢) . ولا جدال في أن سو قد أخطأ في إسائه معاملة الرديسي وكان في وسعه على الأقل ، بعد إظهار ثقته التامة بقدرته حيثته على مقاومة حيوش العدو الموحدة ، أن يعمل لتساعده التي يهرعها مراد كرهان على احترامه له وتقديره لولائه ، وعلاوة على ذلك فإن المناوصة مع المصدر الأعظم قد أعطته الفرصة حتى يدير دور الشقاق والفرقة بين المصدر والإخبار ، وتضطرب بهد الحبش الإثخيري ، ثم تهرز دبلوماسية القنصل الأول في القسطنطينية .

وداع حمر حادث الرديسي ، ووساطه مراد عباس لأهالي القاهرة شهور قوي بأن الحرب لا محالة واقعة في وقت حد قرب ، وشاطر هذا الشعور بفر كبير من العربيين إن لم يكونوا جميعهم (٣) وطب مو وحده شعر بالثقة والطمأنينة ، وهو الذي كان ما زال يعتقد أن أسر رالف أكرام في صوف محد عند روله في الشاطئ . الشكالي إذا حاول ذلك في عدائهم للمدافع ورمضات في معداً لاستقباله ، ورغم أن الإمبراطور والعثمانيين لن يستطيعوا الاضمار في هجوم على مصر ورؤى مو أن الواجب يقتضيه أن يدل ما وسمه من جهد وحيلة ليدخل الطمأنينة إلى عوس العربيين ، وعظمت روحهم أنصوية من الاضمار بسب انقطاع الصلات بين الجملة في مصر وبين رجال الحكومة ولقنصل الأول في أرض الوطن ، مد أن بات متعذراً وصول السفن الفرنسية إلى الموانئ المصرية إلا بعد كل عام وشفقة ، بسب سيطرة الانجليز في البحر الأبيض . وحرس مو إلى حاسب ذلك على احماد كل تدمير قد يبدو من ناحية الأهالي ، واقصاء على مروحي الأخبار « بكدة » ومع اتصال انماهريين عملاء المصدر الأعظم ، وإيران المقوية الزادة بأوثق الدين عمدوا إلى اشاعة الشائعات المزعجة

وكاتب وسيلة مو في ذلك كله الاعلان بإطلاق المدافع عند وصول السفن إلى أنواي . انصرة ، وإصدار النشورات لتحذير الأهالي ، وعمد انه وان لقراءة « العربيات » على أعضائه ، وأداة الأخبار المفعلة عن جهود القنصل الأول في سبيل توطيد أركان

(١) Reymer 151 — 2

(٢) Wilson 69; Reybaud VI, 110 — 11

(٣) Ibid VIII, 111

الاحتلال الفرنسي في مصر لما أن علم من وقوع الصلح بين الفرنسيين وبين أهل
الحرائر وبولس حتى أذاع هذا الخبر تفرق فرعان (في ٢٠ يناير ١٨٠١) « بورود
مكتبات من فرنسا » بوقوع هذا الصلح « شروط خصاء مرساة » فصار في استطاعة
التجار من أهل الجبهين (البحر) للتجارة ، « من سافر فيه إخوانه والعناية في دهانه
وإياه ، وإقامته باسم دولة الجمهور الفرنسية » ، ووقعت بعد أربعة أيام وأربعة
« سيدي محمود وأحمد سيدي محمد المعروف بأبي دقة » وكان سيدي محمود صلات
بالصدر الأعظم سمع إليه بالأخبار من القاهرة عن حركات الفرنسيين ، ووروده بالصدر
بالعلماء لإشاعة الشوايع وإثارة الخواطر ضد الفرنسيين ، وكذلك أصدر بتوزيع
« أربعة أوراق مكتونة باللغة الفرنسية » فاشكش أمره قبل أن يرفع من بورود
هذه الأوراق (أو المنشورات) واحتج سيدي محمود . ولكن الفرنسيين فعلوا
(في ٢٤ يناير) على أحبه وكل من وحدوه معه « وحدهم بيت قائم »^(١) وفي
٨ فبراير حضرت مدفع كبيرة بسبب ورود مركبي عظميين من فرنسا هما (أوربريس ،
تيريلان وصلا إلى الاسكندرية سند ساير) فهما عساكر وآلات حرب ، وأخبار
أن بونابرت أعاد على بلادهم وحارهم وحاصروهم وصابهم وأنهم رخوا على حكمه
وفي الأمر بهم وبه على شروط الصلح ، وأنه استغنى عن هذه الأشياء بالرسالة .
وسأني في أمرهم مركبان آخران فهما أخبار تمام الصلح ، ويستدل بذلك على أن
عسكته مصر صارت في حكم الفرنسيين لا يشاركهم أمرهم فيها هكذا قالوا وقرؤه
في ورقة بالديوان »^(٢) .

وكان لما هم بمصر اهتماما كبيرا بحالة الصلح الأحدث بين الفرنسيين وبين أهل البلاد
وأن يسلم من الوسائل ما عكسهم من الاحتياط بهذه المصاهرة والدود عنها ضد جوش
الأعداء وأساطينهم . وحتى من أن يصدق أهل القاهرة ما قد يتصرب إليهم من أخبار
عن حركات العثمانيين وحلفائهم الإنجليز ، أو أن يبدس بينهم « المصدقون » ويثيروا
الفتن والاضطرابات ، بعد أن ثبتت حادثة سيدي محمود أن دفة احتمال وجود عدد
من عملاء العثمانيين وروحي الإشاعات ، وانتشار الإشاعات عن وصول سبطون
الإنجليز إلى جهة أبي وير . ومع أن أهل القاهرة كانوا يتوقون ولا شك للحلاص من
الفرنسيين ، وهمهم أن يعوا على حقيقة ما يدله العثمانيون وحلفائهم من جهود لنحرر

البلاد وحلاصها ، فهم كانوا لا يزالون في هذه الفترة العصبية من حياتهم في شغل شاعل
شعر «تواقي الفردة» وتدبر (أبواب) «ولا شغل لـ كل فرد إلا الحصول ما فرض
عليه» ، ولا يفكرون في شعب أو عرس أو القيام بشورة وكان بما ساعد على
استقرار الهدوء في القهره ، إلى جانب الانصراف للتدبر سدد (اليون) وواقى
الفردة ، ما حدث من وحوم وحرف شديد من مد متبرع ككبر وإعلاق الجامع الأزهر
(منذ يونيو ١٨٠٠) وهو المكان الذي اندثرت فيه (والغاورون) على الإشراف
منه على الثورة وتخريبها .

وإذا تذكر ذكره أن إحدى أهم علاقات الجامع الأزهر كان للشيوخ أنفسهم ، فقد
استأنس لشيوخ الشراف والهدى و«تدبر» كبر الأمر من في إقبال الجامع
وسميره . وكان قصدهم من ذلك مع التربية بسكينة ، بعد أن ثبت إقامة
صالح الحظي . كان كماله ، وسببه بالأزهر ، وبالأزهر على حد قولهم «سعة
لا يمكن الإحاطة من يدخله فرد من عدد من باب واحد واحتج بذلك على أنعاد
عرسه وسبب مراده من التفتيش والتفتيش ، ودعوى الإحسان من ذلك»^(١) . وقد
صدف ذلك ولا شك هو في نفس مو . وكان من على راسه في اجتماعه لأنه كان قد
دعا لاجل هذا لأمر ديوانا «ودعى أن هذا المكان ليس محلا للدرس والتعليم
للأفاضل والسبب في هو من بعد نشوره وإقصاءه» (واعلم) طرداه ورن
وهذه أبوابه^(٢) .

ومع ذلك فقد تمت مو . «صرت بعد مدافع من انقلاب» ثم بعد فرما ما جرى
بالديوان في اليوم التالي (٢٨ من ربيع ١٨٠١) في حيث «أن ألصقت به سبع
في معارق لطرق ولأسواق» ذكره مو^(٣) أن مرأ «من الناس الذين هم من
الأنشقاء والعسدين ، ولا يعينون إلا على الإصرار بالناس وإصراركم ، يظهرون
في وسط مدينة يسكن حارة ردة رورا نحوكم ومحويب المملكة ، وكل ذلك
كذب وإفراء» وبعد أن تمت مو «رعى رقة» كل من نقص عليه مهما بشاعة
هذه الشوائع المزعجة ، فإن إن اعرض من هذه الصرامة إنما هو «تعدت العناء» .
أما أهل مصر فواجبهم أن يكونوا «مستريحى اليال ومتريفي الحال» ذلك أن دولة
الجمهور المرساوى إنما حصرت لحياتهم وصياتهم .

(١) الجرنى ٣ : ١٤١

(٢) نقولا التركى ١٩٣

(٣) الجرنى ٣ : ١٥٤ ؛ 42 — 3 Gaillard II

وسام يكنى هناك ما يدعو في نظر الديوان ، و أهل القاهرة عموماً — لهذا التهديد والوعيد من ناحية ، ثم بذكرهم وان كيد لهم من دولة الجمهور الفرنسي لأنهم تعمل من أجل « حمايتهم والمحافظة عليهم » فقد تمت لأعضاء الديوان أن أموراً خطيرة قد حدثت بالفعل ، وأن ما يلزمهم من إشاعات عن تحريك الثيبيين ووصول مراكب إعلانية إلى جهة أخرى في غير مكان صحيحاً ، وعلى ذلك فقد سأل الأعضاء الوكيل فوريه عن سبب إطلاق اندفاع في اليوم السابق ، وعددهم انتهى فوريه يلقى على أسماعهم مرزقا من الأخبار الصحيحة والسليمة ، طعى آخره التعلق بها على ما عداها ، مدة إقناعهم بأن الفرنسيين ينفون في اسلاد ، وأن العدو لن يبال بهم ، وأن المعارم التي يشكون منها سوف تنسى قريب بمجرد انتهاء الحرب ، على أمل أن يستقر في أدهامهم عند التفكير في المقاومة وإثارة فتى من جهة ، ورعاة أن يدخل الصداقية إلى قلوبهم ، وبدأ يهوسهم فأخذ (فوريه) يصر لهم إطلاق له دفع بقوله « إن الفرنسيون كاتب عاربت القرائات (الدول السكينة) ، و الآن وقع الصلح بينهم وبين الفرنسيين ما عدا الإسكندرية ، فبه الآن مصفى سلمه ، ورعاة كان ذلك سبب رضاء بالدخول في الصلح أي حمل الإخلال على قلوب الصلح مع فرنسا ، وقد خرج من فراسا عمارة رعاة ووجهت على الهند ورعاة بهم يمدون إلى مصر ، وقد وصل سباري سكر أمر من النتيجة بوصول مراكب الوصفو التي عملت على إظهار إلى الفرنسيين ، وأن يمكنهم من دخول الإسكندرية وقد خرج ستة غلابين من فراسا إلى بحر الهند ، فرعاة قدموا بعد ذلك إلى جهة السويس ، وبورود هذه الأخبار بعين حوض مصر إلى جمهور الفرنسيين ، وفي سابع الزمان كاتب جميع القرائات التي ناهجه ثمنها صدق للفرنسيين ، وقد رالت الآن هذه لصدة ، ومنى انتهى أمر الحرب تحت ارحمة ولرفذوا نظر بالملاسة للرعاة ، وانسى أوجب الاعتصام والعنف إنما هو الحرب ، وبو دمت أسألة (أسألة) ما وقع شيء من هذا (١) »

على أن الموقف ما لبث أن زاد حرجاً عندما أُحدث الأحرار بالبرجة نرى على موى الأيتم لقليلة البلية ، خذوه حطوب من رامبون في دساط في آخر فبراير يشبه توقيع رول الاغتيال إلى الر ، بيم يسعد أربعة وعشرون ثم تركي لاحتياض الصحراء والرحف على مصر (٢) ، وفي ٤ مارس أرسل رافد Raffie فوسدانت رئيس إلى

(١) الختامي ٣ - ١٥٤ - ١٥٥

(٢) Rigault 289

(ريبه) كتاب بحره فيه أن الصدر الأعظم يستعد للرحب في عصون أسوعين أو عشرين يوماً ، ووصل مو في اليوم نفسه من قريان في الاسكندرية بأ ظهور الأسطول الإغبري أهم أبي فير^(١) ، ويطلب غدة من اعرسان ، وانتظر مو وقد اطمأن من ناحية تليس والحدود الشرقية ، أن تصله أخبار توفى عن حركات اعدو في الشواطىء الشمالية ، فأصاح صباح يوم ٥ مارس في هذا الانتظار ، حتى إذا كان مساء ، حادته رسالة من قريان ، تقول إن الأسطول الإغبري قد ألقى عراسيه في حبيب أي فير .

وكان من رأى قريان أن اعدو إما يقصد القمام جميعات ثانوية في الشاطىء غرب يما يحدث المرو من جانب الغنبيين في الحدود اشرقية ، وأكد قريان أن في وسعه تحطم قوات الاعلبر وأسطولهم ، فلا يرجع مو عنه من هذه الناحية ؛ ومع ذلك فقد طلب قريان إرسال ثلاثى من اعرسان فوراً وبكل سرعة ، وعلى صوء هذه الأخبار إذا كان من الواضح أن العدو على وشك عبور اسلاد من ناحيتى الشمال والشرق في وقت واحد ؛ وإن كان الخطر الناشئ من ناحية الاسكندرية بسبب ما كان متوقفاً من تأخر حركة جيش الصدر الأعظم منذ أسوعين أو ثلاثة أسابيع تقريباً ، وبمضلا من ذلك فإن قريان على الرغم من تقلبه من شأن قوة الأسطول الإغبري ، وادعائه اعدوه على محطمة ماخوذ اعرسان معه - وقد اهمه رامون بسبب هذه الأخبار المطمئنة الى أرسلها إلى القاهرة بأنه كان المستول الأول عن هرعه اعرسان في معارك في قري والاسكندرية^(٢) - طلب غدة مرسلة من القاهرة لحاجته الملحة إلى قوة من اعرسان لامعدى عن استخدام في العمليات اللازمة لمح روبة الاعلبر إلى قري ، ولإعطال رحمتهم في ذلك الوادى تصق بين أبي فير والاسكندرية .

أنصف إلى ذلك أنه كان واصحاً أن الجيش الذى حمله الأسطول إلى أبي فير لم يكن سوى جزء من الحملة المشتركة ، وما كان معروفاً من الأخبار التي أطلعها عنه ابردى أن جيشاً ثالثاً سوف يأتي من الهند ، فخدمات من التوقع كذلك أن يجد اعرسان أنفسهم في وقت قريب محاصرين من جميع النواحي . كما أن عزم الاعداء على إرسال حملة الهند لم يكن معده كما توقع قريان ، أن قصر السير رالف أركرمي شاطىء في الشمال على لقام لعمليات ثبوته . كثر تعطية رحب الغنبيين من الشرق غرب ، ال

كان معاه أن السير رالف إيمانيسى الاستيلاء على الاسكندرية ثم ارحب إلى داخل البلاد بمقاومة الحملة الهندية (١) .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات إذن أجمع ثقات على أن الحطة التي اتفقوا عليها الواجب اتساعها لمواجهه الموقف من كل نواحيه ، هي أن يعمل من تلك النعمت التي تركها يوبارت إلى كبير عدد معاديه البلاد ، وخواتها أن يمنع قواب الجيش القريب بكل سرعة في مكان تستطيع منه إرسال وحداتها بسهولة وسرعة للعد من الأخطار والأضرار ، وإداره الاخذ في أي قدر (٢) ، وأن من الواجب الذهاب إلى الاسكندرية مباشرة وبسرعة وصول أخبار فرمان إليه من ظهور أسطول الاخذ في جميع أي فير كما فعل يوبارت معه في ظروف مشابهة من ذلك ، أو الذهاب إلى الرحبية . وهي حير مكان لحشد جيوش التي يمكن إرساله لخدمة الاسكندرية من جهة ، ولحرب الدفاع عن دمناد وحدود البلاد الشمالية الشرقية من جهة أخرى . كما فعل كبير كذلك (٣) . — كان من المتوقع أن يرحب العنانيين وقدات وصحابة الخطر المائل إعاد هو من جهة الاسكندرية ، وأذ في وسع منو إذ اعد إحراق سراما لدفع هذا الخطر ، وهرعة الاخذ في الشؤون النهائية . ان يرتد بعد ذلك إلى القاهرة ماحرة العنانيين والاصهار عليهم ، ولو كان هؤلاء قد استطاعوا في أثناء ذلك الدخول إلى القاهرة داهيا ؛ وليس أدل على ذلك مما فعله كبير الذي هزم العنانيين في معركة هليو وليس على الرغم من دخول بعض قواهم إلى القاهرة (٤) على أن أهم ما كان على قائد الحملة العلم أن يفعله هو حشد كل ما لديه من قوت وعدم تورطها في يتسبى له انحداد أمام جيوش العدو التي كانت تفوق حشده كثيرا في عدد مقادها واستعدادها (٥) . رد على ذلك أن الموقف ما كان يحتمل أي تناطؤ أو مراوغة بل يقضى كل سرعة ، ولا يقل عن ذلك أهمية التشاور مع كبار مواد الحملة المحسنيين والإنصات إلى آرائهم .

ومع ذلك ظل منو من أول الأمر يدين بعده آراء كانت ذات أثر حاسم في تطويع القتال ، وإسرام جيش الشرق ، واضطراره إلى الجلاء عن مصر في اهيبة . ذلك أن

(١) Reybaud VIII 135 — 6

Bertrand II 162 — 7

(٢) Marim II 175 : Galli. 168

(٣) Reynier 190 — 1

(٤) Ibid 188

سواء كان يعتقد أن القاهرة هي المكان الرئيسي الذي يجب أن تدار منه كل خطط الدفاع في أسلاد جمعها ، فهي بمثابة الحصب الذي يجب على القائد انعام أن يبدل تصاري الجهد من أجل المحافظة على سلامته وتقويته . وأنه ما دامت الاسكندرية بعيدة عن الخطر من ناحية النقاء في القاهرة (١) ومع أن مو كان يوقع حدوث الهجوم من احيى الثهاب (حيث الاتحاد) و شرق (حيث الأتراك) فقد اعتقد أن هذا الهجوم المردوح سوف يقع في وقت واحد (٢) وأنصر على أن الأتراك والاتحاد سوف يوحدون حركاتهم فلا يقوم فريق منهم بعمل منفرد .

وكان سطره للهجوم مشترك ، واعاد العمليات الاعتيادية والعنسية أ كره الأثر على حائط مو وإجرائاته . ذلك أن أي عمل جدي من ناحية الاتحاد في جهة أي غير كان لا يمكن أن يتم حسب هذه النظرية . إلا بإدراك الأتراك رحب بالام من جيهم ، وأن الحركات العسكرية في جهة أي غير سوف تكون لذلك ذات فائدة ثانوية وعلى ذلك فقد اهتم مو بنموه الدفاع عن الحدود الشرقية ، كإجلاء لاميدي عن اتحاد بكل سرعة ، وهذا على الرغم من أن مو نفسه كان يعتقد ، أن رحب الأتراك سوف يجر كثير من سبب صميمهم وكان يمارده استمعا كما هذه الآراء ، ما سعه من أخبار ومعلومات ساءة عن طريق رحاله وقوده من جهة ، وأوسعه إليه بعدو كما يبدو بغية تضليله ، فقد ألقى قريان — كما رأينا — نعمة في المديرة على صد العدو وخطم سعه ، وصدق مو كذلك قول فريان في رسالته نصت لها هذا ، إليه في ٣ مارس ووصف العدو هذه بعد يومين ، أن الاتحاد لا لن يربوا حدودهم إلى لرب لا في اللحظة انق يتيم فما اقتراب جيش الصدر الأعظم من الحدود المصرية ، ومع أن فريان طلب أوطنتين من المشاة وآلانا من الفرسان وعددا من الجيوش لاستخدامها في حر الدافع ، ثم طلب حصور الباسط لوبير Lefèvre في طرف يومين إلى يدكو حيث كان بها الخبر الان راويشك والخراج ، فقد حم رسالته يظهر اعتماده أن مو في وسعه مع نية الجيش أن يهرم جيش الصدر الأعظم (٣) بسهولة .

وفصلا عن ذلك فإن فريان مع إصراره على ضرورة إرسال الفرسان والمشاة الذين

(١) Rousseau 399 — 400

(٢) Rigault 289, 291

(٣) Rigault 293

طلبهم في رسالته السابقة ، عاد يؤكد في ٦ مارس هزيمة العدو إذا حاول البروز إلى
البحر ؛ لاشك في ذلك ، ثم يذكر في اليوم التالي أن قوات العدو لا تريد على ستة آلاف
فقط ، وأنه استطاع أن يدفع محاولات عدة قام بها العدو من أجل إزاح جنوده عند
مدخل بحيرة المدينة (أبي قير) (١) . فأندلج سو بفصل هذه الأخبار عن الخطر
المستطرد ، وهو من ناحية لشرق وليس من جهة الشواشيء الشمالية . فارداد صوابية
لأنه على نحو ما ظهر من رسالة له إلى ربييه في ٧ مارس — كان يرى أن الانحلال إما
يريدون سحق جيش المصدر مهيأة لاقتسام الامبراطورية عثمانية ، وإلا من التعاون
الصادق مع جيشه (٢) . وأصبح الأعداء في إشاعة بعض الأنباء السكاذبة بصليل هرسين
وحديقهم ، فدأعوا أن الانحلال ليس لديهم على ظهر اسم أي حشرت إلى أبي قير
سوى عدد قليل من الجند المقدس للرد على التريما ، فبقت أكثر قواتهم في رودس
لتوحيد أقدام الانحلال ، وجماد نوره الأهلي بها ، والاستسلام على حرر الأرحس (٣)
وصلا عن ذلك تطايرت الشائعات عن حدوث انقسام خطير في صفوف القيادة
الإبحرية . وصدق سو هذه الشوائع ، واعتقد أن فواد الجملة لا يخبر سبب غير السر
رأف أمركرمي ، الذي فشل في هويلده ، وهزيمة الأسس في فيرول Ferro ، وأحق
أمام لعموره وفادش ، ثم مديوح من خلافات بين أمير رأف وأسير سدي صحت ،
سوف يضطرون إلى طلب الصلح عاجلا (٤) .

وعنى سو هذه الآراء ومعلومات الخططة بدن في سو خططة الأولى ، وحدث
تدور حول أمرين رئيسيين ، هما الجيش مع قائده في القاهرة ؛ ولتأمين شحنات تقدم
العام لحشب ، وليس للدفاع عن البلاد كما قال مبدوء . لأن القاهرة كانت بعد
معدت شامة عن الإسكندرية م موضع الخطر (٥) ، ثم يقرر الدفاع عن الحدود
الشرفية ، والاكتفاء بارسال المنجرات لفيلة لقي طلمها قربان في الإسكندرية
فأصدر أوامره إلى الجنرال ربييه بالذهاب مع قوة من المشاة ولدفعه إلى المنيس
(في ٤ مارس) . وقد حاول ربييه أن يفتح مودو بصروره ذهب الجيش مع قائده
الأعني إلى أبي قير ، حتى إذا قصي على خطر الإبحر أمكن التفرع لملاحقة ستميين ،

Ibid 294 (١)

Rousseau 398 — 9 (٢)

Martin II 167 (٣)

Rousseau 398 — 9 (٤)

Martin II 174 — 5 (٥)

ولكن مو عسك رآيه وطلب إلى (ريبه) الخروج إلى ليس في التو والساعة .
وعد (ريبه) صدور هذا الأمر إهانة له وازدراء لكفائته ، واعتبر كثرون
أن عرس مو من إرسال (ريبه) إلى ليس في هذا الطرف العصيب لم يكن سوى
استعادته كراهته له وعدم وثوقه من إخلاصه^(١) ، وأرسل مو قوات أخرى بقيادة
موران Morand إلى ديبط ؛ وأصدر أوامره بمقاء الحاميات في مراكزها معثرة في
أعناق البلاد ، في الصالحة ، وليس ، والسونس ، وعربة المرح ، والبرلس ، وكذلك
بقى الجبال دوريو في الصعيد ومعه ستة آلاف جندي^(٢) .

وبما كان فرمان قد أح في ضروره إرسال محذات من الفرسان والاشاة إلى
جهة أي قبر والإسكندرية ، فقد بعث إليه مو بطمئنه على وصول بعض هذه المحذات
إليه من الفرسان وانشاء الموحدين بالبلد ، وعلاوة على ذلك كتب مو إلى فرمان أنه
بدالم أنه تحار أخرى في مساء اليوم نفسه (٤ مارس) فبه سوف يحضر إلى الإسكندرية
في اليوم التالي ومع ذلك فإن ، وسرعان ما علم أنه ، فكتب إلى فرمان رسالة أخرى
يسته فيها عروج لاوس من بعده ، لانه ؛ وصدرت الأوامر لهذا الأخير أن يسير
للسير إلى الإسكندرية^(٣) ، وعذر لاوس انه هزم في ٢ مارس ، صاحبه عدد من الشاة
ثم آلاي من الفرسان بقيادة الجبال برون Bron .

أما مو فقد ظل ينتظر في معركته وصول أخبار أخرى من فرنس ، وجاءه
رسالة فرمان التادة في ١٥ مارس ، وكانت بعث على طمأنينة كإثبات على الرغم
من تكرار طلب الإمدادات بكل سرعة ، فكان من أثر ذلك أن أرسل مو إلى لاوس
بشره بالسوق في الرحمانية ، ثم الاكتفاء بإرسال جزء من ط من القوات التي معه
إلى الإسكندرية^(٤) ، وطمئنه مو وقد عقد كل هذه الإجراءات « لصيانة » أن مسؤولية
الدفاع عن البلاد قد انتهت ، وطمح من السكون على ممراته زيادة العامة ؛ وانصرف
رجال الحملة وسائر الفرسان إلى مخرج عن أنصهم بالتدبر والعكاهة ؛ وكان من رأيهم ،
وقد وجدوا إجراءات قائدهم سم طامح لاستعطف بشأن الإغاير ، أن هؤلاء لابد

(١) Reybaud VIII 123 Peyner 190 — 3 Galland II 48
Et note

Reybaud VIII 138 (٢)

Rigault 290 — I (٣)

Martin II 176 (٤)

وأن تكونوا قد أحصروا من أسطولهم إلى أي فير والإسكندرية قارعة لآخود
عديها^(١)، وظهرت موبوحة غريبة إلى « معاذة » الموقف الداخلي

فقد استعاضت الأسماء في المعركة منذ ٣ مارس عن وصول « مراكب إلى في
فير » وتأييدت الإشاعات التي انتشرت في أنحاء العاصمة منذ أواخر فبراير ، ورد
اقتناع الأهاليين بحديثها عندما شهدوا في اليوم الثاني (٤ مارس) خروج « حملة من
عسكر المرسانة (وسفرهم) إلى الجهة لبحرارة راو حمر » . في هر موانع اجتماع
الدونان في يوم ٦ مارس ، وحاولت تلك « حملة » « الوكيل (قورييه) يقول
به كان يظن أن تكون حرب ولكن وردت أخبار أن لمراكب هي حشرت إلى
إسكندرية . وهي نحو مائة وعشرين مركبة حربية ، فدل له وما هذه المراكب ،
فقال : لمراكب هم طلائع من الإسكندر ومهمهم حماية من الأروام وليس فيها مراكب
كثيرة لا قليل حدث . وادعى مدافع وعمل الإسكندرية ثم قال إن حصرة ساري عسكر
كان قد وحه . في ذلك في ذلك في ذلك ، الأمر وهو وإن كان قد فات
موصفه من حيث أنه كان بعض شئ هناك حرب ، ولكن من حيث كونه قد ور إلى
الوجود فبعض في على مسامعكم » ثم أخذ رجال الترسانة يقرأ هذا الأمر من
الجدد وكان يحمل تاريخ ٥ مارس ، غريب وهو « من مهور الإبحار » في
أعواد وإن كانوا تحذروا صغوا أرحمهم في أنه قد بدوا في الحال على أعقابهم في
البحر ، وأما من محركي هؤلاء الإسكندرية فمليون في بعض حركات ، فإن كان
عندما في الحال يمدو وقلعوا في عار و « عار »

ثم طلب منهم وإلى أن الملاد فاقده أن تحذروا إلى الحدود ، وأكبره و « عار »
إلى أعينهم : وحذر من أهل المعركة من إرهاب العنق والعلف ، وأبدر توقع
العقوبة الصارمة على كل من يخدع به ذلك ، وحينئذ في مسئولية ما يحدث ،
واجتمع هؤلاء (يوم ٧ مارس) « على الشيخ عبد الله الشرفاوي وحضر الأعداء
والوالي والمحاسب ، وأحضر مشايخ الحزاب وكبراء الأعيان وصحوفهم وأندروهم
وأمرهم بصلط من هو دورهم ، وألا يفعلوا أمر عاصم ، وحذروهم وحقوقهم العادية
وما ترتب على قيام المسلمين وجهل الجاهليين ، وأتهم هم أناخودون بذلك كما أن من
فوقهم مأخود عنهم »^(٢)

Ibid. 176 (١)

١٥٦ — ١٥٥ ٣ ج ٢ Reybaud VIII 151 2 Galland II 44 (٢)

(٣) أخبار ٣ ١٥٦ ١٥٧

وما كان الطاعون قد انتشر في القاهرة بصورة مزعجة منذ منتصف فبراير ، وصاق الناس دوما بإجراءات العزلة التي لم تكن تبدو « لتشديد في أمر اسكندرية » ؛ وتوقع أهل القاهرة حدوث الفتى حسب « ورود أخبار بارك إلى قير وعذر الرسولية واستعدادهم وثأبهم وعن أنفسهم إلى القعة » (١) ، فقد عمد كثيرون إلى انصرار من القاهرة والهروب إلى اربط وكان من أسباب هياج الخواصر ما شهدته القاهرة من حروب « ساكر كثره عمولهم وفرشهم ، (ودهم) إلى جهة الشرق (ثم دروع الأحبار) من حصار عرصي ثمانية ووصولهم إلى العريش حصة يوسف باشا انور » . وعلاوة على ذلك فقد أخذ العريشيون كرهات ، شيوخ السادات ، ثم على آء المختب . واصعدوهم إلى القعة (٢) وكان من سبب ذلك لاعتناء الدون بـ الإلتفات وفتحهم سوف يكون نصيبه ولا شك الحرمة إلى حوز الأولون . ومن بين سبب عدم الإحزون الحدود الشرقية ، حدا في قوته . ولا عصى أي عو . وفي ذلك أنه أداع هذا القول نفسه في أمر رومي أسره في ٦ مارس ، يقبل إلى حدوده أحبار وصول الأسطول الإنجليزي إلى الشواطئ المصرية ، وغرقت الخيش الغنمي صوب العريش ، وثوكة . هي أنه سوف يفتي بالأوليين في اندحار إن حاولوا الدون إلى سبب ، ون حيوش انباء من سوف يهلك في اندحار (٣)

غير أن فترة الاستعداد هذه سرعان ما مرت وانتهت عندما كتب فرنس في ٨ مارس « مع على مو في برسان الجندب » والحدود مع الجيش بكل سرعة » ؛ ثم عاد كرر هذا الطلب مرات أخرى في اليوم نفسه ويسأل مو الحضور مع الجيش « كمله إلى الاسكندرية » ثم وصلت الأخبار إلى القاهرة في يوم ١١ مارس مئة برول لأخبار وهرمة فرنس وعمره عن صدمه (٤) . وعبدت لم يجد مو عيذاً عن اتخاذ قرار عمادة القاهرة في مساء يوم نفسه . وهكذا يكون مو قد اضطر إلى الذهاب إلى الشواطئ الثانية بعد أن رفض نصيحة (رئيسه) ورملائه ، وأصاع حوالى أسوعين مدان أحمره رامون توقع رول الانحدر في الشواطئ الثانية ، وحوالي الأسوع مد أن أحمره فرنس بوصول الانجليز إلى آني قير وإرساء سفهم

(١) الجيرقي ٣ : ١٤٧ ؛ Galli. 170

(٢) الجيرقي ٣ : ١٥٧ - ١٥٨

(٣) Rigault 295

(٤) Rousseau II. 42 ؛ Martin II 172

في الخليج ، وأرتمه أيام مدائن طلب سه قربان الحضور بالحيش إلى الاسكندرية .
وحدث ذلك كله في وقت أنتب الحوادث فيه أن بضاعة كل دقيقة من شأنها إتاحة
الفرصة للاغتيال ليوطدوا أقدامهم على الشاطئ ، وسحروا استعداداتهم للاتحام مع
حيش الشرق في معارك حاسمة (١) .

ومع ذلك فقد شغل مو في يوم ١١ مارس ، باتحاد بعض الإجراءاء التي كان
لاعى عن إحداهما لتنظيم شئون القيادة في القاهرة ؟ معهدهما إلى الجبال بلبارد Belliard
ومهمته الاشتراك في دفع عرو الأتراك مع رميله (ربييه) الذي طلب إليه ، إلى جانب
مراقبة الحدود الشرقية في بنس والصالحة ، إرسال بعض قواته إلى القاهرة لتعزز
حاميها ، وهي الرحمانية عن طريق الدلتا . وهكذا ظهر أن مو حق الملاحظة الأخيرة
وعلى الرغم من اضطرابه إلى انهيار إلى الشواطئ انتهية ، كان ما يزال متأثراً
بمكره الحططة الأولى ، ويوقع أن تغل الحدود الشرقية مصدر أخطار كبيرة ،
وميداناً للعمليات العسكرية الهامة . وكان لذلك أوجع العواقب ، لأن مو بدلاً من
الخروج « بكل حيشه » إلى الاسكندرية ، أنقى حوائى الألمان في القاهرة للسهر على
الدفاع عنها ، ومراقبة الحدود السورية ، وأمسح عن إخلاء الصد وانرا كرا الأحرى
في دمياط وبنيس والصالحة والسويس ورشد ، وعرة الرج . وتم الجراح راسون
بالحضور من دمياط إلى الرحمانية (٢) ، فصار يعمل هذه الخطط حوى تسعة آلاف حدى
مبعثرين في أنحاء البلاد ، ولا عهد القائد العام من استخدامهم في معارك الاسكندرية
الفاصلة (٣)

وقد دهمت هذه الإجراءاء قواده وصراط الحيش وحوزة ، حتى إن القواد
رأوا من وحيهم أن يصبروا قائدهم الأعلى بمواقف هذه الحطة الويلة ، وسكنهم آثرو .
لنكوت في النهاية عدم مام بظفروا من مويحات شافية ، حووا من اتهامهم بالخروج
على الطاعة وعسيان الأوامر (٤) . واعد (ربييه) وحده معالمة أوامر قائده ، فيه
ماين وصلت إليه تعليمات مو الأخيرة في ١١ مارس حتى أدرك خطورة الموقف ،
وقرر العودة إلى القاهرة يصحبه داماس ويوصوط Beaudot بدلاً من الذهاب إلى بنيس

Reybaud VIII. 154 (١)

Martin II 182 (٢)

Bertrand II 393 (٣)

Martin II 176 (٤)

والصلحية^(١). وفي يوم ١٢ مارس طلب مو « رؤساء الديوان ونجار حصروا إلى مرله ، فأعلمهم أنه مسافر بحري وتارك مصر فأعلمهم بشار وجملة من يسكنون في لكتة ولهمدسين . وأوصاهم بأن يكون بطرهم على اليد . وكان في المرم حسبهم رهية ، فاستشار في ذلك فافتنى رأيهم تأخير ذلك »^(٢) وبعد أن انصهر الاجتماع ركب مو من قوره ، وندر القاهرة وما إن وصل (ربييه) إلى القاهرة في اليوم التالي حتى استأنف السير هو الآخر مع حده صوب الاسكندرية « ولحقوا بكثيرهم برا وبحرا »^(٣) وكشفت للأهلين عودة ربييه عبر المنتظره إلى القاهرة مدى الخلاف المستحکم بين القائدين ، وحصل الرئى الذى أحده مو من عدم توقيع روب ، لاخبر في الشواشيء تشاياه ويحال « تحيين ثغور الاسكندرية » ببيعة لذلك^(٤)

ومع أن مو عذر عماره بعد لأى وعناد شديد ، وإضاعة الوقت سدى ؛ فقد تأسك في سيرة ، فوصل إلى الرحمة في مساء ١٥ مارس واسراح بها يوما ، ثم تبع دمسور في ١٨ مارس ، وهناك لحق به (ربه) و (رامون) ، ثم تبع ركة عطس في اليوم التالي (١٩ مارس) وفي مساء اليوم نفسه وصل إلى معسكر لاوس بالاسكندرية^(٥) وهكذا فصع مو لادقة بين القاهرة والاسكندرية في خمسة أيام . وكان ساطو القائد أمام في هذه الظروف المصنة موضع غدا لادع وسك كبر ، من جانب مواطنيه الذين سحروا كذلك من كثرة ما كان يذيعه من مشورات وأخبار ، وصدده من أوامر وممة ، فظهرت في هذه الآونة رسوم هزلة تصور مو ساطيا صهوة حواده على ظهر سدجفة يسير سطر شديد صوب الاخد ، ويحيط به عدد من الخيال يحمل روجه واه سبلين ، وتتأهب بطرته مدافعه من أواى مضحه : وهذا بينه يحمل أحد الخيال « أو مر مو لوممة » إلى حينه ؛ ويحمل آخر « أخبار شمة بالرمية » ، والثالث « الحففة تأكلها » ، وكانت هذه الخيال الثلاثة « ووه عميلها »^(٦) . وقد تداول احد هذه الصور « بكل حرية » وكان ذلك ديبلا على ضعف النظام في جيش صبح أفراده لأنفسهم أن ينسكوا قائدهم الأعلى^(٧)

(١) Reynier 200 — 1

(٢) الجيرى ٣ : ١٥٨

(٣) الجيرى ٣ : ١٥٨

(٤) الجيرى ٣ : ١٥٨ — ١٥٩

(٥) Martin II 183 — 4 ' Reybaud VIII 154

(٦) Reybaud VIII. 152 — 3

(٧) Galli 170 — 1

معركة كانوب : (٢١ مارس سنة ١٨٠١)

وحدد مو الإبحار عند وصوله إلى الإسكندرية في مساء ١٩ مارس متجهين في
معسكر قصر - مصطفى في حطين عند ترعة الإسكندرية ، وأمام مراكرم في
معسكر قصر ؛ ونحرس مدفعهم مساعد غير للعدية بينا ينشر عدد من روارق المدفعة
في هذه البحيرة . ومع أن مواقع الإبحار كانت مدونته (١) ، فإن السير رافع
تركمي ، بعد نجاح عمله العسكرية في معركة ١٣ مارس ، كان يشعر بخروج موقعه ،
وحتى نعمة المحكوم على موقع الفرنسيين الذين كانوا يحلون مرتفعات نكو بوليس ،
ويتمددون في بحر هذه المواقع على قوة مدفعيتهم ، وفصلا عن ذلك كان أمام السير
رافع — حتى إذا استطاع إحلال العدو عن هذه المرتفعات الميعة — واجب إحصاع
الإسكندرية دناها ، ومحصريها ، ووقع القائد الإنجليزي أن يطول الحصار نسب
ما كان مستطرا من دفاع الفرنسيين الشديد عنها ، فبقى السير رافع حيثما على كامل
الأهبة ، لا مجرد حامية بسطة سهل اسفل عنها (٢) . ذهب إلى هذا أن الإنجليز كان
يعتصم الفرنسيون ومخل عوق مشاهير دون ضعف ميستهم القاهر (٣) ؛ ولكن لما
كان عرض من لعمليات العسكرية ارجح على الإسكندرية واحتلالها ، وليس البقاء
دون حراك في ذلك الوادي يعنى أو «الورخ» الذي عصل بين أبي قير والإسكندرية
فقد بات واجب على تركمي أن يمرر استشاف العمليات العسكرية واستحرك عاجلا
أو آجلا . من أن السير رافع كان في عزمه إصدار الأوامر بدء الهجوم في خلال يومين
على الأكثر (٤) ، لأنه ما كان يعتقد أن الفرنسيين سوف يتركون مراكرم لسبعة على
المرتفعات ، ويحاولون مهاجمته (٥) ، ولكن هؤلاء سرعان ما أخرجوا القائد الإنجليزي
من وظيفته عندما قررهم عن بدء الهجوم من حاسم .

وما إن وصل مو إلى معسكر لاوس حتى راح يتساءل عن الإجراءات التي اتخذت
لإحصاء يوم غركاب الإبحار وروطم في النشاط ، وكان مو عظيم الثقة بأن عاشوم
سوف يحصر سحبات كبيرة إلى مصر فأكده (لوروي) Le Roy أن السحابة

(١) Walsh 97

(٢) Charles-Roux II. 168

(٣) Bertrand II. 444

(٤) Wilson 39 — 40

(٥) Walsh 97; ibid 40

أوريس Osiris قد أرسلت عمل هذه الأساء إلى عاسوم ، وأن الاسعدادات لاستفاد
الجدات عند وصولها قد تمت ، وعندئذ طفق مو يعخص مع قواده الموقف ، ولاحظ
هؤلاء أن الإغلبة إذا جعلوا ميمية جيشهم مسندة إلى البحر ومسدرة مكته على بحرة
العدو ، قد أنجحوا العدو فرصة الانتصار عليهم ، إذا أقدم على تركيز كل جهوده في
مهاجمة القلب بصورة تفصل بينه وبين جناحي الجيش ، حتى إذا حدث ذلك سهل
الإحهار على كل جناح من هذين الجناحين على العدو ، وإلقاء حده إلى البحر أو البحر (١) ،
واعتقد مو وقواده أن النصر قريب أن يكون من نصيبهم إذا هم اتبعوا هذه الخطة ،
وعلى ذلك فقد دفعوا جميعاً عليها ، وآمنوا بالنصر واعدوا قراراً بطحوم مهاجمي
جيش أركرمي .

وكان من الأسباب التي دعت إلى تقرير المحكوم السريع ، خوف اقود من رحمة
العدو في الحدود الشرقية ، ووصول حملة الهند قبل أن يكونوا قد فرغوا من هزيمة
العدو في اشواطى الشمالية (٢) ، ولو أنهم كن هناك ماعدعو في واقع الأمر إلى الخوف
من رحمة الغنابيل الذي وقع بعد هذه الحوادث بغير طويته من الرمن . كما أن حملة
الهند وصلت بعد انقضاء المعارك الهامة . ولصره الأولى في تاريخ قائد الحملة عام ، عرر
هو من صاعقه وكربائه وقبل يستشير أولئك القواد الذين كانوا أكثر منه حكمة ودراية
ومعرفة بمون القتال . وما كان لا يعرؤ على استشارة (ربييه) بعد كل ذلك الذي
حدث بينهما . فقد طلب من لاوس أن يحد خطة المعركة المقبلة ، على أساس أن لاوس
قد تبنى رماً هو لا بالوجه البحري ، فأصبح أكثر معرفة من غيره بمخاض الإقليم
الذي يدور فيه القتال . وكان مو رجو من ذلك ولأنك أن يبحث لاوس بمحصل هذه
الخطة مع الجيران (ربييه) ، وهو القائد الذي شهد الجميع كفاءته . وبالعمل تحت
لاوس مع (ربييه) خطة المعركة ، واشترك معهما في بحث الجوال لأخراج رئيس
هيئة أركان الحرب ، وأسفر البحث عن وضع خطة لم يثبت أن صدر تفاصيلها .
يومى في ٢٠ مارس سنة ١٨٠١ ورج على سائر القواد في الساعة العاشرة من مساء
اليوم نفسه (٣) .

وباع الإغلبة ما فرزه المرسيون ودهش أركرمي في أول الأمر ، ورفض

Charles - Rous II 170 (١)

Reynier 210 (٢)

Reybaud VIII 155-6; Wilson. App. 9. 483-5; Anderson (٣)

أن يصدق الأساء التي وصلتته ، ولكنه ما تأكدت له محتها حتى أحد بعد الأمر عدته ، وتوقع الاخذ أن بدأ انعمسون هجومهم للسطر في أثناء الليل ، ووقعت حظوظهم الأمامية وقواتهم الاحتياطية على قدم الاستعداد للعمل عند أول بادرة . وفي آخر يوم ٢١ مارس بدأت معركة كانبوب الفاصلة (١) .

كان الاخذ بعد بداية للمعركة يعملون في حطهم الأول صورة حطهم يركزون أكثر قوتهم أولا في جناح الجيش الأيمن بقيادة الجنرال مور Moore على مرتفعات معسكر قبصر ، «رزة» (متراس) حصين أمام هذا المعسكر ، وتسا . في القلب بقيادة الجنرال كوت Cuote ؛ كما اتخذ السير رالف أركرمي موقعه في القلب كذلك أما جناح الجيش الأيسر فقد استند إلى رجة الاسكندرية التي كانت تفصل بينه وبين مسجس مريوط ، وكان هذا الجناح ضعيفا ؛ تولى قيادته الجنرال كرادوك Craddock ووقف حمله كافان Cavan ، ووضع الانجليز قوساتهم القليلين إلى جانب قوات من المشاة في حشد القتال ، الذي خلف حطهم الأمامي ؛ فكان الفرنسيان بقيادة فينش Finch وانشاء قيادة Doyle وراء القلب وعلى طرفه الأيمن منبذره . ثم انتشر المشاة الأمام في قوات أخرى حدة خلف هدم الخططين بين شاطئ البحر ومسجس مريوط ، وتولى الجنرال ستوررت قيادة وانحد معركة في الميعة

وأما الفرنسيون فقد جعلوا مسجسهم بقيادة الجنرال ريسيه يرتكز على ترة الاسكندرية من ناحية ، ومع إلى يمانية الجنرال فريين ، ثم جعلوا القلب بقيادة الجنرال رامبون وبني عليه الجنرال دستان D'Estaing بين قوى رامبون ، وفريين ، وجعلوا بيسرة قيادة الجنرال لاوس بمدة إلى شاطئ البحر . وورعوا مدافعهم بين القلب والجناحين وفي طرف جيش رديه المطل على ترة ومسجس مريوط ، ووضع الفرنسيون جزءا من قوساتهم بقيادة الجنرال روي في طرف مبعدة جيشهم خلف ترة ، الاسكندرية في مسجس مريوط . وأما بقية قوساتهم فقد احدثت مواقعها في مؤخرة القلب وعهدوا بمبادتها إلى الجنرال روار Roize ، ومن خلفها اندفعية . وفصلا عن ذلك فقد أعدوا قوة من المحانة بقيادة الكومويل كافالير Cavalier

ونصت المدفآت التي ودرعت على القواد في مساء يوم ٢٠ مارس (٢) على أن تبدأ المعركة في مساء ساعة الخامسة صباحا ، بأن هجوم قوات المحانة (قيادة

(١) Wilson 39 — 42, 304 6; Anderson 252 Et Sq

(٢) Rigault 300 — 2; Wilson 283 — 5; Anderson 264 — 8

كفاليه ونحت أوامر ربييه) هجوم كادب على ميسرة الإغليز ، حتى إذا شغل هؤلاء بدرجة كافية ، يبدأ الهجوم الكثير على الفور تقوم به ميسرة الفرنسيين بقيادة راسون وديستون ؛ على أن يكون هدفهم انتشار عظم (المتراس) القائم أمام معسكر قيصر . وقد طلب إلى ربييه قائد لائحة أن يتحرك بعوانه في أثناء هذا الهجوم ويبدأ رويدا حتى إذا رأى القلب يشتبك نهائيا في المعركة مع رأس ذلك هجوم الميسرة ، يبدأ (ربييه) هجومه الحدي صورة يمكن من الإحجاز على خط العدو الأول ، وإذا تم ذلك أعاد الجيش تنظيم صفوفه ، وأسأف الهجوم على خط العدو الثاني ؛ فتحمل الميسرة على العدو ، وغدو القلب حدود الميسرة مسترشدا بخطواتها ، بينما تظل مهمة الميسرة (قيادة ربييه) شغل ميسرة العدو وسعها من الاشتراك في صد الهجوم الفرنسي ؛ ولا غد قلب العدو ويمنه إزاء هجوم الفرنسيين الشديد مباحا من لارتداد صوت ميسرة ، وبمركبة تطويق سرية يستطيع هؤلاء حينئذ أن يلقوا بالجيش تنهرا في بحيرة العمدة

تلك كانت الخطوط الرئيسية التي رسمها الفرنسيون للمعركة ، وواضح أن واضعها لم يحدوا حاجة إلى استخدام قوات روار وبروب في أثناء القتال بصورة خاصة ، إذ جعلوا مهمة روار وقرسانه مجرد إزعاج العدو بإطلاق أسلحته في أثناء الهجوم الأول ، ثم لم يشركوه حسب خططهم في الهجوم الثاني ، أما روار فقد اعتمد مهمته في أثناء المرحلة الأولى من المعركة في حماية مؤخره القلب مع مدفعية ، ثم مطاردة قلوب العدو المنهزم في المرحلة الثانية ، واستخدام المدفعية في أثناء المعركة جميعها ، فضلا عن مراقبة مدفعية العدو ، وزيادته على ذلك فإن نجاح هذه الخطة بخلافها كان يتوقف على نجاح حدة الهجوم المكادب حتى يمكن استدراج شطر من قوات الإغليز من القلب واليمين لتعريض ميسرتهم لتحقيق غرض ذلك فائدة الهجوم الكبير ، وكانت ميسرة الإحجاز أصعب المهام الظاهرة في خط قتالهم . ومع ذلك فقد منعت تعليمات مهمة الجيش الفرنسي (قيادة ربييه) من القيام بهجوم حاسم على هذه الميسرة ، بل قيدت حركته وجعلت بعده أو اشتراكه في المعركة مرهونا بتقديم القلب ونجاح هجومه مع ميسرة على حده العدو الأعلى وقلته

ولعل أهم ما يمكن نوحته من ضروريات القتال أن الفرنسيين عندما وضعوا خطة المعركة حصروا كل اهتمامهم في تنظيم الهجوم على ميسرة العدو ؛ وأغفلوا شأن ميسرته مع أن مراكر الإغليز في معسكر قيصر وحوله كانت قوية ، وإن كان يبدو للعين المجردة

أن هالة بعض الثمرات في خط الإبحار الأمامي عكس العادتها . حسب التواء هذا الخط قللا صوب الشمال الغربي عند معسكر فيصر ، ووجود فرجة بسيطة بين منصفه وقلبه ، وفات الفرنسيون أن فرسان العدو وبعض مشاهير قادة دول Dally وغيره كاتب تحمي ظهور بحرية ، باهيت هواب لجرال سيوارت في الخط الخلفي . وكان الخط الذي وقع فيه (ريبس) و (لانوس) و (لاجراي) عند وضع تفاصيل هذه الخطط ظاهرا للفرجة أن « لا يكون فيها بعد أحد على قواد جيش التمرق منهم أعضاؤا في تدريج الاستعداد من ضعف مسيرة الإبحار ، وكان من رأيه () أن سير العدو خططهم في ليل ٢٠ - ٢١ مارس بصورة تمكنهم من تركه المحجوم من مسيرة الإبحار الصعبة ، وذلك أن تستند لمعية المدرسة (قادة ريبس) على بحيرة باميه في اتجاه الميسرة وانصب مواضع تمكنهم من الدفاع عن باب رشيد (مدخل الإسكندرية) من جهة ، ثم أمام بحركة تطوى تساعد على إزعاج قلب العدو وأكثر قواها على الارتداد ثم لا عراف مع الميسرة نحو البحيرة من جهة أخرى ، ففشرت أحداثه لا تكون بالمحجوم في هدف العدو إلى مياه في بحيرة باميه (التي قرب)

ومع ذلك فقد أجمع الثقات على أنه كان في استطاعة الفرنسيين على الرغم من عيوب خططهم أن يحققوا الميزة بعدو ، فعلى ما عه مواضعهم من ناحية ، وحاجه العدو إلى المراساة وضعف ميسرته من ناحية أخرى ، لو أنهم (أي الفرنسيين) فلقوا في حديقه (المحجوم السكاد) أولا . ثم أتى (ريبس) بصفه في أمون لمركة عند ما حوى وطيس القلب بعد ذلك ؛ وكان تقدم العام الذي شرف على سير قتال رحلا غير موثر إلى أنه كان في الاستعداد أن يجلب الفرنسيون بعض ما رل منهم من حسان فادحة بواهم تاهروا في الوقت المناسب ، بل كان في وسعهم تجرد إعادته بطيم صفوفهم أن يسأوا المحجوم ، وأن يتحدوا من اسدائر ما كمل بعد ذلك مصير رحب الخيوش الإبحارية إلى داخل البلاد ؛ ولم يحدث شيء من ذلك كله لبحر مو وفشل القيادة العامة . وقد ظهر هذا البحر وهذا الفشل بأوسع مديهم في أثناء معركة كاوت الحاسمة مديا .

فقد بدأ تنفيذ الخطة الموصوعة لإداره ربح هذه المركة ، بإطلاق ابرصاص على ميسرة الجيش الإنجليزي تمهيدا للقمام بحركة المحجوم السكاد ، وكان انصراف صعيها حتى إن الانحياز اعتقدوا في أول الأمر أن العرض من هذه العمليات لم يمكن سوى

حديثهم وإبراع حدودهم وأعيانهم ومعرفة مدى انتباههم ويقظتهم ، ومناح استعدادهم لمخوض غمار المعركة ^(١) . غير أن الصرب سرعان ما أخذ يشند ويقوى على حياحم الأيسر الضعيف ؛ وقام الكولوبيل كفالبييه على رأس هجائته بهجوم عيب على جيش كرادوك وافزع بطارية العدو الأولى مكنسها كل شيء أمامه حتى صار يهدد باحتراق الرعة (نرعة الاسكدرية ؛ بين محققين مربوط وعبرة للعدية) ، والاستدارة خلف جيش كرادوك ، فيكشف هذا العمل كل الجناح الأيسر ؛ وأدرك الانحاز خطوره الموقف ، واضطر الجراح سنيوارت عند اشتداد ضرب النار إلى التحرك من موقعه خلف ميمة الجيش صوب اليسر ؛ واضطر الجراح مور ، وكان صاحب الاشراف على العمليات العسكرية في هذا اليوم إلى العدو بحصاه في نفس الاتجاه لاستطلاع الخمر . ولا شك في أنه لو استمرت (حدة) الفرنسيين وقتاً أطول ، وكان لدى كفالبييه قوات كافية ، وصدرت له الأوامر من ناحية ميمة الجيش الفرنسي — وكان كفالبييه عاصم في حركاته لأوامر (ربييه) حسب العمليات التي تصحبها خطة المعركة — بالاستمرار في هذا الهجوم ، واشترك ربييه معه في الهجوم ، أو عرر قواته برسائل التحدث إليه عندما وجد (الهجوم الكاذب) على وشك أن يتحول إلى هجوم صحيح لهائلة الفرنسيين انظاره نسب صعب مبصرة الانحاز — يقول إنه لو حدث شيء من ذلك لاحتفت بنجحة القتل في ذلك اليوم ، غير أن مو الذي قنع في مكانه أو ظل طوال المعركة يحول على حصانه خلف الخطوط ، لم يدرك أهمية ما حدث من حوادث ، واكتفى (ربييه) بالتقدم قليلاً ، باسقاط حصن قواته عمدة الرعة وفق ما كان لديه من تعليمات ؛ ولم تنشأ القيادة الفرنسية أن تتحول قيدا عملة عن خطتها الأساسية من حيث اعتبار هجوم كفالبييه في صميمه هوما كادما . وتركز الاهتمام في الهجوم على ميمة الجيش الانجليزى وقله .

ومع أنه كان يجب ان يثبت حتى يبدأ الانحاز فعلا في نقل بعض قواتهم لتعزز حياحم الأيسر فيحقق العرص من الهجوم الكاذب ؛ وقد شهدنا كيف أن (سنيوارت) و (مور) كما في طريقهما إلى اليسر ، فقد أسرع الجراح (لاوس) بالانقصاص على ميمة العدو ولما بقى وقت طويل على بدء « الهجوم الكاذب » ^(٢) وأفسد تسرعه الأحمق خطة المعركة ^(٣) . فإنه ما إن سمع مور Moore إطلاق

(١) Walsh 97 — 8

(٢) Reynier 228; Wilson 40

(٣) Walsh 107 — 8; Wilson 40

الرصاص وشهد صرب المدفعية على الليعة حتى عاد . ولوى عن حصانه ما كسا على عقبه وهو يقول « إنما وقع في هذا المكان المحجوم الصحيح » (١) . وفعل مثله كذلك الجنرال ستوارت ؟ واستطاع الأعداء أن يصعدوا أمام هجوم لاوس الصيب ؟ وكان عرض لاوس الاستيلاء على (التراس) الحصين الواقع أمام معسكر قيصر ، ثم إخلاء الأعداء عن موقعهم في هذا المعسكر ، وتعظيم جدحهم الأيمن ، شحى وطيس القتال وأحكم الأعداء تدابير دفاعهم عن المسالك الضيقة الموصلة لهذه المراكز ، وعندما عصف إطلاق النار على القوات المهاجمة في الطبيعة ، ترددت سائر قوات لاوس في متابعة المحجوم ؟ ووحد لاوس أن قسما من هذه القوات ما يزال في المؤخرة بقيادة الجنرال فالنتان Valentin . فعدا بحصانه إلى الخلف كي يسحبه على انقادم بكل سرعة وتأييد رأس الجيش ، ولكنه لم يلبث أن أصيب بطلقة من مدفع في عنقه ، وحمل من ميدان المعركة ، وبدأ احتلال الطام بشيع في حيثته (٢) . وصاح لاوس في وجه مو وهو يحضر في مساء اليوم نفسه « لقد هلكت » وهذا هو مصير المستعمرة كذلك (٣) .

وفي وقت حدوث هذا المحجوم على حاح الإغدر الأيمن بدأ الجنرالان رامسون وداستان هجومهما حسب الخطة الموضوعة على قلب الجيش الإغدرى ، واعرف هجوم رامبون نحو اليمين حتى يشمل جزءا من مبصرة الإغدر ، أما داستان فقد حاول أن يهد من الفضاء الواقع بين (التراس) وبين المعسكر فتولى سيران شديدة اضطرتته إلى الاسحاب ، ووقع حده الذي توغلوا فإلا في هذا الغصاء أسرى في أيدي الإغدر ، وحرج (داستان) في أثناء هذا المحجوم بين نحي (رامبون) من أبواب بصوبة وهكذا فشلت أهم أجزاء الخطة الفرنسية ، وكان من الواضح أن سبب هذا الفشل الأكبر هو عدم توحيد العمليات بحيث يقع المحجوم على ميسمة جيش الإغدر وقبته في وقت واحد ؟ بل حدث المحجوم في حركات « غير منسقة » وموت من لشدة صدمة بالقياس إلى العدو ، « ومنفصلة » بعضها عن بعض (٤) .

وكان في هذه الظروف الصعبة أضرار تكب مو . القائد أمام خطأ الأكر فقد خطر له ، وقد شاهد فشل هجوم (لاوس) (ورامسون) (وداستان) ، أن يبقى قوات

(١) Fortesque IV. 2. 834

(٢) Reybaud VII 214 — 5; Martin II 186

(٣) Reybaud VIII. 161

(٤) Ibid 163

فرسانه بقيادة الجيران روار في أنون العركة على يتحكم من احتراق صغوف الإغابر
ويظهر بإخراجهم من مواقعهم ، فاقرب صو في أثناء حركته على حصانه حذب الخطوط
من (روار) وطلب إليه المحجوم فرسانه على العدو ، ولما كان (روار) قد لاحظ
الارتباك الذي حدث في صغوف الميرة والقلب الفرسيين بعد فشل هجوم لانوس
ور. سون وداسان ، وكان يعتقد أن دخول فرسانه إلى الميدان بعد هذا الفشل لأفائدة
مه ، وليس هناك ما يسوغه ، ولا يحسم عنه سوى نصيحة قوائمه سدي ودون حدوى ،
فقد أدهشه أمر صوله بالمحجوم ، ولما لم يستطع إخماء حيرته وظل ينظر إلى القائد العام
مشدوها ، فقد كرر صو الأمر بالمحجوم بصورة حصلت حمرة الحجل تعلو حجة روار
الذي اكتفى بأن سأل صو عما إذا كان من واجبه حفا المحجوم ، فقال صو « أمامك
وفي خط مستقيم » ، وكان معنى هذا الأمر أن يقوم روار بالمحجوم على معسكر قبصر
- « أمامه وعلى خط مستقيم » - أسمع معاقل الإغابر ، وحيث يمر مشاة لانوس
عن افتتاحهم ، فملا عن إحلال النظام الذي بدأ شيع في صغوفهم عقب سقوط لانوس
فكان جواب (روار) « إلى الأمام أيها الإخوان إنهم يمشون بنا إلى الهد والموت »^(١)
وكان هجوما كتب لروار وفرسانه صفحة من الهد والهدار ، ولكنه لم يأت بأية نتيجة
بل كلف الفرسيين خسائر أخرى إلى جانب خسائرهم الأولى المادحة .

ومما يزيد في خطورة مسئولية صو عن هذا الفشل الذي ريع في كاتوب ، أنه لم يأمر
الشدة لتعريض هجوم روار^(٢) ، وكان له حيش (ربييه) في الميعة لم يشترك في شيء
من الانجذامات السابقة ، وعلى ذلك فقد حمل فريق من فرسانه بقيادة الجيران بوسار
Boussart حملة عبدة على مواقع الإغابر ، أوصلتهم إلى حياهم ، ولكنهم سرعان
ما أوقفوا عندما صارت حيولهم تتعثر في حبال هذه الخيام وتقع في الحفرات التي ملأت
السكران من حجة^(٣) ، ثم اشتداد إطلاق النار عليهم من حجة أخرى ، فهلك عدد عظيم
من حيولهم ، وصارت تحدثت بسرعة لتعريض صغوف الإغابر فاعدت مواقعها في
ذلك الغصاء الذي كان يفصل بين (بلتراس) و (لعسكر) ؟ ومع ذلك باع هجوم
صغوف الفرسان التالية بقيادة روار منه من أجل افتتاحهم هذا الوضع أقصى ما يبلغه
هجوم من الشدة والضعف ، حتى إن الإغابر لم يسعهم ، إزاء هذه الإغارة البائسة إلا أن

يحلوا مكاناً لمزور الفرسان الفرنسيين . وما إن بعد هؤلاء من الثغرة حتى استدار
الانحصر وأحدوا يطردهم وأبلا من الرصاص ، أهلك عدداً عظيماً منهم ، وعيث حاول
الفرسان عدده أن يعودوا أدراجهم ، حتى عرخوا من هذا المأرق ، إذ أطلق الانحصر
عليهم من كل جانب وأوقعوا بهم مفصلة عظيمة^(١) ، وكان روار نفسه من بين الذين
قتلوا ، كما أصيب أسير رالف ، وكرمي بحرج قابل وكاد مور يقع في الأسر . وكان
من الواضح أنه لامضى عن اشتراك ملشاه الفرنسيين في الدنا الدائر ، ليس فقط من
أجل تعزيز هذا الهجوم ، بل لتحسين روار وفرسانه من أرفعهم ومع ذلك فقد ظل
منو لا يبدى حراكاً ولا يصدر أوامره لشاة (ريبية) بالدخول في المعركة

أما (ريبية) الذي انتظر عث صدور هذه الأوامر ، فقد أخذ على عاتقه مشيئة
التقدم لتحلص فرسان روار ؛ ومع أن بعض المؤرخين الذين درسوا هذه المعركة
يشكون في أن (ريبية) قد تحرك أصلاً للاشتراك في هذا القتال الدائر^(٢) ، فقد تحدث
الإنحصر الذين شهدوا وقائعها عن محاولة الشاة الفرنسيين عدة روار وفرسانه ،
وتعرضهم بسبب ذلك إلى بران العدو التي كدنتهم خساره فادحة^(٣) . ويقول
مؤرخوهم إن قسماً من جيش (ريبية) قد تحرك فعلاً لتأييد هجوم روار ، وسكنهم لم
يستطيعوا الاقتراب من التراس ، أو تلك الثغرة التي سدها الانحصر بكل سرعة^(٤) .
ويؤكد (ريبية) أن جنده ما كادوا يصلون إلى التراس حتى تبين لهم أن الفرسان
قد صدوا . ويحلل (ريبية) عجز مشاته عن الاشتراك في هذه الصورة حاسمة ، بأنه
لم يكن لديه متسع من الوقت لإرسال قوات كبيرة من جناحه الأيمن لتأييد روار^(٥) ،
وسبب ذلك ولاشك أن أحداً لم يمر (ريبية) بالمحوم المنتظر ، ولم يدرك (ريبية)
ومشاته خطورة ما وقع إلا بعد مشاهدتهم المحوم يحدث فعلاً . وعلى كل حال فقد
كانت محاولة (ريبية) المتأخرة ضئيلة القبة والاية ، لدرجة أن أحداً من الانحصر
الذين اشتركوا في هذه المعركة أو شهدوا وقائعها لم يشعر بها . بل اعتقد رأى هؤلاء
جميعاً على أن ميمة الجيش الفرنسي بقيادة (ريبية) ، و (فريان) ظلت طوال الوقت

Fortesque IV. 2, 837 — 8 (١)

Charles - Roux II 176 (٧)

Walsh 103 ; Anderson 404 (٣)

Fortesque IV. 2, 837 (٤)

Reynier 221 (٥)

في عرلة تكاد تكون تامه ، ولا يبدو اشتراكها في الحركة الدائرية الاسهباف ليران العدو ومقاومة هذه النيران بتلها^(١) .

وإمل أكر أخطاء (ريبية) عند ما أرسل بعض مشاة لتحليص روار أنه فصل عدم المارة في حركته على الصمود أمام العدو ، فأسرع جیده بالارتداد ، وفصلا عن ذلك فإنه لم يخاون استئاف المحوم قوات أكبر ، في وقت أكد فيه الإغليز أنهم أهم ظلوا هد التعام رواز الصيف ساعة بأكلها دون أن يوجد لديهم طلق واحد ، وعمرت مدفعيتهم عن إطلاق قذائفها على العدو ، ولم يكن هناك معدى لو تقدم للشاة الفرنسيون عن أن يقامهم بطراؤهم الإغليز بالسلح الأبيض (والسوسكي) حسب^(٢) . ومع ذلك فقد كان لدى الإغليز من ناحية أخرى قوات احتياطية كثيرة لم تكن قد اشتركت في المعركة حتى هذا الوقت ، وفي وسعها مد المحوم المرسى الحديد إذا حدث^(٣) . ومهما يكن من أمر فقد مات واحداً مد هزيمة روار أن الفرنسيين قد خسروا المعركة ، وغدت مهمة منو التالية تدبر للموقف دون إطاء .

وكان من رأى (ريبية) ، وقد فشل هجوم روار ، إنهاء المعركة والارتداد إلى تلك المراكز الحصينة التي حرج منها الفرنسيون في بداية القتال ، واتخاذ إجراء حاسم لمحاولة هجوم جديد لانبعاث مواقع الإغليز الحصينة عند التراس ومسكر قيصر ، تقوم به ميمة الجيش (قيادة ريبية) التي ظلت محتفظة بنشاطها ، ولو أنه لم يكن من الحكمة المخاطرة بهذه القوات التي ظن في إمكانها حماية مؤخرة الجيش عند تفهقره . ويقول (ريبية) إنه عرض هذه الحلول على منو وطلب إليه إما الارتداد إلى مرتفعات بيكوبوليس وإما استئاف المحوم ؛ ولكنه لم يطمع به بطائل ؛ فظل حجاج الفرنسيين الأيمن (قيادة ريبية) في موضعه معرضاً ليران مدافع العدو ، دون أن يبدى حراكاً يتكبد خسائر فادحة في كل لحظة مدة ريد على ساعتين^(٤) . ولاشك في أنه كان في وسع منو — وقد بيت البية على عدم استئاف المحوم — أن يتجنب هذه الخسائر ، لو أنه أمر بالتفهقر قبل أن تأتي الدحائر إلى العدو ، حد أن طلب نظريات مداهم دون طلق واحد مدة ساعة بأكلها على نحو ما قدمنا

Anderson 404, Walsh 104; Wilson 41 — 2 (١)

Moore II 21 (٢)

Fortesque IV 2. 839 (٣)

Reybaud VII 171 — 2 (٤)

وبرى مصن المؤرخين أن الكبرياء الكاذب وحده هو الذى جعل مو يصر على إبقاء الجود فى خط القتال بعد أن بات واضحاً صاع كل فرصة لاحتفال القيام بهجوم ناجح^(١)؛ ويقول مؤرخو الإنجليز ، إن تعرض الجود ليران المدو على هذا الوجه كان بالقياس إلى سائر الأخطاء التى ارتكبتها القيادة الفرنسية فى ذلك اليوم أشدها إجراماً^(٢) . وأخيراً وبعد أن تأكد لدى مو عداد الدجيرة لدى حدوده أصدر حوالى منتصف الساعة الحادية عشرة صباحاً أمره إلى الجيش بالانتهقر إلى مرتعات يكوپوليس^(٣) . وبذلك تكون قد انتهت معركة كابوب الحاصوة ، تلك المعركة التى قضت على مصير جيش الشرق فى هذه البلاد ، والتى جاءت حاسمة فى الحقيقة مؤيدة بانتهاء (حملة عام ١٨٠١) الكسرة ، والتى كان عرضها إخلاء الفرنسيين عن مصر وطردهم منها .

وقد سقط فى هذه المعركة من الفرنسيين حوالى الألف وحرر حوالى المائة وألف ؛ وكان من بين الصرعى لاوس ، الذى رفض أن تترساقه لإنقاده من الموت حتى لايعيش بعد هذا اليوم الأعسر . ويذكر نقولا ابركى أنه عندما نقل لاوس جرحاً من المعركة « دخل عليه قبل وفاته أمير الجيوش عند قدمي وبنى عليه وقال له سلامتك أيها اسطل من الهلاك ، ولا تثبت بك أعداءك ، فدمسى الجراح لاوس الصعداء من نواد مجروح من سهام الأعداء وأحاطه قائلاً : قد ألقينا أيها الجبال ببحر الهلاك من فساد رأيك وكبريائك ، فلا يسوع لدى نظيرك أن يكون أمير الجيوش الفرنسية ومدمر حروبها القوية ، بل يجب أن يكون مدبراً فى مطمح المشيخة لأنك لو كنت تركت العساكر سائرة فى طريقها لما كانت أعداءنا الإسكندر قد تدمرت تلك ما البر وتمكن هذا التمكنين ، فكان ذلك من جبروتك وعنادك اليين^(٤) » . وكذلك هلك روار ووضوط Beaudot ؛ وكان من بين الحرحى داستان وبوسار وغيرهما من كبار الضباط . أما الإنجليز فقد بلغت خسائرهم حوالى الألف وخمسمائة وكان من بين القتلى قائد الحملة «مسة السير رالف أبركرمى ، ثم الجنرال كوت Coote ومن الحرحى أو كس Oakes ، ولوسون Lawson والسر سدن سميت وغيرهم^(٥) .

(١) Charles - Roux. II 178

(٢) Fortesque IV. 2. 837 — 8

(٣) Reybaud. VIII, 173

(٤) نقولا التركى ٧-٢

(٥) Reybaud VIII 173 — 4

وكان من الطبيعي أن يحاول الفرنسيون تحديد مسئولية أولئك الذين حللوا الحار والمهزلة على جيش الشرق في ذلك اليوم المشهود ، وعملت مناقشتهم في أسباب هذه المهزلة . واتسموا فريقين أحدهما ، وعلى رأسه مو ورامسون ولاجرانج ، يرد أسبابها إلى سوء بوايا ريبية وداماس وقواد ميعة الجيش عموماً ، وسوء تصرف لايوس وحقيقته ، أما الفريق الثاني فكان يتألف من ريبية ودوجرو Dougerou وغيرهما ممن ألغوا المسئولية على مو وحده . فكان حلال Galland « إن كثيرين من الجنود يعرفون فشل للمركة إلى تفرق كلمة القواد السيء ، وبهموم ريبية وداماس بعدم مؤازرة لقائد العام (مو) لجنح عملياته العسكرية ، ويقولون إن ريبية فقد عدداً عظيماً من جنده دون أن يطلق رصاصة واحدة ، وكان الجنود في شدة الغضب ؟ ومن أقوالهم كذلك إن لايوس قد قتل ولكن دون أن يقاتل في المكان الذي خصص له (١) » .

ويبقى هؤلاء أن يظهروا كان السبب في المهزلة . ويقول ملييه Millet ، وكان ممن شهدوا للمركة ، إن قواد الميعة (أي ريبية وداماس وراملاص) الذين كرهوا مو لم يتصدوا لمؤازرة القلب عند ما طلب رامسون وفريان المساعدة (٢) وقال نقولا انركي ، إنه عندما أصيب لايوس بحرجة الفاتل « حضر إلى معونته أمير الجيوش وحمل على الأحصام وأمر إلى رؤس العساكر الحمران راييه والجنرال داماس وهما للسكريهين منه أن يتقدما لمساعدة لايوس فتدعيا وأيا عن التقدم وقرعت طبول السكريه والرجوع إلى ورا شكاية في أمير الجيوش (٣) »

أما مو نفسه فقد أصدر مشوراً إلى جنوده بعد مصى أسوع من المركة يتحدث فيه عن « أولئك الأفراد الذين سبب سوء بواياهم يعمدون إلى إشاعة الفوضى في صفوف الجيش (٤) » .

ثم أعد بعد ذلك في ٢٤ إبريل تقريراً طويلاً إلى الفصل الأول أحد يسرد فيه ما وقع من حوادث ، منذ ظهور المراكب الإنجليزية أمام الإسكندرية في بداية مارس . فكان إن مرأ من الذين ساءت بواياهم وخبثت طويثهم شرعوا عشية المركة

(١) Galland 49 — 50

(٢) Millet 205 — 6

(٣) نقولا انركي ٢ ٧ ٨

(٤) Galland 51

(معركة كايوب) يهتجون حواطر الجود ويحسونهم على الحصان ويكتسبون إلى القاهرة أن المرسيين قد فقدوا كل شيء ، وأنه لا عجد عن إحلال البلاد ، والتسليم الكامل في سبيل عهد الصلح مع العدو وقوله معها كاتب شرائطه (١) . وكان أصحاب الوايا اليثة الذين صدم مو بطيعة الحال هم أعداؤه القدامى ، (ربييه) وجماعته « أولئك الذين رعوا من زمن طويل في إحلال البلاد وأقاموا الدليل في أثناء هذا اليوم الذي لا يمكن نسيانه على حث طويتهم العظم » .

أما (ربييه) فقد شرع يكتب إلى أصدقائه في فرنسا وإلى أعوانه في القاهرة مساء يوم المعركة ، يبرر الفشل إلى تردد مو ، ويقدم الحجة بعد الحجة على بحر وسوء تدبيره في أثناء المعركة . وكان أكر دفاع له في حوض أفوا أولئك الذين اتهموه بالجود وعدم الحركة في دق ظروف المعركة ، وأشد أوقاتنا حرجا أن اللحظة التي صدر بها أمر مو واشترك هو مع غيره في وضع عاصيلها ، كانت تهرمه بالوقوف قليلا ، والحركة يبطئ ، حتى إذا سمعهم القلب لتعريض جناح الجيش الأيسر ، وحسب وطيس المعركة ، تقدم هو بجمته واشترك مع جيش لانوس ورامسون في هزيمة الأتاجير أما وقد أخفق الهجوم فقد اتصت الحاجة لحيشة ، وبات واحده حماية المؤخرة حتى تستطيع قوات لانوس ورامسون التجهز في نظام لا يعرضه لتكد حشائره أخرى ؛ وفصلا عن ذلك فقد أسمرت هذه العمليات الأولى عن هزيمة حوالى ثلاثة أحماس الجيش الفرنسي ، ومع أن هذه خساره كبيرة ، فلما لم تكن ذات آثار حاسمة ؛ وكان الأحدث عدده أن يصدر الأمر بالتجهز ، فلا تعدو للمعركة حينئذ عمليه استطلاع حسب ، ونفى للجيش بعد إعادة تنظيم صفوفه أن يستأنف الهجوم مرة أخرى . أصعب إلى ذلك أنه لم يكن لديه قوات كافية لمحاربة بالإعرة على الأعداء ، في وقت كان يرى فيه جيود لانوس ورامسون معترين في ميدان المعركة حسب ما حل بهم من هزيمة (٢) .

وسواء كان ربييه مصيباً أم كان مو على حق في دعواه ، فالتأتأت أن المرسيين في هذه المعركة الحاسمة كان يتقصر وجود القائد العام الجيش ، الذي كان من واجبه من أول الأمر حشد كل قواته في المعركة ، فلا يترك حدوده موزعين على الحاميات في طول البلاد وعرضها وقت الحاجة الملحة لخدمتهم ؛ ولا يدع الأيام تنصى مد ٢ مارس على الأقل دون الإسراع إلى مكان للمعركة المقبلة ؛ حتى إذا ما دارس رحى القتال سهر على

تعبيد الخططة الموضوعه ، فلا يترك لقواده حرية التصرف دون أن يعمل على تمسيق حركاتهم ، الأمر الذي حدا ساليون في بعد إلى وصف معركة كابوت بأنها كانت مجموعة من العمليات التي لا يربط بينهم رابط ، وتدل على أن الجيش كان حلوا من كل قيادة^(١) وقال الصباط الذين شهدوا هذه المعركة أن أحدا لم يكن يرحو أن يسير المحجوم الذي حدث عن أي انتصار ، أو على الأقل لم يعتقد إنسان أي إحراج صحيح يصح انظر^(٢) وعاب آخرون عمر القيادة الطاهر وقالوا إن مو الذي ظل لا يحرف على انعقاد فرار حاسم طون المعركة ، لم يلبث أن أقام الدليل على نقص مواهبه عندما أصدر ذلك الأمر الوحيد الذي جاء في غير أهله ودون حاجة إليه ، يطلب إلى روار وفرسانه أن يلقوا بأنفسهم إلى الهسكة^(٣) وقد عُدَّت الاعلار كذلك عن انتفاء أي غرض واضح من ذلك المحجوم الذي قر رأى مو على السماء به دون تريت أو « عبة معسة » على حين كان من الواجب عليه ، لاسطر حتى نبدأ عمليات الاعلار أنفسهم بالمحجوم على مراكر الفرنسيين الحصينة^(٤) .

أما عن وقوف مو خلف الخطوط وعدم التروك بيمه إلى ميدان المعركة ، فيمكن أن يذكر للمقارنة بين الميادين الاعلارية والفرنسية في أثناء هذا القتال ما فعله أركرمي الذي كان في رأى مو الاستهانة والاستخفاف بقدرته . فقد أصبر السير رالف ، على الرغم من حرجه الخطير الذي أصيب به عند هجوم روار وفرسانه على القاء في ميدان المعركة خشية أن يحتل صفوف حده في هذه المرحلة الحاسمة من مراحل المعركة ؛ فتحمل آلام جراحه محمد عظيم ، حتى إذا شاهد الصر يقبل على حدوده وقد تقهر العدو أذن بفحص جرحه بعد أن حاربت قواه فأعفى عليه ثم نقل بعد ذلك إلى بارحة اللورد كيت ، حيث فاضت روحه بعد أيام قليلة — (٢٨ مارس)^(٥)

ولعل أكر دليل على عمر مو ذلك الانقسام الذي استعمل أمره بين فواد الحملة ، ووجود تلك « النواة السيئة » التي عرا مو فشله إلى أمهام . وفصلا عن ذلك فقد داع خبر هذا الخلاف حتى عرفه أهل اللاد أما هؤلاء فقد شاطروا وأصحاب هذه النواة

(١) 4 — 441 — 91 — Bertrand II 388 : Reybaud VIII 164

(٢) Richardot 418

(٣) Malus 205 — 6

(٤) Wilson 39

(٥) Anderson 261

السبب» الرأى فى أن مو كان لا يصلح للعبادة ، وآية ذلك ما دونه شيخ الجبرق عن تفاصيل هذه الحركة ، يد كـب فى ١٩ دى العقد ١٢١٥ (٣ أبريل ١٨٠١) : « سمع وقد عن بعض الرئيس أنه وقع الحرب بين الفرساوة والاسكيرية ، وكانت المربة على الفرساوة وقتل بينهم معتلة كثيرة وانحاروا إلى داخل الاسكيرية ، ووقع بينهم الاختلاف وانهم مو سارى عسكر ربه وداماس وراه مهما ماراه وكان سبب لمريمته فيما يظن وبعقد فقص عليها وعرفها من إمارتهما . وذلك أن ربه وداماس لما دها على لصورة للتقدمة ونظر ربه وأرسل من كشف على متاريس الاسكير فوجدها فى عاية الوسخ والإنعان ، فاجتمعوا للمشورة على عاذتهم وديروا بينهم أمر المحاربة ، فرأى سارى عسكر مو رأيه فلم يحب ربه ذلك الرأى . وإن فعلا ذلك وقعت التلة عبا وإعاً الرأى عدى كدا وكدا ، ووافقه على ذلك داماس وكثير من عقلائهم فلم يرص بذلك مو وقال أنا سارى عسكر وقد رأيت رأى ، فلم يسهم مخالفته فعموا ما أمر به ، فوقع عليهم المربة وقتل منهم فى تلك الليلة خمسة عشر ألفاً وسحق ربه وداماس ناحية ولم يدخلوا فى الحرب بمسكرها فاعاد مو وسبها للحياة والمغامرة عنه ونههم لرأيه . » (١) ومع أن بعض هذه التفاصيل لم يكن صحيحاً ، فانوضح من رواية الشيخ الجبرق أن الرأى الدائع فى سبب هذه المربة كان أولاً ، اعتداد مو رأيه الخاطيء وإصراره على مخالفة ما اعتقد عليه رأى « العقلاء » من قواده ، وفى ذكر « العقلاء » نفسه حتى وإن كان ملهوساً لرأى منو نفسه ؛ وثانياً ، عدم اشتراك ربيبه وداماس فى الحركة بسبب ما كان بينهما وبين منو من خلافات مستعكة .

زحف الانجليز على القاهرة :

وتظهر أثر هذه الخلافات العميقة ، عندما شرع القواد الفرنسيون يتدرون للوقف بعد انسحاب الجيش المهزم إلى مرتفعات نيكوبوليس ؛ فقد رأى فريق منهم أن يسادر الجيش بقيادة صو الاسكيرية بعد أن يتركها حامية للدفاع عنها ، ويتجدد مواقفه فى ارحمية ، على أن تجتمع االرحمانية كذلك جميع لقوات الأخرى فلا يبقى إلا بعض العرق فى قلعة القاهرة وقلعة حوليان (برشيد) وعربة ابرج . وكان العرص من الالتئال إلى االرحمية اختيار مكان سهل سه مراقة عمليات الانجليز والعثمانيين العسكرية

من الشمال والشرق ، ثم حشد القوات الفرنسية سريعاً لمقاومة حيوش الأعداء متفرقة في أي مكان يأتي الخطر منه وفي الوقت المناسب . فبدأت جيش الشرق الموجود في الرسمية المحكوم على الانحلال إذا ما رأى هؤلاء على البقاء في الشواطئ ، أو يذهب بلافاة جيش الصدر الأعظم إذا رجع يوسف صباغشا عن طريق الصحراء (١) وقد اعتقت كلفة مؤرخي حملة ١٨٠٦ العسكرية على أن هذه كانت أصل الخطط . من الناحية النظرية على الأول — التي وحب انتعها (٢) . وكان من كبار الداعين لهذا الرأي ، الجنرال ريبليه الذي كان يتوقع عدم هزيمة كانوب أن يقوم الانجليز والعثمانيون بحملة مزدوجة من البر والبحر ، تريد من خطورة مركز الفرنسيين في الاسكندرية وغيرها من المواقع

وبما هو حدير مالد كراي ريبليه طلب مرات عدة عدم معركة كانوب بمقابلة مو ليشرح له الموقف ويتحدث إليه في خطط الدفاع عن مصر الواجب اتخاذها ؛ وعندما عجز عن الحصول منه على إجابات مقنعة ، وحده ريبليه لزاماً عليه في آخر الأمر أن يبدون آراءه في كتاب بحث به إلى مو في ١٣ أبريل سنة ١٨٠٦ عرض فيه الموقف ببحار وأشار إلى حديثه مع قائد الحملة العام في صباح اليوم نفسه ، ثم شرع يذكر تفصيلات عسكرية من شأن بعضها تقوية جناحي الجيش ، واحتلال المواقع التي تصلح قواعد يمكن استخدامها لدفع هجوم العدو عن الاسكندرية ؛ ورأى (ريبليه) أن الإشارة إلى حربه الشخصية وبخاره الخاصة مدة عشر سنوات فصاها في قيادة اخيوش والخدمة العسكرية الشديدة ، فصلا عن اهتمامه ورملائه بالمحافظة على شرف الجيش الفرنسي ، من جهة ، ورغبتهم جميعاً في المحافظة على هذه البلاد من جهة أخرى ، رأى ريبليه في ذكر ذلك كاه شيئاً قد يعيد في تعريض مقترحاته .

أما هذه المقترحات فأفهمها أن يجمع مو القوات التي كانت لا يزال — بعد معركة كانوب — متحيرة في أنحاء البلاد ، والتي أشار ريبليه بضرورة جمعها قبل المعركة كذلك ، بل صد أن علم بوصول الأسطول الإنجليزي إلى أي قبر ، والناية من ذلك إمكان القيام بعمليات عسكرية ناجحة . واتخذ ريبليه من بطه حركات العدو سواء الجيش الإنجليزي الذي قل نشاطه الطاهر بعد الاستيلاء على رشيد على نحو ما يأتى ذكره ، أم الجيش العاني الذي بدأ رجعه البطيء من مدة قريبة ، دريعة للاسراع

(١) Reynier 222 — 1 . Reybaud VIII 160

(٢) Thiers III 85

جمع جيش الشرق في مكان سهل منه يعطل عمليات العدو ، وفصلاً عن ذلك فإن جمع الجيش في موقع مختار يتيح للفرنسيين فرصة كسب الوقت في أثناء تعطيل عمليات العدو حتى تصلهم التعديلات من فرنسا أو بأنهم ما قد تصدره إليهم حكومة القنصل الأول من أوامر رؤى إرسالها إليهم ؛ وعلى كل حال فإنه سوف يصبح في قدرة مو انتظار ما قد تهرعه معاوضات الصلح في لندن ، إذا كان ما بلغ (ريبية) عن سقوط وزارة (بت) صحيحاً^(١) .

ولكن مو لم يشأ الإحالة على هذه الرسالة ، ولم يحد في الآراء التي تقدم بها ريبية ورملاؤه إلا وسيلة للخلاص وانعصاء عليه ، فرغم لعملها^(٢) . وكان مو يرى مراكر الفرنسيين بالاسكندرية مبعده ، وبقى أن الصدر الأعظم في وسعه أن يتقدم ويصر الحدود ؛ وقال إن الإعمار على الرغم من انصرافهم الأخير سوف يرحلون على سبيلهم ؛ وإن جمع جيش الشرق في مكان واحد كالرحمية ليس العزم منه سوى إخلاء البلاد من الحاميات الفرنسية تمهيداً للخلاء عن مصر ، على نحو ما يريد المعارضون للاستعمار من جماعة (ريبية) وداماس وهكتور دور ومن بهم ، وعلى ذلك فإن هيئة أركان الحرب الفرنسية هي نفسها مصدر الخطر على الجيش كله ، وأن من واجبه لقاء بالاسكندرية حتى يتمكن من إحكام الرقابة على هؤلاء الأعداء الخفيين الذين استهدوا من زمن طويل لنصه^(٣) . وفصلاً عن ذلك اعتقد مو أن أنصار الجلاء الذين يشيرون عليه بالخروج من الاسكندرية إلى ارحمانية أو إلى أي مكان آخر لم يكن عزمهم سوى المرافقة بجيش الشرق كله لتعرضه لهجوم اعدو عليه في أرض مسطحة سهلة بعد حرمانه من مواقعه الحصينة في الاسكندرية . وكان من رؤى البار (سد ٢٧ مارس) أن هيئة الجيش الجديدة قد حشدت واستشافت الهجوم مرة أخرى سوف يحسم عنها ولا شك إصرار اعدو على إتمام شروطه القاسية والمحفظة على قائد الحملة العام .

وعلاوة على ذلك اعتقد مو أن ريبية وداماس إذا كتب لجيش الشرق انصر ، سوف يتحدون من هذا الانتصار ذريعة لإرغام متو وإرغام الإنجليز والعثمانيين كذلك على قبول « ذلك السلام لشرق » الذين طلبوا دعوى لتحقيقه بكل قواهم ربما طويلاً . لذلك كان من رأي مو « اتساع خطة الحرب الدفاعية » بالقضاء في الاسكندرية

(١) Reynier 288 — 91

(٢) Reybaud VIII 194 — 5

(٣) Ibid 181 — 2

من جهة ، والاطمئنان إلى استمرار طريق المواصلات مع فرنسا مفتوحاً ، وكسب الوقت حتى تأتيه تلك الأحداث التي وعده بها الفصل الأول من جهة أخرى^(١).

وكتب نابليون فيما بعد أن الفرنسيين حُسروا في معركة ٢٦ مارس حوالى الألفين بين قبيل وحرج ، ولا يمكن تعويض هذه الخسارة الفادحة إلا إذا أحصر غاتوم الأحداث التي كان يظن وصولها كل إنسان مارع النصر ، ولو أن الجميع وقد طال انتظارهم سرعان ما فقدوا الأمل في محي هذه الوحدة ما عدا مو الذي ظل وحده يعتقد أنها لا بد آتية ، وود بحم عن حشائر الفرنسيين ، لكثيره أن الفرنسيين لم يكونوا في أعداد تسمح لهم بالاسعداد عن الأسكندرية بعد أن يتركوا بها حامية تنكفي للدفاع عنها ، وكان يجمعهم رجف لصدر الأعظم عمر محمراء الشام على مصر ، كما استند بهم القلق على مصير القاهرة . وقال نابليون ، إن هذه صعوبات لم يكن يستطيع مواجهتها ولعلب عليها سوى قائد بحث ودر ولم يكن نابليون في يوم من الأيام يعتقد أن الجبرال مو صاحب سقره أو ذرانه في ميون الحرب والقتال^(٢).

ويروى عن ثبات المؤرخين نصحه مو على اللقاء بالأسكندرية ، ورفض نصيحة ريبليه أو فواده الآخرين الذين أشاروا على ضرورة حشد الجيش في الرحامية إلى أنه كان يعترف في قرارة نفسه بعدمه من إدارة العمليات العسكرية ووضع حد لظلمه أرك المناجحة ، ومعنى الانتقال إلى الرحامية وإعدادها مركزاً لإدارة الحرب القوية أن يصطاع أعناء القيادة ، وهذا ما كان يخشاه ويريد أن يحسمه بكل وسيله ، وخاصة عندما تمت في معركة يكونوا ليس أن "حد" لا يستطيع الاعتماد على طائيراته ثم انعام وحفظه ، ناهيك عما يسمه له مجرد إصدار الأوامر لقواده عند الاسعداد للحوص في سمار أية معارك من تم دهم لا قدرة له على إحماله^(٣) . وفصلاً من ذلك فإن هذه بالأسكندرية محس محاطر كثيره ، إذ يقتضى وجود القائد المم هذه المدينة الحصينة ووجود أكبر قوات الجيش معه ، وفي ذلك حماية لشخصه إلى جانب احتياجه وراء أسوار المدينة وتحصينتها الكثيرة^(٤).

وعلى ذلك رفض مو نصيحة فواده المحكيين ، وقرر الماء بالأسكندرية ، ونورج

(١) Ibid 204 : 2 — Rigault 311

(٢) Bertrand II 440

(٣) Charles - Roux II 187

(٤) Reybaud VIII 210 — II

قواته بدلا من حشددها بالرحمانية ، وعملا بمحطة الحرب الدفاعية التي صمم على اتقانها ، أصدر أوامره إلى رؤساء المهندسين وسلاح المدفعية ، محصين مرتفعات نيكوبوليس المعدة أمام الإسكندرية حتى يمشوا سداً من التحصينات المنيعة في وجوه الانجليز ، ولما كان الانجليز بعد انتصارهم في ٢١ مارس قد طردوا بعض الوقت دون حراك ، فقد أمن مو حاشهم ، حتى إنه كتب إلى بيار في ٥ إبريل إن العدو في حال يسوء كثيراً عن حال الفرنسيين ، بسبب انتشار المرض وتقصي المؤن الشديد لديه ؛ وكان يحارر مو اطمئنانا على قدرته على الدفاع عن الاسكندرية ما كان لديه من مؤن ودخائر وأموال اعتقد أنها تكفيه شهوراً عدة ؛ كما أن في استطاعته أن يجلب مؤن وأعدية كثيرة ، معصل بقاء المواصلات مفتوحة مع البلاد الداخلية عن طريق مربوط ؛ وقد أمكن مو سدال بعض المال أن يقع عربان أولاد على أن يأمنوه شيء من المؤن ، وأرشدتهم فرق المجاعة الفرنسية إلى الطريق الذي يحصرون به هذه المؤن إلى الاسكندرية^(١) ، وأصر مو على بقاء الحاميات في مواضعها ، فاستدعى فقط حشد حاميات ميت عمر ومووف وسحب بعض الحدود من بيسس والصالحية ، ولو أنه أصدر أمراً طلب فيه عودة حشد الصعيد ، ثم لم يرسل إلى ارحمانية وإلى رشيد سوى امر دليل ، فقرر إرسال ألف ومائتي حدي إلى ارحمانية ما لبث أن أنقصهم إلى النصف ، وأمر الجنرال موران Morand في دمياط أن يترك مائة حدي فقط في عربة العرج ، وعددٌ مختلا في الدعة وأم فرح ، وبسبب بالدين إلى ارحمانية مع المدفعية ومع ذلك فإن الأعرار الذي حمل هذه الأوامر فشل في إيصالها إلى موران^(٢) .

عبر أن الإنجليز الذين توقع مو أن يطول حولهم بعد انتصار ٢١ مارس ، حتى يضطروا في النهاية إلى ركوب البحر والعودة أدراجهم ، سرعان ما استأنفوا نشاطهم عندما تبين للجنرال هنتسبون الذي حشد أركرمي في القيادة ، أن الوقوف بلا حراك أمام محصيات الإسكندرية من شأنه إذا طان أمده أن يذهب نثار انتصار نيكوبوليس وواقع الأمر أن مركز الإبحام بعد هذا الانتصار كانت تكتفه الصعوبات من كل جانب ، فمع أنهم أحرروا مصرَ ظاهراً في الحركة ، فإن هذا النصر لم يكن حامياً بالدرجة التي تمكنهم من انتحار محصيات نيكوبوليس والإسكندرية ؛ فحشيش الشرق لا زال قوياً ، وتنتشر فرق منه في أنحاء اسلاد ،

Ibid. 204 (١)

Ibid. 181 (٢)

ولم يكن عرص الإبحار الاستيلاء على الإسكندرية محسباً ، بل الاستيلاء على معاقل
الفرسيين الأخرى ، فضلاً عن ذلك ، فإن من أهم الصعوبات التي واجهتهم إلى جانب
ضرورة الاستيلاء على هذه المعاقل والحصون ، كان اتحاد التدابير التي تكفل لهم
الحصول على المؤن والأعدية عند رحلتهم في داخل البلاد ، فضلاً عن فتح طريق
لمواصلات بينهم وبين جيش الصدر الأعظم من جهة وجيش الهند من جهة أخرى .
وقد راد من صعوباتهم انتشار الطاعون وغيره من الأوبئة والأمراض التي صارت
ملك محوهم وتهديد بعض أعدادها . ولما كان ماورد كتب الأمير الإبحاري يهزم
معدرة الشواطئ المصرية بعد شهور قليلة ، لحاجة بعض سعة إلى الترميم والإصلاح ،
ولما راد بالموثوق والدخائر ، ولأنه كان يخشى من اشتداد الأوبئة في البحر الأبيض وعلى
الشواطئ ، اشتغالية بعد شهر أكتوبر ، فعددت ضرورياً استئناف العمليات العسكرية
والفراع من الخطة كل سرعة في ظروف لم تكن مواتية^(١) . أصب إلى هذا أن
الإبحاري كانوا قد خسروا في العمليات السابقة حوالي ألف وأربعمائة مقاتل
عدداً القتلى والحرى من الصباط ، وقد بلغ عدد هؤلاء ثلاثاً وسعين ، لم يلبث
هتشمسون أن طلب عوصاً عنهم معدات جديدة من حاميات ميسورة في مساء يوم
معركة بكنو بوليس نفسه^(٢) ؟ وبدوا أن هتشمسون سبب هذه الصعوبات كان بعد
المعركة على استعداد لإنهاء القتال مع الفرنسيين ، والوصول إلى أنه في معهم على
أساس اتفاق العرش القديم ، فيحذو في ذلك حدود أسير رالف أبركرهي نفسه
قبل للوقعة .

وعبر هذه الرعدة ما كان السير سدى يدعو إليه في كل مناسبة ، فقد تمسك السير
سدى بميث دائماً سياسة الوصول إلى إخلاء مصر نظير عقد الصلح مع الفرنسيين .
على أساس تسليم هؤلاء دون إلحاق أية إهانة بهم أو إبدالهم ؛ وكان من خطته في كل
وقت أن يوح للفرسيين باسم العرش كأداة تمسكهم إذا شاءوا استخدامهم من
إنهاء راعهم مع الإبحار وحلقتهم المتأيين . وصح السير سدى في هذه الظروف بأن
يقل هتشمسون حلاء الفرنسيين لقاء تسليم هؤلاء بصورة تحفظ لهم اشرف العسكري
ووافق هتشمسون^(٣) وقام بمهمة عرص الصلح السير سدى نفسه ، وتقدم في مساء يوم

Wilson 49 (١)

Fortesque IV. 2. 849 (٢)

Charles-Roux. II. 185 (٣)

٢٣ مارس وهو يرفع راية الهدنة ، حتى وصل إلى محافر العرييين الأمامية ، وطلب مقابلة الجنرال فريان « قومندان الاسكندرية » ؛ ولكنه لم يسمح له باختيار خطوط العرييين ، فأرسل السير سدي كتائباً من السير راف « كركمى » (وكان لا يزال على قيد الحياة) والورد كيث « متخرج حلاء العرييين عن مصر ، وقامهم إلى قرباً أحراراً طبيقيين ، دون اعتداهم سوى حرب » ، ثم طلب إليهم باسمهم ومدفعيتهم وعتاد الحرب إلى الإخلاء ، ويحتفظ جيش الشرق بأعلامه وسلاحه البسيط ، ومقتنيات حدوده الخاصة ، بما فيها القتال وعقد الصلح معهم

غير أنه لما كان سولايه كركمى في إخملاء مصر ، فقد جاء جواب فريان في صبيحة اليوم التالي يحمل رفض هذه العروض ، ويظهر صاحبه الدهشة من مقترحات لايجسد مايسوع صدورها أو التمكيز فيها ، ويؤكد عزم العرييين على الدفاع عن مصر إلى النهاية ، ومع ذلك فقد شكر فريان كبير فوؤد الإخلاء ، ما يظهره من عطف على الجرحى العرييين الذين وقعوا في أسيرة (١) ، على أن السير سدي سميت لم يثبت أن علم ، بفضل أحداثه مع الجنود في المحافر الأمامية ، أنهم إنما يحاربون لأن نظام الجيش وواجب الخدمة عرضان عنهم ذلك ؛ ولا يدلون من أحول المحافظة على مصر ، تلك البلاد التي تدل الأدلائ جميعها على أن الإخلاء سوف يحلوههم في احتلالها قريباً . وقد أكدت هذه المعلومات للسير سدي أن من سداد الرأي المعنى في تلك الخطوة التي اتبعها دائماً ، وهي التلويح لهؤلاء الجنود بمخادرة البلاد والعودة إلى الوطن ، وفق شروط عظم لهم كل مظاهر اشرف العسكرية ، وأمنت الحوادث بها بعد أن تلك كانت حصة ناجحة ، عندما سهل على فرق من انقلابه العرب بين أو حاميات بأكلها إنقاء سلاحهم وتفصيل التسليم على مواصلة القتال في أثناء لنسور القليلة الندية (٢) .

واستقامت الأمور في للعسكر الإخلاء بعد معى أيام قليلة ؛ فقد حدث في يوم ٢٥ مارس أن وصل إلى أنى فير القبطان باشا على رأس عمارة تركية من ست بوابرج ونصع فرقاطات عدا من امداد الصبيرة والامالات ، وقد بلغت جمعها سبعاً وخمسين مركباً تحمل حوالى أربعة آلاف مقاتل (٣) . ولما كان أركرمى يتنوى استخدام قوات العنانيين في الاستيلاء على رشيد ، قد قرر همدسون إرسال الجنرال سسر Spencer

Anderson 269; Wilson 44 — 5 (١)

Charles-Roux II 186 — 7 (٢)

Fortesque IV. 2. 849 (٣)

على رأس قوة من أربعة آلاف معتدل ركي وألعيين من الإغلبير للاسيلاء على رشيد ، من أجل السيطرة على مصب النيل عند هذه البلدة ، وعهدا لبحول روارق المدفعية في فرع رشيد عند الزحف على القاهرة . وفي ٣ أبريل أحرس سانت فاوست Saint Faust قومندان المدفعية سو أن الإغلبير قد أنشأوا مركزا قويا في القلعة المربعة الواقعة على بعد فرسخ شمالي رشيد على البر الغربي ، ووضعوا بها أربعة آلاف جندي عثماني استعدادا للهجوم على رشيد دسها ، بحث هو بأحد يدوراه مع قوة من الفرسان للاستطلاع بين يدكو والقلعة المربعة ، ولم تكن لهذا الصايط دراية بهذه الشؤون فقد اكتفى بالبحول أمام رشيد ، وأبعد في معلومات التي حملها على . بلغه من أحد العريان بهذه الحيلة وعاد أدراجه يحمل في جيبته تقريراً مطمئناً ، فحواه أن العرس من احتلال القلعة المربعة لم يكن سوى إنشاء مستشفى ، لعزل الأتراك عن رمية الجيش ، وأن القوة التي بها لا يريد على سبعمائة أو ثمانمائة جندي حبيب .

ومع ذلك فقد نفذ شيخ إداكو في يوم ٦ أبريل أخباراً مريحة إلى (سانت فاوست) عن عدد القوات المتاركة في القلعة المربعة ، وعن حركات العدو عموماً . وأنه يستعد للرحيل على رشيد في اليوم التالي . وكان هذا الشيخ صادق الولاء للعربيين مد قدومهم إلى هذه البلاد ، ورحبوا بالشيخ قومندان رشيد أن يحرق رسائله ، وأن يمنع عن مكانته خوفاً من وقوع هذه الرسائل في أيدي العدو . وعنده لم ير (سانت فاوست) يد من قبل المدفعية ثم المرصى والحرصى من حدوده إلى قلعة (حويلان) أو قلعة رشيد . ولم كان الشيخ قد أبلغه أن قوات العدو تبلغ أربعة آلاف ، ولم تكن لدى (سانت فاوست) قوات كافية لصددهم . فقد قرر إرسال جميع الرجال الإداريين من السفن والتقل إلى البر للقاءيل رقب حركات العدو من جهة ، وحتى يستطيع الحركة لقواته القليلة على شاطئ الدلتا غير أنه ما لبث أن عاد أدراجه عندما انقضى اليوم (٧ أبريل) دون أن يبدو أثر للعدو على أن طلائع الأراك سرعان ما ظهرت أمام رشيد في اليوم التالي ، واشتبكوا مع العربيين ، وعنده قرر (سانت فاوست) إخلاء المدينة . وحدث في هذا الوقت أن حصر سارتلون Sartelon مدر للمحات مكاه من مو ينقل المؤن إلى ارحامة ، فلم يجد في رشيد وسائل كافية للنقل ولم يكن هناك وقت لفعل شيء مما درها بسرعة ، وأحليت رشيد وبقيت حامية صغيرة في قلعة جويلان ، ثم في رح أي مدور . أما سائر القوات فقد اسحبت إلى قوة وإلى ارحامية . وفي عصر اليوم نفسه شاهد المراقبون في برج أبي مدور جيش العدو

يزحف على رشيد وعلى قلعة حوليان ، وفي ١٠ أبريل انحد العدو مواقعه أمام رشيد فسلمت إليه المدينة دون مقاومة .

وأرغم سقوط المدينة مو وقواده ؛ إذ كان من المتوقع حد تسلّم رشيد ، وسقوط قلعة حوليان بعد ذلك في أيدي الأتراك أن يمكن هؤلاء من الزحف بطريق الهر والبر معا على الرحمانية وتهديد مركز الفرنسيين بها ؛ وكانت حامية الرحمانية ضعيفة ويطلب قائدها (لاكروا) Lacroix المعونة ، وأدرك مو أنه لا مخلص من الاعتراف بأهمية هذا الموقع كتركيز يمكن تحوّل الاسكندرية داتها منه ، حتى إنه أمر بإرسال قوة من القاهرة لتحريرها ؛ وقامت هذه القوة فعلا بقيادة بيان Pépin ، ولكن بليار مالت أن أمر عودتها بمجرد أن علم بداية زحف الأتراك من الحدود الشرقية على القاهرة ، فبلغ بيان أمر بليار يوم ٧ أبريل . وهو لا يزال على مسافة خمسة فراسخ من الرحمانية ، فعاد أدراجه . وعلى ذلك فقد ألح قواد الفرنسيين بضرورة إخماد قرار سريع وحاسم لانتقاد رشيد ، ولم يبق سوى إحاطة زعامهم . ومع ذلك فإن مو الذي أصر على الحث على خطة الحرب الدفاعية لم يشأ أن يرسل إلى رشيد قوات كافية بل بعث بالجنرال فالنتان Valentin على رأس مئة رجل من الحُدّ يبحرُوا عن استعادته البلدة ، واستطاع الأخير أن يطفئوا بيران مدفعينهم على قلعة حوليان ، مدة يومين ١٧ ، ١٨ أبريل ، وفي صبحى اليوم الثالث اضطرت حاميةها إلى التسيب ، وبذلك سيطر الأخير على مصب فرع رشيد ، واعتصم طريق النيل للدخول روارق من مدفعينهم مضمدة فيه صوب الرحمانية . واستطاعوا بفعل تسلطهم على هذا الفرع ، إنشاء شبكة من المواصلات النهرية مع بقية أحرار البلد ، وحاص الأذن اللازمة لهم ^(١) .

أما القوات للتسحبة من رشيد ، فقد وصلت إلى قوة إلى الرحمانية في ١١ أبريل ولما كان لا يوجد وقتٌ بـإرحمانية سوى حامية معال ، يمحرون عن الدفاع عنها ، وأدرك مو أن سقوط الرحمانية بيد الأخير سوف يفصله عن القاهرة ، ويحول دون وصول الإمدادات إلى الاسكندرية عن طريق النيل ، وأكد كل من الجنرال فوجيير Fugières قومندان الرحمانية ثم مدير المخابرات ساريلون ضرورة تحرير حاميةها بكل سرعة ^(٢) ، وقد قرر الآن إرسال الوحدات إليها ، ثم تحرير مواقع

(١) Martin II 198 Rigault 317 — 8 ; Reybaud VIII 186 — 7

(٢) Martin II 198 Rigault 317 — 8 ; Reybaud VIII 186 — 7

الفرنسيين الأخرى على السبل في قوة والمطعم كحافز أمامية تمهد في المذبح عرت الرحمانية ، ووقف الرحمة الانجليز عينا . وعلى ذلك أمر الجبرال لاجرايح بالذهاب إلى المطعم والحصن ١٣ في ١٥ أبريل ، بينا تحصن فالتان في قوة . واستمرى هذا النشاط الجديد انتباه الانجليز ؛ فعمروا على تأييد مواقعهم في رشيد وحولها ، ثم حرمان الفرنسيين من الاسعاده من طريق البيل في إلقاء المواصلات مفتوحة بين الاسكندرية والقاهرة . والاعتماد على الرحمانية كمرکز لإرسال المؤن من الدلتا إليهم بالاسكندرية وعزل الرحمانية ذاتها عن بقية الجيش في الاسكندرية عمهيدا لارحف عليها وفتح الطريق إلى القاهرة . ولما كان الانجليز قد عثروا في وحدته في أوراق الجبرال روار على رسالة كان سوف قد بعث بها إليه بنحدرت فيها عن محووه من أن يمد الانجليز إلى قطع ترعة الاسكندرية ، وإحداث ثغرة في ذلك السد الذي يعصل بين بحيرة المعديّة ومجتمعات مربوط ، فتدخل منها المياه في البحيرة القديمة ، فقد فكر الانجليز حدياً في قطع التربة وإعراق مجتمعات مربوط ، حتى يوسع وصول أي قوات أو معدات إلى الفرنسيين عن طريق الدلتا وأنيل فصلا عما يريدونه من ذلك من حيث تأييد حاجتهم الأيسر ، بل وحرره من حجة حيثهم الأمانة بقاءً وتعميق شيء من عبء العمليات العسكرية اللازمة لمصيق الحصار على الاسكندرية ووضعها في معزل عن مراكر الفرنسيين الأخرى .

ومع أن هتشمسون كان يحشى في أول الأمر أن تطغى مياه البحر بحال يتغذر معها وقعها ، وقد تؤدي إلى عريب الاسكندرية ذاتها ، وقد وافق في النهاية على إعراق مجتمعات مربوط وقطع التربة ^(١) ، عندما رأى الفرنسيين يسعون في السحابة من رشيد صوب الرحمانية ، ويختون قوة ، ويعمدون إلى تعزيز قواتهم في المطعم والرحمانية ، وحتى أن يستطع هؤلاء تهديد جيشه من الرحمانية ؛ فبدأ الانجليز صدد يوم ١١ أبريل بفتح أربع ثغرات في السد الذي يعصل بين المعديّة ومربوط عرضها ثمانية وعشرون قدما واستطاعوا بمصل ذلك إعراق مجتمعات مربوط ، فصلا عن مدح وصول المياه المعديّة إلى الاسكندرية عند حلول فصل الفيضان في شهر صفر ^(٢) ؛ ونعم عن إعراق مجتمعات مربوط أن كانت حوش الفرنسيين الثلاثة في الاسكندرية والرحمانية والقاهرة معزلة ، ولا تستطيع الاتصال بعضها ببعض إلا عنققة عظيمة ، وفصلا عن ذلك حرمت

Wilson 54 (١)

Anderson 282 (٢)

الإسكندرية من طريق النهر ، وأصبح نحوها من الدلتا متعددة ، ولا تأتيا المؤن إلا بطريق رح العرب بعد الاستدارة خلف بحيرة مروط الجديدة ^(١) . وما إن اطمأن هتشمسون إلى قوة مراكزه في أي قير والإسكندرية بعد سقوط قلعة حويان ، حتى نقل مقر قيادته إلى رشيد ، وأصدر الحرف على الرحاية بؤارره قوات القبطان باشا ^(٢) .

وعند ما تقرر بدء الزحف في الدلتا كانت قوات الفريقين من الإنجليز والعربيين موزعة بصورة تمكن الأخيرين من القيام بعمل عسكري مفيد إذا شاء مو العزل عن حطة الحرب الدفاعية . ذلك أن حامية الإسكندرية كانت تتألف من ستة آلاف فرسي ، يقابلها نفس العدد من الإنجليز في معسكر الإسكندرية ، وكان لدى الجبابر لاجراخ في العطف تسعائة وثلاثة آلاف حدى ، يعالهم سبعة آلاف اعليرى وستة آلاف ركي ، ثم كان لدى بيار في القاهرة حوالي ثلاثة آلاف بواجهون جيش المصدر الأعظم وأعداد العظيمة ^(٣) . وواضح من هذا التوزيع أن قوات العدو كانت تريد كثير على قوات العربيين ، في العطف والقاهرة ، وإن كانت قوات الفريقين تبدو متكافئة أمام الإسكندرية . فدعا هذا التوزيع القواد العربيين إلى التمسك في الموقف ، واستطاعوا أن يصرخوا على مو اقتراحات عدة للعمل الحدى وسد الحرب الدفاعية حتى ينسحق إقناد اللاد من خطر العرو ، وإلحاق المريعة بالعدو . وكانت أوضح الخطط التي يجب اتباعها وأقرها مدلا ، أن تادر حامية الإسكندرية بالمجوم على المعسكر الإعليري ، بمجرد خروج هتشمسون من هذه الحيات ، وبداية الزحف في الدلتا ، فستعيد مو السيطرة على الشاطئ . ويقطع كل صلة بين الجيش الزاحف وبين مؤخرته ^(٤) .

أما إذا تمت مو النقاء في الإسكندرية وروى الخروح منها فبواجب بتنصيه حيث أن يأمر لاجراخ بترك الرحاية ، والانسلاخ من بين قوات الإنجليز والعربيين في الدلتا ، والاعتماد بحيشه إلى جيش بيار في القهره ، فيستترك الإنسان في إحق المريعة بحيش المصدر الأعظم وتشتيت قلوب وسط الصحراء ، ثم يودان أذراجهما إلى الرحاية بكل سرعة فتتجهان مع هتشمسون في معركة حاسمة . وكان الجبال

Keybaud VIII 203. Martin II 198—9. Walsh 83,116 7 (١)

Anderson 287,414 (٢)

Walsh 128; Reynier 235 (٣)

Bertrand II 445 (٤)

(رئيسه) من مؤدى هذه الحطة (١) ، كما رأى آخرون أن ينقص لاجرايح على جيش الصدر الأعظم في أثناء استعداد الإيجير ليده رجهم على القاهرة (٢) . وقد قدم الجنرال فريان إلى مو مشروعا يشه في جوهره المشروع السابق ، وأساسه أن يمشدوا الحدود في الرحمانية على أن ينقل هؤلاء الحدود إلى القاهرة إذا رجع الغنابيون عليها ، فيشارك لاجرايح مع ليبار في هزيمة الصدر الأعظم ثم يعودان إلى الرحمانية ، فإذا طل الغنابيون وفتحوا على الحدود دون حراك ، انتقل ليبار إلى الرحمانية واشترك حينئذ مع لاجرايح في صد هجوم العدو . ومع السير هبى هتشنسون وحلفائه من التوغل في الدنا ، وقطع مواصلاته مع السلاسل الداخلية وأصر فريان على عدم الاعتماد على الشاطئ . التالى بل اعتباره في حورة العدو ، ولا حدودى من انتصار وحدات يحميها الأسطول الفرنسي من أرض الوطن . ثم كان من رأيه كذلك أنه إذا مات متعدداً تولى الإسكندرية ، وحسب إحلاؤها وإعلاء الهر إلى وردان وإلى القاهرة ذاتها .

وفي ٢٦ أبريل أبح لاجرايح على مو بسبب ما شاهدته من امتناع الإيجير عن مهاجمة الإسكندرية ، أن يتركها حماية كافية للدفاع عنها ، والاشتراك مع لاجرايح في سد طريق النيل في وجه جيش الإيجير وحامائهم الغنابيين الزاحفين على القاهرة ؛ أو الصعود في النيل سريعاً حتى يحكم من سبق العدو في الوصول إلى القاهرة ، وكان من رأى لاجرايح أن يتخذ مو من الرحمانية مكاناً يمشد به الجيش ، وقاعدة لتوجيه العمليات منها صد جيش الصدر الأعظم والسير هبى هتشنسون على السواء ، ويبدو أن مو قد أدرك ما تطوى عليه هذه الحطة من حكمة بالغة ، فكتب إلى ليبار في ٣ مايو أنه سوف يصر إلى القاهرة بعد أيام قليلة بمجرد الفرار من تحصين الإسكندرية ، وأحذر لاجرايح في الوقت نفسه أنه سوف يحى إليه في القبط بعد يومين اثنين فقط مع سائر الحد . وقد أجمع الثقات على أنه لو عد مو هذه الحطة لأصبح ميسوراً استثناء مصر في أيدي جيش الشرق وطرد العدو من أرضها (٣) . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وأراد الإيجير من تردد الفرنسيين وبطء حركاتهم ، وأرسل هتشنسون وحدات جديدة لتعزيز قوات الجنرال سبسر Spencer الذى ذهب إلى الجبل وما إن وصل الكونت أمبرال بارلس واريس Barlesse Waren ، عمل أسطوله بعض الوحدات

Reynier 236 — 7 (١)

Malus 208 — 9 (٢)

Rigault 321 — 2 (٣)

حق قرر هتشنسون معادرة رشيد إلى الحجاز ضد أن ترك الحمرال كوت على رأس الجيش للرباط أمام الاسكندرية لحصارها ، وكان يتألف من ستة آلاف مقاتل ، بين أحد هتشنسون معه حوالي خمسة آلاف جندي (١) . ولاحظ الإنجليز أن وجود لاجراي في العطف لا يحول دون مرور حيوشهم بين ميسرة وبين بحيرة إدكو ، كما لاحظوا أن الطريق لا يزال خالياً من كل عائق بين إدكو وبين بحيرة العدية ؛ وفي استطاعتهم أن يرسلوا معه جيشاً على دهبور حتى يقوم بالمحرم على الرحمانية من الجهة الغربية (٢) . وعلى ذلك قرأى هتشنسون على الزحف على العطف ثم على الرحمانية . وبدأ سير الجيش الإغماري الثاني من الحجاز في ٥ مايو . بينما اعتلت قوارب للدفعية وانسحب للسلحة فرع رشيد (٣) . وحدث ذلك الزحف يومين أن وصل إلى معسكر الإنجليز في الحجاز رسول يحمل إلى القائد الإنجليزي رسائل من مراد بك وأساعه رداً على كتاب كان قد بعث به هتشنسون إلى مراد ، وأرفق به فرماناً من السلطان ، وصحفاً من القبطان ، إذا يؤمن مراد بك إذا هو انحاز إلى حاسم الحوش إلى حصرت لتحليس البلاد من العدو العاصب ، فأكد الآن مراد بك استعدادة للاصطدام إلى القائد الإنجليزي إذا زحف جيشه على القاهرة ، وأدى محرمه عن القيام بأي عمل حاسم قبل بداية هذا الزحف .

وبما كان مراد قد مات بعد ذلك بالطاعون في ٢٢ أبريل وأوصى وهو على فراش الموت بأن يحرقه في رياسة أترابه عثمان بك الطنوجي ، فقد بعث هذا بخطاب كذلك إلى السير مدني سميت يعان فيه وفاة مراد ، وسوع ما فعله مراد من قبول الاتفاق مع الفرنسيين بعمره عن مقاومتهم ؛ ولكنه أكد الآن تأييد أعراض الإنجليز وحلفائهم . وقد ارتاح الإنجليز لا بخيار الكوات المليك إلى حاسم بسبب ما كان لدى هؤلاء من ريسان عديدين مضطربين ، ولأنهم كانوا يعرفون البلاد وأهلها معرفة جيدة (٤) . فضلاً عن ذلك فقد أسعز تأييد مراد وأساعه للإنجليز عن اصطدام ذلك التأثير العربي القديم مولاى محمد إلى جيش هتشنسون الزاحف من الحجاز ، وكان يستمع باحترام ونفود عظيمين بين الأهالي الذين نظروا إليه كأحد القديسين ما

(١) Fortesque IV. 2. 849 — 50

(٢) Martin II 200 — 1

(٣) Anderson 296

(٤) Walsh 122 · Wilson 65 — 6 · lb d 292, 412 — 4

اشهر عنه من الصلاح والتقوى والجهاد في سبيل الله ، كما أنه عدا في نظرم رمر المقاومة العنيفة ضد أعدائهم الفرنسيين^(١) .

على أن الانجليز سرعان ما أزعجوا فالتد على إخلاء قوه^(٢) ، وما إن اقترب هتشمون من العطف حتى ماذر لاجراخ باخلانها والاسحاب إلى الرحامية (٧ مايو) بعد مناوشات يسيرة ، ودون أن يقوم العدو بأى هجوم على مراكز الفرنسيين بها ودهش الانجليز لهذا الاسحاب عندما وحدوا محصيات العطف قوية ، وتعد في عرص السهل حوالي ثلاثة أميال من الليل حروب بحيرة أذكو^(٣) ؛ غير أنه يبدو أن لاجراخ كان يحشى من أن يطوقه الإنجليز لأن المحصيات كانت تحمى في واقع الأمر مواقعهم الأمامية ، بها مل في إمكان العدو المرور من اندماء الواقع بين ميسرة الفرنسيين وبين بحيرة أذكو^(٤) . وكان هتشمون عندما بدأ رحله على العطف يحمل حقيقة قواو الفرنسيين بها ، ولكنه مالت بعد سقوطها أن عثر على عدد من الوثائق علم منها أن جيش العدو كان لا يريد على أربعة آلاف حدى فرسا ، وعرف كذلك أن بيار كان يشكو من انتشار وباء الطاعون بين جنوده في القاهرة ، ويشكو من قلة ماله من قوات تمكنه من الاحتفاظ بركزه طويلا ، فتحت هذه المعلومات هتشمون على النص في رحله^(٥)

وفي ظهر يوم ٩ مايو ، وصل هتشمون أمام الرحامية ؛ وبدأ القتال بين امرئتين ، ومع أن الإنجليز عدوا هذا امسال « مناوشة بسيطة » ، على خلاف ما يدعى الفرنسيون ، فقد قرر لاجراخ في مساء اليوم نفسه إخلاء الرحامية ، وجرى الإخلاء في ليل ٩ - ١٠ مايو ؛ وفي صبحه ١٠ مايو سلمت الرحامية^(٦) في نظير احتفاظ الصايط بسيوهم ومقتنياتهم الخاصة وإرسال الجرد إلى فرنسا بعد أن يعهدوا بعدم الاشتراك في حروب صدامخلثة وحللتها ، لا بد أعاد الفرنسيون عدداً مماثل لهم من أسرى الإنجليز وحلفائهم إلى أوطانهم^(٧) . وانقطعت بسبب سقوط الرحامية كل صلة بين جيش

(١) Wilson 70

(٢) Martin II 201

(٣) Anderson 299 — 300

(٤) Walsh 123; Reybaud VIII 205 — 7, Fortesque IV, 2 859

(٥) Wilson 78 — 9

(٦) Anderson Official Papers No. XI 419 — 23

(٧) Reybaud VIII 207 — 10; Walsh 129 Ibid 300 — 4

الفرنسيين في الإسكندرية والقاهرة وكان مما أفاد الإنجليز ولا شك تردد منو وبطله حركته الشديد فقد كان في وسعه أن ينفذ بين يومي ٣ ، ٩ مايو ذلك الوعد الذي قطعته على نفسه لقائديه في الرحامية والقاهرة ، فيذهب بالحيش إلى الرحامية ويصم صغوفه إلى صغوف لاجراع في مداره الإنجليزية ، ولكنه بدلا من ذلك ظل متشككا بأوهامه ، ينتظر وصول تاسوم بالحداد التي وعد بها الفصل الأول وكتب إلى وزير البحرية الفرنسية في ٣ مايو يسأله عن سبب تأخر وصول غاتوم ويذكر له ما كان في استطاعة أمير البحر أن يفعله من مع وصول الحداد وأنه حصر إلى الشواطئ المصرية في الوقت المناسب^(١) وأخيراً وافق منو على إرسال الجنرال دليجورج Delegorgue على رأس قوة لعدة الرحامية ، ولكن دليجورج ما إن وصل إلى ركة عطاس حتى حاده الأحار سقوط الرحامية ، فعاد أدراجه ووصل إلى الإسكندرية بعد يومين فقط من خروجه منها^(٢) . وبما خدر ذكره أن الإنجليز استطاعوا أسر قافلة من السفن كانت حاصرة عن طريق قناة صوف ، تفقد مهمات كثيرة ، وتبني الاشتراك في الدفاع عن الرحامية والإسكندرية ، ولكنها بلغت الرحامية بعد اسعاب لاجراع فأسولى عليها الإنجليز يوم ١٤ مايو^(٣) . أما لاجراع فقد استطاع الهوى إلى القاهرة فوصل إلى أخيرة في يوم ١٣ مايو ثم عبر النهر إلى بولاق وانضم إلى جيش مليار ، وبات مصر الجيش في القاهرة والإسكندرية من ذلك الحين رهأ بيد القدر^(٤) .

وكان على القائد الإنجليزي بعد سقوط الرحامية أن يشد الموقف ؛ فهو يرى الحدود النسيحين من الرحامية يسرون في طريق القاهرة ، وكان عليه أن يستأنف الزحف على القاهرة في أثرهم ويتحققهم ويطاردهم دون هوادة ؛ ويرى قواده من جهة أخرى أن الموقف أمام الإسكندرية قد نحس كثير نسب وصول الحداد الأولى الآتية من مالطة وبروفا في آي قير منديوم ٩ مايو ، فضلا عن الأخبار التي ينقلهم عن رجف الصدر الأعظم على الصالحية ، كما كثرت الإشاعات عن ظهور أسطول الهند في البحر الأحمر ؛ وكان مما دعا القواد إلى اختيار العودة إلى الإسكندرية بدلا من الاستمرار في الزحف على القاهرة ، خوفاهم من عدم قدرة الحدود على احتياك قبط

(١) Rousseau 404

(٢) Martin II 201 — 2; Reybaud VIII 209

(٣) Martin II 203; Anderson 420

(٤) Anderson 421; Rigault 323

الصعب الشديد وحاجتهم الملحة إلى المؤن والذخائر ؛ ودعهم من نقى وباء الطاعون في القاهرة خصوصاً ، واعتقدتم بأن لدى بليار في هذه المدينة قوات تفوق حوشهم عدداً وعدة ، واستحالة حصار القنعة بصورة محدية ، وما كانت هذه كلها اعسارات لا وزن لها في نظر القائد العام للحملة ، ولم يكن الغرض منها سوى ستر عبور القواد وسائر الصاط من الدير هبلى هتشنسون ، فقد قرر رأى القائد العام على الزحف صوب القاهرة ؛ فأعصب هذا القرار مواده لدرجة بلغت حد التمرد واضيان ، حتى أنهم طلبوا حضور الجبرال كوت من الإسكندرية ، والجبرال مور الذى ظل في رشيد بسبب جرحه حتى يتولوا القيادة ، وشأت في المعسكر الإغبري حركة عصيان وانقسام نشه كثيراً ما كان يشكو منه مو في المعسكر الفرنسي نفسه ، ولكن أحداً من كبار القواد الإغبر لم يؤيد هذه الحركة ، فامسح كل من كوت ومور عن إحياء رعبات التمردين ، واستطاع هتشنسون أن يبعد إرادته^(١) ؛ ورحلت كفة القائلين بوحوب الزحف على القاهرة بطاردة الفرنسيين المنتهزين من جهة ، ولعظية جيش الصدر الأعظم الزاحف على القاهرة ، والاتصال مع جيش المد عند وصوله من جهة أخرى^(٢) . وفي ١٤ مايو غادر هتشنسون الرحمانية في طريقه إلى القاهرة . ثم عسكر الإنجليز في علقام يوم ١٧ مايو . وفي اليوم نفسه أسعهم الممران أن قوة من الفرنسيين قد جاءت إلى هذه الجهات قصد الذهاب إلى القاهرة وتقدم صوب الليل قرأ من المكان الذى رابط فيه سعد القبطان باشا . فمضت هتشنسون في أثرها فرسانه بقيادة الجبرال دويل^(٣) .

ومعيل ذلك أن مو أرسل في ١٤ مايو كغاليه قائد المحطة إلى إقليم البحيرة حتى يجمع من القرى المؤن والأعدية ، طرح كغاليه من الإسكندرية ومعه قافلة كبيرة من الحن (حوالى التسعمائة حمل) ، يحرسها جنود من المشاة والفرسان والمحانة بلغوا (٤٤٥) حدياً ويستخدمون مدافعاً واحداً . وزار كغاليه في أثناء تطوافه قرىين من قرى البحيرة ، وحدهما حاويين على عروشهما ولا مؤن هما ؛ ولما كان يحفل أن الإغبر غادروا الرحمانية ، فقد قرر الذهاب إلى اسيل واستلاء الممر إلى القاهرة بدلا من العودة إلى الإسكندرية . ولكنه فوجئ برؤية سعد القبطان باشا في الممر . واعتقد أن العدو قريب منه ، وعلى ذلك ارتد إلى الصحراء ، وشكل مرمعا ليدفع عن

Fortesque IV. 2. 851 (١)

Anderson 420 (٢)

Ibid 313 -- 4 (٣)

قافلته غمات العربان الذين ضلوا يفتقونه ويطلبون نثار غله من كل جانب ، وكان في أثناء هذا الارتداد أن وحد كماليه معه خاة وحها نوحه أمام قوات الحمران دويل ، ومع أنه استطاع أن يشق طريقه بكل صعوبة ، فقد اشتدت مطاردة الإنجليز والعربان له ، وبات يتوقع محوما غيبا على مؤخرته وحاجبه ، ولذلك فإنه ما إن أرسل دويل له معاوصا يعرض عليه التسليم نفس الشروط التي جرى بها تسليم الرحامية حتى قبل كماليه ، ووقع على شروط التسليم عند قرية كوم شريف في ١٧ مايو^(١) . وعصب مو عندما يلعب الخبر فأصدر أمرا يوميا وصف به كماليه بالحن والحياة إذ سلم للعدو دون إطلاق رصاصة واحدة ومعها حوائى السمائل من الحدود . وانضم الرقى في هذه المسألة فاعتقد البعض أن كماليه كان يستهدف لهلاك محقق لونه روض عروض الإنجليز^(٢) ، بينما على فريق آخر من الإنجليز خصوصاً هذا الحادث بأن الجيود الفرنسيين بعد معركة كايوت كانوا قد بدأوا يبدون الطاعة وبعد صرهم ، وصار يكفى ناره أن يذكر اسم فرنسا أو يتوحد لهم بالعودة إلى الوطن حتى بمقدور كل سيطرتهم على أعصابهم ، وعمر كماليه عن مقاومة هذا الشعور ليعب وهذه لعاطفة الجاذبة^(٣) .

وحدث في اليوم القدي سلم به كماليه أن انسحب الفرنسيون من عنة الرج والارلس ، وكان الإنجليز قد هربوا المحوم على لمرية وأرسل الصدر الأعظم قوات كبيرة مع خمسة مدافع لهذا المرص بقيادة إبراهيم باشا . فاحل الفلبانيون دمياد انق أحلاها الفرنسيون دون معارك ثم هاجموا العنة بالاشتراك مع سبع المدفعية الإنجليزية التي دحمت الوغار ، ولكن الفرنسيين أحلوا العنة في أثناء الليل (١٤ مايو) واستحووا إلى الارلس ، وهناك بعهم ساً انسحاب لأحراج من الرحامية إلى القاهرة فقررروا إخلاء الارلس ؛ فأسرعت خمس سبع صميرة تنقل جموعهم إلى الإسكندرية ، فطاردتها عد أنى فير فرقاطة إنجليزية ، وأسرت أولها منها بينما قرت الخامسة صوت حرية رودس ، فأسرعت في تعقبها فرقاطة تركية ؛ وفي رواية أخرى أن عدة السفن كان أولها ، أسر منها الإنجليز اثنتين وسارت الأخرى إلى انشواطىء الإيطالية رأساً^(٤) وهكذا كان توزيع الحدود في الحاميات المعثرة من أهم أسباب ضعف هذه المراكز الفرنسية ، وسقوطها في أيدي العدو ، وحرمان مو من قوات قد تعيده في الدفاع

Reybaud VIII 212 — 4, Walsh 66 — 7; Ibid 314, 419 — 23 (١)

Reybaud VIII 215 — 6 (٢)

Wilson 107; Bertrand II 402 — 3 (٣)

Reybaud VIII 231 — 2 (٤)

عن الإسكندرية ، أو في العمليات الأخرى العسكرية . فيه ما كان عدد حدود هاتين الحاميتين في العربة والبرلس بلغ السبعائة حدى ، فقد سح عدد من وقع من حدود جيش الشرق في أيدي الإنجليز - حسب تقدير هؤلاء أنفسهم - حوالى ألف وستائة حدى في غضون أيام قليلة (من ٩ ماو إلى ١٧ مه) (١) .

أما هتشسون فقد استمر في رحلته فوصل إلى الطراخ يوم ٢١ مايو ، ولما كان الصدر الأعظم بعد رحلته على القاهرة واشتباكه مع قوات بليار في معركة الزوامل كما سيأتى ذكره ، قد رعب في مقابلة القائد الإنجليزي للاتفاق على تهصيل العمليات العسكرية للقبلة ، فقد ذهب لمقابلة هتشسون ، وما إن وصل القائد الإنجليزي في رحلته قريبا من بير شام Byr-Ghām حتى وجد ضلائع الجيش العثماني بقيادة طاهر باشا ، وذهب هتشسون ومعه انقطان باشا الذي صحبه دائما منذ أن غادر أنقرة ، زيارة الصدر الأعظم في محبته ، وهناك تقابل مع إبراهيم بك وعثمان باشا حاكم القدس وطاهر باشا ؟ وانفق الصدر وهتشسون على كل ما يحب اتباعه في الحملة القبية (٢) ؟ وفي ٢٨ مايو انصل عثمان بك الطوروحى بالأتراك والإنجليز ووصلت السفن الإنجليزية والعنابية إلى بطن القرية ، فيما كان جيش الصدر قد بلغ دجوة في القيدونية . ثم وقف الإنجليز بضعة أيام بهذا المكان ، واهلك العنابيون في أصعب المعالقات ومناققات (جرارات) للدافع وما إلى ذلك .

وفي يوم ٥ يولية أصاب الجيشان الإنجليزي والعثماني رحلتهما حتى لمعا وردان ووحد الإنجليز أنفسهم على مسافة بضعة أميال لحطب من الإهرامات ، وفي ١٤ يولية بدأ الزحف من حديد على شاطئ النيل الأيسر ، وبعد يومين أقاموا معسكرهم على مسافة نصف ميل من أماسه ، وفي صبيحة ١٦ يولية وصلت الإنجليز وحدات جديدة مكونة من ألابين من الإسكندرية بعد رحلة استمرت أربعة عشر يوما ، وشرع الإنجليز يشنون حصاراً من القوارب لفتح طريق لمواصلات عبر أنهر بينهم وبين العثمانيين الذين عسكروا على الجانب الآخر ، وفي هذا المكان كذلك انضم إلى الجيش الراحف عثمان بك وعاليك وكابوا يملعون أنفاً وحمية . أما الجسر فقد تم منحه (عند شرا) في ٢٠ يولية ؟ وفي اليوم نفسه أحمر (رومان) Robin الجنرال بليار أن العدو قد اتخذ مواقفه في مواجهة العسكر العرسى ويدو أنه قد أكمل استعداداته لبدا للمعركة (٣)

Anderson 315, 319, 421, Walsh 137 Moore II 42 (١)

Reybaud VIII 245 - 9 (٢)

Anderson 321 - 2; Malus 215; Ibid 251 (٣)

بيدار في القاهرة :

وكان بليار خلال السهور الثلاثة خاصة منذ أن عذر (مو) القاهرة في ١٢ مارس في مركز محوط به الصعوبات من كل جانب ؛ لأسباب عدة ، أهمها ولا شك أن قائد الحملة العام لم يترك أوامر معصلة فيه بحسب عليه أن يجعله عند إطلاق العدو الذي شرعت حيوشه ترحف على القاهرة من الشمال والشرق والجنوب ، ذلك أن حطة مو كانت لاتعدو التمسك بالاسكندرية والقاهرة ، والاحتفاظ بجميع مراكز الفرنسيين المنتشرة في أنحاء القطر ، فيصمد كل قائد في موضعه أمام حيوش العدو ؛ ويصل مو على تحصين الاسكندرية ، ليبا يعمل بليار من حارسه على تحصين القاهرة ، ويدافع قومندانها الصالحية وينسحب عن هاتين المدن إلى النهاية ، ويبدل جيش الشرق بمحمودا قصري حاهمه لاهلك قوى انهزم ويرغم الانحسار والانسحاب عن إطالة أمد الحصار المصري على مواقع الفرنسيين ربما يتيسر لهؤلاء استعمال الوحدات التي وعدت لفصل الأول بإرسالها من فرنسا ، أو عكسهم من عدم وقف القتال حتى تحيى الأحمار بمقد الصلح العام في أوروبا^(١) أى أن مو كان يرغب كذلك في أن يسع بليار (وسائر تقواد) حطة الحرب الدفاعية بأوسع مهابها وفي هذه الظروف إذن كان يتوقف نجاح بليار في الاعتماد بالقاهرة على انتصر مو الذي خرج لصد حيوش الأعداء عن الاسكندرية والعمل بفصل هذا الانسار إذا تم على تمام الواصالات معصولة بين الاسكندرية والقاهرة . وأذك بليار وزملاؤه أن نتيجة للمركة المقبلة بالاسكندرية سوف تكون ولا شك ذات أثر حاسم في تقرير مصير « المستعمره » ؛ وحتى بليار من هزيمة الفرنسيين في هذه المعركة وما يحتم عن انتصار الانجليز من آثار سيئة ، وهم الذين ذلوا على أسان ويررهم دنداس Dundas في الزمان الانجليزي . إنهم سوف يسكلون بالحيش الفرنسي في مصر حتى يصبح عمرة لغيرة ، ومخدمون اليوساية بالقضاء عليه قضاء مبرما^(٢) . وعلى ذلك فقد شمل بليار وزملاؤه في الأيام التالية باستقصاء أخبار مو . وتوضوا أن يحدث للمركة المصاصة يوم ١٩ مارس . ولكم نشوا حمسة أيام تمام دون أن تعلم أخبارا من الاسكندرية ، لاستبد هم القلق .

ورادت هواحي بليار عندما « أشع بين الناس (يوم ٢٤ مارس) وصول الغماية إلى ناحية عرة ، وأن حواليتهم وصلوا إلى العرش ، وقدمت الهدية إلى العرساوية

(١) Rigault 313

(٢) Reybaud VIII 187

الحزب^(١) وكان سب هذه الاشاعات أن أحد شيوخ قبائل العربان بالوادي الأحمر قومندان يبيس أن قوات من الفرسان الفتيانيين قد شوهدت في هذه الجهات ، فداع الاعتقاد بأنهم طلائع جيش الصدر الأعظم ، ومات من للتوقع حسب رواية الشيخ أن يصل هؤلاء الفرسان إلى القاهرة يوم ٢٧ مارس ؛ وأعد بيار معسكره بين القبة وركبة الخاج استعداداً لهم^(٢) ، وحتى العربون أن يكون الفتيانيون قد أنشأوا صلات وثيقة مع كبار أهل القاهرة ، وأن المهرين يهرمون القيم بالثورة ، وارتفع الفرسيون ارتفاعاً شديداً ، ودد القصر وأصحا على وجوههم وفي حركاتهم ، فعمل كل امرئ منهم بتدبير وسائل شدة وحلاص عسه ، وظفوا طيلة يوم وأيل ٢٥ مارس محزون دورهم ومساكنهم ومستشارهم وسقونهم ، فمهم ومرصاهم إلى القلعة ، وتطابرت الشائعات في الأوساط العربية عن بدء جميع الأهالي بمحوار الجامع الأزهر ، ينشئون ويتقشون ، ويدبرون - في زعمهم - الثورة للقبلة .

ومع أن هذه الاحتمالات لم تسر عن شيء ، لأن الأهالي كما ذكر الفرنسيون ومؤرحوهم كانوا لا يرلون متأثرين بذلك الدرس القاسي الذي أتى عليهم عند مقتل كليبر ، ونم العمل إلى القلعة دون حدوث أية اضطرابات^(٣) ، فقد حرص الفرنسيون عند أن وصلت أخبار الطلائع المتعبة على استئالة كبار الأهالي ، وقاده الرئي فهم والتأثير عليهم بالوعود بارة وبالوعيد بارة أخرى حتى غلبوا إلى الهدوء والسكينة ، فدعوا مساء يوم ٢٤ مارس الشايع للاجتماع . لدوان . « فما سكال حضورهم حصر فوريه الوكيل ومجته آخر من الفرنسيين من طرف قائمقام (بيار) ، فسكلم فورييه كلاماً كثيراً ليريل عنهم لومهم وبؤسهم بحرف القول ، كقوله إنه يحب المسلمين وعيل بطعه إليهم وخصوصاً العداء وأهل القضاة ويعرج بفرحهم ويسم اسمهم ولا يحب لهم إلا الخير وسياسة الأحكام تقتضي بعض الأمور الخدافة للراج وأن ساري عسكر (مو) قبل دهانه رسم لهم رسوما وأمرهم بإجرائها وأشى عليها في أوقتها ، وأنه عند سهره قصد أن يعوق المشايخ وأعيان اساس ويتركهم في انترسم رهبة عن المسلمين ، فما طهر له وتحقق أن الدين وردوا إلى أني قبر ليسوا من المسلمين وإعماهم إسكلمية وناطية وأعداء للفرساوية والمعين أعماً ، وليسوا من ملهم حتى غشى من ميلهم إليهم

(١) الجيزي ٣ : ١٠٩

(٢) Martin II 188 — 9

(٣) Galland 47; Ibid 190 — 1

أو ليتصوا من أهلهم ، ولأن لما أن يوسف مات الورر وعسكر النملية تحركوا إلى هذا الطرف فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان وذلك من قوايق الخروب عدنا بل وعندكم ، ولا يكون عندكم تسكدر ولا وهم نسب ذلك ، فليس إلا الإعرار والإكرام أيما كنتم ، والوكيل دائماً نظره معهم ولا يعمل عن فعلهم مراحمهم في كل وقت ويوم » واسبى الأمر « تعويق » أربعة من المشايخ هم الشراوى وابهدى والصاوى واعبوى فتكلمهم في القلعة و « أحلّسهم بمحس سارية » ونقلوا إلى مكانهم الشيخ السادات ، فاستمر معهم بالمسجد ، وثمروا الأربعة الباقية من أعضاء الدنوان وهم الكرى والأمير والسرى و (الشيخ عبد الرحمن الحرنى) ، أن تكون نظره على البلد ويجمعون شيخ البلد ولا يقطعون عنه »

وكان من الذين أخذوا رهائن وأعدوا كذلك جماعة أخرى من أصحاب السكحة وانعقد « وأمروا المشايخ اساقفة والدين لم يحسوا تهديدهم وبطرحهم إلى البلد والعلامة وأهم يترددون على بليار فأنعمهم ويعلمونه بالأمور التي يشأ عنها لشور والى » . وكان من وسائل الهدنة والتسكين التي خأ إليها امراسيون أن « أنهم ديوان البيوت والمطالبة تلك وكذلك كبرت المردة ومن افقه عن اساس ، وكذلك تسوهد في أمر الكرنيلة وإحارة الأموات وعدم الكشف عنهم وتصديق الناس بما يحبرون به في مرض من يموت » وذلك على حد قول الشيخ الحرنى « لكثرة أشغالهم وحركاتهم وتحصنهم ونقل متاعهم وصادقهم وعرشهم ودحارهم إلى القلعة الكبيرة على الجبل والجبل ليلا ونهاراً والاعطاءون معلق منهم وموت منهم القعدة والكثيرة في كل يوم (١) » . ومع أن مصاً من الفلاحين ما لبثوا أن حاصروا عمالون معهم أساء هذه الطلائع النملية التي شوهدت في الصحراء الشرقية بعيد أن هؤلاء لم يكونوا سوى مجاميك إراهم بك وأنهم إنما جاءوا للذهب إلى مراد بك والاصحاب إلى قوائه في الصعيد ، وضامات هذه الأحجار الفرنسية قليلا ؛ فقد راد استئناسهم عندما حصر إلى القاهرة الصايط تيوش Toche مساء يوم ٤ أبريل بمعمل من الإسكندرية تفاصيل موقعة كابوت ، وبعض الأوامر التي أصدرها منو من أجل إحلال الصعيد وإيقاض حاميات الصالحية وبلبيس والفرس وعرة ابرح ثم إحلاتها لإد هاجمها العدو بقوات متموجة عليها وكذلك إرسال كل ما يمكن إرساله من قوايق إلى الشواطيء الشمالية ، ويطلب من جميع الفرنسيين سواء كانوا من الجند أو من رجان الإدارة الالتجاء إلى القلعة

والتحصن بها (١) ؛ فكان لهذه الأساء أسوأ الأثر في موسى الجند وحوادهم بالقاهرة ، وعظم عصبهم من إحفاق حططهم العسكرية وهرعة جيشهم بالإسكندرية ، واشتد بهم الجرع حتى طمرت دموع الكشمرين من أولئك الذين قال عنهم بليار « إنهم يخافون العسكر الإنجليزي خوفاً شديداً وعشرون مئة أسبلاء الإنجليزي على البلاد » (٢) .

أما بليار فقد أشد به هو الآخر الحر والفقير ، وخاصة عندما أكد لديه أن المواصلات بينه وبين مو قد كانت مقطوعة ، مد أن يبعه ما حل بالمرسل الذين كانوا سقل الرسائل والأخبار ، والذين ثبت لديه أنهم قتلوا في الطريق أو أصيبوا بجراح بليعة معتمهم عن نقلها . وما إن بلغته أساء الهرعة في كابوت (٤ أبريل) حتى عقد محسناً حربياً في الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي (٥ أبريل) لتقليب وحوه الرأي فيها بعد فعله ؛ واتجه الرأي إلى إحداث انفجار في قلاع بليس والصاحبة والسويس لتحطيم هذه القلاع عند اسحاب حاميتها واستقدام حدها إلى القاهرة ؛ ولكن المجلس لم يلبث أن انفس دون الوصول إلى نتيجة (٣) ؛ وسع انبأس من بليار أشده حتى به كتب إلى صو في اليوم الذي يشكو تصدر الدفاع عن القاهرة ، والأثر اك يرحفون عليها ، بينا كانت الحارن حاوية ، وانتشر وباء الطاعون بدرجة مروعة ، حتى إن بليار اضطر بين يومي ٣٠ مارس ، ٣ أبريل إلى نقل مائة وعشرين رجلاً إلى للعزل (لاريتو) مات منهم عشرون ، وقد لحق بهم كثيرون غيرهم . ويتوقع (القائمقام) أن تنور القاهرة عند اقتراب الغنابيين منها . ولا مبدوحة عن بحلاء المدينة ، والاقتصر على الدفاع عن القلعة (٤) .

وكان من أسباب قلق بليار ديوع اشائعات في القاهرة عن هزيمة الفرنسيين في موقعة كابوت ، وعن أسباب هذه الهزيمة ، ثم حديث الأهليين عن الانقسامات الخطيرة في مقر قيادة جيش مو ، بينه وبين رندييه وداماس ، تلك الانقسامات التي سقطت هزيمتهم ؛ ثم ما صار القاهريون يشاققونه عن إطلاق « جنوس لبياء الملح » وما فعله الإنجليزي لإعراق « هرق الاسكندرية » (حق) صارت جميعها لجة ماء ولم يبق (للمرسيين) طريق مسلولك إلا من جهة العجمي إلى البرية (٥) . وثرعمت بليار

Martin 191 (١)

Rigault 317 (٢)

Reybaud VIII 191 . Martin II 101 — 2 (٣)

Rigault 314 — 5 (٤)

(٥) الجبرتي ٣ : ١٦١ — ١٦٢

أخبار حلفاء القواد بالاسكندرية ؛ وتلك الآراء المتصارعة الى صارت فصله وتشير
عنه بالطريق الذي يجب أن يسلكه فيما يريد مو أن يبقى في القاهرة للدفاع عنها ،
يصححه (رئيسه) إذا عجز عن صد جيوش البدر الأعظم بالحضور بكل ماله من قوات
إلى الإسكندرية ، يدباعد وحوادث الجيش مجتمعاً على القيام بمحاولة جديدة للانتصار
على العدو أو « إملأ شروط مشرفة » . وفي وسط هذه الآراء المتصارعة يدل كل كل
ما يرحوه لبيان أن يحصل من مو على أوامر صريحة حاسمة

ومع ذلك قلل ظل مو بعث إلى القاهرة ماعده « أخباراً مطمئنة » فكان
يحدث تارة عن ضعف الجيش الذي وقف على حصار الاسكندرية ، وكثرة فرار
حدود القوات المساعدة من صفوفه ، وتارة أخرى عن سقوط وزارة وت خروج
هرميل من الحكم ، وكيف أن المأورد كيث هو الذي يدل إليه هذه الأخبار التي تدعو
إلى الاطمان بأن عقد الصلح العام قد مات قريباً ؛ ومرة ثالثة يئذي من اعتقاده بأن
العدولن يهصر إلى القاهرة أو رجع إلى ، أما إذا حصر فواجب لبيان أن يهرمه
هزيمة ساحقة ثم يأتي بالجنود إلى الاسكندرية ؛ ومرة رابعة يحيل مو قائده لبيان عن
كل من انفواد روبان Robin ، وديراسو Durantou ، وباربر Tareyre « صاحب
الرئيس للمعركة » يستشيرهم فيما يجب عليه أن يصنع ، بل يترك له أيضاً حرية التصرف
« حتى يسلك ما يراه أنه أفضل الطرق » ، الحقيقة امره « يدان (مو) في مكانه
بالاسكندرية لا يستطيع أن يصدر رأياً في موقف معين إنما لتغير الحوادث السريع
مرة في كل خمس عشرة دقيقة » ؛ ثم نسحق نصيحة مو في آخر الأمر عن تدكير
سيار أن ابواب يقتضيه أن علاقله انماهره ، للجنار وانؤن « لأن هذا المكان إذا
أحكم الدفاع عنه رجل مثل قومندان القلعة (دوباس) Dupas أمكن أن يصمد في وجه
العدو أربعة شهور تقريباً » ، وأن يعمل على كسب الوقت دائماً « إذ من المحقق أن
السلطان العثماني قد أرسل فرمانات يطلب فيها من حوذه الامساع عن الرجوع .
ويشدد مو على لبيان بضرورة إداغة هذه الأخبار على أهل القاهرة ، لأن الإنجليز
عقل ما يورعونه من أموال قد اسهلوا عمراً من لغنيين لنوالين لهم إلى متابعة
الزحف على البلاد المصرية (١) .

وكان من الواضح أن مو مع رغبته في الاعتماد بهذه البلاد ، أطول مدة ممكنة ،
لا يران رفض الاشتراك في معارك لاحقة ، ولا يريد أن يجهد عن حطة الحرب الدفاعية

ولذلك فإن رسائله إلى ليار لم تكن مطمئنة ولا مشجعة وراوت هموم ليار، عندما وصل دوريلو إلى القاهرة في يوم ٨ أبريل على رأس حدوده من الصعيد، ثم وصل بعد أربعة أيام الحراب لأحراج محده من الرحمانية، كما جاءت حامية الصالحية في ١٠ أبريل، وكان الفرنسيون قد أحلوا الصالحية قبل ذلك يومين. ثم توالى حضور حاميات القرن وباميس والسوس وسائر الحدود « ساحية الشرقية » رويدا رويدا بعد ذلك^(١). وقد دل على ذلك على أن الاضطراب قد ماتوا أممات السيطرة التامة على طريق ليل، وفي استطاعتهم الملاحة في هذا النهر دون عائق؛ بل في وسعهم الوصول أمام بولاق في ثلاثة أيام فقط لو أنهم شاءوا ذلك، وأن يهددوا الفرنسيين من الخلف بينما يهددهم النابليون من الأمام.

وكانت الأخبار قد سمعت الفرنسيين أن الصدر الأعظم غادر العريش منذ ٤ أبريل مع جيش مؤلف من عشرين ألف عثماني إلى جانب اثني عشر ألف انجليز^(٢) كما وصلتهم الأنباء عن قرب وصول الحملة الهندية الإنجليزية إلى القصر، وكان على ليار أن يحار بين أمرين إما الدماء في القاهرة فيلحق ضربات العدو الزاحف عليه من جهة الدلتا في الشمال والسويس في الشرق والقصر في الجنوب، وقد بلغ عدد هؤلاء جميعا حوالي سبعين ألف جندي، بينما كانت قوات ليار لا تتعدى السبعة آلاف جندي؛ وأما الخروج لمقابلة جيش الصدر الأعظم، فيقتضي عليه في معركة شبيهة بمعركة هيبوبويس الماضية، وإذا صدر له النصر عاد أدراجه لمواجهة الإنجليز الزاحفين على القاهرة من الشمال مستفيدا في هذه الحركة من وجود القوات التي أحصرها لأحراج ودوريلو خصوصا إلى القاهرة، فيجبر صوب الأمر حتى يقوم الفائز العام من حاسه بهجوم آخر في الوقت نفسه على مؤخرة الإنجليز^(٣) ولم يكن اللقاء في القاهرة ويتفق ضربات العدو فيها خطة حكيمة لغشى الطاعون واشتداد وطأته من جهة، ولا إهدام الثقة في القاهريين من جهة أخرى، وذلك على الرغم من هدوئهم الظاهر، وما صار ينفذ إلى ليار من أنهما عن حركات الجيش العثماني ومواضعه، أو يرشدوه إلى مواضع الثمرات التي يستطيع المدحون منها إلى القاهرة^(٤).

(١) الجبرتي ١٦٢ : ٢٠٢ ; Reybaud VIII 202

(٢) Reybaud VIII 191, 224

(٣) Ibid 225

(٤) Rigault 317

فمع أن الفرنسيين ظفروا يبدلون قصارى جهدهم لتهدئة أهل القاهرة ، ويؤكدون لهم انتشار الأمراض (كالجحر والرمدم وما إلى ذلك) في صفوف الاعداء ، وعزم هؤلاء على العودة إلى بلادهم ، ويقرأون في الديوان رسائل مطبوعة من مو تشتمل على أخبار كاذبة ، سهارعة السلطان في إخلاء البلاد من حمله غلبا للاشباك في حال مع روسيا التي تهدده قيصرها بالحرب إذا هو أصر على إزعاج الفرنسيين في مصر ، ويعيدون المشايخ في الديوان رفع « صيف اللبون » والظلم عن الأهالي ، لم يصدق أحد هذه الأخبار أو ذلك « الكلام الفارع » وفصلا عن ذلك رد من أمور الأهالي ما صار يعلقه صائح الفرنسيين ، من أشرار القوم « وأسافل العامة » مثل عبد العال الذي عيى أعاب مسحطان وعجسا ، حصار بعض في إرهابي التحار وازرار أموالهم وانصيفي على الناس ، وحسن الزهني ، وصرب أعناق الفلاحين من أهل المري اغامرة في طريق القنايين وقد ظل الحان على ذلك حتى أوائل مايو (١) .

وراد انوقف حرجا عند ما حامت الأخبار منذ ٢٦ أبريل ، معللة وفاء مراد بك بالطاعون بالوجه القبي ، فعقد الفرنسيون أقوى أنصارهم في الحبوب ، وكان ليبار قد طلب إلى مراد منذ يوم ١٥ مارس أن يحصر إليه عمالكة من الصعيد ، ولكن بوفاء مراد بدأ أتباعه تتمكون محطة الحداد ، وصرفوه عن تأييد الفرنسيين وإن لم يظهروا سد ولاتهم بصورة علنية ، وكان سبب تغير المليك أنهم شاهدوا الحبوب الحبيبة ترحف على لقاهرة من كل جانب ، وعلى وشك أن ينطق على قوات الميار الصعبة في القاهرة ، فاندفعوا الآن بأن موقف الفرنسيين سواء في القاهرة أو الإسكندرية قد بات ميئوساً منه ، وصاروا يستعدون لاجتماع معسكرهم قريباً من الاعداء وانصطفان ناشا . ومع ذلك حرصوا في الوقت نفسه على إخطار الفرنسيين عما صبح عنه عزمهم ، وصاروا يلتصقون الأعداء في إقدامهم على اتخاذ هذه الخطوة ، ذاكرين في الوقت نفسه أنهم لا يريدون هم شرأ ، ولا يسيرون الإحلال بهودهم وموائفهم (٢) ؛ وأخيراً سرعان ما حامت الأخبار منثة « بوصول طاهر باشا الأرثوذي بحملة من اسماكر الأرثوذية إلى أبي زعل » . وفي ١٢ مايو « وردت الأخبار (كذلك) بوصول ركاب الورر يوسف باشا إلى مدينة بلبيس » ، وذلك منذ ٨ مايو (٣) .

(١) الحربي ١٥٩٠٣ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦

(٢) Reymer 263 — 5

(٣) الحربي ١٦٦ : ٣ ، ١٦٧

وكان الصدر الأعظم قد جمع حوله منذ أواخر فبراير جيشاً عظيماً على مسافة قرينة من يافا ؟ ولكنه لم يستطع الزحف وقتذاك بسبب انتشار الوباء ، وريادة على ذلك أرسل له الخراج باشا وإلى عكا معدات جديدة رهائناً على ولائه للباب العالي ، فقرر أن يبدأ رحلته على الحدود الشرقية ؟ وبحسب محبة من العساط الإنجليز جيشه ، فكان مع الصدر الكولونيل هالوي Ha.oway ، ومع فرسان طاهر باشا الكائن ليك Leake ، ومع مشاة محمد باشا الألبانيين اسكان لاسى Lacey ^(١) ، فبدأ الصدر رحلته يوم ١٢ مارس ، وحادث رداة الطقس دون سرعة الحركة ؟ فبلغ العثمانيون العريش في آخر الشهر نفسه . وفي ٢ أبريل غادر جيش طاهر باشا ومعه الكائن ليك العريش صوب القطية و (الطيبة) ؟ وبعد ثلاثة أيام تمه جيش محمد باشا ومعه اسكان لاسى . وفي ١٩ أبريل عرك الصدر الأعظم يوسف صبا بسائر قوات الجيش والاضباط الإنجليز الذين كانوا بقيادة (هالوي) . حق إذا وصل الصدر إلى قطية بحث يطلب تسليم الحاميات الفرنسية في عربة اسرح ودمياط ، ثم وجه إليها جزءاً من قواته مدببت أن احتها بعد أن أحلاها الفرنسيون على نحو ما شاهدنا . وواصل الصدر سيره في طريق القاهرة .

ولما كان الفرنسيون قد حلوا الصالحية بعد أن استولوا تحصيناتها ومخارمها منذ ٩ أبريل ، وفعلا مثل ذلك في طيس في ١١ منه ، فقد استولى الصدر على الصالحية في ٢٨ أبريل ، ووصلت طلائع جيشه إلى طيس في اليوم التالي ، وانضم إليه كثير من المالكات والعربان والملاحين الذين عرا مؤرخو الفرنسيين انضمامهم إلى حيوش الصدر إلى رعنتهم في السلب والنهب طس ، ولو أن هؤلاء العربان والملاحين كانوا محصورون معهم المؤن والإعدية الكثيرة من القرى المحاورة التي سرعان ما اطمان أهلها بعد أن ذهب عنهم الخوف وقويت روحهم المصومة . ويات العثمانيون يمددون تدفق حيوشهم على القاهرة ^(٢) .

وقد ساعد الصدر الأعظم ولا شك على التقدم في داخل البلاد ، انتصار الإنجليز في معركة كاتوب ، ثم نجاح عملياتهم العسكرية التالية حق سقوط الرحمانية ، ولذلك فإنه لم يشأ الاستفلال في الرأي ، أو أن يحمل مفعلاً عن حمايته ، وانتمتع لمشوره هتشمسون الذي كان يحشى من أن تلحق بالعثمانيين المخرعة ، إذا هم اختبكوا في معارك

Anderson 320 (١)

Reybaud VIII 226 — 8. Charles-Roux II 184 (٢)

كبيره مع العدو من جهة الدنا ، بدلا من الزحف على القاهرة مباشرة . وكان العرض من ذلك شغل العربيين وحثه جهودهم ، ثم إتاحة الفرصة للجيش الصدر نفسه ليحدث في الجيش الإغليزى الزاحف على انماهه سكة تسدد إليها مؤخرة انماهين (١) وعلى ذلك فقد ذهب بعض قوات انماهين إلى عربه المرح ودهـ ط على نحو ما قدما ، ووقف الصدر عيشه في طيس .

ولما كان البار يرى من مدة أن في استطاعته الخروج من القاهرة والاشتراك مع انماهين في معركة فاصلة ، إذا اجتمع لديه جيش يكفى لتشكيل أربعة مراحات عدد تأليف قوة احتياطية ، يواحه بها جميعا حيوش انماهين (٢) ، فقد سحبت انماهية لتعيد ذلك عند محى . لاحراج محده من الرحمانية ، وزيادة عدد جيش القاهرة تبعا لذلك حتى صار يبلغ أحد عشر ألف مقاتل تقريبا . ولم يعد هناك ما يدعو إلى نقائه بالقاهرة يلقى صربات الأعداء الزاحفين عليه من الشمال والجنوب والشرق ، ومع ذلك ظل مليار متردد فترة من الزمن ، ثم دعا أخيرا محلا حريا للاعتقاد في يوم ١٥ مايو لبحث الموقف . وما كاد يجمع هذا المجلس حتى تعددت الآراء في أول الأمر وتوسعت ، فاقترح بعض القواد التفهق إلى دمياط وإحلاء القاهرة ، وأظهر (دوتبول) D'Hautpou قومندان سلاح المهندسين مرايا الاسحاب إلى دمياط . ذلك أن هذه كانت مركزا عسكريا سهل تحصينه ، وموحد به المؤن بكثرة وافرة ، وكاد يديره قبل فكرة التفهق إلى دمياط ، لاسيما إذا كان يعتقد أن الدفاع عن القاهرة صعب من الجنون ؛ ولكنه ما لبث أن سده هذه الفكرة حتى لا يحمل مسئولية إحلاء القاهرة ثم قرأ الرأى على اتناع خطة كان مليار معه قد اقترحها على مو (منذ ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠٠) . وحواها أنه إذا درس أن عدد الجيش القاهرة ثم رحب انعدو عالمها فالواجب أن يحتل الفرنسيون الحصون والنوافع الهامة حول القاهرة ، ثم يجرى تشكيل حاور منظم يسير لمقاومة العدو في أى مكان يأتى منه ؛ ولا يستطيع العدو الزحف على القاهرة إلا من جهتين ، إما من ناحية المطرية ، وإما من ناحية مصر القديمة وكان معنى اتناع هذه الخطة خروج مليار بجيش القاهرة للاشتراك مع انماهين في معركة بطامة (٣) .

Reybaud VIII 226 (١)

Rigault 322 — 3 (٢)

Ibid 331 — 2 (٣)

معركة الزوامل

وعلى ذلك فقد صمم بليار على الخروج بحيش من ستة آلاف مقاتل تقريباً ، يقوده كذلك لأحراج ، وروسان ؛ وكلف القوات الدافقة بقيادة الجبال أميراً Almeyras بالاحياء بالعدة والتحصين بها . وانصل على صد هجمات العدو عليها إذا وجه العنابوت قوات إليها ^(١) . وعدد بليار القاهرة . في عصر يوم ١٥ مايو قاصداً إلى بليس ، وكان معي اهرام حيش الصدر لوقته للعربيين النجاح ، صان استرجاع البلاد واقتطاعها من حديد ، يد يؤكد بعض المؤرخين أن مثل هذا الانتصار من شأنه أن يضمن لقاء الأهليين على هدوئهم وسكينتهم ، واستمرارهم على ولائهم الظاهر للعربيين . وفصلاً عن ذلك فإن النصر سوف يقص على الجيش المتبقي الراجع من الشام ، ويقص إلى عزل حيش العدو الزائف على القاهرة ، ل يوضع هؤلاء بين حجري الرخي . حيش بليار في القاهرة من أمامهم وحيش سو في الإسكندرية من خلفهم ^(٢) . وكانت هذه ولا شك خطة حكيمة لو أن القائد الذي حاول تنفيذها كان جريئاً غير هباب ولا وجل ؛ ولكن بليار كان شديد الخوف كثير التردد

وصل بليار إلى (البير) في اليوم نفسه وطرد منها بعض قوات العدو ، ثم قصى ١٢ الليل . ووصلت أخبار رجه إلى الصدر الأعظم في بليس ، فأرسل الصدر على الفور قوة بقيادة طاهر باشا ، وصلت في مساء اليوم نفسه إلى مسافة ثلاثة أميال من مواقع الفرنسيين ^(٣) . وفي صبيحة اليوم الذي (١٦ مايو) كانت معركة الزوامل ؛ بدأت العمليات العسكرية بهجوم الأتراك على الفرنسيين ، ثم سرعان ما انضم جسمانية من العرسان لتعبر قوات العنابيين ، ولما تبين هؤلاء أن العدو قد أحصر معه قوات كبيرة من المشاة والعرسان عدا اندفع ، أمر الصدر قائده الآخر محمد باشا بالاندماء إلى المعركة في حملة آلاف من العرسان والمشاة ، ونسعة مدافع من الطراز الخفيف ، ثم تسلم الصدر نفسه القيادة العامة ، فورع قواته إلى جماعات صغيرة للانفصال حول مرعات الفرنسيين ومناوشتهم ؛ وكان عرصه الواضح عدم الاشتباك مع الفرنسيين في معركة حامية عملاً بصيحة هتفون ، بل مجرد شعهم ، بها يسرع القسم الأكبر من درسه إلى القاهرة للاشتراك مع الإغلب الزاحمين من الرحمانية في احتلال امدية ،

Malus 211 — 2 (١)

Rigault 331 (٢)

Anderson 317 (٣)

وقطع حط الرحمة على سيار وحيشه^(١) وانتقل الفرنسيون في ثناء ذلك إلى مكان
يكثُر التحيل به غمى وطيس القتال ، وصد الفرنسيون على ارفع من هجومهم الشديد
صدّاً عيباً حتى إهم اضطروا إلى التقهقر إلى ما وراء الخناكة على مسافة سبعة أميال
تقريباً من مكان العمليات الأولى

ومع ذلك امتنع الصدر عن مطاردتهم ، بل أصدر أوامره بدم تعقيم^(٢) ، وشاهد
الفرنسيون العدو حثاً يكف عن ملاحقتهم ، وهذا شأنه إنما يسمى الارتداد على الرغم
من نجاح عملياته الظاهر فكان هذا التوقف من جانب الإنجليز كافياً لأن يستبد
العلى بالمائد الفرنسي ، فقد لحط سيار احتفاء فريق من فرسان الأراك من المبداء ،
وحشى أن يكون هؤلاء قد صدوا الذهاب إلى القاهرة على نحو ما فعل أصب باشا
بعد موقعة هليو بوليس^(٣) ، وبدر من الأراك فعلا بعد قيامهم بحركة الالتفاف السابقة
ما يدل على أن فرسانهم يريدون أن يشقوا لأنفسهم طريقاً إلى القاهرة ؛ وكان أكثر
ما يحشاه أن يكون المرض من توقف الأراك ثم احتفاء فريق من فرسانهم أهم
يرومون التقهقر والارتداد حتى يصمدوا إلى جيش القبطان باشا والحرال هتشمسون^(٤) .
ولانه أن الصدر بسبب بدوره من القطن حين باشا لارضى بوضع قواته إلى جانب
جيش منافسه القديم^(٥) ، فعلا عن أن اسحاب الصدر وتقهقره يحمل في طياته
— لو حدث — دور الفوضى ويؤدي إلى تثبيت حبشه^(٦) .

وعلى ذلك فإنه بدلا من أن يمضى سيار في قتاله ويبدل قصارى جهده من أجل
الاستيلاء على طيس والصالحية فهذا ذلك مؤجرة الإنجليز ، وبرغمهم على الارتداد
لاستخلاص قواعدهم على الأول تاركا لحامية القاهرة وكانت تتألف من حوالى
الحية آلاف من مهمة الدفاع عنها وصد هجوم الإنجليز إذا حاولوا الهجوم عليها ؛
صمم سيار على الانسحاب إلى القاهرة . وكانت حثته في ذلك إلى جانب ما تقدم أن
التعب والإعياء قد أحذا من حده كل مأخذ ، بسبب سيرهم الشاق الطويل في الصحراء
دون أن يكون لديهم ماء أو مؤن كافية . وسلك أسهل معركة الزواجر وحلت المريعة

Reybaud VIII 229 — 30 (١)

Anderson 318 — 9, 415 — 9 (٢)

Malus 211 — 2 (٣)

Reynier 246 (٤)

Walsh 151 — 2 (٥)

Bertrand II 401 — 2 (٦)

ناجيش الهرسي وهو جيش ظل مرهوب الجانب دائما — على أيدي العنابيين وحودهم التي يعورها البقام . والتي لا يمكن أن ترقى إلى جيوش الفرنسيين المطهرة ذات الشهرة الذائعة في سون الحرب والقتال^(١) . وهكذا أفلتت من بليار — اسم زرده ولعدم ثقته بنفسه وصعب إيمانه بالمهمة الملقاة على عاتقه — فرصة تخليص البلاد من جيوش « الأعداء » ، وبقيتها مسخرة فرنسية^(٢) . وفي ١٦ مايو عاد بليار إلى القاهرة ودخلها حينه في دلة وسكون ، فعال الشبح الحرقى ورحلوا مبرومين وكنتموا أمرهم ولم يذكروا شيئا^(٣) .

القاهرة بعد معركة الزوامل :

عاد بليار إلى القاهرة في حزن واستعداد ، وراد حربه ولا شك عندما وجد القاهرة لا تزال على الحال التي تركها ؛ فقد لرم الأهليون جانب الحكمة في أثناء معركة الزوامل ، وساد السكون والهدوء على خلاف ما حدث أيام معركة هليوبوليس ، فامتنع قاهريون عن الاحتلال بالعنابيين القريبين من مدينتهم ، سواء كان سبب ذلك الخوف من العقوبة الصارمة أو اضعاف وعدم الاكثراث^(٤) ؛ وفصلا عن ذلك كان هتشنسون وحوده لا يزالون في طريقهم من الرحابية إلى انطراة ، بعيدين عن القاهرة ؛ ولم تكن الحملة الإنجليزية المهدية تصل إلى القصير^(٥) ؛ ومع ذلك فإن المخاوف والأوهام التي جعلت رمام المعركة يقات من بين يدي بليار ، ظلت مهيمنة عليه كذلك حتى بعد عودته إلى القاهرة ، فهو لا زال يعتقد أن قاهريين يصمرون له اعداء ، ولجيشه الكراهية ، ويتصورون بالفرنسيين الفرص للقيام بالثورة عليهم ، وترعرع إيمانه في إمكان الدفاع عن القاهرة ضد الجيوش الزراعية التي سوف تطلق على قواته بعد فترة قصيرة من الزمن ؛ ورالت ثقته في حدود أعمال التحصينات التي تقوم بها حده ، ووطد النعمس على أن يلقى العنابيين والإعبيز وهو على حد قول باليون فيما بعد « مكتوف الذراعين » مشلول الحركة ، قد عانت عن دمه كل دون الدائرة ، فلا يحاول أن يشن هجوما على هتشنسون ، أو يبعد الكرة على جيش التور ، (الصدر الأعظم) ، ولا يسعى للاتصال بقائد الحملة الأعلى ، صو ، في الاسكندرية .

Fortesque IV, 2. 853 (١)

Reybaud VIII 231; Rigault 333 (٢)

الجري ٣ : ١٨٦ (٣)

Reybaud VIII 233 — 4 (٤)

De Noé 133 — 4 (٥)

وكان في وسع بلبار أن يفعل ذلك لو أنه كما تقول مابدون أيضاً شق نفسه طريقاً على حاسب النيل الأيسر ثم هو في حاسب ذلك كله لم يبدب جهداً نافعاً بحصين القعدة حتى إن (دوباس) قومداها آذر باستقالته^(١). واعتقد كثيرون أن بلبار ما كان يسعى من اهتمامه بتنظيم الدفاع عن القاهرة سوى إبعاد العدو بأن من الحذر له أن يمرص عن المصريين تلك الشروط التي بدلتها حدوده في محصين القاهرة، وظهر الخنادق وإقامة المناريين، ثم بعد أن العدو لم يستطيع الدخول إلى القاهرة إلا على أحساد حديد، ويقول «ومن ذلك يتضح أن لاهاب الموت جميعاً أو على (أهمسا) شروط تهقربا» وإحلاء القاهرة^(٢)؛ وراود اقتناع بلبار بسبب المقاومة عند ما بلغه عادة دخوله القاهرة حراً تسليم كماله، وما دل عليه هذا الحادث من اشتباك الجند إلى الوطن، ورجعتهم في التسليم ما دامت شروطه تكفل في نظرم العودة إلى فرنسا مرفوعى الرأس، موهورى الكرامة. وقت في عصده انتشار الطاعون، وكان وباءً حارفاً لم تشهد البلاد مثله من أيام وباء (إسماعيل بك) في عام ١٧٩١ فقد أهلك الطاعون سد ظهوره في شهر يمار (١٨٠١) مات المصريين - عدا ألوف الأهليين - ولم تنكسر حدة هذا الوباء ونعم وطأته إلا في أواخر مايو^(٣).

وهكذا انصبت الأيام التالية دون فعل شيء، بل قنع بلبار بالوقوف دون حراك ينتظر مجيء العدو؛ وكان لهذا الموقف السيئ أكر الأثر في إضعاف روح الجند المعوية أولئك الجند الذين شاهدوا الوباء يفتك بجموعهم، ويترعب العدو عليهم من كل جانب، دون أن يحرك قوادهم في الإسكندرية والقاهرة ساكناً لإقنادهم، أو يرسل القصل الأول للجدات اللازمة لتحليصهم من مأرهم، فاشتد هم اليأس واعتقدوا أن «فرنسا قد تركهم وشأنهم، وصارت لاسى بهم»، وصاروا يسعون على هتسسون والإغمر بطأهم، لأنهم باتوا يريدون الآن «الانشاء»، على أبة صورة من الصور، من ذلك المؤس وتلك الشقوة التي بصت عليهم عيشهم^(٤).

(١) Bertrand II 434 — 8

(٢) Rigault 335

(٣) المجلد ٣ : ١٧٢ وما بعدها ثم ١٨٥ ، 6 — 52 Galland

Reybaud VIII 242 — 4

(٤) Thurman 208

وعلى ذلك فقد عدت القاهرة مد عودتي نيار من معركة الزوامل إلى وقت إختلافها ودحول الغائبين إليها مسرحاً لحوادث غده ، رجع أساسها إلى موقف ملار « السلى » وما رتب عليه من ضرورة مواصلة التحصينات وتهيئة حبل الدفاع عن القاهرة ، ثم العمل بكل الوسائل من أجل « إقناع » القاهريين بواجب الإحلال إلى اسكيتة . ولما كان الفرنسيون قد فعلوا بالوفوف مكتوف الأيدي في اسطار وصول العدو ، فقد هم عن رحيل الإنجليز ولغائبين على القاهرة قطع كل الطرق بينها وبين البلدان المحاورة ، كما منع العدو كل اتصال بين القاهرة والصعيد ؛ وصيق العدو الحصار على القاهرة رويداً رويداً ، فامتنع ورود الأعدية وللؤن ، وصر القاهريون بوطأة هذا التصيق الشديد أكثر من الفرنسيين ، الذين كانوا قد ملأوا عدران القلعة التي تحصنوا بها بادؤن والعتاد ، فارتفعت الأتمان وشكا الأهليون من العلاء العاخش وفصلا عن ذلك فإنه لما كان من المصدر على الفرنسيين أن ينسوا أية صرائف من محلف جهات القطر التي حرحت من حورنهم ؛ وكانوا بحاجة مدحة إلى المال ينفقون مه على أعمال تحصيناتهم ، ودفع مرسات خدمهم ، وسداد تكاليف الحكم والإدارة في تلك الواقع القليلة التي بقيت لهم ، فقد باتوا يعتمدون الاعتياد كله على اسرار الأموال تشق الطرق من أهل القاهرة لمد حاجتهم ؛ فعمم الكرب واللاء .

ولم يبع القاهريين في هذه الشهور القليلة الحاسمة في تاريخهم من إعلان الثورة على الفرنسيين سوى اشغالهم بتدبير أمور معاشهم من جهة ؛ وبدفن موتاهم في وقت كان الصاعون يفتك بهم فتكا دريماً ، ولا روى طريقاً للاعلاص مه من جهة أخرى ، وعدم أكثراتهم بذلك انصل الدائر حولهم ، وقد باتوا يشعرون في قرارة نفوسهم بفضل ما يتسقطوه من أبحار عن حركات الجيوش العظيمة الزاحفة على القاهرة ، أن العريج قريب ، وأن الهزيمة في هذه اللوة من نصيب الفرنسيين لا محالة . وآية ذلك أن أحداً من أعضاء الديوان أو المشايخ ما كان يصدق تلك « التوسهات » التي صار يقصها عليهم قورييه وكيل الديوان ، أو حيرار الذي حلفه ، أو يلقى بالاً إلى تلك الرسائل التي « ادعى » قورييه أو حيرار أو (أسوف) الخارندار العام ومدبر الحدود أنها آية من مو بالإسكندرية . ولم يلبس القاهريون في محاولة الفرنسيين أن يستميلوهم إليهم ، بعد أن أخذوا مهم الزهائن واعتقلوا شيوخهم وكار سراهم ، ثم سودوا عليهم مرآ من « أسافل » الناس ، وأرهقوهم عطالهم المالية التي لا تفرغ ، إلا ضعفاً ؛ ولم يروا في ذلك كله إلا دبلاً على عمر أعدائهم وهرعتهم ، وعلل الأهليون أنفسهم

ياكتشاف انصة فرنسا ، فلم يد شيوخهم من أعضاء الديوان انهما بما يطلب إليهم أن يفعلوه ، فهم يحقون الرسائل تارة إلى مو « شكر » ، وتارة إلى ليلى ياخذون على أنفسهم العهد والمواثيق بالام الهدوء والسكينة ، وهم يظهرون « تصديقهم » لما يلقى عنهم من أكاذيب ؛ ثم انتهى بهم الأمر إلى عمر العرييين ولهم في مناقشات بدل على أنهم ما عادوا يقومون لهم ورنأ ولا اعتارآ .

وبذكر الشيخ الحزبي ما فعله العرييون من أحل حصنين القاهرة ، وبصم ما ترتب على ذلك من هدم وتخريب ، حتى « عم الخراب حطة اغنيبة خارج باب الفتوح والحروي هدموا تلك الاحطاط واخهت والخراب والدروب والامانات والماسد والمرارات والروايا والتكاي ، وركه حياق وما بها من الدور والقصور الرحرفة ، وحامع السلاطية العظم باب النصر . . . واصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس إلى باب الحديد ، حتى بقي ذلك كله خرابا متصلا واحداً وبقي سور المدينة الأصلي طهرا مكتوها ، فعمروه ورموا ما تشعب منه وأوصلوا بحسه بعض النساء ، ورهوا سباه في العلو ، وعملوا عدد كل باب كراك وبديبات عظاما وثواباً داخلة وخارجة وأحشائاً معروسة بالأرض مشكة بكيفية مخصوصة ، وركروا عدد كل باب عدة من العسكر مقيمين وملازمين ليلا ونهارا ، ثم سدوا باب الفتوح بالنساء وكذلك باب الرفية وباب المحروق ، وأنشأوا عدة قلاع فوق تلال البرقية ورتبوا فيها العساكر وآلات الحرب والدخيرة وصارح ابناء وذلك من حد باب النصر إلى باب الورير وباحية الصورة طولا فهدوا أعلى التلال وأصلحوا طرقها وجعلوا لها مراقي واعدارات لسهولة الصعود والمهبوط بقياسات وتخريرات هندسية على روايا قاعة ومنفرحة وموا تلك القلاع عفاذير بين أهداها ، وهدموا أمية رأس الصورة حيث الخطاة وباب الورير تحت القعة الكبيرة ، وما ذلك من المدارس القديمة المشيدة والقباب المرتفعة ، وهدموا أعلى المدرسة النظامية ومبارتها وكانت في عاية من الحسن وحصولها قعة ونبتوا ما بها من القصور فوجدوا اللوق في توايت من الخشب فقصوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام اللوق فأرلوا تلك التوايت وألقوها إلى خارج ، فاجتمع أهل تلك الجهة وحملوها وعملوا لها مشهدا مجمع من الناس ودفعوها داخل التكية المجاورة لباب الدرج ، وحصلوا تلك المدرسة قلعة بعد أن هدموا مبارتها أيضا ، وكذلك هدموا مدرسة القبايسة والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الخركسي وجامع خوند بركة

انصارية خارج باب الشرقية ، وكذلك أبنية القرافة ومدارسها ومساعدتها وسدوا الباب وعملوا الجامع الناصري للالتصق له قلعة بعد أن هدموا مئذنته وقبابه وسدوا أبواب الميدان من ناحية الرملة وناحية عرب اليسار وأوصلوا سور باب القرافة بجامع الزمر وجعلوا ذلك الجامع قلعة ، وكذلك عدة قلاع متصلة بالخرابة التي كانت تنقل الماء إلى القلعة الكبيرة وسدوا عيونها وبواكبها وجعلوها سوراها ولم يبق منها إلا قوصرة واحدة من ناحية الطيبي جهة مصر القديمة جعلوها نارا ومسلكا وعليها الكرك والقر والفسح والاربعين الإقامة بها ولقص المكس من الخارج والداحل وسدوا الجهة للسلوك من ناحية قطرة السد محاجر حشب مقصص وعليه باب نفق مدعص أيضاً وعليه حرسية ملازمون القيام عليه وذلك حيث - وافي الخرابة التي كانت تنقل الماء إلى القلعة وحملوا ذلك حديداً »

وحروا دور الأربكة وهدموا قطرة الدوسكي وما حاورها ، « ومن أول القنطرة المقدلة للحمام إلى الدوابة المعروفة بالعقبة انزرقاء حيث جامع أربك . فبذلك المار من على القنطرة في رحمة متدعة ينتهي إلى رحمة الجامع الأربكي ، وهدموا بيت الصاوي وحى ووصلوه بحرس عريض تمتد محمد حتى ينتهي إلى قطرة الدكة ، وفي متوسط ذلك الجسر يحط حرس آخر إلى جهة اليسار عند بيت الطويل المهذوم وبيت الألبى حيث سكن ساري عسكر تمتد ذلك الجسر إلى قطرة للعري ومنها يمتد إلى بولاق على حط مستقيم إلى ساحل البحر . . . وهدموا المسجد المخاور بقنطرة الركبة مع ما حاوره من الأبنية والبيطات وعملوا هناك بوابة وكردكا وعسكراً ملازمين الإقامة والوقوف ليلا ونهاراً وذلك عند مكن المزار قنظام وهي دار حركس الجوهري وما حاوره (١) » وهدم الفرنسيون « القصاب والمدفن الكائنة بالقرافة تحت القلعة خوفاً من ترس بخاريين بها فكانوا يهدمون ذلك بالبارود على طريقة القنم . . . وكذلك أرادوا حاساً كبيراً من الجبل المقطم بالبارود من الجهة المخادبة للقلعة خوفاً من تمكن الخصم منها والرمي على القلعة » ، « واجهد الفرنسيون في وضع متاريس خارج السد من الجهة الشرقية والبحرية وهدموا حنادق وطللوا القلعة للعمل فكانوا يقضون على كل من وحدوه ويسوقونهم للعمل ، وكذلك صلبوا شجرة القرافة وألقوا الأحجار العظيمة والبرك سحر اساه لتقع المراكب من الصور . واشتدوا المناريس البحرية من باب الحديد بمودة إلى قطرة المليون إلى قصر إفرنج احمد إلى السنية إلى بحري البحر ،

« وشرعوا في هدم حجاب من الحرة في الجهة الحرة (ببست اقزاب) عسكر الامكبير القادمة من الد القري إلى البلد المناء سادر سيد رأس نعة الفرعونية »^(١)

وُزعج هذا الهدم والتعريب الأهليين إزعاجاً كبيراً فقد لقي هؤلاء بسبب سد باب لرقية (أو العريب) خصوصاً مشقات كبيرة في دفن موتاهم بستان اهاورين ، وكان باب اسرفية هو الطريق السلوك إلى هذه المدائن ، وذلك في وقت اشتد فيه فتك الطاعون ، فاضطر سيار إلى فتح باب صغير في « حائط السور جهة كفر الطماعين على قدر المشى والجلالين وللشاة »^(٢) وكان مما أزعجهم ذلك الحدق الذي احتجروه الفرنسيون عند بلال البرقية كذلك « فكان الذين يخرجون بالأموات يصعدون بهم من فوق التل ثم يزلون ويمرون على سقالة من الخشب على الحدق المغمور لحصل للناس عية امشقة . واتفق أن متاسقط من على رفات الجالين وتدهرح إلى أسفل التل »^(٣) وراد الاء الناس وشقاؤهم عندما شحت الأفوات وارتفعت الأثمان « لاستمرار انقطاع الطرق وأسباب التاجر وعلو اصناف المخلوة من البلاد الرومية والشامية والمهدية والحجازية وانعرب حتى علت أسعار جميع الاصناف ، وانتهى سعر كل شيء إلى عشرة أمثاله »^(٤) .

ولما ضيق الجيوش الزاحمة الحداق على القاهرة « عرت الأفوات وشحت زيادة على قتلها وخصوصاً السمن والخبز والأشياء المخلوة من الريف ، ولم يبق طريق مسلوكة إلى المدينة إلا من جهة باب القرافة وما يحلب من جهة النساتين من القمح والين ، فبأنى ذلك إلى عرصة العلة بالرميلة ، ويردحم عليه النساء والرجال بالمقاطف فيسمع لهم صرعة عطيفة ، وشح اللحم أيضاً وعلا سعره لفة المواشى والأعديم . (وأما الزيت) (فصار) لا يوجد السنة وعلت الأندار جداً »^(٥) ، وطلب الفرنسيون الزيت من « الرباتين والزموم بمائتي فوطار سيرج وسمروا جملة من حواينهم ، وخرج جماعة من الجرادس لشراء السم من القري القرية فقص عليهم عسكر العثمانية ابادمة ومعهم من العودة بالذم والقر، وكذلك سعوا العلاحين الذين يحملون الميرة والأفوات

(١) الجرق ٣ : ١٧١ ، ١٨٦ - ١٨٧

(٢) الجرق ٣ : ١٦٢

(٣) الجرق ٣ : ١٦٤

(٤) الجرق ٣ : ١٧٢

(٥) الجرق ٣ : ١٩٠

إلى المدينة ، فاقطع الوارد من الجهات البحرية والقلوية ، واضطر الحرارون إلى إعلاق حوائيتهم ^(١) .

وما إن وصلت الجيوش الراحمة إلى الجيزة حتى صنعت « للمعادي من تعذية البر انشرف فاقطع الخالد من الناحية القلبية أيضاً ، فاصح وصول اللان والاقوات والبطح وبعجور والحصروان والخيار والحن والحس والمواشي ، فمرت الأقواب وعات الأسعار في الأشياء الموحودة منها حدا » ، وعلا صجيج اساس وصحبرم عندما تعذر حصولهم على الاملاص خصوصاً ^(٢) وراذ كرب القاهريين وتوسهم عندما أقر الفرنسيون أنهم « عبد امال وأساليه الغنية في اترار أموال الناس ، لحاجة الفرنسيين للذخيرة إلى المال يسدون به نفقاتهم بعد انقطاع مواردهم ، ففلس هؤلاء جعل عبد امال الأنا على « سيف وستين من معارة المعاميين وطوبون والعورية وعموم ^(٣) » وقفس عبد امال الأنا « عني أناس من العورية والساعة ومرحوش وغيرهم وأنهم عدل ، وسئل عن ذلك فقال لم أقوله من قبل بقى بل عن أمر من الفرنسيين » .

وعندما ضج القاهريون بالشكوى « أنهى مشايخ الديوان تعرض عبد امال لصادرة الناس وطلب امال بعد تأميمهم وتشيرهم رفع نصف اللبون عنهم ، فأحيوا بأن ذلك على سبيل القرض لمعطى المال المبرى واحتياج العسكر إلى الذخيرة ؛ وقيل لهم أيضاً إن كان بكمكم أن تكتسوا إلى السداد مدفع المبرى وفصا العظام عن الناس ، فقالوا هذا غير ممكن لحصول اللاد في حيازة القادمين وقطع الطريق من وقوف العرب بها وعدم الانظام ، وإنما القصد اللاطمة والرهق . فإن وحيثما انصح والوساطة في الخير ^(٤) » . وتشدد الفرنسيون في طلب الأموال « المتأخرة من فردة المتمردين » ؛ « وقصوا على الطون إلى طافية الصراى القسطى وحسوه بالقلعة وألزموه بملع دراهم تأخرت عليه من حساب اللاد ^(٥) » وظهر التحبط والارتباك في معاملهم ، فهم تارة يعملون على استمالة القاهريين وتأميمهم ، وتارة أخرى يسعرون القاهريين بأعمالهم ويشيرون أحقادهم ؛ فقد تقدم كيف شكل الفرنسيون في عهد كبير فرقة عسكرية من الأقباط وعهدوا بقيادتها إلى العم يعقوب ؛ « نهر يعقوب الفرصة وأخذ يكثر من » جمع

(١) الجبرق ٣ : ١٨٦

(٢) الجبرق ٣ : ١٩١

(٣) الجبرق ٣ : ١٦٣

(٤) الجبرق ٣ : ١٦٤

(٥) الجبرق ٣ : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧

شبان القبط وحقق نجاحهم ورواها يرى مشابهة لسكر الفرساوية يجرى عنهم تقع يدونه على رؤوسهم مشابهة لشكل الرابطة وعليها قطعة فروه سوداء من جلد الغم . وصيرهم عسكره وغروته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكس المحاورة لحارة النصارى التي هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر ، وبنى له قلعة وسورها سور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بساتين عظام ، وكذلك بنى أبراجاً طاهر الحارة جهة ركة الأركنية ، وبنى جميع السور المحيط بالأبراج طبقاً للدفاع وسادق لرحمن على هيئة سور مصر الذي رماه الفرساوية ، ورتب على باب القلعة الخنادق والدعايل مدية من العسكر للارمين للوقوف ليلاً ونهاراً ويأيدهم لسادق على الطريقة الفرساوية (١) .

وعندما شرع الفرنسيون يحصون القاهرة « توكل رجال مطي يقول له عبد الله من طرف (العلم) يعقوب جمع طائفة من الناس لعمل الماريس فهدى على بعض الأعيان وأرطم من عبي دواهم وعسف وحرب بعض الناس على وجهه حتى أساء دمه ، فتشكى الناس من ذلك القبطي وأشهروا شكواهم إلى بشار قائمقام ، فأمر بالقصاص على ذلك القبطي وحسنه بالقلعة » (٢) . على أن مما يجدر ذكره أن سائر الأقطار لم يكونوا راضين عن هذه الحال فكتب منو إلى القنصل الأول منذ أواخر نوفمبر سنة ١٨٠١ « أن الأقطار باستثناء العلم يعقوب لا يطمعون إلا بدمي الرضا لي يشعروا بأن أسباب السلطة قد أفلت من أيديهم » . ثم وصفهم منو بأنهم أعظم الناس ميلاً إلى المقاتلة والسكر في العالم (٣) ، وهو وصف إن دل على شيء ، فدل على عدم اطمئنان الفرنسيين إلى القبط ، وعلى أن الفرنسيين كانوا يتوقعون إذا استندت جماعة العلم يعقوب — اشتراك القبط مع سائر إخوانهم القاهريين في الثورة على الفرنسيين عند سوح الفرصة ؛ وكان أكثر ما يحشاه الفرنسيون عند اشتداد حرج مركزهم في هذه الأيام الحاسمة أن يشعل القاهريون الثورة ضدكم ، وعجزة عند ما دأبت الأحجار أن القاهريين صاروا يكثر من عقد الاجتماعات في حى الأزهر ؛ واعتقد كثيرون من قواد وكبار رجال الحجة أن خوف القاهريين « العظيم » من بطش الفرنسيين بهم هو السبب الذي يمنعهم من إشعال هذه الثورة (٤) ، وجمعهم بالبرام الحدود والسكينة ، على الرغم مما كانوا

(١) الجرد ٣ : ١٧١

(٢) الجرد ٣ : ١٨٨

(٣) Reynier 385

(٤) Martin II 190

بمأساة من ويلات الحصار ، وعلى الرغم من اقتراب قوات « العدو » — العثمانيين ، ولا عجز — من أسوار القاهرة ؛ ومع ذلك فقد أبدع المشايخ بليار والعريسيين ، أن القاهريين يتنصرون الانضمام إلى العثمانيين إذا أفلح هؤلاء في دخول القاهرة ، وأنه يتصدرو عليهم — أي على المشايخ — أن يعصوم من ذلك ؛ وسعوا بصراحة لإحكام الرقابة على المسالك المؤدية إلى القاهرة ، ومساعدة الحراسة على أبوابها . وكان من أثر هذه النصيحة التي عمل الفرنسيون بها ، أن أحد بليار عددًا من المشايخ أغام « رهبة » في القعدة (١) .

وعند الفرنسيون إلى أسبلة أهل القاهرة بشق الطرق ، ومن أهمها أنهم أهدوا يظهرون الرقابة بالعريسيين ، « ورفضوا الطلب عن الناس باقي نصف المليون » ، ثم صاروا يكتفون من عهد الديوان ، ويقرأون على أعصائه الكتب والرسائل الواردة من الإسكندرية ، ويدون باليد ، ويلقون الخطب التي كان امصرس منها « محاولة إقناع المشايخ » — ثم أهل القاهرة عموماً — بأن العريسيين لا يرالون يستمعون لكل سيطرة وساطة في البلاد ؛ وأن امصر سوف يكون نصيبهم لا محالة ، على الرغم من إطلاق جيش لعدو على القاهرة ، وأهم لا يسيرون الحلاء عن مصر مهما طال أمد القتال ولكن مساعيتهم هذه كانت فاشلة ، لأن محاولة رفع « الطلب عن الناس باقي نصف المليون » حادت متأخرة ، وبعد عودة بليار من موقعة الزواجل مهروما ؛ فكان السبب في إظهار « الرقابة بالناس والسرور هم » ، هو عدم قيام القاهريين — على حد قول الشيخ الحزقي « عند خروج (العريسيين) للحرب وحلوا البلدة مهم ، وكان (الفرنسيون) يظنون منهم ذلك » (٢) .

وأدرك القاهريون أن العريسيين ما لجأوا إلى رفع هذه المطالب عنهم إلا لئلا ما كانوا فيه من حرج شديد ، خوفاً من ثورة الأهالي عليهم في وقت كانوا يتأهبون فيه للدفاع عن القاهرة ؛ وزاد القاهريين اقتناعاً بأن المريعة سوف تبرز بأعدادهم إن هؤلاء ظلوا يقولون الأعدية والأمنمة والقتال إلى انقضاء . فدون الشيخ آخرتي أخبر ذلك في نفس اليوم الذي رفع فيه الفرنسيون الطلب عن الناس باقي نصف المليون ، فقال : « وفيه (أي في هذا اليوم نفسه ، وهو اليوم الثامن عشر من شهر مايو ١٨٠١ والخامس من شهر ذي القعدة ١٢١٦) أخذت جملة من عدد الطواحين

(١) Reybaud VIII. 235; Reymier 261

(٢) آخرى ٣ : ١٨٦

وأصعدت إلى القلعة ، وأكثروا من نخل الماء والدقيق والأقوات إليها ، وكذلك البارود والكبريت والخلل والقار والنب وتلقوا على الأسواق والبيوت من الأمتعة والعرش والأسرة وحملوه إليها ولم يبقوا بالفلاح الصغار إلا مهذبات الحرب (١) . ثم استمر العرسيون محصورون بالقاهرة ، هدمون الأبنية ويحرقون الخنادق ويقيمون المناريس . ولم يكن من المنتظر نسب ذلك كله أن يصدق القاهريون تلك البلاغات أو الدفاتر والخطب إلى أحمد العرسيون من عقد الهدوان وطلب المشايخ إلى الاجتماع درجة لإلغائها على المشايخ وأعصاء الهدوان حتى يتاح لهم الدبوع والانتشار بواسطة هؤلاء الرؤساء بين الأهليين عموماً . ولم يطلع هذه البلاغات والبيانات في قلاع القاهرة بين أن العرسيين ناقون في بلادهم ، وأن ما يتطاول بينهم من شتمات عن إهمال جند الحملة وانتصار النصارى وحلفائهم الاغتر عليهم ، لا يستند إلى أساس من الصحة .

وكان النسب الأكبر في عدم تصديق أهوال العرسيين أن هؤلاء اعتدوا على النديمي والكذب في صوغ رسائلهم وساناتهم وحطهم ؛ بل ظهر غوهمهم بصورة جعلت القاهريين يرددونهم ، ويستحقون تأمرهم . وقد سبق ذكر الشيء الكثير من ذلك . ومن أواخر شهر أبريل وطوال شهر مايو على وجه الخصوص كثرت اعتقادات الهدوان أو الجمعية وقراءة الكتب الواردة من موطن المشايخ والأعصا ، وإلقاء البيانات « السكادية » حدث في أول مايو أن اسفد الهدوان « وحضر الحارث بندر (أسوف) والوكيل (حيار) وعبد القادر وعلى أغا الوالي ونعمس النصارى كالمسد أحمد الزرو والحاج عبد الله التاودي شيخ النورية ، والحاج عمر البيطلي النصارى الحنبل ومحمود حسن وكلهم الزحمان - فتكلم أسوف ورحم عنه الزحمان أن سارني عسكر الكبير موثقكم السلام وبشي عليكم كثيراً . وسيحلى هذا الحادث إن شاء الله تعالى ويقدم في خير ويرى أهل مصر ما يبرهم . وقد هلك من الاسكار خلق كثير وبقهم أكثرهم مرمودون الأعين وعرض ارحير وحادث طائفة منهم إلى العرساوية وانضموا إليهم من حوهم وعطشهم . ولعنوا أن العرساوية لم يسلموا في رشيد قهراً عنهم بل تركوها قصداً ، وكذلك أحلباد مباط لأحل أن يطمعوا ويدخلوا إلى بلاد ، ويتعرق عساكرهم فتمكن عند ذلك من استئصالهم . وعلمكم أنه قد وردت إلى سكدرية مركب من فراسا وأجبرت أن الصلح قد تم مع كامل القرانات ماعدا الاسكندر ، فانهم لم يدخلوا في الصلح وقصدم

عدم سكون الحرب ولعنوا يستولوا على أموال الناس * واعلموا أن الشيخ المحوسين بالقنعة وغيرهم لا بأس عليهم وإنما القصد من تعويهم وحسبهم رفع اليأس والخوف عنهم ، وشريعة الفرساوية قصت ذلك ولا يمكن مخالفتها كخاتمة القرآن العظيم عندكم . وقد بلغنا أن السلطان المنتمى أرسل إلى عسكره بالكف عن فرساوية والرجوع عن تسلطهم ، فذهب عليه بعض السفهاء منهم وخرجوا عن طاعته وأقاموا الحرب بدون يده . فأحاطه بعض الحصارين بموله إن القصد حصول الراحة والصلح ، والفرساوية عندما أحسن حالا من الإسكندر لأن قد عرفوا أخلاقهم ، وعلم أن الإسكندر إنما يريدون مصابهم إلى القنينة تعبيد أعراضهم فقط ، فإهم يولون المنتمى ويقرونه حق بوقوعه في المهالك ثم يتركونه كما فعلوا سابقا .

وكأنما قد أدرك (الحارثدار) أن الحصارين إنما يطاهرون بصدق أقواله ، محاربة له ولقدفع الأذى عن أشخاصهم بحسب ، فأثنأ يقول « إن الفرساوية لا يحبون الكذب ولم يمهذ علمهم ، فلازم أن تصدقوا كل ما حركتم به » . فأجابه بعض الحصارين بموته إن الكذب من شجة الحشاشين وحدهم « والفرساوية لا يأكلون الحشيش » ؛ فمير (استوف) من طعنه ، وأحد بتوعد المصريين بالفتوة الصارمة إذا « وقع من أهل مصر فشل أو فساد » ثم قال : « واعلموا أن الفرساوية لا يتركون الديار المصرية ولا يخرجون منها أبداً لأنها صارت بلادهم وداخلة في حكمهم ، وعلى الفرس والتعديرون إذا عدوا على مصر فإنهم يخرجون منها إلى الصعب ثم يرجعون إليها ثانية . ولا يحظر في السك فلة عساكرهم فإهم على قلب رجل واحد وإذا اجتمعوا كانوا كثيراً » ومع ذلك فإن أحداً من الحصارين لم يصدق هذه « التوحيات والخرافات » التي « طال الكلام فيها » ، وكانت أخوة الحصارين على حد قول الشيخ الحارثي « بحسب مقتضيات » * « ثم فإن الحارثدار والقصد منكم معاونة الفرساوية ومساعدتهم وعلاق بعض الليون وشجع بعد ذلك عند ساري عسكر في قوات انصب الشيء حكم ما عرفكم فانتقام ليار . فاجتهدوا في علاقه من الأغنياء وانزكوا الفقراء ، فأجوبوا في آخر الكلام بالسمع والطاعة ، فعان لكن يسمى التحصيل فإن الأمر لازم لأجل مهنة العسكر ؛ ثم قال لهم يدعي أن تكسوا حواصاً لساري عسكر تعرفونه فيه عن راحة أهل البلد وسكون الحال وبماكم توظفتمكم ، وهو إن شاء الله يحصر الإسكندر عن قريب . واضعز المجلس وكتب الجواب الأمور به وأرسل (١) » .

وبذكر الشيخ الحيرى أن الفرنسيين مالتوا بعد ذلك أن « أبرروا مكتوناً (فى ٩ مايو) ورغموا أنه حصر من سارى عسكرهم وقرى بالديوان » وقد أظهر مو فى هذا الخطاب حصه على قوره وكيل اللهون الذى ترك القاهرة وتوجه إلى الإسكندرية « صد (أوامره) .. وما لك افعلة إلا من نفس حصارته » فاستدل به « لسوان حيرار (وهو — على حد قول مو) رجل وحيد الاسبوصاء لأجل عرصه وفصله وخصوصاً لأجل عيره وحماره » ، وقد أئاد حيرار « فرش الديوان » فى اليوم الذى « أما الشيخ الحيرى فلم ر فى إعادة فرش الديوان إلا إيماناً فى التويه والتصيل « على حد قول القائل :

وعهدى للشامتين أبرهم أنى ريب الدهر لأنصع»^(١)

وفى يوم ٩ يوية « طلوا مشايخ الدوان فاجتمعوا بالديوان وحصر الوكيل والرحمان وطلبهم للحضور إلى قائمهم ، فلما حصوا عنده قان لم على لسان الترجمان : نعلمكم أن الخضم قد قرب منا ، ورحوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيات ، وأن تصحبوا أهل الله والرعية أن يكونوا مستمرين على سكوتهم وهذوهم ولا يتدخلوا فى الشمر والشمع ، فإن الرعية عيرته لولده وأهم عيرة الوالد ، وما أحب على الوالد صبح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المسقم التى يكون فيها الخير والصلاح ، فإنهم إن داموا على الهدو حصل لهم الخير ونحو من كل شر ، وإن حصل منهم خلاف ذلك رلت عنهم لار وأحرقت دورهم وسبت أموالهم ومتاعهم ويسبت أولادهم وسبت ساؤهم وكرموا بالأموال والفردي لى لاصافة لهم بها فقد رأسهم ما حصل فى الوقائع السابقة فاحذروا من ذلك فإنهم لا يدرون العاقبة ولا سلككم المساعدة لنا ولا المعاونه لحرب عدونا ، وإنما نطلب منكم السكون والهدو لا غير ، فأجأوه بالنسج والصدعة وطلبهم كذلك وقرى عليهم ورقة عفى ذلك^(٢) » وأمر الفرنسيون « الأء وأصحاب الشرطة بالمدااه على ساس بذلك وأنهم ربما سمعوا صرت مدافع جهة الحيرة فلا يرغوا من ذلك فيه شك وعيد لعن أكابهم وأن عتتم من المد بالديوان الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات ونهى عنهم ذلك فلما كان صوة يوم الثلاثاء (١٠ يوية) اجتمعوا كما ذكر وحصلت الوصية والتحذير وانتهى المجلس وذهبوا إلى محلاتهم^(٣) .

(١) الحيرى ٢ : ١٦٧

(٢) الحيرى ٣ : ١٨٨ : ٤ : Galland 63

(٣) الحيرى ٣ : ١٨٨

وفي يوم ١٢ يولية «اجتمع المشايخ ولوكيل نالديوان على انعاده ، وحضر أستوف
الخارندار وترحم عنه رفيل بقوله ، إنه تبقى على كل من القاصي والشيخ إسماعيل
الزرقاني باعتنائهما فيما يتعلق بأمور الموارث وبيت المال والمصالح على الترتيب المأثورة ؛
لأن العرساوية لم يبق لهم من الإرادة إلا ما حصل من ذلك ، والقصد الاعتناء أيضاً
بأمور البلاد والمخصص التي دخلت بموت أربابها ، فلزم أيضاً من المصالح والخلاص
وذهله في ذلك ثمانية أيام ، ثم لم يصحح على الالتزام الذي له شبهة في تلك المدة مضطت
حصته ولا يقل له قدر بعد ذلك ؛ واعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للعرساوية
فلزم من اعتقادكم ذلك وأركبوه في أدهاسكم كما تعتمدون وحدانية الله تعالى ،
ولا يمسكم هؤلاء المقادموون وفرضهم فإنه لا يخرج من أيديهم شيء أبداً وهؤلاء
الإسكندر ناس حوارج حرامية وصاعنتهم بإلقاء العداوة والافتراء ، والغنى معتبر بهم .
في العرساوية كانت من الأوصاف الخس للعثماني فلم يراوا حتى أوفوا بدينه وبهم
العداوة والشرور وأن بلادهم مبيعة وحررهم صبيحة ورو كان بينهم وبين العرساوية
طريق مبلوكة من البر لا يفتح أنزهم وسى ذكرهم من زمان بعيد ، وتاملوا في شأنهم
دنى شيء خرج من أيديهم فإن لهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن لم
يصلوا إليها ، ولفرنسيس عند قسومهم وصلوا في خمسة عشر يوماً ، فهو كان بهم حمة
وسجاعة لوصفوا مثل وصولا » واستمر (أستوف) على حد قول الشيخ الحنري ،
يدكر كلاماً كثيراً « من هذا النمط في معنى ذلك من غير العقل » وبكل التبيح قصة
ماحدث في ذلك اليوم فيقول « ثم ذكر السكرى والسيد أحمد الزرو أنه حصر مكتوب
من رشيد على يد رحل حياوى لأحر من مئة كساة يذكر فيه أنه حصر إلى سكندرية
مراكب وعثمارة من فرنسا ، وأن الإسكندر رحلت إهم وأن الحرب قاعة بينهم على
ظهر البحر ، فقال الخارندار عكس ذلك وليس بعدد ، ثم نقلوا ذلك إلى ليار فأنقذهم
قطب الرحل الراوى لذلك فأحضر الزرو رحلا ترقاوي حلف لهم أنه سمع ذلك بأذنه
من الرحل الواصل إلى مئة كساة من رشيد (١) » .

واستمر تمويه الفرنسيين في الأيام التالية ، حدث قبل غروب نيس يوم ١٣ يولية
أن «مشى عبدالمعل الأغا وشق في شوارع المدينة وبين يديه مبادئ يقول الأمن والأمان
على جميع الرعايا وفي عد تصرب مدافع وشك من الغلاع في الساعة الزاوية فلا يحاذوا
ولا يترفعوا ، فإنه حصرت بشرة بوصول بوماربه بعمارة عظيمة إلى الإسكندرية وأن

الإسكندر رحلوا القهقري « . وعندما أطلقت المدافع في صباحة اليوم التالي (١٤ نوية) ، « صعد الناس إلى المنارات ونظروا بالنظارات فشاهدوا عساكر الإسكندر بالجهة العربية وصنوا إلى آخر نورارتق وأول اسانه ونصوا خيامهم أسفل اسانه ، وعند وصولهم إلى مصارعهم صربوا هذه مدافع بما سمعوا الفرنسيون صرب الآخرون تلك المدافع التي ذكروا أنها شنت . أما العساكر الشرقية فوصلت أو ناهم إلى مية الأمراء المعروفة عتبة ليرج وانراكت وما بينهما من الرمي بكثرة (١) » .

وفي يوم ١٥ نوية « حصلت الخفية بالديون » وقرى خطاب من بليار موجه « لأرباب الديون والخاصين يذكر فيه أنه حصر إيه مكتوب من كبيرهم مو بالإسكندرية محبة محبة لرئيس وصلوا إليهم من طريق القرية مصدومة أنه طيب غير والأقوات كثيرة عديم ياتي بها العربان إليهم ، ولعلمهم خبر وصول عسكرة عراكب العرباوية إلى بحر الحرر . وأنها عن قرب فصل بالإسكندرية . وأن القاهرة حاربت بلاد الإسكندر واستولت على شقة كبيرة منها ، فكروا مطمئنين الخاطر من طرفها ودوموا على هدوئهم وسكوتهم ، إلى آخر ما فيه — على نيل الشيخ الحربي — من التجويزات ، وكل ذلك لسكون الناس ، وخوفا من قيامهم في هذه الحلة . وكان وصول هذا المكتوب بعد سب وأربعين يوما من انقطاع أخبار سكندرية ولا أمل لذلك (٢) » .

وكان العرص من هذه التجويزات ، إقباع لقاهرين بالزام الهدوء والسكينة على نحو ما ذكر الشيخ الحربي ؛ ومع أن أحدا لم يصدق شيئا من هذه التجويزات فقد انبرم الأهليون حاب الهدوء والسكينة . وإن كان من الواضح أن هؤلاء سوف رحلون بدحول العثمانيين إلى اعانهم ، و« صرحوا إليهم صد الفرنسيين عند سوح الفرصة (٣) » ، وقد شمل القاهرةيون في أثناء ذلك كله تنزع أخبار رحب العثمانيين وحلفائهم الإغبار صوب القاهرة ، وبخاصة منذ عودة بليار من معركة ابروامل مهروما فعهوا « بوصول طاهر باشا الأرندى محلة من العساكر الأرندية إلى أي رعد (٤) » .

وفي يوم ١٢ مايو ، دأب مأ وصول « ركاب الورر يوسف ناشا إلى مدينة الدليس » وذلك يوم ٨ مايو (٥) ؛ وفي ١٤ مايو « وارب الأخبار بوصول القادمين من الإسكندر

(١) الجبرتي ٣ : ١٨٩

(٢) الجبرتي ٣ : ١٩٠

(٣) Reynier 261

(٤) اعري ٣ : ١٦٦

(٥) الجبرتي ٣ : ١٦٦

والمنامة إلى ارحمانية وعللهم القلعة وما بالغرب منها من الحصون الكثاة بالعطف وغيره^(١) » ؛ ثم علم القاهريون أن « اسائر القادمة من الجهة الشرقية (قد قربت) وحصرت طولهم إلى نفيويه ، والمير ، والخاصة لأحد الكلب^(٢) » ، وفي ٢٣ مايو « بارت الأخبار أن السائر الشرقية وصلت أوائها إلى بها وطحلا ساحل النيل^(٣) » . وتأكد لدى الدهريين إصاف العنابيين والإغبر على القاهره عندما اسد إطلاق المدافع ، وسمع القاهريون أصوات هذا الصرب الشديد « على بعد » ، عوة يوم ٩ يوية ؛ ثم تشيع في اليوم التالي « حضور بورير إلى شلقان وكذلك اسائر الإسكندر بالناحية الغربية (ووصلهم) إلى أول الوراقين^(٤) » ، ثم راد إطلاق لمدافع يوم ١٤ يوية ؛ وسمع الفرنسيون صرب مدافعهم « من جميع القلاع » . وسين للقاهريين أن الإغبر قد وصلوا إلى « آخر الوراق وأوب اسانه^(٥) » . ثم دافع الحمر في اليوم اسالي عن وصول « السائر الشرقية إلى المدلية (وامتداد) امرضى منها إلى قلى مية لسبح ، وكذلك الغربية إلى اسانه . وقد نصب العنابيون والإغبر حيامهم بالنرس ، وأقاموا حصاراً من طراكت في اسيل بين المعسكرين ؛ وصروا عده مدافع ، وخرج عده من العرساوية حائل ، فتراموا معهم وأطلقوا ساق ، ثم انفصلوا بعد حصة من الليل ، ورجع كل إلى مأمنه^(٦) » ؛ ثم « رحب السائر الشرقية (العنابيون) حق قروا من قة النصر ، وسكن إبراهيم بك راوية شيخ دمرداش » وكان ذلك يوم ١٨ يوية . واستطاع فريق منهم الوصول إلى حمة سبع ، وأشرفوا من حائطه على الحارارين وأطلقوا مدافعهم على ثلاثة من « أعمار الفرنسيين . فأصيب أحدهم في رحله فتحدوه وهرب الإنسان » ؛ « ووقع بين الفريقين معاركة على بعد وقتل بعض قتي وأسرى بعض أسرى وم يرل الصرب بينهم إلى قريب العصر والفرنسيين رمون من القلعة الطاهرية ونبعة نجم الدين والتسل ولايتناعدون عن حصونهم » ؛ ثم تادل العريقان إطلاق لبارق ايوم التالي كذلك^(٧) ؟

(١) العرق ٣ : ١٨٦٠

(٢) الجبرق ٣ : ١٨٦٠

(٣) الجبرق ٣ : ١٨٧٠

(٤) الجبرق ٣ : ١٨٨٠ - ١٨٩٠

(٥) الحدرق ٣ : ١٨٩٠

(٦) الجبرق ٣ : ١٩٠٠

(٧) الجبرق ٣ : ١٩٠٠

ثم حدث بعد ذلك أن « وقعت مضاربة أيضاً بطول النهار (في يوم ٢٠ بوية) ، ودخل نحو خمسة وعشرين قرناً من عسكر العنابية إلى الخسبية وحسوا على مساطب انهبوه وأكلوا كعكاً وخبزا وفولا مصلوقا وشربوا قهوه ثم انصرفوا إلى مصرهم ^(١) » .
وحدث في نفس اليوم أن « رحب عساكر البر العرنى إلى تحت الحجرة » فانتقل بدير إلى « بر الحجرة فسمع الصرب أيضاً من راية الحيرة وسمعت طون الأبره ونفاقيرهم واستمر الأمر إلى يوم لثلاث ، حادى عشره (أى اليوم الحادى عشر من شهر صفر الحزير سنة ١٢١٦ ، الموافق ٢٣ بوية سنة ١٨٠١) فظل الصرب في وقت الزوال » .
واقصى اليومان اللذان « والسارية بين العرنين ساكة وأثيب وقوع المسالة والمراسلة بينهما » ، والوسط في ذلك الإسكندر وحسين قطان اشأ ، « أسر الناس وسكن حاشم لكون الحرب ^(٢) »

تليم بدير :

وتضافرت عوامل عدة ساعدت العنابيين وحلفاءهم الإغريق في رحلتهم على القاهرة ، كان من أهمها أن مشايخ العرنى وابيبدان اتفقوا لها لصد الأعظم والقطان ناش في طريقهما إلى عاصمة البلاد ، سارع ما صاروا يمدون حصوهم للعنابيين ، ثم حذا حدودهم الفرسان السود الذين أخذوا يمدون من جميع الجهات الاضام إلى اسرك في رحلتهم على القاهرة ، ولو أن (ربييه) كان يمدو ترحيب الأهليين إلى خوف هؤلاء من العنابيين ويطعنهم فيقول : « لهم ما كانوا يمدون المؤن إلى الجيش الزاحف إلا مرعبي إرعاما على ذلك . كما رعم أن فرسان الدو ما حصروا إلى معسكر الأتراك إلا خوفهم من مطارده هؤلاء لهم من جهة . ولأنهم كانوا يطمعون في أن تتاح لهم فرصة الحصول على الأسلاب والغنم بفضل ما يهبونه من اسلحان اتفق عارون بها ، في وقت سادت فيه الفوضى نتيجة لصغر الفرنسيين عن المحافظة على الأمن وسط هذه الأثرة المستحكة نسب العرو العنابي الانحدري ^(٣) .

ومع ذلك فما لاشك فيه أن عمر الفرنسيين عن صد الحشوش الزاحفة في الثلاثا ثم انهزام بشار في معركة الزوامل على وجه الخصوص ، كان قد راد الأهليين وبدو الصغراء اقتناعا بأن الفرنسيين لا محالة راحلون عن البلاد ، وأن أنامهم في القاهرة

(١) الحزير ٣ : ١٩١

(٢) الحزير ٣ : ١٩١

(٣) Reymer 260

قد كانت قصيرة ومعدودة . وكان لهذه المعركة أثر حاسم في موقف الأحمسيين والعربان
عموماً من الفرنسيين ، كما أحدث الانتصار على بلبار في هذه المعركة أثراً لا يقل
خطوره عن سابقه في موقف العثمانيين وحلفائهم الأخير كذلك من حيث الاحتلال
الفرنسي في القاهرة . ذلك لأن (إروامل) كانت المعركة الأولى التي أحرر فيها
العثمانيون مصرَ ظاهراً على الفرنسيين بعد إهمالهم الكبير في موقعة هليوبوليس أمام
كثير ، ثم في غير هذه من المعارك والموشات قبل انتصار الأتراك . وهم الذين كانت
جيوشهم تقتصر إلى النظم وتنقصها الأسلحة والمعدات الحديثة — على أن الفرنسيين
قد وصلوا من الصعب إلى درجة شديدة ، فاضطروا الأخير إلى قدرة حلفائهم الأتراك
على كسب المعارك ، وورد الأتراك من ناحيتهم إيماناً باستطاعتهم الانتصار على
أعدائهم ^(١) . وشجع هذا نصر كلا الجيشين العثماني والآنجليزي على مواصلة الزحف
همة وشاهد صوت القاهرة . وفصلاً عن ذلك فقد كفل انتصار الزوامل اطمئنان
العثمانيين إلى خطوط مواصلاتهم ، فصاروا لا يحشون من قيام العدو بأية
عدولات حديثة لغتطامها ، بل أمكن الاتصال في آخر ماوي بين هنتشسون والصدر
الأعظم ، وانضم آلايان من المشاة الأخير وبعض الفرق من فرسانهم ومدفعتهم
إلى الجيش العثماني ^(٢) .

وعند ما عسكر الأخير وحلفاؤهم العثمانيون قرناً من القاهرة عظم الأمل في
إمكان نصيب الحاق على الفرنسيين وحيش بلبار وإرغامهم على التسليم طوعاً أو كرهاً
وكان بما عرر هذا الأمل انضمام الكوات الميك بفرسانهم إلى الجيوش الزاحفة منذ
أوائل شهر يونيو على نحو ما سبق ذكره ؛ فقد تم الاتفاق بين هنتشسون وبين عثمان
بك البرديي وعثمان بك الطيورحي ، وعهد بك الأنبي وعثمان بك حسن وسليم بك
وعبرهم ^(٣) ، على أن يمدد هؤلاء كل مساعدته ممكنة للأخير ، وأن يشاركوا معهم في
القتال الذي يندرج ضد الفرنسيين ، لقاء أن يصح لهم الإغدير استرجاع ممتلكاتهم ، ثم ذلك
المركر المختار الذي أعطاهم كل سيطرته وسؤدد في البلاد من محي . « الحملة الفرنسية » ^(٤) ه .
ومع أن هذه كانت جميعها ظروفها مواتية ولا شك لأن يبدأ هنتشسون هجومه
الحاسم على القاهرة ، فقد اكتفى العثمانيون والأخير في مبدأ الأمر بإرسال الرسل

Walsh 144 (١)

Charles-Roux II 196 (٢)

Walsh 198 (٣)

Charles-Roux II 198 — 9 (٤)

يعرضون على مدار شروطا « سحبة » بطير تسلية القاهرة ، تحت الصدر الأعظم مند ٣ مايو بأخذ الصلح الاخير يطلب إلى بيار التسليم ^(١) . وفي منتصف يونيو عرض هتشمسون على بيار التسليم « وفق شروط مأسسة ومعبنة » ^(٢) ، ورفض بيار عرض اورر العثاني والقائد الانجليزى ، وكان محاسب إرجاء القيام بأية عمليات عسكرية خاصة مد القاهرة من جانب الانجليز ، ثم من جانب الأتراك — الذين لم يكونوا يستطيعون العمل فى الحقيقة بمفردي دون معاونة حلفائهم الانجليز لهم — أن هتشمسون عند وصوله أمام القاهرة سرعان ما وجد نفسه فى مأزق يحيط به صعوبات تشبه من وجوه عدة تلك التى صادفها القائد الإنجليزى عقب واقعة بيكوبويس فقد دافع فى المعسكر الانجليزى ما ظهور أسطول عاسوم قريباً من الشاطئ الاقربى غرب الإسكندرية يحمل البعثات إلى سو ، كما دافع حذر مخاض إحدى الدرافطات البحرية فى السخول إلى ميناء الإسكندرية .

وعلى ذلك فقد بدأ أولئك الذين أعربوا عن ندمهم وأعدوا عصيانهم فى ظروف شائعة ، يرفعون رؤوسهم مرة أخرى لإقناع نقائهم بالعدول عن محاولة افتتاح خطوط انريبيين الأنجيرة ولحقوم على القاهرة ، كما فى ذلك من خطر نال قد يعرض الجيش فى نظرهم إلى الهلاك المحقق وذلك لاعتبارات عديدة ، مما أن قوات الجيرال كوت المراقبة أمام الاسكندرية قد تشتت بسبب المرض إلى حوالى أربعة آلاف مقاتل كما انتشر المرض فى جيش هتشمسون حتى اضطر القائد انعام نفسه إلى إرسال حوالى الألف من الرضى بطريق اسيل مد معاديه اتحاد ، أصعب إلى هذا أن معظم قواته اراحة على القاهرة كانت من الجنود العثانيين الذين يشك كثيراً فى صلابه عودهم ، وذلك بينما تفصل بين القاهرة والاسكندرية مسافات شائعة ، ولا يستطيع الجيرال كوت عيشه الذى لا يريد على أربعة آلاف جندي أن يصمد أمام جيش مو الذى يبيع حوالى سعة آلاف مقاتل معتصمين بالاسكندرية ؛ ومع أن الأمل كان عظيم فى وصول قوات الحملة الانجليزيه الهندية أمام القاهرة ، فإن حراً لسيطراً من هؤلاء الجنود حسب قد منع القاهرة واصم إلى جيش هتشمسون ، بينما كانت الحملة الانجليزيه الهندية لا زال مسعرة عن ثنية الجيش فى أحد مواى اسحر الأحمر البعيد ، ويفصل بين هذا المساء وبين القاهرة فرائخ عدة ^(٣) .

(١) Rigault 323 ؛ الجيرقى ٣ : ١٦٦

(٢) Wilson 123

(٣) Fortesque IV. 2. 854

غير أن هتشمسون الذي استطاع أن يقص على معارضة هؤلاء التدميين مائلاً ، كان قوى العزم والإرادة ، ويعتقد اعتقاداً راسخاً أنه يستحيل عليه في هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر السكوس على عقبه ، ولتفهم من أمام القاهرة ، وصمم على المضي في خطه ، وكان له من أسلحته أسلحة ومخارج رحمة على القاهرة حبر كميل بإمكان القضاء على هذه المعارضة ؟ وزيادة على ذلك فقد ساعده العربيون أنفسهم بحادهم وتزددهم ، على احتياض الأمانة سلام ، فإن تقوم الذي عقد العربيون آمالهم على نجاحه في حمل الوحدات إلى الإسكندرية ، وتثار ظهوره على الشاطئ الإفريقي مخاوف الإغريق ، لم يستأن عادراً راجه ، وما إن سمعت أخبار احتفاء الأسطول العربي من البحر الأبيض العسكر الإغريقي حتى سعى هتشمسون لصداء وصمم على بدء الهجوم واقتحام تحصينات القاهرة (١) .

وعلى ذلك فقد ترك هتشمسون عدداً من الخيل حراسه « الحبر » لاحتد عمر النيل بين معسكرى الجيشين الإغريقي والقبلي ، وبعدهم بغيره قواته حتى عسكر أمام أسوار الجيزة في ٢١ يولية استمداً لمحصنها ؟ ولم يكن من المتوقع أن تدعى قنصاً مقاومة تذكر سبب ضعف حامتها ، وبوأن العربيين كانوا يتعدون في إمكان الصمود أمام هجوم الإغريق على أنه كان في استطاعتهم أن يعدوا هذه القصة بالوحدات ، بواسطة حرس أنشئوه على نهر هذه العدة . ولذلك فقد بات هدف هتشمسون الأكر الاستيلاء على هذا الحبر ، حتى يدسم له ذلك وسقطت الجيزة في قبضته عبر أنهر بحشه ، فلا يزال جيش الصدر الأعظم العسكر على مسافة قصيرة من القاهرة ، فيتجدد عدته الجيشان في هجوم حاسم على القاهرة ذاتها .

غير أن صعوبات عدة لمستأن عطلت تنفيذ هذه الخطة ، واضطرت القائد العام إلى إرجاء الهجوم بعض الوقت ، وأتم هذه الصعوبات انحصار مياه النهر بدرجة جعلت من التمدد عبوره سهولة ، أو نقل المدافع الثقيلة مسافات طويلة ، كما ظهرت الحاجة للهجمات والمواد الكثيرة التي كاسه نقص الجيش لتنفيذ هذه الخطة ، ووضعت تبعاً لذلك ضرورة إرجاء الهجوم ألباناً أخرى حتى ينشئ تدليل هذه الصعوبات التي من شأنها « بذلة عمليات الحملة العسكرية وريده متاعها (٢) » ، ولكنه ما بدأ هتشمسون في اليوم التالي (٢٢ يولية) يمدد على تدليل هذه الصعوبات حتى انشئ كل سبب لتدمير

أمر المحجوم عن القاهرة ، ذلك بأن بيار مالت أن ترسل توسارد Tousard أحد صباطه يطلب معاملة الحيا Hope ويرجوه بحار هتسبون برعه القائد الفرنسي انعم في عقد مؤتمر للبحث في شروط تسليم القاهرة^(١) ، فكانت معاهدة طرب لها الصدر الأعظم طربا عظيم ، ووافق هتسبون على العقد المؤتمر في اليوم التالي للطرب في شروط التسليم ، وبصفت الحيام في معسكر أنثى طده العاية على شاطئ النيل بين محاصر الإغليز الأمامية وحصن أو قلعة الجيزة ، أطلق عليه اسم « معسكر المؤتمر »^(٢) .

وكان قرار تسليم القاهرة قراراً خطيراً احتدم رأى المعاصرين في تقدير أسانه ، وورث الطرود التي أقمت بيار بصروره الاعتراف بالطريقة والتعجيل تسليم القاهرة دون إبداء أية مقاومة ، ومن محاولة الدفاع عن القاهرة ، والاسحام مع العدو في معركة حاسمة ، ففهم فريق من المعاصرين إلى بيار ما عدوه محادلاً مشيماً من حاسه ، وأيده فريق آخر ، ولا زال قرار التسليم موضع جدل كبير بين الكتاب والنورحين - والفرنسيين منهم على وجه الخصوص - إلى الوقت الحاضر فيها يرى جماعة منهم أن الدفاع عن القاهرة كان معديراً لأسباب عسكرية واقتصادية وسياسية عدة ، اعتقد آخرون أن بيار كان في وسعه الدفاع عن القاهرة ، ولكنه لم يحاول الصمود أمام العدو لبس واحد هو أنه كان قد قرر التسليم مند حسب به الطريقة في معركة الزوامل (أو الحسكة) ، لاعتقاده أن جيش الشرق والفرنسيين قد فقدوا مصر نهائياً ، وأن الاستمرار على المقاومة عبث لا طائل منه ، وأن الجلاء عن مصر في شروط تشبه شروط إماني العريش السابقة خير وأحدى ، إذ يمكن جيش الشرق عندئذ من العودة إلى أرض الوطن مدفوع الرأس موفور الكرامة^(٣) .

غير أنه لا ينسب الوصول إلى رأى قاطع في مسألة تسليم بيار دون فحص الظروف التي أحاطت بهذا التسليم ، والأسباب التي أقمت بيار بوقف لقتال وترك الدفاع عن القاهرة ، فقد كان أمام القائد الفرنسي أن يختار بين حطط ثلاث : إما تركيز قواه في القاهرة ، ثم الاستمرار على الدفاع عن العاصمة ، وإما محاولة الخروج من القاهرة وشق طريق مجده وسط الجيوش المحاصرة والانحياز مع هذه الجيوش في معارك حاسمة

Rigault 337 (١)

Reybaud VIII 263 (٢)

Charles-Roux II 199 - 200 (٣)

حتى يتمكن من محطهم ذلك الحصار لصروب على قاهره ؛ وإما الاسحاب من القاهرة
والتهفر إلى الدنا أو إلى الصعيد لاستداف العمليات العسكرية ضد العدو

وكان لكل من هذه الخطط ثلاث مزايا عدة لو أنه أمكن تنفيذها ، فما لاشك
فيه أن خطة تركيز القوى كانت ذات فوائد كبيرة ، إذ تمكن الفرنسيين من حشد
قواهم لمقاومة حوش العدو المتوقعة عليهم ، وسكنى مما لاشك فيه كذلك أن تركيز
القوى في القاهرة لم يكن من الناحية العسكرية تدبيراً يكفل النصر في النهاية ، ذلك بأن
عدد القلاع أو الحصون الصغيرة ، التي وجب التمسك بها والدفاع عنها في القاهرة
وما يحاورها ، كان لا يقل عن أربعة عشر حصاً أو موقعا ، عدا قلعة القاهرة
لكبره ، وهذا بينا امد خط القتال مسافة تزيد على اثني عشر ميلا من القاهرة إلى
الجيزة ، ماراً بحصر المدينة وولاي ، أصعب إلى هذا أنه لم يكن من الحكمة في شيء
اتحاد القاهرة مركزاً للعمليات العسكرية الهامة ، في وقت كان الخوف من قيام
اقاھريين الثورة واختيارهم إلى جانب العدو الراسخ أمام أبواب القاهرة شديداً .

أما إذا قرر بليار أن يخرج من القاهرة وأن يسبق له طريقاً عند السيف وسط
حوش العدو ، فإن هذا العمل على خطورته وما قد يحتمل عنه من حائل فادحة ،
سوف يعرض القاهرة ومؤخرة جيش بليار نفسه لكارثة عظيمة ، لأن اشغال بليار
بالالتحام مع جيش هيندسون من ناحية ، سوف يعطى الصدر الأعظم الفرصة لاقحام
تخصيبات القاهرة والدخول إلى المدينة من الناحية الأخرى ، وكذلك إذا هاجم بليار
جيش الصدر فإن هيندسون سوف يجد طريقه كذلك لاقحام القاهرة ، وعلى ذلك
فقد كان من نعم التفكير في محاولة « الخروج مسلح » من القاهرة والاتحام مع
العدو أمام تحصيناتها .

وأما إذا قرر بليار الاسحاب من القاهرة وحاول التفرق إلى الدنا أو الصعيد ،
فإن صعوبات عدة سوف تحول دون نجاح هذه الحركة ، ذلك بأن دمياط ورشيد
وارحماية في الشمال كانت جميعها في أيدي الإنجليز ، بينما يحاصر هؤلاء الإسكندرية
حصاراً شديداً ، ولا سبيل إلى الانضمام إلى قوات الجنرال مو المحاصرة بها سبب
انقطاع طرق المواصلات إذ أعرق الإنجليز صحف مريبوط بالماء ، ومن المتعذر
استخدام الطرق الصحراوية إلى الإسكندرية دون التعرض لأخطار عدة شديدة .
وم يكن من الحكمة في شيء محاولة التفرق إلى الصعيد كذلك ، إذ أنه كان من المتوقع
أن نعرض الحملة المصرية الإنجليزية الزاحمة من الجنوب جيش بليار المتفرق في الصعيد ،

ولا يمضى وقت طويل حتى يجد بليار نفسه محاصراً من جيشين ، جيش هذه الحملة من أمامه ، وجيش الجبال هتشمون (واسدر الأعظم) من خلفه . أصاب إلى ذلك أن ولاء الطاعون كان منشراً في الصعيد ، وسائر المناطق في أكثر أولهم الوجه القبلي مولاي محمد (انهدى) الذي قاطع في إشعال الثورة في الصعيد بعد وفاة مراد بك . وهكذا وجد بليار أنه من المنعذر عليه أن يترك القاهرة ، كما وجد أن الانصراف على ركيز أقوى بها أمر لا ينع فيه ولا حدود منه ، إذا لم يصحب تركيز هذه القوى بصميم على الدفع عن القاهرة بصورة حدية (١) .

ومع ذلك فقد كان من رأى بليار أن للدفاع عن القاهرة يكاد يكون أمراً من المستحيل محاولته ، لأن فلاح القاهرة يمكن في مقدورها الصمود أمام هجوم العدو عدد منه المعركة الحاسمة سوى أيام معدودة لصالة حامياتها ونقص استعداداتها ، وضعف تحصيناتها على الرغم من مطهرها الذي كان يدل على القوة والسيادة . ومع أن بليار كان قد أقام حملة مراكز للدفاع بين القاهرة وبولاق ، فإن هذه ما كانت تقوى على احتمال بيران المدفعية الشديدة ، ومن المتوقع انهيارها إذا حد أحد وحمى وطيس القتال ، ومن المنظر أن تسلل للعدو الوحدة بعد الأخرى ، إذا استطاع هتشمون أو انصدر الأعظم افتتاح مراكزها . ولا شك في أن بورع الحد على هذه المراكز والقلاع وعلى طول خط الدفاع المتد من القاهرة إلى الجيزة سوف يترك أبواب القاهرة تحت رحمة العدو وتحت رحمة القاهريين المنهيين للثورة ، ويحصل من التعذر حشد حشد هذه الحاميات في صعيد واحد للانضمام مع العدو في معركة أحيرة فاصلة ، ولا ممدى في هذه الحالة عن سقوط القاهرة .

وكان أحسن ما عشاء بليار وقوع القاهرة في قصة العدو بعد فشل الدفاع عنها ، إذا أن ذلك — كما اعتقد — سوف يؤدي لا محالة إلى حدوث مذبحة لن يحوم منها فرسى واحد (٢) . وفصلاً عن ذلك فإن الدفع عن القاهرة إذا تقرر — سوف لا تطول مدته ، فانزول والتسائر قد بدأت تقل بسبب « إهمال » مو وموود تديره ، واعتقد بليار أنه من المنعذر عليه بصحیح « الأخطاء » التي ارتكبها قائد الحملة العام ومع أنه بث عدو شئون الحموي (رنيه) Reynier — شقيق الجيرال رينيه — في مركب مسبح للطواف بالبدان الواقعة على شاطئ النيل في الصعيد كي يخلب بها

الحبوب والأعدية ، فقد وجد ربييه القري حول القاهرة حالية من سكانها الذين فتح الطاعون بخطر كبير منهم ، وعادتها القانون حوله من الملاك ، ثم إنه لم يستطع التقدم كثيراً في النهر بسبب انتشار نوره (الهدى)^(١) ، وراحت صعوبات بلبار عند ما وجد حرائه خالية ولا يحكى ما لديه من أموال تدفع مرسات الجند أو سد مطالب الإدارة لصورته سوى أيام معدودة فقط ، عطل ما يمكن تحصيله من صرائب وأموال من أهل القاهرة .

أما المخزون ، وخاصة مخازن المدفعية ، فقد نابت حاوية على عروشها بسبب طلمات موبس كبره ، وقد استخدم كل ما أرسل إليه من ذخائر ، أو فقد في الرحمانية ورشيد وسائر الأماكن التي كان الانجليز يحتلوها ، وفي في القاهرة حوالي مائة وخمسين طلقة حسب لكل مدفع بها ، واهدم وجود فنادى للدافع سانا . ومع أن بلبار ظل مدة طويلة يظن انديت حامية وواضحة من قائد الحملة اعم ، فقد اكتفى هو بأن يطلب إلى بلبار « كتب الوقت » ولاسيما في الدفاع عن القاهرة ، ولم يرسل إليه نصيبات للقيام بأعمال « بحرية »^(٢) ، واصلوا عن ذلك فقد حملت كل الرسائل التي وصلت بلبار من مو ربحا يسبق سقوط الرحمانية ، ولم يصل بلبار أية نصيبات بعد أن أحلى (لأجرائه) الرحمانية ، أو في أثناء حصار القاهرة ، وكان بعد سديم القاهرة فقط أن بلغت بلبار نصيبات من مو تأمره فيها ضرورة إخراج المصر أو الاستئصال في الدفاع عن القاهرة حتى الموت والدمار ، وذلك في وقت كان اعم فيه مو أن الحامية المحاصرة قد نالت معنى شدة عظيمة ، وتطوق عنها جيوش العدو من كل جانب ، قدلت هذه التعليمات على أن صاحبها قد فقد كل اراد وحكمة ، وصار لا رصيه على حد قول أحد صائد بلبار في القاهرة — إلا أن يرى أشلاء رجال الحامية مبعثرة في كل مكان ما دام هلاك جيش القاهرة يقع على وروى طرته اشده إلى اعمد واشهره^(٣)

فكان لهذه الأسباب جميعها أن فر رأى بلبار على تسلم القاهرة . وراده اقتضا ضرورة عدم الإطباء في التسليم أن عنون من الرديسي وهو أحد اسكوات الذين ابحاروا إلى جانب الانجليز ما لث أن أوقع في إبلاغ ماحو Majou أحد دوران بلبار وتروشي (أو بطروشه) من الوكلاء المديين ، بأن الانجليز والعشبيين يبوون

Ibid 256 (١)

Rousseau 402 — 3 (٢)

Malus 218 (٣)

التسليم مع الفرنسيين ، ومعاملتهم سبحانه كبير ، إذا فشل هؤلاء التسلم وقرروا وقف القتال (١) .

ومع ذلك فإن سارم يشأ أن يأخذ على عاتقه وحده مسئولية التنازل في هذه المسألة الخطيرة ، فعقد محلاً حربياً في القلعة بعد ظهر يوم ٢٢ نوبه (٣٠ مسيدور من السنة التاسعة) لحث موضوع السلام ، وحضر هذا الاجتماع كبار القواد الفرنسيين في القاهرة .

وما كان القواد أكثر تصميماً ، واحتجت عواما المعرفة من هيئة أركان الحرب منذ أن عارضوا لقاهرة ، فبعد صراع مسود نقداب وحوله الرأي في الموقف بكل هدوء وسكينة ، واستطاع القواد المختصون الوصول إلى قرار حاسم بعد الاستماع إلى وجهات النظر المختلفة وبدأ سارم الحديث وأخذ يوضح في هدوء السموات التي أحاطت بالموقف من كل جانب ، وذكر سارم وباء الطاعون ، وبسط أسباب ضعف قواته بالنسبة إلى قوات العدو ، وتبدى خوفه من قيام عاهرين الثورة ، وما كان يتوقعه من حدوث مشاهد مروعة إذا قدر لحمة القاهرة بعد هزتها الوقوع في أيدي العثمانيين وأحلافهم المنصرين وتبدى أهل القاهرة ، ثم طلب إلى الحاصرين أن يدلوا بأرائهم ويسلطوا قواهم في ذلك كله فابرى (لاجراخ) وكان من مؤيدي سمو في ضرورة الاستسلام في الدفاع عن القاهرة إلى النفس الأخيرة . فرفض المفاوضة والاتفاق مع العدو دون أخذ رأي قائد الحملة العام (نى سمو) في ذلك أولا ، وكان من رأيه أن من نتائج التنازل الحرقى في القاهرة حرمان الجيش المصرى الإسكندرية من الاشتراك في إتمام شروط التسليم ، ثم الدائر عموما صورة سببته على مسألة الإحلال وحلها الحملة ، وعلى ذلك فقد أصبح شأن يحدث الأفاق على التسليم بالاتحاد بين حامية القاهرة وحامية الإسكندرية ، وعليك ضرورة الاستمرار في المقاومة والدفاع وكان من بين الذين عارضوا التسليم كذلك (دورلو) Donzelot لدى حصر قرياً من الصعيد ، ويعرف موارد البلاد الحقيقية ، ويعتقد أن في استطاعة الفرنسيين مواصلة الحرب مناج صدد العدو في الوجه القبلى ، فصيح بالاستعجاب إلى الصعيد ولصمود في حرب دفاعية طويلة من شأنها إزعاج الإخمير على قطع المسافات الشاسعة سيراً على الأقدام ونعريضهم للأضرار المهلكة وبهاك قواهم ، حتى يحين الوقت الذى تشعر فيه حكومة القصل الأول بضرورة إرسال الوحدات إلى مصر .

ثم يحدث بعد (دوريلو) كل من ناربر Tarayre ، وجوجيه Goguet ، ودونول d'Hautpoul ، وأعطيت الكلمة بعد ذلك إلى دوپاس Dupas فومسان العمة . وكان دوپاس صريحاً في مد فكره التسليم والمفاوضة . وقال : « إن جيش يونانير وكاير . ذلك الجيش الذي انصر في أي فير وهليوبوليس ، لا يستطيع أن يسم ملادا دفع دماء ثمناً لانساحها » . بل يرى من الواجب الاستمرار في القتال حتى النهاية وهكذا كان من الواضح أن لاجراغ ودوريلو ودوپاس يعارضون جميعاً التسليم وأنه وصية مع الإغريق^(١) . ولكن هؤلاء كانوا قتيبة . بعد حدث بعدهم حروب كانوا يحاربونهم في الرأي محاملة صريحة ، وقد ذهب هؤلاء المتحدثون من أنصار التسليم والمفاوضة إلى أنه لم يحدث قط أن وجد الجيش في مربة من تحارب موعة موقفا يشبه لموقف الحاي . بل إن الظروف التي تحيط بالجيش الآن — على حد قولهم — إنما هي ظروف غير عادية ، وتسبب لها مشاكل وسائل وإجراءات سريعة وغير عادية كذلك . ولا حدود من اسطار وصول توامر وتعليمات جديدة من مو ، لأن لا طار بطويل معناه تموت الفرصة ، وتمريض الجيش لمجموع العدو ، ووقوع الفرنسيين أسرى في أيدي الإغريق والعماليين ؛ وعلاوة على ذلك فإن الانسحاب إلى الصعيد ليس مع الإغريق وإنما بين محال من الأحوال من تعف الجيش المتقهقر ومطاردته حتى اشلال إدارم الأمر ، ولا أمل في إدارة العمليات العسكرية معرج في الصعيد بسبب انقطاع المواصلات بين الجيش المتقهقر وسائر القوات الفرنسية وجنود الغارات من الذخيرة والمؤن ، ولأن عمل البلاد سوف يبادرون بالاعلاب عليهم . ومع أن (دوپاس) كان قد تحدث عن مقاومة حتى الهلاك ، وذكر ما يخطر على ذهنه من مجد وخار إذا سقط جميع رجاله في ساحة المعركة . فقد أحاط مؤيدو التسليم على ذلك بقوله إن المجد والفخر ولا شك سوف يكون من نصيب أي فرد يمد من الشجاعة الصعبة نفسه لإنقاذ غيره ، ولكن الصحة بجيش سلع عدد رجاله حوالي اسعة أو الثمانية آلاف صرب من الجون لا يصح السكوت عليه أو قوله . وإذا حدث إنسان عن انصر أني فير وهليوبوليس ، فإن الظروف التي أحاطت بحركة هليوبوليس تشبه وحدها من بعض الوجوه ظروف التي تحيط بالجيش في موقفه الحاضر .

حقيقة كان أحد أعدو منشري في الأراضي المصرية ، ولكن هؤلاء الحد كانوا من العماليين الذين يعملون البطام ولم يكن لديهم خطة حربية معينة ، ويتألف جيشهم

من عناصر مختلفة جمعت بكل مرعة ولا رابط بيننا صوفهم ، ومن استنظر إذ حلت
هم المريعة في أية مساوثة صخرة أن نحل جموعهم ونذهب ربحهم ، على خلاف الحال
اليوم ، لأن الأراك لا يحصرون وحدهم في هذه المرة ، بل يشد أزرهم عشرون ألفاً
من الإنجليز ، وبدلاً من أن يقبلهم الفرنسيون يعيش بضع عشرة آلاف كما حدث لهم
كثير في هادوبويس ، فقد بات الحش الفرنسي لا يعدو ستة آلاف حسب ، لا يقومون
على مواجهة أعدائهم ، بل في وسعهم إطالة الدرع عن «ماهرة مددة» تكفي لتدبير
«معاوضة» مع العدو من أجل الوصول إلى شروط ملائمة تحفظ حياة هؤلاء الجنود
الشجعان ، وعسكهم من العودة إلى أرض لوطن لخدمة فرنسا في ميادين أخرى بدلاً
من تسخيرهم في نصال لا طائل تحته وذلك في نظير تسليم القاهرة^(١)

واحتدم النقاش وقتاً طويلاً ، وكان من رأى (لاجرانج) أن التصكير في المدينة
« سابق لأوانه » والواجب المضي في الحرب ، وواقعته على ذلك كل من درانتو وهاندان
وأصغر (دوباس) بإصرار شديداً على ضرورة مواصلة القتال لأنه رفض أن يشهد أن
عشره آلاف من الجنود الفرنسيين في وسعهم أن يسلموا سلاحهم للأتراك أو للإنجليز ؛
الترك الذين لا شأن ولا وزن لهم ، والإنجليز الذين كان الفرنسيون يحولون حقيقة
أعدادهم ، ولا يمس إلى معرفة قوسهم الصحيحة إلا بالاشباك معهم ، فإذا انضح
في ساحة لقاء أنهم همفون الفرنسيين عدداً وعدة ، استحب هؤلاء إلى الحصون ،
ولا شك في أن لدى الفرنسيين متعة من الوقت دائماً لهذه الوسيلة ؛ ولكن بما لا شك
فيه كذلك على حد قوله أن من الأفضل أن تعقد الجمهورية حامية القاهرة في الميدان ،
بدلاً من أن « يحرق وجهها حطباً » عند عودة هؤلاء الجنود إلى فرنسا^(٢)

وأصر الجنرال دوربانو على الصمود بضعة أسابيع أخرى حتى ترتفع المياه في النهر
ويم الاستعداد للاستدباب إلى الصمد فتتاح الفرصة للفرنسيين حسب معرفتهم للبلاد
أكثر من أعدائهم للقيام « بمناورات » ناجحة ، وقد دفع سائر هذا الرأي بقوله إن
البناء منتشر في الصعيد ولا أمل في العثور على مواقع « استراتيجية » هامة في هذه
الأقاليم ، ولن يعد الفرنسيون بسبب مطاردة الإنجليز لهم — وقتاً كافياً لإحكام
تدابير ماوراءهم^(٣) . واقترح الجنرال موران Morand اقتحام خطوط الضحايا على

Ibid 260 — 6 (١)

Bertrand II 405 — 6 (٢)

Rigault 339 (٣)

شاطىء الليل الشرقى والرحمب إلى دمياط حيث تكثر لقون للتحصن بها . وأكده الحبرال لأجرائه استجابة فعل شيء دون أحد رأى مو واقترح إرسال صابط إلى الاسكندرية لإبلاغه بجميعه الموقف بالقاهرة ، ووصح بالتزيت والانتظار حتى يمكن معرفة رأى مو وقراره .

ولكن بليار رفض مواصلة القتال ، كما عارض فكره « التفهقر الفصح » واقتحام خطوط العدو ، ولم يوافق على استشارة مو أو انتظار أية تعليمات جديدة قد تأتيه من قائد الحملة العام . وقد رأى بليار رأيه على اعسارات عدة استطاع حاربه Garbe أحد ضابطه أن يلحسها في مذكرة بادر بإعدادها في اليوم التالي للاجتماع ، جاء فيها أن كل من عندما أراد الدواع عن القاهرة كان عليه أن يتخذ إجراءات من شأنها إحكام خطه للدواع ضد جماعات من فرسان (الفرانج) حسب ، يهاب الواحب الآن اتخاذ تدابير فعالة ضد جيش عظيم تحت شاطئ ليل ، وله في الليل أسطول صغير ، ولا وسائل للدواع عن حرره الروسة ، ومن واجب الفرنسيين المحافظة على حصة منسقة لقوات ديلة من اخذ ، ومصى الدواع عن معسكر الفرنسيين بالقاهرة حوالي نصف عدد اسود الموحدين على قول تقدير .

وأوجر (حاربه) نتائج التي وصل إليها في قوله (ولا) إنه قد أصبح بعد انأكد من عدد قوات العدو الواقعة على حصار القاهرة أن في وسعهم أن يشوا هجومهم على أربعة مواقع من مواقع الدفاع عن القاهرة ، إذا حذبوا إلى كل موقع منهم بالنواحي قوات تساوى في عددها تلك التي يستطيع الفرنسيون أنفسهم أن يجمعوها إذا شاءوا بركر قوات جيشهم أجمعها في كل واحد من هذه المواقع لصد هجوم العدو . (ناسا) غير أنه لما كانت وسائل الدفاع ضعيفة فقد صار من الضروري القيام بهذه المناورة وركر قوات الجيش في موقع دون سائر المواقع ، إذ يعرف هذا العمل للمواقع الأخرى لخطر محقق لأنها لا تقوى على مقاومتها على مقاومة العدو بسبب ضعف حامياتها . ولذلك فمن الواجب رد جميع هذه المواقع والأكراماء بالدفاع عن القلعة قلعة القاهرة ومع ذلك فإن الاسحاب إلى القاهرة سوف يكون عملاً شاقاً لأن أحداً سوف لا يعلم إلا في وقت متأخر جداً أي للمواقع التي يسعى العدو اقتحام تحصينات القاهرة والدخول إلى المدينة منها ، فلا يكون له وقت لجمع الحاميات وحشدتها في القاهرة ، وفصلاً عن ذلك فإن العدو سوف بادر بوضع مدبجته على جبل القطم ، فلا تنفى أيام معدودة - عشرة أيام أو اثنا عشر يوماً - حتى تكون هذه القلعة التي يسيطر عليها جبل القطم قد سقطت في قبضة العدو .

وكان من رأى (روتى) Ruty هوميدان المدعية عندما سأله بليار في ذلك أن اقترح التحصن بالقلعة وإحلاء اللواقع الأخرى لا يمكن بحاله تأييده ، إذ يمكن يومئذ فقط لاسهلائك تلقى كية الدخائر الموحودة دون أى أمل في إمكان الحصول على غيرها ، ذلك بأن كل ماله من مدافع كان لايعود (١٣٤) مدفعا ، أما عدد الطلقات المخصصة لكل مدفع من مدافع القلعة فكان (٣٦٠) طلقة ، ولكل مدفع في القاهرة (٩٠) طلقة ، وفي الجزيرة (١٢٠) طلقة ، ولكل مدفع من مدافع الميدان (٧٨٠) طلقة ، ولا يوجد بالخارج أى احتياطي من الدخائر^(١)

تلك كانت الأسباب العسكرية التي أقصت سد ضروره وقف القتال ، وثبعت طريقا كبيرا من الحاصري شديد مذهب إليه ؛ ووافق لاحراج على أن الموقف حقيقة لايعت على الطمأنينة ، ولكنه عاد فتنسب ، ومادا يكون الموقف إذا حدث بعد التوقيع على التسلم أن وصلت السحب إلى القاهرة ؟ فأجيب على ذلك بأنه في الاسطاعة دائما المباطلة والتسوية في أثناء المفاوضات حتى تنقضي المدة التي يطلها لاحراج ، وأن المباطلة ومد أحل المفاوضة حرم من المضي في القتال .

ولما كان أكثر الحاصري قد رفضوا فكرة التسلم دون قيد أو شرط ، وتمسكوا بأن يمرى المفاوضة على أساس عقد اتفاق لإحلاء على نفس الأسس التي قام عليها اتفاق العرش القديم^(٢) ، فقد عرض بليار لاقترح لتألى لأحد الرأي عليه ، ونصه . « الدفاع عن القاهرة أو المفاوضة مع العدو » ، غاية فرار الأكرية في جانب الاتفاق مع العدو ، ورك هؤلاء للحرال بليار القيام بأعمال المفاوضة ، وكان المعارضون أربعة ، هم لاحراج وديراستو وائلتان ودوباس ، وشعموا معارضهم بالاحتجاج على هذا القرار ، ولكن دون جدوى^(٣) . ووقف دون قبول بناء على رجاء من بليار نفسه بشرح المحتممين مرة أخرى الصعوبات العسكرية التي تترتب المضي في القتال ، وتتم استحالة تدللها قبول مبدأ التسليم والدخول في مفاوضات مع العدو من أجل إنهاء الحرب الدائرة^(٤) .

ووقع اختيار بليار على المدوين الذين عهد إليهم مهمة للمفاوضة ، وكانوا ثلاثة :

Rigault 340 — 1 (١)

Bertrand II 406 (٢)

Reybaud VII 262 ; Ibid 406 (٣)

Rigault 339 — 04 (٤)

الجيرال موران ، والجيرال دوريلو ، والقومندان تارو . واجتمع المتفاوضون الفرنسيون في اليوم التالي (٢٣ يولييه سنة ١٨٠١) بالمفاوضين الأتراك والإنجليز في « معسكر أوتغر » . وقد مثل الإنجليز في هذا الاجتماع الجيرال هوب Hope بينما حضر عثمان بك عن الصدر الأعظم ، وحقق بك عن القسطنطينية . ووقع المتجمعون في اليوم نفسه على هدنة يتم في خلالها إبرام معاهدة على أساس « إخلاء مصر » من الحوود الفرنسيين تحت قيادة الجيرال بيار . واستمرت مفاوضات حتى يوم ٢٧ يولييه (١) وقد حدث في أثناء هذه المفاوضات أن طلب الفرنسيون أن يدفع لهم الأتراك مئتي ألف كرواً من الذهب ، لمدادهم في العودة من جهة ، وبمقتضىهم عن الإيرادات المستحقة لهم والتي لم يستطيعوا تحصيلها من البلاد بسبب ظروف الحرب من جهة أخرى ؛ ولكن الجيرال هوب رفض إعانة هذا الطلب ، كما قال الأتراك إن من واجبهم أن يطالبوا الفرنسيين - على العكس مما حدث - بأن يدفعوا لهم تعويضاً كبيراً عن تلك السفن المركبة التي سادها هؤلاء في ميناء الإسكندرية عقب نقص السفن الفرنسية ، عدا الأموال الكثيرة التي دهموها بالجيرال كبير قبل نقص هذا الاتفاق (٢) .

وطالب الفرنسيون أن يتم التسليم « على يد حسين باشا قنطان بواسطة الإسكندر ، وسيد » - على حد قول مولانا تركي - كان هذا التنازل إليه يميل لطرف المراسلة مبراة عظمى وذلك قبل دخولهم وأحدهم الأفطار المصرية . وقد نهمة الورير الأعظم أن دخولهم كان مطلقاً ، وتممعت المراسلة على الورير قدسوله في الجمعية وقالوا عن لاهمده معه شروطاً ولا قبل منه خطوطاً لأنه كان خان عهدده مع أمير حيوشا الأمير كبير ، وإذا لم يقدر على تعلب عليه أرسل قبله حمية . وقد أمكن بذلك هذه الصعوبة بمول المتفاوضين الإنجليز والفرنسيين أن يتم التنازل « على يد حسين باشا وسر عسكري الإسكندر ، وتسطرت أسطر لشروط (٣) » وكانت تألف من إحدى وعشرين مادة وفي يوم ٢٧ يولييه وقع على شروط التنازل من الجانب الفرنسي كل من دوريلو وموران وتارو ، ومن الجانب الإنجليزي الجيرال هوب ، ومن الجانب العثماني عثمان بك وإسحق بك ؛ وصادق عليها في اليوم التالي كل من الجيرال هيلي هتشسون ، وصانط

Anderson 324; Bricard 469 — 70 (١)

Wilson 129 (٢)

(٣) هؤلاء الترك ٢١٣

البحرية جيمس ستيفنسون Stevenson عن أمير البحر الإنجليزي اللورد كيث Keith والصدر الأعظم الخاق يوسف صيا والقطان درما حسن ناث^(١).

ونصت شروط الاتفاق على أن على حدود بليار مدنة القاهرة والعمدة وحصون بولاق والجيزة، وكل الجهات التي كان يحتلها جيش بليار وقت التسليم، على أن يتم انسحاب الجند سلاحهم وعيادهم ومدفعيهم ودعائهم إلى رشيد عن طريق البراء بحذاء شاطئ النيل الأبيض، حتى إذا وصلوا إلى رشيد تقسمهم معن اخلاء الإمبر والفرنسيين إلى القواى الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط. ونصت المادة الثانية على أن يحدث ذلك كله في مدة أقصاها خمسون يوماً من وقت التصديق على الاتفاق. ونصت المواد التالية على تسلم قلعة سلوكوسكي Sukoski (وباب الأهرامات) في بلدة الجيزة بمجرد التوقيع على الاتفاق، ثم تسلم مدنة القاهرة وقلعتها وبولاق وحصونها لمرأى عشر يوماً، على أن يتعهد الإمبر والإمبرسون بتقديم كل وسائل العمل وما يحتاج إليه الجيش المسحب من عدية ومؤثر إلى جانب إعداد انسحاب البحرية المصرية لحراسة الفرنسيين في أثناء عودتهم إلى بلادهم بطريق البحر الأبيض. ونصت المادة الحادية عشرة على أن يسمح رجال الإدارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون ثم جميع الأفراد الملحقيين بمدنة الجيش الفرنسي معن اأرايا التي يسمح بها امكريون، وعلى أن يحمل رجاله إداره وأعضاء لجنة العلوم والفنون كل ما لديهم من أوراق متعلقة بحيوتهم وأعمالهم إلى جانب أوراقهم الخاصة، وغير ذلك من الأشياء التي يملكونها. ثم نصت المادة الثانية عشرة على أن لكل فرد من المصريين كل اأمره في الذهب مع الفرنسيين ما دام يرد الاتفاق بالجيش الفرنسي، وذلك دون أن تعرض أسرته بعد دهايه لأي ضرر ودون أن تصدر أملاكة. ونصت المادة الثالثة عشرة من الاتفاق على عدم إيذاء أحد من «سكان مصر» الذي كانت لهم صلات بالفرنسيين في أثناء احتلالهم لبلاد أو مصدره أملاكة مهما كانت عقيده الدينية.

وهكذا حصل بليار على الشروط التي سبق أن قلها كلير في اتفاق ابريش، بل إن هذه الشروط في نظر بعض المؤرخين^(٢) كانت أفضل من سابقها لأن كلير

Reybaud VIII 264 — 75; Noradounghian II. 41 — 45 — 7, (١)

Waish 70° — 76° , Wilson 320 4; Oali 175 — 81; Regnier 318 — 26; Martin II 257 — 66

Rigault 346 (Note 1) (٢)

لم يستطع الحصول على موافقة الصدر الأعظم على إياحة دهب المصريين مع الجيش العراني إلى أوروبا .

ومع أنه كان من الواضح أن فرنسا قد خسرت نهائياً « مسعمرتها » في مصر سمى تسليم ٩ مسجونين (٢٨ نونبر ١٨٠١) فإن مصر هذه المستعمرة كان قد تقرر في الحقيقة من نحو عامين مضى عندما حطم بلنسن العلاء العرسية في موقعة أبي قير البحرية ، ودلت الحوادث على أن تسليم ٩ مسجونين لم يكن سوى نسخة حتمية ما وقع . وعقدت بيار وعمره من المعاصري الذي اعتقدوا أنه من الصلح الاستمرار على المقاومة أنه لم يكن هناك معدي عن هذا التسليم سواء أطلت أم لا لاسظار أم قصر ، بل إن بيار كان يعتقد أن الخير كل الخد في فعله ، حتى إنه وجد راءياً عليه أن شرط من «هـ» للبحران مو قائد الحملة لعام حق الجمع بالمرأى في مصمها ، معاهدة القاهرة ، واسترد في إعادة العنصر من اتفاق التسليم أن يقوم أحد الصناديق العرسية بإبلاغ «هـ» الاتفاق إلى مو بالإسكندرية ، على أن يكون للبحران مو كامل الحرية في قبوله . ويتعلق بالموت البرية والبحرية الموحودة بالإسكندرية ، حتى إذا ما قل مو هذا الاتفاق أُلغى موافقه عليه إلى قائد القوات الإبحارية الرابطة أمام الإسكندرية في مدة عشرة أيام » من تاريخ إطلاعه على المعاهدة .

وفي ٢٩ يونيو تمت بيار بالصلح تارير Tarayre إلى الاسكندرية لإجبار مو تسليم القاهرة (١) . وفي ٣٠ يونيو تمت بشار رسالة مطولة إلى الفصل الأول يذكر فيها الحوادث الأخيرة وبسط لأسباب التي حتمت عليه تسليم القاهرة (٢)

ومع أن بيار حاول جهده في رسالته إلى الفصل الأول أن يبرر هذا التسليم بذكر الأسباب العسكرية وغيرها التي أوجته بصورته المحددة الخطوة ، فقد اختلف رأى معاصريه في قيمة « الأسباب » التي أفضت إلى تسليم القاهرة ، وما لاشك فيه أن أولئك الذين هم يروا في الأسباب التي يدرج بها بشار أي مبرر لتسليم القاهرة كانوا يريدون كثيراً على أولئك الذين اقتنعوا بأهميتها ، بل إنه كما يسترعى النظر أن عديد من الفرنسيين الذين رعدوا وقتئذ في العودة إلى أوطانهم كانوا من بين أولئك الذين أسفوا على معاداة البلاد ، وكانوا في قرارة نفوسهم لارصون بهذا التسليم على الرغم من تبذيرهم الظاهر لهذه الخطوة ، يذكر من هؤلاء الصابط بكار Bicard

أحد مؤيدي السلم ، والذي كتب في مذكراته عن الدهشة التي أثارها التسليم كانت لا تغفل عن الارتياح الذي فؤله من إتمام المعاهدة ، إذ يأسف الفرنسيون على معاداة بلاد بلوا في افتتاحها « مرتين » تصحيت كبيرة ، وكان يصل جهودهم أن بدأ الرجا بعد طريقه إليها ، ومن السطر أن تصبح بعد قليل أغنى لتستمرات الفرنسية . وقال بيكار : « كما لقد كان السليم « هروبا » ولكن بإحلال البلاد وصارحها لم يحدث إلا بعد إبرام معاهدة « مشرفة » (١) .

وإذا كان (بيكار) ، وكان ليبار والقواد الذين وافقوا على التسليم يرون في اتفاق التسليم والإحلال الذي أرموه مع الأجنبي واعتمايين عملا « مشرفا » فقد كان هناك آخرون يرون خلاف ذلك ولا يحدون في لأسبب التي أسند إليها ليبار وقواده ما أصبح اتحادا مبررا لإلغاء السلاح وسلم القاهرة المحصنة دون مقاومة . فقد اعتقد الحدران (ريبية) أنه كان في استطاعة ليبار لو أنه أتى الجربة واشتداعة أن يدر « حروحا مسلحا » . من شأنه معاهد المدو الرابط أمام القاهرة في موقع من المواقع التي استهان بمدو بموه تعصبها ، وأعمل تشديد الرقابة عليها (٢) ، ويد بوبارت هذا الرأي كذلك ، واعتقد لو أن ليبار درس حطة « الحروح المسلح » بهمان لوحه أن في استطاعته تحطيم الحصار . وقد أمل (الأمراطور « ديون الأول ») بها بعد مذكراته في إنشاء معاه في (ست هيلاه) فقد نشده جمع عمليات ليبار العسكرية مددوصون الحدران لأحراج إليه بقوات الرحانية في ١٣ مايو إلى وقت تسليم القاهرة (٣) .

واعتمد المؤرخون الأغلبي الذين عثوا مسألة تسليم القاهرة ، أن أي قائد آخر من هواد بوبارت غير ليبار ما كان يعسكر في إلقاء السلاح قبل أن يحدول أولا تشتيت جموع الأراك عبر الظمية ، حتى إذا تمكن من تحطيمها سهل عليه إرسان المخرمة للماعة بالاعلير . ولكن « رؤية الأردية » حراء « (الحود الاعلير) وحدها كانت كافية لإفراج الفرنسيين بأن ساعة الخلاص قد دت لأن الاعلير كان في وسعهم دون غيرهم أن يهشوا ما يلزم من سعي لعل الفرنسيين الراعيين في العودة من « النقي » إلى أرض الوطن (٤) . وشاطر بوبارت نفسه هذا الرأي فقال : « عندما يعتقد جيش

Bricard 470,473 (١)

Rogault 342 (٢)

Bertrand II 434 — 40 (٣)

Fortesque IV. 2. 855 (٤)

ما أن في وسعه الخلاص من مأرق شديد بالوصول إلى اتفاق يكفل له المحافظة على كل مظاهر الشرف العسكري ، فانه سرعان ما تذهب رغبته ويندوى كل أمل في استمراره على المقاومة^(١) ، وفصلاً عن ذلك فقد وجد بيار وقواده فيها صلة كبير من قبل عبد عقد اتفاق العرش مثالا يسعون على موافقه ، ولم يدر محمداً أحد منهم أن التسليم دون مقاومة تذكر كان أمراً لا يرضى به الشرف العسكري . وخاصة عندما استبد الجميع في تسليمهم إلى تلك الأسباب العسكرية التي ذكرها بيار عند انعقاد المجلس الحربي ودونها حاربه Carbe ثم بسطها بيار همه في خطابه إلى الفصل الأول ، وكلها كما تقدم اتقون ، تدور حول استحالة تعطيم الحصار أو القيام « بحرّوح مسلح » أو إطالة نحصن القاهرة

ومع ذلك ، فقد تصدى كثيرون لإقامة الحجة على أن هذه الأسباب « العسكرية » وعدها أي ذكرها بيار وأحدتها المواقف على وقف القتال م سكن صحبة ، لا تستند إلى حقائق ثابتة . فقد ذكر (لاهراج) أن ثمة التحصينات الخارجية في حيرة كاسه قد أسبب — قبل حدوث التسليم — وم تسليحها بعد من اندفاع القوية كما حضرت الحقائق التي أقيمت عليها التاريس . وحصلت المائدة الرئيسية^(٢) ، وأيد هذا القول الصراط الإنجليزي فاعترفوا بأن التحصينات التي أقامها الفرنسيون كانت تدور مبيعة ، حتى أن المدوم كان في وسعه أن يحارب باسحامها إذا قرر المحوم على القاهرة إلا بعد تردد طويل^(٣) ، بل إن الإنجليزي عندما دخلوا القاهرة ووقفوا على حقيقة هذه التحصينات وبعد المداخع للوجوده « القلاع » والحدود لتحصين بالقاهرة وقعتها ، راد اقتناعهم بأنه ما كان في وسعهم أن يحصلوا على شروط أفضل من تلك التي حصلوا عليها^(٤)

حقيقة لم يعم بعض القواد الإنگليز — الحبرال مور خصوصاً — ورنا كبير الهدم التحصينات ، ولكنه كان من رأى مور نفسه أن الفرنسيين لو أرادوا لأمكنهم الدفاع عن القاهرة ، ولأرغموا الإنگليز على إطالة الحصار وكدوم حصار فادحة ، ولذلك فإن قرار التسليم جاء « في الوقت المناسب »^(٥) ، وقد مور « ويندولي أن سلوك

Bertrand II 438 (١)

Rigault 342 (٢)

Walsh 202 (٣)

Wilson 152 (٤)

Moore II 30 — 1 (٥)

بليار في سليم القاهرة كان من أدنى الأعمال التي ميع بها إنسان وأشدّها صعبة ، فقد كان في وسعه على وجه التحقيق بعض ما كان قد به من قوات ملحوظة الخائب أن يستمر في الدفاع (عن القاهرة) ، وأن يكسبنا حصاراً فادحة ، وأن يؤخر تسليم القاهرة مدة تراوح بين الأسبوعين والثلاثة أسابيع ^(١) .

ومع أن بليار كان يخشى صفة هجوم الحوش المحاصرة لو تأخر تسليم ، فقد كان من رأى وبارت أن هذا الخوف لا داعي له ، لأنه لم يكن من المعلوم أنه لن يمدد سوف بدأ استعداداً محومه على المواقع الصعبة التي يحدها . وعلى ذلك فقد كان في وسع بليار أن يطرح أمد مقاومة مدة ستة أسابيع ، لا يستأن أن يأتي لهضان بعدها فملو المدة في شهر ، وتبين على حايه وندرى الأراضى المحاورة . ورغم الإنجليز والأورك على رفع الحصار ووقف حملاتهم العسكرية مدة شهرين على الأقل ^(٢) ، ووداعى الإنجليز أن تسليم بليار كان « عملاً سهلاً » إذ معهم ذلك من التمرص لأخطار لا معدى عن إحداثها لهم إذا طاب الحصار « ذلك أنه كان يحتم عليهم الاستسلام على أواخره خلا دون إهمال . نظراً لعرب ، جاء لوقت صالح لاستمرار العمليات العسكرية . إذ أنه كان استعمل على (الإنجليز) إذا هب أمد ، تطارهم شهراً واحداً شبيب ، أن يستطيعوا تصديق الخاق على الإسكندرية ، لأن مياه النيل سوف ته من عندئذ على حوائه ، ومحمل من سندر على الإنجليز أن يستأفوا أسير صوب الإسكندرية . ولذلك فقد كان من حسن حظ الإنجليز أن يقترح الفرنسيون التسليم على الرغم من أنه كان في وسعهم المقاومة ، ولا تفصهم السلاح أو عورهم الذخيرة ^(٣) .

وعلاوة على ذلك فقد أعلن دوبار Dupart قوميسير الحرب عند انعقاد المجلس الحرفى في ٢٢ يونه ، أن قصة القاهرة كانت ملائى بالبحار ولؤلؤ الى تكفى الجيش مدة شهرين . ومع أن بليار أكد في خطابه إلى القصل الأول أنه لم يكن لديه من الذخائر سوى ما يكفي مائة وخمسين طناً لكل مدفع ، فقد ذكر روى في خطاب بعث به إلى موعى Songis بالإسكندرية أن لديه ما يكفي صعب عدد هذه الطلقت لكل مدفع من مدافع اليدار . ويتفق ما ذكره روى في هذا الشأن مع ما دى به من معلومات في إجماع المجلس الحرفى ، حقيقة كان عدد الطلقات التي يمكن

Ibid 35 (١)

Bertrand II 437 (٢)

Anderson 340 (٣)

تخصيصها للدفاع الأخرى قليلا ولكن كان من الواضح أن في استطاعة المواطن شامى Champy الذى أشرف على إعداد الدخائر أن يصنع قدرا كبيرا من القذائف كل يوم ، عدا ما يمكن إنتاجه في مصانع ومسالن القاهرة والحلقة . ويؤكد (روفى) أن جميع التحصينات لا تقصها الأسلحة كما كانت المواقع الهامة مسخرة تسليحا جيدا^(١)

وكان من الأسباب التى تدفع به لنيار لمول التسليم انما كان خوفه أولا من أن يعتك اطاعون عيشه ، وثانيا أن يقوم القاهريون بالثورة ضده وأن يصبوا إلى العدو كما أنه كان يخشى من « وحشة » الأراك ونسكهم بالمرسيى إذا قدر لهم الانصر ودخلوا القاهرة عدوة^(٢) ، عبر أن وراء الطاعون كاس قد حطب وطأه رويدا رويدا ، حتى أنه لم يبق في الجبل يوم ١٤ نوبه سوى مائه وثمان وعشرين حربا حطب ، كانوا جميعا في دور صفه^(٣) ، ثم انهارت هذه كعبتهم حطبهم حطبوا على الهدوء والكمية في أثناء اشتداد الحصار على مدينتهم ، حتى أن حيران ، الذى حطب هوربه في الغيم بضعه وكالة الديوان ، ما لبث أن كتب إلى صوفى ١٧ نوبه « إن القاهريين يطرون لافتراب اثنين منهم في غير اهتمام ودون مبالاة » وشربت حريصة المذكورة Courrier de l'Egypte في عددها رقم ١١٦ « إن هدوء سكان القاهرة مستمر على السواء ، ويسبب من دلائل عدة أنه من التمدد أن يطرا تغير ما على هذه الحالة » . وكان من رأى حيران أن صلب هذه المسكة تلك الساعب لى تعرض لها القاهريون في أثناء وجود الفرنسيين بالقاهرة في العام السابق ، مما جعل الأراك يعتقدون شيئا كثيرا من مصعبه النظيرة رد على ذلك أن القاهريين إلى جانب عدم اهتمامهم الفرنسيين ولصدر الأعظم ، ثم حذرهم من الإغتراب الذى لا يعرفونهم ، كانوا على حد قول حيران يفصلون كثيرا على هؤلاء الكفار — الإغتراب — الذين يجهلونهم ، أولئك الفرنسيين الذين عاشوا بينهم ربما استطاعوا في أثناءه أن ينالوا حيرهم وشرم^(٤) .

على أن نعمة حقيقة واحدة تعدر على الناقين على لنيار أن يندحموها ، هى أن مو

Rigault 343 (١)

Charles-Roux II 202 (٢)

Desgenettes I 224 (٣)

Rigault 344 (٤)

منه معادته القاهرة لم يرسل إلى قائده أية أوامر أو تعليمات « إيجابية » ، واكتفى بأن يوصيه بضرورة « إرعاج الإنجليز والفرنسيين وإسباك قواهم » . بل إنه كان من الظاهر - فصلا عن ذلك - أن الفصل الأول منه قد ترك مصر وشأنها سهوياً . فقد كتب ليار في خطابه إلى بوابرت في ٣ يولي « لقد انقضى حوالي الثمانية شهور وثبت تعلم نفاقى سمية أكرسى ، ومع ذلك فقد أحقت جميع محاولتك لإرسال التحدثات إليها ، وقد مات لها أربعة شهور وعين مدافع عن أرض مصر شبرا شبرا ولم يصلها شيء من استحداث بعد ، فنادا عساكنا رجوا . وفي اعتقادى أن الإنجليز ما كانوا يستطيعون التقدم والوقوف أمام أبواب القاهرة لو أنهم حشوا من ظهور أسطول فرنسي كبير في البحر الأبيض (١) » .

ويدور أن بوابرت به قد أدرك هذه الحقيقة ، ولذلك فإن (الإمبراطور النماني) بعد أن اتفق بالأمم على تسليمه ، عاد يمدح شجاعة ليار ، ويحمل مو ورو هذا التسليم كله . فقال « لقد ركة قائد الحملة العام دون أن يصدر إليه أية أوامر ، وكان من أثر ذلك استدر العام وإيأس القدي سنة إنطاء مو ورو و عدم كفايته العسكرية ، أن رال كل أس ورجاء لدى الخمد كإرالمه كل ثقة لهم بأهمهم إن لغواد الذين وقعوا على التسليم كانوا من الصراط المتارس الذي عارضوا اتفاق الترش معارضة شديدة . وهل كان يلقى ما في وقت ريت أكايل العام هامة الجمهورية نتيجة لما أصعبه عليها من عهد وطار عهد صلح لو هيل ، والصلح مع روسيا واسات النماني واعتلته ، أن محبت هذه الأصواء التلامعة ، وسبب الألم والحرى للأمة الفرنسية ، بإجراء تحقيقات نال من شرف أولئك الشجعان الذين لاشك في أنهم كانوا يستحقون تقدير الوطن العظيم ، بأن الظروف التي مروا بها كانت غير الظروف التي أحاطت بهم . أولم يكن من الأفضل لنا أن نعلم أعسا وأن نمر وكل ماحدث إلى حكم القضاء والقدر ، وإلى أن الجيش كان يفضه عساكنا وحوود قائد أو رئيس سيمس على مصافره ، إذ لامتاحة في أنه مهما بك الإنسان من جهد ، ومهما كان نوع مأسده أية حكومة من نشاط ، ومهما استعصرت هذه الحكومة من تشريعات نافذة ، فإن ذلك كله لن يجعل من جيش يوم على رأسه « وعل » من الوعول جيشاً يتألف من الأسود الشجعان (٢) »

إحلاء القاهرة :

وما إن تم التوقيع على شروط التسليم حتى بدأ الفرنسيون يأخذون اهتمامهم لإحلاء القاهرة ، فأطلقوا في اليوم التالي (٢٩ يونيه) سراح ٥ المحوسبين بالقلعة من أسرى العثمانية ، وأعطوا كل شخص معطى قماش وحملة عشر قرشاً ، وأرسلوهم إلى عرصة ابورز . وكان بلغهم الجهد من الخدمة والفعالة وشيل التراب والأحجار وصق الخس واخدوع ومات الكثير منهم . وكذلك أفرحوا عن حملة من اسرمان واعتلحين ^(١) » وذهب عدد كبير من اصناد الفرنسيين إلى المعسكر الإنجليزي لتسلم حبولهم ، وبعض الصناد الذين وجدوا من التعذر عليهم أحدهم معهم ، كما أحضروا معهم عدداً من النساء الحورجيات اللاتي رعين عند أسرتهن ، وحتى الفرنسيون أن يعرضن لانتقام الأهليل ؟ واحتفظ الإنجليزي بالحبوب والذرة أما النساء فقد باعهن يبيع الرقيق في « السوق » لحلهنهم الأراك ^(٢) . وحدث في مساء اليوم نفسه « أن جمع صوت مدفع بعد الغروب عند قلعة جامع انطاكر حارح الحبيبة ، ثم جمع منها أذان العشاء والفرح وما أصاب اسهار نظر الناس فإذا برق لغمان بأعلاها ، والساكنون على أسوارها فعلوا تسليحها . وكان ذلك المدفع إشارة إلى ذلك ، ففرح الناس ونعموا أمر السائلة ، وشيع الإفراح عن الرهائن من المشايخ وغيرهم وبقى المحوسبين في الصباح واكثر اسرسانهم من نعل والسع في أسعهم وخبولهم ونحاسهم وحوارهم وعندهم وقضاء شهائهم » . ثم « أنروا عدة مدافع من اقلعة ، وكذلك من قلعة باب الرقية وأسمه وفروش ومارود » .

وفي يوم ٣٠ يونيه « عمل القديوان وحضر الوكيل وشغل نودوع الصلح والسائلة ووعداً في الجلسة الآتية بأن لهم فرمان الصلح وما اشمل عليه من اشروط ويسمعونه جهارا » ^(٣) : وظل الفرنسيون يقولون أنهم من « القعدة الكبيرة وبقى القلاع » طيلة ذلك اليوم ، كما أفرحوا في الأيام التالية عن « حبة المسحوبين والشايخ » فكان من بين هؤلاء محمد حلى أبو دوية وإسماعيل القلق ومحمد شيع الحارة باب اللوق والربوسى سيب أنى دوية والشيخ خليل النير ثم الشيخ السادات والشيخ الشرفاوى والشيخ الأمير والشيخ محمد المهدي وحسن أغا المحتشم ورضوان كاشف الشعراوى وغيرهم ، وقد رل هؤلاء الآخرين « إلى بيت قائمقام وقائمه وشكروه فقد لمشايخ

(١) المجرى ٣ : ١٩١

(٢) Anderson 337

(٣) المجرى ٣ : ١٩١ - ١٩٢

إن شتم إدهوا فسموا على النورير فأبى كله ووصيه عيكم » . وفي ٢ يوليو « حصر
ابورر ومن معه من العاكر إلى ناحية شرا ، وكذلك الإنسكر وصحبهم قطان باشا
إلى الجهة الغربية والعساكر محدهم ، ونصوا الحمر فم بينهم على البحر ، وهو من
مراكب مرصوفة مثل حمر الحرة بل يريد عنه في الإمداد » تم ألحق انكريسيون
في اسوم معه « تورفاً بطرق مكتوبة بالعربي والفرساوي وفيها شروط من شروط
المنبع التي سبق بالصفة » ، لشمس الأهالي على « أنفسهم وأبدانهم ومالههم » ،
ومخاصة أولئك الذين « كانوا عديمة الجمهور انكريساوي » ، وإطلاق الحرية لمن يريد
من أهل البلاد اللحق بالفرنسيين والذهب معهم . وفي ٣ يوليو « غلبوا الدوان
وحصر الشراخ والوكيل » وقرأ لوكيل عليهم بقعة شروط المنبع « واترحمان
بسرهما » (١)

وحدث في أثناء اشغال الفرنسيين بإحلال اقمعة والمواقع الأخرى أن وصل في
ليل ٤ — ٥ يونيو جنود من المجاهدين يحملون إلى القاهرة أمر من السيد يطالب فيه من
جيش بلار الصمود حتى يحرار انصر ، والاستعداد في الدفاع حتى « في الجيش عن
آخريه » ومع أن أحدًا لم « لهذا الأمر الأخير » ، ورفض الخد أن يصحوا بأنفسهم
إرضاء لرواتب رجل لا يمكن أن يكون مستمعا لعوامه الكاملة — على حد قولهم
عندما أصدر هذا الأمر ، الذي يدل على أن صاحبه حلال ، فقد أصدر دوامس على
صروته إطاعة أوامر قائد الحملة العام ، واستمسك بالدفاع عن قاعة القاهره إلى انوائه
وأعقب أبواب القلعة وأحد شخص داخلها ، واضطر بليار إلى هجرته بالمرل ، ودا
هو أصدر على تعطيل الإحلال (٢) ، فأدعى دوامس واستؤف بإحلال القلعة

وفي يوم ٦ يونيو « أرسلوا أوراقا ورسلا للاجتماع بالديوان ، وهو آخر الدواوين
فاجتمع المشايخ والحداد وبعض الوعاقلية واستوف الخاريدار ولوكيل والترحمان ، وقد
استقرهم الخواص أخرج الوكيل كتاباً محتوماً ، وأخبر أن ذلك الكتاب من ساري
عسكر صوبت به إلى مشايخ الديوان ، ثم ناو له لرئيس الديوان فقصه ونبأه للترحمان
فقرأه والخاصرون يسمعون » وقد جاء في هذا الخطاب « إن نوابرت صوف يبعث
إلى المشايخ » جواب جميع (مكاتيبهم) إليه » ، ووعد مو برارة القاهرة قريباً .
وطبق يؤكد « أن جمهور انصور علب في أقاليم ابروم جميع أعدائه ، ويعون الله

(١) العربي ٣ ١٩٢ ١٩٣

(٢) Malus 218; Galland II 79 — 80

هادى كل شيء ، سيعلم كذلك العدا في مصر » . ثم أوصى أهل الديوان خيرا بروحه
« المكرعة السيدة ريدة (وولده) المرر سلطان مراد » . ويدعو على حد قون
اشيخ الخرفى أن موكب هذا الخطاب قل وصول حمر الصلح إلى الإسكندرية .
ثم أحد التوكيل يقول « إن الخيال مواسر لسلوككم حتى الآن وراحة الملك حظ
الفقراء ، وإن الحكام القداميين لابد وأن يسلوكوا معكم هذا الموضوع ولا بد
من وصول مكاتيب بونابارته حد أرضه أمام أو حمة ، وأنه لا ينبغي أحدهم كمالا سبي
أعداءه ؟ ولو لم يكن له من الحسن إلا جعلكم وسائط لإعانة الناس كان كافيا
وإنكم معصوب أنه كان نظر إلى أحواله المارستان ومصالح امرضى وكان قصده أن
ينفي جامعا ولكن عاقبة توجهه إلى الشام » .

ويقول الشيخ الخرفى إن حزار واستيف (أو استوف) ما سنا أن سارا يكثران
من ذكر « أمثال هذه الخرافات والتمويهات » ، ونحدث « استوف الخارندار ، ومدر
الحدود العام في مجلس الديوان العالي » عن بوايا بونابرت ومواقفه ، وما بدلاه
من صروب الإصلاح ، وما فعله من أجل إزالة أسباب الظلم والظور وإقامة الحكومة
الصادقة العادلة ؟ وذكر ما كان يفتويه مو على وجه الخصوص من تسهيل سبل الخرج
الشريف « في هذه السنة » ، وزيارة « طيطا لأجل حفظ مقام السيد محمد لدوى »
واحتتم (اسوف) خطابه الطويل بقوله « ونكسنا الآن أن نحقق لكم من عهد
حصره القمص الأول في الجمهور المرساوى بونابرت ، ومن عند حصره سر عسكر
مو ، الحمة واستعفة صادقة لتي واقعة من المرساوية إلى الزعماء المصرية ، وهذه
الحمة والعثم لم يفظعا أبدا بسبب سمر حجاب من الجيش ، وهلت أن يجادف يوم
أنا رجع إلى عديكم لأجل تمام الخير القدي يصدر من حكم المرساوى والذي ما أمكسا
تسعه فلا تتوهوا بامشاع وباعفاء أن مراقبا لم يقع إلا عن مدة ، وذلك محقق
عدي ، ولابد أن دولنا ربطون ثانيا في مدة قرينة الحمة القديمة التي كانت بينهم
ويسكم ، وهلت ست أن دولة العثمانية لما نسير على الحرف الحالي الذي يحمل لهم
الإسكندر يرون أن المرساوية في طلب الديار المصرية ليس لهم إلا ربط زيادة حمة
صحتهم لأجل كسر نفس وطيش الإسكندر الذي مرادهم سب جميع الحور ومتاجر
الديب » ، فكان جواب الحصريين « إن الأمر له وذلك له وهو الذي يمكن منه من
شاء ، وانقص الديوان » (١) .

وكانت حطة استيف الطويلة هذه بمثابة « خطبة الوداع » ، ومع أنه كان واحداً من تطبيق الشيخ الحرفى فى أثناء نقل رحمة هذه الخطبة أن أحداً لم يصدق كل هذه « الحرافات والنجومات » التى ذكرها استيف عن حجة العربيين المصريين ، وسهرم على معصيتهم وحلب الخمر لهم ، فقد استطاع استيف أن يذكر فى كتاب له إلى الجيران مو فى ٢٧ يوليو أن أكثر كبار اقاقره الذين حصروا التوديعه كانت « تهرى الدموع فى مآقيهم » ، وسدو على وجوههم القلق الذى سببه رحيل الفرنسيين من مدينتهم^(١)

وفى صبيحة اليوم نفسه كان الفرنسيون قد بنشوا « فر كبير بالغرب من القصر العيسى » وأخرجوا الصدوق الرصاص للصوص فيه رمه ليأخذوه معهم إلى بلادهم . ثم ملوا الخنة فى البحيرة ، وشيعها الحيد فى احتفال مهيب ، وتطلق الإغدير والعنابيون إلى جانب الفرنسيين — مدافعهم إحتراماً لها ، وتعدوا القلعة فى أنيل (حرما) محمداً ناسودن . وفى يوم ١٤ يوليو كان قد تم استعداد الحيد للرحيل ، فعد الإغدير والعنابيون ثمانية مركب معهم فى أنيل صوب رشيد^(٢) . ودل الفرنسيون معهم كذلك « هيكى » سلبان الحلى قال كبير^(٣) . وما إن وصل الجيش للمصب إلى مساه فرسخ واحد من رشيد ، حق غادر الحيد السفن للسير بطريق البر إلى أفى قبر حق بحروا منها إلى بلادهم . وفى ٩ أغسطس اعلى الحمرال بيارمع أركان حربه السفية الإغديرية (دوق بورك) ، وكان قد بدأ أعمال الحيد والرصى والمديين منذ ٢ أغسطس على أربعة سفن الإغديرية . وفى اليوم العاشر من شهر أغسطس كان قد تم انقلاطهم جميعاً على ظهر السفن ، وبيع عدد الخبيج (١٣٦٠٠) منهم تسعة آلاف حدى ، وكان الناقون من الرصى والمديين ، ومن هذا العدد جميعه حوالى ١١ الخمسةائة من اليونانيين والأفامط ، الذين قرروا الخروج مع الفرنسيين والى فرنسا^(٤) .

ولموا جميعاً طولون — بعد رحلة طويلة مروا فى أثناءها بقرص وروودس وكريت ومناطه وصقلية وسردييا — فى ١٩ أكتوبر ١٨٠١ ، ودخلوا فرسة مرسيليا فى ٢٣ أكتوبر^(٥) ، وتقلت رفات كبير إلى (فورديب Fort d'Ill)^(٦) وكان عن

Rigault 348 (١)

Reybaud VIII 277 (٢)

Wilson 143 (٣)

Reybaud VIII 280, Martin II 267 Anderson 356, 427 (٤)

Bricard 477 — 83; Galland II 89 — 90 (٥)

Bricard 483 (٦)

خرجوا مع الفرنسيين المسمون بقوت القبطي^(١) ، ذلك أن العلم يقوِّب ثم نشأ الاستعادة من « الأمان » الذي أرسله إبراهيم بك إلى أكابر الممط عند دخول العثمانيين والسكوات الممالك القاهرة ، بل « خرج غناعه وعافه وعدى إلى الروسة ، وكذلك جمع إليه عسكر القبط ، وهرب الكثير منهم واحتجى ، واجتمع ساؤم وأهلبهم ودهسوا إلى قائممقام (بير) ، ونكوا وولولوا ورحوه في إقائهم عند عالمهم وأولادهم فلم يبق قراء وتحتب صناع ما بين عمار وساء وصانع وغير ذلك . فوعدهم أنه يرسل إلى يعقوب أنه لا يقهر منهم من لا يريد القهاب واسفر معه^(٢) .

وبقصر الشيخ الحنفي مدة « بحكي » لفرسيين « بالمدار المصرية » وقائهم في القاهرة من يوم انصارهم في معركة اسنة أو الأهرام في ١٩ صفر ١٢١٣ إلى يوم « انتاعلم وروطم من اللعاع وحبو لدية منهم » انه ٢١ صفر ١٢١٦ ثلاث سواب وواحد وعشرين يوما^(٣) .

سوء في الاسكندرية

ففى سقوط القاهرة على كل أمم في تمام الاسكندرية ، إذ أصبح في استطاعة الانجليز والعثمانيين بعد تسليم المياد أن احتوا محبوسهم إلى الاسكندرية لتعريب قوات الجنرال كوت الذي تركه هتشمسون على حصارها عند دهاه إلى القاهرة . وقد ظل كوت مدة طويلة في حاجة لعدة سريعة ، لأن دهاب هتشمسون قسم من الجيش إلى القاهرة أنقص القوات المراقبة أمام الاسكندرية حتى صار عددها لا يريد على مسعة آلاف حتى كان منهم حوائى الألف يشكون من عتف الأمراض ، وينتشر الرمد على وجه الخصوص بينهم ، كما كان يفض جيش الجنرال كوت وقتئذ النون والأعدة وهدد الطاعون بالفتك^(٤) ، وكان من المحتمل لدرجة جيدة أن يكون النصر في حاب سوء ، لو أنه أسهر الفرصة للاستعادة من هذه الصعوبات التي أحاطت بالعدو فالتج مع الإنجليز في معركة حاسمة ، ولكنه ما بين سقطت ادهاره حتى كان قد صاع كل أمل في إمكان تعظيم الحصار وخلص الاسكندرية^(٥) ، بل اعتقد الإنجليز أن الإسكندرية

(١) Rigault 348

(٢) الجرنى ٣ : ١٩٦

(٣) الجرنى ٣ : ١٩٧

(٤) Reybaud VIII 331 — 2

(٥) Rigault 351

أن تستطيع المقاومة طويلا ضد تسلل القاهرة (١) ، ذلك أن فشل بيلار في القاهرة سوف يربط من ضعف روح حامية الإسكندرية للمعوية (٢) ، ولأن مو يفضل تهاونه وأعباده على اتخاذ خطة الدفاع حسب ، قد جعل رماح بلوقف يعلت من يده كما يمكن أعداءه من جلب الجحش بالارمة لتتسلل الحصار ، والقيام بالعمليات العسكرية الباححة ضد الإسكندرية .

وكان مو ما يزال قوى الأمل في انتهاء التعمير لباشقة على الرغم من الهزائم التي جلبت بالفرنسيين ، وانتشار حوش الإختر والعنبيين في أرض الدلب ، ثم رحب هؤلاء صوب انصاره . وه تكل أنباء سقوط العاصمة قد بلغت مو بعد — وعظيمة موف أن الفصل الأول أن يتوالى عن إرسال الجحش اسرعة لإقادة التعمير وقرر التمسك بالإسكندرية حتى يستقبل بها هذه الأحداث ، وحق بسى الجيش اشرق بعد تعرض قواته أن تسأف منها العميت العسكرية الكبيرة لطرد العدو من السلاط وإعادة انسحابها . وكان على صوه هذه الاعتبارات إذن أن أنتم مو بعد معركة بكو بوبيس خطة الدفاع « السلى » حسب ، وكانت هذه تقوم في نظره على تقوية محصينات الإسكندرية والاعتصام بها كلها وتجنب كل انسحاب مع العدو ، وإقامة سداح من ارتفاعه شديده لمنع كل صلة بين جنده وبين جند العدو في المخاض الأممية ، حرصا منه على عدم تسرب الدعوة إلى التسليم والمهرمة بين صفوف جنده ، أو تشجيع أولئك الذين يثسوا من المعومة على الفرار من الجيش ، وتسليم «هم أسرى للعدو في نظير أن يضمن لهم الإنجليز العودة إلى أوطانهم (٣) .

وعلى ذلك فقد استمر محصن الإسكندرية بكل اهتمام مو فأصبح شعله الشدح بعد معركة كانوب ، وكان أوب ما على به تقرير مواقع الفرنسيين على مرتفعات بكو بوبيس داما ، وإشلاء خط حديد على شاطئ البحر ، لإحاطة مقر قيادة العامة ومعسكر مو به سلسلة من التحصينات التيجه . وكان ضروريا إقامة حصين لإحكام الدفاع عن مداحيل الدية ، أحدهما على مرتفعات كليو نظره ، والآخر عند (عامود بومبي) ، وخاصة مد أن وصلت المياه حد إغراق « معجف » مريوط إلى سبع الحصنة التي يقوم عليها عامود بومبي ، فقد استطاع القواد ساسون Sanson

Wilson 130 (١)

Charles-Roux II 203 (٢)

Reybaud V. II 342 (٣)

وبرتراند Bertrand وسونغى Songs أن سحرُوا تشيد هدى الحصين ، مد أن
افتتح مو بصورتهما مع العدو من الاستيلاء على مراكر يستطيع منها - لو أنه
استولى على مرتعات كليو نظره وعمود يومى - أن يسيطر على الإسكندرية والمياه
الحديدة ، ويقطع كل اتصال بين مراكر الفريسيين الأخرى . ثم أنشأ الفريسيون إلى
حساب ذلك وحث وادل من رصاص العدو سوراً حديداً يبدأ من القلعة الثالثة
إلى مسلة كليو نظره ، كما حفرُوا حندقاً كبيراً حول المياه الحديدة لميع رول العدو
بها (١) واعتقد مو - كما كتب إلى القنصل الأول - أن يحار هذه التحصينات
المبعدة جعل العدو لا يحرق على فعل نى ، ولا يحاول الهجوم على الإسكندرية لأنه كان
من التذمر عليه افتتاحها (٢) .

على أن الاتحاد على مساعدة محصيات الإسكندرية ، والتمسك بمحطة الدفاع وإطالة
أمد المقاومة وإصاعة الوقت في انتظار وصول السجلات من فرنسا ، كان عملاً بعيداً
عن الشبكة سرعان ما أضر عن عواقب وخيمة ، وكان من أهم الأسباب التي جعلت
سقوط الإسكندرية أمر لا مفر منه ولا عُد عنه في النهاية . حقيقة كانت التحصينات
التي أقيمت في الجزء الشرقي من المدينة مبعدة الحذب ، واعتُرف العدو معه عتاة
الحصون (وإساريس) التي أقيمت عند كليو نظره ويومى ، كما شهد بقوة المدفعية
التي وضعها الفرنسيون عند (الصار) ، ولكن قوة التحصينات ، وفي الجزء الغربي
من المدينة حصوماً ، لم تكن ذات فحة كبيرة ؛ ولم يكن من المتوقع أن تستطيع
الإسكندرية الصمود أمام هجومات العدو مدة زبد على عشرة أيام أو اثني عشر يوماً (٣)
ونقد باليونان معه في مد هذه التحصينات ، فها هنا كانت عتدة في خط
طويل يصعب تركيب الجهود في الدفاع عنه ، كما أن مو فصر كل اهتمامه في الجزء الغربي
من المدينة على تحسين مراط الحذب ، ثم جمع قواه في الناحية الشرقية من المدينة
بصورة تسليها القدرة على القيام بأية حركة (٤) .

وفصلاً عن ذلك فقد سيطر انتظار السجلات من فرنسا على ذهن مو سيطرة
كبيرة حتى إنه بدلاً من الإشراف على أعمال التحصينات أحديعق وقته التئيم مدى ،
ناراً بالحولة على الشاطئ ، قرب وصول السجلات من أرض الوطن (٥) وتارة أخرى

(١) Martin II 271 - 2; Ibid 329 - 30

(٢) Rousseau 410

(٣) Walsh 261 - 5

(٤) Bertrand II 445 - 7

(٥) Martin II 271

بتسقط الأحبار المظنة عن قرب وصول هذه الحداث من بعض الأسرى الذين قد يفرون صدفة في قبضة رحاله ، فيقل في خطاه إلى الفصل الأول في ٢٧ مايو حرق وقوع مركبين للعدو في أسره ، إحداهما إنجليزية والأخرى تركية ، يقول ملاحوها : « إن البحر الأبيض حيثاً محروياً مرسياً وأسياً » ثم يأتى الفصل الأول : « ومضى يصل هذا الجيش » إلى الإسكندرية . لقد حصر الإسكندرية تحصيلاً بعباً ، ولا جدال في أنه وحده لا يحجمون عن التصحية بأنفسهم والملائك جمعاً ، مادام في ذلك حلاص الإسكندرية . « ولكن أى هي الحداث التي كلف غايوم أو غيره بإحصارها ومضى يحصر » (١) وكان نسب اسطار وصول هذه اسحداث ، التي لا يتحقق مدونها — في نظر مو — تخليص الإسكندرية ، أن انصرف قائد الحملة العام عن التفكير في اتحاد خطوط حامية لتعظيم قوات العدو الواقعة على حصار الإسكندرية .

وما لاشك فيه أن العدو في الشهور القليلة التي تلت موقعة كايوب لم يكن في مركز يمكنه من لصوص طلولاً ، لو أن مو استعمل ماهرة لهو خطة الدفاع التي تمسكت بها . فقد قصت قوات الإنجليز كثيراً ، منذ أن بدأ هتشمسون رحلهم مع قسم هام من الجيش صوب القاهرة ، وعلاوة على ذلك فقد أصدر هتشمسون أمره بعد وقت قصير إلى الجراح كوت ، أن يبعث إليه بعداد من المشاة والفرسان والمدفعية ، فقصت قوات كوت أمام الإسكندرية إلى حوالي خمسة آلاف ، كان من بينهم حوالي ألف وخمسة مائة جندي مضارب بالمد وبمختلف الطل ، أى أن عدد الجند الصالحين للقتال كان حوالي ثلاثة آلاف جندي طيب (٢) . وهذا ما كان لدى مو بالإسكندرية سنة ثلاث مائة في وسعهم القيام بهجوم ناجح ضد الإنجليز ورفع الحصار عن الإسكندرية (٣) ، ولكن مو أصاب الفرصة وكان من عواقب الإصرار على استمرار خطة إطالة المد لمقاومة أن بدأ الموقف يسوء في الإسكندرية خلال الشهور التالية ، حتى انتهى الأمر بأن وحده مو نفسه يضطر إلى التسليم دون إبداء أية مقاومة حدية .

وكان من عوامل الضعف « الداخلية » التي حرمت مو ، إلى جانب تمكنه أهداف الأمل في إمكان وصول البحار التي اعتمد عليها في تخليص الإسكندرية ، عن التفكير في ملاحمة العدو ، ذلك الانقسام الذي بدأ في القاهرة بينه وبين زمرة

Rousseau 407 — 8 (١)

Walsh 188 — 9 (٢)

Bertrand II 445 — 7 (٣)

من كبار فواده ، والذي مالت أن ظهرت حظورة آثاره السيئة خلال حصار الإسكندرية . فقد رخص مو - على نحو ماسق بيانه - أن يستع لصح ريسه قبل معارك سكوبوليس وكابوب وصنها ، وأصر على إرساله لأحراج إلى الرحامية ، وحرّم ريسيه وجماعته من كل عمل مثير ؛ ثم عهد بالقصده إلى طائفة من أنصاره الذين رفّعهم إلى مراتب حركات كبريان وراميون ، كإرفي عرمدون نظر إلى كماسهم العسكرية ، متجدياً في ذلك أعداداً القدماء ، فزادت بسبب ذلك كله شدة الانقسام اتساعاً بين مو وبين ريسيه وداماس (١)

ولما كان ريسيه وداماس قد وحدا أنهما مارا متعطلي ولا عمل لهما ، فقد حصرا كل اهتمامهما في مباحثة الحوادث ونوحه القدر اللادع لقائد الحملة لعام وقواده الجدد ، وإيهما فريين وراميون بالخروج لمو ، وقال داماس عن الوليدى رايو شك الذى رفته مو إلى رتبة حبال . إن السبب في رفته لم يكن سوى قدحه في كلبه وإظهار إعجابه بمو . وتناول ريسيه وداماس بالقدر على وجه الخصوص خطة الدفاع التي تمكثها مو وأصاره ، إذ كان من مفضلاتها إلزام الجيش بالوقوف ساكناً ، وإعطاء الفرصة للعدو حتى تكمل استمداده لاصحاح حصينات الإسكندرية ، بعد أن تكون قد حارته الإمدادات الكافية ، وبعد أن يكون الزمان قد انتشر بين حدود الخياميات ، وتكون الخطة قد فسكت بالجند والأهلين على السواء ، وبلغ الضعف بالجيش الفرنسى حداً يجعل من التمدد على المقاومة - ووجدت هذه الاستعدادات آتانا مصمية على الجند والصراط - وبدأ الجيش المحاصر بالإسكندرية يسبق درعاته التحصينات التي أكثر مو من إقامتها ، كما بدأ بعد صبره من اضطار تلك الوحدات التي استمر مو على انفسه يقرب وصوله من قرباً (٢) وكان من أثر ذلك أن بدأت تسوء حالة القواد العمية ، وصارت الأعصاب متعة ، ولم يبق من ذلك حتى أولئك الأفراد الذين أظهروا إعجابهم بمو وحصلوا لعوده ، فصار فريان يشكو داستان إلى مو ، وقد رايو شك كل احترام من زملائه ، بل إن التدمير من خطة مو لم يلبث أن انتشر بين هؤلاء الأعيان أنفسهم ، حتى صار لا يعج فريان ورايوي وسونجي وسائر القواد عن معارضة العمية سوى حرصهم على استنساب النظام في الجيش ، واستسلامهم لما قد يأتي به القدر (٣) .

Rigault 317 — 8 (١)

Ibid 319 — 20 (٢)

Ibid 366 (٣)

ولم يقتصر رينيه وداماس على إيداعه روح الاستياء من أعمال مو بين الصباط والقواد بالاسكندرية ، بل وحدا متسعاً من الوقت بسبب مظهرهما للكتلة إلى زملائهم وأصدقائهم — إلى نازي في القاهرة وإلى الجنرال مورو Moreau في فرنسا - ثم إلى الفصل الأول منه ، غصيان أخطاء مو ، وبيداده أعماله ، وبرميانه صورة « لهدد الإرهاب » الذي أقامه مو في الاسكندرية ، وبسطان مباح اليأس الذي استند بالقوس منحية لذلك ، انصرف اليه ، الذي كان يهدد في نظره بصياع مصر وقد المستعمرة نهائياً . فكاتب رينيه إلى (مورو) يشكو من أعمال مو ، ويرسل إليه موحراً عن الأعمال العسكرية التي تمت في عهد قيادته العامة ، ومدكرات تحوى تفصيلات ما يقع من حوادث « وما » ، على أمل أن يدع (مورو) ذلك كله في فرنسا ، ويعرض هذه التفصيلات على الفصل الأول كما كتب رينيه إلى ليلار ، بسط له نظريته في إحدى طرق الدفاع عن استعمرة ، وعوها أن ترك ليلار القاهرة ، وأن يذهب إلى الاسكندرية للاهتمام بحيشه إلى الجيش المدافع عنها « لأن الإسكندرية هي المكان الذي ينبغي الإغارة الاستيلاء عليه » (١) .

وكان من أثر هذه الانتقادات والأقوال المادعة التي أدانها رينيه وداماس أن انقسم الجند المحاصرون بالاسكندرية فرقتين ، احدى أحدهما إلى رينيه وجماعته ، وظل الآخر مؤيداً لقائد الحملة العام (٢) ورده من تدبير استعصم على مو أن الانخيل في القاهرة الأمامية كانوا يوحون دائماً أمام احد الفريقين ، الأمل في العودة سريعاً إلى أوطانهم ، إذا حدث انتساب وانعص قبل لا يزل منه (٣) وبذل الاعمال قصارى جهودهم لئلا يدور التفرقة بين الجند المحاصرين ، وزيادة عوامل الانقسام شدة على شدتها ، فتحدث بعض صباطهم مع فريق من الجند الفرنسيين في الزاكر الأمامية ، وأحدهم من الصباط (كليمان) Clément أحد ياوران الفصل الأول ، قد وقع في أسرهم قريب من صباط ، وأن هذا الصباط كان يحمل أمراً بتربية الجنرال رينيه إلى رتبة نجلي في قيادة الجيش فكان قد يوقع هذه الأحبار أسوأ ، لا تار في للمسكر الفرنسي ، ذلك بأن رينيه لم يلبث أن أرداد بحرفة جد ذلك في علاقته مع مو واقواده

Ibid 325 (١)

Doguereau 420 (٢)

Dragon D'Egypte 159 (٣)

الوالدين له ، كما أنه أحد مدبغ هذه الأخبار ، وعظم فلق مو من أن بدر ربييه مؤامره واسعة لانتراع السلطة منه ، وانتشر أعوانه في كل مكان بحسوت - إلى ردا لثهم^(١) . وامر داسان يؤكد لمو أن الحد يدون أسعاً عطياً ، لأهم لم يرغبوا ربييه عند وفاة كسر على قبول القيادة العامة ، ويحون باللائحة على أنفسهم لأهم تركوا « جاهلاً » يتفقد هذا المصب الخطير . وما إن أكد له رامون وداسان - ثم انحار إليهما فريان كذلك - أن ربييه وداسان قد أحلا بواجبهما في أثناء معركة كانوب . وأن هناك ما يدل على ثبوت ذلك قطعاً . حتى أخذ موسى هذه الأقوال دريعة للتحقق من أعدائه نهائياً^(٢) فأصدر أوامره إلى القومندان نوفل Novel في ١٣ مايو بالقصص على ربييه ، وداسان ، ودور ، ووايه Boyer ويرو Néraud وباشيلو Bachelu ودلتر Delaitre .

وفي بل ١٣ ١٤ مايو ، دعت قوة كبيرة ، تألف من ثمانية من الحد المشاة وحميين من الفرسان ، عدا جماعة من المهندسين إلى منزل ربييه ، فأحاطوا به وأخذوا معهم إلى حارب أسلحتهم الكثيرة مدعوا لزيادة الحيلة . وكان السبب في احتجاز سكوت الليل وقتا لمعيد أمر القصص على ربييه ، ثم حشد هذه القوات الكبيرة . خوفاً من حدوث ثورة خطيرة لو اكتشف « السر » وداع الحر قبل تعلم ربييه^(٣) . ومع أن ربييه كان يحترم المقاومة إلا أنه ما لبث أن فصل الإذعان بالقوة . وطلب مهلة كتب في أثناءها خطاها عبها لمو ، شجبه بمختلف أنواع الوعيد والتهديد ، كما ملأه بالإهانات ، وحمل فيه مو مسئولية الخسائر التي تكبدتها الجيش دون جدوى . لأن مو رفض دائماً أن يستمع لصحة وإرشاده ، ثم هدد بإبلاغ القصل الأول ذلك كله عند عودته إلى فرنسا . وبعد انقراع من كناية هذه الرسالة ول ربييه إلى الميلاء استمدداً لرجيل هو وصحه إلى فرنسا ، فأعتلى ظهر الإريق لودي Lodi ، بينما أعتلى داسان ودور ظهر السفينة (حود يونيون Good-Un-on) ، وحملت لودي الصايط الآخرين . واستطاع هذا الإريق بعد مطاردة عسيرة الوصول إلى نيس في ٢٨ يولية بينما وقعت السفينة (حود يونيون) في أسر الإغلبير قريباً من حريرة كريت^(٤) .

Reynier 375, 378 (١)

Rigault 327 (٢)

Martin II 207 (٣)

Reybaud VIII 221 — 2 : Ibid 207 — 8 (٤)

وأما مو فقد أداع عداء القمص على ربييه ورملائه ورجلهم أنه تمكن من مصادرة
 مبلغ كبير من المرسكات ، يبلغ حوالى الثلاثة ملايين ، كان يمتلكه ربييه والقواد
 الآخرون ، ووعد بأن يدفع بها إلى الجندروانهم المتأخره . وكان عرض موسى إداعة
 هذه الأقوال الإساءة إلى ربييه خصوصا ، فقد عرض مو في الوقت نفسه على أحد
 ياوران الخبران ربييه — وقد بقى الإسكندرية — أن يقدم له ما يحتاجه من مال يكفى
 سد « الديون » التي قطعها ربييه وراه (١) . وبادر مو بالسكنة إلى وزير البحرية
 وإلى القصل الأول وإلى أصدقائه في فرنسا يسط في خطابه إلى الوزير الأساب التي
 دعت إلى إلقاء القمص على ربييه ورملائه ورجلهم ، في أنه كان يحمل في نفسه حقدًا
 عليهم ، بل استمر إلى اتخاذ هذه الخطوة صدم « لأنهم إنما كانوا يحاولون إداعة القلق
 والاضطراب في المسعرة وفي صفوف الجيش » . وطفق مو يؤكد للقصل الأول أنه
 وقد زال كل خوف من حدوث ثورة بالإسكندرية جذبات في إمكانية الفرع مما شئون
 الدلاع عنها بعد رجيل هؤلاء القواد . ثم قال : وسوف يعنى جيش الشرق عن آخره
 تحت أنفاس المسعرة ، إدام أنه يحدث من فرنسا سرماً (٢)

وحاول مو جهده في رسائله إلى أصدقائه أن يعرف كل ما ارسكب من أخطاء
 إلى ربييه وداماس ولانوس ، فهم المسئولون وحدهم عن الهزائم التي خففت بجيش
 الشرق في المعارك السابقة ، وهم وحدهم سبب تدميرهم الذين أشاعوا روح القوي
 وعدم الطام في الجيش ، فلم بعد الجنود يطيعون الأوامر ، وإذا أطاعوها فعلوا ذلك
 مترمين ساحطين ، ولا جدال في أن اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة من جانب مو ،
 وترجيل هؤلاء القواد قد ضمن — على حد قوله — الخلاص للمسعرة والجيش ،
 ومن شأنه إتاحة الفرصة لإزال الجريمة بالمدو (٣) . وكان مو حتى وقت القمص
 على ربييه ورملائه لا زال عظيم الثقة في أن في استطاعته الانتصار في الهابة
 على العدو . بالرغم من روال كل أمل في الحقيقة في إحراز النصر مد أن شرع
 الإخلاء يشددون الحصار على الإسكندرية ، وبدأت تنتشر بها المجاعة والأمراض ،
 واثبت حامسها في عزلة تامة بعد تسليم القاهرة حصوصا ، ولم يصل مو التحذرات
 التي انتظرها طويلاً من فرنسا .

Reynier 374 (١)

Rigault 329 — 30 (٢)

Reyband VIII 222 — 3 (٣)

وواقع الأمر أن بحسب ما نالطاع عن الإسكندرية ، وإطالة أمد المقاومة بها ضد
الخيوش التي صرت حول المدينة نطاقاً من الحصار الشديد ، كان عملاً مقصياً عليه
بمثل عاجلاً أو آجلاً وذلك لأسباب عدة : منها أن الإسكندرية كانت مهددة بالهجرة
منذ أن أفلح الإبحر في قطع سد العدية وإعراق « بحيرة » مريوط ، فقد حوَّص مريوط
وحيشه بديعة لذلك في « شبه جزيرة » صغرى حول الإسكندرية أكثر أرضها محددتة
وإرداد الموقف صعبة عندما سقط بحرون الحيش الثلاثي ماريوط والدختر وما إلى ذلك
في أيدي الانحسر ، فإن المريان الذين طلوا بعدون مريوط وحيشه ماريوط والأعدية خلال
شهرى مارس وأبريل ، قد ، والآن لا يحرمون على الاقتراب من الإسكندرية بسبب
تشدد العدو في مراقبة المسالك المؤدية إليها من الجهة الغربية ، فأحدث الأقوات تشعب
رويدا رويدا بداخل المدينة ، واضطر مريوط إلى تنظيم نورس ماريوط إلى الجيش بقدر
معيّن وسدفة سامية ، فصار الزحف والسيار يورغان على الجدة مرة كل يومين ، على أن
يقسم كل أربعة رجال رحاة واحدة من السد في بينهم ؛ واحد من مريوط « القبل »
المشتغلين « تعتمد التخصيص وما إليها عدد أكبر من ماريوط ، وسد جهداً طاهراً
لإعداد ما يكفي من حمر جميع أفراد الجيش ، وقرر إذا حالت الظروف دون توفير
الخبر السكافي أن يحرب مثلاً حمره بالانصر على استهلاك « السكافيت » في الأيام التي
أيسح فيها استهلاك هذا النوع من الغذاء حسب

وفي أوائل يونيو كانت قد شجعت الأطقم بالإسكندرية للرحلة اصصرت مريوط إلى
اتخاذ إجراءات غير عادية ، فصدر أمراً يومياً في يونيو بحرايح جميع الأقوات الصاطلة
من الإسكندرية وبغادهم إلى الرحاية ، كما أعدم رسماً بالرحاية أحد العارضين من
الجيش ، وبعض الأحاب الذين اهتموا بالنجريس في الثورة وإنشاعة القوصى
في المدينة (١) وسد هبة شهر مريوط بدأت تفك بالأهليين ومحمد مريوط الأمراس الناحية
عن اإشار الحاعة ، وترجع القوم مشاهدتهم في أثناء ذلك ماء « بحيرة مريوط »
تتقدم شيئاً فشيئاً نحو الغرب ، وعظم كل أمل في الاتصال مع سائر البلاد من هذه
الناحية . ورد من رأس الحيش سقوط كصلييه في الأسر ، في الظروف التي سبق
بيانها ، وامتنع ورود الأقوات شاماً ، فاعدم اللحم من الأسواقي ، وصار الخبر يورج
على الجدة والأهليين محوطاً بالأرز ، ثم انتهى الأمر سورج الأرز فقط وأحبى الأرز
بدوره ، وفنك أمراس سوء العدية بالجنود والأهليين ، صار مستثنى الإسكندرية

يعرض بالمرضى الذين يشكون من علة فساد الدم^(١) . وأسقط في يد من الذي
أصدر عنه أن يجد علاجاً ناجحاً لكل هذه الأدوية ، وإن ظل على الرغم من كل هذه
الصعوبات مصمماً على المقاومة إلى الهابة

وكان أحسن ما يحشاء من أن يسند اليأس بعرض الحسد فيستمعوا إلى « دعابة »
العدو ، الذي كان يلوح أمام باطريهم دائماً عرايا للعودة إلى الوطن ، ويعمل على نشر
سور التفرقة والانقسام ، في صفوفهم ، فكثر من إصدار « الأوامر اليومية »
يذكرهم ، على الحسد الأحقاد للقطعة ، ويحثهم على الصمود أمام العدو ، ويحذرهم من
انزلاق فريسة لدعائته الداطلة ، وعندهم بالنصر القريب ، وسرعة انتهاء الشدة التي
هم فيها ، وكل ذلك بمعية روح الحسد للصوية . فما إن عثر فريق الوحدة قرناً
من رح العرب على نسخ رسائل معوية من أسكوت حتى أدان أبحارها على الجيش
في أمر يوم تاريخ ٢٦ إبريل ١٨٠١ ، حمل أساء توقيع معاهدة لوميل (في ٩ فبراير
سنة ١٨٠١ بتروط مطابقة لشروط معاهدة كوفورمو) ، « وإغلاق موانئ نابولي
وصقلية في وجه الإنجليز^(٢) » . ثم عاد من أصدر أمراً يومياً آخر في ٧ مايو ،
يقول فيه إلى الحسد حمر « وجود يوسف بنابر في لندن من قبل الفصل الأول
ووجود استر فوكس في باريس » ، مما يد على اسطار أساء الفصل مع اختاره
وعند الصباح قريباً بينها وبين حكومة الفصل الأول ، واحتتم من أمره اليوم مباشرة
حده أن طوا شعاعاً منصر على بالصر منصر على شاطئهم ، كما طلب إليهم أن
يذكروا دائماً مقدار ما غدته اليأس هذه البلاد دغاً من أثر عظم في مصر معصوم
الصلح القائمة . ثم أحرهم بوقوع مركب إبحري يحمل بالأسلحة والذخائر عند مدخل
الياه القديم^(٣) . وعندما دافع حمر لإحلال الرحمانية وانتشرت الإشاعات المزعجة بين
الجند أصدر من أمراً يومياً في ٢٢ مايو ، تحدث فيه عن أولئك الرجال الذين لا شرف
لهم ، والذين ذهبوا إلى محو العدو الأمامية لعودوا منها أساء مشقة يشربوها بين
الجند . « إن الحرب مزيج من انتصارات وانهازات لا مفر من وقوعها ، أحد من
على عاتقه أن يبلغ أبحارها الصبيحة إلى حيثه سواء كان النصر في حاسه أو صاوده
الهرعة^(٤) »

Martin II 269 (١)

Rigault 324 (٢)

Rousseau 404 — 5 (٣)

Rigault 352 (٤)

على أن هذه الأوامر اليومية وما حملته من ألباء « مشحونة » لم تعد شيئاً في مكافحة ذلك اليأس ، الذي أخذ يستبد بنفوس الجنود الذين نالت منهم المحاربة وأجمعهم المرمى ، وبدءوا يشعرون بشدة وطأة حصار العدو لهم ، ونحمر من عن دفع مرتاسهم إليهم كاملة نعمة ما صار في حرائه من أموال كانت في ٣٠ مايو لآريد عني (٩٩٧ و ٩٥) حينها حسب وذلك في وقت ارتفعت فيه الأسعار بالإسكندرية ارتفاعاً فاحشاً ، حتى إن فريدين مالت أن اضطر إلى دعوته بخارجها إلى الاجتماع عنده حتى يأخذ عليهم العهود ولوائيق لعدم رفع أسعار السلع والمخاض . ومع أن العربان كانوا قد استطاعوا إحصار بعض اللحوم إلى الإسكندرية ، فقد عم من في ٣ يونيو أن هذه اللحوم قد نقصت ونالت لاتكفي لاسهلاك الجيش أو لمدينة (١) .

غير أنه حدث إن اشداد هذه الأزمة ، وصياع كل أمل في إسكان وصول أية مساعدات من فرنسا ، أن شاهد القوم غثة في يوم ٩ يونيو القرويت هليوبوليس تدخل مياه الإسكندرية ، وعم الفرنسيون أن هليوبوليس كانت إحدى قطع أسطول عسوم التي أرسله بونابرت بالرحال والمؤن والدخائر لتجدة استعصره . فقاموا لحد ومو على رأسهم بفرح عظيم وقوى أملهم بقرب وصول المساعدات النافعة إليهم ، ولكن هذه الآمان دسنت أن تخطمت عندما علم الجيش بما أداعه رجال هذه السفينة أنه من الصمت انتظار على أية مساعدات أخرى ، لإحفاق عسوم في محاولته الوصول إلى الشواطئ المصرية ، واضطراره إلى السكوم عني عقبه ، ولالتهاء إلى الشواطئ المصرية فراراً من مطاردة أسطول الانجلترا له ، ومع ذلك فقد ظل من وحده متشكلاً تهديد الأمل ، وراده وصول هليوبوليس إيماناً بأن القصل الأول سوف لا يرمى بصياع هذه المستعمرة « الحبيبة » ، وأنه إن يتوالى عن إرسال المساعدات اللازمة للدفاع عنها .

ومن اثبات أن بونابرت كان يدرك تماماً ضرورة الاحتفاظ عسوم في وقت كان ما يزال راجو فيه عقد الصلح مع انجلترا ، وبدل نصارى جهده لإرسال المساعدات إلى من ، ولو أن جميع هذه الجهود ذهبت سدى . فقد أرسل بونابرت إلى مياه روشفور أمير البحر الفرنسي بروي Bruix لتسليح أسطول حديد لخدمة العابة ، جمع بروي عدداً من السفن الأسبانية في فيرول وقادش كما جمع من أوترانته Otrante حوداً مية إراهم في مصر ، ولكنه أصيب لحاة عسوم حطر اضطر بسده لترك هذه المهمة (٢)

Ibid 352 (١)

Guérin III 632 — 3 (٢)

وعهد نابرت إلى الكونت أميرال (ليبوا Libois) مهمة إيصال التجهيزات إلى مصر ، وغادر ليبوا بالفعل مساء طوبون فيل عودة عاشوم إليها أمام قلائل في ١٣ يونيو ، على أن يأخذ معه أسطولاً أسبانياً من ميناء قادش ، ولكن (ليبوا) لم يلبث أن علم في ٤ يوليو أن الاعلير محاصرون بأسطولهم ميناء قادش ، فاضطر إلى الدخول في حسيح (الجزيرة) Agésiras بعد استنصاره في مناوشة ضد الإنجليز ، ولكن هذا النصر لم يمد جيش الشرق في شيء ، ولم يستطع القصف الأول إرسال أية معدات إلى الإسكندرية ، وصل مو بيدد الوقت في انتظار هذه المعدات عت^(١)

وواقع الأمر أن وصول تفريغ هليو بوبيس إلى الإسكندرية كان له آثار سيئة ، على الرغم من السرور الوقتي الذي أحدثه ، لأسباب عدة ، أهمها أن مو ، الذي عظم اعتماده ، أن عاشوم لا يحال واحداً لجحده إلى الإسكندرية ، صار يفتق الوقت متحولاً على انشأته ، تارة ، أو واقعاً على قراره ، تارة أخرى ، رغم وصول أسطول عاشوم ، حتى إذا ربح الليل مدونه عذر لكان وهو ما يراى يعتقد أن المد سوف يحل في طانه أساء طسة واستأثر أسطول عاشوم بكل تفكيره حتى صار لا يفتق بشئون الدفاع عن المدينة ، فترك مدير وسائله والإشراف على إعداد التحصينات لطاعة من القواد كهرمان وسوغي وسامسون Sanson وبرتزان Bertrand الذين لم يشعروا في أمر هذه التجهيزات التي يعملها أسطول عاشوم ، ووسطعوا التوفر على مراقبة التحصينات والعناية بوسائل الدفاع الأخرى^(٢) .

وكان في هذه الأثناء أن محمد مو إلى يداعة الأبحار المكادنة التي عملها تقاريره إلى حكومة القصف الأول ، من ذلك ما ذكره في إحدى رسائله إلى شالان Chaptal وزير الداخلية تاريخ ١٧ روية عن إمبرام المناسين الذين هاجموا جيش الشرق من ناحية الشام كانت مهم المبرمة في معركتين ، كان الصدر الأعظم نفسه يقود الجيش في المعركة الثانية ، وكان إتحاق المبرمة بالمناسين وحدهم لم يكن كافياً فذكر مو أن الإنجليز قد دحروا في معركة بالقرب من اسنة في مائة قصير من القاهرة وإن لم يكن قد وصلته التفصلات بعد ، ولكن الإنجليز الموجودين في هذا المكان أمام الإسكندرية يعتقدون بأن حصارهم في هذه المعركة كانت حسيحة وبدوا أن يقدم

(١) Ibid 642 — 3, 651 — 63

(٢) Reybaud VII 328

العام الجديد قد قتل في أنفاسها» (١). وبعث مو سيدة الأحبار «الكاذبة» ذاتها في كتاب أرسله في اليوم نفسه إلى الفصل الأول، وقد علق أحد مؤرخي الحملة العرسية في مصر على ذلك بقوله «وهكذا تصبغت التقارير الرسمية أحبار معركة فاصلة ضد الإنجليز في إمارة ومعركتين أخريين ضد الأتراك. إن ذلك ولا شك لما يحول صحیحاً ماكتبه به أحد لتدريسي من جنود الحرس عندما سماه فائد عام جيش انجليز» (٢). وفصلاً عن ذلك فقد نزل مو قصارى جهده لإرسال الأسماء الكاذبة إلى فرنسا بشق الوسائل، وأثبت صاحب التاريخ السابق صورة ما جاء في أحد التقارير التي كثر تداولها في باريس وقتئذ. وكان مو وحده المسئول عن إداة ما احتوته من أكاذيب لعل أشدها إمعاناً في الضيل لعل بأن الإنجليز قد أحلوا مصر جميعها، بعد أن اشتمكوا في عدة مواقع دامية مع الفرنسيين، وأصيبوا بهزيمة باهتة أمام أي قهر والإسكندرية. ولم ينجم من الهلاك الخفيف سوى معادرتهم انشواغهم، وروغهم إلى البحر بكل سرعة. وكان من أكاذيب التي بصمها هذا المبرر كذلك أن الإنجليز قد دوا ثلاثة آلاف من العبي عدا مئات من الخرجي والأسرى في ساحات القباب، وأن يحداد كبيره قد وصلت سمر حيش الشرق في مصر (٣).

وقد يكون الناعث على إرسال هذه الأكاذيب إلى فرنسا أن مو لم شأن بعد مواعيدوه الأمل في نجاح «الحملة»، وبحاج تلك التحفة الاستعجالية، التي حددوا من أحلها بعناء ولتخصيص لمساعدته قائد الحملة أمام في إثناء المستعمرة الجديدة على أسس جديدة وفي ميادين جديدة. حتى تستطيع فرنسا أن عذرها ما عوصها عن الحسارة التي ما رأت تتكدها في مستعمراتها القديمة في جزر الهند الغربية. فيجدوا مواطنيه ورجال الحكومة الأمل في إرسال البعثات التي انتظرها مو طويلاً، والتي اعتقد أن خلاص المستعمرة مرهون سرعة وصولها إلى الأرض المصرية؛ وقد يكون الناعث على إداة هذه الأكاذيب أنه رغب بعزل إحياء الآمال الكاذبة بإزالة الأثر الذي سوف تحدثه ولا شك معرفة أخطائه (٤)، أو قد يكون بعث ذلك

(١) Reynier 393 — 4 Rousseau 415

(٢) Reybaud VIII 340 — 1

(٣) Ibid 339

(٤) Reynier 275

أن الأمر قد احتلط على موثقه لشبه ما كانت تسبطن الرعدة في الفناء بمصر على تفكيره ، حتى صار يتوهم الخيال حقيقة ثابتة .

ومع ذلك من اثبات أن موثقه على الرغم مما كان يصوره من أوامر بومسة يطلب منها من حذره الشات والشحاعة ، وعلى الرغم من تلك الأكاذيب التي لم يورع عن إداعها عليهم لحسب ، بل نجح في إداعها في فرنسا كذلك — كان في فرارة نفسه لا يتقن بأن الأمور في إهائه سوف يكون من نصيبه ، وكان يدرك ولا شك حسامه الأخطار التي أحدثت به ، وآية ذلك خطابه إلى فريان في ٦ يونيو ، يتحدث فيه عن ضرورة التمسك بالمصر ، والاتصاف بالشحاعة ، والتمسك في العمل بكل نشاط وهمة . لأن المصر والشحاعة والمشاهدة من شأنها جميعاً إناحة الفرصة للحلاص من الإخلاء ، ليس في مصر وحدها ، بل في سائر أنحاء العالم ، ذلك بأن رمد والدوسطرس واللعنوع ومرص فساد الدم واحدري قد مدت جميعها نصيق الحق عليهم وتمت بهم . ومع أنه أحسن هذه الرسالة تنمي الفناء للجمهورية ؛ يحزن أن يدفع عن نفسه بذلك طبة الخور وضعف العزيمة ، فقد كان أكثر صراحة في رسالة أخرى إلى أحد خصائمه ، فقال : أما إذا لم تصله أية عذرات من فرنسا ، فإن مصير حبش الشرق إلى الفناء لا محالة ، وكان من أقواله كذلك : « إن الأخير سوف يكون مصيرهم الفناء معاً ، وإن على الحكومة أن سدر الأمور وتأخذ لكل شيء عذره » ^(١) وفي خطبه إلى القنصل الأول في ١٠ يوليو أوصى بوبارت بروحه : « حتى ريذة » وأسه منها سديس مراد الذي قال موثقه « إنه لا يعرف شيئاً عنه ألتة قد عرفت ظروف الحرب بينه وبين بروحه وولده مد مد طويته » ^(٢)

وكان من أسباب الصعوبات التي رادت من حرج مركز موثقه ظل يحزن بواب الإخلاء . ولا يعم شيئاً عن حطهم ، لحاحته إلى العيون والحواسيس الذي يستطعون تسقط الأخبار من معسكرات الإخلاء والمناجس ، ويدشون المائد المصري عن حركات أعدائه ؛ وراد جهله مما كان يجري حوله أو يحدث في سائر أنحاء القطر ، وفي القاهرة على وجه الخصوص ، مد أن وقع كعاليه في أسر العدو ، ذلك أن موثقه كان يعتمد في نظام عمارته على فرقة المحاة اعتماداً كاملاً ؛ ولم تعد محاوله استخدام العربان في حمل رسائله . أو تكليف صباطه بحمل أوامره ، شيئاً في إبلاغ رعائنه إلى

القاهرة ، أو تزويده بالأخبار التي كان في حاجة طاهره لمعرفة . ومع أن مو ماليت
أن عين بدلا من كغاليه صابطا آخر هو سانت حيس Saint-Genès ، واستطاع
أن يحصل على الجمل اللازمة لفرقة الجديدة من عربان أولاد علي ، فإن سانت حيس
سرعان ما وقع في أسر الإنجليز في ٢ يوليو ، بعد خروجه في طلب المؤن من إقليم البحيرة ،
وتعد أن تقدم قبلا صوب القاهرة ^(١) وكان من أثر عرلة مو على وجه الخصوص
أنه ظل يجهل حوادث القاهرة ويجهل الأسباب التي أفضت إلى تسليمها .

غير أنه سرعان ما انتشر بعد ذلك في أنحاء الأسكندرية إشاعات خطيرة عن تسليم
القاهرة ، واستطاع الإنجليزي في الخافز الأمامية أن يطمعوا فريق من الحدود الفرنسيين
على بعض الاتصالات المتدفقة بهذا القسطنطينية ، ثم يدت هؤلاء أن أدعوها بدورهم حتى تمت
مسمع مو ، الذي اشتد به العصب عند وقوفه عليها ، وبادر سكدها على أنها من جبل
الإحيرة وحدهم ، وادعى أن لديه وحده الخبر اليقين لمن شاء أن يعرفه ، وهدد
بالإعدام رميا بالرصاص كل من يعمل على تزويج هذه الإشاعات المكاذبة . وأسرع
تكملة تلك الرسالة التي طاب فيها بليار لصعود حتى إحرار انهزم أو الموت كما أرسل
(فيلا) Viala أحد صباطه مرودا تعليمات شفهوية إلى بليار في القاهرة . يد أن مو
سرعان ما تبين صحة هذه الأنباء ، وبأنه لديه أنها لم تكن ثابتة كاذبة لحسب ،
عندما أبلغه اللورد كيث رسميا في ٧ يوليو بحرارة تسليم القاهرة ، وحصر القادسية
أحد الصباط الإنجليزي يحمل صورة من هذا الاتفاق ، ويعرض على مو الاستعانة من
ماده لاتفاق (العشرين) التي ركت لمو وحده الأسكندرية الخبير في قبول التسليم
وفي لشروط التي تم . لا ماق عليها بين بليار وبين الإنجليزي والعنانيين في ٢٧ يولية

ومع أنه كان من الواضح أن الاستمرار على المقاومة كان لا حدودي منه ، بعد تسليم
القاهرة ، وتسبب الصعوبات التي أحاطت بفائدة الحملة العام من كل جانب ، فقد أصدر
مو على رويس هذه العروص ، وأخذ التضييق منه كل مأخذ ، فأقيم أمام الصابط
الإنجليزي أنه لن يأتي عملا متبعا كتسليم بليار . وإعاز إلى حاسه في ذلك القواد
الذين سألهم مو الرأي ، فحسم الجميع على إطالة الدفاع عن الأسكندرية ، حتى يتمكن
القصل الأول من إرسال النجدة إليهم أو يصل إلى عقد الصلح مع المحترة ^(٢) .
ووصل في هذه الأثناء (تاريخ) الذي كان قد أرسله بليار نسخة من اتفاق تسليم

(١) Reybaud VIII 332 — 3 : Martin II 272

(٢) Rigault 356 — 7

القاهرة منذ ٣٩ يولية وحتى يطلع مو على أسباب هذا القسم ، فرفض مو أن يأذن له باختيار خطوط الدفاع الأمامية . وأرسل أحد ياورائه ليتسلم مائة من رسائل ، واضطر (تارر) أن يعود إلى القاهرة دون مقابلة مو فسبغها في ١٤ يوليو (١) .

أما مو فقد أصدر أمراً يومياً خاصاً في ٩ يوليو أسع فيه حيثه حر تسليم بليار انشين ، وأكد لحده أن المواد التي جمعهم تؤلفهم الرأي في هذا التسليم ، وهم فريان ورامسون وسوحي وداسان وساسون قد اتفقت كلمهم على أن الواجب وقصصيا أن سلك هذا ممالك الرجال الذي لا يعرفون سوى اشرف وحب الوطن مبادئ يسترشدون سدها « ، وأما إذا كان هناك أحد لا يشعرون في نفوسهم بالقدره على حال أعداء الجمهورية ، « فتواب الإسكندرية معوجة أمامهم » ، وبعد مو بإرسالهم إلى رشيد حيث مجتمعون بعد أيام قليلة زملائهم الحاصري من القاهرة (٢) . وفي ١٠ يوليو كتب مو في الفصل الأول أنه عديم عصا إذ يعمل إليه حر تلك الجريمة لشبيعة ، اتفق مدبب لصوره دسيسة محاك حنوطها منذ أن عادر بومارت مصر من أجل إخلاء البلاد . والتي تحققت لأن عسل تسليم بليار « دون أن يخارب العدو ودون أن شن العدو في هجوم عليه » ، وذلك على الرغم من وجود المؤن والذخائر التي مكفيه ثلاثة شهور منها . « هيك شخصيات القاهرة البسعة والمدافع لعدده التي كانت لديه ، فصلا عن الهدوء شامل الذي كان يسود المدينة » ، « ال لمد باع ، لسه بليار جدا جعله يشترط في تسليمه أن يكون استطاعة مو قبول هذه المعاهدة ادهية إذا شاء مو ذلك ، كما كان في وسع أحد القواد أن يشترط شروطا لقائمه الأعلى دون أن يصدر له أمر بذلك » (٣) .

وهكذا ناسى مو — على حد قول أحد مؤرخي الحملة — كل ما ارتكبه هو من أخطاء لعل أظهرها كان نقاؤه بالإسكندرية وهو قائد الحملة العام ، وقت إطلاق حيوش العدو على القاهرة ، ثم تقسيم الجيش قسمين أحدهما بالإسكندرية والآخر بالقاهرة ، ولا مواصلات بينهما ، وعقد فريق منهما نفسه مدعماً على الاشتباك مع العدو دون أن يتحرك الفريق الآخر ، أو بدل جهداً للدخول في القتال القائم ، وأن بليار تصرف تصرفاً ، لم يعمل مو شيئاً ، وما كان في وسعه أن يعمل شيئاً ، لسه أو إبداء

Reybaud VIII 376 (١)

Martin II 273 — 4 · Galli 236 — 7 · Ibid 336 — 7 (٢)

Rousseau 413 (٣)

موافقه عليه^(١) بل يرو هذا المؤرخ معه تلك الاتهامات التي كلفها مو لبيار إلى ما كان يتأخّر في صدر مو من كراهية نسب إيعان شأنه ، وعدم محاولة لبيار أن يسأله رأيه ، ثم ما فعله الخلد المسجون من القاهرة عند إظهار حدوتهم الكبيرة بحثة قائدهم القديم الخلد إلى كدير . ولقد أكد مو في رساله إلى القصل الأول أنه لم يسلم الاسكندرية سائاً ، وأنه سوف يعصى في الدفاع عن المدينة حتى يدفع تحت ألقاصها ، ثم احسم كسامة بكتلات رباته عند ما أنشأ يقول : « وإني لأعرف كيف أموت ولكني لا أعرف كيف أسلم » ؛ ولكنه ، يبعث على الأذى حقاً أنه بينما كان مو يصوع هذه لمبارات ، التي إن دلت على شيء فإنما تدل على صلف صاحبها ؛ كان الجميع - عدا مو قطعاً - يعرفون أنه من المعتبر على الجيش الصمود طويلاً ، نسب بعض المؤن والدخائر وفلة مال ونشئ الأرض وانتشار الجماعة ، وسوف يكون تسلم الاسكندرية بعد وقت قليل^(٢) وفي الواقع لم يكد يعصى شهران على حطاب مو الآخر إلى القصل الأول حتى كانت الاسكندرية قد فتح أبوابها للعدو ، وسلم مو الاخخير واعنييين على عرار ما فعل لبيار في القاهرة

تسليم مو -

في الوقت الذي دُخِل فيه الاخخير حصر تسليم لقاهرة ، بدأت تصل إليهم النجذات تناء فأحصرت الفرق طه ليه (Leda) يوم ٥ يوليو - بعد من الخلد ومبلغاً من المال كذلك ، ايشترى به ، لا تخار صاحبهم من أنون والأعدية من العرب ؛ وفي ٨ يوليو دخلت الفرق طه أ كيب Active حسم أي فير عمل حدة ، ومالا كثيراً وبعد مصر أسبوع واحد فقط وصلت قافلة من اسمن عمل الخلد والعتاد من حريرة سورقة فما انتصف شهر ولو حتى كان عدد الاخخير قد بلغ حوالي ستة عشر ألف حدى^(٣) ووجد الخيران كوت قائد الجيش المراط أمام الاسكندرية أن باستطاعته ، وقد رادت قوته كثيراً ، أن يشدد الحصار على الاسكندرية ، وبدأ بعد لحظة للهجوم على المدينة من الجانب الغربي ، اصعب محصيات انريسيين في هذه الجهة بالمقاس إلى تحصياتهم الميعة في الجانب الشرقي ، فاعتلى الإبريق (بورت ماهون) وذهب يستطلع ذلك القسم من الشاطئ الممتد من مراط ، وسمر هذا الاسطلاع عن مأ كده أن في استطاعة خمسة

Reybaud VIII 336 - 8 (١)

Ibid 336 - 8 (٢)

Fortesque IV, 2. 856 (٣)

آلاف مقاتل ، إذا أقاموا المناريس وأنشأوا حضن التحصينات السريعة ، أن يخلوا تلك الأرض الرملية بين عمرة مريوط والبحر ، وهي الأرض التي تم تمرها المياه بعد كسر السد .

وعلى ذلك لم يكدر يرجع كوت من هذا الاستطلاع الهام حتى شرع يتخذ لعدة لإرسال حملة إلى الجهة الغربية ثم سرعان ما وصلته الأخبار بأن الجنرال مور قد قادراً أمامه ١٥ يونيو يقسم من الجيش الإنجليزي الذي حمل تسليم القاهرة الاستثناء عنه يمكنه . ووصلت هذه القوات الجديدة بعد أيام قليلة ، ووصلت معها كذلك القوات احتياطية بقيادة القبط باشا ، بين ببيت حامية صغيرة بقيادة الصدر الأعظم في القاهرة^(١) . وشرع الإنجليز يعدون خططهم ، ولم يعد دور البدء مباشرة في العمليات العسكرية المزمعة سوى اشتغال الإنجليز بجمع السفن اللازمة في مرسى أبي قير ، لقلل حدود نيلار إلى الشواطئ المصرية ؛ كما أنهم فصلوا التبريت وإحكام تدابيرهم قبل تمهيد خطة الهجوم على الإسكندرية من الجهة الغربية ، لأنهم كانوا يجهلون حقيقة موقف المصريين بداخل المدينة ومدى استعداداتهم . وكان السبب في ذلك أن مو صمم على قطع كل صلة مع الإنجليز ، خوفاً من اتصال هؤلاء بعوده وتعرّضهم على اعرار أو بدور اعدائهم . بل كان مو متشدداً في مع كل صلة مع الإنجليز حتى إنه رفض مقابلة (استيف) ، الذي طلب عند وصوله إلى أبي قير بعد تسليم القاهرة أن يذهب لزيارة صدقه ، ويعرض على قائد الحملة العام « حسانات » الحملة ، وبذلك موافقته عليها . حيث انزال (كوت) في ٧ أغسطس يطلب من مو الإذن لأستيف بالمرور من الخطوط المصرية ، ولكن مو الذي أصر دائماً على عدم دخول أي فرد إلى الإسكندرية ، سواء من طريق البحر أو البحر ، رفض أن يحقق أمنية استيف ، حتى اضطر هذا الأخير إلى معاداة أبي قير دون مقابله^(٢) . ومع أن مو عاد بعد ذلك فرعى بمقايسته ، فإن استيف كان قد أصر في طريق عودته إلى فرنسا^(٣) . وعلى ذلك فقد اكتفى الإنجليز في أول الأمر بتشييد الحصار على الإسكندرية ، وأحدوا يدرسون إمكانيات خططهم الجديدة .

أما هذه الخطة الجديدة فكانت تتلخص في نقل حوالي خمسة آلاف جندي بقيادة

Reybaud VIII 331 — 2 (١)

Walsh 208 (٢)

Wilson 179 (٣)

البحر كوت إلى الناحية العربية ، المحاصرة الإسكندرية من هذا الجانب ، ومنع أية مؤن أو إمدادات قد تأتيها من طريق البحر ، فضلا عن إرغام الفرنسيين على توزيع قواهم ، ومنعهم من حصر كل أنشطتهم في ملاحظة خطوط تحصيناتهم الشرقية وواقي اللورد كيت أمير البحر الإنجليزي على هذه الخطة . بعد أن استطاع موقع العدو على حاشى البحيرة ، وقد كدله به بحر الأسطول الفرنسي لصعير عن المقاومة ، واتهمنا كلمة سائر القواد الإنجليزي على أن الجيش سوف يعجز كذلك عن المقاومة ، إذ قام الإنجليز بهجوم على الإسكندرية من ناحية العربية ، وكان من رأيهم أن إرمان الحدود إلى البحر سوف يتم دون صعوبة تذكر^(١) ، وما إن وصل هتشمون إلى معسكر الإسكندرية في ١٥ أغسطس حتى وافق هو الآخر على تنفيذ هذه الخطة ، بعد أن قرر انقياد إلى جانب ذلك « بعمله » بكرة « بسيطة » ، تخدع بها الفرنسيين ويرغمهم على ترك شواطئهم في مكان غير ملائم الذي أراد الإنجليز أن يهاجموا منه الإسكندرية . وانتظر الإنجليز أن يسرع بخروج هذه القوات العسكرية عن شاطئ طلبة ، يدسوف عنكمهم امتداد خطوطهم في اتجاه العربية من الإسكندرية على حصن مرايط الصغير ، والسيطرة على مداخل المياه القديمة ، وإدخال سفنهم البحرية في ميناء الإسكندرية^(٢) . وبعد يومين ذكره أن قدسوف Vi encuve أمير البحر الفرنسي كان يشهر ببحره عن مقاومة الإنجليز ، إذ حاول هؤلاء دخول الميناء ، لأنه « يمكن لديه بالإسكندرية سوى ثلاث فرق أصاب غيب ، هي (حوميس) ، و (إيجيسين) ، و (ربحر) » . وكتب مند ٨ أغسطس يطلب من مونت نادون له بالخروج بها من ميناء الإسكندرية والانتهاج إلى فرنسا . لأن الجمهورية سوف تحسب هذه المرافعات لا محالة — على حد قوله — إذا بقيت في المياه المصرية^(٣) .

وبدأ الإنجليز يمدون خطهم مساء يوم ١٦ أغسطس ، فاستدعوا أن يتقوا أربعة آلاف من جنودهم بقدره الجيران كمان والجيران جيش . وذلك عذار حال اندفاعية والمهندسين على سفن المدفعية التكتيكية الصغيرة التي دخلت بحيرة مروط مند ١٣ أغسطس وتولى الجنرال كوت لقادة العامة واستعد الجيران هتشمون في نوبت « منه للقيام بهجوم كادب على تحصينات الفرنسيين الشرقيين » . ثم إن رعت هتشمون يوم ١٧ أغسطس

Anderson 360 - 1 (١)

Martin II 275. (٢)

Rigault 365 (٣)

حتى كان ألمان من الخلد الألبانيين قد بدأوا هجومهم على أحد محاور الفرنسيين الأمامية ، وأحلوها هؤلاء ، ومعهم مدفعية الفرنسيين الشديدة من القاء طويلاً في الأماكن التي احتلوها ، فاضطروا إلى تركها ضد حصار عظيمة ، وارتدوا إلى المعسكر الإنجليزي ، وظفوا طيلة النهار بأوشون محاور الفرنسيين الأمامية ، وانضم في الوقت نفسه جيش من الإنجليز بضع مئة آلاف مقاتل مع الفرنسيين في معركة جيل. لوم للجنرال مو أن الإنجليز سعوا منها نتائج حاسمة^(١) فرفض أن يستمع إلى نصيحة الخلد له سوغى ، انتهى حاول أن يوضح له أن نشاط الإنجليز في هذه المعركة لم يكن سوى حديثة خيرية قصدون بها تحويل أقطار الفرنسيين عن عملهم العسكرية الأخرى في الجهة العرسة ، ولكنني بإرسال قوة صغيرة من المشاة والفرسان لتتبع حركات الإنجليز في هذه الجهة^(٢) ، فكان من نتائج ذلك أن عجز الإنجليز في تعيد حطهم وسط عاب إحدى نوارحهم الوقوف قريباً من رأس اثنين وشدت تقوى الإسكندرية بقابلها .

ول كانت القوة تصعده التي أرسلها ، وهو إرادة سير السفن التي نقلت ، الإنجليز في البحيرة عثى من أن عثوب هؤلاء ، بإرسال حدودهم إلى البحر ، وقد وجدت من الحكمة وأصله أن رأى أن يكف عن البحر حتى لا يستطيع الإنجليز قطع خط مواصلاتهم مع سائر الجيش ، ومضاه عن ذلك فقد عمد الفرنسيون إلى إحراق سفنهم التي كانوا قد أخرجوها إلى البحيرة ، وذلك خوفاً من سقوطها في قبضة الإنجليز .

وهكذا لم يثبت النساء حتى كان هؤلاء قد ركروا موتهم في موقعهم الجديدة^(٣) ، وبدأوا هجومهم على حصن مرايط في اليوم الثاني (١٨ أغسطس) ، فلم يمس أيام ثلاثة حتى سلم (إيبين) Etienne قومندان الحصن للإنجليز في سن ٢١ ، ٢٢ ، أغسطس^(٤) واستطاع الإنجليز بعد ذلك أن يدخلوا إلى ميناء الإسكندرية عدداً كبيراً من السفن ولفرقاطات واقراوب والآبار في أحدث مواقعها جميعاً فضلاً لفرقاطات الفرنسية التي اضطرت إلى الانحياز في دحل المياه تحب سائر من ييران مدافع حصن (لترك) Letureq . واعتمد الفرنسيون عندما شاهدوا هذا العدد الكبير من سفن العدو يدخل

Reybaud VIII 345 — 7 (١)

Reynier 294 (٢)

Martin II 276 (٣)

Anderson 365 — 7 ' Walsh 95 — 6 Wilson 332 — 4 (٤)

البيضاء ، أن عرص الإغريق كان إزال الحد عند رأس النيق ، حيث يستطيعون الهجوم على الإسكندرية من هذه الناحية دون أن يصدىم عائق ؛ فعمدوا إلى إغراق عدد من السفن أخذوا منها « حبراً » ووضعوا فوقه طرقات مدافعهم للدفاع عن رأس أبيق ؛ ومع أن هذه الطرقات كانت صعبة وفي استطاعة الإغريق عطيها بسهولة ، لو أنهم أدركوا ما كانت تدل عليه حركة الفرنسيين هذه من أنهم يشعرون بخطر مراكرهم في رأس النيق عن المقاومة والدفاع ، فقد شغلهم إطلاق قناصلهم على حصن (لترك) عن محاولة الهجوم على رأس نيق ، واستمر تصوب مدافعهم على هذا الحصن حتى يوم ٢٥ أغسطس ، حتى إذا كان اليوم الذى بدأ الإغريق هجومهم على حصن (لترك) . غير أن مو كان قد أذعن في عصر يوم بعد رعة فواده ، ومث اثنين من صاغة لطلب هذه من العدو تمهد للاتفاق على شروط التسليم النهائية^(١)

وقد شاهد الفرنسيون منذ بدأت عمليات العدو الأخيرة صورة حدية في ١٧ أغسطس أن الإغريق وانضم إليهم يمترون من خطوطهم رويداً رويداً ، بين بقعت قواتهم لم يمد هناك (حسب إحصاء لعدد الجنود في أول سبتمبر) سوى (٩٥٠٧) من الرجال ، منهم (٧٣٦٢) من القضاة والحد انه مدين ، بين كان القافون من الأرض أو من ثوابت المشعلين شئون الإدارة ، ثم شجب الماؤون ولأهوات فلم يمد بغيره (يوم ٢٨ أغسطس) سوى (٧٢٣٧) لمره من القمع أو ٣٦١٨٠ كالجورما من القمع يجب أن تكفى لعدة الحد حتى نهاية الأسبوع الأول من شهر أكتوبر ولم يوجد من الأزر سوى قدر قليل يكفى لعشره أيام فقط . بينا يمد غرائس الجيش سوى (١٩١) ألف من الحيات (حسب إحصاء ١٧ سبتمبر)^(٢) . وفلا عن ذلك فقد حلت الخازن عن الأئيدة وغيرها ، واءعد الحد في اعمار الأسامية ، واعتقد ملازم في الأماكن الأخرى وفي داخل الإسكندرية أن من الخير المعاصرة مع الإغريق ، وهم ما راينون يمدس من خطوط الفرنسيين المحصنة وأسوار المدينة ، والاستفادة من رعيهم في ذلك شروط سحبة ، حتى تمكن الوصول معهم إلى اتفاق بمحظ الشرف الفرنسي . وذلك قبل أن يهجموا بحصينات الإسكندرية ، ويرغموا حشد لشرق على ثمة شروط أخرى ويرثاؤها ، تنال من شرفه ولكن أهدأ من هؤلاء الحد ما كان يحرق على معارضة القائد العام بذلك كله ، ولو أن مسنك مو في هذه الآونة

(١) Martin II 280 : Wilson 327 — 30

Rigault 375 (٢).

كان بدل على أن الحبل قد أصاب قائد الحملة العام عندما أعرق سعن الفس ، ووجه
انها مات شدة لأمبر البحر ويلوف ، ووصفه بالحسن لرعيه في غلبس معه من لوقوع
في أسر الإغليز أو عطيحها على أيديهم . ثم اعزم مو بدلا من ذلك بإعراق انصرفطاب
الثلاث في مياه الإسكندرية (١) ، فطر الخلد إلى فودهم ، لآخرى ، وعقدوا آمطلم
على فرمان ورامبون وسوحي الذي ونفوا بأهم حر من يستقيمون تحييصهم من
هذا المأزق .

وعلى ذلك فقد قرر رامبون أن يتخذ على عاتقه مفاعلة مو في أمر انصدم ، وتمكن
من مقاباته مدة طويلة يوم ٢٥ أغسطس ؛ ودين رامبون قصارى جهده في دفع مو
بأن الوقت حال أقول انصدم إذا رغب انصدم في المعوضة ، ولما عثت مد
ما يذهب شرف الجيش الفرنسي ، وأحمر رامبون مو أن انصدمت العسكرية الأخيرة
وحده قد كلفت حصة الإسكندرية ثمانية رجل ، وأن من يصلحون للخدمة
صاروا لا يريدون على ثلاثة آلاف خب ، ورامبون وافعل انصدم وأحد انصدم
« بعد على أي شيء ؛ لقد نحلوا أي ولا اساعدي أحد على إقالة عثرة الجيش الفرنسي
وانهوس به . بل يطلون لهذا الجيش نهاية . دعوا إلى الحرية والخلد ، ومع ذلك
على وحدي سوف تظل مصرا على انصدم نواحي حتى أفتد شرف الجيش وترفع عنه
وصمة العار ، وأحتط له ذلك اسجل الطويل من شمال المحمد واهجار لساعة » ؛
عبر أن هذه اصاربات احولاء لم تلب شتأ من عزة رامبون التي تحد بوضوح انصدم
الأي أن انصدم سوف يكون لا محالة أعظم دا دخل الإغليز لإسكندرية ، وأن من
انصدم الاعتقاد أنه ما يزال في وسع الجيش لصدومه وصد انصدم ، وطاب انصدم بين
الرحيبين دون حدوى ، وأكثر مو من لصاح وانصدم حتى أنصدم رامبون ، فنادوه
رامبون وهو يطر به كما طر انصدم إلى طهال لا أي ما عوب ، أو أي محبون يهدى ؟
وما إن عاد رامبون إلى منزله حتى عتب راملاء بالاجماع له لبحث الموقف ،
وقرر رمي الخنمين على ضروره بده «مفاوضة مع الإغليز بكل سرعة » ، ثم انشوا إلى مو
الخبان (دارمبا) Darmagnac . وهو أحد انصدم ط الذي رفعهم مو بعهده
إلى مرتبة لبيده ، لاجل يبه قرار فواده ، فحدث برسمال (درمباك) الأنز
المطلوب ، ودعس مو في آخر الأمر وقبل انفاوضة وأرسل لهذه لعداه في اساعة
الراحة من مباد ، يوم ٢٦ أغسطس انصدم من ناوراها إلى المعسكر الإغليز ، ذهب

أحدهما من باب رشيد إلى معسكر الجراء هفتسون ، بين أحوار الآخر تحصيات (لترك) في طريقه إلى معسكر الجراء كوت ، وحمل كلاهما حصانا من مو إلى القديس الإغبريين ، يطلب فيه هذه مدة ثلاثة أيام ، يستعد في أنسائها يطلب التسليم . وبادر مو العدو ألا يعتبر طلب الهدنة جديده بلجأ إليها القائد الفرنسي تمهيداً لاستئناف القتال مرة أخرى . فأتت الإغبر رعة مو وأعلنت الهدنة ، ورفعت الأعلام البيضاء على المخافر الأمامية في اليوم التالي (٢٧ أغسطس ^(١)) ، وعقد مو محلاً حربياً برياسته في صباح يوم ٢٨ أغسطس للنظر في شروط التسليم ؛ حضره من القواد ووكلاء اصناد والموظفين ، فريان ، وسوغبي ، وداسان ، ورايوشك ، وفوجير ، وساسون ، وبغدر ، ودبلجورج ، وفولريه Fautrier ، ويوسار ، ودارميان ، وهير Heppler ، وسارتون Sartre ، ولوروي Le Roy ، وريشر Richer ، وانفد المجلس في (وكالة فرنسا) اقيم فيها فريان قومندان الإسكندرية .

وسمح من مصحلة هذه الخطة ^(٢) أن أحد كانوا في شدة التعب والإجهاد ولا قدرة لهم على المقاومة ، ومع أن الدخائر كانت على وجه العموم « كثيرة » ولدى المدفعية كميات من المقاتل تكفي لإطالة مدة الدفاع على الرغم مما حدث من نقص ، فقد تبين لسؤال المخصصين من أعضاء المجلس أن الحدود المخصصين سلاح المدفعية كان أكثرهم من اليون وسجارة الحدود الذين تعورهم الحفرة ، وزيادة على ذلك فإن الحدود الباقين بالإسكندرية كانوا لا يكفون للقيام بالعمليات العسكرية الباحجة لأن الدفاع عن حصون الإسكندرية كان يتطلب وحده ستة آلاف جندي ، ناهيك الحدود الألبانيين لأنهم الدفاع عن سائر المراكز العامة . وكان هؤلاء لا يقفون في تقدير القواد المجتمعين عن ستة آلاف أخرى ، وذلك في وقت كان قد تبع فيه عدد المخصصين بالمستشفيات ألقاً وتسمائة مرضى يشكو أكثرهم من علة فساد الدم ، نسب سوء اسعدية وانتشار المجاعة ، ولم يكن هناك شيء أمل في إمكان الحصول على الحبوب واللحوم وسائر أنواع الأغذية ، وبات الموحود من الحبوب في المخازن لا يكفي سوى أسابيع معدودة (حتى يوم ٢٣ ستمر على وجه التدقيق) ، بينما لعدم وجود الزيت

(١) Walsh 112° — 116°

(٢) Walsh 122° — 125° : Reybaud VIII 369 — 70, 373 — 6.

والخل والأسدة وسائر الشرابات الروحية ، مع حبة المستشفيات للأسدة لاستخدامها على وجه الخصوص في علاج مرض فساد الدم أو (الأسكر بوط) ، كما سارت المستشفيات تقدم لمرضاها لحوم الخنول إلى جانب لحوم الأغنام ، ونهضت كليات اللحوم بها عموماً ؟ ولما كان عدد المرضى في اردناب مستمر فقد تاب يقيم المستشفيات العتاد وانعزس ، كما اسدم وجود الدواء انلارم لمعالجة المرضى بالأسكر بوط - خصوصاً

وعندما سأل المجلس رأى الطبيب (سافري) Savaresi واخراج (لارى) Larrey والصيدى (بول) Poubie الذين استدعاهم ليستوضح الحالة الصحية في المدينة ، وملع استعداد المستشفيات لمضى في خدمة المرضى ، أكد هؤلاء عمر المستشفيات عن اعصابه بالمرضى للأسباب لتضاعف كما ونعوا أن تريد وطأء الهواء شدة على شدتها بسبب رطوبه الجو انماحة من دخول المياه إلى بحيرة مريوط ، بعد أن كسر الانخير السد الذى حجر مياه بحيرة القعدة ، فأعزوب المياه مساحة من الأرض لا تقل عن مائة وخمسين ميلاً مربعاً ، وهى مساحة كانت تقوم عليها حوالى اثني عشره أو خمس عشرة قرية ، كما كثرت المستشفيات حول الإسكندرية ، ومن شأن مرض الأسكر بوط أن يجعل المرضى به أكثر تعرضاً للإصابة بوباء الطاعون فإذا أصيب إلى ذلك كله أنه لم يكن لدى الفرنسيين أسطول يصح الاعتماد عليه في الدفاع عن مياه الإسكندرية ، أو مطلق عمليات الانخار في البحر وكانت قوات الإنجليز وبعثاتهم المتباينين تابع حوالى خمسة وعشرين ألف جندي من إنجليز وفرنسيين وشوام وغيرهم ؛ ويقف أسطول مؤلف من أربعين مركباً على حصار الإسكندرية ، يوجد منها سبعة عشر مركباً في داخل ممرات اباء القديمة ، وهذا عدا وجود ما يريد على مائة وعشرين قارباً مسلحاً من قوارب العدو في بحيرة مريوط تقوم على حصار الإسكندرية من هذه الجهة اتصح أنه لا حدودى من الاستمرار على انقاوطة .

وفضلاً عن ذلك فقد تاب متعددا وصول لواء العبد إلى الإسكندرية حيث قطع حصر أوسد المدينة ، وامتلاء الخليج أو لربعة اتقى بعد المدة بلباء الصالح للثرب - عياه لبحر الملح ، بهيك على لخلق ذلك بعدد اعلى من الجند المدافعين عن الإسكندرية من تعب وإجهاد ، بسبب التفاعهم المستمر مع العدو في مفاوضات ومعارك عدة منذ إخلاء القاهرة ، وذلك بما أنشأ العدو معسكرين مسعين في شرق المدينة وعرضها ، واحتل حقل يمتد من البحر إلى بحيرة مريوط ، وانقطع فصل ذلك في كل مرة حوالى مها الفرنسيون المحكوم على العدو أن يشترك معهم في معارك من الأدم والخطف وعلى

الحاسن ، بسبب ما لديه من سفن المصينة الكثيرة ، فإذا أخذنا بعين الاعتبار كذلك أن قلعة مرايط قد سقطت « بعد دفاع مجيد » في يد العدو ؛ وأن تسلم القاهرة ومد أناس للعدو امهضة ليجمع حيوشه أمام الإسكندرية ؛ وأن الإغليز استطاعوا بإغلاق الموانئ التي كان تأتي العربان منها بالأعداء إلى مدينة محاصرة ، وأنه من المستبعد أن تصل من أوروبا انجندات قبل يوم ٢٣ سبتمبر - وهو يوم بعد الأعداء ، وأن الجيش الموجود بالإسكندرية لا يستطيع الصمود حيث سمع عدده مد سليم القاهرة عشرة أمثال الحد الفرنسيين الذين يصلحون للخدمة في الميدان ، أصبح عمر الفرنسيين عن الاستمرار في الدفاع عن المدينة .

وعلى ذلك لم تكن تعرض كل هذه الحقائق على أعضاء المجلس الحزبي ، حتى أخذ هؤلاء ، قراراً من على أن يطلب إلى قائد الحملة عام الحمران عبد الله حاكمو أن بدأ من الآن التفاوض مع فواد الدول المتحالفة ، من أجل إخلاء الإسكندرية بشروط مشروطة للجيش الفرنسي ، وللموانئ التي وقعت في حاصه ، فضلاً عن جميع الأفراد الذين انصرفوا عندهم ، على أن يكون هذه الشروط في مصلحة التجارة والهدوء ، ومن أثرها المحافظة على ممالك الأفراد وأرواحهم ، مهما كان هؤلاء من جنسيت مختلفة ، ومهما كانت عقائدهم ، ماداموا قد خدموا الجمهورية الفرنسية في مصر ؛ كما طلب إلى مو المودونة عن تسلم الإسكندرية بشرطة أن يحدث ذلك خلال مدة معينة ينفق أهلها وما لديه من موارد ، وبعد عدم وصول أية محادثة من فرنسا ؛ ثم بعد المجلس قراراً أخيراً أصبح بمقتضاه لكل عضو من أعضائه مطلق الحرية عند التوقيع على محضر هذه الجلسة أن يحل رأيه الشخصي ، حتى إذا حارب ذلك رأي الأكثرية . وقد وقع على هذا المحضر دون تعليق كل من ريميه René ، ورشمر ، وسارمون ، وليهر ، وهير ، ودرون De zins ، ودارمبيك ، ودمجورج ، وبوسار ، وفولت به وراونشك ، وسوخى ، وهران ، ورامسون ، أما (دامشيت) فقد أبدى رغبته في أن يمد الأحرار لمصوح عليه قبل تسلم تسليم حتى يوم ٢٣ سبتمبر لاحتمال وصول مبادرات قبل هذا التاريخ ، ثم أبدى سارمون نفس الرغبة ، وسجل مو رأيه الخاص في قوله « إن تسليم القاهرة ، الذي ما كان ينتظر إلى ما كان سمي أن ينتظر حدوثه الجيش النواصب أمام الإسكندرية ، جعل سقوط الإسكندرية أمراً مبروراً منه ولاسبيل إلى منه . وكان يجب أن نصمد القاهرة في الحقيقة على الأقل مدة أخرى نحو شهرين ونصف شهر ، فلو أنه حدث ذلك لأمكن تخوين الإسكندرية ، وإعدام

تحصيلها على الوجه الأكمل . ولفكتك الأمر من كذلك بحيث العدو ، ولاستطاع الفرنسيون أن يبقوا مصر في حوزتهم^(١) .

على أن اعداد قرار لتدابير الشروط والتوقيع عن مصطبة الجلسة لم يكن معاه انتهاء الجلسة ، ذلك أنه بقي على المجلس بعد أن قبل أعداءه المفاوضة مع العدو أن يضع هؤلاء قواعدها . وتم الاتفاق في الليلة ذاتها على أن يقوم كل من رامبون وفريان وسومعي وساسون وديليجورج بإعداد هذه القواعد . وفي صبيحة اليوم التالي (٢٩ أغسطس) كان هؤلاء قد فرغوا من عملهم . ولكنه ما إن عرضت قواعد المفاوضة على المجلس حتى أبدى أولئك القواديس سخوة عظيمة « عند التوقيع عن مصطبة الجلسة العامة بغيرها » ، وكان (دسديس) أشد منهم عما في معارضه . ومع ذلك فقد رُمى من القصة في أول الأمر . ذلك أنه وقد انضمت في الجلسة السابقة ائتلاف من الإسكندرية ؛ فقد صار الآن — على حد قول أحد مؤرخين^(٢) — لا رضى من يدون تحت أعلام الإسكندرية ، بل أصبح الآن يرفع راية صديقة في المفاوضة أكثر من أي شخص آخر . ومع ذلك فقد كان موقف المتمردين عليه أن يكسب القناع عن سانه الصحيحة بعد تمكنه سابقا لضرورة الدفع حتى انصرفوا لموت . فدخل في المناقشة وعدد كبير من الاتهامات لبيار ، وبمرور سب قوله المفاوضة إلى سليم القاهره على يد لبيار ؛ واقفل انصرف فأخذ يصيح « رضى أو رأس هذا اعانده سوف يطبخ بها » ، فخلد عبد الموده إلى فرسا ، ولكن مو مالت أن هذا بعد ذلك ، وكان لدخله الجسم ثم فدان في إنهاء المناقشة وقوله تلك القواعد التي وضعها رامبون ورعلاؤه للاسترشاد بها في المفاوضة دون تغيير ، وبدأ المجلس يسع مقترحات الصلح في حبسها الأخير . بل إرسائها إلى العدو . وانقضى النهار دون أن يرفع مو من صوعها وكنتها .

ولما كان يوم ٢٩ أغسطس آخر أيام الهدنة ، فقد تقف هنشيسون ، وعلى أن في الأمر حدة ، وكان على وثق استئناف العمليات العسكرية عندما جاء أحد ياوران مو في مساء اليوم نفسه يحذر عن التأخير ، ويطلب امتداد الهدنة يوما آخر فرفض هنشيسون وهدد بالهجوم على الإسكندرية عند منتصف الليل ، ولم قبل الانتظار حتى صباح اليوم التالي إلا بعد إلحاح شديد ؛ وعلى ذلك ماذر مو بعد أن عقد اجتماعا جديداً

(١) Reybaud VIII 388 9 ' Walsh 125°

(٢) Reybaud VIII 392

بإرسال شروط الصلح من وافق عليه، القواد إلى هنتشون ، ولما كانت قراءتها تحتاج إلى وقت طويل فقد رفض هنتشون أن يخطب . وأصر على أن يتم توقيع التسليم يوم ٣١ أغسطس وفق شروط أحصا هنتشون في مواد أربع . نقل جيش مو ناسجته وعيادته وأحد عشر مدفعا لحشد من مدافع المدن إلى فرنسا ، وانفراج من تسليم الإسكندرية خلال عشرة أيام ، على أن تخرى رواب الحشد إلى البحر خلال العشرة الأيام اندية حتى يتسرى رحيلهم بمجرد استعداد السفن للإبحار ، أما وفي . ملحق بالخدمة العلوم والعلوم فإنه منزع على أعصابها أن يعلقوا معهم شيء من انقطع الأثرية القديمة أو المخطوطات العريقة أو الرسوم والمصورات أو غيرها كرات أو المجموعات الفنية والعلمية . ل ينزكون ذلك كله « يجب بصرى القواد والزوايا . لا تخبر » ؛ وأخيراً أن تتم تعصيات التعيد وفق ما سبق الاتفاق عليه في مفاوضات القاهرة . وحدد هنتشون الساعة العاشرة من مساء يوم ٣١ أغسطس موعداً لقرب هذه الشروط أو رفضها . وعلى ذلك فإنه ما إن وصلت هذه الشروط إلى الفرنسيين ، وكانت بمثابة إنداء باستئناف القتال ، حتى عقد المجلس الحربي وجد طاك مجتمعا صورة دائمة في شأن ذلك كله — حلة أخرى . اقش فيها عروض العائد الإعلاني ؛ وتم الاتفاق على شروط التسليم ، وأرسلت هذه إلى هنتشون ، وكانت تتألف من اثنين وعشرين مادة ، رفض هنتشون بعضها وأدخل تعديلا على البعض الآخر ، ودلى عدداً منها ^(١) . ولم يسع الفرنسيون سوى التوصل على إرادته .

فقد رفض هنتشون أن يعد أحمل الهدنة ووقع القفال إلى يوم ١٧ ستمبر سنة ١٨٠١ ، وهو اليوم انتهى حدة الفرنسيون لقول إحقاء مواقعهم وسلم المدينة . إذ حسب لا تصلهم أنه عادات من فرنسا حتى ذلك التاريخ ، وأصر هنتشون على أن يتم إحقاء من كثر الفرنسيين وحصى (لترن) و (دوفيفيه) Duvivier بعد يومين من تاريخ التسليم حسب ، أى ظهر ٢ سبتمبر ، على أن يسلم الفرنسيون كذلك المدافع والمدافع بهدي الحصين ، ويتم إحقاء مدينة الإسكندرية والقلاع وما إلى ذلك في ظرف عشرة أيام من تاريخ اسوقيع على الاتفاق ، « أو في اللحظة التي يسلم فيها الفرنسيون على ظهر السفن » لركوب البحر إلى فرنسا . ومع أن هنتشون وافق على أن يقبل انفرسيون معهم عتادهم الخاص وما يملكه أفرادهم من أوراق

وسلح أو ممتلكات شخصية ، فقد اشترط ألا ينقل شيء مما يعد من ممتلكات حكومة الجمهورية المصرية ، وأن يسمح فقط للشاط والحدود الفرنسيين وتلك الذين عاونهم وكانوا من جنسيات وأديان أخرى سواء في أعمال الحرب أو الإدارة المدنية بأن يبقوا معهم متعلقاتهم الشخصية ، ماداموا قد ظلوا في صفوف الخدمة أو خدموا جيش الشرق مدة لا تقل عن عشرة أشهر ، ووفق هتشسون على أن يعادروا الفرنسيون أسلاد محتفظين بكل مظاهر الشرف العسكري فلا يهاملون كأفراد حرب ، ولكنه رفض أن يخرجوا بكامل أسلحتهم وأن يحتفظوا بكل مالههم من وثائق واوراق ، كما سمح لهم بنقل عشرة مدافع خشب لا تزيد عدد طلقات كل منها على عشر فقط ، ثم رفض أن يخرج السفن الحربية بكامل عديها وسلاحها ، والسفن التجارية التي يملكها فرنسيون أو غيرهم ، مع الجيش المسحب ، وأصر على تسلم جميع هذه السفن « بحالتها الراعية » وأجيب مارفيس كذلك طلب الفرنسيين اعادار شروط التسليم سارية على سمن الجمهورية المصرية أو سمن حلفائها التي قد مد من مباء الاسكندرية من ربيع توقيع الاتفاق إلى يوم ١٧ صتمبر ، وعدم مصدره سمن الجمهورية أو حلفائها التي تدخل هذا المباء خلال الأيام العشر من الأولى إلى بن هذا التسلم ، ان يسمح لها بدلا من ذلك بالخروج من ميناء حرة طيفة بعد أن يرودها الاعلار وحفاؤهم محاورت المرور للارمة .

ومع أن هتشسون أجاز دهاب من نشاء من اسجار وغيرهم من الأفراد - واه كانوا من الشوام أو القبط ثم يونان أم اليهود ثم العرب مع الفرنسيين ، وتأمين توثك الذين خدموا جيش الشرق في مصر على أموالهم وأرواحهم إذا رجعوا اسقاء في مصر ، وقد أصر على أن تظل جميع المصانع والوحود بمحارن الإسكندرية ، أو في طول السفن الراسية بمينائها في حورة الإغليز على أن يتم التصرف في هذه المصانع بعد ذلك حسب القوانين والمواعد التي أقرها الدول المتعدية . ورفض هتشسون أن يأخذ معهم أعضاء حبة العلوم والفنون وأعضاء المجمع العلمي أو رايهم ومذكراتهم ورسومهم ومجموعاتهم العلمية (في التاريخ الطبيعي) والآثار القديمة وقطع القبة التي جمعوها مدة إقامتهم في مصر ، وأجاز هؤلاء بدلا من ذلك أن يبقوا معهم آلاتهم العلمية وأدواتهم التي أحضرها من قرب عند محنتهم إلى هذه اسلاد خشب ، وأصر على اعتبار المخطوطات العربية والمخطوطات العلمية التي جمعها العلماء باسم الجمهورية المصرية من الممتلكات العامة ، وحين التصرف فيها من حق قواد الخبوش المتجالة وحدهم ، وعلاوة على ذلك فقد اشترط هتشسون أن يسلم إليه الفرنسيون

جمع ما لديهم من رسوم مدينة الإسكندرية وحصولها ، وكذلك لمصورات والخرائط المتبعة بأقاليم مصر ؛ وفي عدا ذلك تضمنت مواد التسليم الإحراءات التي تحت اتحادها لتسليم الحلاء ، ونقل الفرنسيين من أي قبر على بقعة الإغريق وحلفائهم وفي سجنهم ، ثم نقل مرضى الفرنسيين في « سن المستنق » للعودة بالمؤن وانقاذهم وأدوات الجراحة وما إلى ذلك . وبعد الحلفاء تحصيل بعض سجنهم آخرمة لحماية الجيش المنسحب في أثناء سفره إلى فرنسا ؛ وإطلاق سراح لأسرى من الجانبين بمجرد تسليم الممتلكات والمحبوسين الفرنسيين ، وانصرح لسبعية فرنسية « غير مسلحة » بالخروج من الإسكندرية . عمل أساء « لنسجم » إلى حكومة الجمهورية ، وصفت المادة الأخيرة من الاتفاق على أن تجري تنمية كل خلاف يحدث بشأن التسليم بالطرق الودية .

وفي يوم ٣١ أغسطس بدد وقع عقد اتفاق موافق على تسليم الإسكندرية ، كما ووجه من الجانب الإنجليزي الأميرال اللورد كيث Keith والحران هتشسون ، ومن الجانب النمساوي المظان ماتسا ، وفي ٢ سبتمبر بدأ بعيد الإحلاء وتسليم حصص (لرك) ودوقية ومسكر يكو بوليس . ثم سلم الفرنسيون الفرقاطات الثلاث وسائر السفن التي كانت مائما إلى الإبحار ، وشرعوا بتحديد الأبهة « مدرة الأراضي المصرية .

الحلاء عن مصر :

وعد موافا عليه ، وقد قبل تسليم الإسكندرية شروط أول ما قابل ، ثم إن الفرنسيين قد عوملوا بتقصصها كأسرى حرب وكما يصلح للهرومون ، أن يكتب في القصر الأول في ١١ سبتمبر ، شارحاً الأسباب التي أرغمته على التسليم وتوقيع الاتفاق الإسكندرية . بعد أن أحاط الإبحار بكل ما تمسكوا به من شرائط في نظير وقف القتال ، ومحامهم بعودة جيش الشرق إلى فرنسا ؛ فعزاهو فشله في الدفاع عن الإسكندرية إلى الصعوبات العديدة التي حيق الحديث عنها ؛ وأهمها تسليم القاهرة ، وإمساك الأعراس ، وقلة المؤن والأعدية ، وحدوث المجاعة ، واستعصاء الإبحار والغبنيين أن يحشدوا جيوشهم الكبيرة أمام الإسكندرية . وإن يصية وإطلاق الحصار شديد عنها ، وغير ذلك من الأسباب التي اعتقد موافا في ذكرها « تعطينا » موافاه وهو ما من شأنه أحضاره (١) وشعل مو وشعل جيش الشرق في الأيام التالية

الاستعداد للرحيل ، فأجى الجنود بقية المراكب ، وسهل الرضى من المستعيات ،
وبع عدد الجيش (٩٥٠٧) كان منهم (٧٣٦٢) صابطا وحديا في محبة جيدة ، وكان
الباقون من الرضى والخرى . من هؤلاء الأخيرين نحو الثمانية لم تسمح حظورة
حاطم بقولهم من الإسكندرية ، فطافوا في مستشفياتها تحت رعاية الدكتور بوج Young
كبير أطباء الإيجير ، ساعده صابط انصحة نهرسيون الذين بقوا كذلك بالإسكندرية
لهذا الغرض . ومن بوى ١٤ ، ٣٠ سحر كان قد تم بإقلاع السمى الى سميت جيش
مو إلى فرنسا من آى فر^(١) . وباع عدد السمى الى سميت المصابين بالندوسطرا
والإسكروط انتق عشرة مربية ممشى ، بينها حملت بقية الرضى سعيان أخريان
وكان بعد شهرين من الجلاء أن تم شفاء الرضى الفرنسيين الذين بقوا بالإسكندرية
فاستطاعوا العودة إلى أوطانهم^(٢) .

أما مو وقد كان من الصعب والإجهاد خلال شهور الحصار الطويلة ، فيه مالت أن
وقع فريسة للأمراض ، وكان من أسباب اشتداد العلة عليه ما أصيب به من أرقى حرمه
اليوم مدة طويلة ؛ بسبب المواجهات الى انه ، وما كان يشعر به من صعوبة مشولة
التسلم انقضاء على عاهه . وظهرت عليه عوارض مرض الطاعون فتكا من حدوث
« حمراء » في رجليه اليسرى ، واستدعى الجراح لارى لمعالجته ، فصحه (لارى)
بمداخيره الرحيل له بعد من هواء البحر ، وعلى ذلك انتهى مو المرافقة الإيجرية
(ديانا) Diana في ١٨ أكتوبر ، وصحبه (لارى) للصاية به في أثناء الرحلة إلى
فرنسا ، وتحت محبة مو رومدا رومدا حتى إذا وصل إلى طولون كان قد شفى تماما
تماما أصابه^(٣) .

وكان مو قد اهتم قبل رحيله عدة طويلة بتدبير معروضة السيدة ريدة . وانه
سبحان مراد إلى فرنسا ، فقد حدث عند استيلاء الإيجير والتمانيين على رشيد أن
اضطرت ريدة مو وولده إلى الفرار من رشيد وصحبها أخوه السيد على ، فأقامت
بعض الوقت في بلدة فوه حيث تعيش أسرهما ؛ ولكن ما إن استولى الأتراك على فوه
ثم سقطت الرحمانية في أيدي الإيجير حتى اضطرت السيدة ريدة إلى الفرار إلى
القاهرة^(٤) . فزلت عند الصابط ألفران Alpheran أحد ياوران مو ، وكان من

Malus 221 (١)

Reybaud Vill 425 — 7 (٢)

Matm II 294 (٣)

Wilson 79 (٤)

رجال الكنيسة القدماء ، وحضرت السيدة ربيدة وولدها وأخوها حصار القاهرة ، واستبدت المخاوف بالسيد علي ، وعجز القرآن عن تهدئة روعه ، حتى إذا حدث تسليم القاهرة عذرت روعة مو القاهرة مع حبش بدير النجيب بها ، وكانت تسمى باللهاب إلى حاسب روحها ، ولكن مو الذي أصر على عدم الاعتراف بتسليم القاهرة أو الاستمادة من مواد اتفاق التسليم ، رفض مقابلة روحه وولده حتى لا يظن بأن — كما كتب إلى اللورد كيث في ٢٥ يوليو — أنه وافق على مادة من مواد تسليم القاهرة^(١) ؛ وبعث في الوقت نفسه رسالة إلى روحه بوصفها ولده حيرا ، وطلب إليها أن تشبه انتشئة الصالحة ، غير أنه كان متعذرا بهذه السيدة ربيدة رشيد بعد إفلاخ حبش القاهرة إلى فرنسا ، فقد عرض كل من بدار وألمران على مو أن يضم ربيدة وسباين مراد إلى أسرته ، وطلب ألبران زواجر صريحة من مو كي يستشهد بها في مسلكه ، وعنده فرر مو في ٢ أغسطس أن يطلب روحه وولده من اللورد كيث « حوار مرور » حتى يسقطا الإبحار من في فرنسا ، وأجاب كيث رغبة مو دون صعوبة ، وقفلت الأسرة مع حبش بليار الفائت إلى فرنسا^(٢) .

وعندما وصل مو إلى طولون ، كانت معدمت تصبح من فرنسا والمحنة قد وقعت في بدن مدأون أكتوبر ١٨٠١ ، ونشر المفاوضات بكل علمه من أجل الاتفاق على شروط تصحيح الهاتنة ، ولم يشأ التوصل الأول في هذه الظروف فترح قواده الذين أحجموا في الدفاع عن « مستعمرة » الجديدة ، وقد بيار من هذه « بيوت الكفرة » وجمع عنه التوصل الأول ، ثم أعاد من هذه التوصل الكفرة كذلك قائد الحملة العام الذي وصل إلى طولون يوم ١٥ نوفمبر ، فيه لم يمس أمام ديلة حتى كتب إليه بوارت في أول ديسمبر أنه يعرف بما رعبته الشديدة في الاحتفاظ بعصر ، ووجه اشتد لخدمه الدلائل الخفية ، وتصميمه على لقاء هذه الفتوح في حوزة فرنسا ، وبمخرج إصراره على المقاومة الطويلة في الإسكندرية ، تلك المقاومة التي ساعدت على تقدم المفاوضات من أجل عقد الصلح وشر السلام^(٣) . عبر أن هذا « الرضاء » الصاهر لم يكن معناه أن بوارت كان يفر في أحماف نفسه هذا التسليم الذي قصى إلى صيداع المصوح العربية الجديدة في تشرق ، وقصى على كل أمل في إنشاء المستعمرة السخنة التي تمكن

(١) Rigault 361

(٢) Wilson 179 — 80 : Walsh 226

(٣) Corresp. No. 5887

الفرنسيين من تعويض الخسائر التي سببها في ميدان الاستعمار القديمة فقد كان من رثته أن تسليم مو حرت من أوانه ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى التعجيل بقبول للعاصمة والاتفاق على إخلاء في آخر شهر أغسطس من عام ١٨٠١

فقد جاء في مذكرات نابليون التي تملأها في سبب هيلانة ، إنه كان من الأنسب إذا ، أحدا يعين الاعتدال بطروف التي أحاطت (عمو وحيشه) في آخر شهر أغسطس أن يطول أحد الدفاع حتى تصل الأمور إلى شدتها القصوى ، ولا شك في أن جميع الصراط الذي حصره الحربي كانوا يقرون الاستمرار على الدفاع والمقاومة إلى النهاية ، لو أن أحدا أكد لهم أن جيشا سوف تأتي لخدمهم من يوم ١٥ نوفمبر ، أو أنهم بأن مقدمات المصلح عهدا لعقد السلام العام ، إن ما حدث ليس سوى واحد من آلاف الأمثلة التي رحرها التاريخ ، والتي هي دليل على أن الحاكم في أي مكان لا يحب عليه أن يتكرر إلا في أمر واحد هو الدفاع حتى النهاية ، وعلى ذلك فقد كان الوجه يقتضي (مو) الاستمرار على المقاومة حتى ينتجهم انحدو محصيات روح العرب ، ويستولي على قنص كرين Ustet ، وكهنا على Cafarelli ، ويستطيع العديد من تلك الشهرة التي أحدثتها في خطوط حصنها ، إذ عندما فقط عكس القول أن اسرف قد سلم من لأدى ، وعندما فقط أصبح التسليم ، مهما كانت شروطه عملا مجيدا ولا تكون شروط التسليم مشروفا إلا إذا كانت قاسية ، إذ أنه بحث على غيره اشكوك وسبب سوء ظن دائما أن تستطيع حامية من الحاميات الخروح سلام من مكان محاصر على حصر من الذهب (١) ، واعمد نابليون ، كان لدى مو (١٨٢٠) مديلا ، وأن يدعو عند السلم القاهرة وحدها (٥٣٥) مددوما ومائتي ألف مدانة ونمئة الف من ، وثمينة حصان ، بينها كان . لخيرن كذات كثره من الأثرر والى والبريت (٢) .

وأثبت أحد الصراط الإبحار عند حدة حامية الإسكندرية التي سلمت يوم أول سبتمبر ، فكان عدد الجنود المشاة والفرسان وصراطهم (٥٩٦٥) وعدد المدفعيين (٧٩٥) ، والمدانة والأدلاء والمدفعيين البحريين والمهندسين (اللامعية وابتنطحة) واستجارة لذين كانوا يعملون في الحصون واليونان (٢٢٦٧) ، وعدد الجرحى (٢٤٠) والمرضى (١٣٨٧) وبلغ مجموع العسكريين (١٠٥٢٨) ، أما المدنيين من موطنى قومسية الجيش والبحرية والمستشفيات والحراة ، وهذا إلى جانب المهندسين

الغريبيين وأعضاء لجنة العلوم والفنون وسائر لجان الدين ونطوا مصرهم
مصر الفرنسيين ، فقد بلغ عددهم (٦٨٥) أي أن مجموع من سلخوا يوم أول ستمبر
١٨٠١ كان (١١٢١٣)^(١) ؛ وسواء كان الرقم الذي ذكره نابليون في بعد صحيحا
أم سلميا لصحة الأرقام التي ذكرها تورتون الإخير ، أو ذكرها المخلصون من أعضاء
المجلس الحرى الذى انعقد للبحث في شؤون المسلمين ، واعتمد عليها سوى في برر وقع
اعتال وإجلاء الإسكندرية ، فإنه لا معدى عن ذكر حقيقة ظاهرة ، هي أن الرأى
الشارع وقتذاك ، سواء في فرنسا أم في مصر كان يميل إلى الاعتماد على مسو كان في وسعه
إضائه أمد المقاومة ، وأنه كان لديه من الحد والماد والمؤن والأسلحة والسيار ما يكفيهم
رمسا أطول ، لو أنه صمم على الدفاع إلى النهاية وقد غير أسبوعين في مذكراته عن
هذا الرأى في مضمون بعد ذلك ، أما في مصر فقد كتب أحد المصارعين تعقيفا على تسليم
مصر ما مضى^(٢) . ومع هذا الدول الاسكندرية والعلمية جميع ما تركوه المصراوية
لأنهم حاربوا اسلحتهم فقط ، وساروا في مراكب الإسكندرية بلاد نازير ، وحلوا
مدافع وحجرات وأتفه ودخان وحجرات . وكان تسليم الحراب بشار وحروجه أصبح
شأن من تسليم مسو في لندن واليهوان ولكن قد أبحر الحروب مسو على سائر أنه ما وقع
التسليم إلا بعد الحرب العظم والجوع الحميم ، فهما على مقتضى ترائع مشيخهم
وأحكام دولتهم .

بعد أحدث الأخبار تباع في فرنسا عن سنة ١٨٠١ الفاصلة بعد معركة كانوب
رمن قصير ، فكتب مارس في ١٥ أبريل رول انسر رليف أركرمي في شاطئ
أن فير واستجابته الأولى مع جيش الشرق ، وفي ٣٠ أبريل دأبت ألباء هزيمة كانوب
وأنات ألباء هذه الهزيمة في منتصف ماو عندما أرسل (أوبو) لندى كان لا يرل
يهوص في لندن أخبارها ، ونقل إلى مارس فصلا عن ذلك خبر وفاة أركرمي
وانتقال القيادة إلى هتشسون ، ثم لم تلبث أن دأبت بعد ذلك أساء سقوط القاهرة
وسلم بليار ، فكان لهذه الحوادث أثر بالغ على سير المفاوضات في لندن ، حتى اضطر
نودورت (مند ٢٣ يونيو) إلى إعلان عزمه على إرجاع مصر إلى الباب العالي
كما اضطر إلى التساهل في إحاطة مطالب الإغدير الذين أصرروا على احتلال سيلان ،
ورمداد وغير ذلك من المستعمرات الفرنسية والمهولدية والآسيوية ، وذلك كله قبل

أن يرداد الموقف سوداً في مصر ، وشرى نحو الطرمجة ، وبرغم إزعاماً على تسليم الإسكندرية ، ورداد عماد الإغليز وتسلمهم في وقت كان قد أصبح كل ما مهم بونابرت الاحتفاظ بالموقع الفرنسية في أوروبا ديم ، ثم الحصول بعد ذلك على شروط بحفظ الجيش الشرقى شرقه العسكري ، وتصور مصالح جمهورية العربية في مصر ، فعاد حلاء الفرنسيين عن هذه البلاد وإرجاعها إلى الرب العالي ، فكان من أثر هذا التنازل أن وقعت مقدمات الصلح بين فرنسا والمملكة في لندن في أول أكتوبر ١٨٠١ (١) وكان بعد أن تم التوقيع على هذه المقدمات تبنى ساعات حسب أن داعين الأساء في لندن عن استيلاء الإغليز على مرفعات الإسكندرية ، وإرسال ديو مفاوضا للعدو يطلب الهدنة وإتمام الحرب على أساس تسليم الإسكندرية (٢) ولا شك في أنه لو صمد ديو قبلاً في مقاضاه ، لاستطاع الفصل الأول ، وقد تم لأمره بيه وبين الإغليز على مصر هذه البلاد وإرجاعها إلى المتدين ، ثم يحصل على شروط أفضل من تلك التي رضى بها ديو في ٢١ أغسطس وبني عود من الفرنسيون بمقتضاها ، وكأنهم لم يكن لهم ببلاد أية صلة وأن تربطهم بها روابط بعد ذلك

وبقول أحد المؤرخين الفرنسيين ما معناه : إن الخطة الإغليزية التي انتهت في عام ١٨٠١ ببرغم الفرنسيين على حلاء عن مصر كانت بمثابة آخر جهد حربي استطاع الإغليز أن يبدوه لإجراح الفرنسيين من هذه البلاد . من أن بعد الصلح بين فرنسا والمملكة ، في وقت كانت لا تزال المفاوضة فيه دائرة تشبه ، ولا يمكن أحداً عقد السلام مدة طويلة - أما ما يعجز المرء عن التكهن به فهو مساح فطرة الفرنسيين على الاحتفاظ بهذه المستعمرة ، التي خرجت عمرهم الكبيرة من طولون في شهر مايو من عام ١٧٩٨ لإشغالها في ميدان الشرق الجديد ، وعلى قواعد جديدة غير تلك التي أوصى التمسك بها في الماضي إلى فقد إمبراطوريتهم القديمة ، وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار أن عظم الأسطول الفرنسي في أي قبيل على ما نلت أن عرل جيش الشرق في مصر ، وحرص بظافاً من الحصار الشديد على شواطئ هذه المستعمرة الناشئة ، ومع كل اتصال مفيد يما وبين فرنسا ومع ذلك قل تشابه أن حملة ١٨٠١ لو كانت مقومة أكثر بحكام وشدة ، وأندى القواد الفرنسيون شيئاً من اللهارة في فنون

(١) Sorel VI 143 Et Sq Oriault (Napoleon Et L Europe)

183 Et Sq : Oriault I 165 Et Sq

Rigault 382 (٢)

الحرب والفتن ، لاجتماع مصرها ، بل ولحلت بها المريعة واسى أمرها — على حد قول الإيجير أنفسهم — إلى كارثة عميقة ، ولما استطاع إنسان أن يصعب حملة بومبارت على مصر بأنها « مشروع جنونى » (١) .

على أنه وإن كان الفرنسيون قد انحروا عن إنشاء المستعمرة اق انتظروا الخير من إشرائها ، ثم أزعجوا على الخروج من هذه البلاد « السخيفة » إزعاجا ولم يطل معاشهم بها فقد حلفوا وراءهم تياراً عميقة اهتر لها كاسها ، فصغت عنها عبار الماضى القديم وادأب حياة جديدة . وكان للبحوث والدراسات التى قام بها علماء الحملة على وجه الخصوص أكر الفصل فى توجيه البلاد إنان مهنتها لطويلة خلال القرن التاسع عشر ، منذ أن استعرت بها الأمور وحلص الحكم فيها لمؤسس البيت العلوى الكبير محمد على

الفصل السادس

أثر التجربة الاستعمارية

تهديد البحريه للاستعماريه .

أوقعت الحيلوش استعالة المهرعة بالفرنسيين فاضطر مو إلى تسليم الإسكندرية ، ومحطم كل رجاء في إمكان تأسيس مستعمرة فرنسية كبيرة في مصر ، وكان مو من أعظم الداعمين الذين عقدوا آمالا عظيمة على نجاح أول بحريه استعماريه قام بها الفرنسيون في « مدني حديده » على أنس حديده ووفق مدني حديده « في ناحية القرب التاسع عشر ، وبعد روال عهد إمبراطورهم الاستعماريه القديمه . ومع أن مو نفسه كان ولا شئ مسئولاً عن سرعه انهيار هذه مستعمرة الفرنسيه الناشئة في مصر ، بسبب الأخطاء اعمده التي وقع فيها مدني تولى قيادة جيش الشرق العامة ، ومحاصرة عند ما رفض أن يستمع لصيحة قواده المحكيين في شأن العمليات العسكرية التي قام بها الإنجليز والهنديون على نطاق واسع في حملة سنة ١٨٠١ ، فقد تصافرت عوامل عدة جعلت حديدهم تجربة الإستعمار الفرنسي في مصر ثمراً محظوماً

وكان أحطر هذه العوامل بحر الفرنسيين عن إرسال الوحدات والإمدادات إلى جيش الشرق من فرنسا ، مد أن محطم أسطولهم في معركة أبي قير بحريه ، وقرص الإبحار حصاراً بحرياً شديداً على لشواطئ مصر ، ولم تستطع حكومة الإدارة أو حكومة الفاصل الأول أن تعمل شيئاً من أجل إحياء استعماريه الفرنسيه ، فلم يكن في وسع كليبر ذوو اللذين خلفه وورث في قيادة الحملة العامة في مصر أن يسد ما حدث في صفوف جيش الشرق من ثغرات كبيرة ، بسبب الخسائر الفادحة التي تكبدها هذا الجيش ، سواء في معارك سوريا ، وفي حروبه ومناوشاته المستمرة في داخل البلاد داها ، لاندود عن حدودها تارة ، وإحباط المقاومة لأهله بدمه أخرى . وبغلا عن ذلك فقد تسبب عن بعد إرسال المؤن والذخائر والأسلحة إلى جانب الرجا والاب إلى مصر ، أن ظل الفرنسيون طوال مدة إقامتهم في هذه البلاد يعتمدون الاعتماد كله على مواردها المحدودة ، ليس في محاولة إشياء مستعمرهم الحديده محسب ، من كذلك في محاولة الدفاع عن هذه المستعمرة ضد دوليين كان في وسع إحداها — تركيا —

أن نحشد حيوشاً كثيرة على حدودها الشرقية ، وفي استطاعة الأخرى - المحلثة - أن تهرب على شواطئها قوات نظامية تستخدم أسلحة جيدة ، وتستند في مؤخرتها على وجود أسطول استأجر بكل سيطرة في البحر الأبيض ، وضمن بصل هذه السيطرة وصول الإمدادات الكثيرة إلى حيوشها ، ثم طل من ناحية أخرى طريق البحر الأحمر مفتوحاً أمام قواتها الآتية من الهند ، لمرحى على معادل الفرنسيين من الخلف ، وحصر جيش الشرق من كل الجوانب .

وكان كما ساعد على هزيمة الفرنسيين ولانشك ذلك الانقسام الذى حدث في صفوف المحلثة ، وظهرت وادعه مد أن بدأ جيش بونابرت رحله اشاق من الإسكندرية إلى القاهرة ، ثم استعمل أمره بعد رحيل بونابرت إلى فرنسا ، إذ اقتضت جماعة كبيرة من رجال المحلثة وفوادها وجودها أن لاخير في المعاد في مصر . وأن لا رجاء في إثناء مستعمره ناحية في هذه البلاد . فعند كايبر واسكندريون إلى المعاصرة مع العدو لاحتلاء من مصر بكل سرعة . و يرى مدو ونصار الاستثمار عاومون هذه الرغبة ويتشبثون بالقاء في مصر إلى الهاء . وكان مقل الجند كل مرة عطية على الفرنسيين ، بدرد الاقواء حصوره . وأحقق قائد المحلثة الجند في جمع السكامة ، بل في اختيار مدو لهذا منصب المهم . ثم موافقه بونابرت على شيبته في منصب القادة العامة . كان من ثم عوامل المعرفة ، والصراف أحراب الفرنسيين في مصر إلى مدير السكائد و ، ومزارب بعض مد بعض ، حتى إن مدو ومؤيديه من نصار الأسعار سرعان ما أزعجوا على وقت مشاطهم على مكافئة رتبته ورملائه من ارتقيين على قائد المحلثة احدثه ، ثم معذومة سائر « الكايبريين » الذين كانوا لا زالون رغبون في العودة إلى الوطن ، كما احدثت ثقة مدو في ثقة من كبار القواد الذين كانوا من قدير العسكريين . وفي وسعهم إذا تصرفت قوى واطمأن مؤيديهم أن مدلوا الجهد في الدفاع عن المستعمره .

وأحدث ذبوع أحياء هذا الانقسام آثاراً سيئة بين « أهل المستعمره » . فعم المصريون به ، وتماثلوا حربه . وحاضوا في الحديث في أمره . ولم يكن من مصلحة الفرنسيين في شيء أن يكشف أمام الأهلى مواطن ضعفهم في وقت أحدث فيه الأخطار بالفرنسيين من كل جانب . وكان يفرع المتألبون والإخلاء في أبواب « المستعمره » ، وينظر المصريون معارح الصريحى هؤلاء « الغاصبين » لإلغادهم عن رأتى العدو . فما كان المصريون يرمون عن احتلال الفرنسيين للبلادهم ، وأحققت سياسة بونابرت ومدو لإسلامية الوطبة في جلب مودتهم ، وذلك لأسباب عدة

أهمها اعتماد الفرنسيين على موارد البلاد حسب الاتفاق على منحهم الاستعمارية الجديدة وما ترتب على ذلك من لجوئهم إلى ابتكار مختلف الأساليب والحيل لئلا استطاعوا أن يثروا أموال المصريين وتحريرهم من ممتلكاتهم وأقواتهم وأثرائهم ؛ ثم سخط المصريون ونقمهم على « المستعمرين » الجدد بسب تلك الأساليب الجديدة ، لئلا حاولوا إحاطتها على حياتهم وعاداتهم وتقائدهم الموروثة ، فصاروا يتدخلون في أحسن شئوهم ، يفتشون مساكنهم ، ويقتحمون « حرثهم » ، ويهدمون حوائطهم ، ويشولون على بيوتهم ، ويهبسون عجة من علمائهم وأعيانهم لقول وإرائي من كبار القوم ، ولا يستطيعون أن يعرضوهم شيئاً عن تلك الحقائق التي تساهم في عقائدهم وأخلاقهم وأموالهم وأسمهم . فلم يروا في العظيم الفرنسي الجديد إلا سلسلة من الشرور متصلة الخفيات ولا تتركها

ويبلغ إحقاق الفرنسيين ، في محاولة فهم الخلق المصري أو إدراك حقيقة ما كان لدى المصريين من مثل غلبا يبرشرون بها في حياتهم العامة والخاصة جداً جعل المرأة المستعمرة يسرون في طريق ، يبيع يسير الأهليون في طريق آخر ، يعتقد الأولون أنهم إنما يعمدون أسس الحكومة الرشيدة الصالحة في البلاد ، ويعتقد المصريون أنهم فريسة طعنان لا نهاية له ولا منجاة منه ، إلا إرادة العلي القدير أن يطوى صفحة الفرنسيين حياً ، ويكتب لأهل مصر العرش القريب ولعل أسمى ما رزق بالمصريين من صفوف الإرهاق والامت ، وحملهم يتوفون للحلاص من هذا الشر المستطير ، حاجة الفرنسيين للمال ، ولمال الكثير ، وكانت حاجة دأغة وعلة مزمنة ، لازمت الفرنسيين منذ جاءوا إلى مصر إلى وقت رحيلهم عنها ؛ وكانت حاجتهم إلى عاب ، وماعدها من أسباب ، ومجها من حوادث ، وما رزب عليها من شائخ ، هي لصحة الوعدة التي تخطط عليها في آخر الأمر بحريتهم الاستعمارية :

١ - الأثر الاقتصادي .

فقد كان لإرغام الفرنسيين على أن يعتمدوا في بناء مستعمرهم الجديدة على موارد البلاد حسب آثار خطيرة ، ذلك أنه ما كان يشي تاتاً إعمار كل تلك الشروعات التي عقدوا على نجاحها الأمل في إنشاء مستعمرتهم لعدة ، دون توفر المال لديهم ، يعمون منه على المؤسسات والتطبيقات العديدة ، التي كان لابد من وجودها لاستقامة شئون الإدارة والحكم واستتباب الأمن ، وصيانة الحياة المستقرة الهادئة لبلدائهم ، ودفع الأذى وعائلة الأضرار عن أعضائهم عن حدودهم ، ودفع رواتب هؤلاء الجيود وتوفير سبل العيش لهم ، وإمدادهم بالأقوات واللوازم ، عدا الأسلحة والذخائر ، ماهيك بإخراج

الإصلاحات اللازمة لصط توزيع المياه وقت الفيضان وفي زمن التخارج ، فضلا عن تشجيع التجارة وزيادة ثروة البلاد ، سواء بالعمل على إتاحة المصانع والكثيرة وتحسين أنواعها ، أم بحوله إحياء المصانع القديمة وتحسين أنواعها ، أم إدخال غيرها من الصناعات الجديدة .

وقد استلزم ذلك كله — أو الأحرى ما استطاع الفرنسيون في أثناء إقامتهم القصيرة بهذه البلاد أن يجروه منها — أموالا كثيرة . ولما كان هؤلاء قد بدءوا يعتمدون هذه المصروفات الواسعة منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر ، واعتمدوا في مصلحتها على كل ما يمكن أن يمدده من أموال من أهل البلاد ، ولجأوا في ذلك إلى أساليب وحيل مسموعة ، فقد طغت الحاجة إلى المال وحال دائما من أقوى الأسباب التي أثارت عهم قلوب المصريين ، وحركت كوامن الجهد صدمهم ، وحرمتهم تعاون المصريين معهم ، ذلك لما كان لا يرى من إجحاح مشروعاتهم في النهاية ونفاد هذه المستعمرة الناشئة في حوزتهم .

وقد حدث العرو الفرنسي في وقت انغماس أسيل في شهر يونيو — وما كانت صرائف لا تحصى من الأهالي ، إلا عند ثوب ارتفاع النيل ووقت الفيضان في كل سنة ، فقد وجد الفرنسيون عند دخولهم القاهرة ما لا فضلا لا يكتفي للاعاق على شئون الحكم والإدارة العامة ^(١) ، فشعروا بصيق شديد ، وكان من أهم أسباب هذا الصيق مباشرة أن السكوات المرسك إبراهيم ومراد وأنساعهما ، عندما تيقوا من الهزيمة بعد معركة إمساك ، سرعان ما عمدوا إلى الفرار من القاهرة يحملون معهم أموالهم ومقتنياتهم إلى جانب « حريمهم » ، وحدا حدودهم عديدون من كبار المصريين وصغارهم ، الذين كانوا في سعة من العيش تمكنهم من استئجار دواب الخيل لنقل متاعهم وزيوتهم ، كما أصرع أقوام كثيرون من العامة ممن لا قدرة لهم على استئجار الخيل أو الخيل والخروج من القاهرة ، وهم يسرون على أقدامهم وعملوا متاعهم فوق رؤوسهم ، ولم يسبق في القاهرة إلا كل عاجز أو مريض أو فقير ليس لديه ما يحشى عليه ، أو مرضى بالاستسلام لتصاريف الزمن ، فخرج من القاهرة شيء كثير من المال وانتاع والحلى والمائس .

على أن طالى السلامة لم يجزوا من ضرور « المراد والعلاجين » الذين رصدوهم « خارج أبواب البلد » فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحجامهم ، بحث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستتر به عورته أو يسد جوعته ، فكان ما أحدثته الحرب شيئا كثيرا فوق الحصر .

(ذلك قال) الأموال والقدحائر التي حُرقت من مصر (كانت) أصعاف ما بقي فيها ،
وابهرت الحبيدة وأوْاش الناس ه هذه لفظة ماقصوا على البيوت التي تركها
أصحابها ، يسهون ما بقي فيها من أمتعة وفرش (١) .

وعني ذلك فقد كان تدبير الملك من أولى المصالحات الشائكة التي واجهت الفرنسيين
بعد دخولهم القاهرة ، وكان لامسوحة عن اتحاد عدد من الإحراءات اسريرة للحصون
على المال بكل وسيلة ، وقد سبق ذكر النية الكثير من هذه الإحراءات في الفصل
الثالث من هذا الكتاب كمصادرة أملاك الكوآت المليك ، وفرض القروض الإحصارية
وإنشاء (مصلحة التسجيلات وإدارة أملاك الحكومة) ، (محكمة انصافيا) ؛ ثم
مسط للموتيات والسروقات من دور لكوآت الملك ، وإبرام روجبات الكوآت على
« المصالح على أنفسهم » ، وطلب الخبوت والجمال والأقار والثران إلى حد السلاج
وأخذ « المصاحف » على هذه الحيوانات في نظر تركها لأصحابها ، وإبرام أهل
« الحرف من التجار بالأسواق » وحلافهم على دفع مبالغ معة « على سبيل القرض »
وعبر ذلك (٢) .

وبلع من اشتطاط ثورات في جمع الأموال أنه فرض على بحر الإسكندرية ثلاثمائة
ألف فرنك يدفعونها في خلال أربع وعشرين سنة ، وعلى بحر رشده ثمان ألف فرنك
يدفعونها في ثمان وأربعين ساعة ، وعلى بحر دمياط مائة وخمسين ألف فرنك يدفعونها
في خلال خمسة أيام ، وبحر حان الخليلي بالقداهرة عشرة آلاف ريال مدفوع في عشرة
أيام ، وعلى بحاره وكالة الصاوي عشرة آلاف ريال ، ومائة الفقاين خمسة عشر
ألف ريال ، وبحر العورة (وهم الذين يتاحرون في المصوحات الهندية) خمسة عشر
ألف ريال ، والبحر انشوام ماقعته مائة ألف ريال عينا وعدداً ، وعبر إلى مائتي
ريال ، وعلى القبط السكانيين شحصيل لصرائب في الأقاليم مائة ألف ريال ، فأرغم
هؤلاء وعبرهم على تقديم كل هذه الأموال فروصاً ، بعد الحكومة سدادها إليهم عن
طريق استيراجها ، بما كان يجب عليهم أن يدفعوه من صرائب عادية ، أو نظرائق أخرى (٣)
وعني عن الناس أن هذه الأعمال سرعان ما أثارت سخط المصريين ودمرهم ،
ليس فقط لأنهم فقدوا أموالهم التي اعتصبها الفرنسيون منهم اعتصافاً ، بل لأن هؤلاء

(١) اجري ٩١٣ - ١١

(٢) الحرق ٣ : ١٣

(٣) Charles - Roux. op. cit. 113

لحرصهم على جمع كل ما يمكن أن يجمعوا أنفسهم عليه من أموال استعوا في ذلك وسائر
 عبيدة سبست استياء المصريين الشديد فقد عمدوا إلى إضرام ليوت ونفيس مساكن
 « الحريم » عثاً وراء الهويات التي أرادوا سطوها ، وعلى الفرنسيون في هذا
 « التفتيش » حتى إن ضائعهم وأبياعهم وعدداً من شرار جنودهم سرعان ما انتهبوا
 هذه الفرصة لإلحاق الأذى بالأهلين الوادعين السلميين وسبب دورهم ومصادرة أموالهم ،
 وحتى يورث العاقبة فشدد في منع رحله من ارتكاب هذه الخطأ ، وأتت لجنة تفحص
 لشكاوى من الشيخ السادات وروشتي فصر الناب اعلم وحويو Junot أحد قوادهم ،
 ولكن دون جدوى ؛ وعظم استياء الأهلين عندما نزل الفرنسيون بإصدارون بحسينهم
 وأعديتهم ومهاطهم وحولهم ، وسولوا على ما كان لاسيما من سروج وطقوم ؛ وأصلا
 عن ذلك فقد تعدد عنهم أن حركوا ضمة تلك « الإصلاات » التي كانت تعطى لهم ،
 وبعد ما الفرنسيون بدع نواصع عن الحوات أو المحصولات التي اعتصوها من
 أمهاتهم ، كالم مقهوا معنى لوجود المحكمة التجارية ومكتب السجون ، ولم يروا في
 إشتاها إلا وسيلة لارتار الأموال منهم ، ودراسة مدرع بها الفرنسيون لاسياك حرمة
 بيوتهم وإهانة نساء كبرائهم (١) .

وما كان إلا يحضر قد شددوا الحصار على الشواطئ المصرية ، واسيع ورود
 التبحرات أو صدير المحاصيل وساح المصري إلى الخارج ، وذلك في الوقت الذي
 عمد فيه الفرنسيون إلى معذرة أموال المصريين وممتلكاتهم ، فقد رتب على ذلك
 أن كمدت لتجارة وانتشر الفسك والنؤس بين طائفت الشعب ، وازدهت الأسعار
 وحين تفرص مساحة كثير من « مسير » اقوم ، « ففتر عديدون من الأعياء وعاني
 متوسطو الحال آلام العوزة و جوع ، وصطر أصحاب الحرف في مهب الحرف والديئة ،
 ومول لشيخ الحرفي « وما أرب الحرف للديئة الكاسدة فأكثرهم عمل حماراً
 مكاريأ حتى صارت لأرفة حصوصاً جهات العسكر مردحة ، فخرائق سكرى للتردد
 في شوارع مصر » ، ووجد الخبثارون رواحاً ملحوظاً نسب إقبال « الفرنسيين »
 على ركوب الخمر ودفع الأحوار الكبيرة . حتى إن « الكثير منهم يظل طوال النهار
 فوق طهر الحمار دون حاجة سوى أن يجري به مسرعاً في الشارع » (٢) . أما أولئك
 الذين لم يشاءوا تأخير الحمر للفرنسيين فقد لجأوا إلى أعمال الصوصة وقطع انطريق .

واحتل الأمن اختلالاً كبيراً عندما أكثر العربان من الإغارة على القرى وأطراف المدن الكبيرة ، وعظم طغيانهم ، حتى اضطروا بوزارت ، ولما عصى قليل على وجوده بالقاهرة ، إلى تأليف فرقة « من طوائف الأحباش والبطالين » برئاسة رتييمي Barthélemy (رتيموسرا Bartholomeo Sera) أو « رطلين الصراقي الرومي ، (وكانت) تسبه العامة فرط الزمان ، (وعليه بوزارت) كتحذير مستحفظين ^(١) » وكانت مهمته مع استحداث العربان ومن يتوحد بهم من العامة ، وصول الأمن والسلام حول القاهرة . ولكن (رطلين) سرعان ما فهم مهمته على غير وجهها الصحيح ، وإذا كانه لاحظ ولم يفر من العربان في طريقه ، اعصى على « إصلاحين » نوادعين فطعن رؤسهم ، وأحضرها إلى السطاب المدرسة بالقاهرة ديلا على عاصه تنقيد أوامرهم ، وقد حدث ذات مرة عقب عودته من حوالة حارح القاهرة أن طلب (رطلين) القول من ربي (دبوي) Dunus قومسان المدينة ، وكان دبوي قد أوفى وثقة بعض كبار القواد ولقد اطمأن من همة أركان حربه . فلما فتح رطلين بالدحون أدل له (دبوي) بذلك ، فأفرغ (ارومي) كيداً مخموراً بالرؤوس إلى أطرافها تحت المائدة وكأنه قد أنى عملاً حليلاً . ودعته المهشة اعظيمة عندما طرده دبوي شرطرده ^(٢) ومع ذلك اعتمد العرسون على رطلين وحماته في إرهاب أهل العاصمة ، وتميش دور الصريين ، ومصادره أموالهم ، وجمع الامرات التي فرضوها عليهم ، ثم في بعد ما كان مصدره العرسون من أوامر لسطم القاهرة ، وب يتجدونه من إحصاءات استمرها على حد قولهم ضرورة حمية حديم من الأوثنة والأمراض من جهة ، واعتداء الأهليين عليهم من جهة أخرى ^(٣) .

ب — الأثر الإحتياعى :

وواقع الأمر أن العرسين في مدة إقامتهم بهذه البلاد لم يحولوا سائاً أن يتعرفوا إلى الصريين ، أو يتسلوا في أوساطهم . حتى نفخوا على حقيقة شعورهم ، وما كان يحول بأدهائهم ، أو ما كانت تحذره « إصلاحاتهم » العديدة ، والسريعة التي أرادوا منها إلى جانب الحصول على المال لصد نفقات « الحملة » ، أن يجذبوا من عاصمة البلاد ليداً أوروبياً بصارع عاصمهم باريس في هاشها وروايتها ، وكثرة ملاهيها و (فهاويها)

(١) الجبرق ٣ : ١٢

(٢) Reybaud IV 129 — 31

(٣) 8 — 106 Charles - Roux ' Reybaud IV 143 ' استمرق ٣ : ١٣

وأنديها وملاعها ، حتى يكملوا الحدود ورحاطهم عيشاً هيباً سعيداً وقاهم أنه من المتعذر على حكومتهم الجديدة أن تغير أخلاق القوم وعاداتهم ، وما درخوا عليه من أساليب العيش القائمة على الخسك بالنزعة الإسلامية من عصور قديمة من طرفه عين وبتأهتها . وفاتهم أن هذه « الإصلاحات » التي نظر إليها المصريون كما ينظرون إلى « البدع » وكل أسر مستنحي مخوف ، إنما تعارض مع ما كانوا يدعونه ويدعونه عن إسلامهم واحترامهم لشأن الدين الحبيب ، ويحاولون إضاع المصريين بأنهم كانوا من حماة ومن النافذين عنه .

ولا جدال في أن بعض هذه الإصلاحات التي تسيرها عدية الفرنسيين أشقوا لصحة العامة في القاهرة ومدن أكره خصوصاً ، حرمة مهم على عدم انتشار الأوثان وقتل الأعراس الخطرة بخودهم ، كاطشون والزهرى وارمد وغير ذلك ، كانت « إصلاحات » ضرورية ، ويصيب المصريون من إحرائها كل فائدة . ولكن بعكر نوبارت وفواده في المحافظة على سلامة الحدود ورحاط الحملة وعلائها فد طمى على كل بعكر فما قد سجم عن هذه الإصلاحات من مانع فزع أثرها على القاهريين وأهل المدن عموماً . ومن كره ما وجد على الفرنسيين في هذا الشأن أنهم حاولوا أن يفرسوا مصر أصلاً على المصريين نوعاً من إحصاءه الأوروبية كان مقصداً عليه بالفضل لمدى بسيط ظاهر ، هو أن يثبت وأنصار التحرية والاستعمارية في مصر لم يكن في وسعهم أن يسواهم مظهر هذه إحصاءه الأوروبية المادية ، في وقت كانت تحوث عندهم لا تزال في مراحلها الأولى ، ولما اكتمل بعد ذلك الدراسات التي كان من المنتظر أن تصبح أساساً لكل إصلاح رد إدخاله إلى هذه البلاد ، حتى يثمر ثمره اندشودة بفصل الطمشان المصريين إلى وهو لم له .

واقدر كان من مميزات تلك سياسة الإسلامية البوطية ، التي وضع نوبارت شروطاً وانعها حصة ، أن يحتفل الفرنسيون بأعياد أهل البلاد الدينية ، ويحترموا شعائرهم وعاداتهم ، وأن يحاولوا جذب قلوب المصريين إليهم ، باستمالهم والتقرب منهم وعدم أوامر الحجة والصداقة مع كرائهم ومشائهم ، وبحولة الاحتلال مع عاداتهم ، حتى يطمئن إليهم سواد الشعب ورضى الناس عما قدر عليهم (١)

وهذه ولا شك كانت سياسة حكيمة ولا بأس من محاها في النهاية في كسب مودة المصريين والقاهريين منهم على وجه الخصوص ، لو أن الفرنسيين حاولوا معرفة شيء

عن عمية ذلك الشعب القوي فرسوا عليه سلطانهم قهراً ، وكانوا عريان عنه لا يرتبطهم به دين أو حبس أو لعة ، ولا راب أفرادهم سمسكن بقوانينهم وعاداتهم التي ورثوها عن آباءهم وأجدادهم ، ولم يطرأ عليها أي تغيير من أجيال طويلة . ولكن الفرنسيين الذين كانوا قد سدوا طهرها ديبهم منذ اشتعال الثورة الكبرى في بلادهم ، لم يكن في وسعهم مهما حاول رجال من طراز بونايرت أو مو — أحدوا على عاقبتهم تنفيذ سياسة إسلامية واسعة للعالم — أن يتحرروا من ذلك الإلحاد القوي جعلهم يعيشون في عالم مادي يعيشون فيه مراتب السعادة عما قد سلط في حياتهم من لذة أو ألم حتى ، فبنوا ينظرون إلى الواليد وللواسم المصرية ذات الصفة الدينية نظراً إلى احتفالاتهم وأعيادهم افريقية فيشربوها فرصة للتربية عن أنفسهم ، والاشتراك مع الدهم ، وأرادوا القوم في الإقبال على المباديل ، والأخذ بأسباب الجور والخلاعة

وفصلاً عن ذلك فإنه ما كان ينبغي أن يحاج لهذه السياسة الإسلامية عندما أصدر دعاها على جيش لتتفرق حسب ، في تشييد صرح تلك المستعمرة التي أرادوا إنشاءها في مصر ، ذلك بأن رجال الحملة من اللذين واليهاء كانوا على ، وتصرفهم شئون الإدارة والبحث تسعى عن مخالطة سواد الشعب ، ولم يسع امره الفرنسيون أن يعملوا إلى هذه اللاد حامية مثقفة كبيرة ، بسبب إعطاع مواصلات بين مصر وفرنسا ، فلم يعرف أكثرية المصريين وسواد القهريين غير الخلود حسب ، واعترف كثيرون من رجال الحملة أنفسهم أن عديمين من الأدياء ، وأرادوا الفرنسيين حادوا ، مع جيش الشرق معاً من أومحفين مخدمة الجيش والإدارة ، وأن هؤلاء ما كانوا ، أسهون لتلك الأوامر والتعليمات التي أصدرها بونايرت ، وحرصوا على تنفيذها فؤاده وسائر حده ، لإظهار احترامهم الكامل لسلطات الأهالي وديهم وبعديهم ، وأحرم من صانهم والمحافظة على حرمة سولهم ، فارتكب هؤلاء انطاعة لفسدون جرائم كثيرة ، وعهد واورت إلى انحلص من أشرارهم ، كما حشد عديدين منهم في جيشه وفرص عنهم رقابة صارمة ^(١) . ومع ذلك — وعلى الرغم من غفوات بونايرت العنسة — فقد تعدد على قواد الحملة استئصال شائهم ، بل إهم ماثلوا أن ألقوا من بينهم عصانات مستحقة جعلت دسب السطو والهب ، واتخذت ميداناً لنشاطها صوانحي انفاخرة وأطرافها خصوصاً ، وشهر أمر هذه العصاة الخيرة التي سمت نفسها (جمعة القمر) ، ووردت شرورها وقوى بأسها ، حتى إن مو بعد أن تسلط معابد الحكم لم يجد ماصاً من تحرر قوة

كبيره لتعقبها ومطارقتها ، وأعدم كثيرين منها رميا بالرصاص ؛ وإن لم يقص ذلك على كل شرورها ، إذ ظن الفاهرون وأهل القرى المجاورة معرضين للاعتداء عليهم إلى وقت حروب الحملة ، وإن قلت حوادث الاعتداء عليهم عن دى قد (١) .

أما جيش الشرق لما كان يصبح لأن يكون نواة للمستعمرة الجديدة ، وما كان في استطاعة الحد ، مع ظواهرهم باحترام التقاليد والشعائر الدينية وعادات الأهليين ، أن يرعوا عنهم ليس ذلك الجدى ، الذى إذا عاد من معركة أو حرب وفتحت له المدن لكبيره أبوابها انطلق بعث في شوارعها وأزقتها وأدينت العامة والخاصة ، بل في سوت أهدىها للودعين المسلمين ، على محذ في هذا العث معذراً لمواقفه السكونية ، وراحة لأعضائه المرهقة ، وكف يستطيع حد حبش لشرق أن يعالوا من الطيبة ، وهم لذي حاصوا عمار المارك ، وقاسوا ألوانا من انشعة والتم في أثناء رحلتهم على لاهره ، وأذركوا حظورة مأزقهم في هذه البلاد عد أن يحطم الإنجليز أسطولهم ، وصربوا حصاراً شديداً على الشواطئ المصرية ، حتى كادوا يقطعون كل صلة بين المصريين في مصر وبين أرض الوطن ، وأنهكت قواتهم تلك المقاومة القيمة إلى ما وثبت فائحة بشق شليسها ، تارة في صورة ثورة جامعة وحروب ، وأخرى في طيات بدمر عميق لا يدع محلاً لأى يهاون ود يقطع الفرنسيون فيه من جانب مصريين ؛ ثم بدؤوا معهم المهرقة تحت أسوار عكا الصلبة ، ورددوا على أعقابهم مدحورين ، وشاهدوا أناهرين يسبحون منهم ، ورحلون رواب الكوارث ساحهم ، وهائلون ويصفقون كل بطروا جماعة من رفقاتهم تية من قاصى الصعد وود تعهم الحراج وبال الإعاء منهم كل مبان (٢) .

وسكان لاماس من أن ينهر هؤلاء فرصة الاحتمال بالأعياد الدينية واللوازم ، إلى جانب أعيادهم الفرنسية ، حتى عمعوا من حدة بلاياهم بالانطلاق وسط صحب الموالد وضجيج الأعياد والاحتفالات . تشاجرون مع العامة والديماء ، بل يتقاتلون معهم ، وراحمون أدياء « أولاية » وعمرهم من الدراويش « والله » في شروهم ومعسدهم يمدون على النساء ، ويستثيرون بمعلم أهل النجوة ولتساهمة من القهريين ، ويقل منهم من يفل ويقعون من منون ، ويدخل (رطلين) شيعه لمرهواه انكروهة « مع العنة » وإعادة النظام (٣) .

(١) Galland II 301 - 2

(٢) المرقى ٣ : ٢٩ ، ٢٥ ، ٢٣

(٣) Galland II 24 - 6. Viliers 71 - 2. Reybaud V 173 - 5

وأما أعياد المصريين وموالدهم المشهورة ، التي شهدها الفرنسيون مدة وجود الحملة بهذه البلاد وحرموا على الاحتفال بها ، وارتكبت في أيامها كل هذه الشرور والمفاسد فكانت الاحتفال بشهر الصوم ، ولعبدى الصغير والكبير ، وإمارة الحج والكسوة الشريفة ، وأولاد نسوي ، ومولد لساند ريس ، ومولد السيد على الكرى ، ومولد الحسين ، والاحتفال بولاء النيل ، وعلاوة على ذلك احتفل الفرنسيون بعيد جمهوريتهم كما أكتروا من إقامة الزينات في كل مناسبة ، فاحتفلوا بذكرى واقعة ريهوى ١٧٧١ وعيد رجوعهم من حملة الشام ، وطمعوا بمهرجانات عدة كل عمد « بحرهم » كونه « Conté إلى جلاق » ابوسه « في الجو » وعملوا « شككا » ، وصبروا مدافع كتيبه كلها أسهم الأحرار بانتصار بوارت في حملة الشام ، أو وصلت إحدى سفنهم إلى الشواطئ المصرية من فرنسا

وكان أنه في لاء اداسي أصدر الفرنسيون على الاحتفال بها منذ روطم في هذه البلاد بسات هلال رمضان عام ١٢١٣ هجرية (فبراير ١٧٩٩) ، « فغرم من حسن ع. محرم الحبيب لسارى عسكر (بوارت) تمزركونه العباد لإثبات هلال رمضان ، فرسم له بذلك على أبعده ابعده . فاحتمل لذلك المحتفل احتمالاً رائداً وعلم وحمد عصبية في عده أربعة أيام للعلماء والعلماء والشيوخ والوفاة والنهار والأعداء ، ثم دعا في رابع يوم « كازار مساوية وأصاعهم » . وظل أكارا الفرنسيين « يدعون أبيض الدس وإشايخ وإشجار (طوال شهر رمضان) للافطار والسحور ، ويعملون لهم لولائهم وممنون لهم الموائد على نظم المسمي وعادهم ، ويتولى أمر ذلك أطبايح والفراشون من المسلمين نظماً لخواطهم » كما صار الفرنسيون من حاسم يترددون على الشيوخ وكبراء المصريين « ويحضرهم الموائد وأكلهم معهم في وقت الإفطار وشهدون نظامهم وريبتهم ويعدون حذوم (١) » ، وعند انتهاء شهر الصوم أحمل الفرنسيون باعده الصغير في أول شوان (٨ مارس ١٧٩٩) بأن « صبروا عده مدافع لشك العبد ، واجتمع الناس لصلاة العيد في المساجد والأضرحة » ، وصلى بالناس الشيخ عداقة اشراقوى في الجامع الأزهر ، وقال الخطبة ، وكان الشيخ محمد الهدي قد أعدّها له . وقد تحدث لنسخ في هذه الخطبة عن مناقب بوارت ، وذكر أن سارى

عسكر قد قرأه على إعلان إسلامه « عاجلاً أو آجلاً » ، ووعده الشيخ في هذه الخطة بروس عصب الله على كل امرئ قد محدثه نفسه بمحاربة أوامر قاهر لمليك ونصيرهم أحمد باشا الجزائر وإلى عكا^(١) .

وأحدث احتفال المصريين شهر الصوم والعيد وقد وقع منهم من المسيرة للناس وحمص الحجاب « دهشة كبيرة » و « تعجب » عقلاء المصريين بما حدث ، وإن كان وجهها أن اهتمام بوناوت ورجاله بإحياء رمضان ، ثم طوائفهم بعد ذلك « على أعين البلد » وشهتهم بالعد ، ما كان يقع انصريين بصدق بونهم ، أو عجب قلوبهم نحو أولئك الذين أرهبهم مطالبهم المالية ، وعدا فرصه عليهم من « إصلاحات » وسطحات سوف تأتي ذكرها ، فأظهر الشيخ الحري نحه من هذه « المسيرة » ، وكان حريصاً على إثبات شكوكه في بواياهم بقوله نعليما على هذه المسيرة وحمص الحجاب : « الله أعلم » — أي أعلم سواهم الحقيقة ومقاصدهم ، كما ذكر أن الناس صاروا يفتنون بهتة المصريين لهم في أيام العيد بأحاطة « والمدراء أيضاً » وكان بما عسكر صعدو هذا العيد أن اتبر « بعض الخرافيش » فرصة حروح « الرجال والنساء » برونه انبجور « فأشاعوا أن انبر قد رلت عليهم ، « مهاجت اساس وارتجت النساء ورجعت الحبيدة والخرافيش وحطموها ثياب النساء وأرهن وما صدقوه من عثمائم الرجال وغير ذلك » ، حدث ذلك في « نواحي ثرة باب النصر » . واتصل (كذلك) ثرة المخاورين وباب الوزير والقراة ، حتى إن بعض النساء ماتت تحت الأرحل ، ولم يكن لهذا الكلام محجة ، وإنما ذلك من مخترعات الأوباش ليلابوا أعراضهم من الخطف بذلك . فانفض العيد وسط ارتعاج العامة من جهة ، وحب الخاصة من فعال المصريين وريادة شكوكهم في بواياهم من جهة أخرى^(٢) .

ثم لم تمض أيام فلائن على هذه الحوادث حتى كان امرييون قد أخذوا أهتمام للاحتفال « عوكت كسوة الكعبة المشرفة » وكان بوناوت قد احصل « اتعيد » مصطفى بك كهدا الناس (أي وكل سيد أبو بكر باشا حاكم مصر انتهى وقت عحيه المصريين إلى هذه البلاد) على « إمارة الخاج » سدأون سبتمبر ١٧٩٨ ، « غصروا إلى المحكمة عند القاضي وليس (مصطفى بك) هناك الخلفة محضرة مشاع الديوان ، وانرم بوناربه تشهيل مهاب الخج وعمل عملا حديداً لهذا العرس وكتب إلى غالب شريف مكة بحضره بهذا التبيين ،

ويطلب إليه مع المغان من الاعتداء على الخجاج ، ورد عليه انصرف ردا حسنا (١) ويقول مؤرخو الخجة (٢) أن العادة قد حرت من أزمان قديمة على أن يعطى انصرون « الكسوة » في أول يوم سنت تأتي بعد انتهاء شهر الصوم ، ولما كان قد انقضى هذا اليوم دون حدوث موكب الكسوة ، فقد نظارت الإشاعات في العودة عن سب هذا التأخير ، وقال الناس إن المرسيين إنما يمدون من تعطيل الكسوة مع الحج إلى بيت الله الحرام في هذه السنة ، وعلى ذلك فقد نادر المرسيون بدعوة الناس إلى الاحتمال « بموكب كسوة الكعبة لشرفة » فلما أصبح يوم السبت (٩ شوال ١٦٦٠ مرس) اجتمع الناس في الأسواق وطرق المرور ، وجلسوا للفرجة « ثم مر موكب الكسوة عن أن استخدم المرسيين « لعدم كثرة من تصارى الأروام بالأسلحة » ، ثم طلوع (رمضان) مكرره في هذا موكب يومه كجدا مستعظمان ، سر عن ما أفقد هذا الإحسان روعة ، فقال الشيخ الحزبي وكاتب هذه اركة من عرب مواكب وشعب العذاب ما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال وسوع الأمثال واجمع بين وازعاج السمع وكثرة الخترات ومحدث الخلوات واجمع الأصوات وعلمه الوضع المعاد (٣) »

ومع أن المرسيين كانوا قد صادرو أموال اساس واعصوا مصيبتهم وأزعجوا على دفع مختلف أنواع الضرائب ، فحصل تلك الأضمة المالية والإدارية التي وصفتها ، فقد أصرروا كذلك على أن يعمل الناس بعباد كبير . عيد النحر ، ثم أن عرت شمس يوم الأربعاء ٩ دى الخجة ١٣١٣ (١٥ مارس ١٧٩٩) حتى « صربوا مدافع من الفضة لإعلاما بالعيد وكذلك عند الشروق » ويقول الشيخ الحزبي « ولم تقع في ذلك العبد أصحية على تعاده لعدم الفوائى والكويت محوره في السكر بينه والناس في شغل عن ذلك » وكان من سوء حظ المرسيين أنه كادت مع فتنة كبره في هذا يوم (أوبه أيام العيد) عندما انطلق في سوق الخجالة « علام بموكب » لأحد التجار (الارمررة) « وسيفه ملبوس بيده ويعوب الجهد : مسلمين ادبحوا المرسيين » وكان هذا الاعلام يريد قتل سيده ولكن صاحبه كشف أمره ، فصادى أثناء مروره عجة العودة ثلاثة من المرسيين قتل أحدهم وهرب الآخرون ، وعلا الصخب والصيحج وراعى إلى

(١) الحزبي ٣ : ١٦ : ٧ — Galland 1 113

(٢) Reybaud V 151 — 2

(٣) الحزبي ٣ : ٥١

أسمع امرئسبى أن هذه القطة حاملة لاختلال فتة مدرة ، فأرسلوا (برطلين) لقصها
 و نادى إلى القلاع . وهاجت العامة ورحب الصغار وأعقب بعض الناس حواشيهم ،
 ثم لم يزل امرئسبى تسأل عن ذلك المملوك « حتى عثر عليه (برطلين) تحتاً في
 حال الحماية فقصوا عليه وأخبر بعصه وأعدمه ، لعربيون في اليوم التالي (١) .

وكان للمولد السوى من أهم الأعياد الدينية التي عني بوزارة عناية عظيمة بالاحتيال
 ، كدعامة من دعائم سياسته الإسلامية ، ووسيلة للتغريب من المصريين وكسب
 صداقتهم ، وصبان تعاون علميهم ، ومتاعهم مع حكومته . وعلى ذلك ما إن كان موعد
 إقامة هذا المولد مددحون المرئسبى إلى القاهرة بأشباع قليلة ، ولما يذ أنصرون
 استمداداتهم للاحتفال به حتى حال وزارت عن سبب ذلك « فاعتذر الشيخ السكري
 بمعطل الأمور وتوقف الأخوان « ، فأصر بوزارة على ضرورة الاحتفال به
 به وأعطى (الشيخ السكري) المهمة ريب فراسا معاونه ، وأمر بتعيق تعاليق
 وأحوال وقادس ، واجتمع امرئسبوبة يوم مولد وأعدوا مسدسهم وصبروا طويلاً
 وبنادهم وأرسل الطليحة الكبيرة إلى بيت الشيخ السكري واستمروا يصرون بها بطول
 النهار والليل بامرأته عند دره وهي عبارة عن طليحة كبر مثل طليات انبوبة البركية
 وعدم آلات ومرايم يحسبها الأصوات مطربة ، وعموا في الليل حرافة بقوط عديدة
 وسواريح تصعد في الهواء (٢) »

وأفس بوزارة في أول أيام مولد الشيخ السكري « فروة » وفيدته نقابة
 الأشراف ، بدلا من لشد عمر قدي النفس السابق ، وهو لشد عمر مكرم الذي
 عاصر البلاد في سوريا عقب وفاة إمامة ، وأدب الشيخ السكري مأدنة عظيمة
 لبورث وكبار رجال الحملة . وأقام حفلة ذكر شهداء بوزارة وصحة (٣) . وطلب
 بوزارة في الوقت نفسه إلى كبير بالاسكندرية وهو رشيد إحياء المولد السوى ،
 وما كان كبير لا يؤمن في قراره بعصه بخدوى « هذه المسرحيات الدينية » ، وقد رل
 على رعية القائد العام متفجعرا ، فأبحت ازبب بالأسكندرية . أما هو ، وكان من
 مؤيدي سياسة بوزارة الدينية ويعتقد بمخدواها في جذب قلوب المصريين ، فقد اهتم
 بالأمر اهتماما كبيرا ، ولكنه فوحى بامساع مشايخ رشيد عن الموافقة على الاحتفال

(١) المجلد ٣ - ١٦ - ٥٦٢ : 5 - Reybaud V 173

(٢) المجلد ٣ : ١٥ - ١٦

(٣) 8 - 376 - Reybaud III

بالمولد ، واضطر إلى استخدام الوعد والسبب معهم قبل أن يحصل منهم على «فتوى»
بإحارة الاحسان «المولد» ، فأقيمت الزيارات في رشيد كذلك (١) .

ومع أن بونابرت كان قد قرر الرحيل إلى فرنسا بعد عودته من حملة سوريا ،
فقد حرص قبل مغادرة اسلاد نابل من أسبوعين تقريبا على أن يجري الاحتفال بالمولد
السوى في شهر ربيع الأول من سنة ١٢١٤ (أغسطس ١٧٩٩) ، كما حدث في العام
السابق ، « فعمل المولد السوى (في ٩ أغسطس) بالأركية ، ودعا الشيخ خليل
السكرى سارى عسكر الكرم مع جماعة من أعيانهم ، وتعدوا عده ، وصرخوا ببركة
الأركية مدافع وعملوا حرافة وسواريح ، وبأدوا في ذلك اليوم تازية وفتح الأسواق
واندكابين بلبا وإسراج قنديل ومصطاع مهران » (٢) .

وعاد بونابرت البلاد بعد ذلك في مساء يوم ٢٢ أغسطس ، وبولى الخيال كبير
قيادة الخلة العامة بعده ، ولكن الأهل لم يجد بالقائد الجديد حتى يشهد احتفاله بالمولد
السوى التالى ، لأنه لم يثبت أن قتل في عسك شهر يوبه من عام ١٨٠٠ ، وانتقلت
القيادة العامة إلى «مو» واحتفل «مو» بالمولد احتفالا كبيرا فأقيمت المدافع في صباح
يوم ٢ أغسطس ١٨٠٠ ، وأقام الشيخ خليل السكرى « من سلاله النى الكريم »
مأدبة عظيمة بهذه المناسبة للجنرال «مو» وكرار قواده ورجال الإدارة الذين وحدوا
بالقاهرة وقتئذ ، كما حصرها بمر من أعيان مصريين . وأقيمت زيارات في جميع أنحاء
المدينة في المساء (٣) ومع ذلك فإن الشيخ الحبرى لم يجد ما يدويه في حوادث هذا
اشهر (ربيع الأول سنة ١٢١٥) سوى قوله . « وفيه بادوا على الناس الخارجين من
مصر من خوف المردة وغيرها بأن من لم يحصر من حد إثني وثلاثين يوما من وقت
المادة نهيت دأره وأحيط بموجوده وكان من اندسين . واشتد الأمر بالناس وصاقت
مناقمهم (وتابع الفرنسيون) هيب الدور نادى شهة ولا شهيع تقل شعاعته أو متكم
سمع كلته واحتجب سارى عسكر (مو) عن الناس وامتنع من مقابلة المسلمين
وكذلك عظماء الجنرالاب وانحرفت طائفة عن المسلمين زياده عن أول واستوحشوا
منهم (وكان ذلك ولا شك سبب قتل كريم السابق كبير) ورن نارعية الذ والطوان
وتطاولت عليهم المرساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى اللد الأقطا والشوام

(١) Ibid 377 - 8

(٢) طريق ٣ : ٨١

(٣) Pièces Officielles 380 - 3 : Gal and I 302

الأرواح بالإلهانة حتى صاروا بأمر وسهم بالقيام إليهم مندحورهم ، ثم شدوا في ذلك حتى كان إذا مر على عظمهم تشرع ولم يبق له على أنس على أقدمه رحمت إليه دعوان وقدسوا عنه وضعدوا في أحسن النعمة واستمر عدة أيام في الاعتقال ثم يطلق سراحه بشعاعة بعض الأعيان (١).

وم شهد الفرنسيون بعد ذلك احتلال المولود السوي في الديار المصرية ، ذلك بأنه حتى وقت الاحتلال به حتى كان قد جرى معه من مصر مند مصعب يوليو ١٨٠١ ، إلى الإبحار وفتنوا شددوا الحصار على مدي في الإسكندرية التي انقطعت عنها البضائع وذهب ذلك ، وكان مع يونس والكوب بذلك قد عدوا في القاهرة ، كان من نصيب هؤلاء إقامة في الحبس بالمولود السوي بعد خروج الفرنسيين من مصر ، فبالإضافة في يوم ٢ أغسطس ١٨٠١ ، جرى الأسواق من بعد عظم يوم مولد السوي لشرب ، وقد أصبح يوم الأربعاء كررت له ، والأمير بكس ، يرش على الإبر ، وكان من جهدهم ورسوا حواسنهم بالشفق الخمر والزردهن ، بعد ذلك لم يبق (وذلك على أنس) من خوفهم من تعرض هذه العائش برب (بكر العبيد) وعدد لاه وذهبوا إلى بيع وجموع وصاروا المساجد وحصل جمع كبيرة الكشيش على لاه وردد من الألفرحة وعموا معنى ومرامير في عدة جهات وقراءه قرآر وصحب الصبر في الأسوق وعم ذلك سائر أقطار لمدينة القاهرة مصر وبولاق ، وكان من بعد قدس أن لا حتى بذلك إلا بمحنة الأركية حيث يمكن أن يحسب كبرى لأن عمل مولد من ونداه وبولاق فقط (٢).

في الاحتلال عظم على ، وشتر الس من عدة صدقة ، ذلك أن المصريين من زعم عقلاؤهم وكارهم وشوهم على لاجد ، وند السوي ، ثم الفرنسيين ، ما كانوا يفعلون ذلك في جميع الأمر لا بحارة ومداراه لهم ، وهم الذين وقعوا منهم سوى الإرهاق والمعاق ، وحسن بهم النظم في محرد ، فامة المولد كقبل وحده احتداب قلوب المصريين ، وعنه كان في وسع الفرنسيين أن ، حواهم أرادوه لو أنهم رفعوا عن الأتشن القطن والمعارم ، ورفعوا بهم قد تسدوا أموالهم وأوراقهم ، وأعطاه كان في وسعهم كذلك أن ، وهو المصري عيسى بواهم ، ونهم إنا قصدوا من الاحتلال ، مولد السوي اشترى بمجيد بهم الكرم ، والمحافظة على شعائرهم

(١) المجزئ ٣ : ١٤٢

(٢) المجزئ ٣ : ٢٠٠ - ٢٠١

الدنية وفالدهم ، لو أنهم راعوا عدية هذا اليوم ، ومعوا حدودهم من الاشتغال مع
الدعاء والزراعة في أسواق حرمه . فقد ثبت أن عديدي من كل هؤلاء كانوا ينتهرون
فرصة المولد في ميدان الأرنكة فيقسمون حوب مولد الزناب ومحتشد المكان بالنساء ،
ومدعى الولادة و (المحاديب) أو « الله » كما يسميهم الشيخ الجرجي -
والدراويش ، فيحفظ الحلال بالنال ، ويحرق أمور يشتر بها صاحب كل خلق
كريم ، ولا يعمرها شرع أو دين . من مع كثير من الخري عياناً جهاراً دون تستر
أو احتشام ومما لا يليق ذكره (١) .

وما من شئ في أن أحداثا كان يحرق على ارتكاب هذه الفعاع الشبهة لو أن
كبار القريسين عزموا كيف يحرصون رقابة حرمة على حدودهم وصغارهم وأرغموا
أعوانهم من أهل الطوائف غير الإسلامية القاطنة في مصر على عدم التندب والاحتشام ،
مسيره للعريسين ومحاكاة لهم

وواقع ، لأمر أن توارث الذي استع « هذه الساعة الإسلامية » ، كوسيلة هامة
من وسائل دعم الحكم في المصعمره الجديدة ، لم يكن « على ما يبدو » طواهر
الأمر طيب ، ونكسه من الخرم على شعائر لقوم وتقديسهم من بحري الاحتفالات
الدينية ويقوم المواسم « الوطنية » في مواضعها امتناده بكل أهله ومعجم بل إن
النجس لإقامة هذه الموالد ما لث أن يبع دروته عند ما تضر على ضرورة الاحتفال
بمولد السيدة ريس ، فقامت القضايل في جامعها وأقيمت ارسات ، وأدب السيد محمد
استادات مادة عظيمة حصرها توارث ورعاه (٢) . وفصلا من ذلك فقد قرر توارث
بحارة الاحتفال بولد السيد على النكري . وكان الناس قد شعروا عن هذا المولد
« وأعمل شأنه في حملة التمهلات ورك مع المتروكاب » عند محي العربيين إلى
هذه البلاد

وكان السيد على النكري « رجلا من الله وكان حتى بالأسواق عربا بمكشوف
الرأس والسواقي عاليا » بعد أخوه « وكان صاحب دهاء ومكر » من قبل الناس
(٣) واستفادهم فيه كما هي عادة أهل مصر في أمثاله « وسيلة للكسب » ، فحرق عليه ومنعه
من الخروج من البيت وأمنه ثائاً وظهر للناس أنه أدن له بذلك وأنه تولى الأعطاية
ومحو ذلك فقلت ارجل والنساء على رياره واسرته به وصمغ أعطاه والإهات إلى

(١) Villier 71 — 72

(٢) Galland 1 96 — 7

تخطيطته وتأويلها في موسم « وعند وفاته دفعه نحوه مجمع الشرايين بالأثرية بالقرب من الرومي وى له معصورة ومقاما « فمهرعت لزارة قبره النساء والرجال بالدور والشموع وأنواع من كولات وصار ذلك مسجداً مفعلاً وموعداً ، وكان من أسباب مرور عملاء اليوم من هذه الدعة أن أصبح رسوا « المهرئين وانداحين وأرباب الأشهر والمشدى (يدكرون كرامات سيد علي السكري) وأوصافه في قصائدهم ومديحهم وعو ذلك ونواحدون ويصارعون ويترعون وحولهم على شاكه وأغناه ويعرفون بأنهم من الهواء المحيط به ويصعونه في أعينهم وجيوبهم « تلك صورة ما كان يحدث بهذه الولد الذي أراد أن يورث الآن إحياءه الأمر الذي جعل حيار اليوم ياصقون بالقائد العربي همة العمل على إفساد الأخلاق فكذب الشيخ الحرني « وما فتح من الموائد والمحبات ورحمن لمرساوة ذلك للناس ما رأوا فيه من الخروح على الشرائع واجتماع النساء وانواع الشهوات والاعمال وفعل المهرمات أعيد هذا الولد مع جملة ما أعيد^(١) »

وكذلك أصغر ومارت على الاحتمال بالمولد الحبيب . وكان الشيخ محمد السادات المكلف بمهله قد أعزم أن ترك الاحتفال به ، فوشى به الوائشون لدى العريسين وقنوا إلى « عزم الشيخ السادات عدم عمله إلا إذا حضر المنون » ، فبادر الشيخ دفعا لهذه السجة عن شخصه إلى الاحتمال بالمولد « وترفع في عمله على سبيل الاحتصار وحصر ساري عسكر (بونارت) وشاهد الوقعة ورجع إلى داره بعد الغشاء «^(٢) . على أنه مالت المهرجون أن أرغموا على الاحتمال بولد الحبيب مرة أخرى في ١٦ - ١٧ - ١٧٩٩ ، وكان قد « ركب هذا الولد في حملة المتروكات » فأعيد إحياءه الآن ، وحدث في أثناءه مثل ما كان يحدث في المولد السوي من ارتسكاب « لسوقة وأهل الحرف الساقطة » لمخاري ومعاصي ، بل مع من عدم نصر العريسين أنهم فتحوا قهوه في « حط الشهد الحسي » ظم منهم أنهم بدأ يكسبون بذلك حمة القاهريين وصداقهم ، فصار الناس يحضرون بها للحنوس وانهر حصة من الليل « وانتفى والخلعات ، وعم ذلك جهات تلك الخطة ووافق ذلك هو السادة لأن أكثرهم مطوع على الحنوع والخلاعة وتلك هي طبيعة لمرساوة « على حد قول الشيخ الحرني . ويعزو الشيخ عمل المولد بعد حادث أسيد السادات إلى أن رأى هذه القهوه سريعا

(١) المرقى ٣ . ٨٥ . ٨٦

(٢) المرقى ٣ : ٢٣

ما حووا لصاحبها وكان يهودية من عملاء العربيين وتراحمهم — عادة هذا
 « الملوك الشهري (١) » مع في لياليه من الخفاف وبهرجان « وكان لاحتساب (٢) »
 وكان الاحتفال بوفاء النيل من أهم الأعياد الوطنية في عظمة فيها تزيينات
 و « بهرحان » ، ووقع فيها من حوادث الحروب والحفلة « في الكثير » وكانت
 هذه الاحتفالات « في رده » نور شلالا « من بين » وفي الطاقة المتوسطة من
 القاع « من » « في » « هذا » « له » « وطول » « لأروام » « واشوام » « من » « هم »
 « حارون » « الفريسيين » « في » « مبادلم » « بل » « ويترؤهم » « في » « أ » « ب » « اليهود » « والحون » « مستترين »
 « بالذات » « وبقيده » « في » « الذي » « على » « حين » « حنون » « بوارت » « وكبار » « رجل » « دواء » «
 في مصر أن عموها « أهل البلاد » « وهي » « الشعوب » « للإسلامية » « الحور » « أنهم » « عمهون »
 « الذي » « الخفاف » « وبحر » « من » « عدم » « حتى » « الأذى » « شعور » « مسيين » « وخطوط » « إلى »
 « عادات » « مصريين » « و » « هم » « وآله » « ذلك » « كما » « موثون » « الملك » « لاحتساب » « في » « قيمه » « وسما »
 « في » « كل » « ما » « به » « من » « مسيات » « الأ » « د » « الف » « و » « لوسطه » « في » « مصر » « مكان » « ما » « تقع » « من »
 « حوادث » « مشابهة » « في » « هذه » « لأ » « د » « و » « خصوصاً » « في » « بناء » « لاحتساب » « بوفاء » « من » « وفتح » « الخراج »
 « من » « العوامل » « التي » « قوتت » « على » « الفريسيين » « من » « عدم » « وبصر » « مصريين » « عمدة » « بوفاء » « هم »
 « وحدهم » « لا » « يصحون » « تناري » « هؤلاء » « من » « لأ » « ب » « ولا » « شعور » « لا » « شعور » « هم » «
 وأطعمهم

وحدثت في احتفال بوفاء النيل من دحون بوارت « في » « هذه » « سنة » « مع » « قليلة »
 « ١٨ رجب شمس يوم ١٨ أغسطس ١٧٩٨ (٥ ربيع الأول ١٢١٣) » « حتى » « خرج »
 « بوارت » « من » « هذه » « سنة » « من » « بوفاء » « خفاف » « ركان » « حربه » « وبصحة » « أنصاء »
 « الدون » « و » « الأ » « السكر » « و » « من » « المصريين » « و » « ك » « ت » « ح » « د » « أ » « س » « و » « انما » « هي » « وبصحة »
 « الحدود » « على » « حنون » « الخراج » « حتى » « انهر » « و » « ر » « د » « ح » « ب » « في » « أ » « ل » « هذه » « مرا » « ك » « وعلا » « في » «
 « مرة » « الأ » « ل » « ام » « و » « ا » « ح » « ت » « ح » « مع » « غير » « من » « مناس » « إلى » « طول » « الخراج » « في » « الخراج » « وبصر »
 « ل » « ع » « ه » « مدفعهم » « حب » « الاستطلاع » « إلى » « الخروج » « بشهده » « هذه » « ل » « ز » « بات » « حديده »
 « ثم » « ظنفت » « مدفع » « بحية » « من » « وصول » « بوارت » « وب » « ح » « د » « في » « من » « و » « من » « شيخ » « العرب »
 « وقد » « ر » « ان » « مع » « مدى » « حله » « عيضا » « في » « هذا » « هم » « وكان » « حمده » « في » « شرب » « و » « د » «
 « وشعر » « بعد » « ذلك » « في » « كسر » « الجسر » « و » « ح » « ر » « ب » « فيه » « انهر » « في » « الخراج » « واقرب »
 « ر » « ع » « د » « من » « النيل » « في » « س » « ر » « وقت » « انطلاق » « الماء » « و » « تلقى » « بوارت » « حمده » « من » « اليهود » « الذهبية »

في الخليلج ، كما ندر على الجمع المتخذ من الأهلالي وعامة اناس كصاب كبيره من (الميدي) ، وهرع اناس لا غلظي ، ثم ألس نقيب الاشراف الهرو الأسس .
وابلاً قرواً أسود وورع عدد من (المعاصين) على رؤساء وكذر القهريين ،
وعاد عوكبه إلى داره بالأزبكية .

ويقول مؤرخو الحملة مربية^(١) إن سرور الناس بهذا الاحتفال وحسنهم له كان عظيماً ، وفصلاً عن ذلك فقد حمده الله كثيرون وثنوا على رسوله الكريم ، وأظهروا لشكره منسجاً منسجاً من طعان السكوبات الفاليك ،
لقدس أكثرهم من السرايا الممات عليهم ، وصاروا يقولون قد شاءت إرادة المولى أن يأتي بوأرت لنهر ربنا من طعان منك فكسب له النصر عنهم ، وشاءت إرادته تعالى أن يتم الخير وبلغ وفاء بيل المارك حداثاً سمعه صدق من ارمان واقصى نية اليوم في ح وجور وبى عن سان أن هذا الهول يحمل في طانه كثير من الملاء ، بل قد بعد ما حدث فعلاً عن الحققة بعداً كبيراً ، ذلك أن القهريين الذين خرجوا بسجدة إبراهيم ومراد منسجج « مالمى والساييت » وكل ما وصلت إليه أيديهم ثام واقعة امساة المعروفة ، ثم حمروا الشيء الكثير من أصايب المرسيين الإدارية ، ووقع عنهم الإرهق بسبب مصائب هؤلاء ضللة ، وما فرصوه على ماهرين وكارهم من ممره موعة ، ما كانوا ليعصوا هذا السجس الذي يدعيه مؤرخو الحملة القرسون في بدء حماوسهم بقاء المرسيين ، وإظهار اشكر والحمد على ما أسوا به . وهون الشبح الخرى في حوادث هذا اليوم . « وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتعرف في المراكب على العادة سوى الصاري الشوام والخط والإفرنج . والذين واثمهم وقيل من الناس الطالين حصروا في صحبه^(٢) »

وكان هؤلاء لشوام والإفرنج النديون وسأؤهم والناس الطانون هم الذين أحبوا كذلك الاحتفال بوفاء السل في العام التالي ، ارسكوا خلال هذا الاحتفال فعلاً شبعة وكان انقائم شئون الاحتفال بوفاء السل في السنة التالية (١٣١٤ هجرية ، ١٧٩٩ ميلادية) . الخراج دوحا حاكم المعهرة ، ذلك أن بونارب كان قد عادر السلاد إلى فرنسا منذ ٢٢ أغسطس ، وكان كثير قائد الحملة العام الخدم صعيان القاهرة ، فذهب دوحا في صحبة يوم الاحتمال (٢٤ ربيع الأول ، ٢٦ أغسطس) مع هيئة تركان حرمه

إلى (السكرانك) انصبوب عند مدخل الخليج ، لصحة أعضاء الديوان والأعيان وعدد كبير من الجند لشاء والعمران ، ومدح الموصلي ، وأحاطت بالهمة السعي والقوارب المسحة والمرسة ، وأطلقت المدافع ، ودر دوحا انقود في الخليج وتسايق اناس لاحتطافها ، وثقت عروس النيل في نهر ، وانقضى اليوم ومساؤمه^(١) - على حد قول الفرنسيين - في حور شامل ، وامر لشوام لإفريخ الملبثون وسأؤهم واناس النطالون هذه امرة لحعو اعداد وشاركوا الفرنسيين في محوهم وحلا عنهم ، فمال الشيخ الحري « وحرج انصارى المدينة من القطة واشوام والأروام وأنهبوا للجلالة وانقصب وانفجح وللهو والطرب ودهمو ، تلك الليلة إلى بولاق ومصر النبعة وانورسه واكثروا المراكب ورلوا فيها وصحبهم الآلات وعباني ، وجرحوا في تلك الليلة عن طورهم ورفضوا الحشمة وسلكوا مسلك الأتراء (لكوات الميراث) ساعاً من لربول في المراكب الكثيرة المقادير وبصحبهم ساؤهم وفجأهم وشراهم وغاھروا بكل فيج من الصحت والسحرية والكفرية ومحاكاه الماسين ، ودهمهم ربا ربي أمراء مصر وامس سلاحاً وشههم وحكي ألقاطهم على سبل الاسماء والسحرية وعبر ذلك وأخرى امريساوية امراكب امرية وعلها ايلري وفيها أنواع الطبول ومارمر في لهر ، ووقع في تلك الليلة دلبهر وسواحلها من القواش وتجاهر بالمعاصي ونسوق ما لا كيف ولا بوصف ، وسدت بعض عواء اعمامه وأسافل اعم ورعاعهم مسلك تسول الخلاعة وردالة الرقاعة بدون أن مسكر أحد على أحد من الحكام وغيرهم ، بل كل إنسان يعمل ما يشبهه معه وما يحظر بياله وإن لم يكن من أمثاله :

« إذا كان رب الدر نادى صار » فتحة أهل الدر كلهم الرقص^(٢) »
وما كان امريسون عن هذه الاحتمالات انشبة يستطعمون أن يكسوا مودة امريين وصداقهم ، ولم تكن اصنام لسوقة والرعاع إلى اُخدامهم وأنصارهم من أهل الطوائف عبر المصرية أو غير الإسلامية ، مؤذناً بجراح سياستهم « الإسلامية - الوطنية » بل أحدثت هذه الاحتمالات أدى سيقاً في نفوس عقلاء القاهريين ، ورادت تقورهم من حاكمتهم احدث ووقع الأمر أن هؤلاء السوقة والرعاع أنفسهم لم يشواهم الآخرون أن انصرفوا عن هذه الاحتمالات ، عندما تدفوا فسوء ذلك اعتاب

الصدوم الذي أضره بهم الفرنسيون عقب ثورة القاهرة الثالثة ، واشتد الرعب على أثر مقتل الجنرال كليبر ، وتبدل مدبكت الفرنسيين عموماً نحوهم بعد هذه الحوادث الحساسة . ولذلك فبه على الرعب مما كان يديه الجنرال مو فانتد الحملة الحديد بعد كليبر من عظيم الاهتمام باقضاء خطوات بونابرت في سياسته الإسلامية الوطنية ، وحرصه على الاحتفال ولاء السل في عام ١٨٠٠ (١٢١٥ هجرية) ، فإن أحداً من من القاهريين لم يقدم على المساهمة في هذا الاحتفال سوى مشايخ الدوان والموظفين ارميين بحكم مناصبهم . وضئفة من القهلاء الذي أعراهم ماسدرة القائد العام عادة من نقود في مثل هذه المناسبات ، ولم تعادروا بيوسهم

فلم يذكر الشيخ الجرتي في حوادث شهر ربيع الثاني من عام ١٢١٥ هجرية الذي وقع فيه الاحتفال بوفاء النيل في تلك السنة شيئاً عن هذا المهرجان . بل اقتصر على ذكر ما وقع على المصريين في أثنائه من مصادم ومطام وما شاهدوه وأنحاء الوكائل والحانات من سلب أموالهم وسلب متاعهم وذلك إلى حباب هدم الدور وإنشاء القلاع وما إلى ذلك^(١) . ثم اكتفى بعد تدوين حوادث شهر جمادى الأولى بالإشارة إلى « زيادة النيل زيادة معرطة » في هذا العام « لم يبعد منها . حتى انقطعت الطرقات وعزقت البساتين وطغى الماء من ركة النيل وسار إلى درب الشمس وكذلك حارة لاصرية وسقطت عدة دور من المطلة على الخليج^(٢) » .

وفضلاً عن ذلك فقد وقع يوم الاحتفال بوفاء النيل في ٢٨ أغسطس ١٨٠٠ (٧ ربيع الثاني ١٢١٥) من الحوادث الروعة ما ذهب بهاء هذا اليوم إذا كان له شأن أو رويق . فقد عرق عديدون عند محاولتهم النور على قطع القود التي ألقاها سو في النهر ، وبلغ من شدة التيار بسبب علو الفيضان وتدفق المياه أن فقدت بعض لسوة أطفالهن عندما دفن هذه أكبادهن إلى الماء للركة ولشقاء أطفالهن من الأضرار على نحو ما اعتدوا فعله كل عام ، وبعد نال التدفق الشديد من ثغرة أحدثها في حاجر أقامه انفرسيون عند مدخل ميدان الأركية لمع المياه من الوصول إليه ، وكانت قد حطت رحالها قافلة كبيرة في هذا الميدان ، فمروحيها أحمالها تندفق اليه عليهم ، فساد المرح والرج ، وعلل لصياح ، وعظم رغاء الجمال ، وحدثت صوصاء وحلة شملت حتى الأركية

(١) المرقى ٣ : ١٤٢ ١٤٣

(٢) المرقى ٣ : ١٤٤

مأخوذه ، حتى إذا بين الناس خدعة ما حصل يرى أنهم ^(١) ، وكان ذلك احداث
 « الفلسفة » التوحيدية الى وحدانية قاهريون مايجزجون به عن أنفسهم وسط ملأهمهم
 من سكر وعدم مقام باور . وقول الى الخلاص منه واستطرون طرح الله القرب
 واما الله ، فقد شاركوا انفسهم على عادتهم في الاحتجاب بوقاه الله في هذه
 السنة فوصف الشيخ الحري ما فعله هؤلاء ، عدم أحد بحس حوادث هذا العام ،
 وكان كل مائة شيخ يدوية الى جانب نهم « عدم » والجزء « ابق قام بها
 لفرسيون ، ذلك المخطط الخلق الذي حدث بين انعامه ونسبهم ، فقد « ومن
 حوادث هذه السنة (نى سنة ١٢١٥ هجرية) رح النساء وحروح عاهل عن الحشمة
 والحاء وهو انه لما حضر لفرسيون في مصر ومع بعض منهم سؤم كانوا يمشون
 في الشوارع مع نسائهم وهن حشرات الوجود لاسباب النساء والمديول الحرير
 لينة ويسدن على ماكنهن بطرح الكشميري وارركات المصنوعة وركن الخون
 والخر ويسوقونها سوقا عري مع السجك وبهيفة ومدعة لسكرانه معهم وحرايش
 بعمامة قبال انهم يمس هه لأهواء من النساء الأساين والمواعش والداخلين معهم
 لخصوعهن للنساء وبات الأموات لهم وكان ذلك اند حل ولا مع بعض احتشام
 وحشية عار وماله في إحتشام وبه وقت سنة الأخيرة (ثورة القاهرة الثانية)
 وحارب فرسيون بولاق وسكوا في نهم وعمو مؤالها وأخذوا به يستحسنون
 من النساء ولب صرن مسورات عدهن فربوهن يرى نسائهم وأحروهن على
 طرفتهن في كمال الأحوال طم أكثرهن من النساء بالكتابة وقد حل مع هؤلاء
 الأسورات عبرهن من النساء الفواخر . وب حل هه بلاد من الدل والخوان
 وبات الأموات واجمع الحداث في حوزة فرسيون ومن ولاهم وشده رعيتهم
 في النساء وحسوعهم لهم وموافقة مرادهن وعدم بحلعه هواهن ولو شتمه أو صرته
 باسموتها ، فطرحن الحشمة وبوقار والبلاد واعتار واسفن بطرفتهن وحسفن
 عقولهن دل العوس في الشهوات وخصوصاً حول له صرات وحطبت أكثر منهم
 بات لأعيان وبروحوهن ردة في منطهم ونولهم فيظهر حالة اعتد لإسلام ويطلق
 بالشهادتين لأنه ليس به عقده عثنى فسادهم وحار مع حكاهم الأخطاط منهم النساء
 المسعات مرسبات رهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعة والأحكام

إعادة ولامر وإسبى وتلدو وتنى إرتة دة م أو معةا مكن أراسا وأصاها على
مثل شكلها وأصاها إمراسه وتخدم وتدبها اعدى مرحون من اسمن مثل ماعز
الحكم وترون وتبى فى الحكام وأما حورى أنود ومن ماسن رعه
إمرام فى منطق الأفى دهن إام فوجا وردى وتروا فططن الحيطر و - إاق
إسمن من الصيغ ودبوا فى حركتها دهن وحياشوا طم وده وعبر ذلك (١)

وكان من هؤلاء ١ وه إمراسا إله الشيخ إسكرى ، وقد برأسمه أولها عده
حروج إمراسين وقمن م موم أن كمر وراس « وكذلك إمرام أخرى
إسمها « هوى » كانت روحه إسم على كادع معروف ماشى ، أحد اللان حرجو
من مصر مع من حرج ميا حين دخول إمراسين ، وقد روجب هذه إرتة من
(مولا فططن) - إان أن إسماعيل كاشف إمرام ، إاعظم إمد حلاء إمراسين
« فى قناها فؤده طعة ومعهما حارسه إسماء ثم ولده ، ودبو إسم إمراسين
من أشاهم (٢) »

وتألاعمل بقاء من فى هذا العرف قد وصفه الشيخ موله « إلهما أوفى
السب أرتة ودخل إله فى الحسح وحرب فيه من ومع عده ذلك من حرج إسماء
وختلاطهن إمراسين ومصاحبهم لمن فى إركب ورمس وإسماء وإشرب
فى إمر ولب فى إمواسين ولتتووع موفده وعسبن إلالاس إلعاده وإخلى
ولحوهر إمرصة ومحمم إلالاطرب وملاحو إلمن كثران من إمرل ولحوون
وتحاوون روع إصوب فى تحرك إلعادف إحجف موصاعهم وكثتف مملوعاهم
وخصوصا إادنت الحشمة فى رؤسهم وعسكت فى عتولهم وإصرحون وإطاون
ورقصون ورمسون وإحاوون إلكاه إاه ع إمرام إوة فى عسبنهم وتهدد كلامهم
بىء كثر (٣) »

ولم يتبع لإمراسين الإحعمال وقاء البيل بعد ذلك ، لأنه ما حل موعد هذا
الإحتمل فى إدم إلهى حتى كان هؤلاء قد ارغبوا عن إلعاده ، إان إن م وقاء البيل
إلدارت - فى ٢٨ ربيع الأول ١٢١٦ ٨٠ أغسطس ١٨٠١ حتى « ركب محمد إسماء
لعروف شفى إمرام لولاية مصر فى (صبح ذلك اليوم) إلفى فطره إسم ،

(١) حورى ٣ ٧

(٢) إمرام ٣ ٢ ٢

(٣) حورى ٣ ١٧١

وكسروا حصر الخبيث عهرته وقرى الموائد وحلج الخلع ونثر الفضة والذهب^(١) ، ولم يقع شيء من تلك الخمارى والمقاصى التى اعتاد القاهريون مشاهدتها أيام الفرنسيين . تلك كانت احتفالات الفرنسيين بأعياد المصريين ومواسمهم ؛ وظهر من التعاضل التى ذكرناها أن يونارب ومؤيدى الاستعمار الفرنسى فى هذه البلاد ، من أصحاب السياسة الإسلامية الوضبة ودعائها ، قد احققوا فى كل ما عقده على اتباعها من آمال عظيمة لجذب قلوب المصريين نحوهم ، واستأنهم إلى التعاون معهم ، أو الرضا بحكم هؤلاء الأحاب « املاحده » لهم . وظهر أن السبب فى إجحافهم هو أنهم حاولوا أن يجعلوا من هذه الأعياد ومواسم وسيلة للتسليه ، والتسرية عن نفوسهم ، لا إدخال الطمأنينة والسرور على نفوس أهل البلاد والحقيقة أن الفرنسيين صدقواهم إلى هذه الألفاظ ما كانوا يعمون فى حياتهم الاجتماعية إلا شيء واحد ، هو توفير أسباب السراب لرحلهم المقيمين بالقاهرة وغيرها من المدن الكبيرة ، وإتاحة الفرصة خامسهم أو لحدودهم العائدين من مختلف المراكز ، سواء ما وقع منها فى داخل القطر فى الوعدين اسحرى والذى أم فى خارجه ، فى أثناء حملة انشام ، أم على حدود البلاد وشواطئها الشمالية والشرقية ، حتى يحدوا من صوب اللهو وأسباب المرح ما يحفف من وطأة ما كانوا فيه من نصب وإعياء ، فأحاروا لأنفسهم الخروج عن واجب اللبابة والاحشام فى أثناء هذه الموالد والأعياد ، وشخصوا بصراءهم من طوائف الشوام والأروام ومن إلهم على محاربتهم وحلج العذار

ومع ذلك فإن هذه الأعياد ولواسم كانت قليلة ومتاعدة ، ولا يكمل إحياؤها إقامة المهرجانات السمرية ، وحلق حاة من اللهو والقصع يحمل ذلك الطابع الفرنسى ، الذى كان لامدوحة عه للتسرية عن نفوس كبار رحلهم وصغارهم وأحاديهم ومن اضوى تحت لوائهم . فقدوا العزم مد أن دانت لهم القاهرة أن يفحوا بها نوعاً من الحياة يجعل من هذه العاصمة الشرقية (مارس) حديثة ، لا تختلف فيها حاروا أن يصفوا عليها من مظاهر السحة والسرور فى بطرهم — عن العاصمة الفرنسية ذاتها ، فأحدوا لذلك وسائل عدة ، بعضها معلق بشئون تطلم « ونطيلم » القاهرة ، والآخر ببناء الحدائق والقهواوى والأندية ، وإعداد مسرح تمثيل الهريبات والمآسى من جهة ، ثم إحياء أعيادهم القومية والإكثار من المهرجانات « الفرنسية » والحفلات الراقصة وما إلى ذلك من جهة أخرى .

باريس الصغيرة

وعم عن شدة اشتياقهم إلى خلق هذه العاصمة المرحية ، أو باريس الصغيرة -
على حد قولهم ، أو القاهرة الخفيفة على نحو ما اعتقد الشيخ الخمرى وظروفا
ولا شك من عملاء المصريين - أنه لم يمض زمن طويل على وجودهم بالقاهرة حتى
كانت القاهرة والظلم (ذات موائد واستكرامى هي اطرار اعراسى . دلا من
الجلوس على الاصطاب أو القاعد الحجرية) ، ثم (مشارب البيرة) - أو (اشارات) ،
قد أنشئت في أحياء القاهرة ، وابتعت أبوابا تستعمل الفرنسيين ومن سار سيرهم
من أفراد الطوائف التي رحلت هذا النوع الحدي من الحياة وقد تقدم كيف اقتنع
أحد ضائع الفرنسيين (قهوة) في حى لشهد الخسيس ، يسهر فيها الناس حصاة من
الليل ويهتو صياحهم وصحهم ؛ فضلا عن ذلك فقد أصبح أحد مشارب البيرة في ثم
الطريق بين القاهرة ومصر الميعة . على الرغم من أن الفرنسيين كانوا يشكون من
سوء البيرة الرديء التي أنشئت بعض الفوريفات لجمعها من مواد استعصى بها عن
حشيشة الدسار (١) وأقيمت في هذه المشارب ولطاعم حفلات ومن الماهرة
وصدحت الموسيقى . وكان من علامات السجود الحدي إلى سرفا الفرنسيون كثرة
اللافتات التي وضعها أصحاب المحال التجارية وغيرها على محالهم ، وكانت المكتبات
التي على اللافتات باللغة الفرنسية (٢) .

على أن أهم ما فعله الفرنسيون لإعاش الحياة الاجتماعية في « باريس الصغيرة »
أنهم أنشأوا بالقاهرة في نوفمبر ١٧٩٨ ملهى كبراً يشبه ملهى تيفولي Tivoli النابلى
وسمواه نفس الاسم ، أنشأه دارجيم Dargave رقبو يوبايت القديم في مدرسة
رين Berenne الحربية ، فاختار داراً له فوية من ميدان الأرنكية أحد
قصور السكوات المليك ، وكان يحيط بالدار حديقة واسعة تطل على طرفاتها أشجار
البرتقال والليمون وتساب الحداويل في كل أحنائها . وكان من التبعوى بهم حجرات
عدة ، يعضى فيها انفرسيون رجالاً وساء أوقاتهم في الحديث أو القراءة والاستماع
إلى النحوت العلمية تارة ، أو للعب البلياردو وغيره من الألعاب وإقامة حفلات الرقص
والاستماع للموسيقى تارة أخرى . كما كان يجتمع الحواة والمهرجون من « أولاد الله »
لتسبية الموم ، ويقصد التفعولى كذلك عدد من العييات والراقصات - أو العليلات -

الوطبات ، لأدخال السرور والبهجة على قلوب أمتهم ، وتصديق موسى الخبيث
بأنهم لنحة والمجسية في حديثه اتق من العرسون دائماً بتعديق الضاديل
على أشجارها وعمل الترتيب اسكنه في الأسد وأودم حصوصاً (١) .

وكان من المشكلات التي واجهها منشوا هذا المنهج أنه ما كان يوحد بالقاهرة
وقد عدد من ... عربات كتي لإحصاء الخفلات الرافعة ، أو لدراسة في أنواع
الاهو والندسة : ذلك لأنه مكن في استصاغة السيدات لمراسات مرافقة أرواحهن
وأصدقهن عند خروج جيش شرق إلى مصر فاضطر عدد منهن للانسان بين
الجنود وهم مسكرات في رى الرجال ، كما فعلت روجة احوال فرديه Verder
الإيطالية لأحد أو روجة حناط فورس Furler ، فلم رد عدد النساء لمراسيات
على ثمانية سيدة فرنسا ، بما بلغ عدد الزوج حواي أربعة آلاف وقد حاول بوبرت
الإلاج هذه المشكلة بأكسكه في حكومة الإدارة ، بطلب منها لعمال على إرسال مائة
امرأة ، وكذلك روجات لمر ... بن تدن حصروا إلى هذه البلاد ولم يحصروا معهم
روحانهم (٢) وما كان لا محذور قد جعلوا لعمال سطرهم البحرية كل اتصال بين فرنسا
ومصر مستمرا وبما قطع و ... عصى ... ، وقد عمد حد الحملة إلى علاج
هذه المشكلة لأحامية الخفلة ، بسلامتهم الخاصة بهم فزوج بعض من ساء مصريات
وإن كانوا قد حرصوا على ... روحانهم بحجاب في البيوت ... وصادق آخرون عددا
من الوصيات المشتهرات ، أو عثروا ربحيات من الرقيق وهكذا (٣) كما عالج
بوبرت هذه المشكلة بطريقة الخاصة أيضاً ، بوضع اختياره على (مدمم فورس)
وكان قد قامها في إحدى حفلات ليعولى الرافعة ... وشهر أمر اسدة (ليلوى)
بن أحمد ، فطلق هؤلاء عنها اسم « فتنة بلوت Bél-lute الصغيرة » ، وقد
لاحقت هذه السدة بوبرت حتى بعد عودته إلى فرنسا . ولكنه لم يأت لها بعد ذلك (٤) .

وقام الفرنسيون صرحا بتكبل الروايات « الحكوميدية والتراجيدية
والأور كوميت » ، في الوقت الذي أنشأوا فيه منهي ليعولى لكبر ... وصادقهم
كذلك في مبدأ الأمر صعوبة العثور على ممثل ، فصار الرجال يربون رى النساء ،
ويقومون بأدوار السيدات في هذه التمثيلات ، واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن حتى
رصدت بعض ممرسات الاشتراك في التمثيل وقد ظل هذا المسرح قائماً حتى أواخر

Ibid 68 — 9 (١)

Villiers 85 : Ibid 70 (٢)

Galland I 87; II 307 (٣)

Rimbaud IV 72 — 7 : Villiers 86 (٤)

عهد الخليفة في مصر (١) وكانت تقوم حفلات التمثيل مرة أو مرتين كل عشرة أيام ،
وقصد (ديارو) إلى حاسب عرسين كزار بصريين وكبار لصدري اشوام
والأروام وأشعل لطوائف الأحرار ، وكان مسجون عسكاريون معهم في بعض
الأحياء ، ثم بعد ذلك عودوا ونصبت العرس سور وكانوا يحضرون هذه الحفلات
ومعهم - وهم وحوزتهم الخشب والخورد - حاسب واحد وهذا كثير من
الرجال ، كما كان خصم كذلك نساء امرأتين وكان احداهما كتيبا
والخورد حبات حاسب في موصوره وألوانه يخصص لمن في حبه فله
(الأنواع) المواد وبرقها ، وكان راجع - نشد او - من عين رؤاه هذه
لأنه هذا السداد الرومي والاشناس فكان - ومعنى أن ترى منسحب يومون
بأدوار ليداء وديون برمي حتى إن أحدهم ما لبث أن صاحبه عند رؤاهم
ومشاهدة مناصر لثقله امرأته ، ثم ما زلنا نذكر من عمل الإله ، وإتمام ذلك من
بين الشيطان نفسه (٢) .

وأما عقلاء مصر من قديم وجرو في ذلك كله ولا حرجاً على أيديهم العربيين
في حياة اللهو والجلالة، وحرصهم على نشره في بلادهم، قد سجدوا له
وهو من حورث من حورثي ١٢١٣ (٢٠ أفر ١٧٩٨) ، لا سيما أنهم
(أي العربيين) أخذوا يحفظ سبى الخور الأركية ، على ما هو محسوسه ،
مسرعة حتمها ، ولما كان اللهو والجلالة في أوقات محسوسة وحملوا على كل
من يدخل إليه ، فبدأ محسوساً بدفعه ، ويكون مأدواً ويبدع ورقة ، ثم قال عبد
الكلام عن الأحداث أول يوم من شهر رجب في ١٥ شوال ١٢٠٣ ، ٢٢ مارس
١٧٩٩ : « عملوا له السبى شكراً له وورثه وخدموا به في الجلالة ،
ورحلاً ورافصاً وساقوا وتودوا مرحاً ومتموجة وغير ذلك وظاهر الأقدار
والشوام مريد الفرح والسرور (٣) » .

و محمد العربيون في يد الأركمكة و بعد سقوطى مكة حلالهم و حرصوا على إقامتها دائما في عيد الجمهورية العربية و بعد ذلك أول شهر رجب و كانت هذه حفلات باذخة ، عموما عامة فائقة مرتبها و تنظيمها ، و توفر أسباب اللهو و الترويح

Galland II 218 : Villiers 283 (v)

Callend II 12 — 4 (v)

॥ ५१ ॥ ॥ ५१ ॥

« والحلقة » في أثباتها على نطاق واسع ، فطيروا (البانوات) وأكثروا من الزينات وحدوا الحواف واللامعين . وأنشجوا مكاناً للراصات والنعيات (والنعيات) الوطيات ، وأقاموا لراصات وسدلو في لهموم ومخوم لدرجة كبيرة . ووضع أول اجتماعاتهم في يوم ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨ فاستعدوا له استعداداً عظيماً ، منذ أواخر شهر السابق فعالة الشيخ الحزبي « وفي أواخره (أي في أواخر شهر ربيع الأول ١٢١٣) كان اتفاق اشجس لرح لبران وهو الاعمال الحزبي فشرع الفرساوية في عهد عيدهم بركة الأركية وذلك اليوم كان ابتداء قسم الجمهور به سلامهم فخلعوا ذلك اليوم عدداً وتاريخاً ، فدعوا أحشائاً وحمرراً وحمرراً وأقاموا بوسط بركة الأركية صاراً عطياً نالة وساء وردموا حوته زائماً كثيراً نالاً بمقدار قامة ونحوها في أعلاه فلما من الخشب محمد الأظلي مربع الأركان ونسوا فيه على سمت لقلب فشا نخبها طوبه بسمرة الحجرة وعملوا أسفله قاعدة نقشوا عليها تصاوير سواد في ااص ووسموا قنالة باب الهواء بالبركة شبه بوانه كبيرة عالية من خشب مقصص وكسوها بالقش والدهون مثل لون الصاري وفي أعلى لفوصرة طلاء أسمن وبه تصاور بالألوان مصورة فيه مثل حرب المالك المصرية معهم وهم في شبه الهرميين «صمم واقع على «صمم مدعت إلى حطب وعلى مواراه ذلك من اخعة الأخرى ساحية فطرة لذلك التي يدخل منها الماء إلى البركة مثل نواة أخرى على شكلها لأجل حرارة البارود وأقاموا أحشائاً كثيرة مستعدة مصطفة منها إلى الدواية الأخرى شبه الدائرة منسمة بحجوة بمطعم تصام البركة تحت صار عمود الصاري الكبير المنصب المذكور في الزاكر وربطوا بين ذلك الأخشاب حبالاً ممتدة وعلقوا بها سبعين من القنادل وبين ذلك تماثيل لحرارة البارود أيضاً ، وأقاموا في عمل ذلك عدة أيام » (١)

ثم يسمى الشيخ بقول « وفي يوم السبت حادي شهر (١١ ربيع الثاني ١٢١٣) ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨) كان يوم عيدهم لموعوده ، فصرخوا في صبيحة مدافع كثيرة ووصموا على كل قائم من الخشب بديره من دراهم طلوبة وصرخوا طوبوهم واحدهم عداكرهم بالبركة ، الخيلة وإرحالة ، واصطفوا صمغها على طرائفهم المعروفة بينهم ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين واقطفوا شوام فاجتمعوا سياب صاري عسكري بوابته وحاولوا حصه من النهار ونسوا في ذلك اليوم ملابس الافحار ونس المعلم حرجس الجوهرى كركه نظير نصب على أكاشها إلى أكاشها وعلى صدرها ثيابات نصب بأررار وكذلك فلبوس ونعمموا بالعمائم الكشميرية وركبوا لعال الفارغة وأظهروا اندثر

واسرور في ذلك اليوم إلى الغاية ثم رل عطاؤهم ومحتهم المشايخ والعلماء وكنجدا
الشافركوا ودهوا عند الصاري الكبير الموضوع بوسط المركة ، وقد كانوا فرشوا
في أسفله بسطا كثيرة ، ثم إن العساكر لبسوا ميدانهم وعملوا هيئة حرسهم وصربوا
البنادق والمدافع فيما اتقى ذلك اصطفيت العساكر صفوا حول ذلك الصاري وقرأ
عليهم كبير قسوسهم ورقة منهم لا يدرى معناها لا هم وكانها كالوصية أو النصيحة
أو الوعظ ، ثم قاموا وانضم الجمع ورجع حاربي عسكر إلى داره فمد معاطا عطاها
للحاضرين ، فلما كان عند الغروب أوقفوا جميع القنابل التي على الخيل والجنائيل
والأحمال التي على السور وعند انقضاء عملوا حراسة بارود وسوارج ونوط وشه
حوافى ودواليب من دار ومدافع كثيرة نحو ساعين من الليل واستمرت الاصاويل
موقدة حتى طلع شمس ثم فكوا الخيل والشاغل والجنائيل بالصوغة وبعت البوابة
المقابلة باب الهواء والصاري السكك وعنته حمراء ملالرون لإقامة عهده لللاوهارة
من عساكرهم لأنه شعارهم وبشارة إلى قيام دولتهم في رجعهم (١) .

وهذا الموصف الذي أنى به الشيخ صحيح في حمله وتفاصيله فقد اجمع حاضرات
القاهرة ومصر لجمعية وتولاق بمدا ان الأرمكة ، وهذا يومارب السكك في الساعة
السابعة من صبيحة ذلك اليوم عطف به هيئة أركان حربه وقواده ورؤساء الإدارة
الفرنسيون وأعضاء المجمع العلمي والديوان ، ومثرو دواوين الأهلين وعدد كبير من
الشيخ والعلماء والأعيان وبع الاكشاريه وعمرهم ، وما أن اكمل عقد الحفصين
هذا المبد حتى وقف الجنرال بوايه Beyer عند قاعده « الصاري الكبير » يلقي على
الجنود « منشور » يومارب إلى عسكره ، بعد انصاراهم ويشير حماسهم ، وقد بانوا
مبد محبتهم إلى هذه البلاد موضع الأنظار ، ليس في فرنسا فقط بل في أوروبا بأكملها ،
حيث أصبح يتوقف على جهودهم وشاغلهم وما بدلوه من تصحية ، عقد اسلام العلم ،
واسعاش التجارة و-وده الرضاء والسعادة ، إلى العلم ونشر ألوية الحرية على ربوعه .
أما تلك « العظة » التي جاء ذكرها في كلام الشيخ اخبرني سكك « ترسلا » أعده
لحده الخاصة مارسيدال دى حرايمرون Parseval de Grandmaison ، ويرجل
Rigel وكلاهما من أعضاء المجمع العلمي (٢) .

وقد ألقى الفرنسيون على القماش الذي عطاوا به الصاري ورقا كتبوا عليه أسماء

(١) الجبتي ١٧ : ١٩ —

(٢) Reybaud III 380 — 3

عسكر على الشح لثري قاي والفاى وانه - الكروية حلع سمور تم رجعوا إلى
 .. رلهم ، ثم توري في جميع لأسوي بوقود أربع جدد على كل دكان في تلك اللبة
 ومن لم يعمل ذلك عوف ، ثم سموا ، لأركبة حرفة عوط وندفع وسوارح ولعموا
 في اللراكب طول ليهم^(١) .

وكان في هذه المرة حول في ذلك دوم لهم طه و بالو في ميدان الأركية لم
 يستطع لخلق في الحوكثير ففهم وندفع سر شدي بين الأهلين ، لا من استندره
 عجم أو دهشهم^(٢)

وأما حراجه دهم - ر ٢١ هـ في هذه البلاد وكان في عهد منو الذي تسلط
 فيده الحلة بعد مقتل كاري وصر الاحزاب به يوم ٢٢ سحر ١٨٠٠ ، وكان مهرحانا
 فاق في مهنة احسن العالم - في . ثم منو في أثنته لرهور والربح على قري كابر
 ودره وحط حطه كاه^(٣) . وكان هذا الاحتمال على الزعم كما بدله منو من جهه
 في سلاله على طاق واسع مباح في رويته احسن توب سب العبد في عام
 ١٧٩٨ وبعد لسب في ذلك أن عرب كانوا مشغولين بتلك الخلافات اقياسه على
 أمرها بين حمة الكابرين وخصر لا مبر ، وغير كثير رجال الحلة من حية
 منو وفسلا من ذلك فقد كان عهرون عسهم مشغولين بشتت معاشهم وتديم
 الأموال الاربه لافع لخدم أي فرمت لهم ، كما أنهم ما عدوا هم من أمر هذه
 الاحتمالات وارتاب في أكثر انهم لسب من قاسم ، ليس في عبد جمهورهم شرب
 بل في كل مسألة طارئة .

فيكي شح الحري مدجيل حودت هذه المرة في عذاب قبيله فيقوب^(٤) وفي
 ٥ حمادى لأوى ١٢١٥ (٢٢ سحر ١٨٠٠) كان - د صيب وهو اسعد الشمس
 لرح ابن ولا سب الحري وهو ثوب منه در - مس وهي لسة التبعة من تاريخ
 قاسمهم ويسمى عده عده شهر وندفع ذلك وم عدهما - وي فدوا لزينة بالهر
 وبوقدة اللال وغير شكا وندفع وحررات وودب لأركبة ولقلاخ وحرحو
 صبح ذلك يوم ، وكم وعسا كرم وطلوهم ورمورهم إلى خارج باب النصر وعلوا
 معبدهم قري عديم كلام لخدم على عديمه وكانه موعظه حربية ثم رجعوا بعد

(١) حبر ٣ ٨٥

Richardot 203 (٢)

Galland I 321 — 3 (٣)

ما حدث من وقائع في أثناء الهجوم يقول « وكنت محظوظ فرأيت قناصا على هيئة الاوية على عمود قائم وهو ملوّن أحمر وأبيض ورق عني مثل دائرة انحراف وفي وسطه مسرحة بها قنطرة موصولة ببعض الأدهان وبتلك المسرحة مصلوبة سلك من حديد منها إلى الدائرة وهي مشدودة سكر وحديد وتُعرف الأحبال بيدي أناس قائلين بأنشطة البواب القرية بها قد كان عند العصر نحو ساعة وقد رأيت تلك القنطرة تصعد دحائها إلى ذلك القماش وملأه قاذف وخارج مثل السكره وطلب النجاة ليعود إلى مركزه فلم يجد مفعداً فجدد به في الغد وقد كان ذلك لأحبال مساعدته لها حتى ارتفعت عن الأرض فقطعوها تلك الأحبال فصعدت إلى الخو مع الهواء ومشت هبة لطيفة ثم سقطت طارها القنطرة وسقطت ما ذلك القماش وبثرت بها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المصونة ، فلما حصل لها ذلك انكشف طعنهم لسقوطها وم تين نحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب انحراف في الهواء بحكمة مصنوعة وعكس فيها أنوار من أناس وسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأبحار ورسائل مراسلات إلى صهر أم مثل لطيرة التي عملها الفراسيون بالمونيم والأفرانج (١) . فكان هذا حكمة لأخير أوصى ما عكس صدوره من أحكام على ناحية هامة من نواحي نشاط عدائهم وكان من أطمع من أن يحاول (كونه) استيلاء عليه ، فعمل بحرية جديدة بعيدا ، الأركية بعد فشله السابق برمن قبل (٢٩ ديسمبر ١٧٩٨) واحصل الفرنسيون لذلك الحقل أكثر ولكن أحداً من الفرنسيين لم يظهر رأيهم عما كانوا يعملون حتى بدأ أحدهم كونه في هذه المرة أيضاً واخترق المنطاد في الخو ، وسقطت غايه على رموس بفرجين ، دعر القهارون دعر أشد ، ورشح في أدهامهم أن الفرنسيين إذا لم يملكون صبح لأن حرب مدمرة كي محروفاً ، مدلى أعدائهم (٢)

وانحر (كونيته) بعد ذلك فرصة الاحكام بإجراء ذكرى مؤتمرا ريمولي Rivoli المشهوره بأن الحملة الإستراتيجية فاستعد يوم هذه الذكرى (١٤ مارس ١٧٩٩) بإطلاق منطاد آخر في الجو (٣) ، ونحن الفرنسيون عن هذا الحدث كعادتهم « فكتبوا أوراقا متطير طياره بركة الأركية مثل التي سبق ذكرها وصعدت فاحصت أناس لذلك وقت ظهر وطروها وصعدت إلى الأعلى ومرب إلى أن وصلت تلال الرقية

(١) الجزء ٣ : ٣٣

Galland I 88 : Villiers 86 — 7 (٢)

Galland I 119 — 20 (٣)

مظاهر الاحترام التي كان مصريون يمدونها لأصحاب أموالهم وأديانها بركا
هم وصفاً مجرداً عن الهوية (١) جمعة كان هذا الاحترام يخرج بعض النفوس
عن حده الاعتدال في اظهاره ، ويندفعون إلى محاولة استغلال هؤلاء وتطويق
أمرها عن شرع أو دين ، ولكن لعسكر الفرنسي من أساليب التطوعين
على حب الماسد والثقة في سرعان ما صدرو يقصدون لارفعه والخبرات والقروب التي
كثرت فيها وجود هؤلاء الأوساد ، والله والخدات ، ويبرمون بالنساء حتى إذا مرت
جدهن وشاهدوهن طلب المرأة على حرب عليه عادات النسوة من اللهاة في ذلك
العصر ، يادر الفرنسيون بارتكاب فضائل الذميمة .

وكان مما ساعد على انتشار هذه المبادئ حول الرافعات والمعدات (العليات) من
طبعة التوسعية في انطرافات والشوارع من من تصاعدهم مردونة ، وقد وجدوا جميعاً
في ذلك الاغتيال الخفي الذي يحس به الفرنسيين إلى هذه البلاد فرصة مواتية لمد
مقاييد والإيمان في الصلاة ، حتى عظم الخطب وعم البلاد ، ووقعت على الفرنسيين
مهممة ذلك كله ، فكثير عدد حدودهم المرضي بالأمراض الجلدية والزهرية ،
اصطادروا إلى مرض ردة صارمة لمنع حدودهم من الاحتلاط بالنساء اساقطات ،
أصدروا أوامره لمرل هاهنا النسوة ممن ثبت أن لهم علاقات بالفرنسيين ، وجر
على الاستكشافية هذه المرسلة ، فحس على حوالى زعمائة منهم ، ما ثبت أن وضعهم
في أكياس وقذف بهم في البئر (٢) وأبغى الأمر بأن اصطبر من حد ذلك إلى
مخاطبة أعضاء الدواوين في ضرورة اتخاذ إجراءات حاسمة لمعالجة هذه الموضى الأخلاقية
التي كان هؤلاء يوقعون بإزالة هذه المساوي واشترور التي لا تعرف دس أو عرف ،
قد كتبوا إليه أن الدين الحبيب مع هذه المعاصي ورجوه أن يجدل باستصدار الأوامر
عازمة لوقفها وإبطالها ، وفعل من ذلك (٣)

ابدم الجديدة

على أن اهتمام السلطات الفرنسية ما كان يستهدف في الحقيقة ، عندما عرمت على
مطردة اساقطات ومع الحدود من معاشريهم ، سوى المحافظة على صحة هؤلاء الخود
ورحال الحملة عموماً ، وقد أتى اسرار آخر : وآية ذلك أن هذا الإجراء « احكمهم »

(١) Richardot 307 — 12, 321 — 3

(٢) Galland I 171 : Reybaud IV 114 — 5

(٣) المبرق ٣ : ١٤٨ — ١٤٩ : Galland II 26

كان أحد تلك الإحراجات، واحدة اتفق على حجبها أطباء الحملة ورؤساؤها لمنع انتشار العدوى ومكافحة الأمراض، وكان شديد غشاه هؤلاء وباء الطاعون، فقبلوا جهوداً صادقة في سبل الاحتاط على الصحة العامة في البلاد ولارهم اموالاً في بعض مساعدتهم ولا شك، عندما أدرك مصر تولى سواد في القاهرة ثم في سائر مدن اسكندرية وأقاليم ملتح ما تحو له من فائده استشره الأطباء الفرنسيين، وقوبل باستحسان على أيديهم، ولكن لود في سمرعان ما طار العرب من عندما رواد شجعان في مكافحة وباء الطاعون، ونجدون من الإحراجات بالارمة لاجل هذه من هذا الوباء ما نهر منهم قلوب المصريين وسلب معظمهم عليهم.

بدأ الفرنسيون في مشاريعهم نظرية مدتها حسنة، وكان أول ما عني به تونار بعد انصر بمائة إتهام المستشفيات العسكرية في الحرة وبولاق ومصر الشرقية والقاهرة، كما أنشأ كليبر في الإسكندرية ومنو في قضايا عدداً من المستشفيات كذلك؛ ثم في بعض زمن طويل حتى كانت قد شتت المستشفيات العسكرية في مراكز الحاميات جميعاً؛ وفصل عن ذلك فم أنباء الحملة بدراسة بحاث الأمراض والأوبئة المنتشرة في مصر، ودرس (كار) (1) حالة الصحة العامة في دوف، وجد حدوده (مدرسي) Savary في دوف والصديقه و (بري) Renal في مصر الشرقية، و (مدرسي) (مدرسي) في الجهاد في ريف في تلك رحلة قام بها من القاهرة إلى أسبوط، كما أنم (دوب) Bruant حوطة معده في مصر من الرمد والدوسطاريا، وأعد (بريز) Barbés مذكرة مسببة عن الأمراض المتفشية بين مرضى مستشفى مصر العلية، وحدث ذلك كله تحت إشراف (ديجيت) Desgenettes كبير أطباء الحملة الذي أوصى معويه بحصن المرضى من العربيين والمصريين على السواء قبل تدوين ملاحظاتهم.

ثم أنشأ تونار عدده وصوله إلى الإسكندرية معزلاً حتى لمراقبة الوافدين على اسبلا، وما إن دخل القاهرة حتى أمر بتأليف (خطة صحية) عهد إليها تطبيق قواعد الحجر الصحي السارية في معرب موافى البحر الأبيض المتوسط، كما أنشأ عدد قليل (مكنما للصحة واستضافة) لفة هرة ومصر الشرقية وبولاق، كلف (فرانك) Franke أحد أطباء الجيش بالإشراف عليه وسام (ديجيت) في ذلك كله نصيب وافر، ثم أنشئت ثلاثة معرب جديدة - أو «كورنيل» - أحدها في القاهرة والآخر في رشيد والثالث في دمياط (1) وراز (ديجيت) الصحة لشيوخ عداقه الشرقاوى

(مارستان) القاهرة . وكان الشيخ من المائتين على إدارته ، فوجدته (درجعت) عدداً من الأسرة المصنوعة من الخشب لا ردة على حمة وعشرين بقاها العرش القدرة الرديئة أو الخسر وذلك بعد خمسين سرور مجهزة من الخضره . وتؤوى (المبارستان) سبعة وعشرين مريضاً ، وروحة شر محبوبة . ورعلا ، يعيشون جميعاً على جريات من الخبز والأرز والعدس ، ولا يبيع بصلاجهم أحد ، ولا يوجد هذا المشتق الذي هو ولا يبيع مريضه . بها تربط انصبي السلسل بالخط ويطر الخراج لئول للحال من ذويهم . فهي (درجعت) إصلاح ذلك كله^(١)

وبما نذكر ذكره أن مصر من هدمه المستشفيات التي أنشأها الفرنسيون ، ولم يحدوا عداوة في عرس أنفسهم على طبيعتها . وتناول ما يعطى هم من دواء . بل إن (مريسون) استطاع أن يحصل عديد من المرضى في أنه وجوده بالعيد . ولم نعلم لسان عن عرس نفسه كذلك على هذا الطبيب مع ما عرف عن شدة عداوة أهل العداة بعداتهم وبغائدهم للصارمة .

ولكن ما كاد بدأ الفرنسيون إجراءات مكافحة الطاعون والمحافظة على الصحة العامة في المدن خصوصاً — كإزعاج الأهليين على نشر ماعهم وملابسهم على أسطحة سائر وفي أفئدتها حتى تقتل لتحسن حرثهم أرض ، ويظهر السارل وتنظيها ورثهم . ثم ما يترتب على ذلك من إعدام بيوت الناس لعنيتهم ، ومراقبة بعيد أفعالهم لإرشادهم واهتمامهم بصحة^(٢) . حتى عظماء كوى الأهليين وعظم موارهم من إجراءات الفرنسيين الصارمة وسخطهم عليها ، وعداوة عدا ما دعى هؤلاء يتعدون إحراءاتهم دون ملاءة بشمور الأهلي ، ويستحقون بعداتهم وتقابيد بيوتهم ، ويحطمون أمتعهم ويعرقون ملابهم ، وعرضون عليهم عرايات مائة مرهقة ، إذا امتنع أحدهم عن تسلم السلطات بوجود مريض لديه ، أو رول ضيف وقد عيه من الله بعيد ، واستطاع دخول لساخره دون أن يفحصه أعضاء المدن ، أو عصي المدة لقانونه بالمارل ، بل إن الفرنسيين ما لشوا أن تصدروا تعليمات بها يسمى إعدامه عند دون الموت ، وشددوا على الأهليين بضرورة بقدها ولا تعرضوا للعقوبات الصارمة .

ويذكر الشيخ الحمري شيئاً كثيراً مما حال القاهريين من عيب وإرهاق بسبب

يتوجه كل ضيف إلى فاعصم وعمره أشقره عما هم من له من واحفظ من تشوش ، وكل من كان عنده حبة من كبر لأحفظه مشايخ حدرات وقصص الخهاب وه غير هذا من من عاقب على ربه أشقمم وخري مشايخ احر - عاقبه كبريخ حراء لانتير وماروم أيضا من حبه هذا يدوش أو حصل في بقة نعره من عاقبه وحيرة وامن من من به يحر كبر قصاصه وب وهو الخى على نفسه بسب اعاء ، وكل من من به في حبه في غير دركته الوصه في حصه أو من من بها أفلا خلا دورا كان عاقب ذلك من رئيس وقصصه حوب و عدل في كان رحلا أو امرأة إذا رأى البت أنه مات بالسكبة أو ملك في موبه وه غير قبله منى أربع وعشرون ساعة كان حراؤه وقصاصه الموت .

(ومتممون الثانية) أنه يحرم ولزم كل صاحب حر أو وكالة أو من الذي يدخل في محله صنف أو مسافر أو قدم من ليه أو يقيم في يعرفه عنه خلا حاكم البلد ولا يحضر عن الإحصار إلا مدة أربعة وعشرون ساعة يعرفه عن مكانه الذى قدم منه وعن من قدمه وعن مدة سفره ومن أى طائفة أو صفا أو حرا أو امرأة أو عريما محصا لا بد من صاحب المكان من يسمع بين والحدود ثم الحضر من تديس والخباه وردد مع تعريف من كامل ما ذكر في من أنه دم بعد الأربعة وعشرون ساعة يظهر منه ويده وسب قدمه يكون صاحب المكان معتبرا ومددا وحاشا وموسا مع ما يث (وقد فرضت عزمه على) مع بر ورعا وأرباب الخامير ولو كان عشرين رسلا فمراة في المدة الأولى ، وأما في أرة الثانية فإن انرامة تسبب ثلاث مرات (وأخبروا هؤلاء) أن الأمر بهذه الأحكام مشقة (بينهم) بين الفرنسيين والنجيين للنجيين والبيوت واليوكائل (١) .

ولاشك في أن هذه كانت أوامر صارمة وأن الفرنسيين لم يحجموا عن تنفيذها كل شدة ، وذلك في حين أن المصريين من وأهل بلاد محمود - ما كان في استطاعتهم عداقة صلبة منهم - أن يدركوا أعراض الفرنسيين من الحد كل هذه الإجراءات وفرض عقوبات انرامة على المحليين عبيدهم وإرشادهم ، بل عد انما هو يور هذا العدل وسنة لإرضائهم الواحد من حريتهم ودخلا من حاسب « لإدارة » وسلطات الاحتلال في أحسن شئوهم (٢)

(١) الجزء ٣ ، ٧١ ، ٢٢ ، ٧٥ ، ٤١ - ٥٥

(٢) Charles-Roux. op. cit. 106

قال الشيخ الحزبي سابقاً على أوامر جديدة تشبه ما فيها وأصدرها الفرنسيون في
عصور شهر سبتمبر ١٧٩٩ ، إن أساس كانوا « شاعون » من برعائهم على « بشر
الخواص » (وشدد مر حيين) في ذلك بالفتيش والظن (معمود به جماعة) من طرف
مناخ الحارات ومع كل مهم عسكري من طرف امرسونة وامرأة أيضاً للكشف على
أما كن بساء . واستغفوه وبعصمونه وخدمته أوهمهم شامور يتحلوا كعولهم
إما يمدون ذلك ، لا علاج على ما كن أساس ومماهم ، مع أنه لم يكن شيء سوى
لتخوف من معونه وإخوانه . وقد تقدم في موقع عدة من هذا الكتاب كيف
اشتهد بهر بهر بن علي وجه الخصوص عندما اشتد وطءه وبه انطاعون إن كان حصار
منهم في وحر أيام الحملة (فبراير ١٨٠١) واضطر ليلجأ إلى غدد احرامات
صارمة في سبيل مكافئته .

وكان من يومئذ إلى الحزبي ، من أحد المحافضة على نسخة العامة
في القاهرة وما كانه انوبه . منهم ضرور برعون الأهالي على كدس الشوارع والحارات
والدروب ورسي . ويعنون عموماً صارمة على كل من يعصر في ذلك . وقد شكوا
الفرنسيون عند دخولهم القاهرة أن شوارعها كانت صعبة فصره وتبعث منها الزواج
نعمه سكرهم . لونه اكنه الأقدار ، شوارع لدرجة أن لائنم السارم ، من
الارلاق في أوجالها لم يكن اسب في ذلك على خلاف ما اعتقد كثيرون منهم أن
الفريريين كانوا لا يحسون بعدد شوارعهم ويوسهم ، وإنما كان سب تراكم هذه الأقدار
أن القاهرةيين شعلوا عن الصاية بكس الشوارع ورشها عما كان في نظره أهم من ذلك
وأولى بعينهم ، عندما رحف بوابت وحيشه على عاصمة بلادهم ، وبث على مسافة
قريبة من القاهرة ، وتحد الكواكبر ، راسهم ومراد واناعهم العدة لمصلحة العدو ودحره ،
ويعطرب جموع الفلاحين وأهل القرى والسكان المجاوره على العاصمة ليشتركوا مع
أهلهما في الدفاع عنها ، ودأب لفريريين الحزوب في الخروج كل صباح إلى بولاق حيث كان
إراهم مشاة عسكر بحيشه ، فلا يمدون إلى يومهم إلا بعد انقضاء النهار ودخول
الليل وهم في تعب وإعياء شديدين ، ولم يكن لدى لقوم متنوع من الوقت لكس
الشوارع ورشها أو حتى لمساءة سوسهم ، فعدت الأسواق مبعرة وبطرق مبعرة من
عدم الكس والرش .

ووصف الشيخ الحزبي حال القاهرة قبل الموقعة الحاسمة في رسالة فقال « ومحصل

الأمر أن جميع من نضر من الرمن يحول إلى بولاق وأقربها من حين صب
إبراهيم لك امرئى هذا إلى وقت الحربه سوى اعدى من الناس الذى لا يحول لهم
مكناً ولا مأوى فيرجعون إلى ديارهم يتوفى بها ثم يحولون إلى بولاق؛ وأرسل
إبراهيم لك إلى الذين المحبوسين مصر ورسم لهم أن يكونوا في القعدة الواحى شرا
وما والاها وكذلك اجمع . ثم أراد لك انكثرت من حرب البحيرة والجيرة والصحراء
والبحيرة والعدلى ولأولادى وطردى وسيرهم إلى كل يوم يرد الجمع ويظلم
اهول وصدق الخاف بقرا من مصلون قومه وماتوا . وظل الأتراك
واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد (١) .

وعاصمة هذه حالها كان نضر من أمه . وبعددهم الخطوب ووضع مصرهم
في ايران أن غدوا مسمماً من اوقاف لتصف الشوارع وكسوها ولا تحب إذا وجد
لعمريون عند دخولهم القاهرة أن شوارعها كانت قد رده . وفي حاحه مدحة للكس
والرش . ومع أنه كان من انتظار عند اسرار الأمور أن يمد الله هرون إلى
تطيف عامهم . بعد جعل الحكام اعداد الأمر حوق من تشر الأمراض ولاشك .
ورعاية مهم في المحافظة على سلامة حدودهم ورحمهم فتصدروا أوامرهم بتشدده
صروره كس شوارع ورشها . وطلب من كل مربي كل يوم . وكان من الطبع
أن يهر القاهريون من هذه الأوامر . وقد ذكرنا في عدة سوى رعاة هؤلاء الحكام
الحدود في التدخل في شؤونهم . وما تطهر الأمر من قوة وسلطان . معونهما الحد
من حريات الأفراد الشخصية . أو أنهم كانوا يصرون أعراضاً حمة . فتدمروا من
هد الإزعاج (٢) . وقد طلب « مشكلة الكس والرش » فأنه إلى وقت رحيل
لعمريين من القاهرة . حتى إذا دحبتها العيون واليكوات . أهل القاهريون على
تطيف شوارع القاهرة « وحصل لاسد . وبدل من جهودهم » ودمروا فرصة
الاحتمال بالولد أنسوى الثرى . على شوما قدما « رسوا حواييم الشقة
والحرر وارردحان والمفصل المدة (٣) » وما كانوا يملكون شيئاً من ذلك أيام
الاحتلال الفرنسي .

وكما تدمر القاهريون من أوامر الكس والرش . بعد اشد سحقهم عندما

(١) Galand 82 : ٣ : ٦ — ٢

(٢) Charles-Roux. op. cit. 105 — 6

(٣) الحربى ٣ : ٢٠١

وَرَمَحَهُمْ بِأَمْرِ سَوِيٍّ كَسَلَتْ عَلَى إِصْبَاهِ شَوَارِعَ وَالْخَارَابِ وَالْأَسْوَاقِ بِالْقَصَادِينَ .
وَوَضَعُوا لِقَوَائِمَ عَلَى مَقْصُورٍ فِي ذَلِكَ « هَدَوْا بَوَاقِي الْقَصَادِينَ بِسَهَرِيٍّ بِالطَّرِيقِ
وَالْأَسْوَاقِ » (١) وَجَعَلُوا عَلَى كُلِّ دَارٍ وَدَلِيلَ وَعَلَى كُلِّ ثَلَاثَةِ دُكَّانٍ
دَلِيلَ (٢) . ثُمَّ مَالَتْهُنَّ « هَدَوْا » صَدَقَ الدَّلِيلُ لَقِي بَوَاقِي فِي اللَّيْلِ عَلَى السُّبُورِ
وَالدُّكَّانِ وَكَانَ يَوْمَهُوَ عَوَسًا فِي وَسْطِ نَظَرِيٍّ مَجْمُوعٍ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ رَجَعَ دَلِيلٌ ، بَيْنَ
كُلِّ مَجْمَعٍ الْاُنْثَى دَرَاةً وَبَعْدَ ذَلِكَ الْأَسْبَابُ دُونَ مَقْرَأٍ وَلَا عِلَاقَةٍ لِلْقَائِمَاتِ
(وَهُنَّ حُكَّامُ الْأَحْصَاءِ) فِي ذَلِكَ مَقْرَعٍ بِذَلِكَ مَقْرَأٍ أَسَاسٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ هَمَّ هَمِّ
الْمَكْرَمَةِ (٣) . وَكَانَ بِرِغَابِهِمْ عَلَى إِصْبَاهِ هَمِّ الْقَصَادِينَ « كَرَمَهُ » حَقِيقَةً ، ذَلِكَ
أَنْ لِحُرَّاسٍ كَانُوا ظُفُوفٍ فِي شِمَالِهِ لَدُنْ الْمَلَايِكَةِ الْقَصَادِينَ الْمُنْعَبَةِ عَلَى السُّبُورِ ، فَبَدَا
وَجَدُوا أَنَّ رَجَعَ فِي ذَلِكَ ، وَفَرَّغَ الْبَوَاقِي مَقْرَأً ، طَرَفُوا أَبْوَابَ بَيْتِ أَصْحَابِهَا
فِي أَيِّ وَفَدٍ مِنَ الدُّنْيَا وَخَرَجُوا مِنْ فَرَانِهَا بِإِصْبَاهِ مِنْ حُدُودِهَا وَقَدْ بَحِثَ ذَلِكَ
كَثْرًا مِنْ مَرَّةٍ عَالِمًا سَبَبَ انْقِرَاضِهَا شَدِيدًا .

وَلَمْ يَكُنْ وَكَثُرَ فِي بَدْوِيٍّ الْقَصَادِينَ وَبَشَدِهِمْ عَلَى وَفَدِ الْقَصَادِينَ بِالْأَرْفَةِ وَهُمْ
(بَيْنَ الْقَصَادِينَ) مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَبَدَا مَرُورُ الدَّلِيلِ وَوَجَدُوا دَلِيلًا لِقَطْعِ الْمَوَاقِفِ أَوْ
فَرَّغَ رَجَعَ بِمَرُورِ الدَّلِيلِ وَبَدَا مَرُورُ الدَّلِيلِ وَوَجَدُوا دَلِيلًا لِقَطْعِ الْمَوَاقِفِ أَوْ
صَاحِبِهَا عَلَى مَا أَحْدَثَهُ مِنْ بَدْوِيٍّ وَرَجَعَ مَدَّو كَرَمَ الْقَصَادِينَ لِأَحَدٍ ذَلِكَ ، وَتَعَقَّى أَنْ
أَبْطَرُ شَعْبًا عَدَدَهُ قَبْلَ ذَلِكَ - وَفِي أَمْرِ الْخَبِيرِ بِسَبَبِ كَوْنِهَا فِي ظُرُوفٍ مِنَ الْبُورِ
وَالْخَبِيرِ فَاسَّ لَوْرٍ وَسَالَتْ لَدُنْ قَطْعِ الْقَصَادِينَ بِمَرُورِ حَوَائِبِ السُّبُورِ وَأَصْبَحَ
أَهْلُهَا مَدَّو لِحَوَائِبِهَا وَوَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي طَرَفِهَا مَدَّةٌ لِحَمْعِهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَمَلَةٌ مِنَ
الدَّارِ وَبَدَا ذَلِكَ حَقٌّ فِي الْأَرْفَةِ وَاعْطَافٍ لِعَبْرِ لَدُنْهَا حَقٌّ كَانَتْ أَنْسَاسٌ لَيْسَ لَهَا شَعْلٌ
بِالْقَصَادِينَ وَتَعَدَّ حَالُهَا وَحَصْرُهَا فِي لَيْلِ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ (٤) . وَكَانَ لَعَرٍ مِنْ
إِرْغَامِ الْقَاهِرِينَ عَلَى إِصْبَاهِ شَوَارِعَ مَدِينِهِمْ حَرَصَ الْمَرْسِيِّينَ عَلَى سَلَامَةِ حُدُودِهِمْ
الَّذِينَ مَدَّو لِحَرِّهِمْ فِي لَيْلِهِ ، فَلَا أَمْسَ عَلَى عَصَا مِنْ لَاعْدَاءِ فِي شَوَارِعِ الْمَاهِرَةِ
الْمُظَلَّةِ عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى مَعْسُكِهِ (٥) .

(١) عِبْرَتِي ٣ ، ٢٠

(٢) عِبْرَتِي ٣ ، ٤٣

(٣) عِبْرَتِي ٣ ، ٤

(٤) Charles-Roux, op. cit. 106

وكان من أثر حرص المصريين على سلامة حدودهم من جهة ، ثم خوفهم من مصر
من أن يفتح المصريون على الثورة صدمهم ، وبخاصة بعد حوادث ثورتهم الأولى في
١٧٩٨ كنوزهم تصروا على هدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه
الأبواب مصنوعة من الخشب ثقيل ، وفي بعض الأماكن من الحديد ، وكانوا
في داخل أحيائهم بعد حدوث ثورة وتثوب الثورة ، وأن يهرقوا عمل الحراس
والشرطة في الأوقات العادية ، وتقوم من جهة واحدة معهم ؛ ومع أن الفرنسيين
بعد دخولهم القاهرة كانوا قد تمروا بإزالة هذه الأبواب وهذه هي «الفتحات»
هذه ، طبع عديد من «الصلوات» و«الشواهد» هذه ، وبمدينتي «المنيا»
«المرسى» و«المنيا» ، نحو إدارات وقت الثورة ، شط المصريين في إزالة
الأبواب التي ركب ، وبخاصة أبواب الدروب في الحارة ، فقلعوه وقلعوه في
الجمهورية ، في وقت ذلك ، ثم كبروا حربه ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا
على العرب ، إلى حيث أنهم في «الحي» و«الحارة» ، «الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ،
وكذلك ماها من الحديد وغيره (١) . فأرجع هذا العمل القاهر في إزعاجها شديدا .
وكان قد ضرب إلى جانب هذه «الفتحات» من رحوطهم المهرم من
أبواب الحارات والدروب — عن أغراض الفرنجيين من هدم هذه الأبواب التي شعر
المصريون أن في وجودها باعثا على الطمأنينة ، والهدوء ، فصار مما أشيع وقتئذ أن
الفرنسيين يهدمون ذلك «الحي» ، هو «الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا
وكان مما أثار غضبهم أن الفرنسيين عمدوا كذلك إلى جمع ما كان معهم من أسلحة
عندوا الاحتياط بها ، لا سيما في «الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا
من العرب من «الحي» ، هو «الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا
وعندئذ ، دور أن يكون «الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا

وحدثت هذه الاضطرابات في «الحي» ، و«الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا
في صدورهم سارا «تور» (Coarde) ، و«الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا
الذي وصف هذه الواقعة فقال ، في يوم ٣٠ ربيع الأول ١٢١٣ (وكان مستعمر
١٧٩٨) : «طلب حامي عسكري من «الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا
من الحرس ورجع وهذه طلبة «الحي» ، فاضلوا حشدها ودمروها ، فاضلوا

وأحرر وكفى فوضع بها واحد على كسب لشمس تشرفوى فرمى به إلى الأرض
 واستعفى وبغير مراعاة وامتنع بوجه واحد تنفعه ، فقد لرحمن يامتنع أنهم صرهم
 أحياناً لصارى عسكر ، وهو قصد عظمك وتشريفك بوجهه وعلامه ، ومن ثمم بذلك
 عظمك العساكر وأساس وحسن لك مبرله في قلوبهم ، ولولا له لكن ودرنا اصبح عند
 الله وعند احوال من الامم ، فبما ذلك ونكته به . ولما عنه بعض ترجمين
 أنه قد عن شمس اسرفوى إلى الاصبح للبر به ونحو ذلك ، فلامه بنية الخلة
 وسبقه من ذلك قصد به كن ذلك وللام وجهك لحوكار في مدوركم وهي للامه
 اني دلها للورده ، ولولا لميلو ، حتى في ذلك واتهم على نبي بشر وما
 وفي ذلك الوقت حصر اشبح بسدت به مداه قصد دهم مصرين فما استقر به
 اخوان نيل له وصاحبه صرى عسكر ولاطفه في لغون لدى مره ابرحان وأهدى
 له حاتم أساس وكافه احوال في اعد به وحصر له حوكار وثمة مراخته فسكت
 وساربه وقدم وانصرف ، فله طرح من مداه رفته ، على أن ذلك لا عمل الله (١)

وعلى رغم ما بدا من بذر المنيح وسجته ، وهم عادة ونحبت لرأى بين
 المصريين ، فقد عمد احكام العرب وور في مد والدرب إلى استخدام نفوه لإرغام
 الأهل على حمل هذه اشره كما أنهم مدوا أن رفوا على العربى ثلث الألوان
 على مآذن احوال في انه هرب ولذا به وعلى لأريج واعلاء وعلى نار كك واخروم
 اني به في ليس فبا شدة السخط به . فربما من بوجود ذلك التدمر الذي
 سبه على الخصوص منهم في إخراجهم وسفهمه به ، وحذوا من التجرار وكان
 اعصب ، حبب اشده في ضروره من هذه شدة روبا رويداً ، حتى صدر الأمر
 أخيراً بجه خطابه بعمها ، وأرب الألام من به صادر وطب الرأية بالأمه الألوان
 برور فقط على دور الحكومة وسام الزمره ، ومن عذرت ذلك بلا عذوب
 لفرسه ، وأعد أن صررب كل ذلك القوم . وكانت مسألة « الخوكار » من
 بينها — التي أفضت إلى محريك الثورة في القاهرة .

وكان من سبب التدمر والسخط أن طوائف لأروم وانصري وشواه واسهود
 كانوا قد اسهروا فرسه بحى ، فمسيبى إلى هذه البلاد فرادو أن يقصوا على كل

السكون والراحة أو يطمشوا، إلى أقصى سلام في بعيد تلك الثغروعات التي أرادوا بها تحقيق هدف حملهم الأول وهو إنشاء « مسعمرهم الخيئة » .

ولقد أكد كثيرون من رجال الحملة أن المصريين رحسوا ببنو بارت واطمأنوا إليه ، وكان دليلهم على ذلك أنهم ما دخلوا القاهرة حتى اسرى عين من الأعيان يرحب بمقدمهم ، ويهدي يوباءرت قصدة طويلة من ثلاثين بيتاً ، يتفق فيها بقضائله ويشيد بذكر مناقبه . كما أن كبار انصاء واشيوخ أسواهم وأولواهم الولائم ، كما فعل الشيخ المهدي عندما أقام عرساً رواج أحد أولاده ، وفعل غيره في كل تلك المناسبات التي سبق ذكرها ؛ كما لقي بوسلج « مدير الحدود » أو « البروراعى » ، ودوج « وكيل سارى عسكر » ، كل معاملة حميلة عندما أحداً يكثران من زياره المشايخ والأعيان في بيوتهم ، وسدلان كل ما وسعهما من جهد وحملة لاستماله الشجع الساذج والشيخ المهدي وأعصاء الديوان والشيخ أحمد المحروفي كبر العذر^(١) ؛ ثم دافع في أنحاء القاهرة خير (رؤيا) غربية في صالح الفرنسيين ولهم أركان دولتهم ، وكان ذلك عقب دخولهم القاهرة واستقرارهم بها ، وفصلاً عن ذلك فقد توجه بونارت وصحبه أن السب في حذب قلوب المصريين اساع ملك السياسة الإسلامية الوحيدة التي وضع أصولها .

على أن هذا الاعتقاد لم يكن في واقع الأمر إلا صرخاً من الأوهام والخيالات التي سيطرت على عقول بعض رجال الحملة ، وتعاونت في أحيان كثيرة على إفساد خطط رؤساء الحملة وفوادها ، ذلك أن تلك القصيدة « انصعاء » التي رخصتها صاحبها بقدم الفرنسيين ، وانصار بونارت على الكوات المليك في معركة الأهرام أو امانة المشهورة ، لم تكن من صنع أحد المصريين أو أدباء القاهريين ، بل كان صاحبها العلم نقولا اندكي ، من أسرة نشأت في اسكندرية ، ولد في بيروت أو دير القمر ، والتحق بحملة الأمير شير اشباهي ، ثم حصر إلى مصر وشهد وقائع الحملة ، وكسب قصده في مدح بونارت والحيش الفرنسي ، والإشادة بذكر انتصارات امانة ؛ وقد مهد لهذه القصيدة بالعباره الآتية . « ماظم هذه القصيدة نقولا الترك ولد يوسف الترك ، اسكندرية الأصل ، وذلك في مدينة مصر المحروسة ، عاصراً لها مشيخة فرنسا وشجاعة عربها أمير الجيوش الأمير بونار » ، في اصطلاح سنة ١٢١٣ هـ ومطلعها .

فه عصر قد زها فلك السعادة فيه دار

وجمال كراك دولة ۱۱ جيش المرساوى أمار
ياحبها من دولة بالافتخار لها اشتهار
مقدمها ذو سطوة وتهدى للنوك له الوقار
الشهم بوابرة أسد الوعاء ذو الاقتدار

وقد احتتم نقولا التركى هذه القصيدة بيت من الشعر ، أشار فيه إلى واقعة
الأهرام ، ثم « أرح » لهذه الواقعة التى انتصر فيها بوابرت فى يوم السبت ٧ صفر
١٢٩٣ (٢١ يوليو ١٧٩٨) فقال :

ويوم سبت فيه قد أرخت تم الانتصار (١)

١٢٩٣

أما المصريون - وقد ذكر الشيخ الحفرى عددًا من أدبائهم وعلمائهم الذين قرضوا
الشعر - كالشيخ حسن لطاف ، ويدعون أنه كان أحودهم ومن أعلام أدبه عصره ،
والشيخ حبيب المير ، والشيخ محمد الأمير ، واليد على الصيرى الرشيدى الذى استقر
به المقام فى عكا ، فإن أحدًا منهم لم يظم شعراً أو يكتب شراً - فى مدح بوابرت
والعربيين ، بل على العكس من ذلك فهكم الشيخ حسن المطار بالعربيين وسخر من
عادتهم ، واطمأنهم على حب اللهو واللغو ، فقال ،

إن العربيين قد صاعب دراهمهم فى مصر ، بين حشائر وحار
وعن قرب لهم فى الشام مهلكة يصيح لهم فيها آحاد أعمار
ويشير الشيخ فى البيت الأخير إلى حملة الشام التى اعترم بوابرت وقتل الخروج
فها ، وكان نصيبه الاندحار والمهزلة تحت أسوار عكا

وقد وصف السيد على الصيرى الرشيدى « ريل عكا » هذا الحادث فقال

وأرام قبيحهم حسن قصد نحو عكا ذات السعود البادي
لأستعدوا لها بآلات حرب ورحان كثيرة كالجراد

ومها :

حاصروها وشددوا فى حصار واستمدوا بكل نوع مراد

ثم دارت رحى الحروب لديها بضروب مدامة التردد

إلى آخر ذلك ، وهى قصيدة طويلة . وأما الشيخ خليل المير ، فقد رثا « الأمير

أيوب بك القنطرة ، وهو من محاليك محمد بك . وكان قد اشترى في واحة الأهرام
ولم ينسج مراد بك الذي يحسنه ، فذلك وهو يقابل الفرنسيين . قال الشيخ حسني
لم يره منهم سوى أيوب من ألم محاسن داه حصم قادم حتى
نست له من حسان الحور قائمة إركس رحلت للحيرات واسبق
وارك مراد إلى الديار ولم أنا الحياه قبل الروح وانتق
ومها :

مضى شهيداً وحيداً طاهراً سمحاً معلاً بدم الشهداء لا عرق^(١)

ول كان عزم بوارث من إثناء الديوان . الاستعانة بأعضائه على دعم أركان
مستعمرته الجديدة ، ولم تقابل أفعاله ، فواله وادعائه اسكتيرة ، أو تلك « التوسعات »
على حد قول الشيخ الحري — ، فقد أحقق بوارث وقواده في حلب مودة
المشايخ الذين اكتبوا « مداراه » الفرنسيين ومحارهم دوماً بالأذى والشر ، وم
يطعنوا إليهم ، ناهيك بامداحهم والإشادة بذكر مفاهم : فم يكن وسئل أحمد
واشكر التي طلب إليهم في الديوان أن يكتبوا إلى بوارث أو إلى الحريال مو
خصوصاً لا مظهر من مظاهر هذه « المداراه » ، ولا يهين دليلاً على ودعم لمدن
القائدين ، أو أنهم كانوا يعتقدون الخير في هؤلاء الأحماد الذين مكثوا بالدم
أن بعض مؤرخي الحملة من الفرنسيين في أيامها هذه قد بدوا قصارى جهدهم . بيان
أن بوارث إنما كان هدف من إثناء الديوان . ونسب أعضائه من بين المصريين إلى
إقامة إدارة وطنية بجهة في البلاد ، وذلك باستعداد المصير لغشي وشغل لوظائف المهمة
المصريين حسب ، ويدكرون دليلاً على ذلك إلى جانب احسار مشايخ مصريين أعضاء
الديوان أن بوارث عهد بمصعب قاضي اسلاذ إلى الشيخ أحمد العربي بدلاً من القاضي
التماني^(٢) ، فإن تلك ولا شك دعوى كبيرة . ولا مصل إلى تأييدها لأصحاب عدة ،
مها أن بوارث صم إلى ديوانه الأول — قبل ثورة القاهرة المعروفة في أكتوبر —
مرأ من الثائمين كان من بينهم القاضي التركي مصه ؛ ثم ثلاثة من الأوروبيين هم :
ولمار Wdmar ، وكان طبيباً سويدياً ، وكاف Gaffe ونوديف Baudent وكانا من
بحار مرسيليا ويمثلون جميعاً حلبة الإفراج هذه البلاد ، وبعد أعيد تنظيم الديوان
بعد الثورة ، كان من بين أعضاء الديوان الخصوصي أو اللبجوي على نحو ما يذكر

(١) الجري ٣ : ٤٥ ، ٦٩ ، ٧٢

(٢) Henry d'Estre 329 — 31

الشيخ الجعفي ، « من الشوام يوسف قرحات ، ومحميل كليل ، ورواحة الإسكيري ،
وبودي ، وموسى كافر المرساوى » ، عدا الوكلاء والمائشرين « من الفرنسيين »
والترحيين^(١) ولعل ررواحة الإغليري وودنى وموسى كافر المرساوى هم أولئك
الذين كانوا يمثلون حالة (الإفرنج) فى الديوان السابق ولما : وكافه ، وبوديم .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان سبب اعتماد القاصى العثمانى ، خروجه من مصر إلى
الشام ، وإصراره على عدم العودة إلى مصر مادام الفرنسيون بها ، وقد انتقم بومارت
من القاصى بأن قس على أمه (ملا راده) ، ولم يحرجه من الحبس إلا بعد أن أثار
بعله هذا غضبا شديدا . وكثر توسط الشايخ لديه فى أمر الإفراج عنه ، ومع أن
بومارت عهد ساعته فقط إلى الادعاء بأنه حاصد من عزل القاصى وحسن أمه
إلا اختيار أحد الشيوخ الطماء للصربى ومن لولودين فى أرض مصر حتى « يتولى
القضاء وينص بالأحكام الشرعية كما (كان) الملك المصرية بولون القضاة رأى العلماء
للعلماء » فإن هذا القول لم يضع أحداً من الشايخ ، وألحوا فى ضرورة الإفراج عن
« ملا راده » القاصى المصكر » لأنه ما كان يصح أن يؤخذ الآن بحرية أمه ، بل
قال الشيخ السادات : « وأيضاً إنكم تقولون دائماً إن المرساوية أحباب العثمانية
وهذا من القاصى من طرف العثماني ، فهذا القول مما يسيء الوطن المرساوية ويكذب
قولهم وخصوصاً عند العامة » . فشرط بومارت للإفراج عنه أن يختار الشايخ قاصياً
منهم ؟ واختاروا الشيخ أحمد العريشى .

و٤٠ بدل على أن « تمسك » الإدارة وحملها « وطنية » بحجة لم يدر فى حلد
بومارت — أنه ما من الإفراج عن ابن القاصى العثمانى حتى أذاع بومارت « أوراقا » —
أو منشورات على الأهلين ، حاول أن يبرر فيها فعلته بصورة لا تدع مجالاً للشك
فى الأسباب الحقيقية التى حطته بخنار (قاصيا مصرياً) بدلا من القاصى العثمانى ؟ فقال
« إن القاصى لم أعزله وإنما هو هرب من إقليم مصر وترك أهله وأولاده وحان
محمدا من العروى والإحسان الذى ضلناه معه . وكنت استعجبت أن أمه يكون
عوصا عنه فى محل الحكم فى مدة عيته وبحكم بدله . ولم يكن أبوه قاصياً متولياً
للأحكام على الدوام لأنه صغير السن ليس هو أهلاً للقضاء . فلملم أن محل حكم الشريعة
حال الآن من فاس شرعى بحكم بالشريعة ، واعدوا أنى لا أحب مصر حالة من حاكم

شرعى بحكم بين المؤسسين فاستحصت أن يجمع علماء المذاهب ويختاروا بانعاقهم قصداً شرعياً من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع حيدل المؤمنين . » (١)

ولمذ كان قيام الفاهريين ثوراتهم المعروفة من أكر الأدلة على فشل هذه السياسة الإسلامية الوطنية ؛ وقد عرا السكتاب الفرنسيون الذين امتدحوها ذلك الفشل إلى « نعب » المصريين ، وعجزم عن إدراك نوابا بومارت ، وما كانت تطوى عليه سياسته « المصرية » على رعمهم من وائد حمة ؛ كما أنهم عاوا على بومارت وقواده أنهم أحققوا في « عدم فهم » نصية تلك الشعوب الإسلامية التي تسلموا رماها (٢) . ولا حمال في أن « عدم الفهم » هذا كان من أكر الأسباب في فشل النحرمة الاستعمارية في هذه البلاد ، على نحو ما سبق بيانه في مواضع عدة .

المقاومة في القاهرة والأقاليم :

ومع ذلك فإن أحداً من رجال الحملة ما كان يعطن إلى حقيقة تلك الأسباب العميقة التي قضت على نحرهم الاستعمارية في النهاية ، بل اكتفى هؤلاء بأن صاروا يحدون الأمور نظواهرها وعلى علاها ، فذرموا أن منشوراتهم التي أداعوها في طول البلاد وعرضا عذبهم ، يحدون المصريين نحرهم من ير السكوات المايليك ، وعمومهم بإقامة نوع من الحكومة العادلة تهتدى هدى القرآن الكريم وتترشد تعاليمه — كانت كابية لاسيلة امصريين إلى تأييدهم ، حتى إذا « فوجئوا » بالثورة في القاهرة ، ثم تكرر نشوبها ؛ وظلت المقاومة في الأقاليم شديدة قاسية ، صاروا يتصون لفشلهم أسبابا ومعايير عدة ، أهمها في نظرم استياء المصريين من إدارتهم المالية ، ثم نقصهم واستعصامهم لحريضات السلطان العثماني والسكوات المايليك . واسترشد الفرنسيون في سياهم « العمدة » عو هؤلاء المصريين النائرس عليهم عداً واحد ، أحد به بومارت وأخذ به قواده وحكام الأقاليم ، هو أن « القوة » وحدها وما يترتب على استخدامها من أعمال البطش والقوة كميئة برزع المصريين ورجزم ، والقضاء على ثوراتهم وقلالهم .

ثم استنم الفرنسيون معاشين إلى أن الحاج لاعالة نصيم ، عدا ما فشى الاعتقاد بينهم بأن المصريين ، وهم الذين درخوا على الإيعان بأحكام القضاء والقدر ، والتسليم

(١) الجزء ٣ : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧٥ — ٧٧

(٢) Henry D'Estre 231

نكل ما هو « مكتوب » على الخيل ، سوف يرسون في رضى الله به و حاربه لهم ،
 « وكنه » القدر عليهم . فكان من أثر ذلك كله أنهم بدأوا محرتهم لاستعديده في
 هذه البلاد ، وهم يصدعون كل ما يذهبهم من ترهات تنمى وما وطموا النفس على أصدقائه ،
 ثم انتهى الأمر بهم إلى الصب بالمصريين . والافصاص منهم قنصاصاً صارماً قاصياً ،
 عندما نبيل لهم حظاً رعمهم وقادوا من عصبهم . أما آيه هذه « انهله » فهي أنه ما حل
 ركاسهم بهذه البلاد حتى يدرؤا تصديق ما سمعهم عن « رؤى » داع حبرها - على حد
 قول مؤرخهم - بين المصريين الذين « رخوا » بقومهم ، ومدارها أن أحد أولياء
 الله رأى فيها رأى في مائه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتجاذب أطراف الحديث مع
 « القدر » ، عندما شهد عمره الفرسيين بفرت من الشواطئ المصرية ، فشرع
 رسول الله يقول له « أنها القدر الحاحد ، كيف تات لك - وقد جعلك المنصرف
 اطلاق في شئونهم قاطبة - أن تعطى أحمل البلاد التي عملت فيها شريعتي واعتقوا
 لإسلام ديناً ؟ » فأجاب القدر : لقد كتب ذلك من الأرض ولا مناس من حديثه ،
 فالفرسيون سوف يرسون إلى هذه البلاد ، وسوف يصحونها ويصدر على أن أسمع
 ذلك ، ولكن لا تنسى يا محمد ، فقد شاء انصاء أن حقيق هؤلاء الفرسيون الإسلام »
 ثم أم صاحب الرؤيا قصته فقال : إن الرسول مدعهم بعد ذلك أن رك « القدر » وهو
 قريش العيني حذلان معاجن^(١) .

قد يكون صاحب هذه « الرؤيا » صادقاً في رؤياه ، وقد يكون ناقها صادقاً في
 روايته ، ومع ذلك فإن شيوخ اخرى وقد ربح تاريخه بأمثال هذا القصة وهذه
 الوقوع ، لم تذكر شيئاً من ذلك . ومهما كان من شوء ، فيه سرعان ما احتفت قصة
 هذه الرؤيا ، وصنع أثرها . إن كانت قد أحدثت أثراً اللهم إلا في أذهان الفرسيين
 لإشباع حائلهم لحسب - عندما فوجئ هؤلاء بأئمة المساجد ، يلحأون في حطهم إلى
 صرب الأمتان محعون في حياتها دعوتهم إلى الثورة ضد الفرسيين ، وخرصون
 القاهرةيين عبيد ، بل وبعض المؤدبون من فوق انكادن الدعوة إلى « الجهاد » ،
 وإنشائها حراً دينية مقدسة ضد هؤلاء الكفار الظالمين . واجتمع طائفة من المشايخ
 والعلماء يدرون في الجامع الأزهر أمر هذه الفسة ، فكانت ثورة القاهرة الأولى
 (٢١ - ٢٣ أكتوبر ١٧٩٨)^(٢) . وما كان هناك ما يدعو إلى أن يؤخذ الفرسيون

Galland I 99 — 100 (١)

Reybaud IV 152 — 4 : ibid 100, 191 (٢)

على عره لو أنهم نحرروا من عيولهم ، وهم الذين اضطروا قبل ان يفتحوا ركاب الثورة إلى التنبه « على العامة ترك العصول والكلام في أمور الدولة » ، ولمسوا شيئاً من حقيقة رحيب القاهريين بهم وسرورهم عقدهم ، عندما صار هؤلاء كما سبق لقول — لا يزالون ، بإظهار شماتتهم بخروج المصريين ، وبهراؤن بهم ، حتى شدد كبرهم في صروره مع ذلك ، وطاف المادون في شوارع القاهرة وأرقبها يحدرون الأهالي من السحرة هؤلاء « المرحوحين أو المهريين ، والتصديق عليهم كما هي عادتهم (١) »

وأفاق الفرنسيون من عملهم بعد حدث هذه الثورة ، وذهبت مد ذلك الحين كل ثمة من موسم ، وسادت علاقتهم بالمصريين لدرجة تصدده ، حتى بات مقتضياً بعد ذلك على كل أمل في إمكان التعاون بينهم وبين أهل البلاد ، وأمرى كثيرون من الكتاب محوون بالانقطة على المصريين بسبب ما طرأ على سياستهم وأسايلهم من أمير ، صعبها الصفة القسوة والصرامة ؛ كأنما كان مرد ما سبب من ثورة لاحقة في القاهرة ، ثم ما كان يحدث من صروب المقاومة في طول البلاد وعرضها ، إلى هذا التعبير الطاريء في سياستهم غلب . في حين أن سبب كل هذه الاضطرابات واثورات لم يكن سوى تصميم المصريين على مناصبة العداء هؤلاء المرءاء الذين حاولوا يملكون بلادهم . ولم تملح قسوة المصريين وصرامهم في ردع القاهريين أو كبت شعورهم ، بل طلوا يتربصون بهم الدوائر ، وسعحت الفرصة عندما اضطروا بارت إلى الوقوف أمام أسوار عكا ، مد أن أحرر انتصارات عدة سريعة بعد خروجه من القاهرة ، إلى بدء حصار عكا ، وبلغ القاهريين ما صار يصادفه بوارت وجوده من مشقة ، وينكبدونه من حصار تحت أسوارها البنية

وكان مما يحجب له الفرنسيون دائماً أن المصريين كانوا في أحايين كثيرة أسبق منهم إلى معرفة الأحبار الصليبية ، ولا سبيل إلى إحقاق شيء عنهم مما جرى أو رعب الفرنسيون في عدم إداعته وإفشائه (٢) ؛ فكثير حديث الناس في أمر هذه الحملة الشامية ، وصاروا لا يزالون بإظهار شماتتهم بأعدائهم ، وناقلاً أحبار ما حققه الفرنسيين من فشل أمام عكا ، وما أيداه أحمد باشا الجزار من بطولة عظيمة في الدفاع عنها ، حتى إن السلطات الحكومية في القاهرة ما لبثت أن عمدت إلى تحدير القاهريين من الخوض في هذه الموضوعات ، وتهديدهم بإزال العقوبات الصارمة بهم . « فشق جماعة

(١) الجرقى ٣ : ٢٩

(٢) Galland II 238 - 9

من أسع الشرطة (يوم ١٥ شوال ١٢١٣ ، ٢٢ مارس ١٧٩٩) في الأسواق والحمامات ،
واقفاوى ، وسهوا على الناس ترك انفسول واسكلام واللعط في حق الفرنسيين ،
ويقولون لهم من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فدينه وديننا ، وينتد اسكلام في ذلك ،
فمن ذلك ما يـجـ اعداوه . وعرفوهم انه إن بلغ الحاكم من المتحمسين عن أحد تكلم
في ذلك عوقب أو قتل . وث الفرنسيون العيون والأرصاد ، وأرشد حواسيسهم
إلى عدد من العاهريين الذين استمروا غوصون في حق الفرنسيين ، فعاقبهم
« بالصرب والنعرم » . ومع ذلك فقد طن القاهرة يحدون ما طاب لهم احدث ،
وسيطون ما شاءوا أن يسطوا « في حق الفرنسيين » ولم يهوا (١) »

وعندما انقطع أحرار نوادرت وحده بواجبين على حصار عكا ، راد كلام القاهرةيين
« وأكثر (الناس) من اللعط » وكانت قد بطارت الإشاعات كذلك عن انتصار
الشيخ الكيلاني ومجاهدى الحصار ، الذين ركوا البحر مع جماعة من يـسـع إلى
البحر ، فلجهد ضد الفرنسيين والاصنام إلى الكوات اريك في الصعيد . وكان
الشيخ الكيلاني مغربا محاورا منك ومبدعة واظائف ، امر إلى اخذ مع حوالى
السبائة من العرب « لصبره الحق والدين » وطرد الفرنسيين من مصر

فلما كثر لطم الناس في ذلك كله جمع الفرنسيون الدواول في أوائل مايو ١٧٩٩ ،
وقرأوا عليهم (طومارا) « وطعموا منه عدة نسخ (وألقوها) بالأسواق على
السدة » يؤكدون فيها اهرام الشيخ الكيلاني من جهة ، وأهم سوف يقتحون
أسوار عكا في اقرب الفاحل من جهة أخرى ، ويأثرون « ارباعا من أهل مصر
والأرياف أن يرموا الأدب والإصاف وتركوا الكذب والخرافة من كلام الخشيشين
وقع الضرور للناس المعترس . فأنهم يا أهل مصر وما أهل الأرياف اركوا الأمور
التي توقعكم في الهلاك واللعط وأمسكوا أدم قل أن يحل لكم الدمار ويحكمكم ادم
والعار ، والأولى للعامل اشتغاله بأمر دينه ودياره ، وأن ترك الكذب وأن يـم
لأحكام الله وقضاه . فإن العاقل يقرأ الموايب وعلى نفسه عسب ، هذا شأن أهل
الكمال تركون القيل والقال ويشتملون بإصلاح الأحوال ويرجعون إلى الكسر المتعال
والسلام (٢) »

عز أن هذه التجديرات ذهبت جميعها سدى ، ووجد الناس في أحرار فشل

(١) المجلد ٣ ، ص ٥٣

(٢) المجلد ٣ ، ص ٥٩ - ٦٠

الفرسيين أمام عكا فرصة مؤاتية للفرج عن كرتهم بتنازل أساء هذا الاسهام . وكثر اللطم ، فجمع الفرنسيون الديوان (في ٦ يولييه سنة ١٧٩٩) ، وفرّوا على أنصاته « مكشوباً مترجماً » حيث نه بونابرت من عكا إلى « محفل ديوان مصر » ، يشرح فيه الأسباب التي حالت دون سقوط حصن عكا في قبضته ؛ ولعلّت هذه على نحو ما جاء في رسالة بونابرت خمسة عشر سبباً^(١) ؛ ثم رعب بونابرت في ستر ما لعله من هزيمة ، وأراد الدخول إلى القاهرة في موكب عظيم ، فاستعد « دوحا الوكيل وسه على الناس بالخرّوج للملاقاة » . وفي ١٤ يولييه تم احتفال كبير بالأرمينية أشرف عليه « دوحا وداستان » ، وخرج لاستقباله في سهل القبة جمع حافل من كبار الفرنسيين وأعضاء الديوان ولجنات وأرباب الحرف والصناعات ، وعلى رأسهم دوحا ، وداستان ، وبوسينج ، وهما المشايخ والعلماء بونابرت ، وأهداء الشيخ الكري حصاناً عربياً أسود مسطحاً بالذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ ، ومحموكا يرى هذا الحصان هو « روستان Roustin » الذي حككت حول شخصيته الأساطير ، وقد ظل في خدمة بالسون في مصر البويري بعد ذلك حتى سقطت الإمبراطورية ، فتركه عندما كان الحظ نايلون . وأما من أساس من حوله ؛ وكذلك أهدى لهم خروحي الخوهرى في هذه المناسبة حملياً تمكسوها الكساوى انية ، وامتلى بونابرت صهوة الحصان المهدى إليه ، وسار في مقدمة الموكب الذي دخل القاهرة عن طريق باب النصر ، واستمر في سيره إلى ميدان الأرمينية . وارتدح الناس — على حد قول مؤرخي الحملة — مشاهدة هذا الموكب . ثم استمر العيد ثلاثة أيام بليلها ، وأقيمت الزينات في ميدان الأرمينية ، وأعد (دارجيفيل Dargeaveile) صاحب اليعولى مهرجاناً عظيماً في حديقته^(٢) .

ومع ذلك فقد كان كل ما استرعى انشاء الناطقين يوم الاحتفال بعودة بونابرت وحيدشه من الحرب اثنائية « أنه قد تعيرت ألوان السكرك القادمين ، واصعرت ألوانهم ، وفاسوا مشعة عطيفة من الحر والعب ، (حد أن) أقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوماً ، حرباً مستميتاً ليلاً ونهاراً (أنى في أثنائها) أحمد ناشا (الحرار) وعسكره نلاء حسناً وشهد له الخصم » . وفصلاً عن ذلك فإن الذين اشتركوا في إحياء هذه المناسبات لم يكونوا سوى عامة القوم من « أرباب الملاهي والهالوين وطوائف اللاعدين والحواة

(١) الجيرتي ٣ : ٧١ - ٧٢

(٢) Reybaud VI 4 - 8

والفرادين والنساء الرافضات والخلايص (الذين) أعطاهم ساري عسكر دراهم وقاشيش « مكافأة لهم وتحراً على مساهمتهم في إحياء هذا النيد »^(١) .

وكان واضحاً على الرغم من ذلك أنه انما هربوا ما كانوا يصدقون شيئاً من تلك الأقوال التي أصر بومارت ورجل حكومته على إداعتها يصرون بها هربتهم أمام عكا ، ومحاوون إحياء حصارهم ، فدأوا مدعى أيام معدودة على احتلالهم بمشورات « طعنها وألقوها بالأسواق » ، يحدون الناس فيها على احساب العائن والشور ، وعدم تصديق أقوال المنافقين القديس ، الذين بلغ من جرأتهم أنهم أشاعوا موت بومارت نفسه أمام عكا ، ويوعدون محركي القصة بانويل وثور وعظام الأمور^(٢) . عز أن انما هربوا الذين ما كان يردعهم رادع ، أو يمنعهم عن الخوص « في حق العرئيس » مانع ، سرعان ما وجدوا الفرصة مواتة للفسرية عن موسم وظهر ما يكونه من حص وكراهية للعرئيسين ، واشتباك لعودة ذلك النوع من الحياة اتق ألقوها فسل محي . هؤلاء إلى ملادهم ، وعودة الأمور إلى صاحبها عندما تواترت الأخبار (يوم ١٩ و ١٧٩٩) عن وصول « مراكب غنية » إلى أبي قير .

وعقد انما هربوا آمالاً عظيمة على انصار القنايين « فكثرت اللطم في الناس ، وأظهروا انشور ونهروا لمن انصارى » واستندوا عليهم ، ثم « وردت الأخبار وعدة مكاتيب (٢٢ يوليو) لكثير من الأعيان والتجار وكها على سق واحد تريد عن امانة مصعوبها بأن السمس وعسكر القنايين ومن معهم منكوا الاسكندرية » فكثرت لطم وامال وعظم اللطم ، وكادت تقع فتنة كبيرة بولا أث بادر العرئيسيون بإدانة أحبار انصار بومارت في موقعة أبي قير البرية المعروفة ، « وصروا مدافع كثيرة من قطعة الخيل وبقى القلاع المحيطة وحسجن الأركية وعملوا في ليلتها .. حراسة بالأركية من موط ومارود وسوايح تصعد في الهواء » .

وما أن رجع بومارت إلى القاهرة وذهب المشايخ وأعضاء الديوان للسلام عليه حتى أحد يقرعهم نقرعاً شديداً فقال لهم « إنه لما سافر إلى اشام كانت حالكم طيبة في عيانه وأما في هذه المرة فليس كذلك لأنكم كنتم تقولون أن العرئيس لا يرحمون بل عوتون عن تحرهم فكنتم فرحانين ومستشرقين وكنتم عارصون الآن في أحكامه وأن الهدى والناسوى ما هم بوبو أي ليسوا طيبين ومحو ذلك »^(٣) .

(١) الخبر ٣ : ٧٢ ، ٧٣

(٢) الخبر ٣ : ٧٣ ، ٧٤

(٣) الخبر ٣ : ٧٨ - ٨١

وتلك عسارات تظهر وصوح وحلاء حشفة شعور مصريين ، وسامع ودهم
وصداقتهم المزعومة لهؤلاء السادة الذين فرضوا سلطانهم عليهم ، ولم يخافوا « لهم »
بصفة المشهورة التي دانت لهم ، ورعوا في استعمار بلادهم ، ويعترف مؤرخو الحملة
أنهم بأن أعضاء الديوان وهم قادة الفاهريين ورعاؤهم قد طلوا « حامدين »
وبخبرتهم أنهرام لعنانيين ، ولم يؤثر فيهم شيئاً ففرغ نوبارت ، أو إطلاق المدافع
الكثيرة التي أعدت بصر الفرنسيين ؛ وهم أي أعضاء الديوان — الذين كانوا قد
شاركوا الأهلي في إظهار الفرح والسرور عندما نظرت الإشاعات عن انتصار
العثمانيين ، وطلت قلوبهم — كعقوب سائر المصريين على كل كراهية وحقد
لحكامهم الفرنسيين (١) .

وواقع الأمر أن أعضاء الديوان وأعيان المصريين طلوا على الرغم من اشتراكهم في
المهرجانات التي أقيمت للاحتفال بعودة نوبارت من سوريا ، يتكلمون صلتهم بأروساء
العثمانيين ، ويرأسون قائد الجيش العثماني حسيبي سيد مصطفى باشا — كما كان
لإبراهيم بك أعوان وعماد كثيرون في القاهرة ، وأراد أعضاء الديوان من إحكام
علاقاتهم بالنصر الأعظم أن يدمعوا عن أنفسهم في عبي السلطان العثماني وخدمة المسلمين
تومة التعاون مع الفرنسيين وشداؤهم ؛ ولم يمت لفرنسيين الموجودين بالقاهرة
ملاحظة هذا الاخاء الذي أسمرت ويده القرائن ، حتى إن وسيلج ما ست أن كتب
إلى نوبارت في أثناء حملة هذا الأخير اسرعة في أي فير ، أنه إذا استثنى الشيخ
السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الكري ، وهم الثلاثة الذين ارتاح إليهم بوسايع
بدرجات متفاوتة ، فإن سائر المشايخ وأعضاء الديوان من المعصيين الذين لا يمكن
الاطمئنان إليهم ؛ ومن أشد هؤلاء انحرافاً عن الفرنسيين الشيخ المهدي — الذي كان
يهدف على حد قول بوسيلج إلى جذب قلوب الجماهير إليه ، وكسب الشهرة ،
ولا يبالى بتضحية الفرنسيين جميعهم ، لقاء الاحتفاظ بهذه الشهرة بين مواطنيه (٢) ؛
وإن كان الشيخ المهدي قد حاول بعد ذلك « مداراة » الفرنسيين والتودد إليهم ، حتى
يدفع الأذى عن نفسه وعن سائر مواطنيه ؛ ثم حسم الفرنسيون في القصة عند اشتداد
الحصار على القاهرة في أواخر أيامهم فلم يعرجوا عنه إلا عند تسليمهم على يد بليار
وسنحت للمصريين الفرصة لإظهار شعورهم من حديد عندما نوبارت الأخير

Reybaud VI 224 — 6 (١)

Ibid 227 — 9 (٢)

عن « تقرير الصلح » بين كليبر والعثمانيين ، وبعد اتفاق ابرش (٢٤ سابر ١٨٠٠) على أساس حلا، جيش الشرق عن مصر ، « ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً » . وما إن بدأ تنفيذ هذا الاتفاق ودخل أحد رجال الدولة العثمانية — ويسمى محمد آغا — إلى القاهرة في موكب كبير (في ٢٨ سابر) حتى « حصل للناس صحة عطية واردحموا على مشاهدتهم له وافرحة عذبة وارتفعت أصواتهم وغلا صرخاتهم ، وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائب وانطلقت النساء برعازيد من انطباع . . . واردحم الناس والأعيان للإسلام بسبه ومشاهدته للشاعل والحواسيس » . وكان الأغا قد « حصر معه فرما من الصدر الأعظم بحصيل » الثلاثة آلاف كيس الفضة لترحيل الفرنسيات ، على أن يقوم السيد أحمد الخروفي بمصفاها « فاحتدم السيد أحمد » في توزيع ذلك وجمعه في أنام قليلة « ذلك أن لقاهرين نادروا بإحراج أنام » عن طيب قلب وإشراح خاطر . . . ومن غير تأخير (لديهم) أن ذلك لترحيل الفرنسيات » .

وصار المهرجون لاسفلون بإظهار شمسهم وعو الفرنسيين جهراً وعلاية فكان كل واحد منهم يدفع ما عليه من مال وهو « يقول سنة مباركة ويوم سعيد يذهب الكلاب بكفرة (وحدث) كل ذلك عشاهة الفرنسيين ومهمهم وهم يخفون عليهم » . وحدث مثل ذلك في الإقليم « وجمع الناس وانمال ومعلومات النجربة » . ونظر « أهل مصر » للفرنسيين بعين الاحتقار وأزولهم عن درجة الاعتراف ، (وكشف الرعايا وجمع الناس) فغاب أعيانهم بالكتابة ، وتطاولوا عنهم بالسب واللعن والسخرية ، ولم يسكروا في عواقب الأمور ولم يتركوا منهم لأصاح مكانا . حتى إن فعاه للكتاب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف حسة ، وهم مهجرون ويقوون كلاما مقي ناعلى أصواتهم ، طعن المصري وأفراد رؤسائهم كقولهم الله يصر السلطان وبهذه فرط الرطبان — (أو يرطمين) — وعو ذلك وطبوا فروع القصية ، ولم يملكوا لأنهم صرا حتى تنقص الأيام الشريرة^(١) . واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن حتى إذا صار نقض اتفاق العريش في الظروف التي سبق ذكرها ، واشتكت كليبر مع العثمانيين في معركة هليوبوليس خرج القاهريون إلى ناحية القبة يقبون سير المعركة ، بينما عمد من بقي

مهم مداحل القاهرة إلى القيام بالثورة ، فكانت ثورة القاهرة الثانية التي استمرت مدة شهر تقريباً من ٢٠ مارس إلى ٣٠ أبريل سنة ١٨٥٠ .

وكانت ثورة شديدة هاجم القاهريون واعتما وب ، في أنشائها بمساعدة جنسك الجداوى دار العلم يعقوب القدي « كريك في داره بالقرب الواسع جهة الرويسى (وكان قد) استعد استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر المحاربين ونحمن بقلته التي كان شيدها بعد « ثورة القاهرة الأولى . وصرب الفرنسيون بولاق بالمذافع وأبدلت السنة البران في كل مكان . فالتحت الخرائق عدداً كبيراً من ابوكائل والخانات وهلكت أسراً كلها ، وكانت معركة حقيقية اشترك فيها من فواد كبير « اشجمن » كل من لاجراج Legrange ، وريان Friant ، ولبار Beliard ، ودوريلو Donze ، وديراتو Duranteau ، ورييه Reynier ، وروبان Robin ، فاستطاع الفرنسيون بعد جهد وعناء إخماد الثورة ، بعد أن فقدوا عديدين من صباطهم وكان من بين الجرحى ومحت Desgenettes كبير أطبائهم والمستشفى مارسيل Marcel مدير المطبعة الأهلية (١) .

وكان أقصاص الفرنسيين من المصريين بعد هذه الواقعة رهيباً شديداً ، وفرضوا عرامات فادحة على كثير من العلماء والأعيان ، وأحلوا بهم من صنوف اللذلة والمهوان شيئاً عظيماً . وابت « المعبون والعسكر في طلب الناس وعمم الدور وحر حره الناس حق النساء من أكار وأصاغر وهذهم وحسهم وصربهم . وتطاوت الصنادى من انقط والصنادى الشوام على السمين بالنسب والصرى وابلوا بهم أعراضهم وأظهروا حقدهم ولم يقفوا للصلح مكان وصرخوا بانقصاء ملكة المسلمين وأيام الموحدين (٢) » وكان من أثر أساليب القمع الشديدة التي استخدمها الفرنسيون في إخماد هذه الثورة ، حدوث رد فعل كبير عند ما تبين للمصريين عبث المقاومة أمام جيوش الفرنسيين للسلحة بأنواع الأسلحة من الطراز الحديث ، ولتبرهم من المذافع ما يستطيعون به تخريب القاهرة بأكلها لو أرادوا ، وأنه لا حدودى من الاعتماد على الإنجليز أو السكوات المالك في مناصرة الفرنسيين أو انتظار « رنة هؤلاء على أيديهم ، وقد لاد حينئذ الجداوى بالفرار إلى الصعيد عند اشتداد الخط وسعه إبراهيم بك بعد أن اضطر مع ناصف باشا إلى عقد الصلح مع العدو

(١) المجلد ٣ ، ٩٤ - ١٠٧ ؛ Reybaud VII 457 — 60

(٢) المجلد ٣ : ١١٤

(في ٢٩ إبريل) ، وكان كلير قد عجز قبل ذلك في عقد معاهدة مع مراد بك رغم
المقاومة في الصعيد . « فاشتبك العار — على حد قول الشيخ الجري — عن
قصة المسلمين وجبة أمل الذهبين ولتخفيفين ، وما استعد الدس من هذه العبرة
وما جرى من القارة إلا الحراب والسحام والهباب ، فكأن مدة الحصر بما فيها من
الثلاثة أيام المدة سعة وثلاثين يوماً وقع بها من الحروب وانكروب والارطاح
واشفاق والهباح وحراب الدور وعظم الأمور ، وقل الرجال وهب الأموال ،
وتسقط الأشرار وهلك الأحرار » الشيء الكثير (١) .

تلك كانت قصة انقذاهرين ، قدس صوا على الرعم بما أصابهم ، واضطارهم
إلى الترام الهدوء والسكينة بعد ذلك حتى يقضى الله أمراً كان معمولاً ، يكون النص
والكرهية للفرنسيين ، وسوقوا إلى النحر والخلع من يريم .

على أن القاهرة لم تكن وحدها مبدان هذه الاضطرابات والثورات التي امتدت
عهد الاحتلال الفرنسي في مصر ذلك أن أهل الوحيين البحري والقبلي كانوا لا يتلون
عن انقذاهرين كراهة للحكم الجديد فاشتعلت الثورات في الدنيا واشتدت المقاومة في
الصعيد ومما أن بدأ رحب الفرنسيين من الاسكندرية إلى القاهرة (يوليو ١٧٩٨)
حدثت المقاومة صدم على نطاق واسع في الدقا وعقبات وقد أحرقها الفرنسيون —
ثم امتدت إلى صوف وطيطا والمنصورة ودمياط وعدد كبير من المدن والقرى
اشترك في إخضاعها عجم من فواد الفرنسيين كاخريالات رايونشك وبيان ودوحا
وفوحير وداسن، ولاوس ، ومورا ، وفرديه ، وداس ، ورامون ، واسريوسى
وعيرم . وأصدر بومارت التعليمات المشددة إلى هؤلاء القواد بالحد من كل رحمة
وشعقة في إخماد هذه الثورات ، وقدى الزعب في قلوب الأهالي وهرهاتهم (٢) ؛ وبعد
هؤلاء عذب بومارت نصارمة ، فحرق حدودهم قري مطوس ، واسمية ، وعمرى
وتنار (Ténar) القرية من صوف ، وميت سليل ، وقرية الشعراء والقرى الواقعة بين
المنصورة ودمياط وقرية شماس عير ، استقام لمقتل الزمام حولي لادى ، وذلك عدا
نهب القرى والمدن العديدة (٣) .

(٢) الجري ٣ : ٩٠٩

(٣) Corresp. Nos — 2901, 2971, 3201, 3374, 3476

Reybaud III Caps IX XI, vo. IV Cap I, vo. V Cap III, (٢)
vol VI. Cap XIV

واشهر من رعماء هذه المعاوية الأهلية ، أبو فورة في اسفورة ، وابن شمير في قرية عثما ، وحسن طوبار في المبرلة ، وإلياس المهدي في دمسور ، وكان رجلاً معرباً « يدعى امهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد » فاجتمع عليه أهل البادية وغيرهم ، وحضروا إلى دمسور ، وقتلوا من بها من الفرنسيون^(١) هـ ولما كانت الاضطرابات قد ظلت مستمرة في الإسكندرية ، فقد تمسك كبير على السيد محمد كرم ، ونقله إلى المارحة (أوريان) ، ثم بعث به (رويس) إلى القاهرة ، على طلبه قبيل واقعة أفي قبر يومين فقط ، ثم أعده مائليون عند ماروق السيد كرم أن يدفع ما قرصه عليه من غرامة كبيرة لقاء العفو عنه في ٦ سبتمبر ١٧٩٨^(٢)

وسادت الفرنسيين صعوبات حمة عندما خرجت قواتهم لإحضاع الصعيد ، بعد أن قرر مراد المقاومة عند هرمنة في موصلة الأهرام ، ورأس الاتحاق مع الفرنسيين ، وكان روبرت فد أوغدييه (روش) Russell للمعاوضة معه ، فاضطر روبرت إلى إرسال ديرييه Desaix لمطاردته وإحضاع الصعيد ، وكان إحضاع الصعيد عملاً شاقاً متعباً سبب إقبال الأهالي على مساعدة مراد ، وإمداده بالمدادات ، والاشتراك معه في كثير من العمليات العسكرية الكبيرة ، ثم اشتعال الثورة في الأقاليم التي ظل الفرنسيون أهم أحصموها ، وفصلاً عن ذلك فقد بقي مراد في أثناء هذه المعارك التي استمرت أربعة عشر شهراً معاوية صادقة من جانب « أشراف » الحجاز وأربع الشخ انكيلا في الذي سبق الحديث عنه . وإن كان الفرنسيون قد استطاعوا التغلب على هؤلاء في النهاية ، أوصف إلى ذلك كله انتشار الأمراض بين جنود ديرييه ، وبخاصة الرمد وقد فقد عديدون من جنده قوة الإبصار بسببه .

وبدأت عمليات ديرييه العسكرية عندما عذر القاهرة في ٢٥ أغسطس ١٧٩٨ ، بقصد بنى سويف لمطاردة المهايك الذين انتشرت قواتهم على طول عمر يوسف ، ولكن ما مع بنى سويف في آخر أغسطس حتى كان المديك قد عذبوها ، وراى مراد بالهسا بينما أعاد محمد بك الأنبي موقفه بين الهسا وتلاهمون بيد أن مراداً ما لث أن أحس الهسا مسجناً إلى التلاهمون عند وصول ديرييه ، فاحتل القائد الفرنسي الهسا وتابع رحله إلى الميا ثم إلى ملوى ، حتى وصل أسيوط في ١٤ سبتمبر ، وهناك علم بعوده مراد عن طريق الصحراء إلى اليوم فاضطر ديرييه إلى التروك في بحر يوسف لمطاردة

(١) 34 - 122 - IV 4 - 2 - Ibid III 321 ؛ جري ٣ ، ٢١ ، ٦

(٢) Ibid III 268 - 70 ؛ الجرق ٣ : ٦٥ - ٦٦

مراد في اليوم ، وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ انتصر دبريه على مراد في واحة سدمت المشهورة ^(١) ، بعد مقاومة عيفة كاد يكسب النصر فيها مراد ، فصل ما كان لديه من مدد فيه أحدثت حادثة غادرة في صفوف الفرنسيين ، لولا هجوم الحرابن قريان الحاسم عرساه في اللحظة الأخيرة ؟ وقد شغل دبريه بعد هذه الواقعة بإيجاد ثورة خطيرة شنت في اليوم ، وهددت بالمدح طاميتها التي تركها دبريه بقيادة الحرابن رومان في مدينة اليوم . ثم قاد دبريه حده إلى أبي سوب وفي هذا المكان وصته محبات من حوالي ألف من العرسان بقيادة الحرابن دافو Dovoust وسباركان دبريه . معه قد طلب إرسالها من القاهرة . ولما كان بومارت قد أرمع الرحين إلى الشام فقد عادر دبريه الصعيد لمقاومة قائد الحملة العام وبقى تعظيته .

وفي ١٦ ديسمبر استأنف دبريه وقواده قريان وسبار ودافو ودوريو انعميات العسكرية ضد مراد ، الذي عمد وتعدا إلى حرب مساوشت ، وظل ينجب الاشتباك مع الفرنسيين في معارك فاصلة فرحب دبريه إلى أسب ، وأسيوط (٢٥ ديسمبر) ثم إلى حرجا فبعها بعد أربعة أيام ، وأقام بها حتى يوم ٢٦ يناير سنة ١٧٩٩ وكان في هذه الأثناء أن جاء إلى الصعيد الشيخ الكيلاني ومعه ، واستطاع مراد أن يجمع فنون جيشه ، واندلع الحيب الثورة بين أسيوط وحرجا ، وانهق مراد مع حسن بك الحداوي على صف الصفوف ، واضطر (دافو) إلى الاشتباك مع الثوار المصريين في سوهاج وطهطا ^(٢) وفي أواخر يناير كانت الحداث قد وصلت إلى دبريه ، وإلى مراد فاصمد المريقان للاستخدام هذه المرة في معركة حاسمة . فكانت واقعة مهبود في ٢٢ يناير سنة ١٧٩٩ ^(٣) واهزم مراد في هذه الواقعة ، ووصل دبريه في مطارفته إلى دندره وطية وأرسل وإسا وإدفو وأجيراً إلى أسوان (في أول فبراير) واستطاع إيسر أن ينجي على مساوشت المالك في دراو ، ورضمهم على التفقه إلى الدولة ، ويحتل قيلة وغيرها من حرر النيل الصغيرة (في ٢٠ ، ٢١ فبراير) وفي ١٦ مايو أحرر دبريه بصرا حديدا في أسوان ، وقادر بإعلان حصول الصعيد لقائمه الأعلى بومارت وكانت الخطوة التالية الاستيلاء على القصير ، فقاد بيار ودوريو قاطعه العاية في ٢٦ مايو ، وبعد ثلاثة أيام كانت القصير قد سلمت لحيشهما دون مقاومة ^(٤) .

Reybaud III 398 — 404 (١)

Ibid 511 — 14 (٢)

Ibid 517 — 20 (٣)

Ibid V 1 — 55 Et Sqg (٤)

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه الانتصارات ، فقد ظلت الاضطرابات في الصعيد
وكان من الواضح أنه ما دام مراد حراً طليقاً ، وبارم حبيب أحيطة والحدر فلا انتقم
منه أخرى في معارك كبره مع الفرنسيين . فإن هؤلاء لن يستطيعوا إخماد المقاومة
الأهلية في الصعيد . وما إن عظمت صعوبات كبير بعد فشل انه في العريش وشتعال
الثورة في القاهرة حتى وجد من الخير أن يصل إلى اندي مع مراد الذي شعر من
حاله هو الآخر أن من المتعذر عليه الاستمرار على مقاومة الفرنسيين بصورة حدية .
فبعد الاتفاق معاهدة ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ المروقة ، وساعد مراد الفرنسيين في إنهاء
ثورة القاهرة ، وكان لتوسطه أثر في إنهاء هذه الثورة .

على أن إخماد ثورة القاهرة ، وحرق القرى في الوجه البحري والصعيد ، وإدخال
لرعب على قلوب أهل الإسكندرية ، لم يكن معناه أن البلاد قد دانت لسلطان
الفرنسيين وأصبحت لهم قيادة ، وفي وسع هؤلاء أن يطمشوا إلى أسباب حكمهم
في « المستعمرة الجديدة » ، أو أن يفرغوا لمناخه لغزو حسب عندما يلدوا
بالسحب ، وقامت الاستعدادات على قدم وساق لإرسال حملة أركمى إلى مصر ،
واحتشدت جيوش الصدر الأعظم تهدد بالرحيل على حدود مصر الشرقية ، وعادرت
في آخر العام نفسه (ديسمبر سنة ١٨٠٠) حملة الجنرال بيرد Baird حليف النعناع
مصد إلى جزيرة سيلان ، ثم إلى عمال في طريقها إلى مياه البحر الأحمر . فقد
ثان القاهريون بسبب تلك الكوارث التي حلت بساحلهم عقب ثورتهم الثانية —
لا يحسرون على التردد والعصيان ؛ وإن كان قد راد في محيطهم وسخطهم على
الفرنسيين ما أوقعه هؤلاء منهم من عقوبات صارمة ، وفروصه عليهم من معارم قاذبة ،
شمل القاهرة ون سدير المال اللارم لدفع هذه الامرات ، ثم عظم ارتعاجهم واشتدت
كرهم عندما داع جاء حرم مقتل كبير امريسين ورعيهم ، ووقع أهل القاهرة أن
سقم هؤلاء لاغتيال الجنرال الكبير انتقاماً عظيماً .

ولكن سرعان ما سرى عنهم عندما شاهدوا الفرنسيين يخرون مخفياً دقيقاً ؛
ولا يديون الحماة إلا بعد محاكمة حدية ، فيعدمون من ثبتت عليه التهمة ، ويطبقون
سراج من وصحت برأته . حتى إن الشيخ الجبيري — ولم يكن في يوم من الأيام
مؤيداً للحكم الفرنسي — وجد لزاماً عليه أن يثبت « ترجمة أوراق » التحقيقات التي
داعها الفرنسيون « لتصمها حر الواقعة وكفنة الحكومة ولك فيها من الاعتراف
وسط الأحكام من هؤلاء لطائفة الذين يحكمون العقل ولا تدسون بدس ، (فلم

يحتلوا قصر الخاني (وقيل من أحرع عليهم بمجرد الإفراج ، بعد أن سئروا عليه
ووجدوا معه آلة القتل مصححة بدم ساري سكرهم وأميرهم ، وارتبوا حكومة
ومحاكمة ثم بعدوا الحكومة (في أولئك الأيام ثبتت إدايتهم) ، مما اقتضاه
التحكيم ، وأطلقوا سراخ « من ثبتت برأته (١) » .

وقد اضمر القاهريون عن هدوئهم ، ثم شعروا بأمر ذلك المليون وثلث المئورعاب
التي اشكرها دهن منو الخصب أو حله وادى سبق الحديث بها ، حتى إذا برز
الإعصار عن الشواطئ المصرية ورحف العاصيون على حدود املاذ الشرق ، بدأت
بتمش آمال القاهريين من جديد في التحرر مما كانوا فيه من عب وإرهاق ، وإن
كانوا ما يزالون بعيدين عن التفكير في تحريك الثورة بعد نجاحهم الأخيرة . ومع
ذلك فقد ظلت الشكوك تساور الفرنسيين من جانبهم ؟ واعتقدوا أن هذا الهدوء
هدوء طاهري ، وهو الهدوء الذي سبق له صفة ، وأن العاصفة لا محالة آتية بد قدر
لحم الاسهرام أمام حوش الإغلام ونفائس

وانخذ منو وبيار إجراءات كثيرة تمليها الخطة واقصاها الحسد في رعيهم ،
كأخذ ارهائن وحسن استنوع في اعلمه وغير ذلك مما سبق ذكره في موضعه .
واستندهم الخوف من انتقام القاهريين عليهم وشعل ثورة خطيرة منهم عند ما
داع في القاهرة يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٥١ حر اسهرام منو وحيش الشرق في موقعة
كايوت الحامية ، كما داع حر رحمت العناب من صوب بلبيس والقاهرة ، فقتل الخوف
والرعب بكبر الفرنسيين في القاهرة ، وأسرعوا نهضوا في القعدة وفي سائر
حصون القاهرة (٢) ، ومع أن القاهريين عمدوا فعلا بالقرب من الجامع الأزهر ،
على تردوع هذه الأساء ، فقد انصبت هذه الاحتمالات دون حدوث ثورة أو شغب (٣) ،
ليس فقط لأنهم كانوا لا يريدون العرض لانتقام الفرنسيين منهم على ثورتهم ،
بل لأنهم على ما يبدو كانوا شوقون بحر النار وصحبوا عن المقاومة ، واضطاروا
إلى التسليم لسريع عند ما يتم إطلاق تلك الجيوش ازاحقة على القاهرة ، على أن
خوف بيار من أن تقوم القاهريون بالثورة ظل مسطرا على كل تفكيره . وكان هذا
الخوف على نحو ما شهد به أحد العوامل الحاسمة التي غمخت بناسم القاهرة

(١) الحق ٣ : ١٢٢

(٢) Villiers 290

(٣) Reybaud Vill 190

وفصلنا عن ذلك فقد فتح المصريون طريق الصعيد للحملة الاخيرة التي غادرت
القصر إلى قنا في ٢١ يونيو ١٨٠٦ ، ثم وصلت الجيزة في ٧ أغسطس بعد تسليم
البيار . ثم استأنفت السير في الوجه البحري ، ومرت النيل في ٢٨ أغسطس ،
ووصلت رشيد وقت تسليم الاسكندرية ^(١) . وكان من لأسباب التي تعطلت تسليم سو
في الاسكندرية ، وقف لقتال في نزهة من جهة ، وأن سفنهم في رحلتهم في الدنا
ما كانوا يقفون مقاومة تذكر من تلك الخدمات الفرنسية لبعثهم ، والقيادات من
مدة طويلة في شبه عزلة تامة بسبب عداوة الأتلي لها وإحجامهم عن إمدادها
بالمؤن والأعدية .

وهكذا وصى على عجرة الفرنسيين الاسكندرية في مصر إحقاق هؤلاء في «تهم»
تلك الشعوب التي جاءوا لحكمها ، واستهزأهم من الناحية الأخلاقية لعادات القوم
وإيمانهم ، ثم مهدهم على انهزم والضعف في اتحاد كل مقاومة لحكمهم ، وتوهمهم
أن سياسة الحملات والأعداء وإتداء الدواوين كانت كافية لاستئصال المصريين وقصم
علاقاتهم الخارجية الوطيدة بدولة الخلافة الإسلامية .

وهكذا عجزت الحملة عن تنوع عاداتها ورميد أعراض أنصافها ، فلا هي استطاعت
أن تشيد مسرح تلك « المستعمرة الخلية » التي شاء الفرنسيون أن يحدوها بها ، واه
لإمبراطورهم الاسكندرية الجديدة ، ولا هي حققت شيئاً من مشروعات حكومة
الإدارة العسكرية والسياسية . فعصى إبراهيم جيش الشرق على كل أمل في عرو الهند
والاقتصاد من الإغبار ، أو الزحف عن طريق القسطنطينية وهر الدواوين في قلب
أوروبا وإرغام حلفاء الإغبار على الانعصاف من حولهم ، ثم عظم أعداء « الثورة »
محطياً لاقبالة لهم من بعده ، وإناحة الفرصة للفصل الأول حتى يتجدد من ضروره التي
في مصير هذه البلاد أداة للمساومة المريحة عند عهد السلام العام ؛ ولا هي مهدت
لإمبارت طريق الشهرة والخلود ، ولم تظهر القائد اشباباً أكابيل انصاره ، توهم
بأنه في وسعه أن يظهر بها في ميدان « الشرق » البعد ، الذي كان ما زال ذكره
يوظف الأبطال في العوس ، وبعثت لتذكير في أمره صوراً شتى من الخيالات والأحلام
اجميلة ، ويصق على « قاهره » موءاً ساطعاً من المجد والمعار .

ومع ذلك فإن مصيب الحملة لم تكن لإحده في كاه ولا شو . غير امثل ، فإن أولئك
الرجال الذين احاروا لمراضة الحملة محبة من سماء فرنسا ، وروودهم بكل ما يحسح

إليه العرواى العسى ، من كتب وآلات عمية وأدوات ، وحرص بوابه وكثير على أن
أن تستمر بحوث علماء الحملة ودراساتهم لكشف القباب عن تاريخ وآثار هذه البلاد
التي جادوا ببحرورها ، ودراسة مساحتها وطبيعة أرضها وحياتها وسكانها وأحسانها
وعادات شعوبها وغير ذلك ، ثم شعور مؤسسه على الرغم من شروجه تارة بين
تأيد جهود هؤلاء العلماء ، وتارة أخرى بين تعطيل أعمالهم — بأنه من الجنب في
حقه وصحته أن يوصى بتمهة الإساءة إلى العلم والعلماء ، يقول إن أولئك الرجال
جميعاً سرعان ما جادوا بتمهة عرسهم ، بعزل نشاط علماء الحملة ، الذين حفظوا هذا
الشروع الكبير ، بسب ما قاموا به من بحوث ودراسات واسعة عميقة ، من القواعد
في وهذه تلك « العمارات الخوية » التي لا عموها زمان ، نتيجة لأطباع أفعالها
واسياقهم وراء الشهرة الزمعة وسراب الخد الكاذب

١ - الأثر العلمى :

وعاش العلماء في مصر عبثة دأب وبحث وسقيب ؛ وانتشر أفرادهم وجماعاتهم في
طول البلاد وعرضها بمحصول ويكشفون ، ولا يمدحهم تفنى الأوثنة والأمراض
وخصوصاً الرمد والطاعون ، ولا يحددهم الخوف من تلك لاضطرابات وثورات البق
اقتضى ، مما حدا بهم بالعمليات العسكرية الممثلة في الوجهين لبحرى والقصى
بل صار هؤلاء العلماء ورملاؤهم من الرسامين وسائر الفنين يبحرون مع الحملات
المرسلة لإحصاء المدن والقرى ، أو مطاردة للهابيك ، ويقومون بدراساتهم ويعتدون
عن الآثار ويعحصونها ويرسمونها ، ويحاولون إمالة اللصم عن تاريخ هذه البلاد
القدسية ، وحياء شعوبها بيب يشترك الجنود مع الثوار أو السكوات الهابيك في مساوئ
دامية أو معارك طاحنة ، وكثيراً ما أصيب حص هؤلاء العلماء بخراب خطيرة أو لقوا
حتفهم بسب هذه العمليات العسكرية ، وكثيراً ما سقط آخرون فريسة لوباء الطاعون
أو لغيره من الأمراض المسعفة ، حتى إذا انقضت أيام الاحتلال الفرنسى في مصر ،
كان قد بلغ عدد هؤلاء ثلاثين عالماً من علماء النبات والكيمائيين والمهندسين
والجغرافيين والرسامين والجراحين والمستشرقين والأدباء والفنانين والميكانيكيين
ولانصديين وكبار القواد العسكريين من أعضاء الجمع العلمى المصرى ، وذلك عدا
ثلاثة ماتوا في الطريق في أثناء العودة إلى فرنسا (١) وكان كل هؤلاء ، من أعضاء
لجنة العلوم والفنون ، أو الجمع العلمى الذى أنشأه بوبارت في القاهرة .

وإلى جانب ما قاموه من عاء الاضطرابات والثورات والعمليات العسكرية المستمرة وانتشار الأوثنة والأمراض ، واجه العلماء صعوبات عدة في أثناء بحوثهم ودراساتهم ، نشأ بعضها من نكف حرم هام من آلاهم العلمية وأدواتهم في أثناء انشور إلى مصر أو بسبب الثورات التي قامت في القاهرة . فقد عرقت السمعية لاباتريوت La Patriote التي كانت تحمل حرم كبيراً منها . كما أنه حار من التعذر عليهم أن يخذوا من فرنسا بدلا من هذه الآلات والأدوات ، عندما كادت تنقطع كل صلة بين مصر وفرنسا بعد انتصار الإنجليز في موقعة أبي قير البحرية (١) ، فسار كل اعهد للعلماء على جهود بوت Nouet العالم الطلي ومساعدته ميشان Méchain في « احترام » بعض الآلات الملكية (٢) ، كما اعتمدوا على مهارة كوتية Conte ربيهم « المخترع » ، الذي استطاع بعمل مهارته الفنية أن يشي عدداً من المعامل « والبورش » ، التي صنعت الآلات والأدوات التي استعان بها العلماء في إنجاز بحوثهم (٣) .

وبسلا عن ذلك فقد كان سوء ظن الأهليين بهم وعدم استطاعهم أن « يعهوا » أو يدركوا ما كان لبحوث هؤلاء العلماء من أهمية عظيمة ، منشأ متاعب ومشقات حمة . إدرات من واجب العلماء الفرنسيين أن يستملوا إليهم الشاع وكنار المصريين من جهة ، وأن يطلعوا على ما حوته أدبية (المجمع العلمي) وغيره من مجموعات ساية وحيوانية وحيولوجية وآلات ميكانيكية وفسكية وواد كيميائية وما إلى ذلك ، ويعسرون لهم ما استعق على هؤلاء الشاع وأعضاء الدوان من الأعباء فعهه ، كما بات عليهم من ناحية أخرى أن يوظوا في العامة شيئاً من حب الاستطلاع والاشتياف لمعرفة قصة جهودهم العلمية بصورة تساعد على إزالة ما كان يحامر هؤلاء . (والقاهريين على الخصوص) من شكوك في بوايا العلماء الفرنسيين ، وحقيقة أعراضهم العلمية ، « فسكانوا إذا عسر إليهم بعض المسفين بمن يريد المرحلة لا يعمونه من الدحول إلى أعز أماكهم وينلقونه بالشاشة والصحك وإظهار السرور بحديثهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو طلعاً للظفر في المعارف بذلوا له مودهم ومحسبهم وعسرون له أنواع اسكتب المطوع بها أنواع التصاور وكرات اللاد والأقاليم

Reybaud IV 227, 235 (١)

Ibid VI 31 - 32 (٢)

Charles - Roux. op. cit. 171 (٣)

والحيوانات والطور والنبات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأسياد تصاورهم وآبائهم ومعجراتهم وحوادث أنهم على غير الأفكار .

وكان الشيخ الحرفي من أولئك الذين داروا الجمع العلمي وتكررت زيارته^(١) . كما رآه الشيخ لسكري والهندي واليهودي والصاوي وغيرهم من أعضاء الديوان وسائر المهرة من طلبة الأهلية^(٢) ؛ وكانت (الطواحين) التي « تدور في الهواء » ، والتي ساه كونه في القاهرة ، ثم أشبه عدد من في لندن الأخرى كرشيد ودماط ولبليس والصلحية موضع بحث المصري^(٣) . وزير لفرسون المصدق (لالبوات) كوسيلة من وسائل استبعاد الغش والعمالة إلى مهارتهم المعبية وإثارة عجبهم « محترعاتهم » وجهودهم عبر أن فشهم في هذه الحاجة كان وثلا كبيراً للأسباب التي سبق ذكرها ومن سواد المهريين سيئون الطن بالعماء وشكوك في آوابهم ولا يعرفون بينهم وبين سائر الفرنسيين . وكان من أسباب إثارة الشكوك في بوابا العماء انهم يمل تلك الأوهام والحرفات التي طالت مدسطة على عقول العامة ، فقد حدث أن رعب (ربحو) Rigo أحد ارباب من أن يرسم صورة نصفة لرحل بولي ، فلما أن شرع في تلوين الرأس فاصدر ، حتى هب البولي مدسوطاً يطلب من ربحو أن « يبد إليه رأسه وصدره » وأزعج وفي آخر كان في خدمة أحد الفرنسيين على ارضوح لتصويره . واشتد الاحتضار وساد الدمار ، لا يصدق هؤلاء البوابين أن أحرار الجسم المصورة لا بد أن تبس ولا مفر من موت أفعالها ، وبطارت الإشاعات أن (ربحو) كان يحفظ في معمله « رؤوس وأعضاء مسورة » . وذاع الاعمال في أوساط المهريين أن أعضاء الجمع املى ما هم لا جماعة من السحرة أحصرهم بوابرت معه ليعادوا على يباح عملياته العسكرية ، وأنهم قد قاموا وما رآو يقومون بهذه المهمة على خير وجه^(٤) .

وعلى ذلك فقد ظلت الشكوك تهاور القاهرة من ناحية هؤلاء العماء ؛ ولقي العماء بسبب ذلك عاب ويرهاقاً في أعينهم وعيونهم ، بل ذهب لمر مهم صفيه هذه الوسواس والشكوك ، وآلة ذلك ما كان يقع لهم في الأفانم ، حيث أكثر تعرض والاعلا حول من العارة عنهم ، وقد كل من وقع بأيديهم . ثم

(١) اعبري ٣ ٣٥

Charles - Roux. op. cit. 152 (٢)

Ibid 120 (٣) الجبرتي ٣ : ٣٤

Galland I 121 (٤)

ما كان يحدث في القاهرة داهيا ، فقد لقي عدد من هؤلاء العلماء حتفهم في أثناء ثورة
القاهرة الأولى خصوصاً ، نذكر منهم (تستفويد) Testevuide رئيس المهندسين
المصريين ، والرسم دو بريس Duperrés ، والمهندسين ثيڤنو Thévenot وديڤال
Daval ، كما حرق المهندس دي لاروش de la Roche ، وقد هاجم الثوار مبنى
المستشفى فقتلوا اثنين من الجراحين هما (روسيل) Rousse ، (مونجان) Mongin
كما سقط في شوارع هذه الثورة المهندس كافاريللى Caffarelli وكان من أعضاء المجمع
العلمي ، وعلماء العلوم Monge وحده الصمد . وهاجم الثوار مبنى المجمع العلمي وسراى
قاسم بك مقر لجنة العلوم والعلوم ، وصعدوا الحصار على المجمع خصوصاً (١) وفصلا
عن ذلك فإنه ما كان يستطيع أحد من العلماء إجراء أية بحث في الوجهة الأخرى ،
والبحث عن الآراء ورسم قوتهم والتمسك بالعدالة في الوجهة القبلية ، بولا حماية الجيوش
أي حرجت لإيجاد الثورات في بلدنا وإحضاع العلماء.

لجنة العلوم والفنون :

وبما نذكره أن هؤلاء العلماء الذين وفدوا إلى مصر كانوا ممنون إلى هيتلين
معضلين كان لكل منهم قواعده الخاصة بها ، ولا يربط بينهما سوى صلة الدم ونسب
الجهود العلمية . هما (لجنة العلوم والفنون) ، و (المجمع العلمي المصري) .
أما الأولى فكانت تحت إشراف في فرنسا تترك من لجنة الداهية إلى مصر ،
وأما الثانية ، هيئة (المجمع العلمي) ، فكانت تحت إشراف شكليها في مصر بعد أن
أجل بومبارت القاهرة (٢) ، بعد صدور قرار من حكومة الإدارة في ١٦ مارس ١٧٩٨
تطلب إلى وزير الداخلية أن يضع تحت تصرف الخدم بومبارت المهندسين والعلماء
وعلمهم ، من أعضاء الهيئات التي عيّن لإشراف وزارة الداخلية ، وكذلك مختلف
الأشخاص التي يردها بومبارت لجنة ؛ وكان بومبارت قد أجاز (مونغ) لرئاسة
هيئة علماء الداهية إلى مصر ، والتي عهد بومبارت إلى اختيار أهم أعضائها ، ثم اشتمل
قرار ١٦ مارس على أسمائهم ، وكان هؤلاء : بوشامب Beauchamp ، ودانجوس
Dangos ، ودوك لاشابل Duc-Lachapelle ، ميشان الاي Méchanus ،
نوب Nouet ، كريبو Quesnot وكانوا من علماء الملك .

(١) Reybaud IV 159-61

(٢) Champolion - Figeac 314

ثم أندروسي Andréossy ونوبارت نفسه ورغوه Bringuier وشاربو Charbaud وكوتشر Costaz وكوراسر Corancez ودي بيليه دي تيراج De V. bers du Terrage وفورييه Fournier وفوسو دي سات كلت Fusseau de Moret ودي سانت أماند Moret Le Roy ودي سانت أماند Saint-Clement ودي سانت أماند Saint Amand ودي سانت أماند Viard ودي سانت أماند Vincint ودي سانت أماند Vizard وكانوا من علماء الرياضة .

وصموي رمار وريوليه وشامي الأب وبغولا شامي Nicolas Champy وكويله ديكونس Colet Desconts وريسو Regnault وبيكيه Picquet وپوتي Pottier ، وكانوا من علماء الكيمياء والطب .

وأنديس الأب والآي Andes وإيميه Aimé ورغوه الآي Bréguet وكسارد Cassard وسيلبي Cécile وسبروت Cret وكونان Colin وكونيه Conte وكوتيل Coutell وكوفرور Couvreur وديبوا Dubois وفافيه Faver وفوكيه Fouquet وهسفرز Hessenfratz وهيرو Herault وهوشي Hochu ولومتر Lemaître ولوار الآي Lenoir وليمون Laumont وميرير Mazzières ومولار Moillard ومونغ Monge والرابيه Pazanet وديماس ؛ من العلماء الميكانيكيين

وبرك ودمولان Demoulin ولويير J. B. Lepere وديوري Nerry وروتان Protain من المماريين .

والبير Alibert وأريوليه Arnelliet وديدار Bodard وكارست Cariste ودي فولستشاروب Volvic Chabro وديدودر Debaudre وديمال Duval (المهندس) ودي فافيه Faye ودي فففر Fèvre ودي جيرار Girard وإيسار Isnard وديون Jomars ولاسكويه Lancret ولويير وأخوه حريان لويير Gratiem Le Père ومارتن Martin ومولين Moline ورافينو Raffeneau وسانت جنيس Saint-Genès ونييمو Thévenot وكانوا من العلماء المهندسين — مهندسي الطرق والكباري

وقد انضم إلى جماعتهم من علماء الأقسام الأخرى كل من دي بيليه ، دي بوا ، إيميه ، دو شاموي ، فافيه ، بوبيه ، ريسو ، فيار ؛ ثم ماريه Bénazet وريتر Bertre وديورجوا Bourgeois وكورابوف Coraboeuf وديليون Dilon وفوني Faubie وديكونن Jacomin وديمار Jomard وديمار الأصغر (Jeune) وديفيلاد Lafeuillade ولاروش Larouche ولانويل Lathuile وليسين Lecesne وليدون Leduc وليمر

Lévesque ورولان بوتييه وشوان Schouani وسيمونل Simonel وتستويد ،
وكانوا من المهندسين الحفرايين .

ثم بوشيه Boucher وشومو Chaumont وحررله Gresté وح . ب فست
(J.B.) وبونجان Bon ean ، وكانوا من مهندسي السفن .

ثم دو شاموي Duchanoy وحيو فرى ست هيلير Geoffroy Saint-H aire
واسكندر حرا Gerar وردوتييه Redoute وسافى Savigny من علماء الحيوان .

ثم كوكسر دي مونتر Coquebert de Montbert ، رافيو ديلين R. Delile
ومارى Marie ، ميدير Milbert ، نكتو Nectoux ، ثوان Thouin ، وكانوا من
علماء النبات .

ثم كوردنيه Cordier ودولوميو Do omieu ، فيكتور ديبوى Dupuy ، سمو
Nepveau ، رورير Roz ère ، وكانوا من علماء المعادن .

ثم بيسير Bessièrès ، بدو B dou ، ديرون Dabaron وديجت ، ديمفر ،
Devaisvres وشتوان دوا ودوا الابن ، لامات Labatte ، لاسيير Lascipiere ،
ولارى Larrey ، بوكميل Pouqueville ، ريال Réal ، وكانوا من الأطباء والجراحين .
ثم وديه Boudet ، رحوان Roguin ، روييرس Rouhierès ، من الكيمايين .
ثم بودان Boudoin ، كاكيه Caquet ، كاستيكس Casleix ، ديون Denon ،
دبتارتو Dutertre ، ث . فوكيه C. Fouquet ، حولي Joly ، پورتال Portal ،
پريه Peré ، ريجل Rigel ، رغو R go ، فيلوتو Violeau ، وكانوا من الصائين
الرسامين والموسيقيين .

وقد انضم إليهم سييل اوريدوتييه ثم أرمو Arnault ، ساي Benaben ، مورين
Bouhenné ، كماريللى (دوفالكا) Dufalca ، ديرييه Desaix ، دوجا ، استيف
(أو أشتوف على ماسح الخرائط) ، حوتييه Gloutier ، لبلون Leblond ، ليروح
Lerouge ، رسيغال دي حرايرون Parseval de Grandmaison ، پورليه
Pouhier ، بوسيلج ، ريو دي ست جان داغلي D'Angely ، ريبيه Reynier ،
ريبولت Ripault ، تالان Talien ، سان سيمون Saint-Simon ، ملكوسكى ،
سوسى Sacy ، وهم من الأبناء وعلماء الآثار والاقتصاد .

ثم مارسيل Marcel ، بسون Besson ، بودوان Beauduin ، حالان Oaland
ولاپورت Laporte ، پنتيس Puntis ، وقد عهد إليهم بأعمال الطاعة

ثم تلت Belieté ، راكيتش Bracev ch ، ديشري De Chésy ، ديلاورت De aporte ، حوير Jaubert ، لومافا Lomaca ، محلون ، سهوس Panhausen ، رايغ Raige ، دون رفائل Raphael De Monachis ، فنور Venture ، وكانوا من المشرقين (وقد انضم إليهم مارسيل) .

وعلاوة على ذلك فقد كان من بين حبة العلوم و لفسون أعضاء تورع نشاطهم وهم يسجدوا تقسم معين من أقسام اللحية وهم رح Berge ، بوشار Bouchard ، رويه دسون Branel Denon ، روبل Pubei ، حوليان Julien ، كبير ، لاسي Lacy ، لافون Lafond ، هدمث لوبير Hyacinthe Le Pere ، ليدوك (من المحدثين هشة أركان الحرب وغير سميه المهندس الحمراي) ، حديد Gent ، لوميتير Lema tre (غير سميه من اهداء المكسيكيين) ، ماسو Mia lot ، تيري Thierry^(١)

وقد حلت ظروف عدة دون حضور كل أعضاء لجنة العلوم والعلوم الذين ذكرهم قرار حكومة الإدارة (١٦ مارس ١٧٩٨) إلى مصر ، سواء أكان ذلك لعدم معادرتهم قرب أصلا مع الحملة ثم عملوا في مملكة ، فكان من الشيعيين اربو ، بودوان ، ساني ، سيرة ، رجوة الان ، دبشيزي ، داحموس ، دبودر ، ديوا ، دوك لاشابل ، ميرير ، مولار ، بوماس ، دمولان ، اسار ، رولان بوتيه ، ثوان ، سغو ، بورتال ، بربه ، ليلون ، رسو دي سبت جان داغني ، وهكذا يكون عدد اهداء الذين حضروا إلى مصر (١٧٥) عالماً^(٢) .

ومضى اثنان والاثون عالماً محهم في أثناء قدومهم نحوهم في مصر وسوريا ، هفتك الطوعون بقولا شامي ، هيرو ، بدار ، كوكبر ، وليروح في مصر ، رجويه ، وسان سيمون في يافا ، وقتل في أثناء الاضطرابات في شاس عمير حولي ، وفي القاهرة سلكوسكي ، تستوبد ، تيميسو ، واعتيل كبير ، كافيل في مصر تيري Thierry وديمال ، وصفي محه بيكيه (في العرش) ، وكولان (في دمياط) ، وسهوس (في الإسكندرية) ، وعرق كورانيوف وديليون ، وتوفي بورحوا ، كاكيه ، سيروت ، فوري Faunie ، لودوك Leduc ، ديعرمر ، حلوتيه ، لاپورت ، وتوفي فنور في عكا ، وقتل في أثناء حصارها كل من شاربو ، موسودي ساس كلمت ، ساي ، كغاريللي . وفصلا عن ذلك فقد قضى من العلماء في أثناء العودة إلى فرنسا ثلاثة هم : بوشامب ،

(١) Gall 193 6 ' Villers 336 53 : Champolion-Figeac 316

(٢) Galland II 351 — 2 . Villiers 335, 354

وسوسى (الذى قتل في صفية) ، ودولوميو الذى حمله ملك نابى وبقي عقب عودته إلى فرنسا^(١).

وقسمت لجنة العلوم والعنون عند وصولها إلى مصر الثلاثة أقسام الأول في القاهرة وكان موع وروليه أول من حضر من العلماء إليها ثم تبعهما الآخرون ؛ والثاني في الإسكندرية وكانوا حوالي خمسة عشر عالماً أوجد لهم كبير مكاناً مرغواً في منزل قنصل السدقة ، والثالث في رشيد ، وكانوا حوالي عشرين عالماً أقاموا في بيت فارسي Varsy أحد البحار العربيين بالمدينة وكان مهم الرسام حوى الذى قتل في حادث شمس عمير . غير أنه ما استقر الأمر بونابرت في القاهرة حتى أرسل منه ٣١ أغسطس ١٧٩٨ يطلب حضور جميع العلماء إلى القاهرة . فأمر رتييه Berthier رئيس هيئة أركان حربه بأن يجمع كل العلماء والعلمانيين والمهندسين في القاهرة ، ما عدا المهندسين الذين كان كثير منهم قد عهد إليهم بخدمات معينة في الإسكندرية ورشيد ومع أن مواضطر مكرهاً إلى إرسال أعضاء الوحدون في رشيد ، فقد استطاع كثير أن يستبق لهذه المهندسين الجغرافيين ومهندسي الطرق والكبرى ، بدعوى أنه لم يوضع خريطة أو رسم للإسكندرية وبدأ العلماء سرحهم إلى القاهرة بطريق البر في ٧ سبتمبر ١٧٩٨ واكمل عملهم في عصرون النهر بعهه وبدأت من ثم إعادة تنظيم لجنة العلوم والفنون وورعت الأعمال على أعصبتها . فبين لوسر (الأب) رئيساً للهيئة مهندسى الطرق والكبرى على أن يساعد حراز ؛ وبين تستفويد رئيساً للمهندسين الجغرافيين وساكوتان معاوناً له . ورأس كوتيه الصناع بمساعدة ميسيل ، وأشرف شامي الأب على معامل البارود ، وعين برنار Bernard للإشراف على (الصرمانية) أو مكان سك العملة ، ثم أنشئت حظيرة الحيوانات وأعد مكان للطيور . لمساعدة علماء التاريخ الطبي في أعمالهم - عهد إشراف رافينو ، ودليل Deulle .

وقبل بداية شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كان قد تم ترتيب مكتبة للعلوم الطبيعية ومعمل للكيمياء ومكتبة للتاريخ الطبي ، وطلب بونابرت إنشاء مرصد ، فعهد العلماء انهمسكون إلى كلفارنالى والعمادى بوري Norry باختيار موضعه ، وأجبراً نظم كوتيه « الورش » الميكانيكية التي رودت العلماء بالآلات والأدوات التي احتاجوا إليها في محوهم^(٢) وبدأ العلماء بتأطهم دون إبطاء ، فأنشأوا مصانع لتدريج الخلود ،

(١) Villiers 325 - 6

(٢) Reybaud IV 115, VI 23, Charles - Roux. op. cit. 167 - 70

وصناعة السروج والأحذية ، وما إلى ذلك ، كما سوا غيرها لعمل الكحول ،
والشروبات والبيرة والقعاب واضطراب ، (وقد مد المصريون في هذه الصناعة
الفرنسيين) ، وأنشأوا ورشاً للحجارة لعمل الموائد والكراسي والأسرة وغير ذلك
كما احتاح الفرنسيون إليه في بيوتهم^(١) . وفصلاً عن ذلك استطاع ديون أن يصحب
حيث دربه اللهاهب لإحضار الصعيد ، وذلك لكي يرسم آثارها ومعابدها ، والقنوش
المهرو عييفة كما ذهب حومار كهندي وحجراتي للمعرض نفسه إلى الصعيد ، وأراد
(ديونوا إعيه) المتحاق به وقصد إلى القصير .

وما كان انعماء من قسم لجنة العلوم والعلوم بالقاهرة يريدون إحراء محوهم في
الصعيد للتفتيش عن الآثار ، ورسم القنوش المهرو عييفة ، ودراسة الوجهة القبلية دراسة
شاملة ، فقد أصدر بومارت أمره منذ ١٤ أغسطس ١٧٩٩ : سائب لختين : إحداهما
رئاسة كوستر Costaz . ومن أعضائها بوت ، وميشال ، وكونيل ، وكوكير ، سافى ،
ريول ، نازك ، كورانيو ، لوار ، لانت ، لويز للهيدس انعمارى ، سانت حيس ،
وبار ، عي أن تمارد القاهرة في ١٥ أغسطس إلى الوجهة القبلية بزيارة الآثار القديمة ؛
والثانية رئاسة فوريه ، ومن أعضائها بارسيفل دي حواتيون ، وفيلوتو ، ديل ،
لويز (المهندس) ، ردوبه ، لاسبير ، شارول ، أروثلله ، وفاسيت ، على أن تمارد
إلى الصعيد كذلك في ١٨ أغسطس^(٢) . وقد عذر كل هؤلاء انعماء القاهرة فعلاً
إلى الصعيد في ٢٠ أغسطس . وكانت خطة العمل انقدم في الصعيد حتى الشلال الأول
ثم العودة إلى القاهرة في مراحل صغيرة ، حتى ينطبق انعماء رسم هذا الطريق
النهرى وكل ما يوجد من آثار على طاقى النيل^(٣) . ووصل انعماء من أعضاء لجنة
كوسمار إلى أسوان وقيله ، فراروا آثار الصعيد في طيبة ووادي الملوك والسكرىك
ومدينة أبو ، ومعابد إدفو وغيرها ، وحققوا مواقع يعمى المدن القديمة^(٤)

وما إن حلف كليبر بومارت حتى لقيت لجنة العلوم والعلوم كل تشجيع من
القائد الجديد . ذلك أن كليبر من ناحية الاهتمام بالبحوث والدراسات العلمية كان
على اتفاق تام مع بومارت ، على الرغم من اختلافهما في أشياء كثيرة أخرى ، فأراد
أن يتم ما بدأه بومارت ، وأن ينظم جهود العلماء ويحدد وجود نشاطهم ، ويصين

Reybaud IV. 67 (١)

Corresp. No. 4353 (٢)

Reybaud VI 160 — 1, 415 6 ' Champollion — Figeac 6 (٣)

Reybaud VII 107 — 316 (٤)

لأعضاء لجنة العلوم والمصنوعات التي يجب أن تتوفر كل جماعة منهم على غنى. وما كانت اللجان الثلاث تألفا منذ أغسطس ١٧٩٩ ، وسافرتا إلى الصعيد ، قد اختص أعضاؤها بالتفتيش عن الآثار القديمة ودرسها ، فقد رغب كليبر في أن يدرس العلماء عادات أهل البلاد وأصاليب عيشتهم ودياناتهم ، وتقاليدهم والقوانين السارية بينهم ونوع حكومتهم ، كما أراد أن يدرس العلماء شئون العلم والتجارة ، علاوة على صنع الخرائط وعمل المصورات وجمع الوثائق المهمة المتعاقبة كل هذه المصنوعات ، ثم كتابة تاريخ البلاد من وقت محي. مجلة القطن حسن دشا (١٧٨٦) إلى وقت وصول الحملة الفرنسية إلى انشواطىء المصرية ، على أن يبقى العلماء كذلك دراسة ما كان مصر من علاقات مع داخل إفريقيا^(١)

وعنى ذلك فقد أصدر كليبر قراراً بتأليف لجنة ثالثة (أو مكتب) (إلى جانب الخلقى كوستار وفورييه الساعيين) في ٢٠ نوفمبر ١٨٩٩ ، أعضاؤها: ديمتري كمر نظام الحملة ، وحنوتيه Gloutier القومسيو الفرنسي في الدنوان ، وفورييه ، وليرون والبان وروشقي (فصل العلماء العام) وودوت (أبوصوط كما سماه الفرنسي) دور كليبر ، ودوحا ، ورونان ، ثم لم يلبث أن انضم إلى أعضائها كل من حيرار ، وكوتيه ، ودوترير Dutertre ولويير الأكر Le Père Ané مدير الأشغال العمومية ورئيس المهندسين ، وحاكوتان رئيس المهندسين الجرافيين ، ومارسيل استشرق ومدير المطبعة الأهلية ومن فرار تأليف هذه اللجنة على ضرورة اجتماعها بد يومين حتى تصح خطة لتوزيع الأعمال والبحوث على المخصصين . وقد تم ذلك على وجه التالي -

- (١) التشريع والعادات الأهلية والدينية - حنوتيه وفورييه ؛ (٢) الإدارة -
- لين وحنوتيه (٣) البوليس - فورييه ودوحا ؛ (٤) الحكومة والتاريخ - روشقي ومارسيل ؛ (٥) الشئون العسكرية - أبوصوط ، ودوحا ؛ (٦) التجارة والصناعة -
- لمرون وروشقي ، وكوتيه ؛ (٧) الزراعة - حيرار ، وتديان ؛ (٨) السكان -
- ديمتري ؛ (٩) الآثار والنقوش وما إليها - روتان ، مارسيل ، دوترير ؛
- (١٠) الجغرافيا والهيدروليكا - لويير ، وحاكوتان . وقد استطاعت هذه اللجنة أن تعمد جلسات عدة وبذل أعضاؤها نشاطاً عظيماً^(٢) .

المجمع العلمي

وم سكد بعضى أيام معدودة على دخول بونابرت القاهرة طاقرا ، حتى أصدر أمراً في ٢ أغسطس ١٧٩٨ باختيار بيت بسبع لإعداد مكان « مطبعة جيش مصر » ، وإشياء معمل كيمائى ، ومكتب للعلوم الطبيعية ، وإقامة مرصد إذا كان ذلك ممكناً ، وطلب إلى كل من مونغ العلم الرياضى ، ورتوليه الكيمائى ، والحمدل كيماريللى من أعضاء لجنة العلوم والعنون أن يعملوا على سعد هذه الرغبة ، كما طلب وبونابرت فى هذا الأمر إنشاء « مجلة للمجمع العلمى » ^(١) . وبما محدر ملاحظته أن بونابرت حذر مكناً ، وسعاً يضم كل المؤسات العلمية التى قرر إنشاءها . كما أنه اعتمد على أعضاء لجنة العلوم والعنون فى اختيار هذا المكان ؛ وكان طاهرا أن أعضاء المجمع انعمى سوف عتثرون كذلك من بين أعضاء لجنة العلوم والعنون . وبوأن الميثيقين استمرتا مفصلتين فى تكوينهما .

ودفع الاختيار على مكان للمجمع العلمى ولجنة العلوم والعنون فى حى - على حد قون حومار - لاسعد عن السبده ريبب وخنسج . هو قصر حسن كاشف بالناصرية . ومن العصور واسيون الغدوره له كهصرى قسم بك وإبرهيم كجدا السارى ، وغيرهما من مساكن السكوات المالك وتعبان الصيريين ، وندى فى مهشة مكان اعمد حساب المجمع ، والمكينة والعمل الكيمائيه والطبيعية ، ولخظيرة الخيون وحديقة الست ، واورش انيكايكية والرصد ، وإعداد امكينة لمجموعات التاريخ لطبيعى ، ومجموعات الأركيولوجية وغير ذلك . وعند عدم اختيار المكان ، واشتاء العمل ، أقدم « ريبب مطمحنا على تأسيس المجمع العلمى ، فأصدر أمراً فى ٢٠ أغسطس ١٧٩٨ إلى مونغ ورتوليه وكيماريللى وجيوفرى سانت هيلير ، وكومنتار ودعيت والخرال أندروسى ، « لاجتماع الساعة الساعة من صباح يوم لتالى للبحث فى تنظيم « المجمع العلمى فى انقاهره » واختيار أعضاءه ^(٢) . واجتمع هؤلاء فى الموعد المحدد ووصموا المواد التى يأنف منها قرار إنشاء المجمع العلمى ^(٣) .

وفى ٢٢ أغسطس صدر أمر بونابرت بتأسيس المجمع ^(٤) ؛ على أن يكون من

Charles - Roux. op cit. 154 (١)

Corresp. No. 3051 (٢)

Corresp. No. 3062 (٣)

Corresp. No. 3083 (٤)

أعراضه . (أولاً) العمل على إشاعة نور العلم والعرفان في مصر (ثانياً) دراسة المسائل والأبحاث المطبوعة والاصريّة والتاريخية الخاصة بمصر ، ونشر هذه الدراسات . (ثالثاً) إنشاء برأى فيما قد عرّضه الحكومة على الجمع من مسائل تدعى استشارته فيها وقد قسم الجمع إلى أربعة أقسام . للرياضيات والطبيّات والاقتصاد السياسي . والآداب والفنون على أن يتألف كل قسم منها من اثني عشر عضواً ، فيقدم الأعضاء حلستين كل شهر ، وينتخبون من بينهم هيئة مكسبة الجمع ، ويكون له جمع سنكرير دائم ، ومهمة إعداد استجوت والدكرات العلمية ، ثم القرار التي تطلبها الحكومة ، ونشر بحوث الأعضاء ومذكراتهم ، وحصلت حائزتان لأفضل ما يقدم من دراسات في موضوعي تقدم الحضارة عموماً في مصر ثم تقدم الصناعة

وهذا أصبح من قرار إنشاء الجمع انتهى أن بوبارت كان يهدف إلى وضع الأسس العامة للصحة التي لا ينبغي دوماً تحيد صرح المستعمرة راححة ، كما أن تساق المعمره المنظر من حل الحصون على الجوار العدي ، من شأنه أن يجر إلى التكمير في أهم الوسائل التي تكفل تقدم هذه المستعمرة الناشئة . في حين من الواضح التي شعر بوبارت وشعر معاصروه الفرنسيون أن مصر وبنده كانت في حاجة ملحة إلى استكمالها . حق تعدد لدمحصر فوق الأساليب العريضة ولا شك ، وحق ترق الصناعة فيها بصورة تد حاجة جيش الشرق على وجه الخصوص من المنتجات الصناعية ، ان لم يد هيك في أمل في حاس من الخرج ، مد أن عظم أسطول روس في خليج في قبر ، واعطفت الصلات بين الجله في مصر وأرض الوطن . ولأن ذلك ما كان يعني أن البلاد داسا سوف لا تستفيد شيئاً من هذا النشاط العلمي والصناعي في آخر الأمر ، إذا قدر للحكومة انهاء في مصر مدة طويلة ، وساد التفاهم بين الفرنسيين وأهل البلاد وأقبل للصريون على تأييد جهودها .

وكان في أثناء الاجتماع الذي عقد لنظام أعمال الجمع العلمي ، أن سم احببار أعضائه ، وصدر أمر بوبارت في ٢٢ أغسطس^(١) كذلك تد بين هؤلاء الأعضاء . وكانوا في أول الأمر ستة وثلاثين حسب قرار ٢٢ أغسطس . ثم ضم إليهم عشرة بعد ذلك ، فأصبحوا ستة وأربعين عضواً^(٢) ، وهذا عدداً أعضاء للكتبة ، وكانوا اثنين حسب وأعضاء لجنة الزراعة ، وكانوا ثلاثة وعلى ذلك بعد حري توزيع أعضاء

المجمع لعسى على أقسامه المخرقة على النحو التالي : (١) الرياضيات أندريوسى وفورييه (سكرتير المجمع القائم) . وكوستار وحيرار وموخ ولوير ووبارت ولوروى وبوت ، سدى ، مالوس ، كرو ، لاسكرية ؛ (٢) الطبيعيات والتاريخ الطبيعى — كوتيه ، ديكوتيل ، دولومير ، رنوله ، جيوهرى سانت هيلير ، شامى الأب ، دليل ، دمجت ، ديوا ، سافى ، نوشامب ، بوديه ، لارى ؛ (٣) الاقتصاد السياسى — كغاريللى ، حلوسه ، موسيلج ، سوسى ، تاليان ، كوراسيز ، دوجا ، بورين (فوليه) ، حاكوان ، ريبيه ؛ (٤) الآداب والفنون — دبوت ، رسيغال ديمرايمرون ، ريجال ، مورى ، ريدوتيه ، فنتور ، دون رفاثيل ، بروتان ، رغو ، ريبولت ؛ وأعضاء المكتبة فكانا كوكبير ، ميشن ؛ وعين شامى الأب ودليل وسكنو أعضاء فى لجنة لرعاية (١) .

وعلاوة على ذلك كان من أعضاء المجمع لعسى كل من فكتور ديوى مهندس الناحم ، والجبرلين كايير ودريه ؛ ويلاحظ أن هذه القائمة اشتملت على أسماء أعضاء من لجنة العلوم والفنون وكانت جميع الهيئات ممثلة فى المجمع حير تثيل ، فقد مثل عدد كبير العلماء الرياضيين . وكان بوبارت وكغاريللى وأندريوسى وسى وسكوسكى (ثم كايير ودريه) يمثلون الجيش ، بينما حصر دمجت ودسوا عن الأطباء ومثل رجال الإدارة سوسى وموسيلج وجلوتيه ، ورجال السياسة تاليان ، والمسيحيين الشرقيين دون روفائيل .

ومع أن ثلث الأعضاء لم يحضروا بالقاهرة ، وأمر بوبارت باستدعائهم من لاسكدرية ورشد بكل سرعة (٢) ، فقد عقد المجمع العلمى أولى جلساته فى ٢٣ أغسطس ١٧٨٩ ، ووقع الاحبار على موخ رئيساً ، وبوبارت نائباً للرئيس ، وفورييه سكرتيراً دائماً ، وكوستار مساعداً للسكرتير . وتحدث موخ عن الغرض الذى أنشئ المجمع من أجله ، واستحوذ التى بحث على أعضائه القيام بها ، وهى تتعلق بدراسة الآثار القديمة ، وكشف النقوش والكتابات التى على الحرايت ، ثم الوقوف على أحوال البلاد فى عهدها الحاضر ، فأوصى جميع حريظه بدقة ، وعمل بحوث مفيدة فى الفنت واستاريخ الطبيعى ، وألح فى ضرورة التفكير فى كل ما من شأنه أن يعود بالفائدة كذلك على أهل البلاد ، بتيحه لإدخال الإصلاحات الهامة التى لا على عها

Galland II 350 — I : Reybaud III 349 — 50 (١)

Charle - Roux. op. cit. 159 (٢)

البحر منهم كما - وبمسئلة زراعية لأراضي وإصلاح وسائل الري وطرق وبيع ماء النيل وبعد أن فرغ من حديثه ، تكلم بوارث فعرص على التجميع مسائل زرع تناول بوقر مود ، بومود الآزمية بقرن أحيش والاستعانة عن حشيدة الدار ، وبها من نبات اللاد ، وواد - ككثيرة في سبع ليرة ، ورشيع مياه اسل وتوردها ، بقرية بين موناوطو حين ماء أي اسد لأعلى سعادها وبين طواحين الهواء ، ثم اعطاهم بعضي منهم بالبلاد ووجه انفسهم بها ، وبملا من ذلك فقد خرجت على يد الباحث مسائل أخرى رمت به الكروم في لأراضي الباشا الزراعية ، حب ليرة من الدار ، وحقه وحجر الأمان في الصحراء ، والاستفادة من الخرب والأكوام) لوجوده حوب مدينة المعرة وسائر مدن وأخرى صغيرة في بلاد - ح بشارود وسبع البارود وقد أعقب في ورو ساعة للبحر الآزمية لبحر هذه مسائل خمسة ، ووضع برنامجا من الاسم ، وجمع بعض ()

وعقد التجمع حساب هذه المسائل من أواخر أغسطس عامه ثواني أكتوبر ١٧٩٨ في جلسة ١٢ أكتوبر نشأ وورث من حديثه على ضرورة العناية بحسن المسائل خاصة بحصر ، ووضع ثل برفه أحوال هذه من - حشيرة ، الخفة والطبيعة ، تلك لاهوص بالبلاد واستطاع عليها وأنت اللجرا أي وفرت على بحث مسائل من أثبت في حاشية التجمع الأولى أن عدد مدركات مدينة - حشيرة منهم راسلهم ، وثب يرمو بحوثهم في مجمع وثب مسائل أسئلة هذه الحوث بحصر بوارث حساب التجمع ، وكثيرا ما كان تدخل في تحديث من مسائل علمية من الأعضاء ، خصوصاً في موضوعات الاقتصاد والسياسة وسائر الأعمال مهمة عظيمة ، بريح موج طاعره اسراب ، وتوضيح بوله طربا ككثيرة هذه ، وألقى بوارث سد كوسكي ، وسبي وقوريرة ، وسيلج ، ودهر ، وحيوهرى ، بنت هليل ، - لوبر ، ومانوس ، وكوسر ، ووشاب ، ورسه لادي حرايمون وغيرهم نحو ، ودية ، كما ألقى لقصائد وحدث ، استشرق مرسد في ثواب اشعر اخرى ، وبقوا في ورحمات من لمرآت كرسري بعة فرنسية نظام ، كما ورحم قصيدة عودا لترك عن لبحر فرنسي من لمراسة في اغرسة ، وحدث أمدروسي عن صبح منج لارود ، وثبني وري حشا عن محمود بومبي ، وسلكم دولومو عن موضع

الإسكندرية القديم ، ودعيت عن الرمد ، ثم عن موافقة المخ في مصر للصحة العامة وهكذا (١) .

ومع أن نشاط الجمع لم يمد قصيرة بسبب خروج بونارت في عروته المعروفة إلى الشام ، فقد اهتم بمجرد عودته بإحياء نشاط الجمع ، فقدم الجمع حصة هامة اقترح بونارت في أنشائها أن يؤلف اجمع لجنة بحث مسألة الطاعون ، تقوم بجمع كل ما تيسر من معلومات عن حقيقة هذا الوباء القوي منذ عهوده في أثناء حملة الشام . وكان الواضح أن بونارت — إذا تركا جانب ناحية الموضوع العلمية — إنما يريد أن يعرف قتله أمام أسوار عكا إلى انتشار هذا الوباء بصورة مفاجئة . وبهول مؤرجح الحملة إن موقع اقترح أن يكون ضمن أعضاء هذه اللجنة دعيت ، ولكن هذا رفض حوق « من الوقوع في المص » ، فاحتدمت المناقشة بينه وبين بونارت بسبب ذلك (٢) .

ووصف الشيخ الخرنقي ما شاهد من صروب الشام خلال تردده الكثير على مرأى الجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون ، فقال « في حملة مارأيت كتاب كبير يشتمل على سيرة لى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر منبع علمهم واحترامهم وهو قائم على قدميه ينظر في السماء كما مرهب للحيمة ويديه اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضي الله عنهم أيديهم السوف ، وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين وفي الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس والحرم المكي وأمدى وكذلك صورة الأئمة المهديين وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثل اسلامبول وما بها من مساجد العظام كآيا صوفية وحمام السلطان محمد وهبنة المولد السوي وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام ورائى تصعيد والصور والأشكال والأفلام المرسومة بها وما يختص بكل بلد من أحاسن الحيوان والطيور وأسات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والمهندسيات وحر الأتقال ، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عديم كتب انشاء لله صلى عيسى ويعبرون عنه بقولهم شعاع شريف ، والردة للصوفى ، ومحمطون حملة من آياتها ورجوها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن . ولهم طبع رائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واحهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ويدأبون في ذلك الليل والنهار . وعديم كتب معدده لأنواع اللغات وتصاريحها

واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما روي من أى لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت .
وعند موت (Nouet) الملكى وتلامذه في مكابهم اقتصص بهم الآلات الميكنة العربية
للتقفة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البعده العضة التركيب الغالية الثمن . وكذلك
طائرات للظفر في الكواكب وأرصاها ومعرفة مقاديرها وأحجامها وارتفاعاتها
واتصالاتها ومناظراتها ، وأنواع المسكنات والساعات التي تسير شواقي الدقائق

» وأفردوا للجماعة منهم بيت إبراهيم كنجدا السارى وماسورون ومهم أرمو
(Rigo) المصور وهو يصور لأدبيين تصوراً يظن من يراه أنه بارز في الفراغ محسم
كأنه يطق ، حتى إنه صور صورة اشباح كل واحد على حدة في دائرة ، وكذلك غيرهم
من الأعيان . وعلقوا ذلك في بعض محالهم سارى عسكر ، وآخر في مكان آخر يصور
لحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيوان بأنواعها وأسمائها . ويأخذون
لحيوان أو الحوت العربي الذي لا يوجد بلادهم ويصنعون حذمه يدانه في ماء مدهوع
، فقط للحجم فيبقى على حاله وهذه لا يسير ولا تلي ولو بقي ربما طويلاً . وكذلك
أفردوا أماكن لمهندسين وصنع الدقائق وسكن الحكم روبا (Rover) من كيميائي
شاحن الحملة^(١) بيت دى القمار كنجدا محوار ذلك ووضع آلاته ومناظره وأهوانه
في ناحية وركب له تماثيل وكوابل لتعطير المياه والأدهن واستخراج الأملاح ، وفردور
طبيعة ورامات ، وحمل له مكاناً لأمه وأبى ، ومها روف عاليا وفردور ، والحلوه
التركيب والمعالجين والزاحات المتنوعة ، ومها كذلك عدد من الأطباء والحراصة ،
وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف حركات أصابة الميكنة والطب الكيمائى . .
وأفردوا مكاناً أيضاً للحارس وصانع الآلات ولأحشاش وطواحين الهواء ولعربات
وللوارم لهم في أشغالهم وهندسهم وأزوت صانعتهم . ومكاناً آخر للحدادس .
وأعلى هذه الأمكنة صانع الأمور الدقيقة مثل البركارات وآلات الساعات والآلات
للمدسية المتقنة وغير ذلك^(٢) .

وقد ذكر الشيخ ذلك في حوادث شهر جمادى الثانية ١٢١٣ - أى في غضون
وقبر وديسمبر ١٧٩٨ . وذلك بعد انقضاء أقل من ثلاثة شهور فقط على صدور
قرار بوزارة باختيار مكان لجنة العلوم والفنون والمجمع العلمى وتأسيس المجمع ومع
أن أعمال المجمع تعطلت فترة من الزمن بسبب طغيان الالههم بالاستعدادات الحربية ،

Galland II 345 (١)

(٢) المجلد ٣ : ٧٤ - ٧٧

بعد خروج نوبارت في حملته إلى سور ، فقد استأنف اجمع نشاطه بعد ذلك (١) .

نشاط العلماء :

وواقع الأمر أن سارس نشاط هؤلاء العلماء كان مبداه ، وظفوه ، درسوا آثار البلاد القديمة ، ورتجها ، وصنعة أرضها وأحدها ، وحواشيها وظهرها ، وعلاها الزرع ، وصناعاتها وخرابها ، وعادتها ، وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وخرابها ، وكل ما يتعلق بالبلاد وحاضرها ، فقامت وميثاقان بحق موقع لإستراتيجية العمراني ، و — قطع نوبارت (الأكبر) Le Tait Anc و مستندون أن يعموا جردته دقيقة له ، وكذلك حقق وت وكونا في مواقعهم حوامع المعرفة وسوهم ، ويمكن أن يكون لديهم رارو الأنظمة الشرقية من الوجهة الجغرافية أن غدتوا موقعهم من الملابس والسوس والصلحية ، و — رسم التسط سوهب So Tai بحري لال من المعرفة إلى العطف ، واستكشف جردته سنت هيلز الطريق بين المعرفة والصلحية ، وجرده من الطريق بعد الصلحية إلى الشام ، كما استطاع أن جمع في نفسه رحلته الجديدة تحتويه من الحيوانات والطيور ، وأهم فصلا عن ذلك دراسة الطوائف التي جعلتها قدمه المصريين كالحمام والتمارين والظور ، وذلك بعد الأحكام التشريعية التي شرعها في طبيه وسفاره (٢)

واستكشف كرم La repa من مصر وأثبات في منطقة نهر موسى ، ودار كل من شوى Schaur وفهان ديوت انجند ، ولا بول La harte لتوبية والمعرفة ، وجومر ورر Beir اليوم ، وورق Bure لطيفة ، واستكشف كارا Lazza و — ثوب Thevette ، و — بية Pottier بحيرة نيرلس ، ولا كرم وشارون رعة لإستكمد ، و — ثوب و — بية Fevre نهر موسى ووفقا على آثار وسطه ، وكان من رأى العلماء أن نهر موسى هو مخرج الينسى أحد مروج النيل القديمة (٣) ، واستكشف جردته أربع جدي ، وأمهات حاكوان في صنع حربية مصر ، وخص جوفرى سبب هيلز أنسك النيل والحيوان في منطقة عمدة نهره ، واستكشف نديوسى الجردة موقع من مصب النيل في المنطقة ،

Reybaud IV 63 (١)

Galland II 241 — 3 (٢)

Ibid 169 — 70 (٣)

كما زار جميع المراكز الواقعة في منطقة البحيرة مثل مفرج وادييه وبيرو وعرما ، ثم اتجه بعد ذلك صوب مديرية تشريفة قدر في بحر موسى وزار الصحلية ، ثم عاد إلى دمياط بعد أن أتم قياس أعماق بحيرة البرلة ووضع خريطة لها ، وقد استغرقت هذه الرحلة ستة عشر يوماً (١١ أكتوبر إلى ٢٨ أكتوبر ١٧٩٨) (١)

ودرس دايان الساب في الهند وتسمى لأق وأرونة معادن في منطقة البحر الأحمر ، وأشرف كونه على تدقيق الكهنة وبحث في فروع الجواهر ، وعمل في دوت من هونغ تشان على موسم السكنيس لرومية وايبو ، وأنه بعدة على حبات ريش لبحري ، ثم سارح الجمهورية الفرنسية ، وأنه سادس مجموعة من حشرات الصحراء ، وحمل رسو علمي أسد ، كما فعل ذلك برو ، ووكول في يهني بالسات لافوق على حدة في الصناعة ، وقد أنشد ، حسب شرف دبحب بحوث واسعة تصدد الأمراض المنتشرة في مصر وعلى لاري دراسة رمد ، وذهب كل من روايت Dr. (سر جون د. د. د.) وفرانك فرانك في Kenah ، فوييه Vautier ، ثم دراسة شئون الصحة العامة ، وادكتف سافري Davisi معام ركان قدم في أرض عربة البحر ، ولطس كوسدر رمان الصحراء ، وقد رجوات بحوث وافية في الوحات (٢) ، وأبقى واثق تحت المصباح ، كما أعد اصدلي روبر Rouyer تحت أ من الدهر ، وتكلم حمر عن مقاس ليل اعمد الذي سكتشه في جزيرة ايسين وشارو (Juo) من الاجزاء التي فيها المصرون عند ولادة أحد أطفالهم (٣) .

ومع أنه من مهندسي الإلام بوحوه ثمة هؤلاء العلماء الإنما نام دوقا ، فقد بقي ربحتي ، إذ كرم نص وحوه هذا المثل ، من مدى ما كان يذله هؤلاء من جهل عميق في دراساتهم وبحوثهم ، فبه ما حل ركابهم في بصره حتى قاتل طائفة من الخصبين ، بحيرات ودراسة له من والصحور ، وبحجرات وما يسر ، وزار العلماء حبل عظم كما زار حمر آثار هيدونوس ، ولحق به دوحا ، وقد الاثن شخص مسألة بين نس ، ورسم حاكوان موقع هذه الآثار وجمعها من ناحية الجغرافية ، كما فاس اراعاع لليلة وأعددها كل من لاسكريه ولهر Lefebvre وزار حمره أخرى ،

(١) Reybaud IV 18 — 19

(٢) Ibid 57 — 60

(٣) Galland II 220 — 3, 235 — 40

مهم بوت وشامى الألب والإس ، وديكوتيل وعدبدون غيرهم من أعضاء لجنة العلوم والعلوم ، أهرام الجيزة وحجهم بومارت ، ولما كانت زيارتهم في وقت الفيضان والبلاد معرقة مديدة فقد انتقلوا في حروم حتى صبح الأهرام تقريبا . وركب مع بومارت كل من كهرينى ، ورييه ، ودوماردن ، وموخ ، ورتولى ، وكوستار ، وفوريه ، وحيوفرى ست هيدر ، وحاوتيه ، وريغال ديمرا برون ، وركب الآخرون جروما أخرى . وصعد كثيرون الهرم حتى وصلوا إلى القمة . وكان من الذين ذهبوا في هذه الزيارة دوجا ورييه ولوكارت Leclerc . وقصوا هالك يومين استطاع في أثناءهما (بوت) أن يستكشف أن كل راوية من روايا الهرم الأكر تتجه إلى جهة من الجهات الأربع الأصلية ، ووصف الأهرامات ورسمها كما رسم أنا المول كل من كوتيه ودورتر . وقد رار لعماء بعد ذلك ترسقاره وصف ورسم حاكوتان خريطة لهذه الأماكن (١)

واهتم العلماء بمصالح مقياس الروسة . وتم ذلك بإشراف المهندس شارول وفسم بوسر رئيس المهندس بسجحه ذلك مذكروه إلى فورييه حسب طلب الديوان حتى يمكن حفظها في « سلسلة التاريخ » أو سجلات القاهرة لحقق ارتفاع عمود المقياس « محصور مصطفي شيخ القياس ، ومحمود السعائى » — « ورفعوا قاعده العمود انميا دراعا ، وجمعوا تلك الزادة من قطعة رحام مرعة ورسموا عليها من جهاتها الأربع قراريط الذراع » فقام ارفع العمود انكالى ثمانية عشر دراعا وستة قراريط وأرلوا ما راكم من أوساح في القاعة اتق بها عمود المقياس وسوا حجرتين لشيخ المقياس (٢) .

ول كان حلسح (أو ترعة) الإسكندرية ربط بين هذه المدينة وفرع النيل بالقرب من الرحمانية . فقد كان من المظهر أن تصبح التربة طريقا هدماء المواصلات النهرية بين الإسكندرية والقاهرة ، لو أن الملاحة في هذه التربة كانت متيسرة على مدار السنة أو في أكثر فصولها ، على خلاف ما كان يحدث فعلا ، عند ما كانت ترعة الإسكندرية لأسباب عدة لا تصلح للملاحة إلا لقره قصيرة من الزمن — حوالي عشرين أو خمسة وعشرين يوما حسب (٣) . وعلى ذلك فقد رأى بومارت تسهيلا

(١) Ibid 207 5 — Reybaud II 352

(٢) المبرقى ٢ : ١٦٩ — Galland II 119—23

(٣) Chabrol et Lancret — Des. De L'Egypte (État Moderne)

للمواصلات بين القاهرة والإسكندرية أن يعود إلى المهندس بودار Bodard لاستكشاف هذه التربة القديمة والنظر في وسائل إصلاحها ، حتى تمكن الاستفادة منها في الملاحة النهرية . فقام بودار باستكشافها وأعد مشروعا بالأعمال اللازمة لحمل التربة صالحة للملاحة في كل فصول السنة ، دون سكد بمفات طائلة ^(١) . ولكنه سرعان ما وقع من الحوادث ما عطل هذه الحوث . ومع أن موعدا تلم قيادة الحملة العامة ، كان يرغب في إصلاح التربة وجعلها صالحة للملاحة ، فإن هذه الرغبة لم تتحقق كذلك . فقد أصدر مو أمرة في ٢٧ يوليو ١٨٠٠ إلى فيليب دي تيراج بالذهاب إلى الرحاية لمدة العاية ٤ وصنع دي تيراج بالأمر معلقا فوجد عند وصوله (في ٥ أغسطس ١٨٠٠) رمديه لا يكره وقبار ، وسكن الجبال داسان في الرحاية رفض أن يعرض حدودا لحراستهم ، ثم ما لبثت مياه النيل أن دخلت التربة قبل أن تصل أوامر جديدة فتعطل العمل ^(٢) .

وكتب بونايرت الجنرال أندريوسى رياره الصحراء الغربية لاستكشاف مجرات انطرون ، ومعرفة شئ عن الأديرة القطبية الغربية من هذه البحيرات ، والوادي الذي يعرفه الأهالي باسم « بحر لاما » ، وعُدت معه الرحالون وانكاشفون القدماء كثيرا . وكان لهذا الاستكشاف إلى جانب قيمته العلمية أهمية تجارية واضحة ، إذ أنه كان يحل من هذه الجهات البوشار (Alcaline) الذي كانت تصدره مصر بكميات كبيرة . وعنى ذلك فقد استطاع أندريوسى معه في هذه الرحلة الهامة تنويع وفوريه وريدوتيه (الصعير) ودوشاوى وريو . وبدأت الرحلة في ٢٣ يدر ١٧٩٩ ووصلوا إلى مجرات انطرون فوجدوا أنها تغطي مساحة من الأرض طولها سبعة فراسخ في تسع ثمانمائة متر ، وعددها سبع مجرات تفصلها الرمال بعضها عن بعض . ويحيط بأورمع مستوى المياه حسب ارتفاع مياه النيل وانخفاضها ، ووجدوا أن هذه المياه تشمل على أنواع مختلفة من الأملاح المعدنية . وكان « يلترم » أهل طرابه أو يحنكرون الانحار في ليطرون المستخرج من هذه المنطقة ، ويخرج منها قوافل الحمم (والحجر) محملة بمحولي سنائة قطار من ليطرون ، فتصدر حرارة هذا القطرون إلى رشيد والإسكندرية ثم تحملها السفن من هذين الميناءين إلى أوروبا ؛ وعثر أندريوسى وجماعه على أربعة أديرة يرجع تأسيسها إلى القرن الرابع الميلادي ،

في دير مرموس في البحر السوري - ودير ام داني ، ودير « نون مقار » (القديس
مقار) ، ودير السري (ودير شوم أو در صيدا)^(١)

خمس رزخ في سوس

وكان ثمة اهتمام ودراسة وذكور ، من قبل حكومة الإدارة وأمرها شق هذه
في رزخ السوس ربط بين بحري ، لأن من ولا بحر ، ومع أن قدماء المؤرخين
انفقوا على وجود هذه قديمة ربط بين هذين البحرين فقد اختلف الجغرافيون في
تحديد موضع هذه القناة ، وبذلك فقد راعى وديرت في الوقوف على حقيقة موضع
هذه القناة ، لأن هذا الأمر الجغرافي ، من جهة ، وحتى يستعين بذلك على شق القناة
ألقى اعلم حفره في الرزخ دائرة البحيرة بمرحلة ، وفصلا عن ذلك من تحقيق
هذا المشروع فعلى الاستدلال من السوس ، ويظهر هذه حقيقة من اهتمام الناس
طوال القرون على فوائدها ، ويخرج من هذا من سوس يرى ،
حتى إن الجيران رتبته كثيرا كان رسول خود وزراء العربان نظاردهم ومصور
الأمن محمود في مدينة السوسة ، وعلى ذلك فقد ذهب و... الخراب (بون) Bun
بالحال مدينة السوس ومبانيها ، ودير بون الشهيرة في ٢ نوفمبر ١٧٩٨ صحته
أولحين ، وهرية (نادر و...) وقد تولى من الهندسين ورسم في قاعة من
الجمال ، فوصل الجميع إلى البحرود من خمسة أيام ، ودير (بون) بإعلان أهل
السوس ضرورة المشروع ، فترسل هؤلاء وفد منهم إلى المعسكر العربي
(٨ وقت) وفي عرس السوس السوي (وهرية) على يدته ، وهذا كان قد
غادرها أكثر أهلها .

وبما كان و... وقد سمع على قدم يتركه في رزخ نفسه فقد عدد
الغزيرة في ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ مع هيئة تركاب حرة ، وخمسة من أعضاء مجمع العلم
لشرح معه في هذه الرحلة موضح ، روي ، و... ، كوسار ، بوير ، ريد ،
كهريللي ، لكونير أمير السوس ، كما صحه عدد من المصريين من بينهم سيد أحمد
الجزيني ، ومع تركب تركب الخرج في مساء اليوم نفسه ، وفي ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨ ،
٣ من عام إلى استطاع و... ثمر إلى معه نفسه القديمة في جهاب
عده ، كما زار في تمام ذلك قدمه لبحرود ، و... سوس وعيون موسى (٢٨

هذه الحفوف لم تذهب مدى فقد ثبت فصلها أن القدماء جهروا في الزمن الماضي طريقا محريا في وادي السويس يصل بين البحرين الأبيض والأحمر (١).

ولكن ما إن عاد مونتارت من حملته السورية حتى شغل بمناجزة الغنمايين في موقعة أني قبر البرية ، ثم عادر اللاد إلى فرنسا وعلى ذلك لم تستأنف الأعمال في وادي السويس إلا في عهد الجيران كلير ، الذي ألغى لهذا الأمر من لحة جديدة برئاسة لوبير وكان من أعصانيه أخوه حربان لوبير وست حبس Saint-Oenis ، فيفر Fèvre دي قديمه دي تراح ، دوشابوي ، ألبير وذلك لاستئناف عملات قياس سطح البرخ في نقطة (السع أيار) على أن تقسم قسمين ، أحدهما يسير إلى النوبة ، بالمرج من حرائب بيور القديمة ، والآخر بصرب في الوادي الذي يمر بالعصاة ويلييس ، وذلك كي يمكن التحقق بصورة قاطعة من وجود الماء القديمة ، واسطر في إمكان شق قناة في البرخ تصل لبحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط وعلى ذلك فقد عاد هؤلاء القاهرة في ١٦ نوفمبر ١٧٩٩ بحراسة اخراج ربييه حتى إذا وصلوا إلى المكان الذي أسست عنده الأعمال السابقة ، انخرق منهم صوب لبحر الأبيض بيا من الفرقين الآخر في طريق قناة (أبو سحرة) صوب القاهرة ، وكان دي قديمه دي تراح وليمير وألبير ودوشابوي من هذا الفريق ، وقد استمروا في رحلتهم حتى وصلوا مقياس الروضة ، وقد أسعرت الحفقات التي قام بها أعضاء اللجنة قسمها ، سواء في جهة السويس أم البحيرات المرة أم النوبة وغيرها ، عن الاعتماد بأن سطح البحر الأحمر يسو مقدار تسعة أمتار وعشرة سنتيمترات عن سطح لبحر الأبيض ، وقدم هؤلاء العلماء مذكرتهم وعرضهم إلى لوبير ، الذي قام بمساعدة أخيه حربان لوبير باستخراج لائح استوائية منها ، وأعد تلك غثا ما لست أن قدمه إلى انقضاء الأول عند عودته إلى فرنسا ، وكان من رأى لوبير أن التحقق من وجود هذا الفرق الثاني من اختلاف ارتفاع سطح البحر الأبيض والأحمر يتفق مع احداثيات القلبية وما أجمع « التواتر » على صحته (٢) .

آثار القديس (حبر وشيد) :

واهتم علماء الحملة بالكشف عن الآثار القديمة في الوحيين البحري والقبلي ،

(١) لمرق ٣ ٢٨ — ٨٠٤٤١٠ — 21 Gall 206 — 215 Henry D'Estre
Reyband IV 216 — 39: Galland II 170 — 1

(٢) Villiers 228 — 31: Brehner 67 — 8

وإلى هذا الاهتمام وما وقفوا في رابرته من معابد ومقابر وأهرامات ، وخرائب (أو آثار) المدن المدمية ، ثم مارسة الصابون من تماثيل وهياكل ونقوش الكتاب القديمة ، رجع الفضل في ظهور (الإيجنولوجى) أو دراسة الآثار المصرية القديمة دراسة علمية منطقية ، والوقوف على الشيء لكثير من تاريخ قدماء المصريين وآرائهم ومعتقداتهم وعاداتهم ، وأساليب حياتهم ووجوه نشاطهم ، وقد تضمن (كتاب وصف مصر) لثي. اسكندر عن أحبار هؤلاء العلماء وثمرة جهودهم في هذه الناحية . وسوف أرى ذكر ذلك كله في موضعه . عني أن أهم ما يصبى الآن من ذكر ما عثر عليه رجال الحملة من آثار في الوحة الجرى هو : اكتشاف حجر رشيد .

فقد أمر بونابرت بعمل تحصينات في رشيد وساء قلعة على شاطئ النيل الأيسر في منطقة البوعر . فذهب الصابط المهندسون لكشف شبه الجزيرة الصغيرة المحصورة بين النيل والبحر (الأبيض) ، وبحيرة القدية ، وحرت الاسكشافات تحت إشراف دوتول D'Hautp n الصابط لمهندس ، والكاتب بوشار Bouchard ، وقد اتسع كلاهما بأن حيز مكان لإنشاء هذه التحصينات هو موضع تلك القلعة القديمة ، التي ساءها سلاطين مصر في الزمن القديم ، والتي ظلت نقاياها تعرف باسم (برج رشيد) . وما إن تقرر ذلك حتى بدأ الحفر لإقامة القلعة ، فعمروا على بناء أبنية مصرية قديمة ، كان السلاطين قد شيدوا عليها قلعهم ، وكان بين حوائط هذه الأبنية ناصية القديمة أن عثر بوشار على (حجر رشيد) ، حوالي منتصف شهر يوليو ١٧٩٩ ، وهو حجر من الحرايت الأسود ارتفاعه ٩٧٥ ملليمتر (أو ثلاثة أقدام تقريبا) ، وعرضه (٧٣٣) ملليمتر ، وسمكه حوالي ٢٥٠ ملليمتر . وقد وحدوا نقوشا على وجه واحد منه فقط ، عبارة عن ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن بعض . أما النقوش العليا فكانت أربعة عشر سطرا بالهيروجيكية ؛ يليها ثمان وثلاثون سطرا يعرف المكتشفون عنها شيئا طويلا أولا أنها كتابة سريانية . ثم أعين بعد ذلك أنها بالغة «محولة» ، وبأنهم رجحوا أن تكون باللغة العامية المصرية القديمة ، أما النقوش التي يليها فكانت في أربع وحسين سطرا باللغة اليونانية القديمة . وقد أرسل هذا الحجر في اسيل من رشيد إلى القاهرة ، في أواسط أغسطس من العام نفسه حتى يحضره المجمع العلمي ، وأرسل في بولاق . وقصى العلماء الموجودون بالقاهرة حول هذا الحجر أساليب طويلة يحاولون حل رموزه . وأعلن مارسيل وريج Raige أن النقوش التي أعلن أنها سريانية «أو محولة» ما هي إلا «حروف» مصرية قديمة كانت بحالة .

وتنزع انوسامون برستون الحجر من مصر به مدقة عظيمة ،
فصوا في هذه العمل التاسع عشر وحيون مرسل بوسعه مدر انطبعة الأهلية
أن طابع من القوش لوجوده على هذا حجر عرسه صور ، ونجح في عرسه ، وذلك
نأش من الحجر منجلول من مدح الخصب ثم تركه خصب ، ثم نصب عنه حرا طابعة
وضع عامه بوري وكتب على ١٨٥٠ هـ حجة في ٢٤ يناير ١٨٥٠ ، وبعد ما تبين
كوتيه (Celle) خرج عنه لعمية ثم نزل بحرم طرفة نسخة في صنع الصور
والخروف ، ثم دونه على صلب (عرسه اذ كان كوخراف (Cachepot) ،
ونجحت هذه التجربة كذلك ، كلف من ربح ١٨٥٠ ريال ورجحه انكبة
الوية وبنى في عرسه في طرفة ثم طبع حوس ربحا وعهد مارين
وربح من (عرسه) غاورد من عرسه في القوش لوجوده ، على حل رموز القوش
الأخرى ، على عرسه من الأسماء وكرهه كذلك في انكبة
« عرسه عرسه » والأخرى « عرسه » وكتب من ثم ثلث جهود اقي سككت
أخير ما نرجح على مدونة مليون (C. ١٨٢٢) (في عام ١٨٢٢) وقد أرسلت
صور من « عرسه » إلى تحريرها أنظمة الأهلية وحصل عليها كوتيه إلى باريس ،
وحمده دوحا في مجمع المصنف الفرنسي (١) ما الحجر منه فقد صل في مصر
حتى وقت حلاه الخلة ، ومن موهبه كثير مع الإخبار من الاسماء على حجر
رشيد ، يدوي من هذا الحجر كان من عرسه الخصة ولكن لا يخلو أصروا
على عرسه (٢) وعنه في عرسه العربي ، وهذا نصح شمسليون كما تقدم
في ذلك موره وقد من ثلث القوش « عرسه » كلف كتابة دعوصية

١٨٥٠ هـ (رحله ديون)

على أن اصعد اصل ما ربحه من ثلث ربحان ما تمسح من أوسع نشاط
عنه الخلة ، لكن ربحا في ربحه امدوا في وقتها من القدمة ودراسة آثارها .
وكان (ديون ديون) (Van Denon) (١٧٤٧ - ١٨٢٥) أسبق « عرسه » الذين
حولوا في أنحاء مصر ورسوا آثاره وكان في باريس حصر مع الخلة ضمن أنباء
خلة انعموم وبنون ومعد في لاسكندرية من الآثار في ثير الدهشة أو يسرعى
الاهتمام ، وصحب من إلى رشيد وقعى انوقف في الدنيا ، بل كان بونوت ربح

نحشته صوت القاهرة ، فهدد ديون عظيم تسطول روس في أي قب ، وصحب تلك
 الخلال التي رسمه لإجتماع برى روس سائرة وور بصطر وضو كعدة ، ولكنه
 لم يجد في آثار (سايس) نوص الحجر ، وفي آثار كايوت ، مد رضى به فيه ، وساء
 أن يفقد رسمه الرسم حوى لا ا مدى ذلك شوار في مرة شمس عمر وأتجنب له
 المرسه للحصول على مخره عندما صبت ورت مخره ، ووجوده بالديا جين تأسيس
 الخدمه اصلى في مخره في مخره في ٢٢ سنة ١٧٨٩ م - أو أرباب المخره
 المراسية في مصر ، وزار أهرامات أحمه مع مخره ، وعواد ان اصطحابهم ودارت
 في هذه الزرة ، وكان دون مخره في رسم مخره وصور سلاطين عندما فمت
 لقاهرة بشورتها الأولى .

ورعت ديون في مخره إلى سيب مع والله من العرب ، ولكنه لم يذهب لاصح
 شيخ القفلة من ضمن مخره لمخره على سلاطه وعب في الرحلة إلى السعد
 براره آثره في دفع مخره ، فأنه به يوارب ذلك ، واهرب دون خروج ففته مخره
 نادون والاسخار إلى الحرب مخره فذهب معه ومعد في ان حتى إلى نقواب
 الخراب مخره ، وخر في مخره مخره مخره مخره في مخره في المخره حوى مخره
 شهور سمع بمخره الخيش ورسم ما شاهده من مخره ، بل وآثار وما إن
 استأنف الخراب مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 في القاهرة ، عمل مخره الآخر في مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 في مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 وهرمو بوليس الأنثويين ومخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 آثار هرمو بوليس (الأنثويين) ، ومخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 رسم ديون آثار هرمو بوليس ومخره (مخره) في مخره مخره مخره مخره مخره
 مخره مخره في مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 مراد بك على جيشه (١) ؛ بيد أن ديون سرعان ما وجد ما عوضه عن ذلك عندما
 ذهب مع مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 ذلك (ومخره مخره) ، وهو مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره
 مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره مخره

وقد عمل ديون الصورة ، وكان هذا اكتشافاً عظيماً ، فخصص أعضاء المجمع العلمي بالقاهرة الرسوم ، ثم أرسل الرسم إلى اللوفر في باريس لدراسته .
وبما نجد ذكره لدى فيدييه دي براج وحولوا Jollois قد أعدا هذا الرسم بدقة أكثر مما فعل ديون ، وكان من رأى ديوي Dupuis وريج Raige أن تاريخ النقش يرجع إلى اثني عشر ألف سنة قبل الميلاد ، واعتقد فورييه Fourier أنه يرجع إلى ألفين وثلاثمائة سنة قبل المسيح ^(١) أما ديون فقد استطاع في طريق عودته من فيه وأسوان (في ٢١ فبراير ١٧٩٩) إلى القاهرة أن يرور آثار كوم أمبو وإدفو والأقصر واسكرات وطبة ، ورسم آثارها جميعاً خصوصاً مدينة هاتو وإرميوم ووادي الملوك ثم سحب بليار ودورييلو من قبا إلى انقصر (٢٩ مايو) ، وعند عودته قابل في قبا حيران وبعض العلماء من لجنة العلوم والعلوم ، الذين اعتلوا النيل لجمع بحراء . ثم ودع بليار في ماسو أمبودة إلى القاهرة ، فوصلها في يوليو ١٧٩٩ ، وكان من أثر خروج ديون مع جيش بليار في العمليات العسكرية لتعدده أنه تمكن من زيارة بعض الأماكن الأثرية مرات كثيرة ، فرار آثار طبة سبع مرات ، وندبره عشرة ، وإدفو وقبة أرميا كما أقام في أسوان شهراً تقريباً ، استطاع في أثناءه أن يرسم جميع آثارها تقريباً ^(٢) وعلى ذلك فقد أحضر ديون معه إلى القاهرة حوالي مائتي رسم تشمل إلى جانب صور البنايات والمعابد وما إلى ذلك على رسوم نقوش هيروغليفية ، كما أحضر معه بعض أوراق الردي التي عثر عليها في أثناء هذه الرحلة ^(٣) ؛ وثأرت هذه الرسوم اهتمام زملائه من أعضاء المجمع العلمي في القاهرة وأطروه وإبلا من الأسئلة ، وعزم ديون على إلقاء بحث عن نتائج رحلته في المجمع العلمي ، ولكن وبأمر مالت أن سطعته إلى ألمانيا ، حتى يرسم معركة أبي قير المرة التي انتصر فيها بونابرت على العثمانيين ، ثم طلب إليه أن يصحبه إلى فرنسا ، فعاد ديون وإثنان من زملائه أعضاء المجمع العلمي هما موني وروليه الإسكندرية مع وبأمر في ٢٣ أغسطس في طريقهم جميعاً إلى فرنسا ^(٤) . على أنه قبل إقلاعهم من الإسكندرية ثلاثة أيام حسب ، كان قد قام إلى اصعيد أعضاء هاتين اللجنتين اللتين صدر قرار بونابرت تأليفهما ، لزيارة الآثار في الوجه القبلي بعد عودة ديون من رحلته الناجحة

(١) Villiers 134 — 8

(٢) Denon II 25, 36 — 8, 44, 49 — 53

(٣) Galland II 173 — 5

(٤) Carré I 140

وعظم شدة العناء والعباس من أعضاء هاتين اللجنتين في البحث عن الآثار وزيارتها ، ورسم المعابد والقنوس الطهرو علمية والتأثيل وما إلى ذلك^(١) . ووصف العلماء الآثار التي رآوها وصفا دقيقاً ، وكان بعض جهودهم أن أمكن الوقوف على حقائق عدة عن معتقدات قدماء المصريين وعاداتهم وأساليب معيشتهم ، ومدى معرفتهم في علوم الطب والفلك وفنون الهندسة والعمارة ، ورسم Redouté من أعضاء لجنة فورس ، ما صادفه من آثار وشاهده من مناظر في حريرة قبله وحريرة الفنتين ، وفي كوم امبو وإدفو وإيسا ، وأرسم والأقصر والكرنك ووادي الملوك في طيبة ومدينة هابو ودمدرة . كما رسم بلاك Balzac من أعضاء لجنة كوستار الآثار في ديه والفنتين وكوم امبو وإدفو وإيسا والأقصر والكرنك ومدينة هابو ووادي الملوك ودمدرة وأسيوط ، ثم المناظر الطبيعية على شاطئ النيل في إيسا واليا وبني سويف^(٢) . وقد ظل هؤلاء العلماء في الصعيد إلى وقت اتفاق العريش حينما استدعاهم الخزان الكبير بكل سرعة إلى القاهرة ، انشطاراً للاحتلاء عن هذه البلاد والمودة إلى فرنسا^(٣) .

خريطة حاكوتان :

على أن هؤلاء العلماء الذين انتشروا في طول البلاد وعرضها من صف إلى ديه في الجنوب ، ومن القاهرة إلى السويس ودمياط ورشيد والإسكندرية في الشرق والغرب والشمال ، لم يقصروا عنايتهم على دراسة الآثار المنددة أو رسمها ، أو تروية أسلاد لساتية والحبوبية والمعدنية ، إلى جانب دراسة شعوبها ومباحثها طبع ، بل عوا إلى جانب ذلك تجميع المعلومات الجغرافية والطوغرافية الدقيقة التي تساعد على وضع خريطة مفصلة للقطر المصري . وكان الاهتمام بإعداد هذا الصور الجغرافي العظيم أحد ثمار ذلك المشروع الذي أرادته نوبارت أن يثقف في مصر مستعمرة مباحة ، تكون بمثابة النواة لامبراطورية فرنسا للاستعمار الحديثة . ذلك أن نوبارت كان يرى لزوماً عليه أن يدخل صروب الإصلاح « المادية » المنددة في مرافق البلاد ، ويهبط بأهلها الذين أحضهم محمد السيد لسلطانه ، حتى ينشئ محام مشروع الاستعماري واعتقد نوبارت أنه لاغنى عن وضع خريطة مفصلة دقيقة للبلاد ، حتى يتمكن من العمل في إصلاحاته المالية والاقتصادية والإدارية بصورة منظمة مباحة^(٤)

Reydaud VII 107-316 (١)

Galland II 194-207 (٢)

Reyband VII 315 (٣)

Ibid VI 25 (٤)

النشاط ، ثم اتسعت دائرته كثيراً بفضل تلك الرسوم العديدة والمعلومات المفيدة إلى
حالة ما دون من رحته في الصعيد .

وبعد امتد في زيادة نشاطه لارثة لوضع خريطة مصر إلى الجبال كليب .
فقد أصدر وبارت أمره إلى حو ما تقدم إنشاء الجبلين ريسة كوسر وفوريه
للذهب إلى الصعيد . قيد كليب أنسيهجا في ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٩ . ولكنه لم يشأ
أن يقصر هؤلاء العلماء جهودهم إلى زيارة الآثار ودراساتها ورسمها فحسب ، بل أراد
أن يضع برنامجاً لتنظيم وجود ضائهم وذلك أن يشمل دراسة العلماء البحث في
شئون التثريخ وعدادات أهل البلاد وتعاليمهم الدينية ، والإدارة ، واسولس ،
والحكومة والادراج المصري ، واستنوت العسكرية والتجارة والحساسة والارراعة والاثار
والجغرافيا والطبوغرافيا . وقد اشتمل هذا القسم الأخير على دراسة السكان وأحسانهم
بديانهم وطبوغرافية البلاد ومساحة الأراضي الزراعية وأنواع الزراعات وسائبات
الزراعي وأوقات الحفاف . فكان تأسيس تلك اللجنة أو ذلك المكتب الذي سبقت
لإشارته إليه وصدر به قرار كليب في ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ . وقد عهد كليب إلى لوبير
، حاكم كولان ، وضع تفاصيل قسم التثريخ الأخير ، إلى المطابق بالجغرافيا والطبوغرافيا
هم ذلك . واعقبت رأى على كتابة أسماء المدر ولقري بالاسمين العربية والعربية ،
بأن المدرية التي تقع بها هذه المدر وانقرى ، مع وصيغ المصنفات التي حصل بين
مراكز الهامة والبلد على أن يكون قسم المساحات بقدر عدد المساحات التي
تحتها السائر (١)

وحالت ظروف معاوصات التثريخ والاستعداد لإحلال البلاد دون سعيد هذا
شروع ، ولكن العمل سرعان ما استؤلف بهمة وشباط عظيمين بعد معركة
عما وبوليس . فدرس سيمونل Simonel (طبوغرافيا) بحيرة النيل وفرعى رشيد
ودمره وقتحات القنوت التي تصب في هدى البحر بين . كما رسم الآثار التي تترها في
مفس منطقة واستمر (شوانى) في رسم أقسام الدواحية التي كان قد بدأ يضع
خريطة ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الصعيد حتى رسم خريطة الجهات المحاورة لطية
والقصر ، ودرس (حليل) بحيرة المنزلة والبلاد الواقعة بين هذه البحيرة وفرع دمياط
ورعة التثريخ كما امتد نشاطه إلى الصعيد فأوضح مواقع الجهات حول إسك وكوم أمو

وإدمو وأنسوان وعمل كل من كوتيل Coatelle وروزيير Roziere في جبل سينا وقام دي فيليه (ديتراج) وفار باستكشاف ورسم المنطقة الواقعة بين ترعة (ألي مسحة) والصحراء من القاهرة إلى بلبيس ، ورسم مهندسو الطرق والكساري وادي انجيرات امرة ، واستكشف مارتان Marton جزءاً من مديرية بني سويف والمنطقة الواقعة شمال بحيرة اليوم ورسم (كاريسق) Cariste عمر يوسف ، ورسم دليل Delie للصحراء بين النيل عند أسبوط وسعلوط إلى شاطئ البحر الأحمر ، ورسم حوامار خريطة العلوية وبدأ في رسم خريطة العربية وعلاوة على ذلك فقد أمد آخرون بما كوتان معلومات كثيرة ، تذكر منهم الجنرال أندريوس والضيابط المهندسين بوشار ولاروسكي Lazowski ومالوس ويكو وساي وناكان Taskin ، فياش Vnache ومن المهندسين شارون ودود إيمه وقاقية وقبير وحولوا ولاسكرب ولانويين . على الرغم من تردد مو في كل ما كان ينبغي نشاط العلماء وبحوثهم تقديراً ، وإيمه على كثير من مهم ، فقد حل قائد الحملة الحدودية امدقن كبير ، يشجع تقديراً طاقته وبما كان ينبغي مع غائته بعض هذه الجهود العديدة الهامة ، التي بذلها ، بونارت وكبير ، وأصدر أمراً في ٤ مارس ١٨٠٦ بإنشاء لجنة من مهندسي الطرق والكساري للقيام بمساحة الأراضي المصرية . واستمر العمل ، حصل ذلك لإنهاء الخريطة ، وهكذا عندما كان وقت الحملة بعد ذلك تشهور قدلة كان العلماء أكلوا جميع المعلومات والرسوم اللازمة ثم وصلوا لشدة صد الإبحار فليس أرادوا وبم الحلاء الاستيلاء على أوراق ورسوم علماء الحملة ومدكراتهم وآلاتهم وأدواتهم العلمية فاستطاع العلماء انقربون أن يمحضروا معهم إلى قريته هذه الوثائق والمعلومات القيمة التي اعتمدوا عليها في إنجاز خريطة مصر ، ففرعوا من صانع هذه الخريطة نهائياً في ١٣ أكتوبر ١٨٠٣^(١) .

كتاب وصف مصر :

وكما كان كبير صاحب العمل في تنظيم جهود العلماء بصورة التي أسفرت عن نجاحهم في إنجاز (خريطة مصر) في النهاية ؛ فقد كان صاحب العمل كذلك في ظهور كتاب « وصف مصر » بعد وفاته بسنوات عدة . ومرد ذلك كله إلى الأمر الذي أصدره كبير في ٢٠ نوفمبر ١٧٩٩ بتأسيس ملك اللجنة لثلاثة ، أو « المكتب » الذي

صم عدداً من علماء الحملة ودرست عليهم الدراسات والبحوث لتعلقة بتاريخ مصر الحديثة
وجغرافيتها وأحوال أهلها وعاداتهم وثروتها الطبيعية ، وغير ذلك من الشؤون
التي تقدم ذكرها

حقيقة كان ليو مارت فصل السقي في تأسيس هاتين اللجنتين العلميتين اللتين اهتم
أعضاؤها بدراسة آثار الصعيد بحث إشراف كوستار وفورييه ؛ وكان ظاهر الرعاية
في أن تنظم نتائج بحوثهم في بحث علمي مفصل وقام فورييه على ما يبدو بهذا العمل ،
ونشرت مجلته (السكورييه) في عددها السابع والأربعين بحثاً تناول بالربط
والتنسيق أعمال هاتين اللجنتين بعد عودتهما إلى القاهرة ؛ ولكن كثير على نحو
ما أوضحنا في مواضع عدة من هذه الدراسة كان صاحب اليد الطولى في توجيه
نظر العلماء إلى ضرورة عدم إعمال دراسة أحوال البلاد الراهنة ، إلى جانب دراسة
آثارها القديمة ، ثم بيان حرايا تنظيم جهودهم لتوزيع هذه الدراسات « الحديثة » على
أعضاء الجمع العلمي — اللجنة التي عدت هيئة علمية مسددة - وأعضاء لجنة العلوم
والعلوم التي احتفظت بكتابها بصورة مؤقتة حتى يفرغ أعضاؤها من بحوثهم ، فيودوا
إلى أوطانهم أو يصحبهم الجمع إليه (١) ، فكان من أثر صدور هذا القرار كما تقدم
بمعار تلك البحوث التي اعتمد عليها حاكون درملاؤه في رسم خريطة مصر
(خريطة مصر) كما كان من أثر صدور هذا القرار وضع « كتب وصف مصر »
على نحو ما يأتي ذكره .

لقد بحث كثير عداء عوده حتى كوستار وفورييه من الصعيد رساله في ٢٢ نوفمبر
سنة ١٧٩٩ إلى الجمع العلمي ، تلاها فورييه على أعضائه ، جاء فيها « إن المرء لا يسعه
إلا أن يبدى إعجابه بذلك انبعاث العظم ، وذلك ابتداء الذي ظهر بين أعضاء هاتين
اللجنتين لتبادل أخبار البحوث العديدة التي قاموا بها ؛ ولا حراء في أن من دواعي هذا
الإعجاب لكثير دواع تلك الفكرة التي ترمى إلى جمع كل تلك الآثار الجلية في كتاب
عظيم واحد وإيداع (البحوث والمواد التي اعتمد عليها العلماء في إنجاز دراساتهم)
ضمن المجموعات الأهلية ، وذلك لأن هذه الفكرة إنما يدل ديوها على وطنية العلماء
وكرم أخلاقهم وأما أولئك المبرسيون القدي زاروا ، الصعيد قبل تأسيس اللجنتين
(لجنتي كوستار وفورييه) ، أو زاروا هذا الإقليم في أثناء بحوثهم المهمة ودراساتهم
المهنية ، أو أعادوا هذه الدراسات في أثناء قيامهم بوظائف أو أعمال أخرى ، فإن

الواحد يقتضي انضمامهم كذلك إلى أعضاء هذين اللجان ، لأن الغرض واحد ولا تغير ، ألا وهو البحث عن الحقائق لثبوت نور العلم والعرفان ، والتعاون والتسديد من أحد رزمة اسم فرنسا وعلى ذلك فإن مشروعوه هو أن يتم بوجه السرعة اتحاد ما يكمل من أسباب لتصنيف تلك البحوث المختلفة ، وسردع موادها واحداً من يمهدها إليه بتسبيق ثمارها في كتاب عظيم يجمع بين دفتيه شأها ولا شك في أن المجمع العلمي سوف يشهر بالخاصة إلى وضع مقدمة عامة لهذا الكتاب تسجد بهاها من شأنه ، وعلى هذا النحو يمكنه كل من رسم مشروع العمل على ، بل أصبح أيضاً مكتوبة تلك « المقدمة العامة » ، إلى دسها برام فوريه فيما بعد ، وراحتها بونابرت نفسه (١)

وعلى ذلك فقد دعا المجمع العلمي للاجتماع حتى كوسبار وفورييه في ٢٤ نوفمبر ١٧٩٩ ، وقرر في هذه الجلسة أن يدعو (فورييه) جميع أعضاء لجنة العلوم والموس وأصحاب البحوث والتذكرات للجنة الأخرى ، وذلك حتى يتمكن للعلماء في شأن (الكتاب) المزمع تصنيفه بصورة تضمن تنسيق هذه الآثار العلمية وشرها كاملة . واحرار المصنفون فورييه للاشراف على هذا العمل وقد سنت في ذلك السجين فكريين أولهما أن يعود أكثر أعضاء لجنى كوسبار وفورييه إلى فرنسا ، والأخرى أن تصمم أسماء الذين سوف يصمم (الكتاب) بخوئهم في عهد سنوات النشر عند الفراغ من إعدادة . وكان مثلاً الفكرة الثالثة أنه كان قد حدث اتفاق بصدد النشر بين أعضاء لجنة العلوم والموس وبين هاملان Hamein أحد رصار الأتحاد الفرنسيين . وروايق كذير على هذا الاتفاق ، عبر أن هاتين الفكريين لم تتحققا ، لأنه كان من المقرر على العلماء أن يعادوا مصر لتقطع المواصلات بين مصر وفرنسا ، وفصلا عن ذلك فقد رفض الجبرل مو عندما ترم قيادة الحملة العامة أن يستمر الاتفاق مع (هاملان) ونمّا ، مدعوى أن محوث العلماء ملك للجمهورية ، وأن من واجب حكومتها أن تصطلع بمهمة النشر ، وأن تكافئ المؤلفين على مخوئهم صوما لكرامتها (٢)

ولمى مشروع وضع كتاب شامل يضم بين دفتيه محوث العلماء ويشمل على مقدمه عامة ، كل تأييد من بونابرت الفصل الأول ، ويغ من عايشه بنشر بحث موجه بجرص

Villiers 232 : Ibid 74 (١)

Rousseau 347 (٢)

شأن دراسة الآثار المصرية مقدمة ، أنه طلب من ريبولت Ripault أحد أعضاء لجنة
كوستار التي ذهبت لزيارته آثار الصعيد ، أن يكتب تقريراً عن هذه الآثار ؛ وكان
ريبولت قد عاد إلى فرنسا استب سوء صحته ، فصدع بالأمر ، وإن حاول أن يصرف
ومارت عن نشر هذا التقرير ، لأن ريبولت على حد قوله ما كان يرغب في الاعتناء
على « آراء » زملائه وحرصهم من ثغرة جهودهم . ولكن استقر ما ثبت أن تظهر
في عدد من أعداد « المونيتور » *Monsieur* الحريصة الفرنسية (١) ثم انظر الفصل
الأول حتى عاد جيش الشرق إلى فرنسا ؛ وقرر أن تقوم الحكومة بنشر (استكتاب)
أرمع تصديقه ، وأن تسكمل الحرية العامة لجميع لغاته ، وأن تخرى صرف تلك
رسائل التي كان ملها الفقه ، وهم في مصر ، فضلاً عن إعطائهم الحق في الحصول
في الرخيص بالحصول من طبع الكتب . وصدر بذلك قرار في ٦ فبراير سنة
١٨٠٧ (٢) وبدأ العمل لجمع هذه سون الحرفاء كل الحرفاء التي تخرج
« كون في منع لإخراج من الاستسلام عنها ؛ وكانت ذات هذه عقيمة ولا على
سما في وضع (خريطة مصر) ؛ وحضر فونى Voney معه بعض أعمال العلماء
بشرح لهم طرأته في رسم السجلات العربية بالحروف اللاتينية . وكلف فورييه بوضع
« لغة للأعضاء الذين تألم منهم اللحن والمثبات الصامية في مصر ، ثم عهد إلى لجنة
رعاية انتاجهم انباء للانتراف على سوب استكتابهم وبحر العمل وتقدير لغاته ،
بأكلوا ثياب « الخدمة السعيدية » . وكان هؤلاء اللجنة برخوانه ، كوتيه ،
بوسر ، ديغيت ، فورييه ، جبرار ، لاسكريه ، مونغ ، وقد حل محل لاسكريه
كوتيه ، أولا حومار وحولوا Jouis ، كاصم ديلر ، وديماليه ديتراح إلى هذه اللجنة
(في بداية عام ١٨١٠) (٣) .

وكان أعضاء هذه اللجنة قد وقع احترامهم قبل ذلك على فورييه لكتاب مقدمة
« كتاب الذي سماه العلماء (كتاب وصف مصر) » (٤) وما إن فرغ فورييه من
كتابه حتى ذهب إلى باريس في خريف ١٨٠٩ بمقالة للإمبراطور . ووافق نابليون
الأول على المقدمة ، وطلب صورته منها ، ثم أبدى بعض ملاحظات لم يلت فورييه
أن عمل بها عند إعادة كتابة المقدمة . وظهر أول أجزاء الكتاب في عام ١٨٠٩

(١) Champollion-Figeac 113 (Note 11) 262 3

(٢) Ibid 75

(٣) Description De L'Egypte I Clvii

(٤) Champollion-Figeac 75—83

وكسب الإهداء باسم الإمبراطور نابليون ، ثم حالت الظروف لسياسة دول شرقية أخرى في عهد الإمبراطورية ، فظهر آخر أجزاء هذه الطبعة (الأولى) في عام ١٨٢٣ . وتتألف من تسعة مجلدات تشمل على بحوث العلماء ومدكراتهم وما إلى ذلك ؛ ثم أحد عشر مجلداً أخرى بحوى الرسوم . وكان قد بدى في إحراج طعة ثانية (طعة بانكوك Panckucke) في عهد الملك لويس الثامن عشر في عام ١٨٢١ ؛ وتم الفراغ من طبع آخرائها في عام ١٨٢٩ . وهذه تتألف من ستة وعشرين مجلداً بحوى البحوث والدراسات ومثلها بحوى الرسوم (١)

وبحوى هذا الكتاب على أساس تقسم موضوعاته إلى ثلاثة أقسام : (الأول) التاريخ القديم ؛ (كفى) لتاريخ الحديث ؛ (الثالث) لتاريخ الطبعة . ثم اتسع في القسمين الأدبيين وصف الآثار وخطوط الأماكن المصنوعة ابتداء من الجيوب عند حرمه قبله إلى شمل حتى يلور والإسكندرية . واجتتبت نفس الطريقة في وصف ثروة بلاد لمدينة ، فيما اتسع عند الحديث من ثروة مصر الجبوية والبتية وما إلى ذلك تاريخ هذه في مجموعات مستقلة ، وشمل الكلام في قسم التاريخ أقدم وصف جميع الآثار المصرية وأما كتبها ، قد عهد لعرب (أو الإسلام) ، فيما احتضن القسم الحديث يذكر ما بين ذلك من حوادث ، إلى جانب وصف البلاد في جانبها المراهة أيام الحملة المصرية . وقد اشتمل كل قسم من هذه الأقسام لثلاثه على عدة مجلدات من الرسوم والتلوين .

واشتملت مقدمة فورييه على ذكر ما كانت عليه البلاد من امتنع البعث إلى وقت مجيء الحملة المصرية . كما أن فورييه تحدث عن الممالك وخصوصاً على بك اسكبير وعبد بك أبو الذهب ، وتناول علاقات مصر التجارية بعربها من البلدان ، وأوضح ما تتمتع به مصر من أهمية بحرية بحكم موقعها . ثم انتقل من ذلك إلى ذكر تاريخ الحملة المصرية بصورة موحدة حتى عهد منو وحروب الحملة ، وانتهى بالحديث عن الكتاب نفسه (كتاب وصف مصر) (٢) . أما الأجزاء التي تناولت الكلام عن العهد أو التاريخ القديم فكانت تسعة ، إلى جانب جزء عاشر لتوضيح الرسوم الخاصة بهذا العهد ؛ ثم يأتي الكلام عن العهد أو التاريخ الحديث ابتداء من الجزء الحادي عشر وعلاوة على ذلك ضم كتاب (وصف مصر) مجموعة كبيرة من الصور والرسوم عند أطلس جغرافي لمصر (خريطة حاكوتان) وسوريا . وتتألف خريطة مصر من

سبع وأربعين قطعة ، أما خريطة الشام فتألف من خمس قطع تدول عرة ، وبيت المقدس ، وبلا ، وعكا ، والأردن ، وصيدا وغيرها^(١) . وقد تعاون في تقديم الرسوم والبحوث التي اعتمد عليها جاكوبان في وضع خريطة مصر عدد من المهندسين الحرفيين نذكر منهم : الجبرال اندريوسى ، برز ، بوشار ، كازسقى ، شارول ، ديفاليه ، ديسوا إيميه ، غافيه ، بيجر ، حولوا ، حومار ، لاسكره ، لانتويل ، لاروسكى ، ليسى ، لوحتين ، جرون لويز ، بلوس ، بارتان ، سكو ، رافسو ديلين ، ساي ، شوانى ، سيمونل ، تاسكان ، فاشاش

وأما أوثاث القدس سماهوا في وصف الآثار المصرية القديمة فكانوا : حومار ، لاسكره ، ديسوا إيميه ، شارول ، سانت جينس ، حولوا ، ديفاليه ، رورير ، كازيسقى ، كورديه ، بوري ؛ ووصف حومار وحده آثار القاهرة وطيبة وأيدوس وأرمنت ، واتوى ، وثيموبين ، إدفو ، أسوان ، الفشن وغيرها ، ومنصب وغيرها ، واشترك مع كازيسقى في وصف آثار الفيوم ، بينما وصف ديفاليه الآثار في درخ اسويس وفس البررخ^(٢) ؛ وفي الأحرار المخصصة لتاريخ البلاد القديمة وحمايتها ، وعدادات المصريين القدماء وعلومهم وفنونهم وصناعاتهم وغير ذلك ، كتب خيرار مذكرة عن مقياس السيل القديم في جزيرة ابيسين ، وكوسار عن الزراعة والنباتات لدى قدماء المصريين وعداداتهم ودياناتهم ، وحومار عن بحيرة قارون وعن معارف قدماء المصريين في العلك والرياحيات ، وانقوش القديمة عموماً وعن الحبر وعلمية خصوصاً . وعن سكان مصر في العصور القديمة والحديثة ، وعن الأهرامات ، وكتب رورير عن حمارية شواطئ البحر الأحمر القديمة وتجارة المصريين القدماء ، وبعض الآثار التي وجدت في منطقة برخ السويس ، وعث ريمى ريج Remi Raige موضوع روح الشمس عند قدماء المصريين ، وناول فيلوتو Villoteau الموسيقى وآلاتها ، وتحدث لاسكره عن الفرع السكاوتى (مع إصابات من صنع حومار) ؛ وديسوا إيميه عن فروع النيل القديمة ومصاها ، والإسرائيليين وحروبهم من مصر ، وناول حولوا وديفاليه موضوع روح الشمس ، وسكام فورييه عن الحكومة والعلوم والآثار الملكية في مصر ، ووضع بوديه مذكرة تاريخية عن صناعة الزجاج ، وكوتيل عن أهرامات الحزنه^(٣)

Ibid État Moderne t XVII 498 594, 594-609 (١)

Ibid t. I-V, IX (٢)

Ibid t. VI - IX (٣)

وأما الرسامون الذين رسموا الآثار القديمة فكانوا : نيكس ، سيديل ، شارون ، وكورافيه ، دالمليه ، دوارو ، حيرار ، جولوا ، حومر ، لانكويه ، بوجنيل ، لنوار ، لوبير ، ديدوده ، روزير ، سب حيس ، قبار ، كوتيل ، ذليل ، روتان ، كاريديق ، كاستنكس Castex ، كونييه ، ديواييه ، فاي ، فير ، حاكوتان ، حربان لوبير ، مدرنان . وقد اشتمل الجزء الأخير من الكتاب على وصف كامل لهذه الرسوم (١)

ونسبهم في قسم النحت التي اشملت نظم أحجار الكتاب التي سبقت دراسة مصر الحديثة عدد كبير من علماء الحملة ، فدور وب عدة ملاحظات فنيكية جمعت في أثناء سنوات ١٧٩٨ - ١٨٠٠ في مصر ، وكسب لوبير عن طريق اتصالات بين المحيط الهندي والبحر الأبيض وعبر ربح الويس ، وعن مقياس الروضة ، ووصف وادي النيل ، وحرسين لوبير عن الجزء الغربي من مدينة الجيزة . وعن حرط ، وبحيرات وجحراوات مصر السفلى ، ومدينة الإسكندرية ، وقوات رسم مطبخ وادي النيل بين مقياس الروضة وهرم الجزء الأكبر ، ودرس رسموا إغنه حدود الجزء الآخر القديمة وهذه القصير وبواحيها وأسدوا التي معطون حولها ، وكذلك التي التي الغربية المصرية في الصحراوات المصرية . كما تحدث عن رحلته في الدلتا ووصف عادات المصريين في الأرمه الحديثة ، ووضع مذكره عن مقياس الروضة وودي النيل ، وتحدث رويس Rouvier (ناشر مع روزير) عن صناعة نسيج الدجاج ، ثم عن (الأدوية) التي يستخدمها المصريون عادة في علاج أمراضهم . وناول لانكويه النظام الإداري والمالي في مصر في آخر سنوات لميليك . كما وضع بالاشتراك مع شارون مذكره عن رعة الإسكندرية ، ووصفا طوعا أو أمرا له طقه الواقعة بين الرحمة والإسكندرية وكذلك حول بحيرة حرط

ونكلم شارون نفسه عن عادات المصريين في الزمن الحديث ، وكتب الجبرال أندريوس عن بحيرة بحيرة وودي الطرون ، ووضع كوستار مذكورة عن النوبة والبراري ، وشرح ديكونيل صناعة ملح (الأدوية) ، ونسب لاري في الحديث عن الأمراض التي تسببها بحيش الشرق في مصر والشام ، كما تحدث عن الأحسان في مصر ووسع دغمت إحصاء عن البقيات التي حدثت في القاهرة بين عامي ١٧٩٨ ، ١٨٠١ ، وتكلم فيلوتو عن لوصفي المصرية الحديثة وتاريخ الموسيقى عند الشرقيين عموما ووصف

آلاتها ، و تحت مارسيل القوش اسكوفية وعدها ، لوجوده على آثار العرسية ،
وتكلم عن جامع اس طولون ومارج الدولة الطولونية ، كما تحدث عن مقاس ارومية ؟
ودون جومار ملاحظته عن العرب ، عايطين في مصر الوسطى ، ووصف (قصة
القاهرة) ومدينة القاهرة وسكانها وشارها وصناعات أهلها وعدتهم ؟ ووصف
حاكوتان مذكورة عن صنع خريطة مصر ، وتكلم بوجه عن صناعة الطلود ، وصحون
ربار عن الأوران (والثاقيل) العربية القديمة والحديثة ، وكذلك عن اعود القندولة
في مصر ، ووصف مزارع مدرسي القوم ومي سويب وصفاً هاروغرافياً ، وتحدث
حبار عن الزراعة والصناعة والحجر ودون كوليل Caille ملاحظاته
طوغرافية عن شبه جزيرة سيناء وتكلم عن أهلها وعاداتهم ، ووصفهم وحرهم ،
ودكر جوير Joubert أسماء الأماكن المصرية بين مصر ومصرى ومطيط ، ووصف
لاروسكي خط سير جزء من الجيش الفرنسي من العرش إلى قسطنطين في أثناء الدولة
من الشام ؟ ووصف مابوس Malus مذكورة عن مدرست ابوجه البحري وداراً وحديثاً
، تحدث حولوا عن مدينة رشيد والزراعة حراً من الإكسندرية ، أم ، وفي النيل من
سدي القاهرة ، ثم تحدث دلاورت Daperte تاريخ (موحراً) النيل من
شأنهم إلى المصح مرسي ، ووصف أسيف Eslé مذكورة مشهورة عن مدينة مصر
من أيام السلطان سليم لأول إلى محمد توبار ، ووصلا عن ذلك فقد تمت الأجزاء
مخصصة لدراسة مصر الحديثة عوثاً عن عيون موسى وآلات الري (التودوف مثلاً)
مما فهرس حمراي بأسماء مدن وما إليها في مديريات الخديفة ، كما اشتمل الجزء الثاني
شرح على شرح وصف الرسوم المتعلقة بالقول والصناعات في مصر (١)

وأشبه في وضع قسم التاريخ الطبيعي من كتاب وصف مصر ، بحدة من العلماء ،
وتحدث جيوغرافى سات هيلر عن الأسماء في هر النيل والبحرين لأنص والأحمر
(ووصف النماذج) كما وصف الحيوانات الندية ، واشترك مع أودوان Andouin
حر ، من هسلدا البحث الأخير ، وتحدث سافى عن طائفة من الحيوان والطيور
ولرواحم في مصر وفي الشواطئ ، الشامية والمصرية ، وصورها في رسوم كثيرة ، كما
تسب في الحديث عن لعل أليس من ناحية التاريخ الطبي واناخية الميثولوجية ،
وتكلم كذلك عن الثدييات ، وقد قام فكتور أودوان شرح الرسوم التي نشرها
سافى ودون عليها ملاحظات عدة ووصف (دليل) شجر الدوم في الصعيد ، ووصف

مذكورة مسهبة عن لسانات (والزهور) في مصر ، وعدد (كوكبير) مقارنة بين النبات في مصر وفرنسا ، ووصف جبال وادي النيل واستكشافه الجيولوجية في هذا الوادي كما وصف آثاره ، كما تكلم عن التربة في مصر وفيضانات النيل وأسباب اختلاف انقياسان عموماً ، وحلل (رسو) Regnaud طمس ليل ، وعدد رورير فصولاً ساوول وفي الحديث عن الصحور المصرية (والعربة) وعن القادن في وادي اقصير ، ووضع مذكوره مطولة عن وصف مصر الطبيعي (أو انبيء معنى) وعلاوة ذلك بالألطة المصرية القديمة ، فتكلم عن حدود البلاد ، وحالها ، وتربها ، وسكانها ، وصلاحيه أرضها للزراعة ؛ وطمس السس ، والديسا ، والفيضان ، ومقاس الروصه ، والفيضان المصرية (الدرع حصوم) ومعادها ، ومجراواتها ، ووادي النيل ، إلى غير ذلك ، وأجر رسوما عدة ؛ ثم دون كويل Costelle ملاحظت مترولوحة أحدث في القاهرة ، ثم أخرى مارومرية ؛ وهذا حدود (نوت) Nollet دون عدة ملاحظت مترولوحة وهجروم بركة أحدث في مدن مصرية مختلفة^(١)

وأما مجموعة الرسوم والصورات فكانت تضم صوراً ورسوما عدة ، تبدأ بحريطة مصر القديمة التي رسمها دانييل D'Anville ، ثم تشتغل على آثار اقصير ، والفيوم والوجه البحري فكانت هناك رسوم لحريرة بلة وآثارها ، وكذلك لحريرة الفنتين ثم كوم امبو ، وحلل السلسلة (لسان المهاجر القديمة) ، وإدفو ، والكاب إيسا ، أرمنت ، طة (مدينة هانو ، على عمون ، يمان الملوك ، الأصغر ، الكرنك) وكذلك رسوم أوراق البردي والنقوش الهيروغليفية وقد رسم هذه الأوراق حومار ، كما رسم مومياء الطيور والفاسيح سابق ، وحيوقرى سنث هيلير ؛ ثم رسوم قوص وقبط ، دندرة ، أيدرس ، الأنثوين ، أنتوى ، بن حسن ، ملوى ، المنز ، الفيوم ، سف ، بحيرة مريوط ، (حصن ماسون) ، هليو وليس ، صان الحجر ، بوسطة ، مائيس ، ررخ اسويس ، الدنا ، الإسكندرية ، لقود القديمة والنقوش الهيروغليفية ومجموعات الأواني والتمائم وغيرها

واشتمت الخرائط على خريطة لأسوان ، وأخرى لإيسا ، ثم قنا ، اقصير ، أسيوط ، المنيا ، مصر الوسطى ، وخريطة هيدروغرافية لالوجه لبحري ، وريخ السويس ، وميناء السويس ، والقاهرة (بولاق ، حريرة الروصه ، الحريرة) ، ثم رسم حديثة مراد بك في الحريرة ، ثم مصر القديمة ، الخللج ، القبة ، سمح الأهرام ، مقياس

الروضة ، حوامع القاهرة (ابن طولون ، السلطان حسن ، الخ) باب النصر ، باب
الفتح ، بركة فضل ، الأثرية ، حديقة وسراى قاسم بك ، سراى حسن كاشف
(مقر الجمع العلمى) بيت إبراهيم كتحدا السارى ، الرملة ، القلعة ، بير يوسف ،
ركبة الخاج ، بليس ، دمياد ، أم ديار ، قوة ، رشيد ، قلعة «أوقير» ، الإسكندرية
بمبائها القديم والحديث ، وحوامعها وحماماتها ومقارها ، ومبارطها : برج العرب ،
النصراوات ، الوكابل بالإسكندرية ورشد ودمياط ، المحاجر القديمة في جبل لملحة ،
الأديرة في سيناء ، ووادى الطرون

وعدا ذلك صم المجلد الثانى عشر ثلثا لرسم الصاعات والحرف المصرية ، كصناعة
الزبوت ، وتفرغ الدجاج ، ونفعار ودرجاج ، الدواقي والنادوف والحراث والورج
وطواحين الأرز ، والصبغ ، الخلود ، الصاعة ، الساء ، صناعة الحصر ، البحارة ،
الحداثة ، الحراطة ، صناعة الزجاج الخ واشترك في تفسير هذه الرسوم كل من ديميليه ،
حومار ، حولوا ، سبسيل ، دليل ، كوسل ، لوبر (المهندس) وهو ميلو Humelot ،
وديه ، ديكوئيل Descontils .

ثم كانت هناك عدة رسوم شرح أرباب وملابس الأفراد في مختلف الطبقات
وأثاث البيوت وآلات الموسيقى ، عدا صور بعض الشخصيات كأمير الخاج
ومراد بك ، الشيخ السادات ، سيد مصطفى باشا الذى أمر في واقعة «أوقير»
أثرية ، وبعض علماء القاهرة والآستانة ، والرافعات (أو بعلات) والسفراء والسيدات
المصريات ، والإفريقيات وغير ذلك (١) .

واشترك في وضع رسوم القسم الخاص بالتاريخ الطبيعى وتفسيرها كل من سافى ،
جوفرى سنت هيلر ، بيسا Bessa ، ريدو Barrabaud ، بريتر Prêtre ، موبيه
Meunier ، هوة Huei ، ديوبلى Dewailly ، تيربان Turpin ، (الحيوانات
والزواحف وما إليها) ، دليل ، رتو Beriaux ، بيسا ، بوتو Poteau سافى تيربان
(النسب) ؟ رويرر ، كلوكيه Cloquet ، ديمرى Deframe . لبشاديه Lechande ،
رينجويه Ringuet ، وسافى (الحيوانات عادمة افعار) ؟ سافى (العقارية) ؟
واحتص ديدويه برسم اسات ، ورويرر برسم للعادن (٢) .

ذلك كان كتاب وصف مصر الذى يبرر بحق من أكثر الموسوعات التى وصفت
في تاريخ مصر وحضارتها ووصف أرضها وترتها وبلها وبرتها وآثارها ومواردها

(١) t. X, XII (1809) t. 1

(٢) Ibid. XXII - XXIII, XIX, XXI

تروتها الخواصة والسياسة ، وبعديه وسدحها وأحاسيس شعورها وعادات أهلها
وأساليب معاشهم ، ومصاعبهم ومخازيهم — ولا شك في أن هذا الأثر العلمي كان
أعظم آثار الحملة الفرنسية وأثراها جلود على مر الأيام والعهود

يبد أن هؤلاء العلماء الذين حضروا مع بونابرت إلى مصر ، لم يخطوا نحوهم
ودراساتهم حتى يعودوا إلى بلادهم ، بل ينادوا بنشر كل ما يسر إيجاده منها وهم
في هذه البلاد وفروا على إخوانهم من أبناء المجتمع العلمي ، وناوهم ربلاؤهم من
أعضاء لجنة العلوم والادب في محوثة بحث وراء الحقيقة وإبروء لظمتهم العلمي ، ثم
احصت إحدى الصحف التي أنشأها الفرنسيون في هذه البلاد بنشره بعد ذلك حتى
يعيد من فرائده سائر مواطنهم ، وكل من رغب في الاشتراك في هذه الصحف وقراءتها
وكانت (لادكار احسن) Decade Egyptienne هي لصحيفة التي احتضت بنشر
بحوث العلماء وما يعونه من دراسات في قاعة المجتمع العلمي على أن الحديث عن
هذه الدحية من جهود العلماء والمجتمع إنما تناول الكلام عن أثر من آثار الحملة في
مصر هو إدخال الطبعة إلى هذه البلاد وظهور الصحف بها لأول مرة في تاريخها

الطبعة الأهلية :

أهم ثمارت واهتمت حكومة الإدارة باختيار لجنة من الشخصيات بشؤون الطبعة
كما اهتمت باختيار عدد الكثر من أعضاء المجلس الذين يجمعوا الخبرة في مصر ،
ويعرفون شراف وارت على الاستعدادات التي حوت على نطاق واسع من أهل عمير
ووسائل معدات الحملة العسكرية ، من محضين ومن وحوه نشاطه لاخبار « العلماء »
والأعضاء الحاذقين الذين كانوا يعملون في در للطبعة الأهلية فرنسا ، أو في أماكن
أخرى ، للعمل في المطابع التي قرر إحصارها معه إلى مصر . وكانت هذه مطابع
أورعية وشروية أمدتها للطبعة الأهلية بالأدوات والحروف التي زككي ثلاث مطابع
فرنسية واسطاع الخيال كعار إلى بناء على مصر من ثمارت أن يتابع هذه الطبعة (مطبعة
الحملة الفرنسية) أدوات كثره (١) ولما كان محمد علي « مطبعة » كأداة صالحه للدعاية
عكسه من إدائه بيا « وأعراسه » ، أو نكت للتشويراب التي أراد من إصدارها جلب
مودة المصريين ، واطمئنانهم إلى الحكومة التي أرفع إنشاءها في بلادهم ، فقد فاق
اهتمامه بالطبعة العربية على سواها من المطابع ، وعهد إلى (موع) صاحب البيت

العلمي الدائع ، باختيار « مستشرقين » أو الذين يقدرون معرفة الطائفة العرقية والشرقية ، يصعد موع بالأمس ، واختار (موظف) لطبعة الشرقية من بين ، تخصيص في شؤون الطائفة الشرقية أو الذين كانوا يعرفون اللغة العرقية في باريس أو رومة أو لاهناكان

وقد نجم عن صافر جهود بونابرت وموع وحكومة الإدارة عمومًا من صارت لجنة العلوم والفنون ضمن سدة المراع من تأليفها عددًا من المستشرقين والطابعين والمصححين القريين المصحين بشؤون الطائفة ، انشأ كتاب مهمهم العمل في الطائفة الحملة الرسمية . فأما طابعون والمصححون ومن إلتهم الذي انشأوا بالعمل في الطائفة الأفريقية ، وصنعتهم إليها لجنة العلوم والفنون « كما و » Beson ، بودوان ، Beaudou ، جالان ، Galand ، بولانجر ، Boulanger ، لاپورت ، Laporte ، بونتيس ، Pontis ، بارتييه ، Barthe ، ماركوي ، Marquoy ، بونيلو ، Bonello ، بونيه ، Ponce ، جاردان ، Jardin ، نيفيه ، Nivel ، فيري ، Véry ، دوس ، Dubois ، حراسر ، Gransart ، مارليه ، Martel ، دون ، Luthons ، كاسيرا ، Castera^(١) . وكان رئيسهم مارسيل المالم المستشرق .

وأما مودعو الطائفة الشرقية . وهؤلاء لم يصمم لهم لجنة علوم وفنون وإنما فكأوا عشرة ، أهمهم على ما يبدو أحد ستة خمسين من دير ~~مكرر~~ ، وهو إنا هالالا Eia fiala ، وقد وسمت تحت إدارته منشوراته العرقية^(٢) . وكانت هذه الطائفة الرسمية التي أحضرتها الحملة معها إلى مصر تتألف من ثلاث مطابع دراسة ، وندبين عربيتين ، وواحدة يونانية . وسعهم إلى قسمين : مطبعة الشرقية والطائفة العربية ؛ وتعرف جمعها باسم (مطبعة الشرقية والفرنسية) وكان مربييل المدير الذي أشرف على جميعها . وقد حملت أجرة القاء (أورمان) هذه المطبعة

وقد أحضرها الحملة معها إلى جانب هذه (مطبعة الرسمية) مطبعة أخرى خصوصية كان صاحبها مارك أوريل Marc Aurel . وكانت قد نشأت صدافه متينة بين والده مارك مارك أوريل ، وكان صاحب مطبعة ومكتبة في مدينة هلس وبين بونابرت الذي عرفه منذ أن كان في حامية هذه المدينة ؛ وقد حضر مارك أوريل الأسر مع الحملة وصعد

(١) Villiers 350-1 et (Note 1)

(٢) Chales-Roux, op. cit. 139

(طابعا حر) ودون أن تكون له صفة رسمية ، ولم يكن لدى مطبعة أوريل التي حملها
للمسة (سان كيلوب) Sans-Culotte أية حروف عربية .

وبدأت مطبعتان (الرسمية والخصوصية) عملهما وهما ما زالان في عرص استجر ،
في أثناء انشغالهم من فرنسا إلى مصر . فأخرجت مطبعة مارسيل الرسمية «عصر المطبوعات
الفرنسية» ، منها بدءاً بوبارت إلى حينه في ٢١ يوليوس ، وأمره الجوى في ٢٢ وزيه
سنة ١٧٩٨ . كما طبعت بالعربية منشور أو بدءاً بوبارت المنشور إلى أهل مصر ،
وهو «الرسوم» (التي) طبعوه وأرسلوا منه نسخاً حين حلولهم بالأسكندرية إلى البلاد
إلى (قدموا) إليها تنظيمياً لهم ^(١) تاريخ ١٣ سبتمبر أو ٣٠ يوليوس ١٧٩٨ وأذيع
عادة استيلائهم على الأسكندرية ، أي في ٢ يوليوس من العام نفسه ^(٢) ومن المحتمل أن
تكون مطبعة مارسيل أوريل قد أخرجت هي الأخرى «عصر المطبوعات» (الفرنسية)
في أثناء العبور كذلك .

وقد معادرت الأسكندرية في صدر بوبارت أمره في ٧ يوليوس بإيران المطابع
الفرنسية والعربية والوطنية إلى البر ، أي تلك المطابع التي كانت تحت إشراف
مارسيل ، وركب أحد اصحاب من هيئة ركان حربه للإشراف على هذه العملية ، كما
أمر بأن ينقل المطابع إلى منزل فصل السفينة ، على أن يتم إعداد المطابع الفرنسية
والعربية في خلال يومين فقط . لطبع كل ما يمكن إرساله لها من أوامر ومشورات
تصدرها إقباده العامة في أثناء الرحب على القاهرة . كما كلف بوبارت المطبعة العربية
لتطبع أبحاثه نسخة من منشوره أو بدائله العربي ^(٣) ولما كان بروس قائد الأسطول
قد عاد يارحله أوربان ميناء الأسكندرية إلى أي مقر في صبيحة يوم ٧ يوليوس ^(٤) ،
فمن المرجح أن مطبعة مارسيل كانت قد أرسلت إلى البر قبل يوم ٧ يوليوس ، بل بدأت
عملها قبل هذه التواريخ . والدليل على ذلك أنه لم يلبث أن ظهرت بالأسكندرية قاعة
(أو تعريفة) نفيسة المعلقة المتداولة تحمل تاريخ الأسكندرية في ٦ يوليوس ١٧٩٨ .
فتكون المطبعة الرسمية إذن قد بدأت عملها بعد قليل من أسبوع واحد من الاستيلاء
على الأسكندرية . وفي مكان غير منزل فصل السفينة الذي ذكره أمر بوبارت وقت

(١) الجزء ٣ ١

Canivet 9 (٢)

Corresp. No. 2784 : Ibid 9 (٣)

Douin (La Flotte) 81 (٤)

رجيل قائد الحملة العظام من الاسكندرية ومداية رحله صوب القاهرة^(١) ؛ ولا يوصى
صدور أمر بوبارت في ٧ يوليو بنزع عدد من مدائه المعروف إلى « أهالي مصر »
دليلاً على أن المطبعة الرسمية بإشراف مارسيل قد بدأت عملها في مدينة الاسكندرية
في يوم ٨ يوليو ، أي في اليوم التالي لظهور هذا الأمر كما يعتقد بعض الكتاب

ول كانت المطبعة الرسمية (مطبعة مارسيل) تتألف من مطابع عدة ، ومن اعداد
نقدها ، سلام إلى القاهرة مع الجيش في أثناء رحل بوبارت الشاق على العاصمة ، فقد
فصل القائد العام بإبقاء هذه المطبعة بالإسكندرية ، واختار لها بيت القفل لسدق مكاناً
كما أسلف ، واكتفى بمراسل المطبعة ، لخصوصية (مطبعة مارك أوريل) إلى القاهرة ،
فتسح أوريل ومطبعته ، الجيش الزاحف ، واعتمد بوبارت على هذه المطبعة (لخصوصية)
في طبع « واسره باللغة العربية » ، كما عهد إليها بطبع الصحفيين الذين نشأها بوبارت
في القاهرة ، وهي لوكورنييه وليجيب Le Courrier de L'Egypte ، لاديكاد احييسين
La Decade Egyptienne ، وسمى (أوريل) اسمه طابع (مطبعي) الجيش ،
وقد ظل محتفظاً بهذا اللقب حتى وقت رحيله من مصر . وقد طبع أوريل أول أمر
يومي من أوامر بوبارت في ١٦ أغسطس ١٧٩٨ ، وهذا ما ظلت مطبعة مارسيل
رسمية تعمل بالإسكندرية ، تحت عنوان (المطبعة الشرقية والعربية) واستخدمها
الجنرال كليبر حاكم الإسكندرية في طبع ما تصدره بإذنه من أوامر وتعليمات ، كما كانت
ترسل إليها أصول امدادات وغيرها ، المكتوبة باللغة العربية لطبعها . وفصلاً عن ذلك
فقد أخرجت مطبعة مارسيل بالإسكندرية ، إلى جانب « قانون العقوبات العسكرية لجميع
حدود الجمهورية » مصممين مصريي أحدهم « حروف المعاني العربية والتركية والفارسية »
والآخر « تعاريف للقراءة العربية مخرجة من القرآن (الكريم) لمساعدة أولئك
الذين يريدون معرفة هذه اللغة » . وكان هذا أول ما طبع إطلاقاً في مصر من الكتب^(٢)

وما إن دخل بوبارت القاهرة ظاهراً حتى بادر بإصدار أمره إلى الجنرال رتييه
في ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٨ أن يطلب إحصاء المطابع العربية والعربية (أي
المطبعة الرسمية) إلى القاهرة بكل سرعة . وصعد رتييه بالأمر في اليوم نفسه ، ولكنه
لما كان يحول مكان هذه المطبعة على وجه التدقيق ، فذكرت إلى مو حاكم رشيد ليرسل

Charles-Roux, op. cit. 140 (١)

Ibid 142, 144 (٢)

هذه المطابع إذا كانت في رشيد^(١) وكتب يومارت كذلك في ٢٧ يونيو إلى كلير أن يرسل المطبعة الرسمية إلى القاهرة ؛ وكان ذلك قبل أن يبعث (مارك أوريل) في طبع أو إعداد (لو كوريه دوسجست) وعندما تبرع يوبيرت بطم جهود علماء الحملة عهد في أمره الذي أصدره في ٢ أغسطس ١٧٩٨ (وقد سبق ذكره) في موج ورتويه وكبير مالي مختار مكان يسع لإيواء الخرج العلمى وانتشأت الجمعية الأخرى التي قرر تأسيسها ، ثم مطبعة رسمية^(٢) وفي الوقت الذي استمر فيه يومارت علماء الحملة إلى القاهرة ، طلب من حديد حضور المطبعة الرسمية وعلى ذلك فقد كتب (رتويه) إلى كلير في ٢٠ أغسطس طلب منه إرسال إحدى مطبعي المرينيين إلى القاهرة طرأ حاجة الشديدة بها ، فقد كان المستغرق إرسال الأصول (العربية) إلى مطبعة مارسيل بالإسكندرية ثم عودهم إلى القاهرة رسماً بطولاً إذ يحصل بين الإسكندرية والقاهرة مسافة الأربعة كيلومتر بفارق الطريق البيل . ومع ذلك فقد تأخر وصول المطبعة الرسمية ، واستمر يومارت أن يبعث إلى (مارك أوريل) تطع بحرق الحملة ، فصدر أوله إعداد (لو كوريه) في ٢٩ أغسطس وأول إعداد (لاديكاد) في أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، ولم يزل العددين عند ظهورهما رسماً ومرت حسب ما كان بهما من أخطاء مطبعية كثيرة^(٣) .

وأخيراً وصلت المطبعة الرسمية إلى القاهرة بحرقها الفرنسية والعربية والنوبية ، عقب نوره القاهرة الأولى مباشرة ، وحضر معها مارسيل وسائر «مؤيديه» فاستقرت المطبعة في نفس المكان الذي أقام فيه الخرج العلمى ، ولا كتبها مالمثل أن نقاب إلى منزل عثمان بك أشهر عمال الأركية ، بينها طلب سراى حسن كاشف مدير الخرج العلمى ، وعرفت باسم (المطبعة الأهلية^(٤)) وعينت تحت إشراف المستشرق مارسيل ، ودار يوبيرت مطبعتها فصدر «مر» في ١٤ يناير ١٧٩٩ من ست مواد رسم خطة العمل ؛ ويعهد بالإشراف على قسم المطبعة العربية إلى (فاتور) Venture ، وعلى قسم المطبعة الفرنسية إلى فوفيه دي بورين Bourienne وذلك تحت إدارة مارسيل نفسه مدير المطبعة الأهلية . وقامت (المطبعة الأهلية^(٤)) بطبع الأوامر اليومية للحيش والسدات أو المنشورات العربية ، كما أخرجت مطبوعات باللغة النوبية ، وأخرى رسمية باللغة

Corresp Nos 2853, 2864 : lb d 143 (١)

Canivet II (٢)

Corresp. No 3672 (٣)

Keller IV 206 (٤)

النزكية وعهد إليها كذلك نطع جميع الخلة (لوكوديه) و (لادسكاد) (١).
وبما يجدر ذكره أنه كان لا زال واحد بالإسكندرية بعض أدوات للطبعة
وحروفها ، بمقدار يسمح نطع بعض الأوامر والنشورات بحسب إشراف (يسون) .
وعلى ذلك فقد انتهت الحاجة تماماً لطبعة مارك أو بل الخصوصية ، ورغب مارك أوريل
في العودة إلى فرنسا ، فحرص على توارث أن تشتري مطبعته ، وعهد القائد العام
بني دحمت وإثنين آخرين بتقدير التقييم المناسب لها ، وبأن كان توارث يريد معاملة
مارك أوريل بحسن ، فقد قدرت الخلة ثمناً لها ثمانية آلاف وخمسمائة فرنك (٢) ،
وسكني أوريل لم يستطع فصل البيع قبل العودة ، توارث إلى فرنسا . وعند ما تولى
الجنرال كليبر قيادة الحملة أعيد تقدير قيمة للطبعة بثمن يقل بمبلغ ألف وخمسمائة فرنك
من سابقه ، وصدر أمر كليبر إلى (الصراف العام) شراء مطبعة مارك أوريل بثلاثة
آلاف فرنك ، وكان ذلك في ٧ سبتمبر ١٧٩٩ (٣) ، وعاد أوريل إلى فرنسا .

أما المطبعة الأهلية (الرسمية) فقد طاب في مكابها عمل عمال تلك أشقر ، حتى إذا
أدت ثورة القاهرة الثانية أيام كابر ، وكانت ثورة عبيدة هاجم اشوار في ثنائهم المجمع
بعضى ومكان المطبعة - نقلت المطبعة إلى الحجرة في أول سنة ١٨٠٠ ، ثم نُقلت
في مكابها الأول بعد أن هدأت الأمور - على أنه ما انتشر دمر المصريين بالقاهرة
وخرجت الجيوش الإنجليزية والعثمانية على العاصمة في ثناء حملة ١٨٠١ المعروفة ،
بحاصر الأعداء مدينة القاهرة حتى نزل المصريون - مع ما ملوه إلى القلعة -
المطبعة ، وبعد حلاها المصريين من البلاد نقلت المطبعة إلى فرنسا (٤).

وأُحرقت المطبعة الأهلية (ومطبعة مارك أوريل كذلك) ، إلى جانب الأوامر
والنشورات وجميع الخلة ؛ « دليلاً سرياً » يشمل طائفة من البحوث العلمية والأدبية
من عمل أعضاء المجمع العلمي ؛ كما أُحرقت بعض الكتب في النحو والمجاء بالدين
امرية والفرنسية ، فضلاً رجال الخلة والمصريين أنفسهم الذين يريدون معرفة اللغة
الفرنسية ، وطُبعت كتاباً بالمرية عن سقوط القسطنطينية ، وأصدر مارسيل طبعة
من وصايا لقمان الحكيم ، كما طبعت أسماء مدريات القطر المصري باللغة العربية (٥) .

Reybaud IV 64 (١)

Desgenettes III 13, 17 (٢)

Canivet 13 (٣)

Ibid 14 (٤)

Recueil des Pièces . . El-Halaby (Karre An VIII); Reybaud (٥)

VI 64 5 ; ١٤ - ١٢٢٠٣ أخرى . Galand I 278 90; II 262-323

ثم كتاب ديجت في مرض الحدرى ، ووصف مرض الزمد في مصر لأسطوان سافرسى
باللغتين العربية والإيطالية ، وموجزًا للحوادث اتق وقعت في أوروبا خلال الأربعة
شهور الأولى من العام التاسع للجمهورية ، ودستور السنة الثالثة للجمهورية ، امرسية ؛
وبعض آيات قرآنية من اختيار ورحمة مارسيل ، ثم الأوراق الخاصة بمحاكمة سيدان
الخلقى ، وصوره الحكم الصادر بإعدامه . وإعدام « كل من له حرة في عذر وقتل
سارى عسكر انعام كلهير » - وقد نشر الشيخ الحمرى هذه المستندات في تاريخه -
وعبر ذلك (١) .

وحارت المطبعة الأهلية بإحباب الكثيرين من انشاع أعضاء الديوان ، وعبرهم من
المصريين المتقنين الذين راروا مطبعة مارسيل ، وقد تقدم كيف رار انشاع الهدى
والقبوى والصاوى وعبرهم المطبعة مرات كثيرة ، وأنعموا بطرق الطبع لإخراج
المطوعات العربية والفرنسية . وكان ممن راروا المطبعة كذلك الشيخ محمد القاسى ،
وكان قد شاهد مطبعة القسطنطينية ثم « مطبعة الشوام » ، بالدير المارونى في لبنان ،
فاستطاع الشيخ القاسى أن يؤكد بوق المطبعة الأهلية على ناطقتين ، التركية
واسورية ، وقال إنها مصطنعة كثيرا ، وكان الشيخ الكرى ممن راروا المطبعة ،
وسأل أسئلة عدة عن تأثير لطباعة على الحضارة . وقال إنه يعرف كتبا عربية كثيرة
يود لو أن للمطبعة طبعها ، وسأت بين الشيخ الهدى ومارسيل صداقة عظيمة ، فترحم
مارسيل قصص الشيخ إلى الفرنسية (ونشره في باريس ١٨٣٦) (٢) .

صحيفة (لو كورييه دوليجيت)

وكانت صحيفة (لو كورييه دوليجيت) Le Courrier de L'Egypte أول الصحف
اتق أخرجها المطابع الفرنسية في القاهرة ، قام بطبع أول أعدادها مارك أوريل في
مطبعته . لقد رغب بوناپرت أن يتولى هيئتين مستقلتين ، إحداهما سياسية تنشر
الأخبار التى كان يهم جيش الشرق معرفتها ، والأخرى أدبية تضم طائفة من غوث
علماء الحملة وموجزًا لما كانوا يقومون به من دراسات ، وما وصلوا إليه من نتائج عبية
هامة ؛ فأسس للعرض الأول صحيفة (لو كورييه دوليجيت) ، وكان المقرر أن تصدر
مرة كل خمسة أيام ، وأصدر لتحقيق العرض اشاق صحيفة (لاديكاد ابجسيين)
La Decade Egyptienne على أن تصدر مرة كل عشرة أيام . فكانت مهمة الصحيفة

الأولى أن تشر أخبار أوروبا إلى حاسب الأخبار المحلية ، وذلك حتى نغيب جيش الشرق على محريات الحوادث في داخل المستعمرة الناشئة وخارجها ، وحتى تحمل هذه الصحيفة (لوكورييه) صورة صحيحة إلى عاصمة البلاد عن الحياة العامة في المديرية والأقاليم ، ثم نعمل إلى لندن في مختلف أنحاء البلاد صورة الحياة في العاصمة (١)

وكان بونارت يهدف من ذلك إلى توجيه رأي قارئ هذه الصحيفة إلى ناحية معينة . وما كان يقصد من تمان عظمية على نجاح تجربة الاستعمار الفرنسي في هذه البلاد الشرقية) وعلى ذلك فقد عين بونارت ناخبين الشرفيين على صحيفة (لوكورييه) معه ، فعرض في نادي الأمر رئاسة التحرير على رسيغال حرايمزون أحد أعضاء مجمع العلمى ولكنه رفض ، فاختار بونارت العالم الرماضى فورييه Fourier ، وما كان فورييه لا يزال وقتئذ في رشيد ، فقد عهد بونارت إلى كوستار بالاشرفاء على إصدار الجريدة ، فصدرت أعداد (لوكورييه) الأربعة الأولى بحسب إشرافه ؛ ثم سلم فورييه العمل عند وصوله إلى القاهرة عند ذلك خمسة عشر يوما ، وقد ظلت مطبعة مارك أوريل (أصدر (لوكورييه) حتى العدد الثلاثين في ١٩ حرمبال من السنة سابعة للجمهورية (٨ أبريل ١٧٩٩) ؛ ثم تولى مارسيل طبع الجريدة في لطبعة الأهلية بدءا من العدد الواحد والثلاثين في ١٩ مسيدور من العام نفسه (٦ يوليو ١٧٩٩) . وقد أرسل بونارت أول أعداد (لوكورييه) إلى كليبر بالإسكندرية ، وكان هذا العدد يشتمل على مقال خاص بالدولة السوي ، طلب بونارت من كليبر أن يضع منه المطبعة العربية) لديه نسخا عديدة لإداعته في البعثات ، وواعد كليبر بإرسال أربعمائة نسخة من الجريدة وعرض بونارت من ذلك ولا شك هو الترويج لسياسة الإسلامبة - وطنية بين شعوب البعثات الإسلامية على أن كليبر لم يرد في عدد (لوكورييه) ذلك كمال الذي كان يشتهر بسب ما به من أخطاء مطبعية كثيرة . ولم يكتم استيلاءه ؛ بل كان يتوقع امتناع كثيرين عن الاشتراك في (لوكورييه) بسبب ضعف أمانة الجريدة (٢)

وقد ظل (فورييه) يشرف على الصحيفة ، حتى إذا تولى كليبر القيادة العامة عهد إلى (ديميت) كبير أطباء الحملة برئاسة التحرير ابتداء من العدد السابع والثلاثين في ١٥ ستمبر ١٧٩٩ ، ثم استمر صدور الجريدة في عهد كليبر وهو حتى بلغ عدد أعدادها ستة عشر ومائة ، ظهر آخرها في ٣٠ بريرال من السنة النامعة للجمهورية

(١) Reybaud IV 64 : Ibid 145

(٢) Charles-Roux. 146 : Canivet 15 - 6

(٩ يولية ١٨٠١) ، وكان يشمل على أحجار سلم نيار كما نشرت شروط هذا التسميم كمنحى للصحيفة وكان هذا للتحقق آخر ما أخرجته المطبعة الأهلية (١)

وشرت (نوكوريه) الأوامر الرسمية وأحجار الجيش وحوادث القاهرة والأهالي وأمهات الأحجار الحية ، كآساء لاحتفالات ولأعياد ، مثل الاحتفال بوفاء النيل وليلوى وأعياد جمهورية ، ثم المآذب وأحجار التثليات وحتلات الموسيقى والرقص اق كانت تقام في ملهى (المعولى) وفصائد من بطن حلال ، وسى Benaben وعبرهما ، وهذا عدا إعلانات الوادى والقهاوى (والبارت) في الأركية ومصر القديمة ، وفاربعات (السكرونة) وما إلى ذلك ؛ ثم وصف الاستمراسات العسكرية لخصور بوبرت ، وعبث الحرمة بشر حوادث السوان وملحصات حليانه ، واهتمت على وجه الخصوص بشر رسائل الديوان ونداءه إلى الأهلين ابى عنهم فيها على الهدوء والسكينة وطاعة أولى الأمر . وصلا عن ذلك فقد شرت (نوكوريه) أحجار اشتم وأوروا ابى تمكن أن يحملها معن اسم أى أسطعب احتراق نطاق إحصار اسحرى الذى صرته الإبحير على الشواطىء المصرية ، وأحارب شره إرفاة العسكرية المصرية

وشرت الحريرة كذلك بعض الوادر وبعض الصغيرة إلى تساعدة العربيين على فهم شىء من عادات وعاليد المصريين ، من ذلك قصة ذلك دوى الذى سوره (رخو) وقد سبق ذكرها ، ولعل من أهم ما شرته (لوركويه) موحر لرحلة فولى أشهره وصيه صاحب الرحلة معه . وصلا عن ذلك فقد شرت (نوكوريه) من وقت لآخر شىء من أحجار المجمع العلمى وحدثه وموحر بعض محو أعضائه ، كوصف قصر فارون وركه فارون ومدينة الهرود ونجرات اسطرون ووعر الاماء الذى مع عرب هذه البحيرات ، ثم نجر موسى ومدينة بوسطة ورحلة لوبير ، وحرابان بوبر وحانت حبس ودينوا في ررح لسويس ورحلة ديون في الصعيد واستكشافات لوبير ولاسكرية وشارول في ررح العرب ، ومقال لخيرار عن ررح اسويس ووصف لمجموعة حيوفرى سنت هيلير العلمية في سارخ الطبيعى (٢)

ومع ذلك فإن نشر محو الحملة لم يكن في واقع الأمر مهمة (نوكوريه) شأن ، لأن الصحيفة الأخرى (لاديكاد اجينيين) هى التى اختصت بذلك

(١) Canvet 15, 17

(٢) Garland II 152 — 50, 169 171, 173—5, 223 5, 241—3

وقد حدث في أولى الجلسات التي عقدها المجمع العلمي في ٦ فريكتيدور من السنة السادسة للجمهورية العربية (٢٣ أغسطس ١٧٩٨) أن سم الاتفاق على إنشاء صحيفة أدبية ، تكون بمثابة لسان المجمع ، وتحدث عن ثلاث طرائقه ونشر محوهم ، كما احتار الأعضاء بوارت ومالين ودعوت مشرفين على إصدارها ؛ ثم اقترح كفاريلاني « العشرة القديمة » La Decade Philosophique اسمها لهذه الصحيفة ، ولكن الأعضاء ما لبثوا أن اجادوا « العشرة المصرية » جريدة للأدب والاقتصاد السياسي « La Decade Egyptienne Journal Littéraire et d'Economie Politique » اسمها ط . ثم كلف تالان موضع برنامج الصحيفة . فيما عهد إلى (دعيت) بالإشراف على طبعها ، أما بوارت فلم يتدخل في أمرها (١) وكان يحب إشراف (دعيت) أن تظهر عدد الصحيفة الأول في دابة أكتوبر ١٧٩٨ ، حتى إذا صدر (دعيت) القاهرة مع بوارت في حملته إلى سوريا أشرف (فورييه) على طبع الأعداد الرابع والخمس والسادس من الجريدة ، وبولت مطبعة مارك أوريل طبع (لاديكاد إحيييين) . تصدرت الأعداد الثلاثة الأولى فقط ، ولم تل طريقه طبعها برضاء بوارت فطلب إلى (دعيت) في ٢٤ نوفمبر ١٧٩٨ أن تقوم النسخة الأهلية بإشراف مارسيل نطبع لصحيفة وأن أمي ظهورها في مواعيد مطبعة مرة كل عشرة أيام .

وقد أعادت مطبعة الأهلية طبع الأعداد الثلاثة التي أخرجها مطبعة مارك أوريل ، وما كانت لتطبعه الرسمية قد وصلت بحرونها عرجية وانعزقة إلى القاهرة ، وبوارت انقاره الأولى مباشرة . وحصر كذلك مارسيل وحالان وسائر موظفيها في أواخر شهر أكتوبر ١٧٩٨ وقد أمكن طبع الأعداد الثلاثة من (لاديكاد إحيييين) في القاهرة ابتداء من العدد الرابع الذي ظهر في ٢٤ نوفمبر ١٧٩٨ ؛ ولا يعني صدور أمر بوارت في ١٤ يناير ١٧٩٩ تنظيم المصعة الأهلية نهائيا أن هذه نسخة كانت معطلة عن العمل كما يعتقد بعض الكتاب .

وأعد تالان (برنامج) الجريدة ، أدى نشرته صحيفا (لاديكاد) كعاطا لايتاحي ، ومع أن بوارت لم يرتع تماما لهذه البرنامج ، فقد منح تالان في إظهار نعرين من نشر هذه الصحيفة ، وهو أن تصبح (لاديكاد) خير واسطة يتمكن عضلها الفرنسيون سواء في مصر أم في فرنسا ، ثم أوروبا بأكملها ، من معرفة هذه

البلاد (مصر) معرفة صحيحة فقال : « لا ينبغي أن يظل ما نعيده فرنسا من فتح مصر قاصراً على الحاجة السياسية ، أو اشتئون التجارية ، بل يجب أن نعيد من ذلك المنفع أيضاً العلوم والتعارف إلى عرصنا الذي هدف إليه هو أن يعرف مصر ليس فقط أوثق الفرنسيين الموجودين بهذه البلاد ، بل يريد أيضاً أن يحمل هذه المعرفة إلى فرنسا وإلى أوروبا ، فقد طلت حتى وقتنا الحاضر لا تعرف موارد هذه البلاد ، التي داع صيها وثروتها . وموقعها ووضعها الطبوغرافي منه معرفة كاملة صحيحة » ثم أحد تبيان بوضع الصعوبات التي عطلت عوثر الرحالين الأوروبيين الذين راووا مصر قبل الاحتلال الفرنسي ، وهي صعوبات نشأت من خوف أهل البلاد ، وعدم تفهم الرحالين الذين لا مهمون لهم ، ثم انصراف الحكام المستبدين عن تشجيع الأحباب الذين يريدون الرحلة في بلادهم ، « وقد تغير ذلك كله الآن ، منذ أن داب مصر لسلطان (الفرنسيين) نصار من السهل إلى (هؤلاء) أن يبحثوا عادات أهلها ، وأن يعرفوا على وجه الدقة حال ساحها وبوع مشحنت أراضها وما عليه رراعها وما يمكن إدخاله من غيمسات إلى هذه الزراعة ، بل في وسعنا مطلعئين أن نرور آثارها القديمة ، وأن نرف ندفة وعبابه تلك المحدث التي سطها الطبيعة أمام أبطارنا ، وبذلك يتسنى تصحيح تلك الأخطاء التي هي نتيجة الجهل بأحوال هذه البلاد ، أو كان منشؤها حماس المحبين لها ومعالاهم » .

وهكذا كانت مهمة هذه الجمعية كما وعد رابعها الذي أعده باليان — كشف القناع عن هذه البلاد ، وإرار صورة صحيحة لها تمكن العالم العربي من التعرف إليها وإدراك قيمة ما بها من موارد غنية وما كانت تصح بين حواشيها من آثار قديمة وقد أكد تالان هذا الغرض العلمي من إنشاء (لاديكاد) فقال « وسوف يكون لسلك إنسان الحق في أن يشرف في هذه الصفحة كل ما يأتي هائلة من الداجية العلمية » ولا شك في أن بحث المسائل العلمية وتبادل الرأي بين العلماء في أمرها من شأنه أن يساعد على معرفة الحقائق العلمية وإداعتها ، ولئن نشر الخريدة شيئاً من البحوث المقدمة للنشر إذا حرجت عن هذه الموضوعات العلمية ؛ ذلك بأن جمعية (لاديكاد) ليست سوى « قاعة للمساخرات الحية » ولا ينبغي أحماسها أن يحملوا من صفعاتها ميداناً للتراشق والحسومة « فالصون الحيلة جيدة للحرية ، كما أنها من ألد أعداء القوضى الخلقية » (١) .

وعلى ذلك قد كان من للسطر أن تعمل الجمعية بهذا المراجع الذى نشرته ، فتضم صفحاتها كثير من البحوث العلمية « المستقلة » وطائفة من المسائل التى يتصدى العلماء لمناقشتها ؛ ولكنها اقتضرت على نشر جلسات الجمع العلمى إلى جانب مذكرات أعضائه ، أو موجه بعض المذكرات والبحوث التى يلقاها الأعضاء فى جلسات الجمع إذا كانت هذه المذكرات والبحوث مهمة . ومع ذلك فقد طلب حريده (لاديبكاد) ذات قيمة تاريخية وعلمية فريده . وذلك لأن « أصول » المذكرات والبحوث التى ألفت فى الجمع العلمى ونشرتها الجريدة ، سرعان ما احتضت من الوجود وأصبح لشور عنها متعذرا . فكانت (لاديبكاد) وما زال من أهم المصادر — إلى جانب أربعة مجلدات أخرى نشرت على حدة تحت عنوان « مذكرات عن مصر نشرت فى أثناء حملة بومبارت »^(١) — التى يمكن استقاء كل ما يتعلق بنشاط الجمع العلمى وما ألقى من بحوث فى جلساته منها ، وتشاركها فى هذه الأهمية صحيفة (لوكورييه دوليجيت) ، بفضل ذلك القدر اليسير الذى نشرته عن نشاط الجمع وبحوث أعضائه على نحو ما بينا^(٢)

وكانت (لاديبكاد) تظهر فى كراسات صغيرة ، ولم يمكن إصدارها مرة كل عشرة أيام كما كان العزم ، بل انتهى الأمر بأنها صارت تصدر مرة كل شهر حسب . وقد جمعت هذه الكراسات فى ثلاث مجلدات ظهر الأول منها فى ٢٩ ريكندور السنة السابعة (١٥ سبتمبر ١٧٩٩) وأهدى إلى بومبارت . وظهر المجلد الثانى فى ٢٧ فلوريال سنة الثامنة (١٦ مايو ١٨٠٠) وأهدى إلى كليبر ، أما الثالث فقد صدر فى ١٠ جرميال سنة التاسعة (٣٠ مارس ١٨٠١) وأهدى إلى الجنرال مو ، وهؤلاء كانوا قواد الحملة الثلاثة^(٣) .

ولا يسعنا ونحن نعدد الحديث عن الصحف التى ظهرت فى عهد الحملة إلا أن نوه بصحيفة النيه Tambyeh - L'Avertissement ، تلك الجريدة التى عزم مو فى نوفمبر سنة ١٨٠٠ على إصدارها كوسيلة للترويج لحكومته وكتب صداقة المصريين واسمائهم فى تأييد حكومته ، ولكنه لم يفعل ، فظل مشروعا بها حرا على ورق ولم تصدر الجريدة وقد سبق الحديث عن (النيه) عند الكلام عن مو وحكمه .

Mem Sur L' Egypte . . à Paris Par Didot Ans VII - XI; (١)
Charles-Roux 152

Canivet 21 (٢)

Ibid 19 (٣)

تلك كانت قصة الطاعة والصحف ، أحد مظاهر ذلك النشاط العلمي الواسع الذي حفظ التجربة الاستعمارية في مصر من أن تصحح معاصرة عسكرية وسياسية فاشلة فحسب ، وأكسبها ذلك الطابع العلمي الذي حط به بعض آثارها ، ولا حداث في آن العلماء الذين حضروا إلى مصر وحاولوا تحيائها منقذين مباحين ، لا يبعون من دراساتهم العلمية سوى أسكتش في هذه البلاد ، التي صلب معققة دون العالم الغربي أحياناً عديدة ، قد تركوا آثاراً أتت على مر الزمن من انصارات نوبارت أو « اسكاراته » السياسية أو « مشروعات » موأكر دعاء الاسعجار الفرنسي في مصر وقد أدرك نوبارت كما فعل كثير من بعده أن إنشاء المستعمرة اساحبة أمر لا يكفي لتحقيقه إحراز النصر في انذارك ضد انكسكات بليلك ، وإيجاد مقاومة أهل البلاد ودفع هجوم العدو عن حدودها ؛ واعتذر كلاًهما أن كل نظام إداري واقتصادي وعلمي لا يعتمد على معرفة البلاد التي جاء الفرنسيون ليحكموها من نأى شجرة طلة ولا يمكن أن يعتمد على النقاء . وكان هذا الإدراك الصحيح سبب إقبالها على تأييد جهود العلماء وتشجيعهم على المضي في شغولهم حتى « در العرو العسكري والفتح العلمي حياً إلى حب ، منذ أن وُظف فدما نوبارت أرض مصر إلى أن قضى كثير عجمه وقد تقدم كيف كان للقائدين السد الطولي في نظام نشاط العلماء ووحية أعمالهم بصورة متكسمة من بحار قدر عظيم من اسحوث ولاستكشافات العدة خلال العامين الأولين من الاحتلال الفرنسي . ولكن قصة هذا النشاط العلمي مرعان ما تعرت عندما تسلم مو فبداه الحملة العامة . ومع أن مو كان من أكر انصار مشروعات نوبارت الاستعمارية في الشرق ، ومن أشد الفرنسيين عكاً بصرورة نقاء مستعمرة مصر الجديدة في حوزة فرنسا ، فقد فانه أن العلماء هم كالحيتن سواء سواء الهدامة التي تسند عليها صرح هذه المستعمرة الناشئة فكسكات الأدم أتت فصاها العلماء في مصر بعد أن أصبح مو قائد الحملة العام أياماً قاحلة ححر في أنشائها لأسباب عدة على ثط العلماء العلمى ، واتى هؤلاء على يد مو كل عدت ويزهاى حتى أتاحت لهم الفرصة بعد لآى وعاء للعودة إلى أوطانهم مع قلول جيش الشرق المنهزم .

وقصة هؤلاء العلماء مع مو صفحة حالكة السود في تاريخ هذا القائد الذي اعتقد في عبه الكفاية الحربية ، وهو الذي لم يشهد معركة كبيرة قط غير تلك التي لقي فيها الحرية على أيدي الإغليز في كابون ، وصور له الخيال أنه رجل الإدارة والحكم ، وهو الذي كان يحلو له أن يكس أوراق المشروعات على مكتبه فيعرق بين أكسائها

حق أدبه ، ثم تسفر دراساته عن إصدار عدد عظيم من الأوامر والتعامات النافذة ، ولا يدرى الطريق إلى تعيد شيء من هذه المشروعات « الخيدة النافذة » بصورة جدية ، أو هو لا يبعد شيئاً منها ؟ وأقص متجنده نائب الوصاى على دهبه ، مساورة انشكوك فى بوايا معظم زملائه القواد وسائر مواطنه ، وم سح لعماء من شرو و سواسه ومحاوله ، واعتقد أنه مشجع العلم ونشر لواء الحضارة والمعرفة ، فيما دعاه تردده وعدم إدراكه لقيمة ما يفعله العلماء ، فى إبداء الرعاية فى مساعدة هؤلاء على انصاف فى عوئهم فى أوان الأمر ، ثم اعتارهم من « الأقواء العاطفة » اتق عيب النعاص منها ، والإيمان فى امتهاهم وإساءة معاملتهم بعد ذلك ، حتى إنه هددهم بإطلاق العسايل عليهم إذا حاولوا دخول الإسكندرية دون إذنه . كما سيأتى ذكره عند الكلام عن آخر مظهر من مظاهر نشاط العلماء ، فقد رجىاهم ورجيل الحملة العريسة من الدار المصره .



مو ورجيل العلماء

فقد رغب العلماء الذين استدعاهم كبير إلى القاهرة وقت إبرام اتفاق العريش ، ثم شاهدوا نقص هذا الاتفاق من جانب الإنجليز ، وحصروا إصدار كار على الإنجليز فى مركزه هيدونوليس ، أن يستأفوا عوئهم العمية . واقترح أعضاء لجنة العلوم والفنون القيام « بمحملة عمية » من الطبيائيد إلى الموه وهصاف الحشنة ، لتقيب عن الآثار وزيارة المعابد القديمة اتق اعتقدوا أن هذه الجهات تضم منها عدداً يعوق كثيراً ما يوجد من آثار ومعابد فى الصعيد المصرى ؛ وعقدوا آمالاً عظيمة على حماية مراد بك لهم فى أثناء رحلتهم بالصعيد ، بعد أن عقد مراد مع كبيرهم كبير معاهدة استحالف والصداقة المعروفة . غير أن وفاء كبير ما لبث أن عططت قيامهم ، حتى إذا سلم مو القادة بمحدد النشاط ، وأظهر مو كل استعداد لإحاة رعائهم ، وأصدر أوامره فعلا بقيام هذه « الحملة » . ولكنه سرعان ما نقص أوامره ، ثم ظل خلال ثلاثة شهور بأكملها يصدر تارة الأمر برجيلها ، ويلغى تارة أخرى هذا الأمر ، وهكذا دواليك حتى أيقن العلماء أن لا أمل فى الرجيل فتصرفوا . وهكذا أتحق مشروع عمى عظيم الجمع والأثر ، لأن مو على حد قول مؤرخى الحملة لم يكن الرجل الذى يسعه التفكير فى مثل هذه المشروعات الخلية أو يستطيع إدراك جيها (١) .

على أن هؤلاء العلماء الذين أبطل تردد مو وعمره مشروعهم ما لشوا أن فرروا متاعاً نشاطهم العلمي في مبادي أخرى ، حصل (رورير) و (كوتيل) على إذن بالذهاب مع (فافه الطور) إلى شبه جزيرة سيالكشف جبل سياء ووصفه ؛ واعتزم لويز (المهدس) و كوتيل كذلك ، وشامي وفورييه وجوفري ست هير ريادة آثار ميب ، ووضعوا تقرراً مبهاً عن أعمالهم في هذه الذطفة الأثرية ^(١) وكان من صروب انشباط القليل الذي سم في هذه الآوة قيام مدرتان بعد استكشاف في بحيرة (موريس) باليوم ^(٢) ؛ كما وضع (رورير) بحثاً عن القصير ؛ وديوا إعيه عن المائدة ، ومارسيل عن الجرافيين العرب . وحيار عن مدسة عيطا وسكانها (وقد نشرت هذا البحث الأخير حريدة (لوكوريه دوليحيث) ^(٣) . وقام فريان Frant رحبه إلى برج العرب . وأمكنه أن حتر على بعض الآثار ، فشط مو — في فترة من فترات حماسة القليلة انادرة — وفرر بإعداد لجنة من العلماء لزيارة هذه الآثار ووقع اختياره على المهندسين لويز وشارول ولاسكركه لهذه القاية ، وكان هؤلاء قد عادوا من حولة في رشيد والبحيرة ، فمادروا الإسكندرية في ٢٣ يناير ١٨٠١ بحراسة القباط مدرتيه Martinet وملكوا طريقاً يمر بمعداء محقق مربوط الشبلى إلى مرتفعات مربوط ، ورسموا خريطة لهذا الطريق . وكان في بينهم السير حول محقق مربوط معه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ^(٤) .

وكان ذلك كل ما حدث من انباط علمي في عهد مو نطولة ، وهو نشاط ولا شك ضئيل إذا فيس عام من محوث علمية عظيمة في عهد سلمي في القيادة . وفصلاً عن ذلك فإن مبحث هذا النشاط الضئيل كان حماس العلماء أنفسهم ، ولم يند مو أى اهتمام بهذه الناحية العلمية ، بل كانت شئون الإدارة والحكم شغله الشاغل خلال هذه اشهور الأولى انقلابية ، والتي امتارت بالهدوء قبل تمحرج الموقف وبطاق حيوش الإغايير والعنابيين على البلاد من كل جهة تقريباً ^(٥) . بل إن بعض العلماء الذين كانوا يريدون القيام بمحوث أخرى في الواحات كراجيو دليل Raffeneau-Dehile ، أو التقيب عن المخطوطات القديمة في الأديرة ، كما أراد أن يفعل مارسيل ، لم

Galland II 243 — 61 (١)

Martin II 155 — 6 (٢)

Reybaud VIII 317 (٣)

Galland II 223 — 7 (٤)

Reybaud VIII 92 (٥)

يستطيعوا ذلك لانصراف مو عن شئدهم . ولعل أكثر مشروعات مو العسمة في تلك الفترة كان رعيته في تأسيس (مكتبة أهلية) في القاهرة ، تجمع شتات الكتب الموحودة في دار المجمع العلمي ، وتلك التي تركها . ومارت نفسه فأصدر قراراً بذلك في ١٦ يونيو ١٨٠٠ وعهد إلى فورييه بعمل قاعة لهذه الكتب ، وأخير فورييه هذه المهمة ، وكان ذلك كل ما أسمر عنه عملياً مشروع تأسيس المكتبة الأهلية (١) .

وواقع الأمر أن استيلاء مو على منصب قيادة الحملة العسمة في مصر كان مؤدماً تعطّل جهود العلماء ووقفها ، وعندما رل الإنجليز على الشواطئ المصرية ، وهزموا مو وحيش الشرق في موقعة كابوت (٢١ مارس ١٨٠١) ، قضى علماً على كل أمل لدى العلماء في إمكان مواصلة جهودهم العلمية ، ومن ذلك الحين بدأ عهد التراخي والانتظار ، وظل كل نشاط ، فأوقف المجمع العلمي بالقاهرة جلساته ، وعكف قلدون من العلماء في أثناء حصار القاهرة على إعمار ما كان لديهم من عوثر كانوا قد بدؤوا في إعدادها ، كما نالت المطبعة الأهلية التي نقلت إلى قلعة تصدر بعض الأوامر والنشرات وكان من انطبعي في هذه الظروف أن رعب العلماء في معادرة القاهرة والذهاب إلى الإسكندرية استعداداً للرحيل إلى فرنسا . فكاتب هذه لائحة في الذهاب إلى الإسكندرية مشار كل مانشأ بينهم وبين مو من خلافات ومشاكل ، نالت منها عناصر تلك الأبناء التي دعمت أواخر أيام مو في مصر تطامع المهابة والصحة .

وقد حشى العلماء معاً إبقاء في القاهرة وسط الاضطرابات السائدة بها ، وعندما كان يبار نفسه وسائر القواد يتوقعون قيام القاهرة بين الثورة في أي وقت ، وأراد العلماء أن يجمعوا ثمرات جهودهم من الكتب ، وهم الذين شاهدوا هجوم القاهريين على المجمع العلمي والاطمة الأهلية إنان الثورة الساخنة خصوصاً (ثورة القاهرة الثانية) ، كما أنهم ، وقد تعطّلت أعمالهم بسبب حرج الموقف في مصر ، كانوا يريدون انتهاز الفرصة للعودة إلى أرض الوطن على أول سببية يمكنها احتراق نطاق الحصار المصري على الإسكندرية ، حتى يتسنى لهم نشر عوثرهم العلمية في أمان وطمأنينة . فصمموا على معادرة القاهرة ، ولكن مو لم يشأ أن يقدّر هذه الاعتبارات حتى فدرها ، فاشتد غضبه لأنه لا يريد - كما قال - أن يدخل الإسكندرية أناس لا يبعد وجودهم في الدفاع عنها ، بل يزيد من صعوبات الحكومة المحاصرة ، لإسقاطها إلى إطعام هذه « الأقواء العاطلة » ، فأمر أن يوضع جميع العلماء في قلعة القاهرة ، ويأمر بالقض

على امر قليل من رملاتهم الذين كانوا وقتئذ بالاسكندرية يقومون ببعض البحوث التي كلفهم بها متونهم وأرسلهم إلى الرحمانية .

وعلى ذلك فقد ظل علماء القاهرة مسجونين قلعيا ، حتى إذا اشتد وطأ وطأ الطاعون أصيب كثيرون بالطاعون وهلك عدد منهم ، وعندئذ أعاد العلماء الكرة بطسوف القهات إلى الاسكندرية ، ومـ مع إراء إلحاحهم الشديد إلا الموافقة على خروجهم من لمدة المودة ، فعادوا القاهرة نظرياً في ٦ أبريل ١٨٠١ ، ووصلوا الرحمانية بعد خمسة أيام ، ولكن لا كروا 1acro x قومندان الرحمانية معهم من الرحلة إلى الاسكندرية ، وكان عيب في معاملتهم وأهاسهم ، واستعد العلماء للعودة إلى القاهرة ، ولكن ظهور كفالته Cavalier والمحانة أمام حصن الرحمانية لم يلبث أن أقدم ، فاستطاع العلماء الخروج من الرحمانية ، وتولى كفالته حراستهم حتى وصلوا سامي إلى الاسكندرية مساء يوم ١٤ أبريل ، بعد أن تأمب بعض المجموعات النارج الطبعين التي أحضرها العلماء معهم (١)

وما إن علم مو بوصولهم حتى عصب عسا عطا ، وصمم على عدم دخولهم الاسكندرية ، وأمر أن يصوا أربعين يوما في « البحر الصحي » ، ومعنى (البروح) Lerouge أحد أعضاء لجنة العلوم والقون نحه مصابا بالطاعون أثناء البحر الصحي ، وسمح للعلماء بعد انقضاء مدة هذا البحر بالدخول إلى الاسكندرية ، وأخ هؤلاء على مو أن يعمل على إرسالهم إلى فرنسا ، فوافق مو بعد صعوبات كثيرة على ذلك في ١٣ مايو ، ولكنه اشترط على العلماء أن يتركوا بين يديه قبل رحيلهم كل ما كان لديهم من مذكرات ومخطوطات ورسوم ومجموعات علمية ، وما عارض العلماء في ذلك ، اكسبى مو أن يتركوا الخرائط والمذكرات والبحوث المتبعة بمساحة الأراضي وقياس سطوحها ولما كان مو قد عمد منذ استلامه قيادة الحملة العامة إلى تدوير الانقسام بين العلماء — حرا على عادته خوفا من حدوث أي اعداء أو سكل صده — ونجح في استمالة العلماء المهندسين إليه ، وصار هؤلاء أكثر حرصا واستلاما له من رملاتهم ، فعد وافق العلماء المهندسين على طلب مو الأخير . ثم لم يكف هو بذلك بل طلب من العلماء ، وكان عدد هؤلاء من أعضاء لجنة العلوم والقون نماية وأربعين عالما ، أن يكتبوا كتابا أنهم لا يعملون ضمن متاعهم

أنشاء تعلق بالموقف العسكري والساسى عصر ، كما خذلهم وقعون على (محصر)
بيان كل ما كانوا يحملونه .

وفى ٥ يوسه ١٨٠١ أدن لهم عيادته الاحمكدره ونعطهم (حورا للحرور)
وحصص الأربق (لوارو) L'Oiseau لنقلهم إلى فرنسا فاقبل العناء فى مساء اليوم
معه إلى السعة المدة لهم ، وكاتب دات حمولة بسيطة . وتحمل أربعة مدافع
حسب قيادة الكائن (مورا) Murat ولما كان العناء عثشون من أن يحس
الاخبر عورهم ، فقد طسوا إلى مو أن وقد معهم « معاوص » إلى أمير البحر
البحرى للاعاق معه على عبور العناء سلام إلى فرنسا ، ولكن مو عصب من هذا
الرحاء ، وأصر على عدم الحديث معه فى هذه المسألة . ومع أن (مورا) فبع سيفينه
مرتين محاولا الخروح من المساء ، فقد اضطر إلى العودة ولا تظار ساء على أوامر مو
الشده إليه ادم ازجبل حتى أدن له ، وهكذا أزعج العناء على الاطار على طهر
سفينتهم الصيقة فى المياء حمسة وثلاثين يوما

وكان فى أثناء اسطارهم الطويل فى المياء أن داغ بحر حليم ليار فى القاهرة ،
وعرف شروط هذا التسام ومها لك امداد الحادبة عشرة الفى دمن على أنه فى وسع
أعضاء لجنة العوم والقوى أن سالوا شروط كائنه لما جاء فى صلب اتفاق السليم ،
منمقا رحيل « ود حاسة القاهرة إلى ثوطنهم » وعقدوا آمالا عظيمة على إمكان
الاستفادة من هذا الاته فى تسهيل مسألة عورهم سلام ، ودم معرض الأسطول
البحرى لهم ، فاحتاروا من من رملانهم العناء كوراسير Corancez ودليل Delile
وجيوبرى ست هيلير . لمعطة مو حتى أدن لهم بالسفر ويرسل « معاوص » إلى الاخبر
وقابل هؤلاء مو مرات ثلاثا وتظاهر مو بالمواقفة ، بل سلم جيوبرى ست هيلير حاتم
هدية منه إلى مدام بوبارت .

ولكنهم يرسل معاوصاً للاخبر ، واكتفى بعد لآى وعده بصدار أمره إلى لوروى
Le Roy مدير البحريه فى ١١ يوليو أن يسمح للأربق (لوارو) عيادته اليه فى الموقف
الذى يراه مطابا مناسبا على شريطة أن يحظر القيادة العامة بحروح (لوارو)
فلا يكون حروجهما مباحا . وذلك بسب حالة الحصار المائمة وسكن هذا الشرط
الأخير ما لث أن أثار محاورى العناء فقابل فوريه واسكايين مورا الصا طريشه
Richer فوسدان الأسلحة يستعبرون منه عن موعد حروح السفينة القدى يصح
الاتفاق عيه ، فطأهم (ريشه) إلى أن فى وسع (لوارو) أن يخرج من المياء

في ثلثي وقت نشاء ، وفي وصح النهار ، وذلك حسب ما لديه من أوامر صريحة في هذا الشأن ، فأعلمه أن (لوارد) سوف تعادر اللياء يوم ١٢ يوليو . وفي مساء ١١ يوليو بدأت الاستعدادات فعلا للرحيل في صباح اليوم التالي ، وعرف بذلك أيضا (لوروي) مدير البحرية . ولكن الرياح الشديدة عطلت حروح السفينة فلم تسطع الإقلاع إلا في يوم ١٥ يوليو ، وما إن احتارت (لوارد) بممرات اللياء حتى طلب قائدها من العلماء أن يتخلصوا من حضانهم الخاصة خوفاً من وقوعها في يد العدو ، فيعرف الإبحار حقيقة الموقف في الإسكندرية وشدة وطأة الحصار عليها ، فألقيت رسائل في البحر .

عبر أن إحدى فراويت (القرويت سينثيا *Cynthia*) سرعان ما اعتصمت (لوارد) في سربها وأطلقت عليها قنابلها ، فاضطرت إلى التوقف ، ثم اتفق قائدا المركبتين مورا وانكاس ديجر *Diggs* (قائد سينثيا) على عرض مسألة عبور العلماء على اللورد كيث *Keith* أمير البحر الإنجليزي ، فأعجبت السفينتان إلى أبي قبر ، وقابل فوريه اللورد كيث على ظهر النارحة (فودرايان *Foudrayan*) ، وبسط وجهة نظر العلماء بصدد المادة الحادية عشرة من شروط تسليم القاهرة وأعطاهم علمهم ، فرفض كيث أن يتخذ بهذه النظرة يدعو أن هذه المادة لا يمكن إطفائها على العلماء وحدهم دون حماية الإسكندرية وأن الإسكندرية في حالة حصار ولا يستطيع لذلك أن يأذن لأحد بالخروج منها . وفصلا عن ذلك فإن مو قدّم الخبير العام لم عمر الإبحار وأمر العلماء على الخروج من الإسكندرية . ومع أن كيث أكرم وفادة (فوريه) ودعاه إلى إبقاء معه ، إلا أنه صمم على عودة (لوارد) إلى الإسكندرية ، ولم عد شيئاً تدخل السير سدي سميت وبعض السامد الإبحار الآخرين ، الذين رغبوا في مساعدة العلماء وإفراج اللورد كيث بانواقفة على عبورهم .

وأراد سدي سميت أن يحفف من وقع هذه الأساء غير النادرة على العلماء فانتقل مع (فوريه) وقابل العلماء ، وكان من أحاديث معهم أنه لو حدث حروجهم وقت قيادته في العلم المسمى لما تردد سدي سميت في السماح لهم بالمرور بسلام . ثم عذب (لوارد) بصحة القرويت الإنجليزي إلى الإسكندرية ، وبدأت في احتياض ممرات (أو مداحل) اللياء في ١٦ يوليو . ولكنه ما احتارت (لوارد) بنصف المسافة بين مرابط ، وحط الفرقاطات العربية الداخلية ، حتى محت انمراقبة الرئيسية (جوستيس *Justice*) سفينة العلماء من التقدم ، وأمرت (لوارد) بالوقوف بصورة تمكن

(حوستيس) من نصوب مدافعها عليها . ثم طلب فائدها من الكائن مورا الإبحار والخروج من لياء في مدة ربع ساعة وإلا أعرفي للركب ورفض القائد أن يتسلم رسالة من اللورد كيث كان فورييه قد أحضرها إلى مو من أمير البحر الإنجليزي . ولقيت (لوارو) صعوبات عدة عند محاولتها الخروج من لياء لعدم وجود أدلاء يرشدونها إلى الطريق الذي نستطيع أن نسلكه حتى نتجاوز ممرات المياه ؛ وانقضت المهلة ، ثم أعطيت (لوارو) مهلة عشر دقائق أخرى ، وشاهد الصماء من على حبل للركب الجبرال مو يتحول على الشاطئ ، ثم استطاعت (لوارو) بعد متاعب كثيرة وعند حصول (الليل) احبيل الممرات والخروج إلى عرض البحر .

وعندئذ أحضر أحد الضابط خطابا من مو إلى الصماء على ظهر السفينة (لوارو) بتاريخ ١٦ يوليو ١٨٠١^(١) . وعلمهم فيه على خروج سفينهم في صباح النهار ، دلا من الخروج تحت جناح الظلام ، وعلى رفهم الراية الإنجليزية العمل الذي يستحق من أحله مورا قائد (لوارو) الإعدام شقاً ، دلا من رفع العلم الأمريكي ، أو دون رفع أي علم على سفينهم ، وبأنهم على عدم الدفاع عن شرف فرنسا دلا من الإرعاء في أحضان العدو ، وبأن لوأنهم لم يفعلوا ذلك لأمكنه أن يستعملهم كعسكريين شرهاء عند صرحهم عن الإفلات من قبضة العدو . واضطراهم إلى العودة إلى ميناء الإسكندرية وإزاء هذه الإهانة الجديدة لم يجد الصماء صاعداً أن يردوا إلى قائد الحملة العام رداً قاسياً في اليوم نفسه^(٢) ، يذكرونه بأوامره الساعة وإدله لهم بالخروج وهم دون كتابة تقرر مطول عن كل تلك الإهانات التي تعرضوا لها ، ورفض مو إرسال معانص للاعبار أولاً ، ثم إرغامهم ، بعد هدمهم بإلقاء القتال على سفينهم ، على الخروج إلى عرض البحر والوقوف في قبضة العدو .

ولم يكن الصماء أصعد حجة في هذه لاره عن ساعها ، فقد اعترضهم الغروب الإنجليزي سيثيا مرة ثانية ، واضطر فورييه وثيومان Thevenin والكابتن مورا إلى مقابلة الكونت أميرال بيكرتون Bikerton على ظهر اليارحة (أحاكر) Ajax ، ثم تقرر إحالة المسألة على اللورد كيث ، وراهم السير سدي سميت ، وأعظامهم كتاب توصية إلى اللورد كيث ، وذهب (لوارو) إلى أبي مير ، وشكرت أماتسة ، وعلم كيث في هذه المرة في مقابلة فورييه وثيومان ، وأمر على عودة (لوارو) إلى

(١) Villiers 298; Ibid 298 — 9

(٢) Villiers 299 — 301 ; Reybaud VIII 300 — 3

الإسكندرية ، وساء كيث أن يحاول مو على حسب اعتقاد أمير البحر الإنجليزي إزعاجه على فعل شيء لا يريد . ووجد نكتاته خطاب إلى مو ، وصرف ثوريه ورميله على أن يقابل في موعد آخر ، ولكن رفض مقابلة ثوريه وثيمان ومورا عندما حضر الثلاثة حسب الموعد ، وكفى شأن أعظم رسالة إلى مو ثم أحاطهم على (بيكرتون) للتمام معه بدعوى أن ثوري بيكرتون تعلقات مفصلة فيما يسمى على فعله معهم .

وأما هذه التعلقات التي عرفت في اليوم التالي (١٩ يوليو) فكانت تقضي بإزالة العلاء إلى البر في قوت مكان من الإسكندرية إذا أصر مو على عدم دخولهم إلى الإسكندرية ، ثم أحرق مركبهم (لوارو) وإعراقها ، وعهد إلى الثوروت (سيدنيا) بالذهاب إلى الإسكندرية للمفاوضة . وفي ٢٠ يوليو حاول قائدها (ديمر) إضاع المخططات الأمريكية بالمياه بالسباح الأريق الفرنسي بالدخول إلى الإسكندرية ، وعرفت نتيجة المفاوضة في اليوم التالي ، وهي أن مو أصدر أوامره على حد قوله — بدخول الإريق إلى المياه . بيد أن العلماء الذين حووا ترددوا وشاهدوا مدافع الفرقاطة (حوستيس) مسلطة على سفينهم حشوا من أن يكون هذا الحواب « المهم » شركا بعه مو لإخفاق الأذى لهم ، فطلبوا من (بيكرتون) أن يسأف المفاوضة مرة أخرى للحصول على حواب قاطع ، ولكن بيكرتون رفض إحانة ملتصقهم ، وطلب إلى ديمر تمديد مالهديه من تعلقات ، أو قبول آخر بإزالة العلماء إلى البر وإشغال النار في سفينهم فأحدث هذا القرار هرجا وهرجا شديدا بين العلماء على ظهر (لوارو) ، واستند اليأس بالسكان مورا ، وكان أكثر ما عساه أن تسخ الحكومة الفرنسية التي ضمنت سفينة ، من أن تموصه أو تعوض أحماسها شيئا عن فعلها إذا أحرقت الإبحار ، وهدد في أول الأمر بالذهاب لسفينة إلى الإبحار ، ثم وعد بذلك بأن يسمح لأحد صاقله بقيادة السفينة والإبحار إلى الإسكندرية ، على شريطة أن يتعهد العلماء متصادمين بدفع قيمة أسلحتهم لأحماسها إذا رفضت الحكومة امر حية دفع هذا التأمين ؛ فوافق العلماء على ذلك بعد نقاش حاد طويل .

وبما كان العلماء ما زالوا في هرجهم ومرجهم حصر لزارتهم السير سدي حيث ، وأحد في تهدتهم ، وعرض عليهم مقابلة اللورد كيث مرة ثالثة على أن يذهب بعه معهم ، على يستطيع أن يشه عن عزمه ، وذلك إذا أصر العلماء على عدم العودة إلى الإسكندرية غير أن السكان (مورا) وثيمان كان من رأهما العودة إلى الإسكندرية وإذا هذا الانقسام قرر العلماء أن يحاطروا جميعا بالعودة ، وأن يجمعوا كل من عهده

بعنه تترك السفينة من قبل ذلك ، وحاول نيمان معادرة (لوارو) وحاول (موريه) معنه ، وألقي عديدون من ملاحى السفينة بأنفسهم إلى البحر وسند الطرح والرح ، ثم اشتدب الحلة والصوصاء عندما ارتفع الصباح من كل جانب « أن المركب محترق » واعتقد السير سدى سميت الذى شهد هذه الحوادث أن هناك من ينتوى حقيقة إغراق المركب ، وعادر (لوارو) ، وكان فى هذه اللحظة أن أحضرت القرويت سيثيا رسالة من سوييدى فيها صرحه من عدم عودة (وارو) إلى الإسكندرية ، على الرغم من انتظاره لها . فهدأت هذه الرسالة من روع العلماء ، ولكنه لما كان سدى سميت قد ذهب كي يتفاوض بشأنهم مع اللورد كيث ، فقد فصل العلماء اسطار بتيعة مساعاه . وطبوا أربعة أيام فى حراسة القرويت الإغلىرى ، ولكن كيث ظل مصمما على عودة (لوارو) إلى الإسكندرية ، وعنده عرس سدى سميت على العلماء أن يقل فى صيافته كل من يرفض العودة معهم ، وحل هذه الدعوة كاديكس Caste-x وييلون Pelon ريثيمان ، وفى ٢٧ يوليو دخلت (لوارو) ميناء الإسكندرية ، ورحب سويهدا مرة قدمهم ، وركب العلماء إلى البر بعد حصة أيام فى البحر الصحى ، وصحبهم سوي إلى صفوف رقة من (الحرس الوطنى) كان قد انتهى من إنشائها ونظمها وقشد^(١) .

وبقى العلماء بالإسكندرية إلى وقت تسليمها ، وكان لهم موقف محمود فى الدفاع عن حرية جهودهم العلمية ، عندما طلب الإغلىرى فى المادة السادسة عشرة من الشروط أن يرضوها على سوي أن يسلّم أعضاء الجمع اتسمى المصرى وجبة العلوم والفنون كل ما لديهم من أوراق ومدكرات ورسوم ومجموعات علمية (فى التاريخ الطبى) ، إلى ما يحومون من آثار (بما فى ذلك حجر رشيد) . فقد عارض العلماء فى ذلك ، وكسوا إلى سوي خطبا شديدا الملهمة قالوا فيه إن القائد العام العربى إذا كان يحق له أن يست فى مصير جيش والمسلمة ، ويتصرف فى مهمات الجيش وبناده ، فإنه ولاشك يحاور سلطانه . إذا اعتقد أن من حقه كذلك أن يحصل فى ثمرة جهود العلماء اتقى هى ملكهم الخاص . وبما يدكر سوي بالشاء أنه أقر العلماء على وجهة نظرهم ، على الرغم من كبرائه وعروره ، ووعده بأن يطلب من الإغلىرى تعديل هذه المادة . ولكنه فشل فى مساعاه وأصر الإغلىرى على التوقيع على شروط التسليم . فكلها بما فيها المادة السادسة عشرة . وعنده أوهده العلماء ثلاثة من رملاتهم لمقاتلة السير هيلى هاتسون للتعامم معه ، وكان هؤلاء جوفرى

Reybaud VI 287 — 316 : Vilhers 294 — 305 ' Martin II (١)

227 — 9 : Rigault 362 — 5

(٤٣)

سنت هيلر ، وسافري ، ودليل ، فقولوا في المعسكر الإبحري مرود . ولك لم يسمع
الإبحير بوجهه نظره واعشار ما لديهم من مدكرات ورسوم وغير ذلك من ممتلكاتهم
الخاصة ، أعين هؤلاء عزمهم على بلاتها وإشهاد أوروبا بل العلم أجمع على فعال الإبحير
الذي اضطروهم بسبب قسوتهم ان لا يسوع لها إلى إتلاف هذه الآثار العجيبة الثمينة .
فوجد هتشنسون بالظر من جديد في هذه المثلة ، كما وعد بإرسال رده إليهم مع
هاملتون Hamilton أحد رجاله .

وكانت المعكزة الدائمة أن هاملتون كان المسئول عن إصرار هتشنسون على سلب
العلماء ثمره جهودهم . لرعت في الأسبلاء على ما لديهم من مدكرات ورسوم عليه .
وصم من صوته إلى صوت انباء الفرنسيين ، فأخرج في رسالة نعت بها إلى انباء
الإبحري في أول سبتمبر ١٨٠١ قال فيها إن تلك البحوث والمجموعات العلمية لا يمكنها
حكومة الجمهورية الفرنسية ، وإنما هي من ممتلكات العلماء الخاصة ، بل في اعتقاده
أن حكومة الجمهورية لا يمكن من هذه الأشياء سوى نابولين كان قد أصدر أوامره
بإرسالها إلى فرنسا . وإنما فيما يعنى بالتأثيل فإن فريب يملك اثنين منها كان
قد عثر عليها في أثناء بقيقه عن الآثار بالإسكندرية على وجهه الخاصة . وهذا
أشهر العلماء ما لديهم من مخطوطات عربية وخطية بأمو لهم الخاصة^(١) . وحصل من
طوبلا في سبيل الاحتفاظ بحجر رشيد ، ولكن دون طائل وبعدد قرار مو تسليم
الحجر إلى الإبحير^(٢) حيث أن (هؤلاء) أكثر قوة وشدة نأسا وبصر قائدهم
على أحدهم^(٣) .

وأما العلماء فقد أصروا على عدم تسليم ما كانوا « يملكون » ، بل أصرى
جيوغري سنت هيلر يقول عندما جاء هاملتون يطلب إلى العلماء شدت هتشنسون
بموجب المادة السادسة عشرة من شروط التسليم . « كلا ! نحن نرفض أن نطع هذه
الأوامر . إن حيثكم أن يدخل الإسكندرية إلا بعد يومين ، وهذه مدة كافية ولا شك
لأن روح جهادنا ضد هذه التصحية الأخيرة ، وء تدعيتكم أن نعوا بأشخاص
ماتشادون كلا إلى أكرر لك القول بالرفض . ولن يقول أحد بعد ذلك إننا سمنا
هذه التصحية عن طيب خاطر ، فنحن سوف نحرق نأفسا ما معنا من كنوز إنكم
تشدون الشجرة والحجر . إذن فعبيكم أن تندروا ما سوف يسجله التاريخ من ذكريات

Rousseau 423 (١)

Ibid 424, 428 (٢)

عندما يقول إسكندر أيضاً قد أحرقت مكتبة أخرى بالإسكندرية ^(١) وكان حيوفري
 سبت هيلر يشير في عاينه الأخيرة إلى أفسوسة حريق مكتبة الإسكندرية القديمة
 على أيدي العرب ، وكانت هذه الإشارة وحدها كافية لردع الإغليز ومندوبيهم ، فأكد
 هاملتون للعلماء صدق بيانه في الوسطة لم يدي هتسبون وأفلحت وساحة
 هاملتون ، ووافق هتسبون بعد عاين لم يطل أمده على أن يترك للعلماء نعمة جهودهم
 وفي ٢٧ سبتمبر ١٨٠١ عاين أعضاء لجنة العلوم والعلوم أراض مصر إلى فرنسا ،
 يتقنون مهمهم مدكراتهم وعونهم ورسومهم وعنواناتهم العلمية والأثرية ^(٢) ، وكل ذلك
 الدراسات التي ساعدت فيما بعد على صنع (خريطة مصر) وإصدار (كتاب وصف
 مصر) ، تلك الموسوعة الخالدة .

الفصل السابع

نهاية منمو

حاشية القول :

كان منمو في طبيعة الجلود الزاحمين على الإسكندرية بعد روم جيش الشرق إلى الأراضى المصرية ، وكان آخر من عدد اولاد في بطروف ابني سبق ذكرها ؛ وقد تقدم كيف اتت الهواحي واستند به الملق في أخبارات أيامه بالإسكندرية حتى مرض واشتد به لعله ، واصطار (لارى) كبر حراحي الجملة أن يلازمه في عرقته طوال الرحلة من الإسكندرية إلى صوبون . وكان يعقل هذه العناية أن أبل منمو من مرضه . ودخل منمو طولون على ظهر السفينة ديدون Didon ، ابني تقيته من لمرقاطة ، لإبحار به ديانا إلى لسان ، وقضى منه الحجر الصخري في ممرل سانت ماندريه Saint-Mandrier ولم تعاوده العلة (١) .

ومع أن منمو كان قد شفى تماما ، فقد فصل بعد خروجه من لمرل البقاء في طولون ، بدعوى أنه كان لا يزال مريضا ، ولا يستطيع لذلك تحمل مشعبات السفر الطويل إلى باريس . وانسحب في ذلك أنه أراد اللقاء بعيداً عن أعدائه الذين علم بوجودهم في باريس ، فصلا عن أنه يريد الاطمئنان من ذهبه إلى العاصمة إلى أن انفصل لأول لم يأنر عساعى الحمرال ريسه ورملائه ، ولم يصح لاهامهم أو عبق على قائد الجملة الذى أصاب مسعمرة امريسين الجملة في مصر ، على نحو مقال أعداؤه (٢) . وكان هؤلاء مدد وصولهم إلى أرض الوطن قد أثاروها حرباً شعواء على منمو ، سعون عظيم سمعته عظيم ، اسعما مما فعله منمو عندما أزعجهم على معادرة الإسكندرية في انطروف ابني تقدم ذكرها (٣) .

فقد استطاع الحمرال ريسه أن يعلبه على ظهر الأبرق الفرسى لودى Lodi من

(١) Reybaud VIII 424—5

(٢) Martin II 293 — 4

(٣) Reybaud VII 12 — 22 : ibid 207 — 8

رقانة الأسطول الإبحاري في البحر الأبيض ، قلع بيس في أواسط يوبه ١٨٠١ ،
وعجل بإبحار الحكومة عم وصل إليه جيش الشرق في مصر من حال سيئة ، فبعث
إلى بونابرت وإلى وزير البحرية في ٢٩ يوبه ٦ يولوبيان موحر عن (حملة ١٨٠١) ،
ورول الإبحار على الشاطئ المصري ، ومعرك شهر مارس ثم تكلم عن تلك
«الحقات» المتكررة التي ارتكبها الجنرال مو وسست هراثم الفرنسيين ، كما كتب
في ٢٩ يوبه إلى الجنرال مورو أنه لا يساوره أي شك في أن الطريقة التي لحق إليها
مو ، من أجل إحراجه هو ورملائه من مصر ، لن تؤثر شيئاً في موقف الحكومة
منه ، أو تجعلها تنسى الظلمة ؛ وعلاوة على ذلك ، «من لديه كما قال من الأدلة والبراهين
للعاطفة ما يبشئ به بما عن موطن لشهات ، وذلك بفضل صفاء نواياه واستقامة
مسيرته» . وفي ١٩ يولو كتب ربييه مرة أخرى إلى صديقه مورو أنه يمد كتيباً
«مسط فيه» تاريخ إدارة مو وحكومته في مصر . وقد نشر ربييه هذا الكتيب
بعد شهر قليلة ، وكان عشواً صليط القول ، وجه صاحبه فيه الاتهامات القاذعة ضد
مو . واشترك كذلك في الحملة ضد مو كل من الجنرال بوايه Boyer والصابط يرو
Nerauc — وقد حصرنا مع ربييه من مصر — فإن وطئت أقدامهما أرض الوطن
حق نادرا بالصاق شق انتهم بالجنرال مو ؛ ثم اشتدت وطأة الهجوم على مو عندما
وصل الجنرال داماس Damas^(١) .

غير أن ربييه ورملائه لم يكونوا موفقين في حملتهم على مو لأسباب عدة منها
أن بونابرت كان لا يشعر بأي عطف نحو الجنرال ربييه صديق كبير الحزم ، وصديق
غيره من القواد الذين لم يفعلوا حظوه عند بونابرت ، كالجنرال مورو . أصعب إلى
ذلك أن الفصل الأول كانت تربطه أواصر الصداقة والمحبة بالجنرال مو من زمن
قديم ، ولا يزال يذكر «خدمات» مو السابقة له . وقد تقدم كيف استندعه
بونابرت من عائلته في ٦ مايو ١٧٩٨ ليصحب إلى معوى الحملة عند خروجها إلى
مصر . وفصلاً عن ذلك فإنه لم يكن من مصلحة الفصل الأول في شوى ، وجيوشه
عمر انتصارات ماهرة في أوروبا ، أن يتحول اهتمام الشعب إلى بحث ما وقع من
امهزومات في مصر ، أو انعرض لمناقشة الأسباب التي أدت إلى إرسال جيش الشرق
في «معامرة» كانت فاشلة من الناحية العسكرية ؛ ولما كان بونابرت قد قرر
وقتش إخماد مصر ، ولا يريد أن يبدو جيش الشرق عند عودته ، وقد لحقت به

المهينة ، فقد حرص على إحياء روح هذا الجيش العنوية ، والإشادة بذكر ما أظهره
رحاله من بطولة كبيرة في حمل مشاق القتال في بلاد جديدة ؛ بل إن نوبارت أراد
أن يجعل من حلاء الفرنسيين بعد دفاعهم « أخيد » عن هذه البلاد طعرا محققاً ،
استطاع بفضل أن يصل إلى صنع مشرف مع العدو .

ولذلك فقد صدر الفصل الأول من ١١ يوليو ١٨٠١ بانسكتانة إلى الجيود
الفرنسيين الذين أمرهم بالإحترار في موقعة أني قرب الربة ، ثم أطلقوا الآن سراخهم
وعادوا إلى أرض لوفس ، أمام إنه يعجزهم كما يعجز بأسانه ، « ولا يقدم حديدا
حلت بهم المهينة قط ^(١) » وأظهر نوبارت تساعداً كبيراً مع طائفة من الصباط
والفراد الذين استحقوا في نظره المحاذرة عسكرياً ، لتسليمهم للعدو دون مرور ،
أو تقصيرهم في الدفاع عن مراكزهم ، فعفا عن (كماله) الذي سب للعدو في
الظروف التي تقدم ذكرها وعمر له حرمه ^(٢) ، ثم عفا عن ليار ، مع اعتقاده أن
كل ما ذكره هذا القائد في تقريره الذي سطر فيه أسباب التسليم كان لا يستند على
شيء من الواقع . لأن ليار إنما حصل من الجمهورية على « أمر » كي يقدح بحده
إلى الميدان من أجل الدفاع عن معبر والاحتماء بها ، ولم يحوله حق إمداد حديه على
حساب المصلحة العامة . ومع ذلك فقد وجد الفصل الأول مبرراً للعفو عنه ، لأن
ليار كما قال كان من أكر الصباط كفاءة ، وبدن جهداً صادقاً فإن الحملة المصرية ،
كما أظهر رسالة عطيفة في حملة إيطاليا ، فلم يحجم عن تعرض نفسه للهلاك من أجل
المحافظة على شخص نوبارت في موقعة أركولا . وحصلاً عن ذلك فإن ليار كان من
كبار المحسنيين بقاء مصر في حوزة فرنسا . كما عارض بشده اتفاق العريش ، ولم
يكن حروجه ساحرة العدو في الخفاء سوى دليل ناطق على أنه كان يعرف تماماً
ما يجب عليه عمله . وثمة أمر آخر هام هو أن ليار لم يحاول قط أن يسطح سمعة
رملائه ، في وقت كانت قد قطعت الجمهورية فيه شوطاً جيداً في طريق المد
والشهرة ^(٣) . بل إن وزير الحربية ما لبث أن كتب إلى ليار في سبتمبر ١٨٠١ يذمّه
تقدير انفصل الأول من فعله بلار عندما نقل إلى فرنسا عدداً من قطع المدفعية رمرراً
على احتياط جيش الشرق شرهه العسكري ، كما نقل إلى أرض الوطن رفات أعيان

Corresp. No. 5632 (١)

Bertrand II 433 — 4 (٢)

Ibid. 439—41 (٣)

كثير ، ثم طلب إليه أن يبيع القوات التي حصرت معه بتقدير الحكومة لما أظهره الجند من تسالة وإخلاص في سبيل المحافظة على شرف العسكر الفرنسي وسميته ، ثم عزم الحكومة على مكافأتهم وتعويضهم حياً على كل ما تحملوه من مشقة وتعب

ولما كانت جريدة (لوبسور) الرسمية قد نشرت أن عدد الجيش العائد بلغ اثني عشر ألفاً ومائة وغاية وتدين معتزلاً ، واحتج بليار على ذلك بأن جميع الحارين في مصر لم يلقوا نصف هذا العدد ، فقد فوس هذا الاحتجاج بتسامح كبير وكذب القصة الأولى إلى وزير الحربية في أكتوبر ١٨٠١ بطلبه من بليار أن يعد تقريراً شاملاً عن رحلته ، من وقت معادرتة القاهرة إلى وقت وصوله إلى طولون ، يذكر فيه عدد الجنود الذين تألف منهم جيشه ، وانصاحين منهم للخدمة العسكرية (١)

وفي ٢٢ نوفمبر قال انفصل الأول في حطاب موجه إلى الهيئة التشريعية طليقاً على هراثم جيش الشرق « إذ سمي هؤلاء الجنود لم يكن لتعوق قوات النهاية والإنجليز عنهم ، فقد ما كان به قوة الظروف التي أحاطت بهم وإن النصر كان ولا شك لارحمهم لو أنهم حصوا معارك انفصل متحدث ولم يعرف الانقسام صوفهم (٢) » . وفي ٢٥ يناير ١٨٠٢ استعرض انفصل الأول في ميدان بلكور Belcoeur في مدينة دون الجنود الذين حاربوا في مصر ، وهم ندمي عادوا إلى الوطن - على حد قوله - بعد خدمة طويلة شاقة استمرت أربع سنوات ، أشدوا في خلالها من صروب النسيالة والشجاعة ما ألبسهم المجد والفخار ، وأدوا من الخدمات والأعمال ما جاهد لهم في مصر ذكرى عامرة (٣) . وفي ٦ فبراير ١٨٠٢ صدر قرار بتسليم آثار الحملة العسيرة ونشرها على نفقة الحكومة (٤) .

ذلك إذن كان موقف انفصل الأول من جيش الشرق لراجع إلى أرض الوطن ، وموقفه من صباطه وقواده ولم يكن من المنتظر لذلك أن يقي اتهامات رئيسه ورملائه صدموا آدانا مصيبة . بل إن تطرف رئيسه ورملائه ما لبث أن أحدث على ما يبدو أثراً عكسياً ، على خلاف ما كانوا يؤملون . وسنت أحوالهم صدفائد الحملة « دهشة » عظيمة ، كانت لا تقل عن الدهشة التي أثارها رجوعهم « غير المنتظر » لأن مو على نحو مقال بوبارت ورجال بطائته وكثر قواده الآخرون - ما كان يرضى محرمان

Rigault 363-4 (١)

Corresp. No. 5874 (٢)

Corresp. Nos. 5932, 5874 (٣)

Corresp. No. 5946 (٤)

منه من خدمات عمة من القواد الأكفاء ، الذين كان في وسعهم معاونته لو أنهم
دناوا إلى حاضره ، ولم يكن هناك من الأسباب الخطيرة ما جعله يصل إصداهم والخلاص
مهم . ولذلك فقد كتب الجنرال دوجا إلى كل من بوابيه وبيرو في يوليو ١٨٠١
و مستحيل على المرء أن يجمع نفسه فلا يعترف بأن هذه السكوارث جميعها لم يكن
منها سوى ذلك الانقسام الذي دب في صفوف القواد . كما كان من رأى دوجا أن
الواحد يقتضي من كل عاقل أن تترتب في إصداه حكمة على مسألة خطيرة كهذه ، المسألة
دون بحث وتمحيص (١) .

أما الفصل الأول منه فقد أنهى تعجبه من أن صافاً بهموا في الجيش أعلى
المناصب ، ولم تشب من بلوكهم شائنة من قبل ، قد أجازوا أنفسهم أن يتركوا جيشاً
مريضاً في وقت كان لا يزال رحله مائون جيشاً بغيره ؛ بل إن الفصل الأول
ما لث أن طلب من رئيسه وزير الحربية أن يسلل كلا من رئيسيه وبوابيه إعداد
مذكرة مسهية بوصفها ما وقع من حوادث في مصر ، وتدرجاً في الأسباب التي أدت
إلى معاذيرهم ، هذه اللاد (٢) . ولم رد وقوف بومبارب على ما جاء في رسالتين رئيسيه
وبوابيه إلا اقتنعاً بأن ما حدث من انقسام في صفوف القواد كان سبب السكوارث
التي حالت بحيش الكبر في والمهرائم التي لحقت به . وشرفت الجريدة الرسمية المؤرخة
هذا الرأي في عدده الصادر في ١٢ يوليو ، واعتذر وزير الحربية إلى هذا الرأي
كذلك ، فكتب إلى الفصل الأول في ١٥ أغسطس بعد اطلاعه على تقرير رئيسيه
أنه وإن كان وُجد من هذه التقارير أن منشئ السكيات التي حالت بالحيش هو عدم
إصاف الجنرال مو بالخطة والحذر ، وعدم صبره في عواقب الأمور ، مع اعتياده على
أنصاف الحلول دائماً ، فإن ذلك كله لا ينبغي شأنه أن الانقسام الذي حدث بين قواد
وصاف الحملة قد اقتضى إلى وقوع هذه السكوارث (٣) .

وعلى ذلك فقد دلت هذه الأقوال على أن رئيسيه ورملاء كانوا في نظر الفصل
الأول لا يعملون من مسؤولية العمل على تعجيل إرسال البحرية بحيش اشترقي في مصر ،
عد ما اشتموا على الجنرال مو . وعدت لم يحد رئيسيه بدا من الاحتجاج احتجاجاً
شديداً على هذه الأقوال ، وطلب أن يقدم لمحاكمة حتى تثبت إداهه أو تظهر راءته .

ولكن يوبارت الذي ساءه موقف رتيبه لم يست أن كتب إلى وزير الخرسنة أن يبلغ هذا « الصابط » أنه من المصدر على الحكومة أن تصل إلى رأي قاطع بشأن ماحرى من حوادث في مصر ، حتى فتح الطريق بين هذه البلاد وفرنسا . وفي وسع رتيبه أن يقيم في ناحيه حتى يتم ذلك ، فتأته هناك مرتناه كامله (أغسطس ١٨٠١)^(١) . ولكن رتيبه الذي لم يشأ الاقناع بأن الفصل الأول لن يصحى إلى « إنهااته » صد مو ، طان ماصباً في حملته ضد هذا الأخير ، فشر كسبه الذي سقت الإشارة إليه عن (تاريخ إدارة مو وحكومته) في مصر ، وما كان مو قد وصل إلى طولون عند اشر هذا الكتيب ، ووقف على ما جاء به من عبارات وصفها بأنها كانت قدفاً في حقه مع منتهى السفاهة ، فقد وعد في أواخر نوفمبر بالإحابة عامه ، وسكن دون حاجة إلى اللجوء إلى تلك الحماقات التي لم يكن العرض منها سوى انظم والنشر عجب ، وذلك عند وصول موافقة الحكومة على عزمه . غير أن الفصل الأول ما لبث أن تدخل في الأمر بوضع حد نهائي لهذه المناقشات . فأمر بمصدرة كتاب (رتيبه) لأنه وجد المضي في مناقشة أسباب المرائم التي منى بها جيش الشرق في مصر مفاعلاً لمصداخته الشخصية ولا تقره الحكمة السياسية أي حال من الأحوال .

وفلا عن ذلك فقد اعتقد يوبارت كما ذكر في ٢٣ يناير ١٨٠٢ في كتابه إلى رتيبه كناسيريس Cambacérès ولوران Lebrun عضوى القصلية ، أن الانقسام الذي حدث في صفوف قواد الحملة وصاحبها كان سبب المرمعة — كما يؤكد ذلك ما علمه شخصياً في أثناء محادثاته مع الصابط الموجودين في ليون ، وما ذكره التقارير التي وصفتها من بعض قواد جيش الشرق الآخرين^(٢) . واستثار رتيبه عصب الفصل الأول عليه عند ما اشتبك مع الجبران داستان في حدان بعد ذلك . انصى إلى وقوع صاردة بين الإثنين في غاية بولونيا في ٣ يونيو ١٨٠٢ ، ذهب محيها داستان فأمر يوبارت « سق » رتيبه وإعاد مسافة ثلاثين فرسحا عن باريس ، وكتب إلى رتيبه في ٥ بويه تعيقا على هذا الحادث . « إن هذه البادرة التي حرمت الوطن من خدمات قائد من أعظم قواده بسالة وشجاعة كانت كارثة أليمة حتى لقد لبس الوطن عليه ثوب الحداد العام . وفيه يحشى أن تكرر هذه الحوادث المخرقة^(٣) » . وكان من الواضح أن أشد ما يحشاه

Corresp. No. 5669 (١)

Corresp. No. 5930 (٢)

Corresp. No. 6078 (٣)

القصص الأول أن يشتت رسيه في مآوره أخرى مع مو عنه يذهب هذا الأخير
صحتها ، واستمر تحت الفصل الأول على ربييه ماصولا فلم يصب عنه حتى أيام
الإمبراطورية ، وعندئذ فقط أسيحت الفرصة للجنرال رسيه أن يشترك في حملات أسبانيا
واروسيا وحملات عام ١٨١٣ وان لقب (كوت) وأسر في ليبرج ، ولكنهم لم يسمروا
طويلا بعد عودته من الأسر ، فاب في فبراير ١٨١٤ وأما (دامس) من نشد
أعداء مومرسا فقد طال هو الآخر محبوسا عليه مدة طويلة ، عظم من ترقيه
التي مالها (كمرق) على يد كابر ، ثم أخرج من الخدمة انهالة ، ولم يدخر بالحيش
إلا أنام الإمبراطورية عندما انضم إلى الجنرال (مورا) Murat ، ثم أعطى وسام خوفا
الشرف في ١٨١١ ، والدرسة (فرنق) عد عامين فقط^(١) وهكذا مظهر أعداء
مومرأي طال ، على الرغم من حملاتهم وإسهامهم لشده له

وعلى خلاف ذلك كان حال موم مع الفصل الأول ، فإنه لم يمس أسوعان على وصوله
إلى مولون حتى كان بوارت قد صفت به في أول ديسمبر ١٨٠٦ تلك الرسالة التي
سبقت الإشارة إليها ، شئ فيها على استيائه في المقاومة بصورة ساعدت على تقديم معاوضات
يصبح مع العدو وأطلق مومرأي رعا الفصل الأول واستمرار عظمه عنه ، وإن
فصل النقاء في مولون ما دام رسيه على وجه الخصوص مقيم في باريس . بعد على
أشوبه بيمه وظهر رعا بوارت على صديقه القدم عندما صدر قرار الحكومة
في ٢٦ مايو سنة ١٨٠٢ باستمرار تجمع الجنرال موم عرسات القائد العام ، وذلك على
الرغم من حرارة تلك اللحظة التي أثارها رسيه ضده ، والتي بلغت وقتئذ مستهى
القوة والشدة .

وما إن صدر أمر بوارت بحد (رسيه) خارج باريس ، بعد حادث مبارزة مع
داستان وقبل هذا الأخير ، حتى جاء مومرأي إلى باريس واستطاع ، بمالة الفصل الأول
في اسو والساعة ، ونشرت الجريدة الرسمية في اليوم التالي (٦ يونيو ١٨٠٢) خبر
هذه المعاملة فكانت ، إن الفصل الأول رجب به رحيبا عظيم ، وأثبت ممدار بيهما من
حديث عندما يكلم موم فقال - « إن الأء ليحر في نفس حز اعتد ما أقدم إليك وقد
صارت من يديك أحمل مسعمراتك » وأخاه الفصل الأول « لقد قتت بأقصى ما يمكنك
أن تفعله بعد يوم ٢٦ مارس المشنوم كرحل عرف بالشجاعة وحكته الثعالب ، كما كان
لنقاومتك الطويلة في الإسكندرية أثر حميد في نجاح « معاوضات بدن » ، وإن جميع

الرجال ليقدرؤن ما خلعتهم إدارتكم الطيبة والحكيمة من تدار حميدة عادت بالخير والنعيم على البلاد ، وفي لأتبرف حق المعرفة كل ما وقع من حوادث في حيثك لقد كانت عطية حقاً تلك السكيات التي اتتاتك ، ولكن ذلك لم يؤثر شيئاً في تقديرى واحترامى لك ، وإنى لأأدر بآعلان هذا المديدر عالياً ، حتى لا يحد أوثك الذي يريدون إثارة الصخب والصجيج حول اسمك سبلاً إلى تلطيح سمعك أو العيب في مسلكك » (١) ولقى مو خطوة كبيرة لدى صديقه في أيام الفضلة والإمبراطورية . فحصل على وسام الشرف في ديسمبر ١٨٠٣ ، ثم مال أوصية أخرى رفيعة في لأعوام التالية ، حتى أصبح من زمرة لسلاة بلف (كوت) في أيام الامراطورية (٢) وكان نابليون يسميه دائماً بذلك « المصري القديم » .

ونقله مو في عهدى القصبية والإمبراطورية مناصب إدرية وحكومة هامة ، فحكم في يد مدت مدة خمس سنوات ونصف تقريباً ، ثم في سكايا مدة سنة ونصف تقريباً ، ثم في البدرية حتى قبيل وفاته بأقل من شهر واحد . فقد صدر قرار في إبريل سنة ١٨٠١ بحول بيد منب مقاطعة قريسة ، ثم استبدل الفصل الأول بإدراستها العسكرية لإدارة مدنية في سبتمبر من العام النابى . وأرسل نابونر لحكومتها في أول ديسمبر سنة ١٨٠٢ الخيال مو ، ثم عيه بعد ثلاث سنوات تقريباً حاكماً ما وراء الألب في مايو ١٨٠٥ ، وبقى مو في هذا المنصب حتى اشهور الأولى من ١٨٠٨ . واشهر مو بحزمه على تأيد سلطة الإمبراطور في أملاكه الإبطالية ، كما اشهر بكثرة الأوامر الإدارية التي صار يصدرها تارة ، على نحو ما كان يفعل في مصر ، وتصميمه على تنفيذها مهما عارضت مع آراء غيره ، مدعوى أنه وحده كان لسؤون الأول عن الحكومة في يد منب . ورحب نابون بهذا المنشط الذي أعتمد أنه يكمل القضاء على كل روع إلى المقاومة من جانب الشعب ضد سلطته .

حتى أن مهم الحكم ما كانت محال من الأحوال لتصرف مو عن التمتع بملذات الحياة ، حرباً على عادته في كل مكان يحل به ، والإعاق سعة على الحملات العديدة التي كان يكثر من إقامتها ، حتى استرعى يده وتديره أنظار معاصره جميعاً . فقد أجد سراى ملك سربيساً محلاً لإقامته ، بعد أن أخرى بها إصلاحات كثيرة أقرق عليها أموالاً طائلة بلغت ١٣٢ر٥٦٩ مرسكا . ولا كان المحمل الماسونى في تورين يعقد

إحتفائه في قسم منها ، فقد ثمر مو هذا المحفل بمعدرة السراى وأطل إحتفائه ، ثم انتهى به الأمر عمله أخيراً في عام ١٨٠٣ . وبما يؤثر عن مو أنه أراد كذلك ساء الحمامات في تورين على الطريقة الشرقية . وواقع الأمر أن تورين لم يمر بها عهد شهدت في أنشائه من صروب لدبح وجبه القهو وانترى كما حدث في أيام مو من ذلك إحياء الحفلات الرافضة ، وخاصة في أيام أعياد السكرعال . حتى أن إحدى هذه الحفلات استمرت قائمة مدة ثلاثة أيام ليديها . دون إنقطاع ، لم يعصب مو في أنشائه لحظة واحدة . ومع أن مو أحضر روحه المصرية السدة ربيده إلى « تورين » ، فقد تركه مع ولدها الصمير سليمان مراد في شبه عملة تامة ، بينما اتخذ نفسه هو عشيقات عدة من بن الرافضات والممثلات المجلات في تورين . واشهر (المصري لقدم) ، إلى جانب حبه للأعاق والندى . لعدم تمكنه بأهذاب العسلة وعدم اتقيده أى قانون أخلاقى . وكلمت حبة القهو والدبح هذه مو أموالاً طائلة عثرت مرتبته عن تحملها ، ولجأ على عادته أيضاً إلى الاستدانة . وما كان عاجزاً بطمة الحال عن سداد ديونه فقد راكمت هذه الديون ، وطالب أصحابها ورايه الجزية بسدادها (١) .

وعندما أعطى وريت ماري لور إمارة في النوربعال لقيه سارله عن تسكيا (في معاهدة Fontainebleau) في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٧ عهد الامبراطور إلى دونى Dauchy مستشار الدولة بإدارة شئون تسكيا بالاشتراك مع فواد حيش الاحتلال الفرنسى بها . وفي مايو ١٨٠٨ أنشأ الامبراطور مجلساً حكومياً فوق إعادة ، أوحوتها Junta ، لمرر اسلطات العطاة إلى دونى ، شألف من دونى منه وثلاثة مستشارين آخرين أرسهم من رئيس . وحفل إلى رئيس الجميع الحبران مو كما أصدر في شهر نفسه مزاراً نعم تسكيا إلى الامراطورية . وفي ١١ يوليو ١٨٠٨ وصل مو إلى فلورسة واتم مهام الحكم بها . وما إن وصل إلى مقر حكومته الجديدة حتى قام بربرة لمدينة ، والسكناس المهمة بها مع أعضاء الحكومة . وفي ١٥ أغسطس رار مو السكندرية في موكب عظيم شألف من أربعين عربة يحيط بها العرسان من كل جانب كما ترأس في ايوم نفسه احفالا كبيرة لأعداد مائة من العتيات الصغيرات لاستقبال حياة الزهبة ، وصاحب الموسيقى في أهم مدن فلورسة . وفي مساء أقام مأدبة فخمة في سراى بينى P-It أعقبتها حفلة رافضة ، وفي ٣١ أغسطس أقام احتفالاً آخر في ميدان سانتا كورس Santa-Corc عرسب في أنشائه ألعاب كثيرة ، وكان من أهم المناظر التي

استرعت أنظار آلاف المرححين نحو استعادوه مراراً ، منظر المحكوم على الإعدام مدبرة
واقفام حصنها .

واستمرت الإحفالات والاسعراصات بعد ذلك كما أوتيت الحفلات الراقصة ،
وأشرف به على عادته في الإعاق على هذه الحفلات لراحة ، وامن في هذه اترى
وابدع ، وعاش هو في لحو ومنمة في فلورنسة ، ولم يسرع عن اصطحاب عشيقته
في كل مكان يذهب إليه ، بل به ما كان يحجم عن اصطحاب حبيبته لفضلة عند ذهابه
إلى الاحفلات الرسمية ، أو عند قضاياه إلى اسكندرية وأما كني اسعاده الأخرى ،
وساعده على ذلك ولا شك أنه ترك السيدة ريبة وولدها في دور من مهله في روابا
السيان ومع أن الدون سربان ماترا كتبت عنه في فلورنسة بسبب إسرافه وسدوره
وكثير دائره وعظمت لحاجهم في مطالبه سداده ماشيه . فقد حل الإمبراطور راضيا
عنه ، بل إن تصامحه في الشهور الأولى مع هذا النصرى القديم كما كان يدعو -
بمع حدا بعيدا . والسبب في ذلك أن مو أظهر شاطا عظيما في تأييد سلطان نابليون
في تسكاي ، والقضاء على حصوم النهج الجديد بكل صرامة وشدة

وعلى ذلك فقد أعمدى عليه الإمبراطور لقب الشرف والرفعة ، فأصبح هو من ملأه
الإمبراطورية عندما مال لقب (كوت) في عام ١٨٠٨ ، ثم منحه الإمبراطور بعد
ذلك وسام (السر الأعظم) ، ثم حمل الإمبراطور على تحرير ماطيه للقضاء على كل
محاولة للثورة من جانب أهل تسكاي ، فأرسل إليه من نابولي ابنه ال (راده) Radet
انتظم قوة اسوليس في فلورنسة . وكان (راده) من الرجال الذين اماروا بالشاط
والثائرة على العمل ، خدم في جيش الثورة واشترك في أكثر المعارك وكان من اقواد
المتاريس . وصل فلورنسة في يونيو ١٨٠٨ ونفى بها حتى توبه من العام التالي ، وأمرى
إليه الفصل في إنشاء وتنظيم قوة من الشرطة المدنية ، التي استطاعت تطهير أكثر
مقاطعات تسكاي من العصابات المسلحة . وقطع لطرق الذين عشوا بالأمن ، وأثاروا
بها الاضطرابات من وقت لآخر . وكان من أهم الثورات التي اشترك (راده) في
إحصاعها تلك التي قامت في سيني Sienne وازرو Arezzo في أغسطس ١٨٠٨

وكان من أهم أسباب هذه الثورات والاضطرابات التي هددت سلطان الإمبراطور
في تسكاي مداحة انصرائب وأسماع الأهليين عن أذانب ، أصعب إلى ذلك تدحر رجال
الدين الذين ساءهم أن تفقد الكنيسة أملاكها بفصل إدخال نظام العلمانية ، واستيلاء
الحكومة على إيرادات الكنيسة . ولما كان عبيدون من الأساقفة لا يرالون يقيحون

في تسكيا ، وبسوء فهم ابدعها في الإمبراطورة العرسية ، بعد عهد هؤلاء ، إلى تحريك الثورة بها ضد الإمبراطور ، وشتر مو عن ساعد الحد والعمل في تعقب هؤلاء الأسابيين وانقذهم وإحداث طهم فقد كتب مو إلى الإمبراطور من فلورنسة في ٢٨ نوفمبر ١٨٠٨ « إن جمع الأسابيين الذي كانوا في تسكيا قد وقعوا في قبضة الحكومة منذ ثلاثة أسابيع مضت وترسلوا إلى ديمون وصودرت أملاكهم . . كما كان لانصار (باليون) وتهدمه في أمانا أنظم الأثر في هدية الخواطر وصيحت لسكرتير تسكيا « وفي غيرها من المملكات العرسية في إيطاليا (١) .

ولكن مو الذي اشهر بالثرد وعدم انتشاره سرعان ما عمل بعد ذلك القيام بأعمال حكومته ، ووجد « موضع « صعوبة كيرة في محاولة الاتصال به ، ولم يستطع أحد القواد مثلاً . وقد حضر مع هيئة أركان حربته بمقالة مو ، أن يطعن بهذه المقالة إلا بعد مشقة ، حتى إنه ما لبث أن امتنع بعد ذلك من رياره مو ، وصار يشكو من معاملته من الشكوى وعظمت الشكوى ضد مو بسبب حروجه عن التقاليد ، وانعاده إحدى اراقصات محطية له بعين مدها في ولاية ودون - تر ، وبدعوها لحضور الحفلات وللمحالات الرسمية أما هذه العشقة ، التي أثارت الشعور العام ضد مو فسكت يدعى (جين جراسيني) Jeane Grassini ، أصلها من ميلان ، ثم عملت كراقصة بأحد مسارح فلورنسة قبل أحد السابقين على مو « إن احتفاء صاحب السعادة الكونت مو بهذه الراقصة كان برداد يوماً بعد يوم ، ووثقت علاقته بها حتى اشهر أمرها في كل فلورنسة ، لاسيما وأن مو صار يرورها في بيته ويقضي في صحتها الليل بطوله ثم أكثر ساعات النهار ، ماركاً في اسطاره خارج دارها كوكبة من الحرس طول الوقت وصار يعلق عليها أمطياً ؛ بل تبع احتفائه بها حدثاً بحمص دفعها دحلاً مسوياً كبيراً ، كما زعمها على الامساع عن محالطة غيره ، ثم أحضر من ميلان أحياناً كان يعمل كمنهج بتقديم اراقصات إلى المسارح ، فانعده مو سكرتيراً له . وظهر اشتاء لغوم من مملكت مو عند ما رقص كثيرون من الكهراء حضور إحدى حفلاته الراقصة لوجود هذه الراقصة في صحته . وكان من أسباب الاستياء والتدبر أن هذه الراقصة صارت تتدخل في شئون الحكم ، ولجأت إلى وساطتها أصحاب الحفلات لدى متو لقضاء حاجتهم منه (٢) » .

ومن العرب أن الإمبراطور الذي كاتبه دعا أحبار مو لم يظهر أي استياء مما كان يفعله « صدقه » انقدر ، إما لأنه كان مشغولاً بما دعواهم من حكومة مو في تسكاجا . وإما لأنه كان عظيم العطف على ذلك « النصري » الذي بوعدت أو صر صدائه معه من أيام حوادث أكتوبر ١٧٩٥ وهكذا ترك مالميون « الصدقة » الحبل على العارب . حتى إذا عظم الشكوى منه وكثر عدد دائيه نقله الإمبراطور من فلورنسة إلى حكومة البندقية في ٢٨ سبتمبر ١٨٠٩ . ولكن مو لم يغير شيئاً من أساليب حياته ، وظل في البندقية سادراً في عوايه ، يعيش في مدح وإسراف ، ويحرق على مقتوفة التي يحرق معه إلى البندقية أموالاً طائلة^(١) ، حتى بلغت ديونه ١٥٣,٠٠٠ فريك . غير أن الإمبراطور مدلت أن مد صبره على مو في هذه المرة ، وتقم على مسلك « صدقه » ، وكتب إلى (أوجي — بوهارسه) حاكم إيطاليا في ١٥ يناير ١٨١٠ أن يأمر مو بالذهاب إلى باريس . ثم دفع الإمبراطور لدعوة ديون مو حسين ألف فريك ، كما أمر أن يدفع له من حرية إيطاليين ثلاثون ألف فريك لعدد جميع ديونه^(٢) ، وفي ٢٣ يناير من العام نفسه كتب وزير الحرسه إلى مو بخره بصروره العودة إلى فرنسا . وهكذا انتهت حكومة مو في البندقية .

وسكن مو لم يعيش طويلاً حتى يشمر بوطنه هذا السخط عليه ، فقد عاجله المية بعد ذلك على أثر إصابته بحمى جادة ، فتوفي يوم ١٣ أغسطس ١٨١٠ في فيلا كوربيسو Corbiso بالقرب من ميستر Mestre على مسافة غير بعيدة عن البندقية^(٣) . أما روجه المصرية السيدة ربيدة فيدمو أنها . ومن قبله ، إما في تورين وإما في البندقية . وأما سليمان مراد فقد ذكرت المراجع الفرنسية^(٤) أنه عاش بعد والده ، وورث لقب (الكونية) . ومع ذلك فمن الأرجح أن سليمان مراد قد توفي في حياة والده ، حوالي شهر يناير ١٨١٠ وأن الذي ورث لقب (الكونية) كان إما آخر غير سليمان . ولد مو من روجه المصرية ، إما في فرنسا وإما في إيطاليا . أي بعد عودة مو من مصر^(٥) .

Ibid 183 (Note 1) (١)

Corresp. No. 16662 (٢)

Rigault 389 — 90 (٣)

Dictionnaire De la Noblesse Imperiale-Rigault 390 (Note 1) (٤)

Bahgat. (La Famille) 40 — 2 (٥)

بأنك كانت قصة عداقة مو ، الرجل الذي استطاع أن يجمع في شخصه بين مرايا
الإداري الخادق إذا شاء الاستكبات على العمل ، ونقائص المسهر الخبيث إذا شاء أن
يحمي وقته في أفساح مع اللذة والعيش في « بوهيمية » ساعية ؛ وليس من شك في
أن مو ، على الرغم من هذا الساقط الظاهر في شخصيته ، كان في طبيعته أولئك
الفرنسيين الذين آمنوا وقتئذ ضرورة تشييد صرح إمبراطورهم الجديد على صفاء
السير ، فكان من كبر مؤيدي أول تجربة استعمارية من نوعها في مصر ، وإن كان
مقدراً الإحماق كل الإحماق لهذه التجربة من أول الأمر ، لأخطاء ارتكبتها قبله كل
من موبارث وكليبر في أثناء حكمهما لهذه البلاد ، ولأخطاء أخرى كان مو نفسه هو
المسئول عنها ، ثم أدرك ذلك بعد الدولى الذي جعل إحراج الفرنسيين من مصر
ضرورة لا مبرورحة لها ، لاعتناء على مشروعات نابليون في « الشرق » وإعادة التوازن
في أوروبا ذاتها .

مصادر الكتاب

١ - مجموعات المراجع

- Bibliothèque Khediviale. Catalogue .. Section européen II L'Orient.
Caire 1890.
- Combe, E. Catalogue de la bibliothèque municipale (d'Alexandrie)
Section Européenne 1892-1926. t. 1 Egypt.
L'Expédition de Bonaparte.
- Catalogue. Institut d'Egypte 1859-1917 Caire 1927.
- Quémard, O. Supplément (Addenda et Corrigenda) A'La Bibliogra-
phie .. De M. René Maunier Caire 1925
- Him'y (Prince Ibrahim) The literature of Egypt and the Sudan
from the earliest times to the year 1885 inclusive.
(2 vols). London 1886-1888
- Maunier, R. Bibliographie économique, juridique et sociale de
L'Egypte moderne (1798-1916). Caire 1918
- Mortiz, B. Publication de la Bibliothèque Khédiviale. Caire 1901.
- Munier, H. Catalogue de la bibliothèque du Musée Égyptien du Caire
Caire 1928.
- Tables De La Description De L'Égypte Suivies D'une Bibliographie
Sur L'Expedition Française de Bonaparte. Caire 1943.
- Pratt, Ida A. Modern Egypt. A List of references to material in the
New York Public Library. New York 1929.

٢ - وثائق مطبوعة

- Annuaire de la République française calculé pour le méridien du
Kaire, l'an VIII de l'ère française. Au Kaire, Impr. Nation. An VII
- Annuaire de la République française calculé pour le méridien du Kaire
l'an IX de l'ère française, Au Kaire, Impr. Nation. An IX.
- Annuaire de l'an VIII, suivi de la Constitution française. Quizeh
Impr. Nation. An VIII.
- Courrier de L'Égypte, du 12 fructidor an VI (29 août 1798) au 8
messidor an IX (27 juin 1801). Kaire VI - IX.
- Damas, (général, comte Fr. Et. de). Rapport fait au Gouvernem-
ent français des événements qui se sont passés en Egypte
depuis la conclusion du traité d'El-Arych jusqu' à la fin de
praïrial an VIII (1800). Kaire an VIII.
- Documents extraits des Archives historiques du Ministère de la
Guerre de France. Expédition française en Egypte. Kléber
(٤٤)

Premier Carnet. Armée d'Orient ... Deuxième Carnet Extraits et idées diverses et sans ordre. (Revue d'Egypte I, II)

Caire 1895—6.

Documents extraits des Archives du Ministère de la Guerre de France. Notes de M le général Morand sur les opérations du général Kléber (Rev. d'Eg. II.)

Caire 1895.

Documents extraits, etc. Notes sur l'insurrection au Caire. (Rev. d'Eg. II)

Caire 1895.

Drompore Papers. (The Historical Manuscripts Commission Reports. VI—VII.)

Hauterive, A M Blanc d'. — Observations et pièces relatives à la convention d'El-Arisch, Paris, an IX.

Jonquière, de La — L'Expédition d'Egypte (1798 1801) — 5 vols. Paris 1899—1907

La Décade Egyptienne Organe de L'Institut d'Egypte, 3 vols. Kaïre. Années VII, VIII.

Martens, G F. von. Recueil des principaux traités . . 8 vols.

Göttingen. 1817—35.

Noradounghian, G — Recueil D'Actes Internationaux de L'Empire Ottoman. vols I, II.

Paris 1897.

Pièces Diverses et Correspondance Relatives aux Opérations de l'Armée d'Orient en Egypte

Paris. An IX

Pièces Officielles de l'Armée d'Egypte. Première Partie. (Pièces Diverses relatives aux opérations militaires et politiques du général Bonaparte.)

Paris, an VIII.

Relation de l'Expédition de Syrie, de la bataille d'Aboukir et de la prise du fort de ce nom. Imprimé sur les pièces originales et officielles

Paris, an VIII

Recueil des pièces relatives à la procédure et au Jugement de Solyman e-Haaby, assassin du général en chef Kléber et traduction turke des pièces. Caïre, an VIII Also Revue d'Egypte II, III. 1896.

Testa, Le Baron J. de—Recueil des Traités De La Porte Ottomane. (vol II)

Paris 1864—98.

Vagnier, R. et Venture, J — Kléber en Egypte Documents inédits

Paris 1899.

٣ — الرسائل والمذكرات والتقارير

Anonymous... Copies of Original Letters From the Army of General Bonaparte In Egypt. Intercepted by the Fleet Under the Command of Admiral Lord Nelson.

London 1799.

- Lettres de l'Armée en Egypte au Gouvernement français interceptées par la corvette de Sa Majesté Britannique El Vincejo dans la Méditerranée. Londres 1800
- Baldwin, G. Political Recollections relative to Egypt... etc... London 1801
- Barrow, H. Life and Correspondence of Admiral Sir William Sidney Smith. 2 vols. London 1848.
- (Beliard) Memoires du Comte... écrits par lui-même, recueillis et mis en order M. Venit... etc... 3 vols. Paris 1842.
- Berthier Memoires du Maréchal Berthier... Campagne d'Egypte. 1re Partie. Paris 1827
- Bertrand Campagne d'Egypte et de Syrie (1798—1799). Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictes par lui-même à St. Hélène... 2 vols. Paris 1847.
- Boissy, L. de.— Bonaparte au Caire. Ou Mémoires Sur L'Expedition de ce general en Egypte... Paris 1799
- Bonnefons, A — Un Soldat d'Italie et d'Egypte Souvenirs d'Antoine Bonnefons. (Carnet de la Sabretache. 2^e série. 1er volume.) Paris 1903.
- Bourrienne L. A. F. de Mémoires de... ministre d'Etat Sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration. t. II—III. Paris 1828—30.
- Bricard Journal du Canonnier Bricard 1792 1802 publié pour la première fois par ses petits-fils Alfred et Jules Bricard Avec Introd. de Loredan Larcher. Paris 1891
- Brotonne, L. de— Lettres inédites de Napoléon. collationnées sur les textes... Paris 1898.
- Correspondance de Napoléon 1er publié par ordre de Napoléon III. vols 4—5. Paris 1858—70.
- Correspondance officielle de l'Armée d'Egyte, contenant les dernières dépêches par le général Vial, et par l'aide-de-camp du général Menou... etc. Paris, an IX.
- Desvernors. Avec Bonaparte en Italie et en Egypte. Mémoires etc publiés par Albert Dufourq. Paris 1933
- Douguerau, J-P. Journal de l'Expédition d'Egypte etc Avec une introd. et notes par C. de la Jonquière. Paris 1904.
- Doyle, Co. Ch — A non military journal of observations made in Egypt by an officer upon the staff of the British Army... In a series of letters... London 1803.
- Du Casse A. Supplément à la Correspondance de Napoléon... Paris 1887.

- Dumas, le comte Mathieu-Souvenirs du lieutenant-général . de 1790 à 1836. publié par son fils. 3 vols. Paris 1839.
- Fuite de Bonaparte de l'Egypte. Pièces authentiques sur sa désertion, etc . Suivies de plusieurs lettres qu' il a adressées au Grand-Vizir et qui ont interceptées par la corvette de S. M. Brt El Vincejo. Paris 1814
- Geoffroy Saint Hilaire, E. Lettres écrites d'Egypte, recueillies et publiées avec une préface et des notes par E. T. Hamy. Paris 1901
- Grolleau, Ch — Journal au Capitaine François (dit le dromadaire d'Egypte, 1792-1830) . . 2 vols. Paris 1903 4
- Guémard, G Nouvelle contribution à l'histoire de l'Institut d'Egypte et de la Commission des Sciences et Arts Correspondance inédite des ingénieurs civils de l'Armée d'Orient, découverte par M. Jean Ott... (Bull. de l'Inst. d'Ég. VII Session 1924-26.)
- Jolibois, P—Journal D'Un Ingénieur . (1798-1802). Publie par P. Lefèvre-Pontalis. (G. Maspero. Bibliothèque Egyptologique-Tome Sixième). Paris 1904
- Journal des opérations du général Kieber pendant toute la durée du commandement qu' il exerça à Alex. du 18 messidor au 2^e Jour complémentaire an VI. (Rev. d'Egypte II) Caïre 1895
- Kelth, Sir R. M. Memoirs and Correspondence (2 vols) London 1849
- Keller, A.—Napoléon 1^{er}, Correspondance, bulletins et ordres du Jour, édités par ... t IV. Paris. (S. D.)
- Larcher, L. Correspondance Intime de l'Armée d'Egypte Interceptée par la Croisière Anglaise etc .. Paris 1866.
- Larrey, D J Memoires de chirurgie militaire et de campagnes. vol 1 Paris 1812-17.
- Las Cases, Comte de.- Mémorial de Sainte-Hélène, suivi de Napoléon dans l'exil par M. M. O'Méara et Antommarchi . 2 vols. Paris. S. D
- Lecestre, L. Lettres inédites de Napoléon (an VII-1815). 2 vols. Paris 1897.
- Lebnitz, O W von Mémoire à Louis XIV, sur la Conquête de l'Egypte, publié avec préface et notes par M. de Hoffman. Paris 1840,
- Lettres des Membres du Divan du Kaïre au Général Bonaparte . . Traduit de l'original par Silvestre de Sacy ... et Jaubert Terminé en ventôse an IX, par les soins de J. J. Marcel. Paris, an XI.
- Magalon, Ch Mémoire Sur l'Egypte (Rev. d' Eg III) Caïre 1899,
- Maus de Mitry, E. L. L'Agenda de Malus. Souvenir de l'Expédition

- d'Egypte 1798—1801. Publié et Annoté par le Général Thoumas.
Paris 1892.
- Marmont. Mémoires du maréchal Marmont, duc de Raguse, de 1792
à 1841 ... vol I. Paris 1857.
- Mémoires sur l'Egypte publiés pendant les campagnes du général
Bonapart dans les années VI, VII, VIII et IX. (4 vols)
Paris, ans VIII à XI.
- Michaux, A. Journal du siege du Kaire par l'armée française sous
les ordres du general en chef Kleber du 21 mars au 21 avril,
1800. (Rev. d'Eg. II) Caïre 1895
- Millet, S. Le Chasseur Pierre Millet. Souvenirs de la Campagne
d'Egypte (1798—1801) Avec Introd. Notes et Appendices.
Paris 1903.
- Miot, J. F. Memoires pour servir à l'histoire des expédition en
Egypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la
Republique Française. Paris, an XIII (1804)
- Morier, J. Memoir of a Campaign with the Ottoman Army in
Egypt from February to July 1800 .. London 1801
- Mortureux, Commandant Expédition d'Egypte. Correspondance du
général Dugua, comm. la Basse-Egypte, pendant l'Expédition de
Syrie. (Carnet de Sabretache) Paris 1906
- Murat, Prince. Lettres et documents pour servir à l'histoire de
Joachim Murat 1767—1813 .. (4 vols) Paris 1900.
- Mure, J-B Mémoire Militaire et Politique sur l'Egypte. Note Remise
en 1789 à M. Abancourt .. (Rev. d'Eg. II) Caïre 1896.
- Napoleon Bonaparte. Correspondance Inédite Officielle Et Confident
ielle .. par le general Beauvais (vols I, II). Paris 1819 20.
- (Nelson). The Dispatches and Letters of Vice Admiral Lord Viscount
Nelson. With Notes by Sir Nicholas H. Nicolas. (vols 3, 4).
London 1845
- Neilo-Sargy, J O de. Mémoires sur l'Expédition d'Egypte, recueillis
et mis en ordre par Alph de Beauchamp Paris 1825.
- Noé, Comte de. Mémoires relatifs à l'expédition anglaise partie du
Bengale en 1800 pour aller combattre en Egypte l'armée d'Orient.
Paris 1826.
- Pajol, Le Comte - Kléber, sa vie, sa Correspondance. Paris 1877
- Poussielgue. Lettre de M Poussielgue, ancien administrateur général
des Finances de l'Egypte, accompagnée de pièces justificatives
à M. Thiers. Paris 1845.
- Reynier, O Mémoires du Comte Reynier. Campagnes d'Egypte 11^e
Partie Paris 1827
- Richardot., Nouveaux Mémoires Sur l'Armée française en Egypte
et en Syrie ... Paris 1848

- Rousseau, M. F. - Kléber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaparte (Août 1799 - Septembre 1801). Documents. etc
Paris 1900
- Roy, J. J. E - Les Français en Egypte, ou souvenirs des Campagnes d' Egypte et de Syrie, par un officier de l'Expedition
Tours 1857
- Savary, A. J. M. R. Mémoires du duc de Ravigo, pour servir à l'histoire de l'empereur Napoléon (vol 1)
Paris 1828
- Savary, C. E. Settres Sur L'Egypte. (2 vols)
Paris 1798.
- Simon, E. T. Correspondance De L'Armée Française Interceptée par L'Escadre de Nelson etc.
Paris, an VII (1799).
- Smith, Sir Sidney. Letters to Lord Nelson Containing A Most Extraordinary Narrative of the Defeat and A most entire Destruction of the French Army at St John De Acre in Syria. Bristol 1799.
- Talleyrand - Mémoires Du Prince De Talleyrand, Publiés Avec une Préface Et Des Notes par le Duc De Broglie (vol 1).
Paris 1891.
- (Terrage). Villiers du Terrage, E de Journal et Souvenirs sur l'Expedition d'Egypte (1798 - 1801) etc
Paris, 1899.
- (Thurman). Bonaparte En Egypte Souvenirs publiés avec préface et appendices par le comte Feury.
Paris 1902
- Thornton (Surgeon). The British Campaign in Egypt of 1801 as recorded in the Diary by. edited with command by Lt-Col. Thornton Cantrob.
Alexandria 1937.
- Tolt, Baron de - Mémoires Sur les Turcs et les Tartares (4 vols)
Amsterdam 1784.
- Trécourt, J - B. Mémoires sur l'Egypte, année 1791 édités et annotés par Gaston Wiet.
Caire 1942.
- Wiet, G. Deux Mémoires inédits sur l'Expédition d'Egypte Journal de Grandjean. Journal du Lieut Laval. Préfacés et annotés.
Caire 1941.

٤ - رحلات وأسفار

- Bernardin de St. Pierre, J. H - Voyage à l'île de France. (Oeuvres t. I, II)
Paris 1818.
- Bruce, J. Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771 and 1773. (vols 1, 4). Edinburgh 1804
- Cooper, J. Observations on the Passage to India through Egypt. etc.
London 1785.

- Cooper, Rev. W. A Voyage up the Mediterranean in his Majesty's Ship the Swiftsure with a description of the Battle of the Nile London 1802.
- Denon V. - Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte 2 vols Paris, an X (1802)
- Dominique Di Petro. Voyage historique en Egypte pendant les campagnes des généraux Bonaparte, Kéber et Menou Avec une carte de l'Egypte.. Paris 1818.
- Garand, A Reise nach Aegypten und Bemerkungen über verschiedene Gegenstände während des dreijährigen Aufenthalts des Französischen Arme in diesen Lande (1799 bis 1801) . Weimar 1804.
- Irwin, E A Series of Adventures in the Course of a Voyage up the Red Sea .. 2 vols. Dublin 1780.
- Kendal, A G Travels in Upper and Lower Egypt during the Campaigns of General Bonaparte from the French of Vivant Denon To which is prefixed an historical Account of the invasion of Egypt by the French 2 vols London 1802
- Nectoux, H. Voyage dans la Haute-Egypte au-dessus des cataractes ... etc ... Paris 1808.
- Poirce, P. Voyages d'Un Philosophe Paris 1763.
- Sonnin, C. A. Travels in Upper and Lower Egypt undertaken by order of the Old Government of France (Translation). London 1800.
- Voiney, C. F. C. Voyages en Syrie et en Egypte Pendant les années 1783, 1784 et 1785 2 vols. Paris 1787
- Wittman, W. Travels in Turkey, Asia Minor, Syria, and across the desert into Egypt during the years 1799, 1800, 1801, in company with the Turkish Army and the British Military Mission ... London 1803

ه - کتابات و بحوث المعاصرین

- Anderson A A Journal of the forces which sailed from the Downs in April 1800, on a secret expedition under the command of Picot... London 1802.
- Anonyme - Considérations Politiques (1783), Suites Des Considérations Politiques. (Paris 1785)
- Operations of the British Forces in Egypt 8th to 21st March 1800: Operations of the British and French, 12th and 13th March Battle of Alexandria 21st March London (S. D.).

- Plan of the Operations of the British and Ottoman Forces in (Lower) Egypt from the 8th of March to the 2nd of Sept 1801
London 1802.
- Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie
Paris 1800.
- Situation de l'Egypte au 1er vendémiaire an XIII, et récapitulation des événements qui s'y sont succédés depuis le départ de l'armée française.
Paris an XIII (1805).
- Antea, J. Observations on the manners and customs of the Egyptians, the overflowing of the Nile and its effects, with remarks on the plague and other subjects...
London 1800.
- Berry, Sir E. Authentic narrative of the proceedings of His Majesty's squadron under the command of Rear-Admiral Sir Horatio Nelson from its sailing to Gibraltar to the conclusion of the glorious battle of the Nile
London 1798.
- Berthier, le général. Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie
Paris, an IX 1801
- Boisgelin, L. de Malte, ancienne et moderne, ed. française publiée par A. Forbin (de Pilles)... 2 vols.
Marseille 1805.
- Bonaparte en Egypte ou détails sur le massacre et l'empoisonnement des prisonniers et des malades de Jaffa, terminés par une des proclamations aux habitants du Caire. (?)
- Deaporte — Abrégé Chronologique de l'histoire des Mamelouks d'Egypte... (Description de l'Egypte t. XV 231-263).
- Dearvière-Not.ce sur Dugua. Caen 1802.
- Description de l'Egypte, ou recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition de l'armée française. 9 vols de texte et 14 de planches.
Paris 1809—1828
- Desgenettes, R. -Histoire Médicale de l'Armée d'Orient-Paris 1802.
- Desgranges Aimé—Histoire De l'Expédition Des Français En Egypte Par Nakoula El-Turk.
Paris 1839.
- Dumas, Lieut -gén. Comte Mathieu — Précis des événements militaires, ou Essais historiques sur les campagnes de 1799 à 1814. (t. VII).
Paris 1817—19.
- Estève — Mémoire sur les Finances de l'Egypte. . (Description de l'Egypte t. XII 41—248).
- Trésorerie générale, Instruction concernant le service de la trésorerie donnée aux payeurs divisionnaires de l'armée de la Méditerranée. Caen an, VI.

- Service de trésorerie (armée de la Méditerranée) Carre, an VI-VIII.
Expédition De syrie Jusqu'à la Prise De Jaffa. Caire, an VII.
- Fabien, F et Beaumont, L Galerie militaire ou Notice historique
sur les généraux en chef. etc Paris, an XIII 1805.
- Galland, A. — Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'Armée
Française... (2 vols). Paris 1804.
- Grobert, O.—Description des Pyramides de Quizeh, de la ville du
Caire et de ses environs. Paris, an X
- Guitry, (Commandant)—L'Armée de Bonaparte En Egypte 1798—1799
Paris, 1897
- Hennet, L. La Mission d'Écorches de Sainte — Croix à l'Armée
d'Orient (1800) et les Sainte—Croix. (Carnet de la Sabretache)
Paris 1806.
- Herbin De Halle, P.—Ét. Conquêtes des Français en Egypte; ouv-
rage dans lequel on a joint à les description géographique,
l'histoire des révolutions, etc Paris, an VIII.
- Histoire des généraux Desaix et Kléber. Avec des Notes et rem-
arques.. etc. Paris, an X (1802).
- Irwin, E - Bonaparte in Egypt: or, An Appendix to the enquiry
into his supposed Expedition to the East. Dublin 1798.
- Lancret — Mémoire sur le système de l'imposition territorial etc...
(Description de l'Egypte. t. XI 461—571.)
- Larrey, D. J — Relation Historique et Chirurgicale de l'Expédition
de l'Armée D'Orient En Egypte et En syrie Paris 1803.
- Latil, J. B. — Campagnes de Bonaparte à Malte, en Egypte et en
Syrie. Marseilles, an X
- Lusignan, S. — A History of the Revolt of Ali Bey Against the
Ottoman Porte, etc.. London 1784.
- Mably, L'Abbé de. — Le Droit public de l'Europe fondé sur les
Traités. (3 vols). Geneva 1764.
- Martin, P.—Histoire de l'Expédition Française en Egypte (1798—1801)
(2 vols). Paris 1815
- Menzies, J. — History of the late expedition to Egypt, under the
Command of Lieut.-General Sir Raiph Abercromby. Glasgow 1803
- Norry, Ch - Relation de l'expédition d'Egypte, suivie de la descri-
ption de plusieurs monuments de cette contrée, Paris, an VII.
- Raynal, O. T. - Histoire philosophique et politique des établissemnts
et du commerce des Européens dans les Deux Indes. (10 vols).
Geneva 1780—1

- Reybaud, L. - Histoire scientifique et militaire de l'Expédition française en Egypte... etc. (10 vols). Paris 1830-1836
- Reynier, G. - De l'Egypte Après la bataille d'Héliopolis. Considérations générales sur l'organisation physique et politique de ce pays, Paris 1802
- Richardot. - Relation de la campagne de Syrie Spécialement des sièges de Jaffa et de St. Jean d'Acce. Paris 1839
- Thibaudeau, A. C. - Histoire de la campagne d'Egypte sous le règne de Napoléon le Grand le Grand (2 vols) Paris 1839
- (Gall). Vertray - L'Armée Française en Egypte 1798-1801 Manuscript mis en ordre et publié par A. Gall Paris 1883
- Walsh, Th. - Journal of the late Campaign in Egypt including Descriptions of that Country... London 1803
- Wilson, Sir R. T. - History of the British Expedition to Egypt to which is subjoined a Sketch of the present State of that country (2 vols). London 1802

٦ — تراجم

- Aldeguier, F. d'. - Etude historique sur la vie privée et militaire de Joseph Maximilien de Caffarelli du Falga. Paris S. D.
- Alardyce, A. - A Memoir of the Hon G Keith Elphinstone, Viscount Keith London 1882
- Anson, W. J. - The life of John Jervis Admiral Lord Saint-Vincent London 1913
- Aubigné, d' - Vie de Kléber Paris 1891
- Aubry, O. - Napoléon. Paris 1936
- Bachally, Ch. - le manuscrit autographe de don Raphaël, membre, de l'Institut d'Egypte (1798). - Bull de l'Inst. Eg. XIII Session 1930-3
- Un membre oriental du premier Institut d'Egypte, Don Raphaël (1759-1831). - Bull. de l'Inst. d'Eg. XVII Session 1934-5
- Behn - Jean - Joseph Marcel. orientaliste. Notice historique et biographique par Tullefer. Paris 1854
- Bosell, J. - Biographies égyptiennes, Edme - François Jomard Rev d Egypte IV. 1897
- Coutret, J. - Kléber. Paris 1886
- Darassy, G. - Moustapha Pacha, le prisonnier d'Aboukir. Bull de l'Inst. d'Eg. Session 1928-9.
- Dégerando, J. M. - Vie du général Louis-Marie-Joseph Maximilien Caffarelli du Falga. Paris an X (1801)

- Derrecagaix - Les états - majors de Napoléon. Le lieutenant général comte Belliard. Paris 1908
- Desaix, J. et Fohot, A - Le Général Desaix. Annecy 1879
- Driault, F., et Houth, E. - Alyre Reffeneau Deble. Bull. de l'Inst d'Eg. XV. Session 1932—3
- Dupin, Ch - Essai historique sur les services et les travaux scientifiques de Gaspard Monge... Paris 1819
- Dupont, de Nemours. - Notice sur la vie de M. Poivre Paris 1786
- Ernouf, le Baron - Le Général Kléber Paris 1867
- France, A. - Notice historique sur Vivant Denon. Paris 1890
- Garçon, M. - Kléber (1753—1800). Paris 1936
- Garnier. - Notice sur le général baron Delzons, avec note sur le général Destaing. Paris 1863
- Lacour - Gayet, O. - Talleyrand (1754—1838). 3 vols. Paris 1930
- Leroy - Dupre, Dr. - Larrey, chirurgien en chef de la Grande Armée. Paris 1860.
- Lockroy, E. - Ahmed le Boucher, la Syrie et l'Egypte au dixhuitième siècle. Paris 1888
- Lucas-Dubreton, J - Kléber (1753—1800) Paris 1937
- Mahan, A. T. - The Life of Nelson, the embodiment of the sea power of Great Britain 2 vols Boston 1897
- Maron. - Notice necrologique sur le lieutenant-général comte Andréossi. Paris. S. D.
- Martha - Beker, F. Le général Desaix. Paris 1852
- Oberny, Le D'. - Au Suel de l'opopée Episodes des Campagnes d'Egypte et de Syrie 1798—1801 Paris. S. D.
- Pailly, P. - Documents concernant la vie et les oeuvres de Savigny. Bull. de l'Inst. d'Eg. XVI Session 1933 4
- Rigaut, G. - Le Général Abdallah Menou et la Dernière Phase de L'Expédition D'Egypte (1799—1801). Paris 1911
- Southey, R. - The Life of Nelson. 3 vols London 1853

V - مراجع عامة ودراسات خاصة

- Abbate, W. - Bonaparte et l'Institut d'Egypte. Bull. de l'Inst. ég. 11^e Série No. 10. Caire 1889
- Ader, J.-J. - Histoire de l'Expédition D'Egypte et de Syrie, Revue Pour Les Détails Stratégiques par M. Le Général Beauvais. Paris 1826
- Artin, Y - Institut égyptien. La propriété foncière en Egypte Caire 1883
- Aulard, F. A - Histoire Politique de la Révolution Française Paris 1921.

- Paris pendant la Réaction thermidorienne et sous le Directoire.
Collection de documents relatifs à l'histoire de Paris pendant
la Révolution 5 vols. Paris 1898—1902
- Bachatly, Ch - L'Administration de la justice en Egypte à La veille
des reformes de l'an IX. d'après un document arabe inédit.
Bull. de l'Inst. d' Eg XVIII, 1935 - 6.
- Bahgat, A - Acte de mariage du général Abdallah Menou Bull de
l'Inst ég. 3° série No. 9 Caire 1899.
- Le famille musulmane du général Abdallah Menou. Bull de l'Inst.
ég. 4°série No 1. Année 1900. Caire 1901.
- Bainville, J - L'expédition française en Egypte (1798—1801) Précis
de l'histoire d'Egypte. III Caire 1935.
- Baudot, R. - Dominique Larrey et les campagnes de la Révolution
et de l'Empire. Tours 1900.
- Bonnal, E. - Histoire de Desaix. Armée du Rhin, Expédition
d'Orient. Marengo, D'après les archives du Dépôt de la guerre.
Paris 1881
- Bréhier, L - L'Egypte De 1798 à 1900. Paris 1900.
- Burgogne, S. - Egypt Naval and Military Operations (1798—1802)
London 1893.
- Canvel R. G. - L'Expédition d'Egypte: 1798—1801. La Commis-
sion des Sciences et des Arts La Rev. inter. d'Egypte. III.
No. 1 ; IV. Nos. 4—5. Caire 1906.
- L'Imprimerie de l'Expédition d'Egypte, les journaux et les procès-
verbaux de l'Institut (1798—1801). Bull. de l'Inst. ég. 5° série
III. 1er fasc. années 1909.
- Carré, J - M. - Voyageurs Et Écrivains Français En Egypte. 2 vols
Caire 1932,
- Champollion - Figeac - Fourier Et Napoléon, L'Egypte Et les Cent
Jours. Mémoires Et Documents Inédits Paris 1844.
- Charles-Roux, F.-L'Isthme Et Le Canal De Suez. 2 vols. Paris 1903
- Les Origines De L'Expédition d'Egypte. Paris 1910.
- Autour D'Une Route. L'Angleterre. L'Isthme De Suez Et L'Egypte
Au XVIII° Siecle. Paris 1927.
- L'Angleterre Et l'Expédition française en Egypte 2 vols. Caire 1925.
- Bonaparte Gouverneur D'Egypte Paris 1936
- Cherfils, Christian - Bonaparte et l'Islam D'Après les Documents
Français et Arabes. Préface du Cherif Abd EL-Hakim.
Paris 1914
- Chevalier, E. - Histoire de la Marine Française Sous la Première
République. Paris 1886

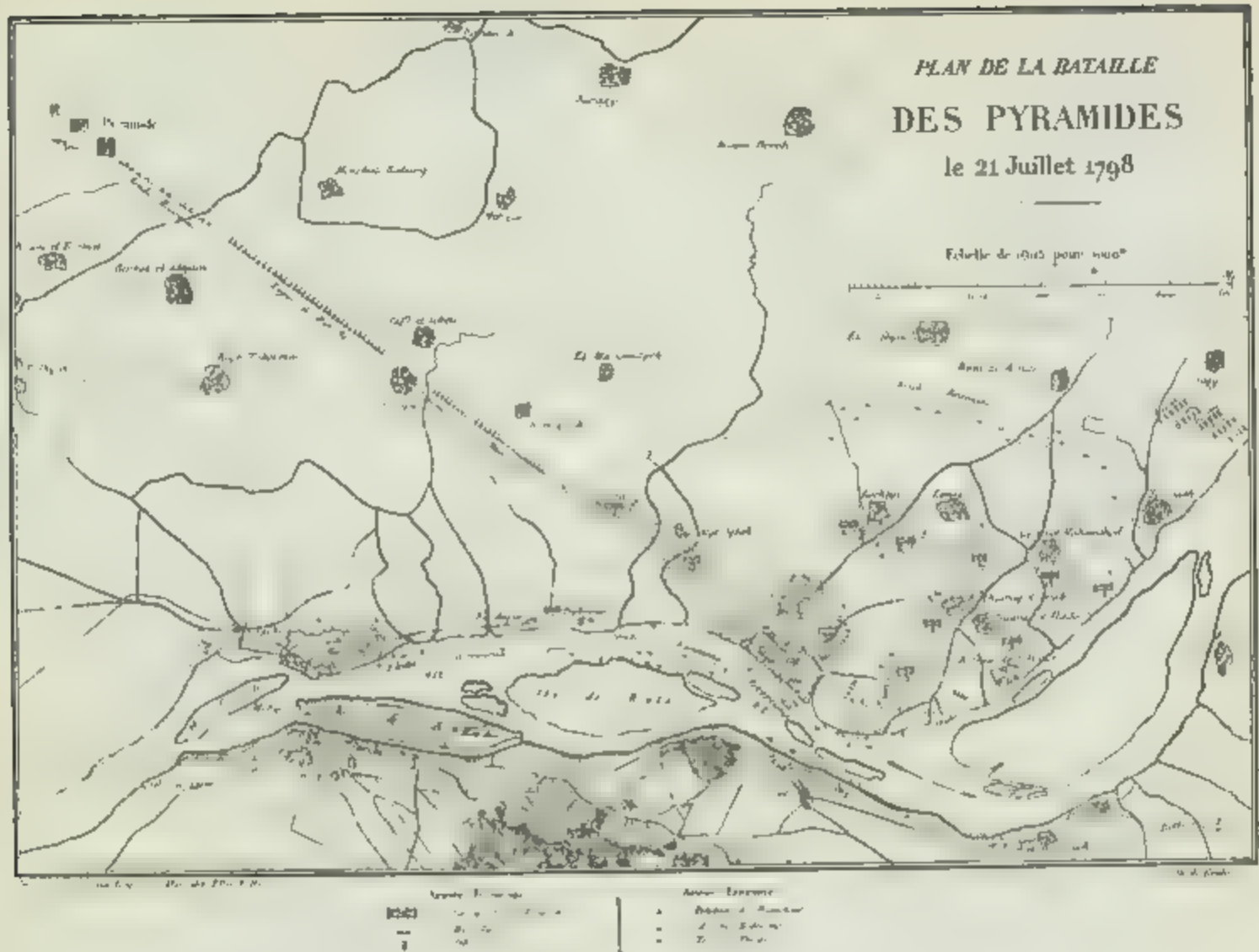
- Combe, E. - L'Egypte Ottomane Précis de l'Histoire d'Egypte III
Caire 1933
- Les prétendus trésors de Bonaparte enfouis dans la baie d'Aboukir.
Bull. de la Soc. Archeol. d'Alexandrie t. X. Alexandrie 1939
- Debien, G. - Une Plantation de Saint-Domingue-La sucrerie Galbaud
du Fort (1690 - 1802). Caire 1941
- D'Esire, H. - Bonaparte. Le Mirage Oriental. Egypte (1789—1799)
Paris 1946
- Delacroix, D. - Bonaparte en Egypte (1798—1799). Paris 1899
- Douin, G. - La Foite de Bonaparte sur les côtes d'Egypte Les
Prodromes d'Aboukir. Caire 1922
- La Campagne de Bruix en Méditerranée (mars-août 1799)
Paris 1923
- Le retour de Bonaparte d'Egypte en France. Bull. de l'Inst.
d'Egypte. XXIII. Session 1940—1
- Ducors, H. - Note sur le poignard qui tua Kléber Bull. de l'Inst.
d'Egypte VII. Session 1924—5
- Dukay, P. - Les Français en Egypte Paris 1933
- Elgood, P. O. - Bonaparte's Adventure In Egypt. London 1936
- Favre, J. (Père) - Canope, Menouthis, Aboukir Alexandrie 1917
- Fortescue, J. - History of the British Army (vol IV parts 1 and 2.)
London 1899
- Geiss, A. - Histoire de l'imprimerie en Egypte Les imprimeries
françaises, de 1798 à 1801. Bull. de l'Inst. ég. 5^e série I fac.
Année 1907
- Ohorbal, Shafik. - The Beginnings of the Egyptian Question and
the Rise of Mehemet Ali. London 1928
- Gravière E. de la - Guerres maritimes sous la République et l'Empire
(vol I) Paris 1853
- Orenfell, Sir F. W. - Malta in 1798. Its Capture by Napoleon. (Malta
Tactical, Archeological and Scientific Societies) 1902
- Quemard, G. - Trois témoins de la Campagne d'Egypte - Lascaris et
Corancez en Syrie, Jaubert en Perse (et le rêve oriental de
Bonaparte) Bull. de l'Inst. d'Eg. VII. Session 1924—5
- Essai d'Histoire de l'Institut d'Egypte et de la Commission des
Sciences et des Arts. Essai de Bibliographie critique de l'Institut
d'Egypte et de la Comm. des Sciences et des Arts Bull. de
l'Inst. d'Eg. VI. Session 1923—4, VIII Session 1925—6.
- Les Auxiliaires de l'armée de Bonaparte en Egypte (1798—1801)
Bull. de l'Inst. d'Eg. IX Session 1926—7.
- Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences
et Arts de l'Institut d'Egypte Caire 1936.

- Une oeuvre française. Les réformes en Egypte (d'Ab Bey el Kébir à Méhémet-Ali) 1769-1848. Caire 1936
- Guérin, J. - Histoire maritime de France 6 vols Paris 1859-63
- Hanotaux, G. - Histoire de la nation égyptienne. Ouvrage publié sous les auspices et le haut patronage de sa Majesté Fouad 1er, roi d'Egypte. t V. Paris. S. D.
- Haye, A. de. - Desaix, Étude politique et militaire. Paris 1909.
- Homsy, G. - Le général Jacob et l'expédition de Bonaparte en Egypte (1798-1801). Marseille 1921.
- Hoskins, H. L. - British Routes to India. London 1928.
- Iconographie de Kléber Revue d'Egypte II Caire 1896.
- James, W. - The Naval History of Great Britain. 2 vols. London 1886.
- Jehan D'Ivry. (Mme Fahmy Bey). Bonaparte et l'Egypte Paris 1914.
- Jonquière, A. de la - Histoire De l'Empire Ottoman Paris 1881.
- Lammens, H. - La Syrie Précis Historique. 2 vols. Beyrouth 1921.
- Langlois, Ch. - Explication du Panorama De La Bataille Des Pyramides. Paris 1853.
- Legrans, G. - Les Soldats lettrés de Bonaparte. Histoire de la Commission des Arts et des Sciences de l'Expédition française en Egypte. Caire 1913.
- La maison d'Ibrahim el-Sennar au Caire Bull de l'Inst. ég 5° Série VII 1er fasc. année 1913.
- Lenôtre, G. - L'Institut d'Egypte. Bull. de l'Inst. d'Ég. XV. session 1932-3.
- Limousin, L. - Bonaparte et l'armée noire. La Revue ég. 1re année No. 7. Caire 1912.
- Lokke, C. L. - France and the Colonial Question. A study of Contemporary French Opinion (1762-1801) New York 1932.
- Macdonald, J. R. M. - The Thermidorian Reaction and the End of The Convention Cambridge Mod. History. VIII. 372-97
- Madein, L. - L'ascension de Bonaparte Paris 1937.
- Mahan, A. T. - The Influence of Sea Power upon the French Révolution vol I. London 1893.
- Malleson, G. B. - Final French Struggles in India. With an Appendix Containing an Account of the Expedition from India to Egypt in 1801. London 1884.
- Marmottan, P. - Le général Menou en Toscane. Carnet de la Sabretache. 2° serie. Premier Volume. Paris 1903.
- (Meurthe). Boulay de la Meurthe-Bourienne et Ses Erreurs (2 vols). Paris 1830
- Le Directoire et l'Expédition d'Égypte. Etudes sur les tentatives du Directoire pour communiquer avec Bonaparte le secourir et le ramener. Paris 1885.

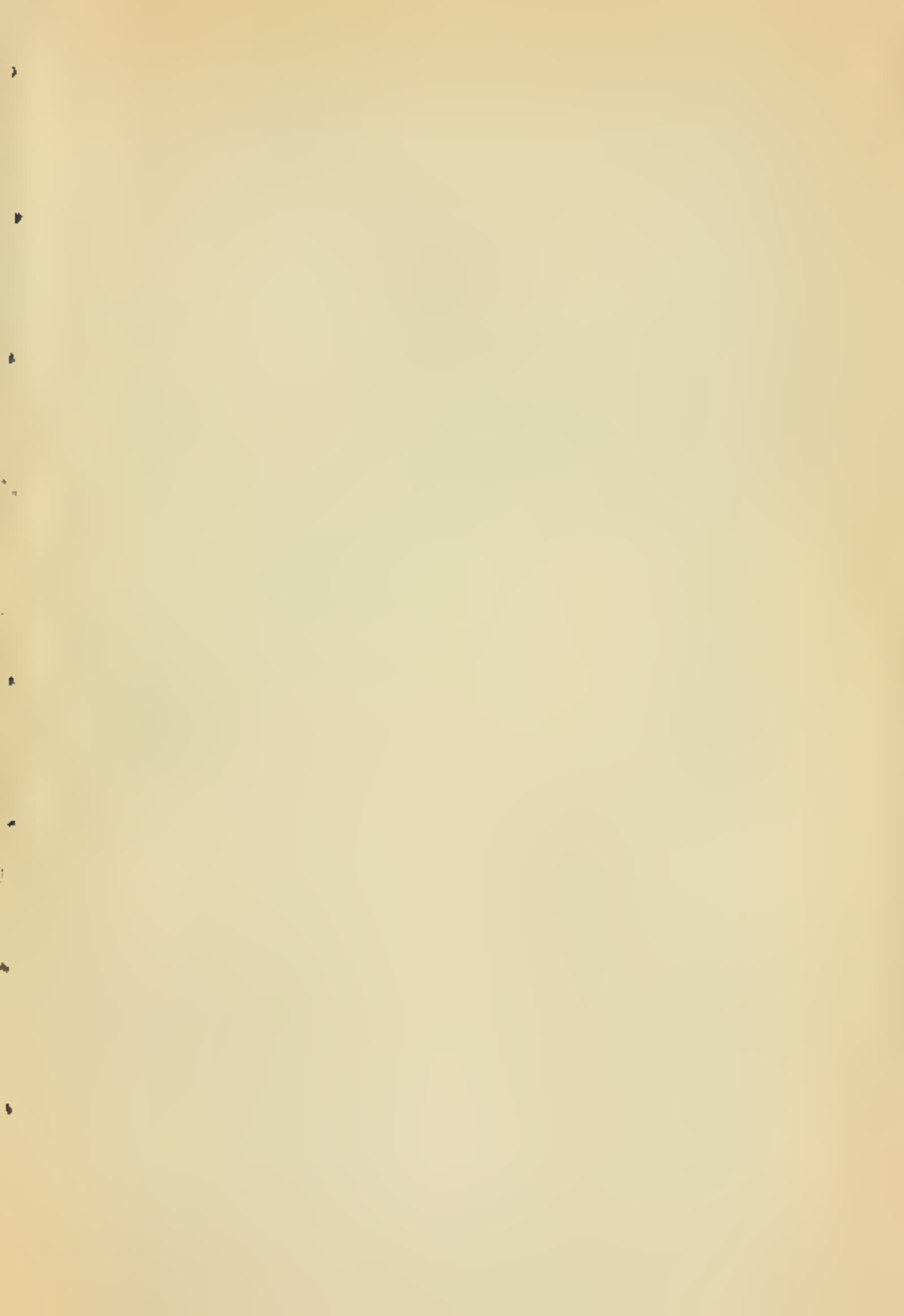
- Munier, J. - La Presse en Egypte (1799 -1900) Notes et Souvenirs
Caire 1930
- Nel, (Com) - La préparation de l'Expedition d'Egypte à Toulon. Le
départ de Bonaparte (5 mars- 20 mai 1798) Toulon 1933.
- Palary, P. - Les sources d'information concernant les savants et
artistes de l'Expédition d'Egypte. Bull de l'Inst d'Egypte XV
session 1932-3.
- Palon, A. A. - A History of the Egyptian Revolution. 2 vols.
London 1870
- Prétot, P. L. - Reconnaissance de l'isthme et du canal de Suez, par
le general Bonaparte, et etablisement des Français sous sa
conduite sur divers points de cette contrée en 1798 et 1799.
Paris 1860
- Ramadan, A. M. S. - Evolution de la Legislation sur la Presse en
Egypte. Alexandrie 1936.
- Régny - Bey - L'Ancien Institut d'Egypte, Son histoire, son organis-
ation économique, ses travaux. Bull de l'Inst. d' Eg 1866-69
No. 10 séance 24 mai 1867.
- Rigault, O. - Inventaire des états de services des officiers de
l'Armée d'Egypte. Paris 1911
- Roberts, S. H. - History of French Colonial Policy 1870-1925
2 vols London 1929
- Rose, J. H. - The Egyptian Expedition. Cambridge Mod. History VII.
594-619.
- Santoyant, J. - La Colonisation française Sous l'Ancien Régime.
2 vols. Paris 1929
- Thibaudeau. - Histoire de la Campagne D'Egypte sous le Règne de
Napoléon le Grand 2 vols. Paris 1839
- Sorel, A. - L'Europe et la Revolution Française t V. Paris 1885 -95
- Thiers, M. A. - Histoire du Consulat et de L'Empire Faisant suite
à L' Histoire de la Revolution Française. t II, III. Paris 1845
- Histoire de la Revolution française t X. Paris 1824-7
- Traiss, P. - Dominique Larrey et les campagnes de la Révolution et
de l'Empire, 1768-1842. Etude historique aux XVIII^e et XIX^e
Siècles d'après des documents inédits. Tours 1902
- Wadström, C. B. - Précis Sur l'établissement des Colonies de Sierra
Léone et Boulama. Paris 1798
- Weill G. - Le Journal Origines, Evolution et Rôle de la Presse
Périodique. Paris 1934
- Wilson, H. W. - The Struggle For the Mediterranean. Cambridge
Mod. History VIII 620 - 632

٨ - المراجع العربية

- إبراهيم حلال - من يوميات الجبرق - القاهرة ١٩٥٢
- إبراهيم عده (الدكتور) تاريخ الطاعة والصداقة في مصر خلال الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ . القاهرة ١٩١١ وطبعة ثانية ١٩٥٠
- تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ - ١٩٥١ . القاهرة ١٩٥١
- أحمد الليثي ومحمد علي السلاوي - فهرست المكتب العربي المملوكة ملكة حانة المديونية (خمسة أجزاء) - المطبعة الثانية بمصر ١٣٠٥ - ١٣٠٨ هجرية .
- اسماعيل سرهكك - حقائق الأحبار عن دول البحار (٣ أجزاء) بولاق مصر ١٣١٢ هـ ،
- خليل شديوب - عبد الرحمن الجبرق . القاهرة ١٩٤٨ .
- رفاعة رافع الطهطاوي - تخليص الإسرار في تلخيص بايزي . القاهرة ١٣٢٣ هجرية .
- عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم المطرق (الفصح) - غائب الآثار في التراجم والأخبار . القاهرة ١٣٢٢ هجرية .
- عبد الرحمن الرامس - تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (الجزء الأول والثاني) القاهرة ١٩٢٩ .
- علي مبارك - المخطط التوفيقية (عثرون جزءاً في خمسة مجلدات) بولاق ١٣٠٩ هجرية .
- فيليب دي طراي (السكوت) - تاريخ الصحافة العربية (٤ أجزاء) - بيروت ١٩١٣
- حمة التاريخ القبطي - المهرال بقوت واستقلال مصر . مطبعة التوفيق بمصر ١٩٣٥ .
- محمد شفيق عزال - المهرال بقوت وبنارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠٩ . القاهرة ١٩٣٢
- مصر عهد معتوق السرق . ١٧٩٨ - ١٨٠١ (المجلد الأول) ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة النوبادية كما شرحه حسين أمدي أحد أممية الروماني في عهد الحملة الفرنسية . (مجلة كلية الآداب المجلد الرابع الجزء الأول) القاهرة ١٩٣٦
- محمد مؤاد شكري (الدكتور) - الحملة لفرنسية وظهور محمد علي . القاهرة ١٩٤٢ .
- محمد مختار - التوقعات الإلهامية في مقارنة التواريخ المصرية بالسنين الأفريقية والهندية . بولاق ١٣١٩
- نقولا التركي (مسم) - ذكر تحقك جمهور فرنساوية الأعشار المصرية والبلاد الشامية طبع في مدينة بايزي الشخصية (١٨٣٩) .



٣ - خريطة معركة الأهرام في ٢١ يوليو ١٧٩٨ : مأخوذة من كتاب الكولونيل شارل لانغوا عن هذه المعركة -
 طبع باريس ١٨٥٣ . الرقم (١) لبيان مواقع أقسام جيش الفرنسيين المحلة الراحة لاحتراق قلب جيش المماليك ،
 وقت هجوم هؤلاء على الفرنسيين . الرقم (٢) لبيان مواقع هذه الأقسام نفسها ، وقت إحاطة المماليك بقسم الجنرالين
 دبره وربيه . الرقم (٣) لبيان مواقعها وقت هجوم قسم الجنرال بون على فرقة إمارة . الرقم (٤) لبيان مواقع
 أقسام جيش الفرنسيين وقت انتهاء المعركة .



Library of



Princeton University.



32101 072235219